د. حسن حنفي

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

من النقل إلى العقل

الجزء الثالث

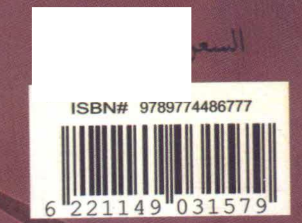
علم السيرة

(من الرسول إلى الرسالة)

"من الرسول إلى الرسالة" هو الجزء الثالث من "من النقل إلى العقل" محاولة لإعادة بناء علم السيرة.

يعرض أولا لتعريف علم السيرة، وتدوين السيرة، ثم ينتقل ثانيا إلى تأسيس الرسالة: جذورها، ونشأتها. ثم يعرض ثالثا بداية الرسالة: الإعلان عنها، وانتشارها. ثم يعرض رابعا نهاية الرسالة: اكتمالها، ومصيرها. ثم ينتقل خامسا إلى تشخيص الرسالة: انحرافها، شخص الرسول.

السعر





تصميم: أحمد اغا

د. حسن حنفي

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

الأعمال الكاملة

التنفيذ والطباعة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب

«الأعمال الكاملة» سلسلة تعنى بنشر
الثقافة الأدبية الرفيعة لكبار مبدعينا

تصدر عن الهيئة المصرية العامة
للكتاب - وزارة الثقافة

■ المراسلات باسم السيد رئيس التحرير - الهيئة المصرية العامة للكتاب - كورنيش النيل - القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ - ٢٥٧٧٥٢٢٨
Email: info@gebo.gov.eg

حنفى، حسن.
الأعمال الكاملة/ حسن حنفى. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
مج٣؛ ٢٤ سم. ـ (الأعمال الكاملة)
المحتويات: ج٣. من النقل إلى العقل. (القسم الثالث)
علم السيرة (من الرسول إلى الرسالة)
تدمك ٧ ٦٧٧ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الإسلام ـ مجموعات.
أ ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٤٠٥/ ٢٠١٣
I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 677 - 7
ديوى ٢١٠،٨

د. حسن حنفى

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

من النقل إلى العقل

الجزء الثالث

علم التفسير

من الرسول إلى الرسالة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٤

الإهداء..

إلى كل من يسهم في القضاء

على عبادة الأشخاص

حسن حنفي

القاهرة ١١ فبراير ٢٠١١

تصدير

نهاية المطاف للجبهة الأولى

«من النقل إلى العقل» هى محاولة لإعادة بناء العلوم النقلية الخمسة بعد أن تركها القدماء والمحدثون كما وضعها الأوائل مكتفين بوضعها تاركين للزمن تطويرها. وهى: علوم القرآن، علوم الحديث، علم التفسير، علم السيرة، علم الفقه بصرف النظر عن الترتيب. وهى العلوم السائدة فى الكليات الأزهرية والكليات الدينية والتى تخشى كليات الآداب عامة وأقسام الفلسفة خاصة الاقتراب منها. وهى الأقدر على دراستها خاصة وأنها كليات الآداب والعلوم الإنسانية.

وهى أكثر العلوم تأثيرا فى الحياة العامة والخاصة استشهادا بحجة القول «قال الله» و«قال الرسول» القائم على منهج الانتقاء، والانتزاع من السياق والاختيار وفقا للأهواء اعتمادا على سلطة النص منفصلاً عن سلطة العقل. فيتحول النص إلى مقدس، يدخل فى معارك التفسير والتأويل والتى تصل إلى حد التكفير. وتقوى جذور السلفية منذ أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب.

والسؤال بالنسبة لنا: لماذا تبقى هذه العلوم نقلية خالصة ولا تنضم على الأقل إلى مجموعة العلوم النقلية العقلية مثل الكلام والفلسفة وأصول الفقه والتصوف؟ لماذا لا يتم تحويلها إلى علوم إنسانية، فالقرآن علم النص، والحديث علم الرواية، والتفسير علم الهرمنيطيقا، والسيرة علم التاريخ، والفقه علم القانون؟ إن العقل أساس النقل. ومن قدح فى العقل فقد قدح فى النقل. النقل دون عقل يبقى ظنيا خالصا فى حين أنه بتأسيسه على العقل يصبح أقرب إلى اليقين. ولماذا ندافع عن العقلانية ولا نقضى على جذور اللاعقلانية من تراثنا القديم أى من ثقافتنا الشعبية بعد أن تحولت أجزاء فيه إلى أمثال عامية؟ وهل تنجح المشاريع العربية المعاصرة مثل «نقد العقل العربى» فى إرساء قواعد العقلانية فى أرض ثقافتها نقلية؟ وهل تنجح عقلانية عربية مستمدة من العقلانية الغربية العلمية أو الرياضية ومقلدة لها والعقلية العربية مغروزة فى العلوم النقلية؟

ولماذا تظل العلوم الإسلامية القديمة ثابتة فى لحظة تاريخية واحدة، لا تتطور والزمن يتغير؟ إن العلوم جزء من الثقافة. والثقافة تتغير بتغير العصور والأزمان. العلوم مثل الفلسفات والفنون جزء من تصورات العالم التى تعبر عن تطور الوعى الإنسانى.

إن أخطر ما يهدد العلم نزعتان متناقضتان: القطعية والشك. الأولى تجزم باليقين المطلق الثابت الذى لا يتغير حتى لو عارضت اليقين العقلى أو اليقين الحسى. والثانية الشك فى كل شىء وعدم التسليم بشىء حتى لو كان البداهة العقلية أو الحسية. وهما النزعتان اللتان تؤديان إلى الإثبات المطلق أو الرفض المطلق. وقد تكون مرحلتين متاليتين. البداية بالقطعية والنهاية أو البداية الثانية بالشك. هكذا كان الحال فى الغرب عندما بدأ بالقطعية عند بوسويه وليبنتز، وكانت البداية الثانية بالشك عند ديكارت فى القرن السابع عشر. ويكفينا نحن أن نتساءل دون إصدار حكم. ونترك إصدار الأحكام إلى الأجيال القادمة. والتساؤل جزء من ثقافتنا داخل فى قلب النص ويسألونك عن..... سماه ياسبرز الفلسفة «التساؤلية». وكانت الأسئلة قديما من وحى عصرها: المحيض، الإنفاق، الخمر والميسر، الأهلة، الشهر الحرام، اليتامى، الجبال، الروح، ماذا ينفقون. ونسأل نحن فى هذا العصر عن الاستبداد، والقهر، وحقوق الإنسان، والفقر، والظلم، والاستعمار، والصهيونية، والعولمة، والأحكام تتغير وتتبدل فيما عرف باسم الناسخ والمنسوخ طبقا لتغير الأزمان. فالأحكام الشرعية تسير وفقا للمصالح العامة.

لقد آن الأوان أن نبدأ الإصلاح من الجذور بدلا من أن نبدأه منذ قرنين من الزمان ويكبو جيلا وراء جيل حتى نحصل على ثورة دائمة بدلا من مجرد الطموح إليها ولا تأتى بل تكبو. إذ أنها تبدأ عاجزة. لذلك أصبح التقدم لدينا دائريا أو متجها إلى الخلف وليس متجها إلى الأمام. ونؤجل معركته خوفا من الصدام مع معوقاته. وفى نفس الوقت نعجب بمفهوم التقدم المستمر إلى الأمام فى الغرب الذى دخل معاركه وانتصر فيها.

لقد ظهر الجزء الأول من «النقل إلى العقل» عن «علوم القرآن»، والجزء الثانى عن «علم الحديث» فى بيروت ٢٠١٠ لما عرفت عنه من شجاعة فكرية وحرية رأى. ويبدو أنه لا عاصمة عربية تعلو على القاهرة التى احتضنت الأجزاء الخمسة: القرآن، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه كمقدمة للطبعة الثمانينية لأحد مفكريها. تتلوها «من النص إلى الواقع» فى علم أصول الفقه ثم «من الفناء إلى البقاء» فى علوم التصوف ثم «محمد إقبال». وعسى أن يطول الأجل لإتمام باقى الأجزاء وآخرها الجبهة الثالثة «الموقف من الواقع» أو «نظرية التفسير». وتظل الهيئة العامة للكتاب الأمينة على حرية الرأى منذ بولاق حتى الضفة الأخرى كورنيش النيل. وحاضنة لمفكريها الأحرار بالرغم مما يبدو عليها من كبوات وقتية سرعان ما تنهض بعدها لتستأنف تاريخها.

حسن حنفى

مدينة نصر ٣٠/ ٦/ ٢٠١٣

مقدمـة[1]

من نقد السند والمتن إلى الرسول والرسالة

وكما جرت العادة في النقد الذاتي، من مؤلف إلى آخر، من أجل التعلم المستمر، ولمزيد من الإحكام وطلب الكمال فإنه يمكن الإشارة إلى النقاط الآتية في النقد الذاتي لعلوم الحديث:

١ - بالرغم من أهمية الكشف عن نصوص القدماء وبنية العلم القديمة إلا أن تحليلها كان في صلب الصفحة وليس في الهامش. لذلك تجاوز هذا الجزء تحليل المؤلفات في الموضوع الكلي أو في الموضوعات الجزئية والاستغراق في عرضها، بنية وشواهد ولغة، كما وكيفا. وتجاوز العرض إلى التأليف كمقدمة للإبداع[2]. فالغوص في مؤلفات القدماء يطغى على نقدهم وتجاوزهم إلى تحليل المحدثين. ويبدو عليه الطابع المدرسي التجميعي وليس طابع الأستاذ المبدع. وبالتالي تم استبعاد «التأليف في الموضوع»، وترتيب المؤلفات زمانيا لمعرفة تطور التأليف في العلم ومساره، وأنه لم يبق على نمط واحد، وكيف يغير هذا التأليف الجديد مسار العلم[3]. وحتى لا تبدو السيرة قافزة من الأهواء فقد تم تخصيص الفصل الثاني من الباب الأول «علم السيرة» للموضوع «تدوين السيرة»، والفصل الأول من الباب الخامس «تشخيص الرسالة» لموضوع «انحراف الرسالة».

---

(١) هذا هو الجزء الثالث من «النقل إلى العقل» بعد الجزء الأول «علوم القرآن»، والجزء الثاني «علوم الحديث» اللذين صدرا فى دار الأمير فى بيروت ٢٠٠٩-٢٠١٠ .

(٢) من النقل إلى الإبداع مجـ٢، جـ٣.

(٣) استعمل هوسرل هذه الطريقة في «المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي»، تأويل الظاهريات ص٦٩-٧٦، علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، حصار الزمن جـ٣، الماضي والمستقبل(علوم) ص٥٣-١٦٥.

٢- عدم استعمال آليات التخفي إلا بحساب ومن ضمنها الغوص في تحليلات القدماء وظهور الجديد بين الحين والآخر ثم العودة من جديد إلى القديم كي يشرأب الجديد برأسه بين الحين والآخر وهو غاطس في الماء أو كمن يسير مغطيا وجهه ثم يزيح النقاب عنه بين الحين والآخر ثم يعود إليه. فالطريقة القديمة تجعل التحليل أقرب إلى القديم منه إلى الجديد. وقد تبعد القارئ غير المتخصص عنه لأنه لا يجد فيه ما ينشده في عصر طغى فيه الإعلام على البحث العلمي، وأصبح منبرا لنشر الأفكار الجديدة وإثارة الرأي العام وليس لتقدم البحث العلمي. صحيح أن مشروع «التراث والتجديد» له حضوره في الأوساط العلمية ولكن ليس له تأثيره على الجمهور. وصحيح أيضا أن المقالات الأسبوعية في الثقافة السياسية حاولت إكمال هذا النقص ولكنها في النهاية لقطات وقتية على الواقع مثل عشرات اللقطات الأخرى من اتجاهات مختلفة[1]. ولم يحن الوقت بعد للكشف عن القناع والتخلي عن آليات التخفي نظرا لطغيان محاكم التفتيش وموجات التكفير بعد انحسار العصر الليبرالي والفكر الحر. ومازال الذكاء الديكارتي في حالتنا الراهنة أفضل من الصراحة الاسبينوزية. فلم يكن جاليليو بعيدا عن الأذهان. ومازال حيا في الذاكرة.

٣- لما كانت العلوم النقلية في حاجة إلى إعادة بناء جذري، وهز من الأساس فإن مزيدا من الإعلان وقليلا من التخفي قد يؤدي هذا الغرض. وإذا كانت علوم القرآن وعلوم الحديث تتعلق بمصدري الوحي الأساسيين، «الكتاب والسنة»، فإن علوم السيرة أقل لأنها تتعامل مع الحامل دون المحمول، مع الرسول وليس الرسالة، مع التاريخ وليس الوحي. ويسلم الجميع الآن بأن كثيرا من الأساطير قد دخلت فيها من الإسرائيليات ومن غيرها، ومن الخيال الشعبي ونظم الحكم التي أخرجت الاحتفال بالمولد النبوي منذ الدولة الفاطمية لأسباب دينية، التحول إلى المذهب الشيعي، وأسباب سياسية، الطاعة لأولي الأمر، وكثيرا من الأساطير حول حياة الرسول قبل

(١) من ذلك في الآونة الأخيرة: نظرية الدوائر الثلاث (جزءان)، دار العين، القاهرة ٢٠٠٨، وطن بلا صاحب، عرب هذا الزمان، المركز الثقافي، دمشق ٢٠٠٨، الوحي والواقع (تحليل المضمون)، المركز الثقافي، دمشق ٢٠١٠.

الرسالة وبعدها حتى لا يقل روعة وحضورًا عن أنبياء بني إسرائيل، خاصة موسى وعيسى. وقد حاولت بعض السير المعاصرة ذلك بحياء شديد. ونسيها الناس، ولم تؤثر في مسار العلم لغلبة طابعها الأدبي أو السياسي أو الإنساني[1]. ومع ذلك نظرًا لتحول الرسول في الدين الشعبي إلى مقدس لا يمكن التعامل معه إلا تحت مقولة المقدس فإنه يصعب إخراجه منها إلا عن طريق نقد الروايات: فالروايات عمل إنساني حتى ولو كان الموضوع مقدسا. فالمقدس يُنقل من خلال الدنيوي.

٤- مشروع «التراث والتجديد» هو جمع بين الماضي والحاضر، بين القديم والجديد، بين الأصالة والمعاصرة. يبين كيف يخرج الجديد من القديم بهمّ العصر وفعل الزمن. ولا توجد معادلة حسابية مثالية للجمع بين الاثنين. لا يوجد ميزان من ذهب. قد يأتي البحث أقرب إلى القديم منه إلى الجديد، وذلك للحفر في الجذور. وكلما كان الحفر عميقا كانت إمكانية ظهور الماء بلغة القدماء أو النفط بلغة المحدثين أكبر[2]. التراث وحده لا يفيد، وتكرار لما قام به القدماء، وعرض لإنجازاتهم واجتهاداتهم في عصرهم. والتجديد وحده مكانه مقال يعتمد على الفكر وحده دون ما حاجة إلى غرز، ولتوسيع قاعدة القراء غير المتخصصين[3]. واللغة الأدبية الشعرية لا تكفي؛ لأنها تجديد في

(١) الأدبي عند محمد حسين هيكل وطه حسين في «على هامش السيرة» و«في منزل الوحي»، والعقاد في «عبقرية محمد»، والسياسي عند عبد الرحمن الشرقاوي في «محمد رسول الحرية»، والإنساني عند نظمي لوقا في «محمد، الرسالة والرسول». وقد حاول أحد المستشرقين الهولنديين أنتوني فيسلز Anthony Wessels تتبع صور أربعه منها في أربع سير معاصرة.

(٢) تضخم التراث حتى أصبح جزءا من جزأين في «من النص إلى الواقع»، الجزء الأول «تكوين النص» كما تضخم في «من الفناء إلى البقاء» حتى شمل الجزء الأول «الوعي الموضوعي» وكان مجرد مقدمة في «من العقيدة إلى الثورة» في المقدمات النظرية، الفصل الثاني «تطور العلم». وأصبح طاغيا تماما في «من النقل إلى الإبداع» في أجزائه التسعة لبيان كيفية خروج الإبداع من النقل عن طريق تحليل المضمون.

(٣) وقد تم ذلك في «قضايا معاصرة» «الجزء الأول» في فكرنا المعاصر، «دراسات إسلامية»، «دراسات فلسفية»، «هموم الفكر والوطن»، جزءان: الأول «التراث والعصر والحداثة»، والثاني «في الفكر العربي المعاصر»، حصار الزمن، ثلاثة أجزاء الأول إشكالات، والثاني «الحاضر»، والثالث «علوم الماضي والمستقبل». وكذلك دراستنا بالإنجليزية:

Islam in the modern world (2 vols) I، Religion Ideology and Development، II، Religion، Revolution and Cultures and Civilizations، in Conflict or Dialogue? (2 Vols) I- The Meridian Thought II- Cultural Creativity and Religious Dialogue.

الأسلوب وليس في التصورات كما تفعل بعض السير الأدبية المعاصرة بالرغم من ذيوع مناهج النقد التاريخي إما من آثار القدماء، علم الرواية، وإما عن المحدثين، النقد التاريخي للكتب المقدسة[1].

وكما تمت صياغة الحدس الأول في «علوم القرآن» من المحمول إلى الحامل في «الوحي والواقع»، دراسة في أسباب النزول[2]، وتمت صياغة الحدس الأول في علوم الحديث في «من نقد السند إلى نقد المتن»[3]، كذلك تمت صياغة الحدس الأول في «علم السيرة، من الرسول إلى الرسالة» في «محمد» الشخص أم المبدأ؟[4]. فهم إعادة بناء العلوم النقلية هم قديم مواز لهم بناء العلوم النقلية العقلية الأربعة، الكلام والفلسفة والتصوف والأصول. وهو ما قد تم من قبل[5]. وكل شيء في أوانه[6]. والباعث على بقاء هذا الهم هو عبادة الأشخاص في حياتنا السياسية والاجتماعية، المجتمع البطرياركي، مجتمع «سي السيد». وهي طريقة التعامل مع الرسول بعد أن طغى على الرسالة في «علوم السيرة» وتحول محور السيرة من الرسالة إلى الرسول.

الجزء الثالث من النقل إلى العقل «علوم السيرة، من الرسول إلى الرسالة»، يدخل ضمن سير الإصلاحيين والمجددين في العصر الحديث، واستكمالا لجهود جبران وطه حسين وهيكل والعقاد ونظمي لوقا والشرقاوي وخلف الله وغيرهم. وليست بدعا بين السير، ولا هرطقة بالنسبة للقدماء. فالمحدثون مع القدماء يكوّنون التراث الإسلامي. ومازالت هموم العصر مطردة منذ قرنين من الزمان حتى الآن.

---

(١) انظر دراستنا: على هامش السيرة (لطه حسين)، حصار الزمن، جـ٢ الحاضر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤ ص١٩٧-٢٢١.

(٢) هموم الفكر والوطن جـ١، التراث والعصر والحداثة ص١٧-٥٦.

(٣) حصار الزمن جـ٣ الماضي والمستقبل(علوم) ص٥٣-١٦٥.

(٤) الدين والثورة في مصر جـ٧ اليمين واليسار في الفكر الديني ص١٦٣-١٦٧.

(٥) أ- «من العقيدة إلى الثورة» (خمسة أجزاء) جـ١، مدبولي، القاهرة ١٩٨٧-١٩٨٨» ب- من النقل إلى الإبداع(تسعة أجزاء) طـ١، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠-٢٠٠٢، جـ- من النص إلى الواقع (جزءان) ط/ ١، مركز الكتاب للنشر القاهرة ٢٠٠٥، د- من الفناء إلى البقاء(جزءان) ط/ ١ دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٩.

(٦) صدر من قبل أ- «علوم القرآن»، من المحمول إلى الحامل، دار الأمير، بيروت٢٠٠٩. ب- علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

الباب الأول

علم السيرة

الفصل الأول

تعريف السيرة

١ - السيرة كعلم نقلي

علوم السيرة هو الجزء الرابع من العلوم النقلية طبقا لترتيبها المنطقي. أولا علوم القرآن باعتبار أن الوحي هو المصدر الأول للعلم من المحمول إلى الحامل. ثانيا علوم الحديث باعتبار أن الحديث هو المصدر الثاني للعلم وكيفية تحويله من نقد السند إلى نقد المتن. ثالثا علوم التفسير وكيفية فهمه من التفسير الطولي إلى التفسير العرضي، رابعا علوم السيرة عودا إلى المصدر الثاني وكيفية تصحيح مساره من الرسول إلى الرسالة. خامسا علوم الفقه باعتبارها تقنينا للسلوك اعتمادا على المصدرين الأولين، وكيفية قلب الأولوية من العبادات إلى المعاملات. ومع ذلك هو الجزء الثالث أيضا باعتبارها أول تشخيص للحديث وتركيزه حول مصدره وهو الرسول[1].

وعلوم السيرة أصغر العلوم من حيث الكم. كما أن علوم التفسير أكبرها، وعلوم الفقه بينهما، أكبر من السيرة وأصغر من التفسير. وعلوم القرآن أكبر من علم السيرة وأقرب إليها. وعلوم الفقه أقرب إلى علم التفسير من حيث الكم. علوم السيرة أصغر لأنها تدور حول موضوع واحد هو سيرة الرسول وإن تم تشعيبها بعد ذلك في أخلاقه

(١) بالإضافة إلى ذلك خرجت علوم السيرة، الجزء الرابع قبل علوم التفسير، الجزء الثالث، لأنني بدأتها في ألمانيا، أستاذا زائرا بجامعة فرانكفورت في الفصل الصيفي ٢٠٠٩، ولم أستطع حمل مصادر علوم التفسير لأنها ضخمة لا يتحملها وزن الطائرة. فأحضرت بعض مصادر علوم السيرة، ابن هشام والبستي وابن خلدون التي يسهل حملها.

وشمائله ومعجزاته وصحابته وخلفائه. في حين أن علم الحديث يتضمن موضوعين نقد السند ونقد المتن، وعلوم القرآن تتضمن ثلاثة موضوعات الحوامل الموضوعية وهي المكان والزمان والبيئة الاجتماعية، والحوامل الموضوعية الذاتية وهي الرواية أي التاريخ، والحوامل الذاتية وهي اللغة، القراءة والتفسير والفهم. وقد تضخمت علوم التفسير نظرا لأنها تفسير لكل سور القرآن وآياته من الفاتحة إلى الناس. كما تضخم الفقه لأنه عبادات ومعاملات ومذاهب في أدق التفصيلات والخلافات حولها. يمكن السيطرة إذن على علم السيرة من حيث الكم وإن تعددت المؤلفات حول محوريه الرئيسيين، الرسالة والرسول.

وتتأرجح السيرة بين تسميتها علما بالمفرد أم علوما بالجمع مثل الحديث والتفسير والفقه. إنما القرآن فقط هو العلوم بالجمع، علم القراءة وعلم التدوين على الأقل. ونظرا لأن السيرة مركبة من عدة علوم، التاريخ والقرآن والحديث واللغة، فإنها ظلت علوما بالجمع مثل علوم القرآن وعلوم الحديث مع أنها يمكن أن تكون مفردا، علم السيرة. بل يمكن إسقاط اللفظ كلية مفردا أو جمعا ويظل موضوع العلم، الحديث، التفسير، السيرة، الفقه باستثناء القرآن الذي وصفه القدماء بأنه علوم. ونظرا لاعتماد السيرة على علوم القرآن والحديث والفقه بل والتفسير فإنه يمكن أن يُطلق عليها لفظ «علوم» بالجمع. وقد دخلت فيها علوم فرعية أخرى مثل علم الأخلاق وعلم الكلام،أو التصوف والأخلاق للفضائل، والكلام للعقائد.

وهي علوم قديمة نشأت منذ القرن الثاني الهجري. فأقدمها سيرة ابن إسحق (١٥٢هـ)، وسيرة ابن هشام (٢١٣/٢١٨هـ). ومازال التأليف فيها مستمرا من القدماء حتى ابن كثير (٧٧٤هـ) أو المحدثين «حياة محمد» و«في مُنزل الوحي» لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م) و«على هامش السيرة» لطه حسين (١٩٧٣م) و«محمد رسول الحرية» لعبد الرحمن الشرقاوي (١٩٨٧م). ومازال التأليف في السيرة مستمرا حبا في الرسول وإعجابا به، وتعبيرا عن صدق إيمان المؤلف والمغالاة في معجزاته. بل قد ساهم المسيحيون في ذلك، فالرسول قائد وزعيم أمة بصرف النظر عما يدعو إليه مثل «محمد، الرسالة والرسول» لنظمي لوقا (١٩٨٧م).

وقد تم التأليف في السيرة في نفس الوقت الذي تم التأليف فيه في القرآن ثم أتى الحديث بعد ذلك خوفا من اختلاطه بالقرآن. وكان الدافع عليه هو التاريخ. لذلك

عكست مناهج المؤرخين في الرصد والتسجيل والإخبار وإعطاء المعلومات، ومناهج المحدثين في السند والرواية. فالتخوم بين العلوم النقلية الخمسة غير واضحة، بل متداخلة يصعب التمييز بينها إلا من حيث القلب دون الأطراف.

٢- السيرة وعلم التاريخ

السيرة جزء من علم التاريخ[1]. ساهم فيها المؤرخون أولا قبل أن يتخصص فيها علماء السيرة. لذلك يغلب عليها رصد الحوادث والأسماء. وأحيانا يتحول التاريخ إلى مجرد رصد دون دلالات لا على التاريخ العام ولا على تاريخ السيرة. أحيانا يتحول التاريخ إلى تاريخ صرف دون أي دلالة على حياة محمد. وتعود السيرة إلى أصلها في علم التاريخ. ويتحول التاريخ إلى نزعة تاريخية[2]. لذلك يطغى التاريخ على السيرة. وتتوه السيرة داخل التاريخ. ولا تتركز على شخص الرسول بل على الأحداث التي عاشها الرسول، والسيرة وسطها. وأحيانا تترك السيرة إلى التاريخ، ويترك الفرع إلى الأصل. ويتم التذكير بذلك[3].

وأحيانا تنفصل أجزاء السيرة عن كتب التاريخ[4]. مثل «الثقات» للبستي (٣٥٤هـ) و«المعتبر» لابن خلدون(٨٠٨هـ) وخلاصة ابن كثير(٧٧٤هـ). ليس المقصود السيرة في حد ذاتها. فالسيرة جزء من تاريخ العرب. أصبحت تاريخا أكثر منها سيرة. ليس لها أول محدد بل أول مقطوع مثل البداية بالأوس والخزرج في سيرة ابن خلدون[5]. له مصادره التاريخية مثل المسعودي والطبري والسهيلي ويأخذ اقتباسات منهم[6]. فالتاريخ مصدر

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٥٨٦، شهداء بدر، البستي جـ١/ ١٨٥-٢٠٩، رصد أسماء الأوس والخزرج، ابن خلدون ص٢٠-٢١.

(٢) نزعة تاريخية Historicism، ابن هشام جـ١ ص٣٩-٥٥/ ٦٣/ ٩٤/ ١٠٣/ ١٦١.

(٣) رصد الأسماء، السابق جـ٢/ ٥-٩، أولاد عبد المطلب بن هاشم جـ١/ ١١٩، رصد أسماء من هاجر إلى الحبشة/ جـ١/ ٣٠١-٣٠٨ أول مرة، رصد الأنساب، السابق جـ٢/ ١٠٣-١١٨، رصد حفر الآبار جـ١/ ١٥٢-١٥٥.

(٤) «حديث الفجار أطول مما ذكرت وإنما منعني من استقصائه قطعه حديث رسول الله»، السابق جـ١/ ٨٦.

(٥) ابن خلدون، البستي جـ١.

(٦) ابن خلدون ص١٥ - ١٦/ ٦٤-٦٥/ ٧١/ ٨٦.

للسيرة. ولفظ «السيرة» من لفظ السير في «السير والمغازي». فسيرة الرسول جزء من علم السيرة. وأسماء كتب السيرة هي أسماء كتاب التاريخ [1]. وكثير من أخبار وروايات كتب التاريخ لا مصادر لها[2].

وترصد أسماء المسلمين والشهداء والمهاجرين والمقاتلين والأنصار والمبايعين والمستهزئين بالرسول ومن وزع عليهم الغنائم، وأسماء الأنساب والأولاد وأسماء الوفود والنقباء، كما ترصد أسماء أفراس المسلمين وخيلهم. وترصد أسماء الأسرى من قريش يوم بدر وقتلاهم، ومقاسم خيبر وأموالها والمطعمون من قريش، وتذكر مساجد الرسول كما تُذكر أسماء الآبار. ويختلط الأحياء بالأموات، المنتصرون بالمنهزمين، المؤمنون بالكفار، المهاجرون بالأنصار، المقاتلون بالآبار، البشر والحيوان[3]. فتتحول السيرة إلى أرشيف وسجلات. والكل معلومات. والمعلومات للتدوين والحفظ. ومنها دونت الدواوين[4].

---

(١) السابق ص١٤٨.

(٢) السابق ص١٦.

(٣) ابن هشام جـ٢/ ٥-١٠(٣) مقاسم خيبر وأموالها جـ٢/ ٢٩٦-٢٩٩، مهاجرة الحبشة الذين قدم بها عمرو ابن أمية جـ٢/ ٣٠٤-٣١٣، شهداء مؤتة جـ٢/ ٣٢٩-٣٣٠،أسماء من أمر الرسول بقتلهم وسبب ذلك جـ٢/ ٣٤٧-٣٤٨، أسماء من ثبت مع الرسول في هوزان جـ٢/ ٣٧٥، تسمية من استشهد يوم حنين، جـ٢/ ٣٨٨-٣٨٩. شهداء المسلمين يوم الطائف ٤١٢-٤١٣، المبايعون الذين وزعت عليهم غنائم حنين جـ٢/ ٤١٩-٤٢٠. أسماء بناته، مسجد الضراء، جـ٢/ ٤٤٩. أسماء مساجد الرسول فيما بين المدينة وتبوك، جـ٢/ ٤٤٩-٤٥٠(٢) قدوم الوفود، جـ٢/ ٤٧٣-٥٠٦.

(٤) رصد من عاد من أرض الحبشة كما بلغهم إسلام أهل مكة، ابن هشام جـ١/ ٣٣٦-٣٤١، أسماء المستهزئين بالرسول، جـ١/ ٣٧٤-٣٧٥، أسماء الرهط الخزرجيين الذين التقوا بالرسول عند العقبة جـ١/ ٣٩١-٣٩٢، رجال العقبة الأولى جـ١/ ٣٩٢-٣٩٤، أسماء النقباء الاثنى عشر في العقبة الثانية جـ١/ ٤٠٣-٤٠٤، أسماء من شهد العقبة جـ١/ ٤١٢-٤٢٣، أسماء المهاجرين إلى المدينة جـ١/ ٤٢٤-٤٣١، منازل المهاجرين بالمدينة جـ١/ ٤٣٢-٤٣٤، الأعداء اليهود جـ٤٦٢-٤٦٤/ ٤٦٧-٤٧٥، المطعمون من قريش، أسماء خيل المسلمين يوم بدر، جـ١/ ٥٨٥-٥٨٧، من حضر بدرا من المسلمين جـ١/ ٥٩٦-٦٠٣، الأنصار ومن معهم جـ١/ ٦٠٣-٦٢١، من استشهد من المسلمين يوم بدر جـ١/ ٦٢١-٦٢٣، من قتل ببدر من المشركين جـ١/ ٦٢٣-٦٢٩، جـ١/ ٦٢٨، أسرى قريش يوم بدر جـ٢/ ٥-٩، من استشهد بأحد من المهاجرين جـ٢/ ١٠٤-١٤٦، شهداء يوم الخندق جـ٢/ ٢١٥-٢١٦(١)، شهداء المسلمين بني قريظة جـ٥/ ٢١٦-٢١٧، أسماء أفراس المسلمين جـ٢/ ٢٤٣(٣)، القتلى من المشركين جـ٢/ ٢٤٣، شهداء خيبر من بني أمية جـ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

وهو تاريخ يعتمد على الروايات، روايات ابن إسحق وروايات ابن هشام. هو تاريخ من خلال الرواية وليس من خلال المشاهدة العيانية أو من خلال تحليل الروايات واستنباط مضمونها. هو تاريخ رؤية الرواة دون نقدها من أجل الوصول إلى الوقائع التاريخية الموضوعية. وهو التاريخ الذي حاول ابن خلدون الخروج عنه، والكشف فيه عن أغلاط المؤرخين الذين يعتمدون في مصادرهم على الروايات غير المحققة، والاتجاه إلى المشاهدة والواقع العياني، ومحاولة التنظير المباشر. هو التاريخ المرئي وليس المروي. في كل فقرة: «قال ابن إسحق» أو«قال ابن هشام». لا يوجد تاريخ خارج القول. فهو تاريخ ذاتي وليس تاريخا موضوعيا. التاريخ ليس مشاهدة أو رصدا بل روايات وأخبار. ولفظ «أخبار» هو المستعمل في علم الحديث وأصول الفقه للدلالة على نقل الحديث وروايته. وتبدأ معظم الفقرات بعبارتي «يقول ابن هشام»، «يقول ابن إسحق»[1]. والتاريخ المروي ليس هو التاريخ المرئي الموضوعي بل هو التاريخ الحي الشعوري كما يعيشه الناس عبر تراثهم الطويل، تاريخ إبراهيم وإسماعيل في مكة. ولا يوجد عند المؤرخين جهد للتحقق من صدق الروايات خاصة من المؤرخين الذين يبدأون كتبهم بالكشف عن أغلاط المؤرخين كابن خلدون. وتصبح السيرة أسطورية طالما أن مصادرها التاريخية أسطورية[2].

وتتعدد الروايات في الخبر الواحد دون محاولة التوفيق بينها، وذكرها على ما هي عليه مثل رواية حفر زمزم. فهناك روايتان. كلتاهما مملوءتان بالأساطير، الشيطان في الأولى، والغزالان من ذهب في الحفرة في الثانية[3]. ولكل رواية مصدرها. والروايتان

---

(١) «فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم»، ابن هشام جـ١/ ٣٢٢، جـ١/ ٧١، البستي جـ١/ ٢٧-٣٢.

(٢) ابن خلدون: السيرة النبوية ص٥٧.

(٣) الأولى: رأي عبد المطلب أن يؤمر بحفر طيبة ثم ذهب. ثم عاد مرة ثانية بأمره بحفر برّة وذهب. ثم عاد مرة ثالثة وأمر بحفر المضنونة وذهب. ثم عاد مرة رابعة وأمره بحفر زمزم. واختصمته قريش في ولاية البئر. واحتكم الطرفان إلى كاهنة بني سعد في الطريق إلى الشام. فنفد الماء. واقترح عبد المطلب أن يحفر كل رجل بئرا ليشرب منها. وإن هلك قبل ظهور الماء يُوارى فيه. ولم يظهر الماء فارتحل الركب. ثم انبثق الماء من تحت راحلة عبد المطلب فأنقذوا بعد أن شرب منها الجميع. والثانية افتراض قريش أن تكون الرؤية من الشيطان إن لم تعين مكان الحفر. فلما عُين البئر عن قرية النمل، ابن هشام جـ١/ ١٤٨-١٥٠.

عن علي بن أبي طالب. ويستحيل أن يروي علي روايتين مختلفتين. إنما القصد هو إسناد الرواية إلى مصدر موثوق وهو عليّ. وكل رواية بها إخراج مسرحي. الأولى الأمر بحفرها أربع مرات متتالية مع تغيير اسم البئر. وكان اسم زمزم في المرة الرابعة. والثانية افتراض قريش أن تكون الرؤية من الشيطان لأن المكان لم يُعين. وعيّنه الغراب بنقره. فلما خاصمته قريش ضرب بالقداح. وللكعبة قرطان أصفران ولعبد المطلب قرطان أسودان، ولقريش قرطان أبيضان. وضربت القداح فخرجت على عليّ.

وتتعدد الروايات في حمل آمنة ومنها ما لا يليق بأب الرسول[1]. وكذلك تتعدد الروايات في إسلام عمر. وكان إسلامه فاتحة خير على المسلمين. فبفضله تحولت الدعوة من سرية إلى علنية، من الفترة المكية إلى الفترة المدنية. وكان الرسول دائما يدعو أن يُنصر الإسلام بإسلام عمر أو بإسلام حمزة. وكلاهما كان ذا شكيمة في قريش. وبفضل إسلام عمر بدأ المسلمون يصلون عند الكعبة. كان إسلامه فتحا، وهجرته نصرا. وكان معروفا بشدته وأنه لن يسلم حتى يسلم حماره[2].

وهناك أحداث مباشرة دون رواية أو ذكر أو قصة أو خبر وكأن الحدث يتحدث عن نفسه دون رؤية أو إدراك ذاتي[3]. ولسير المؤرخين أسلوب واضح. فالسيرة ليست

---

(١) تعرضت امرأة لعبد الله وطلبته لنفسها وتعطيه مائة ناقة كتلك التي دفعها فداء لنفسه، فأبى لوجوده مع أبيه. وفي رواية أخرى دخل عبد الله على امرأة كانت عند آمنة بعد أن غسل نفسه وتوضأ من الطين ودعاها إلى نفسه فلما تباطأت ذهب إلى آمنة فأصابها فحملت بمُحمد. ثم مر بالمرأة الأولى ودعاها لنفسه فأبت قائلة «لا، مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت علي ودخلت على آمنة فذهبت معها»، ابن هشام جـ١/ ١٦٠.

(٢) وفي إسلامه روايتان: الأولى خرج عمر متوشحا سيفه قاصدا الرسول. وكانت أخته فاطمة وزوجها سعيد قد أسلما من قبل مع رجال من قومه لأن محمدا صبأ «فرق أمر قريش وسفه أحلامها. وعاب دينها، وسب آلهتها». فاعترضه أحدهم بأن الأولى به أن يمنع الإسلام من بيته. فعاد عمر إلى أخته وزوجها وسمع قراءة للقرآن فضربها. ثم رق لأخته وطلب قراءة ما في الصحيفة بعد أن تطهر فقرأ سورة ﴿طه﴾ وعاد إلى الرسول وخشي من في الدار، وأذن له الرسول بالدخول، وأسلم، وكبر الرسول. ورواية أخرى بها الصلاة في الكعبة، وتجار الخمر في مكة، وصلاة الرسول بالكعبة، ومتابعة عمر له بالسيف، وهداية الله له «لقد هداك الله يا عمر»، ابن هشام جـ١/ ٣١٨-٣٢٥.

(٣) وذلك مثل استيلاء أبي كرب تبان أسعد على ملك اليمن وغزوه إلى يثرب، ابن هشام جـ١/ ٤٠-٤٩، وثوب لخنيعة ذي شناتر على ملك اليمن جـ١/ ٤٩-٥١، غلب أبرهة الأشرم على أمر اليمن وقتل أرياط جـ١/ ٦٠-٦١. خروج سيف بن ذي يزن وملك وهرز على اليمن جـ١/ ٧٨-٨٣. أولاد عبد المطلب بن

عملا لاهوتيا ولا فلسفيا ولا صوفيا ولا فقهيا بل هي تاريخ إخباري خالص، خال من التأويل والتنظير والتوجيه الفكري.

٣- السيرة وعلوم القرآن والحديث

والسيرة مصدر كبير لعلوم القرآن خاصة «أسباب النزول». فالحوارات التي جرت في حياة الرسول هي أسباب النزول، والآيات نزلت في مواقف في حياة الرسول. والسؤال يدور حول: هل السيرة مصدر للقرآن أم القرآن مصدر للسيرة؟ فالسيرة مملوءة بالآيات القرآنية. هل تعتمد عليها كمصدر للتاريخ أو أن التاريخ مصدر لها؟[1]. ولا تكاد تخلو صفحة من آية قرآنية خاصة بعد نزول الوحي. وهذا يدل على تداخل العلوم النقلية مع بعضها البعض. فالحديث مصدر لعلوم القرآن في أسباب النزول. والقرآن مصدر للحديث في اعتماده عليه. والسيرة مصدر للقرآن في أسباب النزول وللحديث في أقوال الرسول.

وأحيانا تخرج السيرة عن موضوعها وتصبح أقرب إلى علوم القرآن مثل موضوع «أسباب النزول»[2]. والسؤال هو: هل أسباب النزول حقيقة تاريخية أم مجرد روايات وتأليف في السيرة؟ وأيها أكثر تصديقا أسباب النزول في علوم القرآن أم في علوم الحديث أم في علوم السيرة؟ ألم يكيّف كل علم «أسباب النزول» طبقا لأهدافه وحاجاته؟ وربما أسباب النزول في العلوم العقلية النقلية مثل علم الكلام أو علم أصول الفقه لها أهداف خاصة في التربية أو في التشريع.

وتبدو بعض آيات القرآن وكأنها إعادة صياغة لبعض عبارات من قريش. فعندما قالت قريش متعجبة لدعوة الرسول للتوحيد «أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء

هاشم، جـ١/ ١١٨-١٢٠، استيلاء قوم كنانة وخزاعة على البيت وفي جرهم جـ١/ ١٢٢-١٢٥، استبداد قوم من خزاعة بولاية البيت جـ١/ ١٢٥-١٢٦، تزوج قصي بن كلاب حبي بنت مليل جـ١/ ١٢٦-١٢٧. غلب قصي بن كلاب على أمر مكة جـ١/ ١٣١-١٣٧، حلف الفضول جـ١/ ١٣٩-١٤٨، ولادة رسول الله ورضاعته جـ١/ ١٦١-١٧٠...الخ.

(١) السابق جـ١/ ٢٨٩/ ٣٦٣/ ٤٧٥/ ٥٣٣/ ٥٦٦/ ٥٨٧/ جـ٣/ ٣٦/ ٥٥/ ٦١/ ٧١/ ٩١-٩٢ جـ٣/ ٩١.

(٢) السابق جـ١/ ٤٧٥-٤٧٦.

عجاب» نزلت كآية. فلا فرق بين كلام البشر وكلام الله، بين النزول من السماء إلى الأرض والصعود من الأرض إلى السماء. فليس عمر وحده محدث هذه الأمة في الأحكام بل بعض العرب أيضا محدثوها في الصياغات كما سأل الوليد المغيرة فاركا عظمة بإصبعه «من يحيي العظام وهي رميم؟» فنزلت ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[1]. بل إن القرآن يستعمل أسماء العرب ومسمياتها للحيوان مثل البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. ويصيغها في آية ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[2]. فالقرآن حوار مع الثقافة العربية بألفاظها وبيئتها. ويدخل في المعارك كالشعر. فالقرآن في جدل مع الواقع مثل الشعر. دخل القرآن في معارك بدر وأحد وحنين مع المنافقين والكفار والمشركين[3].

والسيرة تحول طبيعي من علم الحديث، من الكلام إلى الشخص، ومن القول إلى القائل. أسهم في تدوينها المحدثون كما ساهم المؤرخون. فالسيرة تعليق على الحديث. والسؤال هو: هل الحديث مصدر للسيرة أم أن السيرة مصدر للحديث؟ ألا يوجد دور في الصلة بين الحديث والسيرة كل منهما مصدر للآخر؟ فالسيرة كلام الرسول مع شخص، وأقواله مع أفعاله. الحديث في كتب السيرة، والسيرة في كتب الحديث[4]. فإثبات أن العرب من نسل إسماعيل وأن الرسول من نسبه يعتمد في ذلك على حديثه[5]. والتوصية بأهل مصر خيرا لأنهم من نسب إسماعيل يعتمد أيضا على حديث للرسول[6]. فهل تُعتبر أقوال الرسول في كتب السيرة أحاديث أم هي من عمل المؤرخين ونقل الرواة؟ وإذا كانت أحاديث فلماذا لم تدخل جميعها في كتب الأحاديث وعلى رأسها البخاري؟

---

(١) السابق جـ١/ ٩٦.

(٢) البحيرة بنت السائبة. والسائبة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سُيبت. لم يُركب ظهرها، ولم يُجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف. والوصيلة الشاة إذا اتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر. والحام الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره، لم يُركب، ولم يجز وبره، وخلى في إبله، السابق جـ١/ ١٠١-١٠٢.

(٣) السابق جـ٢/ ٥٤.

(٤) السابق جـ١/ ٦-٧/ ٢٩-٣٠.

(٥) السابق جـ١/ ٢٩.

(٦) «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم أمة ورحما»، السابق جـ١/ ٣٠.

ربما الفرق بين الحديث والسيرة أن الحديث أقوال مباشرة أكثر منها روايات، والسيرة روايات أكثر منها أقوال مباشرة. الحديث يركز على الرسالة أكثر من الرسول، والسيرة تركز على الرسول أكثر من الرسالة، لذلك يحال في هذه السيرة إلى أقوال الرسول أكثر من كتب التاريخ حتى تبدو السيرة وكأنها بقول الرسول وليست رواية عنه[1]. وبعض الأحاديث انتقائية في سيرة ابن خلدون مقارنة بسيرة ابن هشام. وتتوقف السيرة على أي نوع من الأحاديث يُستند إليها.

ويوحّد بعض القدماء بين النبي والرسول. فكلاهما صاحب رسالة[2]. وفرق آخرون بأن كليهما نبي أي مطلع على الغيب والإعلام ولكن الرسول يزيد عليه بأنه صاحب رسالة. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا. وهما ليسا وصفين ذاتيين بل وظيفتين خلافا للكرامية. وليست النبوة خبرا وإعلاما وإيهاما وإلهاما بل هي تبليغ لعقائد وليست استنباطا منها لشرائع. وقد انتهت الوظيفتان ليس فقط بنهاية النبي والرسول ولكن بانتهاء دورهما في التاريخ. الفرق بين الرسالة والنبوة، وبين الرسول والنبي، هو أن الرسالة والرسول موضوع علم السيرة في حين أن النبوة والنبي موضوع علم أصول الدين. الرسالة تبليغ من المبلغ إلى المبلّغ إليهم في حين أن النبوة علاقة بين الله والنبي عن طريق الوحي[3]. الرسالة محور أفقي في التاريخ، والنبوة محور رأسي خارج التاريخ. والقرآن يخاطب النبي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أكثر مما يخاطب الرسول لأن النبوة في علاقة مع الله في حين أن الرسالة في علاقة مع الناس. ويمكن التعرف على صورة الرسول في القرآن بتحليل الألفاظ الدالة عليه مثل «الرسول»، «النبي»، «محمد»، «أحمد» لمعرفة هل تضخم على حساب الرسالة أم أنه مجرد مبلغ لها؟ ويتبادل لفظا «النبي والرسول» دون فصل حاسم بينهما. ويخاطب القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾. النبي هو اللفظ السامي الذي يتنبأ بالمستقبل، والرسول هو صاحب الرسالة، حاملها ومبلغها. النبي يدل على العلاقة الرأسية في النبوة بين النبي والله، والرسول على العلاقة الأفقية

---

(١) هذا الذي يسمى في السير الذاتية الغربيةPar lui-même .

(٢) اعتمادا على ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ المواهب اللدنية جـ٢/ ٤٧-٤٩.

(٣) من العقيدة إلى الثورة جـ٤ النبوة والمعاد ص ٥-٣٢٠.

بين الرسول والمرسل إليهم. فالنبوة عامة، والرسالة خاصة. ويفرق المحدثون بين النبي المرسل والزعيم السياسي[1]. كلاهما صاحب دعوة، من السماء عند النبي المرسل، ومن الواقع وحياة الناس عند الزعيم السياسي. ولما كان الوحي والواقع نظيرين فالفرق بينهما في المصدر وليس في الهدف أو الغاية.

ويفرق القدماء بين الوحي والنبوة والرسالة. الوحي لغة الإعلام في الخفاء، وشرعا الإعلام علنا. والنبوة والوحي بمعرفة الله وصفاته مقصورة على النبي. ولغة من الرفعة أي الارتفاع أو النبأ وهو المخبر. والرسالة سفارة بين الله وذوي الألباب من الخلق، أفضل من النبوة لأنها ثمر هدايتها. الرسالة أخص من النبوة، والنبوة أعم من الرسالة. الرسالة هو الإعلان العام، والنبوة الإعلان الخاص في زمن ومكان معينين. الرسالة ما يبلغه الرسول للناس. والوحي الكشف والإعلان بالذات. النبوة علاقة رأسية بين الوحي والنبي، والرسالة علاقة أفقية بين الرسول والناس[2].

٤- السيرة والشعر العربي

وكان للشعر دور كبير في تدوين السيرة هجاء أو مدحا من الطرفين. الشعر لمعارك الهجاء والمديح[3]. وبرز منهم حسان بن ثابت شاعر الرسول. وتعتبر السيرة مصدرا للشعر العربي في عصر الرسول. وتطول القصائد أحيانا بحيث تصبح سجلا لتاريخ العرب[4]. ويسبق الشعر القرآن كما يسبق القرآن الحديث في تدوين السيرة[5]. الشعر

---

(١) السيرة النبوية ص٤٢١-٤٢٢.

(٢) محمد رسول الله جـ١/ ١٦٠، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٦٠-١٦١.

(٣) السابق جـ٢/ ٤٨-٥٢/ ٦٧-٦٨.

(٤) ابن هشام، رثاء عبد المطلب، جـ١/ ١٧٥-١٧٨/ ٣٤٨-٣٥٠، شعر أبي قيس بن أبي أنس جـ١/ ٤٥٩-٤٦٢ جـ٢/ ١٠-٤٠/ ٣٨٩-٤٠٥، قصيدة أبي طالب جـ١/ ٢٥٩-٢٦٦، شعر ابن الاسلت في الرضاع عن الرسول جـ١/ ٢٦٨-٢٧٠، ما قيل من الشعر في بني قريظة والخندق جـ٢/ ٢١٧-٢٣٤، شعر حسان في بني قرد جـ٢/ ٢٤٤-٢٤٧، في غزوة حنين جـ٢/ ٣٨٩-٤٠٥، في غزوة الطائف جـ٢/ ٤٠٦-٤٠٩، كعب بن زهير جـ٢/ ٤٢٦-٤٣٧، حسان وعد المغازي جـ٢/ ٤٦٨-٤٧٢، حسان والرد على الزبرقان جـ٢/ ٤٧٦-٤٧٨، لبيد في بكاء أربد جـ٢/ ٤٨١-٤٨٤، مرثية حسان جـ٢/ ٥٥٨-٥٦٣، شعر كعب ابن زهير بعد الانصراف عن الطائف جـ٢/ ٤٢٤-٤٢٦.

(٥) السابق جـ١ ٢٥٨-٢٦٦/ ٢٦٨-٢٧٠، ما قيل في الشعر يوم بدر جـــ٢/ ١٠-٤٠/ ٥٥٩-٥١٣،

جزء من المعركة. وتدخل النساء في معارك الشعر. فهناك النساء الشاعرات(١). دخل الشعر في معركة أحد، وتطول القصائد أحيانا بحيث يصبح الشعر هدفا في ذاته وليس أداة للسيرة. ويمكن عمل دراسة مستقلة عن الشعر في سيرة ابن هشام. فالسيرة مرجع للشعر، والشعر مرجع للسيرة(٢).

وكثير من الحوارات يرويها القرآن والشعر على حد سواء مثل قصة الفيل(٣). فالشعر هو ديوان العرب قبل الإسلام، والقرآن تاريخهم بعده(٤).وتتحول الآية القرآنية إلى شعر. فالآية تمس وجدان الشاعر. فيعيد نظمها شعرًا في أرجوزة أو في أحد بحوره(٥).

ولم يكن كل الشعراء معاصرين للرسول مثل حسان بن ثابت بل كان هناك شعراء لاحقون يستعمل شعرهم لتصوير أحداث السيرة مثل كعب بن زهير والفرزدق(٦).

ولا يروي ابن هشام فقط الشعر بل ينقده ويبين مدى صحته. ويصبح ناقدا للشعر عندما يفترض انتحال بعض شعر حسان. فقد كان المؤرخون والمحدثون والمفسرون شعراء. كان الشعر هو ما يلتقي عليه العرب جميعا بصرف النظر عن عقائدهم قبل الإسلام. وكانت المعلقات السبع فوق الكعبة بصرف النظر عن إله كل قبيلة. كان الشعر هو الطريق لفهم بلاغة القرآن. فالقرآن نزل متحديا الشعر العربي في البلاغة(٧). وتذكر السيرة شعراء الجن الذين يقرضون الشعر فرحا بقتل شهداء المسلمين(٨).

يوم جـ٢/ ١١١-١٤٨ جـ٢/ ١٥٢-١٥٨، في بني النضير جـ٢/ ١٦٨-١٧٦، في غزوة بدر الثانية جـ٢/ ١٨١-١٨٤.

(١) السابق جـ٢/ ٣٨-٤٠.

(٢) السابق جـ٢/ ١١١-١٤٦.

(٣) ابن خلدون ص١٦/ ٢١/ ٢٤/ ٣٧/ ٥٨/ ٦١/ ٨٢/ ١٠٤.

(٤) ابن هشام جـ١/ ٧٤.

(٥) السابق جـ١/ ٢٨٦.

(٦) السابق جـ٢/ ٥٢٣-٥٢٤.

(٧) «وبين أضعاف هذا الحديث رجز لم يصح عندنا عند أحد من أهل العلم بالشعر» السابق ج وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان جـ٢/ ١٥٨.

(٨) قتل الجن سعد بن عبادة وأنشدوا فيه شعرا:

نحن قتلنا سعيد الخزرج سعد بن عبادة
فرميناه بسهمين فلم تخط فـؤاده.

ابن خلدون ص٣٦-٣٧.

والسؤال هو: هل الشعر الدعائي شعر؟ وهل المديح والهجاء لونان من ألوان الشعر؟ ألا يصبح الشاعر مأجورا إذا كان موظفا عند هذا الخليفة أو ذلك السلطان؟ وهل القتل يُصاغ شعرا سواء من جانب القاتل أو المقتول أم أن القتل هو القتل؟ القتل شيء تمجه النفس، بصرف النظر عن دوافعه وأسبابه. كان الشعر مؤثرا في حياة الرسول. وكان قد حكم على أحد المشركين بالقتل فرثته أخته فأثر الرثاء فيه فقال «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»[1]. والرسول ناقد للشعر. فقد أصلح لشاعر بيتا حتى يتفق مع الرسالة. فقد أوتي جوامع الكلم. وهو أفصح العرب[2].

٥- السيرة وقصص الأنبياء

والسيرة جزء مطول من قصص الأنبياء منافسة مع قصص العهد القديم والأنبياء السابقين والإسرائيليات التي كانت شائعة في شبه الجزيرة العربية حول المدينة وفي اليمن والتي غلب عليها نقص المصادر، والخيال الشعبي، والجو القصصي، والملاحم العربية. وكان العرب على علم بها من اليهود والنصارى في شبه الجزيرة العربية وامتدادها في الشام.

والسؤال هو: ما هي مصادر معلومات الرسول عن الأنبياء السابقين؟ الوحي أو القرآن أو رحلاته وثقافته العربية، رحلتي الشتاء والصيف، نصارى نجران ويهود الطائف وخيبر وبصرى بالشام؟ وكان الرسول على علم بها قبل لقائه بورقة بن نوفل ابن عم خديجة النصراني بعد أن أتاه الوحي. كان قصص الأنبياء هو القصص «النمطي» أو «النموذجي» الذي طبقا له تمت صياغة قصص للرسول منذ ميلاده حتى وفاته. والأمثلة على ذلك كثيرة. في مولده يمتد نسبه إلى آدم كما هو الحال في مقدمة إنجيل

---

(١) هي قُتيلة أخت النضر بن الحارث تبكيه، ومنها:
أمحمد يا خير ضنّ كريمة ∴ في قولها، والفحل فحل معرق
ابن هشام جـ٢، ٤٠/ ٤١.

(٢) قال كعب بن مالك: مجادلنا عن كل خدمنا منا كل فخمة. فسأل الرسول «أيصلح أن تقول مجادلنا عن ديننا فهو أحسن»، السابق جـ٢/ ١١٦-١١٧.

متى بالنسبة لنسب المسيح[1]. فقد تكون المادة من الإسرائيليات ثم ذكر نسبه من أولاد إسماعيل لإثبات أنه من العرب. وتأصيل النبي جزء من مصداقيته[2]. وإبراهيم أبو العرب جميعا الذي ينتسب إليه كل المؤمنين، مشركين ويهود ونصارى ومسلمين.

وكثير من الروايات في السيرة على نمط روايات العهد القديم مثل رواية ذبح عبد المطلب وليده عبد الله مثل ذبح إبراهيم ولده إسماعيل[3].والبداية بإسماعيل لأنه جد العرب[4]. وضربت الأقداح في جوف هبل في الكعبة وفاء لنذر عبد المطلب فجاءت على أصغر أبنائه عبد الله. وأشارت عرافة الحجاز بضرب الأقداح ونجاة عبد الله من الذبح بمائة إبل. فعاش أبو النبي بمعجزة كما أن السيد المسيح بلا أب معجزة سابقة.

وهناك معجزات في الولادة كما هو الحال في ولادة موسى وإلقائه في اليم وولادة عيسى من غير أب. فقد رفض عبد الله طلب المرأة التي عرضت نفسها عليه أن يقع عليها في التو واللحظة مما يدل على تحرر المرأة وطلبها الرجل أن يقع عليها بعقد أو بدون عقد. ثم تزوج آمنة بنت وهب أفضل امرأة من قريش نسبا وموضعا. وعندما قابل المرأة التي عرضت عليه نفسها لماذا لا تعرض الآن أجابت «فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة». وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل النصراني أنه سيكون في هذه الأمة نبي[5].

وعرضه على المراضع وهو رضيع مثل عرض موسى عليهن. رضي الرسول بحليمة ورفض موسى إلا ثدي أمه. فقصة موسى أكثر إعجازا من قصة الرسول[6]. وفي المقابل امتلأ ثديا حليمة حتى شرب منه إخوة كثير في الرضاعة. عادت أم موسى إلى الطفل وعاد الطفل إلى أمه. أما الرسول فقد ماتت أمه بمجرد ولادته فنشأ يتيم الأب والأم. حياة كل منهما تبدأ بمأساة النشأة مقارنة باكتمال الفتح. وانتهت حياة المسيح بمأساة أخرى عند النصارى وبفتح عند محمد وإكمال الدين.

---

(١) السابق جـ١/ ٢٥-٢٧.
(٢) السابق ص٢٨.
(٣) السابق جـ١/ ١٥٥-١٥٩.
(٤) السابق ص١٧.
(٥) السابق جـ١/ ١٥٩-١٦٠ «لك مثل الإبل التي نحرت لك وقع عليّ الآن».
(٦) السابق جـ١/ ١٦٣-١٦٥.

وافتقدته حليمة وبحث عنه جده عبد المطلب فوجده في الكعبة مع ورقة بن نوفل. وطاف به يعوذه ويرقيه ويدعو له. ثم أرسله إلى أمه آمنة كما افتقدت مريم المسيح وهو ابن اثنتي عشر عاما ووجدته في المعبد يصلي، قائلا «ألا تعلمين أني عند أبي الذي في السموات»[1].

والمعراج شبيه بصعود عيسى إلى السماء لا فرق بين صعوده قبل موته أو بعده. وزاد عليه الرسول الإسراء، الانتقال من مكة إلى القدس. وهو شبيه أيضا بصعود أخنوخ إلى السماء في العهد القديم سواء كان الكتاب صحيحا تاريخيا أم منتحلا. وكل نبي له تعامل مع السماء بالحركة أو بالتأمل، في ديانات إبراهيم أو في ديانات الشرق القديم.

وركوب الرسول البعير مع أبي بكر في الهجرة من مكة إلى المدينة مثل ركوب المسيح البعير ودخوله إلى القدس وفي يده غصن زيتون. الرسول متخفيا حتى لا تناله قريش، والناس تهلل حول المسيح ووراءه. الرسول مضطهد وهارب من مكة، والمسيح منتصر ومستبشر بدخوله القدس.

وقد حذر الرسول المسلمين من الاختلاف حوله بعد موته كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم. فقد دعاهم إلى مثل ما دعا إليه الرسول. آمن به البعض وكفر به البعض الآخر. وأصبح كل واحد يتكلم باسم الأمة التي بعث إليها. وقد شكى عيسى إلى الله ذلك[2]. اختلف صحابة الرسول سياسيا وليس عقائديا. واختلف حواريو المسيح عقائديا وليس سياسيا. اختلف صحابة الرسول حول رسالته خلافة أو ملكا. واختلف حواريو المسيح حول طبيعته إلها أم إنسانا، والأمثلة عديدة سواء في صياغة روايات العهد الجديد طبقا لأنماطها في العهد القديم أو صياغة روايات السيرة النبوية طبقا للعهدين القديم والجديد. كانت البيئة التي خرجت منها روايات العهد الجديد بيئة يهودية، وكانت البيئة التي خرجت منها روايات السيرة بيئة يهودية نصرانية.

٦- تعدد السير

والسيرة تعبير عن كل عصر. ولا توجد سيرة واحدة لكل العصور. لا توجد سيرة

---

(١) السابق جـ١/ ١٦٨-١٦٩.

(٢) السابق جـ٢/ ٥١١-٥١٢.

موضوعية لكل العصور. بل تعكس كل سيرة روح عصرها. لا توجد سيرة موضوعية بل توجد سير ذاتية طبقا لرؤى وإدراكات كتاب السير. والعلوم النقلية كلها كذلك، القرآن والحديث والتفسير والفقه. والعيب في العلماء الذين أوقفوا التاريخ، وثبتوا الزمن، وتنازلوا عن دورهم في استئناف هذه العلوم وتطويرها. وجعلوا أنفسهم نقلة ورواة لما أبدعه القدماء. فقد غلب على القدماء علوم اللغة والتاريخ. وقد يغلب على المحدثين باقي العلوم الإنسانية، النفس والاجتماع والسياسة. فلا توجد سيرة أصح من سيرة بل هناك قراءات متعددة للسيرة طبقا لروح كل عصر. لا يوجد خطأ وصواب في السيرة بل فقط قراءات متعددة ووجهات نظر مختلفة منذ ابن إسحق حتى طه حسين ومحمد حسين هيكل وعبد الرحمن الشرقاوي ومحمد أحمد خلف الله وعلي شريعتي وخليل عبد الكريم.

وتقدم كل سيرة صورة للرسول. فصورة الرسول في سيرة ابن هشام أنه كان قائدا أمة وزعيم قبيلة، قريش، وفاتح البلدان عن طريق المغازي. وهو في «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل(١٩٥٦م)، فيلسوف الطبيعة والبعد الاجتماعي مثل «جان جاك روسو». محمد هو جان جاك روسو العرب، وجان جاك روسو هو محمد فرنسا. وهو ما قاله الطهطاوي إن ابن خلدون هو مونتسكيو العرب وأن مونتسكيو هو ابن خلدون فرنسا. وهو عند طه حسين تنويري ليبرالي في «على هامش السيرة» وهيكل «في منزل الوحي». وهو عند القوميين مؤسس القومية العربية والذي جعل الإسلام حاملا لها وأحد مراحلها[1]. وهو عند الاشتراكيين نبي الحرية والعدالة الاجتماعية[2]. وهو عند أنصار النزعة الإنسانية إنساني لمن يدافع عن الإيمان العقلاني الإنساني بصرف النظر عن اليهودية أو المسيحية أو الإسلام[3]. وعند الأخلاقيين محمد مؤسس سلوك أخلاقي ونسق للفضيلة وعبقري. لشخصيته مفتاح مثل باقي الخلفاء[4].

---

(١) خلف الله أحمد خلف الله: محمد والقوى المضادة.

(٢) عبد الرحمن الشرقاوي (١٩٨٧): محمد رسول الحرية.

(٣) نظمي لوقا (١٩٨٧): محمد رسول الله.

(٤) عباس محمود العقاد (١٩٦٤):عبقرية محمد.

وأحيانا تظهر بعض الألفاظ في السيرة عند القدماء التي يمكن البناء عليها في كتابة السيرة عند المحدثين مثل «المستهزئين»، «المستضعفين»[1]، في عصر كثر فيه المستهزئون من الغربيين عامة والمستشرقون خاصة، وكثر فيه المستضعفون في الأمة الإسلامية بحيث أصبحوا غالبيتها باستثناء المسلمين في إيران وتركيا وماليزيا ولبنان، وبعض جماعات الرفض الإسلامية في مصر وتونس والجزائر والمغرب والأردن وباكستان وأفغانستان، بصرف النظر عن اتجاهها المحافظ في الداخل. فالمستضعفون في الآية الإسلامية ضد المستكبرين في الغرب. وهو مصطلح قرآني[2]. أصبح شعارا للثورة الإسلامية الحديثة في إيران منذ ١٩٧٩م.

ويغيب النقد من معظم السير المعاصرة؛ لأن نقد القديم مازال محفوفًا بالمخاطر. إنما تكتب سير موازية، تختفي وراء الأسلوب والنزعة الرومانسية في الإعجاب بالرسول وتقديس المثال بالرغم من ادعاء العقلانية والتنوير والعصرية والحداثة. فنقد القديم أصعب من مجاورة الحديث له. وبناء الحديث مجاورا للقديم أسهل من هدم القديم والبناء على أسس جديدة. والرومانسية والبلاغة نوع من المدح الحديث وتحويل التقريظ الديني إلى تقريظ أدبي.

وقد يكون الدفاع عن إنسانية الرسول في سيرته أكثر مدحا له من إثبات معجزاته. فالإنسان العادي الآن قيمة وليس الإنسان غير العادي. بل إن الإنسان الضعيف الذي يصفه القرآن ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ أكثر إغراء للناس من الإنسان القوي. وهو ما أكدته الفلسفات الغربية الوجودية المعاصرة. فالإنسان هش. وتلك عظمته. يحول هذه الهشاشة إلى صلابة. وهو ضعيف يحول هذا الضعف إلى قوة. فعظمة الإنسان في بؤسه، وكماله في نقصه، وخلوده في فنائه، ووجوده في عدمه. وواقعية الرسول كإنسان تدل على مثاليته كنبي مثل عبوسه في وجه الأعمى حرصا على الأشراف[3]. وعظمة الرسول

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٢٧٥/ ٣٦٣/ ٣٦٧.

(٢) ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

(٣) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.

ليست في عصمته بل في إنسانيته التي قد تخطئ وتصيب. العصمة تعظيم وتقديس وتأليه كما تقول الشيعة في الإمام وكما يقول السنة في الرسول وكما يقول الإعلام الرسمي في رؤساء الدول.

وأهمية هذه السيرة «من الرسول إلى الرسالة» أنها تذهب من الواقع إلى الدلالة، ومن الحوادث إلى مغازيها. فالحوادث حاملة للمعاني. وهي ليست المقصودة من التاريخ وإلا تم الوقوع في النزعة التاريخية. الواقع ليس للرصد بل هو حامل للدلالة. وهو ليس المقصود في السيرة بل دلالتها في التاريخ. فالسيرة تحقق للدلالات في التاريخ، وللمعاني في الأشخاص، وللحقائق في الواقع. السيرة هي دلالات الأحداث ومعاني الوقائع وليست الأحداث والوقائع ذاتها التي قد تخطئ روايتها أو تصيب. فالرواية رؤية للحدث وليست الحدث نفسه، لقطة أو صورة. فالأحداث لا تتحدث عن نفسها، والوقائع لا تخبر بذاتها. وليس هذا تطبيقا لمنهج غربي ظاهراتي بل هو نتيجة للتحول من الرسول إلى الرسالة، ومن الشخص إلى الدلالة، ومن الحدث إلى المعنى. وحتى لا تبدو الدلالات معلقة في الهواء وضعت بعض أسماء الأعلام والأحداث في الهوامش أسفل الصفحة مع احتمال الخطأ في رصدها بمعنى عدم المطابقة. وهو خطأ في تصور الحقيقة التاريخية التي لا تُعرف إلا من خلال الرواية. فالمطابقة أو عدمها ادعاء وليست واقعا. ففي الرواية تختلط الرؤية الذاتية بالواقع التاريخي.

والصعوبة في كتابة السيرة هو الجمع بين الوقائع والدلالات، بين ما هو معروف وما يدعو للتأمل والقراءة والتأويل. الوقائع بمفردها تكرار ممل. والدلالات وحدها إثارة إعلامية. الوقائع وحدها سيرة مثل سير القدماء. والدلالة الجديدة وحدها أشبه بمقال صحفي أو ببحث في إحدى المجلات العلمية، يركز على الجديد أكثر مما يستعرض القديم.

ليست هذه سيرة شخص بل وصف للتجارب الإنسانية وراءها بصرف النظر عن الحق والباطل، والصواب والخطأ. التجارب الإنسانية هي أكبر مصداق للسيرة وللوحي وللحديث على حد سواء. هي الفطرة التي كان يلجأ إليها عمر. السيرة كشف عن هذه التجارب الإنسانية الحية ودلالتها. فالأشخاص والوقائع ما هي إلا حوامل للمعاني وليست المعاني ذاتها[1].

---

(١) انظر كتابينا: تأويل الظاهريات، محاولة لتأويل المنهج الظاهرياتي، ظاهريات التأويل، محاولة لتفسير وجودي للعهد الجديد، دار النافذة، القاهرة ٢٠٠٦،(ترجمة عن الأصل الفرنسي ١٩٦٥-١٩٦٦).

وسيرته أو دلالاتها قد تصح لرواية أو فيلم سينمائي أو تمثيلية أو مسرحية لعمل أدبي لا يجوز لأي سلطة دينية أو سياسية منعه. فهي مادة درامية بالأصالة. وقد تم ذلك من قبل في موسى والمسيح. ربما هالة التقديس حول الرسول هي التي تمنع من ذلك. بل يمتد الحظر إلى الخلفاء، وهم بشر وقادة سياسيون. وقد يمتد إلى باقي الصحابة. وما الفرق بين الصحابة والتابعين؟ ولدى الشيعة هذا الحظر غير موجود. فالفنون المرئية قادرة على التعبير عن سيرة الأشخاص وكما فعل النصارى في المسيح والحواريين. وقد يستطيع الفن أن يعبر عن دلالات السيرة أكثر من التاريخ. الفن معبر، والتاريخ مصمت، الفن كاشف للغطاء، والتاريخ واضع له. الفن حدس داخلي، والتاريخ رواية خارجية.

٧- مراحل السيرة

والتقسيم الطبيعي للسيرة هو ما وضعه ابن إسحق وسار فيه معظم كتاب السير، التقسيم الثلاثي، البداية والوسط والنهاية، مولد الرسول، بعثته في مكة ثم انتشارها في المدينة. ويتضمن مولده حياة العرب قبل الإسلام. كما يتضمن الانتشار في المدينة وفاته وربما بداية الخلافة بعد النبوة. وهي قسمة طبيعية زادت أو قلت. تتفق مع المنهج التاريخي لكتابة أي سيرة: العصر، والمولد، والنشأة، والتطور، والنهاية.

كان منهج ابن إسحق تاريخيا خالصا، سيرة للرسول من الميلاد إلى الوفاة مثل التفسير من الفاتحة إلى الناس. فكانت السيرة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازي[١]. يشمل المبتدأ أربعة فصول: تاريخ الرسالات قبل الإسلام، تاريخ اليمن في الجاهلية، تاريخ القبائل العربية ودياناتها، تاريخ مكة وأجداد الرسول دون ذكر أسانيد الروايات. يعتمد على قدر كبير من الأساطير والإسرائيليات. ويشمل المبعث حياة النبي في مكة والهجرة. وتتناول المغازي حياة النبي في المدينة.

ويصعب فصل هذه المراحل الست وتحديد بدايتها ونهايتها تحديدا حاسما لأن بعض

(١) ابن هشام جـ١/ ١١-١٢.

أوصاف المرحلتين الأوليين من المراحل التالية بعد نزول الوحي. المرحلة الأولى تأسيس الرسالة بفصليها: جذور الرسالة العرب قبل الإسلام، ونشأة الرسالة مولد الرسول. والمرحلة الثانية بداية الرسالة بفصليها: إعلان الرسالة، وانتشار الرسالة(المدينة). والمرحلة الثالثة نهاية الرسالة بفصليها: اكتمال الرسالة(الفتح) ومصير الرسالة(الخلافة). ويسبق المرحلة الأولى باب عن علم السيرة بفصليه الأول عن تعريفه، والثاني عن تدوينه. ولما انحرف تدوين السيرة من الرسالة إلى الرسول خصص باب خامس لتدوين هذا الانحراف. فقد كثر فيه التأليف. وتم تشخيص الرسالة في الرسول فيما يعرف باسم الشمائل والخصائص الجسدية والنفسية بفصلين. الأول عن انحراف الرسالة، والثاني عن تشخيص الرسالة.

لذلك يدور علم السيرة الآن حول محورين، الرسالة والرسول. كان الرسول في البداية جزءا من الرسالة فأصبحت الرسالة في النهاية جزءا من الرسول. فحدث انحراف في علم السيرة من الرسالة إلى الرسول. وتحاول هذه السيرة الحديثة تصحيح هذا الانحراف بالعودة من الرسول إلى الرسالة للقضاء على عبادة الأشخاص في الدين والسياسة.

وتختلف المراحل الست طولا من حيث الزمان. فبينما المرحلة الأولى أطولها لأنها تشتمل حياة العرب منذ إبراهيم حتى ميلاد الرسول. تتلوها السادسة لأنها مصير الرسالة منذ وفاة الرسول حتى الآن. تتلوها الثانية لأنها منذ ميلاد الرسول حتى بداية البعثة، أربعين عاما، ثم الخامسة انتشار الرسالة وهي الفترة المدنية ثلاثة عشر عاما. وأقصرها الرابعة بداية الرسالة، الفترة المكية عشرة أعوام أما تشخيص الرسالة في الرسول فهو خارج التاريخ. يبدأ صغيرا في حياته ثم يصبح كل شيء بعد وفاته.

وهذه القسمة السداسية بالرغم من أنها تتفق مع حياة الرسول، قبل الميلاد، قبل البعثة، بعد البعثة، بعد الهجرة، بعد الفتح، وبعد الموت إلا أنها تعبر أيضا عن مراحل الرسالة وبالتالي تبقى مرتبطة بالرسول والإسلام، الرسالات السابقة، الرسالة قبل البعثة، الرسالة بعد البعثة في مكة، الرسالة بعد البعثة في المدينة، الرسالة بعد الفتح، مصير الرسالة، أما الباب الأخير تشخيص الرسالة فيتعلق بانحراف التأليف في علم السيرة، من الرسالة إلى الرسول.

وقد جرت العادة مسبقا على كتابة السيرة خاصة الغزوات واحدة تلو الأخرى في تتابع تاريخي وهو ما يسمى في المناهج الحديثة التتابع الزماني. وهذه المرة تكتب السيرة بطريقة المعية الزمانية أي كل الغزوات في وقت واحد كبنية مشتركة لمعرفة دوافعها، وكيفية إتمامها، ونتائجها، وأسباب الانتصار أو الهزيمة فيها، والدروس المستفادة منها. ويُكتب مصير الرسالة كله في وقت واحد وليس تتبعا للخلفاء الراشدين أو الملوك واحدا تلو الآخر. فهذا تاريخ للنظم السياسية، من أجل اكتشاف فلسفة في التاريخ وقانون لمساره وراء هذا التتابع الزماني من القرن الأول حتى القرن الخامس عشر وكما يحدث في كتب التاريخ الإسلامي أو تاريخ الشعوب الإسلامية أو تاريخ الحضارة الإسلامية[1].

وبالرغم من التاريخانية فإن المؤرخ أحيانا قد يقع في الاضطراب الزماني، ويذكر اللاحق قبل السابق لأن السيرة تقتضي أحيانا منهجا لا تاريخيا يربط وقائعها[2]. وتحليل السيرة إلى ذاتها لربط أجزائها بعضها بالبعض الآخر مما يدل على أن التوالي الزماني تربطه بنية لا زمانية[3].

٨- الكم والكيف

وموضوع السيرة ليس مقدسا مثل القرآن والحديث. فالرسول وسيلة توصيل الوحي من المبلِّغ إلى المبلَّغ إليهم. الرسالة أهم من الرسول. وإذا أصبحت موضوعا مقدسا بفعل التاريخ فإن المقدس موضوع للدراسة في علم الاجتماع الديني. ولا يوجد موضوع شريف أقل شرفا أو أكثر، الموضوعات كلها على مستوى واحد في البحث العلمي، موضوعا ومنهجا[4]. وهناك فرق بين الباحث والداعية، بين العالم والواعظ،

---

(١) حدث ذلك من قبل في ثلاثية أحمد أمين «فجر الإسلام»، «ضحى الإسلام»، «ظهر الإسلام»، وفي عشرية محمود إسماعيل، «سوسيولوجيا الفكر الإسلامي».

(٢) يذكر ابن خلدون الهجرة قبل بداية الدعوة، ابن خلدون ص ٣٠.

(٣) السابق ص٣١.

(٤) «الكلام في العلوم النبوية والصفات المحمدية لصدورها من المصدر الذي انبعثت عنه العلوم كلها جملة وتفصيلا، فروعا وأصولا. فشرف العلم بشرف المعلوم عنه»، بهجة المحافل ص٣٧».

بين الباحث عن الحقيقة ومن يعرفها من قبل. وهو ما حاوله بعض كتاب السيرة المحدثين من قبل مثل هيكل وطه حسين.

وهذه المحاولة في علم السيرة «من الرسول إلى الرسالة» مثل المحاولتين السابقتين في علوم القرآن «من المحمول إلى الحامل»، وفي الحديث «من نقد السند إلى نقد المتن». هي مساهمة للباحثين العرب في علم النقد التاريخي للكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والقرآن وحتى لا يقتصر هذا العلم الحديث على الغربيين وحدهم ونحن نعتمد عليها بالمخالفة وهو الأغلب أو بالموافقة وهو الأقل. صحيح أن الغرب تعود على هذا العلم منذ نشأته في بدايات العصور الحديثة في القرن السابع عشر خاصة عند اسبينوزا وريتشارد سيمون وجان أوستريك على مدى أربعة قرون. ونحن مازلنا في البداية منذ جيل أو جيلين. نكفر من ساهم فيه دفاعا عن قدسية النص وتعبيرا عن الإيمان به وكأن النص في السماء لم يهبط على الأرض، لا مكان ولا زمان ولا بشر له، يستقبلونه ويفهمونه ويفسرونه.

وتحليل المادة العلمية لا ينتهي. وسير القدماء والمحدثين في كل الوطن العربي والعالم الإسلامي بالعربية وبباقي اللغات الإسلامية والأجنبية لا تنتهي. العينة الممثلة تكفي نظرا لتكرارها ولصعوبة عمل إحصائية شاملة لها، ومراجعتها كلها. يتوقف التحليل يتوقف عندما تتوقف دلالاته ويتوه، ويتحول إلى معارف وليس إلى علوم. يصعب تحليل كل السير لكثرتها. إنما تحليل عينة مختارة بما هو متاح فعليا. قد يؤثر على التحول من الرسالة إلى الرسول. كثير من المادة العلمية مكررة. فهل تتكرر الإحالات فتتضخم الهوامش بلا داع؟ إنها تدل فقط على سعة اطلاع الباحث وكثرة إحالاته. والناقص يدخل في العينات المثلى. ولا داعي لضرورة إحصاء شامل لها. فهذا عمل الموسوعات والفهارس العامة للعلوم[1].

تتكرر المادة العلمية. يكرر اللاحقون السابقون. ويصل التكرار إلى حد الملل وانتقاء

---

(١) «وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في ذلك كتبا كثيرة، ما بين تاريخ وشمائل، وأقوال وأفعال وأحكام وغير ذلك. ومنهم المقل والمكثر وليس فيهم مقصر، كل على مبلغ علمه ومقدار فهمه»، بهجة المحافل ص٣٧.

الدلالات بالرغم من عدم اكتمالها من الناحية الكمية. ومع ذلك يتوقف جمع المادة بعد التعرف على بنية العلم، ومعرفة مراحل تطوره. فالمادة تحكمها الروح. والبدن تسيطر عليه النفس. مهما كبر أو صغر فالنفس واحدة.

والرجاء من القارئ أن يتعامل مع هذه السيرة بحسن نية وألا يجعل أحكامه المسبقة الموروثة وما تعود عليه من مدح وإطراء للرسول من خلال دور العبادة وأجهزة الأعلام والثقافة الشعبية من أن يفكر ويتساءل، وألا يسرع بالرفض والاستبعاد والاستهجان والذي قد يصل إلى حد التكفير. ففي الحديث لو كان هناك تسعة وتسعون وجها للكفر ووجه واحد للإيمان يُحمل على الإيمان. وغلق الباب كلية عن التساؤل حول العلوم النقلية جعلها ثابتة في مكانها لا تتغير منذ اثنى عشر قرنًا، منذ ابن هشام حتى السير الإصلاحية الحديثة.

الفصل الثاني

تدوين السيرة

الأدبيات في علم السيرة كثيرة ومتنوعة. تتفرع في محورين الرسالة والرسول. تتبع الأدبيات في الرسول نموذج ابن إسحق وابن هشام، النموذج التاريخي، قسمة الرسالة من خلال حياة الرسول إلى بداية ووسط ونهاية. وهي أقل مما ألف في المحور الثاني، الرسول، عندما تشخصت الرسالة في الشمائل والخصائص، عند القدماء والمحدثين[1].

تشعبت علوم السيرة إلى جوانب تفصيلية من حياة الرسول: أخلاقه وشمائله، مغازيه، معجزاته، خلفائه وصحابته. وتم التأليف في كل موضوع على حدة. تشعبت السيرة وتضخمت الأجزاء بحيث أصبح كل جزء هو الكل: يتم التأليف فيه كموضوع مستقل مثل المغازي والسير والمعجزات، والموت، والمقابر، وفتن أخر الزمان، وختم الأنبياء.

١ - نموذج ابن هشام:

أ- سيرة ابن هشام(٢١٨هـ)

وأقدم السير وأكثرها حضورًا «سيرة ابن هشام». وهي تهذيب وتطوير ونقد لسيرة ابن إسحق من القرن الثاني الهجري واستبعاد لكثير من الجوانب الأسطورية فيها. فتطور السيرة الطبيعي من الأسطورة إلى الواقع، ومن الخيال إلى العقل، ومن الوهم إلى

(١) أدبيات تشخيص الرسالة في الفصل الأول «انحراف الرسالة»، من الباب الخامس «تشخيص الرسالة».

الحقيقة، ومن التقديس إلى التاريخ[1]. ومع ذلك فاتت عليه بعض روايات المعجزات: دعوة الرسول الشجرة لتأتيه فأتته وردها إلى مكانها دليلا على النبوة. واستمرت السيرة في مسارها التاريخي من الواقع إلى الأسطورة، ومن التاريخ إلى الخيال، كما هو حادث في بعض السير الحالية المختلطة بعلوم التصوف.

واستمر التأليف في السيرة في نوعين إما شرح وتلخيص سيرة ابن هشام نثرا شعرا أو التأليف النقدي في السيرة كما فعل ابن هشام مع ابن إسحق[2]. وهذه السيرة تأليف في السيرة من هذا النوع الثاني، التيار النقدي مع كل السير السابقة.

«سيرة ابن هشام» سيرة نموذجية في علم السيرة مثل «الإتقان» للسيوطي أو «البرهان» للزركشي في علوم القرآن، و«البخاري» في علم الحديث أو «الباعث الحثيث» لابن كثير أو مقدمة ابن الصلاح. وكما دخلت سيرة ابن إسحق في سيرة ابن هشام دخلت سيرة ابن هشام في معظم السير اللاحقة. مع الاعتماد على نصوص منها، يكفي وصفها بأنها نموذج ابن هشام دون وصف آخر بأنها السيرة الأصلية أو السيرة الأولى.

وتخلو السيرة من قسمة إلى أبواب وفصول. هي مجرد روايات متتالية قبل الرسول وأثناء حياته ووفاته. هناك لفظ «ذكر» الذي يتكرر ويعني مجرد رواية، ثم «غزوة» مما يدل على أن صورة الرسول أنه قائد وزعيم أمة. أما «أمر» و «قصة» و «حديث» و«خبر» فتدل على غلبة الرواية كمصدر للسيرة. وقد تكون القسمة إلى أربعة أجزاء أو إلى جزأين من الناشرين، وكذلك العناوين الجانبية من وضع المحققين[3]. وتحيل أجزاء السيرة بعضها إلى بعض مما يبين وحدتها[4]. ونظرا لاستعمال المنهج التاريخي في السيرة

---

(١) «ألفها أبو عبد الله محمد بن إسحق بن يسار المطلبي المتوفي سنة ١٥١ من الهجرة، وهذبها أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفي في سنة ٢١٨ من الهجرة، سيرة النبي لابن هشام، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، جـ١/ ١/ ٢٠٦».

(٢) السابق جـ١ ص٨/ ١٢-١٤. من شراح ابن هشام السهيلي (٥٨١هـ) في «الروض الأنف» والعيني في «كشف اللثام» والخشني. وممن اختصره محمد المرحل في «الذخيرة في مختصر السيرة» حوالي ٦١١هـ، والواسطي في مختصر سيرة ابن هشام حوالي سنة ٧١١هـ ومن الناظمين الدميري(٦٠٧هـ)، والخضراوي(٦٦٣هـ)، والنابلسي(٧٩٣هـ)، في «الفتح القريب»، السابق ص٣٥٩.

(٣) ذكر(٣٩)، غزوة(٣٤)، أمر(٢٦)، قصد(٨)، حديث(٦)، سرية(٣)، أخبار(١).

(٤) «سأذكر حديثه إن شاء الله في موضعه، ابن هشام جـ١/ ٩٥» وسنذكرها ونقيضها إن شاء الله في موضعها

يضطر المؤرخ إلى إحالة الأجزاء بعضها إلى بعض ليبين بنيتها. ويكتب التاريخ بأهمية الحدث مثل عام الفيل والهجرة[1].

وتبدأ كثير من روايات ابن هشام بالسند كما يفعل المحدثون. فقد كان هذا هو المنهج المتبع لصحة الرواية عند القدماء مع أنه قد يصح السند ولا يصح المتن[2]. وأحيانا تكون الرواية موثوقة بها بتعبير «وحدثني ما لا أتهم من أصحابنا». وأحيانا تكون روايات مشكوك فيها مما يدفع إلى نقدها[3]، عند القدماء أكثر مما عند المحدثين[4]. وكان ابن هشام يشك في بعض الروايات مثل رواية وصف تاج كسرى كالقنفل «فيما يزعمون» أو «فيما يذكرون»، «فيما بلغني»[5]. ويظل السؤال قائما ما مدى الصحة التاريخية للخطب الطوال شفاها؟ وكيف تعيها الذاكرة؟[6]. وابن هشام ليس فقط راويا بل مفسرا ومؤولا وصاحب رأي فيما يُروى[7]. وهو مفسر لبعض الآيات والمفردات. فهو لغوي بالإضافة إلى كونه مؤرخا. يشرح الألفاظ لغويا ويبين معانيها[8]. ويبحث أصلها العربي

جـ٢/ ٤٧. و«سأذكر قتل سلام بن أبي الحقيق في موضعه إن شاء الله»، جـ٢/ ٥٢. «وقد ذكرنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب»، جـ٢/ ٧٨.

(١) ولد الرسول يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل، جـ١/ ١٦١.

(٢) انظر الجزء الثاني من العقل إلى النقل: علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن.

(٣) «فحدثني ما أثق به من أهل العلم»، جـ٢/ ٣٨٧، وحدثني من لا أتهم جـ٢/ ٤١١/ ٤٨٦/ ٤٨٨/ ٥٠٦/ ٥٢٩.

(٤) «ويزعمون فيما يتحدث الناس والله أعلم..»، السابق جـ١/ ١٦٠، فيما يذكرون جـ١/ ١٤٥/ ٤٤٥.

(٥) السابق جـ١/ ٤٥/ ٧٨، اعتناق ثبان النصرانية، وصف تاج كسرى، خروج قلب أبرهة «فيما يزعمون»، شق صدر الرسول جـ١/ ٧٠-٧١/ كفالة أبي طالب/ ١٧٩، شل يد كاتب الصحيفة التي تقاطع الرسول وبني عبد المطلب وابن هشام جـ١/ ٣٤٧، قصة بحيري وخروج الغلام مع عمه إلى الشام للتجارة جـ١/ ١٨٠، الراهب بحيري وعلمه بالكتاب جـ١/ ١٨١، ظل ملكين محمد ومسيرة من الشمس وهما في الطريق إلى الشام للتجارة في أموال خديجة جـ١/ ١٨٧، فيما بلغني جـ١/ ٢٥١، وحدثني من لا أتهم جـ٢/ ٢٨٨.

(٦) السابق جـ١/ ٤٥١-٤٥٣.

(٧) «رأي ابن هشام فيها» جـ١/ ١٠٢/ ٤٧٧-٤٨٦/ ٤٩٥/ ٤٩٧/ ٥٠٠-٥٠١/ ٥٠٧/ ٥٠٨/ ٥١٥-٥١٧/ ٥٩١-٥٩٣ جـ٢/ ٩٦-٩٧. تفسير ابن هشام لبعض الغريب جـ١/ ٤٧٧-٤٨٦.

(٨) الأخدود جـ١/ ٥٥/ النشأة، الموطأ جـ١/ ٦١-٦٢، السنج أي الحجر، العصف ورق الزرع جـ١/ ٧٢، الإبل من الأبل أو البقرة جـ١/ ٧٣، البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي لغة جـ١/ ١٠٣. مكة أو بكة جـ١/ ١٢٣-١٢٥، التحنث جـ١/ ٢٢٧-٢٢٨. تفسير سورة الضحى جـ١/ ٢٣٢-٢٣٣، تفسير ابن هشام لبعض المفردات جـ١/ ٢٥٠-٢٥١. يافع أي مهلك، الصعيد أي الأرض جـ١/ ٨٥، الشطط

أو الفارسي. واستمر هذا التقلب عند كثير من المؤرخين[1].

ب- «مختصر سيرة الرسول» لمحمد عبد الوهاب(١٢٠٦هـ)[2]

ويستمر نموذج ابن هشام حتى الحركة الإصلاحية الحديثة، ولا يعني مختصر هنا اختصار نص سابق بل يعني سيرة مختصرة دون تطويل. ومع ذلك هناك إحساس بالاستطراد وضرورة العودة إلى موضوع السيرة. لا يضم أبوابا ولا فصولا. توجد فقط علامات تدل على بداية فصل مثل «ذكر» أو «قول» أو «حديث» أو «فصل» دون عنوان، مما يحتاج إلى بنية عقلية لا تتوافر عند السلفيين. ولا يحتوي على مقدمة تبين منهج السيرة وسبب تأليفها مع أنه شيخ الإسلام ويعتبر «الإمام مجدد القرن الثاني عشر»، وصورته في الثقافة الشعبية أنه أول المصلحين. لا ينعكس اتجاهه الإصلاحي في السيرة إلا نادرا. فالسيرة مجرد تجميع من كتابات القدماء إلا ما ندر. لا هدف لها ولا غاية إلا التأليف في العلوم القديمة وعلى طريقة القدماء. ولا يتساءل حول ما طرحه المحدثون حول العنف والقتل وضرب العنق وانتشار الإسلام بالسيف[3].

ويظل السلفي في كتابته للسيرة تقليدًا نصيًا مثل سير المؤرخين السلفيين وإن كان في الممارسات العملية ضد الموالد والأدعية النبوية وزيارة القبور، وتوسط الرسول بين الخالق والخلق. فالوهابية حركة ثورية على مستوى شبه الجزيرة العربية في تغيير العادات والتقاليد والممارسات الدينية الوثنية التي تراكمت منذ انتهاء الرسالة. ويرجع ذلك إلى قوة نموذج السيرة التاريخية منذ ابن إسحق وابن هشام أولا، وإلى عادة النقل عند القدماء وضعف النقد، نقد الروايات أو نقد العقل ثانيا.

مجاوزة الحق، تزاور أي تميل جـ١/ ٢٨٦، الوصيد الباب جـ١/ ٢٨٧، قُبلا عيانا جـ١/ ٢٩١، لنسفعا لنجذبن جـ١/ ٢٩٢، الميل كل شيء ذاب جـ١/ ٣٣٥، الجيد العنق جـ١/ ٣٢٩، القوقلة ضرب من المشي جـ١/ ٣٩٣. الجبت والطاغوت أي السحر والشيطان جـ١/ ٥٠١، الحفي المبالغ في الطلب جـ١/ ٥٠٧. الأكمه الذي يولد أعمى جـ١/ ٥١٦. مكاء التصغير، تصدية التصفيق، جـ١/ ٥٩٠... الخ.

(١) ابن خلدون ص٦٨.

(٢) محمد بن عبد الوهاب(١٢٠٦هـ) شيخ الإسلام، مختصر سيرة الرسول، الفيصلية(د.ت) مطبعة السنة المحمدية القاهرة جـ١/ ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

(٣) السابق ص٢٨/ ٣٦/ ١٣٣-١٣٤/ ١٦٢.

لذلك ساد المنهج التاريخي أسوة بالمؤرخين القدماء، تتبع الحوادث سنة بسنة منذ الهجرة حتى الوفاة بعنوان حوادث كل سنة دون تقسيم السنوات إلى مراحل بداية ووسط ونهاية مثل ابن إسحق وابن هشام[1]. وتذكر حوادث التاريخ كرصد دون دلالة على الرسالة[2]. ويذكر إسلام الصحابة كجزء من التاريخ، بداية الرسالة وانتشارها[3]. ولا تُستثمر بعض الملاحظات التاريخية من أجل اكتشاف دلالاتها مثل استمرار شعائر الحج. قبل الإسلام وبعده مثل السعي والطواف[4]. كما تبدو أهمية مصر في التاريخ الإسلامي وتأليف القدماء فيه[5]. ويحال إلى قدماء المؤرخين، ابن إسحق وابن سعد والواقدي والزهري وابن القيم[6].

كما يظهر المنهج النصي من الكتاب والسنة والشعر والمؤرخين القدماء، الآيات أكثر من الأحاديث لدرجة الضعف، والأحاديث أكثر بقليل من الأشعار[7]. في الآيات تظهر أسباب النزول[8]. وتذكر الآيات والأحاديث والأذكار مثل أي شيخ مصلح أو غير مصلح. ولا يستثمر بعضها مثل أحاديث آخر الزمان للتنبؤ بالمستقبل ومعرفة مصير الرسالة[9].

وتظهر بين الحين والآخر دعوات الإصلاح ومخاطبة الجمهور خاصة في بداية الكتاب، والدعوة إلى التذكر والاعتبار في معاني القصص لأن القصص جنود الله كما قال بعض السلف. معرفة الدين والعمل به تؤدي إلى الجنة. والجهل به وإضاعته إلى

---

(١) رصد الحوادث سنة بسنة من السنة الثانية عشرة حتى الستين، السابق ص٢٠٥-٢٢٧.
(٢) مختصر سيرة الرسول ص٢٠٣.
(٣) السابق ص٦٠/ ٧٨-٨٤.
(٤) السابق ص٤٣.
(٥) مثل ابن الجوزي: النصر على مصر، السابق ص٣٠.
(٦) ابن إسحق، السابق ص٤٣/ ٦٧/ ١٤١-١٤٣/ ١٤٧/ ١٥١/ ١٥٥/ ١٥٧/ ١٦٥/ ١٦٨/، ابن سعد ص٤٦، الواقدي ص٩٤، الزهري ص٥٤/ ٦٦/ ٩١/ ١٦٦، ابن القيم ص٥١/ ٥٤.
(٧) الآيات(١٥٣)، الأشعار(٧٧)، الأحاديث(٧٤).
(٨) مختصر سيرة الرسول ص١٢/ ٤٩/ ٥٣-٥٦/ ٥٩/ ١٠٥/ ١١١/ ١٢٣/ ١٥٣/ ١٥٨-١٥٩.
(٩) السابق ص١٢.

النار[1]. والتفرقة بين السنة والبدعة أحد مقاييس الإصلاح[2]. وكذلك الموالاة للأنصار والمعاداة لغيرهم[3]. هذه القصص هي أدلة مرتبة متتابعة وليست أدلة وحججا منطقية متتالية[4].

وقد يُعبر عن دلالات القصص في ترتيب مثل أهمية العلم والعمل[5]. وهي حجج الله على الخلق يوم القيامة[6]. وقد يكون الإسلام بريئا مما يمارسه البدو باسمه[7]. وهو نفس حال التتار الذين يقولون «لا إله إلا الله» دون أن يعملوا بحق التوحيد[8].

وتظهر خصائص الرسول حثيثا في أضيق حجم ممكن. وتخص موضوعا واحدا

---

(١) السابق ص٣، «فاحرص يا عبد الله على معرفة هذا الحبل الذي بين الله وبين عباده الذي من استمسك به سلم ومن ضيعه عطب، السابق ص٤ «إذا فهمت ذلك» ص٦، «فهذه المسألة أجل المسائل»، فمن فقهها فهو الفقيه ومن عمل بها فهو المسلم» ص٢١.

(٢) «ثم ابتدعوا في ذلك أمورا»، السابق ص٧١».

(٣) «فمن فهم هذا عرف أن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه وعيب دينه وإلا لو كان لأولئك المعذبين رخصة لفعلوا»، السابق ص٩١. «فيا لها من عبرة ما أبينها، ومن عظة ما أبلغها، ومن بيان ما أوضحه. لما يظن النبي كثير ممن يدعي اتباع الحق وأهله، من غير اتباع للحق لأجل غرض من أغراض الدنيا»، السابق ص٩١.

(٤) «فمن عرف هذه القصة وعرف ما عليه المشركون اليوم وما قاله ويقوله علماؤهم ولم يميز بين الإسلام الذي أتى به النبي وبين دين قريش الذي أرسل الله رسوله ينذرهم عنه، وهو الشرك الأكبر فأبعده الله فإن هذه القصة في غاية الوضوح إلا من طبع الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فذلك لا حيلة فيه ولو كان من أفهم الناس»، السابق ص٠٢.

(٥) «فإذا فهمت ما أنزل الله فهما جيدا. وفهمت ما عند من يدعي الدين اليوم تبين لك أمور: منها أن الإنسان لا يستغنى عن طلب العلم... ومنها أنك تعرف أن الإيمان ليس كما يظن غالب الناس اليوم بل ما ذكر في القلب وصدقه العمل»، السابق ص٢٢.

(٦) «فمن أهم ما على المسلم اليوم تأمل هذه القصة التي جعلها الله من حججه على خلقه إلى يوم القيامة»، السابق ص٤٢.

(٧) «فانظر ما بين هذا وبين ديننا، أن البدو إسلام، مع معرفتنا بما هم عليه من البراءة من الإسلام كله إلا قول «لا إله إلا الله». ولا تظن بأن أحدا منهم يكفر إلا أن انتقل يهوديا أو نصرانيا»، السابق ص٠٣.

(٨) وذلك أنهم بعد ما فعلوا بالمسلمين ما فعلوا وسكنوا بلاد المسلمين وعرفوا دين الإسلام استحسنوه وأسلموا ولكن لم يعملوا بما يجب عليهم من شرائعه. وأظهروا أشياء من الخروج على الشريعة لكنهم كانوا يتلفظون بالشهادتين، ويصلون الصلوات الخمس والجمعة والجماعة وليس كالبدو، ومع هذا كفرهم العلماء وقاتلوهم وغزوهم حتى أزالهم الله عن بلاد المسلمين»، السابق ص٠٣.

وهو الغزوات: مبايعة أصحابه في الحرب، الاستنصار بالله، مشاورة أصحابه، ترتيب الجيش، المبارزة بأمره، الألوية، توقيت الخروج، الخيلاء في الحرب[1].

جـ- «خلاصة سيرة الرسول» لعبد الله ابن الشيخ محمد عبد الوهاب(١٢٤٢هـ)[2]

وتستمر السيرة الإصلاحية مع زيادة في السلفية وقلة في النزعة الإصلاحية. ولقبه الإمام بدر الإعلام. وهو ضعف كتاب الأب من حيث الحجم ونفس العنوان. توفي الأب بالدرعية والابن بمصر التي حاربت الأب دفاعا من محمد علي عن وحدة الخلافة وبأمر السلطان. ويحال إلى إمام السلفيين ابن تيمية[3].يغيب أي موقف إصلاحي أو أي دلالة عصرية عن الإصلاح. يكتفي بتكرار ما قاله القدماء. وتتكرر أساليب الدعوة التقليدية، البشارة بالجنة تشجيعا، والتخويف بالنار تحذيرا. فمازال الإصلاح يدور في إطار المذاهب الفقهية الأربعة[4].

وهو مثل سيرة الأب بلا أبواب ولا فصول. إنما فقط «فصل» و «ذكر» و «قصة» وغيرها من المقولات العامة[5]. فتغيب البنية. ويحال إلى سيرة الأب[6]. ويستعمل المنهج التاريخي كذلك. وتستمر النبوة في الخلافة، عند الخلفاء الأربعة، وخلافة الحسين وصلحه مع معاوية[7]. ويتحول أحيانا إلى مجرد رصد[8]. وتسجل الحوادث عامًا بعد عام منذ الهجرة[9]. ويختلط مفهوم الطبقة بين التتابع الزماني والأولوية في الفضل في طبقات الصحابة[10].

---

(١) السابق ص٩٦-٩٧.

(٢) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب(١٢٤٢هـ): خلاصة سيرة الرسول، الفيصلية(د.ت)، المطبعة السلفية ومكتبتها، الروضة بمصر ١٣٧٩هـ.

(٣) السابق ص١٣١.

(٤) السابق ص٣٧٧.

(٥) فصل(٦١)، ذكر(١٤)، غزوة(٢٢)، قصة(٣)، خلافة(٤).

(٦) خلاصة(٢)، ص٧٩.

(٧) السابق ص٤٦٥-٥٠٦.

(٨) مثل رصد أوائل المسلمين، السابق ص٩٣-٩٦/ ٢٢١-٢٣٠، شهداء أحد ص٢٥٤-٢٥٦، السرايا ٣٢٢-٣٢٤، الغزوات ص٢٣٦-٢٧٣.

(٩) السابق ص٤٠٨-٤٠٩.

(١٠) السابق ص٥٠٢.

وتعتمد السيرة على القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ[1]. والقرآن أكثر من الحديث، والحديث أكثر من الشعر. ومن الآيات توضيح أسباب النزول[2]. ويظهر من بعض الآيات تداخل كلام الله مع البشر في الصياغة، واتفاق الوحي مع عمر في الحكم أربع مرات[3]. وتؤخذ روايات متأخرة لوصف التاريخ السابق. وتؤول بعض الأحاديث كي تنطبق على حوادث وقعت بعد وفاة الرسول مثل الخوارج باعتبارهم المنافقين الذين أشار إليهم الحديث[4]، ويحال إلى عديد من المؤرخين القدماء مثل ابن إسحق وابن هشام والواقدي والزهري[5]. وابن إسحق الأكثر إحالة[6]. ويعتمد على اقتباسات منهم بعلامة «انتهى»[7]. وتشرح بعض الألفاظ لغويا[8]. وتظهر بعض الأحاديث مركبة في طريقة صياغتها النمطية[9]. وأحيانا تتناقض بعض الروايات مثل انشقاق القمر وانحباس الشمس مع آيات أو أحاديث تجعلهما آيتين. لا ينكسفان ولا يتخسفان لموت أحد[10].كما تتناقض الأحاديث مع بعض الممارسات مثل زيارة قبور الأنبياء[11].

---

(١) الآيات (٣٣٥)، الأحاديث (٢٥٠)، الأشعار (١٣٩).

(٢) خلاصة سيرة الرسول (الابن) ص ٢٢/ ٩٢/ ١١٢-١٢٢-١٣١/ ٢٢٧/ ٢٦١/ ٢٧٠/ ٢٧٢/ ٢٨١/ ٢٨٤/ ٣٠٤-٣٠٦/ ٣٣٥/ ٣٨٥/ ٤٢٤/ ٤٣٢.

(٣) مثل «سبحانك هذا إفك عظيم» عبارة أبي أيوب، خلاصة سيرة الرسول(الابن) ص٢٧٥.

(٤) السابق ص٣٣٥/ ٤٠٨-٤٠٩، ومثل ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾.

(٥) السابق ص٣٦٥/ ٤٩٧.

(٦) ابن إسحق، السابق ص٢١٨/ ٢١٩/ ٢٧١/ ٣٣٢/ ٣٣٣/ ٣٣٦/ ٣٤٧/ ٣٧١/ ٣٨٩/ ٣٩٠/ ٣٩٥/ ٣٩٦/ ٤٠١/ ٤١١/ ٤١٥/ ٤١٨/ ٤٢١/ ٤٢٣/ ٤٢٨/ ٤٥٨/ ٤٥٩/ ٤٦١/ ٤٩١/ ، ابن هشام ص٢٥٠/ ٢٦١/ ٢٩٠/ ٣٤٨، الواقدي ص٣١٧/ ٣٣٤/ ٤٣٢/ ٤٩١، الزهري ص٤٦١-٤٦٢/ ٤٧٢/ ٤٩٢.

(٧) السابق ص٧٨/ ١٤٣/ ٢٤٢/ ٢٤٨/ ١٧٨/ ٣٠١/ ٣٠٨/ ٣١٠-٣١١/ ٣١٤/ ٣١٨/ ٣٢١/ ٣٣٢/ ٣٢٦/ ٣٣٥-٣٣٦/ ٣٦٢/ ٣٩٨/ ١٤٠/ ٤٠٧/ ٤١١/ ٤٤١/ ٤٥٤/ ٤٦٠/ ٤٦٢.

(٨) السابق ص٧٨/ ١٠٥/ ١٤٢/ ٤٣٧-٤٣٩/ ٤٤٣.

(٩) السابق ص٤٣٦-٤٣٧.

(١٠) «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»، السابق ص٤٤٢.

(١١) «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، السابق ص٤٦١.

كان يمكن للإصلاح أن يكون أكثر بروزا ووضوحا. وهو ما حاوله المصطلح الابن في الدروس المستفادة من الغزوات[1]. وهو ما يحدث بين الحين والآخر بتنبيه القارئ عليها[2]. فالتوكل ليس هو التواكل بل الاستعداد والأخذ بالأسباب أولا. والإيمان قول وعمل[3]. والغلو هو التطرف[4]. ومن أحيا أرضا ميتة فهي له[5]. ولا يحدد قصر السفر بمسافة[6]. ولا يطبق حد الرجم إلا اختيارا بعد أن أرجع الرسول الزانية ثلاث مرات حتى تضع حملها وحتى تفطم رضيعها وحتى يكبر ويستقل عن أمه[7].

د- «القبس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء» لمحمد طيب النجار (١٩٢٦م)[8]

وبالرغم من السير الإصلاحية إلا أن التأليف في علم السيرة بطريقة القدماء التي

(١) «في الإشارة إلى بعض ما في هذه الغزوة من الفقه واللطائف»، خلاصة سيرة الرسول(٢) ص٣٤٩-٣٥٨.

(٢) «فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم إذا خرج للجهاد ويعقد لذلك بجمع الصحابة واتخاذ الخيل والسلاح وما يحتاج إليه من آلات السفر فإذا رجع يتعرى عن ذلك ويرد الأمر كله إلى مولاه لا غيره... وهذا هو التوكل على الله حقا»، السابق ص٣٦٣.

(٣) «وفي هذه القصة أن الإيمان بالله مجموع هذه الخصال من القول والعمل»، السابق ص٤١٦.

(٤) «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من قبلكم»، السابق ص٣٧٧.

(٥) السابق ص٣٧٨.

(٦) «وفي هذا أوضح دليل على أن سفر القصر لا يحدد بمسافة معلومة ولا بأيام. ولا تأثير للشك في قصر الصلاة البتة»، السابق ص٤٥٣.

(٧) «مهلا يا خالد لا تسبها، فوالذي نفس محمد بيده لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»، السابق ص٤٠٨.

(٨) محمد الطيب النجار: القبس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. وينقسم الكتاب إلى أحد عشر فصلا: الأول على هامش السيرة أي الدين في شبه الجزيرة العربية، الثاني: حياة الرسول قبل البعثة،الثالث: من البعثة إلى الهجرة، الرابع الهجرة النبوية وتأسيس الدولة الإسلامية، الخامس القتال في الإسلام وغزوة بدر الكبرى. السادس غزوة أحد، السابع غزوة الأحزاب(الخندق). الثامن عمرة الحديبية وعمرة القضاء. التاسع من صلح الحديبية إلى فتح مكة. العاشر يوم الفتح ويوم حنين. الحادي عشر حجة الوداع ووفاة الرسول. الاتجاه الليبرالي عند طه حسين، محمد حسين هيكل، العقاد، نظمي لوقا.

دشنها ابن إسحق وابن هشام، الطريقة الزمانية التاريخية، مازالت مستمرة[1]. وهو التسلسل الطبيعي في حياة الرسول من الميلاد حتى الوفاة[2]. والشمائل مجرد خاتمة[3]. وقل حجم العرب قبل الإسلام في مقدمة وليس فصلا[4]. وأضيفت طريقة التأليف الحديثة، الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية[5]. تظهر الرسالة من خلال الرسول وليس الرسول من خلال الرسالة. وتركز على المعاني أكثر مما تركز على الوقائع. ويخصص جزء إلى «الدروس المستفادة من السير» حتى ولو كانت دروسًا تقليدية مثل النصر بعد الصبر، والفرج بعد الشدة، وانتصار الخير على الشر، والصدق على الغرور. وتظهر بعض الألفاظ الحديثة مثل «الكفاح»[6].

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر وبعض السير الحديثة[7]. فالقرآن مصدر للتاريخ، المصدر الأول، وأحيانا يظهر فيه كيف أعاد بناء الوحي قول البشر ورده عليهم[8]. والحديث والشعر مصدر ثاني. والمصادر الحديثة أقلها. وفي القرآن تظهر أسباب نزول الآيات طبقا للحوادث[9]. وتذكر متون الأحاديث دون أسانيدها. فالمهم هو المعنى وليس الرواية بعد أن استقر علم الحديث وتم تدوينه. وهو وقوع في الدور، القرآن والحديث مصدران للسيرة، والرسول هو المبلغ بها. فالرسول مصدر لنفسه. أما

---

(١) «وراعينا في التسلسل الطبيعي الذي تقتضيه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ فجر حياته إلى أن انتهى يومه الذي قدر الله له في هذه الدنيا ولحق بالرفيق الأعلى»، السابق ص٣.

(٢) ذكر طرف من أخلاقه صلى الله عليه وسلم، السابق ص٢٤٢-٢٤٧.

(٣) السابق ص٣-١٤.

(٤) السابق ص٦-١٤.

(٥) السابق ص١٦٤-١٦٥.

(٦) «وقد رجع الرسول بعد ذلك إلى مكة، فوجد قومه يقفون بالمرصاد لكي يمنعوه من الدخول. فاستجار بالمطعم بن عدي فأجاره المطعم، وتسلح هو وبنوه لحمايته حتى دخل مكة، وطاف بالبيت. ثم انصرف إلى منزله في حراسة المطعم وأولاده ليعود إلى الكفاح من جديد وليستأنف تبليغ الدعوة في هذا الجو العاصف المليء بالأخطاء والمخاوف»، السابق ص٦٩.

(٧) القرآن (١٢٠)، الشعر (٣٤)، الحديث (٣٣).

(٨) قول الرسول لأبي بكر في الغار أثناء الهجرة «لا تحزن إن الله معنا»، القبس الوضاء ص٨٩.

(٩) السابق ص٤٦.

المصادر الحديثة فهي قليلة سواء من العرب أو من المستشرقين[1]. ولا توجد هوامش في الكتاب أسوة بالتأليف الحديث. ويكتفي بالمصادر والمراجع في آخره.

وتظهر بعض الجوانب الإصلاحية في المدرسة الأزهرية المستنيرة. فالمعجزات التي تحول البعض منها إلى خرافات في الثقافة الشعبية قليلة مع بقاء البعض منها مثل رواية شق الصدر، وتدخل الملائكة في بدر[2].

وهناك بعض ما تبقى من تشخيص الرسالة في الرسول مثل أزواج النبي دون بوله وشعره ونعاله. صحيح أن عائشة شاركت في الفتنة الصغرى ضد عليّ ولكن باقي أزواجه عشن في الخفاء[3]. وقد يكون الدافع على ذلك الدفاع عن الرسول ضد الشبهات[4]. والحجة أنه كان زواجا للمصلحة العامة، ونسيان الجوانب البشرية في حياة الرسول، حاجته إلى حنان الأم في شخصية خديجة وإلى الطفلة في شخصية عائشة وإلى أنوثتها في شخصية زينب بنت جحش وجورية بنت الحارث وصفية بنت أمية[5].

ومازال «الإشراق» الذي ساد السيرة المتأخرة، والتوحيد بين محمد والنور والجاهلية والظلام كما هو الحال في المدائح النبوية «البردة» ونهجها. ويدل على ذلك العنوان «القبس الوضاء».

وبالرغم من الوضوح والتركيز دون التشعيب والدخول في تفاصيل إلا أن الأسلوب الخطابي هو الذي ساد طبقا لوسائل التعبير الإصلاحية مثل: «ما أشبه الليلة بالبارحة»،

---

(١) من العرب: محمود شتيت خطاب: الرسول القائد. ومن المستشرقين إسرائيل ولفسون، تاريخ اليهود في جزيرة العرب، السابق ص١٣٢/ ١٤٣.

(٢) السابق ص٢٤٨-٢٥٠.

(٣) السابق ص٣٣-٣٥/ ٧٢/ ١١٨/ ١٥١.

(٤) السابق، أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ص٢٣٢-٢٤٢.

(٥) «وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجلوا أغواش الشك في مثل هذه النقطة الغامضة حتى لا تضل فيها الأفهام، وتزل بها الأقدام. وقد نشطوا لذلك، والحمد لله، على توالي العصور والأزمنة، وبينوا الدوافع القوية التي كانت تحيط بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من كل واحدة من زوجاته الكثيرات والتي كانت تجعل هذا الزواج هادفا إلى المصلحة العامة دون سواها»، السابق ص٢٣٢-٢٣٣.

التاريخ يعيد نفسه، وما النصر إلا من عند الله، تبددت أحلامهم»[1].

هـ - «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري (١٩٥٦)[2]

وتستمر السير التقليدية نموذج ابن هشام حتى الحركات الإصلاحية الحديثة دون قراءة للسيرة في أحوال العصر أو قراءة لأحوال العصر في السيرة. العنوان الرئيسي صوفي. والعنوان الفرعي به صفة من الشمائل «سيد المرسلين» بالرغم من تقلص هذا المحور إلى الحد الأدنى في آخر حوادث السنة الحادية عشرة مع معجزاته إلى مقدار التسع[3]. وقد يكون ذلك أحد أوجه الإصلاح على نحو لا شعوري، تقليص الرسول إلى الحد الأدنى لحساب الرسالة. لذلك لا تظهر ألقاب التفخيم والتعظيم مثل «النسب الشريف» إلا نادرا[4]. لا تظهر دلالة ولا حكمة ولا يبرز معنى. إنما هي سيرة من شيخ بالرغم من عقلانيته وانتسابه إلى تيار الإصلاح في الأزهر. كان الدافع على كتابة السيرة أمنية التأليف في سير القواد العظام بطريقة تخلو من الحشو والتطويل والتعقيد. وهي أمنية الكثير[5]. وقد تكون الغاية اتباع الرسول[6]. لذلك أتى تعليمًا مدرسيًا واضحًا إلى درجة التسطيح. تظهر فقط بعض المصطلحات الحديثة مثل حركة الأفكار والمستضعفين، والسياسة الدينية[7].

وتتبع السيرة المنهج التاريخي، رصد الحوادث عاما بعد عام من السنة الأولى حتى السنة الحادية عشرة دون أبواب أو فصول. تبدأ أحداث السنة الأولى من الهجرة. قبلها

---

(١) السابق ص١٦٢-١٦٥ «فيا باغي الشر أقصي، فعلى الباغي تدور الدوائر، ويا ساعيا إلى الظلم حسبك، فإنك تظلم نفسك قبل أن تظلم غيرك وإن عدل القضاء يتعقبك في الدنيا والآخرة..، ويا أيها المكروب الذي أظلمت أمامه السبل وأحاطت به الحيرة إن الصبر والإيمان والثقة بالله ذلكم هو المنارة الهادية التي تؤنس المستوحش، وترشد الحائر، وتهدي الضال في دياجير الحياة»، السابق ص١٦٤-١٦٥. «ونعود فتقول لهؤلاء المرجعين الذين يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رجل شهواني: رويدكم أيها المضللون وحسبكم..»، السابق ص٢٣٦.

(٢) محمد الخضري(الشيخ): نور اليقين في سيرة سيد المرسلين تحقيق وشرح نواف الجراح، دار صادر، بيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

(٣) شمائله معجزاته، السابق ص١٩٨-٢٢٥.

(٤) السابق ص٨-٩.

(٥) السابق ص٩.

(٦) «ونسأله أن يوفق قارئي السيرة إلى اتباع رسول الله وأصحابه وأنصاره آمين»، السابق ص٢٢٥.

(٧) السابق ص٢٥/ ٧٢/ ١٧١.

حياة الرسول قبل الهجرة[1]. والحوادث الغالبة على هذه السنوات هي السرايا ثم الغزوات ثم الوفود ثم الرسائل[2]. وهي حوادث مصمتة أشبه برصد تاريخي كما يفعل قدماء المؤرخين. وكتبت سيرة أخرى للخلفاء استكمالا للمنهج التاريخي[3].

وتقل الشواهد النقلية إلى الحد الأدنى،القرآن والحديث والشعر اعتمادا على التطور الطبيعي للسيرة وحياة الرسول [4]. شواهدها داخلية وليست خارجية، من طبيعة الأشياء وليست من النصوص[5]. وتعتمد على الكتب المقدسة السابقة لبيان التطور الطبيعي للوحي من اليهودية إلى المسيحية إلى الإسلام، من مصادرها الأصلية وهو الأقل أو من رواية القرآن لها وهو الأكثر. كما يعتمد على بعض جوانب التراث الصوفي مثل «الإحياء» للغزالي[6]. وتظل الروايات الطويلة والمتعددة للصياغات كما هي دون تساؤل مثل روايات الإسراء والمعراج وخطبة حجة الوداع[7]. والسؤال: من الذي كان يكتب الرسائل للملوك والقياصرة والكياسرة وكيف، إملاء أو تأليفا؟ وأحيانا تبدو القسمة العقلية للموضوع مثل شروط صلح الحديبية؟[8].

و- «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي(١٩٩٩م)[9]

وقد تصل الحركة الإصلاحية إلى أعلى مداها في مصر والهند، والأفغاني وإقبال والندوي يربط بينهما. والمودودي وسيد قطب في هذا العصر حلقتان متصلتان[10].

(١) السابق ٩-٧٢.
(٢) هو «إتمام الوفا بسيرة الخلفا»، السابق ص١٩٦.
(٣) السرايا(٣١)، الغزوات(٢٨)، الوفود(٢٤)، الرسائل(٤).
(٤) القرآن(٢١٦)، الحديث(١٥٠)، الشعر(١٨).
(٥) تبشير التوراة والإنجيل به، نور اليقين ص٢٢-٢٥.
(٦) السابق ص١٢٨.
(٧) السابق ص٥٧-٥٨/ ١٨٥-١٨٦.
(٨) السابق ص١٣٩.
(٩) أثر أبي الأعلى المودودي على الجماعات الدينية المعاصرة، الإمام الشهيد أثر سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١ جـ٥، الحركات الدينية المعاصرة، ص١٢٣-٣٠٠.
(١٠) العلامة الداعية الحكيم أبو الحسن علي الحسني الندوي، السيرة النبوية، دار القلم. دمشق ط٤/ ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م. والمؤلف حاصل على جائزة الملك فيصل عام ١٩٩٨.

ويوصف الندوي بأنه العلامة الداعية الحكيم. ومن قدّم الكتاب العلامة الداعية. والأصل عربي غير مترجم. وهو بلا أبواب ولا فصول بل اثنان وثلاثون موضوعا موزعة على سبعة عناوين كبيرة بلا ترقيم. الأول العصر الجاهلي، نظرة إجمالية على الوضع الديني وإطلالة على البلاد والأمم في القرن السادس المسيحي وجزيرة العرب قبل البعثة[1]. والثاني من الولادة الكريمة إلى البعثة العظيمة. وتبدو ألفاظ التعظيم والتمجيد[2]. ولا يوجد نقد إلا لقصة الراهب بحيري[3]. والثالث العهد المكي من البعثة إلى الهجرة مع الإسراء والمعراج[4]. والرابع الهجرة إلى المدينة[5]. والخامس العهد المدني وهو أكبر الأقسام. يشمل الحياة في المدينة والإذن بالقتال، ومعركة بدر الحاسمة وغزوات وسرايا بين بدر وأحد، وإجلاء بني النضير، وغزوة الخندق أو الأحزاب، وغزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق، وحديث الإفك، وصلح الحديبية، ودعوة الملوك والأمراء، وغزوة خيبر وغزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين والطائف وتبوك، وعام الوفود وحجة الوداع، والوفاة وأزواجه وأولاده وأسباطه[6]. ونسبه وكأنهم جزء من السيرة. ويبين التركيز على الغزوات أن الانطلاقة كانت من الحجاز بعد فتح مكة إلى الجنوب مع الاتجاه من المدينة إلى مكة. وقبل فتح مكة كان إلى الشمال. والسادس الأخلاق والشمائل[7]. والسابع فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ورسالتها العالمية الخالدة مع ولادة عالم جديد وإنسان جديد[8]. وهو التبويب التاريخي، البداية والوسط والنهاية الذي أسسه ابن إسحاق وابن هشام.

وكعادة التأليف الحديث، السيرة مزودة باثنتين وثلاثين خريطة لشبه الجزيرة العربية لبيان الغزوات وموقعها الجغرافي وإدارة المعارك. كما بآخرها ملحقان، الصحيفة

---

(١) السابق ص٢١-٩٥.
(٢) السابق ص٩٧-١١٣.
(٣) السابق ص١٠٤-١٠٥.
(٤) السابق ص١١٥-١٥١.
(٥) السابق ص١٥٥-١٧٠.
(٦) السابق ص١٧١-٤٢٢/ ص٤٢٣-٤٥٦.
(٧) السابق ص٤٥٩-٤٨٧.
(٨) السابق ص٩٦/ ٤١٥-٤٢٢.

والغزوات، وتفاصيل أسمائها، وقوة الطرفين، ومكانها وتاريخها وأهدافها[١].

والمصادر نصية من القرآن والحديث والشعر[٢]. والحديث أكبرها. تعتمد على السير المعاصرة. كما تعتمد على الموروث والوافد معا، تختار منهما ما يفيد السيرة. والمؤلف صاحب ثقافة إنجليزية مستنيرة وواضحة كما كان كتاب السير في مصر مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل أصحاب ثقافة فرنسية. ويستعمل الإحالات إلى المراجع والهوامش أسوة بالتأليف الحديث مع نصوص عربية أو مترجمة أو في أصلها الإنجليزي[٣]. وهذا لا يمنع من الهجوم على المستشرقين وافتراءاتهم على الإسلام مثل استمداد القرآن من بحيرا الراهب[٤].

والسيرة سهلة واضحة مؤثرة تعليمية تخاطب العقل والوجدان. المعجزات فيها أقل. أثرت أعمال المؤلف السابقة مثل «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين في الجيل الحالي؟» ومع ذلك المعجزات موجودة ساعة الولادة والإسراء والمعراج على الأقل[٥]. ويظهر الأسلوب الخطابي في العنوانين الأخيرين «فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة» و«ولادة عالم جديد وإنسان جديد»[٦].والواقع الإسلامي في السودان والصومال وفلسطين والعراق مناقض تماما.

---

(١) السيرة النبوية الخرائط والرسوم والمخطوطات، ص٣٠/ ٦١-٦٢/ ٨١-٨٢/ ٩٦/ ١٥٢/ ١٩٢/ ٢١٠-٢١١/ ٢٢٦/ ٢٢٩-٢٣٠/ ٢٤٤/ ٢٤٨/ ٢٥٨/ ٢٦٧-٢٨٦/ ٢٧٤/ ٢٨٥-٢٨٦/ ٢٨٩-٢٩١/ ٢٩٣/ ٣١٣-٣١٤/ ٣٢٦/ ٣٣٣-٣٣٤/ ٣٥٢/ ٣٥٨/ ٣٦٦/ ٣٨١-٣٨٢/ ٣٨٩-٣٩٢، الملحقان: الصحيفة ص٤٨٨-٤٩١. الغزوات ص٤٩٢-٥٠٢.

(٢) الأحاديث(٣٥٦)، الآيات(١٨٧)، الأشعار(٢٢).

(٣) السيرة النبوية ص٢٤.

(٤) السابق ص١٠٦.

(٥) السابق ص١٠٠.

(٦) مثل «إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات، قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمدية كما وكيفا، البعثة المحمدية أنقذت النوع البشري من الشقاء والهلاك، مهمة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد وطبيعة عمل الأنبياء، تصوير العصر وتهيؤه للانهيار والانتحار. وللبعثة المحمدية آثار ستة في تاريخ الإنسان: التوحيد النقي الواضح، الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، إعلان كرامة الإنسان وسموه، محاربة اليأس والتشاؤم وبعثة الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان، الجمع بين الدين والدنيا، وتوحيد الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة، تعيين الأهداف والغايات في ميادين العمل والكفاح»، السابق ص٤٥٩-٤٨٧.

ز- «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي

والتأليف في السيرة مستمر بمفردها أو هي جزء من مشروع كلي[1]. وله رواج كثير[2]. ومع ذلك لا يضيف جديدا. ولا يعيد قراءتها من منظور العصر. تتبع نموذج ابن هشام وتعود إليه، نموذج البداية والوسط والنهاية. البداية ما قبل البعثة والبعثة. والوسط الهجرة والمدينة، والنهاية حجة الوداع والوفاة. لذلك أتت في ستة أبواب، وكل باب من عدة فصول أكبرها المدينة، أحد عشر فصلا عن الغزوات[3]. وكل فصل مكون من عدة بحوث. والبابان الأخيران بلا فصول.

وهناك مقدمة منهجية عن مصادر السيرة، وقواعدها، ومنهج الجمع والتصنيف. فمصادر السيرة: القرآن والحديث وكتب المغازي والسير، والدلائل والشمائل، وكتب الأدب واللغة والشعر. ومن القواعد تقديم ما جاء في كتب الحديث الصحيحة من روايات على ما جاء في كتب المغازي، وضرورة الإسناد في قبول الرواية التاريخية خاصة في روايات السيرة. أما منهج الجمع والتصنيف فيقوم على عدة خطوات: ترتيب الأحداث التاريخية للسيرة النبوية ووضعها تحت عناوين جانبية، متن الحديث الأكثر فائدة، والأجمع للمعاني، تخريج الأحاديث، تقديم الصحيحين، تقديم كتب السنة على كتب المغازي، الحكم على صحة المرسل، ذكر الفوائد المستنبطة من بعض الأحاديث، شرح غريب الألفاظ[4].

ونظرا لاعتماد السيرة على الحديث، والحديث رواية، والرواية رؤية، تتعدد الرؤى بتعدد الروايات. لذلك شملت خمسا وثلاثين قصة. والقصة أقرب إلى الخيال من الرواية. والرواية حادثة مرئية مدركة من خلال الذات. فقد آثرت بعض السير الحديثة

---

(١) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، مؤلف جامع للسيرة النبوية المشرفة مرتب حسب الوقائع والأحداث، اقتصر فيه مؤلفه على الأحاديث الصحيحة. تقديم د. عمر سليمان الأشقر، راجعه د. همام سعيد، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن جـ١ / ٨ . ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.

(٢) صحيح السيرة النبوية وصل إلى الطبعة الثامنة.

(٣) أ- ما قبل البعثة(٤٠)، ب- البعثة(٩٤)، جـ - الهجرة(٢٤)، د- المدينة(٤٧٤)، هـ- حجة الوداع(٣٤)، و- الوفاة(٤٣).

(٤) صحيح السيرة النبوية ص١٣-٢٠.

الاعتماد فقط على صحيح الحديث من أجل استنباط صحيح السيرة. وهو ما يدل عليه العنوان الرئيسي «صحيح السيرة النبوية» والعنوان الفرعي «مؤلف جامع للسيرة النبوية المشرفة، مرتب حسب الوقائع والأحداث، اقتصر فيه مؤلفه على الأحاديث الصحيحة». تسقط الشمائل والخصائص. وتعود إلى الرسالة دون الرسول. وتقل المعجزات، ولا يوجد باب أو فصل خاص بها.

تعتمد على الحديث أكثر مما تعتمد على القرآن والشعر[١]. ومازالت بعض الأحاديث تعارض العقل وروح الإسلام مثل التفاخر بالأنساب[٢]. وأحاديث الاصطفاء كلها في مواجهة اليهود، شعب الله المختار[٣]. وهي أحاديث منها ما يبدأ بالأنا وهو ما يرفضه الرسول. تفرق بين القبائل والبيوت وتفاضل بينها وهو يعارض المساواة بين البشر جميعا. أما خير القرون ففي الزمان والعصور، الأخلاق والنظم السياسية وليس الأنساب[٤]. ومن بعض آيات القرآن تبدو أسباب نزولها[٥]. ويبدو القرآن مواكبا للحوادث. وبعضها تكشف بلاغته وقدرة الآية على إعادة صياغة قول الرسول[٦]. كما يتم الاعتماد على السابقين[٧]. وتؤخذ منها الاقتباسات[٨]. كما يتم استعمال بعض

(١) الحديث(٣١٢)، القرآن(١٧٢)، الشعر(١٦)، «ولقد اعتمدت في جمع هذه الدراسة على المصدر الثاني كمصدر رئيسي وأصيل في كل الأحداث، وعلى المصدر الثالث حين يتعذر عليّ أن أجد في كتب الحديث ومصنفاته ما يسد ثغرة الحديث الذي أبحث عنه»، السابق ص١٣.

(٢) مثل «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن، الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» السابق ص٣٤-٣٥.

(٣) «إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، «أيها الناس من أنا؟... أنا محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب... إلا أن الله خلق خلقه فجعلني من خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين. ثم جعلهم قبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم جعلهم بيوتا فجعلني من خير بيت، أنا خيركم بيتا وخيركم نسبا»، السابق ص٢٧.

(٤) «بُعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»، السابق ص٢٦.

(٥) السابق ص١١٧-١١٨، ص٤٢٨.

(٦) ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، السابق ص١٧٥، ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، ص٢٣٤، «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، ص٤٤١.

(٧) مثل ابن حجر، والماوردي، السابق ص٣٠٩-٣١٠.

(٨) بعلامة «انتهى».

نصوص الكتب المقدسة السابقة لبيان التواصل بينها،وتنبؤ السابق باللاحق[1].

وبالرغم من الاعتماد على النقل إلا أن بعض القسمة العقلية تظهر أحيانا مثل أنواع النكاح في الجاهلية، بنود وثيقة الحلف بين المهاجرين والأنصار، أسباب خطأ بعض الباحثين، الفوائد المأخوذة من بعض الأحاديث. كما تستنبط بعض الفوائد من القصص أو الدروس المستفادة[2]. ومع ذلك بعض آثار السير القديمة مازالت قائمة مثل بعض المعجزات مثل اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ[3].

٢- السيرة والتاريخ:

أ- تاريخ آل البيت للأئمة الأربعة[4]

والسيرة جزء من آل البيت. فلا فرق بين الرسول والإمام، بين النبوة والإمامة. الرسول واحد والأئمة سبعة عند الإسماعيلية واثنا عشر عند الإمامية. فالسيرة تخضع للفرق. لم يكتبها مؤرخ أو محدث بل نقلت عن الأئمة الأربعة الباقر والصادق والرضا والعسكري الذين نقلوها بدورهم عن آبائهم وبرواية كبار المحدثين والمؤرخين، أحد عشر راوية وآخرون[5]. فهي رواية شفاهية. وآل البيت هم الرسول وفاطمة وعلي وأولاده الأحد عشر. فالسيرة سيرة الأئمة أكثر منها سيرة الرسول[6].وهي تواريخ

---

(١) السابق ص٢٩.

(٢) السابق ص٣٥/ ٢٠٤-٢٠٧/ ٣٣٣/ ٣٨٥-٣٨٧.

(٣) السابق ص٣٧٩.

(٤) تاريخ آل البيت، نقلا عن الأئمة الباقر والصادق والرضا والعسكري عن آبائهم عليهم السلام، وبرواية كبار المحدثين والمؤرخين، نصر الجهضمي والفريابي وابن أبي الثلج والعمي وابن همام والخصيبي والذارع وابن الخشاب وابن النجار وابن طاوس والأربلي وغيرهم، تحقيق السيد محمد رضا الحسيني، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لوفاة العلامة المجلسي(قدس سره ١١١٠هـ)، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، سلسلة مصادر بحار الأنوار(١٠) ط١/ بيروت(د.ت).

(٥) وفي رأي آخرين المؤلفون خمسة فقط: نصر بن علي الجهضمي، الإمام الرضا، أحمد بن محمد الفاريابي، ابن أبي الثلج البغدادي، ابن الخشاب، السابق ص٥١.

(٦) السابق ص١٥-٢٧، «عن نصر بن علي الجهضمي قال: سألت أبا الحسن، علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أعمار الأئمة صلوات الله عليهم قال: حدثني أبي موسى بن جعفر. قال: حدثني أبي جعفر بن

أشخاص دون دلالة على الرسالة إلا فيما ندر. هو أقرب إلى التاريخ الشيعي وأئمة التشيع خارج عن موضوع السيرة. تاريخ صرف كما يدل على العنوان. هو نص صغير إخباري باستثناء عبارتين عن الاضطهاد والصمت[1]. وتوصف فاطمة بأنها «المجهولة قبرا، المدفونة سرا، المغصوبة جهرا»[2]. ومع الأئمة تأتي أمهاتهم مع أم النبي. وتظهر ألقاب التعظيم عند الشيعة مثل الباب والقائم[3]. كما تظهر عبارات المديح المعروفة للنبي «صلى الله عليه وآله» بدلا من «وسلم»، والأئمة «عليهم السلام» سواء في الأصل أو عند الراوي أو المحقق[4]. هي مجرد رصد أسماء ذرية واحدة. يعتمد على القرآن والحديث. والحديث هو حديث الأئمة وليس حديث الرسول. ويخلو من الأشعار. مع أن الشعر ديوان العرب[5].

ويتكون من سبعة فصول: الأول أعمار النبي والأئمة بمجرد عدد سنوات حياتهم. وتتراوح أسماؤهم بين علي والحسن والحسين ومحمد وجعفر وموسى. ويأتي القائم والمهدي في النهاية[6]. والثاني أولاد النبي والأئمة تركيزا على الذرية والوراثة وهم ستة عشر نسلا[7]. لأمير المؤمنين على أربعة أولاد. وتظل فاطمة هي الأم. وهما أكبر

محمد، عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قال: السابق ص٦٧، «قال الفرياني حدثني أبي قال الفرياني، قال أخي السابق ص٨٧. قال الفرياني حدثني أخي عبد الله بن محمد.. حدثني أبي، حدثني ابن سنان عن أبي بعير»، السابق ص٨٤/ ٨٦. السابق ص٩١.

(١) «لو أذن الله لنا في الكلام لزالت الشكوك، يفعل الله ما يشاء»، السابق ص١١٦.

(٢) السابق ص١٤٣.

(٣) السابق ص١٤٧/ ٢٥١.

(٤) السابق ص٦٥.

(٥) الحديث (١٢)، الآيات(٣).

(٦) هم: الرسول أمير المؤمنين، فاطمة الزهراء، الحسن، الحسين، علي بن الحسين، محمد بن علي، جعفر بن محمد الصادق، موسى بن جعفر، علي بن موسى، محمد بن علي، علي بن محمد، الحسن بن علي، القائم، المهدي، السابق ص٦٥-٨٨.

(٧) هم: ولد النبي، ولد أمير المؤمنين من فاطمة، من أعقب من ولد أمير المؤمنين من خلف أمير المؤمنين من أزواجه، ولد أمير المؤمنين من غير فاطمة، ولد الحسن، ولد الحسين، ولد علي بن الحسين، ولد محمد بن علي الباقر، ولد جعفر بن محمد الصادق، ولد موسى بن جعفر، ولد علي بن موسى الرضا، ولد محمد بن علي،

الفصول. والثالث أسماء أمهات النبي والأئمة[1]. فالأمهات لهن دورهن في الذرية مثل الآباء. والرابع ألقاب النبي والأئمة[2]. وتدل كلها على التفخيم والتعظيم. ويتكرر بعضها لوصف مختلف الأئمة مثل الوصي والوفي والهادي والصابر والمرتضي والنقي. وهي ستة، أربعة دون تكرار[3]. والخامس كني النبي والأئمة[4]. والسادس قبور النبي[5]. والسابع أبواب النبي[6]. وهي أقرب إلى الخصائص والشمائل، المحور الثاني في السيرة. هنا تخرج السيرة من الرسالة إلى الرسول، ومن المحور الأول إلى المحور الثاني كلية بولادة قيصرية وليس بولادة طبيعية كما حدث من الترمذي في الشمائل من قبل.

ويمكن تصنيفها من حيث الأشكال الأدبية في نوعين. ألقاب مزدوجة. ويكون الازدواج إما بالإضافة، مضاف ومضاف إليه[7]. وتكون بالوصف، موصوف وصفة[8]. وتكون بالجر، جار ومجرور[9]. والألقاب الفردية ذات صلة بالله أو بالرسول والأنبياء أو

ولد علي بن محمد، ولد الحسن بن علي، ولد محمد بن الحسن القائم المهدي، السابق ص٨٩-١١٧.

(١) السابق ص١١٩-١٢٥.

(٢) السابق ص١٢٧-١٣٣.

(٣) ألقاب النبي مثل: حبيب الله، خاتم النبيين، سيد المرسلين. ألقاب فاطمة: البتول، الزهراء، الحصان، السيدة، أم الأئمة. ألقاب علي: سيد الأوصياء، قائد الغر المحجلين، الصديق الأكبر، الفاروق الأعظم، قسيم الجنة والنار، الوحي. ألقاب الحسن والحسين: سبطا رسول الله، سيدا شباب أهل الجنة. ألقاب الحسن: الأمير، الحجة، الكفي، السبط، الولي. ألقاب الحسين: السيد، الطيب، الوفي، المبارك، الناقع، الدليل على ذات الله. ألقاب علي بن الحسين: زين العابدين، سيد الساجدين، سيد العابدين، ذو الثخنات. ألقاب محمد بن علي: الشاكر، الهادي، الأمين. ألقاب جعفر بن محمد: الفاضل، الطاهر. ألقاب موسى بن جعفر: الكاظم، الصابر، الصالح. ألقاب علي بن موسى: الرضا، الصابر، الوفي. ألقاب محمد بن علي: المرتضي القانع، الوصي. ألقاب علي بن محمد: المرتضي، النقي. وألقاب الفاتح: الهادي، المهدي، السابق ص١٢٩-١٣٣.

(٤) السابق ص١٣٥-١٣٩.

(٥) السابق ص١٤١-١٤٤.

(٦) السابق ص١٤٥-١٥١.

(٧) مثل: حبيب الله، خاتم النبيين، سيد المرسلين، أم الأئمة، سيد الأوصياء، قائد الغر المحجلين، قسيم الجنة، سبط رسول الله، سيد شباب أهل الجنة، زين العابدين، سيد العابدين، ذو الثخنات(١٢).

(٨) مثل: الصديق، الأكبر، الفاروق الأعظم(٢).

(٩) الدليل على ذات الله عز وجل(١).

بالأئمة[1]. وقد تفيد الإمارة والسيادة والقيادة[2]. وقد تفيد الإخلاص للجماعة[3]. كما تفيد الأخلاق والطهارة[4]. وأخيرا قد تفيد القهر والصبر[5]. وقد يفيد بعضها القدرة على الحكم في الآخرة على الناس بالجنة أو النار[6]. ويمكن إضافة الصورة الفنية[7].

أما كنى النبي والأئمة فإنها لا تتجاوز «أبو فلان»[8]. وهو الابن، الأكبر أو الأصغر أو الوحيد. هناك صورة واحدة لعلي هي «أبو تراب» التي أعطاها له الرسول عندما وجده نائما ونفض عنه التراب. ويسمى الناس باسم النبي ولا يكنوا بكنيته. الاسم عام، والكنية خاصة. ومع ذلك فكنية المهدي عند الشيعة أبو القاسم[9].

وتخصيص فصل لقبور النبي والأئمة هو بداية تقديس الأمكنة وزيارة القبور التي عارضها الوهابيون وأهل السلف عامة[10]. أكبر القبور وأربعة منها بالبقيع، قبور الشهداء والتي زارها الرسول في أيامه الأخيرة. وثلاثة بالمدينة، واثنان ببغداد مقابر قريش، واثنان بسر من رأى، وواحد بكربلاء، وواحد بطوس. أما القائم المنتظر وهو المهدي فلا يعلمه إلا الله لأنه لم يظهر بعد.

---

(1) مثل: حبيب الله، الدليل على ذات الله، خاتم النبيين، سيد المرسلين، أم الأئمة، سبط رسول الله، الوحي، الولي، المبارك، المتوكل(10).

(2) مثل: سيد الأوصياء، قائد الغر المحجلين، الصديق الأكبر، الفاروق الأعظم، الأمير، الحجة، الكفي، السيد، زين العابدين، سيد الساجدين، سيد العابدين، الهادي، السيد (13).

(3) مثل: الوفي، النافع، الأمين(3).

(4) مثل: الطيب، الشاكر، الفاضل، الطاهر، المرتضي، النقي، التقي، المهدي(8).

(5) مثل: الكاظم، الصابر، القانع، الرضا(4).

(6) مثل: قسيم الجنة والنار، سيد شباب أهل الجنة(2).

(7) مثل: الحصان، البتول، الزهراء(30).

(8) الرسول: أبو القاسم، أبو إبراهيم. علي: أبو الحسن، أبو الحسين. الحسن بن علي: أبو محمد. الحسين بن علي: أبو عبد الله علي بن الحسين: أبو الحسن، أبو محمد، أبو بكر، أبو الحسين. محمد بن علي: أبو جعفر. جعفر ابن محمد: أبو عبد الله، أبو إسماعيل. موسى بن جعفر: أبو الحسن، أبو إبراهيم. علي بن موسى: أبو الحسن. محمد بن علي: أبو جعفر علي بن محمد. أبو الحسن: الحسن بن علي: أبو محمد القائم: أبو القاسم.

(9) تاريخ آل البيت ص137-139.

(10) النبي بالمدينة، علي بالغري، فاطمة بالمدينة في بيتها الروضة أو بالبقيع، الحسن بالبقيع، الحسين بكربلاء، علي بن الحسين بالبقيع، محمد بن علي بالبقيع، جعفر بن محمد بالبقيع، موسى بن جعفر ببغداد أو في مقابر قريش، علي بن موسى بطوس، محمد بن علي ببغداد، علي بن محمد بسر من رأى، الحسن بن علي العسكري، بسر من رأى، القائم المنتظر لا يعلم قبره إلا الله، السابق ص143-144.

ولما كانت للخلافة إمامة أو ولاية أو وصاية وكان للنبي خليفة أو إمام أو وصي أو ولي فإنه يسمى الباب أي مودع أسراره ومفسر قرآنه وحديثه[1]. وقد يكون الباب لإمامين[2].

ب- «الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء» لابن قليج (٧٦٢هـ)[3]

وتستمر السيرة بضم سيرة الرسول وسيرة الخلفاء حتى القرن الثامن. وهو معنى العنوان. لذلك تنقسم السيرة إلى قسمين أولا السيرة النبوية[4]، ثانيا «تاريخ الخلفاء»[5]. والأول أكبر من الثاني أربع مرات، والثاني حوالي ربع الأول. فمازالت النبوة لها الأولوية كمًا على الخلافة. ولا يتكون كل قسم من أبواب أو فصول بل من عدة موضوعات غير مرقمة. تتكون السيرة النبوية من واحد وثلاثين موضوعا. أكبرها غزوة الخندق ثم غزوة بدر الكبرى. وأصغرها أسماؤه، وابتداء الوحي الشريف، والجهر بالدعوة[6].

---

(١) على باب النبي، وسلمان الفارسي باب علي، وسفينة وقيس بن عبد الرحمن باب الحسن بن علي، ورشيد الهجري باب الحسين بن علي، وخالد الكابلي ويحيى بن أم الطويل الذي قتله الحجاج بواسطي، باب علي بن الحسين، وجابر بن يزيد باب محمد بن علي، والمفضل بن عمر باب جعفر بن محمد، ومحمد بن المفضل باب موسى بن جعفر، ومحمد بن الفرات باب علي بن موسى، وعمر بن الفرات، باب محمد بن علي، وعثمان بن سعيد ومحمد بن نصير، الأول باب علي بن محمد والثاني للعصم، وعثمان بن سعيد ، ومحمد بن نصير باب الحسن بن علي، وعثمان بن سعيد باب القائم(٣)، ص١٤٧-١٥١.

(٢) مثل عثمان بن سعيد باب علي بن محمد والحسن بن علي والقائم، السابق ص١٤٩، ولما حضرته الوفاة أوحى إلى ابنه أبي جعفر محمد بن عثمان بعهد عهده إليه أبو محمد الحسن بن علي قائلا «هذا وكيلي وابنه وكيل ابني». ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أبي القاسم الحسين بن روح النميري الذي عقد إلى أبي الحسن السمري ثم أغلق الباب، السابق ص١٥٠-١٥١.

(٣) الحافظ مُغلطاي بن قليج(٧٦٢هـ): الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء، حقق نصوصها وخرجها وعلق عليها محمد نظام الدين الفتيح، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت ط١/١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

(٤) السابق ص٤١٣-٤٦١=(٤٩).

(٥) السابق ص٤٦٥-٥٦٥=(١٠١).

(٦) ١- أسماؤه (٤)٢- النسب الشريف(٨) ٣- مولده(١٨) ٤- أهم الأحداث التي وقعت قبل البعثة(١٥) ٥- ابتداء الوحي الشريف(٤) ٦- أولاده (١٨) ٧- الجهر بالدعوة(٤)، ٨- الهجرة إلى الحبشة(١٢)، - بعض الأحداث قبل الهجرة إلى المدينة(٧)، ١٠- الإسراء والمعراج(٧)، ١١- دعوته القبائل إلى الإسلام(٩)، ١٢- الهجرة إلى المدينة(٢٥)، ١٣-أحداث ما بعد الهجرة(١٠)، ١٤- الغزوات والسرايا والبعوث(١١)،

وفي السيرة النبوية،الرسالة واحد وعشرون موضوعا، والرسول عشرة موضوعات صغيرة لا تزيد على الثلث[1]. ويتحول المنهج التاريخي أحيانا إلى مجرد رصد وتسجيل بلا دلالات[2]. وهناك موضوعات خارج موضوع السيرة مثل أولاده والموضوعات العشرة الأخيرة: خدامه ومواليد، دوابه من الخيل والإبل والغنم، آلاته الحربية، ما كان له من الخفاف والجبات، كتابه، الزوجات التي لم يدخل بهن، أخلاقه، فضائله، معجزاته، خصائصه.

والسيرة تلخيص لسيرة آخرى «الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم» قام به أفضل العرب والعجم اليوم. وهو تلخيص كثير الفوائد، عار من الشواهد، منتخب بغير النار، حاو لمقاصد الكتب الكبار[3]. يلجأ إليه العامة والخاصة[4]. ويظل الاختصار كبيرًا فما بال الأصل؟[5]. هو مجرد «إشارة» كما يدل عليه الاسم فما بال المشار إليه؟

وتعتمد على القرآن والحديث والشعر[6]. والحديث أكثر لارتباط علم السيرة بعلم الحديث. وتبدوأسباب النزول وراء ذكر الآيات[7]. وقد تحولت بعض الأقوال المباشرة في الحديث لبلاغتها وتركيزها وقوة تشبيهها إلى أمثال عربية مثل «لا يلدغ المؤمن من

١٥- غزوة بدر الكبرى(٣٣)، ١٦- غزوة أحد(٢٩)،١٧- غزوة الخندق (٤٧)، ١٨- غزوة فتح مكة(١١)، ١٩-غزوة حنين(١٧)، ٢٠- غزوة تبوك(١٥)، ٢١- وفاته(١٢)، ٢٢- خدمه ومواليه (١٢)،٢٣- دوابه وما كان له من الخيل والإبل والغنم(٧)، ٢٥- ما كان له من الخفاف والجباب(٧)، ٢٤- آلاته الحربية(٥)، ٢٥- كتابه()، ٢٦- الزوجات التي لم يدخل بهن(٩)، ٢٧- أخلاقه(١٠)،٢٨- فضائله(٨)، ٢٩- معجزاته(١٢)،٣٠-خصائصه(١٨). ٥- السيرة النبوية ص٤١-٣٦٠(٣١٠ص)، الرسول ص٣٥٩-٤٦١=(١٠٣ ص).

(١) السابق ص١١٧-١٢١/ ١٨٣-٢٠٢/ ٣٠٩-٣١٢/ ٣٦١-٤١٣/ ٥٦٠.

(٢) السابق ص٩٤-١١١/ ٣٦١-٤٦١.

(٣) «فقدمت الاستخارة، ولخصت معظم هذه الإشارة من كتابي المسمى «الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم» إلا المآثر فإنني من غيرها لها ذاكر. مقدما المشهور في كل باب، ليستغنى بذلك عن تكرره في الكتاب»، الإشارة ص ٤٢.

(٤) «فقد ندب أفضل العجم اليوم والعرب، سيدنا قاضي القضاة جلال الدين نفع الله ببركته المسلمين إلى تلخيص سيرة المصطفى وآثار من بعده من الخلفاء كثيرة الفوائد، عارية من الشواهد، منتخبة بغير النار، حاوية لمقاصد الكتب الكبار. يلجا إليها المسلمون، ولا يستغنى عنها العالمون»، السابق ص٤١-٤٢.

(٥) الكتاب ص٥٦٥.

(٦) الأحاديث (١٣٣)، الأشعار (٤٧)، الآيات(٢٦).

(٧) الإشارة ص ١٠٢-١٠٣/ ٢٥٢-٢٥٣/ ٢٧٥/ ٣٢٩/ ٣٣٣/ ٣٣٥/ ٣٤٤.

جحر مرتين» و«الحرب خدعة»، «ليس الخبر كالمعاينة»، «الناس كأسنان المشط»، «الأعمال بالنيات»، «سيد القوم خادمهم»، «استعينوا على قضاء حاجتكم بالكتمان»، «من غشنا فليس منا»، «اليد العليا خير من يد السفلي»[1]. وتستعمل بعض المصادر التاريخية مثل الواقدي[2].

وهي سيرة واضحة، سهلة الفهم، مرتبة ترتيبا زمانيا، معقولة. لذلك جاءت المعجزات فيها أقل باستثناء البعض منها مثل شق الصدر، خاتم النبوة بالشعر على ظهر الكتف[3]. والمعجزات روايات يخصص لها قسم في آخر السيرة في الأقسام الخاصة بالرسول ليس فقط القرآن ببلاغته وفكره وتشريعاته لدرجه إيمان بعض الجن وإسلامه عند سماعه الرسول وهو يقرأ سورة الجن[4]. بل أيضا المعجزات الحسية، وهي إحدى وثلاثون معجزة، في الجماد والنبات والحيوان والإنسان والمستقبل[5]. وتختلف الروايات

(١) وهي قرابة سبعة وأربعين قولا مأثورا منها: «لا ينتطح فيها عنزان»، «حمى الوطيس»، «مات حتم أنفه»، «يا خيل الله أركبي»، «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»، «إياكم وخضراء الدمن»، «الخيل في نواصيها الخير»، «إن من الشعر لحكما»، «ليس المسئول بأعلم من السائل»، السابق ص٢٠٢-٢١٧.

(٢) السابق ص١٤٢.

(٣) ومنها إرسال الله ريح حملت شعور الحجاج بعد الحلق فألقتها في الحرم، الإشارة ص٢٧٧/ ٦٧-٧٢/ ١٧٦/ ٢٨٢-٢٨٤.

(٤) معجزاته، السابق ٤٣٢-٤٤٣.

(٥) أ- معجزات الجماد: تسبيح الحصي في كفه والطعام وهو يأكل، دعاء سقوط المطر وهو على المنبر بكثرة، ب-معجزات النبات: تسليم الشجر والحجر عليه ليالي بعثه، قدمت له الشجرة تشق الأرض إليه وهو نائم وسلمت عليه. أمره شجرتين بالقدوم إليه حتى قضى حاجته خلفهما ثم تفرقتا، دعا غدقا حتى أتاه منتزعا نفسه من التربة ورجع مكانه، اتخاذ المنبر وحنين الجزع. جـ- معجزات الحيوان: شهادة الذئب بنبوته، شكاية بعير «أنه يشتكي كثرة العمل وقلة العلف» وهو مقياس إنساني، وبعير آخر «شكى أنك تجيعه وتدئبه»، سجود بعيرين له عجز صاحبهما عنهما، أمره بنحر ست بدنات وهن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ، الشاة المسمومة. د- معجزات الإنسان: تكثير الماء والطعام، نبع الماء بين أصابعه، وشرب وتوضأ ثلاثمائة أو السبعين إلى الثمانين أو خمس عشرة مائة. مزادتان لم تنقص مع شرب أربعين منها، إصابة عيني قتادة يوم أحد أو حنين أو الخندق حتي وقعت على وجنته وردها مكانها لا ترمد، تفل في عين علّي التي بها رمد فبرأ من ساعته وما رمدت بعد ذلك، شفاؤه له من وجعه ولم يشتك بعد ذلك، مسح رجل عبد الله بن عتيك فبرأت بمسحه لها، إطعام أهل الخندق و هم ألف من صاع شعير و ازداد الطعام، إطعام من تمر يسير نفر كثير، إطعام أربعمائة من حفنة تمر، إطعام ثمانين من قرصة شعير و زادت، إطعام جيش بأكمله ولم ينقص الطعام بل زاد، إطعام المدعوين ليلة زفافه على زينب و لم ينقص الطعام. هـ- معجزات التاريخ: «أن الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها و مغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها»، أمر بقتل أبي بن

مما يدل على تدخل عامل الخيال في الرواية زيادة في التفخيم والتعظيم والتقديس الذي يصل إلى حد التأليف عند الصوفية في الحقيقة المحمدية في الأدعية النبوية المعاصرة. وأقلها أقوال مباشرة.

جـ- «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (٧٧٤هـ)[1]

وقد ساهم المؤرخون في كتابة السيرة باعتبارها جزءا من تاريخ العرب والمسلمين. وقد يكون إما جزءا من كتاب كبير في السيرة مثل سيرة ابن خلدون وهي جزء من تاريخه «العبر» أو سيرة مستقلة عن التاريخ كما هو الحال في «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير. والهدف معرفة السيرة النبوية والتواريخ الإسلامية بالاعتماد على علوم أخرى[2].

ويضم ثمانية وسبعين فصلا غير مرقمة. وبعضها بلا عناوين[3]. ويمكن ضم أكثر من فصل واحد فتقل الموضوعات. وفي هذه الحالة يكون فصل الغزوات أكبرها مع فصول تشخيص الرسول[4]. فصول الغزوات حوالي أربعة وعشرين. وفصول تشخيص الرسول حوالي عشرة. منها فصل خصائص الرسول الذي يعادل وحده

خلف، أخبر بمصارع المشركين في بدر، غزو طوائف من أمته البحر كالملوك على الأسرة، ومنهم خالة أنس بن مالك، إصابة عثمان ببلوى شديدة فليصبر، أخبر بأن الحسن سيد يصلح الله به بين فتين، مقتل عبهلة، ومقتل كسرى، بانتحار أحد وأنه من أهل النار.

(١) الإمام الحافظ المحدث المفسر المؤرخ الفقيه الأصولي أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٧٧٤هـ) (رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى بمنه وكرمه): الفصول في سيرة الرسول، حققه وضبط أصوله وخرج أحاديثه وآثاره وعلق عليه أبو أسامة سليم بن عبد الهلالي السلفي (كان الله له، وعفا عنه بمنه وكرمه)، الطبعة العلمية الكاملة المحققة على ثلاث نسخ خطية إحداها منقولة عن نسخة المصنف رحمه الله (جزءان في مجلد واحد)، غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان جـ١/ الكويت ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.

(٢) «فإنه لا يجمل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية وهي مشتملة على علوم جمة، وفوائد مهمة لا يستغنى عالم عنها ولا يقدر في العدو منها. وقد أحببت أن أعلق على تذكرة في ذلك لتكون مدخلا إليه وأنموذجا وعونا له وعليه»، السابق ص٢٣-٢٤.

(٣) السابق ص٦٩/ ١٤٤.

(٤) فصول الغزوات: الأبواء، بواط، العشيرة، بدر الأولى، بدر الكبرى، بني سليم، السويق، ذي أمر، بحران، بني قينقاع، حمراء الأسد، بني النضير، ذات الرقاع، دومة الجندل، الخندق، بنو قريظة، بنو لحيان، ذو الفرد، بنو المصطلق، الحديبية، خيبر، فتح مكة، حنين، الطائف، تبوك.

فصول الغزوات كلها. بعضها أشهر من الأخرى مثل بدر وأحد والخندق وبنو قريظة. وهي تعادل ثلث الفصول. وباقي الموضوعات يمكن ضمها في السيرة التاريخية، البداية والوسط والنهاية[1]. افتقدت البنية للحركة الواضحة المقسمة إلى أبواب وفصول. هناك جزءان فقط دون بيان سبب التمييز بينهما[2]. بل يقسم موضوع شخص الرسول، وتأتي القسمة بين زوجاته ومواليه[3].

ويعتمد كالعادة على القرآن والحديث والشعر. والحديث أكثر[4]. وتبين بعض الآيات أسباب نزولها[5]. وتختلف روايات الحديث في الصياغات، الإجمال والتفصيل، الزيادة والنقصان أو في الإخبار بالتاريخ في ولادته ورضاعته ونشأته أو في بعض الحوادث مثل الإسراء والمعراج[6]. ويقوم المؤرخ بنقد الروايات للوصول إلى حقيقة الحدث. ويضيف بعض الأحاديث. وما قالته الروايات في الطب النبوي أقرب إلى العادات الشعبية. وبعض الأحاديث عن فضل علي وفاطمة من رواة الشيعة[7]. ويتأثر الرسول بالشعر فالإحساس الشعري واحد في القرآن والشعر[8]. ويعترف الرسول بخطئه لأنه بشر مثل باقي البشر[9]. كما يعتمد المؤرخ على الفرق الإسلامية، الخوارج والمعتزلة،

---

(١) في البداية النسب والولادة والرضاعة والنشأة والبعثة وعدوان المشركين وفتنة المعذبين، والهجرة إلى الحبشة، ومقاطعة قريش، والخروج إلى الطائف، والإسراء والمعراج، وعرض النبي نفسه على القبائل، وبيعة العقبة الأولى والثانية. وتنتهي بالهجرة ودخوله المدينة واستقراره فيها والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. والوسط فرض الجهاد والغزوات والفتوحات والبعوث والسرايا وتحويل القبلة وحديث الإفك، وفتح مكة. والثالثة استقبال الوفود، وحجة الوداع وإخباره بالمستقبل وجهنم ووفاته.

(٢) الفصول ص٢١/ ٣١٩.

(٣) السابق ص٣٠٢-٣١٩.

(٤) الأحاديث (٢٨٧)، الآيات(٩٧)، الأشعار(٨).

(٥) الفصول ص١٠١/ ١٩٢/ ٣٠٣.

(٦) السابق، ص٤١-٤٣/ ٦٥-٦٩.

(٧) السابق ص٥٢١.

(٨) ندم الرسول على قتل من هجاه بعد أن سمع رثاء أخته له «لو سمعتها قبل لم أقتله»، السابق ص١٠٦.

(٩) «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفه. إنما أنا بشر. فأي المؤمنين آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقر به إليك يوم القيامة، السابق ص٤٩٧».

وجوانب أخرى من التراث. فالسيرة جزء من علوم التراث[1].

ثم تبدأ فصول التحول من الرسالة إلى الرسول: أولاده، وزوجاته، ومواليه، وخدمه، وكتّابه، ومؤذنوه، ورسائله، وأماكنه، وسماعاته، والسماع منه، وعدد المسلمين حين وفاته[2]. وهي ما يخرج عن إطار النبوة والرسالة.

ثم تأتي خصائصه كنبي رسول وقائد وبطل، صفاته الظاهرة وأخلاقه الطاهرة التي لا تخلو من مدح وتعظيم[3]. ثم يخصص أطول الفصول لتصنيف خصائصه إلى أربعة أقسام[4]. الأول ما اختص به دون غيره من الأنبياء[5]. والثاني خصائصه في العبادات: الإيمان والطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والأطعمة والهبة والفرائض ثم تفصيل خاص للنكاح، ما وجب عليه دون غيره، وما حرم عليه من النكاح دون غيره طبقا لاثنين من أحكام التكليف، الواجب والمحرم. والثالث ما أتيح له من النكاح دون غيره. والرابع ما اختص من الفضائل دون غيره، ثم الجهاد والأحكام[6]. وتنتهي الخصائص بفصل الشفاعة وأنواعها[7]. فالمادة مستعارة من الفقه. والفقه خارج موضوع السيرة مثل باقي العلوم النقلية القرآن والحديث والتفسير. والمسائل المتفرقة بعد الخصائص وقبل الجهاد والأحكام مسائل فقهية، أحكام الفروع[8]. وهو ما يتعرض مع عموم الأحكام. والتأسي بالرسول كقدوة يمنع من أن يكون له فقه خاص.

---

(١) السابق ص ٤٥٧/ ٥٢٨.
(٢) السابق ص٢٩٨-٣٦٥.
(٣) السابق ص٣٣١-٣٣٨.
(٤) السابق ص٣٦٦-٥٢٣.
(٥) السابق ص٣٦٨-٣٩٩.
(٦) السابق ص٤٠٠-٥٢٣.
(٧) السابق ص٥٢٤-٥٣٠.
(٨) السابق ص٤٩١-٤٩٨.

د- «صحيح السيرة النبوية» للألباني (١٤٢٠هـ)[١]

ونظرا لأهمية «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير أصبح موضوعا للدراسات والتلخيصات. فقد كتبها الألباني لتصحيح بعض روايات ابن كثير أو للدفاع عنه ضد بعض القراءات الحديثة للسيرة وتضعيف روايتها عند المحدثين مثل أبي زهرة وما في كتابه من «الطامات»[٢]. وإذا كان علم السيرة قائما على الروايات ويتم تضعيف الروايات فإن علم الحديث ليس علما مقدسا، ولا توجد سيرة موضوعية تاريخية في علم السيرة لأنها كلها تتوقف على روايات ذاتية. وشارك في ذلك العرب وغير العرب من المسلمين. كما شارك فيه المستشرقون. والمؤلف صاحب مشروع لم يكتمل. لذلك تتوقف السيرة على فصل الإسراء والمعراج. والحقيقة أن تصحيح ابن كثير والرد على أبي زهرة ليس كثيرا. يذكر أن في الهامش وليس في صلب الصفحة ومرات قليلة[٣]. وقد اتهم المؤلف أبي زهرة لمجرد تشككه في بعض روايات المعجزات بالاعتزال وكأن الاعتزال تهمة[٤]. فبالرغم

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني (رحمه الله): صحيح السيرة النبوية، ما صح من سيرة رسول الله وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه للحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد، الرياض جـ١/ ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(٢) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين.

(٣) صحيح السيرة النبوية ص١٠/ ١٦/ ١٨/ ٢٤/ ٢٥. «وأما ما ذكره الشيخ أبو زهرة (جـ١/ ١٢١) أن ثويبة كانت أول من أعلم أبا لهب بولادة ابن أخيه محمد فأعتقها لهذه البشرى الكريمة فهما لا أصل له في الرواية، وإنما علقه المؤلف تعليقا بدون سند»، السابق ص١٦. ونحن نرى أن الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب. وعلى فرض أنها صحيحة لا نقول إنها غير مقبولة «بل أن نقبلها إن صحت، ولكن الاضطراب في خبرها يجعلنا غير رادين ولا مصدقين» (أبو زهرة جـ١/ ١٢٧). وقد رد أبو زهرة حديث أن والدي الرسول في النار وقال إنه خبر غريب في معناه كما هو غريب في سنده لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وكان أبو مُحمد وأمه على فترة من الرسل فكيف يعذبون؟ ... وفي الحق أني خرست في سمعي وفهمي عندما تصورت أن عبد الله وآمنة يُتصور أن يدخلا النار»... ويرد الألباني أليس موقف (أبي زهرة) هذا هو سبيل أهل الأهواء كالمعتزلة وغيرهم الذين قالوا بالتحسين والتقبيح العقليين مما رده عليهم أهل السنة. والشيخ يزعم أنه منهم. فما باله خالفهم وسلك سبيل المعتزلة في تحكيم العقل وردهم للأحاديث الصحيحة لمجرد مخالفتها لأهوائهم إما أصلا وإما تأويلا إذا لم يستطيعوا رده من أصله؟ وهذا عين ما فعله الشيخ. فإنه رد هذا الحديث لظنه أنه حديث غريب. فرد وتأول أحاديث الزيارة بقوله «ولعل نهي النبي عن الاستغفار لأمه لأن الاستغفار لا موضع له إذ أنه لم يكن خطابًا بالتكليف من نبي مبعوث». السابق ص٢٤-٢٥، «زعم أبو زهرة أن أهل الفترة الذين كانوا قبل بعثة النبي لا يعذبون» ص٢٥ «فهم ليسوا من أهل الفترة فسقط استدلال (أبي زهرة) بالآية جملة وتفصيلا»، ص٢٦.

(٤) السابق ص٢٥.

من أن المؤلف يصحح روايات ابن كثير إلا أنه يمثل الاتجاه المحافظ تجاه المحدثين. هو محدث مع القدماء، قديم مع المحدثين. ويعتمد على كثير من الكتاب المحافظين في الهوامش[1]. وتترك بعض الروايات بلا نقد مثل أربعين عاما بين بناء الحرم والأقصى[2]. والروايات عن الجن[3]. ويوجد استطراد شائع عن إسلام الأفراد[4].

ويتضمن «صحيح السيرة» عدة أبواب وفصول دون بنية محكمة أو انتقال وتسلسل منطقي بينها. وموضوعات أخرى خارج الأبواب والفصول. فهناك ستة أبواب: الأول مولد الرسول[5]. وهو ثاني أكبر الأبواب مع الهجرة إلى الحبشة. والثاني هواتف الجان وهو ما ألقته الجان على ألسنة الكهان ومسموعا من الأوثان[6]. والثالث كيفية بدء الوحي وأول ما أنزل عليه[7]. والرابع الأمر بإبلاغ الرسالة للخاص والعام وبالصبر والاحتمال والإعراض عن الجاهلين المعاندين المكذبين بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسول لهم وما لاقاه الرسول وأصحابه من آذاهم[8]. والخامس محاولة المشركين إقامة الحجة عليهم واعترافهم في أنفسهم بالحق وإن أظهروا المخالفة عنادا[9]. والسادس الهجرة إلى الحبشة[10].

ويستعمل منهج النص وليس منهج العقل. ويأتي النص كالعادة من القرآن والحديث

(١) مثل جلال الدين السيوطي ومحمد الغزالي.

(٢) صحيح السيرة النبوية ص٣٩.

(٣) السابق ص١٠٠-١٠٥.

(٤) السابق ص١٢٥-١٣٣/١٨٨-١٩٤.

(٥) «ويشمل ما وقع من الآيات ليلة مولده، وموت أبويه على الكفر، ومنشئه وترتيبه وكفاية الله له ويتمه، وتزويجه خديجة، وتجديد قريش بناء الكعبة وما ابتدعته قريش في الخمس طبقا لابن إسحق، وعلم أهل الكتاب بمبعثه»، السابق ص١٣-٨١.

(٦) السابق ص٨٢-٨٣.

(٧) ويشمل أول ما أنزل من القرآن، ومنع الجان ومردة الشياطين من استراق السمع لئلا يختطف أحدهم منه حرفا واحدا فيلقيه على لسان وليه فيلتبس الأمر ويختلط الحق، وكيفية إتيان الوحي، وسبق الوحي في التلاوة حرصا على سماعه، والتصديق بالوحي وتحمل أثقال النبوة، وإسلام المتقدمين، السابق ص٨٤-١٣٣.

(٨) ويضم تأليب قريش على الرسول وأصحابه واجتماعهم بعمه وطلبهم تسليمه ورفضهم، اعتراض المشركين على الرسول وأسئلتهم له عن الآيات عنادا وليس طلبا للهدى، السابق ص١٣٤-١٥٧.

(٩) السابق ص١٥٨-١٦٣.

(١٠) ويتضمن مخالفة القبائل للرسول، دعاء الرسول على قريش، ذكر حرب فارس والروم، الإسراء والمعراج، السابق ص١٦٤-٢٣٣.

بالإضافة إلى الشواهد الشعرية[1]. ويُستخدم القرآن للجدال بين الموقفين، وليس حجة بحجة ولكن نصا بجوار نص. وتظهر أسباب النزول وراء الآيات أكثر مما يظهر علم السيرة[2]. ويعود إلى ابن إسحق قبل ابن هشام، المصدران الأولان للعلم.

هـ- «السيرة النبوية والمعجزات، خلاصة تاريخ ابن كثير» لكنعان[3]

وتتحول سيرة ابن كثير في البداية والنهاية بعيدا عن نقد الروايات إلى تلخيصها فقط في المعجزات في «السيرة النبوية والمعجزات، خلاصة تاريخ ابن كثير». بدلا من أن تكون المعجزات جزءا من السيرة تصبح السيرة جزءا من المعجزات عند أحد المحدثين الأحياء، وهو الجزء الثاني من خلاصة أكبر في ثمانية مجلدات[4]. فما زالت دوافع التأليف القديمة هي هي دون تغيير ودون تجديد في علم السيرة، مجرد تلخيص واقتباس واستخراج أقسام السيرة من كتب التاريخ مع تغيير المحور من الرسالة إلى الرسول، من السيرة إلى المعجزات والشمائل كجامع بينهما. ويظل السؤال: ماذا يعني الاختصار وكيف تم؟ هل هو اختصار البداية والنهاية، وإخراج جزء السيرة منه أم اختصار جزء السيرة في البداية والنهاية إلى جزء أصغر. والمختصر حديث مازال حيا يرزق في حين أن فن الاختصار قديم. وهل منهج ابن كثير في «بداية ونهاية» هو نفس منهجه في كتابه «جزء السيرة»، المنهج التاريخي الذي ظهر في القسم الأول منها؟ هل كتب السيرة كمؤرخ أم ككاتب سيرة، إضافة المقدس إلى التاريخ؟ تعتمد السيرة على المؤرخين السابقين مثل الواقدي والبيهقي. والأرجح أنه نفس المنهج لأن السيرة جزء من «بداية ونهاية». ويتم الاقتباس بلفظ «انتهى»[5]. ويُعاد إلى ابن إسحق وابن هشام

---

(١) الأحاديث الصحيحة(٣٠٥)، الآيات(١٤٤)، الضعيفة(١٥)، الأشعار(٧).

(٢) صحيح السيرة ص٢٢٤.

(٣) القاضي الشيخ محمد بن أحمد كنعان: السيرة النبوية والمعجزات، خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، بيروت جـ١/ ١٤١٧هـ-١٩٩٦.

(٤) «فهذا قسم السيرة والمعجزات النبوية. لسيدنا محمد ملخصا من تاريخ الحافظ ابن كثير «البداية والنهاية» وضعناه مستقلا بهذا العنوان... وسيكون بعونه تعالى الجزء الثاني من كتابنا «خلاصة البداية والنهاية في ثمانية مجلدات»، السابق ص٣.

(٥) السابق ص٥٤.

وإلى ابن إسحق أكثر[1]. كانت السيرة وقتئذ أقرب إلى الواقع وأبعد عن الخيال الشعبي للرواة. وبنية «الخلاصة» ثلاثية: السيرة والشمائل والمعجزات، والسيرة أكبرها[2]. والشمائل أصغرها، والمعجزات أقرب إلى الشمائل كما من السيرة. فمازالت السيرة هي الغالبة. وقد وصفت بالشريعة إمعانا في التعظيم والتبجيل والتقديس ثم التأليه فيما بعد. وتشمل السيرة ستة فصول طبقا للتتابع الزماني لها: ما قبل البعثة العهد المكي وهو أكبرها، العهد المدني، حجة الوداع، الوفاة، أمور متعلقة به وهي أقرب إلى الكبر منها إلى الصغر[3]. والصفات قسم واحد[4]. أما المعجزات ففصلان: المعنوية وهي القرآن والأخلاق وكثرة المؤمنين ونصره بالملائكة والريح والرعب ثم الحسية وهي أكبر، تسع عشرة معجزة في الطبيعة، والنبات والحيوان والإنسان والطعام والشراب، والتاريخ، والإخبار بالماضي والمستقبل[5].

والمصادر كالعادة ثلاثة: القرآن والحديث والشعر[6]. والآيات أكثر. أقوال الرسول والقرآن الذي بلغه الرسول مصدر سيرته وهو دور أي أن الإنسان يكتب سيرته بنفسه. وفي الآيات تظهر أسباب نزولها[7]. وتتضارب الروايات في يوم مولده[8]. وهناك عدة روايات في الحج والعمرة[9]. والاعتماد في الرواية على النقل دون العقل، وعلى الرواية دون الدراية.

٣- المغازي والسير:

بدأت السيرة بالمغازي والسير باعتبارها أهم جزء منها. ومازالت أكبر باب فيها

---

(١) السابق ص٦٥.

(٢) السيرة النبوية الشريفة ص٧-٤٠٦ =(٤٠٠) ص، الشمائل والصفات النبوية ص٤٠٧-٤٣٨=(٣٢) ص٣- دلائل النبوة والمعجزات ص٤٣٩-٤٩٦=(٥٨ص).

(٣) ١- ما قبل البعثة ص٩-٣٩(٣١) ٢- العهد المكي ص٤١-١٥٦(١١٦) ٣- العهد المدني ص١٥٧-٢١٦(٦٠) ٤- حجة الوداع ص٢١٧-٢٨٣=(٦٧) ٥- وفاة النبي ص٢٨٥-٣٢٩(٤٥) ٦- أمور تتعلق به ص٣٣١-٤٠٦(٧٦).

(٤) السابق ص٤٠٧-٤٣٨.

(٥) السابق ص٤٣٩-٤٩٦. المعجزات المعنوية ص٤٤١-٤٥٧. المعجزات الحسية ص٤٥٩-٤٩٦.

(٦) الآيات (٢٩٠)، الحديث (٢٨١)، الأشعار (٥٢).

(٧) خلاصة ابن كثير ص٤٨/ ٨٢/ ١١٣/ ١٢١/ ١٢٥/ ١٦٥.

(٨) السابق ص١٥-١٦.

(٩) السابق ص٢٢٦-٢٤٠.

بعد اكتمال علم السيرة. فالرسول قائد ومجاهد، غازي وفاتح. وقد بدأ هذا الصنف من التأليف في نفس الفترة التي دُون فيها الحديث، ومصنفات السيرة والحديث أي منذ القرن الثالث الهجري حتى الآن، نثرا وشعرا. كتبت المغازي مثل الأحاديث الخاصة بالرسول قبل السير وبالتالي غلبة الفترة المدنية على الفترة المكية.

أ- «كتاب المغازي» لابن أبي شيبة (٢٣٥هـ)[١]

ويضم حوالي ستمائة حديث[٢]. لا تنتظمها أبواب أو فصول بل سبعة وأربعين موضوعا حول موضوعين رئيسيين الغزوات وإسلام الصحابة[٣]. والتبويب للأخبار. فالخبر هو وحدة التقسيم وليس موضوعاتها. وأسقطت بعض الموضوعات أو المحاور الأخرى مثل الشمائل آخر السيرة. ولا توجد مقدماتها في أحوال العرب قبل الإسلام. وتدل أولى الفقرات على أن السيرة، المغازي، من العلوم النقلية مثل «ما جاء»، «ما ذكر»، «ما حفظ»، «حديث»، «ما قال»[٤]. فالمؤلف حافظ أي ناقل وليس مؤلفا. ويضم إليها الخلفاء الأربعة كما فعل ابن خلدون. فالخلافة استمرار للنبوة عند السنة كما أن الإمامة استمرار لها عند الشيعة[٥].

ب- «سيرة الرسول المسمى الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر (٤٦٣هـ)[٦]

وتضم المغازي السير أي الغزوات والسرايا. وتذكر على نحو مختصر دون إطالة. وتضم تسعة أبواب بلا ترقيم هي: مبعثه، الدعوة، الهجرة إلى الحبشة،دخول بني هاشم وبني عبد المطلب، إسلام الجن، الهجرة من مكة إلى المدينة. وفي الباب السادس باب الغزوات فصل بلا عنوان، وهو أكبر الأبواب لأنه باب الغزوات. وهي سبعة وعشرون،

---

(١) ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد): كتاب المغازي، درسه وحققه وخرج آثاره د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، دار اشبيليا ١٤٢١هـ.

(٢) يضم (٥٧٦) حديثا.

(٣) إسلام الصحابة (١١)،الغزوات(٧)،الخلفاء(٤).

(٤) إسلام الصحابة ص١٢٥-١٤٣، الغزوات ص١٦٩-٤٠٣، الخلفاء ص٤٢١-٤٦٢.

(٥) ما جاء(١٠)،ما ذكر، ما حفظ(٥)،حديث(٢)،ما قال(١).

(٦) ابن عبد البر النمري(الإمام الحافظ يوسف بن عبد الله): سيرة الرسول المسمى الدرر في اختصار المغازي والسير، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ.

وهي الجزء الأكبر[1]. ويسقط موضوع الغرب قبل الإسلام والمولد والرضاعة. ولفظ «اختصار» يدل على الرغبة في التركيز. ويأتي حديث الإسراء مختصرا[2]. ولا يحتوى الكتاب على أي مقدمة منهجية تبرر سبب التأليف. وبعض المواضيع يسبقها لفظ «ذكر» أي خبر وليس موضوعات، والعهدة على الراوي[3]. والمقدمة الوحيدة هي الاختصار([4]). وحديث الإسراء مختصر([5]). ومازالت تروى بعض الوقائع التي ليس عليها دليل مثل إسلام الجن([6]). والشواهد النقلية كثيرة. الحديث أولا ثم القرآن ثانيا. ولا توجد شواهد شعرية. وتكشف سيرة الرسول عن الوعي بالرسالة.

جـ- «السيرة النبوية، عيون الأثر في فنون المغازي والسير» لابن سيد الناس (٧٣٤هـ)[7]

واستمرت السيرة التاريخية التي وضع أسسها ابن إسحق وابن هشام حتى القرن الثامن الهجري دون بنيته، البداية والوسط والنهاية[8]. تغيب الأقسام والأبواب والفصول بل مجرد ذكر ستة عشر موضوعا تغطي مجمل السيرة ودون ترقيم[9]. أكبرها الأول عن النسب، لا تذكر العرب قبل الإسلام ولا دياناتهم. بل تركز على الغزوات كما يدل على ذلك العنوان «عيون المغازي»، بدر، أُحد، الخندق، الحديبية، خيبر، حُنين، الطائف، تبوك، ثمان غزوات أي نصف الموضوعات. ووفود العرب وبعثته إلى الملوك

---

(١) الغزوات(٢٧).

(٢) الدرر ص٤٦.

(٣) السابق ص١٠٤-١١٣.

(٤) السابق ص٥.

(٥) السابق ص٤٦.

(٦) السابق ص٣٨-٤١.

(٧) ابن سيد الناس اليعمري الحافظ أبو الفتح محمد بن عمر بن محمد(٧٣٤هـ): السيرة النبوية، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه د. محمد العيد الخطراوي، محي الدين ميتو، مكتبة دار التراث، دار ابن كثير، المدينة المنورة، دمشق جـ١/ ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م(مجلدان).

(٨) الدفاع عن ابن إسحق جـ١/ ٥٤-٦٧.

(٩) هي: ١- النسب (٢١٣ص) ٢- الهجرة إلى المدينة (٩٢) ٣- غزوة بدر الكبرى (٨١) ٤ - غزوة أحد (٧٩) ٥-غزوة الخندق (٧٦)٦-غزوة الحديبية (٢١) ٧- غزوة خيبر (٤٢) ٨- فتح مكة (٣٠) ٩-غزوة حنين (١٧) ١٠- غزو الطائف (٢٢) ١١- غزوات تبوك (٢٠) ١٢- وفود العرب (٣٢) ١٣- بعثته إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام (١٥) ١٤- حجة الوداع (١٥) ١٥- صفته (١٥) ١٦- جمل من أخلاقه (١٦).

موضوعان، وصفته وأخلاقه التي ستتضخم فيما بعد عندما يتحول محور السيرة من الرسالة إلى الرسول، موضوعان، وحجة الوداع. وقد تم تفصيل السيرة في عدة فنون المغازي والشمائل والسير. الغزوات أولا، والشمائل ثانيا، والسير ثالثا. وهو ما يتفق مع تصنيف الموضوعات الستة عشر. تاريخ الرسول هو تاريخ الرسالة. والحقيقة أنه لا جديد عن سيرة ابن هشام. ولا هدف من سيرة على نفس المنوال.

والمؤلف على وعي بالمنهج والمصادر في المقدمة[1]. المنهج هو التركيز دون الإطالة المملة ولا الاختصار المخل[2]. فالإطالة في الأسماء والأنساب والأشعار والآداب. وهو الرصد التاريخي أو جمع الروايات بصرف النظر عن نقدها. والاختصار هو نمطية المنهج وترك كثير من الفوائد أي المعاني والدلالات. ومع ذلك يقع في المنهج التاريخي.

وعيوب المنهج التاريخي هو الوقوع في التسجيل والرصد كما يفعل المؤرخون وليس كتاب السيرة، رصد شهداء بدر، تسجيل أسماء المهاجرين والأنصار[3]. وأحيانا يتحول التاريخ إلى أسطورة أو أفكار شائعة لا يمكن التحقق من صحتها مثل نسب الرسول إلى آدم كما هو الحال في مقدمة الأناجيل لتتبع نسب المسيح[4]. كما تثار عدة مسائل لا تهم الرسالة في شيء مثل ذكر أول من آمن به[5]. كما لم يتم استثمار التقارب اللفظي بين اسم محمد في العربية والسريانية والرومية[6].

أما المصادر فيعترف المؤلف بأن القدماء هم القدوة. فيقتبس من كلامهم، ويدخل في نظامهم. فالكتابة عشرة أنواع اختار المؤلف منها نوعا هو جمع المتفرقات[7]. وألحق

---

(١) السابق جـ١/ ٥١-٧٢.

(٢) «فلما وقفت على ما جمعه الناس قديما وحديثا من المجاميع في سير النبي ومغازيه وأيامه إلى غير ذلك مما يتصل به، لم أر مطيلا مملا أو مقتصرا بأكثر المقاصد مخلا»، السابق ص٥٢.

(٣) السابق جـ١/ ٤١٧-٤٣٢ جـ٢/ ٤٢-٥٦/ ١٠١-١٠٢/ ١٩٥-١٩٦/ ٢١١-٢١٢.

(٤) النسب إلى آدم، السابق ص٧٣-٧٤.

(٥) السابق ص١٧٨-١٨٨.

(٦) السابق ص١٤٣.

(٧) «لا يؤلف أحد إلا في أحد أقسام سبعة، ولا يمكن التأليف في غيرها، وهي إما أن يؤلف في شيء لم يسبق إليه يخترعه أو شيء ناقص يتممه أو شيء مستغلق يشرحه أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه أو شيء مختلط يرتبه أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه أو شيء مفرق يجمعه» قول أبي عبد الله شمس الدين البابلي، القاهرة(١٠٧٧هـ)، السابق ٥٢ هامش ٢.

به طرفا من الأشعار. وتجنب التكرار من كتب الأحاديث والسنن والمصنفات على الأبواب والمسانيد وكتب المغازي والسير[1].

والمصدران الرئيسيان ابن إسحق والواقدي[2]. وابن إسحق هو المصدر الأول لكل المؤرخين إلا أن أسانيده مرسلة. وهي عنده غير مسندة، ويرجح محل الإسناد دون تتبع إسناد المراسيل. ثم يعرف بابن إسحق ويذكر الأحكام المتضاربة عليه بين الصدق والكذب. ويدافع عنه ويدحض اتهامه بالكذب والضعف والقدرية والتشيع والدجل والخبث والتدليس والتجريح[3]. أما الواقدي الذي لا ينقل منه مباشرة مثل ابن إسحق فقد كان موضوع الجرح والتعديل مع أنه كان يعتمد على المشاهدة ويزور الأماكن التي كان يروى عنها[4]. ومع ذلك لم يسلم من التجريح بأنه ضعيف الحديث، ليس بثقة، متروك الحديث، ضعيف، أحاديثه غير محفوظة، روى عشرين ألف حديث غريب[5]. كما يعتمد على البلاذري[6].

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر[7]. مثل باقي كتاب السيرة من المؤرخين والمحدثين. وبعض الأحاديث مناسبات لأسباب النزول[8]. والحديث ودرجة صحته هو المسئول عن السير، صحتها أو اختراعها. واختلافات روايات الإسراء والمعراج

---

(١) السابق ص٥٣.

(٢) «وعمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن إسحق إذ هو العودة في هذا الباب لنا ولغيرنا. غير أني قد أجد الخبر عنده مرسلا وهو عنده غير مسند»، السابق جـ١/ ٥٤.

(٣) السابق ص٥٤-٦٧ «أما ما رمى به من التدليس والقدر والتشيع فلا يوجب رد روايته ولا يوقع فيها كبير وهن. أما التدليس فمنه القادح في العدالة وغيره ولا يحمل ما وقع ها هنا من مطلق التدليس على التدليس المقيد بالقادح في العدالة، وكذلك القدر والتشيع لا يقتضي الرد إلا بضميمة أخرى ولم نجدها ها هنا»، السابق ص٦٣. «وأما مع التوثيق والتعديل فالحمل فيها على المجهولين المشار إليهم لا عليه»، السابق ص٦٣.

(٤) «وكثيرا ما أنقل عن الواقدي من طريق محمد بن سعد وغيره أخبارا لعل كثيرا منها لا يوجد عند غيره»، السابق ص٥٤/ ٣٤١/ ٣٥٥.

(٥) السابق ص٦٧-٧٢.

(٦) السابق ص١٩٨.

(٧) الآيات (٢٤٠)، الأحاديث (١٨٤)، الأشعار (١٧٤).

(٨) عيون الأثر جـ٢٠٠-٢٠١.

وصياغاتها المختلفة تدل على تدخل الخيال الشعبي في الرواية طبقا لعملية الإبداع الفني[١]. ويظل الشعر العربي حافزا في السيرة المتأخرة بالإضافة إلى الوعي الشعري. ويشرح الغريب من الألفاظ[٢]. كما تذكر بعض فوائد الأخبار، وهي تفصيلات عن الموضوع وشواهد نقلية عليها[٣]. ونقد الروايات ضروري قبل كتابة السيرة، والحديث مصدرها الثاني بعد القرآن. فكيف يحب الرسول جبل أحد وهو يثير ذكريات أليمة؟[٤]. والفوائد هي شروح لغوية للأشعار وليست الدلالات أو الدروس المستفادة من السيرة[٥].

د- «إنارة الدجى في مغازي خير الورى» للشنقيطي(١٢٢٠هـ)[٦] شرح المشاط (١٣٩٩هـ).

وهي منظومة مكونة من أربعمائة وثلاثة وستين بيتا في الرسول وسيرة الرسول. وتتغير القافية كل شطرين. قسمها الشارح في عدة موضوعات، ثلاثين موضوعا. يظل التأليف في هذا النوع إلى وقت متأخر، خاصة من الاتجاه السلفي. ويشارك فيه علماء المملكة العربية السعودية. يسود الشرح النزعة التاريخية إلى حد عدد السيوف وعدد الخيول بكل غزوة بالإضافة إلى موقعها وعدد أفرادها وتاريخها وحامل لوائها. فالتقسيم بالغزوات، والشرح تفصيلي، فالعلم هي المعلومات. وهي في مدح الرسول ولعنة أعدائه أسوة بالقصائد المتأخرة ونموذجها «البردة». ومع ذلك يتم تجاوز النزعة التاريخية إلى المعنى أو الدروس المستفادة أو العظة أو العبرة أو الحكمة أو الدلالة أو الفوائد أو النتائج أو استنباط بعض الأحكام[٧].

---

(١) السابق جـ١/ ٢٤٥-٢٥٦.

(٢) السابق جـ١/ ٩٥/ ٣٢٠.

(٣) السابق جـ١/ ١٧٤/ ٢٨٢/ ٣٠٩/ ٤١٥-٤١٦.

(٤) «إن أحدا هذا جبل يحبنا ونحبه»، عيون الأثر جـ٢/ ٥.

(٥) فوائد، السابق جـ٢/ ٣٨/ ٥٥/ ١١٤/ ١٤٤/ ١٧٣/ ٢٠٢/ ٢١٢-٢١٣/ ٢٤٦-٢٤٨/ ٢٥٢/ ٢٦٧-٢٦٨/ ٢٧٥-٢٧٦/ ٢٧٨/ ٢٩٠/ ٣٩٢/ ٤١٩/ ٤٢٨/ ٤٣١.

(٦) الشنقيطي(أحمد البدوي المجلسي): إنارة الدجىَ في مغازي خير الورى، شرح العلامة المحدث الأصولي الفقيه القاضي حسن بن محمد المشاط، قدم له بدراسة أد. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، دار المنهاج، جدة، بيروت ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

(٧) المعنى، الدرس، السابق ١٥٩-١٦١، لعظة، لعبرة، الحكمة ص٣١٧-٥١٠، دلالة ٣٩٦/ ٣٩٧/ ٤٠٩، مدلولات ص٤٦١، فوائد ص٤٧٦/ ٥١٦/ ٥٤٣/ ٧٣٩/ ٧٥٢، نتائج ص٥١٢، أحكام ص٤١٥، استدلال ص٤٤٥.

والسيرة رواية وخبر. وليست سيرة موضوعية عن مشاهدة عيانية بل عن السماع. كذلك ذكر في كل موضوع لفظ «خبر» «أو ذكر» وبعض الفقرات «قصة»[1]. ويلاحظ الشارح اختلاف الروايات وتضاربها فيضطر إلى الجمع بين الروايات المختلفة[2]. فهناك خلاف في قتال الملائكة مع المسلمين[3]. ومن ثم تأتي ضرورة التحقق من صدق الروايات[4]. ويكشف عن الدس على المفسرين بفضل هذه النزعة النقدية[5]. ومع ذلك لا تنقد روايات المعجزات. وتذكر وكأنها وقائع تاريخية وليست روايات، وذلك مثل نزول المطر نعمة على المسلمين ونقمة على الكافرين[6]. والرسول قادر على تأويل الرؤيا[7].

ومازال الشرح يعتمد على النص، القرآن، الحديث، والشعر كالعادة. وتتضح أسباب النزول في استعمال الآيات كشواهد[8]. كما يعتمد على الفقه[9]. ويحال إلى الشافعي[10]. وتثار المعارك الكلامية عند الشيعة والمعتزلة[11]. وتؤول نصوص التوراة بحيث تشير إلى طيبة[12].

---

(١) «خبر»، إنارة الدجى ص٤٨٥/ ٥٥٥/ ٦٠٢/ ٧٣٨. «ذكر» ص١٩٤/ ٢٢٩.

(٢) الجمع بين الأقوال المختلفة، السابق ص١٠١، «قصة» ص١٣٠/ ١٣٩/ ٣٤٤/ ٤٢٩/ ٤٤٥/ ٤٥٣/ ٤٩
٠/ ٤٩٢/ ٥١٦/ ٥٨٧/ ٦١٠-٦١١/ ٦١٩/ ٦٣٠/ ٦٣٢/ ٦٧٣/ ٦٩١/ ٧٤٠/ ٧٥٣.

(٣) السابق ص١٣٥/ ٦٧٤. تدخل الملائكة ص ٣٠٧/ ١٣٢/ ١٣٥-١٣٦/ ٤٠٦-٤٠٧/ ٤٢٧.

(٤) السابق ص ١٣٦/ ١٣٨/ ١٥٢/ ١٦٨ - ١٦٩/ ١٩٦/ ٣٤٤/ ٣٦٧/ ٣٥١/ ٣٩٥/ ٤١٧ - ٤١٨/ ٤٢٨/ ٥٠٠/ ٥٤٧/ ٥٧٢/ ٧٤٧.

(٥) الدس على المفسرين، السابق ص١٨١.

(٦) السابق ص١١٨/ ٣٥٨-٣٥٩/ ٤٣٢-٤٣٣/ ٤٨٨/ ٤٩١/ ٥٤٠/ ٦٤٤/ ٦٧٦/ ٧٦٤/ ٧٤٥/ ٧٥٥/ ٧٥٨.

(٧) السابق ص٢٤٦-٢٤٧/ ٥٣٥.

(٨) السابق، ص٢٧٧/ ٣٣٢/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٤٧٤/ ٤٨٠/ ٥٢٨-٥٢٩/ ٦٠٨/ ٥١٥/ ٤٥٣/ ٤٣٢/ ٤٢٤/ ٤١٠/ ٣٥٤/ ٣٥٢/ ٣٤٠/ ٣٣٥/ ٣٣٢/ ٣٢٨/ ٢٣٣/ ٣٢٨/ ٢١٩/ ١٨٢/ ١٦٦/ ١١٥/ ١٠٤/ ٦٠٠/ ٦٠٧/ ٦٦٢/ ٧١٦/ ٧٢٣/ ٣٤٧/ ٧٣٦.

(٩) السابق ص٣٨٩/ ٣٨٥/ ٤٣١/ ٤٦٠/ ٤٨٠-٤٨٢/ ٦٠٥/ ٦٥٨/ ٦٧٨.

(١٠) السابق ص٦٤٦-٦٤٧.

(١١) السابق، المعتزلة ص٨٤، نقد الشيعة ص٧٤٨-٧٥٠.

(١٢) السابق ص٢٢٩.

وتظهر بعض الألفاظ القرآنية التي كان يمكن استثمارها للعصر الحاضر مثل «المستضعفين». والشارح يهدف إلى مخاطبة العصر الحاضر كما يهدف إلى التحديث[1]. ومع ذلك هناك وقائع ضد التحديث وتثير الغضب مثل «أول رأس حمل في الإسلام على رمح»، واستعطاف من يقتل[2].

٤- السيرة والحديث

خرجت السيرة من علم الحديث. فالسيرة أول تشخيص له. هي الروايات حول شخص الرسول المروية عنه مع أن علم الحديث كله روايات عنه أيضا. علم السيرة كالجنين من رحم الحديث خرج منه ثم انفصل عنه. وظهر في فترة موازية لعلم الحديث في القرن الثالث الهجري، وانتهى التأليف فيه حوالي القرن السادس لما انفصل علم السيرة عن علم الحديث.

أ- «سنن النبي وأيامه» للحافظ ابن سعد(٢٣٠هـ)[3]

والعنوان يكشف عن خروج أيام النبي أي سيرته من سننه أي أحاديثه. ومع ذلك هو أقرب إلى الحديث منه إلى السيرة. والحديث مبوب طبقا لأبواب الفقه أسوة بكتب الأحاديث وفي مقدمتها «الإصحاحات». هي مجرد مادة خام لعلم السيرة، هي مجرد جمع لأحاديث دون نقد للرواية ودون تعليق أو رأي. بل إن الغزوات وهي صلب السيرة مجرد روايات لأحاديث فيها. السيرة والمغازي أحد كتب السنن[4]. والتفسير جزء من السيرة كما هو الحال في كتب الحديث مثل البخاري[5]. وبعض الكتب خاصة

---

(١) السابق ص١٩٩/ ٢٠٦/ ٥٠١/ ٣٨٥/ ٥٤.
(٢) السابق ص٣٢٧/ ٣٢٦/ ٦٨٨.
(٣) ابن سعد(الحافظ): سنن النبي وأيامه. استخرجها ورتبها وترجم لها وضبط متنها عبد السلام بن محمد بن عمر علوش،(جزءان)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق عمان، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
(٤) السابق جـ١/ ١٩٨-٥٧٢.
(٥) السابق جـ٢/ ٣٦٣-٣٩٤.

بتاريخ الأنبياء[1]. وبعضها في الرقاق أي الزهد في الدنيا[2]. وكثير منها عادات أكثر منها سنن خاصة في الطعام والشراب واللباس والنوم واليقظة والمشي. ويبدأ التقديس باستعمال تعبير نسبه الشريف[3].

تروى ما يزيد على أربعة آلاف من الأحاديث، مبوبة في ستة وعشرين «كتابا». تبدأ بالعبادات، أركان الإسلام الخمسة، وفي مقدمتها «الطهارة». ويضم كتاب الصلاة أبوابا عديدة مثل: الأذان وأعمال الصلاة والإمامة وصلاة الجماعة والجمعة والتقديم والتأخير والوتر وأحكام المساجد. والجنائز جزء من الصلاة وليست مستقلة. وتشمل الزكاة الصدقة. ثم تبدأ المعاملات بالنكاح. وتضم الرضاعة، والطلاق، والاختلاع. والسيرة والمغازي أحد الكتب وهى أكبرها. ويضم كتاب اللباس والزينة أنواع الثياب، وأقمشتها وما يحل منها وما يحرم، وألوانها، وخاتمه والشعر وخضابه وهي أدخل في الشمائل. ويشمل كتاب الشمائل صفاته الخُلقية والخلقية والفعلية وأدواته. ويتراوح كتاب الفضائل بين الأعمال والأمكنة والأزمنة والصحابة. وتعني علامات النبوة المعجزات. أكبرها السيرة والمغازي، وأصغرها الزكاة والصدقة، مع أن الزكاة لا تقل أهمية عن الجهاد[4].

ب- من عوالي المختصر السند الصحيح من أمور رسول الله وسننه وأيامه للبخاري (٢٥٦هـ)، انتقاء ابن تيمية (٧٢٨هـ)[5]

وهو يكشف أيضا عن خروج السيرة من الحديث. ولما كان الحديث متفاوت

---

(١) السابق جـ٢/ ٨٢-١٠٢.

(٢) السابق جـ٢/ ٦٦-٨١.

(٣) السابق جـ٢/ ١٩٨-٢٠٠.

(٤) ٤١٦٤ حديثا. والكتب هي: الطهارة، الصلاة والجنائز، الزكاة والصدقة، الصوم، الحج، النكاح، القصاص والحدود، السيرة والمغازي، المؤاخاة، الإقطاع، الجهاد، الرسائل، الوفود، الأطعمة والأشربة، اللباس والزينة، الطب، الألفاظ، الأسماء، الأدب، الرقاق، الأنبياء، الشمائل، علامات النبوة، التفسير، الفضائل.

(٥) البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفي مولاهم). انتقاء ابن تيمية (أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الحنبلي): المنتقى من عوالي المختصر المسند الصحيح من أمور رسول الله وسننه وأيامه، تحقيق عبد العزيز بن فيصل الراجحي، أصول السلف، الرياض ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

الدرجات في الصحة والنقل والرواية وأن أي خطأ في النقل يسبب خطأ في الحديث وأن أي خطأ في الحديث يسبب خطأ مما تلاقي السيرة كان من الضروري التيقن أولاً من صحة الحديث التي تستنبط منه السيرة وأن يكون «السند الصحيح». ولما كانت المسانيد كبيرة وآخرها مسند ابن حنبل كان من الضروري اختصاره وأخذ زبدته في «عوالي المختصر». ولما كانت السيرة خاصة بشخص الرسول مستمدة من أقواله كان جمع الحديث حول «أمور الرسول وأيامه» أي حياته وحده. فمؤلفو الحديث هم مؤلفو السيرة مثل البخاري. والأحاديث المنقولة قولية وعملية، قصيرة وطويلة، والطويلة لا يمكن حفظها.

والأحاديث فوق المائة[1]. وهي مبوبة دون ترقيم. ويمكن أن يدخل أكثر من موضوع في باب أو فصل واحد. والأبواب فقهية حوالي ثلاثة وأربعين. وكان يمكن تصنيفها في عدد أقل طبقا لأبواب الفقه المعروفة: عبادات، معاملات. أكبرها الصلاة كالعادة، وتبدأ الأبواب بباب أول عن العلم. وتضاف أبواب أدخل في علم أصول الدين مثل أحاديث الأنبياء. وتبدأ السيرة بالمغازي[2]. ويضاف التفسير كما هو الحال في صحيح البخاري[3]. ثم تظهر أبواب سميت فيها بعد الشمائل[4]. وأخيرا يظهر كتاب التوحيد في علم العقائد[5].

جـ- «المستصفى في سنن المصطفى» للقريظي اللحجي (٥٧٦هـ)[6]

ويدل العنوان على أنه أقرب إلى الحديث منه إلى السيرة. وقد استمر الربط بين الاثنين إلى وقت متأخر حتى القرن السادس عندما انفصلت السيرة نسبيا عن الحديث.

---

(١) الأحاديث (١٠٥)،الأبواب(٤٣)، وتضم العبادات: الطهارة، العيدان، الزكاة، الصلاة، الجنائز، الحج، الصيام، الاعتكاف، المعاملات: البيع، الإجارة، الكفالة،المزارعة، الغصب، الهبة، الصلح، الجهاد، الجزية. الأنبياء: أحاديث الأنبياء، في ذكر بني إسرائيل، مناقب قريش، صفة النبي. المغازي: فضل أبي طلحة والمغازي، علامات النبوة. التفسير.

(٢) المنتقى ص٥٩-٦٢.

(٣) السابق ص٦٣-٦٩.

(٤) وهي: الأطعمة، الذبائح، الأضاحي، الأشربة، الطب، اللباس، الترجل، الأدب، الاستئذان، الرقاق، الحدود، الديات، الفتن، الأحكام، السابق ص٧٢-١٠٢.

(٥) السابق ص١٠٣-١٠٥.

(٦) القريظي اللحجي (الشيخ الإمام العلامة الفقيه محمد بن سعيد بن معن، المستصفى في سنن المصطفى، دار المنهاج، جدة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م).

ويضم سبعة وثلاثين كتابا مرتبة طبقا لأبواب الفقه بداية بالإيمان والعلم مثل الأركان الخمسة. والجنائز منفصلة عن الصلاة مع أنها جزء منها. والصلاة كالعادة أكبرها. ويسمي الحج المناسك. ويدخل النكاح والطلاق والفرائض والوصايا والحدود والقضاء والأحكام في المعاملات[1]. وتظهر السيرة في الكتاب السابع عشر، الجهاد والمغازي والسير[2]. ثم تعود أبواب الفقه سواء في الحديث أم في السيرة[3]. وتدخل بعض الكتب في التفسير والتأويل مثل الرؤيا والأمثال[4]. وتظهر بعض الكتب الصوفية مثل الزهد، البر والصلة. ثم تظهر بعض كتب الشمائل مثل كتاب الطب. وتتعدد موضوعات الحديث مثل فضائل القرآن، والمناقب وفضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت والصحابة. ثم تعود موضوعات التصوف من جديد مثل الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. والمناقب هي معجزات الرسول. وتنتهي الكتب بموضوعات علم أصول الدين مثل القدر والعلم، والفتن وأشراط الساعة، والقيامة والنار والجنة.

٥- الرسالة والرسول:

أ- «سيرة خير العباد» لابن القيم الجوزية(٧٥١هـ)[5]

ويتضح في بعض مؤلفات السيرة التقابل بين محوريها الرسالة والرسول ولكن الرسالة أكبر حتى القرن الثامن. ففي هذه الرسالة بابان. الأول الرسالة، والثاني الرسول. والرسالة تسعة أضعاف الرسول. الأول ثمانية وأربعون موضوعا. والثاني

---

(١) وهي: الإيمان، العلم، الطهارة، الصلاة، الجنائز، الزكاة، الصيام، المناسك، النكاح، الطلاق والطهارة والإيلاء واللعان وحكم المطلقة والمتوفي عنها زوجها، العتق والتدبير، البيوع، الفرائض، الوصايا والنذر والإيمان، القسامة والحدود والديات، القضاء والأحكام، الجهاد والمغازي والسير، الذبائح والصيد، الأطعمة والأشربة، اللباس، الآداب، شرح النية، الملاحم، الرؤيا والأمثال، الزهد، البر والصلة، الطب، فضائل القرآن، المناقب، فضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت والصحابة، والذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، والقدر والقلم، الفتن وأشراط الساعة، صفة القيامة والنار والجنة

(٢) المستصفى ص٤٥٨-٥١٩.

(٣) مثل الذبائح والصيد، الأطعمة والأشربة، اللباس، والآداب.

(٤) السابق ص٦٠٩-٦٢٢.

(٥) ابن قيم الجوزية(الإمام)، إعداد صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

ثمانية موضوعات. والكل غير مرقم بل موضوعات تفصيلية متتالية[1]. وتبدأ أوصاف التعظيم: السيرة النبوية الشريفة، الشمائل النبوية الشريفة، نسبه الطاهر[2].

وبالرغم من أولوية الأدلة النقلية، القرآن والحديث والشعر إلا أنه يتسم بالوضوح والترتيب والتقسيم العقلي. وتقل فيه المعجزات والغيبيات بالرغم من أن المؤلف من المدرسة السلفية يميل إلى شيخه «شيخ الإسلام» ابن تيمية[3]. ويتم الاعتماد على المتن دون السند. والتراث قليل مع بعض الآيات بمناسبة أسباب النزول[4].

وبالرغم من سيادة المنهج التاريخي التقليدي تتبع حياة الرسول من المولد حتى الوفاة إلا أنه يرصد الدروس المستفاد منها بعدة تعبيرات متشابهة. وهي أحكام فقهية أو مجرد حكمة أو فقه القصة أو تخريج حديث وشرحه. والوقائع هي أحد والحديبية خيبر وحنين والفتح والطائف وتبوك[5]. ويظهر في القرآن تداخل كلام الله وكلام الرسول[6]. وأحيانًا يظهر التناقض بين القول والفعل في أحاديث الأنا. يحرمها الرسول ويستعملها[7]. وبعض السنن الفعلية عادات أو رد فعل على عادات للتمييز مثل إطالة اللحى وقص الشوارب على غير عادة اليهود. والآن بعض الأوربيين يطيلون

---

(١) الباب الأول: السيرة النبوية الشريفة(٦٠٦ص). الباب الثاني: الشمائل النبوية الشريفة وما يلحق بها (٦٨ص).

(٢) خير العباد ص١٥/ ١٧/ ٦٢.

(٣) السابق ص٢٨/ ٤٦.

(٤) السابق ص١٢٢.

(٥) الأحكام الفقهية المستفادة، السابق ص١٤٦/ ٢٧٤-٢٨٨. بعض الحكم المستفادة، ص١٥٠/ ٢٣٧، خلاصة الحكمة من أحد ١٧١. الأحكام والحكم في قصة الحديبية ٢٣٠-٢٤٤/ ٣٩٢-٤٠٨، الفوائد الفقهية من القصة ص٢٣٠. الأحكام واللطف المستفادة ص٣٩٢-٤٠٨، الفقه في قصة هذا الوافد ٥٠٢-٥١٤/ ٥٢٢-٥٢٥/ ٥٣٣-٥٣٥/ ٥٥٧-٥٥٩. من فقه هذه القصة ص٥٥٠-٥٥٢. بيان تخريج حديث هذا الوفد ص٥٦٦-٥٦٧. شرح الحديث وبيان فوائده ص٥٦٧-٥٧٤.

(٦) قول الرسول ﷺ: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن فإن الله معنا. ودخل بعضها في القرآن ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، السابق ص٦٠.

(٧) «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، السابق، ص٦٣٠ «أنا خير من تسلّف»، ص٦٧٢.

اللحى. ومن مشاهيرهم نيتشه وماركس وفيبروبرودرن وتشايكوفسكي وتولستوي وسولزنيتشن[1].

ب- «ألفية السيرة النبوية» للعراقي(٨٠٦هـ)[2]

وهي قصيدة طويلة في مدح الرسول. تجمع بين محوري الرسالة والرسول. القافية بين الشطرين. وتتغير من بيت إلى آخر. فالمدح أقرب إلى التعبير عنه شعرا لأنه عمل وجداني خالص. وقد حول الشارح القصيدة إلى موضوعات السيرة. تبدأ معظمها بلفظ «ذكر»، و«قصه» مرة واحدة. والموضوع نفسه خمس مرات مما يدل على أنها رؤية ورواية. والمجموع خمسة وخمسون موضوعا. أكبرها في الشمائل[3]. والشعر التاريخي التعليمي ليس شعرا إنما هو إخضاع الشعر لشيء آخر يقضي على حرية الشاعر. والمديح مثل الهجاء ليس شعرا. وقد بدأت ألفاظ التعظيم والتفخيم منذ البداية، المدينة «الشريفة» لمكان الشرح، والناظم «الإمام الكبير»، الحافظ المجدد، أسماؤه الشريفة، أخلاقه الشريفة، نسبه الزكي الطيب الطاهر، صلى الله عليه وسلم، والصحابي رضي الله عنه[4]. ومازالت المعجزات موضوعا أثير للمدح لأنها تطلق الخيال[5].

وموضوعات السيرة تبدأ من الميلاد حتى الوفاة[6]. وتضم نزول الوحي والمسلمين الأوائل، واستقبال الوفود، وأذى الرسول والهجرتين إلى الحبشة، والزواج من خديجة، والهجرة إلى المدينة، الحج والعمرة، المغازي، البعوث والسرايا، المرض والوفاة. أما

---

(١) السابق ص٦٨١.

(٢) العراقي (زين الدين عبد الرحيم بن الحسين): ألفية السيرة النبوية المسماة نظم الدرر السنية في السير الزكية، تحقيق وتعليق السيد محمد بن علوي المالكي الحسيني رحمه الله تعالى المتوفي سنة ١٤٢٥هـ.

(٣) السيرة ص٢٩-٧٤ (٥٠ص)، الشمائل ص٧٥-١٥٢ (٧٧ص).

(٤) السابق ص٣٠-٣٤/ ٤٨/ ٨٢-٨٥.

(٥) مثل: انشقاق القمر، وفد الجن، قصة الإسراء، مسح ضريح الشاة، السابق ص٥٩-٦٠/ ٦٤-٦٥/ ٦٨، وباقي المعجزات في الشمائل ص٩٢-٩٦.

(٦) وهي: المولد، الكفالة، بناء الكعبة، بدء الوحي، مكة بعد البعثة، السابقون إلى الإسلام، التأييد بالقرآن، أذى قريش، الهجرة إلى الحبشة، وفاة العم والزوجة، بيعة الأنصار، الهجرة إلى المدينة، المرض والوفاة.

الخصائص فتتداخل مع السيرة قبل أن تنتهي بها مثل أسمائه ونسبه قبل الميلاد[1]. ثم يأتي وصفه موضوعيا بجسده[2]. ثم تأتي صفاته المعنوية، أخلاقه[3]. ثم يأتي التركيز كله على خُلقه أي جسده وعاداته. ثم تظهر أشياؤه حتى بغاله وحميره وديكه وأفراسه وأقداحه وآنيته[4]. ثم يظهر محيطه الاجتماعي[5].

جـ- «بهجة المحافل وبغية الأماثل» للعامري الحضري(٨٩٣هـ)[6]

وفيه تتشعب الرسالة إلى الرسول ثم الرسول إلى شعب أخرى، خصائصه وشمائله. تصبح بنية علم السيرة ثلاثية: السيرة والخصائص والشمائل. وتظل السيرة لها الأولوية من حيث الحجم، تمثل الثلاثة أخماس في حين أن الخصائص والشمائل تمثل الخمسين[7]. السيرة في الرسالة، والخصائص والشمائل في الرسول من حيث القسم. تشعب الرسول في موضوعين. ومع ذلك ظل أقل من الرسالة. والعنوان نفسه بداية التفخيم والتعظيم «بهجة المحافل وبغية الأماثل» فمحفل الرسول أعظم بهجة وبغية المشابهين له. هذه هي الصورة الخيالية. أما الواقع التاريخي ففي العنوان الفرعي «في تلخيص السير والمعجزات والشمائل». وتدل على السيرة عندما تتشعب إلى فرعين كالشجرة.

وتضم السيرة ستة أبواب: النسب، المولد، النبوة، الهجرة، الأقارب، الدواب. الموضوعان الأخيران الأقارب والدواب خارج الرسالة وبداية التحول من الرسالة إلى الرسول[8]. أكبرها وأصغرها الدواب. ويظهر محمد الكوني السابق في وجوده

---

(١) ألفية السيرة ص٣٠-٣٤.

(٢) وصف أم معبد له، وصف هند بن أبي هالة، السابق ص٧٨-٨١.

(٣) السابق ص٨٢-٨٥.

(٤) خلقه في الطعام والشراب، خلقه في اللباس، الخاتم، الفراش، الطيب والكحل، أفراسه، بغاله وحميره، لقاحه وجماله، منائحه وديكه، سلاحه، أقداحه وآنيته، وركدته، وربعته وسريره.

(٥) وهم: كتابه، رسله، أولاده، أعمامه، أزواجه، خدامه، مواليه، السابق ص١٢٣-١٣٩.

(٦) العامري الحرضي اليماني الشافعي(الإمام العلامة المحدث يحيي بن أبي بكر بن محمد): بهجة المحافل وبغية الأماثل، دار المنهاج، بيروت، جدة ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

(٧) القسم الأول تلخيص سيرته، السابق ص٤٣-٤٢٥(٣٨٣). القسم الثاني في أسمائه الكريمة وخلقته الوسيمة وخصائصه ومعجزاته وباهر آياته ص٤٢٩-٤٨٣(٥٥).، القسم الثالث: في شمائله وفضائله وأقواله وأفعاله في جميع أحواله ص٤٨٧-٦٣٧(١٥١ ص).

(٨) أ- شرف نسبه ومحتده، وما مهد الله له من الفضائل قبل وجوده وفضل بلدي وفاته ومولده، وعدد آياته

على وجود الخلق القديم كما تقول النصارى في المسيح. ويضم الرسول أربعة أبواب: الأسماء والخلقة والخصائص والمعجزات مع الآيات[1]. وخصائصه نوعان: ما اختص به هو وأمته من الفضائل وأنواع الكرامات. والثاني فيما اختص به دون أمته من الواجبات والمباحات والمحرمات. ويضم القسم الثالث، الشمائل والفضائل والأقوال والأفعال أربعة أبواب كذلك. العادات والسجية في المباحات والمعتادات الضروريات، والأخلاق المعنوية والعبادات المتكررات، وهي أدخل في الفقه[2].

ويبدأ التعظيم والتفخيم بالألقاب مثل شرفه ونسبه وصحته، المدينة الشريفة، نسبه الشريف، مولده الشريف، المسجد النبوي الشريف، أسمائه الكريمة، خلقته الوسيمة، باهر آياته، جسده الشريف، يده الشريفة[3]. تتلوها الفضائل والبركات لقبره ورقيته عند النوم[4].

وهناك مقدمة منهجية صغيرة تدل على الوعي بالتاريخ، بنية وتطورا[5]. ويشاد

من لدن آدم، بهجة المحافل ص٤٣-٦٠(١٨)

ب- في تاريخ مولده إلى ثبوته وما جرى في تضاعف ذلك من الحوادث، الخلاف في تاريخ مولده الشريف وأصح الأقوال في ذلك ص٦١-٧٢(١٢)

جـ- في ذكر نبوته وما بعدها إلى هجرته ص٧٣-١٢٧(٥٥)

د- في هجرته وما بعدها إلى وفاته ص١٢٨-٣٩٦(٢٦٩)

هـ- في ذكر بنيه وبناته وأزواجه وأعمامه وعماته ومرضعاته وإخوته من الرضاعة وأخواته، وذكر مواليه وخدمه من الأحرار ومن كان يحرسه ورسله إلى الملوك، وكتابه، ورفقائه العشرة النجباء وأصحابه النقباء، وأهل الفتوى في حياته ص٣٩٧-٤١٧(٢١)

و- في ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير ونعمه وغنمه وسلاحه وبيوته وملبوساته وغير ذلك من أنواع آلاته وفيه عدد سراياه وغزواته ص٤١٨-٤٢٦(٩).

(١) أ- في الأسماء وما تضمنت من المناسبات، السابق ص٤٢٩-٤٣٤(٦)

ب- في خلقه الوسيم وتناسب أعضائه واستواء أجزائه وما جمع الله فيه من الكلمات ص٤٣٥-٤٣٩(٥)

جـ- في خصائصه ص٤٤٠-٤٤٦(٧)

د- فيما أيده الله من المعجزات وخرق العادات ص٤٤٧-٤٨٤(٣٨).

(٢) أ- في عاداته وسجيته في المباحثات والمعتقدات الضروريات، السابق ص٢٨٧-٥١٣(٢٢٧).

ب- في الأخلاق المعنويات ص٥١٤-٥٣٠(١٧).

جـ- في شمائله في العبادات المتكررات ص٥٣٠-٦١٢(٨٣)

د- في فضل أهل البيت رسول الله وصحابته ومن يعظم لأجله وفضله حديثه ومحدثيه وختامه من فضل الصلاة عليه ص٦١٣-٦٣٥(٢٣).

(٣) السابق ص٤٣/ ٥٥/ ٥٦/ ٦١/ ١٣٥/ ٤٢٧/ ٤٣٩/ ٤٧٦.

(٤) السابق ص٣٩١/ ٣٩٤-٣٩٦.

(٥) السابق ص٣٧-٤٠.

بنموذج ابن إسحق وابن هشام[1]. ويتجلى المنهج التاريخي في ذكر أول من هاجر وبعض مشاهير المهاجرين، ومنازل المهاجرين في الأنصار، وأول مولود للمهاجرين بالمدينة[2]. كما يتجلى في ذكر الحوادث عاما بعد عام منذ السنة الأولى[3]. وبالرغم من المنهج التاريخي إلا أن الدلالات والفوائد تظهر بين الحين والآخر، فوائد بناء الكعبة والمسجد الحرام، والهجرة[4]. وقد تكون الفائدة في صيغة تحذير[5].

والمصادر كالعادة، القرآن والحديث والشعر. والشعر تجربة يتطابق معها القرآن والحديث. يتعادل الثلاثة من حيث الكثرة تقريبا أو يتجاوز الشعر باعتباره التجربة الأصيلة. والسيرة مناسبة لمعرفة أسباب النزول[6]. وهي أيضا مصدر لعلم التفسير[7]. وهي مناسبة لحسم الخلاف في مختلف التفسيرات[8]. وهي أيضا مناسبة لبيان أعاجيب القرآن[9].

وتغيب التساؤلات حول احتمال تناقض الروايات مثل فضائل قريش ومثالب قريش، مدح قريش وذم قريش[10]. وتروى المعجزات دون نقد الروايات التي تترك

---

(١) يضاف إليها «خلاصة السير» للطبري، وفي الشمائل كتاب الترمذي وابن حيان. ونموذج آخر «الشفا» للقاضي عياض، السابق ص٣٨.

(٢) السابق ص١٣٦-١٣٧، أعيان الشهداء ص١٧٠-١٧٤.

(٣) السابق ص١٤٤-٣٧١. أزواجه ص٣٩٨-٢٤٢، الأعمام والعمات ص٤٠٢-٤٠٥، المرضعات والأخوة من الرضاعة ص٤٠٥-٤٠٦، مواليد من الرجال والنساء ص٤٠٦-٤٠٩، خدمه الأحرار ص٤٠٩-٤٤١، من كان يحرسه في غزواته ص٤١١-٤١٢، رسله إلى الملوك ص٤١٢-٤١٥، كتابه ص٤١٥، رفاقه العشرة النجباء في الجنة وأنصاره الاثنى عشر النقباء ٤١٦، دوابه من الخيل البغال والحمير ص٤١٨-٤٢٠، سلاحه ص٤٢١-٤٢٢.

(٤) فائدة فيمن بنى الكعبة والمسجد الحرام، السابق ص٦٩، فائدة حسنة في أقسام الذهاب في الأرض ص٩٥، فوائد حديث كعب بن مالك ص٣٤٠-٣٤٥، فائدة في مشروعية القنوت، فائدة أخرى فيما يسن قوله بعد الوتر، ص٥٦٧ فائدة في أوقات الإجابة وأماكنها ص٥٦٩.

(٥) في التحذير من فاحشة الزنا وبيان حدها، السابق ص٣٤٨-٣٥٢. التحذير من الغلو في حب آل البيت ص٦١٦.

(٦) السابق ص٨٧/ ١٥٦/ ١٨٦/ ١٩٥/ ٢٣٨/ ٣٢١/ ٣٥٩/ ٣٦٨/ ٤١٢.

(٧) السابق ص٤٣/ ٥١/ ٥٤/ ١٠٧/ ١٩٤/ ٢٢١/ ٢٥٣.

(٨) السابق ص٢٤٦.

(٩) السابق ص٣٥٧.

(١٠) السابق ص٥٥.

العقل يتساءل عن صدقها[1]. وتظهر بين الحين والآخر القسمة العقلية لمحاولة الخروج من العلوم النقلية إلى العلوم العقلية[2].

د- «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للقسطلاني(٩٢٣هـ)[3]

تم تضخيم الرسول على حساب الرسالة في السير المتأخرة. فإذا كانت السيرة عشرة مقاصد، فالمقصد الأول فقط في السيرة منذ الولادة حتى الوفاة، والمقاصد التسعة الباقية في الرسول: أسماؤه وأولاده وأزواجه، كمال خلقته وعظيم أخلاقه، معجزاته وحقائقه، الإسراء والمعراج، آيات التنزيل لتعظيم قدره، وجوب حجتين واتباع سنته، طبه وتعبيره الرؤيا وإنباؤه بالمغيبات، عبادته ثم وفاته[4]. أكبرها الأول عن السيرة ثم التاسع عن العبادات. ولا ينقسم كل مقصد إلى فصول وأنواع.

---

(١) مثل تسليم الحجر عليه، السابق ص٧٢، نطق الجمادات له ص٤٦٤-٤٦٧، كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره ص٤٧٥-٤٧٧، المعجزات في ضروب الحيوانات ص٤٦٧-٤٧٠، ملازمة إسرافيل وجبريل للنبي قبل البعثة ص٧٢. جبريل إلى جنب النبي عند مبايعة النقباء، إبليس يحرض قريشا على الخزرج ص١٢٥. أفضل الملائكة الذين شهدوا بدرا ص١٥٨، معجزات في الآيات السماوية، انشقاق القمر، احتباس الشمس ص٤٥٨، معجزاته في تكثير القليل من الطعام ونبع الماء بين أصابعه ص٤٥٩-٤٦٣، كلام الموتى والصبيان ص٤٧٠-٤٧١، المرضى ذوي العاهات ص٤٧١-٤٧٣، إجابة دعائه ص٤٧٢-٤٧٥، ملك الجبال يستأذن في عذاب قريش، مجيء نفر من الجن إلى الرسول، أسماء جن نصيبين، وقت وموضوع استماع الجن، مجيء داعي الجن مرة أخرى بمكة، عدد الجن من جزيرة الموصل ص١١٢-١١٣، فصل في أصل الجن وأصنافهم، الخلاف في أصل الجن، الجن ثلاثة أصناف، شمول البعثة للجن، عجيبة في تعمير الجن أعمارا طويلة، الجن قبائل متكاثرة ص١١٣-١١٤.

(٢) السابق ص٩٥-٩٧/ ١٧٣-١٧٤.

(٣) القسطلاني(العلامة أحمد بن محمد): المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، تحقيق صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م(أربعة أجزاء).

(٤) أ- أحداث السيرة منذ الولادة حتى الوفاة جـ١ ٥٥-٦٥٠(٥٩٥ص).
ب- في ذكر أسمائه وأولاده وأزواجه جـ٢/ ٩-٢١١(٢٠٣).
جـ- في كمال خلقته وعظيم أخلاقه جـ٢/ ٢١٧-٤٩١(٢٧٥).
د- في المعجزات والخصائص جـ٢/ ٤٩٥-٧٣٥(٢٤١).
هـ- الإسراء والمعراج جـ٣/ ٧-١١٥(١٠٩).
و- آيات من التنزيل في تعظيم قدره جـ٣/ ١١٩-٢٦٤(١٤٦).
ز- في وجوب محبته واتباع سنته جـ٣/ ٢٦٧-٣٩٦(١٣٠).
ح- في طبه لذوي الأمراض والعاهات وتعبيره الرؤيا وإنباته بالأنباء والمغيبات جـ٣
ط- في عبادته جـ٤/ ٧-٥٠٥(٤٩٩)، جـ٣/ ٣٩٩-٥٧٥(١٧٧).
ي- وفاته جـ٤/ ٥١١-٦٩٦(١٨٦).

تنقسم السيرة، المقصد الأول إلى ثلاثة وخمسين موضوعا دون ترقيم أو تصنيف إلى أبواب وفصول[1]. ومع ذلك تتبع نموذج ابن هشام من البداية إلى النهاية مع التركيز على الغزوات والسير[2]. وتبرز حياة الرسول قبل البعثة والهجرتين إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة وتحويل القبلة وصلح الحديبية وفتح مكة. وهناك وعي بالبنية في المقدمة المنهجية الأولى[3].

والعنوان صوفي «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» مما يدل على أولوية الرسول على الرسالة. وتظهر بعض التعبيرات الصوفية في مقاصد السيرة[4]. ويُحال إلى التراث الصوفي عند الغزالي، والفقهي عند السبكي[5]. وتؤخذ اقتباسات بعلامة «انتهى»[6]. وتستعمل مصطلحات التفسير الصوفية مثل «إشاري» لوصف الكلام والتعليل[7]. ويتعمق في المحبة ووجوبها مثل الصوفية في المقصد السابع كله[8]. وتتزايد ألقاب

(١) النسب، قصة الفيل، حفر زمزم، زواجُ عبد الله، ختانه، زمن الولادة ووقتها، رضاعه، وفاة آمنة، قضية نجاة والديه، حياته قبل البعثة، مبعث النبي، أول من آمن، الجهر بالدعوة، قصة الغرانيق، الهجرة الثانية إلى الحبشة، عام الحزن، الخروج إلى الطائف، وقت الإسراء، العرض على القبائل، الهجرة إلى المدينة، بناء المسجد، خبر الأذان، المغازي، تحويل إلى القبلة، غزوة بدر، بين بدر وأحد، غزوة أحد، بعد أحد، يوم الرجيع، بئر معونة، غزوة بني النضير، غزوة ذات الرقاع، غزوة بني المصطلق، غزوة الخندق، غزوة بني قريظة، فرض الحج، بين قريظة والحديبية، صلح الحديبية، من أحداث العام السادس، غزوة خيبر، سرايا بعد خيبر، عمرة القضاء، سرايا بعد الهجرة، غزوة مؤتة، سرايا قبل الفتح، فتح مكة، سرايا بين الفتح وحنين، غزوة حنين، غزوة الطائف، بين خيبر وتبوك، غزوة تبوك، بعد حج أبي بكر.

(٢) الغزوات اثنا عشر موضوعا، والسرايا أربعة.

(٣) المواهب اللدنية جـ١/ ٤٧-٥٠.

(٤) «فهذه لطيفة من لطائف نفحات العواطف الرحمانية، ومنحة من منح مواهب العطايا الربانية وسبق نبوته في الأزمان الأزلية، وثبوت رسالته في الغايات الأحدية، والتبشير بأحمديته في الأعصر الخالية، والتذكير بمحمديته في الأمم الماضية، وإشراق بوارق لوامع أنوار آيات ولادته التي سار في ضوء فجرها في سائر بريته، ودار بدر فجرها في أقطار ملته، وعواطف لطائف رضاعه وحضانته، وينابيع أسرار سر مساره وبعثته وهجرته، وعوارف معارف عبوديته الساري في عرف شذاها في آفاق قلوب ولايته، ونفائس أنفاس أحواله الذكية ودقائق حقائق سيرته العلية إلى حين نقلته لروضة قدسه الأحدية..»، السابق جـ١/ ٤٤-٤٥.

(٥) السابق جـ١/ ٦٢-٦٣.

(٦) السابق جـ١/ ٨١.

(٧) كلام إشاري، السابق جـ٣/ ٩٥، تعليل إشاري لموقف موسى، السابق جـ٣/ ١١٠-١١٢.

(٨) السابق جـ٣/ ٢٦٧-٢٩٨ وجوب محبته.

التعظيم والتفخيم مثل نسبه الشريف، أسمائه الشريفة، أولاده الكرام، الروضة الشريفة، الحوض الشريف، المقام المحمود[1]. وبالرغم من سيادة المنهج التاريخي إلا أن الحكم والمواعظ هي الهدف مثل حكمة نزول آدم[2].

وتعتمد على القرآن والحديث والشعر. والشعر مصداق المصدرين الأولين. والآيات أجوبة لأحداث، وكذلك الأحاديث لأحداث أكثر تفصيلا[3]. وتستعمل السيرة لتفسير الآيات إما اعتمادًا على علم الحديث أو اعتماد علم الحديث عليها[4]. وتكثر الآيات في المقصد السادس[5]. وتقوم السيرة بإيضاح بعض نقاط النص[6]. كما يتم البحث عن معنى الآيات[7].

وهناك رفض لقول «أنا» لأنه يشعر بالعظمة. وأول من قال أنا هو إبليس[8]. ومع ذلك هناك أحاديث تبدأ بلفظ «أنا» مثل «أنا سيد أولاد بني آدم ولا فخر». والجمع بين الروايات إحدى وسائل رفع التناقض بينها[9]. وتتعدد الروايات في الرؤية، رؤية الله في الدنيا أو في الآخرة[10]. كما تتعدد في المسائل الفقهية مثل قراءة البسملة ومحاولة الجمع بينها بعد التحقيق فيها. وتُعرض أدلة كل فريق، وتروى الأحاديث في بعض

---

(١) السابق جـ١/ ٩٠، ٨٥-٩٨، جـ٢/ ٩-٥٧/ جـ٢/ ٥٨-٧٢، جـ٤/ ٥٩٦-٦٠٠/ ٦٣٤-٦٣٩.

(٢) السابق جـ١/ ٧٨-٧٩، الحكمة في قتال الملائكة جـ١/ ٣٦٣، حكمة شق الصدر جـ٣/ ٣٣، حكمة كون الإسراء به ليلا جـ٣/ ١٣، حكمة انفراج سقف البيت جـ٣/ ٢٣، حكمة الإسراء به راكبا جـ٣/ ٣٦، حكمة كون بعض الأنبياء في السماء جـ٣/ ٦٥، حكمة الفرض ليلة الإسراء جـ٣/ ١٠٩، حكمة الإسراء جـ٣/ ١١٥.

(٣) السابق جـ٦/ ٣٤٦.

(٤) السابق جـ١/ ٢٢٢/ ٤٠٦-٤٠٨ جـ٣/ ١٥.

(٥) آيات من التنزيل في تعظيم قدره، السابق جـ٣/ ١١٩-٢٦٤.

(٦) السابق جـ٣/ ٢٤.

(٧) السابق جـ٤/ ٨/ ٣٥.

(٨) لم يقل جبريل أنا، السابق جـ٣/ ٥٤.

(٩) الجمع بين الروايات بشأن مكان الأنبياء، السابق جـ٣/ ٥٩.

(١٠) رأي أم المؤمنين عائشة، رأي ابن عباس، آراء في ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، الآراء في رؤيته ربه تعالى، رأي في الجمع بين الروايات، رأي الإمام أحمد القول بالموقف، السابق جـ٣/ ٩٧-١٠٧، «روايات في قراءة البسملة»، روايات حديث أمتي، الجمع بين الروايات، أدلة القائلين الجهر بها، تحقيق المسألة، جـ٤/ ٧٦-٨٤، أحاديث في الموضوع جـ٤/ ٨٦.

الموضوعات الفقهية. ويحدد سبب اختلاف الروايات[1]. وتُعرض آراء العلماء والمذاهب في الموضوع[2].

وهي سيرة تفصيلية واضحة. تحاول الانتقال من النقل إلى العقل عن طريق رصد الخلاف في الرأي وتعدد الروايات والحكم على متنها وسندها بالضعف أو الإنكار[3]. وتكثر التقسيمات من أجل التحليل. كما تعتمد أحيانا التحليل العقلي للموضوع بالإضافة إلى المصدر النصي مثل تحليل مقاصد النكاح[4]. ويمكن أيضا إرجاع النص إلى مصدره التاريخي كرد فعل على داود وسليمان واستمرار له في تعدد الزوجات. بل تنسب أقوال لموسى إلى محمد[5]. وتثار بعض التساؤلات، والتساؤل بداية التحول من النقل إلى العقل[6]. ويمتد التساؤل من السيرة إلى الفقه. ، قد تخصص إجراء إلى طرح الأسئلة[7]. والمناقشة أيضا أحد مظاهر التأسيس العقلي[8]. فتعرض أدلة كل رأي[9]. والبحث عن العلة أحد مظاهر التحول من النقل إلى العقل[10].

(١) سبب اختلاف الروايات، السابق، جـ٤/ ٤١٤-٤١٥.

(٢) آراء العلماء في القنوت، السابق جـ٤/ ١٢٧، آراء المذاهب في السجود بعد التسليم، جـ٤/ ١٤٦.

(٣) الخلاف في ختانه، السابق، جـ١/ ١٣٣-١٣٤، قصة الغرانيق والخلاف حولها جـ١/ ٢٤٨-٢٥٨ الاختلاف حول الإسراء والمعراج جـ٣/ ٧-١٧، رأي خاص جـ١/ ١٣٦/ ١٧٧-١٨٣، تعدد الروايات، في بدء الوحي جـ١/ ٢٠٠-٢٠١، تعدد الأقوال في أول من أسلم جـ١/ ٢١٦-٢١٨، روايات أخرى عن الملائكة، روايات أخرى في الإسراء جـ٣/ ٧٨-٧٩، حديث غريب المتن والإسناد جـ١/ ١٥٤. القول بأنه ولد مختونا والقول بغير ذلك، بحث في فقه الختان جـ١/ ١٣٣-١٣٨، ضعف حديث تسبيح الحصي جـ٢/ ٥٣١، رد الشمس لم يثبت جـ٢/ ٥٢٨، منكر وانشقاق القمر جـ٢/ ٥٢٥، أحاديث ضعيفة جـ٣/ ٧٥-٧٨، حديث ضعيف جـ٣/ ٩٣، حديثان موضوعان جـ٣/ ٧٥/ ٨٤-٨٧، حديثان ضعيفان جـ٣/ ٥١٨، حديث ضعيف جدا جـ٣/ ٥٤٦، قصته باطلة جـ٤/ ٣١٥، حديث ضعيف جـ٤/ ٥٣٢، حديث واه جدا جـ٤/ ٥٣٤، أحاديث ضعيفة جـ٤/ ٥٤١-٥٤٢.

(٤) السابق جـ٢/ ٤٧٤.

(٥) مثل «انكحوا فإني مكاثر بكم الأمم»، السابق جـ٢/ ٤٨٣-٤٨٥.

(٦) هل ركب الأنبياء البراق؟ السابق، جـ٣/ ٣٩، هل ركب جبريل البراق؟ ص٣/ ٤١، هل كان إدريس جدا له؟ جـ٣/ ٦٥، هل الوضوء لكل صلاة؟ جـ٤/ ٢٢، هل يتكرر مسح الرأس؟ جـ٤/ ٣٣، الغسل أفضل أم المسح؟ جـ٤/ ٤٢، هل يترحم عليه؟ جـ٤/ ١١١. هل يفسخ الحج إلى العمرة؟ جـ٤/ ٤٣٢، أيها أفضل، مكة أم المدينة؟ جـ٤/ ٦٠٠-٦٠٦.

(٧) أسئلة السابق، جـ٤/ ٤٥٣.

(٨) مناقشة ربط البراق، السابق جـ٣/ ٤٨، مناقشة القائلين بالتمتع وغيره جـ٤/ ٤١٢.

(٩) أدلة القائلية بالأفراد، أدلة القائلية بالقرآن، السابق جـ٤/ ٤٠٧-٤١٠.

(١٠) تعليل استصعاب البراق، السابق جـ٣/ ٤٠.

هـ- «السيرة الحلبية» للحلبي الشافعي(١٠٤٤هـ)[١]

وتتضخم السيرة وتجمع بين السيرة والرسول. تقل السيرة تدريجيا ويتضخم الرسول حتى يصبح سيرة مستقلة عن الخصائص والشمائل كما تضخمت الرسالة من قبل في المغازي والسير وكانت السيرة مجرد فتوحات. و«السيرة الحلبية» نموذج التحول التدريجي من الرسالة إلى الرسول. بها خمسة وستون بابا. ثلثها في الرسالة والثلث الأخير في الرسول. والأبواب غير مرقمة. والغزوات والسرايا داخل الأبواب غير مرقمة أيضا. ومعظم الأبواب «ذكر» لأخبار أو وقائع والباقي أبواب في الموضوعات مباشرة وأقلها كتبا[٢]. ويبدأ التحول من الرسالة إلى الرسول في تفخيم العنوان وتضخيمه «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون». «إنسان العيون» صورة فنية أي جوهرة العين ولبها. و«الأمين المأمون» لقبا الرسول قبل البعثة وسمتان من سماته. ويستمر التفخيم في باقي الألقاب مثل «نسبه الشريف»[٣].

وتكثر الأدلة النقلية، القرآن والحديث والشعر دون أي أدلة عقلية أو دلالات نظرية. ويحال إلى التراث الصوفي والفقهي[٤]. ويكثر الموروث كما تكثر النصوص والاقتباسات بعلامة «أو» أو لفظ «انتهى»[٥]. لا يوجد سؤال أو تساؤل أو نفي أو إثبات لرواية إلا نادرا. ويبدأ النقد حثيثا بالشك في صحة بعض الروايات «وهذا غريب جدا» فيما يتعلق بتواريخ ولادة الرسول وبداية النبوة وتاريخ الهجرة ونزول البقرة وتاريخ الوفاة[٦]. وتعتمد السير على الصحيح والسقيم والضعيف والبلاغ والمرسل والمنقطع والمعضل دون الموضوع[٧]. ويشار إلى الأحاديث الموضوعة الخاصة بالمعجزات[٨].

---

(١) الحلبي الشافعي(العلامة أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد): السيرة الحلبية. وهو الكتاب المسمى «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» (ثلاثة مجلدات)، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٨.

(٢) الغزوات سبعة وعشرون، والسرايا ست وخمسون، والكتب ثمانية.

(٣) السيرة الحلبية جـ١/ ٩.

(٤) ابن عربي جـ١/ ٣٦-٣٧، الشعراني جـ١/ ٣٧، ابن الجوزي، جـ١/ ٣٧.

(٥) السيرة الحلبية جـ١/ ١٢/ ٥٩.

(٦) السابق جـ١/ ٨٥.

(٧) السابق جـ١/ ٣.

(٨) «وقد ذكر بعضهم أن حديث الغزالة موضوع»، السابق جـ٣/ ٣٩٩.

وتحيل إلى ابن إسحق[1]. وتجمع بين سيرتين «عيون الأثر» لابن سيد الناس وتتجنب إطالة الإسناد، وسيرة «الشمس الشامي» وتتجنب المكررات والمعادات. تضاف ضميمة وأبيات بعض القصائد للبوصيري والسبكي[2]. تدخل في أدق التفصيلات. وتدون أدق الحوادث بروح المؤرخ من أجل الرصد دون أي توجه فكري ودون أي هدف إلا التسجيل. ويتم الرصد في الباب الأخير عاما بعد عام[3].

و- الرحيق المختوم «للمباركفوري»

وتستمر السيرة بلا بنية بل مجرد موضوعات متراصة بلا تبويب في أبواب وفصول بلا ترقيم[4]. إنها العنوان يدل في البداية على التعظيم والتفخيم «الرحيق المختوم»، وفي آخر موضوعين «البيت النبوي» و«الصفات والأخلاق» عندما تتحول السيرة إلى الرسول[5]. والمؤلف «فضيلة الشيخ» من الجامعة السلفية بالهند الحاصل على الجائزة الأعلى من رابطة العالم الإسلامي والذي صدر أمينها العام السيرة بكلمة منه. وهو من نفس نوع «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي. كلمة المؤلف مدح في الرسول، وكلمة الناشر كذلك. وهو يدل على أثر النظم التقليدية في تقوية الاتجاه السلفي ونشر أفكاره. تكرر ما هو معروف وقيل عشرات المرات من قبل. فما الفائدة في كتابة سيرة جديدة دون هدف جديد؟ ويتم تضخيم بعض الأسماء بالألقاب مثل «عائشة الصديقة» قياسا على أبيها «أبو بكر الصديق» مما يمنع من النقد والتحليل[6].

وتقوم السيرة على الرؤية التاريخية لحياة الرسول، منذ نشأة الرسالة حتى اكتمالها، هذه الرؤية التي أسسها ابن إسحق. وابن هشام. تضم سبعة وخمسين موضوعا يمكن إعادة تصنيفها في سبعة أقسام: الأول العرب في الجاهلية، موقع العرب وأقوامها، الحكم

---

(١) السابق جـ١/ ٣١٢.

(٢) السابق جـ١/ ٣.

(٣) السابق جـ٣/ ٥١٩-٥٢٥.

(٤) المباركفوري (فضيلة الشيخ صفي الرحمن): الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، دار المؤيد، الرياض، جدة، أبها، الطائف، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٥) السابق ص٤٧٥-٤٨٨.

(٦) السابق ص١٣٦.

والإمارات، الديانات، المجتمع. الثاني النسب والمولد. الثالث البعثة والنبوة والرسالة والدعوة، واستقبال القبائل والوفود، والإسراء والمعراج، وبيعة العقبة الأولى والثانية. والرابع الهجرة. والخامس المدينة والحياة فيها والمعاهدات مع اليهود والغزوات والسريا والبعوث ورسائل الملوك وفتح مكة وحجة الوداع والوفاة، والسابع البيت النبوي والصفات والأخلاق[١]. وأكبرها الخامس. ويظهر المنهج التاريخي في تتبع المراحل، مراحل الدعوة السرية والعلنية. الإسلام في مكة[٢]. ومراحل الحياة في المدينة، الغزوات الأولى ورسائل الملوك، والغزوات الثانية. وتكشف المراحل عن أهمية التطور في التاريخ. ومع ذلك يتحول المنهج التاريخي أحيانا إلى مجرد تسجيل ورصد[٣]. والفوائد هي شروح لغوية للأشعار وليست الدلالات أو الدروس المستفادة من السيرة[٤].

وتعتمد على منهج النص من القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ[٥]. والقرآن أكثر باعتباره المصدر الرئيسي للسيرة. وتظهر في الآيات بعض أسباب النزول[٦]. وتتعارض روايات الإسراء والمعراج دون محاولة لنقدها لحل هذا التعارض[٧]. كما أن أقوال الرسول قبل البعثة قد لا تكون ملزمة مثل أقواله بعدها إلا إذا كان الدين الطبيعي أساس دين الوحي. وتتم الإحالة إلى ابن إسحاق والواقدي وغيرهما من كتاب السيرة والمؤرخين[٨]. ويقتبس من المصادر مع علامة إنهاء الاقتباس «انتهى» أو «أه»[٩]. ويُستشهد ببعض كتابات الدعاة المحدثين[١٠].

---

(١) ١- العرب في الجاهلية(عدد الموضوعات)(١-٤) ٢-النسب والمولد(٥-١) ٣- البعثة(٧-١٢) ٤- الهجرة(٢٣) ٥- المدينة(٢٤-٥٣) ٦- حجة الوداع(٥٤-٥٥) ٧- البيت النبوي والأخلاق(٥٦-٥٧).

(٢) الرحيق المختوم ص٧٤-١٧٤، الحياة في المدينة ص١٧٧-٤٣٩.

(٣) ستة من أهل يثرب، السابق ص١٣٥، أسماء العقبة الأولى ص ١٤٣. نقباء الأوس والخزرج ص١٥١-١٥٢، نواب قريش ص١٥٩، أسماء من طوق منزل الرسول ص١٦٢، السرايا ص١٩٧-١٩٩/ ٣٢٢-٣٢٤/ ٣٨٢-٣٨٣/ ٤٢٤-٤٢٧، وقائع السنة ص٤٣٩، أسماء الوفود، ص٤٤٥-٤٥٤، أزواج الرسول ص٤٧٣-٤٧٤.

(٤) فوائد جـ٢/ ٣٨/ ٥٥/ ١١٤/ ١٤٤/ ١٧٣/ ٢٠٢/ ٢١٢-٢١٣/ ٢٤٦-٢٤٨/ ٢٥٢/ ٢٦٧-٢٦٨/ ٢٧٥-٢٧٦/ ٢٧٨/ ٢٨٧/ ٢٩٠/ ٣٩٢/ ٤١٩/ ٤٢٨/ ٤٣١.

(٥) الآيات (١٦٩)، الأحاديث(١١٢)، الأشعار(٤٤).

(٦) الرحيق المختوم ص٢١٧/ ٢٢٨/ ٢٣٢/ ٢٣٩/ ٢٥٤/ ٣١١/ ٣٣٠/ ٣٤١.

(٧) السابق ص١٣٧-١٤٢.

(٨) ابن إسحق، السابق ص١٥٠/ ١٦٢/ ٢٢٢.

(٩) السابق ص١٠٠/ ١٨٥/ ٣٠٧.

(١٠) مثل الشيخ محمد الغزالي، السابق ص٤٢٢.

وتستعمل بعض الألفاظ والتعبيرات الحديثة من اللغة الشائعة مثل إعدام. وتشفع السيرة بالرسوم التوضيحية[1]. وأحيانا تحاول السيرة إبراز الدروس المستفادة من الأحداث مثل «من روائع الإيمان في هذه المعركة»، «غزوة بدر»، وكذلك الدروس المستفادة من كل الغزوات[2]. ومع ذلك هي سيرة تقليدية تخلو من أي دلالة على محاولات المحدثين للإصلاح[3]. وكان يمكن تطوير بعض الأقوال للرسول في طريق إصلاحي مثل استدلال الرسول على عدد جيش قريش بعدد ما ينحر من إبل[4].

ز- «الأسوة الحسنة» للصاغرجي[5]

وفي كتب السيرة المعاصرة يتضح المحوران في علم السيرة: الرسالة والرسول، ولكن مازالت الرسالة أكبر من الرسول، ويتضح المحور الثاني بالتفخيم والتعظيم في لقب «سيدنا» وفي «صلى الله عليه وسلم»، وفي العنوان الفرعي «الأسوة الحسنة»، ولقب المؤلف «الشيخ»، ووظيفة خادم السنة النبوية والعلم الشريف، وتفخيم الذات، وتفخيم الموضوع. والعلوم علوم ليس بها واحد أشرف من الآخر. ويكثر من استعمال صفة الشريف: ذكره الشريف، أسماؤه الشريفة، مسقط رأسه الشريف، الكعبة المشرفة، الهجرة النبوية الشريفة، يده الشريفة. وتتكون من ثمانية أبواب: الأول ذكره في الكتب الشريفة السابقة، التوراة والإنجيل والزبور وأخبار الأحبار والكهان، وأسماؤه الشريفة والدلالة عليها، وفضل مسقط رأسه وطهارة أصله ونسبه الزكي، وآباؤه وولادته وما وقع فيها من الآيات، ونشأته وكفالة جده ثم عمه وسفره إلى الشام وزواجه من خديجة، وبناء الكعبة[6]. والثاني من البعثة إلى الهجرة، وهي الفترة المكية التي وقع فيها الإسراء

(١) السابق ص٩٦/ ٩٨، الظلم والعدوان ص١٠٩، برلمان قريش، النقاش البرلماني ص١٥٨-١٦٠، تعبئة الجيش ص٢١٣، ساعة الصفر ص٢١٦، مؤامرة لاغتيال النبي ص٢٣٥، الاستخبارات النبوية ص٢٥٠، الطوارئ ص٢٥٠، مناورات ص٢٥٧، البطولات ص٢٧١، شماتة ص٢٧٨.

(٢) السابق ص٢٧٤/ ٣٠٨.

(٣) السابق ص٢٢٢، نظرة على الغزوات ص٤٤١-٤٤٣.

(٤) السابق ص٢١١.

(٥) الصاغرجي (الشيخ أسعد محمد سعيد): سيدنا محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، الأسوة الحسنة (جزءان)، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، جـ٤/ ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م.

(٦) السابق جـ١/ ص١١-١٤٢ (١٣٢ص).

والمعراج، والهجرة[1]. والثالث أحوال النبي في المدينة، خطبه وبناء مسجده، وظهور المنافقين[2]. والرابع مراحل الإذن بالجهاد وغزواته، بدر وأحد وما بينهما وما بعد أحد وما قبل صلح الحديبية، ومن الحديبية حتى تبوك وحجة الوداع[3]. والخامس معجزاته وهي أقرب إلى الشخص منها إلى الرسالة. وتضم المنعة والعصمة والحماية ورده على قريش، والإخبار عن الأمم السابقة كما يفعل المؤرخون، والمعجزات وخوارق العادات تثبيتا لأصحابه، وأخرى لم يطلع عليها أصحابه مثل الإسراء والمعراج، وتكثير الطعام والشراب، وإبراء المرضى وبركات يده، والقرآن المعجزة الكبرى[4]. والسادس معاملاته مع الآخرين في بيته وخارجه. والموضوعات أقرب إلى الفقه، بيعه وشراؤه وإجارته واستئجاره، واستئذانه ووفاؤه ومشاركته ومضاربته وحوالته ووكالته ورهنه وهبته وهديته وعريته. ومنها نكاحه وطلاقه وآدابه[5]. والسابع شمائله، الأسوة الحسنة: أعقل الخلق، وطهارته ووضوؤه وصلاته وزكاته وصيامه وحجه وسفره[6]. والثامن بعوثه وسراياه ووفوده. وهي أقرب إلى الرسالة منها إلى الرسول[7].

والمصادر كالعادة ثلاثة: القرآن، والحديث، والشعر[8]. يضاف إليها كتب التاريخ. وفي الآيات تظهر أسباب النزول[9]. كلها منقولات، آيات أو أحاديث، لا تحليل ولا نقد للروايات ولا تساؤل. ويتداخل كلام الله مع كلام البشر[10]. والحديث أكثر من القرآن.

---

(1) السابق جـ1/ 143-148(6ص).
(2) السابق جـ1/ 251-278(28ص).
(3) السابق جـ1/ 279-518(240ص).
(4) السابق جـ2/ 5-240(236ص).
(5) السابق جـ2/ 241-412(172ص).
(6) السابق جـ2/ 413-487(75ص).
(7) السابق جـ2/ 588-620(33ص).
(8) الأحاديث (620)، الآيات(485)،الأشعار(48).
(9) محمد رسول الله جـ1/ 179/ 188/ 331/ 335/ 340/ 354/ 356/ 358/ 363/ 382/ 385/ 411-412/ 455/ 474/ 498/ 506/ 516 جـ2/ 15/ 17/ 21/ 103-104/ 120/ 391.
(10) ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، هي عبارة أبي بكر دفاعا عن الرسول، السابق ص181. «لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا» عبارة أحد اليهود وشرطه للإيمان بالرسول، ص186-187، وكذلك «فأسقط السماء علينا كسفا»، «لا تحزن إن الله معنا» عبارة أبي بكر وهو يواسيه في الغار أثناء الهجرة إلى المدينة ص239. «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» حديث وآية ص481، قصة موسى والخضر جـ2/ 32-33.

والشعر أقل لانقضاء عهده عند المحدثين. ويلاحظ التناقض بين روايات الأحاديث الخاصة بالعنكبوت، خير لنسجه على الغار أم شيطان فيقتل؟[1].

وأحيانا يتعارض الحديث والقرآن مثل حديثه الرسول مع من في القبور وتنبيه القرآن له أن ذلك مستحيل[2]. ويطغى الحديث فتتحول السيرة وتعود إلى مصدرها في علم الحديث، وتصبح السيرة وكأنها صحيح أو مسند[3]. تطغى المادة على الموضوع. ويطول الحديث ويتضح فيه التركيب والإخراج والتأليف الروائي والحوار القصصي وإعلان الحقائق على لسان الآخر بالطريقة السقراطية[4]. ويقوم علم السيرة على علم الحديث. فهو مصدره الأول، وعلى علوم القرآن في أسباب النزول أو في الأخبار، وعلى علم الفقه في شخص النبي وعبادته ومعاملاته. فعلم الحديث هو أساس العلوم النقلية القرآن والسيرة والفقه.

والفرق بين كلام الرسول وكلام البشر ليس بعيدا. ليس فقط من الناحية البلاغية ولكن أيضا من ناحية المضمون. ففي الصلاة رفع الرسول رأسه وقال «سمع الله لمن حمده»، فأجاب أحد المصلين وراءه «ربنا لك الحمد»، فأخبر الرسول أن الملائكة أسرعت بكتابتها[5]. والفرق بين كلام الله وكلام الرسول ليس كبيرا[6]. إذ يتداخل القرآن مع الحديث. وهي إحدى أوجه البلاغة كما هو الحال في قصة موسى والخضر.

ويبدو تفخيم الرسول وتعظيمه إلى درجة الرسول الكوني منذ البداية في مقدمة المؤلف. فالله وملائكته والمؤمنون به يصلون عليه. وهو أول من تنشق عنه الأرض،

---

(١) «جزى الله العنكبوت عنا خيرا فإنها نسجت على الغار»، «العنكبوت شيطان فاقتلوه»، السابق جـ١/ ٣٣٩.

(٢) ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ ردا على مخاطبة الرسول قتلى المشركين في بدر «أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا؟»، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا. بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس. وقاتلتموني ونصرني الناس، فجزاكم الله عني من عصابة شرا، خونتموني أمينا، وكذبتموني صادقا»، محمد رسول الله جـ١/ ٣١٢-٣١٣.

(٣) «أيهم أكثر أخذًا للقرآن»، السابق جـ١/ ٣٦٦.

(٤) السابق جـ٢/ ٦١/ ١٠٩-١١١/ ١٤١-١٤٣.

(٥) «رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيها يكتبها أول»، السابق جـ٢/ ٢٥٧.

(٦) مثل «وجهت وجهي للذي فطر السموات... إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»، السابق جـ٢/ ٥٦٦.

ويجلس على يمين العرش. وأول الناس خروجا إذا بعثوا، وخطيبهم إذا وفدوا، ومبشرهم إذا يئسوا. بيده لواء الحمد. هو أكرم ولد آدم[1]. خلق وآدم بين الروح والجسد[2]. اسمه مكتوب على ساق العرش وعلى أوراق الجنة وقبابها وخيامها[3]. واستشفع به آدم بعد غوايته[4]. والأحاديث كلها تبدأ بضمير المتكلم الفرد «أنا» الذي لا تحبذه أحاديث أخرى ضد «الأنانية» والإطراء[5]. وهو الذي جمع أخلاق الأنبياء[6]. يجمع بين إبراهيم وموسى وعيسى. وينعكس التفخيم والتعظيم للموضوع في طريقة الطباعة، الآيات في الصفحات الأولى بالأحمر وبالبنط الكبير. وعلى نقيض هذا التعظيم والإجلال لا يوجد كشاف تمثيلي للآيات والأحاديث والأشعار والاقتباسات من المؤرخين والمفسرين والأعلام والأماكن والقبائل وغيرها من آليات البحث العلمي الحديث.

وفي الرسالة يستعمل المنهج التاريخي بلا دلالة ولا قراءة. بل أحيانا يتحول إلى مجرد رصد وتسجيل[7]. فهو مثل السير القديمة دون تحديث لها أو إعادة قراءتها بروح العصر[8]. ونادرا ما يركز على الدروس المستفادة من بعض وقائع السيرة. يتحول المنهج

---

(١) «أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأكسي الحلة من حلل الجنة. ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»، «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا»، «لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»، محمد رسول الله ﷺ، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع»، السابق جـ١/ ٨-٩.

(٢) «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد»، السابق جـ١/ ٦ .

(٣) «لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمي على الأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد. فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله تعالى أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه»، السابق جـ١/ ٧.

(٤) «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم».

(٥) «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم»، «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»، «محمد رسول الله» جـ١/ ٧-٦، «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بشر بي عيسى ابن مريم»، السابق جـ١/ ١٤.

(٦) السابق جـ١/ ٥-١٤، جـ٢/ ٧-٣٢.

(٧) ترجمة عبد المطلب بني هاشم، محمد رسول الله جـ١/ ١١٣، عدد القتلى يوم أحد ص٣٧٤-٣٧٨، أسماء المهاجرين والأنصار في المؤاخاة بعد الهجرة، جـ١/ ٢٦٤-٢٦٦، أسماء الغزوات ص٢٨٥/ ٣٢١-٣٢٨.

(٨) فوائد على هامش الإسراء والمعراج، السابق جـ١/ ٢١٦-٢٢١، الحكم الناتجة عن الغزوة(أحد)، السابق ص٣٧٥-٣٨٢، فائدة ص٢٦٣، الحكمة ص٢٦٦.

التاريخي إلى مجرد رصد وتسجيل لأسماء السرايا والبحوث[1]. ويتم الاقتباس من بعض المؤرخين مع وضع علامة التنصيص القديمة «أهـ»[2].

حـ- «محمد رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام» للشنقيطي

وتكشف بعض السير المعاصرة عن محوري السيرة، الرسالة والرسول، وأن محور الرسالة في سيرة الرسول[3]. وتشتمل على ستة أبواب: السيرة والدعوة، محور الدعوة الإسلامية، الهجرة وأكبرها الغزوات[4]. تظهر الشمائل في الباب الخامس ولكنها تظل محدودة ومضغوطة بين الغزوات والوفاة. وتركز على كبار الغزوات وهي ثمانية دون السرايا أو الغزوات الصغرى[5]. وكلها في الفترة المدنية. ومع ذلك مازالت تستعمل بعض ألفاظ التفخيم والتعظيم مثل «نسبه الشريف»[6]. لا تقدم جديدا بالنسبة للسير السابقة بالرغم من نية التحديث والربط بين الماضي والحاضر والجانب الذاتي في الإيمان. معظم ما فيه مكررات من السير السابقة.

وتعتمد السيرة كالعادة على القرآن أولا والشعر ثانيا والحديث ثالثا[7]. فالقرآن هو المصدر الأول. ونظرا لأهمية الشواهد النقلية فقد طبعت كلها باللون الأحمر. لذلك تغلب على السيرة الحجج النقلية أكثر من الحجج العقلية. والشعر أكثر من الحديث. فالمؤلف بدوي ابن الصحراء من شبه الجزيرة العربية، والبوصيري نموذج. ويستشهد بقصائد طويلة في الشمائل للمدح[8]. والرسول نفسه يرفض الإطراء والمدح كما فعلت

---

(١) السابق جـ٢/ ٥٨٩-٦٢٠.

(٢) السابق جـ١/ ٢٥٦، جـ٢/ ١٣٠.

(٣) الشنقيطي (الشيخ عبد الله محمد بابا): محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام. محمد صلى الله عليه وسلم، دار عبد الله الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

(٤) أ- السير والدعوة (٧١) ب- محور الدعوة الإسلامية (٤٣) جـ- الهجرة (٢٦) د- غزوات الرسول (٩٩) هـ- شمائله (٧٠)، رحيله (١٩).

(٥) هي: بدر الكبرى، أحد، الأحزاب أو الخندق، الحديبية، مؤته، الفتح، حنين، تبوك.

(٦) محور رسالة الإسلام، ص ٥٠-٥٨.

(٧) القرآن (١٠١٠)، الشعر (٢٢٥)، الحديث (١٣٥).

(٨) محور رسالة الإسلام ص٢٨٤-٢٨٧.

النصارى مع عيسى ابن مريم[١]. كما تعتمد السيرة على مصادر قديمة[٢]. والفقهاء مثل الشافعي أحد المصادر[٣]. ويظهر قطب «في ظلال القرآن» كإحدى نقاط الإحالة. وهو رد فعل على النزعات العلمانية[٤]. ويوضع لفظ «انتهى» بعد كل اقتباس[٥]. ويصدر وسط المنهج التاريخي حكم على الجوهر مثل «محور الدعوة الإسلامية» و«الإيمان الذي يقود للاستقامة على منهج الله»[٦]. وتظهر عالمية الرسالة في الشمائل[٧]. ومحور الدعوة الإسلامية مثل محاولة التعرف على جوهر الرسالة في باقي السير[٨]. يخلو من أي مقدمة منهجية إلا الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه في الداخل والخارج. ومع ذلك تتسم السيرة بالوضوح وحسن التقسيم وبحسن النية على التجديد حتى ولو بدأ خطابيا دفاعيا ضد الغرب وممثليه. وهو تعليمي بسيط دون حشر أو إحالة. لذلك تظهر أحيانا القسمة العقلية لضبط الموضوع، قسمة أصحاب الفترة، تصنيف القول في آيات القرآن، بنود الصلح مع اليهود، الطوائف التي كان لها دور في هزيمة أحد، عقائد أهل الكتاب، خصائص الرسول، آثار الرسول قبل الوفاة[٩].

كان الدافع على كتابة السيرة هو الرد على الملحدين والكفرة والزنادقة والشيوعيين واليهود والنصارى والمستشرقين حملة الفكر الصليبي الذين سخروا من الرسول كما فعلت الرسوم الدانمركية أعداء الإسلام في الداخل والخارج الذين ادعوا أن الإسلام انتشر بالسيف وأن الرسول مزواج[١٠]. وعند جوليان هكسلي أن الإنسان يخضع لله

---

(١) «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله»، السابق ص٢٩٠/ ٣٢٠.

(٢) مثل «كتاب الأصنام»، السابق ص٧٤.

(٣) السابق ص٢٢٦-٢٣٥.

(٤) السابق ص٢٩٩.

(٥) السابق ص٣٦١.

(٦) محور سيرة الإسلام، الباب الثاني ص١١١-١٥٣، الباب السادس، الفصل الثاني ص٣٥٨-٣٦٧.

(٧) السابق ص٣٠٤-٣٠٩.

(٨) السابق ص١١١-١٥٣. انظر أيضا الباب الرابع: اكتمال الرسالة، الفصل الثاني: جوهر الرسالة.

(٩) محور رسالة الإسلام ص٥٢/ ١٤٤-١٤٥/ ١٦٩/ ٢٠٥-٢٠٦/ ٢٦٠-٢٦١/ ٢٩٨-٣٠٥/ ٣٤٩.

(١٠) «ومن أولئك رسام الكاريكاتير في جريدة الأهرام صلاح جاهين الذي رسم فيها رجلا بدويا يرمز إلى رسول الله وهو يركب حمارا في وضع مقلوب أي رأس الحمار في اتجاه ووجه الرجل في الاتجاه الآخر

بسبب الجهل والعجز. والآن أصبح الإنسان إلها بعلمه وقدرته. وعند فولتير أن كل العقائد أوهام تبنتها البشرية في غيبة العقل. والدين قيد يغل الفكر عن الانطلاق. وعند آخر بمناسبة السد العالي أن الصحراء ظلت في يد الله آلاف السنين صحراء جرداء فلما استلمها الإنسان حولها إلى مروج خضراء. وقد طرد آدم من الجنة لأنه لم يدفع الإيجار.

وعلى عكس «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل حيث يظهر الغرب فيها نموذجا للتحديث باستثناء الاستشراق تأتي المقدمة والخاتمة في «محمد ورسالة الإسلام» للشنقيطي تكفيرية. فالمسئول عن ذلك كله الغرب ونزعاته، الإلحاد والزندقة والفجور واستغراقه في الملذات والفجور. وقد خطط المستعمر الصليبي للقضاء على المجتمع الإسلامي ودمج المجتمع العلماني في الإلحاد مع الأقليات اليهودية والنصرانية الموجودة والمتعايشة مع المسلمين في إخاء وتعاون. ونشأت أحزاب تحارب الإسلام مثل البعثين والقوميين والشيوعيين المتأثرة بالحركات المادية الحديثة والأفكار الإلحادية الهدامة. ومن أهداف الخطة إفساد أخلاق المسلمين وتسليط الغرائز والشهوات عليهم وإثارة الفتن بينهم وذلك من خلال أجهزة الإعلام الحديثة[1]. وهو ما يسمى بالعولمة أي يكون العالم على شكل واحد تقوده الحضارة الغربية[2].وبقدر ما يرفض النزعات الغربية وينقد ادعاءها فإنه يعتمد على المؤلفين الموالين المحافظين[3]. الهم هو هذا العصر. وقد كانت النية

ثم يعقب في أرضية الصورة بصورة الديك وتسع دجاجات ويقول في عنوان الرسم «محمد أفندي جوز التسعة»، وهو هجوم سافر على شخص رسول الله وزوجاته»، السابق ص٢١/ ١٧٦-١٧٩.

(١) «كما نتطرق في ثنايا فصول الكتاب إلى جوانب تعالج أوضاعا وشبهات أخرى حلت في حياة الناس اليوم بسبب انجرافهم وسقوطهم في أوحال المدينة الحديثة لعل في ذلك وسيلة توقظ ضمير أبناء المسلمين على الواقع الأليم الذي فرض عليهم أن يعيشوا فيه اليوم والذي تتحكم في إفرازات أملتها الحضارة الغربية التي قوامها الإلحاد والزندقة والفجور حيث اجتالتهم المدنية الغربية عن دينهم وورثتهم مكانة ثقافة وحضارة أهل الغرب وعاداتهم وتقاليدهم. وهي عبادة الدنيا والاستغراق في شهواتها ومتاعها وملذاتها ونسيان الإله المعبود وتعاليمه نسيانا مطلقا والدعوة السافرة إلى الانحلال بالتعري الجسدي للمرأة باسم الزينة والحضارة والحرية»، محور رسالة الإسلام، سيد الأنام ص١٣. وقد كرس المستشرقون وهم حملة الفكر الصليبي جهودهم بتحطيم الإسلام ومبادئه، وتدمير القيم الأخلاقية التي جاء بها، وتحويل المسلمين عن منهجهم القرآني الذي عمل خلال ثلاثة عشر قرنا على تهذيب أخلاق أهله وصيانتهم من كل رجس. وأول هذه الشبهات والمكائد التي نرد عليها قولهم بأن الإسلام انتشر بالسيف بدلا من حُجة الإقناع..»، السابق ص١٤.

(٢) السابق ص٢٦-٢٧.

(٣) «والذي تهدف إليه الحضارة الغربية التي تقوم على الإلحاد والزندقة والفجور وهدم الأخلاق الفاضلة

معقودة على تخصيص باب سابع عن حالة المسلمين في العصر الحاضر[1]. وهي خاتمة الكتاب «يصور حالة الانحطاط والتردي التى أصابت المسلمين من ضعف وذل وهوان وغلبة الأعداء في تاريخهم الحديث»[2]. فقد كان هدف الأمة الإسلامية إقامة مجتمع يقوم على الإخاء الإسلامي بدلا من القرابة والنسب والعصبية والوطن والدعوات الجاهلية تحت شعار التوحيد حتى جاءت نكبة الأندلس المستمرة حتى العصر الحالي بفقد المسلمين وحدتهم وترابطهم. ثم استبدل به الخاتمة لربط الحاضر بالماضي، ومقارنة حال المسلمين في الماضي بأحوالهم اليوم في التردي والانحطاط والضعف والخذلان والتخلف وغلبة الأعداء. امتدت الأمة الإسلامية في الحاضر من الصين حتى المغرب. ثم جاءت الغزوات من الشرق، التتار والمغول، ومن الغرب، الصليبية والصهيونية. وخرج قواد المسلمين صلاح الدين لقهر الصليبيين وتحرير القدس وسيف الدين قطز المملوكي قاهر التتار في عين جالوت ومعه العز بن عبد السلام. ثم فتح مصطفى كمال الأمة لأعدائها. ألغى الخلافة وأدخل الأيديولوجيات العلمانية ووقعت الأمة تحت براثن الاستعمار الغربي.

والسيرة في نفس الوقت دفاع عن المملكة العربية السعودية والأسرة الحاكمة. تظهر من ثناياها العداء لمصر التي أصبحت مهد الوطنية والقومية والاشتراكية وكل النزعات الغربية[3]. ومصر مذكورة في القرآن وموصى عليها في الحديث[4]. تدافع عن الملك عبد العزيز. فالحجاز هي الأرض التي يحكم فيها شرع الله. هي دار الإسلام في مقابل دار الكفر[5]. في حين أن النظام في الحجاز موال للغرب ويعيش في حياة الاستهلاك.

والذي حذر منه الشرع هو ما حل في حياة الناس اليوم بسبب انجرافهم وسقوطهم في أوحال المدنية الحديثة»، السابق ص٢٧-٢٨.

(١) مثل مصطفى صادق الرافعي وتحليل حكمة الأذان خمس مرات يوميا، السابق ص١٤.

(٢) السابق ص٢٤-٢٥.

(٣) السابق ص٣٦٨-٣٨٢.

(٤) «إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمة»، السابق ص٣٥١.

(٥) «وقد عمت هذه الظاهرة جميع الأقطار الإسلامية من مشرق الأرض إلى مغربها باستثناء المملكة العربية السعودية من بلاد جزيرة العرب التي تضم بلاد الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة وذلك

وصاحب السيرة من عائلة مثقفة عالمة، ولكن دون وعي سياسي[1].

٦- السيرة الحضارية الشاملة:

أ- «دائرة معارف سيرة النبي» لشلبي النعماني (١٩١٤م) وسليمان الندوي (١٩٥٣م)[2]

وقد تحولت سيرة الرسول عند بعض المعاصرين من الحركة الإصلاحية في الهند إلى دوائر معارف تجمع حوله كل شيء، الرسول والرسالة معتمدة على التراث الإسلامي الطويل بعلومه المختلفة، لا توجد أبواب وفصول. والعناوين غير مرقمة لمعرفة تفصيلات الموضوع وبنيته، لا أصلية ولا فرعية. لذلك قد تبدو الأقسام مضطربة أحيانا. تخلو من البنية والرؤية. هو تجميع لأكبر قدز ممكن من المعلومات في الموروث والوافد على حد سواء، مترجمة عن الأردية. تتبع المنهج التاريخي: سنة بسنة وليست على مراحل النبوة الثلاث المعروفة منذ ابن إسحق، البداية والوسط والنهاية. وتصبح التفصيلات أحيانا موضوعات بذاتها خارج موضوع السيرة، فالسيرة ما هي إلا مجرد مناسبة لتجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الرسالة وحولها. تصبح بحوثا مستقلة بذاتها، تفصيلية أكثر من اللازم. تعني دائرة المعارف أن الرسول مجرد مناسبة للرسالة. وهو نموذج للعمل الجماعي في التأليف والترجمة والنشر.

وتضم الموسوعة سبعة موضوعات رئيسية. الأول السيرة، بدايتها ووسطها[3].

بفضل الله سبحانه وتعالى النبي حماها من دخول المستعمر الصليبي ثم بفضل إخلاص مؤسس تلك الدولة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي أسسها على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله»، السابق ص٢٥.

(١) السابق ص٥٢-٥٣.

(٢) العلامة شلبي النعماني(١٩١٤م)، أكمله العلامة سيد سليمان الندوي(١٩٥٣م): دائرة معارف سيرة النبي(سبعة أجزاء) ترجمه وكتب حواشيه الدكتور يوسف عامر، قسم اللغة الأردية، جامعة الأزهر، قدم له أ.د علي جمعة مفتي الديار المصرية، طبع على نفقة د. حسن عباس زكي، القاهرة ٢٠٠٥. وابتداء من الجزء الثالث قام بالترجمة د. أحمد محمد أحمد، د. إبراهيم محمد إبراهيم. وفي الرابع شارك في الترجمة مع د. يوسف عامر د. عبد المجيد الندوي. وفي الخامس شارك مع د. يوسف عامر، د. محمد السيد. وترجم السادس د.إبراهيم محمد، وترجم السابع د. يوسف عامر. ويستمر عنوان المقدم في الأجزاء السبعة للدعاية والإعلان. ولا يوجد دار نشر ولا سنة.

(٣) ويضم: العرب أولاد إسماعيل، مكة المكرمة، نسب النبي، مولده، مبعثه، أنصاره بالمدينة، سنوات الهجرة

والثاني الرسالة، النهاية وشخص الرسول[1]. والثالث المعجزات والنبوة والخصائص المحمدية انتقالا من جديد من الرسالة إلى الرسول[2]. والرابع النبوات[3]. والخامس العمل الصالح. وتندرج تحته العبادات. وهو أدخل في الفقه والأخلاق. بل أدخل في التصوف، جمعا بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب[4]. والسادس المعاملات وكلها الفضائل الخلقية، حوالي مائة منها حقوق وآداب[5]. والسابع السياسة الشرعية. وهو تحول من الرسول إلى الرسالة وأسس النظام الإسلامي والدولة الإسلامية[6]. السيرة قليلة فقط البداية والوسط بتعبير ابن إسحق في الجزء الأول. وشخص الرسول في الجزء الثالث. وباقي الأجزاء الأربعة في الرسالة وهو بهذا المعنى تصحيح للانحراف القديم، من الرسالة إلى الرسول.

والفقه هو السائد على السيرة، عبادات ومعاملات وسياسة شرعية، ثلاثة أجزاء من سبعة، ثم الكلام جزءان من أربعة، نبوات ومعجزات. ولم يبق للسيرة إلا جزءان، البداية والوسط والنهاية، نشأة البعثة والغزوات ثم شخص الرسول. والفقه صوفي النزعة. ففي الهند يتحد الفقه بالتصوف. السيرة هي الرسالة في صورة فقهية قديمة. وفي النزعة الإصلاحية في الهند ونزعتها الدفاعية تضعف البنية والتحليل العقلي. ولا ترقم العناوين في كل جزء لمعرفة تسلسلها وأقسامها الرئيسية والفرعية نظرا لضعف

الأولى، غزواته، معاهداته مع اليهود ومحاربتهم، الحديبية، بيعة الرضوان، دعوة الملوك والأمراء. نشر الإسلام، وفود العرب، السابق جـ١/ جـ٢/ ٤-٤٤.

(١) وتضم: تأسيس الدولة الإلهية، الشئون الدينية، تأسيس وإتمام الشريعة، الإيمان والأركان، العبادات، المعاملات، الحلال والحرام، السنة الأخيرة وحجة الوداع واختتام البعثة، الوفاة والتركة، شمائله، مجالسه، خطابته، عباداته، أخلاقه، حياته مع أزواجه وأولاده، السابق جـ٣/ ٤٥-٣٤١.

(٢) وتشمل: دلالتها، إمكانيتها ويقينها وغايتها، الوحي والمشاهدة، خصائص النبوة، الإسراء والمعراج، إعجاز القرآن، الخصائص المحمدية، السابق جـ٣/ ٦-٥٨٢.

(٣) وتضم: استنباط الشرائع، أحوال العرب عند ظهور الإسلام وتغييرها وبظهور الإسلام، السابق جـ٤/ ١-٧٢٧.

(٤) وهي: الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، والجهاد والعبادات القلبية، السابق جـ٥/ ١٥-٤٣٥.

(٥) السابق جـ٦.

(٦) وتشمل: مكانة وأهمية الحكم في الإسلام، نظام الحكم في عهد النبوة، العلاقة بين الدين والدولة، بعثة الأمة الإسلامية، القوة العاملة أو القوة الآمرة. المبدأ الثاني للحكم في الإسلام، أن الحاكم الحقيقي هو الله، السابق جـ٧/ ١٥٥-٢٢٢.

البنية الداخلية لكل جزء[١].ومعظم المادة الفقهية والصوفية معروفة تتكرر بمناسبة السيرة. لذلك بدت الموسوعة تعليمية مدرسية مشيخية لا عمق فيها. وكذلك لا جديد في النبوات ولا في المعاد كما هو معروف في علم الكلام. الموسوعة تجميع واع لمصلح هندي.

وهناك مقدمة نظرية صغيرة لتبرير الموسوعة عن فن السيرة ومراحل تدوينها وأشكاله والاهتمام بالمغازي وأمر الخلافة [٢]. وهناك وعي بنقد المصادر وصحتها والجمع بين الدراية والرواية. فهناك قواعد لضبط الرواية فصّل في ذكرها القدماء[٣]. وتختار الموسوعة منهجا نقديا يُعلن عنه بصرف النظر عن مدى تطبيقه[٤]. هذه المصادر الأولى دون نقد تظل مصدر كل التصورات للسيرة لا تتزحزح.

وتعتمد الموسوعة على القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ القديمة والحديثة[٥]. وتظهر أسباب النزول وراء بعض الآيات[٦]. والقرآن أكثر من الحديث، والحديث أكثر من الشعر، والشعر عربي وفارسي وأردي[٧]. والآية، قرآنا أو إنجيلا. والشعر

---

(١) كان المؤلف أعلن تأليف الكتاب في خمسة أجزاء: العرب قبل الإسلام، النبوة، القرآن، المعجزات، مؤلفات الأوروبيين، السابق جـ١/ ٩٧-٩٨.

(٢) السابق جـ١/ ٣٤-٩٨، «قال ابن الجوزي: وكل حديث رأيته يخالف العقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع»، السابق ص٦٢.

ونظم العراقي: وليعلم الطالب أن السيرا ∴ تجمع ما صح وما قد أنكرا،

السابق ص٦٦.

(٣) منها: مخالفة العقل، مناقضة الأصول، مخالفة الحس والمشاهدة، مباينة القرآن والحديث المتواتر أو الإجماع القطعي، الإفراط في الوعيد، ركاكة المعنى، عدم مشاهدة الراوي، الرواية الواحدة لواقعة مهمة. ومنها: اللغو، مخالفة الأنبياء، تحديد تواريخ للمستقبل، الطب النبوي، التكذيب بالأدلة، روايات الخضر، السابق ص٦٢-٦٤.

(٤) يقوم على التوجيهات الآتية: القرآن والحديث المتواتر معيار الصدق في باقي الروايات، حاجة كتب السيرة إلى تنقيح ونقد روايتها وأسانيدها، روايات الأحاديث أصل روايات السيرة، ترجيح روايات الحديث والفقه، البحث عن التعليل، اعتبار الشهادة، نقد الروايات داخليا وخارجيا، الاتفاق مع الشواهد العقلية والحسية وأصول المعرفة على الروايات، ترتيبها حسب أهمية الموضوع وقرائن الحال، السابق ص٨٦.

(٥) السابق جـ١/ ١٣٦.

(٦) السابق جـ٢/ ٩٥/ ١١٥/ ٣٠٨، جـ٣/ ١٩٢، جـ٥/ ٨٥، جـ٦/ ٨٧/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٧) شعر فارسي مترجم، السابق جـ٤/ ١٤٩.

تجربة واحدة. ويعتمد القرآن والحديث على التشبيهات البلاغية المؤثرة[1]. وأحيانا يصعب التفرقة بين القرآن والحديث نظرا للتداخل بين كلام الله وكلام البشر، وقدرة الوحي على أخذ ما يصدر عن البشر وإعادة صياغته بطريقة بلاغية لبيان عظمة الوحي وإعجازه. فالشعر العربي رصيد للدين[2]. وتظهر عائشة راوية بل من أكثر الرواة رواية مع أبي هريرة[3]. وأحيانا يتناقض الحديث مع التجربة فأيهما يصحح الآخر خاصة إذا تعلق الأمر بالطب. وقد يكون السبب درجة التركيز أو الكمية أو النوع أو عدد الجرعات[4].

وكان من عادة خالة الرسول بعد أن يأكل الرسول وينام أن تستخرج القمل من شعره وهو ما يتناقض مع قواعد النظافة[5]. ويأتي الحديث على لسان جبريل فيما عرف فيما بعد باسم الحديث القدسي ليكون أكثر تأثيرا وفاعلية[6]. وتذكر الأحاديث الطويلة التي لا تستطيع الذاكرة الحفاظ عليها دون نقلها مثل حديث الإسراء والمعراج[7].

وتتأرجح الموسوعة بين عدة مناهج، العقلي والنقلي والتاريخي. ففي المنهج العقلي تظهر الفلسفة والكلام في الوحي والنبوة. وتظهر أسماء فرق المعتزلة والأشاعرة. كما يظهر ابن تيمية في «الرد على المنطقين». وهنا يبرز الدور الرئيسي للعقل. وتختفي

---

(١) مثل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، السابق جـ٦/ ٣١٨، «إن من يعطي شخصا شيئا ثم يأخذه كمن يتقيأ شيئا ثم يلعقه مرة أخرى»، جـ٦/ ١٠٢.

(٢) مثل «ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء»، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، السابق جـ٢/ ٢٩٢/ ٣٠٥، جـ٢/ ٢١٧ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، السابق ص٣٧٧، «أسقنا كأسا دهاقا»، جـ٤/ ٢١١، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو أيضا حديث للرسول، جـ٦/ ٢٢٤، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، هو أيضا حديث للرسول، جـ٢/ ٤٤٠، القرآن والشعر والمسيح، جـ٦/ ٩٣.

(٣) رويت ٢٢١٠ أحاديث منها ١٧٤ فقط اتفق عليها الشيخان. وروى عنها البخاري ٥٤ حديثا، ومسلم ٦٨ حديثا. وفي رأي البعض ربع الأحكام الشرعية مروية عنها، السابق جـ٢/ ٣١٨.

(٤) مثل طلب الرسول أن يشرب الأخ عسلا ليذهب الإسهال فزاد، فقال «صدق الله وكذب بطن أخيك». والقول هو للرسول «إن العسل شفاء»، السابق جـ٢/ ٣١٠.

(٥) السابق جـ٢/ ٣٠٢.

(٦) السابق جـ٣/ ٢١٤.

(٧) السابق جـ٤/ ٥٥١-٥٥٢.

الحجج النقلية، القرآن والحديث. كما يتجلى الحجاج مع الخصوم. وتظهر موضوعات الحداثة والعقلانيات الحديثة[١]. وتظهر دلالات الموضوع في «الخلاصة»[٢]. ويحال إلى فلاسفة اليونان. ويتم التعامل مع أسماء الله عن طريق تصنيفها في مجموعات طبقا لمعانيها في صفات جمالية وجلالية وحكيمة وكمالية ووحدانية ووجودية وعلمية وقدرية وتنزيهية[٣]. ويبلغ التنظير للمذاهب الخلقية مداه بإبداع مصطلحات جديدة مثل اللذتية، والضميرية، والإفادية، والاعتماد على فلاسفة اليونان[٤]. وأحيانا يتوقف العقل ويتم الرد على العقل بالنقل[٥]. وتطول نصوص القرآن كما هي العادة عند السلفيين[٦]. وتكثر في الإسراء والمعراج. حتى الهوامش مملوءة بالآيات[٧]. تكثر الأدلة النقلية بالرغم من محاولة الاعتماد على التنظير العقلي[٨]. وتتوالى الآيات تباعا كطلقات رصاص[٩]. ويظهر المنهج التاريخي في تحديد بداية فرض العبادات تاريخيا مثل الصوم في السنة الثانية للهجرة[١٠].ويقل التنظير العقلي تباعا من الأخلاق إلى السياسة لحساب النقل، ولا يوجد نقد عقلي للنظرية ولا للممارسة يختلف الأسلوب، وينتهي الحدس العقلي الأول.

---

(١) السابق جـ٣/ ٨٥/ ٣١٥-٣١٦.

(٢) السابق جـ٣/ ١٤٩-٢٠٤.

(٣) السابق جـ٤/ ٤٤٤-٤٤٨.

(٤) السابق جـ٦/ ٢٤/ ٤٢.

(٥) السابق جـ٤/ ٢٨.

(٦) السابق جـ٣/ ٢٨٥/ ٣١٧-٣١٩.

(٧) السابق جـ٣/ ١٥٠-١٥٤.

(٨) جـ١: الآيات (٥٥)، الأحاديث (٢٣)، الأشعار (٢٠).
جـ٢: الأحاديث (١٨٥)، الآيات (١٤٠)، الأشعار (٧).
جـ٣: الآيات (٤٨٣)، الأحاديث (١٥٠)، الأشعار (٢).
جـ٤: الآيات (٩٧٧)، الأحاديث (١٨٣)، الأشعار (٣٦).
جـ٥: الآيات (٥٥٠)، الأحاديث (١١٦)، الأشعار (٦).
جـ٦: الآيات (٧٤٥)، الأحاديث (٢٢٦)، الأشعار (٥).
جـ٧: الآيات (١٨٥)، الأحاديث (٦٦)، الأشعار (١).
المجموع: الآيات (٣٦٣٥)، الأحاديث (٩٤٩)، الأشعار (٧٧).

(٩) السابق جـ٦/ ٩٨-٩٩/ ٢٣٥-٢٣٦/ ٢٨٨/ ٢٩١/ ٢٩٨/ ٣٦٥/ ٣٩٤/ ٤٢٧ جـ٧/ ٣٤-٣٥.

(١٠) السابق جـ٥/ ٢٨٨-٢٩٢/ ١٦٠/ ١٦٢-١٦٦/ ١٧١-١٧٢/ ٨٠/ ١٨٢/ ١٨٧.

ويظل حتى السيرة الإصلاحية المتأخرة الاعتماد على علم الحديث. فنقد المصادر يتجه أولا إلى علم الحديث وكيفية تدوينه. ثم دخلت علوم التفسير مع تدوين الحديث باسم السيرة. فالتدوين ظاهرة عامة وليس في السيرة فقط. ويظل الاعتماد على ثلاثة مصادر، القرآن والحديث والتاريخ. وصورة الرسول في الحديث تتضخم عن صورتها في القرآن. والمطلوب العودة بالسيرة من الحديث إلى القرآن، ومن كتب التاريخ إلى الحديث إلى القرآن بحثا عن نواة الصورة قبل تضخمها حتى تبلغ الحقيقة المحمدية عند الصوفية. كلها أحاديث، والأحاديث حكايات. والحديث يصف الرسالة أكثر مما يرسم الرسول، وتحول الحديث إلى السيرة هو درجة من درجات التشخيص. لذلك جاءت الموسوعة أقرب إلى الرسالة منها إلى الرسول، ورد فعل على الغزوات التي كانت للدفاع وليست للهجوم مما يخرج عن موضوع السيرة[1].

ولا يظهر التراث العقلاني الكلامي الفلسفي فحسب بل يظهر أيضا التراث الصوفي خاصة فيما يتعلق بالتحول من الرسالة إلى الرسول. فيظهر الغزالي وابن عربي وجلال الدين الرومي لإثبات المعجزات[2]. ويحال إلى الفلاسفة الكندي والفارابي والرازي. وتظهر السيرة موضوعا ميتافيزيقيا خالصا أقرب إلى نظرية النبوة عند المتكلمين والفلاسفة.

ويخصص الجزء الرابع كله للنبوة، النبوة وعلومها مضمونها الغيب. ويدخل موضوع غريب عليها، أحوال العرب قبل الإسلام. وربما الهدف منها بيان الحاجة إلى النبوة أي واقع النبوة. وهي مادة خارج علم السيرة وأدخل في علم الكلام. تتداخل مع الجزء السابق في النبوات. ويظهر في النبوة مدى الجانب العقلي الذي وصلت إليه العلوم العقلية النقلية. تستعمل أحيانا القسمة العقلية الخالصة[3]. وتتطابق القسمة العقلية مع النص[4].

---

(١) السابق جـ١/ ٩٦-٩٧.

(٢) السابق جـ٣/ ١٤/ ٣٦/ ٤٨.

(٣) ثلاث طرق في ثبوت النبوة تفصيليا طبقا لقوى الإنسان وحركاته الاختيارية والفكرية، والقولية والعملية، السابق جـ٤/ ٦-٨.

(٤) الكلام بالوحي أو من وراء حجاب أو إرسال ملك، السابق جـ٤/ ٤٦.

وكما تتم الإحالة إلى الموروث العريض الكلامي والفلسفي والصوفي تتم الإحالة إلى كتب التاريخ والتفسير والفقه[1]. ويحال إلى المعتزلة والماتريدية[2]. يظهر التراث القديم عند الغزالي والشافعي وابن القيم، ومن المفسرين ابن كثير والشوكاني والألوسي مع اقتباسات منهم[3].

وتظهر فيها روح المودودي وسيد قطب والشوق إلى إنشاء الدولة الإسلامية، المودودي كرد فعل على الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند، وسيد قطب رد فعل على اضطهاد الإخوان المسلمين في مصر وتعذيب قادتهم في السجون. وتتم مقارنتها بالدولة العبرية بالرغم من اختلاف الظروف، اضطهاد المسلمين في الهند ومصر واضطهاد اليهود لغيرهم من القبائل السامية[4]. كما تظهر روح التشيع أحيانا في الربط بين الإمامة والنبوة والإلهام والوحي[5].

ولم تغب عن الموسوعة نية الدفاع ودفع الشبهات مثل القول بخلود جهنم وخلود الكافرين فيها[6]. كما تعتمد الموسوعة على بعض كتابات الدعاة المعاصرين دفاعا عن الرسول وأخذ اقتباسات منهم[7]. فالاتجاه نحو العقل ظاهر[8]. والدعوة إلى الإصلاح واضحة. والإحالة مستمرة إلى المعتزلة والخوارج الذين يؤسسون عقائدهم على التوحيد والعدل[9]. والقسمة العقلية لقوى النفس الثلاثية أقرب إلى البداهة منها إلى أفلاطون[10].

---

(١) الغزالي(الإحياء)، السابق جـ٦/ ١٢/ ٣١٢/ ٣٦٥، الرازي جـ٦/ ٢٣٥/ ٢١٦/ ٢٦٦، صاحب الكشاف جـ٦/ ٢٦٩، الطبري جـ٦/ ٣٤٧، السهروردي جـ٦/ ٢٦٦، كتب الفقه وكتب التفسير جـ٦/ ١٣٩-١٤٠، الخراج لأبي يوسف جـ٦/ ١٧٧، البيضاوي، الكشاف جـ٧/ ١٦٨-١٦٩، روح المعاني جـ٧/ ١٦٩.

(٢) السابق جـ٧/ ٢١٤-٢١٥.

(٣) السابق، الغزالي جـ٤/ ٣/ ١٥/ ١١٠، الشافعي ص٦٠/ ١١٥/ ١٢١/ ٢٩٢، ابن القيم ص٦٢٩. ابن كثير، الشوكاني، الألوسي ص٥٥٧.

(٤) السابق جـ٢/ ٤٥-٤٦، جـ٧/ ٢٩.

(٥) السابق جـ٧/ ٢١.

(٦) السابق جـ٤/ ٦٥٠-٦٥٥.

(٧) مثل د. البوطي، السابق جـ١/ ١ وذلك مثل أستاذه «ولي الدين شاه» في حجة الله البالغة، وحميد الدين «نظم القرآن»، السابق جـ٣ ٢٧٩/ ٢٨٩. أستاذي ص٣٩٨/ ٤٨٥/ ٥١٤، جـ٤/ ٦٧٩.

(٨) السابق جـ٤/ ٦٥٢.

(٩) السابق جـ٦/ ١٨٥.

(١٠) شاه عبد القادر محمد الدهلوي، السابق جـ٦/ ٤٢٨.

وتقارن السيرة بالسيرة الأخرى، ليس فقط، سير الأنبياء في العهدين القديم والجديد بل أيضا السير الفارسية كالشاهنامة والسير الهندية[1]. فكُتاب السيرة الأسيويون لهم ثقافة أسيوية بالإضافة إلى الثقافة العربية، وتوضع نصوص الكتب المقدسة، العهد القديم بالعبرية، دون العهد الجديد باليونانية[2]. فتظهر السيرة في إطار تاريخ الأديان المقارن كعلم حديث[3]. وتتم المقارنات مع اليهودية والمسيحية[4]. ولا تخلو المقارنة من الدفاع، الدفاع عن الأخلاق الوسيطة في الإسلام، ونقد أخلاق الضعف في المسيحية اعتمادا على نيتشه وبعض مفكري الغرب[5]. وهو ما قد يقوم على منهج انتقائي في الحالتين، انتقاء ما هو عرضة للنقد في المسيحية، وما هو أولى بالدفاع في الإسلام. ففي المسيحية أيضا «ما جئت لألقي سلاما بل سيفا». وفي الإسلام﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾. ومع ذلك تظل السيرة في إطار تاريخ الأديان المقارن[6].

وتعتمد الموسوعة على الوافد، الاستشراق السلبي الذي ينقد السيرة أو الإيجابي الذي يمدحها، والتاريخ المنصف الغربي لتاريخ الإسلام وشهادات مفكري الغرب وشعرائهم مثل كارلايل في كتابه الشهير «الأبطال والبطولة»، واعتباره محمدًا بطلا من أبطال التاريخ[7]. وتتبع كتاباتهم في العصور الحديثة من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين، ورصدها في قوائم، وكشف ما بها من إنصاف أو تعصب، وقصرها من حيث المصادر، واعتمادها على كتب السيرة والتاريخ دون الرجوع للحديث[8].

---

(١) السابق جـ١/ ٣٦.

(٢) الكتب المقدسة، السابق جـ ١/ ١١٧-١٣٢/ ٣/ ١٦٩/ ٢١٦/ ٢٢٢/ ٢٥١-٢٥٢/ ٥٢٣-٥٢٤/ ٥٤١-٥٥٣ جـ ٤/ ٢٩٨-٢٩٩ جـ ٥/ ٩٣/ ١٠٦-١١٤/ ٢٠٦-٢٠٧/ ٢٣٠-٢٣١/ ٢٤٨-٢٤٩/ ٢٥٣/ ٢٨٠-٢٨٣/ ٢٩٧/ ٣٠٢/ ٣١٦/ ٣١٨/ ٣٢٠/ ٣٢٢.

(٣) السابق جـ ٢ / ٢٤٠ جـ ٤/ ١٧٢-١٧٧/ ٤٣٧/ ٤٣٨/ ٥٣١/ ٥٩٨-٥٩٩/ ٦٠٢/ ٦١٥/ ٦٧١/ ٧٠٦/ ٦٧١، جـ٤/ ٤٨٧، جـ٥/ ١٠٥. جـ٦/ ٢١/ ٤٧/ ٦٤-٦٦.

(٤) السابق جـ٦/ ٤٢/ ٥١/ ٥٤/ ٧٥/ ٨٠/ ٨٥/ ٨٧-٨٨/ ٩٣/ ١١٦/ ١٢٢/ ١٤٨/ ١٥٠/ ٢٤٧.

(٥) السابق جـ٦/ ٧٥-٧٨.

(٦) السابق جـ٦/ ١٥٤، جـ٧/ ٢٢، فراعنة مصر جـ٧/ ١٩٥.

(٧) السابق جـ١/ ٨٧-٩٦.

(٨) الدفاع ضد المستشرقين، السابق جـ١/ ٣٨.

لذلك أسرعوا بإصدار أحكام على السيرة تجانب العقل والتاريخ[١]. ويستعمل الوافد الفلسفي عند هيوم في تحليله للعلية وتوظيفها لإثبات المعجزات[٢]. ويحال إلى العديد من المراجع الغربية خاصة المصادر الرومانسية مثل «الأبطال والبطولة» لكارلايل[٣]. ويبدو أثر الثقافة الإنجليزية على المصلحين الهنود[٤]. وقد يشار إلى الغرب وعلمائه على وجه العموم[٥].

وبالرغم من المنهج العقلي والنزعة الإصلاحية إلا أن المنهج التاريخي أحيانا يتحول إلى تاريخانية، مجرد رصد أسماء أو وقائع[٦]. تروى الأخبار دون دلالات فكرية، وتروى حوادث متكررة دون استخراج دلالات جديدة منها مثل إرسال معاذ قاضيا إلى السجن ومصادر حكمه. ومع ذلك يحاول صاحب السيرة تجاوز التاريخانية في «الخلاصة» أي الدرس المستفاد[٧].

وتستعمل الموسوعة بعض التعبيرات الحديثة مثل«المخاطر الخارجية»[٨]. كما يظهر تعبير «التغير الاجتماعي» و«الإصلاح». فالنبي مصلح حكيم[٩]. والسيرة مكتوبة لأيامنا هذه وليس للقدماء[١٠]. كما تعتمد الموسوعة على المادة الصحفية باعتبارها كاشفة عن الواقع الذي يتعامل المصلح معه[١١]. ومازال بالسير الإصلاحية النبرة الخطابية الدفاعية عن النبي والنبوة، والرسول والرسالة[١٢].

---

(١) منها: النبوة في مكة فقط في حين أن المدينة سياسة، كثرة الزواج والميل إلى النساء، نشر الدعوة بالقوة، استباحة استعباد الجارية، السياسة والحيلة والدهاء كمعظم القادة السياسيين، السابق جـ١/ ٩٦.

(٢) السابق جـ٣/ ٨٨-٩٨.

(٣) السابق جـ٤/ ١٦٣-١٦٥.

(٤) السابق جـ٤/ ٣٥٦/ ٢٩٧، جـ٦/ ٢٠/ ٢٩-٣٠/ ٧٨.

(٥) السابق جـ٧/ ١٩٨.

(٦) السابق جـ٢/ ٢١-٢٣/ ٥٦/ ٥٩-٦٠، أسماء الأصنام، جـ٤/ ١٩٥-١٩٧.

(٧) السابق جـ٣/ ٣١٩-٣٢٤.

(٨) السابق جـ٢/ ٨.

(٩) السابق جـ٤/ ٢.

(١٠) السابق جـ٦/ ١٥٤.

(١١) جريدة أخبار الوطن ١٩١١، دائرة معارف جـ٤/ ٣٥٤.

(١٢) مثل «فهذه البراعم التي تذبل قبل أن تتفتح في حديقة الحياة في نظر الإسلام زهور الجنة»، دائرة معارف جـ٦/ ٤١.

ب- «محمد، الرسالة والرسول» لنظمي لوقا (١٩٨٧م)[١]

وقد ساهم الأقباط في كتابة سيرة محمد كما ساهم المسلمون في كتابة سير للمسيح. فعند الأقباط للرسول رسالة إنسانية عامة لكافة الناس[٢]. تدافع عن حقوق الإنسان والحرية والمساواة وحقوق الأقليات «من آذى ذميا فقد آذاني». فالرسالة والرسول موضوع لا يخص المسلمين وحدهم بل أي كاتب يدرس الرسالات والأيديولوجيات وأصحابها وكيفية انتشارها. وكما عرف ورقة بن نوفل الحق في البداية عرفه نظمي لوقا في النهاية. جعلته الفلسفة قادرا على الحكم المتجرد عن الأهواء الدينية والنزعات العاطفية. ومن العنوان يضع الأولوية للرسالة عودًا إلى السير الأولى قبل أن تتحول من الرسالة إلى الرسول. فالرسول تجسيد للرسالة، وليست الرسالة تجسيدا للرسول. ووضع المحورين معا يعني نهاية التقابل بينهما. ومع ذلك يوجد بينهما محمد اسم العلم الذي يجمع بين المحورين. وهي بقايا تشخيص الرسالة في الرسول في المراحل المتأخرة.

ليس من الضروري أن يكون كاتب السيرة مسلما. فقد كتبها عديد من المستشرقين بأهوائهم، تجنيا أو إنصافا، ظلما أو عدلا. فقد يكتب سيرة المسيح غير مسيحي، وسيرة موسى غير يهودي. ولا يتطلب الأمر في حالة الإنصاف التحول إلى الإسلام. يكفي العدل والإنصاف واكتشاف الدين الطبيعي الذي يقوم على البداهة العقلية والوجدانية والمصالح العامة، العقل والواقع[٣]. ومعرفة الحق أولى من مصدره. لا فرق في ذلك بين القرآن وأرسطو[٤]. فالإسلام يجمع بين المثال والواقع، بين السماء والأرض، بين

---

(١) الدكتور نظمي لوقا: محمد، الرسالة والرسول، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٥٩، ط٢، ٢٠٠٥.

(٢) وبدافع من حب البشرية، أقدمت على تسطير هذه الصفحات، وسيان بعد هذا أن يقول عنها القائلون إنها شهادة حق أو رسالة حب أو تحية توقير وتبجيل. فما كان كآحاد الناس في خلاله ومزاياه وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل وهمة البطل فكان حقا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيي فيه الرجل، السابق ص١١.

(٣) ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾، محمد، ص٩.

(٤) لذلك تتصدر الكتاب آية ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، كذلك يتصدر الكتاب قول أرسطو الشهير «أفلاطون حبيب إلى نفسي بيد أن الحقيقة أحب إلى نفسي من أفلاطون»، السابق ص٣.

الله والبشر، بين النفس والبدن. وهو التطور الطبيعي للدين، من اليهودية (الأرض) إلى المسيحية (السماء) إلى الإسلام (الاستخلاف)[1]. فالإسلام يعترف بالواقع والبدن وبالطاقة على غير ما هو مألوف من التصور الشائع للدين في آسيا وفي المسيحية[2]. لا يتعارض الدين مع الدنيا وطيباتها[3].

والمنهج ليس تاريخيا كما جرت العادة في وصف الرسالة أو تحليلا نفسيا كما جرت العادة في وصف الرسول بل هو منهج أدبي انطباعي مثل معظم السير المعاصرة. يبدأ بالسيرة الذاتية للكاتب عندما كان صبيا ويستمع إلى الشيخ في المسجد ويتأثر بسيرة الرسول[4]. يستعمل الشعر كما يفعل القدماء للتعبير عن انطباعاته. فلا فرق بين الشعر والدين[5]. والأدب موروث عن الوالد[6]. ويشير إلى الكاتب باعتباره «هو» يصف نفسه باعتباره مؤلفا.

ولما كان المؤلف قبطيا ظهرت السيرة في إطار التاريخ المقارن للأديان. فقد تكون قراءة مسيحية إنسانية للإسلام خاصة وأنه كثيرا ما يذكر المسيح، قراءة للرسول بعين المسيح قراءة روحية أقرب إلى التصوف[7]، لذلك يحال إلى ابن عربي. كما يحال إلى الكتب المقدسة الأخرى، الإنجيل والتوراة والبراهمابوترا، دون استعمال نصوص مباشرة منها[8]. وفي المقارنة تبدو اليهودية دين شعب، والمسيحية دين قلب، والإسلام دين البشر أي دين الإنسانية جمعاء[9].

---

(١) «لم يبق شك في أن رسالة الإسلام جاءت مناسبة لطور البشرية الطبيعي»، السابق ص١٤٣.

(٢) ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، «يسر ولا تعسر»، «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»، السابق ص١٤٣-١٤٤.

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾، ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، السابق ص١٤٥-١٤٦.

(٤) صبي في المسجد، محمد ص١٣-٣٢.

(٥) السابق ص٢٠/ ٢٢/ ٢٤/ ١٨٢.

(٦) «وكان والد الفتي.. شديد الولوع بالفصاحة والفصحاء»، السابق ص١٨. «واشتهى أن يقوم لسانه بالقرآن، وتهذيب نفسه بالمعلقات وعيون الشعر»، السابق ص١٩.

(٧) السابق ص٢٢/ ٢٥/ ٢٨/ ٤٤-٤٥.

(٨) السابق ص٢٧.

(٩) السابق ص٣٦-٥٠.

ولم يعتمد الفيلسوف على البداهة العقلية والوجدانية فقط بل اعتمد على نصوص منتقاة من الكتاب والسنة تدعيما لهما مثل أي مؤرخ للسيرة[1]. واستعمل المتون دون الأسانيد. فما يهم هو المعاني. ولم يستعمل نصوصا من التوراة والإنجيل وهي له أقرب بل معانيها ودلالاتها إلا نادرا[2].

وفي مشروع ثلاثي «نحو تأصيل الخطاب الديني» تظهر السيرة كجزء ثان «محمد رسول الله، صفات الكمال البشري»[3]. وتسرد هذه الصفات من القرآن، سورة سورة، ونصا نصا والإهداء «إلى الأمة الإسلامية.. أمتي لماذا تخلفت وأنت تملكين مقومات الحضارة؟»، مجرد سرد نصوص دون تحليل أو تصنيف لهذه الصفات كما هو الحال في كتب الشمائل. فهي من حيث الشكل تدخل في «السيرة والحديث» ولكنها هذه المرة مع القرآن وليس مع الحديث. ومن حيث المضمون كما يظهر في الإهداء. يدخل مع السيرة الحضارية التي تحث الأمة على النهوض. من حيث أشكال التعبير. هي سيرة «نصية»، ومن حيث القصد والنية نهضة حضارية.

٧- السيرة الأدبية:

أ- «على هامش السيرة» لطه حسين(١٩٧٣م)[4]

وهو نموذج السيرة الأدبية الانفعالية التي يحول فيها كاتب السيرة الحوارات التاريخية إلى مواقف إنسانية مع تخيل حوارات بين الأشخاص لم تقع تاريخيا ولكنها تصور الموقف كتجربة إنسانية عامة. تحول التاريخ الميت إلى أدب حي خاصة وأن السيرة مازالت حية في قلوب الناس باعتبارها موضوعا مقدسا. تحولت السيرة التاريخية إلى فن أدبي وهي أقرب إلى تاريخ الأدب. وقد شاع هذا النوع الأدبي لسهولته وتأثيره على

(١) الآيات(١٨٨)،الأحاديث(٢٤)،الشعر(٤).

(٢) مثل قول المسيح، «أبت، أغفر لهم فإنهم لا يدرون ما يفعلون»، محمد ص٢٢.

(٣) الأول «لا إله إلا الله، عقيدة وشريعة» والثالث، «إشكالية الخطاب الديني» لمحمد السعيد، القاهرة ٢٠٠٣.

(٤) استعملنا الطبعة الثالثة والثلاثين في ثلاثة أجزاء. كما أعيد نشره في سلسلة «قراءة للجميع» للكتب الشعبية بسعر زهيد.

الناس[1]. وتم تقريره في المدارس كنصوص أدبية. وهي أقرب إلى المقالات الصحفية التي تم جمعها فيما بعد. وهذا هو معنى العنوان «على هامش السيرة» وليست السيرة أي انفعال بها وليس تقريرا عنها. كتبت في الفترة ١٩٣٣-١٩٣٦. وهي نفس فترة «مستقبل الثقافة في مصر». وتظل «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل أفضل لأنها تجمع بين التاريخ والأدب. ولا تضحي بالتاريخ لصالح الأدب كما ضحى القدماء بالأدب لصالح التاريخ. والأدب هنا يتجاوز الإصلاح المباشر. يكتفي بمجرد التأثير وجدانيا في الناس لإثارة الذاكرة الدينية كدرس للحاضر واستفادة من الماضي وتختلف اللقطات كمّا طبقا لدرجة الانفعال بالمواقف والإحساس بها.

والغاية المتعة الأدبية. فقد أطال القدماء في الأسانيد. واستطردوا في الأخبار. وغرقوا في اللغة القديمة صعبة الفهم والتذوق[2]. والأدب يتغير بتغير العصور، ولا يبقى على حال. السيرة جزء من الأدب الحي وليس الأدب الميت[3]. والسيرة موجهة إلى الشباب لتذوق الأدب العربي القديم ويعرف كيفية إعادة كتابته في أدب عربي حديث[4].

ويغلب التحليل النفسي للشخصيات وللعلاقات الاجتماعية كما هو معروف في التيار النفسي لتحليل الأدب، خاصة في تحليل العلاقة بين الرجل والمرأة، بين السيد والعبد، بين القوي والضعيف، بين الأب والابن[5].

---

(١) «هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا المؤرخين لأني لم أرد بها إلى العلم، ولم أقصد بها إلى التاريخ. وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعا ثم لم أر بنشرها بأسا. ولعلي رأيت في نشرها شيئا من الخير. فهي تردّ على الناس أطرافا من الأدب القديم قد أفلتت منهم، وامتنعت عليهم. فليس يقرؤها منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم وإنك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم»، جـ١/ هـ.

(٢) «فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسرا، وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذي لا يكلف شقة ولا عناء»، السابق ص هـ.

(٣) «هذا هو الأدب الحي، هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام. فأما ذلك الأدب الذي ينتهي أثره عند قراءته فقد تكون له قيمته، وقد يكون له غناؤه، ولكنه أدب موقوت، يموت حين ينتهي العصر الذي نشأ فيه»، السابق ص و.

(٤) السابق ص ي.

(٥) السابق جـ١/ ٢٦.

ويُقارن فن كتابة السيرة مع الأدب الغربي خاصة اليوناني في مصادره الأصلية، الإلياذة والأوديسة لهوميروس أو كتاب المسرح اليوناني، سوفوكليس وأيسخيلوس ويوربيدس[1]. وقد أحياه الأدباء الأوربيون المحدثون طبقا لظروف عصورهم. وقد يصل الاستطراد إلى حد الخروج عن موضوع السيرة لصالح استثمار ثقافة كاتبها اليونانية التي حصل عليها أثناء وجوده في فرنسا. وتـُستعمل كمادة لنسج الخيال[2].

لا تحتوي على بنية خاصة طبقا لأي نموذج، البداية والوسط والنهاية. ولا تتضمن أبوابا أو فصولا بل تضم ثلاثا وثلاثين قصة قصيرة غير مرقمة تكون مناظر من السيرة ومواقف منها[3]. وهي مناظر منتقاة تطيل فيها قبل البعثة. ولا تركز على البعثة أو الهجرة أو الغزوات في المدينة. كل لقطة لها اسم مفرد أو مضاف أو موصوف. ليس منها أسماء أعلام بل كلها مواقف إنسانية مثل: الفداء، الإغراء، الطاغية، البشير، اليتيم، الشهادة، اليأس، الوفاء، الشوق، الحب، وأحيانا الرحمة...الخ. الحوار فيها متخيل[4]. والتعبير بضمير المتكلم المفرد كما يفعل القاصي والراوي[5]. كما تتم مخاطبة القارئ للتقرب إليه[6]. وتتم مخاطبة الطبيعة وتشخيصها كما هو الحال في الأدب اليوناني القديم والأدب الحديث عند شكسبير. وتتم مخاطبة الناس ممثلين عن الإنسانية كلها[7].

---

(١) السابق جـ١/ ز/ ٩٩-١١٨.

(٢) الفيلسوف الحائر جـ١/ ٦-٧٠.

(٣) هي: حفر زمزم، التحكيم، الفداء، الإغراء، البين، القضاء، الردة، الطاغية، البشير، راهب الإسكندرية، اليتيم، المراضع، البئر، نادي الشياطين، صريع الجسد، سيد الشهداء، ذو الجناحين، حديث عداس، مصعب بن عمير، طريد اليأس، نزيل حمص، الوفاء المر، طيب النفوس، شوق الحبيب إلى الحبيب، القلب الرحيم..

(٤) السابق جـ١/ ١١٨، جـ٢/ ٨ «وأحب أن يعلم الناس أيضا أنني وسعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي أو بنحو من أنحاء الدين. فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة. وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين»، السابق جـ١/ ك/ ١١، ومثل شخصية الأمير، السابق جـ٣/ ١١١-١٢١.

(٥) السابق جـ١/ ١٢٦/ ١٧٧/ ١٨٤.

(٦) السابق جـ٢/ ١٩١

(٧) السابق جـ١/ ٦/ ٩

لا يعتمد على القرآن والحديث والشعر كثيرا قدر اعتماده على تحليل التجارب الإنسانية[1]. وأحيانا يتم التعبير عن القرآن نثرا وليس نصا. فقد كان القرآن نوعا أدبيا شائعا[2]. ومع ذلك الشعر أكثر كما هو الحال عند بعض القدماء. بعضه شعر من القدماء وبعضه من تأليف صاحب السيرة لأنه كاتب وشاعر. وأحيانا تؤخذ آيات القرآن والتعبير عن مضمونها نثرا في قرآن منثور. ويحال إلى بعض المؤرخين في الهامش الذين انفعل الكاتب بالوقائع التي يروونها وفي مقدمتهم طبقات ابن سعد[3]. كما تشرح بعض الألفاظ لغويا لتوضيح معانيها وللإيحاء بالجو العربي القديم[4]. ويُحال أحيانا إلى مصادر الشرح مثل «الكشاف»، كما يتم التحقق من الشخصيات[5]. وبعض الأسماء متخيلة مثل «سمراء» زوجة جد الرسول[6]. وتطول بعض الأحاديث دون نقدها مثل رواية نزول الوحي أول مرة[7]. في حين لا تظهر رواية الإسراء والمعراج.

والأهم في السيرة الإصلاحية هو تأسيسها على جانب الخبرات الإنسانية الحية والمسار الطبيعي للأشياء. فالوحي هو الطبيعة وليس مفروضا عليها. والعلاقة بين الرسول كشاب يافع وخديجة كامرأة ناضجة علاقة إنسانية تقوم على حاجة الشاب إلى الحماية الاجتماعية وحاجة المرأة إلى الشاب القوي والأنس الرجولي[8]. قد يقع هذا الأسلوب في التحليل في القول الخطابي ومع ذلك فهو أفضل من الأسلوب التاريخي

---

(١) الشعر(١٦)،الحديث(٩)،القرآن(٦).

(٢) على هامش السيرة جـ١/ ١٥٧ مثل «وأنا لا أدري أشر أريد بالناس أم خيرا»، جـ١/ ١٥٧، جـ٣/ ١٥٩-١٦٠/ ٢٢٦/ ٢٢٨/ ٢٤١-٢٤٣.

(٣) مثل طبقات ابن سعد، السابق جـ١/ ٢٩/ ١٦٩/ ١٩٢-١٩٣ جـ٢/ ١٧٨، تاريخ الطبري جـ١/ ١٨٣، الإصابة جـ١/ ١٨٤ «ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم في جوهره وأصله، الجديد في صورته وشكله إلى مصادره القديمة التي أخذ منها. فهذه المصادر قليلة جدا لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري»، السابق جـ١/ ك، تفسير الطبري جـ١/ ١٩٤».

(٤) السابق جـ١/ ١١/ ١٧/ ٣٧/ ٣٩/ ٤٣/ ٤٦/ ٥٣/ ٥٨/ ٦١/ ٧٥/ ٧٦/ ٨٤/ ١٠٤/ ١١٧/ ١٢٣-١٢٤/ ١٣٤/ ١٤٠/ ١٤٦/ ١٤٨/ ١٥٢/ ١٥٩/ ١٦١/ ١٦٣/ ١٦٤/ ١٧٢/ ١٧٦/ ١٧٩-١٨٢/ ١٨٥/ ١٩١، جـ٣/ ١٠٦/ ١٣٩/ ١٥٨/ ١٧١/ ١٨٢/ ٢٠٧.

(٥) السابق جـ٣/ ١٦.

(٦) السابق جـ١/ ٢٤.

(٧) السابق جـ٣/ ٤٩-٥٠.

(٨) السابق ص١١١.

الفقهي[1]. ويحيل صاحب السيرة إلى أحد رواد الإصلاح، محمد عبده. فقد كتبت السيرة بعد وفاته بثلاثين عاما. لذلك أصبحت السيرة وجدانية عاطفية مؤثرة فعالة.

وتروى المعجزات بالرغم من الاتجاه العقلاني لصاحب السيرة عن إيمان أو عن ضرورة الأدب للتشويق وجذب انتباه القارئ. وقد يكون هربا من التاريخ الدقيق الذي يتطلب استقصاء ومراجع ومقارنة بين الروايات وحل التعارض بينها. وكاتب السيرة على وعي بأن المعجزات مضادة للعقل. ويرد بأن العقل ليس كل شيء. فهناك الشعور والعواطف والخيال حتى وإن لم تتفق مع العلم والتاريخ[2]. ففي أثناء حفر بئر زمزم خرج ذهب وسلاح قبل الماء[3].

وهناك تواصل بين الجاهلية والإسلام في بعض الفضائل مثل نصرة المظلوم، «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»، ومركزية قريش وسيادة العرب[4]. وكان الحجاب عادة جاهلية[5]. وكان تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف عقابا جاهليا[6].

---

(١) «وأي شيء خير مما يدعو إليه محمد! أليس هو يدعو إلى الحرية، إلى الحرية المطلقة التي لا حدود لها! إلى الحرية العزيزة على نفس العربي عزة حياته عليه! أليس يطلق الناس من التقيد بأية عبادة غير عبادة الله وحده! أليس يحطم كل ما بينهم وبينه من أغلال...»، السابق ص١٢٦.

(٢) «وأنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه. وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسبقها العقل ولا يرضاها. وهم يشكون ويلحون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار وجده في طلبها، وحرصه على قراءتها والاستماع لها. وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث واستنفاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول... وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن العقل ولم يرضها المنطق ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ويدفعهم إلى أن يتلمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش»، السابق ص، ي ر ك».

(٣) السابق جـ١/ ١٥/ ٢٣.

(٤) السابق جـ١/ ١٩.

(٥) السابق جـ١/ ٣٩.

(٦) السابق جـ١/ ٧٤.

ويظهر الدين الطبيعي حتى قبل الحنيفية. وهو ما استند إليه الإسلام في دعوته الجديدة، وما كان يتطلع إليه المتحققون الذين كانوا يبحثون عن الحقيقة، ولا تكفيهم اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية. كانوا يمجون الشرك وعبادة الأصنام. يرفضون أخلاق الجاهلية ومعاملاتهم من ربا وظلم. وهو الدين الذي جسده حلف الفضول، نصرة المظلوم من الظالم والذي أخبر الرسول أنه لو كان موجودا لكان أحد موقعيه(١). وهناك من رفض السجود للأصنام أو تقبيل يد الملوك(٢).

ظهر الإسلام في بيئة يهودية نصرانية. لذلك تم التركيز على علاقة الدعوة الجديدة بالدينين السابقين ومعتنقيهما باعتبارهما سلطة في شبه الجزيرة العربية، خاصة اليهود. وكان يحال إلى كتبها المقدسة، التوراة والإنجيل(٣).

ب- «محمد رسول الله» لأحمد تيمور (١٣٤٨هـ- ١٩٢٩م)(٤)

وهي أيضا سيرة أدبية من أحد أعلام الأدب خاصة الأدب الشعبي. لا تضم أبوابا أو فصولا أو أقساما مرقمة بل تتضمن خمسة وثلاثين موضوعا يمكن ضم أكثر من موضوع في بند واحد(٥). ويكون مجموعها ستة بنود أحوال العرب قبل الإسلام، الميلاد، مكة، المدينة، الفتح، المكاتبات، الشمائل. تجمع بين الرسالة والرسول، ولكنها

---

(١) السابق جـ٢/ ١٣٨-١٥٠.

(٢) السابق جـ١/ ٦٩-٧٣ ومنهم راهب الإسكندرية، وبحيرا، والنجاشي، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وأمية بن أبي الصلت، جـ١/ ١١٩. جـ٢/ ١٣٢-١٣٧/ ١٧٢-١٧٩.

(٣) السابق جـ١/ ٧٧-٨١.

(٤) أحمد تيمور باشا(العلامة المحقق المغفور له): محمد رسول الله قدم له العلامة المهندس أحمد عبده الشرباصي، عضو مجمع اللغة العربية، راجعه وأعده للنشر عبد الصبور مرزوق، مدير إدارة التراث بدار الكتاب العربي، لجنة المؤلفات التيمورية، القاهرة جـ١/ ٣(١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م).

(٥) هي: أ- أنساب العرب وطبقاتهم، مماليك العرب قبل الإسلام، أخلاق العرب وعاداتهم ب- الفجر الصادق، نسبه، أدوار حياته، بناء المسجد النبوي جـ- مشروعية القتال، بدأ الغزوات، مجمل الغزوات د- فتح مكة، حجة الوداع هـ- الكتب الصادرة عنه، الكتاب بيده، المكاتب الواردة إليه وتقبيل يده، صفته، عمامته، أشباهه، أسمياؤه، دعاؤه، جوامع كلمه، قيامه لأبي سهل، إهداء بردته إلى كعب بن زهير، دعاؤه لحسان، طريق الهجرة، الإسراء والمعراج، وصفه لأصحابه، زيارة قبره، مولده، الكتاب المزور عنه، الكوكب الدري، إهداء لوح ذهب من السلطانة عادلة، مدح الرسول، الشعر الديني على نهج البردة.

إلى الرسالة أقرب[1]. قدمه أربعة نظرا لأهميته[2]. وطبعته الثالثة بعد أن نفذت الأولى في أشهر.

ومصادره القرآن والحديث والشعر، الحديث أكثر من القرآن، والقرآن أكثر من الشعر[3]. كما يعتمد على كثير من مقتبسات القدماء والمحدثين، شعراء وكتاب. ومنها ثلاث قصائد طويلة[4]. ومن العبارات ما يقع بين القرآن والحديث مثل «إن الباطل كان زهوقًا»[5]. وتوضع آية في أول كل موضوع كعنوان له. وتشرح الألفاظ لغويا في الهامش[6]. وتبرز مكاتيب الرسول ورسائله لأن صاحب السيرة كاتب وأديب[7]. ويُشار إلى الكتب المزورة على النبي[8].

ويبدأ التشخيص والتقديس والتعظيم والتبجيل قبل التأليه بأوصاف مثل «يده الشريفة»، «النبي الشريف»[9]. وتدخل في موضوعات لا دخل لها بنبوته مثل «العمامة» وألوانها الصفراء والخضراء والسوداء[10]. ولوح ذهب هدية من السلطانة عادلة[11]. وزيارة قبره ومولده تدل على بداية التعظيم بعد وفاته[12]. وهناك أشباه الرسول وأسميائه في الجاهلية بعد أن أصبح نموذجا يقاس عليه[13]. وجوامع كلمه وأدعيته أصبحت نماذج بلاغية[14]. وسلوكه مع أصحابه نموذج في حسن المعاملة والأدب مثل قيامه لعدوه

---

(١) الرسالة ص١٧-٢٣(١٠٧)، الرسول ص١٢٤-١٨٠(٥٧).

(٢) العلامة المهندس أحمد عبده الشرباصي، عضو مجمع اللغة العربية، محمد شوقي أمين عضو اللجنة والمحرر الأول بمجمع اللغة العربية، محمد فتحي عبد المنعم، عبد الصبور مرزوق.

(٣) الحديث (٤٦)، القرآن (٣٨)، الشعر (١٤).

(٤) السابق ص١٦٩-١٨٠.

(٥) السابق ص٤٠.

(٦) السابق ص٥٢-٥٣.

(٧) السابق ص٩٧-١٢٣.

(٨) السابق ص١٦٥-١٦٦.

(٩) السابق ص١١٦-١١٨/ ١٦١-١٦٤.

(١٠) السابق ص١٣٢-١٣٧.

(١١) السابق ص١٦٨.

(١٢) السابق ص١٥٨-١٦٤.

(١٣) السابق ص١٣٩-١٤١.

(١٤) السابق ص٤٢-١٤٦.

أبي جهل، وإهداء بردته لكعب بن زهير، ودعائه لحسان بن ثابت[1]. وتظهر الهجرة مع الإسراء والمعراج وكأنها من صفاته وخصائصه مع أن الهجرة من مقتضيات الدعوة[2]. وتنتهي الشمائل بقصائد المديح على نهج البردة[3].

جـ- «النبي» لجبران خليل جبران(١٩٣١)[4]

وفيه تبلغ السيرة الأدبية التي تضحي بالتاريخ كلية ذروتها. فالنبي هو المصطفى ولكنه ليس بالضرورة محمدا بل قد يكون عيسى أو أي نبي. وليس الزواج زواج محمد بخديجة بل أي زواج. فالنبي هو المعلم الذي يسأله الناس الهدى في حياتهم اليومية كما سأل الناس يسوع ومحمد. لا زمان له ولا مكان إلا مدينة خيالية ذات صوت عبري عربي يوناني «أورفاليس» دون أن تكون بالضرورة مكة أو القدس، وإلا بعض العلامات التي تؤشر إلى النبي محمد مثل المصطفى، والزواج، ودخول المدينة، والوداع عن السيرة والمأكل والمشرب، والثياب، والصلاة من الشمائل[5]. السيرة أدب فلسفي أو فلسفة أدبية. و«النبي» جزء من مشروع خماسي يشمل «حديقة النبي»، «عيسى بن الإنسان»، «أرباب الأرض»، «رمل وزبد» للتعبير عن هذا الدين الجديد دين الإنسان والطبيعة والفن والجمال والحياة والخلود. فحديقة النبي عالمه وهو الطبيعة. وعيسى ابن الإنسان أي أن الإنسان مركز هذا الدين. وأرباب الأرض أي أن الرب هو العالم في وحدة للوجود، ورمل وزبد أي أن الصحراء خصب ونماء. وهي فلسفة الحياة مثل أبي القاسم الشابي وبرجسون. تجمع بين الدين والأخلاق والتصوف. وهو دين واحد لا فرق بين نبي ونبي، عقيدة وعقيدة. ليست سيرة نبي بعينه في التاريخ أو خصائص وشمائل فردية يتميز بها. حجمه صغير ولكن دلالاته كبيرة. كتب بالعربية ثلاث مرات ثم تمت الصياغة الأخيرة بالإنجليزية على غير عادة أدباء المهجر. هو النبي في الخيال،

---

(١) السابق ص١٤٧-١٥٢.

(٢) السابق ص١٥٣-١٥٦.

(٣) السابق ص١٦٩-١٨٠.

(٤) جبران خليل جبران: النبي، ترجمة موازية للنصين الإنجليزي والعربي، ترجمة ثروت عكاشة، دار الشروق ١٩٩٨.

(٥) السابق ص١٤-١٦/ ٩٠-١٠٦/ ٢٢-٢٥/ ٣٦-٣٧/ ٧٣-٧٥.

النبي كما ينبغي أن يكون، النبي الذي يعبر عن المثال في الإنسان. هو الإنسان الكامل الذي تحدث عنه الصوفية. نبي البحر وليس نبي الصحراء. فالماء هو سبب الري والاخضرار.

وكاتب السيرة أديب، والنبي أديب. وفي كليهما روح الشعر. أديب يكتب عن أديب، وشاعر يصف شاعرا. توحد بين الذات والموضوع، والأنا والآخر. يصف النبي وكأنه يصف نفسه. الكاتب حامل رسالة النبي، والنبي حامل رسالة الكاتب. يحلل الآخر بتحليل ذاته. يكتشف عالم الذاتية. عربي يكتب عن عربي. صاحب السيرة فيلسوف وشاعر، مفكر وفنان. النبي قابع في النفس العربي بصرف النظر عن دينه، ليس النبي محمدا بل هو العبقري القابع في العربي. حوارات النبي إبداع خالص لم تحدث تاريخيا، من وضع أديب.

والأنبياء كلهم لهم رسالة روحية واحدة وفي مقدمتهم عيسى ومحمد. والإيمان داخل النفس وليس خارجها ضد الكهنة ورجال الدين. هو صوت الضمير في الإنسان. الرسالة ليست المسيحية ولا الإسلام بل هي رسالة الإنسان والطبيعة. هي أقرب إلى وحدة الوجود عند الصوفية. الزمن فيه توتر بين الموت والخلود، وليس مسافة زمنية كمية للقياس[1].

وقد تحول الدين الطبيعي الفطري إلى دين الطبيعة ذاتها كما هو الحال عند روسو. الطبيعة خيرة. تبعث على الحب وإدراك الجمال[2]. الطبيعة إله والإله طبيعة[3]. الطبيعة جمال وفن. والحب أحد مظاهرها مثل التحرر والحنين إلى الأوطان. وهو دين الشابي وإقبال وبرجسون. يخلو من المعجزات. فلا حاجة لتشخيص قوي الطبيعة في فرد أو في إله. «ربنا» نادرا، والطبيعة دائماً[4]. لا يعتمد على قرآن أو حديث أو شعر. ولا يستشهد بنص من التوراة أو الإنجيل. فالطبيعة خير شاهد على الدين، ومصداق الوحي في

(١) النبي ص٦٧-٦٨.
(٢) النبي ص٦٩-٧٢.
(٣) السابق ص٢٢.
(٤) السابق ص٧٥/ ٨٥.

الطبيعة، لا فرق بين ما ينزل من أعلى وبين ما يصعد من أسفل، بين التنزيل والتأويل.

كل السيرة تعاليم ووصايا مثل المواعظ على الجبل لعيسى بناء على سؤال من كل صاحب مهنة أو جنس، امرأة أو رجل أو شاب أو شيخ[1]. والبعض يسأل أكثر من سؤال. والثروة مهنة. والرجل الثري كما هو الحال في الإنجيل عندما سأل يسوع هل له حظ في الحياة الأبدية. وكل صاحب مهنة يسأل عما يهمه، الفلاح عن الأرض، والبناء عن البيوت، والنساج عن الثياب، والتاجر عن البيع والشراء، والقاضي عن الجريمة والعقاب، والمحام عن القوانين، والخطيب عن الحرية، والكاهنة عن العقل والعاطفة وعن الصلاة، والمرأة عن الألم، فالمرأة ميدان العواطف، والرجل عن معرفة النفس، فالرجل غايته المعرفة، والمعلم عن التعليم، والشاب عن الصداقة، والعالم عن الكلام، والفلكي عن الزمن، والشيخ عن الخير والشر، والناسك عن الصلاة والمتعة، والشاعر عن الجمال، والكاهن الشيخ عن الدين، والعرافة عن الموت وهي أكبر الخطب. ثمانية وعشرون موضوعا تلتقي عليها كل الديانات والمذاهب والفلسفات. وتتوالى الموضوعات تباعا طبقا للسائلين دون أبواب أو فصول. وكلها معالم لدين إنساني واحد. هي تعاليم المسيحية والإسلام بلغة الكاتب. والعطاء مقولة مسيحية وإسلامية في آن واحد. والرب والمذبح ليسا بالضرورة مسيحيين بل الألوهية والعبادة في أي دين. الدين كله وصايا ومواعظ وآداب، لا عقائد ولا شعائر فيه. وليس له رجال دين. ويخلو من الثواب والعقاب والحياة الأخروية. لا يهتم إلا بشيءون الدنيا والحياة الفاضلة الصادقة. هو خطاب توجه إلى الناس جميعا كما فعل المسيح ضد أحبار اليهود.

د- «محمد» لفتحي رضوان(١٩٨٨م)[2]

وهي سيرة من النوع الذي يجمع بين التاريخ والأدب مثل «على هامش السيرة» لطه حسين. وفي نفس الفترة التاريخية ١٩٣٧م. والغاية التأثير في الناس بوقائع مختارة من

(١) أصحاب المهن هم: العرافة(المطرا)، رجل ثري، شيخ صاحب نزل، فلاح، بناء، نساج، تاجر، قاض، محام، خطيب، كاهنة وكاهن، معلم، عالم، فلكي، ناسك، شاعر، ومن الجنس والعمر، امرأة تضم رضيعها إلى صدرها، امرأة، رجل، شاب، شيخ من أهل المدينة.

(٢) فتحي رضوان: محمد، دار الهلال، القاهرة ١٩٣٩.

سيرة الرسول لتربيتهم الفكرية والسياسية مثل إسلام عمر، واستشهاد حمزة، وإيمان خديجة. والمؤلف رئيس الحزب الوطني الذي أبقت عليه ثورة يوليو١٩٥٢م اعترافا بفضل حزب مصطفى كامل ومحمد فريد. ومع ذلك لا يظهر الجانب السياسي في السيرة، ولا تظهر الحياة الوطنية. الأسلوب أدبي، والحوار متخيل[١]. لم تهتم بالمعجزات كثيرا. فالمهم هو الجانب الإنساني فيها. وتبدو عناصر الدين الطبيعي بتسميته «الصادق الأمين» قبل نزول الوحي.

والكتاب يخلو من الأبواب والفصول، إنما ينقسم إلى قسمين غير مرقمين طبقا لعبارة أبي بكر عندما وجد الرسول ملقى في بيت عائشة «ما أطيبك حيًا، وما أطيبك ميتًا»[٢]. فالقسم الأول «ما أطيبك ميتًا»، والثاني «ما أطيبك حيًا». فالموت يسبق الحياة. والثاني أكبر من الأول، والأول ثلث الثاني تقريبا[٣]. وهي سيرة عكس التطور الزماني. فالموت يسبق الحياة. الموت فيه إثارة نفسية أكثر. تشجع الناس على القراءة، وتوقظ انتباههم. وهو جزء من مشروع ثلاثي. والثالث أم المؤمنين خديجة[٤]. ويتبع القسم الثاني من الحياة منهجا تاريخيا من الميلاد والرضاعة والتجارة والزواج من خديجة حتى قبل الهجرة أي في الفترة المكية دون التعرض للفترة المدنية في فترة الغزوات. فالسيرة عمل جماعي. تتفق في الروح والقصد.

والمصادر ثلاثة كالعادة: القرآن والحديث. ويغيب الشعر. والحديث أكثر من القرآن[٥]. ومع ذلك الأساس هو التصوير الفني، والتعبير الأدبي، والتأثير النفسي. النص تدعيم للموقف الإنساني وليس بديلا عنه.

---

(١) مثل الحوار مع مويهبة، السابق ص٦-٩.

(٢) «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أطيبك حيا، وما أطيبك ميتا»، وفي هذا الكتيب تفصيل سريع لهذه الكلمة التي أحاطها الخلود بإطار من عنده، السابق ص٣.

(٣) «ما أطيبك ميتا» ص٦-٣٥(٣٠ص)، ما أطيبك حيا ص٣٨-١٦٠(١٢٣ص).

(٤) الأول هو هذه السيرة بقلم فتحي رضوان، والثاني تأليف محمد صبيح، والثالث تأليف مصطفى الوكيل، السابق ص٣٦/ ٩٨.

(٥) الحديث(١١)، القرآن(٥).

٨- السير الليبرالية:

لم يخل كل عصر من سير تعبر عن ثقافته ومستوى تعظيمه للرسول ويعكس أيديولوجيته. ولما كانت هناك ثلاثة تيارات في الفكر العربي الحديث، ظهرت ثلاثة أنواع من السير، يعكس كل منها تيارا. الأول التيار الليبرالي الذي أكثر من كتابة سيرة ليبرالية للرسول. يقرأ فيها معاني الحرية والمساواة والعدل والعقل والتقدم. والثاني التيار الماركسي أو الاجتماعي التقدمي بوجه عام، ولم يكتب أحد من التيار العلمي العلماني سيرة للرسول لأنه يبدأ بالمعارف الطبيعية وليس الإلهية. كما أنه يفصل بين الدين والمجتمع. والمجتمع له نظامه المدني وليس الشرعي.

أ- «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» للطهطاوي(١٨٧٣هـ)[١]

وهي سيرة معاصرة تحول محوريها من الرسالة والرسول إلى الرسالة والدولة. فالرسول ليس الشمائل والخصائص بل الدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية. لها بنية محدودة، اثنا عشر بابا. وكل باب له فصول طبقا للمنهج التاريخي ونموذج ابن هشام البداية والوسط والنهاية. الخمسة الأولى عن الرسالة من خلال حياة الرسول[٢]. والسبعة الثانية عن الدولة. الأول المولد وزواجه من خديجة وولادة فاطمة. والثاني البعثة والهجرة إلى الحبشة الأولى والثانية والهجرة إلى الطائف والإسراء. والثالث الهجرة إلى المدينة وأسبابها وابتداء التاريخ الإسلامي. والرابع ما حدث بعد الهجرة إلى وفاته أي الغزوات عاما وراء عام، من الأول حتى التاسع وحجة الوداع وهو أكبر الأبواب. والخامس وفاته وبعض أخلاقه وخصائصه ومعجزاته وأزواجه وأعمامه وعماته وأخواله ومواليه وخدمه وحشمه وهو ما يعادل الشمائل.

والجديد هي الأبواب السبعة التالية في بنية الدولة كما بينها في «مناهج الألباب»

---

(١) الطهطاوي (رفاعة رافع): نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، جـ١، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة ١٢٩١هـ.

(٢) وهي أ- المولد ب- البعثة جـ- الهجرة د- ما بعد الهجرة(المدينة) هـ- الوفاة، السابق ٣-٣٥٠ (٣٤٧ص).

منظر الدولة محمد علي[1]. الأول الوظائف والعمالات البلدية خصوصية وعمومية أهلية داخلية وجهادية التي هي عبارة عن نظام السلطنة الإسلامية وما يتعلق بها من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، والثاني العمالات المتعلقة بالأحكام وهو ما يعادل وزارة العدل[2]. والثالث العمالات الجهادية وهو ما يعادل وزارة الدفاع[3]. والرابع العمالات الجبائية وهو ما يعادل وزارة الأوقاف[4]. والخامس العمالات الاختزانية وهو ما يعادل وزارة المالية[5]. والسادس عمالات مختلفة تتعلق أيضا بالمالية والضيافة والوفود والطب والمارستان. وهو ما يعادل وزارة الصحة[6]. والسابع الحرف والصناعات وتعادل وزارات التجارة والصناعة والعمل[7]. ولا توجد ما يعادل وزارات التربية والتعليم العالي، والإسكان والتموين والخارجية والداخلية والزراعة والصناعة والطاقة والشباب والرياضة والحكم المحلي وغيرها من الوزارات المستحدثة.

ولا تختفي ألفاظ التبجيل والتعظيم مثل المولد الشريف، النسب المنيف، خديجة أم المؤمنين، الصحابة رضي الله عنهم، الرسول صلى الله عليه وسلم، عليه الصلاة والسلام[8]. كما يستعمل السجع للتأثير على القارئ طبقا للمحسنات البديعية عند القدماء والمحدثين.

---

(١) وتضم الخدم وما يضاف إلى الإمامة العظمى من الأعمال الأولية كالوزارة والحجابة وولاية البدن والسقاية والكتابة، والعمالات الفقهية والدعوة إلى الإسلام أو الصلح أو الأمان، والسفارات الأجنبية والترجمة، وكتابة الجيش والعطاء والديوان والزمام، والعرفاء والمحاسبين.

(٢) وتتضمن الإمارة والقضاء وشهادة الشهود وكتابة الشروط والعقود، وفرض المواريث والنفقات والقسام وناظر البناء، والمحتسب والمنادي وصاحب العسس ومتولي حراسة المدينة والجاسوس والسجان ومقيمي الحدود.

(٣) وتتضمن الإمارة على الجهاد واستخلاف الإمام على المدينة، وصاحب اللواء، وانقسام الجيش خمسة أقسام، وصاحب الخيل والمسابقة، وسلاح النبي، والسفر للغزو، ومتاع المسافر، والمحاصرات كالمـ والدبابات والخنادق، وصاحب الغانم، والبشير، والسفن.

(٤) وتضم صاحب الجزية والأعشار والمزاج والمساحة والزكاة والصدقات والمواريث.

(٥) وتتضمن بيت المال وخازن الطعام والوزان والكيال، وضرب السكة والإبل والغنم والدواب والمراعي.

(٦) وتشمل أيضا الرقية والفصد والكي ومكان إيواء الفقراء .

(٧) وتضم احتراف النساء مثل الماشطة والقابلة والخافضة والغاسلة والمغنية، السابق ص٣٥٠-٥٣١(١٨٢ص).

(٨) السابق ص٣/ ٣١/ ٤٨/ ٩٣/ ١٠٨/ ١٣٣/ ١٥٢/ ١٩٣/ ٢١٤/ ٢٧٣/ ٣١٧/ ٣٥٠/ ٤٠١/ ٤١٥/ ٤٢٠/ ٤٧١/ ٤٩٣.

والسيرة جزء من تاريخ أعم، ابتداء الجزء الثاني من «تاريخ توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل» كما هو الحال في سيرة البستي وابن خلدون تتويجا لها، وتبركا بها[1]. والأسلوب بسيط، والغاية نفع الوطن بالرغم من أن الجزء الأول في السيرة عن حياة الرسول تقليدي.

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر، والشعر أكثر ثم الحديث[2]. وتظهر مناسبات النزول لبعض الآيات[3]. وقد تطول القصائد، وتشرح بعض الألفاظ لغويا في الهامش[4]. كما يعتمد على التراث القديم في التاريخ والتفسير[5]. كما يشير إلى بعض الفرق الكلامية مثل المعتزلة[6]. ويقتبس منها. ويوضع الاقتباس بين علامتين[7]. كما يعتمد على التراث الأصولي ومقولاته في الأحكام الشرعية الخمسة[8].

ولا تختفي المعجزات كلية بل يقل حجمها. ويبقى البعض مثل الإسراء والمعراج[9]. ويتجاوز التاريخ الرصدي إلى الدروس المستفادة «الظواهر الإسلامية والظواهر التعليمية»[10].

ب- «معجز محمد رسول الله» للثعالبي (١٩٤٤م)[11]

وهي سيرة حديثة على نموذج قديم، نموذج ابن هشام، البداية والوسط والنهاية،

---

(١) السابق ص١ «فلما صار الشروع في الجزء الثاني من كتاب توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل عنّ لي أنه لا غنى عن تتويجه بالسيرة النبوية. فانتقيت ذلك من صحيح كتبه المصطفوية. فجاءت بحمد الله جيدة الأسلوب. تنفع أهل الوطن وتسطع في غرة ولي المنن خديو مصر إسماعيل المجدد في مصر أحسن زمن...»، السابق ص٢.

(٢) الشعر (٣٧٥)،القرآن(٨٤)،الحديث(٥٣).

(٣) السابق ص١٩٤/ ٢١٣.

(٤) نهاية الإيجاز ص٤٣-٤٨.

(٥) السابق ص١٨.

(٦) السابق، القرطبي ص٢٣، ابن المنير ص٢٣، ابن كثير ص٢٦، ابن الجوزي ص٤٠.

(٧) هي كلمة «انتهى»، السابق ص٢٤/ ٣٤/ ٣٩.

(٨) السابق ص٣٩.

(٩) السابق ص٨٧-١٠٨.

(١٠) السابق ص١٠٨-١٣٣.

(١١) الثعالبي (الشيخ عبد العزيز): معجز محمد رسول الله، تقديم ومراجعة د. محمد البعلاوي(جزءان)، دار الغرب الإسلامي، بيروت جـ٣/ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

المحور الأول للسيرة، الرسالة دون المحور الثاني، الرسول. العنوان نفسه غامض لأنه لا معجز في رسالة محمد رسول الله بل تطور طبيعي للتاريخ خاصة في شبه الجزيرة العربية. لذلك يُحال إلى ابن إسحق واضع هذا النموذج[1]. وهو أقرب إلى «حياة محمد» لهيكل. وتذهب خصائص الرسول إلى خصائص الرسالة[2]. وقد صدر الثعالبي سيرته على الغلاف بعبارة دالة على التركيز على الرسالة وليس الرسول[3].

وهو دفاع مستنير عن السيرة طبقا لأهداف الحركة الإصلاحية التي تحولت إلى حركة تحرر ضد الاستعمار الفرنسي في تونس. فالرسالة حركة تحرر وطني للعرب عن الاستعمار الشمالي للرومان، والشرقي لفارس، والجنوب للحبشة لشبه الجزيرة العربية وامتدادها في صحراء الشام كما فعل الشرقاوي في «محمد رسول الحرية». فالسيرة مملوءة بألفاظ الكفاح وتعبيراته، والنضال ضد تآمر الأعداء، والكفاح ضد العرب المتهودين وضد مؤامرات قريش. كما يشمل الإصلاح الاجتماعي في الداخل وإعادة توزيع الثروة بين الأغنياء والفقراء، وتحرر العبيد من السادة، وإعطاء المظلوم حقه من الظالم[4]. ويتحدث لأول مرة عن «الإسلام السياسي» مصطلح المعاصرين[5]. الدين حركة وطنية[6].

ومع ذلك مازالت بقايا المنهج التاريخي باقية في رصد أسماء الشهداء من المسلمين أو المشركين أسماء القتلى في أحد أو أسماء الجنود والأسرى من قريش بلا دلالة ظاهرة[7].

وينقسم إلى جزأين كل جزء له بنيته الخاصة. الأول ستة وأربعون فصلا صغارا تشير إلى حياة الرسول في مكة، دون أحوال العرب قبل الإسلام والميلاد والرضاعة ونزول الوحي، فالتركيز في السيرة على ما كان له دلالة، ويتعلق بكفاح الرسول. وكلها تدور حول نقاط محورية في حياته، الإعلان عن الدعوة، معارضة قريش؛ محاولة غواية النبي

---

(١) السابق ص٢١.

(٢) السابق ص٢١.

(٣) وهي: «أن المجتمع الإسلامي هو نسيج الرسالة المحمدية فأروني ماذا صنع غيرها من الرسالات»، السابق ص٣.

(٤) السابق جـ٢/ ٢٨١-٢٨٢.

(٥) السابق جـ١/ ٣٦/ ١٦٦-١٧٥/ ١٧٩-١٨٠/ ٢٨٦.

(٦) السابق ص١٢٥.

(٧) السابق جـ١/ ٢٤٣-٢٤٤/ ٢٥٠-٢٥٤، جـ٢/ ٤٣-٤٥.

بالمال والنساء والملك، تآمر اليهود مع المشركين، مقاومة الرسول، الهجرة إلى الحبشة، زواجه من خديجة وعائشة، الهجرة إلى المدينة، ومشروعية القتال[1].

ويشمل الجزء الثاني ثلاثة عشر موضوعا بلا فصول أو أبواب أو ترقيم. معظمها غزوات أو سرايا بعد الهجرة إلى المدينة. وهي سبعة: العمرة إلى مكة وصلح الحديبية والوفود والرسائل وهي أربعة. ولا يوجد ذكر لغزوة أحد ربما لذكراها السيئة[2]. ولا تنتهي السير بوفاته لأنها أقل دلالة عليها من حياته.

ويعتمد على القرآن أكثر مما يعتمد على الحديث حتى يطمئن إلى يقين المصادر والبعد عن المرويات الظنية. ويأتي الشعر في الدرجة الثالثة[3]. والآيات تبين أسباب نزولها وتفاعلها مع الواقع وجدلها معه سؤالا وجوابا، نقدا وإثباتا. والأحاديث متون دون أسانيد، وقصيرة حتى يكون تأثيرها أقوى من الأحاديث الطويلة. وأحيانا يدخل في كلام المؤلف ولا يوضع بين معقوفتين. ويختلط أحيانا كلام الوحي مع كلام الرسول والبشر[4]. فمن مظاهر بلاغته إعادة صياغة كلام البشر في رده عليهم مستعملا أقوالهم. وهناك هوامش كثيرة لشرح الألفاظ. فالمقصود من السيرة فهمها تأثيرها على الناس وليس مجرد تسجيل وقائعها. وتتعدد الروايات بل وتتناقض أحيانا. والمؤلف يخاطب المؤرخ كي يكتشف الوقائع الموضوعية وراءها[5]. ويبحث عن القضية وراء الرواية، والأشكال وراء القصة[6]. وأحيانا تطول الحوارات كما هو الحال عند القدماء[7].

---

(١) السابق جـ١/ ٦-٧.

(٢) الغزوات: الخندق، السابق جـ٢/ ٩١-١٠٦، بني قريظة ص١٠٧-١٢٦، خيبر ص١٦٣-٢٦٠، الطائف ص٢٦١-٢٧٩، تبوك ص٢٨٣-٢٦٩، سرايا زيدي حارثة ص١٢٧-١٣٨، صلح الحديبية ص١٥٠-١٦٢

(٣) القرآن (١٨٥)،الحديث (١١٤)،الشعر (١٣).

(٤) مثل قول أبي بكر «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربهم». ومثل قول الرسول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» معجز محمد جـ١/ ٤١ جـ٢/ ٢٣٠، وقول عبد الله بن أبي سرح كاتب الوحي، «تبارك الله أحسن الخالقين» جـ٢/ ٢٣٤، قول الرسول «اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئا» جـ٢/ ٣٢٣.

(٥) السابق جـ٢/ ١٠٣/ ١٤٣/ ٢٥١.

(٦) السابق جت٢/ ١٥٩-١٦١.

(٧) السابق جـ٢/ ٢١٣/ ٢٢٥-٢٣٨/ ٢٤٠-٢٤٤/ ٣٤٤-٣٤٨.

وبالرغم من قلة الحجج النقلية خاصة الحديث وسيادة التحليل العقلي إلا أن بعض روايات المعجزات مازالت واردة مثل إسلام الجن[1]. المعجزات قليلة وخفيفة، ويمكن فهمها علميا[2]. ولا تذكر رواية الإسراء والمعراج الطويلة وما بها من خيالات في شكل البراق وحوارات الرسول مع جبريل وملائكة السموات السبعة والأنبياء وما فرض فيها من شرائع[3].

وبالرغم من إسقاط موضوع الشمائل ومحور الرسول والإبقاء على محور الرسالة وحدها مازالت بعض ألفاظ التفخيم والتعظيم والتبجيل مثل يده الشريفة وخديجة وعائشة أم المؤمنين، ألقابا مجازية وليست حقيقة تاريخية[4].

جـ- «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م)[5]

هو نموذج السيرة الليبرالية الحديثة التي يختفي فيها الرسول كلية لصالح الرسالة، ويوضع محله خاتمة في مبحثين: الأول الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن والثاني «المستشرقون والحضارة الإسلامية». وهما العنصران الجديدان في السيرة. ولا يظهران في الخاتمة فحسب بل أيضا في ثنايا الكتاب[6]. كما تظهر المقارنة بين الإسلام والمسيحية دفاعا عن الإسلام. يضرب المستشرقون بعضهم ببعض، المتعصبين بالمنصفين، والمغالين بالمعتدلين دفاعا عن الصحة التاريخية للنص القرآني ضد فرية التحريف، والجبرية، وانتشار الإسلام بالسيف. ويرتبط بالحركة الإصلاحية الحديثة عند محمد عبده، ويحيل

---

(١) السابق جـ١/ ١٠٥.

(٢) السابق جـ٢/ ٦٨.

(٣) السابق جـ١/ ١١٤-١١٦.

(٤) يده الشريفة، السابق جـ١/ ١٨/ ١٥٧/ ١٦٢، ام المؤمنين جـ١/ ٢٢/ ١٠٤/ ٢٠٢.

(٥) محمد حسين هيكل، حياة محمد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ، الخاتمة ص٤١٩-٤٦٨.

(٦) أنصار المستشرقين والرد عليهم وما يؤاخذونني به، أسباب أخطاء المستشرقين، المستشرقون والمقررات الدينية، فرية تحريف القرآن، موير ينكر هذه الفرية، السابق ص٣٦-٤٠، بحوث المستشرقين، المسلمون وهذه البحوث ص٦٢-٦٤، جدال المستشرقين ص٢٢٨، زينب بنت جحش كما يصورها المستشرقون، فساد تصوير المستشرقين، والآن ما رأي المستشرقين في قصة بنت جحش ص٢٦٥-٢٧١، المستشرقون والحضارة الإسلامية، اعتراض المستشرقين، ايرفنج والجبرية الإسلامية، ص ٤٤٢- ٤٦٨.

إليه[1]. وقد يعتبرها البعض أفضل ما كتب في السيرة الإصلاحية الحديثة طبقا للنموذج الليبرالي.

وتتكون السيرة من واحد وثلاثين فصلا كلها في السيرة طبقا لنموذج ابن إسحق وابن هشام، البداية والوسط والنهاية بالرغم من ارتباط بعض الفصول بعضها ببعض بحيث تصبح الفصول أقل في بنية أوضح[2]. وهناك فصول عرضية مثل قصة الغرانيق وأزواج النبي. البداية في البعثة حتى الهجرة، والوسط في المدينة، والنهاية في فتح مكة حتى الوفاة. يتضح المنهج التاريخي دون الوقوع في الرصد والتسجيل كما فعل المؤرخون القدماء. وتقتصر السيرة على حدودها دون غيرها، وترك كل ما لا يدخل فيها كما هو الحال في سيرة القدماء[3].

وتقل الحجج النقلية إلى الحد الأدنى، ويزداد التحليل الإنساني الحي والخبرات الطبيعية ليظهر الإسلام باعتباره دين الفطرة. والقرآن أكثر من الحديث نظرا لنقل الحديث عن طريق الروايات المختلفة التي تجعلها ظنية في حين أن النقل القرآني يقيني. وطريقة طباعة القرآن باللون الأحمر تدل على أهميته في حين أن الحديث مطبوع بالحروف العادية. والشعر أقل من الحديث لأن النثر يقوم بدلا عنه، تحليل التجربة الإنسانية مباشرة فصاحب السيرة أيضا أديب، مؤلف أول رواية في الأدب العربي

---

(١) أقوال الشيخ محمد عبده، السابق ص٢٨-٢٧، ص٤٦٠-٤٦٢.

(٢) أ- البداية: ١- بلاد العرب قبل الإسلام ٢- مكة والكعبة وقريش ٣- من الميلاد إلى الزواج ٤- من الزواج إلى البعث

ب- البعثة: ٥- من البعث إلى إسلام عمر ٦- قصة الغرانيق ٧- مسارات قريش ٨- من نقض الصحيفة إلى الإسراء ٩- بيعتا العقبة ١٠- الهجرة

جـ- المدينة: ١١- أول العهد بيثرب ١٢- السرايا والمناوشات الأولى ١٣- غزوة بدر الكبرى ١٤- بين بدر وأحد ١٥- غزوة أحد ١٦- آثار أحد ١٧- أزواج النبي ١٨- غزوتا الخندق وبني قريظة ١٩- من الغزوتين إلى الحديبية ٢٠- عهد الحديبية ٢١- خيبر والرسل إلى الملوك ٢٢- عمرة القضاء ٢٣- غزوة مؤته.

د- فتح مكة: ٢٥- حنين والطائف ٢٦- إبراهيم ونساء النبي ٢٧- تبوك وموت إبراهيم ٢٨- عام الوفود وحج ابن بكر بالناس ٢٩- حجة الوداع ٣٠- مرض النبي ووفاته ٣١- دفن الرسول.

(٣) حياة محمد، ص٣٢-٣٣.

الحديث «زينب»[1]. وفي الخاتمة: الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن، والمستشرقون والحضارة الإسلامية لا يوجد إلا ستون آية دون حديث أو شعر. وهو وعي منهجي مقصود بالعودة إلى القرآن. فالقرآن أصدق مرجع[2]. ومن كثير من آياته تُعرف أسباب النزول لمعرفة ارتباطه بالواقع. وقد تبنى المنهج العلمي في التغير الاجتماعي وهو ما سماه القدماء «أسباب النزول» و«الناسخ والمنسوخ»[3]. والرجوع إلى النبي فقط حين الخلاف[4].ولا يُروى الحديث بل يعبر عن أثره النفسي. فمصداق السند في المتن[5]. تتجاوز السيرة الخلاف في الروايات، وتعود إلى الأشياء ذاتها. تبحث عن الحد الأدنى من الاتفاق بينها عليه. فالتاريخ رواية. والرواية قصة، والقصة إبداع أدبي. وصاحب السيرة أديب يناقش القصة كناقد أدبي[6].

لذلك تقل المعجزات إلى الحد الأدنى. فالمعجزة رواية. والرواية خيال. تنقد السيرة رواية شق الصدر لمسا دون عمقا. فالرواية عرضة للنقد. والمتن أيضا عرضة لنقد العقل لأن الإعداد للنبوة لا يحتاج إلى هذا العمل الحسي[7]. وقصة الغرانيق العلي تقوم على أسانيد ضعيفة. القصة ظاهرة الكذب ينفيها التمحيص العلمي[8]. وتشير إلى رغبة الرسول في الإعلان عن بعثته بكل الوسائل وإيحاء التوسط بالغرانيق للمشركين. فالقصة تصوير، والشيطان رمز. ولم تخل السيرة من الأحاديث الطويلة التي لا تستطيع

---

(١) القرآن (٢٠٠)، الحديث (٣٧)، الشعر (٧).

(٢) حياة محمد ص٣٠.

(٣) انظر دراستنا «الوحي والواقع، دراسة أسباب النزول»، هموم الفكر والوطن جـ١، التراث والعصر والحداثة ص١٧-٥٦، وأيضا من النص إلى الواقع جـ٢ ص١١٨-١٣٥.

(٤) حياة محمد ص ٤٠-٤١.

(٥) من النقل إلى العقل جـ٢، علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

(٦) حياة محمد ص٨٣-٨٥.

(٧) «لا يطمئن المستشرقون، ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه ويرونها ضعيفة السند. فالذي رأى الرجلين في رواية كتاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلا.. والروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد إلى الخامسة من عمره. فلو كان هذا الحادث قد وقع وسنه ستتان ونصف سنة ورجعت حليمة وزوجها إذ ذلك به إلى أمه لكان في الروايتين تناقض مقبول...»، السابق ص١٠١.

(٨) السابق ص١٤٠-١٤٦.

أي ذاكرة استيعابها[١]. وتتعدد الروايات في الإسراء والمعراج وتفسيرهما. هل كانا بالروح أم بالجسد؟ وهل يمكن تفسيرهما اعتمادا على العلم الحديث؟[٢]. وهل تضعضع المسلمون بعدهما بين إثبات وإنكار؟

والمنهج التاريخي هو الذي يؤدي إلى تمحيص الروايات[٣]. فالرواية إدراك وخيال، واقع وافتراض. لذلك يقبل حكم النقد التاريخي النزيه[٤]. وهناك وعي منهجي بالسيرة الحديثة في مقدمة الطبعتين الأوليين[٥]. يكشف عن ضرورة التجديد في الدراسات الإسلامية مثل مقدمة «في الشعر الجاهلي» لطه حسين التي تبين ضرورة تبني علوم النقد التاريخي الحديثة. الطريقة الصحيحة في البحث هي الطريقة العلمية، البحث عن الأدلة وتمحيصها[٦].

ومنهج البحث علمي خالص[٧]. يبغي الحق وحده. وقد وجه إهداء الكتاب إلى الذين يبتغون الحق لوجه الحق وحده[٨]. الكتابة بحث وليست تعبيرا عن إيمان مسبق وعقائد غيبية ينقصها الدليل[٩]. والمنهج النفسي الاجتماعي هو أفضل المناهج. فالدين ظاهرة نفسية اجتماعية. اعتمد عليه القرآن للتخويف بالبعث والحساب وتصويره[١٠].

---

(١) مثل ما كتب محمد بين المهاجرين والأنصار، وأعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط عليهم، السابق ص١٩٢-١٩٣.

(٢) السابق ص١٦٣-١٦٩.

(٣) السابق ص٢٦٨-٢٧١.

(٤) السابق ص٣٦٧.

(٥) السابق ص١٧-٦٥.

(٦) «إن واجب الباحث ألا يثبت مسألة من المسائل وألا ينفيها قبل أن يصل من تمحيصه وبحثه إلى الإقناع الذاتي الصحيح بأنه قد اطمأن كل الطمأنينة إلى الوقوف فيها على الحقيقة كاملة غير مشوبة بشائبة. وشأن المؤرخ في ذلك شأن العالم في الأمور الطبيعية وفي غيرها من العلوم جميعا...»، السابق ص٤٦.

(٧) «إنما أردتها دراسة علمية على الطريقة الحديثة خالصة لوجه الحق، ولوجه الحق وحده ... أن يكون البحث قد تم بحثا علميا لوجه الحقيقة العلمية وحدها...»، السابق ص٦١.

(٨) السابق ص٥.

(٩) «هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة، وإن ما بذلت في هذا السبيل من مجهود لا يُخرج هذا الكتاب عن أنه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع... فحياة محمد جديرة بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها...»، السابق ص٣٣.

(١٠) السابق ص١٥٣-١٥٤.

وفي الإنسان نزوع نحو الكمال[1]. وبعد هزيمة أُحد كان لابد للنصر للمسلمين لاسترداد هيبتهم في عيون الآخرين واسترجاع ثقتهم بالنفس[2].

ولا يكفي الاعتماد على سير القدماء في الموروث دون الاعتماد على سير المحدثين في الوافد. فالثقافة الآن لها مصدران الموروث والوافد. الموروث وحده يوقع في السلفية والتكرار، والوافد وحده يوقع في الاستشراق والتغريب. ولولا الثقافة الأوربية كمرآة تعكس الثقافة الإسلامية لما كتبت هذه السيرة. فيحال إلى حوادث فارقة في تاريخ الغرب مثل مجزرة سانت بارتليمي كمرآة لرؤية أسرى بدر وضآلتهم. والمرأة في أوروبا مرآة تكشف وضع المرأة في الشرق والعكس بالعكس. فالمرآة مزدوجة، مرة رائي ومرة مرئي[3]. والخاتمة الأولى «الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن» في مرآة الحضارة الغربية سواء في علاقة الدين بالدولة أو بأساس الدولة الاقتصادي في الغرب والمعنوي في الإسلام[4]. والخاتمة الثانية «المستشرقون والحضارة الإسلامية» رد على أخطاء المستشرقين بالنسبة للجبرية في الإسلام. وهي ما تسمى عقيدة القضاء والقدر والعنف والتعصب والقسوة. وهو ما يسمى اليوم الإرهاب بالرغم من التسامح في الإسلام، والإيمان بالخوارق بالرغم من مكانة العقل في الإسلام[5].

والعلم الغربي هو النموذج، العلم الواقعي الوضعي البعيد عن الخيال والأسطورة والغيبيات. يفصل بين الكنيسة والدولة، بين السلطتين الدينية والسياسية. فحرر الفكر من الجمود. وهو النموذج للشرق ضد الجمود والتعصب[6]. والحقيقة أن هذا العلم

---

(١) السابق ص١٥١-١٥٢.

(٢) السابق ص١٥١.

(٣) السابق ص٣٧-٣٨.

(٤) السابق ص٢٨٦.

(٥) السابق ص٤١٩-٤٤١.

(٦) «انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها. وزادهم انصرافا ما رأوا العلم الواقعي والفلسفة الواقعية (الوضعية) يقرر أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيز التفكير العلمي، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي (الميتافيزيقي) ليس هو أيضا من الطريقة العلمية في شيء. ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحا صريحا في البلاد الغربية ورأوا البلاد التي تقرر في دساتيرها أن ملكها هو حامي البروتستنتية أو الكثلكة أو تقرر أن دين الدولة الرسمي المسيحية لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمواسم وما يتصل بها. فازدادوا انخراطا في هذا

الغربي النموذج إنما هو حصيلة العلم الإسلامي الأول وثمرته بعد عصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية في أسبانيا وجنوب إيطاليا وشمالها وبيزنطة وعبر عنه ابن خلدون. فالعلم الإسلامي إنما يسترد ذاته قبل أن يأخذ العلم الغربي نموذجا[1].

وكثيرا ما يستعمل أيضا لفظ «التجديد» والدعوة إلى الاجتهاد ونقد الجمود عند المسلمين[2]. وقد أثر الجمود في الشباب في عزوفهم عن الفكر والعلم. واتهم محمد عبده بالإلحاد والكفر والزندقة فأضعف موقفه تجاه الغرب. واتجه الشباب إلى الغرب يأخذ من علمه. وقد بدأ الغرب يجدد في الدراسات الإسلامية بمناهج نفسية واجتماعية وتاريخية يمهد الطريق للباحثين المسلمين[3]. والجمود لا يساعد على رد اتهامات التبشير والاستشراق ومن ورائهما الاستعمار.

التفكير العلمي وحرصا على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب. فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياة العملية شغلتهم هذه الحياة عن التفكير في المسائل التي انصرفوا من قبل عن التفكير فيها. وظل اتجاههم الفكري في تياره الأول. ينظر إلى الجمود العقلي شفقا مزدريا. وينهل من ورد التفكير الغربي والفلسفة الغربية فيجد فيها لذة، ويزداد بها إعجابا وعلى ما نهل صدر شبابه منها حرصا»، السابق ص٢٨-٢٩

(١) «وليس ريب في أن الشرق اليوم في حاجة أشد الحاجة إلى النهل من ورد الغرب في التفكير وفي الأدب والفن. فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامي وماضيه قرون من الجمود والتعصب غُشّت على تفكيره السليم القديم بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد. فلا مفر لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحي وثروة الماضي وتراثه العظيم»، السابق ص٢٩.

(٢) «ثم إن هؤلاء العلماء المسلمين والشيخ محمد عبده في مقدمتهم قد اتهموا بالإلحاد والكفر والزندقة فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام. ولقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر في نفوس شباب المسلمين المتعلمين. شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين، وإن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد كما أن الإيمان قرين الجمود. لذلك جزعت نفوسهم. وانصرفوا يقرأون كتب الغرب يتلمسون فيها الحقيقة اقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين...»، السابق ص٢٨..

(٣) «ومن الحق علينا للغرب أن نقول للغرب: إن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفسية في تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية قد مهد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزيدوا من هذه البحوث في تلك الدراسات، وأن يكونوا أكبر رجاء في الاهتداء إلى الحق. فهم أقرب بطبعهم إلى حسن إدراك الروح الإسلامي والروح الشرقي. وما دام التوجيه الجديد قد بدأ في الغرب فواجب عليهم أن يتابعوه، وأن يصححوا أغلاطه، وأن يبثوا فيه الروح الصحيح الذي يعيده إلى الحياة، ويصله بالحاضر، لا على أنه مجرد دراسة وبحث بل على أنه ميراث روحي وعقلي يجب أن يتمثله الوارثون، وأن يضيفوا إليه، وأن يزيدوا سنا ضيائه بما يزيد الحقيقة الكامنة فيه ضياء ونورا»، السابق ص٢٩.

والسيرة موجهة إلى الإنسانية كلها وليس إلى المسلمين وحدهم[1]. فالرسول إنسان. سيرته مثل سيرة معظم أصحاب الدعاوي الكبار. لذلك كانت ترجمتها إلى اللغات الأجنبية خير مدافع عن الإسلام ضد منتقديه[2]. ويمكن أن يقوم تحليل التجربة الإنسانية كبديل عن التحليل اللغوي للآيات القرآنية[3]. فالزواج من خديجة لحاجة الرسول إلى الأم الحنون، ومن عائشة لحاجته إلى الطفل الأنيس، ومن زينب بنت جحش لحاجته إلى الأنثى. فمحمد إنسان قبل أن يكون نبيا. وهو كثير التركيز على أنه بشر مثل باقي البشر، إنما يوحى إليه فقط.

وتقرأ السيرة من خلال مفهومين يحتاجهما الإنسان المعاصر الحرية والعدالة، الليبرالية والاشتراكية دون وهم التعارض بينهما كما هو الحال في الغرب بين الرأسمالية والشيوعية[4]. وتتغير الألفاظ والمعنى واحد مثل الإخاء فمحمد كان يسعى إلى الإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي[5].

وتستعمل بعض الألفاظ الحديثة المعبرة مثل امبراطورية[6]. كما تذكر مصطلحات أجنبية أخرى بلغتها الأصلية الفرنسية[7]. وتستعمل وسائل الدعاية الحديثة لنشر الدعوة الجديدة كما تفعل أساليب الدعاية الحديثة[8]. وتتكون من التخلص من الأفكار السابقة عن موضوع البحث، والبداية بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم

---

(١) «من أجل ذلك كان خليقا بكل من يتصدى للبحث في مثل هذا الموضوع أن يتوجه به إلى الإنسانية كلها لا إلى المسلمين وحدهم. فليست الغاية الصحيحة منه دينية محصنة كما قد يظن بعضهم بل الغاية الصحيحة منه أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال... وإدراك هذه الغاية غير ميسور إذا لم يهتد الإنسان إلى هذه السبيل بمنطق عقله ونور قلبه...»، السابق ص٦١.

(٢) قام بذلك المرحوم د. إسماعيل الفاروقي.

(٣) حياة محمد ص ١٩٤.

(٤) الإسلام والحرية، السابق ص١٢٦-١٢٧.

(٥) الإخاء أساس الحضارة الإسلامية، إخاء محمد والمسلمين، إخاء وعدل ورحمة، السابق، ص١٩٥-١٩٦، محمد والإصلاح الاجتماعي ص٨٧، الاشتراكية الإسلامية لا تلغي التملك إطلاقا، قاعدة اشتراكية مقررة ص٤٣٨.

(٦) الإمبراطورية الإسلامية الأولى، السابق ص١٧.

(٧) مثل Psychique ، السابق ص٤٠٤.

(٨) السابق ص١٣٢-١٣٣/ ١٤٧-١٤٨.

بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية. وهي الطريقة لتحرير الفكر[1]. وقد لجأ الرسول أيضا إلى سحر البيان باعتباره سلاح دعاية لدى قوم يؤثر فيهم البيان، «وإن من البيان لسحرا»[2]. وتقل ألفاظ التعظيم والتفخيم إلى الحد الأدنى مثل المدينة المنورة، على الأمكنة وليس على الأشخاص[3].

ولما كان التعصب الديني في الغرب تعصبا مسيحيا كثرت المقارنات بين الإسلام والمسيحية اعتمادا على المصادر المسيحية أو رواية القرآن لها، سواء في النشأة أو في العصر الحديث[4]. فالإسلام لا يفهم إلا في تاريخ الأديان المقارن ومصادره الرئيسية، اليهودية والمسيحية والحنيفية. ولا ضير من استعمال بعض المقولات المسيحية مثل الخلاص[5]. وتصف السيرة باستفاضة الصراع بين الإسلام والمسيحية إلى حد الاقتتال الذي بلغ الذروة في العصور الصليبية وفي الاستعمار الحديث[6]. ولم تظهر المسيحية فقط في الغرب بل ظهر أيضا الاستعمار والتبشير مما سببا العداء المتبادل بين الإسلام والغرب[7].

وبالرغم من أن القضية الفلسطينية كانت في بدايتها كان التركيز على اليهودية أقل من التركيز على المسيحية بالرغم من يهودية بعض المستشرقين. وصراع المسلمين مع

---

(١) «ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحديثة من شبه قوي. فهذه الطريقة العلمية، تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة لك في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية. فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر»، السابق ص١٣٢.

(٢) السابق ص١٤٩.

(٣) السابق ص١٨٦.

(٤) الإسلام والمسيحية، والمسلمون وعيسى، المسيحيون المتعصبون ومحمد المبادئ الأولية في الدينين، الخلاف بينهما، التوحيد والتثليث، مجادلة النصارى للنبي، مسألة صلب المسيح، الروم والمسلمون، كتاب المسيحية ومحمد، سبب الخصومة بين الإسلام والمسيحية، الجهل والتعصب، المسيحية لا تلائم طبيعة الغرب، حياة محمد ص١٨-٢٦. المسيحية والمجوسية بيزنطة وارثة رومية، الفرق المسيحية ص٦٧-٦٨ نشاط المسيحية، المسيحية واليهودية، تناحر الفرق المسيحية ص٧٧-٧٨.

(٥) السابق ص١٥٦.

(٦) السابق ص٢١٢-٢١٣.

(٧) السابق ص٢٧/ ٢٩.

اليهودية منذ انتشار الرسالة كان صراعا بين محمد وسلطة اليهود السياسية حتى انهارت في خيبر[1]. وأسس سلطة جديدة على أساس ديمقراطي وليس على أساس مذهبي أو طائفي أو قبلي[2].

ومن علامات الإصلاح عودة الأمة إلى مسارها في التاريخ، والتحول من عبادة الأصنام في الوثنية ومن النصرانية التي حرفت عقائدها واليهودية التي عصت أنبياءها إلى الإسلام دين الفطرة[3]. فالإسلام تطور طبيعي لمسار التاريخ في شبه الجزيرة العربية.

وبالرغم من تبني النموذج الليبرالي إلا أنه يُخرق بها لا يتفق مع مبادئه. فكيف لا يخضع العظماء للقانون باسم الليبرالية؟ وكيف يكون التشريع لقمع حرية الرأي له ما يسوغه؟ ولماذا تستثنى من الليبرالية بعض نتائجها وهي الحرية الجنسية وضرورة محاربة محلات العري؟ ولماذا يتضمن الانتساب لليبرالية محاربة البلشفية بالضرورة من الناحية الاقتصادية وبها مبادئ الإخاء والعدالة الاجتماعية وهي مبادئ إسلامية؟ ولماذا استثناء حرية الرأي من النموذج الليبرالي وهي أساسه؟[4].

٩- السيرة النضالية:

أ- «محمد رسول الحرية» لعبد الرحمن الشرقاوي (١٩٨٧م)[5]

وهو نوع أدبي جديد مثل «على هامش السيرة» لطه حسين. يحول السيرة إلى مجموعة من القصص القصيرة المتتالية، كل منها دراما مستقلة. ومجموعها تمثل دراما عامة هي حياة الرسول أي سيرته. تصور في مواقف إنسانية من أديب اعتمادا على تحليل التجربة

---

(١) السابق ص٣١٦-٣٢٢.

(٢) السابق ص٣٨٥.

(٣) السابق ص١٢٩.

(٤) السابق ص٢٦٤-٢٦٥/ ٣٨٦-٣٨٧.

(٥) عبد الرحمن الشرقاوي: محمد رسول الحرية، دار الهلال، القاهرة (د.ت.).

الإنسانية[1]. ونادرا ما يستعمل القرآن أو الحديث أو الشعر، والحديث أكثر[2]. فلا حاجة إلى حجة نقلية. وهو ليس مكتوبا للمسلمين وحدهم بل للمسلمين ولغير المسلمين. فالإنسان إنسان قبل أن يكون مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، مؤمنا أو كافرا[3]. هو كتاب محبة أي كتاب وجداني وليس سيرة تاريخية أو مجموعة أحاديث أو مغازي وسير[4]. يعرض الرسالة من خلال الرسول، والرسالة كجزء من تطور البشرية ويقظة الوعي الإنساني. هي حياة تكشف عن المصير والقدر[5]. توضع في إطار تاريخ الأديان والأنبياء السابقين[6].

يتكون من تسع وعشرين قصة قصيرة. يجمعها خيط واحد، سيرة محمد منذ الميلاد حتى الوفاة[7]. تتساوى في الكبر دون تركيز على الغزوات. الأسلوب أدبي مشوق. يساعد على الاستمرار في القراءة. ويخاطب الكاتب الشخصية التي يصفها ويعيدها إلى الحياة وفي مقدمتها الرسول وصحابته ويناجيه[8]. فالغاية التأثير في القارئ وجدانيا. قراءة السيرة مشوقة. فكل قارئ يتحد معها. فهي ليست تاريخا قديما ميتا بل تجربة حية

---

(١) «أنا لا أقدم كتابا جديدا في السيرة، فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة والحديثة، ولكني أردت أن أصور قصة إنسان اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم وأحلامهم، وكونت تعاليمه حضارة زاهرة خصبة أغنت وجدان العالم كله لقرون طوال». السابق (كلمة الغلاف).

(٢) الحديث (١١٣)، القرآن (٣٠)، الشعر (١).

(٣) «لسنا في حاجة إلى كتاب جديد عن الدين يقرؤه المسلمون وحدهم ولكننا في حاجة إلى مئات من الكتب عن التطور الذي يمثله الإسلام، كتب يقرؤها المسلمون وغير المسلمين. إنها محاولة أقدمها أولا إلى غير المؤمنين بمحمد راجيا أن يتناول القارئ مهما تكن عقيدته هذا الكتاب بنفس الروح التي كتبته بها»، السابق (ظهر الغلاف)».

(٤) إهداء ... إلى أبي الذي غرس في قلبي منذ الطفولة حب محمد، السابق ص٦.

(٥) السابق ص٧.

(٦) السابق ص٨.

(٧) هي: ولد الهدى، هذا اليتيم، إلى بيت الطاهرة، قم فأنذر، تلك الليلة من رمضان، طريق الخلاص، عصر العذاب، وبشر الصابرين، إلى بلاد الأعناب، قاتلوا الذين يقاتلونكم، رحلة المصير، نحو العزلة، متاعب جديدة، يوم التقى الجمعان، أول الانتصارات، صراع من الداخل، تمني العصيان، ولا تهنوا ولا تحزنوا، بدلا من الكراهية، والمنافقون أيضا، نحو معركة فاصلة، وهزم الأحزاب وحده، الصلح خير، تعالوا إلى كلمة سواء، قبل انفضاض المعركة، الفتح المبين، إذ أعجبتكم كثرتكم، نحو أمة واحدة، قال كلمته ومضى.

(٨) السابق ص٢١/ ٤٥/ ٩٤/ ١١٨/ ١٨٧.

معاصرة. ومع ذلك يقع أحيانا في النزعة التاريخية. سرد الحوادث بلا دلالة خاصة في الغزوات[1]. لا توجد فيه خلفاء بعد وفاة النبي ولا شمائل وخصائص تشخيصا للرسالة في الرسول.

وهناك أنماط من قصة المسيح وغيره من الأنبياء نسجت عليها حكايات الرسول مثل متابعة الرسول أبيه رافضا دعوة امرأة ، كما أخبر المسيح أمه أنه عند أبيه في المعبد بعد أن قلقت عليه[2]. والرسول ابن الذبيحين. ففي الذهن إبراهيم وإسماعيل أولًا ودخول الرسول المدينة على بغلة مثل دخول المسيح القدس على حمار[3].وشهداء المسلمين مثل شهداء المسيحية الأوائل[4]. ولم تكن ديانات مصر بعيدة، وقتل الكهان هيباتيا الحكيمة[5]. وتبدو الثقافة الغربية في الخلفية الشعورية لكتابة السيرة. فالتاريخ الميلادي وصف مكة كمركز للتجارة في القرن السابع الميلادي[6]. وعام الفتح مؤرخ بالميلادي[7].

ويبدو التحليل الاقتصادي للأوضاع في شبه الجزيرة العربية، مكة مركز القوافل بين الشرق والغرب. كما يحلل أوضاع اليهود وممتلكاتهم وحرفهم التي كانوا بها يسيطرون على جزء كبير من الدخل، الربا، وتجارة الخمور ولحم الخنزير. وهو ما حرمه الإسلام تقويضا لسلطتهم الاقتصادية[8]. ويظهر التحليل الطبقي للمجتمع المكي، ويتم التركيز على المستضعفين الذين أول ما نصروا الدعوة الجديدة[9]. فقد كان يقتلهم الأسياد ويعذبونهم. وكانوا يستغلون الفقراء والعبيد[10]. يعاملونهم كقطعان الأغنام. وكان

---

(١) السابق ص٢٥٧-٢٦٦.
(٢) السابق ص١٢/ ٣٢.
(٣) السابق ص١٥٢ .
(٤) السابق ص٨٦.
(٥) السابق ص٥٤.
(٦) السابق ص١٣ .
(٧) عام ٦٣٠م، السابق ص٣٠٥.
(٨) السابق ص١٤ .
(٩) السابق ص١٣٨-١٤٠/ ١٤٥-١٥٢.
(١٠) السابق ص١٦/ ١٩/ ٢٨-٢٩/ ٣٨/ ١٢٠.

الربا مصدر ثروة لأغنياء مكة[1]. والرسول فقير يدافع عن الفقراء، إفراز طبقته. سمى العبيد موالي أو خدما أو فتيان[2]. ودافع عن حلف الفضول لنصرة المظلوم على الظالم وأخذ حقه منه[3]. بدأت الدعوة صراعا بين الأغنياء والفقراء، بين السادة والعبيد، بين الأشراف والمستضعفين[4].

أتى الرسول بدين اجتماعي يساوي بين الناس[5]. كان يريد تقريب الفوارق بين الطبقات[6]. يشاركون في الماء والكلأ والنار أي في الزراعة والصناعة[7]. والعمل مصدر القيمة. فمن يعمل لإطعام آخر أعبد ممن يعبد الله في مسجد. يرفض الاحتكار[8]. ورسالة الإسلام هي الحرية والمساواة[9].

وتظهر الدعوة الجديدةوسط الدعوات المتشابهة عند الشعراء والكهان والرهبان. فقد كانت الحاجة إليها قد نضجت. والعرب يبحثون عن طريق للخلاص[10]. وربما

---

(١) السابق ص٣٩.

(٢) مثل زيد بن حارثة ص٥٢/ ٦٢.

(٣) السابق ص ٥٥.

(٤) السابق ص٨١، يقود الأغنياء أبي لهبة بو سفيان ص٨٥ .

(٥) «من يسر على معسر في الدنيا يسر عليه في الدنيا والآخرة»، «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»، «من يفرج عن معسر تستجاب دعوته وتفرج كربته»، رسول الحرية ص١٦١، «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالقائم بالليل الصائم بالنهار»، السابق ص٢٢٩.

(٦) «كان يريد أن يقرب الفوارق بين الأغنياء والفقراء فلا يصبح المال للأغنياء وحدهم﴿وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾»، السابق ص٢٤٣.

(٧) «الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»، السابق ص٢٨٢، «ما آمن بي من يأت شبعان وجاره طاو» ص٢٩٠ «أي رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله»، «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له»، «من كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له فلا حق لأحد منهم في فضل»، «من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، السابق ص٢٩١.

(٨) «المحتكر ملعون»، السابق ص٣٤٣.

(٩) السابق ص٣٥٢.

(١٠) السابق ص١٦/ ٢٢/ ٢٩ ومنهم ورقة بن نوفل، عبد الله بن جحش، عثمان بن الحويرث، زيد بن عمرو ص٣٤-٣٧. لذلك قال الرسول «زيد بن عمرو كان أمة واحدة» ص٣٨. ومنهم أبو بكر ص٤٧-٤٩، وخالد بن سنان ص٥٠. قال الرسول لخديجة «يا خديجة، لقد خشيت أن أكون كاهنا أو يكون بي جن»، ص٦٤-٦٥.

هو دين إبراهيم، الحنيفية. والملائكة والجن من عقائد العرب. كان الرسول يحلم بأن يعيش في عالم أفضل. تكشف عن الدين الطبيعي وحياة الفطرة مثل رفض ذبح الابن وإلا لما بقي من البشرية أحد[1]. ورفض البعض عبادة الأصنام وظلم الآلهة[2]. وكان بعض الشيوخ يرفضون الخمر ووأد البنات[3]. ولا تحتاج السيرة إلى معجزات، شق الصدر في الطفولة مرة أو مرتين أو نزول الحجر الأسود من السماء[4]. ويظهر الرسول إنسانا بشرا لا يحب الإطراء «لا تطروني»[5].

وظهر الإسلام على أنه دين قومي للعرب. يوحدهم ويحررهم من سيطرة الفرس شرقا والروم شمالا. فمكة لا تدين لملك[6]. ويُعبر عن ذلك حتى بلغة الغزو والغنائم. ويظهر لفظ الوطن والمواطنين[7]. كما يظهر لفظ الدولة[8]. وتظهر الرسالة في آخر عنوانين «الناس أمة واحدة»، «قال كلمة ومضى»[9]. ووحدة الدين هو الطريق إلى وحدة الوطن[10].

---

(١) السابق ص٩.

(٢) مثل أمية بن أبي الصلت، السابق ص٢٩/ ٥٠.

(٣) السابق ص٦٣/ ٧٦.

(٤) السابق ص٥٦.

(٥) السابق ص١٥٦ «هون عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في مكة»، السابق ص٢١٣، «إنما أنا بشر مثلكم»، ص ٣٤٦-٣٤٧، «يا أيها الناس لا ترفعوني فوق مكاني، لا تطروني، إنما أنا بشر مثلكم، وإني لأكره أن أتميز عليكم»، ص٣٤٥.

(٦) السابق ص٣٥، «لو أنه وجد قوما ينصرونه ويؤيدونه فمن الممكن أن تتحرر هذه الجزيرة كلها من سيطرة الأغراب، ويصبح العرب كلهم أمة واحدة. يؤمنون بنفس الأشياء، ويفرضون وجودهم ومستقبلهم على الأكاسرة والقياصرة»، «أرأيتم أن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يؤتكم الله أرضهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم»، السابق ص١٢٥.

(٧) «ستة أعوام بأسرها لم ير خلالها أرض الوطن... لم يتصل بينه وبين مواطنيه في مكة»، «هذان الغريبان الصغيران(الحسن والحسين) ولدا ونقلا أول الخطوات بعيدا عن أرض الوطن»، السابق ص٢٦٧-٢٦٨.

(٨) «وضم الهدايا إلى خزانة الدولة»، السابق ص٢٨٨.

(٩) السابق ص٣٢٨-٢٥٤.

(١٠) «لا يبقى في الجزيرة دينان»، السابق ص٣٤٩، «وقهروا كل الحاميات الرومانية. وحرروا القبائل العربية هناك من حكم الرومان. وأعلنت تلك القبائل إسلامها»، السابق ص٣٣٧.

ب - «محمد الثائر الأعظم» لفتحي رضوان (١٩٨٨م)[١]

وهو الطبعة الثانية من «محمد» مع مقدمة جديدة حول دور الدين في تطور المجتمعات. تشمل ثلاثة موضوعات: حاجة الناس إلى الدين، كيف نشأ الدين، الدين ثورة وكفاح[٢]. وتضاف خاتمة جديدة تشمل الوحي والرسالة سلاح الحب، هجرتان، صحابة الرسول، الشباب المقدس[٣]. والموضوعان الرئيسيان اللذان في الطبعتين الأولى والثانية: «ما أطيبك ميتًا»، و«ما أطيبك حيا»[٤]. والكتاب تفسير صغير لهاتين العبارتين ولما تثيره في النفس من خواطر حول الدين وطبيعة التدين[٥]. فالإنسان في حاجة إلى التدين لرفع معنوياته ومساعدته على التقدم. وهو ما صرح به نهرو أيضا في سيرته الذاتية. واعترف بذلك باحثون غربيون. إنما العيب في السلطة الدينية كالكنيسة وفي رجال الدين. لذلك فشلت الكنيسة في الغرب وثار المفكرون الأحرار عليها. وكما يحيل إلى بعض الكتاب الغربيين يستشهد أيضا بسيد قطب في «معركة الإسلام والرأسمالية» على دور الدين في نهضة الأمم[٦]. لم ينشأ الدين بدافع الخوف كما يقول بعض العلماء الغربيين أو من عجز اللغة وضرورة استعمال المجاز أو من المحرمات. إنما الدين ثورة وكفاح ضد الحكومة الدينية، والتزام بقضايا الحياة دون القعود عنها[٧]. لذلك كره الشيوعيون الدين لأنه أفيون الشعوب، وإحدى وسائل الاستغلال. الإنسان في حاجة إلى قوة تساعده على تحقيق مصالحه. يجدها في الدين. فالدين إحدى ضرورات الحياة، أشبه بالالتزام السياسي. والمؤلف مفكر وطني من أبناء ثورة ١٩١٩. يأخذ لحظات من تاريخ الرسول وينفعل بها ويعبر عنها على نحو إنساني، بلا عقائد أو عبادات. لذلك يسهل ضم «محمد الثائر الأعظم» إلى السيرة الأدبية أيضا. يعتمد على القرآن والحديث والشعر، والحديث أكثر.

---

(١) فتحي رضوان: محمد الثائر الأعظم، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

(٢) السابق ص٩-٦٨.

(٣) السابق ص١١١-١٨٦.

(٤) السابق ص٦٩-١١٠.

(٥) السابق ص٧.

(٦) السابق ص٢٣.

(٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، السابق ص٥١-٥٢.

جـ- «محمد والقوى المضادة» محمد أحمد خلف الله(١٩٩٩)[1]

هي رؤية عصرية للسيرة، الرسول في خضم معاركه ضد القوى المضادة. وقد كان في الأصل رسالة ماجستير بديلة قدمت لآداب القاهرة عام ١٩٤٢م بعنوان «جدل القرآن» بدلا من رسالة «الفن القصصي في القرآن الكريم» تحت إشراف أمين الخولي والتي رفضتها السلطات الجامعية التي كانت ترى أن النص تطابقه أشياء، ويفسر حرفيا طبقا للمحافظين وليس نصا بلاغيا يعتمد على الصورة الفنية والتمثيل وفن القصص وهي فنون البلاغة العربية. ويحال أحيانا إلى الرسالة الأولى[2]. وتغيرت مواقع فصول الكتاب والعرض وأسلوب التناول[3]. كما تغير محور العصر من الاهتمام بالحقائق العلمية إلى الاهتمام بالحقائق الاجتماعية. فتغير العنوان يدل على وعي اجتماعي أكثر عند المؤلف وعلى ازدواجية روح الأربعينيات، الثورة الأدبية والثورة الاجتماعية. نشر في السبعينيات في نهاية العصر القومي الاشتراكي. وهي قراءة عصرية حديثة للسيرة تكشف عن الأوضاع الاجتماعية للعصر وتطلعه نحو الوحدة والاشتراكية والوحدة. تنظر إلى السيرة كصراع اجتماعي بين قوتين اجتماعيتين، التقدم التي تمثلها النبوة والبيئة الجاهلية التي تمثل التخلف[4].

ويتضمن الكتاب ثلاثة أقسام. الأول «مشكلات ثلاث»: النبوة والتوحيد والبعث. وهي مشكلات عقائدية تقليدية كانت مهمة في عصرها في الحوار، موضع خلاف.

---

(١) الدكتور محمد أحمد خلف الله: محمد والقوى المضادة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣م.

(٢) السابق ص٣٠٧/ ٣٤٧.

(٣) «هذا الكتاب هو البحث الذي قدمته لكلية الآداب لنيل درجة الماجستير، ونلت به الدرجة المذكورة برتبة الامتياز من مرتبة الشرف من الطبقة الأولى. وكان ذلك في عام ١٩٤٢. وهأنذا أقدمه للناس بعد ثلاثين عاما من كتابته. لقد حدث فيه تغيير طفيف. لقد كان اسمه «جدل القرآن». وهأنذا أقدمه للناس تحت اسم جديد هو «محمد والقوى المضادة». إن المعنى واحد، فالقوى المضادة ليست إلا الطرف الثاني في الجدل. إنهم الذين كانوا يجادلون محمدا عليه الصلاة والسلام. والسر في تغيير العنوان هو أن العنوان الجديد أليق لهذا العصر الذي نعيش فيه، ذلك العصر الذي يعني بالقوى البشرية عنايته بالحقائق العلمية. إن العنوان الأول يحقق قيمة منطقية أو فلسفية. والعنوان التالي يحقق قيمة اجتماعية في عصر تعني فيه كل العناية بالظواهر الاجتماعية والقوى البشرية»، السابق ص٧.

(٤) السابق ص٦١.

وقد استقرت الآن. ولم يعد أحد يشك أو يشكك فيها. لذلك قد تتغير موضوعات الحوار إذا أخذ المنهج القرآني ليطبق في عصر آخر[1]. والنبوة بالمعنى الحديث هي القيادة الشعبية. وهي اختيار إلهي أكثر منها تلبية لواقع تاريخي بالرغم من التفسير الواقعي الاجتماعي التاريخي[2]. ومع ذلك يظهر التفسير الواقعي الاجتماعي التاريخي بين الحين والآخر. فالدعوة لها بعد اجتماعي[3]. وهو القضاء على المجتمع القبلي القائم على الحرب، غالب ومغلوب إلى مجتمع موحد إنساني. والذين يعتقدون بالشفاعات هم أصحاب الامتيازات الطبقية[4]. وليست المعجزات دليلا على صدق النبوة لا يعتمد النبي على معجزة بل على قدرته لتحقيق الصالح العام[5]. مهمتها القضاء على النفوذ والسلطان للقيادات الحديثة والدينية في المجتمع العربي عامة والمكي خاصة[6]. فالقوى المدنية نسبية زائلة، بالرغم من فتنتها للناس «لا قيمة لها عند الله». والقوى الدينية يؤمن الناس بها وبمنزلتها الخاصة وقدرتهم على توجيه حياة الناس. والنبوة بنت عصرها. والنبي ابن ظروفه، اليتم والفقر، والرجولة بنت الطفولة[7]. تظهر لأبناء الكادحين وممن يولدون في الأزقة والحارات[8]. فالناس سواء في إمكانية النبوة واستعمال المنطق والحجة لا بسلطة القوة والقانون. ليسوا من قوم بعينهم كبني إسرائيل.

والثاني في الفرقاء في الجدل والحوار هم المنافقون وأهل الكتاب وهو أصغر الأقسام. المنافقون من داخل الدين، والمشركون من خارج الدين، وأهل الكتاب من خارج الإسلام. وتتفاوت درجات العداوة. الأولى المنافقون، والثانية اليهود، والثالثة المشركون، والرابعة النصارى أقلهم[9].

---

(١) السابق ص١٣-١١٧.
(٢) السابق ص٥/ ٧٥/ ١٠٧.
(٣) «إن هذه الآيات القرآنية تدعو إلى إحداث تغيرات جذرية في الكيانات الاجتماعية، التي يقوم عليها أساس النظام العشائري أو القبلي»، السابق ص٧٥.
(٤) السابق ص٩٩.
(٥) السابق ص١٥-١٧.
(٦) السابق ص٥٣-٦٧.
(٧) «أما أبناء الكادحين ممن يولدون في الأزقة والحارات أو على رمال الصحراء أو في أية بيئة شعبية فليس من منطق التاريخ أن يعنى بهم وينظر إليهم على أنهم أهل لرعايته ومحل لاهتمامه»، السابق ص١٤.
(٨) السابق ص٤٤-٤٦.
(٩) السابق ص١٢١-١٥٦.

والثالث الغايات والوسائل وهو أكبر الأقسام، وسائل المشركين، ووسائل أهل الكتاب، ووسائل الرسول الدينية والعلمية والأدبية[1]. ومنها الجهاد والاستنفار[2]. وأهم الوسائل الظواهر الاجتماعية أو التجربة التاريخية أي سنن الله في خلقه. فهذا الكون يجري على سنن مضطردة منها نهاية المعارضة للحق وانتصار الحق على الباطل. فهو مشاهد بالتجربة والاختبار. وثبت بالاستقراء، تعلم الإنسان الشئون العامة[3].

والموضوع ليس الرسالة ولا الرسول بل القرآن، الرابط بينهما وكيفية الحوار مع الخصوم. فالقرآن يحاور الخصوم أقرب إلى الرسالة من الرسول[4]. ومع ذلك فالقرآن يركز على الرسول أيضا، ليس فقط بشخصه بل برسالته وضرورة طاعته. ويعتمد على ثقافة البطل في الثقافة العربية. ومع ذلك فالقرآن ليس سيرة للرسول بل وصفا لبداية الرسالة وتطورها واكتمالها[5].

تكتب السيرة أولا كمقدمة[6]. وأهم علامتين في الطفولة اليتم ورعي الغنم والاشتغال بالتجارة[7]. فالنبوة دفاع عن اليتامى وأقرانهم. ورعي الغنم رعاية أمة[8]. ومازال التشخيص في الرسول «محمد والقوى المضادة» مع أن العنوان الأول «جدل القرآن» كان يحقق وحدة الرسالة والرسول. والرسول ليس إلها ولا ملاكا ولا روحا خفية ولا هو بشر مؤيد بالآيات والمعجزات بل هو بشر مثل باقي البشر[9]. يأكل الطعام ويمشي في الأسواق[10]. وتكتب سيرة الرسول طبقا لمراحل حياته من الطفولة

---

(١) السابق ص١٦١-٣٤٨.

(٢) «لا هجرة بعد الفتح لكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»، السابق ص٢٠٣.

(٣) السابق ص٢٨٩-٣٠٧.

(٤) السابق ص١٦٢.

(٥) السابق ص١٥.

(٦) السابق ص١٦.

(٧) «ما من نبي إلا ورعي الغنم»، السابق ص٢١.

(٨) «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته. وكلكم راع ومسئول عن رعيته»، السابق ص٢٢.

(٩) السابق ص٣٤-٣٦.

(١٠) ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا، أَوْ

إلى الشباب إلى اكتمال الرجولة طبقا للتخطيط الأول لابن إسحق وابن هشام. وهو التاريخ المختار لكتابة السير الذاتية عند علماء النفس خاصة علم النفس التربوي[1].

وقد يقال إن العنوان القديم به لفظ «جدل» أو الجديد به تعبير «القوى المضادة» يوحي بالانتساب إلى أيديولوجية معينة مثل الماركسية التي تبرز أهمية الجدل الاجتماعي. وهو غير صحيح فلم تذكر الماركسية بل ذكرت الرأسمالية. كما أن الجدل أو القوى المضادة لا يحتاجان إلى الماركسية لإدراكهما لواقع في المجتمعات. ويتميز برؤية اجتماعية اشتراكية بحديثه عن الكادحين[2]. فهذا هو قانون التاريخ[3]. وتظهر المصطلحات الاجتماعية التي تدل على الانتساب الاجتماعي مثل اليتيم ودلالة كون الرسول يتيما. والقصة مع المعارضة موجودة في كل مكان لدى كل أصحاب الدعوات الجديدة، سنة الله في الخلق، في الماضي والحاضر، دينيا أم دنيويا[4]. وتفسر الأخلاق على أسس تجارية في المكسب والخسارة. وتظهر مصطلحات الاقتصاد مثل «رأس المال». وقد وثق أصحاب رأس المال بالدين الجديد وفي تصور آخر عارضوه لأنه ألب عليهم العبيد[5]. وكان

يُلقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا، انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا، تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، السابق ص٤٠-٤١.

(١) السابق ص١٤-١٥.

(٢) «أما أبناء الكادحين ممن يولدون في الأزقة والحارات أو على رمال الصحراء أو في أي بيئة شعبية وليس من منطق التاريخ أن يعنى بهم وينظر إليهم على أنهم أهل لرعايته وكل لاهتمامه»، السابق ص١٤.

(٣) «التاريخ أنما يترك هؤلاء ونشأتهم، ويدعهم يضيعون في زحمة الحياة ظنا منه بأنه لن يكون بينه وبينهم أي لقاء، ولكن هؤلاء قد يجبرون التاريخ على العناية بهم، ويدفعونه راضيا أو كارها إلى تسجيل كل وقائع حياتهم»، السابق ص١٤.

(٤) «لقد عرف عليه السلام ببعض الخصائص التي أكسبته ثقة الناس بما فيهم أصحاب رؤوس الأموال»، السابق ص٣٣.

(٥) «هذه هي قصة محمد عليه السلام مع القوى المضادة. وهي قصة توجد في كل زمان وفي كل مكان. توجد هذه القصة كلما دعا الدعاة الصادقون العاملون في سبيل الصالح العام، المدركون لما في المجتمع الذي يعيشون فيه من فساد، والعاملون بإخلاص بالسبل الموصلة إلى التخلص من هذا الفساد، والمحققة للحياة الأفضل في هذا المجتمع. إنها توجد كلما كانت هناك مرحلة حضارية جديدة تستلزم تغيرات جذرية وتستهدف غايات كبرى أهمها أن يعيش الناس في يسر ورخاء، وأن يمارسوا الحياة اليومية على أسس من قيم أخلاقية ودينية. وهذا الذي صورناه من موقف محمد بن عبد الله عليه السلام من المعارضة ليس إلا

أهل الكتاب من سكان المدينة من الطبقة الرأسمالية وهي طبيعة الأقليات النشطة[1]. وجاءت الدعوة للقضاء على النفوذ والسلطان للقيادات الدينية والمدنية في المجتمع العربي بوجه عام، والمكي بوجه خاص[2]. لذلك عادت الدعوة الجديدة المؤسسات الدينية، علماء الدين من الأحبار والرهبان والقساوسة والكهان والمؤسسات الرأسمالية من الأغنياء الأقوياء من التجار[3]. وما يمنع الإنسان من قبول الأفكار الجديدة الثروة الطائلة والغنى الفاحش والقوة المفرطة وسلطان العادات والتقاليد[4].

وتوضع الدعوة في خضم الصراع التاريخي بين القديم والجديد دفاعا عن الجديد ضد القديم[5]. للرسالة غايات بالرغم من المعارضة. وهي غايات اجتماعية أو الإصلاح، الإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، الأسرة والأمة والأخوة والحرية، والإصلاح السياسي في مسائل الأمن والخوف والحرب والسلم، وعلاقة المسلمين بغيرهم، والسياسة الدولية، والإصلاح المالي، أحوال الفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل، وتقديم دين يقوم على الفطرة والعلم والحكمة والحجة والبرهان، والحرية في الاستدلال وتخطئ الرجعية وتضرب التقليد[6]. ويواكب التغير الاجتماعي التغير الثقافي. وقد يخرج الصراع من حالة الحوار إلى حالة الحرب[7]. فليس الصراع سلميا دائما.

سنة الله في خلقه، ليس إلا الظواهر الاجتماعية التي تحدث مع كل قائد روحي عظيم في كل مكان تهيأت له فيه القيادة، وكانت التغييرات الجذرية ضرورة حياة. وما أشبه الليلة بالبارحة. فما نحن فيه اليوم ليس إلا مرحلة تغييرات جذرية في المجتمعات العربية. وما أعرضه اليوم من قصة لمحمد بن عبد الله عليه السلام من المعارضة ليس إلا التراث التاريخي المقدس الذي يجب أن نستلهمه في هذا المقام. إنه الصورة الصادقة للكيفية التي تمر فيها الدعوة الجديدة منذ أن تبدأ حركة سرية إلى أن تصبح حقيقة قائمة تشاهد بالعيان، ويؤمن بها كل إنسان»، السابق ص٣٤٩-٣٥٠.

(١) «ولقد كان أهل الكتاب من سكان المدينة من الطبقة الرأسمالية أيضا»، السابق ص٢٢٩.

(٢) السابق ص٥٣.

(٣) السابق ص٢٩٨.

(٤) السابق ص١٤١-١٤٥.

(٥) «وانتصار الجديد على القديم، الجديد الذي يحقق الصالح العام على القديم الذي أصبح غير صالح للحياة سنة أخرى من سنن الله في خلقه. ولا يكون إلا بعد جهد ومشقة ويأس ومعاناة»، السابق ص٣٠٥.

(٦) السابق ص١٦٢-١٦٤.

(٧) السابق ص٢٣٨ «كان لابد من الحرب للقضاء على هذه الصراعات القائمة في أرض الجزيرة»، السابق ص٢٤١.

وينتسب المؤلف إلى المدرسة الإصلاحية، الأفغاني ومحمد عبده ورشيد طه. ويعطي للأخيرين لقبيهما، الأستاذ الإمام، وصاحب المنار[1]. ويستعمل أيضا منهج النص. ويستشهد بأقوالهما ليبين استمرار المدرسة وعدم انقطاعها في مواجهة الاتجاهات المحافظة. ويشار إلى تفسير المنار[2].

هي قراءة عصرية للسيرة لما كان الصراع من حولنا وفي داخل أوطاننا وفي داخل أنفسنا[3]. ولما كانت الحرية مطمع العصر فقد أتت الرسالة لتحرر الإنسان والبشر[4]. ولا حرج من قراءة سياسية للسيرة في عصر تدعي فيه نظم الحكم أنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. هناك ثوابت ومتغيرات في الدين. وإعطاء الأولوية للثوابت على المتغيرات تقليد وتزمت. وإطلاق الأولوية للمتغيرات على الثواب كرد فعل تحرر. الثوابت المبادئ العامة التي تسمى العقائد وهي ثلاثة التوحيد، والبعث، والعمل الصالح. والخلق متضمن في البعث. وما دون ذلك فمن المتغيرات[5]. ويتم التعبير عن السيرة بمصطلحات الفكر السياسي الحديث. فالهجرة هو اللجوء السياسي[6].

وبالرغم من طابعه التقدمي إلا أن الكتاب مازال تقليديا في جوهره، كاتبه شيخ ودرعمي. الغاية منه الوعظ والإرشاد، وبيان حسن منطق القرآن، وتهافت منطق الخصوم. ويغيب الحس النقدي أحيانا في الموقف من الشفاعة. ويُكتفى بوصف تحولها

(١) محمد عبده، السابق ص٢٠/ ٢٥/ ٤٨/ ٨٢/ ١٤٨/ ١٥٠/ ١٦٥-١٦٦/ ١٩٨-١٩٩/ ٢٢١/ ٢٢٣/ ٢٣٣/ ٢٣٥/ ٢٤٤-٢٤٥/ ٢٨١/ ٢٩٠/ ٢٩٥/ ٣٠٤/ ٣٠٦، رشيد رضا، السابق ص٢١. ٦١/ ٢١٩/ ٢٤٢.

(٢) السابق ص٢٨٤-٢٩٠.

(٣) السابق ص١٧٤.

(٤) «والمعنى بتعبير هذا العصر: ويكون الدين حرا أي يكون الناس أحرارًا في الدين لا يكره أحد على تركه إكراها ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيبا»، السابق ص٢٤١.

(٥) السابق ص٢٦١ «أما غير هذه الثلاثة فيصح فيه الاختلاف، ويقع فيه التغيير والتبديل من حيث إنه مرتبط بحياة الجماعة ونحن نعلم جميعا أن المجتمعات في حالات تغير مستمرة. والمولى سبحانه وتعالى قد أحدث تغييرات في الأديان المتعاقبة. ومنها تغييرات وقعت في ميدان العبادات وفي ميدان الحلال والحرام»، السابق ص٢٦١-٢٦٢.

(٦) السابق ص١٩٥-٢٠٣.

من الآلهة المتعددة إلى الإله الواحد[1]. وهناك موقف المعتزلة القدماء أكثر تقدما في نقد الشفاعة والبشارة دفاعا عن قانون الاستحقاق.

وبالرغم من المنهج الإصلاحي التجديدي إلا أن منهج النص هو الغالب، النص يتحدث عن نفسه دون ما حاجة إلى تحليله لغويا أو معنويا أو سياقيا اجتماعيا فيما يتعلق بأسباب النزول. وأحيانا يطول النص فيتقطع كل جزء على سطر مع ألفاظ «قل»، «قال» لبيان منطق الجدل في القرآن. وتتوالى الآيات تباعا، واحدة تلو الأخرى كما هو الحال في المؤلفات السلفية مثل ابن تيمية دون تنظير. فالنص كاف ومكتف بذاته[2]. في كل مشكلة البدأ بآيات القرآن وكأنها موضوع، وآيات طويلة وكأنها مستفادة من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. يبدأ بالقرآن كمسلمة دون تأسيسها في العقل أو في الواقع أولا. لذلك يغيب أحيانا الجانب العلمي العقلي التاريخي. وتبدو الدراسة وكأنها مجرد شرح لنصوص. ويغلب القرآن على الحديث. ويغيب الشعر[3]. في القرآن حياة محمد وسجل لمعاركه. والحديث لا يمكن استعماله لأنه لا تكتب سيرة من أقوال صاحبها. فذلك وقوع في الدور. وقد يكون المنهج النصي جزءا من آليات التخفي كدرع لحماية المؤلف من اتهام المجتمعات المحافظة بالتكفير كما حدث في «الفن القصصي» هو وأستاذه. وتعتمد السيرة على كتب التفسير مادامت تعتمد على المنهج النصي، وعلم التفسير هو الموكول به تفسير النصوص. فيحال إلى الزمخشري صاحب الكشاف والرازي والقرطبي وصاحب فتح البيان[4]. وأحيانا يحال إلى مجموع المفسرين على العموم[5]. ويجمع كتاب السيرة من المفسرين. ويحضر الموروث ولكن على نحو خافت مثل إخوان الصفا باستثناء المفسرين[6]. وبالإضافة إلى المنهج اللغوي البلاغي يضاف المنهج النفسي في تحليل عواطف الأطراف في الجدل أو في الحوار. وهو ما يسمى

---

(١) «وأثبت القرآن الكريم أن الشفاعة لله جميعا. ولا يشفع عنده أحد إلا بعد إذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له، ص٨٥-٨٩»، السابق ص٨٥-٨٩.

(٢) الآيات حوالي ألفين، والحديث ثلاث مرات والشعر مرة واحدة.

(٣) محمد والقوى المضادة ص٢٩-٣٠/ ٨٧-٨٨/ ١٢٤/ ٢٨٥-٢٨٧/ ٣٢٥-٣٢٦.

(٤) السابق، الرازي ص٣٤/ ٤١/ ٣١٤/ ٣٢٥/ ٣٣٩، الزمخشري ص٣١٥/ ٣٣٩، الطبري ص٣٦/ ٤٨/ ٣١٧، القرطبي ص٣٤٤، صاحب فتح البيان ص٣٤٣.

(٥) السابق ص١١٥/ ١٨٨.

(٦) السابق ص١٤٠/ ٢١٥.

في المناهج الحديثة المنهج اللغوي النفسي أو النفسي اللغوي[1]. فالخوف له بعد نفسي[2]. يحلل القرآن الانفعالات، ويصف الطبيعة البشرية. الخوف مع التخويف، والوعد مع الوعيد، والاستسلام لشواهد الحس، والسيادة أو السيطرة والتهكم والتنفير، وإثارة الانفعالات السارة أو المؤلمة، والتوكيد والتكرار، واستعمال القصة وضرب المثل[3].

ولا يظهر الوافد الغربي ظهورا مباشرا إلا نادرا في موضوع واحد وهو التفسير النفسي للشخصية، والاعتماد على التحليلات النفسية، والكشف عن البواعث والدوافع في السلوك الإنساني اعتمادا على جوستاف لابون(لوبون). فمن العوامل النفسية المؤثرة في السلوك الإنساني المصلحة الشخصية، والحسد، والغضب والكبر أو الاستكبار والعناد. كما يحلل أثر الانفعالات السارة أو المؤلمة والأساليب النفسية في الإقناع مثل التوكيد والاقناع وضرب المثل والقصة . وهي موضوعات الفن القصصي في القرآن الكريم. وصلة العواطف والانفعالات بالأفكار صلة قوية. وهناك عالم الغرائز عند ماكدوجال ومنها غريزة التدين التي تقوم على ثلاث غرائز أخرى الإعجاب والرعب والاحترام[4]. ويقارن الإسلام بالبروتستانتية[5].

ويخاطب الكاتب القارئ لإبلاغه الرسالة مباشرة[6]. وأحيانا يتحول التحليل العلمي إلى خطابة ووعظ[7]. كما يتحول إلى شعارات ومبادئ أخلاقية وتوصيات وتمنيات[8].

---

(١) Psycho-linguistic.

(٢) «والقرآن يصور من هذه الظواهر النفسية(الخوف) الشيء الكثير»، السابق ص٣١٢/ ٣٣٨، «لقد سجل القرآن الكريم كل شيء حتى هذه الخواطر التي عمل القرآن نفسه على القضاء عليها وهي لا تزال في المهد»، السابق ص١.

(٣) السابق ص٣١٢-٣٤٨.

(٤) السابق ١٤٦-١٥٦/ ٢٣٢/ ٢٣٣/٣٤٨.

(٥) السابق ص ٣٠٩ «ومن الغلو في هذه المسألة نبتت مسألة الإصلاح الديني، إذ قام البروتستانت وقالوا: هلم بنا نترك هؤلاء الأرباب من دون الله ونأخذ الدين من كتابه ولا تشرك معه في ذلك قول أحد»، السابق ص١٦٦.

(٦) «ثم انظر إلى قوله تعالى...»، السابق ص٣٣٨.

(٧) «إنها دعوة إنسانية، وما أحوج الناس إلى تحقيق هذه الدعوة اليوم قبل الغد»، السابق ص٨٤.

(٨) «إن القوة بدون عدل ظلم، وأن العدل بدون قوة عجز، ولا بد من العمل على أن يصبح العادل قويا، والقوي عادلا»، السابق ص١١٦ «إن ما نراه في حياتنا الدنيا ليس إلا القوة التي تفوق حاجة العدل، وإلا

١٠ - السيرة النقدية التاريخية:

أ - «فترة التكوين في حياة الصادق الأمين» لخليل عبد الكريم(٢٠٠٢)[١]

ومن ضمن السير الجديثة مع السير الحضارية الشاملة، والسيرة الأدبية، والسيرة الليبرالية، والسيرة النضالية هناك السيرة النقدية التاريخية التي تعتمد على نقد الروايات والمصادر التاريخية القديمة لتكشف عن الدوافع وراء روايتها من أجل تكوين تاريخ مصطنع كما هو الحال في معظم روايات الكتب المقدسة السابقة، التوراة والإنجيل. فالتاريخ عمل إنساني، وصياغات من صنع الخيال أو تدوين من أجل تحقيق أهداف سياسية. لذلك يكثر ذكر المصادر في كل فصل وفي آخر الكتاب. فلا سيرة دون تاريخ. ولا تاريخ دون نقد للمصادر. بل أحيانا تتم المغالاة في نقد المصادر بحيث تصبح السيرة نتيجة لها وليست علما مستقلا بذاته[٢].

والمنهج النقدي التاريخي لا يهدف فقط إلى نقد المصادر بل أيضا بيان مراحل التطور أو«فترة التكوين» في حياة «الصادق الأمين» كما يدل على ذلك العنوان. فالتكوين في مرحلة الشباب قبل البعثة والرسول في سن الخامسة عشرة حتى سن الأربعين دون ولادة ورضاعة، ودون رعي أو تجارة، ودون هجرة أو غزوة، ودون فتح أو موت، تضخمت خمسة وعشرون عاما على حساب باقي مراحل السيرة. وكان يمكن للأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام أن تساعد على كشف بداية السيرة وردها إلى التاريخ. ويتضح ذلك من الفصل السادس بعنوان

العدل الذي لا يزال دون القوة المستمرة في ممارسة الحياة. وأما أنه السراج المنير فلأنه الذي يهدي الناس بأقواله وأعماله إلى الطريق المستقيم. إنه كالضوء الذي يهتدي الناس به في ظلمات الحياة. لقد جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. وهذا يكفي في الحديث عنه على أنه السراج المنير»، السابق ص١١٦-١١٧.

(١) خليل عبد الكريم: فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ٢٠٠١.

(٢) فترة التكوين هوامش الفصول، ص٣١-٣٢/ ٧٩-٨٥/ ١٠٤-١٠٦/ ١٥٦-١٦٥/ ١٩٧-٢٠٢/ ٢٦٥-٢٧١/ ٣٩٦-٤١١، آخر الكتاب ص٤١٣-٤١٩.

«أطوار التجربة الكبرى»[1]. وكما ركزت بعض سير القدماء على المغازي والسير أو على المعجزات أو على الوفاة تركز هذه السيرة على فترة التكوين من الصبا إلى ما قبل البعثة خمسة وعشرين عاما. تحلل السيرة في العمق وليس في السطح، طوليا وليس عرضيا، جزئيا وليس كليا. وقد كثر الاعتماد على نقد نصوص التوراة والإنجيل، وهو شائع في الثقافة الغربية منذ عصر النهضة حتى الآن على مدى خمسة قرون. والتشابه في المصادر بين الكتب المقدسة السابقة ومصادر السيرة، القرآن والحديث، يدل على التواصل بين مراحل الوحي، السابقة واللاحقة. وليس الانقطاع على ما يدعو كُتاب السيرة القدماء بين الجاهلية والإسلام، بين الشرك والتوحيد، بين الانحراف والصدق. والسؤال هو: هل الكتب المقدسة السابقة، التوراة والإنجيل، مصادر للسيرة، أم أن القرآن والحديث مصدران للتعرف على اليهودية والنصرانية قبل أن يصيبها التحريف؟

ويعتمد منهج النقد التاريخي على عديد من العلوم الإنسانية: التاريخ والسياسة والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس. فالظاهرة الإنسانية ظاهرة مركبة وليست بسيطة. تتداخل فيها عوامل إنسانية عديدة وليس عاملا واحدا. الخطورة هو رد الظاهرة إلى عامل إنساني واحد أو إعطائه الأولوية على باقي العوامل مثل علاقة محمد بخديجة، أو خديجة بابن عمها ورقة أو علاقاته النسائية بوجه عام خاصة عائشة أو مركزية قريش أو طرق التجارة، وتطويله والتفصيل فيه. فيرد الكل إلى أحد أجزائه. والمنهج التاريخي التحليلي اللغوي هو أيضا منهج عقلي ولكنه قائم على العقل التاريخي وليس العقل النظري الخالص بمقاييسه في البداهة والاتساق.

ويمثل النقد التاريخي للمصادر شجاعة أدبية وفكرية لم تتعود عليها الثقافة العربية بعد. فما ظنته تنزيلا من السماء هو في الحقيقة تأويل من الأرض. ما تصورته نازلا من السماء إلى الأرض هو في الحقيقة صاعد من الأرض إلى السماء. وإن حدث ذلك في بعض السير فإنها تُستبعد بدعوى الإنكار، وتلصق بها تهم التكفير. فكل شيء نازل من السماء، ولا شيء صاعد من الأرض. مع أنه لا سماء بلا أرض، ولا تنزيل بلا تأويل، ولا نزول بلا صعود، ولا وحي بلا زمان ومكان ومجتمع ولغة وفهم وتفسير وجغرافيا وتاريخ[2].

---

(١) السابق ص٢٧٥-٤١١.

(٢) من النقل إلى العقل جـ١/ علوم القرآن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩، فترة التكوين ص١٠٢.

وفي نفس الوقت الذي يستعمل فيه كاتب السيرة المنهج النقدي التاريخي الذي أفاض فيه علماء تاريخ الأديان والمستشرقون محللين الإسلام كظاهرة تاريخية سواء في مصادره أو في تطوره ينقد الاستشراق للدلالة على أصالة الكاتب واستقلاله[1]. ويغفل المنهج التاريخي الدور الذي يقع فيه كتاب السيرة من أحاديث الرسول، وكأنه يكتب سيرته الذاتية أو حتى من القرآن الذي بلّغه الرسول. فالسيرة يكتبها آخرون، من مصادر غير صاحب السيرة.

ومن حيث الموضوع تتكون السيرة من ستة فصول: الأول زواجه بخديجة، والثاني خديجة الأم، والثالث الهندوز وهو الرئيس الجديد للعرب، والرابع التفرس في اليعسوب وهو الرئيس الكبير، والخامس موجبات الاختيار وهي قصص علامات ورواياتها مثل شق الصدر، وأخيرا السادس أطوار التجربة الكبرى وهي جدل الرسول مع قومه في بداية نشر الدعوة. وهو أكبر الفصول[2].

والهدف النهائي بيان أن النبوة من صنع ثلاثي قرشي، خديجة وابن عمها ورقة ومحمد من أجل تحول العرب من القبيلة إلى الدولة المركزية. هدفها سياسي. والدين مجرد وسيلة لتحقيقه. فالتاريخ يقوم على تآمر الأفراد، وما سماه الفلاسفة الخداع في التاريخ[3]. وقد استدعى ذلك إحاطة خديجة بهالة من القداسة. فهي الطاهرة. يذكرها محمد حتى وهو مع عائشة مما استدعى غيرتها. وهي أم أولاده. أم فاطمة سيدة نساء العالمين، وزوجة علي، ولي الله[4]. وتغفل السيرة دور محمد في البحث عن الحقيقة، وتحنثه في غار حراء، واستنكافه الطبيعي من عبادة الإصنام أو ذكر اللات والعزى وهبل، هو

---

(١) فترة التكوين ص١٨.

(٢) أ- هذا الشاب لابد أن أباعله ص٣٣-٨٦

ب- الأم الرؤوم ص٨٧-١٠٦

جـ- التحديق في الهندوز ص١٠٧-١٦٦

د- التفرس في اليعسوب ص١٦٧-٢٠٢

هـ- موجبات الاختيار ص٢٠٣-٢٧٢

و- أطوار التجربة الكبرى ص٢٧٣-٤١٢.

(٣) هو تعبير هيجل La Ruse dans l'histoire.

(٤) فترة التكوين ص١٠.

وغيره من الحنفاء في هذه الفترة. وهو ما كان يعبر موضوعيا عن بحث شبه الجزيرة العربية عن دين جديد غير اليهودية التي كانت دينا لليهود وحدهم، وغير النصرانية التي اختلطت عقائدها وشابها تأليه الأنبياء والتجسيم والتشبيه،ولا المجوسية التي كانت دينا قوميا لفارس. تغفل إمكانية تدخل الوحي في التاريخ منذ نوح حتى محمد بصرف النظر عن كيفية التصوير.

وتظهر الرغبة في الجدة في اللغة على مستوى الألفاظ غير المألوفة بالرغم من أنها ألفاظ عربية أصيلة. حداثة في المنهج و«قدامة» في اللغة. ويظهر ذلك حتى في عناوين الفصول وليس فقط في أسلوب التعبير. فالمقدمة «قيدام»، وجزء أو قسم «طيّة»، والتمهيد «فرشة» والرئيس «هندوز»، ورقة بن نوفل الذي تعرف على نبوة محمد «يعسوب»، يقوم بمهمته في التشبيك والترابط. واشتق فعل من اسم «بعل» أي زوج وهو «أباعل» أي أتزوج، وهو ما أرادته خديجة من محمد حتى تكتمل الحلقة الثلاثنية. وهناك فعل «فلج» الذي يعني بدأ[١].

وتستعمل أحيانا بعض الألفاظ المعربة إمعانا في الإيحاء بالجدية مثل «ثيولوجي»، «انتلجنسيا»[٢]. وقد أصبحت شائعة في لغة اليسار العلماني. ويراجع السير الحديثة ومواقفها. وينقد أسسها اللاهوتية أي العقائدية من أجل تجاوزها إلى سير نقدية تاريخية، وتحويلها من سير أسطورية إلى سير علمية. ويضعها كلها في صنف واحد، السير اللاتاريخية[٣]. وتُحسب الدراسة على مواقف العلمانيين أو التقدميين أو اليساريين الذين يرفضون السير العقائدية الأسطورية التقليدية[٤]. فهي سيرة أيديولوجية مضادة لسير المؤرخين القدماء أو الإصلاحيين المحدثين تعبر عن إيمان كاتبها[٥]. يحلل المجتمعات

(١) السابق ص١٠-١١/ ٦٣، بوبو ص٣٥.

(٢) «مثيولوجي»، السابق ص٩-١٠/ ٩٧، «أنتلجنسيا»، السابق ص١١/ ٣٨.

(٣) وهي سير طه حسين، محمد حسين هيكل، الخضري، بنت الشاطئ، عبد الوهاب حمودة، فترة التكوين ص٥٠.

(٤) المؤلف عضو بحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي.

(٥) فترة التكوين ص١٥.

الرأسمالية دون أن يقارن الإسلام بالاشتراكية في نشأته[1]. ويدعو كاتب السيرة لمشاركة القارئ معه. ويوجه له الخطاب[2].

والسيرة جزء من مشروع كبير عن إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بطريقة علمية نقدية تاريخية دون حرج حتى ولو وقع الصدام بينه وبين الدوائر التقليدية المحافظة في المؤسسات الدينية الرسمية[3]. يظهر في جميع الأجزاء المنهج التاريخي سواء في دراسة الشريعة الإسلامية أو في تحول قريش من القبيلة إلى المركزية كما أستدعته الظروف التاريخية، أو في العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع يثرب أو في العرب والمرأة في الأساطير القديمة أو في دولة يثرب في فترة الوفود أو في دراسة مجتمع الصحابة الواقعي وليس المثالي[4]. ولم يشذ عن ذلك إلا «الأسس الفكرية لليسار الإسلامي»[5]. وكلها لا تدور حول شخصية الرسول بل حول مجتمعه وبيئته.

ب- «قريش، من القبيلة إلى الدولة المركزية» لخليل عبد الكريم(٢٠٠٢م)[6]

وهي محاولة حديثة تتجاوز محوري الرسالة والرسول إلى الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي نشأ فيه هذان المحوران مثل قريش أو يثرب أو شبه الجزيرة العربية، وتجاوز نسب الفرد إلى نسب القبيلة. فالسيرة لا شخصية سواء من حيث الرسالة أو الرسول. فالرسالة كانت محاولة ناجحة لمحاولات سبقتها من اليهودية والنصرانية

---

(١) السابق ص٢٦.

(٢) «من له أذنان فليسمع، من له عينان فليبصر، ومن له عقل فليتدبر، ومن له فهم فليفقه، ومن له بصيرة فليدرك»، فترة التكوين ص٩٢.

(٣) فترة التكوين ص١٨.

(٤) أ- الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، سيناء للنشر، القاهرة ١٩٩٠

ب- قريش، من القبيلة إلى الدولة المركزية، سيناء للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٢م

جـ- الأسس الفكرية لليسار الإسلامي، القاهرة ١٩٩٥. مجتمع يثرب، العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدين والخليفي، سيناء للنشر. القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٧.

د- العرب والمرأة، حفرية في الأسطير المخيم، الانتشار العربي، بيروت، سيناء للنشر، القاهرة ١٩٩٨.

هـ- دولة يثرب، بصائر في علم الوفود. سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٩. وله أيضا «شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة»، فترة التكوين ص٦٣.

(٥) فترة التكوين ص٩.

(٦) خليل عبد الكريم: قريش، من القبيلة إلى الدولة المركزية، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت جـ١/ ٢، ١٩٩٧.

لتكون ديانة للعرب ولتوحيد شبه الجزيرة العربية، ولكنها لم تنجح. وكان الرسول أحد الحنفاء الذين يتحنثون في غار حراء باحثا عن دين جديد غير ما تعود عليه العرب مثل غيره من طلاب الحكمة والباحثين عن الحقيقة وهو الدين الطبيعي، التوحيد والبداهة العقلية والفضيلة الذي تمثل في حلف الفضول وفي صلح الحديبية فيما بعد[1]. فالوحي لا يأتي إلا إذا كان الواقع الاجتماعي مستعدا لاستقباله. كما لا يهبط المطر إلا في أرض خصبة وليس في أرض جرداء. أتى الدين كعامل مساعد على مساعدة مركزية قريش وتحويلها من قبيلة إلى دولة مركزية. بدأ بمعاداة مصالح صناديد قريش[2].

والمنهج النقدي التاريخي هو المتبع كالعادة بما له وما عليه. ايجابياته أنه يبين التواصل الاجتماعي والسياسي والثقافي في شبه الجزيرة العربية بين الجاهلية والإسلام، وأن لا شيء يأتي من فراغ. وسلبياته أنه قد يقع في التاريخانية أي رصد الوقائع بلا دلالة كما يفعل القدماء منذ «سيرة ابن هشام» إذ كانت السيرة إما جزءا من علم التاريخ أو من علم الحديث. والكتاب مهدى «إلى هؤلاء الذين يمارسون النقد التاريخي في أرجاء الوطن العربي بعيدا عن الأساطير وبروح موضوعية وإلى الأكاديميين الذين لا يخشون على مكاسبهم الشخصية أو على ما قد يصيبهم من متاعب، وإلى القلة الشجاعة التي لا تخشى من ممارسة هذا المنهج». ولا يستبعد المنهج التآمر في التاريخ ولا يثبته بل هو جزء من مكوناته[3].

---

(١) السابق ص٦٩-٧٠/ ١٥٦-١٦٣.

(٢) هم التجار الكبار والمرابون والنخاسون ومستغلو عرق العبيد والإماء، السابق ص٣٧٧.

(٣) «إلى الذين يؤرقهم الشوق إلى قراءة التاريخ العربي الإسلامي وهو مكتوب كتابة موضوعية بعيدة عن الحواجب التي تحجب العقل مثل العواطف الفجة والأساطير واللا ما ورائيات... الخ وإلى الأكاديميين الذين ينادون بضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي ولكنهم لا يفعلون إما حرصا على مكاسبهم التي هي في آخر المطاف عرض من الدنيا قليل وإما تحرزا من المتاعب التي سوف تلاحقهم لو أقدموا على ذلك، وأخيرا إلى القلة الشجاعة القابعة في مصر وعدن ودمشق وبيروت والجزائر وتونس التي بدأت تمشي في هذا الطريق الوعر الخطر غير عابئة بما فيه من أشواك بل ألغام والتي تصر على حمل مشاعل التنوير مهما كلفها ذلك من ثمن والتي تؤمن بأن الفجر حتما سوف يطلع مهما طال أمد الظلام، ومهما تحترس خلق ترسانات الثروات الأسطورية وسلطات الطواغيت الحاكمة التي تدرك أن بقاءها على عروشها رهن باستمرار الظلاميات»، قريش ص٧/ ١٣-٣١.

ويعتمد على الشعر أولا باعتباره تاريخ العرب وثقافتهم دون الاعتماد على القرآن والحديث إلا فيما ندر. وقد تُذكر أرقام الآيات دون الآيات نفسها اعتزازا بالمنهج التاريخي ورد فعل على الإيغال في المنهج النصي. فالمصدران النصيان كاشفان للتاريخ، والتاريخ مصدر لهما. وليسا هما مصدران للتاريخ. ويعتمد على بعض المصادر القديمة والحديثة. وقد يكثر الاعتماد على بعض ممثلي هذا الاتجاه النقدي التاريخي[1]. ويعتمد من التراث الغربي من بعض الكتب المترجمة[2].

وينقسم الكتاب إلى ثمانية أبـواب. تبين عوامل تحول قريش من القبيلة إلى الدولةالمركزية. الأول المقدمات الذاتية الخاصة بتاريخ قريش منذ تأسيسها على يد قصي ابن كلاب حتى حكومة ملأ قريش مرورا بخلفاء قصي، هاشم وعبد المطلب، مرورا بحلف الفضول. وهو أكبر الأبواب[3]. والثاني المقدمات الدينية وهي المحاولات التي تمت قبل الإسلام لتحقيق نفس أهدافه من اليهودية والنصرانية التي فشت في قبائل إياد وتميم وحنيفة والصابئة والحنيفية[4]. والثالث المقدمات السياسية وسيادة فارس وبيزنطة على أجزاء من شبه الجزيرة العربية واستقلال الحجاز التي لم يغزها أحد من الإمبراطوريات المجاورة[5]. والرابع المقدمات الاجتماعية التي تشمل التحليل الطبقي للمجتمع العربي إلى أغنياء وفقراء، والأعراب والموالي والصعاليك. وتبين سلطة شيخ القبيلة[6]. والخامس المقدمات الاقتصادية ومصادر الثروة كالمراعي والغنائم والحبالات، ومنها العشور والتجارة[7]. والسادس المقدمات الثقافية وما يكوّن الوجدان العربي كالشعر والخطابة[8].

---

(١) الشعر (٢٨)،القرآن (١).
(٢) مثل د. سيد القمني.
(٣) السابق ص٣٣-١٣٦.
(٤) السابق ص١٣٧-٢٣٨.
(٥) السابق ص٢٣٩-٢٨٠.
(٦) السابق ص٢٨١-٣١٨.
(٧) السابق ص٢١٨-٣٥٠.
(٨) السابق ص٣٥١-٣٧٤.

جـ- «دولة يثرب، بصائر في عام الوفود» لخليل عبد الكريم(٢٠٠٢م)[١]

وهو استمرار لنفس المشروع لكتابة تاريخ الرسالة والرسول وتجاوزهما إلى الواقع الاجتماعي والسياسي. ويستمر في تحول قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية إلى هذه الدولة نفسها في المدينة، واستقبال الرسول الوفود، ونشر الإسلام سلما لا حربا في الغزوات والسرايا. لا يذهب إلى الناس مقاتلا بل يأتي إليه الناس طالبين الهداية. ويقارن بعام فتح مكة، أي رضا واستسلام الناس، يقدم وفود إليه تمثل قبائل العرب أو يذهب مجموع المسلمين إلى مكة للحج والطواف. ومع ذلك تركز المقدمة على الرسول كشخص، سيرة ثرية شخصية معطاءة، ثائر قام بثورة من أهم ثورات العصور الوسطى. وهو مسار تاريخي غربي لا يتفق مع المسار الإسلامي، بنى دولة حكمت بعده طويلا، أربعة عشر قرونا، قائد محنك على رأس الجند، شخصية كاريزمية تؤثر في الناس، سياسي من طراز فريد ودبلوماسي، رجل واسع التجارب وعميق الخبرات، زوج لعديد من الزوجات من أعمار مختلفة. وهذا لا ينفي من دراسة موضوعية للسيرة من خلال الدين والثورة والدولة والتاريخ[٢].

ويستمر المنهج التاريخي في رصد الوفود، سبعين وفدا، حيث تظهر عيوب السرد بلا دلالة بطريقة القدماء عندما كانت السيرة جزءا من علم التاريخ. ويتم شرح أسماء الوفود لغويا. ويشتق اسم الوفود من اسم رئيسه أو من اسم جماعته. وعام الوفود من أهم معالم السيرة. فهو يغطي نصف المدة التي قضاها الرسول في يثرب، حوالي خمس سنوات، قمتها العام التاسع. يكشف عن عادات العرب وثقافتهم من خلال حوار الرسول مع الوفود. كانت وفودا سياسية قبل أن تكون دينية. وكان الرسول يلبي مطالبهم حتى يروا في الدين الجديد مصالحهم[٣]. وقد يغضب هذا المنهج الإسلاميين(الإسلامويين) والتقدميين(التقدمويين). يراه الفريق الأول خارجا عن السير التقليدية. ويراه الفريق الثاني غير رافض للمعجزات[٤].

---

(١) خليل عبد الكريم: دولة يثرب، بصائر في علم الوفود، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٩م.

(٢) السابق ص ٧-٩ .

(٣) السابق ص١٠-١٢.

(٤) السابق ص٣٩٥-٤٠٢.

ويعتمد على الشواهد النقلية القرآن والشعر والحديث[1]. القرآن أولا على غير العادة. ومع الحديث هناك بعض الرسائل المدونة[2]. كما يعتمد على بعض الإحالات في الفلسفة الغربية للدلالة على الانفتاح الثقافي والمنهجي[3]. يأتي بالنص القديم ثم يشرحه ويقرؤه ويؤوله. وتثار بعض التساؤلات حول دلالات بعض الوفود[4]. وتستعمل بعض المصطلحات الحديثة مثل الاستعمار والاستيطان للشعوب المجاورة أو بعض الوحدات السياسية الحالية مثل: الجامعة العربية، السوق العربية المشتركة، الوحدة السورية المصرية، مجلس التعاون الخليجي، الاتحاد المغاربي[5].

ينقسم الكتاب إلى بابين. الأول «البصائر الرأسية». وفيه سرد لأسماء ووقائع سبعين وفدا. وهو الأكبر[6]. والثاني «البصائر الأفقية» وهي الغزوات التي تمت في عام الوفود من أجل تصفية جيوب المقاومة أو الانسياح نحو الخارج حيث تتجلى المعجزات، وهو ما يتناقض مع المنهج التاريخي باعتباره منهجا علميا[7]. وهي بصائر أي رؤى وحدوس وربما وجهات نظر أو قراءة[8]. تحيل إلى بعض السير القديمة والحديثة[9].

والمحاولات الثلاث جزء من مشروع أعم يطبق فيه نفس المنهج التاريخي النقدي في «الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية» لبيان التواصل بين الجاهلية والإسلام ضد افتراض الفضيلة بينهما سواء في الشعائر التعبدية الموروثة من القبائل العربية أو الحنيفية أو الاجتماعية مثل الرقي والتعاويذ والعناية بالإبل وتعدد الزوجات والتفرقة بين العرب والعجم، والتمييز بين العرب والأعراب، والنظرة إلى الزراعة وأهلها أو أصل العشور

(١) القرآن (٣٢)، الشعر (٣)، الحديث (٢).
(٢) السابق ص١٠٢/ ١٣٧/ ١٥٦/ ١٦٦/ ١٧٥/ ٢٥٠/ ٢٨٨/ ٢٩١-٢٩٢/ ٣١٣.
(٣) مثل كاسيرر في كتابه «فلسفة الأشكال الرمزية»، دولة يثرب ص٣٨٥.
(٤) السابق ص١٠٩-١١٨/ ١٢٢-١٢٥/ ١٥٤/ ٥٦/ ٦٤-١٦٥/ ٢٥١/ ٢٩٦-٣٠٤.
(٥) السابق ص١٣٥-١٣٧.
(٦) دولة يثرب ص٣٥-٣٢٨.
(٧) السابق ص٣٢٩-٣٩٤/ ٣٦٦-٣٩٤.
(٨) السابق ص١٣-٢٨.
(٩) وهي خمسة: القديمة مثل: «الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر، «الروض الأنف» للسهيلي. «تاريخ الطبري»، «السيرة الحلبية». ومن المحدثين «خاتم النبيين» لأبي زهرة، السابق ص٢٦.

والاستجارة والجوار، وحرمة النسب، والاسترقاق أو الجزائية في العاقلة والقسامة أو الحربية في خمس الغنائم والسلب والصفي أو السياسية في الخلافة والشورى[1].

وفي «مجتمع يثرب، العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخليفي» يظهر المجتمع الإسلامي كغيره من المجتمعات في علاقة الرجل بالمرأة وحاجة كل منهما إلى الآخر خاصة لو غاب الأزواج عن الزوجات، والنظر والحب والعشق[2]. يهدف المنهج التاريخي إلى خلع لباس القدسية عن المجتمع الإسلامي، فالبشر بشر، صحابة أو تابعين. يتم التلاعب في تطبيق الحدود، وحق المرأة والرجل المتساوى في النكاح[3]. وطبقا لنفس موجة الحركة النسوية والاهتمام بالمرأة كتب أيضا «العرب والمرأة، حفرية في الأسطير المخيم» لبيان أن تصور المرأة باعتبارها ناقة وفرسة للركوب لم يتغير من العصر الجاهلي إلى الإسلام. صاحبة حركة عنيفة، ومظهر من مظاهر الطبيعة[4]. ويعتمد على اللغة العربية القديمة أكثر من علم الأساطير. فالمرأة للمتعة الجنسية وللخصوبة ولرعاية الأطفال[5].

د- «الحزب الهاشمي وتأسيس دولة الرسول» لسيد القمني[6]

وهو على نفس المنوال، تجاوز محوري علم السيرة، الرسالة والرسول إلى الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي نشأ فيه المحوران. فالرسالة والرسول لم ينشآ في فراغ، ولم يأتيا من فراغ. يبين المنهج التاريخي النقدي نشأة الرسالة بالتوازي مع مرحلة تاريخية لقريش وتأسيس حزب جديد فيها استطاع أن يحولها من قبيلة إلى دولة. وبالتالي

---

(١) خليل عبد الكريم: «الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية»، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٠م.

(٢) خليل عبد الكريم: مجتمع يثرب، العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين المحمدي والخليفي، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٧.

(٣) ونفس الشيء في «شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة».

(٤) خليل عبد الكريم: العرب والمرأة، حفرية في الأسطير المخيم، سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٨.

(٥) وله أيضا «الأسس الفكرية لليسار الإسلامي»، كتاب الأهالي، القاهرة ١٩٩٠. وهو خارج المنهج التاريخي كما يدل العنوان، مجرد تجميع لعدة مقالات صحفية جدلية مع باقي التيارات الأخرى خاصة الإسلاميين (الإسلامويين).

(٦) سيد محمود القمني: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٦٦.

تهتز القناعات الشائعة عن التاريخ «المقدس»، وتدخل الإرادة الإلهية في مسار التاريخ. ويظهر التاريخ «البشري» بعوامله المادية. فالمقدس له حامل بشري.

والاعتماد على علم تاريخ الأديان المقارن الذي ازدهر في الغرب وفي بعض الجامعات والمعاهد الدينية المسيحية المتصلة بالغرب[1]. وكما فعل طه حسين في نقل المدرسة الأسطورية في النقد التاريخي والتي نشأت في ألمانيا عند شتراوس تحت تأثير هيجل في القرن التاسع عشر، وامتدت إلى فرنسا في أوائل القرن العشرين، وتطبيقها على الشعر الجاهلي. هي دراسات معروفة في الغرب نتيجة للبحث العلمي وتقدم المنهج التاريخي، وجديدة في الوطن العربي الذي ينظر إلى التاريخ باعتباره مقدسا من صنع الله وتخطيطه[2]. كما يعتمد على بعض المحدثين الذين حاولوا إعادة كتابة تاريخ الثقافة الإسلامية مثل «أحمد أمين» والعقاد وجواد علي. ويحيل إلى بعض مؤلفاتهم[3]. ويحال إلى بعض المفكرين الأوربيين مثل ديكارت وهو ما يفعله طه حسين أيضا لتبرير منهج الشك من أجل الوصول إلى اليقين[4]. ويحيل إلى كارلايل في «الأبطال والبطولة» وما قاله إعجابا بمحمد البطل.

والعناوين طويلة «دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية». تشير إلى العقيدة والسياسة أو الدين والدولة. وكذلك «مدخل لقراءة الواقع الاجتماعي لعرب الجاهلية وإفرازاته الأيديولوجية»[5]. ويشير إلى الصلة بين الأيديولوجيا والمجتمع على ما هو معروف في علم اجتماع الثقافة.

والكتاب يخلو من القسمة إلى أبواب وفصول. ينقل مادة بلا بنية مقسمة إلى عدة موضوعات صغيرة غير مرقمة. تبين وجود عدة كعبات وليست كعبة واحدة[6]. وحلمت مكة من خلال كعبتها بحلم السيادة. ويظهر تاريخ العرب منذ قصي بن

---

(١) مثل الجامعة اليسوعية، جامعة القديس يوسف في بيروت التي درس فيها المؤلف.
(٢) الحزب الهاشمي ص١٦.
(٣) السابق ص٥٨.
(٤) السابق ص٢٨.
(٥) السابق ص٣.
(٦) الحزب الهاشمي ص٦٣-٧٨.

كلاب والصراع على السلطة بعده ثم وصولها إلى بني هاشم وحاجتهم إلى أيديولوجيا جديدة لفرض زعامتها على العرب غير التحالفات والمصاهرات القبلية. وظهرت هذه الأيديولوجيا الحنيفية وليست الحنفية الممتدة جذورها إلى إبراهيم حتى أحياها محمد والحنفاء المتحنثون في عصره[1]. وهي الدين الطبيعي الذي أكده إبراهيم.

وتعتمد الدراسة على القرآن والحديث والشعر، والشعر أكثر[2]. فالشعر ديوان العرب. كما يعتمد على بعض الفقرات المنتقاة من كتب التاريخ القديمة لتأويلها وقراءتها على نحو حديث بحيث تبدو مصدرا لنتائج الكتاب. ولا يعتمد المنهج التاريخي على النصوص التي هي تدوين للتاريخ. فالمنهج التاريخي في المجتمعات التقليدية مازال أسير المنهج النصي[3]. المصادر قليلة في الهوامش. وتستعمل بعض المصطلحات الحديثة مثل «الحزب»، «الدولة»، «الأيديولوجيا» لنقل الماضي إلى الحاضر. كما تستعمل بعض الألفاظ التي تند عن البحث العلمي الرصين مثل «مزبلة التاريخ» أو بعض الأساليب الإنشائية الخطابية مثل التاريخ المتثائب المسترخي والتي تبين أن الكاتب صاحب دعوة وليس فقط باحثا علميا. يخاطب الكاتب القراء ويستعمل ألفاظهم في «السيرة النبوية العطرة» و«سيد الخلق»[4].

ويصدّر الكتاب ببعض مراجعات الكتاب في الصحف[5]. وهي مراجعات سلبية من الاتجاه الإسلامي المحافظ أو الإسلامي والعلماني التقدمي مما يدل على شجاعة

---

(١) السابق ص٤٦/ ٩٥/ ١٥٦.

(٢) القرآن (١٧)،الحديث (٢)، الشعر (٤٤).

(٣) السابق ص٨.

(٤) السابق ص٢٩/ ٥٧. والكتاب مهدى «إلى ينبوع الحنان» سلوى(نفرتاري) ابنتي، ص٥، كما أهدى كتاب «النبي إبراهيم والتاريخ المجهول» إلى نفس ابنته الرضيعة نفرتاري «كي تعرف رقي زمانها- أننا قد أحدثنا الثقب في جدار الظلمة...» كي تعرف أننا أعطينا العمر لتمرر إلى جيلها خيط النور. كي لا تشك أنه لم يكن في زماننا رجال. لها أهدي هذا الكتاب، النبي إبراهيم ص٥.

(٥) «نماذج من الكتابات التي تناولت هذا العمل حال ظهوره أول مرة من: خليل عبد الكريم، فريدة النقاش، عصام الدين أبو العزايم، فهمي هويدي، محمد أحمد المسير، الحزب الهاشمي ص١٣-٤٧. وإهداء الجزء الثاني إلى الأصدقاء الذين وقفوا إلى جواري في محنتي الصعبة من وزير الثقافة والأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ورئيس أكاديمية الفنون وصحف المعارضة وكبار الأدباء وإلى العاملين بمستشفى الهرم»، السابق جـ٢/ ٥.

المؤلف بإبراز أقوال معارضيه[1]. وقد يدل أيضا على اتجاه إعلامي عند الكاتب لا يقتصر على البحث العلمي المقصور على المتخصصين في حلقات البحث الجامعية. والكاتب يرفض الإسلام المستنير على أنه غير كاف لإجراء مثل هذه البحوث التاريخية.

هـ- «حروب دولة الرسول» لسيد القمني[2]

وبالرغم من أن الموضوع يدخل في «المغازي والسير» إلا أنه نظرا لتميزه المنهجي النقدي التاريخي الحديث فإنه وضع هنا في هذا النوع من السير والحروب لدولة الرسول وليس للرسول أي أنها حروب سياسية بالأصالة لإقامة الدولة في بدر وأحد(الجزء الأول) ثم للدفاع عنها (الجزء الثاني). وهي «حروب» وليست غزوات بالمعنى الحديث وليس بالمعنى القديم. والسؤال هو: لم التركيز على الحروب؟ ألا يدل ذلك على أن الإسلام قد انتشر بالسيف على ما يقول بعض المستشرقين؟ والمنهج التاريخي أقرب إلى المنهج الاجتماعي الذي يقوم بتحليل الطبقات وبيان كيف أن الإسلام أتى تعبيرا عن طبقة المضطهدين والفقراء والعبيد أي المستضعفين بلغة القرآن. كما يركز على التاريخ السياسي لدولة الوحدة[3].

ويعتمد في الجزء الأول كالعادة على القرآن والحديث والشعر، والقرآن أكثر. وفي الجزء الثاني يعتمد أيضا على القرآن والحديث والشعر ولكن الحديث أكثر. ويضم الشعر الرجز[4]. مما يقلل من استعمال المنهج التاريخي النقدي لحساب منهج النص الفقهي الكلامي التقليدي. بل تتوالى الآيات وتطول وكأنها هي الحجة الوحيدة دون عقل بديهي أو تجربة إنسانية أو واقع اجتماعي أو تحليل تاريخي[5]. حتى الأبواب مصدرة بآيات وكأنها حجج بذاتها مع أنه من الصعب الجمع بين المنهج التاريخي والنقدي والمنهج النصي. ويشمل الحديث الشفاهي والمدون أي الرسائل. ويغيب نقد الروايات

---

(١) السابق ص٧.

(٢) سيد محمود القمني: حروب دولة الرسول(جزءان)، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٦م، والإهداء «لقاح الخصب في رحم الأيام بعد سنوات عجاف» إلى نصر حامد أبو زيد.

(٣) السابق جـ١/ ٧-١٣.

(٤) جـ١ القرآن (٦٤)،الحديث (٢٧)، الشعر (٢٦)، جـ٢/ القرآن (٥٤)، الحديث (١٠٠)، الشعر (١٧).

(٥) مثل أحمد إبراهيم الشريف، أحمد عباس صالح، حسين مروة.

وهو ما يتطلبه المنهج التاريخي النقدي. والسؤال بالنسبة للحديث: هل الحديث قبل البعثة يُعد حديثا؟ الوحي لم يأت بعد، إلا إذا كان الدين الطبيعي حجة. كما يُحال إلى نصوص التوراة وهي محرفة في علم النقد التاريخي للكتب المقدسة. كما يُعتمد على بعض المؤرخين السابقين، واقتباس بعض الفقرات منها على نحو موجه وتأويلها بحيث تتفق مع الرؤية العام للكتاب. كما يُعتمد على بعض كتابات المحدثين[1]. ولا تنتقى من القدماء إلا روايات يسهل تأويلها. وقد تغلب المنهج النصي على المنهج التاريخي النقدي لدرجة صعوبة رؤية الفرق بين المنهج الجديد ومنهج المؤرخين القدماء للسيرة.

وعلى غير العادة ينقسم الجزء الأول إلى بابين. الأول في بدر، والثاني في أُحد. وتقدم بدر الكبرى قراءة جديدة، تحليلا نفسيا اجتماعيا للآثار النفسية للنصر الأول مثل هيبة المسلمين، وضعف ثقة المشركين، والآثار الاقتصادية في قطع طرق التجارة، وقوة المسلمين في ثورة الأنصار، والصراع بين الحكمة والتوتر، والمشاكل الجديدة مثل الأسرى والغنائم. والثاني في أُحد، ثأر قريش، وهزيمة المسلمين وشهداؤهم ومنهم أسد الله[2]. وينقسم الجزء الثاني إلى أربعة أبواب: الأول من أُحد إلى الخندق، الاعتراف بقيام الدولة. ويضم عزوة بني المصطلق والحديبية وخيبر. والثالث فتح الفتوح. ويضم فتح مكة، وسرايا خالد، وغزوة هوازن، وحصار الطائف. والرابع قيام دولة العرب الموحدة ويشمل إعلان البراءة وعام الوفود. وهما صغيرا الحجم على غير العادة في المغازي والسير[3].

وتظهر الرغبة في حداثة في اللغة في استعمال بعض الألفاظ الجديدة مثل التقريش (من قريش) والإيلاف[4]. كما تستعمل بعض الألفاظ الحديثة مثل: جمهورية، إمبراطورية، عسكرتاريا، حظر التجول، المعارضة[5].

---

(١) حروب الرسول جـ٢/ ١٩٦-١٩٧.
(٢) السابق جـ١/ ٤٣-١١٨.
(٣) السابق جـ١/ ١١٩-١٧٩.
(٤) السابق جـ١/ ٩-١٤.
(٥) السابق جـ٢/ ٢٦/ ١٥٩/ ١٩٦.

والسؤال هو: ما الهدف من «حروب الرسول»؟ هل ممارسة قواعد المنهج التاريخي النقدي وهو ما لا يظهر كثيرا نظرا لسيادة المنهج النصي؟ هل بيان أن الرسول مؤسس دولة تحارب وتسالم؟ وتخرق قواعد المنهج التاريخي بالحديث عن معجزات الرسول وتدخل الملائكة وتأييدها بالقرآن، واستعمال ألفاظ التفخيم والتعظيم للرسول مثل «سيد الخلق»[1]. وهكذا تفعل السير والمغازي القديمة[2]. وأحيانا يقع المنهج التاريخي في التاريخانية أي مجرد رصد الحوادث. ويخف الرصد الحديث ببعض الدروس المستفادة من الغزوات مثل غزوة أحد[3]. ومع ذلك لم تبلغ حدها الأقصى مثل تركيز الجزء الأول على بدر وأحد أي على جدل النصر والهزيمة. ولا يتضح الهدف من «حروب الرسول» أيضا من حيث الموضوع إلا إذا كان المقصود هو بيان قسوة الإسلام في ضرب الأعناق، وتصوير مذبحة بني قريظة، وتبرير القرآن لها، والتعارض بين قسوة الرسول ورحمته. وربما كان القصد هو انتقاء المواقف الحرجة المتشابهة في تاريخ انتشار الإسلام التي يمكن تفسيرها على وجهين من الأصدقاء والأعداء على حد سواء. وهو ما يتفق مع تفصيل وضع السبايا والإماء و«قوانين السبي العربية التقليدية» بما يحمل ذلك من سخرية[4]. هل الهدف بيان وسطية الإسلام بين النقائض على ما يفعل الخطباء والوعاظ، وهو ما يعارض المنهج التاريخي النقدي؟[5]. هل الهدف هو جمع الأمم والديانات كلها على كلمة سواء كما تم قبل الإسلام في «حلف الفضول» أو قبل الفتح في صلح الحديبية في الصحيفة، وهو ما يريده العلمانيون؟[6].

وبالرغم من أن «حروب الرسول» من أضعف الكتب فيما يتعلق بتطبيق المنهج التاريخي النقدي إلا أنه جزء من مشروع أعم لإعادة كتابة تاريخ الإسلام منذ النشأة مقارنة بباقي أجزاء المشروع. يشمل «النبي إبراهيم والتاريخ والمجهول»[7]. وهي

---

(١) السابق جـ١ ص١٥٣-١٦٣.
(٢) السابق جـ٢/ ٣١/ ٧٠/ ١٤٨.
(٣) السابق جـ٢/ ٨٧-٩٠/ ٩٣/ ١٠٥/ ١٢٩.
(٤) السابق جـ٢/ ١٩٢.
(٥) السابق جـ٢/ ٢١-٢٨.
(٦) السابق جـ٢/ ٢٩-٣٧.
(٧) سيد القمني: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٦.

مادة علمية مستقاة من تاريخ الأديان المقارن. والبحوث المعروفة في الغرب. وهي بلا أبواب إلا فصولا لم يتعود العرب عليها إلا النخبة من المتخصصين في الدراسات السامية[1]. فغلبت عليه النزعة التاريخانية والمصادر التوراتية والإنجيلية والقرآنية بالرغم من اختلاف درجة الصحة في رواياتها. والاعتماد الأكثر على سفر التكوين تاريخيا وجغرافيا بنصوص طويلة[2]. يقع أحيانا في التاريخانية أي في السرد التاريخي دون دلالته ومعناه، ومشفع بالخرائط من رحلات إبراهيم من الشمال إلى الجنوب كما هو الحال في الدراسات الأجنبية بالرغم من قلتها ورد بعض ترجماتها. وفي نفس الوقت يتم الاعتماد على الآيات القرآنية دون الأحاديث والأشعار[3]. ويحيل إلى القدماء مثل الثعلبي والمسعودي. ويقتبس منهم بعض الروايات ويأولها بما يتفق مع مضمون الكتاب. كما يحيل إلى بعض المحدثين مثل طه حسين[4]. ومازال الهدف غير واضح. ولم تتضح صورة إبراهيم في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن ولا أوجه التشابه والاختلاف بينهما. صحيح أن تحرير التاريخ من المقدس والأسطورة مهمة المنهج التاريخي النقدي، ولكن ما البديل؟ لقد أدت المدرسة النقدية التاريخية في الغرب إلى المدرسة الأسطورية وإنكار الوجود التاريخي لإبراهيم موسى وعيسى. ومن ثم يتحول التاريخ المجهول إلى التاريخ المصنوع المركب.

وتبلغ ذروة المشروع في «النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة»[5]. ويصل المنهج التاريخي إلى حده الأقصى بالإغراق في الساميات والعبريات والمصريات كما تدل على ذلك الصور على أغلفة المجلدات الأربعة. يتحول التاريخ إلى غاية في ذاته بكافة تفاصيله. ويتحول المنهج من وسيلة للكشف إلى غاية في ذاته في أوضح صور التاريخانية. وهي مادة معروفة عند المتخصصين في العهد القديم، أقسامه، ومصادره،

---

(١) وقد عرفها المؤلف أثناء دراسته في الجامعة اليسوعية (القديس يوسف في بيروت).

(٢) السابق ص٧٥-٧٨.

(٣) القرآن (٢٥).

(٤) النبي إبراهيم ص١٧.

(٥) سيد القمني: النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة(أربعة أجزاء)، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة ١٩٩٩م.

وتدوينه، ورواياته. وكلها معلومات مترجمة وموفورة في دوائر المعارف والقواميس والموسوعات والدراسات المتخصصة، كلها اقتراحات وافتراضات مضادة لم يجمع عليها المؤرخون[1]. لذلك لا تؤخذ روايات التوراة كمصدر للتاريخ إلا بحذر. ولا توجد مصادر إسلامية من القرآن أو الحديث أو الشعر أو كتب المؤرخين القدماء.

ويغيب الهدف الواضح، هل المقصود القضاء على الصورة الشائعة لموسى اعتمادا على الدراسات التاريخية النقدية؟ هل المقصود هز صورة موسى بعد أن ربط محمد نفسه به ورأى فيه صورته؟ هل المقصود بيان أن حضارة مصر القديمة أصل الحضارة العبرية، وأن موسى هو ابنها البار أو غير البار؟[2]. الجزء الأول تمهيد تاريخي عن التوراة شعبا وكتابة وربا، والتاريخ النبوي لإسرائيل، وعلاقة مصر بالتوراة، ونظريات الخروج. والثاني وهو أكبرها عن ألغاز لم يحلها التاريخ بعد[3]. كما يبين علاقة مصر بالعبرانيين[4]. لا أبواب ولا فصول بل مجرد مادة مترجمة ومجمعة ومعروفة عند أهل الاختصاص دون نتيجة محددة. والأفضل ترجمة كتاب أو موسوعة في الموضوع. ينقل نتائج حفريات الآخرين، غربيين وشرقيين، قدماء ومحدثين[5]. وهو مملوء بالتفصيلات اللغوية والأثرية، بالعبرية والمصرية القديمة. وكلها افتراضات مثل غيرها، نموذج التاريخانية، ومشفوع بصور وخرائط توضيحية. يعتمد على الشعر مرة واحدة دون القرآن والحديث. ولا توجد نتيجة عامة واحدة بعد هذا السرد الطويل لعلاقة المصريين بالعبرانيين. والثالث «آخر أيام تل العمارنة» عن موسى وإخناتون وأوديب والعلاقة بين حضارات ثلاث: المصرية والعبرية واليونانية لدرجة أن موسى أصبح هامشيا. يعتمد

---

(١) السابق جـ١/ ٩-١٥.

(٢) السابق جـ١/ ١٣٣-١٤٠.

(٣) هي سبعة: لغز بلاد بونت، لغز بلاد الحور، لغز بلاد موصري، بعل صفون لغز آخر، لغز آرام النحاسية، لغز البلست، لغز الخابيرو، السابق جـ٢٢/ ٢٠٣-٢٢٠/ ٢٧٥-٢٨٤/ ٤٠٤-٤٤٩/ ٥٩٦-٦٢٨.

(٤) بلاد آدم وبلاد أدوم، سالع والتبراء، حملة تحتمس الثالث على بلاد الفينق، ميتاني وميدياني، المريانيون والإسماعيليون والعماليق، سر المملكة السوداء، الرب الأحمر، معان المصرية، أين تقع حويلة التوراتية، العامو أو العموريون اسم الأحلاف، الجامع، الشاسو والكاشود والحاتو، عاد وثمود، إسحق، بقرة بني إسرائيل، تجليات الرب في سيناء، ريح يوسف، إسرائيل ويهوذا، قاطعوا الرقاب.

(٥) «منهم علي فهمي خشيم في آلهة مصر العربية»، ومن القدماء السهيلي والهمداني جـ٢/ ٢٨٥/ ٣١٥/ ٣١٧/ ٣٤٠.

على بعض الهواة والمحدثين مثل العقاد. يقدم معلومات ولا يستنتج ما بين السطور. والرابع جغرافيا الخروج ولغز مدينة رعمسيس مع خرائط وملاحق توضيحية. ولا توجد محاولات للخروج من التاريخانية إلى التشريعات المقارنة بين الحضارات الثلاث. ولا يُحال إلى القرآن أو الحديث. ويُحال إلى الشعر مرتين[١]. وقد بدأ المشروع فكريا فلسفيا قبل أن يتحول إلى مشروع تاريخي نقدي. ربما حددت البداية ظروف تدريس الفلسفة بالخليج ثم التحول إلى التاريخ بداية بحضارة مصر القديمة[٢]. ثم بدأ الطرح النظري في «الأسطورة والتراث» و«رب الزمان». الأول لفهم العلاقة بين الواقع ونشأة الأسطورة[٣]. والثاني عدة مقالات صحفية في معارك فكرية دون تفرقة بين البحث العلمي والإعلام[٤]. وهو ما يتضح أيضا في الطبعة الثانية وزيادة «ملف القضية».

---

(١) النبي موسى جـ٤/ ١٠٢٩-١٠٣٠.

(٢) الموجز الفلسفي، دار السياسة الكويت. مشكلات فلسفية(بالمشاركة)،الكويت ١٩٨٣، «أوزيريس وعقيدة الخلود القديمة» دار فكر، القاهرة ١٩٨٨.

(٣) الأسطورة والتراث، سينا للنشر، القاهرة، الصقر العربي للإبداع، قبرص ١٩٩٢. ويشمل عدة موضوعات متفرقة: زهرة الحب، أضحية للذكر، القمر الأب، الملوك الأربعة، نماذج من الأساطير التوراتية. ومن التراث موضوع النسخ.

(٤) رب الزمان ودراسات أخرى، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٦.

الباب الثانـــي

تأسيـس الرسالــة

الفصل الأول

جـــذور الرسالة

١ - شبه الجزيرة العربية

كانت شبه الجزيرة العربية مهد الحضارة الأولى وليست مصر وحدها، كانت متصلة بالحضارات البابلية والآشورية بالعراق، والكنعانية والفينيقية بالشام. وكلاهما امتداد لها في الشمال، وبالحضارة الحميرية باليمن وهي امتداد لها في الجنوب، وبالمجوسية في فارس، وبالمسيحية في الشمال والغرب. ونشأ ذلك كله حول حوضي بحري الروم، البحر الأبيض المتوسط، والقلزم، البحر الأسود. وفيها انتشرت عقائد الإله وخلود النفس ونشأة العالم. وهي العقائد الثلاث في الديانات التوحيدية الإبراهيمية. ونشأت منها وفي إطارها. كما انتشرت المجوسية من فارس. تساندها حضارة الهند مع أن انتصار فارس على الروم في مصر والشام لم يؤد إلى انتشار المجوسية احتراما لديانات الشعوب المغلوبة. أخذوا فقط الصليب الأعظم حتى استرده الروم بعد انتصارهم على الفرس. احتاج العرب إلى دين جديد يحميهم من ثقافات الشرق والغرب، يوحدهم، ويحسن أوضاعهم الخلقية والسياسية والاجتماعية وإلى نهضة شاملة يبدأ معها العرب مسار تاريخ جديد[1].

وقد ساعد على ذلك توسط شبه الجزيرة العربية بين الشرق والغرب. يحميها من الشرق الخليج العربي، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب بحر عمان، ومن الشمال صحراء الشام. لم تخضع لمستعمر بسبب هذه المناعة الجغرافية. كان الجمل هو وسيلة

---

(١) حياة محمد ص٦٦-٦٨، السيرة النبوية ص٥٥-٦٠، صحيح السيرة ص٣٤-٤٣.

الاتصال بين مدنها. ولم يكن للمطر فيها فصول معروفة. فمراعيها متنقلة. تتفجر فيها العيون. فتنشأ حولها التجمعات السكانية. ظلت شبه الجزيرة مجهولة معزولة باستثناء اليمن المنفتحة على البحر للتجارة مع الشرق والغرب، مع الهند وروما عن طريق مصر وفارس. لذلك سماها الرومان اليمن السعيد. وأصبحت طرق التجارة في الصحراء مثل طرق السفن في البحر وسيلة اتصال بين القبائل. كان هناك طريقان للقوافل: الأول طريق الشرق، يتاخم الخليج الفارسي ودجلة إلى الشام وفلسطين. والثاني طريق الغرب، البحر الأحمر إلى مصر والشام. ولا يوجد نظام سياسي واحد لها، بل لكل قبيلة عاداتها وتقاليدها في إطار العصبية أو الحلف أو الجوار أو تطبيقا للقصاص، ودفع العدوان بالعدوان[1].

كانت شبه الجزيرة خمسة أقسام: الحجاز، تهامة، اليمن، نجد، العروض بين البحرين شرقا والحجاز غربا. وتسمى أيضا اليمامة. صحراؤها قاسية. حياتها الماء. القبيلة وحدتها الاجتماعية. مدنها مراكز عمران وحضارة. طبقاتها عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة. قبائلها قحطانية في اليمن، وعدنانية في الحجاز. تنقسم إلى ربيعة ومضر. بينهما منافسة وعداء. لغتها واحدة بالرغم من تعدد مخارج الأصوات. فاللغة مظهر من مظاهر وحدتها. أكدها الدين الجديد من خلال القرآن. كانت على صلة بالنبوات والأديان السماوية. إسماعيل في مكة، وتراثه في قريش[2].

وبلاد العرب غنية بمواردها الطبيعية مثل، الذهب. وبها العيون والآبار والأودية. تقوم ثروتها على التجارة والزراعة والصناعة، دبغ الجلود، وغزل الصوف، والبناء[3]. فيها العناصر المادية المكونة للحضارة وقيام المجتمعات.

وفي القرن السادس الميلادي اشتدت المنافسة بين روما وبيزنطة. امتد سلطان روما في ربوع الغرب ثم ورثتها بيزنطة بعد أن أغار الفندال على روما. وانتشرت الفرق المسيحية المتناحرة حول طبيعة المسيح وأمه. وامتد الجدل إلى القبائل العربية في الشمال.

---

(١) حياة محمد ص٧٠-٧٢.

(٢) السيرة النبوية ص٦٣-٧٣، خاتم الأنبياء ص٤-٥، مواقع العرب وأقوامها، الرحيق المختوم ص١٥-٢٢.

(٣) خاتم الأنبياء ص١٢-١٤.

وفي نفس الوقت ضعفت المجوسية. وحوصرت شبه الجزيرة بين قوتين: المسيحية والمجوسية، الشرق والغرب. ومع كل منهما أنصارهما من القبائل في شمال شبه الجزيرة العربية، شرقا وغربا[1]. مسخت الديانات في الإمبراطوريتين الشرقية والغربية، وفقدت أصالتها وقوتها. فقد المصلحون، غاب المعلمون.

ازدادت الإتاوات في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وتضاعفت الضرائب. وقامت الثروات والاضطرابات للتخلص من الحكام وتفضيل الغرباء عليهم. وقد هلك في ثورة واحدة في عصر جستنيان الأول ثلاثون ألف شخص. أصبح الهم كسب المال وإنفاقه على الترف. ووقعت بيزنطة في تناقض بين الدين والدنيا، بين المال والرهبنة، بين أهل الظاهر وأهل الباطن. وعمت الرياضة الجسدية المصارعة بين الرجال أو بين الرجال والسباع. واضطهدت مصر والمصريون دينيا وسياسيا، وعمها الشقاء وهي من أغنى البلدان. استغلها الروم كما استغلوا سوريا. كثرت المظالم. وعمت العبودية، وشراء الرقيق، وبيع الأبناء[2].

كان العرب على عدة أنواع في شبه الجزيرة العربية. الأول أهل الكتاب، اليهود والنصارى. وكان كل منهم فرقا. والثاني العرب البائدة، عبدة الأوثان. والثالث العرب الذين بقوا من عهد إسماعيل، وكانت قريش تظن أنها منهم. وقد انحرف العرب عن ملة إبراهيم، وعبدوا الطواغيت في الكعبة[3].

كانت في ذلك الوقت قوتان محليتان: اليمن والأحباش، وقوتان دوليتان الفرس والروم، كل منهما يريد غزو اليمن، باب شبه الجزيرة العربية. وكان للفرس والروم أتباع في شبه جزيرة العرب، المناذرة للفرس في الشرق، والغساسنة للروم في الشمال. فجاء الإسلام في منطقة وسطى بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، الحجاز لتوحيد

---

(١) حياة محمد ص٦٨-٧٠، السيرة النبوية ص٣١.

(٢) السيرة النبوية ص٣١-٣٣. ويتم الاعتماد على كتاب جيبون: انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ص٣-٥، وفتح العرب لمصر لألفرد بتلر، وأيضا:

- Historians history of the World vol. VII، p.73.

- T. Walter Wallbank & Alastair M. Taylor: Civilization، Past and Present، pp. 26162-

(٣) سيد الأنام ص٤٠-٤٥.

شبه الجزيرة أطرافها حول وسطها كمركز قوة جديد. جاء الإسلام، العقيدة الدينية والسياسية للعرب، لتحرير أطرافها الأربعة من احتلال القوى الجاري. بدأ الإسلام دينا قوميا للعرب وفي نفس الوقت رسالة عالمية لكل البشر[1].

٢- المصاهرة والنسب

وتحلل السيرة أجناس العرب وأنسابهم في ثقافة تقوم على الأجناس والأنساب. فالعرب من ولد إسماعيل وقحطان. ومن عدنان تفرقت القبائل. وأبو بكر وعمر من أنساب العرب. فالخلافة عربية كما أن النبو ة عربية. ولا يضير الوحي أن ينزل على العرب المستعربة وليس فقط العرب العارية. فكل من تكلم العربية فهو عربي. ولا يضير العرب من أي جنس أتوا خاصة لو اختلف علماء الأجناس في ذلك. وهو أشبه بما يقوم به اليهود لإثبات أنهم من نسل إسحق بن إبراهيم، وأنهم شعب متجانس عبر العصور حتى اليهود الحاليين من روسيا وأوروبا الشرقية والولايات المتحدة المهاجرين من أوروبا في عصر الاضطهاد والفارين من أسبانيا إلى العالم العربي وقت سقوط الأندلس. وقصي بن كلاب هو أب العرب، ولد من أولاد فهر. وكانت مكة في يد جرهم حتى غلبتهم خزاعة. أخذت سدانة البيت حتى أخذها قصي وانضمت له قريش. وظلت في أولاده عبد مناف، وهاشم وأكبرهم. لديه السقاية والرفادة وهو والد عبد المطلب جد الرسول. واستمرت في بني هاشم[2].

وفي روايات أن قحطان وعدنان ولدا إسماعيل أبي العرب. ومن عدنان تفرقت القبائل. وكان له معد وعك. وعاش عك في اليمن حيث عاش الأوس والخزرج وامرئ القيس. وتفرق أولادهم حتى خراسان. وعاش أولاد معد في اليمن أيضا. ومنه خرج النعمان بن المنذر ملك الحيرة، ومنه أتى أبو بكر الصديق. ومن هنا جاء ارتباط الإسلام باليمن. فالرسول يماني، والحكمة يمانية، والقضاء يماني، والزيدية يمانية تجمع بين المعتزلة في التوحيد والعدل والثورة في الإمامية بالرغم من الاقتتال الدائر حاليا بين الزيدية

---

(١) الحكم والإمارات في العرب: اليمن، الحيرة، الشام، الحجاز، الرحيق المختوم ص٢٣-٣٤.

(٢) ابن هشام جـ١/ ٣٠-٣٥، ابن خلدون ص٣٩-٥٥، السيرة النبوية ص٧٣-٧٤.

والشوافع، بين الحوثيين والسلطة السياسية[1]. وتروى قصة هاجر وإسماعيل وسكناهما بقعة بيت الله الحرام وهي لا تزال خلاء[2]. وبدأ إعمار أم القرى أي بناء البيت.

ويكون النسب من خلال الأمهات أكثر من خلال الآباء، والأولاد أكثر من البنات[3]. وهو التصور الدموي للنسب كما هو الحال في اليهودية. فاليهودي من كانت أمه يهودية، وتنتقل السلالة من خلال الذكور. وهو صراع في تحديد النسب بين الأم والأب.

وتظهر أهمية مصر في «الأنساب»[4]. فقد أوصى النبي بأهل مصر، ربما لأن إسماعيل من هاجر، وهاجر مصرية([5]). فهم أهل ذمة وأهل البلاد السود، السمر الشداد مُجعّدو الشعور كما تقول إحدى الأغاني المصرية المعاصرة[6]. كما أن مارية القبطية التي تسرى بها الرسول، هدية المقوقس من مصر. والتوصية بأهل مصر ليس فقط من أجل النسب والجوار والمصاهرة والتجارة بل لصفات في شعب مصر، جندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة، بالرغم من وصف مصر في القرآن بأنها أرض الفراعنة، أرض الطغيان[7].

وكان الصراع بين المصاهرة والدين الجديد. فكل قبيلة كان لها اتصال بأخرى عن طريق المصاهرة أي عن طريق النسب[8]. فجاء الدين الجديد وجعل العلاقة بين القبائل

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٣١-٣٥.

(٢) سيد الأنام ص٤٦-٥٠.

(٣) أنساب خزاعة، أولاد مدركة وخزيمة، أولاد كنانة وأمهاتهم، أولاد النضر وأمهاتهم، ولد مالك بن النضر وأمه، أولاد فهر وأمهاتهم، أولاد غالب وأمهاتهم، أولاد لؤي وأمهاتهم، ابن هشام جـ١/ ١٠٣-١٠٨، ابن خلدون ص٥٧-٧٢.

(٤) «أنكم ستفتحون مصر: وهي أرض يسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما»، وفي رواية «ذمة وصهرا»، الجوهر جـ١/ ٣١١.

(٥) وهو قول الرسول «الله الله في أهل الذمة، أهل المودة السوداء، السُّحم الجعاد فإن لهم نسبًا وصهرا». وأيضا «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما»، ابن هشام جـ١/ ٢٩-٣٠.

(٦) هي أغنية «أصله ما عداش على مصر».

(٧) انظر مقالنا: مصر بين الأمان والطغيان، الدين والثورة في مصر جـ/ ٧، مدبولي، القاهرة ١٩٨٩، ص١٦٨-١٧٠.

(٨) غاية الرسول ص١٩١.

علاقة فكر وعقيدة حتى ولو تفرقت الأنساب. وفي نفس الوقت كان النسب قوة للعقيدة. وكان تحول أعمام الرسول إلى الإسلام مثل حمزة قوة له. فالدين الجديد يُعيد إقامة العلاقة في الأنساب على أساس العقيدة وليس على أساس رابطة الدم. فالقبيلة مظهر ضعف لو قامت على رابطة الدم، ومظهر قوة لو قامت على أساس العقيدة.

وتتضمن هذه المرحلة بعض الحكايات عن شعراء العرب. فالأنبياء شعراء، والشعراء أنبياء مجازا. والشعر أحد مصادر الثقافة العربية مثل الوحي. فقد خرج أسامة ابن لؤي إلى عمان بعد أن أخرجه أخوه عامر. فقأ أسامة عين أخيه. ثم نهشت حية ناقته ثم هو نفسه فقتلته. وأتى الرسول بعض أولاده يتتسبون إلى أسامة فسأل الرسول: الشاعر. وذكر أحد الصحابة بيتا له. وكان الرسول على علم به[1]. وخرج عوف بن لؤي فحبسه أخوه في النسب وزوجه وألحقه به وآخاه. وانتسب إلى بني ذبيان. وكان محط تقدير من عمر بن الخطاب. وتستمر أنساب العرب[2]. والغاية من هذه الأنساب الوصول إلى نسب عبد مناف وبني هاشم وبني عبد المطلب[3]، ثم الوصول إلى نسب الرسول[4]. وهي طريقة عربية في تحديد شرف النسب، قضى عليها الإسلام. فالبشر جميعا متساوون. يتفاضلون بأعمالهم وليس بأنسابهم.

٣- ديانات العرب

يعني «تأسيس الرسالة» اكتشاف أسسها وجذورها قبل نزول الوحي سواء قبل ميلاد الرسول في «جذور الرسالة» أو منذ ميلاده حتى نزول الوحي في «نشأة الرسالة». وكلها ألفاظ متداخلة «التأسيس» و«الجذور» و«النشأة». فالرسالة لم تأت من فراغ إلى فراغ بل كان لها أسسها فيما يسمى بالعصر الجاهلي، ديانات العرب قبل الإسلام. كانت

(١) ابن هشام جـ١/ ١٠٩.

(٢) نسب مرة، سادات مرة، نسب زهير الشاعر، أولاد كعب وأمهم، أولاد مرة وأمهاتهم، نسب بارق، ولدا كلاب وأمهما، نسب جثمة بقية أولاد كلاب، أولاد قصي وأمهم، السابق جـ١/ ١٠٩-١١٦.

(٣) أولاد عبد مناف وأمهاتهم، أولاد هاشم وأمهاتهم، أولاد عبد المطلب بني هاشم، السابق جـ١/ ١١٦-١١٩.

(٤) رسول الله وأمهاته، السابق جـ١/ ١١٩-١٢٠.

هناك اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية وعبادة الأوثان. وكانت شبه الجزيرة العربية ملتقى أديان الشرق والغرب، والشمال والجنوب، تتعايش فيما بينها دون صراع أو حروب. الإسلام فقط عندما أتى جعل الإسلام هو الدين الشامل، وتسامح مع اليهودية والنصرانية ولكن أبطل عبادة الأوثان وكل مظاهر الشرك كالمجوسية، أو عبادة الكواكب عند الصابئة.

ولا تعني ديانات العرب «أنساب» العرب. فالأنساب مفهوم بيولوجي عرقي. ولم تأت الرسالة للعرب بهذا المفهوم الشائع في اليهودية باعتبارهم عرقا. وهو ما أكدته الصهيونية. بل تحولت الرسالة من بني إسرائيل إلى العرب لأسباب عقائدية: عبادة العجل، التجسيم، التشبيه، إنكار المعاد أو أخلاقية: عدم تطبيق الشريعة، عصيان الأنبياء وقتلهم، الأنانية، العدوان على الغير.

وهو من أضعف الأجزاء عند القدماء لأنه ما قبل الميلاد. والمحدثون نقلوا المنهج عن الغرب، تاريخ الأديان المقارن والدراسات السامية. ولا يبدو مرتبطا ارتباطا طبيعيا بالميلاد والبعثة والرسالة[1].

تعني «جذور» الرسالة ما قبل الرسالة فيما يسمى بالعصر الجاهلي. وهو ليس جاهليا لأن كثيرا من عبادات الإسلام خاصة الحج ومناسكه كانت موجودة في هذا العصر منذ إبراهيم. والهدف منه إثبات التواصل بين مظاهر التدين والعبادات قبل الإسلام وبعده، وليس الانقطاع كما يقول الدعاة والتعارض الشديد بين الجاهلية والإسلام، سواء الجاهلية القديمة أو جاهلية القرن العشرين[2]. التواصل والانقطاع قرينان وهناك اتصال بين ما يسمى بالجاهلية والإسلام. والناس معادن، «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام». فالإسلام دين طبيعي قبل الوحي، ودين موحى به بعد

---

(١) حياة محمد ص٦٦-٨٠، حالة سكان جزيرة العرب وما حولها قبل مبعثه، سيد الأنام ص٤٠-٤٥/ ٧٤-٧٦، الرحيق المختوم ص٣٥-٤٢.

(٢) هو تعبير محمد قطب في كتاب له بنفس العنوان. وهناك حديث «ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين، ودماء الجاهلية موضوعة، وربا الجاهلية موضوع». «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن تمسكتم به: كتاب الله»، سيرة النبي ص٣٨٠.

الوحي[1]. وما من مولود إلا ويولد على الفطرة قبل أن يتبنى دينا اجتماعيا، اليهودية أو النصرانية أو الإسلام[2]. وأحيانا تكون العلاقة انقطاعا لا تواصلا. فالإسلام يهدم ما قبله في الشرك. والهجرة تهدم ما كان قبلها في بقاء الإسلام سرا. والحج يهدم ما قبله في عبادة الأصنام[3]. كما يأتي الإسلام غريبا ويعود غريبا كما بدأ. ويأتي زمان يحب الإنسان أن يرى فيه الرسول أكثر مما يرى ولده.

لذلك من المهم دراسة الديانات في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لمعرفة عناصر التواصل والانقطاع بينها وبين الإسلام. فالإسلام أحد الديانات التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية وتطوير لما كان موجودا قبله، اليهودية والنصرانية والحنيفية التي كانت في اللاوعي العربي. كانت عبادة الأصنام مجرد ظاهر لتعدد القبائل، كل قبيلة لها صنمها كما أن لها سيدها ومضاربها وشعراءها[4]. وتطلعاتها إلى السيادة والسيطرة وأنسابها التي تعطيها العزة والأصالة.

أتى الدين الجديد بعد أن أصبحت اليهودية مجموعة من الطقوس والعبادات، أشكال دون مضامين، وحركة دون روح. وعادت إلى وثنيتها الأولى التي طالما حاربها الأنبياء، من عبادة الله إلى عبادة العجل الذهبي تأثرا بالدين المصري القديم، عجل أبيس، وتعبيرا عن حب الدنيا. ويشهد التلمود أن الوثنية كان لها جاذبية خاصة لهم. ويكشف «تلمود بابل» الذي يقدسه اليهود أكثر من التوراة عن مستوى اليهودية في هذا العصر[5]. وتم تحريف المسيحية. ووقعت في المغالاة والتأويل البعيد عن الذوق ووثنية

---

(1) «أسلمت على ما أسلفت من خير»، بمناسبة حكيم من أشراف قريش الذي كان يفعل المعروف في الجاهلية، ويعتق الرقاب تحنثا، الجوهرة جـ1/ 68.

(2) «ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»، السابق ص251. «والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام. وليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله»، شمائل الرسول ص243.

(3) «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»، بهجة المحافل ص270.

(4) اعتمدنا فقط على المادة الموجودة في كتب السيرة دون كتب تاريخ الأديان التي درست هذه المرحلة في حد ذاتها. وقد كتب فيها الكثير من علماء الساميات.

(5) «من خفة العقل، وسخف القول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل... على

روما المتنصرة. وأصبحت ركاما فوق تعاليم المسيح البسيطة. واختفى نور التوحيد والإخلاص لعبادة الله. وتحولت من الرسالة إلى الرسول، ومن المبدأ إلى الشخص. وتحول المسيح من إنسان إلى إله. وانقلب التوحيد الذي طالما بشر به الأنبياء إلى تثليث، والعقل إلى سر. وعادت الوثنية إلى الإيمان المسيحي من الأمم المجاورة. لم تنته الوثنية بل تغلغلت في النفوس، وأله الشهداء، وصنعت لهم التماثيل. وأصبحوا وسطاء بين الله والإنسان. وتحول عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح. وتقاتل نصارى الشام والعراق من ناحية ونصارى مصر من ناحية أخرى حول حقيقة المسيح. وتحولت المدارس اللاهوتية إلى معسكرات متنافسة، يكفر بعضها بعضا. وانشغل المسيحيون بحرب العقائد عن محاربة الفساد وإصلاح الحال وصلاح الإنسانية[1].

والسؤال هو: ما هي مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام بالإضافة إلى القرآن والحديث وبعض روايات الصحابة؟ ربما لا توجد مصادر مستقلة مدونة إلا بعض الروايات الشفاهية المتداولة قبل ظهور الإسلام وبعده. وغالبها تحيط به الأساطير من الإسرائيليات أو من الثقافة العربية قبل الإسلام. فما هو الحد الفاصل بين التاريخ الأسطوري والتاريخ الفعلي؟ لم تركز عليها كتب السيرة كثيرا إما لصعوبة الحصول على المادة العلمية أو لأنها تعتمد على المصادر الشفاهية التي كانت موجودة في الثقافة العربية قبل مولد الرسول. وقليلا ما أشار القرآن أو الحديث إشارات بعدية بعد نزول الوحي إلى ما كان عند العرب قبل الإسلام.

٤- دين إبراهيم

وكان دين إبراهيم، الحنيفية، ذائعا في مكة وعليه كثير من الحنفاء. والرسول

ما وصل إليه المجتمع اليهودي في هذا القرن من الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني»، السيرة النبوية ص٢٤.

(١) السيرة النبوية ص٢٤-٢٦، وأيضا: «ظاهريات التأويل». ويعتمد الندوي على مقال «التثليث المقدس» في «دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة» و«العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» لمحمد طاهر التنير. وأيضا «فتح العرب لمصر» لألفرد بتلر، و«حرب الكنائس» لأسد رستم. كما يعتمد على مؤلف غربي:
Rev. James Houston Baxter: The history of Christianity in the light of modern knowledge، Glasgow، ١٩٥٩، p.٤٠٧.

أحدهم. يمارس شعائر إبراهيم. وهو الذي أقام القواعد، وبنى الكعبة، وحفر زمزم. وقد رأى عبد المطلب رؤية تأمره بحفر زمزم، الذي دفن بين صنمي قريش، وهي بئر إسماعيل التي شرب منها وهو صغير بعد أن التمست له أمه الماء فلم تجده. وسعت بين الصفا والمروة تدعو الله. فبعث جبريل وهمز الأرض بحفره فظهر الماء. وخافت أمه السباع عليه فجرت إليه فوجدته يشرب الماء بيده من تحت خده[1]. فكانت ولاية البئر لعبد المطلب. ووقعت آيات في حفر عبد المطلب زمزم. وفي رواية ثانية ركب عبد المطلب مع نفر من أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة قريش نفر. وفي الطريق فني ماء عبد المطلب وأصحابه. وأبت قريش استسقاءه. والهلاك ينتظر الجميع. فاقترح أن يحفر كل رجل حفرة لنفسه. فإذا مات وُوري فيها، فضياع واحد خير من ضياع الجميع. ولما لم يظهر الماء أمر بالارتحال . ثم انفجرت من تحت أقدامها عين ماء عذب. فكبر عبد المطلب وأصحابه. وأنقذ الجميع. وسقى أصحابه وقريش. ثم تراجعت قريش عن مخاصمته اعترافا بفضله، وأن الله الذي أسقاه أمامهم أسقاه أيضا في زمزم. وهي رواية أخرى أحدث من رواية إبراهيم وإسماعيل وهاجر في العهد القديم. وفي رواية ثالثة سميت زمزم لأنها لا تنزف أبدا ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم وتروي العطش، وتحيي المهات في الإنسان والحيوان والنبات. والإسلام دين الحياة، والحياة أحد مقاصد الشريعة. والماء من السماء على الأرض السوداء يُحيلها إلى خضرة ونماء. وهو دليل على وجود الله وقدرته. ومن كان بيده فسيلة قبل أن يموت فليغرسها. وعودان أخضران على قبر الميت يرحمانه ويخففان عذابه. وهي عادات أيضا من قدماء المصريين في تقاليد الموت والعزاء. ومازالت مستمرة حتى الآن في زيارة المقابر وإحضار الخوص الأخضر والورود الزاهية ونثرها على قبر الميت رمزا للحياة المستمرة التي تقهر الموت.

وقد أتاه الصوت أربع مرات أولا بلفظ طيبة ثم برّه ثم المضنونة ثم زمزم. وأصبحت زمزم نموذجا لآبار أخرى تحت وطأة العطش[2]. فبعد أن نازعت قريش

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٢٠-١٢١/ ١٤٨-١٥٢، صحيح السيرة ص٣٤، ابن خلدون ص١٥-٢٠، حياة محمد ص٨١-٩٧، مختصر سيرة (١) ص٨-١٨، السيرة النبوية ص٢٩/ ٥٤-٥٥، صحيح السيرة ص٤٤-٤٦، الخصائص الكبرى جـ١/ ١١٢-١١٥.

(٢) وتعني زمزم «لا تنزف أبدا ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل»، ابن هشام جـ١/ ١٤٨-١٤٩.

عبد المطلب في زمزم ذهبوا جميعا إلى كاهنة بني سعد للحكم بينهم. فلما عطشوا في الطريق انفرجت تحت راحلة بن عبد المطلب عين من ماء عذب فكبر عبد المطلب. وقررت قريش عدم مخاصمة عبد المطلب في زمزم بعد ذلك. واستدعى حفر البئر ذكر بئار قريش بمكة، اسمها ومن حفرها[1]. وفي رواية أخرى ذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى وادي مكة. وبنى الكعبة وبدأ تحديد المناصب فيها. وتغلبت قريش عليها. وبنيت فيها المنازل. وحفرت زمزم. وأراد أبرهة الاستيلاء عليها[2].

وكان البيت الحرام بمكة مقدسا قبل الإسلام. واستمر كذلك بعده. تتولى ولايته القبائل حتى آلت إلى قريش. وأكد الإسلام هذه الولاية بظهور محمد. وكانت مناسك الحج: صعود عرفة، السعي بين الصفا والمروة، رمي الجمار وإفاضة المزدلفة، والسقاية موجودة قبل الإسلام يمارسها العرب بصرف النظر عن دياناتهم وعقائدهم[3].

وكان أولاد إسماعيل وجرهم بمكة. واستولى قوم كنانة وخزاعة على البيت. وبقي جرهم بمكة وطرد بني بكر لهم. واستبد قوم من خزاعة بولاية البيت. وكان الغوث بن مر يلي الإجازة للناس بالحج. وكانت صوفة ترمي الجمار. ثم تولى بنو سعد أمر البيت بعد صوفة. ثم تولى صفوان وكرب الإجازة في الحج. ثم تولت عدوان إفاضة المزدلفة. ثم غلب قصي على أمر مكة. وجمع أمر قريش. وعاونته قضاعة. ثم أصبح قصي أميرا على مكة. واختلفت قريش بعد قصي. وعقد حلف المطيبين، ثم حلف الأحلاف. ثم وزعت القبائل في الحرب. ثم تصالح القوم على السقاية والرفادة والحجابة واللواء[4]. ثم تولى هاشم الرفادة والسقاية وخدمة الحجاج. ثم تولاها عبد المطلب. وجاء الإسلام فأكد ولاية بني عبد المطلب. فالإسلام مرحلة من تاريخ الولاية على مكة مركز العرب

---

(١) السابق جـ١/ ١٤٩-١٥٤.

(٢) زعماء قريش: قصي بن كلاب، هاشم، عبد المطلب، حياة محمد ص٨٤-٩٧، السيرة النبوية ص٥٢-٥٣، خاتم الأنبياء ص١٥-٢٣.

(٣) ابن هشام جـ١/ ١٢٥-١٣٠، حياة محمد ص٨١-٩٠.

(٤) لذلك قال الرسول «ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة»، ابن هشام جـ١/ ١٣٩-١٤٣.

ومزاره الأول. كان للعرب قبل الإسلام قبلة هي مكة[1]. وحج هو المسجد الحرام، وشعائر هي شعائر الحج التي أكد الإسلام استمرارها. فالإسلام ليس غريبا على شبه الجزيرة العربية ولا طارئا على دياناتها ولا وافدا على شعائرها بل هو الذي وجهها فقط نحو عبادة الله الواحد بدلا من الأصنام المتعددة. وهو الذي هذبها بلا عري أو تصفيق أو تزمير. وجعل العري إحراما، والتصفيق والتزمير إهلالا وتكبيرا. فالإسلام حركة تهذيب وتنقية لما هو قائم وليس إحلالا له أو بديلا عنه.

وانتهت النزاعات حول البيت الحرام بحلف المطيبين والمصالحة بين القبائل[2]. وأصبح للعرب مركز هي مكة، ومعبد هي الكعبة. تجمع أطراف شبه الجزيرة العربية كما تجمع القدس صحراء الشام. فللعرب قبلتان مكة والقدس. الأولى تجمع عرب الجنوب، والثانية تجمع عرب الشمال.

ولمكة أسماء عديدة مثل الرسول: بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، والناسة أو الباسة والرأس، وصلاح، وأم القرى، والحاطمة، والعرش، وطيبة[3]. وكثرة أسمائها تدل على صفاتها ومركزيتها وأولويتها وأثرها في شبه الجزيرة العربية.

٥- حلف الفضول

وكان حلف الفضول نموذج الإسلام قبل الإسلام، حلفا أن تنصر فيه القبائل المظلوم، وتأخذ حقه من الظالم. وقد أشاد الرسول به. ولو كان حاضرا لكان أحد موقعيه. فالإسلام هو العدل. لا فرق بين مسلم ونصراني ويهودي. وإمام كافر عادل خير عند الله من إمام مسلم ظالم. وعلى العدل قامت السماوات والأرض. ومن وصايا الإسلام عدم الطغيان في الميزان، والوفاء بالكيل[4]. وقد حول الحلف الخلاف بين القبائل إلى تعاون بينها، والحرب بينها إلى سلام، وروح الجاهلية إلى روح الإسلام قبل

(١) السابق جـ١/ ١٣١-١٣٩.

(٢) السابق جـ١/ ١٣٧-١٣٩.

(٣) وتسمى أيضا أم رُحْم، كوثي، الإشارة ص٥٥-٥٧.

(٤) ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

أن يظهر. فالإسلام دين طبيعي قبل أن يكون دينا سماويا للتأكيد عليه. وقد عقد الحلف في قريش. وحضره بنو هاشم وبنو عبد المطلب وغيرهم من القبائل. وقد استمر الحلف نموذجا للعدل حتى بعد ظهور الإسلام. يهابه الناس ويحترمونه ويلجأون إليه كحكم ومرجع[1]. يفرح به المسيحيون العرب لأنه يؤكد القيم الإسلامية دون ذكر للدين. ويسر به العلمانيون العرب لأنه أحد أشكال العلمانية، التأكيد على القيم الإنسانية دون ربطها بالدين[2].

وسمي «الفضول» إما لأن الداعين له كانت أسماؤهم «الفضل» أو لرد الفضول إلى أهلها. وكان قبل البعثة بعشرين عاما. وكان الدافع إليه منع أحد العرب دفع ثمن ما اشتراه الآخر. فاستصرخ المظلوم العرب[3]. فاجتمع الفضلاء من العرب، وعقدوا الحلف، وردوا للمظلوم حقه. وقد استمر ذلك الحلف لأخذ حق المظلوم من الظالم بعد الإسلام. فقد نازع الحسين الوليد في حق. وهدد بالدعوة إلى حلف الفضول.

كان الوعي العربي ناضجا تاريخيا لاستقبال الدين الجديد. وكان ممهدا لتبني الرسالة بعد أن لم تستطع ديانات العرب وأحلافهم جذب كل العرب وتوحيدهم. فالإسلام مرحلة في تطور الوعي الأخلاقي العربي، وتقدم الوعي التاريخي البشري. فأصبح من

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٣٩-١٤١، «تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه. وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته». وقول الرسول «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حُمُر النعم ولو ادعى به في الإسلام لأجبت»، السابق جـ١/ ١٤٠، الإشارة ص٧٩، السيرة النبوية ص٢٨-٣٢، ٣١-٣٣، ١١٢-١١٣، صحيح السيرة ص٣٥-٣٧، الرحيق المختوم ص٥٩. «شهدت مع عمومتي في دار ابن جدعان من حلف الفضول ما لو دعيت إليه اليوم لأجبت»، سيرة النبي ص١١٦، السيرة الحليمة جـ١/ ١٨٨-١٩٢، حياة محمد ص١٠٦، نور اليقين ص١٦، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٣٤-١٣٥، مختصرة سيرة (٢) ص٢٠.

(٢) ويركز جورج جبور من سوريا كل جهوده على إبراز دور هذا الحلف في تاريخ العرب الماضي والحاضر.

(3)

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ∴ ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقضي عمرته ∴ يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت كرامته ∴ ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

ابن هشام جـ١/ ١٣٩-١٤١.

السهل إقامة الدين الجديد على الأخلاق بدليل حلف الفضول، ونصرة المظلوم على الظالم. وتبدو الأسس الأخلاقية في بيعة العقبة الأولى[1]. كما عقد الرسول ميثاق مؤاخاة بين المؤمنين بعد الهجرة إلى المدينة. فالناس أمة واحدة، يتعاملون بالقسط والمعروف، دون ظلم أو عدوان، ودماؤهم حرام فيما بينهم[2]. والعقل البديهي والأخلاق الطبيعية ما يلتقي عليه البشر بصرف النظر عن دين الوحي. وهو ما سماه المعتزلة «الحسن والقبح العقليين». كما يقوم الدين على الاقتناع الشخصي لدرجة البكاء مثل خطبة الرسول في الأنصار عندما بدأت بعض الهمهمات على قسمة الغنائم بأنه فضل لهم الآخرة على الدنيا[3].

٦- عقائد العرب وعاداتهم

وقد ارتبطت الرسالة الجديدة بتاريخ العرب قبلها وتكوينهم اجتماعيا، وعقائدهم وعاداتهم مثل القبلية وزيارة المسجد الحرام والمعجزات والجن والشياطين، والرؤى والأحلام والنبوات. فالوحي لم ينزل في فراغ بل خاطب ثقافة معينة هي الثقافة العربية. الوحي ليس فقط محمولا بل له حوامله الافتراضية: اللوح المحفوظ الذي دون فيه العلم الإلهي قبل أن يأخذ منه جبريل، وينزل به على الأنبياء والرسل، جبريل الوسيط بين اللوح المحفوظ والنبي، والنبي الوسيط بين جبريل والمرسل إليهم. والمرسل إليهم العرب وغير العرب، البشر جميعا وقدرتهم على الفهم[4]. هناك الحوامل المعرفية، ثقافات العرب ودياناتهم التي من خلالها خاطبهم الوحي لتغييرها مثل الشرك ووأد البنات أو لتأكيدها مثل بعض القيم العربية «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» مثل الشجاعة والوفاء والإجارة والشرف والشهامة والكرم. وقد بعث النبي في شبه

---

(١) «تعالوا، بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف»، السيرة النبوية ص١٤٣-١٤٤/ ٤٠٩.

(٢) السابق ص١٨٧-١٨٨.

(٣) السابق ص٤٢١.

(٤) من النقل إلى العقل جـ١ علوم القرآن، من المحمول إلى الحامل، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩. صور من المجتمع العربي الجاهلي: الحالة الاجتماعية، الحالة الاقتصادية، الأخلاق، الرحيق المختوم ص٤٣-٤٧.

الجزيرة العربية للعرب لفطرتهم وصفاء قلوبهم وإرادتهم القوية وصراحتهم وصرامتهم وواقعيتهم وعزمهم والجد في العمل وروح الامتثال للحق. وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة. يكرهون النفاق. يهيمون بالحرية والمساواة وحب الطبيعة. يعبرون عن الرأي دون خوف(١).

ومن عقائد العرب قبل الإسلام وبعده الكهانة. لذلك اتهم الرسول بعد البعثة أنه كاهن كما تعود العرب. وقد احتكم عبد المطلب وابن الحارث إلى كاهنة بني سعد هُزيْم عندما خاصمتهما قريش في ولاية زمزم بأطراف الشام بالرغم من بعدها عن مكة مما يدل على اتصال جنوب شبه الجزيرة العربية بشمالها(٢). وهناك عرافة الحجاز التي أشارت على عبد المطلب أن يضرب الأقداح فدية لولده عبد الله وزيادة عشرة إبل حتى ينجو عبد الله ففعل حتى مائة من الإبل أي عشر مرات(٣). وكان شق وسطيح كاهنين مع ملك اليمن، ربيعة بن نصر. قص عليهما رؤيته بعد أن جمع السحرة والمنجمين. فقد أجمعا على نهاية ملكه وقدوم نبي(٤). وكان هناك جران قادران على احتمال النار التي تحرق الظالم ولا تضر المظلوم. وكان الكهان والعرافون والمنجمون يقومون بدور الأطباء(٥). وقد انقطع ذلك بعد الإسلام وحلت محله النبوة.

وكان الإيمان بالملائكة أيضا من عقائد العرب استمر بعد الإسلام. يظهر في الشعر. وكانوا موضوع حديث وحوار مع الملهمين مثل الشعراء والكهنة والعرافين. يحملون العلم، ويقدرون على ما لا يقدر عليه البشر. وكان الإيمان بالجن أيضا من عقائد العرب يفسرون به ما لا يستطيعون تفسيره. أكده القرآن. وهم أقل من الملائكة من حيث الصفاء الجسدي والأخلاقي، قادرون على الاستماع إلى الوحي والتلصص على ما يقوله

---

(١) السيرة النبوية ص٤٥-٥٢.

(٢) ابن هشام جـ١/ ٦٠/ ١٤٩-١٥٢/ ١٥٧، ابن خلدون ص٧٥-٨٠.

(٣) السابق ص١٥٨.

(٤) «أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل»، السابق ص٣٧-٤٠/ ٦٠.

(٥) السابق ص٤٧-٤٨.

الناس[1]. والشياطين من الجن كانت تأتي الكهان من العرب بأمر الرسول. وهم أقرب إلى الشر منهم إلى الخير، نقيض الملائكة، والجن وسط بينهما.

ومن عقائد العرب قبل الإسلام الشيطان. ففي رواية أخرى لحفر زمزم أخبر عبد المطلب قريشا أنه أمر بحفر زمزم. فسألوه أين؟ فقال إنه لم يُخبر. فطلبوه بالعودة والسؤال، إن كانت الرؤية من الله أخبره، وإن كانت من الشيطان لن يعود. فعاد عبد المطلب وأخبره الله بمكان الحفر، قرية النمل. ولم تتخوف حليمة على الرضيع من الشيطان لأنه ليس عليه سبيل، وقالت أمه إنه عندما حملت به أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بُصرى من أرض الشام. وضع يديه إلى الأرض ورفع رأسه إلى السماء حين الولادة. وفسر حبران ما يحدث في العين بوجود شيطان يفتن القوم[2]. والشيطان موجود في كل الديانات الشعبية تجسيدا للشر.

والشورى عادة قبلية أصبحت في الإسلام نمط حكم. فكان العربي لا يأخذ قرارا إلا بعد أن يستشير صحبه أو قومه. وتتعدد الآراء. ويأخذها بأقربها إلى نفسه. كان العرب «ديمقراطيين» بالطبيعة. لا يقررون من تلقاء أنفسهم دون استشارة الأقرباء[3]. وكان العربي يسمع الرأي الآخر ويقبله أو لا يقبله عن طيب خاطر من الآخر. وقد تعددت أشكالها الآن في الديمقراطية المباشرة أو الديمقراطية البرلمانية أو الديمقراطية الرئاسية. المهم الهدف وليس الشكل وهو موضع الاستبداد بالرأي والتفرد به والتسلط والتحكم والانفراد بالقرار. فهل حدث انقطاع في الوعي العربي بين الماضي والحاضر، بين الشعوري والتفرد بالرأي؟

وكانت السبايا والغنائم عادات في الحروب العربية، استمرت بعد ظهور الإسلام وانتشاره وغزواته، وقننها الفقه. وقد أصبحت عنصرا مهماً في الغزوات والحروب لدرجة الاختلاف حول قسمتها، ونزول القرآن لحل الخلاف بين المقاتلين. وقد خاصمت فاطمة أبا بكر لأنه لم يعطها نصيبها في فدك. وكان الدافع على غزوة بدر

---

(١) صحيح السيرة ص٥٦-٥٧.

(٢) ابن هشام جـ١/ ٤٨/ ١٥٠-١٥٢/ ١٦٧.

(٣) التشاور حول وضع الحجر في الكعبة، ابن هشام جـ١/ ١٩٤.

الأولى قطع الطرق على تجارة قريش وهي عائدة من الشام، لنشر الدعوة، إضعاف الخصم اقتصاديا. وأحيانا يكون الدافع على الغزوة أو من نتائجها الغنائم والأسلاب لنشر الإسلام. فالجند جند بصرف النظر عن قادتهم العظام من المهاجرين والأنصار. وقبل زواج عبد الله تذكر أنكحة الجاهلية الأربعة[1].

وكان من عادات العرب الاستنكاح كدليل تحالف وتعاون بين القبائل وعلامة مصاهرة ونسب[2]. وقد طبق على الرسول في مكة أيام الاضطهاد. فالمجتمع كله مجتمع مصاهرة ونسب وقرابة في الزواج والمعاهدات والحرب. وكان الرسول يبقي عقد النكاح الأول بعد أن يسلم الزوجان تخفيفا لهما وبيان للتواصل بين ما قبل الإسلام وبعده[3]. فالإسلام لا يبدأ من فراغ بل يبني على ما هو موجود، ويطوره لما هو أفضل.

والرجم والصلب عادات جاهلية استمرت في الحدود الإسلامية. لذلك تقبلها الناس بسهولة[4]. ولم تعد عادات الآن. لذلك يصعب تقبلها. ويشتد النقد لها باسم حقوق الإنسان. واستمرت من اليهودية والقانون الروماني. لذلك حكم على مارية المجدلية في فلسطين بالرجم لولا أن يسوع المسيح عفا عنها بعبارته الشهيرة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر». كما حكم على يسوع المسيح بالصلب. وكان من عادة الرومان إطلاق سراح أحد المحكوم عليهم الثلاثة لولا أن الحكم نفد على يسوع. ظل الرجم حتى الآن في بعض النظم السياسية المحافظة سياسيا أو التقدمية سياسيا والمحافظة تشريعيا. وأصبحت محط هجوم ونقد وتشويه لصورة الإسلام في الحضارات الأخرى. ومازال الشنق عادة تمارس منذ الحروب القديمة حتى العصر الحاضر سواء في قانون العقوبات في معظم الدول العربية أو بعد العدوان الأجنبي على الدول والقبض على قادتها كما حدث في العراق.

---

(١) الأول، نكاح الناس اليوم عن طريق الخطبة. والثاني نكاح الاستبضاع وهو إرسال المرأة كي تستبضع من آخر رغبة في الأولاد. والثالث نكاح الرهط وهو اجتماع عشرة على امرأة فإذا ولدت اختارت أباه منهم. والرابع نكاح البغاء وهو اجتماع الرجال على امرأة دنية، بهجة المحافل ص٤٣-٤٤.

(٢) قال الرسول «إنما هو أبو هند امرؤ من الأنصار فانكحوه وانكحوا إليه»، ابن هشام جـ١/ ٥٦٩.

(٣) السابق جـ٢/ ٣٥٤.

(4) السابق جـ1/ 162.

وكان قطع اليد عقابا للسارق عادة في قريش مثل الذي حدث لمن سرق الكنز في جوف الكعبة[1]. وكان عادة في فارس وعند الرومان وفي مصر القديمة. ومازالت موجودة في البلدان التي تدعي تطبيق الشريعة الإسلامية، وتطبيقها على الفقراء دون الأغنياء، وعلى الضعفاء دون الأقوياء، وعلى المهاجرين دون رعايا البلاد الأصليين، في القليل دون الكثير، دون عمل بقول الرسول «إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف طبقوا عليه الحد».

وكان الشارب واللحية عادة عربية استمرت بعد الإسلام في شبه الجزيرة العربية[2]. تبناها الرسول لأنه عربي، وليس لأنه رسول. وظلت علامة مميزة للعربي المسلم داخل الجزيرة العربية وخارجها. ولا ترتبط بالإسلام في شيء. وقد انتشر الإسلام الآن خارج شبه الجزيرة العربية. وأصبح عدد المسلمين غير العرب أضعاف المسلمين العرب. كل يظهر بمظهر قومه، ويلبس لباسها.

المهم هو تأكيد التواصل بين الجاهلية والإسلام وليس التقابل الوعظي بينهما مثل تحريم نكاح الأمهات والبنات والجمع بين الأختين أو الزواج بامرأة الأب وغيرها من العادات مثل الاغتسال من الجنابة والمداومة على المضمضة والاستنشاق وعزق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان وقطع يد السارق اليمنى والحج والعمرة[3]. وتتواصل أخلاق الجاهلية في الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. وكان الإسلام قد زاد خمس عقائد: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. كما زاد الأركان الخمسة ثم زاد بعض قيم الزهد في الدنيا[4]. وعلى هذا النحو تكتمل النبوة[5].

(١) السابق جـ١/ ١٩١.
(٢) ابن خلدون ص١٥٧.
(٣) خلاصة سيرة الرسول ص٣٦/ ٤٣٥.
(٤) «لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا في ما عليه تقدمون وفيه تخلدون»، السابق ص٤٣٥.
(٥) «كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»، السابق ص٤٣٥.

جاء الدين الجديد بعد أن ساءت أخلاق العرب. فتشي الخمر والقمار ووأد البنات وقطع الطرق والغارات. وكانت المرأة تُورث كالمتاع. وتعدد الزوجات بلا حدود. وفرق بين الرجل والمرأة حتى في الطعام. سادت العصبية القبلية. وعم الربا بين العرب اليهود. يصل إلى درجة الضعف. وكان للرجل خليلات كما يشاء، وإكراه النساء على الزنا، تؤكل حقوق المرأة، وتؤخذ أموالها، ويحرم إرثها، وتورث كالمتاع، ويقتل الأولاد خشية الفقر[1].

٧- عبادة الأصنام

والقوة الثالثة في شبه الجزيرة العربية ولها دينها هم العرب، عبدة الأصنام[2]. وكان عمرو بن لُحى هو أول من غير دين إسماعيل وعبد الأصنام طبقا لقول لرسول[3]. جلب الأصنام من الشام إلى مكة ومنها هبل بالإضافة إلى بقايا دين إبراهيم من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة والتلبية[4]. وقد كان لقوم نوح أصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا[5]. وعبدت كل قبيلة صنما شركا مع الله[6]. وإساف ونائلة عند زمزم ينحرون عندهما رجلا وامرأة مسخهما الله حجرا عندما وقع الأول على الثاني. وكان للعزى سدنتها لقريش وبني كنانة. وكان للات أيضا سدنتها لثقيف بالطائف. وكانت عناة سدنتها للأوس والخزرج. وهدم الرسول ذي الخلصة وفلس. ومن الأصنام أيضا رتام والمستوفر وذو الكعبات، ولكل سدنته.

---

(١) السيرة النبوية ص٣٩-٤٤، خاتم الأنبياء ص٦-٩.

(٢) ابن هشام جـ١/ ٩٠-١٠١، ابن خلدون ص٢٠. وقد تنبأ الرسول بهلاكه بقوله «رأيت عمرو بن لُحى يجر قصبه في النار فسألته عمن بيني وبينه من الناس فقال هلكوا»، ابن هشام جـ١/ ٩٠.

(٣) «إنه كان أول من غير دين إسماعيل. فنصب الأوثان وبحر البحيرة، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي»، السابق ص٩٠.

(٤) لذلك قال القرآن ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

(٥) ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

(٦) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. الأسوة الحسنة جـ١/ ١٤٥-١٤٧. مختصر السيرة (١) ص٤٧-٥٠، الوثنية في مكة، تاريخها ومصادرها، السيرة النبوية ص٧٤-٧٧.

خرج محمد بن لحى من مكة إلى الشام. فلما قدم مآب وبها العماليق ولد عملاق من ذرية نوح رآهم يعبدون الأصنام تمطر وتنصر. فأخذ منهم هبل إلى أرض العرب. ونصبه في مكة. وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[١]. وكانت هذه أول عبادة للحجر في ذرية إسماعيل كما كانت قبل إبراهيم. وكانوا يدعون له. واستمر هذا الدعاء بعد ظهور الإسلام مع حذف الشرك منه[٢]. وقد تعجب العرب من جعل الآلهة إلها واحدا في تعبير لهم تحول إلى آية قرآنية[٣]. كانت الاتصالات بين الحجاز والشام قبل الإسلام. واستمرت بعده في عصر الفتوحات. وكانت التجارة تربط بينهما ثم الديانات الوثنية والنصرانية[٤]. وكان الاعتقاد مشاركة الآلهة في تدبير الكون، وقدرتها على النفع والضرر والوجود والفناء[٥].

كان العرب يقدسون من الحيوان البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ويفرقون بين الذكر والأنثى[٦]. فنزل القرآن كي ينظم التعامل معها ويقننها. وربما انتهى الواقع وبقت الدلالة. ولم تعد هذه الحيوانات مركزية في حياة العرب، وبالتالي أصبحت قوانينها قديمة عفى عليها الزمن[٧]. وكان في جوف الكعبة ثلاثمائة وستون صنما. وكانت الآلهة من الحجر. وآلهة أخرى من الملائكة والجن والكواكب. الملائكة بنات الله، والجن شركاء الله. يشاركونه في القدرة[٨].

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٩٠-١٠١.

(٢) «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك»، السابق ص٩١.

(٣) ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، السابق ص٩٦.

(٤) ابن خلدون ص١٦.

(٥) السيرة النبوية ص٢٩.

(٦) البحيرة بنت السائبة، والسائبة الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر سيبت، لم يركب ظهرها ولم يجز دبرها ولم يشرب لبنها إلا حنيف. وما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم خلى سبيلها مع أمها. والوصيلة الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر. وجعلت وصيلة. والحامي الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره لم يُركب ولم يُجز دبره وخلي في إبله يضرب فيها. وإليها أشار القرآن ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، ابن هشام جـ١/ ١٠١-١٠٣.

(٧) عفى عليها الزمن Obsolete.

(٨) السيرة النبوية ص٢٩.

وبدأ انحلال السلطة في مكة ونقد الوثنية. فكان الزمن مواتيا لظهور دين جديد يعيد السلطة إلى مكة، ويعطيها عقيدة جديدة للحفاظ على هذه السلطة[1]. مكة مدينة لا قرية. تجددت عدة مرات، منها مرة على يد قصي بن كلاب. بها حياة منتظمة، ومناصب ومسئوليات موزعة. كانت مركزا للنشاط التجاري وحركتي الاستيراد والتصدير. وكانت مزدهرة اقتصاديا ولها نظمها في العملة والمكاييل. وكان في قريش أثرياؤها ومترفوها. وكانت مزدهرة بالصناعات والثقافة والآداب. لا تخلو من قوة حربية على عكس نواحيها الخلقية والدينية. وكانت كبرى مدن شبه الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية. من مظاهر الرئاسة فيها: دار الندوة، اللواء، الحجابة، السقاية، والرفادة.

٨- عقائد اليمن

وكانت مراكز العمران في شبه الجزيرة العربية قبل الرسالة مكة حيث بيت الله الحرام، واليمن مركز العمران الثاني. وكانت الغزوات باستمرار للجنوب من الأحباش ومن الفرس[2]. لذلك كانت اليمن تضارع مكة في عمرانها وحضارتها. هي اليمن المدخل إلى شبه الجزيرة العربية لغزو الأحباش أو الفرس. وكانت مصدر خطر على الحجاز، مكة والمدينة كما حدث مع أبرهة. تمثل الخاصرة الضعيفة في الدفاع عن شبه الجزيرة العربية من البحر. وكانت مصدر قلاقل وتقلبات سياسية يختلط فيها الدين بالسياسة، والكهانة بالسلطة، والرؤية بالحكم. نشأ الإسلام ضمن هذه الحركات والتقلبات السياسية في شبه الجزيرة العربية وعلى نفس النمط وكجزء منها، أضعفها مرة، وأقواها مرة أخرى. لم يكن للعرب نظام سياسي خاص بل كانوا يخضعون لنظام قبلي باستثناء اليمن التي كان يحكمها ملوك مثل سبأ. وكانت مطمع الأحباش والفرس[3].

كان لليمن موقع متميز داخل شبه الجزيرة العربية وامتدادها على الخليج خلال حضرموت وعمان. فصول أمطارها منتظمة جعلت أرضها وجبالها خضراء. فاستقر

---

(١) حياة محمد ص١١٣-١١٤، السيرة النبوية ص٨٣-٩٥، خاتم الأنبياء ص١١-١٢.
(٢) ابن هشام جـ١/ ٨٣-٨٤.
(٣) خاتم الأنبياء ص٧-١٢.

فيها البدو. ونشأت التجمعات السكانية في عدن وصنعاء. ونشأت الحضارات كما حدث قديما حول سد مأرب والملكة سبأ. انتشرت فيها اليهودية والنصرانية. وكانت على علاقة بالحبشة وحضارتها خلال مضيق عدن. حكمتها فارس والحبشة على التوالي. فنشأ صراع بين آسيا وإفريقيا على أرض اليمن. ثم انهار سد مأرب. وظلت العادات البدوية هي السائدة بالرغم من توالي الحضارات الفارسية والرومية عليها. وظلت الوثنية سائدة بالرغم من انتشار المجوسية واليهودية والمسيحية. وقويت الوثنية لتناصر الفرق المسيحية وجدلها العقائدي. وظلت عبادة الأصنام قوية، دينا وطنيا لليمن، وليس دينا وافدا من الشرق أو الغرب. كان أول ملوكهم يعرب بن قحطان انتزعه من بقى من قوم عاد[1]. وقد أشار القرآن إلى سد مأرب. وكان موجودا باليمن أيام سبأ في عصر سليمان[2]. وشيد السد لحماية الناس من السيل مما يدل على مدى التقدم العمراني في اليمن، وعلى مدى الصلة بين وسط الجزيرة العربية في الحجاز وجنوبها في اليمن.

كانت اليهودية أيضا في اليمن. فقد سار ذو نواس بجنوده ودعا الناس إلى اليهودية، وخيرهم بين الدين والقتل فاختاروا القتل فخذلهم الأخدود. وحرق من حرق بالنار. وقتل بالسيف، ومثل بهم، وقتل منهم الآلاف. وهو ما وصفه القرآن بعد ذلك[3]. وقتل ذو نواس إمام اليهود ابن الثامر ودفن. فوجده رجلا قاعدا واضعا يده على ضربة في رأسه وإلا انبعثت منها الدماء وفي يده خاتم مكتوب عليه «ربي الله». وكان ذلك في عصر عمر الذي أمر بدفنه من جديد. فالجو كله إيمان وكفر وشهادة ومعجزات. وهو الجو الذي خرج منه الإسلام. فالإسلام ليس غريبا عن البيئة التي نشأ فيها. لم يأت من خارجها مثل النصرانية من الشمال أو المجوسية من الشرق بل أتى من قلب شبه الجزيرة العربية تطويرا لثقافاتها ودياناتها وعاداتها وأعرافها.

وأراد تبان ملك اليمن قتال أهل المدينة فمنعه يهوديان من بني قريظة لوجود من

---

(١) حياة محمد ص٧٢-٨٠، سيد الأنام ص٤٣-٤٥.

(٢) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾، ابن هشام جـ١/ ٣٥-٣٧.

(٣) ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، ابن هشام جـ١/ ٥٤-٥٥.

يخرج من الحرم من قريش، تكون المدينة داره وقراره. فرجع عما نواه. واعتنق النصرانية. وكسى البيت وعظمه. فاليهود هنا يعرفون بقدوم النبي. والرؤى كانت شائعة عند الملوك. والبيت كان محط تعظيم وتقديس واحترام، يطاف به، وتحلق الرؤوس ... وهو بيت إبراهيم الذي نجسه أهله بالأوثان. وينحر عنده. نهى عن البغي فيه. وجعل له بابا ومفتاحا. وعاد إلى اليمن داعيا قومه إلى النصرانية. واحتكم إلى النار التي تحرق الظالم ولا تحرق المظلوم مثل نار إبراهيم التي كانت بردا وسلاما عليه. فأكلت النار الأوثان دون تبان وقومه. ودنا منها حبران يتلوان التوراة حتى عادت إلى مكانها. وكان هذا بداية دخول النصرانية واليهودية إلى اليمن. وهو تاريخ أسطوري خيالي يقوم على المعجزات على نمط إبراهيم. وقد وُجد في اليمن حجر نقشت عليه أجزاء من الزبور[1].

ودخلت النصرانية نجران. وكان أهلها أهل فضل واستقامة[2]. وكان فيميون يصلي. فخرج عليه تنين فدعا عليه فمات. فرآه صالح قد دخل النصرانية. واستمر في شفاء الناس كما فعل المسيح. فعطف إلى نجران. وكان الناس يعبدون نخلة. فدعا عليها فيميون فاقتلعتها الريح. وكان أهل نجران مشركين لهم ساحر من قبل. يعلمون أهلها السحر. وكان وهب بن منبه في خيمة يصلي ويعبد الله. فأعجب أحدهم به حتى أسلم. ووحد الله، وآمن بشريعته. وضربت الأقداح، بعد كتابة كل اسم من أسماء الله على قدح وأضرمت النيران. وقذفت الأقداح واحدا تلو الآخر إلا القدح الذي عليه الاسم الأعظم فخرج من النار. جذور الإسلام إذن في النصرانية، وجذور النصرانية في الشرك. هو دين واحد يتجلى وينكشف تدريجيا. وكان النصراني يشفي المرضى. ولم تنفع معه عذابات قومه له من طرحه من على الجبل أو قذفه في الماء. ثم دخل أهل نجران النصرانية. فنفس الظروف التي ولدت اليهودية والنصرانية كدينين في اليمن هي التي ولدت الإسلام.

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٤٢-٤٨.

(٢) السابق جـ١/ ٥١-٥٤.

وقد ذكر القرآن قصة الفيل[1]. رواها بحيث أبرز دلالتها وهو استحالة العدوان على بيت الله الحرام وأمنت قريش على مالها، ونزع منها الخوف[2]. وأعطاها الثقة بنفسها على أنها قادرة على الدفاع عن البيت الحرام، وأن الإسلام وسيلة ناجعة لذلك بعد أن أصبح مركزه وأحد شعائره. والقصة أن فردوس استنصر قيصر الروم على ذي نواس. فاستنصر القيصر ملك الحبشة وهو على دين النصرانية. فأرسل أرياط ومعه أبرهة. فانهزم ذو نواس. ودخل أرياط اليمن وملكها. ثم غلب أبرهة. وقتل أرياط وملك اليمن. وغضب النجاشي على أبرهة ثم رضي عنه[3]. ثم بنى أبرهة كنيسا ليس على الأرض مثله ليحج العرب إليها. فغضب رجل من النسأة وهم الذين كانوا يخلطون الأشهر الحرم بالأشهر الحل، وقد أشار إليها القرآن[4]. ثم حمل أبرهة على الكعبة ليهدمها. وهزم ذي نفر الذي أراد الدفاع عنها. ثم هزم نفيل وابن معقب. واستسلم أهل الطائف له. وخان أبو رغال، ومات، ومازال قبره يُرجم. واعتدى الأسود من رجال أبرهة على مكة وممتلكات قريش. واستنصر عبد المطلب في الكعبة بالله على أبرهة. وطلب أبرهة الاتفاق مع سيد قريش عبد المطلب على تركهم آمنين بشرط هدم الكعبة. طلب عبد المطلب إبله. وقال قولته المشهورة «إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه». ثم استنصر عبد المطلب العرب. ودخل أبرهة مكة. وبرك فيله ولم يتحرك. وأرسل الله عليهم طيرا من البحر مع كل طائر ثلاثة أحجار، واحد في المنقار واثنين في الرجلين مثل الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك. وأصيب أبرهة تتساقط أنامله. وانصدع صدره وخرج قلبه ومات «فيما يزعمون» أي أن الرواية فيها شك. ورُؤي قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس. واستعظم العرب قريش بعد حادثة الفيل.

---

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾، السابق جـ١/ ٧١.

(٢) ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، السابق جـ١/ ٧١، الإشارة ص٥٨-٥٩، السيرة النبوية ص٧٧-٨٠، خاتم الأنبياء ص٢٣-٢٩.

(٣) ابن هشام جـ١/ ٥٦-٧٨.

(٤) ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، السابق ص٦١، مختصرة سيرة (١) ص٣٥-٣٧.

ثم خرج سيف بن ذي يزن وملك وهرز على اليمن. وطلب مساعدة قيصر الروم الذي لم يقدم شيئا له. فاشتكى إلى كسرى عن طريق النعمان بن المنذر عامله على الحيرة فعاونه بالجند الذين كانوا في السجن والمال على هزيمة الأحباش. فرفض كسرى توريط جيشه في بلاد العرب لبعدها وقلة خيرها. وأخيرا بعث مساجينه حوالي ثمانمائة معه للحرب في سفينتين إلى عدن غرقت واحدة. وانتصر الباقي على مسروق بن أبرهة. وكان سطيح وشق الكاهنين قد تنبأ من قبل بهزيمتهم. وظل ملوك الفرس باليمن حتى بعثة الرسول[1].

اليمن إذن مصدر الأديان في شبه الجزيرة العربية، اليهودية والنصرانية[2]. فقد كان فيها حجر أو كتاب، الزبور، دُون في الزمان الأول كتبَ فيه لمن الملك؟ لحمير الأخيار أو للحبشة الأشرار أو لفارس الأحرار أو لقريش التجار؟ وهو خليط من اليهودية وكتاب سليمان ومن توالى من الحكام على اليمن، الحبشة الأشرار أو الفرس الأحرار الذين حرروها من الأحباش؟[3]. أما صورة قريش فإنهم تجار. وإليها ينتسب الرسول. وفيها قال «الحكمة يمانية». وبمسجدها مازال أقدم المصاحف. وعلماؤها حملة الحضارة الإسلامية. وثوارها من الزيدية التي تجمع بين التشيع والاعتزال. حافظوا على نقاء الإسلام الأول من التسلط الأموي في الدين وفي السياسة، في الفرقة الناجية وطاعة الإمام.

٩- ديانات فارس والهند

والمدخل الثاني لشبه الجزيرة العربية في الأهمية هو الشمال الشرقي من ناحية الخليج والعراق حيث كان يعيش ملك الحضر، النعمان بن المنذر تحت ولاية كسرى. وقد غزى كسرى سابور ساطرون ملك الحضر بخديعة من ابنته ثم قتلها كسرى هي الأخرى فيما

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٧٨-٨٢.

(٢) السابق جـ١/ ٨٥.

(٣) «لمن ملك ذمار؟ لحمير الأخيار. لمن ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار. لمن ملك ذمار؟ لفارس الأحرار. لمن ملك ذمار؟ لقريش التجار»، السابق جـ١/ ٨٥.

بعد[1]. ولم تنتشر ديانات فارس الزرادشتية أو المزدكية أو المانوية كما انتشرت النصرانية واليهودية في شبه الجزيرة العربية. كانت الثقافة في شبه الجزيرة العربية أقرب إلى التوحيد، والثقافة في فارس أقرب إلى الثنوية. وكانت القومية العربية الحالة في اللاوعي العربي، وحدة العرب، اللغوية والثقافية والسياسية، مانعا من التغلغل الفارسي الذي كان أيضا حريصا على اللغة الفارسية والثقافة الفارسية والقومية الفارسية. ومازالت بقايا ذلك حتى الآن في الحضور الفارسي على الضفة الغربية للخليج، والحضور العربي على الضفة الشرقية له. ولم يختف تماما حتى بعد الثورة الإسلامية الأخيرة في إيران والخلاف على تسمية الخليج، عربي أم فارسي، وعلى هوية الخليج، وعلى السيادة على الجزر الثلاث في مدخل الخليج بالرغم من تشابك المصالح والأخطار بين العرب وإيران حاليا، المصالح في الأمن القومي والتنمية، والأخطار من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. وقد انقسمت الأنظمة العربية تجاهها قسمين، الأول يعاديها مفضلا التحالف مع أمريكا وإسرائيل، والثاني يصادقها باعتبارها الظهير المساند للقضايا العربية ضد العدوان الأمريكي الإسرائيلي.

وفيما بعد أرسل كسرى رسولا يستتيب الرسول وإلا فرأسه. فرد عليه الرسول «إن الله قد وعدني أن يُقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا»[2]. وقتل كسرى في اليوم الذي حدده النبي. فنبوءة النبي حق. واعتبر الرسول الفرس منه وهو منهم[3]. وهو أيضا تحقيق نبوءة سطيح وشق[4]. وقد أنشد الأعشى فيهما شعرا لصدقهما. فلا يوجد خلاف جذري قومي بين العرب والفرس على ضفتي الخليج أو في اليمن.

وعبد المجوس العناصر الطبيعية، وأولها النار. يبنون لها الهياكل والمعابد. وانتشرت بيوت النار، وكان لها آداب وشرائع كما تحولت إلى مجموعة من الشرائع والطقوس في

---

(١) السابق جـ١/ ٨٥-٩٠.

(٢) السابق جـ١/ ٨٤-٨٥.

(٣) «أنتم منا وإلينا أهل البيت»، «سلمان منا أهل البيت»، السابق جـ١/ ٨٤.

(٤) قال سطيح «نبي زكي يأتي بالحق والعدل من أهل الدين والفضل يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل»، السابق جـ١/ ٨٥.

المعابد أو خارجها طبقا للأهواء دون التزام بمبدأ أو خلق[1]. يعبدون الشمس أربع مرات في اليوم، والقمر والنار والماء. ولهم أدعية خاصة عند النوم والانتباه والاغتسال ولبس الزنار وحلق الشعر وقلم الأظافر وقضاء الحاجة وإيقاد السراج. لا تنطفئ النار، ولا يصدأ المعدن. يستقبلون النار في صلاتهم. ومنهم من كان ثنويا وآمن بإلهين، النور والظلمة، الخير والشر، آهورمزدا أو يزدان وأهرمن. والصراع بينهما قائم إلى آخر الزمان دون أن يتغلب أحدهما على الآخر. ولا تختلف أساطيرهم عن الأساطير الهندية واليونانية القديمة.

وعمت الزرادشتية الإمبراطورية الساسانية. خلفت المزدكية. تقوم على الصراع بين النور والظلمة، والخير والشر، والروح والجسد. وجوّدها ماني مضيفا حياة العزوبة من أجل الخلاص. ثم تلاه مزدك ليبيح الأموال والنساء واشتراك الناس فيهما. ثم تلته ثورات الفلاحين، واستولى الفقراء على قصور الأغنياء. حكم الملوك بالوراثة. واعتبروا أنفسهم آلهة فوق البشر. ثروة الدولة لهم يتمتعون بها كما يشاءون. لهم إيوان وتاج وقصر وجوار وغلمان وخدم ومغنون وطهاة. ولما هرب يزدجرد من الفتح الإسلامي أخذ معه ألفا منهم. وساء حال الناس من الضرائب والخدمة العسكرية[2]. فكان الجو مهيئا لظهور دين جديد.

وتحولت البوذية في الهند وآسيا الوسطى إلى وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت. وتبني الهياكل وتقيم تماثيل بوذا حيث حلت دون إيمان واضح بإله خالق[3]. برزت الهند في الرياضة والفلك والفلسفة، لكنها كانت في القرن السادس الهجري في عصر انحطاط، لا قيمة للمرأة ولا عصمة لها. يخسرها الرجل في القمار. لا تتزوج بعد أن تصبح أرملة. وتفضل حرق نفسها بعد وفاة زوجها. تفاوتت فيها الطبقات. وتمايزت

---

(١) السيرة النبوية ص٢٦-٢٧. ويعتمد على كتاب «إيران في عصر الساسانيين» لأرثر كرستنسن، و«تاريخ إيران» لشاهين مكاريوس.

(٢) السيرة النبوية ص٣٣-٣٦. ويعتمد على كتاب: «خطط الشام» لمحمد كرد علي، «إيران في عهد الساسانيين» لأرثر كرستنسن، وتاريخ الطبري.

(٣) السيرة النبوية ص٢٧. ويحال إلى «الهند القديمة» لايشورا توبا، و«اكتشاف الهند» لنهرو، ومقال «بوذا» في دائرة المعارف البريطانية.

أربع: الكهنة ورجال الدين وهم البراهمة، رجال الحرب والجند وهم الشترى، رجال الفلاحة والتجارة وهم الويش، رجال الخدمة وهم الشودور، أقل الطبقات. ليس لهم الحق في اقتناء المال أو مجالسة الطبقات الأخرى. سادت الهند الحروب والتمزق وسوء الإدارة والاضطراب واختلال الأمن، وإهمال شئون الناس. تعيش في عزلة عن العالم. يسيطر عليها الجمود والتخلف والتطرف والتعصب. وهرب المنبوذون خارج مدنهم وقراهم[1].

والبرهمية دين الهند الأصيل. امتلأت بالمعبودات والإلهات. وصل عددها إلى ثلاثمائة وثلاثين مليونا. كانت وثنية. وتحول بوذا إلى إله أكبر[2].

وكانت أوروبا في الشمال والغرب غارقة في الجهل والأمية والحروب بعيدة عن مسار الحضارة. لا شأن لها بالعلم. كانت أجسامهم قذرة، ورءوسهم مملوءة بالأوهام. يغالي الرهبان في تعذيب الأجسام من أجل خلاص الإنسان. يبحثون سؤال إذا كانت المرأة حيوانا أم إنسانا؟ هل لها روح خالدة أم فانية؟ هل لها حق البيع والشراء؟[3]. فجاء الدين الجديد لينقذ العالم القديم حول البحر الأبيض المتوسط وبحر قزوين من الجهل والتخلف والطغيان.

---

(١) السيرة النبوية ص٣٦-٣٨. ويعتمد على كتاب:
Vidya Dhar Mahajan: Muslim Rule in India، New Delhi، ١٩٧١، p.٣٣.

(٢) السيرة النبوية ص٢٨-٢٩. ويُحال إلى كتاب «الهند القديمة» لـ آر. سي. دوت، «الهندوكية السائدة» لـ :
L.S.S. Omalley C.V. Vaida: History of Mediaeval، Popular Hinduism، Hindu، Poona، 1921، p.101.

(٣) السيرة النبوية ص٣٨-٣٩. ويعتمد على «تاريخ الفلسفة» لثيلي Thilly، و«تاريخ الأخلاق الأوروبية» لليكي Lecky، وكتاب لروبيرت بريفو: R. Briffault: Making of Humanity، p.64.

الفصل الثاني

نشـــأة الرسالــة

١ - الميلاد والرضاعة

تعني «نشأة الرسالة» المرحلة منذ ولادة الرسول حتى بداية الوحي. ولا يقال ولادة الرسول حتى يستبعد تشخيص الرسالة في الرسول. بل يقال هي مرحلة الإعداد لنزول الوحي، واختيار الوسيلة بين المرسِل والمرسَل إليهم. فالوحي في السماء لا يحتاج إلى إعداد، إما في الذهن الإلهي كجزء من العلم أو في اللوح المحفوظ كأول تدوين له أو في ذهن جبريل قبل أن يبلغه للرسول أو في ذهن الرسول قبل أن يبلغه للناس «دثروني... دثروني...»، «زملوني... زملوني»، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1].

وتبدأ هذه الفترة بمولد والد الرسول عبد الله بن عبد المطلب وكيف أن ميلاده أيضا كان معجزة، وحياته معجزة، فداؤه بالإبل بعد ضرب الأقداح وخروجها عاشر مرة على الإبل كما هو الحال في الإنجيل في مولد اليصابات والدة مريم عندما بشرتها الملائكة بها قبل ولادتها بيسوع المسيح. فالمعجزة ممتدة إلى ما قبلها، المعجزة تولد بمعجزة، والمعجزة تتولد من معجزة. المعجزة سنة وقانون في التاريخ المقدس. وهم أهل الفترة بين عيسى ومحمد.

(١) السيرة النبوية جـ١/ ٣٣-٣٨، عيون الأثر جـ١/ ٧٥-٧٩، خير العباد ص١٧-٢٠، ألفية السيرة ص٣٥-٣٨، نور الإبصار ص١٣-١٤، إسعاف الراغبين ص٧-١٢، حياة محمد ص٩٨، مختصر سيرة (١) ص١٨، مختصر سيرة (٢) ص٤١-٥٥، السيرة النبوية ص١٥-١٩، خاتم الأنبياء ص٧٥-٨٢، خاتم الأنبياء ص٣٠-٣١، خير الورى ص٧٥٨، الرحيق المختوم ص٥٤-٦٤، عبقرية محمد ص١١-٢٢، رسول الحرية ص٧-٢٠، الصادق الأمين ص٥.

وقد نذر عبد المطلب ذبح ولده إن بلغوا عشرة ليؤزروه شكرا لله على حفر زمزم وانتصاره على قريش في منازعته إياه[1]. واتفقوا على ضرب الأقداح بعد كتابة اسم كل ابن على قدح أمام هبل في جوف الكعبة. وكان يكتب على كل قدح على عادة العرب «الفعل»، «نعم»، «لا»، «منكم»، «من غيركم»، «ملصق»، «الحياة». وخرجت على عبد الله. وشرع أبوه في ذبحه وهو أحب ولد له. وخرجت القداح على عبد الله والد الرسول. فنصحته قريش استشارة عرافة الحجاز. فنصحته ضرب الأقداح عشر مرات، وفي كل مرة عشرا من الإبل حتى يرضى الرب. ونجى عبد الله في المرة العاشرة، فكانت تكلفته مائة من الإبل. وتدل كل هذه الروايات على مدى تدخل العناية الإلهية في التاريخ ومسار حوادثه قبل نزول الوحي في إنقاذ والد الرسول. وفي رواية سابقة في الإنجيل نبأ الملاك اليصابات بولادة مريم أم المسيح.

وفي رواية أخرى، عرضت امرأة نفسها على عبد الله بن عبد المطلب أن يقع عليها وكان مع أبيه قبل أن يزوّجه آمنة أفضل امرأة في قريش. ولم تعرض المرأة الأولى نفسها عليه مرة أخرى، وقالت: «فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة». وكانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنه سيكون في هذه الأمة نبي. وهو تصوير فني يجمع بين حياة العرب قبل الإسلام وبعده، بين النكاح الحر والزواج. فليس الرسول وليد نكاح حر. ولا يدعو أب الرسول إلى نكاح حر بعد زواجه بآمنة. وكانت المرأة أشبه بالمومس الفاضلة التي تحدث عنها الفلاسفة المعاصرون، اضطرتها الظروف لحياتها ولكنها فاضلة تعرف الحق وتدافع عنه. وهي روايات تدل على مدى طهارة والد الرسول. فتصديق ورقة لأخته رواية عن والد الرسول مقدمة لتصديقه لخديجة زوجة محمد عندما أتى إليه الوحي أول مرة.

وفي رواية أخرى أنه دخل على امرأة مع آمنة وعليه طين فدعاها إلى نفسه فتباطأت. فخرج واغتسل وتوضأ فدعته المرأة فأبى. ودخل على آمنة فحملت محمد. فلما دعا المرأة امتنعت وقال «مررت بي وبين عينك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت على ودخلت على آمنة

(١) ابن هشام جـ١/ ١٥٥-١٦١، السيرة الحلبية جـ١/ ٤٨-٦٩، نور الإبصار ص١٤، سيد الأنام ص٥٧-٥٨، على هامش السيرة جـ١/ ١-٣٤، استسقاء أهل مكة بجده وهو معه وسقياهم وما ظهر فيه من الآيات، الخصائص الكبرى جـ١/ ١٨٨-١٩٠، استسقاء أبي طالب به جـ١/ ٢٠١-٢٠٢.

فذهبت بها»[١]. وهنا يبدو عبد الله على الدين الطبيعي الذي يأنف من العلاقة الحرة ويفضل الزواج.

وقد حُدثت آمنة أي أتاها ملك يخبرها أنها حملت بسيد هذه الأمة. فإذا وقع على الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمدا. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام. ثم توفى عبد الله وأمه حامل به[٢]. وتتدخل الملائكة منذ البداية في حمل أم الرسول. وتباركه حين الولادة وتعطيه اسما. خرج منها نور أضاء به المستقبل، الشام وقصور الروم وليس الفرس. فالفرس أقرب إلى العرب من الروم. وتوفى الأب والأم حامل مما يمهد للتعاطف مع اليتيم قبل الولادة. وهو هاتف باطني يحدث لبعض الأمهات لنذر وليدها لمهام عظام في مجتمع يقدر البطولة، ويعشق الأبطال، ويخلدهم الشعر، ويتناقل سيرهم الشعراء والرواة. وحملها تكريما لها وتعظيمها للرسول. كان الطفل خاليا من الوَحَم والوهن وكل ما تعاني منه المرأة من ثقل وآلام للوضع. وهو شيء إنساني خالص لا عيب فيه ولا حرج منه. إنما هو تكريم وتعظيم وتبجيل، وتحويل الواقع إلى مثال، وما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون. وتوفت أمه بعد ولادته[٣].

ويختص بطهارة نسبه أنه لم يخرج من سفاح من لدن آدم[٤]. وعشرات الروايات في ذلك. ويذكر نسب الرسول الأرضي قبيلة قبيلة على طريقة أنساب العرب[٥]. يذكر اسم الأب أو اسم القبيلة بداية بلفظ «بنو» أو «بطون» إلى وما يفوق الخمسين جيلا. وتذكر

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٥٩-١٦٠، السيرة الحلبية جـ١/ ٦٩-٧٤، نور اليقين ص١١-١٢، خير الورى ص٧٥٨، على هامش السيرة جـ١/ ٣٥-٥٣.

(٢) ابن هشام جـ١/ ١٦٠-١٦١، عيون الأثر جـ١/ ٧٧-٧٩، الإشارة ص٥٤-٦٤، صحيح السيرة ص١٣-٣١/ ٥٢. «ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»، «ذكر مولده الشريف ورضاعته ونشأته إلى حين أوان بعثته»، سيرة النبي ص١٠٥-١٢٢، السيرة الحلبية جـ١/ ٧٨-١١٥.

(٣) السيرة الحلبية جـ١/ ١٥٤-١٧١، حياة محمد ص٩٩، الأسوة الحسنة جـ١/ ١١٤-١١٥، سيد الأنام ص٥٩-٦٥، السيرة النبوية ص٢٥-٢٦/ ٩٩، صحيح السيرة ص٤٧-٤٩/ ٥٥. ما وقع في حمله من الآيات، الخصائص الكبرى ص١٠٣-١٠٩.

(٤) الخصائص الكبرى جـ١/ ٩٧-١٠٢. «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»، ص٩٧.

(٥) الجوهر جـ١. هم ٥٤ جيل، قبيلة (٣٤)، أفراد (١٩)، بطون (٢).

قريش مع مناقبها لأنها قبيلة الرسول[1]. لم يأت على عادة الجاهلية بل بنكاح إسلامي شرعي، قراءة للماضي في الحاضر. أتى طاهرا من أصل طاهر. خرج من رحم الأنبياء ومن خير الأصلاب. اصطفى الله إبراهيم ثم إسماعيل ثم بني كنانة ثم قريشا ثم بني هاشم ثم النبي. هو من خير قبيلة، ومن خير نفس، ومن خير بيت. اختار الله من الخلق بني آدم، والعرب من بني آدم، ومضر من العرب، وقريش من مضر، وبني هاشم من قريش، والنبي من بني هاشم. فالنبي خيار من خيار. هو أول وآخر. وأول شافع[2]. رآه عبد المطلب في المنام مثل الولادة[3].

ويُسرد النسب «الزكي» من محمد إلى آدم عن طريق أجيال افتراضية[4]. فليس من المعروف على وجه الدقة متى عاش آدم. هو قبل نوح، ونوح على وجه التقريب في القرن الأربعين قبل الميلاد. وكيف تعرف الأنساب من مصادر شفاهية؟ وما هي المصادر المدونة؟ وحتى الآن لم تستطع علوم البرديات والحفائر والنقوش الوصول إلى سلسلة متصلة لأنساب العرب. لذلك يُكتفى بذكر أنساب العرب ابتداء من إسماعيل ومستبعدا بعض الروايات التي لا تؤيدها أقوال الرسول أو آيات القرآن أو الأشعار التي لا مصدر لها. كما تم استبعاد بعض الروايات المقصود منها التشنيع أو إساءة ذكر الناس أو لا تُعرف روايته. وما يمكن البداية به هو نسب العرب ابتداء من إسماعيل لذلك يقول صاحب السيرة: «فالله أعلم»[5]. اختار الله الخلق ثم اختار منهم بني آدم ثم

---

(١) السابق ص١٣٩-١٥٥.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ٩٧-١٠٢. «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»، ص٩٧. «مازال النبي يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه»، «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»، ص٩٨، «ما ولدني سفاح الجاهلية شيء وما ولدني إلا النكاح كنكاح الإسلام»، ص٩٧.

(٣) السابق ص١٠٢-١٠٣.

(٤) «إن الله اصطفى ولد إبراهيم إسماعيل..»، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، صحيح السيرة ص١١، خصائص الرسول ص١٦٧، أقرباء الرسول جـ١/ ٤٠٩. «لما خلق الله آدم قال... هؤلاء خمسة من ولدك لولاهم ما خلقتك»، النبي الأعظم ص٢٧.

(٥) ابن هشام جـ١/ ٢٥-٢٩/ ٣٥، السيرة النبوية جـ١/ ٣٩-٥٧/ ٦٣، عيون الأثر جـ١/ ٧٣-٧٥، خير العباد ص١٧، الإشارة ص٤٧-٥٤، الفصول ص٣٤-٣٩، صحيح السيرة ص٩-١٢، ألفية السيرة ص٣٢-٣٥، مختصر سيرة (١) ص٥-٨/ ٣٥، مختصر سيرة (٢) ص٨-١٢.

اختار منهم العرب ثم اختار منهم قريشا ثم بني هاشم ثم الرسول. وهو تصور يهودي قديم في الاختيار اجتمع إلى تصور عربي في النسب. فالخلق قسمان. والرسول من خير القسمين[1]. ويضاف «ولا فخر» أي دون تطاول أو تفاخر. وتعدد الأنبياء رجوعا من الرسول حتى آدم[2]. ومن مزايا الرسول على باقي الأنبياء أنه ابن الذبيحين[3]. ولما اقترف آدم الخطيئة سأل الله أن يغفر له شفاعة بمحمد[4].

وتبرز كتب الشمائل اختيار الرسول لنسبه وليس رسالته. فهو المصطفى من بني هاشم من قريش من بني كنانة من إسماعيل[5]. ومن خصائصه شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه[6]. وهي كلها من أحاديث الأنا، الأنا الجمعي، القبلي[7]. ويظهر التقديس في تعبيرات مثل «النسب الشريف»، «الوحي الشريف». وبالتالي تتحول الولادة إلى تعظيم وتشريف قبل أن تصبح خيالا وأسطورة في «محمد الكوني»[8].

---

(١) «إن الله عز وجل اختار خلقه فاختار منهم بني آدم. ثم اختار منهم العرب. ثم اختار العرب فاختار منهم قريشا، ثم اختار قريشا فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم. فلم أزل خيارا من خيار. ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»، بهجة المحافل ص٤٥، «إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني من خيرهم قسما»، ص٤٥-٤٦، أقرباء الرسول جـ١/ ٢٦٠-٢٦١، «قال لي جبريل: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد بني أب خيرا من بني هاشم»، أقرباء الرسول ص٢٦١، «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»، «إن بني عبد المطلب لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»، أقرباء الرسول جـ١/ ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) بهجة المحافل ص٥٦-٥٧.

(٣) السابق ص٥٧-٦٠.

(٤) «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي»، النبي الأعظم ص٢٦.

(٥) «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، الأنوار جـ١/ ٤-٥.

(٦) الشفا جـ١/ ١٠٧-١٠٩.

(٧) «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرنهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة. ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم. فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا»، «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، «إن قريشا كانت نورا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام. يسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه. فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه. فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم وجعلني في صلب نوح. وقذف بي في صلب إبراهيم. ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من صلب أبوي. لم يلتقيا على سفاح قط»، السابق ص١٠٨-١٠٩.

(٨) الإشارة ص٤٧/ ٨٨-٩٠. في نسب الرسول وأسمائه، شمائل الرسول ص٤٥-٥٦، في نسبه الشريف،

وقد رأى عبد المطلب رؤية بمولده. ووقعت عدة آيات في حمله. وقد رغبت امرأة في الزواج من عبد الله قبل آمنة[1]. ويقال إنها أخت ورقة بن نوفل. وفي بعض السير الحديثة بداية التآمر[2]. وقد أمرت آمنة بتعليق تعويذة مما يكشف عن جو السحر الذي ولد فيه الرسول. وقد دُحر أبرهة عام الفيل، عام ولادة الرسول تشريفا له ولبلده. وقد وقعت في حفر عبد المطلب زمزم عدة آيات. وظهرت ليلة مولد الرسول عدة معجزات مثل صراخ يهودي، ونور أضاء قصور الشام، وعدة آيات أخرى من صنع الخيال[3]. لذلك يعلق عليها السيوطي بأن هذه الآيات فيها «نكارة شديدة»، وأحاديث غريبة وتدخل العفاريت والجن، وشق بصره إلى السماء، وركض جبريل من أراد الاطلاع عليه إلى عدن، وحجب إبليس من السماوات السبع في حين حجب ثلاث سنوات في حالة عيسى، واهتزاز ديوان كسرى، وسقوط الأصنام من أعلى الكعبة[4]. ويبدأ تعظيم المولد والنسب منذ البداية[5]. ثم يأتي شرف قومه ونسبه ومآثر آبائه وحسبه كما هي عادة العرب في الفخر بالآباء والأجداد، وبالحسب والنسب[6]. وعام الفيل هو عام ولادته. والانتصار على أبرهة تشريف له ولبلده[7]. كما ظهرت في ليلة مولده معجزات وخصائص[8]. فرأت أمه حين وضعته نورا أضاء قصور بصرى من أراضي الشام.

ومن آياته ولادته مختونا مقطوع السر[9].ورواية ولادته مختنا تكريما له لأنه لا يجوز

شمائل الرسول ص٤٧-٤٩، النسب الشريف والقرابة الطاهرة، معين الشمائل ص١٣-١١٠، النسب الشريف والمولد والأسماء ص١٣-٢١، النسب الشريف ص١٣.

(١) السابق ص١٠٢-١٠٩.

(٢) الصادق الأمين ص١٦٩-١٩٦.

(٣) الخصائص الكبرى ص١١٠-١٣٠.

(٤) نسبه الشريف، السيرة الحلبية جـ١/ ٩-٤٨، نور الإبصار ص١٣، نور اليقين ص٩-١١، سيد الأنام ص٥٠-٥٧. «في فضل مسقط رأسه الشريف، وحمايته من أراد به السوء، وفضل قومه، وطهارة أصله، ونسبه الذكي»، الأسوة الحسنة جـ١/ ٩٢-١١٣، السيرة النبوية ص٩٩-١٠٠، صحيح الرسالة ص٢٥-٢٨، الرحيق المختوم ص٤٨-٥٣.

(٥) «في التعريف بمولده الشريف، وقدره العلي المنيف»، سيرة النبي ص٥٣-٥٨.

(٦) «وشرف قومه ونسبه ومآثر آبائه وحسبه»، السابق ص٨١.

(٧) الخصائص الكبرى جـ١/ ١١٠-١١١.

(٨) السابق جـ١/ ١١٥-١٣٠.

(٩) الخصائص الكبرى جـ١/ ١٣٠-١٣٢، «من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سوأتي»، «أني كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء وسمع وجبته حين يسجد تحت العرش».

إخضاع الرسول لعمليات جراحية أو انتقاص من جسده أو تعرية أعضاء حساسة فيه مثل باقي البشر. وناغى القمر وهو في مهده، وتكلم في المهد مثل المسيح[1]. وتكلم عند فطامه. وظهرت في زمان الرضاعة آيات ومعجزات. وهي روايات مشكوك فيها تحتاج إلى نقد السند ونقد المتن على حد سواء[2]. وولادته مقبوضة أصابع يده مشيرا بالسبابة كالمسيح بها صورة فنية للتوحيد[3]. وهي خيالات شعبية للشهادة، شهادة الأطفال أو الطبيعة. وكان حملها خفيفا. وعندما وقع على الأرض وكأنه واضع يديه بالأرض رافعا رأسه إلى السماء. وهي صورة متتابعة، طرد الشيطان منه، خفة الحمل، وضع يدي الطفل بالأرض ورأسه مرفوعة إلى السماء. كل ذلك توجيه الواقع طبقا للدلالات، وخلق النموذج للوقائع التي تحمله. فالفكر يخلق الواقع من خلال التصور والرؤية ثم الرواية والخبر. وهو خاتم الأنبياء وختم النبوة. ونقش على ظهره خاتم، شعرات مجتمعات ينضح منها مسك. وهو تصور حسي لمعنى تاريخي، نهاية تطور الوحي في التاريخ. وتُذكر الرواية في ولادته وفي شمائله[4]. لم تروه حليمة مرضعته.

حمله جده عبد المطلب إلى الكعبة ودعا الله شاكرا[5]. فسلوك عبد المطلب سلوك إسلامي خالص. ذهب إلى بيت الله الحرام. ودعا الله شاكرا له حتى قبل ظهور الإسلام. كان هناك الإسلام الطبيعي، الإسلام الحنيفي الذي لم يكن في حاجة في عقائده وشعائره، في توحيده وحجه إلى الدين الرسمي. فالكعبة المركز الديني والاجتماعي للعرب. والطبيعة خير هاد كالوحي. وينزل الوحي تأكيدا لها.

ورواية إعتاق أول من أخبر بولادة الرسول واقعة إنسانية خالصة، بشرى حسنة[6].

---

(١) السابق ص١٣٢-١٤٤، الأسوة الحسنة جـ١/ ١١٥-١١٦.

(٢) من النقل إلى العقل (٢) علم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن. الخصائص الكبرى جـ١/ ١٣٢، كلامه في المهد، السابق جـ١/ ١٣٢ «الله أكبر والحمد لله كثيرا».

(٣) الإشارة ص٦/ ٦٠-٦١.

(٤) الأنوار جـ١/ ١٥٤-١٥٧، الخصائص الكبرى جـ١/ ١٤٥-١٤٨، الإشارة ص٦٨-٧٢، بهجة المحافل ص٤٣٨-٤٣٩.

(٥) ابن هشام جـ١/ ١٦٢، عيون الأثر جـ١/ ٧٩-٩٠، ابن خلدون ص٨١-٨٤، السيرة الحلبية جـ١/ ٧٤-٧٨.

(٦) إعتاق أبي لهب ثويبة لأنها أول من أخبره بولادة ابن أخيه، صحيح السيرة ص١٨.

وقد كان الرسول يبشر الناس، ويحب الفأل الحسن. فروح الإسلام عند كاتب السيرة تخلق وقائع لتعبر عنها. لذلك يصعب قبول رواية أن الأبوين في النار ولم تبلغهما الرسالة. على الأقل ينطبق عليهما حكم أهل الفترة. وقد كانت عائلة عبد المطلب على الحنيفية التي أحياها الإسلام. ونظرا لما في ذلك من قسوة على الأبوين تظهر روايات أخرى أنهما في الجنة[١]. وفي رواية أنه ذهب لزيارة قبر أمه فسأل الله أن يحييها له فأحياها فآمنت به. وهي رواية تدل على مدى القرب بين الابن والأم وحرص الابن على نجاة الأم[٢]. وفي رواية أخرى أن الله أذن له برؤيتها دون الاستغفار لها أو يحييها. كل ذلك ضد قسوة رواية أن أبويه في النار. وهو ما يعارض روح الإسلام، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ومن إمارات خارقة للعادة في ولادته البشارة بعالم جديد، وبعث للإنسانية جديد، ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته. غاصت بحيرة ساوا، وخمدت نيران فارس، ولم تخمد منذ ألف عام[٣]. وكلها رموز على نهاية نظام وبداية نظام وتحول جذري في مسار التاريخ.

ولم تقبل المرضعات إرضاع الطفل لأنه يتيم لا أجر له إلا حليمة. كما لم يقبل موصي الرضاع إلا من أمه. فعاد إليها كي تقر عينا مع المفارقة، الطفل محمد أبته المرضعات لفقره والطفل موسى أبى المرضعات لأنهن لسن أمه[٤]. فتاريخ النبوة الجديد موجه بتاريخ النبوة القديم فعلا أو عند الراوي أو عند كاتب السيرة. فلما أخذته حليمة حتى لا ترجع بلا أطفال حتى ولو كان يتيما أقبل عليها ثدياها من لبن فشرب الطفل حتى روى. وشرب بعده أخوه ثم ناما. وامتلأت راحلتها أيضا باللبن فشرب الزوجان. فالإسلام أخوة وأبوة وأمومة. ينعكس على الحيوان، ويستجيب الحيوان له. وقيل لها «تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة»[٥]. فالمعجزة مستمرة منذ رضاعة

---

(١) رد الشيخ أبي زهرة حديث «إن أبي وأباك في النار»، صحيح السيرة ص٢٤-٢٨.
(٢) «ذهبت لقبر أمي فسألت الله أن يحييها لي فأحياها فآمنت بي وردها»، «استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي. فاستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي»، سيرة النبي ص١١٣-١١٤، السيرة النبوية ص٢٥-٢٦، صحيح السيرة ص٥٥، المعجزات اللامعة ص٩.
(٣) السيرة النبوية ص١٠٠.
(٤) ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾، ابن هشام جـ١/ ١٦٣، الخصائص الكبرى جـ١/ ١٣٢-١٣٥.
(٥) ابن هشام جـ١/ ١٦٤-١٦٦، البستي جـ١/ ٣٩-٥٨، عيون الأثر جـ١/ ٩٠-١٠٣، خير العباد

الطفل من ثديين امتلآ باللبن بعد أن كانا جافين وعلى بعير امتلأ باللبن بعد أن كان جافا. فالرخاء رمز الإسلام، والجفاف نقيضه. وهو إحساس داخلي بالوفرة والغنى في حالة الكرم والعطاء. وتستمر المبالغات بإسلام حليمة قبل أن تبدأ البعثة(١). ولم يأخذ الرسول إلا الثدي الأيمن لحليمة ليترك الأيسر لأخيه في الرضاعة، ربما لأن اليمين أفضل من اليسار بناء على قول الرسول «تيامنوا» وحثه على البدء باليمين، اليد اليمنى والقدم اليمنى(٢).

وعندما قدم مع أمه لزيارة أخواله في المدينة ظهرت آيات منها تعرف أحد اليهود عليه. كما نعت آمنة عندما حان أجلها نفسها إلى محمد. واستسقى أهل مكة بجده وهو معه. وظهرت الآيات. وما كان النبي يذهب إلى جده في حاجة إلا نجح فيها. وقد عرف عبد المطلب النبي في قصته مع ابن ذي يزن. وظهرت العديد من الآيات وهو في كفالة عمه أبي طالب(٣).

كان الرسول فخورا بعروبته وقرشيته، عروبته في اللغة فهو أفصح العرب، وأوتي جوامع الكلم، وأرضع في بني سعد، قبيلة عربية أصيلة(٤). وليست العروبة بأب أو أم إنما العروبة هي اللسان. فكل من تحدث العربية فهو عربي. لا تعني العروبة العرق، ولا القرشية القبيلة والنسب. فقد أتى الإسلام لتغييرهما والقضاء عليهما باسم المساواة في البشرية والأخوة في الإنسانية. الرسول عربي. يمارس عادات العرب مثل وضع الملاءة على المرأة كدليل على اختيارها كما فعل في صفية بعد قتل زوجها اليهودي. ولا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن شخصه وقومه وبيئته وعاداته وتقاليده حتى ولو أتاه الوحي

ص٢٢-٢٣، الإشارة ص٦٤-٦٧، الفصول ص٤٠-٥٢، صحيح السيرة ص١٩-٢٣، السيرة الحلبية جـ١/ ١٢٤-١٥٤، حياة محمد ص١٠٠-١٠١، مختصر سيرة (٢) ص١٣، السيرة النبوية ص١٩-٢٥/ ١٠١-١٠٣.

(١) الأسوة الحسنة جـ٣/ ١٢١-١٢٢، خاتم الأنبياء ص٣٢-٣٣، صحيح السيرة ص٤٩-٥٣، على هامش السيرة جـ١/ ١٥٩-١٨٤. شعر حليمة التي كانت ترقص به النبي في زمن صباه، الخصائص الكبرى جـ١/ ١٤٤.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ١٤٤.

(٣) السابق جـ١/ ١٨٦-١٩٥.

(٤) «أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر»، ابن هشام جـ١/ ١٦٨.

وهو في سن الأربعين بعلم جديد، ورؤية جديدة، وسلوك جديد، وشرائع جديدة. لم ينزع نفسه عن بيئته ولا عن ثقافته. أصيل في شخصيته. لم يتبن ثقافة وافدة من الشرق كالمجوسية أو من الغرب كالنصرانية أو من الشمال كاليهودية أو دين الصابئة أو من الجنوب من عقائد اليمن. انتسب إلى الوسط إلى مكة والبيت الحرام دين إبراهيم.

الرسول عربي تجري عليه عادات العرب، وله نصيبه من الغنائم والسبايا. فقد اختلف مسلمان على سبية، جويرية بنت الحارث، في غاية الجمال والحلاوة والملاحة، كل يريدها لنفسه. فذهبا للرسول للحكم بينهما. فما رأتها عائشة على الباب حتى كرهتها وعرفت أن لها شأنًا. فعرض عليها الرسول خيرا منهما، فوافقت. وأعتق بزواجها مائة من أهل بيت بني المصطلق[1]. وبنى الرسول بصفية نصيبه من السبايا. وحرسه أحد الصحابة واقفا أمام قبابه خوفا عليه بعد أن قُتل أبو المرأة وزوجها وقومها. فدعا الرسول بأن يحفظه الله كما حفظه[2]. وكان الرسول عربيا في قتاله وحصاره. أخذ غنما من أحد خصومه اليهود ليطعم بها هو والمسلمون[3].

٢- الصبا والشباب

وتحدث الرسول بطريقة غير مباشرة عن نبوته كما تحدث المسيح في المعبد وهو ابن اثنى عشر عاما[4]. فهو دعوة أبيه إبراهيم وبشرى أخيه عيسى. نور خرج من أمه أضاء قصور الشام. أتاه رجلان في ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجا وشقا بطنه واستخرجا قلبه فشقاه واستخرجا منه علقة سوداء ثم غسلا قلبه وبطنه بالثلج فأنقياه. هو سليل الأنبياء. وتتعدد صياغات رواية شق بطنه. وتزيد هنا الطست من الذهب

(١) ابن هشام جـ٢/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»، السابق جـ٢/ ٢٨٨.

(٣) «من رجل يطعمنا من هذه الغنم... اللهم امتعنا به»، السابق جـ٢/ ٢٨٥.

(٤) «نعم، أنا دعوة إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا. ثم أخذاني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها. ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه»، السابق جـ١/ ١٦٨، السيرة النبوية جـ١/ ٥٨-٦٣.

المملوء ثلجا، واستخراج العلقة السوداء. وهو حديث كبير لطفل صغير. وربما عبر عن هذا الوصف بعد النبوة. وتتعدد روايات شق الصدر مع اختلاف في التصوير، شق ملكان بطنه بعد أن أضجعاه[1]. تمثلا في رجلين عليهما ثياب بيض. وهو تصوير شعبي لنقاء الرسول وخلوه من الشر. واللون الأبيض رمز الصفاء. لم يعد للشيطان عليه سبيل، وإن له لشأنًا. وهي قصة تصويرية بالصوت والصورة. فالخير أبيض وذهب والشر أسود، وكأن الرسول ما كان يمكن أن يولد دون هذه العلقة السوداء في القلب وفي حاجة إلى كل هذه العملية للتنقية. وفي رواية أخرى مع شق الصدر أن الرسول قال «فما هو إلا أن وليا عني فكأنما أرى الأمر معاينة» تأكيدا للرؤية الحسية واستبعادا للخيال[2]. والرواية تمهيد لرواية الإسراء والمعراج. ثم يأتي الصوت حديث الرجلين وأن محمدا لا يزن فقط عشر أو مائة أو ألف بل يزن أمة كلها، والميزان مقياس عند التجار، وتكررت صورته في القرآن عدة مرات بالمعنى الحرفي في التجارة، والمعنى المجازي كرمز للعدل وهو مرسوم على دور القضاء، وللعدل في قيام السماوات والأرض[3]. يأتي المثقال والوزن في التصور. فالثقيل أفضل من الخفيف. مع أنه في الطيران الخفيف أفضل من الثقيل[4]. وهو يطابق التصور الشعبي لولادة القديسين والأولياء والصالحين ولفهم في ثياب بيضاء منيرة مذهبة دليلا على القداسة والولاية والعمل الصالح.

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٦٦-١٦٧، الإشارة ص٦٧-٦٨، صحيح السيرة ص١٨-١٩.

(٢) بهجة المحافل ص٦٣، سيرة النبي ص١١١، صحيح السيرة ص٥٣-٥٥.

(٣) المعنى الحرفي: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾. المعنى المجازي: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. والمعنى الكوني: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

(٤) «ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم. ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم. ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم. فقال دعه عنك فوالله لو وزنته بأمة لوزنها»، السابق جـ١/ ١٦٦-١٦٧. ويشكك أبو زهرة في الرواية، صحيح السيرة ص١٨-١٩/ ٥٣-٥٥، نور الإبصار ص٢٠-٢٢، حياة محمد ص١٠١، نور اليقين ص١٣، سيد الأنام ص٦٥-٦٦، مختصر سيرة (٢) ص١٣، السيرة النبوية ص٢٢-٢٣، خاتم الأنبياء ص٣٣-٣٥، خير الورى ص٧٥٨، الخصائص الكبرى جـ١/ ١٣٥-١٤٤.

وقد حفظه الله من عيوب الجاهلية ونقائصها[1]. حمى نفسه من العري أثناء نقل الحجارة. ولم يفعل قبائحها. وتتراوح الروايات في عصمته في طفولته. الأولى الرواية النواة السابقة، قول مباشر للرسول إنه كان يحمل حجارة يلعب بها كما يلعب الغلمان، والكل تعرى وأخذ إزاره على رقبته ليحمل الحجارة عليها. فلكمه لاكم لم يره لكمة وجيعة طالبا أن يشد عليه أزاره حاملا الحجارة على رقبته فقط[2]. وهو أشد. وقد وردت هذه الرواية حين بناء الكعبة، وسقوط الغلام من التعب. فنودي من السماء بشد الأزار عليه. وتجمع رواية ثالثة بين الروايتين، وأنهما حادثتان منفصلتان، مرة في اللعب، ومرة في بناء الكعبة. وهي الصورة الشعبية للتشمير عن الساعد للتعبير عن الهمة في العمل وعدم إعاقة الأكمام للساعدين في حالة العمل والرداء للساقين في حالة السباق والعدو كما يحدث في فنون الأدب والتصوير والرسم والسينما. والخطورة أن تقوم عليها تشريعات الغطاء والستر والحجاب كما حدث فيما بعد. ويصبح الإسلام دين غطاء وليس دين كشف، مما دفع الصوفية فيما بعد أن يُعروا هذا الدين ويرفعوا عنه الحجاب ويكتبون «كشف الغطاء».

ولم يخل فقط من النقائص والعيوب بل تحلى بالفضائل والكمالات. فقد تعلم العوم والسباحة منذ الصغر استعدادا للنزال فيما بعد، واستكمالا لأساليب الدفاع أو الهجوم. ولهذا يروى حديث، ضرورة تعليم الأولاد السباحة والرماية وركوب الخيل[3].

وبعد وفاة أمه وهو ابن ست سنين كفله جده عبد المطلب الذي كان له فراش في ظل الكعبة يجلس حوله بنوه إجلالا له إلا الرسول فقد كان يجلس عليه وهو غلام. ويبقيه جده ضد رغبة أعمامه في تأخيره عنه قائلا «دعوا ابني، فوالله إن له لشأنا». ثم

(١) السيرة الحلبية جـ١/ ١٧٨-١٨٣.

(٢) «لقد رأيتني في غلام قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان. كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة. فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك. قال: فأخذته وشددته علي. ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي»، ابن هشام جـ١/ ١٨٣. والنقائص مثل: كشف العورة، الاستماع إلى آلات اللهو، مس الأصنام، عبادة الأوثان، أكل ما أهل به لغير الله، حفظ جوفه من الطعام الحرام، الكذب، الحلف باللات والعزى، شرب الخمر، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٣٠-١٣٣، السيرة النبوية ص٢٧-٣٣، سيرة الرسول ص٨-٩.

(٣) «أحسنت العوم والسباحة في بئر بني عدي بن النجار»، بهجة المحافل ص٦٣، سيرة النبي ص١١٢.

يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع[1]. فالجد هنا أحن على الحفيد من الأب على الابن وطبقا للمثل الشعبي «ما أعز على الولد إلا ولد الولد». فالطفل سيد من خلال جده، وله مكانة في قريش من خلال أسرته. وله في الكعبة مكان الصدارة مثل أهل قريش. فالطفولة تكشف عن زعامته، والحاضر ينبئ بالمستقبل. والدافع للرواية التكريم والتشريف.

وتوفى الجد والغلام ابن ثمان سنين. وطلب رثاءه من بناته ليسمعه بنفسه. فحياة العربي الشعر والحب. وكلاهما مظهران للجمال، بدلا من صراخ بناته وعويلهن عليه، ولطم الخدود، وشق الجيوب، وشد الشعور. وكفله عمه أبو طالب. وعرضه على رجل من لهب يتعرف على الأطفال. فتعرف على محمد «فوالله ليكونن له شأن»[2]. فقراءة المستقبل عادة عربية مثل الكهانة والعرافة. وقد حسب العرب الرسول بعد البعثة أنه واحد منهم. فالنبوة مستقبلها فقط وليس ماضيها. قرأ فيها العرب مستقبلهم مع كسرى وقيصر وليس ماضيهم مع موسى وعيسى. فالعرب مولعون بالسيادة. ينافسون الفرس شرقا، والروم غربا. وبدلا من أن يكونوا تابعين لهم مثل الغساسنة والمناذرة فإنهم كانوا يتوقون إلى الاستقلال عنهم في كيان عربي مستقل يحفظ لشبه الجزيرة استقلالها ووسطيتها عن الشرق الفارسي والغرب الرومي، وليس ميلها بل وتحالفها مع الغرب كما هو حادث الآن.

وما كان النبي يذهب في حاجة لجده إلا أنجح فيها[3]. وقد عُرف عبد المطلب بشأن النبي[4]. وكانت قد ظهرت عليه آيات عند قدومه مع أمه المدينة لزيارة أخواله[5].

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٦٩-١٧٠، خير العباد ص٢٣، حياة محمد ص١٠٣-١٠٤، نور اليقين ص١٣، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٢٥، مختصر سيرة (١) ص٣٨-٤٠، مختصر سيرة (٢) ص١٤، السيرة النبوية ص١٠٣-١٠٤، صحيح السيرة ص٥٥، خير الورى ص٧٥٨، على هامش السيرة جـ١/ ١٤٧-١٥٨، رسول الحرية ص٢٠-٣١، ما وقع عند وفاة أمه من الآيات، الخصائص الكبرى جـ١/ ١٨٧-١٨٨.

(٢) ابن هشام جـ١/ ١٧٩-١٨٠، عيون الأثر جـ١/ ١٠٣-١٠٥، الإشارة ص٧٤-٧٥، صحيح السيرة ص٣١-٣٣، ألفية السيرة ص٣٨-٤٠، السيرة النبوية ص٢٦-٢٧.

(٣) الخصائص الكبرى جـ١/ ١٩١.

(٤) السابق جـ١/ ١٩١-١٩٤.

(٥) السابق جـ١/ ١٨٦-١٨٧.

وكان الرسول فخورا بمهنته قبل البعثة، رعي الغنم، وهي مهنة الأنبياء. وهي صورة لقيادة أمة ورعايته لها[1]. يتعلم منها المسئولية والرعاية والقيادة والجمع والحرص. وما من نبي إلا وقد رعى الغنم. وهي صورة قيادة الأمة، والسهر عليها، والحفاظ عليها من الذئاب[2]. فأقرب مهنة للنبي رعاية الغنم في التصور العربي، مع الطبيعة والشعر والتجوال وكسب المعارف. وقد يخالف التاريخ المروي ذلك. فعيسى لم يكن راعي غنم بل كان نجارا مثل زكريا الذي كفله، وموسى لم يكن راعي غنم بل نشأ في بيت فرعون ابنا متبنى، وربما فرعونا في المستقبل. ولا تُعرف حرف الأنبياء السابقين إلا استنباطا. فآدم لم تكن له حرفة معروفة لأنه لم يكن في حاجة إليها. كان يعيش على الطبيعة، يسد منها حاجته هو وزوجته وأولاده، ويصنع كل شيء بيده في بناء السكن وإعداد الأسلحة التي يدافع بها عن نفسه ضد مخاطر الحيوانات وأدوات قطع الأشجار وقطف الثمار. وربما كان نوح نجارا لأنه استطاع أن يبني فلكا يحميه من الطوفان. وربما كان لإبراهيم أقرب الصنائع للرسول، راعي أمة، ومؤسس قبيلة. وإسحق ويعقوب كانا مشايخ قبائل تكفيهما القبيلة حاجاتهما. ويوسف كان وزيرًا للخزانة له مرتبه من فرعون مصر.

ثم انتقل من رعي الغنم إلى التجارة، من قيادة قطيع إلى تسويق بضائع، من حرفة البدو إلى حرفة الحضر. خرج إلى الشام فيما سماه القرآن ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ مرتين. وبدلا من التعامل مع الأغنام يأتي التعامل مع التجار، وبدلا من التعامل مع الحيوان يأتي التعامل مع الإنسان[3]. وظهرت عليه آيات وهو في كفالة عمه أبي طالب[4]. سافر معه إلى الشام وظهرت عليه آيات. وأخبر بحيري عنه.

وحضر الرسول حرب الفجار وهو ابن العشرين. وكان يرد النبال عن أعمامه

(١) «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم»، ابن هشام جـ١/ ١٦٨، عيون الأثر جـ١/ ١١٢-١١٢، الإشارة ص٧٥-٧٧، السيرة الحلبية جـ١/ ١٨٣-١٨٤، السيرة النبوية ص٣٤، على هامش السيرة جـ٢/ ١٣٨-١٨١.

(٢) ابن هشام جـ١/ ١٦٨، «ما بعث الله نبيا إلا راعي غنم»، صحيح السيرة ص٣٠-٣١/ ٣٨/ ٥٦-٥٧، السيرة الحلبية جـ١/ ١٧١-١٧٨.

(٣) الرسالة النبوية جـ١/ ٥٨-٦٣، عيون الأثر جـ١/ ١٠٥-١١٢، السيرة الحلبية جـ١/ ١٩٣-١٩٨، حياة محمد ص١٠٤، نور اليقين ص١٤/ ١٦، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٢٦-١٢٩، مختصر سيرة (١) ص٤٤، مختصر سيرة (٢) ص١٦، خاتم الأنبياء ص٣٦-٣٨.

(٤) الخصائص الكبرى جـ١/ ١٩٤-٢٠١.

«وكنت أنبل على أعمامي»[1]. وهي حرب بين القبائل ليس هدفها نشر التوحيد ونقد الشرك كما أصبح الهدف في مرحلة انتشار الرسالة، الفترة المدنية. وإذا كان اشتراكه في حرب الفجار هي التجربة العسكرية الوحيدة فإنها لا تكفي لقيادة حرب جبهات كتلك التي تمت فيما بعد منذ غزوة بدر حتى غزوة تبوك. ومهمة مساعد محارب تختلف عن مهمة قائد جبهة. إنما تدل على الجمع بين التجارة والحرب أهم عملين في المجتمع البدوي. فالرسول ذو خبرة في السلم والحرب، في العمل المدني والعمل العسكري، في السوق وفي ميدان القتال.

٣- الزواج والبشارة

وتزوج محمد خديجة وهو ابن خمسة وعشرين عاما[2]. فقد عرضت عليه أن يخرج في تجارتها إلى الشام بعد أن سمعت عن أمانته. وعرضت أن تعطيه أكثر مما تعطي الآخرين. وتعرف عليه راهب والركب في الطريق إلى الشام مع غلامها ميسرة. استراح محمد تحت شجرة. وسأل الراهب عنه وقال: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي». وهي نفس قصة بحيري الراهب مع زيادة المكان بدلا من الغمام، الأرض بدلا من السماء. وكان الذين يتعرفون عليه هم النصارى، أهل صدق وإخلاص. يقرءون ما يجدون عندهم في الكتاب. ثم عرضت نفسها عليه «إني قد رغبت فيك لقرابتك وسمعتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك». فالمرأة في الجاهلية كانت تطلب الرجل كما كان الرجل يطلب المرأة. ولم يكن في ذلك عيب أو خجل أو قلة حياء. ولم تكن تستحي وراء خباء، لها وكيل ينوب عنها فيما يخصها كما يقال هذه الأيام في وضع المرأة في الإسلام من أنصار حقوق المرأة. وتزوجها الرسول، ولم يتزوج عليها أحد حتى توفت. وكل أولاده منها إلا إبراهيم من مارية القبطية[3]. وبه كان يُكنى. وهلك ولدان

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٨٥-١٨٦، عيون الأثر جـ١/ ١١٣-١١٥، الإشارة ص٧٨، السيرة الحلبية جـ١/ ١٨٥-١٨٧، حياة محمد ص١٠٥، نور اليقين ص١٤.

(٢) ابن هشام جـ١/ ١٨٦-١٩٠، عيون الأثر جـ١/ ١١٥-١٢١، خير العباد ص٢٣-٢٤.

(٣) وهم: الطاهر، الطيب، زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة، ولدان وأربعة بنات. الإشارة ص٨١، صحيح السيرة ص٣٨، ابن خلدون ص٨٤-٨٥، السيرة الحلبية جـ١/ ١٩٩-٢٠٣، إسعاف الراغبين ص١٢-١٥،

في الجاهلية لحكمة عدم المنافسة على الزعامة على وراثة الأب في مجتمع ذكوري لا خوف فيه من الأنثى في شياخة القبيلة. وبقت البنات بعد الإسلام. وأسلمن وهاجرن معه.

وأثناء الطريق إذا اشتد الحر كان ملكان يظلان محمد من الشمس. وهي نفس الواقعة السابقة مع الغمامة[1]. والملكان أكثر إيغالا في الخيال من الغمامة. فليس من المعقول أن يبقى الرسول بلا حماية إلهية عن طريق الطبيعة. فالشاب النبي ليس كغيره من الشبان. له رعاية خاصة من الطبيعة بفضل الله. فالله حارسه قبل البعثة وبعدها. وأخبرت خديجة ابن عمها النصراني ورقة بن نوفل بتظليل الملكين. واعترف لها بأن ذلك إن كان صحيحا فمحمد نبي هذه الأمة. خاصة وأن لهذه الأمة نبيا يُنتظر. وكانت خديجة على الدين الطبيعي الفطري دين الحنفاء، دين إبراهيم. لذلك كانت سريعة التصديق بالإسلام بعد سؤال ابن عمها النصراني الذي كان هو أيضا صادقا مع النفس مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل[2]. كان ورقة بن نوفل مع أصحاب له يبحثون في الأديان[3]. ثم تفرقوا للبحث عن الحنيفية دين إبراهيم. فكان الإسلام مطلبا للنصارى واليهود الأتقياء والوثنيين الطبيعيين معا. توصل ورقة إلى النصرانية، وهاجر إلى الحبشة. وتوفى نصرانيا. وكان ابن جحش يقابل المسلمين في الحبشة وفي رواية أن الرسول تزوج امرأته بعد وفاته بعد أن خطبها النجاشي. وهو خبر غير معروف. وتنصر ابن الحويرث وذهب إلى قيصر الروم. أما زيد بن عمرو فلم يدخل يهودية ولا نصرانية. واعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح للأوثان. ونهى عن قتل الموءودة عبادة لرب إبراهيم. وهو الإسلام الطبيعي والإيمان الفطري. ضرب في الأرض طلبا للحنيفية السمحة. وذهب إلى الشام. يسأل الرهبان والأحبار عن دين إبراهيم. فأجابه أحدهم بأنه يخرج نبي من بلاده يبعث بهذا الدين. وقتل في طريق العودة. فالبحث كان جار عن الإسلام كما كان يبحث الرسول

حياة محمد ص١٠٨-١١٠، نور اليقين ص١٧، سيد الأنام ص٦٩-٧٣، مختصر سيرة (١) ص١٩/ ٤٤-٤٥، مختصر سيرة (٢) ص١٦، السيرة النبوية ص٣٣-٣٤، السيرة النبوية ص١١٠-١١١/ ١٢٠، خاتم الأنبياء ص٣٩-٤٣، صحيح السيرة ص٦٠-٦٢، الرحيق المختوم ص٦٠، رسول الحرية ص٣٢-٤٤.

(١) ابن هشام جـ١/ ١٨٧-١٨٨.

(٢) السابق جـ١/ ١٨٩-١٩٠.

(٣) السابق جـ١/ ٢١٦-٢٢٥.

عنه وهو في غار حراء. كان الإسلام مطلبا في شبه الجزيرة العربية لكثير من الباحثين عن الحقيقة ومنهم محمد. وجاء ملبيا لأشواق العرب وتطلعاتهم إلى نظام أخلاقي جديد يتجاوز به العرب عبادة الأوثان وأوسع من اليهودية والنصرانية. كان البعض يبحث عن الحنيفية[1].

واجتمعت قريش لبنيان الكعبة والرسول في سن الخامسة والثلاثين. وكانت حية تخرج من بئر الكعبة يخافها الناس فأرسل الله طائرا التقطها. فالطائر في السماء أكثر قدرة من الزاحف على الأرض. والحر الطليق أكثر قوة من المختبئ في الفجوات. فاستبشرت قريش خيرا، أن الله رضى عنها لإعادة بناء الكعبة. وعزموا ألا يدخل في بنائها إلا الكسب الطيب دون مهر البغايا، ولا بيوع الربا، ولا مظالم أحد من الناس. فالكعبة رمز للعدل. وقسمت قريش الكعبة بينها حتى حجارة يُظن أنها أساس إبراهيم. ووُجد كتاب مكتوب عليه بالسريانية قرأها أحد اليهود «أنا الله ذو بكة»، خلقت يوم خلق الله السموات والأرض وصور الشمس والقمر. وصفها بسبعة أملاك حنفاء. لا تزول حتى تزول أخشابها «مبارك لأهلها في الماء واللبن»[2]. ثم اختصموا في رفع الحجر إلى حد القتال. وتشاوروا. وأشار أبو أمية بتحكيم أول داخل. فكان الرسول. فوضع الحجر في ثوب. وأخذت كل قبيلة بطرف. ثم رفعه هو بيده. ثم بنى عليه[3]. وكان يسمى الأمين. وكان سلوكه فاضلا قبل البعثة حتى أطلق عليه الأمين وتحكيمه فيما

---

(١) ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل بعد أن قتل «يُبعث أمة وحده». وقد قيل مثلها في أبي ذر، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وورقة ابن نوفل، بهجة المحافل ص٦٩-٧٢، مختصر سيرة (١) ص٢٠-٢١، مختصر سيرة (٢) ص٤١-٥١، خاتم الأنبياء ص٤٣-٤٧.

(٢) ابن هشام جـ١/ ١٩١-١٩٦، وفي رواية أخرى «مكة بيت الله الحرام يأتيها رزقها من ثلاثة سبل. لا يحلها أول من أهلها». وفي رواية ثالثة «من يزرع خيرا يحصد غبطة، ومن يزرع شرا يحصد ندامة. تعملون السيئات وتجزون الحسنات أجل. كما لا يُجتنى من الشوك العنب»، السابق جـ١/ ١٩٤.

(٣) «هلم إلىّ ثوبا... لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب»، السابق جـ١/ ١٩٥، عيون الأثر جـ١/ ١٢١-١٢٥، الإشارة ص٨٤-٨٧، صحيح السيرة ص٣٩-٤٧، ألفية السيرة ص٤٠-٤١، السيرة الحلبية جـ١/ ٢٠٤-٢٦٤، نور الإبصار ص١٤، حياة محمد ص١١٢-١١٣، نور اليقين ص١٧-٢١، سيد الأنام ص٦٨-٦٩/ ٧٣-٧٤، مختصر سيرة (١) ص٤٤-٤٦، مختصر سيرة (٢) ص٢١-٢٤، السيرة النبوية ص٣٥-٣٨، السيرة النبوية ص١١١-١١٢، صحيح السيرة ص٦٢-٦٤، خير الورى ص٧٦٠، الرحيق المختوم ص٦١.

يشجر بين قومه من خلاف مثل وضع الحجر الأسود في جدار الكعبة[1]. وهي قصة رمزية على قدرة الرسول على توحيد القبائل، ونزع الخلاف بينها. وما قام به الرسول في واقعة بعينها دون الرسالة سيقوم بذلك في حياة العرب بفضل الرسالة. وهي في نفس الوقت من بقايا الجاهلية. ولولا حداثة العرب بالكفر لهدمها[2]. إنها هي رمز للتجميع والتوحيد. أصبحت زيارتها الركن الخامس في العبادات، قادرة على تجميع الملايين في وقت واحد معلوم، بلباس واحد أبيض غير مخيط، عودا إلى الطبيعة، وإعلانا لمساواة البشر جميعا، ورفضا لطبقاتهم الاجتماعية. تناقش فيه أوضاع الأمة، وتعلم «البراءة» من أعداء الله ورسوله ومن يعتدي على حرياتها، ويحتل أرضها، ويستغل ثرواتها، ويقتل نساءها وأطفالها وشيوخها، ويهوّد القدس، ويحتل فلسطين والعراق وجنوب لبنان، ويقيم القواعد العسكرية على أراضيها في الخليج وفي شبه الجزيرة العربية، موطن الإسلام[3].

٤- تنبؤ اليهود والنصارى

وقد استمرت العلاقة بين اليهود والنصارى وباقي القبائل العربية قبل الإسلام وبعده بالإضافة إلى المسلمين. فقد كانوا عربا، وكانت اليهودية والنصرانية ديانات عربية[4]. وكانوا هم التربة الطبيعية التي يظهر فيها الإسلام. يلقونه بالترحاب. وقد بشر علماء أهل الكتاب بمبعث النبي[5]. سواء كانت في كتبهم أو في مأثوراتهم الشعبية. وكثير من هذه الحوادث متخيلة[6]. يكفي نواتها التي على أساسها نسجت التخيلات الأخرى.

---

(١) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢١٠-٢١١.

(٢) «ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا، وأدخلت فيها الحِجْر»، السيرة النبوية ص٣٨.

(٣) خواطر حاج، أخبار الأدب، يناير ٦ : ٢٠.

(٤) ابن هشام ص٤٤-٤٩/ ٥١-٥٤، عيون الأثر جـ١/ ١٢٥، المبشرات بمبعثه، سيد الأنام ص٣٠-٤٥.

(٥) صحيح السيرة ص٥٧-٦٢/ ٧٧-٨٠، السيرة النبوية ص٤٣-٥٢، «في ذكر من بشر به قبل ظهوره وما أسفر قبل بزوغ شمس نبوته من صبح نوره»، سيرة النبي ص٩٦-١٠٤.

(٦) «ما جاء من أمر الرسول عن أحبار اليهود وعن الرهبان من النصارى وعن الكهان من العرب على ألسنة الجان وعلى غير ألسنتهم، وما سمع من الهواتف ومن بعض الوحوش ومن بعض الأشجار، وطرد الشياطين

فيوم ولادته صرخ يهودي بأعلى صوته على حصن بيت «يا معشر يهود، طلع الليلة نجم أحمد الذي وُلد به»[1]. كان اليهود يعلمون ما هو مدون لديهم في كتبهم المقدسة، ظهور نبي اسمه أحمد. وكان بعض الأتقياء منهم ذوي البصيرة قادرين على التنبؤ به. فقد كان التنبؤ وظيفة النبي في اليهودية. ومنه اشتق فعل «تنبأ». ويعني قرأ المستقبل بالعبرية. وكان الدين قد اختلط بعلم أحكام النجوم. وهو علم التنجيم في شبه الجزيرة العربية. فقد تنبأ ثلاثة من المجوس بظهور يسوع المسيح بظهور نجم في السماء.

وجد اليهود أوصاف الرسول في كتبهم وتوعدوه شرا[2]. بشرت الكتب السماوية بمقدم الرسول. وأشير إليه في التوراة والإنجيل. وهو مذكور في الزبور[3]. وهو موصوف في التوراة. وأمته سبعون ألفا[4]. وأخبر به الأحبار والرهبان قبل بعثته في روايات متعددة دون أقوال مباشرة. كما أخبر به المتحنثون ومن سموا بمحمد وأمية ابن أبي الصلت. وظل بنو إسرائيل يترقبون ظهور النبي[5]. وقد ذُكر أصحابه في الكتب السابقة ووعدهم بوراثة الأرض وراثة لليهود[6]. وذكر في الزبور. كما أخبر به الكهان قبل البعثة[7]. وقد أعلم موسى بقدوم النبي. إذ لما بلغ ولد معد بن عدنان أربعين رجلا

من استرقاق السمع عند مبعثه بكثرة تساقط النجوم، وما وجد من ذكره مكتوبا من النبات والأحجار وغيرهما»، السيرة الحلبية جـ١/ ٢٦٥-٣٠٩، نور اليقين ص٢٢-٢٤، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٤٨-١٤٩، مختصر سيرة (٢) ص٧٠، صحيح السيرة ص٢٩-٣٣، خير الورى ص٧٦٠. صفاته في كتب الأولين، السيرة النبوية (٢) ص٤٣٧-٤٣٨.

(١) ابن هشام جـ١/ ١٦٢، هروب اليهود حين رأوه، الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٠٢.

(٢) وفي ذلك نزل القرآن ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، ابن هشام جـ١/ ٢٠٧-٢٠٨، المغازي ص٩٠-٩١.

(٣) الفصول ص٢٩٣-٢٩٧، سيد الأنام ص٣٨-٣٩.

(٤) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٦-٥٢.

(٥) السابق ص٥٣-٧٩. وأخبر به أيضا كعب بن لؤي جد النبي، وقس بن ساعدة وجد الأوس، وسعد بن زرارة، وعمير بن حبيب، والفضل وربما أبو بكر «الحنيفية أتيت بها بيضاء نقية أين ما كان يخبرك الأحبار من اليهود والنصارى من حنفي...»، ص٧٤.

(٦) السابق ص٧٩-٨٧. وعلامات أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والإخبار بمقتل عثمان، وعلامات النبي، وخبر صفين، وابن الزبير وهدم الكعبة، وخامس الخلفاء الراشدين، ومقتل حجر بن عدي وأصحابه، وخبر عن العباسيين.

(٧) السابق ص٨٨-٩٤. مثل رؤيا ربيعة بن نضر ص٩٢-٩٤، وخبر طفيل بن زيد ص٩٤.

وقعوا في معسكر موسى فانتهبوه. فدعى عليهم موسى. فأوحى الله إليه ألا يفعل فإن منهم النبي الأمي النذير البشير، وأمة محمد الذين يرضون باليسير من الرزق ويرضى الله منهم بالقليل من العمل فيدخلهم الله بالشهادتين. والنبي متواضع في هيئته، اللب في سكوته، حكيم حليم، من خير جيل من قريش وصفوتها، من خير إلى خير، هو وأمته[1]. وقد أوحى الله إلى عيسى أن يؤمن بمحمد. فالإسلام هو رسالة الأنبياء جميعا. كل نبي سابق يخبر بقدومه حتى تتحقق غاية التاريخ، وتكتمل النبوة، عودا إلى الدين الطبيعي، دين إبراهيم[2].

وتنبأ به يهودي حدث العرب عن القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار. يحمله نبي من ناحية مكة واليمن في هذا الجيل. وبدلا من تصديقه ماداموا يصدقون بكتابهم فإنهم كذبوه. ولم يكن على خلاف في العقيدة، فكلا الدينين يدعوان إلى التوحيد وعدم الشرك بالله أو في الشريعة. فبعض شرائع الإسلام امتداد لليهودية في صوم عاشوراء، والرجم، وتحريم لحم الخنزير، ولكن الخلاف كان صراعا على السلطة في المدينة. فقد كان اليهود يكونون سلطة. وكانوا يسكنون حصونا، وليس مجرد بيوت يخزنون فيها ثرواتهم. وإليها أشار القرآن[3]. وكان بهم نوع من الحسد والغيرة والحقد بسبب تحول النبوة عن بني إسرائيل إلى العرب. فيسوع المسيح في النهاية يهودي أتى إلى بني إسرائيل. والنصرانية لم تخرج عن اليهودية. أما الإسلام فقد خرج عنهم إلى قوم آخرين، العرب، بدلا من بني إسرائيل.

وكان ابن الهَيبان يهوديا من الشام يصلي الخمس، فاضلا، يستسقي فينزل المطر. فلما حضرته الوفاة اعترف بأنه انتقل من الشام حيث الرزق إلى الجنوب حيث الجفاف لخروج نبي يرجو اتباعه. ودعا اليهود إلى اتباعه لأنه يسفك الدماء ويسبي الذراري والنساء من مخالفيه خوفا وليس اقتناعا. فلما جاء الرسول وحاصر بني قريظة نزل

---

(١) الخصائص الكبرى جـ١/ ٣٥.

(٢) «أوحي الله إلى عيسى: يا عيسى آمن بمحمد»، النبي الأعظم ص٢٦.

(٣) ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ﴾، «في سبق ذكره في التوراة والإنجيل والزبور وأخبار الأحبار والكهان وصفاته المميزة»، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٣-٢٧، مختصر سيرة (٢) ص٥٦-٦٤، السيرة النبوية ص٤٨-٥٢.

فريق وأسلموا وعصموا دماءهم وأموالهم وأهليهم. وهي صورة الإسلام عن طريق الخوف. والرسول لا يسفك دما ولا يسبي امرأة إلا بعد إعطاء الأمان والتخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال. كان بعض الأتقياء اليهود يعلمون الحق، ويقرءون ما هو مدون عندهم بالكتاب بظهور نبي جديد من العرب. وكان لأحدهم كرامات في الاستسقاء ونزول المطر. ودعا اليهود ساعة وفاته إلى إيمانهم بالنبي الجديد. واستعمل معهم الوسائل الحسية التي تقنع اليهود، الخطورة على دمائهم وأموالهم وأولادهم. فهم يعشقون الحياة والذرية والأموال[1]. بل لقد ذكر أصحابه بالكتب السابقة ووعدهم بوراثة الأرض في الزبور[2]. وكلها قراءات للحاضر في الماضي وتنميط للحاضر طبقا لنماذج الماضي[3]. فالإدراك في الشعوب الدينية يتم بناء على تصورات سابقة. الماضي يفسر الحاضر. والحاضر يُرى من خلال الماضي.

وقد تعرّف عليه النصارى أيضا كما تعرّف عليه اليهود. فقد رأى نفر من نصارى الحبشة الطفل مع مرضعته وتعرفوا عليه، وطلبوا أخذه إلى ملكهم لأن سيكون له شأن. فخافت عليه حليمة وأرجعته إلى أمه[4]. وهذا يدل على ولاء النصارى الأحباش لمليكهم، وأنه لا تعارض بين الدين والسياسة. تعرف عليه العديد من النصارى والرهبان. كما ورد ذكره في الإنجيل. وكان خبره عند رؤساء نجران وملك الروم[5].

ولما خرج أبو طالب إلى الشام في تجارته تعلق به الرسول فرق له أبو طالب وصحبه معه. فلما نزل بصرى بالشام كان بها راهب يسمى بحيري في صومعة له انتهى إليه علم النصرانية، لهم كتاب يتوارثونه. وكان لا يكلم أحدا. وفي هذه المرة صنع لهما طعاما كثيرا لأنه رأى الرسول في الركب وعليه غمامة تظله. ثم أظلت الشجرة التي نزل تحتها

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ٧٩. علامات أبي بكر وعمر، وصفات عثمان وعلي ومقتل عثمان، وعلامات النبي، وخبر صفين، وابن الزبير وهدم الكعبة، وخامس الخلفاء الراشدين، ومقتل حجر بن عدي، وخبر عن العباسيين.

(٣) ما يسمى في الدراسات التاريخية Stereotypes .

(٤) ابن هشام جـ١/ ١٦٩، مختصر سيرة (١) ص٢١.

(٥) أخباره من تميم الداري، قس بن ساعدة، زيد بن نفيل، سواد بن قارب، مازن بن الغضوبة، زمل بن عمرو، عباس بن مرواس، عيون الأثر جـ١/ ١٢٥-١٦٣.

الرسول. وأدرك الراهب تخلف الصبي عن دعوته للطعام. وأصر على دعوة الجميع[1]. ورفض الرسول أن يجيبه عن أي سؤال باسم اللات والعزى[2]. وأجابه عن جميع أسئلته فوجدها توافق ما لديه في كتبهم. ووجد خاتم النبوة بين كتفيه. فأوصى عمه بالحرص عليه من اليهود لأنهم لو عرفوه لابتغوا به شرا. فعاد أبو طالب بسرعة إلى مكة. فشب الرسول وهو على أخلاق كريمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. فالأخلاق أساس الدين، وشرط النبوة[3]. الماضي يتنبأ بالحاضر. والنبوة مستمرة في التاريخ في ثقافة العرافين والكهنة وقارئي المستقبل. وتحدث أبو سفيان عنه.

وفي رواية أخرى تعرف على الغلام بحيري الراهب في الشام عندما أقبل الركب، ورأى غمامة تظله من بين القوم. فدعاهم إلى الطعام على غير عادته جميعهم. وأدرك أن هناك غائبا لحداثة سنه. ثم حضر الغلام. واستجوبه بحيري. واستحلفه باللات والعزى. فرفض الغلام. ووافق كل ما أبلغه الغلام ما وجد بحيري في كتابه حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه في ظهره. وعرف أن أباه ليس حيا. فأوصى بأن يعود إلى بلده، وأن يخشى عليه من اليهود «فارجع بابن أخيك إلى بلده»، واحذر عليه يهود. فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فالنصارى مع الدين الجديد، واليهود ضده. لم يشعر النصارى أن الإسلام ضدهم كما شعر اليهود لأن النصارى لم يكونوا قوة سياسية واقتصادية واجتماعية منعزلة عن باقي العرب. بل كانت النصرانية أقرب إلى الدين العربي في حين أن اليهودية بقت دين آبائهم وأجدادهم. وظل اليهود لا يختلطون بالعرب، يعيشون في عزلة، «جيتو» يهودي في الطائف وخيبر. يدافعون عن عزلتهم وعدم اختلاطهم وتكوينهم كيانا صغيرا داخل الكيان الكبير الذي هم جزء منه. يبغون سلطة مستقلة لهم، دولة داخل دولة. تمتد حتى

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٨٠-١٨٣، سيد الأنام ص٦٧-٦٨، المغازي ص٩١، مختصر سيرة (١) ص١٨.

(٢) «لا تسألني باسم اللات والعزى شيئا. فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما»، ابن هشام جـ١/ ١٨٢.

(٣) «كان رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما حتى ما أسماه قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة»، السابق جـ١/ ١٨٣، ويتشكك الندوي في صحة الرواية، السيرة النبوية ص١٠٤-١٠٦، صحيح السيرة ص٥٧-٥٩، الرحيق المختوم ص٥٨، مختصر سيرة (٢) ص٨٠.

تبتلع الدولة الصغرى الدولة الكبرى، ويحتوي الكيان الأصغر الكيان الأكبر كما يحدث الآن في فلسطين. وكما حدث من قبل عبر تاريخهم في كل وطن سكنوا فيه شرقا وغربا. لا يندمجون فيه مما أدى إلى ما حدث لهم داخل ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. وأخبر به أيضا الكاهن خطر بن مالك[1].

ولما سافر النبي مع عمه أبي طالب إلى الشام ظهرت الآيات عليه. وأخبر بحيري الراهب عنه. واستسقى أبو طالب به. وهرب اليهود حين رأوه. وعاداه أبو لهب. وأوصى أبو طالب قومه باتباع محمد. وتجرأ المشركون على النبي بعد موت عمه. وقد اختص بحفظ الله له في شبابه عما كان عليه أهل الجاهلية. كما اختص بتعظيم قومه له في شبابه، وتحكيمهم إياه، والتماسهم دعاءه، وتسميته بالأمين. وظهرت الآيات في سفره إلى خديجة مع ميسرة. ورفض الحلف باللات والعزى. وقد تزوج خديجة ربما بنداء جبريل لحث النساء على ذلك[2]. وتعرف زرير النصراني وصاحباه على الغلام أيضا، الموصوف عندهم في الكتاب. وسمعوا ما قال له بحيري. فشب الغلام والله يحفظه ويحوطه من أدران الجاهلية لكرامته ورسالته. وكان أفضل قومه مروءة وأخلاقا. فالنبوة أخلاق. وكانت صفة الرسول مدونة في الإنجيل. يبشر بقدومه يحنس الحواري فهو ألمنحمنّا؟ وتعني بالسريانية محمد، ويعني بالرومية البرقليطس[3]. فالتنبؤ بقدوم الرسول بالاسم وليس فقط بالرسم أو بالوعد أو البشارة. لذلك آمن به النصارى أكثر مما آمن به اليهود، وعلى نحو أسرع ودون مقاومة. لم يقاوم النصارى المسلمين كما قاومهم اليهود. ولم يغدروا به أو يخونوه. لذلك مدحهم القرآن[4]. أخبر به الأحبار والرهبان قبل مبعثه[5]. لذلك أسلم سلمان الفارسي بالرغم من تعدد الروايات، ورؤيته لعيسى.

---

(١) ابن هشام جـ١/ ١٨٠-١٨٢، سيد الأنام ص٣٢-٣٥.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ١٩٥-٢١٢.

(٣) ابن هشام جـ١/ ٢٢٥، الفصول ص٢٩٣-٢٩٧.

(٤) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

(٥) الخصائص الكبرى جـ١/ ٥٣-٧٩/ ٨٨-٩٤ ومنها تعرف أمية بن أبي الصلت عليه، رؤيا بختنصر، المتختنون العرب، ترقب اليهود، أخبار كعب بن لؤي، قس بن ساعدة، جد الأوس، رؤيا سعد بن زرارة، قصة عمير بن حبيب، إسلام أبي بكر.

وكان سلمان الفارسي مجوسيا مر بكنيسة فتنصر. وذهب إلى الشام. وقابل أسقف النصارى السيئ الذي يكتنز الصدقات لنفسه. وعندما مات وعرف الناس رجموه بالحجارة وصلبوه. وخلفه رجل أفضل وأزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة. ولما مات أوصى بالذهاب إلى صاحب له في الموصل وكان مثله في الخير. فلما حانت وفاته أوصى بالذهاب إلى نصيبين وكان بها فاضلا مثل سابقيه. فلما دناه الموت أوصى له بالذهاب إلى رجل بعمورية بأرض الروم. فلما قاربته الوفاة أوصاه بالذهاب إلى نبي جديد مبعوث بدين إبراهيم في أرض العرب. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة. ثم أعطى بقراته وغنميته إلى ركب ليحملوه إلى أرض العرب. ثم باعوه إلى يهودي عبد. ثم ابتاعه رجل من بني قريظة وحمله إلى المدينة. واستوثق من الرسول بأنه لم يأكل من الصدقة بل من الهدية. ورأى خاتم النبوة في ظهره. فاعتنق الإسلام وأعانه الصحابة لشراء نفسه من الرق. وطلب منه الذهاب إلى الشام ليلقى رجلا. فذهب ووجده يشفي المرضى. وعاد فقال له الرسول «لئن كنت صدقتني يا سلمان لقد لقيت عيسى ابن مريم»[1]. وهو إخراج مسرحي جيد، بالانتقال من مدينة إلى مدينة والاشتياق إلى رسالة محمد بعد لقاء المسيح. وطبق على مكتنز الصدقات حد الرجم. وصُلب مثل يسوع المسيح. وقد تعرى النبي أمام اليهودي ليرى كتفه. وهل من معجزات الرسول شفاء المرضى أم أنه قياس على يسوع المسيح؟ وهي روايات مركبة من وضع الخيال. فالرسول والمسيح ليسا متعاصرين. تفرق بينهما ستة قرون.

وأخبر ملك اليمن سيف بن ذي يزن بمبعث الرسول. وتنبأ هرقل ملك الروم بظهور ملك الختان[2]. وارتج إيوان كسرى. فالملوك وعروشهم أحسوا بمولد الرسول وبعثه. فالنبوة قانون تاريخي، مؤشر على مرحلة جديدة في مساره.

٥- تنبؤ الكهان العرب

وكانت الكهانة عامة بين النصارى واليهود والعرب عبدة الأوثان[3]. فالكهانة عادة عربية بصرف النظر عن الدين، نصرانية أم يهودية أو وثنية. وكان الثلاثة، الأحبار

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٢٠٩-٢١٥، عيون الأثر جـ١/ ١٣٤-١٤٢، سيد الأنام ص٣١-٣٢، مختصر سيرة (١) ص٢٠-٢١، مختصر سيرة (٢) ص٥١، السيرة النبوية ص١٢١.

(٢) سيد الأنام ص٣٥-٣٨، مختصر سيرة (٢) ص٨٠.

(٣) ابن هشام جـ١/ ٢٠١-٢٠٧، صحيح السيرة ص٥٦-٥٧/ ٨٢-٨٤/ ١٠٠-١٠٤.

والرهبان والكهان، يتحدثون عن الرسول قبل بعثته. إذ وجد الأحبار والرهبان أوصافه في كتبهم. والكهان العرب أخبروا بها أتت به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع مهما قذفت بالنجوم. وقد قص القرآن ذلك[١]. وآمن بعض الجن وأبلغ قومه[٢]. لا فرق بين الواقع والأسطورة، بين الحقيقة والخيال، بين التاريخ والقصص. ولقد أدان القرآن الكهانة والعرافة كمصادر للمعرفة. فكيف تثبت النبوة بها؟ وكانت الغيْطلة كاهنة في الجاهلية يأتيها صاحبها حتى وقعت بدر وأحد فعرفت قريش أنهما المقصودان بكهانته[٣]. لذلك قارنت قريش القرآن بسجع الكهان مما نفاه القرآن. كانت ثقافة الكهانة جزءا من الثقافة العربية قبل الإسلام، واستمرت بعدها. وإليها أشار القرآن[٤]. وكان لأحد البطون كاهن في اليمن. فلما ذاع خبر احتمال قيام نبي في العرب نزل لهم من أعلى الجبل حين طلعت الشمس. ووقف متكئا على قوس. ورفع رأسه إلى السماء في حركة مسرحية وقال «أيها الناس إن الله أكرم محمدا واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه، ومُكثه فيكم أيها الناس قليل». ثم رجع من حيث جاء[٥]. مع أنه لا يطلع على الغيب إلا الله[٦]. وكان السجع منتشرا قبل نزول القرآن عند الكهان. وهو أقل قيمة من الشعر[٧]. يمجه الذوق

---

(١) ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا . وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٠١.

(٢) ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. السابق جـ١/ ٢٠٢، سجع كحلية الذهب، الشعر، جوامع الكلم، الأسلوب العصري، عبقرية محمد ص١١١-١١٩.

(٣) قال صاحبها «أدر ما أدر، يوم عقر ونحر.. شعوب ما شعوب، تصرع فيه كعب لجوب...»، ابن هشام جـ١/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٤) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

(٥) ابن هشام جـ١/ ٢٠٥.

(٦) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾، ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

(٧) مثل قول بعض الأنصار في رمي النجوم للشياطين: «مات ملك، مُلك ملك، ولد مولود، مات مولود»،

العربي، وترفضه الأذن العربية. وقد سجع الكهان بظهور النبي قبل بعثته[1].

ولم يتحرج علماء السيرة من نقد روايات الطفولة كما هو الحال في «إنجيل الطفولة» عن طفولة المسيح، والحكم على درجة صحتها فيما استقر في الذهن الشعبي بصحته لما به من تفخيم وتعظيم وإجلال للرسول. فمثلا يُضعف حديث «أول الرسول آدم». ويستبعد صحة حديث «ولدت مسرورا مختونا». ويضعف حديث «إني أتيت قبر أم محمد». وتضعف قصة خروج النبي مع ميسرة إلى الشام. ويضعف حديث «ما هممت بقبيح»[2]. فالسيرة روايات. والروايات رؤى. والرؤى مستوى ثقافي لمجتمع في عصر معين، يعيش مرحلة تاريخية معينة. تجمع السيرة بين الواقع والأسطورة، بين الرواية والأدب، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.

ابن هشام جـ١/ ٢٠٣. وقول سواد بن قارب لعمر «أم تر إلى الجن وابلاسها، وإياسها عن دينها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها»، وعلق ابن هشام على ذلك بقوله «هذا الكلام سجع وليس بشعر» السابق جـ١/ ٢٠٦. وسماع عمر صوت من جوف عجل ذبح لوثن «يا ذريح، أمر نجيح، رجل يصيح، بلسان فصيح»، السابق جـ١/ ٢٠٦، مختصر سيرة (٢) ص٦٥-٦٨.

(1) الخصائص الكبرى جـ1/ 132.

(٢) الفصول ص٣٦/ ٤٠/ ٤٧/ ٥٠-٥١.

الباب الثالث

بداية الرسالة

الفصل الأول

إعلان الرسالة

١ - دخول الوحي في التاريخ

وتعني «بداية الرسالة» بداية الإسلام منذ الإعلان عنها في الفترة المكية ثم انتشارها بعد الهجرة في الفترة المدنية. وهي ذروة الرسالة بين التأسيس، في الجاهلية وبعد الميلاد حتى سن الأربعين، وبداية الرسالة منذ الإعلان عنها في مكة وانتشارها في المدينة، ونهاية الرسالة منذ وفاة الرسول ثم عصر الخلافة طبقا لمنطق الأحداث ومسار التاريخ، البداية والوسط والنهاية. وبعد البداية في تأسيس الرسالة في الجذور والنشأة، وقبل النهاية في اكتمال الرسالة ومصيرها ثم في تشخيص الرسالة وتغير محورها من الرسالة إلى الرسول. وهي أكبر مرحلة زمنية في الرسالة، تقريبا كلها على مدى ثلاثة عشر عاما والرسول منذ الأربعين، وقت الإعلان حتى الثالثة والخمسين، وقت الهجرة من مكة إلى المدينة من الفترة السرية إلى الفترة العلنية[١].

ويعني إعلان الرسالة بداية عودة تدخل الوحي في التاريخ واستئناف مساره منذ آدم حتى محمد بعد ستة قرون من مولد يسوع المسيح بدفعة جديدة من النبوة بعد أن طغى اللاهوت عليها في عصر آباء الكنيسة، اليونان واللاتين. فقد اختلف المسيحيون حول صُلب العقائد، التوحيد، حول طبيعة يسوع المسيح، إلها أم إنسانا أم إلها وإنسانا ولكن الألوهية أكبر، أم إنسانا وإلها ولكن الإنسانية فيه أكبر، والتوصل في القرن الرابع إلى حل وسط يرضي كل الأطراف في مجمع نيقية الأول عام ٣١٤م في شعار «واحد في

(١) «من بعض سيرته مما لاقاه من حيث بعثه الله إلى أن هاجر إلى الله»، سيرة النبي ص١٧٣-٢١٥.

ثلاثة، وثلاثة في واحد». يعني إعلان الرسالة أن الواقع في شبه الجزيرة العربية قد نضج بما فيه الكفاية من أجل تقبل دعوة جديدة تستأنف دعوة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى يقوم بها محمد، أولو العزم من الرسل.

وأول علامة البعثة الرؤية الصادقة[1]. وقد كانت الرؤى أمرا شائعا عند العرب. فلم ير الرسول رؤية إلا وقعت. الرؤية وحي غير مباشر من طبيعة النفس البشرية لهمها الذي تحمله، هم الحقيقة، وهم المعرفة، وهم الأمة. وعند علماء النفس تفسيرات متعددة لها. وتتم الرؤية في اليقظة مثل أحلام اليقظة أو في النوم. ويقال في العادات الشعبية بعد اليقظة مباشرة وفرك العيون «اللهم اجعله خير». الرؤية الصادقة تمهيد للوحي وتمرين للنفس على استقباله. إذ تتضمن معرفة بالغيب، غير مألوفة. تجعل النفس مرآة ناصعة تعكس ما تراه من حوادث مستقبلة وتحوله إلى معارف. تجعلها أكثر قدرة على الاطلاع على أكبر قدر ممكن من الزمن في المستقبل ولا تجعله فقط لحظة ممدودة بين الماضي والمستقبل، اليوم بين الأمس والغد. والرؤية لا ترتبط بالموضوع بل بالذات، قدرة الذات على المعرفة بصرف النظر عن موضوع المعرفة. فالرؤية في كل الديانات والمذاهب بصرف النظر عن موضوعاتها. وكان الرائي أو العراف موجودا في كل الحضارات القديمة، اليونانية والمسيحية واليهودية والفارسية والرومانية والحبشية والعربية. تعرض لها الصوفية باعتبارهم أصحاب النفوس الصافية. وعرفها الأولياء والصديقون و«أحباب» الله، اتصال مباشر بمصدر المعارف دون وسيط إلا النفس الصافية. وقد تكون رواية شخص في الجنة.

وكان من عادته التحنث في غار حراء كل سنة شهرا[2]. وكان يعني أيضا التحنف بالفاء أي الحنيفية. وجاءه طبقا للرواية جبريل وهو في الغار وطالبه بأن يقرأ ثلاث مرات. فنزلت الآية. وفي قول الرسول بعض التفصيلات عما هو معروف، أن جبريل آتاه بنمط من ديباج فيه كتاب وهو تشبيه حسي للقرآن، وبعد المرة الثالثة يبين الرسول

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٢٢٦، حياة محمد ص١١٧، نور اليقين ص٢٥، مختصر سيرة ص٥٣، خير الورى ص٢٤٦-٢٤٨/ ٣٠٩/ ٥٣٥.

(٢) ابن هشام جـ١/ ٢٢٧-٢٣٠، المغازي ص١٠١-١٠٦، نور الإبصار ص١٥، حياة محمد ص١٠٨.

أنه قال «ما أنا بقارئ» خشية أن يعود من جديد بعد أن كان يغته كالموت[1]. ثم خرج من الغار فسمع صوتا في السماء يقول له إنه جبريل طبقا للرواية فرفع رأسه فوجد رجلا ينادي عليه بأنه رسول الله، وأنه طبقا للرواية جبريل حتى جاء رسل خديجة يبحثون عنه فأخبرها بما حدث فبشرته ورجت له أن يكون نبي هذه الأمة. ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر. قرأ الكتب، التوراة والإنجيل. وقصت عليه ما سمعت. فقدس الله. وأخبرها بأنه الناموس الذي كان ينزل على موسى، وأنه نبي هذه الأمة، وعليه أن يثبت. فقام الرسول، وطاف بالكعبة كما كان يفعل. وقابل ورقة وأخبره بما سمع ورأى. وكرر له ورقة أنه نبي هذه الأمة، وأن الأمة ستكذبه وتؤذيه وتخرجه وتقاتله. ولو عاش لنصره. وقد اعترف ورقة بن نوفل النصراني بما أخبرته به خديجة وأبو بكر. وأنشد شعرا يتعجل بالبعثة. وتعددت الروايات[2]. وطالبته خديجة بالتثبت. فأتاه طبقا للرواية جبريل فجلس الرسول على فخذها الأيمن ثم الأيسر ثم في حجرها ثم رفعت خمارها فلم يأت. فعرفت أنه ليس شيطانا. فكان الخمار عادة عربية قبل الإسلام للاحتجاب من الغريب وليس من القريب. وهو درس تصويري في الفرق بين أخلاق الملائكة وأخلاق البشر، وغطاء النساء وسترهن.

كان الرسول أميا، لا يقرأ ولا يكتب حتى لا يُقال إنه تعلم الوحي وقرأه في الكتب

---

(١) «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب. فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتراء منه أن يعود لي بمثل ما صنع فقال فقرأتها ثم انتهى. فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا». ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. جـ١/ ٢٢٨، السيرة النبوية جـ١/ ٦٣-٦٩، خير العباد ص٢٤-٢٥، الفصول ص٥٣-٥٦، صحيح السيرة ص١٠٦-١١٥، ألفية السيرة ص٤١-٤٣، بهجة المحافل ص٧٤-٧٦، سيرة النبي ص١٧٣-١٧٦، السيرة الحلبية جـ١/ ٣٣٤-٣٧٤، نور الأبصار ص١٥، إسعاف الراغبين ص١٥-١٦، حياة محمد ص١١٦-١١٩، محمد ص٣٣-٣٨، نور اليقين ص٢٦-٢٨، سيد الأنام ص٧٦-٧٩، مختصر سيرة (١) ص٢١-٢٢/ ٤٦، السيرة النبوية ص٥٢-٥٨، سيرة الرسول ص٧-١٠، صحيح السيرة ص٦٥-٧١/ ٢٧١، الرحيق المختوم ص٦٥-٧٧، رسول الحرية ص٥٨-٦٧، حياة محمد ص١٢١-١٢٢، صحيح السيرة ص٧١.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢١٩-٢٢٤.

المنزلة السابقة. لذلك اعتذر بأنه ليس بقارئ بالمعنى الحرفي أي «فك الخط» كما يُقال في التعبير الشعبي. والقراءة بمعنى جبريل هي المعرفة والفهم والإدراك والتبصر والرؤية. وهذه ليست مرتبطة بالقراءة والكتابة بالمعنى المدرسي. وفي الثقافة الشعبية قد يكون الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة أكثر وعيا من المتعلم الذي يعرف القراءة والكتابة[1]. ولم يكن شاعرا حتى لا يقال إنه ألف القرآن من نوع شعري جديد. والأبيات الشعرية القليلة المروية عنه في كتب الحديث أقرب إلى السجع منها إلى الشعر[2].

وظهور جبريل له أول مرة ليس بخصوصية ولا معجزة بل هو شيء طبيعي لإبلاغ النبي الرسالة. وتثبتت خديجة من الأمر. وانطلق النبي مع أبي بكر إلى ورقة[3]. ورؤيته جبريل ليس معجزة. والسماع لا يحتاج إلى رؤية. وقد لعب الخيال دورا في تصويره: ستمائة جناح من لؤلؤ ينشرها كالطاووس[4].

وبعد البعثة كان إذا خرج لحاجته وابتعد عن بيوت مكة وشعابها وبطون أوديتها لا يمر بحجر ولا شجر إلا أقرأه السلام[5]. وهذا إحساس بالوحدة وإيجاد قصد آخر يحادثه في شعور متبادل كما يحدث عند الشاعر والفنان الملهم عندما تحادثه الطبيعة. فعند الموسيقي الطبيعة تغني. وعند الفيلسوف الملهم العالم يتكلم. وعند الصوفي صاحب الكرامات الأشياء تتحدث. فكل شيء في هذا العالم لغة لا يفهمها كل الناس. وقد كان سليمان يفهم لغة الطير والنمل[6]. ولا يوجد شيء في هذا العالم إلا ويسبح ولكن البشر لا يفقهون تسبيحه[7]. كان يتمنى أن يأتيه الملك ويسمع صوته. فسمع صوت كل شيء طبقا لما يتمنى. الطبيعة تحدثه نيابة عن الملاك.

---

(١) وهو ما سماه سيد قطب «الجهل الذي يحمل الدكتوره». وهي التفرقة التي أقامها بترارك (+١٣٧٤) في «حول جهلي وجهل كثيرين آخرين»، ونيقولا الكوزي (+١٤٦٤) في أواخر العصر الوسيط وقبل بدايات العصر الوسيط بين «العلم الجاهل» و«الجهل العالم». مقدمة في علم الاستغراب ص١٦٦-١٧٢.

(٢) من النقل إلى العقل جـ٢ علم الحديث، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

(٣) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢١٣-٢٢٤.

(٤) السابق ص٢٧٠.

(٥) ابن هشام جـ١/ ٢٢٦-٢٢٧، ألفية السيرة ص٤٣-٤٥. «إن بمكة حجرا كان يسلم عليّ ليالي بعثت، إني لأعرفه الآن»، سيرة الرسول ص٨.

(٦) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

(٧) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

بُعث الرسول وهو في سن الأربعين لكافة الناس[1]. وقد أخذ ميثاقا على كل النبيين السابقين عليه بالإيمان به وتصديقه ونصره على من خالفه، وأن يكون ذلك لكل من آمن بهم وصدقهم. وهي قراءة بعدية للحاضر في الماضي، وشهادة الأنبياء السابقين على النبي الحالي نظرا لوحدة النبوة وتعدد مراحلها. كل نبي يبشر بالنبي القادم وهي شهادة الماضي في الحاضر. شهادة فعلية بظهور نبي بعده. فمن الطبيعي أن يصدق من صدق بالأنبياء السابقين بالنبي الحالي. ومن الطبيعي أن يصدق من يصدق بالنبي الحالي بالأنبياء السابقين. فالرسالة الحالية تأكيد للرسالات السابقة. والرسالات السابقة تكتمل في الرسالة الحالية كآخر حلقاتها. واليهود لا يصدقون بنبوة محمد لأنها تخرج النبوة من بني إسرائيل في قوم آخرين. والنصارى لا يصدقون بنبوة محمد لأنه لا يوجد أعظم من يسوع المسيح، ميلادًا وحياة ووفاة ورفعا[2]. فالإسلام ليس دين شعب بعينه مثل اليهودية ولا دين قلب مثل التصوف بل هو دين للبشر جميعا[3].

وتأخر الوحي في معاودة النزول مما أقلق الرسول. والرواية التي تشير إلى أن الرسول كان يريد التردي من فوق الجبال ضعيفة عند انقطاع الوحي، وكأن الرسول قد جُن وأنه كان حريصا على أن يكون الرسول. ويُضعف حديث «رأيت القس على ثياب أبيض». فالبياض لون يفضله الخيال الشعبي. ويضعف كل ما ورد في أساليب المقاطعة مع ثبوت أصل الحادثة. وأحاديث الإسراء مضطربة. ويصحح حديث «من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني...»، وحديث ذر التراب على رؤوس المشركين ضعيف[4].

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٢٢٥، عيون الأثر جـ١/ ١٦٤-١٧٧، المغازي ص٩٥-١٠١.

(٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. ابن خلدون ص٨٦-٩٨، السيرة الحلبية ص٣٢٢-٣٣٣، مختصر سيرة (١) ص٢١، مختصر سيرة (٢) ص٧١-٧٤، على هامش السيرة جـ٣/ ٥-١٠٨.

(٣) محمد ص٣٩-٥٠.

(٤) الفصول ص٥٤/ ٥٦/ ٦٢/ ٦٦/ ٦٨. «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله (يا أيها المزمل)....»، السيرة النبوية ص٥٩، سيرة الرسول ص١٣، الرحيق المختوم ص٦٩.

وتتضخم رواية جبريل وتخبر بجلوس الرسول على الآن فوق درنوك. وهو بساط ذو خمل يشبه الفروة وعليه ثوبان أخضران. ثم ضرب جبريل برجله الأرض فنبعت عين ماء[1]. وفي رواية ثالثة «كان جبريل يأتيه مثل صلصلة الجرس، وهو الأشد وأحيانا يترتل كرجل يتكلم»[2]. يأتي الوحي إما بالرؤية الصادقة أو بما يلقيه الملك في الروع أو يتمثل الملك رجلا وربما يراه الصحابة أو يأتي مثل صلصلة الجرس أو رؤية الملك في الصورة التي خُلق عليها أو ما أوحي إليه من فوق السماوات ليلة المعراج أو كلام الله له بلا واسطة كما حدث لموسى. أما كلام الله له من غير حجاب فعليه خلاف[3].

وابتدأ تنزيل القرآن في شهر رمضان[4]. نزل في ليلة القدر ويوم لقاء الرسول والمشركين في بدر[5]. وكلها أيام مفترجة جعلت الدين الشعبي يحتفل بها مع الدين الرسمي الحكومي لتأكيد إسلامية الدولة وإيمانية النظام. وغاب الوحي حتى شق على الرسول وأحزنه فنزلت سورة الضحى[6]. فالقرآن أتى مرة ثانية بناء على شوق وطلب وانتظار وليس

---

(١) «فنزلت معه إلى قرار الأرض، فأجلسني على درنوك وعليّ ثوبان أخضران. ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء»، بهجة المحافل ص٧٥.

(٢) «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما أقول»، السابق ص٧٦، أنواع الوحي : الرؤيا، ما كان الملك يلقيه في روعه، تمثل الملك له رجلا لمخاطبته، صلصلة الجرس، الملك في الصورة التي خلق عليها، ما أوحاه الله فوق السماوات ليلة المعراج، مختصر سيرة (١) ص٥٣، السيرة النبوية ص٦٢-٦٩.

(٣) الرحيق المختوم ص٧٠.

(٤) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٣٠، ﴿حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٣١.

(٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، ﴿حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٣٠-٢٣١، خير العباد ص٢٥-٢٨.

(٦) ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٣٢، صحيح السيرة ص٨٤-١٠٠.

كالمرة الأولى خوفا وارتعاشا. ومن شب على شيء شاب عليه. ومن تعود على شيء افتقده.

وابتدأ فرض الصلاة ركعتين ركعتين. ثم زيدت طبقا لمبدأ التدرج في الإسلام. وظلت في السفر ركعتين. وعلم جبريل طبقا للرواية الرسول الوضوء والصلاة وهو في الوادي بعد أن هز بعقبه فانفجرت منه عين. وهي الصورة الشائعة للمعجزة قبل الإسلام[1]. ثم علم الرسول خديجة الصلاة. ثم عين جبريل أوقاتها. كان جبريل يصنع كل شيء. ولم يترك للرسول أن يعلم شيئا بفطرته، والإسلام دين الفطرة خاصة في مسائل الوضوء[2].

٢- إبلاغ الرسالة

وأسلمت خديجة. وبشرها الرسول ببيت من قصب في الجنة. لا صخب فيه ولا نصب[3]. وطبقا للرواية «أقرأها جبريل السلام»[4]. فهي أول من أسلم من النساء. وكان لديها استعداد طبيعي للإسلام عن طريق معرفتها بالنصرانية من ابن عمها، وعن طريق مشاهدتها أمانة زوجها في التجارة وفضائله. وماتت بعد إسلامها بمدة قصيرة. ولم يتزوج الرسول عليها على مدى خمسة عشر عاما. وكل أولاده منها باستثناء إبراهيم الذي توفي وهو صغير. وظل الرسول يتذكر مساندتها له، ويذكر فضائلها حتى غارت عائشة منها وهي متوفاة. وعاتبت الرسول. وأقر الرسول بفضائلها وفضلها الذي لا ينساه. وتعرض أبو جهل لغلام كان يحمل قمحا لخديجة فمنعه وضربه أبو البختري بفك بعير فشجه. فلا أحد كان يجرؤ على خديجة شريفة قومها[5].

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٢٣٣-٢٣٥، عيون الأثر جـ١/ ١٧٧-١٧٨، الإشارة ص٩٠-٩٣، السيرة الحلبية جـ١/ ٣٧٥-٣٨٠، حياة محمد ص١٢٣، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٦٧، مختصر السيرة (٢) ص٨٨، الرحيق المختوم ص٧٦.

(٢) وقد اضطر ذلك أحد المشركين إلى القول ما هذا الرسول الذي يعلم قومه كل شيء، حتى الخراءة.

(٣) «أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخبا فيه ولا نصب»، ابن هشام جـ١/ ٢٣١.

(٤) «يا خديجة، هذا جبريل يقرؤك السلام من ربك»، السابق جـ١/ ٢٣٢، بهجة المحافل ص٦٧.

(٥) ابن هشام جـ١/ ٣٢٨. وهذا ما يعنيه المثل الشعبي «اللي ما يقدر على الحمار يقدر ع البردعة»، البستي جـ١/ ٦٩-٩٣، عيون الأثر جـ١/ ١٧٨-٢٠٧، خير العباد ص٢٢-٣١، الإشارة ص١٠٦-١١٥،

وأسلم بعض الصحابة في هذه الفترة. وأصبحت السيرة مرجعا لإسلامهم[1]. فأول من أسلم من الذكور عليّ وهو ابن عشر سنين. وكان قد نشأ في حجر الرسول للتخفيف على أبي طالب شئون عياله الكثيرة. وقد خرج عليّ مع الرسول إلى شعاب مكة ليصليا. ووقف أبو طالب على أمرهما[2]. ولما رآهما وسألهما عن هذا الدين الجديد أجابه الرسول بأنه دين الله وملائكته ورسله وأبينا إبراهيم. بعثه الله به للعباد، وعمه أحق به. وعز على أبي طالب هجرة دين آبائه ولكن وعد الرسول بألا يصيبه أذى. وفي رواية أخرى أجاب عليّ بأنه آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به. وصلى معه واتبعه. فرد عليه أبو طالب بأنه لم يدعه إلا إلى الخير وعليه اتباعه.

ثم أسلم زيد بن حارثة وخيّره الرسول بين المكوث عنده أو عند أبيه[3]. ثم أسلم أبو بكر، وأظهر إسلامه، ودعا إلى الله ورسوله. وفي رواية أخرى شهيرة أنه أول من أسلم من الرجال. وأسلم على يديه عدد من الصحابة. وكان الرسول ما دعا أحد إلى الإسلام إلا كان عنده نظر وتردد إلا أبا بكر[4]. وكان يبشر الواحد منهم بالجنة واعدا لهم بالهناء والسعادة في المستقبل بعد الموت والبعث وهو ما يخشاه الإنسان[5]. وأسلم سلمان الفارسي[6]. وكان سبب إسلام عروة وضع النبي يده على صدره حتى يخرج الشيطان خنزب منه والبصق ثلاثا على اليسار أو المسح باليمين سبع مرات[7]. وأسلم

السيرة الحلبية جـ١/ ٣٨١-٤٠١، حياة محمد ص١٣٣/ ١٣٨/ ١٤٢، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٥٠-١٥٢/ ١٦٩-١٧٧، المغازي ص١٢٥-١٤٣/ ٦٢-٦٤، مختصر سيرة (٢) ص٨٣، السيرة النبوية ص١٢٠-١٢١، صحيح السيرة ص٧٢-٧٥، الرحيق المختوم ص٧١-٧٤.

(١) ابن هشام جـ١/ ٢٣٥-٢٥٠.

(٢) «أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم... بعثني الله به رسولا إلى العباد وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه»، السابق جـ١/ ٢٣٧.

(٣) وفيه نزلت ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾، السابق جـ١/ ٢٣٨.

(٤) «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا وكانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه»، السابق جـ١/ ٢٤١.

(٥) «لقد سمعت نحبه في الجنة»، السابق جـ١/ ٢٤٧.

(٦) صحيح السيرة ص٧٢-٧٣/ ١١٥-١٣٤، ألفية السيرة ص٤٥-٤٨، حياة محمد ص١٢٣-١٢٦/ ١٣٣، السيرة النبوية ص٦٤-٦٩، صحيح السيرة ص٨٢-٨٧/ ١٠٩-١١٣.

(٧) «ذلك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا»، الخصائص الكبرى ص٤-٥.

الصحابة، كل بدوافعه الخاصة[1]. إما بسؤال الرهبان أو بحوار بينهم أو بأخبار عن النبي أو بسماع أخبار من الكهان بظهور نبي أو بظهور الجن لبعضهم حين يتدخل الخيال في القصص. وقد أسلم بعض الصحابة بناء على رؤى[2]. وظهر جبريل لبعضهم[3]. كما صرع الرسول البعض الآخر وكأنه في مصارعة[4]. وإسلام الخلفاء مثل عمر وعثمان له وضع خاص[5]. وكان الرسول يتوق إلى إسلام عمر أو حمزة. فالأفراد إضافة إلى الجماعة. وقد كان الرسول يدعو لهداية من ينصرون دعوته وكان الجن يدخلون الإسلام أيضا بصرف النظر عن صدق الرواية وعدم تطابقها مع شروط الصحة. وأولها التطابق مع الحس ورؤيتهم[6]. وقد علم جبريل النبي تعويذة تقيه من الجن الذي لم يسلم بعد. أما الملائكة فهم مسلمون حتى من قبل أن يبعث. وقد أسلم خالد[7].

وأسلم الطفيل وهو شاعر لبيب ورجل شريف بعد تحذير قريش له من الاستماع إلى النبي الذي كان قوله أقرب إلى السحر. يفرق الجماعة، ويشتت الأمور، ويفرق بين الرجل وأبيه وأخيه وزوجه. ومع ذلك استحسن قول الرسول وعدله فأسلم. وشهد بالحق. وطلب آية حتى يدعو قومه إلى الإسلام. وكانت نورا بين عينيه مثل المصباح. ثم تحول إلى الرأس كالقنديل المعلق. فأسلم أبوه ثم زوجه ثم قومه بعد الغسل والتطهر من الأصنام. ودعا الرسول أن يهدي الله قومه، وحرق ذا الكفين الصنم الذي كان يعبده، وهي صورة فنية طبقا للتصور الشعبي للنور الذي يشع من العينين لصاحب الحق ثم يتحول إلى قنديل معلق فوق الرأس إذا ما زاد التشبيه، وتطورت الصورة الفنية،

---

(١) السابق جـ١/ ٢٢٥-٢٤٧.

(٢) السابق جـ١/ ٢٧٤-٢٧٦.

(٣) هو حمزة، السابق ص٢٨٠.

(٤) السابق ص٢٨٩-٢٩٢.

(٥) السابق ص٢٩٢-٣٠٤ وآخرون مثل هنياء وعمرو بن عبد القيس، والطفيل بن عمر الدوسي وعثمان بن مظعون.

(٦) السابق ص٣٠٤-٣١٤، إسلام رفاعة ص٣٩٤.

(٧) السابق جـ١/ ٥٣٤-٥٣٨. إسلام عمرو بن العاص جـ٢/ ١١-١٣، فروة بن عمرو جـ٢/ ٣٠، إسلام ضافر بن التوأم الحميري جـ٢/ ٤٢، إسلام الحجاج بن علاط جـ٢/ ٤٥-٤٦، إسلام رافع بن عمير جـ٢/ ٤٦، إسلام الحكم بن كيسان مولى بني مخزوم جـ٢/ ٤٧.

وأصبحت أكثر حسية. ومثلها كثير في الأدب الشعبي. وجاهد مع المسلمين بعد وفاة الرسول. ورأى رؤية أن رأسه حلق، وخرج من فمه طائر، ودخل فرج امرأة، وابنه يطلبه حثيثا ثم حُبس عنه. وأول نفسه ذلك بأنه سيستشهد وأن روحه ستفارقه، ويدفن في الأرض، وابنه يلحق به. وقد صدقت رؤياه. وهي الصورة الشعبية للروح وهي تغادر الجسد لحظة الموت منذ قدماء المصريين كالطائر الذي يغادر فم الميت[1]. وقد مدح أعشى بن قيس بن تعلبة الرسول حين قدم على الرسول للإسلام. فلما قيل له إنه يحرم الزنا لم يهتم، ويحرم الخمر أراد الارتواء منها هذا العام ويسلم العام القادم فتوفى[2]. لذلك جعل الصوفية التوبة ترك الزلة في الحال. وابتاع أبو جهل إبل الأراشي وماطل في دفع ثمنها فذهب معه الرسول وأمره بإعطائه حقه فأعطاه. وسبب خوفه أنه رأى فوق كتفه فحلا من الإبل لم ير مثل هامته ولا عنقه ولا أنيابه فخشي أن يأكله[3]. وهو إحساس من يأكل حقوق الناس بالباطل خاصة عندما يرى صاحب الحق ومن يحمي حقوق المستضعفين. وقد صارع الرسول ركانة المطلبي ثلاث مرات لإقناعه بالإسلام. وأضاف آية أمر الشجرة بالقدوم إليه ومغادرتها. وهما سببان خارقان للعادة. الأول لم يُعرف عن الرسول أنه ضليع في المصارعة. والثاني لم يعرف عن الأشجار أنها تتحرك ثم تعود مكانها بمجرد دعوتها لذلك. وهما طريقان غير مألوفين لدعوة حجتها الأولى بلاغة القرآن لقوم يشعرون بالبلاغة كما تجلت في الشعر. أما الآيات الحسية المادية فهي بقايا من اليهودية والإسرائيليات[4].

والتركيز في السيرة على إسلام الأفراد تقدير للنزعة البطولية الموجودة عند العربي مثل عمر وحمزة[5]. أسلم عمر بصرف النظر عن الروايات في إسلامه. وبالإضافة إلى رواية

(١) ابن هشام جـ١/ ٣٥٢-٣٥٥.
(٢) السابق جـ١/ ٣٥٥-٣٥٧.
(٣) السابق جـ١/ ٣٥٧-٣٥٩.
(٤) السابق جـ١/ ٣٥٩، عيون الأثر جـ١/ ٢٣٩-٢٤١، الإشارة ص١٢٨-١٢٩، صحيح الرسالة ص٢١٦-٢٢٥، السيرة الحلبية جـ١/ ٥١٣، حياة محمد ص١٥٠، مختصر سيرة (٢) ص١٤٤، السيرة النبوية ص٧٨-٨١، سيرة الرسول ص٤٥.
(٥) قال الرسول «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب»، ابن هشام جـ١/ ٣٢١، بهجة المحافل ص٩٨.

أخته وزوجها الشهيرة، هناك رواية أنه كان يريد شرب الخمر فلم يجد الخمار. ثم أراد الطواف بالكعبة فوجد الرسول قائما يصلي. فاستمع إليه فرق قلبه. وما أن فرغ الرسول حتى تابعه عمر وأحس به الرسول ظانا أنه يريد به شرا إلا أن عمر أعلن إسلامه[1]. وأعلن أحدهم في نادي قريش أن عمر قد صبأ. وصححه عمر أنه قد أسلم. وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقاتله القوم وقاتلهم حتى أقبل شيخ وأوقف القتال لأن أهل عمر لن يتركوهم لو قتلوه. وفي السيرة موضوعات متكررة مثل إسلام كل صحابي بلا دلالة خاصة، الإيمان أو الشجاعة. فتحولت السيرة إلى مجرد رصد تاريخي وسجل لأسماء المسلمين الأوائل[2]. ويمدح الرسول إسلام أبي بكر[3].

وكانت الدعوة تبلغ للأفراد وللجماعات، للأفراد بالاقتناع الشخصي، وللجماعات بالنسب والمصاهرة، فمازالت القبيلة أو العشيرة و البطن هي الوحدة الاجتماعية والثقافية. كما دخل الإسلام فيما بعد القبائل الإفريقية والآسيوية في جنوب شرق آسيا بروح القبيلة. يدخل رئيسها فيتبعه قومه خاصة بعد أن يصاهر الداعية المسلم ابنة شيخ القبيلة. وكان المسلمون يجتمعون بدار الأرقم سرا[4].

ثم بدأ توجيه الرسالة إلى عشيرة الرسول وقومه الأقربين علنا دون خفاء[5]. فالأسرة تأتي قبل المجتمع بناء على نسق القرابة. والأقربون أولى بالشفعة. فبعد إسلام خديجة بقى الأعمام والأخوال وأولاد العم. فالأسرة دعامة للدين. والعشيرة أسرة كبيرة. والقبيلة عشيرة أكبر.

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٣٢٢-٣٢٥، الإشارة ص١١٤-١١٥، صحيح السيرة ص١٨٨-١٩٤، نور اليقين ص٤٠/ ٤٧، سيد الأنام ص٨٤-٨٥، مختصر سيرة (٢) ص١٠٠-١٠٥، السيرة النبوية ص٦٩-٨١/ ١٢٨-١٣٠/ ١٣٥-١٣٨، خاتم الأنبياء ص٥٨-٦٣، الرحيق المختوم ص٧٨-١٠٨، على هامش السيرة ص١٠٩-١٢٢.

(٢) خلاصة ابن كثير ص٦٩، ٢٠٥، ألفية السيرة ص٤٥-٤٨.

(٣) «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق. وواساني بنفسه وماله. فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟»، السيرة النبوية ص٦٧.

(٤) ابن هشام جـ١/ ٢٤١-٢٥٠، البستي جـ١/ ٩٣-١٠٥، ألفية السيرة ص٤٩-٥٠، مختصر السيرة (١) ص٥٤-٥٧.

(٥) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٥٠، إسعاف الراغبين ص١٨-٣٠، مختصر سيرة (٢) ص٩٠-٩١، الرحيق المختوم ص٧٨، رسول الحرية ص٤٥-٥٧.

والرسالة الجديدة تأكيد لزعامة قريش في مكة وعلى بيت الله الحرام. فكان لمكة السلطة الدينية والسياسية والاجتماعية. ولو أن الرسالة ظهرت في قبيلة أخرى لما تمت لأنها غير مؤهلة لذلك. فالرئاسة الدينية والسياسية والاجتماعية كانت تمهيدا للرسالة الدينية الجديدة وإبقاء على سيادة قريش السياسية وريادتها الاجتماعية. ومعارضتها كانت خوفا من نزع الزعامة. فلما عرفت قريش أن الزعامة باقية خفت معارضتها. «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»[1].

٣- معارضة الرسالة

وكان الرسول يخرج إلى شعاب مكة للصلاة مع أصحابه خشية من قومهم فقابلهم المشركون بالعداء وقاتلوهم. فضرب سعد بن أبي وقاص رجلا من المشركين بعظمة فخذ فشجه[2]. فكان أول دم أريق في الإسلام دفاعا عن النفس دون أمر من الرسول. فالدفاع عن النفس طبيعي عند الأفراد. ويأتي تلقائيا. أما عن الأقوام فيحتاج إلى تخطيط جماعي كما حدث في الغزوات. وأظهر قومه العداوة له. وحماه عمه أبو طالب. وكونت قريش وفدا لمقابلته فردهم برقة. واستمر الرسول في دعوته. وعاد وفد قريش إلى أبي طالب ثانية ليكف الرسول عن شتم الآباء وتسفيه الأحلام وعيب الآلهة وإلا نازلوه. ولم يشأ أبو طالب فراق قومه ولا خذلان ابن أخيه. وطلب من الرسول الكف عن الدعوة فقال قولته الشهيرة «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». وبكى الرسول فتأثر العم وأخذه بجانبه. ثم مشت قريش إلى أبي طالب مرة ثالثة ومعهم عمارة بن الوليد ابن المغيرة أقوى فتى في قريش لمبادلته مع الرسول. فرفض أبو طالب. فكيف يعطي ابنه

---

(١) إنذار قريش لأبي طالب، سيد الأنام ص٨٥-٨٧. منافسة السيادة في قريش بين بني عبد مناف وبني مخزوم ص٨٧-٨٨.

(٢) ابن هشام جـ١/ ٢٥١-٢٥٥، الفصول ص٥٧-٥٨، صحيح السيرة ص١٤٦-١٦٣، بهجة المحافل ص٨١، نور الأبصار ص١٦، نور اليقين ص٢٩-٣٥، سيد الأنام ص٧٩-٨٤، مختصر سيرة ص٥٧، معجز محمد جـ١/ ٣١-٧٢، سيرة الرسول ص١٤-٢٤، السيرة النبوية ص١٢٣-١٢٤، خاتم الأنبياء ص٤٧-٥٧/ ٦٥-٦٩، صحيح الرسالة ص٧٨-٨١، الرحيق المختوم ص١٠٩-١١٢.

ليقتلوه ويأخذ ابنهم ليغذيه؟ وقد أوصى أبو طالب قومه باتباع محمد، ولكنه هو نفسه لم يتبعه وإن كان قد دافع عنه. والدفاع عنه وتأييده نوع من الدفاع العملي. ومع ذلك نهى النبي عن الاستغفار له لأنه يريده التحول إلى الدين الجديد وكأن حلف الفضول وميثاق المدينة والصحيفة لا تكفي. ولقد تجرأ المشركون على النبي بعد موت أبي طالب مما تدل على أهمية التأييد العملي قبل الاقتناع النظري[1].

ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ليعذبوهم. وظل أبو طالب يمنع قريش من محمد. ويمدحهم على توقفهم عن إيذائه إلا أبا لهب. وقد عادى أبو لهب النبي ليس كراهية في دعوته الجديدة بل غيرة وحسدا من تفضيله أبي طالب عليه، وكلاهما عمان له[2]. وقد ظهرت عديد من الآيات لحماية الرسول من أذى المشركين[3]. ودعا على ابن أبي لهب. فالعداوة الشخصية أحيانا تتغلب على القرارات الجماعية. فالفرد في النهاية بشر. ثم اجتمع نفر من قريش ليبيّتوا ضد النبي . واتفقوا على وصفه بالساحر. وتحير الوليد بن المغيرة في كيفية الرد عليه قبل الوفود العربية القادمة. واقترحوا أن يوصف بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو شاعر[4]. والساحر أفضل لأنه فرق القوم بين المرء وأبيه وأخيه وزوجه وعشيرته[5]. ونزل القرآن في النفر الذي معه[6]. وتفرق نفر من قريش يشوهون رسالة الرسول. ونظم أبو طالب قصيدة يوضح فيها موقفه. وانتشر اسم الرسول في القبائل. ودافع عنه الشعراء[7]. رماه سفهاء قريش بالسحر والجنون. واستمر أذى الرسول من قومه والرسول يواجههم بالقول. وعاد إلى المنزل من شدة

---

(١) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) سبب عداء أبي لهب للنبي، السابق جـ١/ ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) السابق ص٣١٨-٣٢٨.

(٤) ابن هشام جـ١/ ٢٥٥-٢٥٨، المغازي ص١٠٧-١١٤.

(٥) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ ،﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، السابق جـ١/ ٢٥٧.

(٦) ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، السابق جـ١/ ٢٥٨.

(٧) السابق جـ١/ ٢٦٨-٢٧٠/ ٢٧٣.

ما أصابه[1]. وامتد الإيذاء من الرسول إلى الصحابة. وحذرهم الرسول أنه جاءهم بالذبح أي بالهلاك[2]. فأصاب أبا بكر بعض الأذى. ولما علم حمزة عم الرسول بإيذاء أبي جهل لابن أخيه ذهب وشج رأسه بقوسه اعترافا من أبي جهل بشتم الرسول ثم تحول حمزة إلى الإسلام[3]. وعُذب المسلمون الأوائل. وطالبهم الرسول بالصبر. ووعدهم بالجنة[4].

وطبقا للرواية دعا الرسول للناس عندما أقحطوا فنزل المطر[5]. فالحجة العينية أفضل من الحجة النظرية. والفائدة الحسية خير من الجدل العقلي. الطبيعة تستجيب لدعوة الرسول أكثر من البشر. وتحسها أكثر منهم. وتلبي حاجاتهم، وأكثر كرما معهم منهم مع الرسول. والرسالة خير مثل الطبيعة. كلاهما ري ونماء وزرع وحياة. لذلك كثر في القرآن تشبيه الوحي بالماء الذي ينزل على الأرض القاحلة فيحيلها إلى أرض خضراء، وإلا كانت هشيما تذروه الرياح. ليست القضية معجزة تخرق قوانين الطبيعة، استجابتها لدعاء الرسول حتى يؤمن من لا يؤمن به، بل القضية شعرية لقوم الشعر حياتهم. الطبيعة تحس أكثر مما يحس البشر. فلعل من لا يؤمن بعد بالرسالة يناجي الطبيعة ويحادثها، ويرق لها كما رقت هي للرسول. التركيز على القلب يخلق موضوعه كما يروي الصوفية. ليس الموضوع نقيضا للذات بل هو من خلقها ومستجيبا لها. وشدة الحاجة تأتي بالفرج.

وقد اقترح عتبة بن ربيعة على الرسول المال لجمعه له أو الشرف لجعله سيدا عليهم أو الملك لتمليكه. وإن كان الذي يأتيه رئيا عرضوه على الأطباء. فرد القرآن عليه[6].

---

(١) وفي هذا السياق نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، السابق جـ١/ ٢٧٥.

(٢) «أتسمعون يا معشر قريش. أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح»، السابق جـ١/ ٢٧٤، خير العباد ص٣٢-٣٣، السيرة النبوية ص٨٣-٨٩/ ١٢٤-١٢٩، صحيح السيرة ص٩٠-١٠٠، رسول الحرية ص٨٠-٩٢.

(٣) ابن هشام جـ١/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٤) «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»، سيرة النبي ص١٨٣، رسول الحرية ص٩٨-١٠٥.

(٥) «اللهم حوالينا ولا علينا»، ابن هشام جـ١/ ٢٦٦.

(٦) ﴿حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.

واعترف أخيرا بأنه استمع إلى شيء فريد ما سمع مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. وطلب أن يتركوا الرسول لأنه سيكون له شأن عظيم. فإن ينتصر العرب عليه فقد كفوه. وإن انتصر عليهم فهو عزة للعرب. يظن أن كل شيء خاضع للتجارة والمساومة بالمال والسيادة إلا الإبداع الشعري الذي يختلف كيفا ونوعا عن أساليب التجار[1]. هذا هو الفرق بين الدعوة والتجارة، بين القضية والمنفعة.

واستمر الحوار بين الرسول ورؤساء قريش. فقد ظل الإسلام ينتشر في القبائل. فاجتمعوا وأسرع الرسول إليهم وعرضوا عليه ما عرضوه سابقا[2]. فرفض الرسول. فرسالته حظهم في الدنيا والآخرة. وإن ردوها صبر حتى يحكم الله بينهم وبينه. وطلبوا منه أن يأتيهم بالله والملائكة قبيلا[3]. وعرض عبد الله بن أمية على الرسول نفس الشيء فرفض. وتركهم حزينا آسفا. فقد كان يطمع أن يدخل قومه الإسلام. وتوعده أبو جهل بإلقاء حجر على رأسه أثناء صلاته. وارتقب ولم يستطع. فقد عرض له فحل من الإبل ما رأى مثل هامته وعنقه وأنيابه يريد أن يلتهمه. وفسر ذلك الرسول بأنه جبريل. لو دنا لأخذه. وربما هي حالة نفسية للمعتدي الذي يشعر بأنه على غير حق. فينقصه الدافع. ويأتي بفعل وهو غير مقتنع به. فيتردد أو يتوقف. وهو نفس ما حدث عندما سلب حق الضعيف. فقررت قريش التدبر. وكان النضر بن الحارث يؤذي الرسول. وتعلم من أساطير الفرس رستم واسفنيار. ورد عليه القرآن[4]. فالقرآن مازال هو التحدي الأكبر لهم كنوع أدبي عند قوم خبروا الأنواع الأدبية. وأبدعوا في أحدها وهو الشعر. وقد

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٢٧٦-٢٧٨.

(٢) «ما بي ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة. وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»، «ما بهذا بعثت إليكم. إنما جئتكم من الله بما بعثني به. وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم. فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم»، السابق جـ١/ ٢٧٩، «ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا. وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا»، «ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل»، السابق جـ١/ ٢٨٠.

(٣) السابق جـ١/ ٢٧٨-٢٨٠.

(٤) ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾. السابق جـ١/ ٢٨٣.

طلبت قريش المستحيل، تفجير ينبوع من الأرض أو جنة من نخيل وأعناب وعنب، يفجر الأرض من خلالها تفجيرا أو يسقط السماء كسفا أو أن يأتي الله والملائكة قبيلا، وأن يكون له بيت من زخرف أو يرقى إلى السماء أو ينزل عليهم كتابا يقرئونه.

وقد منع الحسد والتنافس قريشا من اتباع محمد. كل منهم يريد الحفاظ على مكانته الاجتماعية. خشوا من الفزع من البعث والحساب وتصوير القرآن ليوم الحساب. وطمعوا في الجنة ونعيمها[١].

وكان الجوار أشبه بكلمة شرف عربية للحماية. فمن يدخل في جوار أحد يكون في حمايته. وكان بعض المسلمين في جوار بعض المشركين فردوا إليهم جوارهم واستبدلوا به جوار الله[٢]. وتحملوا الأذى من المشركين بعد رد جوارهم. وقد ضجر المشركون بإجارة أبي طالب بعض المسلمين ولا فرق بين ابن أخته وابن أخيه. وقد دخل أبو بكر في جوار مشرك، ثم رد جواره إليه، ثم خرج منه لمطالبته بالصلاة داخل منزله وليس خارجه حتى لا يفتتن به أحد وهو يبكي. فرد إليه أبو بكر جواره، ورضي بجوار الله وقبل أن يلقي على رأسه التراب وهو داخل مكة بعد أن رُفع الجوار. فالجوار حماية اجتماعية للأفراد. وتحمي الملائكة الرسول. فلو آذاه أحد من قريش لأخذته الملائكة عيانا عضوا عضوا[٣]. ويعني ذلك أن القائد محفوظ، وأن الزعيم لا يمس، وأن النبي محروس من الأذى.

وفي هذه الآونة نزلت آية (عبس وتولى) ردا على واقعة ابتعاد الرسول عن الأعمى توجها إلى وجهاء قريش وساداتهم[٤]. فهداية فرد خير من الدنيا وما فيها. والوعي مستقل عن طبقته. قد يكون الوعي عند الفقير أذكى وأحد من الوعي عند الغني. والدعوة تُوجه إليهما على حد سواء.

---

(١) حياة محمد ص١٥٢-١٥٦.

(٢) ابن هشام جـ١/ ٣٤١-٣٤٥.

(٣) «لو فعل ذلك لأخذته الملائكة عيانا»، «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا»، السيرة النبوية ص٨٥.

(٤) حياة محمد ص١٥١، صحيح السيرة ص١١٦-١١٧.

وتضعف بعض الروايات بالرغم من شهرتها[1]. فهي تبين صلابة الرسول ورفض المساومات أو أنصاف الحلول. وكان الرسول يدعو على الأعداء كما يفعل المسلمون اليوم. يطالب قومه بالصبر كما عذب الأنبياء من قبل بالنشر. وفي رواية أخرى يرفض الرسول إطباق الملائكة على أعدائه لأنه يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده[2]. وتناقض الروايات مدعاة للشك فيها.

٤- رد القرآن

ثم أرسلت قريش نفرا منها إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد طلبوا منهم أن يسألونه عن ثلاثة أشياء: الأول عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، والثاني عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، والثالث عن الروح. فإن أجاب فهو نبي . وإن لم يجب فهو متقول[3]. فسألوا الرسول. وطلب مهلة حتى الغد. فطبقا للرواية جاءه جبريل بعد خمس عشرة ليلة حاملا الجواب بعد أن حزن الرسول لتأخره مطمئنا إياه وحاملا سورة الكهف[4]. فهؤلاء الفتية هم أصحاب الكهف[5]. فقد أووا إلى الكهف

---

(١) مثل «يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني»، صحيح السيرة ص٧٦، ١٤٣.

(٢) بهجة المحافل ص٨٥، ٨٧.

(٣) ابن هشام جـ١/ ٢٨٣-٢٩٠.

(٤) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، ابن هشام جـ١/ ٢٨٤. ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا . وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إلا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا . وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾، جـ١/ ٢٨٤-٢٨٥.

(٥) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾، ابن هشام جـ١/ ٢٨٥. ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا . هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا . وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ

هربا من اضطهاد الملك لهم ثم بعثوا بعد ثلاثمائة وتسع سنين بعد أن توفاه الله. وهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى. وتمسكوا بالإيمان بالله ورفضوا الشرك. تطلع الشمس عليهم وتغرب. تبدو عليهم مظاهر اليقظة. ينقلبون يمينا ويسارا وهم رقود، وكلبهم باسط ذراعيه بالباب. تغير الزمن. وطالت شعورهم. وخاف منهم الناس، وامتلئوا رعبا. وظنوا أنهم رهبان يستحقون بناء مسجد عليهم. لا يُعرف عددهم تماما. أما الرجل الطواف فهو الإسكندر ذو القرنين الذي مكّن الله له في الأرض عن طريق الأسباب أي المعرفة بالواقع وقوانينه[1]. أما الروح فإنها من أمر الله. ولا تدخل في نطاق علم البشر المحدود[2]. ثم سأل اليهود ماذا تعني ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلًا﴾، فرد عليهم القرآن بأن الروح في علم الله قليل. وما يعلم البشر عنه كاف[3]. فالوحي مصدر معلومات الرسول التاريخية. نزل بها القرآن أيضا. لم يعرفها عن طريق المؤرخين أو الحفائر أو الوثائق.

وثلاثة أشياء لا يعلمها إلا نبي : أشراط الساعة، وأول طعام يأكله أهل الجنة، وما

تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا . وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا . إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا . وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا . وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا . وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا . قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، السابق جـ١/ ٢٨٦-٢٨٨.

(١) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، السابق جـ١/ ٢٨٨-٢٨٩. «ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب».

(٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلا قَلِيلا﴾، السابق جـ١/ ٢٨٩.

(٣) ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، السابق جـ١/ ٢٨٩-٢٩٠. وقول الرسول «إنها في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه»، مختصر السيرة (١) ص٦٨-٦٩.

ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟[1]. وقد أخبر جبريل أيضا الرسول. فمن أشراط الساعة نار تحشر الناس شرقا وغربا. وأول طعام أهل الجنة كبد الحوت. وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ينزع إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إلى أمه. وهو رجم بالظن. فأشراط الساعة كثيرة يدخل فيها خيال الرعب والخوف. وأول طعام أهل الجنة إسقاط لما يحبه العرب ويندر عندهم. أما نزوع الولد إلى أبيه أو أمه فإنه محض خيال. وقد أجاب الرسول على أسئلة اليهود حين أرادوا امتحانه بأسئلتهم الثلاثة[2].

وقد رد القرآن على طلب اليهود معجزات من الرسول بأنه مجرد رسول مثل باقي البشر، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق[3]. لماذا لا يكون له ملك يسير معه أو كنز يصرف منه أو جنة يأكل منها؟ لا يقوم الرسول بمعجزات. فقد أرسلت من قبل ولم يؤمن بها الناس مثل تسيير الجبال وتقطيع الأرض[4]. كما طلب اليهود أن يفجر الرسول لهم من الأرض ينبوعا أو تكون له جنة من نخيل وأعناب وأن يفجر من خلالها الأنهار أو يسقط عليهم من السماء الأمطار أو يأتي بالله والملائكة معا أو يكون له بيت من زخرف أو يرقى إلى السماء أو ينزل عليهم كتابا يقرئونه[5]. فاليهود يريدون أدلة حسية

---

(١) «أخبرني بهم جبريل آنفا. أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه»، السيرة النبوية ص٤٥-٤٦.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ٣١٦-٣١٨/ ٤١٢-٤١٨.

(٣) ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾. ألفية السيرة ص٥٠-٥٣، السيرة الحلبية جـ١/ ٤٠٢-٤٢٧، حياة محمد ص١٢٧، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٩٠.

(٤) ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٩٠.

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾. السابق جـ١/ ٢٩٠.

نفعية مادية. ولا يكفيهم الدليل الشعري. فهم يهود وعرب ولكن اليهودية فيهم تغلبت على العروبة، والمادة سيطرت على الروح. فالمعجزة طريق مسدود طبقا لتجربة الأنبياء السابقين. وآخر معجزة المسيح، ولادة وحياة ومماتا، ولم يؤمن اليهود به. فتحول طريق الإيمان من المعجزة إلى العقل والمشاهدة. وادعت قريش أنه يعلمه رجل باليمامة يُدعى الرحمن فرد عليهم القرآن[1].

وقد تكفّل القرآن بالرد على قريش. فالقرآن هو سلاح النبي . فنزل في أبي جهل وعدائه غير المعقول للنبي[2]. ينهاه عن الصلاة، ويعجب من هدايته وتقواه. يكذّب به، ولا يفكر في نهايته وعقابه، وأنه لن يشفع له أنصاره. ورد على تهكم أبي جهل على الرسول بأنهم سيحبسون في النار من تسعة عشر في حين تستطيع قريش هزيمتهم إذا جمعت لكل واحد مائة منهم[3]. لا يعرف الفرق بين معارك الدنيا ومعارك الآخرة. معارك الدنيا بفعل البشر، ومعارك الآخرة بفعل الله. كما رد على قريش فيما عرضوه على الرسول من مال[4]. فهناك أعمال لا تقدر بمال، لا تباع ولا تشترى. هناك قضايا مصيرية وجودية تتعلق بحياة الإنسان. واستكبرت قريش على الإيمان بالقرآن[5]، أو مجرد الاستماع إليه وأرادت تزييفه بالزيادة أو النقصان فيه حتى يمحي أثره من النفوس.

وكانت قريش تتفرق عن الرسول إذا أعلى صوته بالقرآن، ويسترقون السمع إن هو أخفضه. فنزل القرآن بالتوسط[6]. وكان عبد الله بن مسعود هو أول من جهر بالقرآن

---

(١) ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾. السابق جـ١/ ٢٩٢.

(٢) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى . كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. السابق جـ٢/ ٢٩٢.

(٣) ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. السابق جـ١/ ٢٩٤.

(٤) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. السابق جـ١/ ٢٩٣.

(٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. السابق جـ١/ ٢٩٤، ألفية السيرة ص٥٠-٥٣، الأسوة الحسنة جـ١/ ١٧٧-١٩٥، مختصر سيرة (١) ص٦٩. اعتراض المشركين وتعنتهم في أسئلتهم، السيرة النبوية ص٨٩-٩١. تكذيب المشركين بالقرآن ص٩١-١٠٤.

(٦) ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٩٤.

بالرغم من إيذاء قريش له. وكان نفر من قريش يستمعون سرا إلى الرسول ثم يتفرقون[1]. ويتواعدون على أن لا يعودوا ثم يعودون. ثم تعنتت قريش لعدم استماعهم إلى القرآن متحججين بأن قلوبهم موصودة، وأن في آذانهم وقر، وأن بينهم وبينه حجاب، وأنهم ينفرون منهم ويولون الأدبار، وأنه سحر[2]. تعرف قريش أثره في النفوس ولكنها تعاند حرصا على مصالحها أو خوفا من المجهول. يعلمون أنه الحق دون الاعتراف به. وليس لديهم الشجاعة الأدبية للاعتراف بأثره بدلا من أن يتظاهروا برفضه إن علا حديث القارئ أو يسترقون السمع إليه إن انخفض صوته. يعترفون بطريق غير مباشر بأنه الحق ولكن العيب فيهم في حواسهم المغلقة وقلوبهم الموصودة وكأنهم يقولون: إذا انفتحت آمنوا. فالعيب ليس في الموضوع بل في الذات.

وظلت قريش تعتدي على المستضعفين بالأذى والفتنة، بالحبس والتعذيب، بالجوع والعطش وبرمضاء مكة. وقد لقي بلال مولى أبي بكر من العذاب ما دفع أبا بكر لتخليصه منه. فكانوا يأخذونه في الرمضاء ويضعون الحجر الكبير على صدره فإما الكفر بمحمد أو الموت وهو يقول: «أحد، أحد». فاستبدل به أبو بكر غلاما أسود وأعطاه لهم وأعتق بلال[3]. وأعتق معه ست رقاب قبل أن يهاجر إلى المدينة. وقد ذهب بصر امرأة منهم. وكان معظمهم من الجواري والعبيد. وكان ابنه يعتق الضعاف وأبوه يطالبه بعتق الأقوياء منعة له. فأتى القرآن تصديقا للابن[4]. فالضعيف في حاجة إلى أن يتحرر قبل القوي. وكان الرسول يعزي المعذبين بالصبر فلهم الجنة مع أن الخلاص

---

(١) وهم أبو سفيان وأبو جهل والأخنس، السابق جـ١/ ١٩٥.

(٢) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا . انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. السابق جـ١/ ٢٩٦/ ٣٩٦-٣٩٧.

(٣) ابن هشام جـ١/ ٢٩٧-٣٠٠، حياة محمد ص١٢٩-١٣٢، صحيح السيرة ص١١٥-١١٦.

(٤) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ... وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. ابن هشام جـ١/ ٢٩٩.

القريب أفضل من البعيد[1]. وكان أبو جهل يعذب من أسلم بتسفيه حلمه، وتقبيح رأيه، وتضعيف شرفه، وكساد تجارته، وهلاك ماله، وضربه. جمعا بين المخاسر المادية والعذاب النفسي. وقد أجاز ابن عباس للمعذبين الامتناع عن الإسلام طبقا لواقعيته، وحل المشاكل على المدى الطويل وليس في الأمد القريب. وقد رفض هشام تسليم أخيه لقريش ليقتلوه على إسلامه. فالأخوة تجب الخلاف في الرأي. والقرابة في المجتمع القبلي أكثر حضورا من العقيدة.

وقد تكفل القرآن بالرد على قريش دفاعا عن محمد. فحمل قرشي سيفا له عند صاحبه للرسول. وطلب أن يدفع له يوم القيامة فرد القرآن[2]. فقد خلط القرشي بين الدنيا والآخرة. الدنيا لها قوانينها في البيع والشراء. والآخرة لها قوانينها في تحقيق العدل الذي لم يتحقق في الدنيا. الدنيا دار حقوق وواجبات. والآخرة دار تعويض وجزاء. وكان أبو جهل يهدد الرسول بأنه إن لم يتوقف عن سب آلهته فسيسب أبو جهل إله الرسول[3]. وهي مساواة ظالمة بين الإله الواحد والآلهة المتعددة. ومن الأفضل عدم سب الآلهة المتعددة حتى لا يُسب الإله الواحد، احتراما لمفهوم الألوهية سواء كان الإله واحدا أم متعددا[4]. وكان النضر بن الحارث يتهم أحاديث الرسول بأنها أساطير الأول. ويحدث نيابة عنه بقصص رستم واسفنديار وملوك فارس[5]. وفرق بين قصص الأنبياء

---

(١) «صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة»، السابق جـ١/ ٢٩٩.

(٢) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا . كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. السابق جـ١/ ٣٣١.

(٣) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. السابق جـ١/ ٣٣١.

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾، ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. السابق جـ١/ ٣٣٣.

(٥) ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. ابن هشام جـ١/ ٣٣١، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾، السابق جـ١/ ٢٣٢. «إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده. إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن اقترنهم بعبادته»، السابق جـ١/ ٣٣٣.

الذي هو حق في دلالته حتى وإن كان متخيلا في واقعه، وقصص الأساطير الذي هو متخيل في دلالته وفي واقعه على حد سواء. وكلاهما تعبير عن رغبة إنسانية في القص أي تدوين الماضي عن طريق الذكريات. فالذكريات تاريخ قصصي، والقصص تاريخ مروي. وعجبت قريش من أن كل ما يُعبد من دون الله، الملائكة، وعزيز، والمسيح في حطب جهنم فأكد القرآن ذلك[1]. فالله وحده هو الخالق، وما دونه مخلوق. والخالق هو الدائم، والمخلوق هو الفاني[2]. ورد القرآن على كل من أشار إلى الرسول بسوء[3]. يحلفون بالباطل، ويسخرون من الرسول، ويمشون بالنميمة بين الناس. فالإسلام سلوك أخلاقي، وحياة فاضلة. وقد دعى محمد قومه إلى الإسلام، ولحق منهم البعض بالرسول[4]. والرسول قادر على مصارعة الخصوم وغلبتهم، يأمر الشجرة بالحركة فتتحرك[5]. وهو دليل على الثقة بالنفس، وقوة الإرادة، وشدة العزيمة. وهو ما يوحد بين التمني والواقع، بين الرغبة والتحقق، بين الذات والموضوع.

واستعجبت قريش كيف ينزل القرآن على محمد وليس على سيدين فيهما وكأن المهم هو الرسول وليس الرسالة، الواسطة وليس القضية[6]. فالشرف للأشخاص طبقا لعادات العرب. وشرف الشخص يحتم عليه النظر إلى القضية، وموقفه منها بناء على درجة شرفه ومكانته بين أسياد العرب. وكان نفر من قريش يستمع إلى الرسول ويخاف من قومه طبقا لازدواجية الشخصية[7]. يعرف الحق كفرد، ويتضامن مع القبيلة

---

(١) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ .... وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، السابق جـ١/ ٣٣٣.

(٢) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾. السابق جـ١/ ٣٣٣.

(٣) ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾. السابق جـ١/ ٣٣٤.

(٤) «اللهم اهد دوسا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم» السابق جـ١/ ٣٥٤.

(٥) «يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه... أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقوله حق؟... فقم حتى أصارعك... وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري... أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني... ارجعي إلى مكانك...»، السابق جـ١/ ٣٥٩.

(٦) ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾. السابق جـ١/ ٣٣٤.

(٧) ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾. السابق جـ١/ ٣٣٤.

كجماعة. يعرف الحق في الباطن، والباطل في الظاهر. الصدق في الباطن، والرياء في الظاهر. ولما سأل أحدهم كيف يحيي الله العظام وهي رميم وفرك عظمة بيده ونفخها في وجه الرسول نزل القرآن للرد عليه[١]. فالقادر على الخلق من عدم أقدر على إعادة الخلق من شيء. ومنه استمد المناطقة المسلمون قياس الأولى. ولما عرضت قريش المشاركة في عبادة آلهتهم وإلهه نزلت سورة «الكافرون»[٢]. رفض القرآن المساومة في الحق، التوحيد. فلا مساومة بين التوحيد والشرك. ولما سخر أبو جهل من شجرة الزقوم التي توعد بها الرسول قريش بأنها عجوة بالزبد يسهل أكلها جاء رد القرآن بأنها كالماء المغلي في البطون مثل ماء الحديد المغلي[٣]. وليس من الحكمة الاستخفاف بالمتوقع من العقاب في المستقبل. وعاتب القرآن الرسول بعدم إعطاء الاهتمام الكافي للأعمى الذي جاء يطلب الهداية لصالح أحد وجهاء قريش يرجو الرسول هدايته[٤]. وساوى في طلب الهداية بين البشر بصرف النظر عن طبقاتهم الاجتماعية.

ولما دعا أحد القرشيين إلى ترك الرسول وشأنه فإنه أبتر ينقطع ذكره بوفاته نزلت سورة الكوثر للدفاع عن الرسول برد التهمة إلى صاحبها وتعويض الرسول عن ذلك بنهر في الجنة والشكر له بالصلاة والنحر[٥]. والكوثر طبقا للراوية نهر مثل ما بين صنعاء والعقبة، آنيته كعدد نجوم السماء، ترده طيور لها أعناق الإبل، لا يوجد أنعم منها في الأكل. من شرب منه لا يظمأ أبدا[٦]. وهو رد على الواقعة بالصورة، وعلى القليل بالكثير، وعلى الواقع بالخيال، وعلى الحاضر بالمستقبل، وعلى الحرمان بالإشباع، وعلى

---

(١) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾، وقال الرسول «نعم أنا أقول ذلك يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا ثم يدخلك الله النار»، السابق جـ١/ ٣٣٤-٣٣٥.

(٢) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. السابق جـ١/ ٣٣٥.

(٣) ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾. السابق جـ١/ ٣٣٥، (وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا). السابق جـ١/ ٣٣٦.

(٤) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾. السابق جـ١/ ٣٣٦.

(٥) ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. السابق جـ١/ ٣٦١-٣٦٣.

(٦) «نهر كما بين صنعاء وإيلا. آنيته كعدد نجوم السماء، ترده طيور لها أعناق كأعناق الإبل، أكلها أنعم منها»، السابق جـ١/ ٣٦٢.

نقص الحياة الدنيا بكمال الحياة الأخرى. فأيهما أفضل: ابن في الدنيا يموت هو أيضا أم نهر خالد في الجنة طوله ما بين صنعاء والعقبة أي من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها، وآنيته كنجوم السماء بلا عدد محدد، وأعناق طيوره كالإبل؟ فما بال حجم طيوره وكأن الطيور بالحجم، في حين أنه كلما زاد حجم الطير لم يعد طيرا، ولا يمكن ذبحه، ولا يستساغ طعم اللحم العجوز. وطلب منه نفر من قريش أن ينزل مع الرسول ملك لتأييده فيما يقول ورد عليهم القرآن بأن لو نزل عليه ملك لقضي الأمر، وانتهت الرسالة. والأفضل أن يكون رجلا ليلتبس عليهم الأمر، ولفت في عضدهم، يعاندون رجلا وهو ملك[1]. ولما استهزءوا به نزل القرآن دفاعا عنه باللجوء إلى تاريخ الأنبياء، وأنه طالما استهزئ بالأنبياء السابقين. فحاق الهزؤ بالمستهزئين. ولم يضر استهزاؤهم الأنبياء[2]. كان القرآن في جدل مع الواقع وفي حوار معه، يرد على أسئلته، ويصحح مفاهيمه. فلا وحي بلا واقع، ولا واقع بلا وحي . وواضح جدل القرآن والواقع مباشرة حتى دون توسط الرسول. فالرسول ينتظر الرد من جبريل. والقرآن هو سلاحه الأول وحجته القاطعة.

٥- الهجرة إلى الحبشة

وهاجر المسلمون إلى الحبشة حماية بملكها من ظلم قريش[3]. وهم ثلاثة وثمانون[4].

(١) ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾. السابق جـ١/ ٣٦٣.

(٢) ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. السابق جـ١/ ٣٦٣.

(٣) قال الرسول: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد. وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»، السابق جـ١/ ٣٠٠، خير العباد ص٣٣-٣٨، الإشارة ص١١٦-١٢٧، الفصول ص٥٨-٦٠، صحيح السيرة ص١٦٤-١٨٧/ ٢١٢-٢١٦.

(٤) ابن هشام جـ١/ ٣٠٠-٣٠٨، ابن خلدون ص٩٣-٩٧، ألفية السيرة ص٦٠-٦٣، السيرة الحلبية جـ١/ ٤٥٦-٤٧٤، حياة محمد ص١٣٥-١٣٨، نور اليقين ص٤٦-٤٩، سيد الأنام ص٩٥-١٠٢، المغازي ص١٦٥-١٦٨، مختصر سيرة (١) ص٢٣/ ٥٧-٦٠، مختصر سيرة (٢) ص٩٢-٩٩/ ١٤٩، معجزة محمد جـ١/ ٧٣-٧٥/ ٨٧-٩٢، السيرة النبوية ص١٠٤-١١٠/ ١٣٤-١٣٥، سيرة الرسول ص٣٠-٣٧، خاتم الأنبياء ص٥٧/ ٦٣-٦٥، صحيح السيرة ص١٠١-١٠٨، الرحيق المختوم ص٩٢-٩٧.

فأمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا الله دون خوف. وقد أحسن النجاشي استقبالهم. ثم أرسلت قريش وراءهم تطلب المهاجرين إليها. وبعثوا له ولبطارقته الهدايا. وكان منهم عمرو بن العاص. وأخبروا الملك أن من أتاه قوم سفهاء. فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في النصرانية، وجاءوا بدين مبتدع غير معروف. ويرجون باسم أشراف قومهم تسليمهم دون الحديث معهم. ووافق البطارقة على طلب قريش كعادة رجال الدين. فغضب النجاشي ورفض تسليم من أتوا في حمايته قبل أن يسمعهم. فإن كانوا كما يقولون ردهم إلى أهلهم. وإن كانوا خلاف ذلك أبقاهم في حمايته. واستمع الملك إلى المهاجرين بعد أن سألهم عن دينهم. فقالوا إنهم كانوا أهل جاهلية يعبدون الأصنام. يأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويسيئون الجوار، ويأكل القوي منهم الضعيف. فبعث الله لهم نبيا يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأوثان والحجارة، والصلاة والزكاة والصيام. وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، والنهي عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. فطلب النجاشي البرهان. فقرئ عليه صدرا من سورة مريم ﴿كهيعص﴾ فبكى حتى ابتلت لحيته وبكت أساقفته حتى ابتلت مصاحفهم. وقد أفتوا من قبل برد المهاجرين إلى قومهم. وقال النجاشي إن ما استمع إليه هو ما جاء به عيسى. فكلاهما يخرجان من مشكاة واحدة. وقرر عدم تسليم المهاجرين. وواضح التغير الجذري في أخلاق العرب، من الجاهلية إلى الإسلام. يدركه العقل، وتشعر به النفس، ويؤيده الواقع. وقد دعاه الرسول بعد ذلك إلى الإسلام في رسائل مشهورة[1]. وصلى الرسول على النجاشي اعترافا بنصرته للمسلمين. وصلى على قبره وهو في مكة[2]. فالصلاة لا مكان لها وتتجاوز البعد المكاني.

وفي اليوم التالي قررت قريش استعمال حجة حاسمة ضد المهاجرين وهو أن عيسى

---

(١) السيرة النبوية ص١٠٨-١٠٩.

(٢) الإشارة ص١٢٢/ ١٢٥-١٢٦، «قد توفى اليوم رجل صالح من الحبشة، فهلم فصلوا عليه»، بهجة المحافل ص٣٥٤، السيرة النبوية ص١٠٧، السيرة الحلبية جـ١/ ٤٧٧-٤٨٧، نور اليقين ص٤٩-٥٠.

ابن مريم عبد، فرد المسلمون بأن المسيح عبد الله ورسوله وروحه وكلمته. ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فاستحسن النجاشي القول. وقال إن عيسى ابن مريم هو ما قاله المهاجرون في حين تناحرت البطاركة كعادة رجال الدين واختلاف اللاهوتيين حول طبيعة يسوع المسيح. وأعطى النجاشي الأمان للضيوف، وأن من سبهم غرم، وأنه لن يؤذي أحدا منهم ولو أعطى له جبلا من ذهب. ورد على قريش هداياهم. وطالب البطاركة بنفس الشيء. فهو لا يأخذ رشوة لأن الله لم يأخذ رشوة عندما رد عليه ملكه. فلا يوجد كتاب عظم المسيح وأمه وحواريه كما فعل القرآن[1]. وفرح المهاجرون بنصرة النجاشي على عدوه الذي نازعه الملك. وكان أبو النجاشي قد قتل وتولى عمه. ثم غلب النجاشي على عمه. وسعى الأحباش إلى إبعاده. ثم تولى الملك برضاهم. فالخير لا يتغير، إما العدل بين المسلمين وقريش وإما رضا الناس على الحكم. وكان عمه قد باعه لتاجر. رد إليه النجاشي الثمن بعد اعتلائه العرش. ثم خرجت الحبشة على النجاشي لأنه فارق دينهم. وطلب النجاشي من المهاجرين المغادرة إذا هزم والثبوت إذا انتصر مع كتاب يعلن فيه دخوله في الإسلام، وأن عيسى كلمة الله وروح منه. فلما مات النجاشي طلب الرسول الصلاة عليه والاستغفار له[2].

وبعد نصرة النجاشي للمسلمين، وإسلام عمر وحمزة خشيت قريش القوة المتصاعدة لهم. فتعاقدوا على كتابة صحيفة على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب في المصاهرة والتجارة. وقاطعت قريش بني هاشم وبني عبد المطلب[3]. فلما عرف الرسول دعا على كاتب الصحيفة فشلت بعض أصابعه بقوة النبوة. وإذا كانت النبوة قادرة على حماية نفسها فلماذا لم تحم المسلمين من الأساس، ومنعت التعذيب، ونصرت الرسول؟ ربما هي فقط عامل مساعد حتى لا تهمش الجهد البشري كما هو الحال في الحدس المعرفي، والقوة غير المتوقعة للبطل وهو في حموة النضال. وكان أبو لهب يفرك يديه ويقول: ما أرى فيكما شيئا مما يعد محمد. كانت امرأته تحطب الشوك وتضعه في طريق محمد فنزل

(١) ابن هشام جـ١/ ٣١٤-٣١٥.
(٢) السابق جـ١/ ٣١٥-٣١٨.
(٣) السابق جـ١/ ٣٢٥-٣٣٦، الإشارة ص١٢٤-١٢٥/ ١٢٨، الفصول ص٦٠-٦٢.

القرآن ردًا عليها[1]. وقد تعجب من عدم تعجب قريش من صرف الأذى عنه[2]. ثم أرادت امرأة أبي لهب الانتقام من الرسول لنزول القرآن فيها. أرادت أن تقذف الرسول بكف من حجارة وهو يصلي في الكعبة فأخذ الله ببصرها فلم تر إلا أبا بكر. فمعجزات الرسول ليست فقط تلك التي يقوم بها هو نفسه فعلا أو دعاء بل أيضا هي التي يقوم بها الله دفاعا عنه. وبالتالي يكون السؤال متى يكون الفعل المعجز لله ومتى يكون للرسول؟ ومتى يتدخل الفعل المعجز لله أو للرسول ومتى يُترك الأمر للفعل الإنساني للدفاع عن الرسول والمؤمنين أو للهجوم على المشركين؟ وكان البعض إذا رأى الرسول همزه ولمزه فرد عليهم القرآن[3]. فهل هو أبلغ من رد الرسول أم أن القصد من رد القرآن هو تخليد هذا النموذج من السخرية من الحق والرد عليه، فوقائعه متكررة عبر الزمان والمكان؟

ثم حاول بعض الفضلاء نقض الصحيفة التي عقدتها قريش لمقاطعة الرسول وبني عبد المطلب وبني هاشم[4]. فالقرابة لها الأولوية على العقيدة. فالأخوال لا تطعم ولا تلبس الثياب ولا تنكح ولا يباع منهم ولا يشترى. وبدأت الدعوة برجل واحد ثم اثنين حتى خمسة. وذهبوا للحديث مع أبي جهل فوجدوا طبقا للراوية أن الأرضة قد أكلت الصحيفة إلا «باسمك اللهم» بعد أن شلت يد كاتبها. معجزتان: الأولى في العقد، والثانية الخرق. وأخبرا الرسول طبقا للرواية أن الله هو الذي سلط الأرضة على الصحيفة ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان وأثبتت اسم الله. وأجار المطعم الرسول لأن الحليف لا يجير. فالحشرات على وعي بما يُكتب أكثر من الإنسان. والظلم والقطيعة

---

(١) ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾. ابن هشام جـ١/ ٣٢٦/ ٣٢٩.

(٢) السابق جـ١/ ٣٣٠، «ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد».

(٣) ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾. السابق جـ١/ ٣٣٠، خير العباد ص٤٠-٤٣، بهجة المحافل ص٩٤-٩٥.

(٤) هم: هشام بن عمرو، زهير بن أبي أمية، المطعم بن عدي، أبو البختري، زمعة. ابن هشام جـ١/ ٣٤٥-٣٥٢، السيرة الحلبية جـ١/ ٤٧٥-٤٧٦، حياة محمد ص١٥٧-١٦٢، سيد الأنام ص٨٨-٩٢، مختصر سيرة (١) ص٦٦، مختصر سيرة (٢) ص١٠٩، السيرة النبوية ص١١٠-١٢٠/ ١٣٩، الرحيق المختوم ص١٠٩-١١٢، رسول الحرية ص١٠٦-١١٧.

والبهتان لا تجتمع طبقا للرواية مع اسم الله لأن الله يعني العدل وصلة الرحم والصدق. واليد التي تكتب لا تكتب إلا الخير وإلا توقفت عن أن تؤدي مهمتها في العمل. وإذا كان الحليف لا يجير فقد وجد الرسول من يجيره لأن الحق لا يضيع، ويجد باستمرار سندا إنسانيا له. هنا لا يوجد فرق بين الواقع والخيال، بين الحرف والصورة، بين الحس والتصور، بين المرئي والتمني. فالدعوة الجديدة تؤسس عالما من المعاني، وتقيم نسقا ثنائيا من القيم. الأدنى يزول، والأعلى يبقى.

وتظهر الرسالة في مبادئ الصحيفة وهي أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس[١]. وأن المؤمنين أخوة[٢]، وأن القبائل متساوية[٣]، وأن اليهود متآخية[٤]، وأن المبادئ الأخلاقية تجمع الجميع[٥]. وتشبه حلف الفضول.

وأتاه وفد من نصارى الحبشة أو نجران للإسلام. واستمعوا للرسول وللقرآن. وفاضت أعينهم من الدمع. وصدقوه. وعرفوا أنه من يوصف في كتابهم. فاعترضهم أبو جهل وعنفهم[٦]. فنزل القرآن دفاعا عنهم[٧]. فالنصارى كانوا أكثر استجابة للإسلام من اليهود، وأكثر اعترافا بالدين الجديد وبالنبي الجديد الموصوف لديهم في الإنجيل. وقد اتهمت قريش الرسول بأنه يتعلم ما يقول من جبر النصراني غلام بني الحضرمي فرد عليهم القرآن بحجة اللغة، بأن جبر الرومي لسانه رومي في حين أن

(١) ويضم هذه المبدأ، الغزو المشترك، والنصر المشترك، ورد الاختلاف إلى الله والرسول، ونهاية الثأر، وحرمة الجوار.

(٢) ويضم هذا المبدأ: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحلف والموالي فيما بينهم، يد واحدة ضد العدوان، الجميع في ذمة الله.

(٣) ويضم هذا المبدأ: المساواة بين المهاجرين من قريش، بنو عوف، وبنو الحارث، وبنو ساعدة، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس.

(٤) الحلف مع اليهود حربا أم سلما، أمة مثل المسلمين. ولكل نفقته.

(٥) مثل حرمة مكة، حرمة الجار، الصلح بين الناس، المساواة بين الجميع، السيرة النبوية ص٤٨٨-٤٩١.

(٦) ابن هشام جـ١/ ٣٥٩-٣٦١.

(٧) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. السابق جـ١/ ٣٦٠.

القرآن لسان عربي مبين[1]. وأتاه المستضعفون للاستماع إليه، وتهكمت قريش عليهم. فرد القرآن[2]. فالهداية مستقلة عن الوضع الاجتماعي والمستوى الاقتصادي. بل قد يكون المستضعفون أكثر إحساسا بالإسلام باعتباره دين المستضعفين.

ولا ضير في قصة الغرانيق التي تروى بعد عودة المسلمين من الحبشة. فالرسول حريص على تحول العرب إلى الإسلام، وتحول تعدد الآلهة إلى إله واحد، وجذبهم تدريجيا من الوثنية إلى الإسلام[3]. فبدلا من تكذيب الرواية وهي مذكورة في القرآن يمكن تفسيرها نفسيا، حرص الرسول على إيمان المشركين ودخولهم إلى الإسلام حتى ولو تم ذلك تدريجيا مع أنصاف الحلول مرحليا كما يحدث الآن في الخلاف بين فتح وحماس.

وقد أذت قريش الرسول كما فعلت حمالة الحطب[4]. ومع ذلك استمر الحوار بينهما. وقد هدد أبو جهل برضخ رأس الرسول فأصيب بالذعر لاستحالة انتصار الشر على الخير، وتغلب الباطل على الحق.

٦- الإسراء والمعراج

وحدثت واقعة الإسراء والمعراج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بعد أن انتشر الإسلام بمكة وفي معظم القبائل العربية. وكانت بلاء وتمحيصا للرسول، ودليلا على قدرة الله، وعبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة لمن آمن وصدق، وآية للرسول حتى يعاين ما سمع به. هي المعجزة الكبرى حتى يشاهد الرسول ما سمع. وتثبت الرؤية

---

(١) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. السابق جـ١/ ٣٦١.

(٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. السابق جـ١/ ٣٦٠-٣٦١.

(٣) حياة محمد ص١٤٠-١٤٦، معجز محمد جـ١/ ٧٥-٧٧.

(٤) سيد الأنام ص٩٢-٩٥.

ما تخبر به الأذن[1]. والسؤال هو هل هي واقعة أم رؤية؟ هل حَدَث أم حلم؟ هل تمت في اليقظة أم في المنام؟ هل تمت بالجسد أم بالروح؟[2]. اختلف السلف والعلماء. هل كان إسراء بروحه أو جسده على ثلاث مقالات[3]. الأولى رواية معاوية أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام، ورؤية الأنبياء حق روحي ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. ورواية عائشة وقول الرسول «بينما أنا نائم»، وقول أنس «وهو نائم في المسجد الحَرام». وفي آخر القصة «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام». والثانية أن الإسراء بالجسد وفي اليقظة عند معظم السلف والمسلمين وأكثر المتأخرين بين الفقهاء والمحدّثين والمتكلمين والمفسرين. وهو الرأي المحافظ. والثالثة الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماء بالروح ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾. ويتم الحجاج ضد من قال إنها نوم[4]. واختلفوا في رؤية الرسول لربه. أنكرتها عائشة ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[5]. ومناجاته وكلامه مع الله مع جبريل ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[6]. والدنو والقرب من الله تصور مكاني ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[7].

---

(1) ابن هشام جـ1/ 363-373، الإشارة ص135-139، البستي جـ2/ 112-117.

(2) في رأي عائشة أنه إسراء بالروح «ما فقد جسد رسول الله ولكن الله أسري بروحه». وفي رأي معاوية أنها رؤيا من الله صادقة. وفي رأي الحسن بأنها رؤيا، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، وحديث الرسول «تنام عيني وقلبي يقظان»، ابن هشام جـ1/ 366-367، البستي جـ2/ 112-118، ابن خلدون ص98-101، عيون الأثر جـ1/ 241-247، خير العباد ص44-51. الفصول ص65-69، صحيح السيرة ص234، بهجة المحافل ص118-120، سيرة النبي ص216-233، السيرة الحلبية جـ1/ 514-586، نور الإبصار ص19، حياة محمد ص162-168، نور اليقين ص56-58، الأسوة الحسنة جـ1/ 199-221، سيد الأنام ص102-110، المغازي ص115-123، مختصر سيرة (1) ص53/ 77-78، سيرة الرسول ص46، السيرة النبوية ص147-152، خاتم الأنبياء ص70-74، صحيح السيرة ص128-133، الرحيق المختوم ص137-142، الخصائص الكبرى جـ1/ 335-392.

(3) الشفا جـ1/ 245-252.

(4) السابق جـ1/ 252-256.

(5) السابق جـ1/ 257-266.

(6) السابق جـ1/ 267-269.

(7) السابق جـ1/ 269-273.

هناك عدة روايات، منها ما هو غير مباشر، ومنها ما هو مباشر. ومجموعها يكوّن القصة. منها القصة الكلية الشاملة المركزة، ومنها التفصيلية بالمراحل، والمكان والزمان، والحوار. هي روايات عدة تختلف في درجة تصويرها للمشاهد، وفي حجمها، طولا أو قصرا، وفي صحتها، مرسلة أو غير ذلك. وتشهد صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه بها في الدارين من كرامته. هو أكرم البشر، وسيد ولد آدم، أفضل الناس منزلة عند الله، وأعلاهم درجة وأقربهم زلفى[1]. له مكانته عند ربه والاصطفاء ورفعة الذكر والتفضيل وسيادة ولد آدم وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب. ومن تفضيله الإسراء والمناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج إلى سدرة المنتهى، وما رأى من آيات ربه الكبرى. وتدخل شخصيات في الحوار، الله، الملائكة، جبريل، الأنبياء، البراق. فكيف تعرض الروايات؟ تجميعها حول وقائع تفصيلية مثل البراق، الصلاة في بيت المقدس مع الأنبياء، حواره مع موسى، مشاهدته الأنبياء ومنهم آدم، مشاهدة من يعذبون... الخ أم تبقى وحدة الرواية لتناسقها في الرؤية حتى ولو تكررت الموضوعات؟ ربما الثانية هي الأفضل. وتتقطع الرواية وتدخل فيها روايات أخرى مما يدل على تركيبها[2]. وبين الروايات خلافات عديدة. لذلك لا تذكر بطولها بل متقطعة من أجل شرحها وتوضيحها. وهي على صلة برواية شق الصدر حتى يصعد النبي إلى السماوات العلا صافيا شفافا. وحملتها ليلا وراكبا وقبل الوحي حتى إذا أعلن عنه صدقه الناس. وهي فرصة للخيال كي ينشط في التصوير من أجل التأثير. وقد عرف القدماء تأويلاتها المختلفة بها في ذلك التأويل الإشاري[3]. وتعتمد على القرآن أكثر من الأحاديث لأن القرآن مصدر أكثر يقينا من الحديث. بها دلالات كالنواة في الرواية قبل أن ينسج حولها الخيال القصص مثل اختيار الفطرة أي اللبن دون الخمر وبعض الروايات ضعيفة. ومن حكمتها فرض الصلاة.

صدقها أبو بكر بمجرد سماعها. لذلك سُمي الصديق وليس لتصديقه لمجموع

---

(١) السابق جـ١/ ٢١٥-٣٤٥.

(٢) عود إلى حديث الخدري عن المعراج، ابن هشام جـ١/ ٣٧٢-٣٧٣، المواهب اللدنية جـ٣/ ١١٥.

(٣) المواهب اللدنية جـ٣/ ٩٥.

رسالته وهو الإسلام. وفي رأي أم هانئ «أن الرسول كان عندها هذه الليلة ولم يغادرها. وأخبرها أنه صلى العشاء معهم ثم ذهب إلى بيت المقدس فصلى فيه وهو الآن يصلي الغداه معهم». وحذرته من إخبار الناس ولكنه أصر على إخبارهم. وحدث الناس بما شاهده وهو في طريقه إلى الشام بعير الأقوام التي مر بهم وهم نيام. فوجد الناس أنه وصفه صادق[1]. وعند الشيعة في ليلة الإسرء والمعراج خلف الرسول وراءه علي[2].

وتركز الرواية على البراق. والبراق هي الدابة التي كانت تحمل الأنبياء من قبل، حافرها في منتهى طرفها. حمل عليها. يرى الآيات بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس فصلى بالأنبياء، إبراهيم وموسى وعيسى. وأعطى ثلاثة آنية بها لبن، وخمر، وماء. وسمع الرسول من يقول إنه إذا أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإذا أخذ اللبن هدى وهديت أمته. فأخذ اللبن وشرب منه وأيده جبريل بقوله «هديت وهديت أمتك يا محمد». وقد كان يمكن للفطرة أن تدفع الرسول إلى شرب اللبن دون مساعدة خارجية، ولماذا اللبن أفضل من الماء، والماء أقرب إلى الفطرة؟ وفي الحياة العربية الماء لا يقل أهمية عن اللبن. إنما اللبن في الثقافة العامة أكثر قيمة وغذاء ونفعا وندرة من الماء[3]. ولا توجد فيها رواية المعراج. إذ عاد الرسول إلى مكة وأخبر قريشا فارتد البعض لعدم التصديق بالذهاب إلى المقدس في ليلة واحدة، والرحلة تستغرق شهرا من مكة إلى الشام ذهابا وشهرا إيابا.

وفي رواية أخرى، جاء جبريل الرسول وهو نائم فهمزه بقدمه فجلس ولم ير شيئا.

---

(١) وفي حديث أم هانئ «ما أسرى برسول الله إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة في بيتي. فصلى العشاء الآخرة. ثم نام ونمنا. فلما كان قبيل الفجر أهبّنا رسول الله. فلما صلى الصبح وصلينا معه قال :يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي. ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه. ثم قد صليت صلاة الغداه معكم الآن كما ترين»، ابن هشام جـ١/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) «قال لي ربي ليلة أسرى بي: من خلّفت على أمتك يا محمد»، النبي الأعظم ص٢٩.

(٣) رواية عبد الله بن مسعود تجمع بين الرواية والقول المباشر، ابن هشام جـ١/ ٣٦٤-٣٦٥. وهي أيضا رواية الحسن جـ١/ ٣٦٥-٣٦٦، سيرة النبي ص٢١٧، مختصر سيرة (٢) ص١٤٥-١٤٨، معجز محمد جـ١/ ١١٤-١١٦، السيرة النبوية ص١٢٦-١٣٧. «فسمعت قائلا يقول حين عُرضت عليّ: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته. وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته. وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته... فأخذت إناء اللبن فشربت منه.. فقال: هُديت وهُديّت أمتك يا محمد»، ابن هشام جـ١/ ٣٦٤-٣٦٥.

فعاد ونام. ثم جاءه للمرة الثانية وحدث نفس الشيء. ثم جاء في المرة الثالثة، وأخذ بيده وخرج إلى باب المسجد فوجد دابة بيضاء، بين البغل والحمار، تنتظره في فخذيه جناحان يدفع بهما رجليه. يضع يده في منتهى طرفه وحمله عليه. والزيادة هنا المرات الثلاث ووصف الدابة[1]. وفي رواية أخرى لم يستطع الرسول ركوبه فساعده جبريل بوضع يده على رقبته وعتابه بأنه لم يركبه أحد أكرم من محمد. فاستحى ونبض عرقا واستقر حتى ركبه. وهو تصوير فني لصعوبة ركوبه وطاعته ومدح الرسول[2]. وفي رواية أخرى أن الرسول بات الليلة بعد أن صلى العشاء ثم قام قبل الفجر. وأخبرها أنه ذهب إلى بيت المقدس فصلى فيه. فخافت عليه أن يحدث الناس بما حدثها. فأصر على الخروج. ووصف الرسول لهم الطريق من مكة إلى بيت المقدس، قوافلا وركبانا، وعيرا وماء فصدقه الناس[3].

وتصف رواية السمات البدنية للأنبياء. فإبراهيم أشبه بمحمد كناية عن أن الإسلام دين إبراهيم. وموسى طويل، خفيف اللحم، متكسر الشعر، مرتفع قصبة الأنف كأنه أحد من قبائل الأزد. وهي أوصاف ما عرفه العرب من سمات القبائل. وعيسى لونه أحمر بين القصر والطول، سبط الشعر، أسمر الوجه كأنه خرج من الحمام. رأسه يقطر ماء، أشبه بعروة بن مسعود الثقفي[4]. فالصفات الجسدية إسقاط على الأنبياء مما تعود عليه العرب وهو على خلاف ما تصوره الفنانون الغربيون لصور الأنبياء[5].

(١) هي رواية الحسن، «بينما أنا نائم في الحِجر إذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت إلى مضجعي. فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست فلم أر شيئا. فعدت إلى مضجعي. فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه. فخرج بي إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه. يضع يده في منتهى طرفه فحملني عليه. ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته»، ابن هشام جـ١/ ٣٦٥.

(٢) هي رواية قتاده، «لما دنوت منه لأركبه شمس. فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: ألا تستحي يا براق مما تصنع؟ فوالله ما ركبك عبد الله قبل محمد أكرم عليه منه. فاستحيا حتى أرفض عرقا. ثم قر حتى ركبه»، السابق جـ١/ ٣٦٥.

(٣) هي رواية أم هانئ، السابق جـ١/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٤) هي رواية الزهري، «أما إبراهيم فلم أر رجلا أشبه قط بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه منه. وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى وكأنه من رجال شنوءة. وأما عيسى ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه، كأنه خرج من ديماس. تخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي»، ابن هشام جـ١/ ٣٦٧.

(٥) مثل موسى لمايكل انجلو، ورافيل للمسيح في العشاء الأخير.

وقصة المعراج منفصلة عن الإسراء[1]. من الأرض إلى الأرض شيء، ومن الأرض إلى السماء شيء آخر. ففي رواية عن الرسول مباشرة أنه لما انتهى من بيت المقدس أتي بالمعراج وهو يعادل البراق في الإسراء ولم يكن هناك أحسن منه رؤية. فصعد فيه الرسول حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء، باب الحفظة. عليه ملاك يسمى إسماعيل. تحت يديه اثنا عشر ألف ملك. وتحت يد كل منهم اثنا عشر ألفا وكأن الرسول قد عد هؤلاء وأولئك حوالي مائة وأربعة وأربعين مليونا. ويغطي العدد آية ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ﴾. وسأل جبريل عمن معه وكأن الملاك لا يعلم. فلما علم أنه محمد لم يكن يعلم أنه بُعث وهو نقص في علم الملاك. ثم دخل الرسول السماء الدنيا وتلقته الملائكة ضاحكة إلا واحدا. وهو مالك خازن النار. وتطعم الرواية بآية ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، فطلب الرسول رؤية النار. فكشف غطاءها ففارت وارتفعت. فطلب محمد من خازنها ردها فعاد الظل[2].

وتستمر الرواية في أن الرسول لما دخل السماء الدنيا وجد آدم فعرض عليه أرواح بني آدم، منها ما يسر، الأرواح الطيبة، ومنها ما يحزن، الأرواح الخبيثة. فكم من الوقت استغرق عرض أرواح بني آدم؟ وهل هي الأرواح الماضية التي فارقت أجسادها

---

(١) «فلما فرغت مما كان في بيت المقدس أتى المعراج. ولم أر شيئا قط أحسن منه. وهو الذي يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر. فأصعدني صاحبه فيه حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة. عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل. تحت يديه اثنا عشر عشر ملك. تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ملك ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾. فلما دخل بي قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا محمد. قال: أو قد بُعث؟ قال: نعم. قال: فدعا لي بخير وقاله»، ابن هشام جـ١ / ٣٦٩-٣٧٣، ألفية السيرة ص٦٥-٦٦.

(٢) هو رواية أبي سعيد الخدري: «تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا. فلم يلقني ملك إلا ضاحكا مستبشرا يقول خيرا ويدعو به. حين لقيني ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا، ودعا بمثل ما دعوا به إلا أنه لم يضحك. ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره. فقلت لجبريل: يا جبريل، من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك إليّ ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيت منهم؟ فقال جبريل: أما أنه لو ضحك إلى أحد كان قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك ولكنه لا يضحك. هذا مالك خازن النار. فقلت لجبريل: وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم ﴿مطاع ثم أمين﴾. ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال: بلى. يا مالك أر محمدا النار. فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى. فقلت لجبريل: يا جبريل مره فليردها إلى مكانها فأمره فقال لها اخبي فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه. فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل حتى إذا فضلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها»، ابن هشام جـ١/ ٣٧٠.

أم هي الأرواح القادمة التي مازالت في أجسادها أو الأرواح التي لم تولد أجسادها بعد؟[1].

وتظهر الأوضاع الاجتماعية في رواية المعراج. أكلة أموال اليتامى لهم شفاه مثل الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأحجار على الكف تقذف في أفواههم فتخرج من أدبارهم[2]. وهي صورة كريهة تنفر الناس من أكل أموال اليتامى بما تعود عليه بدو الصحراء من صور كريهة للإبل والنار والأحجار، والأفواه والأدبار. فالصورة الفنية بنت واقعها الاجتماعي. وأكلة الربا لهم بطون مثل بطون آل فرعون كالإبل العطاش يعرضون على النار، يوطئون ولا يقدرون على التحول من مكانهم لثقل الذنب. وغياب الروح التي تبعث على حركة الأجساد. وهي صورة شعبية مازالت حتى الآن أصحاب الكروش الكبيرة في الآداب وفي الفنون[3]. والزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جوار لحم غث منتن. يأكلون من الثاني ويتركون الأول. وهي صورة تدل على الألفة والغربة. في حين أن ما يأتي أحيانا في تاريخ الأدب هو إغراء الجديد على رتابة القديم. ونساء معلقات بثديهن هم الذين أدخلن على رجال من غير أولادهن. ويساند ذلك حديث[4]. وهو نقيض كل أدب الإغراء والغواية وفن العري وميتافيزيقا الجسد وجماليات المرأة.

---

(١) «لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تُعرض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويُسر به ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أف ويعبس بوجهه ويقول روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا أبوك آدم تُعرض عليه أرواح ذريته. فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب. وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها وكرهها وساءه ذلك وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث»، السابق جـ١ / ٣٧١.

(٢) «ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما»، السابق جـ١ / ٣٧١.

(٣) «ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون، يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار، يطأونهم، لا يقدرون على أن يتحولوا عن مكانهم ذلك، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا»، السابق جـ١ / ٣٧١. «ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن»، مثل رواية «أناكارينينا» لدستيوفسكي.

(٤) «ثم رأيت نساء معلقات بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم»، السابق جـ١ / ٣٧٢. «اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فأكل جرائبهم واطلع على عوراتهم»، السابق جـ١ / ٣٧٢.

ثم صعد إلى السماء الثانية فإذا بها أبناء الخالة عيسى ويحيى. وفي الثالثة أخوه يوسف كالقمر ليلة البدر. وفي الرابعة إدريس، وتطعم الرواية بآية ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. وفي الخامسة كهل أبيض الرأس وطويل اللحية هو هارون. وفي السادسة رجل أسود طويل، أنفه إلى أعلى هو أخوه موسى، وفي السابعة رجل جالس على كرسي إلى جانب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك شبيه بمحمد هو إبراهيم، مما يدل على استئناف الإسلام رسالة إبراهيم الحنيفية. ثم دخل إلى الجنة فوجد فيها جارية حمراء تضرب إلى السواد أعجبت الرسول ولكنها كانت لزيد بن حارثة[1]. فالرسول لم يتخل عن طبعه وهو الإعجاب بالنساء وإيثارهن لنفسه. وهل في السماء جواري أم أن في السماء أحرارا وأن الجواري نظام اجتماعي في الدنيا فقط؟

وفي العودة مر بموسى. فلما عرف أن الصلاة المفروضة على المسلمين خمسون صلاة كل يوم طلب أن يراجع ربه للتخفيف فأصبحت أربعين. فطلب موسى التخفيف ثانية إلى ثلاثين. وظل موسى يطلب التخفيف والرسول يعود إلى الله أربع مرات حتى أصبحت الصلوات خمسا ولم يستطع الرسول العودة للتخفيف من جديد استحياء من الله. وهي رواية تدل على واقعية الإسلام والاستفادة من تجارب الأنبياء السابقة خاصة من شريعة موسى التي غلب عليها التشدد فأزاحها اليهود جانبا أو حولوها إلى شريعة صورية خالصة خالية من أي مضمون روحي يدل على طاعة الله أو أخلاقي يدل على حسن السلوك الفردي والجماعي.

---

(١) «ثم أصعدني إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا. ثم أصعدني إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف ابن يعقوب. ثم أصعدني إلى السماء الرابعة فإذا بها رجل فسألته من هو؟ فقال: هذا إدريس ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. ثم أصعدني إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية عظيم المثنون لم أر كهلا أجمل منه. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا المحبب في قومه هارون بن عمران. ثم أصعدني إلى السماء السادسة. فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى كأن من رجال شنوءة فقلت له: من هذا يا جبريل. قال: هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أصعدني إلى السماء السابعة فإذا فيها كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة. لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه. فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. ثم دخل بي إلى الجنة. فرأيت فيها جارية لعساء فسألتها: لمن أنت؟ وقد أعجبتني حين رأيتها. فقالت: لزيد بن حارثة» فبشره بها الرسول، السابق جـ١/ ٣٧٢-٣٧٣، سيرة النبي ص٢١٩-٢٢٠.

وتختلف روايات الإسراء والمعراج وتتضخم من النواة التي ذكرها القرآن إلى دوائر متداخلة في الحديث طبقا لدرجة الخيال في التصوير والتزويق والإخراج[1]. فتختلف الروايات في وقت حدوثها[2]. وهل تمت في اليقظة أم في المنام. واليقظة أكثر تأثيرا من المنام وأيها أولا؟ والإسراء أولا وفي رحلة واحدة أوقع وأكثر تأثيرا. وكلما كان الوقت مبكرا كان أوقع وأكثر تأثيرا. واختلف في شهر وقوعها ربيع الأول أم الثاني أم رجب؟ وهناك رواية قصيرة تطول تدريجيا وتزداد تفصيلا حتى تبلغ عدة صفحات[3]. وترتبط برواية شق الصدر لأنه لا يصعد إلى السماء إلا نقيا صافيا. وقد انحبست الشمس وكادت تغرب حتى أتى الركب كما احتبست ليوشع بن النون ولداود مما يدل على وجود نمط سابق. وفي رواية أنها ردت له في بيت أو في الخندق حتى شغل عن الصلاة[4].

وتستمر المعجزات في كل السير. وتأخذ قصة «الإسراء والمعراج» مكانا مميزا[5]. ومهما تعددت رواياتها واختلفت بين الإجمال والتفصيل فإنها تظل خارج مجال النقد. وتطول الروايات مما يستحيل على الذاكرة استيعابها ونقلها. هي لحظات إبداعية من خيال بدوي يعشق الأحجار الكريمة وحياة البذخ. وتحضر المسجد الأقصى للرسول وهو في مكة، فيصفها بناء على طلب المنكرين. وهو وصف بالذاكرة وليس بالضرورة بالعين المجردة[6]. وتتوالى المعجزات الأخرى: رد العين، آيات النبوة أثناء حفر الخندق،

---

(١) الإشارة ص١٣٥-١٤١.

(٢) قبل الهجرة بثلاث سنين أو بسنة أو بستة أشهر أو بعد النبوة بخمسة أعوام أو عام ونصف أو بخمسين عشر شهرا أو بستة ونصف بعد رجوعه من الطائف، السابق ص١٣٥-١٣٧.

(٣) هي «بينما أنا نائم في الحطيم، وربما في الحجر، بين النائم واليقظان إذ أتاني آت، فشق ما بين هذه إلى هذه يعني من ثغرة نحره إلى مراقه فاستخرج قلبه ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا فغسل قلبي ثم مشى ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، وهو البراق، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل إلى السماء». وذكر البخاري الأنبياء الذين رآهم في بيت المقدس والسماء وذكر الجنة والنار وسدرة المنتهى والأنهار الأربعة والآنية الثلاث: الماء والخمر واللبن وفرض الصلوات»، السابق ص١٣٧-١٣٨.

(٤) السابق ص١٣٩-١٤١.

(٥) «الإسراء والمعراج»، محمد رسول الله ص٢٠٦-٢٢١، باقي المعجزات جـ١/ ٢٨٢/ ٣٦٠/ ٤١٤-٤٢٣/ ٤٤٦/ ٥٠٤، جـ٢/ ١٣٠-١٤٣.

(٦) السابق جـ٢/ ٥-٢٤٠.

المعجزات أثناء الغزوات. ويخصص باب بأكمله وهو أكبر باب للمعجزات، معجزات عصمته وحمايته الأخبار عن الأمم السابقة، خوارق العادات لتثبت أصحابه، وأخرى أخبر بها أصحابه دون رؤيتها. وآخرها معجزة القرآن. وهي أدخل في الإعجاز البلاغي والتشريعي منها في خوارق العادات. ومعظم المعجزات قصص وروايات، وبعضها طويل يتضح فيها التركيب والتأليف والإخراج أي الصنعة. وتكثر المعجزات بالمئات[1]. كما تحدث الكرامات للصحابة مثل عمل وسعد بن أبي وقاص وغيرهم وكما تقول الصوفية لهم دون تحديد دقيق للفرق بين المعجزة والكرامة والآية وخوارق العادات[2].

ويتحول الإسراء والمعراج إلى خاصية للرسول في عدة روايات. تفيد كلها تفرده. وتخضع لمنطق الإبداع القصصي. والرؤية الروحية تحل كثيرا من مشاكل الرواية التي يتم الجدل فيها لإثبات الانتقال الجسدي.

٧- جدل السلم والحرب

وقد دعا الرسول على المستهزئين به بعمى البصر وثكل الولد[3]. ورد عليهم بالقرآن[4]. وعاقبهم جبريل طبقا للرواية والرسول بجواره وهم يطوفون البيت. ورمى في وجه واحد بورقة خضراء فعمى. ومرة بآخر فانتفخت بطنه ومات. ومر بثالث فتوفى إثر جرح في كعبه. ورابع دخلت في رجله شوكة فمات. وخامس أشار إلى رأسه فامتخض قيحا فمات. ويبدو هنا الصراع القصصي بين العلة الأولى، جبريل والعلة الثانية، انتفاخ البطن، الجرح في الكعب، الشوكة في القدم، القيح في الرأس[5].

---

(١) في الجزء الثاني وحده حوالي ٢٣٠ معجزة.
(٢) محمد رسول الله جـ٢/ ١٢٣-١٢٩.
(٣) «اللهم اعم بصره، وأثكله ولده»، ابن هشام جـ١/ ٣٧٤.
(٤) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. السابق جـ١/ ٣٧٥.
(٥) ابن هشام جـ١/ ٣٧٥، ألفية السيرة ص٥٣-٥٤، مختصر سيرة (٢) ص١١٤-١٤٤، صحيح السيرة ص١١٥-١١٦، رسول الحرية ص١١٨-٢٢٩، عبقرية محمد ص٢٣-٣٦.

فالرسول يقابل الإيذاء بإيذاء مماثل، والعدوان بعدوان شبيه. ويضيف إليه جبريل لمزيد من القوة والثقة بالنفس ودرء العدوان.

وصبر الرسول على إيذاء المشركين. وكانوا يقذفون عليه الأوساخ. وتستر دونهم بالحائط. والرسول في جوار بني عبد مناف. وأثناء ذلك توفى أبو طالب وخديجة في عام واحد. وطمعت قريش في الرسول بعد وفاة الاثنين. وكان يبث همه وحزنه إلى خديجة[1]. وكان أبو طالب حاميا له. وظل كذلك ثلاث سنوات حتى الهجرة. وقد نثر أحد سفهاء قريش التراب على رأسه. ولما ثقل على أبي طالب المرض ذهبت قريش يطلبون عهدا بينهم وبين الرسول. فطلب منهم الرسول كلمة واحدة يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم، لا إله إلا الله، وترك ما يعبدون من دونه[2]. وتعجبوا من محمد يريد أن يجعل الآلهة إلها واحدا[3]. ووافق أبو طالب ابن أخيه على ما طلب من قريش. حينئذ طمع الرسول في إسلام عمه حتى يشفع له بها يوم القيامة ولكنه رفض خشية أن تقول قريش إنه قالها خشية من الموت. وحرك شفتيه ظن العباس أنه قالها ولكن الرسول لم يسمعها[4].

وقد خرج الرسول إلى الطائف سرا. وقابل من اعترف بنبوته عندما أخبره بأمر يونس الرجل الصالح من نينوي[5]. وفي رواية أخرى سعى الرسول إلى ثقيف يطلب

---

(١) «لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك... ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب»، ابن هشام جـ١/ ٣٨١.

(٢) «نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم... تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه»، السابق جـ١/ ٣٨٠-٣٨٢.

(٣) لذلك نزلت آية ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

(٤) «أي عم، فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة»، السابق جـ١/ ٣٨١-٣٨٢، عيون الأثر جـ١/ ١٩٢-١٩٥، السيرة الحلبية جـ١/ ٤٨٨-٥١٢، السيرة النبوية ص١٢٠-١٢٣.

(٥) سيرة الرسول ص٤٢-٤٤.

النصرة، ولكنهم خذلوه بل حرضوا عليه[١]. وتوجه إلى ربه بالشكوى[٢]. وهي حيلة الضعيف مؤقتا إلى أن يستعد للمواجهة مع الخصوم. ووسط هذا العداء يظهر الاحترام والتقدير من نصراني. وأرسل غلام بقطف عنب للرسول بدافع القرابة فأكل باسم الله. وهو كلام الأنبياء. ولما عرف أنه من نينوي وأنه نصراني أبلغة الرسول أنها قرية أخيه الرجل الصالح يونس[٣]. فأقبل الغلام يقبّل يديه وقدميه. فالنصرانية أقرب إلى العقائد إلى الإسلام. ولا صراع على السلطة بين النصارى والمسلمين في اليمن أو في نجران. ولما يئس الرسول منْ الطائف وهو في طريقه إلى مكة حط بواد ليصلي جوف الليل فمر به سبعة نفر من الجن من أهل نصيبين فاستمعوا إليه وذهبوا إلى قومهم منذرين، وأنهم آمنوا بها سمعوا كما روى القرآن[٤]. استمع منه الجن القرآن. وأسلم بعضهم. وإذا كان الجن قد آمن بالرسول فالأولى أن يؤمن الإنس. فالجن هنا صورة من أجل شحذ همة الإنس.

واستمر الرسول في عرض نفسه على القبائل في المواسم ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركن به أحدا. وطلب منه بنو عامر على أن يكون لهم الأمر من بعده وجواب الرسول «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء». وعرض عليه آخران ما معه أيضا في صحيفته مثل الذي مع الرسول. وجاء آخرون فاستمع إليهم الرسول وقبله غلام. وتردد في قبوله

---

(١) ابن هشام جـ١/ ٣٨٢-٣٨٥، البستي جـ٢/ ١١٨-١٤٠.

(٢) وهو قول مشهور لليائسين «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين. وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتهجمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»، ابن هشام جـ١/ ٣٨٤.

(٣) «ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ ... من قرية الرجل الصالح يونس بن متى... ذلك أخي. كان نبيا وأنا نبي ...»، السابق جـ١/ ٣٨٤، المغازي ص١٢٤.

(٤) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾. السابق جـ١/ ٣٨٥، الفصول ص٢٦١-٢٦٤، سيرة النبي جـ٣/ ٣٣٧-٣٤٣.

الآخرون[1]. الكل يبغي الشراكة والمناصفة وكأن الأمر تجارة، تتساوى فيها البضائع. وكان الرسول يتلطف مع من يدعوهم مثل بني كلب بأن الله أحسن اسم أبيهم[2]. وقرأ الرسول صحيفة لقمان التي كانت مع يهودي ولكن القرآن أفضل منه. فخرج اليهودي إلى الخزرج فقتلوه. وقد مات مسلما[3].

وبدأ الأنصار يدخلون في الإسلام[4]. فقد خرج الرسول للقاء نفر منهم في المواسم. لقي رهطا من الخزرج عند العقبة من موالي اليهود. فقبلوا دعوته لأنهم وجدوه كما يوصف في كتبهم. وفي العقبة الأولى خرج نفر من الأنصار للقاء الرسول فبايعوه على بيعة النساء سلما قبل فرض الحرب. وكانت البيعة على عدم الإشراك بالله، وعدم السرقة والزنا وقتل الأولاد، ولا الإتيان ببهتان يُفترى، وعدم عصيانه في معروف. فإن فعلوا فلهم الجنة. وإن عصوا إن شاء الله عذب، وإن شاء غفر. وصلى بهم أحد الصحابة لأن الأوس والخزرج كانوا يكرهون بعضهم البعض. ولم يستطع الدين الجديد تحقيق المؤاخاة المطلقة بينهما في الإمارة والإمامة.

ثم أقيمت أول جمعة بالمدينة. وكان المصلون أربعين رجلا. وكان المسلمون يحسنون الدعوة بوجوههم السمحة وإشراقهم وكلامهم السهل. فلم يعد في بيت من بيوت الأنصار إلا مسلما أو مسلمة مما شجع الرسول على الهجرة إليها، ويشجعه إلى الانتقال إلى مرحلة المواجهة بعد أن أذن الله له بها في بدر وأحد والخندق[5].

---

(١) «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به»، ابن هشام جـ١/ ٣٨٥-٣٩٠، السيرة النبوية جـ١/ ٩٣-١٠٥، الإشارة ص١٤٢-١٥٠، الفصول ص٧٠-٧٤، السيرة الحلبية جـ٢/ ٣-٥٦، نور اليقين ص٥٨-٦٠، مختصر سيرة (٢) ص١٥٢-١٥٧، معجز محمد جـ١/ ١١٧-١٢٢، السيرة النبوية ص١٣٨-١٤١، سيرة الرسول ص٤٧، الرحيق المختوم ص١٣٠-١٤٢.

(٢) «يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم»، ابن هشام جـ١/ ٣٨٧.

(٣) السابق جـ١/ ٣٨٩، ألفية السيرة ص٥٥-٥٦.

(٤) «هل لكم في خير مما جئتم له؟ ... أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل علي الكتاب»، ابن هشام جـ١/ ٣٩٠-٣٩٦، السيرة النبوية جـ١/ ١٠٥-١١١، ابن خلدون ص١٠١-١٠٤، ألفية السيرة ص٦٦-٦٧، حياة محمد ص١٦٩-١٧٩، نور اليقين ص٦٠-٦١، سيد الأنام ص١٥٥-١٥٨، مختصر سيرة (٢) ص١٥٧، السيرة النبوية ص١٤١-١٤٩، خاتم الأنبياء ص٧٥-٨٢، صحيح السيرة ص١٤٥-١٤٧.

(٥) ابن هشام جـ١/ ٣٩٦-٣٩٩، السيرة النبوية جـ١/ ١١١-١١٢.

ثم تواعدت قريش في العقبة الثانية بعد أن خرج الأنصار إلى الحج. وقد اقترح أحدهم الصلاة إلى الكعبة قبل أن تتحول فيما بعد القبلة من القدس. وكان الرسول قبل خروجه من مكة يصلي، والكعبة وبيت المقدس في نفس الاتجاه. وكان الحاضرون في العقبة الثانية ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين. وعاهدوا الرسول[1]. واختاروا اثنى عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس كفلاء على قومهم مثل كفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وكفالة الرسول لصحبه[2]. وكانت المبايعة على الحرب والسلم، والبيعة على نقص الأموال وهلاك الأشراف. والوفاء بالعهد جزاؤه الجنة، وعدم الوفاء به جزاؤه الخزي والعار. وخرج الشيطان بأعلى صوت يحذر قريش من هذا الصابي الذي اجتمع على حربهم. فتوعده الرسول بالانتقام منه[3]. فالشر لا يستسلم للخير. يقاوم الغدر والخديعة والإثارة. وقد استعجل المبايعون الإذن بالحرب ولكن الرسول طلب الانتظار حتى يأتيه الأمر. وبعد عودة المبايعين من قريش غضبت عليهم لزرع فتيل الحرب بينهم. وأوثقوا واحدا منهم. وأدخلوه مكة. وأوسعوه ضربا. فخلصه مجاوره[4].

وكانت شروط البيعة في العقبة الأخيرة غير شروط النساء في العقبة الأولى على السلم لأن الله لم يكن قد أذن بالحرب بعد. فلما أذن الله بها كانت الشروط الجديدة على حرب الأحمر والأسود في مقابل الجنة. كانت البيعة الأولى على السلم، السمع والطاعة في العسر واليسر والكره والأثرة، وعدم منازعة الأمر أهله، وقول الحق أينما كان، وعدم الخوف في الله لومة لائم[5].

---

(١) قال لهم الرسول «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، ابن هشام جـ١/ ٤٠٢، «بل الدم الدم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني. أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»، «اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم»، ابن هشام جـ١/ ٤٠٢-٤٠٣.

(٢) «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم. وأنا كفيل على قومي». السابق جـ١/ ٤٠٥.

(٣) وقال له «أستمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك»، السابق جـ١/ ٤٠٦، البستي جـ١/ ١١٨-١٣٧.

(٤) «ارفضوا إلى رحالكم. لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، ابن هشام جـ١/ ٤٠٧-٤١٠، السيرة النبوية ص١٥٠-١٥٦، صحيح السيرة ص١٤٧-١٥٧، الرحيق المختوم ص١٤٣-١٥٧.

(٥) ابن هشام جـ١/ ٤١٠-٤١٢.

وكان أحد مشركي قريش يعبد صنما من خشب. ويأتي المسلمون ليلا ويضعونه في إحدى مقالب القاذورات مقلوبا رأسا على عقب ثلاث مرات. والمشرك يغسله ويطهره. وفي المرة الرابعة علق على رأسه سيفا للدفاع عن نفسه. فأخذه المسلمون ووضعوه في مقلب القاذورات وعلقوا عليه بدل السيف كلبا ميتا. فأسلم بعد ذلك بعدما شاهد بالتجربة أنه صنم لا ينفع ولا يضر كما فعل إبراهيم مع أصنام قومه وعلق الفأس على رقبة كبيرها. وكان الرسول يبايع النساء دون مصافحتهن[١]. وحذر الرسول من داء البخل أحد المتحولين إلى الإسلام[٢].

وفي هذا الوقت المبكر تنبأ الرسول بحرب الفرس والروم. فالبداية التاريخية تنتهي بنهاية تاريخية. كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم نصارى على فارس لأنهم مشركون. وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس لأنهم مشركون على الروم[٣].

وقد دخل القرآن في حوار عقائدي مع المشركين. فقد حاججهم حول الأسباب الموجبة إلى إرسال الرسل: تسلط إبليس على بني آدم، إقامة دين الله في الأرض، إقامة الحجة على الناس. وكانت عبادات العرب تقوم على الشرك. ووصفت قريش الرسول بالساحر. وصدقت الجن بالرسالة. ويعطي القرآن أدلة إثبات البعث. فإنكار البعث يتطلب إنكار النشأة الأولى، والله خير من الشرك. وهناك براهين على قدرة الله. ويناقش القرآن الموانع والأعذار التي يحجب بها الملأ من قريش عن قبول الدعوة منها تعطيلهم وسائل الإدراك عن قبول الحق، وتدارس الدين[٤].

---

(١) قال الرسول لهن «اذهبن فقد بايعتكن»، السابق جـ١/ ٤٢٢.
(٢) السابق جـ١/ ٤١٨، مختصر سيرة (١) ص٨٢، سيرة الرسول ص٤٧-٥٧.
(٣) ﴿الـم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾. صحيح الرسالة ص٢٣٢.
(٤) «محور الدعوة الإسلامية، مبحث لما دار بين قريش ودعوة الإسلام»، سيد الأنام ص١١١-١٥٣.

الفصل الثانـــي

انتشار الرسالة

١ - الهجرة

يعني «انتشار الرسالة» خروجها من السر إلى العلن، من تحت الأرض إلى فوق الأرض، من المرحلة المكية إلى المرحلة المدنية، من العقيدة إلى الدولة، مرحلة الغزوات والمواجهة وانتشار الإسلام في كل أرجاء الجزيرة العربية، وانتقاله إلى الشام شمالا واليمن جنوبا. وقد تكون هذه هي كل المراحل، من الهجرة حتى الوفاة، وهو تاريخ المجاهدين في سبيل الله[1]. انتظر الرسول بمكة حتى يُؤذن له بالخروج[2]. وكان قوم قد ارتدوا عن الدين الجديد لما أصابهم من عذاب فنزل القرآن عاذرا إياهم[3]. فالإيمان لا يكون إلا عن اقتناع واختيار. وقد يكون الإذن من الله في المنام[4]. وكانت الهجرة قرابة

---

(١) ما اشتهر من سيرته إلى وفاته، سيرة النبي ص٢٥٣-٣٩٤، السيرة الحلبية حـ٢/ ٥٧-١٢٨، نور الأبصار ص٢٢، إسعاف الراغبين ص٣٠-٣٧، حياة محمد ص ١٨٠-١٨٦، نور اليقين ص٦٢-٧٢، الأسوة الحسنة حـ١/ ٢٢٢-٢٤٨، سيد الأنام ص١٥٤-١٧٩، المغازي ص١١٤، مختصر سيرة (١) ص٧٩-٨٠، مختصر سيرة (٢) ص١٦٠-١٧٦، معجز محمد حـ١/ ٧٣-٩٥، السيرة النبوية ص١٥٩-١٦٥، سيرة الرسول ص٢٥-٢٩/ ٥٨-٦٣، السيرة النبوية ص١٥٣-١٧٠، خاتم الأنبياء ص٨٣-٩٦، صحيح السيرة ص١٥٩-١٨٢، خير الورى ص٧٦٠، رسول الحرية ص١٣٠-١٤٢، الرحيق المختوم ص١٥٥-١٧٤، محمد ص٢٦٢-٢٧٦.

(٢) قال الرسول «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها». ابن هشام حـ١٤٢٤، البستي حـ١/ ١٢٧-١٣٩، حـ٢/ ١٤٧-١٥٠.

(٣) ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، حـ١ ٤٣٠، ابن خلدون ص٣٠-٣٨، ١٠٧-١١٠، عيون الأثر ص٢٨٦-٣٧٧، خير العباد ص٥٢-٦٤، الإشارة ص١٥١-١٧٥، الفصول ص٧٥-٧٨، ألفية السيرة ص٦٧-٦٨، السيرة النبوية ص١٦٨-١٧٨، عبقرية محمد الإدارية، عبقرية محمد ص٩٥-١٠٣.

(٤) «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وحلي إلى أنها اليمامة فإذا هي المدينة يثرب»، سيرة النبي ص ٢٠٦-٢٠٧.

ودعوة. فبنو النجار أخوال عبد المطلب[1]. والهجرة مؤقتة. خطوة إلى الوراء من أجل خطوة إلى الأمام. فلا هجرة بعد الفتح[2]. ليست دائمة كما هو الحال في هجرات اليوم الشرعية وغير الشرعية، هجرة الأوطان. ولا يهم المهاجرون بل الهجرة، لا يهم الأفراد بل القضية[3]. لا يهم أول من مات في المدينة ولا أول من ولد[4].

وقد تأخر علي وأبو بكر في الهجرة حتى يؤذن لهما مع الرسول بالهجرة. وكان الرسول يرجو أبا بكر بعدم العجلة. ربما يجعل الله له صاحبا[5]. واجتمع الملأ من قريش وتشاوروا في أمر الرسول. وطبقا للرواية اعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ودعوه للتشاور معهم. فرفض اقتراح حبسه في الحديد لأن قومه سيخرجونه. ورفض النفي من البلاد فلعله يعود بمنطقه وحلاوة حديثة مع بعض أحياء العرب. وقبل ما اقترحه أبو جهل بأن تجيء العرب من كل قبيلة بفتى بيده سيف ونزلوا نزلة رجل واحد عليه وهو نائم. وطبقا للرواية أخبر جبريل الرسول بما عقد العزم عليه وطلب منه عدم البيات الليلة في منزله. فطلب من على أن ينام في فراشه بدلا منه. ولما خرج الرسول عليهم قذفهم بحفنه من تراب. وفي ذلك نزل القرآن[6]. فلما أدركوا ذهبوا إلى الفراش فوجدوا عليا. وفي تربص المشركين بالرسول نزل القرآن[7]. إبليس يساعد قريش، وجبريل يساعد الرسول، واحدة بواحدة. الشر يساعد الشر، والخير يساعد الخير.

وأتى الإذن للرسول بالهجرة مع صاحبه ووصلا إلى غار ثور. وكانت ابنة أبي بكر أسماء تأتيهما بالطعام في نطاقها فسميت ذات النطاقين. ومكثا ثلاث ليال. وكان ابنا أبي بكر يرعيان الغنم بالنهار ويأتيان بأخبار قريش للرسول وصاحبه بالليل. وركبا بعيرين. وضرب أبو جهل أسماء ضربتين أوقعت قرطيها عندما أنكرت أنها تعرف أين

---

(١) «أنزل على بني النجار أخوال عبد المطلب. أكرمهم بذلك»، سيرة النبي ص٢١٣-٢١٤.
(٢) بهجة المحافل ص١٣٩-١٤١.
(٣) في ذكر أول من هاجر وبعض مشاهير المهاجرين، السابق ص١٣٦-١٣٩.
(٤) السيرة النبوية ص٢١٣-٢١٤.
(٥) ابن هشام جـ١/ ٤٣٤-٤٣٨.
(٦) ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، السابق جـ١/ ٤٣٧.
(٧) ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، السابق جـ١/ ٤٣٧.

أبوها. وسأل جدها إذا كان أبو بكر قد ترك شيئا من ماله بعد أن أدرك أنه أخذه كله معه فوضعت له أسماء حجارة في كيس وأوهمته. فضحكت الصغيرة على الكبير، ونادى هاتف من الجن فيها تقول الرواية ينشد أصدقاء الرسول وصاحبه أين هما. ويدل على مكانهما شعرا. فالجن شعراء. تعرف الرمز والإشارة[1]. والجن وسيط بين الخير والشر، بين إبليس وجبريل. لم يدل على مكان الرسول وصاحبه ولم يخفه بل رمز إليهما[2].

وركب سراقة إثر الرسول ليحصل على الجائزة، مائة ناقة. وعثر فرسه مرة فضرب القداح، ومرة ثانية. وفي المرة الثالثة سقط وغرزت يداه في الأرض فعرف أنه لن يصل إليهما[3]. فأسلم سراقة وكتب له أبو بكر كتابا ظل معه حتى يوم دخول مكة. فأوفى الرسول بوعده. وانتظره أهل المدينة كل يوم من الصباح إلى المساء في القيظ حتى ظهر. وحط في قباء مع صحبه. وبنى أول مسجد في قباء حيث ناخت الناقة حيث اختارت لأنها مأمورة[4]. وبنى مسجد المدينة بتعاون الرسول والمسلمين. وتنبأ بقتل عمار من الفئة الباغية. وهو أول من بنى في الإسلام، وارتجز عليّ وهو يبني. وتلاحق المهاجرون إلى الرسول بالمدينة. وانتشر الإسلام فيها. وألقى الرسول عدة خطب له. الأولى حث فيها المسلمين على الحرص على الجماعة كالراعي على غنمه، والعمل الصالح. وقد أتاه الرسول وحذره. فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمره فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فالحسنة بعشر أمثالها حتى سبعمائة ضعف. والثانية حث فيها على خير الأعمال كتعبير عن عبادة الله وتقواه وعدم الشرك به، وتصديق القول باللسان في العمل بالجوارح، والحرص على عهد الله وميثاقه. فالله لا ينقض عهده. فالإيمان هو العمل الصالح. والثالثة كتابه لتوحيد المهاجرين والأنصار، وموادعة اليهود ومعاهدتهم بإقرارهم على دينهم وأموالهم. فهم أمة واحدة. يتعاملون بالقسط فيما بينهم، طائفة

---

(١) السابق حـ١/ ٤٤٠-٤٤١.

(٢) بهجة المحافل ص١٢٨-١٣١، سيرة النبي ص٢١٠-٢١١، حياة محمد ص١٨٠، سيد الأنام ص١٥٨-١٦٢، مختصر سيرة (١) ص٨٦-٨٧، سيرة الرسول ص٦٤-٧٥، الرحيق المختوم ص١٦٤-١٦٦.

(٣) ابن هشام حـ١/ ٤٤١-٤٥٢.

(٤) «اتركوها فإنها مأمورة» عدة مرات، السابق حـ١/ ٤٤٦-٤٤٧، سيرة النبي ص٢٥٤-٢٥٥، حياة محمد ص١٨٣، سيد الأنام ص١٦٢-١٦٨، مختصر سيرة (١) ص٨٨، السيرة النبوية ص١٦٨-١٦٩، صحيح السيرة ص١٧٦.

طائفة. ويتكرر النداء عدة مرات بنفس الألفاظ والعبارات، «وكل طائفة تفدي عانيها (أسيرها) بالمعروف والقسط بين المؤمنين». وأهم شيء هو أداء الأمانات إلى أهلها، دية أو فداء والتخفيف عن المثقل بالدين الكثير العيال. فالإسلام أتى لإقامة العلاقات بين الناس على أساس من العدل، وتعود روح حلف الفضول. فالمؤمنون جماعة لحماية العدل ضد الظلم. بعضهم مولى بعض. بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. والجار كالنفس غير مضار ولا آثم[1]. وتحققت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار «تآخوا في الله أخوين أخوين» . وآخى الرسول عليا. والغائب أوصى بديونه للحاضر.

وفي المدينة تأسس الإسلام، وبُني أول مسجد. وأقيمت الصلاة. وفرضت الزكاة والصيام. وطبقت الحدود. ونفذ الحلال والحرام . وقد اقترح أن يقام للصلاة ببوق كاليهود أو بناقوس كالنصارى. ورأى أحد المسلمين رؤية الأذان، وقبلها الرسول. وعلمها بلال. وفي رواية أخرى عمر هو الذي اقترح الأذان بعد أن سبقه الوحي إليه. وكان بلال يزيد من عنده «اللهم إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك» إحساسا بأن الصراع بين الإسلام وقريش لم ينته بعد، بعد الهجرة، بل هو دائم ومستمر.

ودخل الإسلام من كان ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وهم بالنصرانية، واتخذ لنفسه في بيته مسجدًا لعبادة رب إبراهيم بعد أن كره الأوثان وفارقها حتى أتى الإسلام فاعتنقه. فقد كان هناك استعداد طبيعي لقبوله حين ظهوره. النصرانية أفضل من اليهودية لطائفيتها، والإسلام لعدالته الاجتماعية أفضل من النصرانية لترهبها[2].

---

(١) ابن هشام حـ١/ ٤٥٢-٤٥٤، ابن خلدون ص١١٠-١١١.

(٢) السابق حـ١/ ٤٥٥-٤٦٢، البستي حـ١/ ١٤٠-١٥١، خير العباد ص٦٧-٧٣، الإشارة ص١٧٧-١٧٨، الفصول ص٨١، بهجة المحافل ص١٣٥-١٣٦ «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو يسلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم»، «أوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم كرشي وعيبتي. قد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم. فاقبلوا محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»، سيرة النبي ص٢٠٦، السيرة الحلبية حـ٢/ ١٢٩-١٦٨، حياة محمد ص١٨٤-١٨٧/ ١٩٥-١٩٦، نور اليقين ص٧٠، سيد الأنام ص١٦٧-١٧١، مختصر سيرة (١) ص٩١-٩٤، مختصر سيرة (٢) ص١٧٦-١٧٨، السيرة النبوية ص١٧٨-١٩٢. فضل المسجد النبوي ومسجد قباء، السيرة النبوية ص١٩٣-١٩٥/ ٢٠٠-٢٠٢، خاتم الأنبياء ص٩٧-١٠٢، صحيح السيرة ص١٩٠-١٩١/ ١٩٤، الرحيق المختوم ١٨٤.

وقد اعتل أصحاب الرسول بعد الهجرة إلى المدينة. أصابتهم الحمى. فدعا الرسول إلى إخراجها من المدينة ونقلها بعيدا عنها إلى أقاصي الشام وليس إلى القضاء عليها كلية. وبسببها جاءت صلاة القاعد تخفيفا على صلاة القائم[1]. وهو ما يسمى هذه الأيام الحجر الصحي «الكارنتينة»، وإبعاد المرضى في مناطق العزل. كان ذلك يسمى عند القدماء الدعاء، وعند المحدثين قرار وزارة الصحة.

٢- عداء اليهود ونفاقهم

وبالرغم من ذلك، بدأت معادة اليهود إما نفاقا أو جهرا. فلما مات أحد المسلمين وهو يبني المسجد بالذبحة أو الشهقة قالت اليهود لو كان الرسول نبيا لما مات صاحبه، وكلاهما لا يملكان من الله شيئا[2]. ونصب أحبار اليهود الرسول العداوة بغيا وحسدا وضغنا لما خص الله العرب ما أخذ منهم بسهولة. وكانوا يسألون الرسول ليتعنتونه، ويلبسون الحق بالباطل[3].وكان القرآن يرد عليهم فيما يسألون فيه إلا مسائل قليلة كان المسلمون يسألون عنها. ومع ذلك أسلم منهم الأتقياء[4]. حبر عالم سمع عن الرسول وعرف صنعته واسمه وزمانه. كبر هو وأسرته لأخذ موسى ودينه، ولإثبات أن اليهود قوم بهت طلب من الرسول إخفاءه وسؤالهم عنه. فلما فعل مدحوه. ولما ظهر عابوه[5]. وشهدت أخرى على أنه الرسول بعد أن شهد أبوها وعمها بين أنفسيهما أنه الرسول ولكنهما يعادانه طيلة حياتهما[6].

---

(١) السابق حـ١/ ٥٢١-٥٢٣، البستي حـ١/ ١٥١-١٥٧، بهجة المحافل ص١٤٢-١٤٣، نور اليقين ص٧١، مختصر سيرة (٢) ص١٩٤، السيرة النبوية ص١٩٥-١٩٧، صحيح السيرة ص١٩٣.

(٢) ابن هشام حـ١/ ٤٥٧.

(٣) السابق حـ١/ ٤٦٢-٤٦٤.

(٤) مثل عبد الله بن سلام، السابق حـ١/ ٤٦٤-٤٦٧.

(٥) هو مخيرق الذي قال عنه الرسول «مخيروق خير يهود»، السابق حـ١/ ٤٦٦.

(٦) هي صفية بنت حيي بن أحطب، السابق حـ١/ ٤٦٦-٤٦٧، عيون الأثر ص٣٣٥-٣٥١، الإشارة ص١٨٣-١٨٤، فيما لقي النبي وأصحابه من أذى اليهود والمنافقين، بهجة المحافل ص١٤١-١٤٢/ ١٥٨-١٦٢، حياة محمد ص١٩١/ ١٩٨-٢٠٠، نور اليقين ص٧٥-٧٩، الأسوة الحسنة حـ٢/ ٢٥١-٢٧٨، مختصر سيرة (٢) ص١٨٧-١٩٤، السيرة النبوية ص١٩٧-١٩٩/ ١٧٣-١٩٢/ ٢٠١-٢٠٥، خاتم الأنبياء ص١٠٢-١٠٩، الرحيق المختوم ص١٩٢-١٩٥، محمد والقوى المضادة ص١١٩-١٣٠/ ٢٤٦ - ٢٧٧.

ومن الأحبار من أسلم نفاقا[1]. وعاب على الرسول كيف لا يستطيع إرجاع ناقته وهو يدعي أنه يأتيه خبر من السماء. ورد عليه الرسول أنه لا يعلم إلا ما علمه الله. وقد دله الله عليها، حبستها شجرة بين الشعب[2]. مع أنها واقعة محددة يستطيع الرسول البحث عنها دون تدخل العلم الإلهي. ويستطيع اليهودي الاعتماد على نفسه في البحث عنها دون سؤال الرسول. وقد نزلت سورة بأكملها في المنافقين اليهود مثل أول سورة البقرة. كما نزل الوحي في منافقي الأوس والخزرج[3].

وقد اجتمع نفر من اليهود للإيمان بالرسول صباحا والكفر به مساء حتى يلبسوا عليه الدين، ويرتد المسلمون مثلهم. فرد عليهم القرآن بأنه لا داعي للبس الحق بالباطل بالحق وهم يعلمون[4]. وطلبوا ألا يؤمنوا إلا لمن اتبع دينهم. فاليهودية لليهود، والنصرانية للنصارى، ولا تحول من دين لآخر، والدين كله لله. يحاسب كل أهل دين بدينهم.

وعرض أهل الكتاب، يهودا ونصارى، على الرسول عبادته. كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم. فرفض الرسول لأنه لا يعبد إلا الله. ونزل القرآن داحضا العرض[5]. فلا يوجد دين من عند الله يأمر الناس بعبادة غير الله بل بعبادة الله وحده. ولا يوجد ذلك في

---

(١) ابن هشام حـ١/ ٤٧٣-٤٧٤ .

(٢) وعندما مات قال الرسول «لقد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين»، السابق حـ١/ ٤٧٤.

(٣)﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، السابق حـ١/ ٤٧٥-٤٧٨.

(٤)﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٤.

(٥)﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، ابن هشام حـ١/ ٤٩٥.

كتاب أو في نبوة أو حتى في الحكمة الإنسانية. ثم عرضوا عبادة الملائكة. ورفض القرآن أيضا، لا الملائكة ولا الأنبياء، لأن الدين يأمر بالإيمان بالله الواحد وليس بالشرك وتأليه الملائكة والأنبياء[1]. وقد ذكّرهم الرسول بالميثاق الذي أخذ مع أنبيائهم لتصديقه[2]. فالوحي وحدة واحدة، سلسلة متصلة. السابق منها يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، وقد أخذ الله ميثاقا من أهل الكتاب لبيانه للناس وعدم كتمانه فتركوه لأنهم يحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا[3]. والإيمان بحلقة توجب الإيمان بكل الحلقات، ومع ذلك جحد اليهود ما عرفوا. وأنكروا ما لديهم. وأصروا على الكفر[4]. وحصروا اليهودية في اليهود. وجعلوها دينا قوميا لهم مع أنها حلقة من حلقات وحي واحد متصل.

واجتمع منافقو الأنصار مع اليهود. لذلك هاجم القرآن المنافقين قدر هجومه على اليهود، وانتهى معظمهم إما بالتوبة أو بالقتل. وكان جبريل حسب الرواية أحيانا هو الذي يبلغ الرسول بما يقوله المنافقون أو اليهود. وهم الذين ساهموا في بناء مسجد الضرار الذي قام على النفاق وليس على التقوى[5]. فالنفاق هو السلوك الجامع بين بعض الأنصار واليهود بصرف النظر عن دين كل فريق. وقام الرسول بطرد المنافقين من المسجد الذي كانوا يتآمرون فيه بصوت منخفض[6]. وحدث ذلك عنوة. واحدا

(١) ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٥.

(٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٦.

(٣) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ، لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٩.

(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾، السابق حـ١/ ٥٠٠.

(٥) السابق حـ١/ ٤٦٧-٤٧٣.

(٦) نزل في جلاس ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. وفي الحارث بن سويد) كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وفي بنتل بن الحارث

تلو الآخر[١].

ويأتي نقد المنافقين بنفس قوة فضح اليهود. وكان السبب في النفاق دخول الإسلام اضطرارا من علية القوم بعد أن دخل عامة الناس، وسلب سيادتهم وسلطانهم. والبعض آثر البقاء على كفره. وكان يلقب بالراهب. والأولى أن يلقب بالفاسق. وأختلف مع الرسول على الحنيفية التي اعتنقها الراهب والحنيفية التي جاء بها الرسول. واختصم هو وبعض من قومه في الميراث. واحتكم إلى قيصر الروم الذي حكم بأن يرث أهل المدر أهل المدر، وأهل الوبر أهل الوبر. أما المنافق فقد طلب من الرسول أن يدعو بحديثه الحلو في بيته وليس على الملأ. وعذره المسلمون لأنه كان على وشك أن يكون سيد قومه[٢].

وحذر القرآن اليهود من إنكار ما يجدونه عندهم في التوراة مصدقا لما معهم[٣].

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال فيه الرسول «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى بتل بن الحارث». وفي أبي حبيبة بن الأزعر ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وفي وديعة بنت ثابت ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، وفي عمرو بن مالك بن الأوس ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، وقال فيه الرسول «دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصيرة». وفي أبي طعمه سارق الدرعين ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، وفيمن أراد الاحتكام إلى الكهان ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، وفي الجد بن قيس ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، وفي عبد الله ابن أبي رأس المنافقين ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(١) ابن هشام حـ١/ ٤٧٤-٤٧٥.

(٢) مثل: ابن أبي، السابق حـ١/ ٥٢٨-٥٢١.

(٣) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ، وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ، أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، السابق حـ١/ ٤٧٩-٤٨٠.

وكانوا ماديين مع إبراهيم، طلبوا منه أكثر من طعام[1]. تركوا الأعلى وطلبوا الأدنى. لا يمكن أن يؤمنوا للمسلمين لأنهم كانوا يؤمنون بما أوتوا أول النهار ثم يكفرون به آخره. ويحرفون الكلم عن مواضعه. يتعاملون مع المسلمين كمسلمين فإذا خلوا إلى أنفسهم تعاملوا كيهود. ينكرون ما أرسل الله إليهم. وتمنوا أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة. ولم يتخذوا عند الله عهدا بذلك. والله لا يخلف وعده. لقد أخذ الله معهم عهدا بعدم عبادة أحد إلا إياه وبالوالدين إحسانا. فعبادة الله تظهر في احترام الأقرباء مثل الوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين، ومعاملة الجميع معاملة طيبة. وعقد الله معهم ميثاقا ألا يسفكوا دماء أحد أو إخراج أحد من دياره أو العدوان على أحد، ولكنهم يؤمنون ببعض الكتاب الذي يعطيهم الحقوق، ويكفرون بالبعض الآخر الذي يضع عليهم الواجبات.

وقد كتم اليهود ما هو مكتوب عندهم في التوراة بالرغم مما فيها من تحريف[2]. فالحقيقة ناصعة البياض يصعب تحريفها أو طمسها في دين يعتمد على الخلاص في

---

(١) ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، السابق حـ١/ ٤٨١-٤٨٤.

(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٣.

المستقبل. وإذا دعاهم النبي يقولون إنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم حتى ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. فالتقليد ليس طريقا للإيمان[1]. يلجأون إلى الماضي هربا من المستقبل، وذريعة لعدم الإيمان بالحاضر. ولما سأل اليهود الرسول على أي ملة هو وأجابهم ملة إبراهيم وقالوا إن إبراهيم كان يهوديا طلب الرسول الاحتكام إلى التوراة فرفضوا. ونزل القرآن فاضحا لهم، إن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا بل حنيفا مسلما. فالدين الطبيعي أساس ديانات الوحي، اليهودية والمسيحية والإسلام[2]. واختلف اليهود والنصارى على ملة إبراهيم. تدعي كل فرقة أن إبراهيم كان من ملتها يهوديا أو نصرانيا. فرد عليهم القرآن بأنه كان حنيفا مسلما. وإن أولى الناس به من يتبعه مثل الرسول والمسلمين[3]. فالاتباع بالفعل وليس بالقول.

ولقد أتى موسى بالبينات، وتوالت من بعده الرسل حتى عيسى ابن مريم. فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه أو قتلوه. وقالوا إن قلوبهم غلف موصودة. وقد لعنهم الله بكفرهم وقلة إيمانهم. وقد جاءهم الآن كتاب مصدقا لما معهم. وكانوا من قبل يطالبون به. وهم الآن يكفرون به. والله ينزل على من يشاء من عباده ولكن حقدوا وحسدوا أن ينزل الوحي على غيرهم. ويدعون أن الآخرة لهم. ولا يتمنون الموت للحصول عليها خوفا مما قدمت أيديهم. والواقع أنهم أحرص الناس على هذه الحياة الدنيا. ويرد كل منهم أن يُعمر ألف سنة. ولن يزحزحه ذلك من العذاب. وهم أعداء جبريل. وسيظل جبريل ينزل على الرسول[4].

---

(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٣.

(٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٤.

(٣) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٤.

(٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ، وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

وادعى اليهود أن الله ما أنزل شيئا على بشر بعد موسى. فرد عليهم القرآن. وأخبر جماعة أخرى أنهم يشهدون على أنه رسول الله[1]. فاليهود قسمان: قومي يجعل النبوة قاصرة عليهم، وإنساني يجعل النبوة فيهم وفي غيرهم، خاصة وعامة. وكان اليهود يذكرون الرسول لقريش قبل بعثه ثم أنكروه بعدها لأن الله لم يرسل نبيا بعد موسى[2]. في حين أن الله أرسل عيسى بعد موسى ومحمدا بعد عيسى. فموسى ليس خاتم الأنبياء. النبوة مستمرة بعده، ولما زنى أحد اليهود أرادوا أن يختبروا الرسول بتطبيق حد الرجم عليه. فإن طلب الجلد بحبل من ليف مطلي بقار ثم تسود الوجوه ثم الحمل على حمارين بالخلف فهو ملك، وإن حكم بالرجم فهو نبي. فطلب الرسول إحضار علمائهم وسأل أحدهم فقال بالرجم فآمن بمحمد ثم كفر به فنزل القرآن يروي الحادثة[3]. ثم اعترف اليهود بأن رجلا منهم زنى فأخفوا آية الرجم. ثم زنى آخر فحرفوها. فكان الرسول أول من أحيا آية الرجم وعمل بها بعد أن أوقفها اليهود.

وجحدوا نبوة عيسى في حين أن الرسول يؤمن بما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون بهم دون تفريق بين أحد منهم[4]. فالإسلام يصدق بجميع الرسل السابقين بالرغم من أنهم

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، السابق حـ١/ ٤٨٥-٤٨٦.

(١) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، لَّكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾، السابق حـ١/ ٥٠٢.

(٢) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٣.

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٤.

(٤) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٥-٥٠٦.

أرسلوا إلى بني إسرائيل. فكلهم من عند الله. وادعى اليهود أنهم وحدهم على حق مع أن الرسول على ملة إبراهيم. ويؤمن بأنبياء بني إسرائيل السابقين وبها في التوراة ولكن اليهود جحدوا ما بها من ميثاق، وكتموا ما أمروا ببيانه للناس[١]. فالميثاق خاص بهم. ومازال صالحا في حين أن اليهود نقضوه من طرفهم، بقتل الأنبياء، وتكذيبهم، وعصيان التوراة. وسأل اليهود الرسول إذا كان يعبد إلها غير الله فنزل القرآن نافيا ذلك[٢]. فقد تصور اليهود الله يهوه، خاصا بهم، إذ أن لكل قوم إلها، وإن الله هو إله بني إسرائيل. وادعو أن عزير ابن الله فرد القرآن نافيا ذلك[٣]. كما ادعى النصارى فيما بعد أن المسيح ابن الله. والله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. وتهجموا على ذات الله عندما سألوا الرسول أن الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ وغضب الرسول وجاءه جبريل ليهدئ غضبه ونزل القرآن[٤]. وعندما طلب اليهود وصف ذراعه وعضده غضب الرسول ثانية فجاءه جبريل لتهدئته ونزل القرآن[٥]. فاليهود بطبعهم مجسمون مشبهون منذ عبادة العجل الذهبي بعد مغادرة موسى لهم من آثار دين المصريين.

وقد سأل اليهود عن أربعة أشياء إن صدق في الإجابة عنها صدقوه وإن لم يعرفها كذبوه. الأولى كيف يشبه الولد أمه والنطفة من الرجل؟ ورد الرسول بأن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة. فأيها علت الأخرى كان لها الشبه. وهو تفسير علمي عِلّي دون اللجوء إلى إرادة الله. والثانية كيفية النوم؟ فقال الرسول إن عينه تنام وقلبه يقظان. والثالثة ما الذي حرم إسرائيل على نفسه. فأجاب الرسول لحوم الإبل

---

(١) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٦.

(٢) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٦.

(٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٧-٥٠٨.

(٤) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، السابق، حـ١/ ٥٠٩.

(٥) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٩.

وألبانها مع أنها كانت أحب الطعام له لأنه اشتكى منها مرة وعُفي منها فحرمها على نفسه شكرا لله. والرابعة ماذا عن الروح؟ فأجاب الرسول جبريل. فرفض اليهود لأن جبريل عدو لهم، ملك يأتي بالشدة ويسفك الدماء ولولا ذلك لاتبعوا الرسول. فأنزل الله القرآن تأييدا له[١]. وكان الرسول قد كتب إلى يهود خيبر يخبرهم بأنه جاء مصدقا لما أتى به موسى وأخوه وأنهم يجدون ذلك في التوراة[٢].

وقد تحدى اليهود الرسول بحساب الحروف في القرآن في أوائل السور. ورد عليهم القرآن بأن هذه متشابهات وأخرى محكمات[٣]. واليهود قد برعوا في حساب الحروف، ويريدون إحراج المسلمين، وإثبات جهلهم. وكانوا يستفتحون على قريش بمحمد قبل مجيئه. فلما جاء كفروا به[٤]. يقولون ما لا يفعلون. وهي سمة المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. ونبذوا عهد الله معهم، الإيمان بمحمد لما ظهر بينهم[٥]. وقال أحدهم للرسول إنه ما جاء بشيء يعرفه، وما أنزل الله عليه آية لاتباعه. فرد عليهم القرآن[٦]. يخالفون الحق الذي يعرفونه بعدم الاعتراف به علنا. وينكرون ما يؤمنون به. وقد سأله أحد اليهود بأن ينزّل عليهم كتابا من السماء ليقرؤه، ويفجر لهم أنهارا

(١) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ،.... أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ.... ﴾، السابق حـ١/ ٤٨٦-٤٨٧.

(٢) ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، السابق حـ١/ ٤٨٧.

(٣) مثل ﴿الم﴾، ﴿المص﴾، ﴿الر﴾، ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، السابق حـ١/ ٤٨٨-٤٨٩.

(٤) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٠.

(٥) ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٠.

(٦) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٠.

ليصدقه. فرد القرآن[1]. فطالما سألوا الأنبياء أكثر من ذلك حتى أرسل الله لهم يسوع المسيح، معجزة في ميلاده وحياته وموته ورفعه.

وطلبت اليهود من الرسول أن يطلب من الله أن يكلمهم حتى يسمعوا كلامه فرد القرآن عليهم[2]. وأشار إليهم مع الذين لا يعلمون حديثا وقديما. وقد كان مطلب اليهود دائما مطلبا حسيا لأنهم لا يؤمنون إلا بالبينات الحسية، ولم يتغيروا عبر التاريخ. ولم يتعلموا من التجارب السابقة. وظلوا على طبيعتهم الأولى. وسألوا الرسول ما الذي ولاه عن القبلة التي كان عليها وهو على دين إبراهيم؟ فلو عاد إليها لآمنوا به. ويشير القرآن إليهم باسم السفهاء. وقد جاء التحول بناء على بحث الرسول عن قبلة واتجاه[3]. ورغب في التميز عن اليهود، وتوجيه العرب نحو مكة، داخل شبة الجزية العربية من أجل الإعلان عن وحدتها واستقلالها[4]. وليس الموضوع هو تغيير القبلة ولكن هو تمسك كل طائفة بدينها وقبلتها ورفضها قبلة ودين الطائفة الأخرى اتباعا لأهوائهم وليس للعلم. وهم يعلمون الحق الذي أتاهم من ربهم[5].

وطلبت اليهود من الرسول أن ينزل عليهم كتابا من السماء لأن ما معه ليس متسقا مع التوراة. فرد الرسول إن ما معه متسق لما معهم. ولئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به[6]. ومقياس الاتساق عند اليهود هو التصديق بأن النبوة لم

---

(١) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٠.

(٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، السابق جـ١/ ٤٩١.

(٣) ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٢.

(٤) ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٢.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٣.

(٦) ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، السابق جـ١/ ٥٠٨.

تخرج منهم، وأن موسى آخر أنبيائهم. واستمرارا لسؤال اليهود الرسول عن المستحيل، سألوا الرسول عن قيام الساعة. فرد عليهم القرآن بأن علمها عند الله[1]. ولا تأتي إلا بغتة، وعلى الإنسان أن يستعد لها طبقا للقول المشهور «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا». بل إن أشراط الساعة كلها ظنية. هناك علاماتها مثل انشقاق القمر وهو ما يعني نهاية الكون كله والبشر جميعا، وأن لا يبقى على الأرض إنسان واحد يعبد الله. فقد انتهى الزمن، وانقضى العمل.

كان القرآن يذكر أهل الكتاب عامة واليهود خاصة. فقد كان اليهود أشد حسدا للمسلمين. يريدون ردهم عن الإسلام قدر استطاعتهم حتى لا يبقى في الميدان إلا اليهود وحدهم، عن ذرية إبراهيم، ولشعب الله المختار دون أن تتحول النبوة إلى شعب آخر حتى ولو كان من ذرية إبراهيم[2].

كان اليهود ينكرون دين النصارى، والنصارى تنكر دين اليهود، والنصرانية تطوير لليهودية، واليهودية تكتمل في النصرانية. وموسى مقدمة لعيسى، وعيسى اكتمال وتحقق لموسى. والإسلام يعترف بالاثنين[3]. ويظل العداء بينهما في الاعتراف المتبادل وليس في نقل النبوة إلى شعب آخر. فالمسيح يهودي. أتى لبني إسرائيل. لم يأت لإلغاء الشريعة بل ليكملها بإبراز جوانبها الأخلاقية والروحية. ومع ذلك يشترك كلاهما في رد المسلمين إلى أحد الدينين السابقين. فهم أعداء فيما بينهم، أصدقاء حين معاداة المسلمين[4]، طبقا للمثل العربي الشهير «أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب». وقد

(١) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، السابق حـ١/ ٥٠٧.

(٢) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٠-٤٩١.

(٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩١.

(٤) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩١.

كشف القرآن عن هذه الموالاة المتبادلة بين اليهود والنصارى وعداوتهم للمسلمين وكما هو مشاهد الآن في التحالف بين الغرب وإسرائيل.

ولم تكن اليهود فقط دينا ضمن أديان الجاهلية في شبه الجزيرة العربية، بل كان اليهود يمثلون قوة فيها، في الجنوب والشمال. عادوا الدين الجديد خوفا على قوتهم وسلطانهم وإن كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة. كانوا يحلمون بملك من الفرات إلى النيل ومازالوا حتى وضعوا الشعار كخريطة على مدخل الكنيست الإسرائيلي. وكانت الحرب بين العرب واليهود سابقة على الإسلام. كان الصراع حول السلطة في شبه الجزيرة العربية بين قوتين في الداخل، العرب واليهود، وقوتين في الخارج الفرس والروم[1].

وبوقيعة من اليهود تناحر فريقان من المسلمين، وتواعدوا على القتال. فخرج الرسول إليهم معاتبا إياهم عودتهم إلى الجاهلية بعد أن هداهم الله إلى الإسلام، وأكرمهم به، وأنقذهم من الكفر، وألف بين قلوبهم[2]. والمؤمنون من أي دين لا يحقدون على المؤمنين من دين آخر. فكلاهما شركاء في الإيمان. لذلك على المسلمين الحذر من اليهود، وعدم طاعتهم حفاظا على وحدتهم من مؤامراتهم وغدرهم وبغيتهم الشر بالمسلمين. وادعى اليهود أنه ما آمن منهم بالإسلام إلا شرارهم. فرد القرآن عليهم بأنهم هم الأشرار، وأن من آمن بالإسلام منهم هم الأخيار[3]. فمقياس الخير والشر عند اليهود هو الانتماء للقوم وليس الخير والشر في ذاته أي الأنانية وحب الذات وكراهية الآخر. ونهى القرآن عن

---

(١) ابن خلدون ص١٥-١٧/ ٢٣/ ٢٨-٢٩.

(٢) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ، قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ابن هشام حـ١/ ٤٩٧.

(٣) ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٨.

مباغتة اليهود لما كان بينهم وبين المسلمين من حلف وجوار[١]. كما نهى عن موادتهم[٢]. لأنهم يكرهون المسلمين، ويبيتون لهم الغدر. فالمودة لا تكون من جانب واحد، بل تكون متبادلة بين الجانبين. ومن ثم لا يجوز الاعتراف بهم والصلح معهم وهم مازالوا محتلين لأراضي المسلمين. يعتدون عليهم، ويقتلون أطفالهم ونساءهم وشيوخهم، ويسجنون شبابهم في فلسطين وسوريا وجنوب لبنان منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن. وإذا لقي اليهود المؤمنين قالوا آمنا. وإذا خلوا بعضهم لبعض أنكروا ما آمنوا به[٣]. يعيشون بشخصية مزدوجة، ظاهرها غير باطنها، ولسانها غير قلبها، وقلبها غير فعلها.

وقد ألّب بعض اليهود الأحزاب من قريش ضد محمد. وادعوا أنهم أحبار اليهود وأهل العلم. وأفتوا بأن دينهم خير من دينه، وأن قريشا أهدى مما أتى به. فجاء رد القرآن[٤]. يوقعون بين الرسول وقريش. ويصدون قريشا عن الدين الجديد. وهم أنفسهم لا يؤمنون بآلهة قريش ولا عباداتهم. وتآمروا على الرسول بإلقاء صخرة عليه. وعلم الرسول، ونزل القرآن كاشفا لهم ومخبرًا الرسول بما عقدوا العزم عليه[٥]. لا يعرف اليهود إلا التآمر والغدر والاغتيال. ويخشون المواجهة المباشرة. فهم إلى النفاق أقرب منهم إلى الإيمان. وادعوا أنهم لا يخافون الرسول لأنهم أبناء الله وأحباؤه،

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٨.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.... وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾، السابق جـ١/ ٥٠٦.

(٣) ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(، السابق جـ١/ ٤٩٨.

(٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا، أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا، أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾، السابق جـ١/ ٥٠١.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق جـ١/ ٥٠٢.

كما تقول النصارى[1]. وهم مثل غيرهم من البشر يحاكمون في الآخرة طبقا لقانون الاستحقاق.

ومن صفات اليهود البخل وأمر الناس به أو الإنفاق رياء[2]. ومن صفاتهم حجب الحق، ولي اللسان به، والطعن فيه، والعيب عليه[3]. وأسقطوا تصورهم هذا على الله فادعى أحدهم أن الله فقير واليهود أغنياء. فنزلت الآية ردا عليه[4]. إذ يتم تصور الله طبقا لتصور الإنسان لنفسه وللعالم.

واختصم فريقان من اليهود في الدية إلى الرسول. الأول يريد نصفها والثاني كلها. فنزل القرآن ليحكم بينهما[5]. فاليهود لا يثقون في عدل محاكمهم بل يثقون أكثر في عدل القضاء الإسلامي وكما كان الأمر عند يهود الأندلس. وطلب أحبارهم أن يحكم لصالحهم مع خصومهم من اليهود لعلهم يفتنونه عن دينه فرفض الرسول إلا أن يحكم بينهم بالقسط. ونزل القرآن مؤيدا له دون أن يميل إلى فريق دون فريق كما يفعل القضاة في المحاكم اليهودية[6].

أما بالنسبة للنصارى فقد أسلم بعض نصارى نجران. ومن بقي منهم على النصرانية

---

(١) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، السابق جـ١/ ٥٠٢.

(٢) ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، السابق جـ١/ ٥٠٠. ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ..... وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾، السابق جـ١/ ٥٠٠.

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا، مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، السابق جـ١/ ٥٠٠.

(٤) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، السابق جـ١/ ٤٩٩.

(٥) ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، السابق جـ١/ ٥٠٥.

(٦) ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، السابق جـ١/ ٥٠٥.

صلوا في مسجد الرسول نحو الشرق[1]. ومع ذلك ظل مجموعهم على عقائد النصرانية التاريخية اللاهوتية فيما يتعلق بطبيعة المسيح الإلهية أو الإلهية الإنسانية. وقد احتجوا على أن المسيح هو الله بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا. ويحتجون بأنه ابن الله لأنه لم يكن له أب، وتكلم في المهد. ويحتجون بأنه ثالث ثلاثة باستعماله ضمير التكلم الجمع «فعلنا»، «أمرنا»، «قضينا». ومع ذلك لا يصح إسلامهم وهم يدعون لله ولدا، وعبادتهم الصليب، وأكل الخنزير. ونزل القرآن كاشفا هذا الحوار. فعيسى آية للناس[2]. ووضح خلق عيسى ابتداء من اصطفاء مريم. وقد قص القرآن ولادة عيسى وحديثه في المهد طفلا وكهلا. ولا يُعرف أنه عاش كهلا. ويعلم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وينفخ في هيئة الطير فيكون طيرا. ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، وينبأ بما يدخر الناس في بيوتهم، وماذا يأكلون. ويصدق ما بين يديه من التوراة وليحل بعض الذي حرم على اليهود[3]. ولما أحس منهم عيسى الكفر انضم إليه الحواريون. وشهدوا بأنهم مسلمون. وآمنوا بما أنزل. واتبعوا الرسل[4]. ورفع الله عيسى إلى السماء تطهيرا له من الذين كفروا، وناصرا من اتبعوه[5]. ومثل عيسى مثل آدم خلقه من تراب من غير

---

(١) ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، السابق جـ١/ ٥١٠-٥١٣.

(٢) ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، السابق جـ١/ ٥١٢.

(٣) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، السابق جـ١/ ٥١٥-٥١٦.

(٤) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، السابق جـ١/ ٥١٦.

(٥) ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، السابق جـ١/ ٥١٧.

أب أو أم. وخلق عيسى من غير أب[1].

ومع ذلك، فبدلا من المحاجة في العلم يمكن الاجتماع على كلمة سواء، وترك الخلاف إلى الله دون حكم البشر فيه، عبادة الله وعدم الشرك به، وعدم اتخاذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وإسلام الجميع له[2]. وطلب النصارى حكما من المسلمين فيما اختلفوا فيه من أموال. فبعث الرسول معهم القوي الأمين[3]. كانوا يؤمنون مثل اليهود بعدالة المسلمين في القضاء وكانوا يلجأون إليهم في الخصومات بينهم لأنهم لا يثقون في عدالة قضائهم. وبالرغم من نقد عقائد النصارى إلا أن فضح اليهود كان هو الغالب، كان نقد النصارى في العقائد. وكان فضح اليهود في السلوك.

أما بالنسبة للمشركين فلم يكن الصراع معهم في المدينة حادا كما كان في مكة. لذلك لا يُحال إليهم إلا نادرا. لما خشي المسلمون على أحد الكفار من هبوب الريح طمأنهم الرسول، وكأن الريح ليس لها قانون طبيعي، ولا تهب طبقا لأغراض خاصة. فتشخيص مظاهر الطبيعة فكر ديني في حين أن خضوعها لقانون فكر علمي[4]. وكيف تغضب الريح وتهب لموت عظيم من عظماء الكفار؟ قد تكون فرحها أكثر اتساقا أو غضبها لموت عظيم من عظماء المسلمين أو الصادقين من اليهود كورقة بن نوفل أو النصارى كالنجاشي. وإسقاط الانفعالات الإنسانية على الطبيعة أساس الشعر والفن وجميع فنون الأدب.

ودعا القرآن المسلمين بالصبر على أذى أهل الكتاب والمشركين[5]. فالنصر للحق على الأمد الطويل. والغدر والتآمر والحقد والحسد والخيانة لها حدود. وواضح أن

---

(١) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، السابق حـ١/ ٥١٧

(٢) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، ابن هشام حـ١/ ٥١٧، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، السابق حـ١/ ٥١٧.

(٣) هو أبو عبيدة بن الجراح، السابق حـ١/ ٥١٨.

(٤) «لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار»، السابق حـ١/ ٤٧٧.

(٥) ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، السابق حـ١/ ٤٩٩.

القرآن هو الذي يدخل مباشرة في جدل مع الواقع دون تدخل الرسول. القرآن فاعل بنفسه. وهو سلاح الرسول. فالمعركة ليست شخصية بين الرسول واليهود بل معركة مبدئية بين المثال والواقع، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن. ومواقف اليهود، العداوة والنفاق، ليست فقط ظرفية آنية في عصر الرسول بل هي مستمرة في كل عصر كما يشاهد الآن في الصراع العربي الإسرائيلي.

٣- الإذن بالقتال

وقد جاء الأمر بقتال الكفار صريحا في القرآن، والتحول من السلم إلى الحرب، ومن الدعوة إلى المقاومة، ومن الدفاع إلى الهجوم[1]. وهو أحد معاني الجهاد. ونزل القرآن في الحث على الجهاد في سبيل الله وبيان فضله[2]. نزل القرآن في خروج المسلمين مع الرسول لملاقاة قريش، يريدون العير طمعا في الغنيمة، وخروج قريش لملاقاتهم[3]. فالجهاد مشروع. وقد تدرجت أحكام القتال. واستكملت كل أنواع الجهاد، الجهاد في الداخل والجهاد في الخارج، جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار والمنافقين،

(١) ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، السابق حـ١ ٥٩١-٥٩٢. وهو بتعبير المعاصرين «من السلطة الوطنية الفلسطينية إلى حماس»، ابن خلدون ص١٠٤-١٠٦/ ١١٣-١١٧، عيون الأثر حـ١/ ٣٥٣-٣٧٧، خير العباد ص٧٤-٩٨، فرض الجهاد، الفصول ص٨١، حياة محمد ص٢٠٤-٢١٣، محمد ص١٧٧-١٩٠، الأسوة الحسنة حـ١/ ٢٨١-٣٢٨، سيد الأنام ص١٧٣-١٧٩، المغازي ص١٦٩-١٧١، مختصر سيرة(٢)ص١٨٣-١٨٦، السيرة النبوية ص٢٠٧-٢١٢، خير الورى ص٤٢-٩٥، الرحيق المختوم ص١٩٦، الجانب الجهادي في شخصية الرسول، محمد ص٢٦-٣٤

(٢) «الغزوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»، «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما تملكها»، «من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا. ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا. سيرة النبي ص٢٣٧-٢٥٢، خير الورى ص٤٢-٤٦.

(٣) ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ، إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾، ابن هشام حـ١ ٥٨٧-٥٨٨.

وجهاد الظلمة. ويتلازم الجهاد والهجرة. وجهاد الشيطان أقرب إلى مقاومة النفس، والتمكين لا يكون إلا بعد الابتلاء، وتحمل الألم في سبيل القضية[1].

والغزوات جزء رئيسي من السيرة حتى ليبدو الرسول غازيا وقائد جيش. وقد نزل الأمر للرسول بالقتال، ولكن لم يبدأ على الفور. هاجر من مكة إلى المدينة. واستعد بتجارب غزوات لم تتم حتى أتت غزوة بدر الكبرى. كانت هناك بدر الأولى والثانية والثالثة. ولم يؤذن للرسول بالقتال حتى بيعة العقبة الأولى، بيعة النساء. بل اكتفى بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجهلاء. وكانت قريش قد عذبت المسلمين، فمنهم من هاجر إلى الحبشة، ومنهم من غادر إلى المدينة، ومنهم من تحمل الفتنة في دينه، وبقى في مكة. أذن للرسول في القتال ضد من ظلموه وأخرجوه من الديار. فكانت أول آية نزلت تبيح القتال[2]. وتوالت آيات القتال منذ هذه الفترة[3]. وتهيأ الرسول لقتال المشركين بعد أن بُعث بثلاث عشرة سنة[4]. ولم تكن المدة بين إعلان الوحي والأمر بالقتال طويلة[5]. ونزل القرآن للتأكيد على القتال حتى ولو كان في الشهر الحرام. فقد كان الرسول قد منع القتال فيه «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». ثم نزل

---

(١) خير العباد ص٧٤-٧٨.

(٢) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، ابن هشام حـ١/ ٤٢٣-٤٢٤.

(٣) ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، السابق حـ١/ ٤٢٤.

(٤) السابق حـ١/ ٥٢٣.

(٥) الأولى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، والثانية ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا، إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، السابق حـ١/ ٥٩١.

القرآن بإباحته[1]. وكان من المسلمين من يتوق إلى الجهاد في سبيل الله لينال أجرهم[2].

لم تكن الغزوات فقط تنفيذا لأمر القتال بل كانت رغبة المسلمين الأوائل[3]. فقد ساندوا الرسول وشجعوه على الجهاد بعد أن استشارهم ووافقوا على نقيض ما قاله قوم موسى لنبيهم ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾، بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون. واستوثق الرسول من أمر الأنصار فعرف صدقهم[4].

وتعرف الرسول وأبو بكر أخبار قريش. وظفر المسلمون برجلين من قريش يعرفانهم على أخبارهم. وعرف الرسول عن طريق كم ينحرون كل يوم من الإبل لطعام الجند، حوالي تسعمائة أو ألف لأنهم ينحرون كل يوم ما بين تسعة أو عشرة من الإبل. وهي وسيلة قديمة للاستخبارات[5]. وعرف أن فيهم كل أشراف قريش[6]. وذهب اثنان لتسقّط الأخبار. وهرب أبو سفيان بالعير حذرا[7]. ووجه رسالة إلى قريش بالرجوع[8]. ونزلت قريش بالعدوة، والمسلمون ببدر. واستمع الرسول إلى ما أشار به أحد المسلمين بالنزول بجوار الماء حتى يشربوا ولا تشرب قريش[9]. وبنى عريش أي خيمة للرسول

---

(1) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾، السابق حـ١/ ٥٣٥، سيرة النبي ٢٨٦-٢٨٧، حياة محمد ص٢١٤-٢٣١، نور اليقين ص٨١-٩٦، الأسوة الحسنة حـ١/ ٢٨٧-٣٢٨، سيد الأنام ص١٨٠-١٨٦، المغازي ص١٧٤-٢٤٥، مختصر سيرة (١) ص٢٣-٢٤/ ١٠٢-١٠٨، مختصر سيرة (٢) ص٢٠٢-٢٣٦، سيرة الرسول ص٨١/ ٨٧-١٢١/ ٥٧، السيرة النبوية ٢١٣-٢٢٦، خاتم الأنبياء ص١٠٩-١٣١، صحيح السيرة ١٨٣-٢٧٣، خير الورى ص٤٩-٩٥/ ١٠٢-٢١٧، الرحيق المختوم ص٢٠٤-٢٣٣، رسول الحرية ص١٤٣-١٩٧.

(2) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، السابق حـ١/ ٥٣٦.

(3) مثل أبي بكر وعمر والمقداد وكلمات كل منهم في الجهاد، السابق حـ١/ ٥٤٤.

(4) قال الرسول للأنصار «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين. والله وكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، السابق حـ١/ ٥٤٥.

(5) السابق حـ١/ ٥٤٥.

(6) وقال الرسول «هذه مكة فقد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»، السابق حـ١/ ٥٤٦.

(7) هما بسبس وعدي، السابق حـ١/ ٥٤٦-٥٤٧.

(8) ورجع الأخنس ببني زهرة، السابق حـ١/ ٥٤٧.

(9) هو الحباب. وسؤاله الرسول عن ما اقترح. هل هو وحي من الله أم الرأي والحرب والمكيدة، السابق حـ١/ ٥٤٨.

للدفاع عنه. وارتحلت قريش للحرب. ودعا الرسول الله بالنصر[1]. وفي هذه الأثناء أسلم نفر من قريش[2]. وتشاورت قريش في الرجوع من القتال بعد أن استطلعت قوة محمد حوالي ثلاثمائة رجل.

والغزوات منها ما هو معروف مثل بدر وأحد وحنين والخندق، وأخرى غير معروف. منها ما كان فيها قتال ومنها لم يكن فيها قتال[3]. فنية القتال إرهاب للعدو وتحوله من فريق إلى فريق كما يسمى حاليا في التسليح قوي الردع[4]. ولم يكن في كل الغزوات حرب. والتعبير هو «ولم يلق كيدا». كأن القصد هو التخويف أو الردع بالمعنى المعاصر. ففي غزوة ذات الرقاع لم تقع حرب. إذ كان الناس يخاف بعضهم بعضا، حتى أن الرسول صلى بالناس صلاة الخوف، ركعتان مع طائفة ثم التسليم، وركعتان مع طائفة أخرى ثم التسليم[5]. وكانت الغزوتان الكبيرتان بدر وأحد، النصر والهزيمة، حرب تشرين ١٩٧٣، وهزيمة يونيو ١٩٦٧. والباقي مناوشات ومحاولات ونوايا مثل حرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٦٩. وربما كان القصد من هذه الغزوات عدم نسيان القتال بعد غزوة بدر واستمرار الجهاد. ووقعت غزوات وسرايا قبل بدر[6]. ووقعت غزوات بين بدر وأحد[7]. والغزوة الأولى هي قطع القوافل أي القضاء على القوة

---

(١) «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أَحَفْهَم»، السابق حـ١/ ٥٤٩.

(٢) هو ابن حزام، السابق حـ١/ ٥٤٩-٥٥٠.

(٣) من الغزوات التي لم يقع فيها قتال: غزوة ودّان، غزوة بواط، غزوة العشيرة، غزوة صفوان، وهي غزوة بدر الأولى، غزوة بني سليم، غزوة السويق، غزوة ذي آمر، غزوة الفزع، حـ٢/ ٤١-٤٣، خير الورى ص٩٨-١٠٠، السابق حـ١/ ٥٣٢.

(٤) Force de dissuasion. خير الورى ص٩٦-٩٨.

(٥) ابن هشام حـ٢/ ١٧٦-١٧٧ غزوة بدر الآخرة حـ٢/ ١٨٠-١٨١ غزوة دومة الجندل حـ٢/ ١٨٤، غزوة بني لحيان حـ٢/ ٢٣٨-٢٤٠، بحران، ودومة الجندل، سيرة الرسول ص٧٦-٨٠/ ٨٢-٨٦/ ١٢٢-١٢٦/ ١٥٨.

(٦) قال الرسول «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يتكفلكما» حـ١/ ٥٣٧، خير الورى ص١٠٠-١٠٢، البستي حـ٢/ ١٥٧-٢٠٨.

(٧) مثل غزوات الإيواء، طلب كرز الفهري، وسرايا حمزة، وعبيده بن الحارث وسعيد وعبد الله، خير العباد ص٩٩-١٠٦ـ غزوة بدر الكبرى، الإشارة ص١٩٧-٢٢٩، نور اليقين ص٨٠-٨١.

الاقتصادية لقريش وتوزيع الأسلاب على المسلمين[1]. فالاقتصاد هو المدخل للحرب أي القضاء على القوة المادية للخصم.

وكانت غزوة السويق لرد العدوان على المسلمين وقتل الأبرياء. فقد اعتدى أبو سفيان على المدينة وحرق في نخلها وقتل اثنين من الأنصار. فخرج الرسول في طلبه هو وأصحابه فلم يجدهم. ورأوا أزوادا تركوها لسرعة الهرب. وسماها الرسول غزوة لاستيلاء المسلمين على الأزواد[2].

وفي الغزوات أحيانا يبدأ الرسول بالهجوم كما هو الحال في بدر، ولكن في معظم الأحيان تكون الغزوة للدفاع مثل غزوة بني المصطلق. فقد سمع الرسول أن بني المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث أبو جويرية حمو الرسول. فخرج لهم قبل أن يأتوه. واقتتلوا على ماء. وهزم بنو المصطلق وقتل منهم من قتل. وأخذت أموالهم ونساؤهم غنائم وسبايا. وقد قتل أحد المسلمين خطأ. واقتتل أنصار ومهاجرين على الماء. وأشعل المنافق عبد الله بن سلول النار في الاثنين، واستصرخ الفريقين. وأراد عمر أن يقتله. ورفض الرسول خشية أن يقال إن محمدا يقتل أصحابه. وآذن بالرحيل. ثم اعتذر المنافق للرسول بعد ذلك. ثم زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وأنه مازال حاقدا على الرسول لأن قومه كانوا سينصبونه ملكا قبل ظهوره. وسار الرسول بالناس حتى لا تشتعل الفتنة، وطلب ابنه أن يقتل هو أباه. ورفض الرسول وآثر الترفق به وحسن صحبته. فانقلب قومه عليه يعنفونه على ما بدر منه

---

(١) مثل غزوات غطفان، بن قينقاع، قتل كعب بن الأشرف، خير العباد ص١٢٤-١٢٧، السرايا مثل حمزة، وعبيدة، وسعد، الإشارة ص١٨٦-١٩٦. أول المغازي والبعوث، بعث عبد الله بن جحش، تحويل القبلة، وفرض الصوم، الفضول ص٨١-٨٩. غزوة بدر الكبرى، السابق ص٨٩-١٠٧، بهجة المحافل ص١٥١-١٦٢، السيرة الحلبية حـ٢/ ١٦٩-٤٥٧ (حوالي ٢٨ غزوة)، غرة أول بدر ص١٠٧-١٠٩، غزوة بني سليم ص١٠٩، غزوة السويف ص١٠٩-١١٠، غزوة ذي أمر ص١١٠-١١١، غزوة بحران ص١١١، قتل كعب بن الأشرف اليهودي ص١١١-١١٣، الرحيق المختوم ص١٩٧-٢٠٣.

(٢) ابن هشام حـ١/ ٤١-٤٣، خير العباد ص١٢٢-١٢٥، السيرة الحلبية حـ٢/ ٢٨٧-٢٨٨، حياة محمد ص٢٣٥، نور اليقين ص٩٨، مختصر سيرة (٢) ص٢٣٦، السيرة النبوية ص٢٢٧، خير الورى ص٢٣٢-٢٣٤.

للرسول. وظهر صحة رأي الرسول بعدم قتله كما اقترح عمر[1].

وكان للمسلمين في كل غزوة شعار يتحمسون له ويحشدن الجند تحته. وكان شعار المسلمين في بدر «أحد، أحد» ما أطلقة بلال وهو تحت التعذيب في الرمضاء وعلى صدره الحجر الثقيل[2]. وفي أحد «أمت، أمت»، وفي الخندق «هم لا ينصرون»، وفي بني المصطلق وخيبر «يا منصور، أمت أمت»، وكان شعار المهاجرين يوم فتح مكة وحنين والطائف «يا بني عبد الرحمن»، وشعار الخزرج «يا بني عبد الله»، وشعار الأوس «يا بني عبيد الله».

٤- هل تتدخل قوى خارجية؟

وقد كشفت غزوة بدر الكبرى عن مقومات النصر. إذ دار القتال اعتمادا على القوى الداخلية والمساعدة الخارجية، القوى الذاتية وما قد ينتج عنها من قوى غير متوقعة، شجاعة، توفيق، صدف، روح معنوية. وهو ما يسمى بلغة الفقه الجهاد أو الشهادة أو بلغة الأخلاق التضحية والولاء والوطنية.

وفي مسار الغزوات بالإضافة إلى الاستعداد الداخلي في التخطيط والتنفيذ تتدخل قوى خارجية متنوعة يُعبر عنها بلغة تصويرية مثل الله، الملائكة، جبريل، إبليس، معجزة، رؤية، علم، بشارة، حديث الطبيعة، الحيوان والطير والآلات. وكلها لغة تشخيصية لسرعة التعبير عنها بدلا من تحليلها تحليلا علميا لمعرفة أسبابها المادية مما يتطلب وقتا طويلا. وهو ما يتفق مع لغة الحياة اليومية في استعمال عبارات مثل «بتوفيق من الله»، أو «معجزة» إذا ما حدث نجاح غير متوقع. وربما تكون المساعدة الخارجية مرئية، مثل مساعدات الدول الكبرى للدول الصغرى بالسلاح والخبراء كما حدث في حرب أكتوبر -تشرين١٩٧٣، وكما يحدث في كل حروب إسرائيل ضد العرب منذ١٩٤٨حتى العدوان على غزة في ديسمبر - يناير ٢٠٠٨-٢٠٠٩.

---

(١) «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟» ابن هشام حـ٢/ ٢٤٨-٢٥١، عيون الأثر حـ١/ ٣٧٨-٤٥٨، خير العباد ص١٠٧-١٢٣، الإشارة ص١٩٧-٢٢٩، السيرة الحلبية حـ٢/ ٣٧٧-٤١٤، نور اليقين ص١١٥-١٦٦، المغازي ص٢٦٨-٣٦٩، خير الورى ص٤٤٦-٤٨١.

(٢) ابن هشام حـ١/ ٥٦٠، حـ٢/ ٦١/ ١٩٤/ ٢٥٢/ ٢٨٣/ ٣٤٦/ ٥١٥، ابن خلدون ص١١٧-١٢٥.

أ- الله

وقد نزل القرآن مبينا لطف الله بالرسول من خلال منامه ورؤية الكثير قليلا حتى يتشجع في الحرب ولا يخشى الخصم، ورؤية الخصم أيضا الكثير قليلا حتى يقع المشركون في الوهم بأن المسلمين قليلون مع أن التقابل يقتضي أن يرى المشركون المسلمين كثيرين حتى يهابونهم ويرهبونهم بالكثرة العددية. فالكثرة مقولة المشركين، والقلة المؤمنة مقولة المسلمين[1]. ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وقذف الله في قلوب يهود بن النضير الرعب بعد أن كانوا يستعدون لقتال بتعاون بعض المنافقين والمشركين. فطلبوا الصلح، وترك أموالهم، والرحيل إما إلى خيبر أو إلى الشام[2].وهو إحساس باطني بالخوف عند من يشعر بأنه على باطل أو أن خصمه على حق. وأراد أحد أعضاء وفود بني عامر قتل الرسول فبعث الله بالطاعون في عنقه. فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول[3].وهى إما مصادفة أو بداية تفشي الطاعون في قومه. وتم الربط بين ظاهرتين لا علاقة بينهما، نية قتل الرسول، وواقعة الطاعون. ومات أربد بصاعقة. أرسل الله عليهما صاعقة فأحرقتهما. ونزل القرآن[4].والصاعقة ظاهرة جغرافية يعرفها الجغرافيون، احتكاك السحب بعضها بالعض الآخر فتتولد منها شحنة كهربائية، وفي الطريق إلى تبوك شكى الناس الجفاف فأرسل الله سحابة أمطرت فارتوى الناس وحملوا حاجتهم من الماء[5]. وقد تكون السحابة قد أسقطت مطرها طبقا لقوانين سقوط الأمطار المفاجئة في البيئة الصحراوية. وهو أمر شائع في شبه الجزيرة العربية، وقد وعد الرسول أبا سفيان أنه إذا عاد وكر عليهم بعد أحد لأصابته حجارة من الله أهلكتهم[6]. ولم يخش الرسول

---

(١) ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، ابن هشام حـ١/ ٥٩٢-٥٩٣.

(٢) السابق حـ٢/ ١٦٥-١٦٦.

(٣) السابق حـ٢/ ٤٨٠-٤٨١.

(٤) ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ.... مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾، ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ.... شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾، السابق حـ٢/ ٤٨١.

(٥) السابق حـ٢/ ٤٤٣.

(٦) «والذي نفسي بيده لقد سُوّمت لهم حجارة لو صحبوها لكانوا كأس الذاهب»، السابق حـ٢/ ٩٠.

من استل سيفه المرصع بالفضة وهدده به. فالرسول لا يخاف لأن الله يمنع القاتل منه[1]. وفي حنين عجز شيبة عن قتل الرسول بعد أن هم به. فقد تغشى فؤاده، وعلم أنه ممنوع منه[2]. وقد استمرت المعجزات في صالح المسلمين حتى في غياب الرسول، فقد أرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء من غير سحابة ولا مطر. فأتى بشيء لا يقوى عليه أحد. ولم يستطع المشركون تجاوزه. والمسلمون يسوقون نعمهم. وغادر المسلمون ولم يستطع المشركون اللحاق بهم[3]. وقد تكون المعجزة الإلهية بمبادرة من الرسول. فقد دعا الرسول الله أن يمن عليه حتى يستطيع أن يقسم على بعض من أسلم. ففتح الله عليه[4]. فالدعاء المستجاب تركيز على الذات يخلق موضوعه[5]. ورأى الرسول عن بعد أن أكيدر ملك كندة النصراني سيجده خالد وهو يصيد البقر، وحكت البقر قرونها بباب القصر وهو ما لم يحدث قبل ذلك. فخرج بفرسه مع نفر من أهل بيته وأخ له فتلقته خيل الرسول. فأسره المسلمون وقتل أخاه. واستلب خالد قباء الديباج المخوص بالذهب وبعث به إلى الرسول[6]. فالمهموم بشيء يقع له. وقد لا يتدخل الله بذاته وأفعاله ولكن بعرشه. وفي هذه الحالة يكون منفعلا ولا فاعلا. وهل يهتز عرش الرحمن لموت أحد كما تقول الرواية في اهتزازه لموت سعد بن معاذ؟ هو تصوير إنساني، أدبي بلاغة عن مدى أثر ما يحدث على الأرض في السماء. فليست السماء وحدها هي التي تؤثر في الأرض.

ب- الملائكة

وقد شهدت الملائكة وقعة بدر في حمحمة خيل من وراء سحابة وصوت «إقدم

---

(١) لذلك نزلت آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ٢/ ١٧٧-١٧٨.

(٢) السابق حـ٢/ ٣٧٦.

(٣) غزوة غالب بن عبد الله الليثي لبني الملوح، السابق حـ٣/ ٥١٣-٥١٥.

(٤) «اللهم إنك قد عرفت ما لهم وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنا، وأكثرهم طعاما وودكا»، السابق حـ٢/ ٢٨٢.

(٥) وهو معنى المثل الشعبي «اللي يخاف من عفريت يطلع له» ولكن في الخير.

(٦) موت سعد وتشييع الرسول والمسلمين له واهتزاز العرش فرحا بقدومه، السابق حـ٢/ ٤٤٦.

حيزوم». وهو اسم ملاك أو فرس[1]. فصعق نفر، وتمالك آخر. وكان المسلم يضرب عنق المشرك فتقع رأسه قبل أن يصل إليها سيفه وكأن آخر قد ضربه. فقد خرجت من الشعب على رؤوسهم عمائم بيضاء يوم بدر، وحمراء يوم حنين، البياض رمز للنصر، والأحمر رمز للهزيمة، إلا جبريل فقد كانت عليه عمامة صفراء إشارة لتميزه ورئاسته على الملائكة. ومعظمها روايات باستثناء القليل منها أقوال مباشرة من أحد الصحابة[2]. ولم تقاتل الملائكة إلى يوم بدر. وفي الغزوات الأخرى كانت حاضرة فقط بعددها دون مشاركة، ربما لأن بدر أول معركة يحتاج المسلمون فيها إلى عون وتشجيع. وترك المسلمون على حالهم في أحد وفي حنين. وقد كان بإمكانهم تحذير المسلمين في أحد لمن يلتف وراءهم بعد أن ترك النبالون مواقعهم أو تحذيرهم في حنين، أن الكم لا يغني عن الكيف. وهي أمور خلافية يصدقها البعض ولا يصدقها البعض الآخر[3].

وإذا كان المؤمنون لم يكفهم أن ينزل الله لهم ثلاثة آلاف من الملائكة، يرسل لهم خمسة آلاف عليها علامات الملائكة أو مرعية حتى يطمئن المسلمون. فالأمر نفسي للتشجيع، وليعلم المشركون أن العزة لله وليس لأمر من خلقه ولا حتى لرسوله بل إلى الله يتوب عليهم أو يعذبهم[4]. لذلك يستعمل القرآن ألفاظًا نفسية مثل البشرى والاطمئنان. وفي غزوة حنين ذهب بعض الرقباء من المشركين لاستطلاع أحوال المسلمين. فعادوا وقد تفرقت أوصالهم لأنهم رأوا رجالا بيضا على خيل بلق، وهي الملائكة[5]. فإما أنهم

---

(١) ابن هشام حـ١/ ٥٥٨-٥٥٩، خير العباد ص١١١-١١٣/١١٦، الرحيق المختوم ص٢١٨.

(٢) هذا قول علي بن أبي طالب حـ١/ ٥٥٩، قتال الملائكة ص١٣٧، غزوة أحد، الأسوة الحسنة حـ١/ ٣٠٥-٣١٠/ ٣٥٦-٣٥٧، انهزام المشركين بالبرد والريح والملائكة، السابق حـ١/ ٤٣١-٤٣٤، قتال الملائكة دفاعا عن الرسول يوم أحد، صحيح السيرة ص٣٠٢. الإمداد بالملائكة في بدر، خير الورى ص١٣٢، قتال الملائكة لمساعدة المسلمين، ص١٣٥/ ٤٠٧/ ٤٢١.

(٣) لا خلاف في قتال الملائكة، خير الورى ص١٣٥/ ١٣٨، مدد الملائكة للمسلمين، خير الورى ص٦٧٤.

(٤) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، ابن هشام حـ٢/ ٩٢-٩٣.

(٥) السابق حـ٢/ ٣٧٢.

أتوا متأخرين بعد الهزيمة أو أنهم لم يستطيعوا فعل شيء لإنقاذ المسلمين من الهزيمة. وقد تكون الرواية قد أرادت تغطية الهزيمة الفعلية بغطاء خيالي للتخفيف من وقعها والتذكير بأن الله لن يترك المسلمين في المستقبل. وغسلت الملائكة حنظله الذي ركب أبا سفيان فأصابه أحد المشركين لتشجيع المسلمين على الجهاد[1]. ويُدخل الخيال الملائكة في تغسيل الشهداء[2]. وتدخلت الملائكة في غزوة حنين بالرغم من عدم تدخلها في أحد، والسياق واحد، الهزيمة. إذ أقبل من السماء نمل أسود مبثوث ملء الوادي، هي الملائكة، ثم هُزم القوم[3]. والنمل القادم من السماء أكثر استدعاء للخيل من النمل الزاحف على الأرض كما هو الحال في قصة سليمان. وقد أعان ملك في صورة رجل قصير من أسر العباس[4]. فكيف يأسر رجل قصير رجلا طويلا ضخما؟ وتتدخل بعض الخيالات لإعطاء مزيد من التأثير مثل مشاورة الملائكة في المعركة[5]. وتفصيل أنواع الملائكة وأجناسها يثير الخلاف أكثر ما يدعو إلى الاتفاق. وكله رجم بالظن، واعتماد على السماع دون المشاهدة والتجربة، وتشجيع المواقف الانفعالية على إطلاق الخيال حتى تكون شدة التصوير تعادل شدة الانفعال.

حـ- جبريل

ولا يكفي الملائكة في مجموعهم بل يخص جبريل بالذكر مع أن دوره في نزول الوحي، وليس في ميدان القتال. وطبقا لقول الرسول كان جبريل يشارك مع الرسول والمسلمين في الحرب. فقد رمى المشركين بالحصباء استفتاحا لغزوة بدر قائلا «شاهدت الوجوه». وهو فعل رمزي لتشجيع المسلمين على بدء القتال كالطلقة الأولى في القتال. وأحيانا تنسب العبارة إلى الرسول وهو خارج من الغار حتى لا يراه المشركون أثناء الهجرة مع

(١) قال الرسول «إن صاحبكم حنظله لتغسله الملائكة»، «خير الناس رجل ممسك بعناق فرسه كلما سمع هيعة طار إليها»، ابن هشام حـ١/ ٦٦-٦٨.

(٢) الجوهرة حـ١/ ١٠٦ «لا تبكه (ما تبكه)، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»، بهجة المحافل ص١٧١، سيرة النبي ص٢٨٥.

(٣) ابن هشام حـ٢/ ٣٨٠.

(٤) «لقد أعانك عليه ملك كريم»، الجوهرة حـ٢/ ١٤.

(٥) خير العباد ص١١٦.

أبي بكر أو في غزوة بدر وهو يشارك المسلمين في القتال[1].

وحزن الرسول على عمه، وتوعد المشركين بالمثل. ولولا حزن صفيه أخته لترك الجثة تأكلها الطيور والسباع حتى يكون في كل مكان كما يذرّى الهنود تراب حرق أجسادهم في النهر حتى يعود إلى الطبيعة التي خرج منها. ولو أظهره الله على قريش ليمثلن بثلاثين رجل منهم، واحدة بواحدة[2]. وتابعه المسلمون في ذلك. ثم ظهر جبريل وأخبره أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع أسد الله وأسد رسوله. ولماذا يكتفي جبريل بالذهاب ولم يتدخل لإبعاد الرمح عن حمزة وصده؟ والتمثيل ليس من آداب الحرب في الإسلام وكما قالت أم عبد الله الزبير وهو يقاتل أنصار معاوية «وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟» ظهر جبريل للتخفيف من حزن الرسول. فجبريل رمز للاعتدال إذا ما وقع الإنسان فريسة التطرف.

وحين توفى سعد بن معاذ من جراحه أتى جبريل الرسول في جوف الليل وعليه عمامة من إستبرق سائلا إياه عن هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش وكأن جبريل لا يعلم وهو الذي يحمل الوحي إلى الرسول، ويعلم كل شيء. فقام الرسول سريعا يجر ثوبه فرأى أن سعدا قد مات. وعابت عائشة على أسيد بن حضير حزنه على امرأة ولم يحزن على ابن عمه الذي اهتز له العرش تثبيتا للرواية السابقة. وأثناء جنازته وحمل الناس له وتشييعه إلى مثواه الأخير قال الرسول إن له حملة غيرهم. فقد استبشرت الملائكة به. واهتز له العرش في صورة ثالثة لتثبيت الصورتين الأولى والثانية. وبعد الدفن سّبح الرسول على القبر وكبر، فسّبح الناس معه وكبروا لأن القبر يتضايق على العبد الصالح حتى يفرج الله عنه. فإن للقبر ضمه لو كان أحد منها ناجيا لكان سعد ابن معاذ. وكل نائمة تكذب إلا نائمة سعد. وكل هذه الصور تعظيم لسعد في الحياة وفي المهات، في الدنيا وفي الآخرة، تكريما للشهداء، ونموذجا للمسلمين[3].

---

(١) مثل قول الرسول «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع»، ابن هشام حـ١/ ٥٥٤/ ٥٥٥، وفي رواية «عليه أداة الحرب»، بهجة المحافل ص١٥٥، سيرة النبي ص٢٧٢، الخلاف في نزول جبريل بعد الرسول، خير الورى ص١٣٨.

(٢) ابن هشام حـ٢/ ٨٣.

(٣)السابق حـ٢/ ٢١٣-٢١٥.

وقد أمر الله الرسول على لسان جبريل بحرب بني قريظة فقد أتى جبريل الرسول وعليه عمامة من إستبرق على بغلة عليها سرج عليه قطيفة من ديباج سائلا الرسول هل وضع السلاح؟ فلما أجاب الرسول بالإيجاب أخبره جبريل بأن الملائكة لم تضع السلاح بعد، ولم ترجع عن مطالبة القوم. فأمر الرسول المسلمين بالقتال وألا يصلي أحد منهم العصر إلا في بني قريظة. فالأمر من السماء وليس من الأرض، من جبريل إلى الرسول، وليس فقط من الرسول إلى المسلمين. وبالتالي يتشجع المسلمون لتطبيق أمر الله بالسير إلى بني قريظة[1]. كما بشر جبريل الرسول بفتح مكة دون تحديد عام بعينه. واستعجل المسلمون الرسول[2]. فجبريل يأتي بالخبر، الوحي والبشارة. وإذا كان جبريل والملائكة يتدخلون في النصر كما فعلوا في بدر فلماذا توقفوا في أحد ولم يمنعوا الهزيمة وقتل حمزة سيد الشهداء، وعمار بن ياسر بالرغم من تنبؤ الرسول بمقتله؟ وقد عاتب جبريل الرسول مرة بأنه وضع السلاح وأن لابد من الاستمرار في قتال اليهود.

ويتدخل جبريل دائما في حوار الرسول مع من حوله وليس فقط لتبليغ الوحي. وقد يكون المقصود أن رأي الرسول وفعله موجهان من الوحي وليسا من لديه. فأخبره جبريل أن حمزة في السموات السبع[3]. وأخبره أن عمرو سيفقد بصره[4]. ويقرأ عائشة السلام تقوية لمعنوياتها بعد حديث الإفك[5]. ونزل لمراجعة الرسول تردده من الزواج بحفصة ابنة عمر رحمة به[6]. فجبريل ينزل في حالة السلم والحرب معا.

وعلى النقيض من جبريل يغري إبليس قريش بالخروج بعد أن تبدى لقريش في صورة سراقة بن مالك. وكان من الأشراف. وأوعز إليهم بالخروج خشية أن تأتي كنانة

---

(١) السابق حـ٢/ ٢٠٠-٢٠٢، أمر جبريل النبي بالخروج إلى بني قريظة، مشاركة جبريل في محاربة بني قريظة، صحيح السيرة ص٣٧٠-٣٧١.

(٢) السابق حـ٢/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) «جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله»، الجوهرة حـ٢/ ١١.

(٤) السابق ص٢٢.

(٥) «هذا جبريل يقرأ عليك السلام»، «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، السابق ص٦٥.

(٦) السابق ص٦٧.

من خلفهم[1]. وقد نكص على عقبيه يوم بدر فنزل القرآن فيه[2]. فإبليس مخادع، يعد ويخلف. وهو مثل الشيطان إن لم يكونا مترادفين. ففي إحدى الغزوات وصف الرسول المطلوب رأسه بالشيطان والشعور بالقشعريرة عند رؤيته[3]. فالشيطان صورة من خلق الذات تبعث على الاشمئزاز وليس موضوعا في الخارج. وصراخ الشيطان أن محمدا قد قتل تصوير لفرح العدو[4]. وقد كشف الشيطان بنود معاهدة العقبة الثانية وهدده الرسول بالتفرغ له[5]. وقد كثر رجم الشيطان وقت نزول الوحي لإفساح المجال لجبريل[6]. وكان الجن يتدخل في الموضوع. البعض آمن به وبشر برسالته[7]. ومنع الجان من استراق السمع تصور بشري لمنع التجسس، تجسس قوى الشر على أفعال الخير[8]. وقد تحدث الرسول فيما بعد مع الأنصار عن رمي الجن بالنجوم، عقيدة الجاهلية وفرحها بأن الله كان إذا قضى شيئا سمعه حملة العرش فسبحوا وسبح من تحتهم حتى السماء الدنيا دون معرفة السبب حتى يصل إلى سمع الشيطان فتسترقه. ثم يخبرون به الكهان من أهل الأرض، يخطئون ويصيبون. ثم حجب الله الشيطان بهذه النجوم. فانقطعت الكهانة. فلا كهانة بعد اليوم[9]. وهو قطع لكهانة بكهانة بديلة، وكان يمكن أن يُمنع استراق السمع منذ البداية بألا يستمع إليه حمله العرش، ولا يصل إلى سمع الشياطين، ولا تتحدث به الشياطين إلى الكهان. وإذا كان الله كما تقول الرواية قد حجب الشياطين بهذه النجوم فكأنه غير قادر على منعهم من استرقاق السمع مباشرة دون ما حاجة إلى

---

(١) وربما رآه عمير بن وهب أو الحارث، ابن هشام حـ١/ ٥٤١-٥٨٤.

(٢) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، السابق حـ١/ ٥٨٤.

(٣) «إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة»، السابق حـ٢/ ٥٢١، خير العابد ص١١٤-١١٥، إبليس ينسحب من ميدان القتال، الرحيق المختوم ص٢١٩.

(٤) فصول ص١٢٥-١٢٦، سيرة النبي ص٢٧٩.

(٥) «هذا أزب العتبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك»، الرحيق المختوم ص١٥٢.

(٦) نور الإبصار ص١٨.

(٧) «ذلكم عفريت من الجن يقال له «سمحج» سميته عبد الله، آمن بي فأخبرني أنه في طلبه منذ أيام»، الخصائص الكبرى حـ١/ ٢٣٩.

(٨) السيرة النبوية ص٦٠-٦٢.

(٩) كان يقال في الجاهلية «مات ملك، مُلك ملك، ولد مولود، مات مولود»، ابن هشام حـ١/ ٢٠٣.

وسيلة. والشيطان في النهاية شيطان وإلا لما كان شيطانا. ينفذ من وراء النجوم ومن خلفهم. مع أن النجوم تهدي السائر في الطريق. وطالما تغنى بنورها الشعراء. ويسطع جمالها في الليل البهيم[1].

وقد أتى له وفد من الجن وأسلم، تعويضا عن كفر الإنس به[2]. وإذا كان الجن قد آمن بالرسول فكيف بالإنس؟ لقد تحول الجن إلى إنس، والإنس إلى جن. يراه الرسول ولا يراه أحد غيره. أعطاهم حكما، العظم لهم، والروث علف لدوابهم. وفي رواية أخرى أسلم الجن، سبعة منهم تقوية لعزيمة الرسول، وحث الناس على الإيمان به بعد أن آمنوا به. فقد استمع لقراءته واهتدى. فما بال الإنسان يستمعون لقراءته ولا يهتدون؟[3].

وقد اختلف في أصل الجن، هل هم والشياطين ولد إبليس أم هل هم ولد الجان، والشياطين ولد إبليس؟ ولهم أجساد وفي حاجة إلى غذاء كالإنس. وينكر وجودهم الأطباء والفلاسفة. ولهم صور مختلفة أشهرها الجـان[4]. وفي الحديث أنهم ثلاثة أصناف، صنف يطير في الهواء بأجنحة، وثاني حيات وكلاب، وثالث يحلون ويظعنون. وكان الرسول قادرا على الحديث معهم حتى ولو أتوا متنكرين.

---

(١) «ليس ذلك كذلك، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعه حملة العرش فسبحوا. فسبح من تحتهم، فسبح لتسبيحهم من تحت ذلك. فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا. ثم يقول بعضهم لبعض مم سبحتم؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم. فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا إلى حملة العرش فيقال لهم: مم سبحتم. فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا للأمر الذي كان. فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف. ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم به. فيخطئون ويصيبون. فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضا ويخطئون بعضا. ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة»، السابق حـ١/ ٢٠٣.

(٢) ألفية السيرة ص٦٤-٦٥ «من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل»، «إني أمرت أن أقرأ على إخوانكم من الجن فليقم معي رجل ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من غش»، «العظم مباح لكم والروث علف لدوابكم»، سيرة الرسول ص٣٨-٤١.

(٣) عيون الأثر حـ١/ ٢٣٤-٢٣٩ «إني قد أمرت أن أقرأ على إخوانكم من الجن فليقم معي رجل منكم، ولا يقم رجل في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»، اعتمادا على آية ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، خير العباد ص٤٣، الإشارة ص١٣٤.

(٤) بهجة المحافل ص١١٣-١١٤.

وبالرغم من السيرة الحديثة إلا أن روايات المعجزات لا تخضع للنقد مثل شق الصدر، وتدخل الشيطان في كشف بيعة العقبة الثانية، وتدخل الملائكة في الغزوات بجانب المسلمين، وإرسال السحب محملة بالماء، وانسحاب إبليس من ميدان القتال[1].

د- معجزات الرسول

وتستمر معجزات الرسول مع تصديق كامل برواياتها مثل هبوب الريح وانشقاق القمر، والإسراء والمعراج[2].

وتعني المعجزات بالمعنى الشائع أي انكسار في قوانين الطبيعة أو بالتنبؤ بالنصر في المستقبل[3]. كما تعني أيضا الفضائل[4]. فقد أعطي كرامات خُلقية ومكارم خلقية[5]. وغلب المعنى الأول على المعنى الثاني أي ما يخرج من قدرة الإنسان على ما يدخل تحتها. والكرامة هي المعجزة على غير النبي. كما أن المعجزة كرامة للنبي وحده. الكرامة للأولياء، والمعجزات للأنبياء[6]. وإذا كانت الكرامة هي مجرد الاستقامة فهي عامة للناس جميعا وليس فقط للأولياء الذين قد ينقص البعض منهم الاستقامة.

ومعجزات النبي كثيرة قبل البعثة[7]. روايات أكثر منها أقوالا مباشرة[8]. فكيف

---

(١) السيرة النبوية ص٥٧/ ١٥٢/ ٢١٨-٢١٩/ ٣١٨/ ٤٣٤.

(٢) مختصر سيرة الرسول ص٦٩/ ٥٧-٧٦/ ١٥٥-١٥٦، نور اليقين ص٢١٥-٢٢٤، ما وقع في فتح مكة من الغرائب، الأسوة الحسنة جـ١/ ٤٨٣-٤٨٤، المعجزات التي حدثت في الطريق إلى تبوك، السابق جـ١/ ٥٠٤، ما وقع الآيات في الحجر، السابق جـ١/ ٤٠٥.

(٣) مثل: انشقاق القمر، الكوثر، كلام الضب له، إنفاق كنوز كسرى في سبيل الله، بفتح خزائن فارس والروم، تسوير سراقه بسواري كسرى، مقاتلة المسلمين قوم صغار الأعين عُراض الوجوه، فتح اليمن والشام ومصر، هبوب الريح لموت منافق، تحريك الجبل، الإشارة ص٤٢٤-٤٢٨.

(٤) «اسكن إنما عليك نبي أو صديق أو شهيد»، السابق ص٨٢٨.

(٥) مثل: أعطي الرضا وإتمام النعمة، والعفو، وشرح الصدر، ورجحان العقل، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، وصلاة الله وملائكته عليه، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإصر والأغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وإحياء الموتى، وإسماع الصم، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والاطلاع بإذن الله على الغيب، وظل الغمام، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، السابق ص٤٢٩-٤٣١.

(٦) سيرة النبي ص١٣٦-١٣٨.

(٧) مثل :إثمار النخل، زيادة وزن الذهب، الخصائص الكبرى جـ١/ ٦١-٦٢.

(٨) السيرة الحلبية جـ٣/ ٣٩٤، خير الورى ص٣٦٧/ ٣٨٤/ ٣٩٥/ ٤١٧-٤١٨/ ٥٠، تعارض الروايات ص٤٢٨/ ٥٧٤.

يمكن التوفيق بين الروايات أو الترجيح بينها، كيف يمكن التحقق من اختلافاتها؟ وقد تصل الروايات إلى أكثر من مائة ليست فيها أقوال مباشرة إلا ربعها[١]. وقد ذكرت فقط المعجزات التي في الروايات التي بها الأقوال المباشرة للرسول وتدعمها وليست في الروايات التي تصف أفعالا دون أقوال. وذكر البعض منها نظرا لأنها لا تعد ولا تحصى، وترتبط بصدق الروايات[٢]. وزادت المعجزات وتكررت: در الضرع الجاف الحليب بمجرد مسك الرسول له، تكثير الطعام في بيئة صحراوية يندر فيها الطعام، وتكثير السمن لما للسمن من قيمة غذائية عند العرب، تكثير التمر فالتمر هو الغذاء الرئيسي في الصحراء، تكثير الماء، وتكثير اللبن، فالماء حياة البدو في الصحراء، نبع الماء بين أصابعه[٣]. وكلها تلبية لحاجات البدو في البيئة الصحراوية ضد الجفاف والجوع، شح المياه وجفاف أضرع الحيوان.

وتذكر معجزاته تباعا منذ الولادة حتى الوفاة. كما تجمع في كتب الشمائل لأنها من خصائصه. ويمكن عرضها بعدة طرق: الطريقة الأولى تبين ملابسات كل معجزة، ظروفها ودوافعها وأهدافها. والطريقة الثانية تبين بنيتها ومنطقها الداخلي وصياغاتها وعناصر الواقع والخيال فيها[٤]. وقد تستغرق المعجزات جزءا بأكمله بمفردها أو كأدلة على النبوة وأولها الإسراء والمعراج[٥]. وتأتي قبل الوحي في ترتيب الأقسام. ويقوم اليقين فيها على مبدأ نفسي[٦]. وتتعدد الروايات بين الإجمال والتفصيل مما يدل على تدخل الخيال الشعبي بها[٧]. والمعجزات روايات أكثر منها أقوال مباشرة. وقد تتحول إلى قول غير مباشر مما يدل على التخوف من روايتها قولا مباشرا. إذ يصعب رواية حوار في السماء بين جبريل والرسول والأنبياء، وكل مجموعة من المعجزات تستند إلى

---

(١) محمد بن يوسف أطفيش: السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة.

(٢) خير الورى ص١٥٢.

(٣) الأنوار حـ١/ ٣٤٠-٣٤١، الوفا حـ١/ ٢٧٤-٢٨٠/ ٢٨١-٢٨٢/ ٢٨٤-٢٩٠/ ٢٩١-٢٩٣/ ٢٩٣-٢٩٥.

(٤) ألفية السيرة ص٩٢-٩٧.

(٥) سيرة النبي حـ٣/ ٦-٥٥٣.

(٦) السابق حـ٣/ ٦٤-٧٠.

(٧) السابق حـ٣/ ٢٥٥-٢٥٦/ ٢٦٠-٢٦١/ ٣٦٧/ ٢٩٧-٣٠١/ ٤٩٨، معجزات الحبيب ص١٥-٢٠.

آية. وتفصل عليها كما هو الحال في الاستنباط ولكن بفعل الخيال وليس بفعل العقل. وتضعف بعض رواياتها مثل شق الصدر. ونظرا لتعدد الروايات واختلافاتها فإنه يشار إلى أنها نقلت بالمعنى وليس باللفظ. وفرق بين سماع المعجزة ومشاهدتها. الأولى تخضع لمنطق الرواية، والثانية لمنطق الإدراك الحسي. وفي النهاية لا شأن ذلك كله بقضايا الإصلاح بل إن الإصلاح. يقوم على العقلانية والعلم.

وتعتمد السيرة على فن التشويق وعناصره ومنها المعجزات وتدخل الملائكة. ودخول جبريل محاورا، ومجيبا على أسئلة حتى تفوق سير سائر الأنبياء، وما تثيره في النفس من خيال. وهناك سياق في المعجزات بين الرسول وباقي الأنبياء. فالرسول تكلم في المهد صبيا مثل المسيح[1]. ويقارن بين الأنبياء السابقين حتى يبزهم.

فهي أقرب إلى الرسول منها إلى الرسالة لأن الرسالة واضحة بذاتها لاتفاقها مع العقل والواقع دون ما حاجة إلى معجزات. بل إن الإسراء والمعراج الذي اختلف القدماء والمحدثون في كيفيته ليس شرطا للإيمان بالرسالة. وشق الصدر كمقدمة للإسراء والمعراج ليس شرطا لصحة الرسالة وتطابق الشريعة مع البداهة والمصلحة العامة[2]. والصلاة الآن في القدس وبيان أهميتها أفضل نظرا لاحتلالها وتهويدها[3]. المعجزات المعنوية وفي مقدمتها القرآن، النظم والتشريع، أكثر قبولا من المعجزات الحسية. وهي نفس القسمة في الذات الإلهية بين الصفات المعنوية والصفات التشبيهية. وإثبات أن القرآن معجزة بالقرآن دور. ومعجزات القرآن بالنسبة للأخبار عن الماضي أو التنبؤ بالمستقبل غير أقوال الرسول[4].

ولم يتم التعرض لروايات المعجزات بالنقد والتحليل والحكم على درجة صحتها[5]. كما لم يتم تحليل أقوال جبريل ونسبتها إليه لإعطائها مزيدا من القوة والأثر والفاعلية[6].

---

(١) «جلال ربي الرفيع،الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا»، السيرة الحلبية جـ١/ ٨٤.

(٢) خلاصة ابن كثير ص١٢٨-١٣٤.

(٣) السابق ص١٩٣.

(٤) السابق ص٤٨٧-٤٩٦.

(٥) عيون الأثر جـ١/ ٨٤/ ٩٠/ ١٠٦/ ٢٠٧/ ٢٣٤/ ٣٧٥.

(٦) السابق ص٢٢١.

وهناك موضوع خاص بالمعجزات داخل حجة الوداع[1]. وأعظمها القرآن. ومنها ما يزيد على الخمسين معجزة حسية[2]. يمكن تصنيفها طبقا لمعجزات النبات والحيوان والإنسان والطبيعة[3].

يضعف بعض كتاب السيرة روايات كثيرة من المعجزات[4]. ولم يستبعد الإصلاح المعجزات بمن فيهم طه حسين الذي ينتسب إلى ديكارت والديكارتيين. والرسول لا يطالب الناس طلب آيات لأن الناس سألوها من قبل الأنبياء ولم يؤمنوا بهم[5].

---

(١) نبذة عن معجزاته، السابق جـ٢/ ص٣٧٥-٣٧٧.

(٢) «ومعجزاته أكثر من أن يجمعها كتاب أو يحصرها ديوان» جـ٢/ ٣٧٧.

(٣) أ- معجزات النبات: دعاء تمر حائط بالبكة، شهود الشجرة للرسول بالنبوة، تسليم الشجر والحجر عليه، حنين الجذع له.

ب- معجزات الحيوان: نسج العنكبوت في الغار، غرس قوائم فرس سراقة في الرمال، مسح درع ناقة فدرت دون فحل، وكذلك ضرع شاه أم معبد، الدعاء لجمل جابر فأصبح سابقا، الدعاء على عتبه فأكله الأسد، أعلمته الشاة بسمها. شكوى البعير له قلة العلف وكثرة العمل، سؤال الظبية لخلاصها من الحبل لترضع ولديها وتلفظها بالشهادتين، شهود الضب بنبوته.

حـ- معجزات الإنسان، شق الصدر، رمي الأعداء بالتراب فأعماهم وقتلوا يوم بدر. ونفس الشيء في غزوة حنين، الدعوة لعمر بعز الإسلام، ولعلي ليقيه الحر والبرد، شفاء عين بتفلة فيها، والدعاء لابن عباس بالتأويل والتفقه في الدين، الدعاء لأنس بطول العمر وكثرة المال والولد، تسبيح الطعام بين يديه، الإخبار عن مصارع المشركين يوم بدر، إخبار أن طائفة من أمته يغزون في البحر، التنبؤ ببلوى عثمان، التنبؤ ببلوى الأنصار، وبواسطة الحسن، الإخبار بقتل الأسود العنسي، استشهاد ثابت بن قيس، رفض الأرض جثة أحد المشركين، تحريك يد أشول إلى فمه للطعام، إطعام ألف من صاع شعير، مباركة الطعام فزاد، نبع الماء بين أصابعه فشرب وتوضأ ألف وأربعمائة، وضوء سبعين أو ثمانين من قدح، غرس رأسهم في الماء ففار وارتوى ثلاثون ألفا، تحويل الماء المالح إلى عذب بتفل الرسول، ظهور شعر صبي أقرع بمسح رأسه، تحويل عود الحطب إلى سيف في يد عكاشة، ضرب حجر فأصبح كثيبا، شفاء رجل مكسورة.

د- معجزات الطبيعة: انشقاق القمر، الاستسقاء وهطول المطر أسبوعا، تسبيح الحصى بين يديه، تكسير الأصنام أثناء دخول مكة.

(٤) مثل إطعام الجم الغفير من سخلة وصاع شعير ببيت جابر، إطعام نحو من ثمانين من طعام كادت لا تواريه يد الرسول، إطعام الناس يوم دخل بزينب، إطعام المسلمين يوم تبوك من قدر صغير، إعطاء أبي هريرة مزودا فأكل منه دهره، دعاء الله للمسلمين لما قحطوا وهو على المنبر فلم ينزل حتى أمطرت السماء، دعاؤه على قريش فأصابهم الجهد، ذكر الإناء الذي وضع يده فيه ودعا فنبع الماء من بين أصابعه، نبع الماء يوم الحديبية حتى شرب الجيش، إرساله السهم إلى عين الحديبية فوضعت فيها فجاشت بالماء حتى كفتهم، ذكر المزادتين اللتين للمرأة صبت توضأوا وشربوا واغتسل بعضهم ورجعت كما كانت فأسلمت وأسلم قومها، الفصول ص٢٨٥-٢٨٨ .

(٥) «يا أيها الناس لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح»، الجوهرة جـ١/ ٣٩٥.

والجدل حولها الآن لا يأتي من ورائه نفع كبير. والقرآن نفسه يتشكك في أن تكون أداة للتصديق[1].

هـ- المعجزات الحسية

ويمكن تصنيف المعجزات إلى معجزات حسية في الجماد والنبات والحيوان والإنسان. وتدخل الطبيعة مع الجماد، ومعنوية يدخل فيها الإعجاز العلمي في القرآن. وإذا كان العلم يعتمد على التجربة فماذا لو ناقضت المعجزة حكم التجربة؟[2]: فقد وصف الرسول لمداواة الإسهال شرب العسل فزاد. وكرر التجربة أكثر من مرة، فحكم على وصفه بالصدق وعلى البطن بالكذب. والقرآن كمعجزة، وفرق بين المعجزة والإعجاز. الأولى خرق لقوانين الطبيعة، والثاني تحد بشري بلاغي وتشريعي. وإثبات معجزة القرآن بالقرآن دور منطقي[3]. وقد يجتمع في المعجزة الله والملائكة والحيوان[4]. فهي عوامل متداخلة بين العلل الأولى والعلل الثانية. المهم وقوع المعجزة طبقا لدرجة التصورات ومستوى الخيال.

وفي تصنيف آخر، المعجزات على أنواع: الأول معجزات العصمة والمنعة والحماية والرد على قريش[5]. والثاني الإخبار عن الأمم السابقة. والثالث خوارق العادات التي تمت على يديه وتثبيتا لأصحابه[6]. والرابع الإخبار عن خوارق العادات دون مشاهدتها بل الإيمان بها تفويضا[7]. والخامس تكثير الطعام والشراب وإبراء المرضى وبركة يده

---

(1) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾.

(2) «إسقه عسلا...... صدق الله وكذب بطن أخيك»، محمد رسول الله جـ٢/ ٢١٦.

(3) السابق ص٢٢٧-٢٤٠.

(4) إن الله أبداها لي، والبعير نطق بعذرك، والملائكة قد سدوا الأفق، المعجزات اللامعة ص٩٧.

(5) وهي حوالي تسع معجزات، الأسوة الحسنة جـ٢/ ٧-٢٧.

(6) السابق جـ١/ ٢٨-٤٦.

(7) السابق جـ٢/ ٤٧-١٢٩.

الشريفة[1]. والسادس القرآن الكريم. والأغلب هو تقسيمها إلى حسية ومعنوية[2].

الحسية مثل انشقاق القمر، ورد الشمس وحبسها، نبع الماء بين أصابعه، تكثير الطعام بين يديه، كلام الشجر والحجر وشهادتها له بالنبوة، شهادات الحيوانات له بالرسالة، وشفاء العلل بريقه وكفه، وإجابة دعائه، وصلاح ما كان فاسدا بلمسه، والإخبار بالغيب، وتشمل ما فوق الأرض وما على الأرض، ظواهر السماء وظواهر الأرض[3].

أما المعجزات الحسية التسعة عشر فيمكن تصنيفها في أربعة أنواع: الطبيعة، الجماد والنبات والحيوان، الإنسان بما في ذلك الطعام والشراب وهي الأكثر، والتاريخ، الإخبار بالماضي والتنبؤ بالمستقبل[4].

وقد ظهر عديد من المعجزات للرسول في غزوة الخندق لتصديق رسول الله وتحقيق نبوته ومعاينة المسلمين لها. فقد صعب على المسلمين حفر صخرة في الخندق فتفل الرسول في إناء به ماء ودعا ببعض الأدعية ثم صب عليها الماء فتحولت إلى كثيب

---

(١) السابق حـ٢/ ١٣٠-١٧٩، وفيها الفتن خلال البيوت، العجوة في الجنة، العمى في المدينة، الطاعون في الشام، الشيطان في السحب، حراسة المدينة من الدجال، حال الشمس يوم القيامة، خراب الكعبة، ومنها أشراط الساعة: نزول عيسى، قتل الدجال، تقليد اليهود والنصارى، تحلي الأمة بالذهب، قبض العلم، أئمة الجهل، أمراء الترك، حال العمال، فتح ردم يأجوج ومأجوج، ظهور الخوارج، قلة الرجال وكثرة النساء، استحلال الخمر، قتال الترك والمغول واليهود، السابق حـ٢/ ١٨٠-٢٢٦.

(٢) السابق حـ٢/ ٢٢٧-٢٤٠.

(٣) «في ذكر بعض من اشتهر من معجزاته، وظهر من علامات نبوته في حياته»، سيرة النبي ص١٣٩-١٧٢، «اذهبي فإنا لم نأخذ من مائك شيئا، ولكن الله سقانا»، السابق ص١٤٣، «اثبت أحد فإنما عليك نبي أو صديق»، السابق ص١٥٠، «والذي نفسي بيده ما من شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله ما خلا عصاة الأنس والجن»، السابق ص٥٢، «إنه شكا كثرة العمل وقلة العلف، إنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه في العمل الشاق من صغره»، السابق ص١٥٢، «نعم تطلق هذه الظبية»، السابق ص١٥٢-١٥٣، «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسموعة»، السابق ص١٥٣.

(٤) أ- الطبيعة: انشقاق القمر، الاستسقاء، نبع الماء بين أصابعه.

ب- الجماد والنبات والحيوان: تسليم الحجر عليه، وانقياد الشجر له، حنين الجذع إليه، شكوى البعير إليه.

حـ- الإنسان: تكثير الأطعمة والأشربه، تكثير الطعام في السفر، البركة في طعام السلم، الشاة المسمومة، رده عين قتاده، دعاؤه لبعض الصحابة، دعاؤه على بعضهم.

د- التاريخ: ما أخبر به من الكائنات، المستقبلة، ما أخبر به مما وقع من الحوادث الماضية، ذكر صفاته في كتب الأولين، السابق ص٤٣٧-٤٣٨/ ٤٥٩-٤٩٦، نور اليقين ص٢١٨.

تحت الفؤوس. وأخذ حفنة من التمر أرسلتها مسلمة مع ابنتها إلى أبيها وخالها لغذائهما فأخذها الرسول بكفه، وأمر بثوب وبسطها فيه فملأه وأمر بأهل الخندق أن يأتوا للغذاء. وكلما أكلوا زادت حتى امتلأت البطون، وفاض التمر من الثوب، أسوة بتكاثر الخبز والسمك في معجزات السيد المسيح. ومرة ثالثة دعا أحد المسلمين الرسول وحده إلى الطعام على شاة مشوية وبعض الخبز فدعا الرسول جميع أهل الخندق للحضور معه. فأكل الجميع وفاض. ومرة رابعة أخذ الرسول المعول لمساعدة أحد المسلمين في حفر الخندق وكسر صخرة عاصية. فلمعت الصخرة من أثر المعول ثلاثا. الأولى فتح الله عليه بها اليمين، والثانية الشام والمغرب، والثالثة المشرق. ولما دخل الرسول مكة فاتحا وكانوا يتلون ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، كان يشير إلى الصنم بعصاه في وجهه، فيقع الصنم على قفاه، وإذ أشار إلى قفاه وقع على وجهه حتى وقعت الأصنام كلها[1]. وكلها حالات نفسية للشبع من الأكل مع الرسول أو حفر الخندق في المناطق الصعبة الصخرية مع الرسول. ونتيجة هذا الجهد أمل في فتح الشام والمغرب ضد الروم، والشرق ضد الفرس، ووقوع الأصنام بمجرد الإشارة إليها دليل على هشاشة الآلهة الخشبية وعجزها عن الدفاع عن نفسها، ووقوعها على قفاها مزيدا من الاحتقار لها.

وقاتل عكاشة بسيفه حتى انقطع. فأعطاه الرسول عودا من حطب فانقلب في يده سيفا طويلا شديد المتن أبيض الحديد يسمى العون، قاتل به حتى فتح الله على المسلمين. وقتل وهو معه. وهي واقعة من صنع الخيال على مدى قدرة الرسول على المساعدة في الحرب بالعتاد والسلاح. وصفات السيف تدل على الصورة الفنية: البياض، والطول، والشدة، والاسم. وعكاشة هو الذي بشره الرسول بدخول الجنة مع سبعين ألفا على صورة القمر ليلة البدر واستبعاد آخر لأن عكاشة سبقه، وكأن الجنة لا تتسع لسبعين ألف وواحد. والبشارة أو الدعوة تظل قائمة لا ترد إلا في الخيال الشعبي. وهو خير فارس في العرب. وهم من العرب وإن لم يكن العرب منه[2].

---

(١) ابن هشام حـ٢/ ١٨٧-١٨٨/ ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) السابق حـ١/ ٥٦٢-٥٦٣، الجوهرة حـ١/ ١٨١.

وتقتضي رومانسية القتال مخاطبة السيوف وما عليها من دماء الأعداء[1]. وأثنى الرسول على سيوف الصحابة التي صدقت أيضا في القتال. فالقتال شعر. لذلك كان المقاتل يرتجل شعرا على إيقاع السيوف وهو يقاتل. وكان الشعر والقتال خاصيتين رئيسيتين في حياة العرب. ويشعر المقاتل بتعاطف متبادل مع الجبل[2]. فعليه نصره، ووراءه يختبئ العدو. وتساهم الأرض في حمل الدلالات. إذ لفظت الأرض دفن مشرك مرتين حتى وضع بين جبلين وعليه الحجارة. والأرض تبلع أكثر منه شرا[3]. فالطبيعة تشعر بالتوحيد والشرك.

وتنفعل ظواهر الطبيعة بما يحدث من ظواهر إنسانية. فالطبيعة إنسان كبير، والإنسان طبيعة صغيرة. فقد هبت ريح قوية خافها المسلمون وطمأنهم الرسول بأنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار، وهو رفاعة بن زيد من عظماء اليهود والمتحالفين مع المنافقين وجده المسلمون في التابوت في ذلك اليوم[4]. فالطبيعة تغضب من الكفر وتزمجر.

ولم تكتف الرواية بقول الرسول :نُصرت يا عمر بن سالم بل عرض الله له عنانا من السماء فقال «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بن كعب»، فالطبيعة تشهد على الإنسان[5]. وفي غزوة الطائف عندما بنى المسلمون مسجدا مكان السارية التي أقامها الرسول بين القبتين لزوجتيه كان لا تطلع عليها شمس يوما إلا سُمع لها صوت [6]. وهو إحساس باطني بعظمة المكان بالصوت والصورة. والرسول قادر على حبس البرد عن الصحابة وحمايتهم من الطقس[7]. وفي رواية انشق القمر فوق الجبل مرتين. وقيل إن الرسول

---

(١) قول الرسول «اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فو الله لقد صدقني اليوم»، وقال لعلي بعد أن طلب نفس الشيء «لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو رجانة»، وقال لعلي «ألا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا»، حـ٢/ ٨٧.

(٢) «هذا جبل يحبنا ونحبه»، سيرة النبي ص٣٤١.

(٣) «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه ولكن الله أراد أن يعظكم في حرم ما بينكم بما أراكم منه»، ابن هشام حـ٢/ ٥٢٨-٥٢٩.

(٤) السابق حـ٢/ ٢٥٠.

(٥) السابق حـ٢/ ٣٣٥.

(٦) السابق حـ٢/ ٤١٠، بهجة المحافل ص٢٨٤.

(٧) «اللهم احبس عنهم البرد»، معجزات اللامعة ص٩٢.

سحره[1]. وتعارض رواية انشقاق القمر أحاديث الرسول نفسه[2]. إنما نشأت المعجزة من هز اعتقاد الصابئة بألوهية الكواكب. وفي رواية انحبست الشمس ليلة الإسراء والمعراج تكريما للضيف القادم بعد أن دعاها الله أن تفعل، كما حدث ليوشع بن نون وبناء على نموذج توراتي وربما لداود[3]. وهي أكبر من القمر وأعظم منه، فعظم المعجزة من عظم كمها.

وبالنسبة للنبات وحنين الجذع إلى الرسول بعد اعتلائه المنبر، إسقاط نفسي من قوة جذب الرسول ليس فقط البشر بل أيضا الجماد[4]. ومن المعجزات إحياء الجماد والدخول معه في حوار مثل تسليم الأحجار والأشجار عليه[5]. وقد سعت الشجرة إليه ثم عادت إلى موضعها، وكان الحجر يسلم عليه قبل النبوة[6]. ورمي الرسول وجوه المشركين بالحصباء[7]. ودرت الجزعة باللبن لما لمس الرسول ضرعها فشرب هو وأبو بكر ثم تقلص الضرع[8]. ومن معجزاته تكثير التمر والطعام ونبع الماء بين أصابعه[9].

وبالنسبة للحيوان الرسول قادر على الحديث مع عظام الحيوانات[10]. كما استطاع الرسول إناخة الجمل بنخسة من عصى أو من فرع شجرة حتى ركبه صاحبه وأصبح

---

(١) عيون الأثر حـ١/ ٢٠٧-٢٠٨، ألفية السيرة ص٥٩-٦٠.

(٢) «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»، سيرة النبي ص٧٥/ ٣٦٥، مختصر سيرة (١) ص٦٩، صحيح السيرة ص٨٩-٩٠.

(٣) الإشارة ص١٣٩-١٤١.

(٤) السابق ص١٧٦، سيرة النبي ص٣٤٢، «إن دعوت هذا العذق من النخلة فجاء أشهد أني رسول الله»، المعجزات اللامعة ص٥٥.

(٥) «لما أوحى الله إليّ جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله»، الخصائص الكبرى حـ١/ ٢٢٥.

(٦) «أني لأعرف حجرا بمكة، كان يسلم عليّ قبل أن أبعث. إني لا أعرفه الآن»، بهجة المحافل ص٧٢، سيرة النبي ١٢٠، سلام الحجر والشجر عليه قبل بعثه، السيرة الحلبية حـ١/ ٣٢٠-٣٢١، صحيح السيرة ص٦٤.

(٧) خير الورى ص٦٧٥-٦٧٦.

(٨) الخصائص الكبرى حـ١/ ٧٣-٢٧٤، بهجة المحافل ص١٣١.

(٩) خير الورى ص٣٥٨-٣٥٩/ ٤٨٨/ ٤٩١-٤٩٢/ ٥٤٠، استسقاء الرسول ربه لأمته، استسقاء النبي واستجابة المولى لدعائه، خير الورى ص٧٤٤-٧٤٥.

(١٠) «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، سيرة النبي ص٣٤٠.

الجمل أحسن الجمال ركضا. وقد أراد الرسول شراء الجمل وأراد صاحبه أن يهبه للرسول فعرض درهما أو اثنين حتى أوقية والرسول يرفض إلا السعر الحقيقي[1]. والرسول توجه إلى الكعبة قبل صلح الحديبية أناخت ناقته في مكان للإقامة وكان تفسير الرسول أنها ما تعبت بل حبسها حابس الفيل عن مكة[2]. وهو استدعاء الذكريات. الناقة تستدعي الفيل وناقة الرسول تستدعي فيل أبرهة. الناقة لا تتذكر حادثة مرَّ عليها مئات السنين ولكن الإنسان هو الذي يربط بين الأحداث. وسارت ناقة الرسول وهو داخل المدينة تعرف طريقها، خلوا سبيلها فإنها مأمورة[3].

وبالنسبة للإنسان المعجزات عديدة مثل: تكثير الطعام والشراب، وإبراء المرضى ببركة يده الشريفة[4]. وفي تكثير الماء والطعام يشتد الخيال فيزداد عدد الشاربين والآكلين. وإذا ضعف الخيال يقل العدد[5]. ونفذ قوت المسلمين وهم في طريقهم إلى اليمن بعد أن كان طعام كل جندي تمرة. فخرجت دابة من البحر، وأصابوا لحمها وشحمها، وطعموا منها عشرين ليلة. وأخذ الأمير ضلعا من أضلاعها. وأمر بأجسم بعير وحمل عليه أجسم رجل فجلس عليه فخرج من تحتها وما مست رأسه[6]. ومعجزة إطعام الجوعى معجزة نمطية في تاريخ النبوة، مرة بأصغر طعام مثل السمك ومرة بأضخمه مثل دابة البحر كما تصف الرواية. وقد رمى أحد المسلمين بخشبة في جرف فيخفيه الله عن المشركين ولم يقدروا عليه[7]. فالمسلم محروس من الشرك بفضل فعله والفضل الإلهي مجتمعين. وبعد أن سمت يهودية شاة مشوية للرسول وأكثرت السم في الذراع التي يحبها، وبعد أن أكلها ولم يستسغها أخبره العظم أن الشاة مسمومة. واعترفت اليهودية بأنه لو مات استراح قومها منه بعد أن أمعن فيهم قتلا. ولو عرف لكان نبيا. فعفا الرسول عنها.

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ١٧٨.
(٢) السابق جـ٢/ ٢٦٥.
(٣) بهجة المحافل ص١٣٣.
(٤) الأسوة الحسنة جـ٢/ ١٨٠-٢٢٦.
(٥) السيرة الحلبية جـ٣/ ٤١٠-٤١١.
(٦) ابن هشام جـ٢/ ٥٣١-٥٣٢.
(٧) السابق جـ٢/ ٢٩٢-٢٩٣.

ومات صاحبه الذي أكل منها[1]. وقد ظل الرسول يعاني من هذه الأكلة حتى مرضه ووفاته. وهو إحساس طبيعي عند أصفياء النفوس، حاسة سادسة تتربى لديهم من دوام ممارسة الفضيلة. وأعطى الرسول فدية مائة ناقة لأهل قتيل من المسلمين فلم تضرب أيا منها صاحبها. ربما لأنه لا يوجد سبب لذلك. فالناقة تضرب لوجود سبب[2]. وفي خيبر حوصر حصن به غلام يرعى غنم صاحبه فأسلم ولم يعرف ماذا يفعل بالغنم، أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه. فأمره الرسول بأن يضرب في وجوهها فإنها سترجع إلى ربها. ثم استشهد الغلام وقال عنه الرسول «إن معه الآن زوجته من حور العين في الجنة»[3]. وكان الرسول لا يحقر أحدا.

والطب النبوي يقوم كله على المعجزات، شفاء الأمراض بالدعاء مثل وجع الضرس[4].وقد أجرى الرسول عديدا من المعجزات أثناء الحرب وفي لحظات الخطر ومنها العلم بالمجهول، والتنبؤ بالمستقبل، والبشارة الطبية، ولما أصيبت عين قتادة ووقعت على وجنته ردها الرسول بيده فكانت أحسن عين وأحدها. فالرسول يجري المعجزات وسط الحرب[5].

والرسول قادر على نشر العلم بالدعاء كما فعل مع ابن عباس[6]. وهو قادر على هداية الناس كما فعل مع أبي هريرة[7]. ولما قتل أحد المسلمين ظلما من قاتله رآه يرفع بين السماء والأرض حتى رأى السماء من دونه[8]. وهو إحساس بضرورة التعويض عن الظلم في الأرض بعدالة السماء، ورفع الشهداء الثلاثة قادة غزوة مؤتة مع الروم ورآهم الرسول وقد رفعوا إلى الجنة، فيما يرى النائم، على سرر من ذهب. ورأى في سرر أحدهم

---

(١) «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، السابق حـ٢/ ٢٨٧.

(٢) السابق حـ٢/ ٣٠١.

(٣) السابق حـ٢/ ٥٣٣.

(٤) «أدن مني، فو الذي بقيني بالحق لأدعون لك بدعوة لا يدعو بها مؤمن مكروب إلا كشف الله كربه... اللهم اذهب عنه سوء ما يجد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المتين عندك»، المعجزات اللامعة ص٢٦.

(٥) ابن هشام حـ٢/ ٧٢.

(٦) «اللهم بارك فيه وأنشر منه»، «اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين»، المعجزات اللامعة ص٩٤.

(٧) «اللهم أهد أم أبي هريرة للإسلام»، السابق ص٩٥.

(٨) السابق حـ٢/ ١٦١.

إزورارا عن سريري صاحبيه لتردده[1]. وحزن الرسول على صخر وأوصى به له. ورؤية الرسول الشهيد في الجنة تصديق ذاتي لما يقوله حتى يتأكد القوم صحة قوله ومعاينته. وخاطب الرسول الموتى، شهداء القليب[2]. فالموتى أحياء عند ربهم يرزقون. ويصل الأمر ليس فقط إلى كلام الموتى بل إلى أحيائهم[3].

وقد غشي المسلمين النعاس يوم أحد لتفسير هزيمتهم[4]. وهل تكون المعجزة لصالح المسلمين أم للإضرار بهم؟ وماذا عن التفسير الحربي بالتفاف خالد بن الوليد من وراء الجبل، وترك الرماة مواقعهم للنهب والسلب؟

و- المعجزات المعنوية

وقد تكون المعجزات معرفية وليست فعلية، فقد أخبر الرسول من السماء بكتاب حاطب الذي أرسله إلى قريش مع امرأة يبلغها فيه بقدوم الرسول إلى مكة[5]. وهي رواية وليست قولا مباشرا للرسول. ولا يوجد طريق آخر علم الرسول به الخبر. لذلك استسهلت الرواية طريق السماء، وأثناء الغسل لما اختلف المسلمون في كيفيته، مجردا من الثياب أم بالثياب ألقى الله عليهم النوم. فما كان أحد منهم إلا وذقنه في صدره. ثم سمعوا صوتا من ناحية البيت أن غسلوا النبي وعليه ثيابه[6]. فالقرار من فوق وليس من مشاورة الصحابة، وأتى الرسول خبر من السماء يعلمه بقدر اليهود ونيتهم في قتله بإلقاء حجر من أعلى البيت وهو جالس تحته[7]. فالحماية من الله.

وقد علم الرسول بما قاله متناجيان لا يسمعهما أحد، مما يدل على أن له مصدرًا خاصًا

---

(١) ابن هشام حـ٢/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا... والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، سيرة النبي ص٢٧٢، بهجة المحافل ص١٥٦.

(٣) «أرني قبرها... يا فلانة أتمنين أن ترجعي إلى الدنيا.... يا فلانة أجيبي بإذن الله.... إن أبويك قد أسلما فإن أحببت أن أردك عليهما»، المعجزات اللامعة ص٢٤-٥.

(٤) صحيح السيرة ص٣٠٢-٣٠٣.

(٥) «وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب»، ابن هشام حـ٢/ ٣٣٨.

(٦) السابق حـ٢/ ٥٥٦.

(٧) السابق حـ٢/ ١٦٤-١٦٥.

للمعرفة[1]. وعرف بها تحدث أحدهما به نفسه ليقتله. ثم وضع يده على قلبه فاستغفر الله[2]. فهل هي البصيرة التي يدرك بها صاحبها ما لا يدركه غيره؟ ولما ضاعت ناقة الرسول سخر أحد المشركين منه كيف لا يعلم مكانها وهو نبي يأتيه الخبر من السماء؟ وأجاب الرسول بأنه لا يعلم إلا ما علمه الله. وقد دله الله عليها أمام استغراب الناس[3]. ويمكن بالحدس أو معرفة طبيعة المكان وطبيعة الحيوان معرفة أين ذهبت الناقة. وقد وصل التشبيه في المعرفة إلى درجة الامتداد إلى يوم القيامة. فقد أعطى الرسول أحد المسلمين عصاه حتى يعرفه يوم القيامة. فأخذها من أعطيت له وظلت معه بجوار سيفه ودفنت معه[4]. وقد أمّن الرسول أحد المشركين لثلاثة أيام على أن يختفي بعدها ولكن الرسول عرف مكانه فبعث إليه من يقتله[5]. وهو عقاب شديد على من يخلف الوعد. ولما جاء أبو جويرية بنت الحارث بفداء ابنته حجز بعيرين فسأله الرسول أين البعيران؟ فأسرع الحارث وأسلم، وعرف أنه رسول الله بإطلاعه على ما لا يعرفه أحد. ودفع فداء ابنته فأسلمت. ثم خطبها الرسول من أبيها ودفع صداقها[6].

وكان الرسول يعرف ما هو مجهول وهي سمة الأنبياء. كان يعرف حياة عدي بن حاتم السابقة قبل قدومه للإسلام مما أقنعه أن الرسول نبي[7]. ويمكن معرفة ذلك أيضا عن طريق الأخبار والسماع. كما أنبأ الرسول وفد جُرش بأن بُدن الله تنحر هناك الآن بعد انتصار المسلمين. ثم دعا الله أن يرفع الغم عنهم. فعندما رجع الوفد إلى بلده أدرك صدق الرسول فآمن القوم[8]. وقد تحدث علماء النفس عن قدرة البعض على الرؤية عن بعد بسبب حدة الحواس، وتوسيع مدى علمها. وفي إحدى الغزوات عرف الرسول

---

(١) هما الحارث وعَتاب «لقد علمت الذي قلتم»، السابق جـ٢/ ٣٥.

(٢) السابق جـ٢/ ٣٥٣.

(٣) السابق جـ٢/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٤) «أمسك هذه العصا عندك....آية بيني وبينك يوم القيامة»، السابق جـ٢/ ٥٢٢.

(٥) «إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا»، ابن هشام جـ٢/ ٩٠-٩١.

(٦) لذلك نزلت آية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق جـ٢/ ١٧٧-١٧٨.

(٧) السابق جـ٢/ ٤٩٠.

(٨) السابق جـ٢/ ٤٩٦.

أن القائد قتل المطلوب رأسه قبل أن يخبره القائد[1]. وهو إحساس طبيعي ناتج عن هم المعركة والإحساس بضرورة النصر وموت القائد الذي يعني هزيمة جنده. وعرف الرسول مباشرة تقسيم الجزور بين قوم قبل أن يخبر بها وهو ما يقوله الصوفية[2].

وسمع أحد المتخلفين الثلاثة عن غزوة تبوك بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت صوتا صارخا يقول: يا كعب بن مالك أبشر، فخر ساجدا وعرف أن الفرج قد جاءه. وكان الصوت يسبق فرسه وهو متوجه إلى الرسول[3]. وهو إحساس نفسي بالفرج بعد الشدة، وبالبسط بعد القبض بمصطلحات الصوفية، وسمع معاذ بن جبل صوتا يهتف به وهو في اليمن يبلغه بوفاة الرسول نتيجة للقلق عليه. والتوهم أحد الحواس الخمس الداخلية عند الفلاسفة[4].

وقد تتحول الرؤية الحسية البصرية إلى رؤية حدسية روحية. فقبل غزوة أحد رأى الرسول رؤية. رأى بقرا، وفي ذباب سيفه ثلما، وأنه أدخل يده في درع حصينة أولاها أنها المدينة. فالبقر الذي يذبح أصحابه يقتلون، والثلم في ذباب سيفه رجل من أهل بيته يقتل[5]. وهو حمزة. وطلب الرسول في غزوة ذي قرد من أبي عياش إعطاء فرسه لمن هو أفرس منه، فقفز عليه وغمز الفرس حتى طار ثم طرحه على الأرض، وأعطاه الرسول لغيره[6]. ويعلم الرسول الحوادث وهو بعيد عنها ولديه أخبارها، كما حدث في غزوة بني قَرَد عندما علم أن باقي إبلهم ترعى في غطفان، ولا داعي للاستيلاء عليها[7].

وقبل غزو ثقيف رأى الرسول رؤية أنه قد أهديت له قدح مملوءة زبدا فنقرها ديك

---

(١) السابق حـ٢/ ٥٢٢.

(٢) «تقسيم عوف الأشجعي الجزور بين قوم»، السابق حـ٢/ ٥٢٦.

(٣) السابق حـ٢/ ٤٥٣-٤٥٤.

(٤) البستي حـ٢/ ٤٢٧.

(٥) ابن هشام حـ٢/ ٢٥٦، «إني رأيت في منامي أن في سيفي ثلمه وأن بقرة لي تذبح وإني أدخلت يدي في درع حصينة»، بهجة المحافل ص١٦٤، «بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحي إلي في المنام أن أنفخهما. فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، أحدهما العنسي والآخر سليمة»، السابق ص٣٢٤

(٦) السابق حـ٢/ ٢٤٢.

(٧) السابق حـ٢/ ٢٤٤.

فأراق ما فيها. فنصحه أبو بكر بأن يرجع عن غزوه اليوم ووافقه الرسول. وطلبت منه إحدى النساء أن يعطيها حليّ بعض النساء فعاتبها الرسول بأنه قد لا يؤذن له بالخروج. ونصحه عمر أيضا بعدم الغزو[1]. ورأى الرسول رؤية أخرى ليلة القدر ثم نسيها ورأى في ذراعه سوارين من ذهب كرههما، فنفخهما فطارا فأولها هذين الكذابين سليمة الحنفي والأسود بن العنسي، صاحب اليمين وصاحب اليمامة[2].

وحدثت رؤيا لعاتكة بنت عبد المطلب وليس فقط للرسول أن راكب بعير يصرخ بأعلى صوته على مصارع قريش فلا يوجد منزل في قريش إلا انتابه جزء منها. وذاعت الرؤيا في قريش. واتهمت قريش بني عبد المطلب بالكذب. ولم يدافع العباس. وكان لينا مع أبي جهل. ولامته نساء عبد المطلب. وأراد العباس النيل من أبي جهل فتحققت الرؤيا[3]. فالهم بالليل يتحول إلى فعل بالنهار، كما حدثت رؤيا جهيم بن الصلت في مصارع قريش[4]. وأطلع أحدهم على أسير في يده قطف من عنب مثل رأس الرجل يؤكل منه. ولا يوجد في الأرض عنب. ويعني أنه يقتل[5]. فقطف العنب مثل قطع الرأس. ورأت صفية نفسها في المنام عروسا أن قمرا وقع في حجرها. وعرضت رؤياها على زوجها ففسرها أنها تتمنى أن تكون زوجة ملك الحجاز محمد. ولطم وجهها وعلم الرسول بما حدث[6]. فالزوج المشتاق إليه هو القمر. وحصول المرأة عليه وقوع القمر في حجرها. وتنبأت كاهنة من حدس، وأنذرت قومها بتقهقر جيش الرسول. وهي أمنية عند المشركين كما أن تقدمه أمنية عند المؤمنين[7]. وإذا رأى أحد المسلمين الرسول في المنام فرؤيته صادقة لأن الشيطان لا يتمثل به[8]. ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة[9].

---

(١) السابق حـ٢/ ٤١١.
(٢) السابق حـ٢/ ٥٠٥.
(٣) السابق حـ١/ ٥٣٩-٥٤٠.
(٤) السابق حـ١/ ٥٤٧.
(٥) السابق حـ٢/ ١٤٩.
(٦) السابق حـ٢/ ٢٨٥-٢٨٦.
(٧) «أنذركم قوما خُزرا، ينظرون شزرا، ويقودون الخيل تترى ويهريقون دما عكرا»، السابق حـ٢/ ٣٢٤.
(٨) «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة (كأنما رآني في اليقظة)، لا يتمثل الشيطان بي»، شمائل النبي ص٢٢١-٢٢٤، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»، بهجة المحافل ص٣٩٤-٣٩٦.
(٩) «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»، سيرة النبي ص٢١٢، بهجة المحافل ص٧٢.

وقد تتحول الرؤية الصادقة إلى تنبؤ بالمستقبل. فقد تنبأ الرسول بانتصار عَليّ في خيبر[1]. وتنبأ باستشهاد زيد بن حارثة ثم جعفر ثم عبد الله بن رواحه[2]. وقد تنبأ بمقتل قزمان المنافق الذي قتل في أحد[3]. وهو إحساس طبيعي بأن الشر لا يبقى في العالم، وأنه يلقى جزاءه في الدنيا قبل الآخرة. وتنبأ بقتل الزبير بن العوام ياسرا في مرحب اليهودي في خيبر. وهو إحساس طبيعي بتغلب الخير على الشر، والصدق على الكذب، والإيمان على النفاق، وقد تنبأ بارتداد مسيلمة وبتنبؤه. وهو إحساس بطبيعة العرب التجارية التي تريد أن تبقى على الإيمان دون الزكاة. كما تنبأ بموت زيد الخيل الذي حسن إسلامه بحمى المدينة[4]. وهو إحساس طبيعي بجزاء الشهداء.

ويعرف الرسول ما بالطبيعة من خير أو شر. فقد منع المسلمين وهو في طريقة إلى تبوك ألا يشربوا من ماء الحجر ولا يتوضأوا منه أو يعجنوا منه وألا يخرج أحد بمفرده إلا ومعه صاحبه. ولم يسمع اثنان النصيحة، الأول لقضاء حاجته فمرض. والثاني خرج للبحث عن بعيره فحملته الريح. ثم عاد. شفي الأول. وعاد الثاني في تبادل السبايا بالمدينة. كما أوصاهم بعدم دخول بيوت الذين ظلموا إلا وهم باكون خوفا من أن يصيبهم مثل ما أصابهم[5].

وإخبار الرسول بالغيوب المستقبلية كثيرة[6]. وكلها تنبؤات حسنة بالنسبة للمستقبل،

---

(١) قل «الأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح لله على يديه، ليس فرارًا..... خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»، ابن هشام حـ٢/ ٢٨٤.

(٢) السابق حـ٢/ ٣٢٢.

(٣) قال الرسول «إنه لمن أهل النار»، السابق حـ٢/ ٧٧.

(٤) السابق حـ٢/ ٤٨٤-٤٨٨.

(٥) السابق حـ٢/ ٤٤٢.

(٦) مثل: استخلاف المسلمين في الأرض، غلبة الروم على فارس، تسليط الله الأرض على الصحيفة لتأكلها إلا ذكر الله، مصارع القول يوم بدر بمصارعهم واحدا واحدا، إنفاق كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله، امتداد ملك أمته في طول الأرض، قتال قوم صغار الأعين ذلف الأنوف وهم التتار، إصلاح الحسن بن علي بين فتتين عظيمتين من المسلمين، قتل الخوارج، قتل عمار في فتنه، خروج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، الفصول ص٢٨٨-٢٩٢، إخبار الله الرسول بما قاله الأنصار بعد الفتح، خير الورى ص٦٤٩-٦٥٠، إخبار الله الرسول بما تحدثت به قريش عند أذان بلال، ص٦٥١، إخبار الله الرسول بما قاله فضاله ابن عمير، ص٦٥٤.

وقد يكون التنبؤ بمظاهر الطبيعة مثل هبوب الرياح[1]. وقد يصل مدى التنبؤ ليس فقط إلى ما يحدث في الأرض في الحياة الدنيا، بل أيضا إلى ما يحدث في السماء بعد الموت في الحياة الآخرة، من في الجنة، ومن في النار. فتنبأ لبعض المنافقين أنهم في النار[2]. ومنهم من تُحط عنه الخطايا كما حطت عن بني إسرائيل.

وقد تحول قاتل مشرك إلى الإسلام عندما طعن مسلما بالرمح بين كتفيه وأخرج سنان الرمح من صدره قائلا «فزت والله»، فكيف فاز وقد قتل الرجل؟ فلما علم أن الفوز بسبب الشهادة أسلم من قوة اعتقاد المسلم الشهيد[3]. ولا فرق بين حيوان الأرض وطير السماء، فقد أنبأت الطير التي تحوم حول المعسكر بمقتل مسلمين غدرا[4]. فالطير بموقعه في السماء قادر على أن يرى عن بعد، ويقابل الروح الطائر من جسد الشهيد صاعدا إلى أعلى. ويقوي الصورة حديث مشابه يرى أن الأرواح في حواصل طيور خضر[5]. ومن ضمنها تدخل أشراط الساعة. فلا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، وتغرب من مشرقها أي اضطراب قوانين الطبيعة، وسير الطبيعة ضد القانون[6].

وأحيانا يتفاءل الرسول بالحوادث. فقد ذب فرس بذنبه فأصاب كلاب سيف فاستله فرأى في ذلك فألا بالنصر[7]. وكان الرسول يحب الفأل ولا يتطير، الفأل الحسن وليس التطير السيئ. كما تنبأ بأنه قاتل رأس الشرك بقريش الذي كان يتوعده بالقتل[8].

---

(١) «ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم فيها أحد. فمن كان له بعير فليشد عقاله»، الأنوار جـ١/ ٩٣، «هبت هذه الريح لموت منافق مات بالمدينة»، الوفا جـ١/ ٣١٠.

(٢) الأنوار جـ١/ ٩١-٩٢.

(٣) ابن هشام جـ٢/ ١٦١.

(٤) السابق جـ٢/ ١٦٠.

(٥) وهو ما يسمى باللغة الإنجليزية Eye-Bird View.

(٦) وهي عشر آيات: الدخان، الدجال، الدابة، طلوع الشمس من مغربها، نزول عيسى ابن مريم، يأجوج ومأجوج. وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم، الأنوار جـ١/ ١٠٣-١٠٤.

(٧) «شم سيفك، فأني أرى السيوف ستُسل اليوم»، ابن هشام جـ٢/ ٥٨.

(٨) «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، السابق جـ٢/ ٧٤-٧٥.

وقد بشر الرسول بأن قريشا لن تغزو المسلمين بعد الخندق ولكن المسلمين هم الذين يغزونهم حتى فتح مكة[1]. وأعطي الرسول المعجزات كما أعطي الأنبياء السابقون ومنها القرآن العظيم[2].

المعجزة الكبرى إعجاز القرآن. وقد اعترفت مكة به، وأنه لا يشبه شيئا من كلام البشر. وكان سبب دخول الكثير إلى الإسلام[3]. ووجوه الإعجاز كثيرة: حسن التأليف وبلاغته ونظمه وأسلوبه ولإخباره بما لم يقع، والرواية بما وقع، أثره على السامع، عدم الملل من سماعه، جمعه للعلوم والمعارف . فهي صفات أدبية وعلمية قد توجد فرادى في الشعر أو في أي نسق فلسفي أو علمي. ومنها الإيجاز وبلاغته، خروجه من جنس كلام العرب، إخبار بالمغيبات، كشف الأسرار، الروعة والهيبة التي تحل بالقلوب، الجمع بين الدليل والمدلول[4]. القرآن معجز بنظمه وتشريعاته، وهو ليس إعجازا علميا لأن العلم متغير أو رياضيا لأن الرياضة حسابات عقلية[5]. والرسول نفسه صاحب بيان[6]. وقد اتهم بسحر البيان من قوم يتذقون الشعر وبلاغة اللغة. أدركوا

---

(١) «ولن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»، السابق حـ٢/٢١٧، الإخبار بالغيوب المستقبلية، الفصول ص٢٨٨-٢٩٢، «إني رأيت في منامي كأن في سيفي ثلمه، وأن بقرا تذبح، وتأولتها أن نفرا من أصحابي يقتلون، وأن رجلا من أهل بيتي يصاب»، سيرة النبي ص٢٧٨.

(٢) «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها»، الإشارة ص٤٣٢، ومنها: نبع الماء بين أصابعه فتوضأ وشرب منه ألف وخمسمائة، وفي روايات ثلاثمائة وأخرى سبعين إلى ثمانين. عدم نقص المزادين بعد أن شرب منهما حوالي أربعين، تسبيح الحصا والطعام في كفه، تسليم الشجر والحجر عليه، شهادة الذئب بنبوته، شكوى البعير به كثرة العمل وقلة العلف، وشكوى آخر بتجويعه واستعباده، وسجود بعيرين آخرين له، شق شجرة الأرض حتى قامت عنده وهو نائم وسلمت عليه، واجتماع شجرتين حوله حتى يقضي حاجته ثم تفرقتا، أمر العذق أن يأتيه وأن يغادره ففعل، أمر بنحر ست بدنات فظلت يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ، إرجاع العين إلى مكانها. تفل في عين فلم ترمد، برء رجل بمسحته له، أخبر بقتل أبي بن خلف، التنبؤ بأماكن مصارع المشركين، غزو البحر كالملوك على الأسرة، تنبؤه بمقتل عثمان، وبإصلاح الحسن للأمة، والإخبار بمقتل الكذاب وكسرى، وأن أحدا من أهل النار، وهبوط المطر بعد شكوى الناس القحط، وإطعام أهل الخندق، وازدياد الطعام من شعير وتمر، وإطعام أربعمائة راكب ولم ينقص التمر، وإطعام جيش كبير من زاد قليل، السابق ص٤٣٢-٤٤٣ .

(٣) الخصائص الكبرى حـ١/ ٢٥٤-٢٧٠.

(٤) محمد ص١٥-٢٠.

(٥) نور اليقين ص٢٢٠.

(٦) عبقرية محمد، محمد البليغ، ص١٠٣.

سحر القرآن دون الوعي بمضمونه[1]. ومن دلائل المعجزات سمعته وعقله وصدقه وأمانته. فالأخلاق علامة النبوة وشرطها[2]. وهي معجزات أكثر قبولا من إمداده بالملائكة ونصره بالريح وبالرعب، وهي عوامل نفسية مؤثرة في الحروب مثل الحرب العادلة والدفاع عن النفس، معجزة في البلاغة والتشريع، ومعجزة في السلوك القويم.

٥- الرسول القائد

وكان الرسول لا يقوم فقط بدور النبي، بل أيضا بدور القائد والزعيم. فهو الذي يبلغ الوحي، وينظم المجتمع، ويقود المعركة، ويؤسس الدولة، وكان العرب يستجيبون لذلك بسهولة نظرا لحاجتهم إلى دين جديد يوحدهم، وقانون جديد ينظمهم، وقائد جديد لمعاركهم، ومؤسس جديد لدولتهم، فهو قائد عسكري[3].

وكان في كل مرة يخرج الرسول غازيا يستخلف أحدا وراءه بالمدينة، وهي بداية نشأة السلطة السياسية في المجتمع الجديد أو الدولة، وكان الاستخلاف في البداية كإمام في إقامة الصلاة ليس إلا، لا توريثا لسلطة ولا توصية بخلافة، ولا تعيينا لثابت[4]. وكان

---

(١) حياة محمد ص١٤٧-١٤٩.

(٢) الوفا حـ١/ ٢٦٤، صعب ضم قسم المعجزات هنا مع قسم المعجزات في الشمائل في الفصل الثاني «شخص الرسول»، من الباب الخامس «تشخيص الرسالة»، هنا على نطاق ضيق بمناسبة غزوة بدر. وهناك على نطاق أوسع بمناسبة شخص الرسول ومع ذلك صعب تفادي التكرار هنا وهناك.

(٣) ابن خلدون ص١٢٩.

(٤) ابن هشام حـ١/ ٥٣٠، عمرو ابن أم كلثوم في غزوة بدر حـ١/ ٥٤٢- سباع بن عُرفطة الغفاري أو ابن أم مكتوم في غزوة بني سليم، بشير بن عبد المنذر في غزوة السويق، عثمان ابن عفان في غزوة ذي أمر، ابن أم كلثوم في غزوة الفزع حـ٢/ ٤١-٤٣، ابن أم مكتوم وعلى المدينة في أحد حـ٢/ ٥٨٨، ابن أم مكتوم على المدينة في بني النضيرحـ٢/ ١٦٥، أبو ذر الغفاري في غزوة ذات الرقاع حـ٢/ ١٧٦، عبد الله بن عبد الله ابن أبي سلول في غزوة بدر الآخرة حـ٢/ ١٨٠، سباع الغفاري في غزوة دومة الجندل حـ٢/ ١٨٤، ابن أم مكتوم في الخندق حـ٢/ ١٨٩، وفي بني قريظة، أبو ذر الغفاري في غزوة بني المصطلق حـ٢/ ٢٤٨، نحيلة ابن عبد الله الليثي في الذهاب إلى مكة معتمرا حـ٢/ ٢٦٣، نحيلة بن عبد الله الليثي في خيبر حـ٢/ ٢٧٩. ابن الاضبط في عمرة القضاء حـ٢/ ٣١٤، زيد بن حارثة في غزوة مؤتة حـ٢/ ٣١٦، أبو رحم في المدينة عند فتح مكة حـ٢/ ٣٣٨، عتاب بن أسيد في هوازن حـ٢/ ٣٧٣٧، وفي مكة بعد عمرة الرسول حـ٢/ ٤٢٤، ومعه معاذ بن جبل ليفقه الناس في الدين، ومحمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة، وربما سباع بن عرفطة في غزوة تبوك حـ٢/ ٤٤٠، أبو دجانة في حجة الوداع حـ٢/ ٥٠٧، عبقرية محمد ص٣٧-٨٤.

كل فريق يرفع لواء ذا لون خاص أو لواءين[1]. وكان للرسول لواءان. الأول مع علي، والثاني مع بعض الأنصار. ووظيفة اللواء الراية المرفوعة التي يتجمع الجيش حولها. وما دامت مرفوعة فإن حاملها أو بديله مازال يقاتل، وأن الجيش مازال يحارب، وأن المعركة مازالت مستمرة، وكان إذا قطعت يد حامل اللواء يمسكه بالثانية فإذا اقتطعت يحتضنه[2]. فإذا وقع من على فرسه حمل البديل. وكان على كل جيش قائد أو أكثر. فإن أصيب واحد بقي الثاني أو الثالث. وأحيانا يأمر الرسول بالقتل أو يعطي الإذن به أو يعفو بمفرده. فقد استأذن الخزرج الرسول في قتل ابن أبي حقيق الذي كان يحرض ضد المسلمين في الخندق. كما قتلت الأوس كعب بن الأشرف فأذن لهم نظرا للمنافسة بين الأوس والخزرج في خدمة الإسلام بعد أن كانت العداوة بينهما قبل الهجرة. فذهب إليه نفر من المسلمين وهو نائم. وأزاحوا امرأته بعد أن أحس بالشر وطعنوه بأسيافهم وهو نائم. وأنفذ فيه أحدهم السيف في بطنه وهو يقول حسبي حسبي، وأخبروا الرسول بموته وكل يدعيه. فطلب أسيافهم، وعرف أن من كان عليه أثر من طعام القتيل هو الذي قتله دون قتال أو مبارزة أو نزال كما تقتضي بذلك أعراف العرب[3]. ولقد أمر الرسول بمقتل اثنين من المشركين في أحد بعد أسر واحد منهم في بدر ثم العفو عنه حتى لا يخدع الرسول مرتين[4]. وهنا يستعمل الرسول أساليب القوة حتى لا يخدع أحد صاحب الرسالة الجديدة، كما أمّن الرسول مشركا على ألا يوجد بعد ثلاثة أيام. وتظاهر بالاختفاء فأمر الرسول بقتله حتى يعرف الناس صدق الرسول في وعده وأنه لا يقبل الخداع[5].

وكان الرسول يعتمد على الكيف دون الكم، على صدق الإيمان أكثر من كثرة العدد،

---

(1) دفع اللواء في بدر إلى مصعب بن عمير وكان أبيض، ابن هشام جـ1/ 542، لواء أحد لمصعب بن عمير جـ2/ 59.

(2) مثل غزوة مؤتة التي استعمل عليها الرسول زيد بن حارثة. فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب. فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، السابق جـ2/ 316.

(3) السابق جـ2/ 234-237.

(4) «والله لا تسمع عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدا مرتين. أضرب عنقه يا زبير»، «إن المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت»، السابق جـ2/ 90.

(5) السابق جـ2/ 90-91.

عشرون صابرون يغلبون مائتين، الواحد بعشرة. فاشتد الأمر على المسلمين فنزلت آية أخرى للتخفيف، مائة يغلبون مائتين واحد باثنين[1]. وهو ما يعرف باسم واقعية الإسلام. وكان الرسول يحرض المسلمين على القتال بوعدهم بالجنة في ثقافة لم تكن تعرف أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وأن هناك ثوابا وعقابا طبقا للأعمال في الدنيا. وحكم على أصيرم الذي أسلم يوم أحد، واستشهد في القتال بأن له الجنة[2]. فالوعد لا يتأخر حتى لو أتاه الإنسان متأخرا. الوعد في صالح الإنسان مهما كانت ظروفه في الدنيا في الاعتزام به مبكرا أو متأخرا.

وكان الرسول كثير الدعاء للمسلمين بالنصر[3]. فالدعاء تعبير عن رغبة حارة لتحقيق الفعل. هو قول يتحول إلى عمل. لذلك كان لا يكتفي بالدعاء بالنصر بل كان يشارك بنفسه في القتال[4]. كما رمى المشركين بالحصباء. وفي ذلك نزل القرآن[5]. بل إنه نفسه دخل بشخصه المعركة نصرا أو هزيمة. ففي أحد عز عليه أن يسيل الدم من وجهه فحّرض المسلمين على القتال لأنه لا يفلح قوم غضبوا وجه نبيهم، وكرر نفس الشيء مع زيادة غضب الله على من تركوا يغضبون وجه نبيهم وهو يمسح وجهه بالماء. وقد رد القرآن[6]. ومص أحد المسلمين دم رسول الله فأثنى عليه[7]. بأن من مس دمه دم الرسول فلن تصبه النار. فالنار لا تحرق شيئا من جسد الرسول. وهو تصور طبيعي لكمال النبوة.

---

(١) «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، ابن هشام حـ١/ ٥٥٤، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، حـ١/ ٥٩٤-٥٩٥، ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، حـ١/ ٥٩٤-٥٩٥.

(٢) «قال إنه لمن أهل الجنة»، السابق حـ٢/ ٧٩.

(٣) مثل «اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»، السابق حـ١/ ٥٥٣-٥٥٤.

(٤) ضرب الرسول ابن غزية في بطنه بالقدح، السابق حـ١/ ٥٥٣.

(٥) ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾، السابق حـ١/ ٥٨٨.

(٦) «كيف يفلح قوم غضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، السابق حـ٢/ ٧٠، «أشتد غضب الله على من دمّى وجه نبيه»، ابن هشام حـ٢/ ٧٥.

(٧) «من مس دمي دمه لم تصبه النار»، السابق حـ٢/ ٧١.

ومات شهيد آخر بعد أن وسد رأسه على قدم الرسول «أدنوه مني»، وتشجيعا للمقاتلين بشرهم الرسول بالشهادة، بل والشهادة الحاضرة. فالمقاتل هو شهيد يمشي أو مشروع شهيد[١]. ودافع مقاتلان آخران عن الرسول، وهو يشجعهم على الرمي[٢]. ولم يشأ الرسول أن يعلن أنه حتى في أحد بعد أن اعتقد المشركون أنهم أصابوه حتى يباغتهم[٣]. وقذف رأس الشرك بحربة في عنقه فقضى عليه. وكان قد تنبأ من قبل أنه قاتله[٤]. وكان الإيمان بالدين الجديد يصل إلى حد التشدد أحيانا. فقد وضع الرسول حارسين على معسكر المسلمين. أصيب أحدهم ولكنه لم يستنجد بأخيه لأنه كان يقرأ القرآن ولم يشأ قطع السورة[٥]. فالجهاد في الدين والجهاد في القتال جهاد واحد.

وكان الرسول يعامل أصحابه كما يعامل أسرته الأولى. ويوصي دائما بهم. وكان يكني أصحابه كما كنى عليا بأبي تراب عندما وجده نائما والتراب على رأسه[٦]. والكناية دليل على الألفة والصداقة والقرب[٧]. ويعتبر أصحابه من أهل البيت[٨]. وكان يرفض أن يفحش أحد أصحابه مع أي سائل للرسول[٩]. كان يعلمهم ويهذب آداءهم، كان الرسول بهم رحيما. ولو كان فظا أو غليظ القلب لانفضوا من حوله. يشاورهم في الأمر[١٠]. والرسول رفيق بالحيوان. فقد أتت امرأة أبي ذر للرسول على إحدى نوقه تريد نحرها لتدر عليها إذا ما نجت فتبسم الرسول، وسأل: كيف تكافأ الناقة الخير

---

(١) «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»، السابق حـ٢/ ٧١.
(٢) هما أبو دجانة وابن أبي وقاص، «إرم فداك أبي وأمي»، «إرم به»، السابق حـ٢/ ٧٢.
(٣) السابق حـ٢/ ٧٣.
(٤) هو أبي بن خلف «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، السابق حـ٢/ ٧٣-٧٥.
(٥) السابق حـ٢/ ١٨٠.
(٦) السابق حـ١/ ٥٣١-٥٣٢.
(٧) وهو ما يقال باللغة الشعبية «يدلّع».
(٨) «سلمان منا أهل البيت»، السابق حـ٢/ ١٩٣.
(٩) «أفحشت على الرجل»، السابق حـ١/ ٥٤٣.
(١٠) ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ، إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾، السابق، حـ٢/ ١٠٠.

بالشر، والنجاة بالذبح؟ فلا نذر في معصية ولا في ما لا يملك الناذر[1]. فالحيوان له قيمة مثل الإنسان، وله حقوق مثل الإنسان. وقد يشارك الإنسان في حقوقه مثل حق الحياة، وحق المعاملة الكريمة.

علامتان بارزتان في شخص القائد: المرأة والقتال. وفي نفس الوقت يمكن أن يقال نقيضاهما: الإنسان والعفو. فالمرأة في حياة البدوي جزء لا يتجزأ من حياته. طالما تغزل فيها وأنشد الكثير من القصائد بحيث أصبح الغزل نوعا أدبيا شائعا في الشعر العربي. والقتال والشجاعة أيضا في شخصية العربي. لذلك كان القتال أحد فنون الشعر العربي. الفارس فارس في ميدان قتاله، وفي عالم الغزل. والتركيز على الغزوات فقط تجعل الرسول محاربا. ويتبع الغزوات توزيع الغنائم وكأنها جزاء على الجهاد[2]. والتركيز على المرأة فقط تجعل الرسول عاشقا للنساء خاصة لو كان في بعض الروايات ما يوحي بذلك[3]. وهو ما يدعيه كتاب السيرة من المستشرقين.

٦- قواعد النزال

والحرب معارك شخصية بين اثنين، نزال بين مقاتلين، تعتمد على الشجاعة الفردية ليتحول المنتصر إلى بطل[4]. فالسيرة مرجع للقاتل والمقتول. وأحيانا يخرج القتال عن قواعد المبارزة الفردية بعد أن يكر اثنان على واحد[5]. والقتل حتى التقطيع إسراف في القتل. وألقيت جثث المشركين في القليب[6]. وناحت قريش على قتلاها[7]. وقد سأل

(١) السابق حـ٢/ ٢٤٤.

(٢) مختصر سيرة الرسول (٢) ص٣٦٤-٣٦٩.

(٣) وهو حديث «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة».

(٤) ابن هشام حـ٢/ ٧٢ مقتل الأسود المخزومي حـ١/ ٥٥٢. دعاء عتبه إلى المبارزة وقتله حـ١/ ٥٥٢.

(٥) قتل حمزة شيبه، وقتل علي الوليد. و تساويا عبيدة وعتبة.و كر علي و حمزة على عتبة فقتلاه. وهذا ضد مبدأ المبارزة الفردية،السابق حـ١/ ٥٥٢-٥٥٣، مقتل أمية بن خلف حـ١/٥٥٧، مقتل أبي جهل حـ١/ ٥٥٩-٥٦٢، مقتل النضر وعتبة حـ١/ ٥٦٨،قتال أبي عامر الفاسق حـ٢/ ٦٠،قتل علي لعمر بن عبدود حـ٢/ ١٩٣-١٩٤.

(٦) السابق حـ١/ ٥٦٤-٥٦٥.

(٧) السابق حـ١/ ٥٧١-٥٧٢.

الرسول في غزوة أحد من يأخذ سيفه بحقه وهو الشرب من دماء العدو حتى ينحني. فتقدم أبو دجانة وهو يتمختر به. وأبلى بلاء حسنا. وتوقف عندما اكتشف أن السيف يعلو امرأة لأن سيف الرسول لا يقتل امرأة[1]. وقتل حمزة من وحشي الحبشي برمح في ثنيته لاسترداد حريته[2]. وأسلم أمام الرسول ولم يستطع الرسول رؤيته ولا أحد من المسلمين. فهاجر إلى حدود الشام. فتوفى هناك في عهد عمر. مع أنه قتل مسيلمة الكذاب بنفس الطريقة وخلعه عمر من الديوان لأنه لم يستطع إعطاء قاتل عم الرسول. ولما سمع شيخان مسلمان ما حدث للرسول وهما بالمدينة لحقا به وقتلا واستشهد الأول، وقتل المسلمون الثاني وهم لا يعرفونه[3].

وكان الأفراد أبطالا. فأشراف قريش وسادتهم بأنفسهم غزوات وسرايا ومعارك[4]. فقد استنكر أحد المشركين خبر رسول الله بقتل أناس من المشركين أرسلها الرسول إلى المدينة بعد غزوة بدر. واستعظم قتل كل هؤلاء من أشراف العرب وسادتهم. وقام بالتحريض ضد الرسول، يبكي أصحاب القليب، وينشد الأشعار. وشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم حتى طلب الرسول من يقتله. فتآمر عليه بعض المسلمين، واستدرجوه في الحديث ونقدوا الرسول، وما فعله في تفريق العرب حتى اطمأن إليهم. وجاءوه مرة ثانية ليلا وأنزلوه وامرأته تحرضه من أن صوت النداء يحمل شرا. ومشوا به في الشعاب ساعات ثم انقضوا عليه بسيوفهم ثم بسكين في ثنيته بعد أن لم تقو السيوف عليه. ومظاهر القسوة أحيانا كثيرة[5]. وأصيب أحد المسلمين فتفل عليه الرسول فشفاه، واستشهد حاطب وكان غلاما ولكن أباه ظن أن المسلمين قد غرروا به[6]. وقتل قزمان منافقا كما تنبأ الرسول[7]. واستشهد آخر مع أنه كان أعرج ولا جهاد

---

(١) «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن»، السابق حـ٢/ ٥٩-٦٢، وقد كان الزبير بن العوام يريدها.

(٢) «ويحك، غيّب عن وجهي فلا أرينك»، السابق حـ٢/ ٦٢-٦٥.

(٣) الأول اليمان، والثاني ابن رقش، السابق حـ٢/ ٧٦-٧٧.

(٤) مثل كعب بن الأشرف ومقتله، السابق حـ٢/ ٤٧-٥٢.

(٥) السابق حـ٢/ ٧٧.

(٦) «إنه لمن أهل النار»، السابق حـ٢/ ٧٧.

(٧) هو عمرو بن الجموح وقول الرسول «أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك»، «ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة»، السابق حـ٢/ ٧٩.

عليه[1]. وكانت الحرب بدائية في ذلك الوقت، فردا لفرد، أو جماعة لجماعة بالمواجهة المباشرة، بالسيف والدرع. تعتمد على القوة الفعلية وعلى المهارة الشخصية. تقوم على قطع الطريق[2]. لذلك تسمى حروب النبي «غزوات» وليست معارك. وفي الفتوح في عصر الخلافة تطورت الغزوات إلى حروب مع الفرس والروم نظرا لتطور أساليب القتال لديهم وآلاته مثل المنجنيق. وتبدأ الغزوات بمبارزات فردية[3]. كان عليّ بطلها. وتاريخ المعارك هو تاريخ مقتل الأفراد[4]. وأحيانا يقتل الابن الأب في سبيل الله[5]. ويتدخل الثأر أحيانا مع الحمية الدينية. فالجاهلية مازالت قريبة تتداخل مع الإسلام

---

(1) تشبيب كعب بنساء المسلمين والحيلة في قتله حـ٤/ ٤٩، الرسول يحل دم هبار حـ١/ ٥٧٩، من قتل ببدر من المشركين حـ١/ ٦٢٣-٦٢٩، ابن خلدون ص١٢٢/ ١٤٥.

(2) كان عدد إبل المسلمين في بدر سبعين بعيرا، ابن هشام حـ١/ ٥٤٢، وكانوا في أحد سبعمائة رجل، والمشركون ثلاثة آلاف، حـ٢/ ٥٩، وفي الخندق كان المشركون عشرة آلاف والمسلمون ثلاثة آلاف، حـ٢/ ١٨٩، وفي الذهاب إلى مكة معتمرا كان مع الرسول سبعون بدنة والناس سبعمائة رجل، وكانت قريش أربع عشرة مائة أي الضعف، حـ٢/ ٢٦٤، غزوة مؤتة ثلاثة آلاف، حـ٢/ ٣١٦، دخل الرسول مكة مع عشرة آلاف، حـ٢/ ٣٥٦، وفي هوازن اثنا عشر ألفا، حـ٢/ ٣٧٣.

(3) مقتل مرحب اليهودي، السابق حـ٢/ ٢٨٢-٢٨٤. مقتل ياسر أخي مرحب، حـ٢/ ٢٨٤، مقتل غلام رفاعة الذي أهداه الرسول، حـ٢/ ٢٨٧.

(4) مقتل الأسود المخزومي، السابق حـ١/ ٥٥٢، مهجع دابر سراقة حـ٢/ ٥٥٤، أمية بن خلف حـ٢/ ٥٥٧، أبو جهل حـ١/ ٥٥٩-٥٦٠، النضر وعتبه حـ١/ ٥٦٨، حمزة حـ٢/ ٦٢، قتل وحشي لمسيلمة حـ٢/ ٦٤،مصعب بن عمير حـ٢/ ٦٥، أبي بن خلف حـ٢/ ٧٣، اليمان وابن وقش حـ٢/ ٧٦، حاطب حـ٢/ ٧٧، قزمان حـ٢/ ٧٧، مخيرق حـ٢/ ٧٧، عمرو بن الجموح حـ٢/ ٧٩، القتلى بأحد حـ٢/ ٨٢، أبو عزة ومعاوية بن المغيرة حـ٢/ ٩٠، مصير قتلى أحد حـ٢/ ١٠٢، من استشهد بأحد من المهاجرين حـ٢/ ١٠٤-١٠٩، من قتل من المشركين يوم أحد حـ٢/ ١٠٩-١١١، مرثد وابن الكبير وعاصم حـ٢/ ٢٤٧، ابن طارق حـ٢/ ١٤٨، ابن الدثنة حـ٢/ ١٤٩، حبيب حـ٢/ ٢٤٩، قتل العامريين حـ٢/ ١٦٠، ابن الورقاء حـ٢/ ١٦٢، قتل علي لعمر بن عبد حـ٢/ ١٩٣، قاتل سعد حـ٢/ ١٩٦، مقتل بن قريظة حـ٢/ ٢٠٥، ابن أقطب حـ٢/ ٢٠٦، قتل من نسائهم امرأة واحدة حـ٢/ ٢٠٧، قتلى المشركين حـ٢/ ٢١٦، إسلام بن أبي الحقيق حـ٢/ ٢٣٤، القتلى من المشركين حـ٢/ ٢٤٣، موت ابن حبابة حـ٢/ ٢٤٨، قتلى بني المصطلق حـ٢/ ٢١٢، مرحب اليهودي حـ٢/ ٢٨٢، ياسر أخو مرحب حـ٢/ ٢٨٤، غلام رفاعة حـ٢/ ٢٨٧، ابن السهيل حـ٢/ ٣٠٠، ابن حارثة حـ٢/ ٣٢٠، أول قنديل يوم الفتح حـ٢/ ٣٥٢، دريد بن الصحم حـ٢/ ٣٨٣، أبو عامر الأشعري حـ٢/ ٣٨٥، نهي الرسول عن قتل الضعفاء حـ٢/ ٣٨٧، ابن الأضبط حـ٢/ ٥٢٧، أبو سفيان حـ٢/ ٥٣٢، بكري حـ٢/ ٥٣٣، ابن عمير حـ٢/ ٥٣٤، قتل اليمبليين حـ٢/ ٥٣٨.

(5) ابن خلدون ص١٤٨.

في وعي العرب المقاتلين. لم تختف تماما حتى عصر الخلافة. وتتدخل القرابة في القتل، الابن والأب إيجابا أم سلبا[١]. أحيانا يتغلب الدين الجديد عليها، وأحيانا تبقى عاملا مؤثرا مع الدين الجديد[٢]. وقد قتل أبو عامر الأشعري تسعة من المشركين، واحدًا تلو الآخر، وفلت منه العاشر[٣]. وسماه الرسول «هذا شر يد بني عامر».

وقتل مصعب بن عمير دفاعا عن الرسول الذي أعطى الراية لعلي ليقاتل دفاعا عنه. وطلب منه الرسول رفع الراية وتقدم صاحب لواء المشركين طالبا المبارزة، فتقدم علي وصرعه ولم يجهز عليه لأنه استقبله بعورته[٤]. وخرج آخر متحديا المسلمين الذين يزعمون أن قتلاهم في الجنة وأن قتلى المشركين في النار ومقسما باللات. فخرج إليه علي فصرعه. وكان أحد المسلمين حريصا على قتل من اعتدى على الرسول[٥]. واستمات المسلمون في الدفاع عن الرسول، أخ يحمل أخاه الجريح من أجل التوجه إلى القتال[٦]. ويذكر من استشهد بأحد من المهاجرين ومن قتل من المشركين، من قتل من، وكأن المعركة شخصية بين اثنين، وما قيل في الاثنين من أشعار[٧]. ومعظم غزوة أحد مبارزات بين أفراد، وقتل فرد آخر، واحد من المشركين بواحد من المسلمين، حاملين اللواءات، وكأنها معارك شخصية أو بطولات فردية، طمع في الشهادة من المسلم، ودفاع عن

---

(١) قتل محمد بن سلمه مرحب اليهودي لأن أخاه قتل بالأمس، ابن هشام حـ٢/ ١٨٣.

(٢) خرج الزبير بن العوام إلى ياسر لمبارزته واعترضت صنعة بنت عبد المطلب «يقتل ابني يا رسول الله» فقال «بل ابنك يقتله إن شاء الله»، السابق حـ٢/ ٢٨٤.

(٣) السابق حـ٢/ ٣٨٧.

(٤) وفعل ذلك علي يوم صفين، وقتل عاصم بن ثابت مسافح بن طلحة وأخاه الجلاس. وقتل حمزة عثمان بن طلحة حامل لواء المشركين، وشجاعة الزبير وبطول صؤاب، ورفعت عمرة الحارثية اللواء، وجهاد أم سعد، وبلاء ابن السكن يوم أحد، وإنشاد حسان الشعر في عتبة، ودفاع أبي دجانة وابن أبي وقاص عن الرسول، وبلاء قتادة، واستشهاد أنس بن النضر، وجراحات ابن عوف، وحرص ابن أبي وقاص على قتل عتبة، وقتال عمر المشركين وهم يصعدون الجبل خلف المسلمين في أحد، ومعاونة طلحة الرسول حين وقع، واستشهاد اليمان وابن وقش، ومقتل حاطب، ومخيرق من اليهود الذين أسلموا، وأصيرم، عمرو بن الجموح، ابن هشام حـ٢/ ٦٥-٩١.

(٥) هو ابن أبي وقاص وحرصه على قتل عتبة السابق حـ٢/ ٧٥.

(٦) السابق حـ٢/ ٨٨.

(٧) السابق حـ٢/ ١٠٤-١٤٦.

سيادة قريش وشرفها من المشرك[1]. والجسد له ضرورته. فقد طلب الرسول من أحد أصحابه اليقظة للحراسة لعل القوم ينام. فتطوع بلال. ثم أخذه النوم حتى الصبح فلما استجوبه الرسول قال إن الذي أنام الرسول هو الذي أنامه، وأمر بالصلاة بعد أن فات وقتها[2]. وفي نفس الوقت يظهر الرسول احتراما كبيرا للجسد، وأنه ليس للتبادل ولا للبيع. فقد عرض المشركون على الرسول شراء جسد نوفل بعد قتله في الخندق فرفض الرسول «لا حاجة لنا في جسده ولا بثمنه»[3].

كانت الشهادة مطمع المقاتل ينالها في الدنيا قبل الآخرة[4]. وهو ما كان يدفع إلى القتال والشجاعة في الميدان، والسباق في المبارزة، والمنافسة عليها. وقد ظن أحد المقاتلين أن الرسول قد قتل في أحد. فقام وقاتل. واستشهد. فماذا يصنع بالحياة بعد موت الرسول؟[5]. كان حضور الرسول وسط المعركة عاملا محفزا للمسلمين على القتال للدفاع عن النبي وحمايته. ومن يبلي بلاء حسنا أو يُعذّب في موته يكون له أجر شهيدين[6]. فالشهادة على درجات طبقا لطريقتها ومدى معاناة الشهيد فيها من أجل التشجيع على الشهادة وعدم الخوف منها حتى لو حفتها المكاره والصعاب. وقد سجى قتيل أبي قتادة في بردته فظن الناس أنه هو. فنبه الرسول أن هو قتيله[7]. فالمعركة شخصية، والموت فردي، القاتل والمقتول. ولا يوجد شيء اسمه «الجندي المجهول» كما هو الحال في العصر الحاضر. وتتلخص غزوة بني المصطلق في قتل على رجلين وعبد الرحمن بن عوف رجلا منهم[8]. فالغزوات تبدأ بقتل أفراد أو انتقاما لأفراد أو بسبب أفراد.

---

(1) ومن المشركين مقتل أبي بن خلف، والمجذر، هند وتمثيلها مع أبي سفيان بحمزة أبو عزة، معاوية بن المغيرة، ومن المنافقين قزمان، والحارث بن سويد، شماته عبد الله بن أبي.

(2) «إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها. فإن الله تبارك وتعالى يقول ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»، ابن هشام حـ٢/ ٢٨٩.

(3) السابق حـ٢/ ٢١٦.

(4) «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»، السابق حـ٢/ ٧١ .

(5) هو أنس بن النضر ، ووجد بجسده سبعون ضربة، السابق حـ٢/ ٧٣.

(6) هو خلاد بن سويد عندما طرحت عليه الوحي، السابق حـ٢/ ٢١٧.

(7) «ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة وضع عليه بردة لتعرفوا أنه صاحبه»، السابق حـ٢/ ٢٤٣.

(8) السابق حـ٢/ ٢٥٢.

وقد يخرج أحد على آداب القتال وأعرافه. فقد جاء مسلم من مكة إلى الرسول بالمدينة طالبا دية أخيه الذي قتل خطأ. فأمر له الرسول بدية أخيه. وبعد مدة قتل قاتل أخيه وعاد إلى مكة مرتدا[1]. فالمصلحة الشخصية هنا تتغلب على الأعراف والعادات والتقاليد القبلية. ونهى الرسول عن قتل الضعفاء بعد أن رأى امرأة مسجاة قتلها خالد ابن الوليد والناس مزدحمون عليها بالرغم من اشتراك المرأة في الحرب اشتراكا فعليا أو تحريضها على الحرب كما فعلت هند لقتل حمزة عم الرسول[2]. وفي نفس الوقت الذي أمر فيه بالإمساك برجل من بني سعد فإنه يعفي عن الشيماء أخته في الرضاعة بعد أن عنفوها في الطريق. ورأى الرسول علامة ذلك عضته في ظهره وهي حاملة له على وركها. وخيرها الرسول بين أن تبقى معه معززة مكرمة أو أن تعود إلى أهلها فاختارت العودة إلى أهلها[3]. فالأخت في الرضاعة قيمة أعلى من الخلاف الديني. والنزعة الإنسانية تجب الخلاف العقائدي. فالإنسان إنسان وإن اختلفت عقائده مع إنسان آخر.

وقتل عامريان وهما في جور الرسول ومعهما عقد لم يعلم به القاتل حين نزلا. أمهلهما ليلا حتى إذا ناما انقض عليهما ظانا أنه ثأر من بني عامر بمن أصابوا من أصحاب الرسول. فحزن الرسول[4]. وكان كارها ومتخوفا من هذا العمل. فالعهد والجوار يعطيان الأمان بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف في العقائد أو حتى في ميادين القتال. وكان العهد والجوار قيمتين كبيرتين في الحياة العربية. وكان نقض العهد والنيل من الجوار أحد أسباب الحروب بين القبائل. وكان الرسول يحزن لنقض العهود ولا يبلغ به المسلمين حتى لا يفش ذلك في عضدهم، ويفرح لبقائه، ويبشر به المسلمين[5]. كانا

---

(١) هو مقيس بن صبابة، السابق حـ٢/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢) «أدرك خالدا فقل له، إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا (أجيرا)»، السابق حـ٢/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٣) «إن قدرتم على بجاد، رجل من بني سعد بن بكر فلا»، «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا»، بهجة المحافل ص٢٤٦.

(٤) وقال «لقد قتلت قتيلين لأدينهما»، «هذا عمل أبي براء. قد كنت لهذا كارها متخوفا»، ابن هشام حـ٢/ ١٦١.

(٥) نقض حيي بن أخطب على نقض عهد الرسول، السابق حـ٢/ ١٩٠-١٩١.

ميثاق شرف عربي، من إنسان لإنسان بصرف النظر عن موقفه الاجتماعي أو السياسي أو الديني أو القانوني. وبقدر ما كان الرسول يأمر بالقتل كان يعطي الأمان والجوار. وإذا طلب المستجير أمان شهرين أعطاه الرسول أربعة[1]. وإذا اقتتل مسلم ومشرك وأراد مشرك أن يعين صاحبه على المسلم فضربه المسلم وقطع يده فأمسك به باليد الأخرى ولولا ضعفه من نزيف الدم لقتله، فقتله المسلم. وهو مسلم من مكة فسلبه بالرغم من قول الرسول، «من قتل قتيلا فله سلبه». وأمر برد السلب إلى القاتل[2].

وبعث الرسول نفرا من أصحابه لتعليم أهل نجد الإسلام بناء على طلب أحد المؤلفة قلوبهم، مشرك متعاطف مع الإسلام. ثم غدر بهم بعد أن لم ينفع استصراخهم بالجيرة[3]. ولم يعرف المؤلفة قلوبهم أن الإسلام دين وفاء وكلمة شرف وعهد وجيرة. وكانت قلوبهم أقرب إلى الشرك منهم إلى الإيمان، لذلك ألغى عمر نصيبهم من بيت المال عندما قوي الإسلام ولم يعد ضعيفا.

وقد عم المسلمين الخوف من ظهور نفاق المنافقين. فقد قال أحدهم إن الرسول يعدهم بأن يأكلوا من كنوز كسرى وقيصر وهو لا يأمن الذهاب إلى الغائط[4]. وخلط بين العاجل والآجل، بين اليوم والغد، بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة، وأراد الرسول الصلح مع غطفان. رأى شدتها في رمي النبال وأراد التخفيف على المسلمين، ورأى العرب قد رموهم عن قوس واحدة، ثم عاتبه المسلمون وفضلوا الجهاد. أراد الرسول إعطاء المسلمين الرخصة وهم آثروا العزيمة. أبرز الرسول لهم الواقع وأرادوا التمسك بالمثال[5].

ويتدخل في الغزوات الثأر بين القبائل والتحالفات والمعاهدات. ويقتل الأبرياء أخذا بالثأر كما قتل غلام بدم في قريش[6]. وبعد ظهور الإسلام أصبحت قضايا

---

(١) مثل أمان الرسول لصفوان بن أمية، السابق حـ٢/ ٣٥٣.

(٢) أي بالمعنى الشعبي «موت وخراب ديار»، السابق حـ٢/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٣) السابق حـ٢/ ١٥٩-١٦١.

(٤) هو معتب بن قشير، السابق حـ٢/ ١٩١.

(٥) السابق حـ٢/ ١٩٢.

(٦) السابق حـ١/ ٥٤٠-٥٤١، ابن خلدون ص١٦٧.

صغرى. ودخلت في القضية الكبرى دون أن تختفي تماما. ومنع الرسول في غزوة بدر قتل ناس من المشركين من بني هاشم والعباس. فالقرابة مازالت حاضرة. ربما لطمع في إسلامهم. في حين أراد عمر قتل الجميع بلا استثناء، مشركا كان أم منافقا[1]. وبغض قريش مقياس القتال. فقد قتل رجل كان يبغض قريشا[2].

والقتل من القاتل أو المقتول فن إبداعي. ففي مقتل دريد بن الصحبة لما ضرب بالسيف ولم يمت نصح قاتله بأن يأخذ سيفه ويرفع عن العظام ويخفض عن الدماغ ويضرب ضربة الرجال ثم إخبار أمه حتى لا تمنع عنه نساءه. فإتيان النساء دليل على الرجولة. فلما وقع كانت بطون فخذيه مثل القرطاس عند ركوب الخيل بيضاء. وأخبرته أمه أن المقتول قد أعتق أمهات ثلاثا له[3]. واستمر القتل بين القبائل وكأن حمية الجاهلية لم تهدأ بعد[4]. وقد لاحظ القرآن ما يحدث في دوافع لقتال أحيانا من ثأر وغل وتمثل مما ينافي آداب النزال. فنبه عليه[5]. فالنبي عربي يمارس عادات العرب في القتال.

ومنظر الأسير ويداه إلى عنقه يثير النفس بصرف النظر عن الإيمان والشرك، من ربط من، ومن أسر من. فقد قامت امرأة من المؤمنين تخاطب أحد الأسارى أنه كان من الأفضل له أن يموت كريما من أن يعود أسيرا[6]. وهذا لا يمنع من الاستوصاء بالأسير خيرا[7]. فالأسير أسير حتى لو حسنت معاملته. فلا يوجد ما يعوض عن الحرية. وكان فداء الأسرى عند العرب طريقة تجارية لكسب المال وزيادة الدخل، الحرية في مقابل المال[8]. ويرفض الرسول التمثيل بالأسرى أو تعذيبهم، كسر أسنانه أو قطع لسانه حتى

---

(١) ابن هشام حـ١/ ٥٥٥-٥٥٦.

(٢) «أبعده الله فإنه كان يبغض قريشا»، السابق حـ٢/ ٣٨١.

(٣) السابق حـ٢/ ٣٨٣-٣٨٤.

(٤) «واستمر القتل من بني نصر في بني رئاب»، السابق حـ٢/ ٣٨٥.

(٥) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، السابق حـ٢/ ١٠٠-١٠١.

(٦) قال لها الرسول «ياسودة أعلى الله ورسوله تحرضين؟»، السابق حـ١/ ٥٦٩.

(٧) قول الرسول «استوصوا بالأسارى خيرا»، السابق حـ١/ ٥٦٩.

(٨) قول الرسول «إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال وكأنكم به قد جاءكم في طلب فداء أبيه»، السابق حـ١/ ٥٧٢.

لا يهجو الرسول. فمن يمثل بأحد يمثّل به[1]. ولربما أصبح من يهجو من يمدح في ثقافة يسهل فيها التكسب بالشعر[2].

٧- نزول القرآن

نزلت كثير من آيات القرآن بل سور بأكملها في فترة انتشار الإسلام وبمناسبة الغزوات والوقائع الجديدة التي ظهرت للمسلمين بمناسبة الحروب الداخلية والخارجية. وقد كانت غزوة بدر مناسبة لحدوث وقائع جديدة استدعت نزول آيات من القرآن مثل كيفية تقسيم الأنفال، واختلاف المسلمين فيه، وحكم الرسول بتقسيمه بالتساوي بين الجامعين والمقاتلين[3].

أ- توزيع الأسلاب

نزل القرآن لتسوية موضوع الأسرى والمغانم. وقد خُص الرسول بخمس لم يؤتهن نبي قبله، نصر بالرعب، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا، وأعطي جوامع الكلم، وأحلت له المغانم، وأعطيت له الشفاعة[4].

الأرض للصلاة، والنصر على الأعداء وأخذ الأسلاب للمكاسب، وحسن الكلام للتأثير، والشفاعة يوم الحساب. وافتدى الرسول جل أسرى قريش أثناء إقامته في غزوة بني سليم[5]. فالأسر ليس في ذاته بل لمنع الأسرى من الاشتراك في الحرب من جديد، وتطويع إرادتهم، وجعلهم أقرب إلى الإسلام إن لم يكن سلما فحربا.

---

(١) «لا أمثل به فيُمثل بي وإن كنت نبيا»، السابق حـ١/ ٥٧٢.

(٢) «إنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه»، السابق حـ١/ ٥٧٣.

(٣) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، السابق حـ١/ ٥٨٧.

(٤) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، السابق حـ١/ ٥٩٥.

(٥) السابق حـ٢/ ٤١، مختصر سيرة (١) ص٢٣-٢٤.

واختلف المسلمون في تقسيم الغنائم كعادة القبائل العربية بين من جمعها ومن قاتل. فلم يكن الجهاد فقط هو الدافع. وهو سبب هزيمتهم في أحد عندما ترك النبالون مواقعهم لحماية ظهر المسلمين للإسراع في الاستيلاء على الغنائم. فقسمها الرسول بينهم على السواء[١].

وقد نزل القرآن بتقسيم الفيء[٢]. فبعد الخمس لله والرسول يأتي ذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، أقرباء وغرباء، وقسم الفيء بين المسلمين في غزوة ذي قَرد[٣]. ولما أصاب سهم طائش غلام الرسول، هدية له من أحد أصحابه، وظن الناس أنه شهيد في الجنة أبلغهم الرسول أنه في النار يحترق عليه كساؤه الغليظ الذي أخذه من فيء المسلمين يوم خيبر. ثم اعترف واحد من المسلمين أنه أصاب شراكين لنعلين. وأخبره الرسول أنه يقد له مثلهما في النار. وتعني النار هنا أخذ الشيء بدون وجه حق حتى لو كان سلبا لأن تقسيم السلب يخضع لقانون المساواة. وحمل أحد المسلمين فيئة جراب شحم فوق كتفه إلى رحاله. فجاذبه صاحب المغانم ظانا أنه ليس فيئاله. وضحك الرسول لحرص واحد على حقه، وآخر على أداء واجبه[٤].

وقد اعترضت النساء على عدم القسمة لهن في الفيء. فرضخ لهن الرسول وأعطاهن النصف. فاعترضت امرأة بأنها تقاتل مثل الرجال، تسير إلى الحرب، وتداوي الجرحى، وتعين المسلمين قدر المستطاع. فأعطاها سهما «على بركة الله». ورأى ما عليها من دماء نفاس فطلب منها التطهر والعودة إلى الركاب. وأعطاها قلادة من فيء خيبر ظلت معها إلى وفاتها، ودفنت معها[٥]. ويعني اعتراض النساء أن واقع المرأة قد تغير. وأصبحت

---

(١) السابق جـ١/ ٥٦٦-٥٦٧.

(٢) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، السابق جـ١/ ٥٩٢.

(٣) السابق جـ٢/ ٢٤٤.

(٤) السابق جـ٢/ ٢٨٨.

(٥) السابق جـ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

تطالب بحقها مثل الرجل وكما يحدث الآن في الحركة النسوية. وعهد الرسول إلى نسائه بنصيبهن من المغانم كتابة من عباس وشهادة من عثمان[1]. فقد تطور وضع المرأة الآن في السلم وفي الحرب. وأصبح لديها نفس الحقوق وعليها نفس الواجبات التي للرجل.

وقد سمى الرسول نفرا من الداريين. وأوصى لهم بنصيب من خيبر. ثم قتل أحد المسلمين. وأنكر اليهود أنهم قتلوه. ولا يعلمون من قتله، وطغوا على ذلك خمسين يمينا. فأعطى الرسول أهل القتيل مائة ناقة من عنده لهم[2]. فليست الأسلاب طريقا واحدًا من الخصوم إلى المسلمين بل قد تكون فداء للمسلمين إلى أهله، لم يقتل ظلما أو خطأ. ليست دائما أخذا بل قد تكون عطاء.

وقد صالح الرسول أهل فدك. وفي خيبر قُذف في قلوبهم الرعب. فطلبوا الصلح مناصفة. فقبل الرسول. وكانت فدك للرسول وحده لأنه لم يستول عليها بخيل ولا ركاب[3]. فالصلح سلب عن طيب خاطر، سلما لا حربا. ويمكن المساومة في المقدار كعادة اليهود والعرب. وبعض السلب قد يكون خالصا للرسول وحده لأنه استولى عليه سلما. والحقيقة أن قوة الردع التي أصابت العدو اشترك في صنعها كل المسلمين، مقاتلين وغير مقاتلين. فسلب الرسول بفضل الجماعة وباسم المسلمين. ويخشى أن يسبب حجز السلب خاصا بالرسول على الأمد الطويل وبعد وفاته حسدا من باقي المقاتلين، وأن تكون مصدر ثروة رئيسيًّا للخليفة أو إرثا شخصيا له.

وكان بلال قد أخذ يهوديتين ليمر بهما على زوجيهما القتلى. فصاحت إحداهما ونثرت على وجهها التراب. فطلب الرسول إبعاد هذه الشيطانة. وألقى على صفية رداءه اصطفاء لها لنفسه. وعذر بلال كيف يمر بامرأتين على زوجيهما لقتيلين؟[4]. وبنفس المنطق كيف تقبل صفية أن تكون سبية لقائد جيوش من قتل زوجها؟ عدم إمرار الزوجة على زوجها موقف إنساني مهما كانت الهزيمة وكانت الأسلاب، ولكن رمي الرداء على

---

(١) فاطمة، أسامة بن زيد، مقداد بن الأسود، أم رميثة، السابق حـ٢/ ٢٩٩.

(٢) السابق حـ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

(٣) السابق حـ٢/ ٢٩٩-٣٠٠.

(٤) «أنزعت منك الرحمة يا بلال. كيف تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»، السابق حـ٢/ ٢٨٥.

زوجة أخرى وزوجها قتيل لم يوار التراب بعد هو أمر أيضا فيه عجلة. فهي أيضا حزينة على زوجها القتيل، وتحتاج حتى طبقا للشريعة في الدين الجديد أربعة أشهر عدة ليس فقط للاطمئنان على أنها ليست حاملا، بل أيضا حتى تخف مشاعر الحزن على الزوج القتيل، وتبدأ مشاعر الفرح بالزوج الجديد الذي هو سيدها ومالكها بعد أن أصبحت جزءا من أسلابه ودون استشارتها وأخذ رأيها حتى ولو كان قائد جيوش المسلمين.

ب- نصر المؤمنين

وقد نزل القرآن في فتية أسلموا بمكة، وحبسهم أهليهم لعدم الهجرة إلى المدينة، وفتنوهم عن دينهم، ثم أصيبوا جميعا مع قومهم في بدر[1]. فالهجرة قانون طبيعي من الاضطهاد إلى التحرر، ومن الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن الهزيمة إلى النصر. ولا يستطيع أحد منعها حتى لو كان في ذلك عصيان الوالدين.

كما نزل القرآن في الاستفتاح[2]. كل شيء بأدائه، في وقته وزمانه، والنتيجة بعد المقدمة، والحصاد بعد الغرس، ولا يمكن القفز فوق المراحل. ونزل القرآن فيمن عاونوا أبا سفيان بالمال أو بالسلاح أو بالقول[3]. فمعاونة المشرك شرك. ليس الإيمان فقط فعلا فرديا بل هو فعل جماعي، مساعدة المؤمنين، ومعاداة المشركين

ونزل القرآن في تبشير المسلمين بالمساعدة وبالنصر وتحريضهم على القتال كنوع من

---

(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، السابق حـ١/ ٥٦٦.

(٢) ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق حـ١/ ٥٨٩. ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، السابق حـ١/ ٥٩٠.

(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ، لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾، السابق حـ١/ ٥٩١.

المساهمة في المعركة في جانبها المعنوي من أجل الثقة بالنفس، والثقة بالنصر، وتحريضهم على الجهاد، وعدم اليأس من صعوبة المعركة أو الإحباط من عداوة المشركين وتآمر بعض المسلمين[1]. وحض القرآن المسلمين على طاعة الرسول[2]. فالرسول صادق في وعده في العاجل وفي الآجل. والسماع بالفعل وليس مجرد بالأذن، بالتصديق وليس بمجرد القول، وقد نزل القرآن في ذكر نعمة الله على الرسول[3]. ومهما كانت عداوة المشركين وتآمر المنافقين فإن المسلمين غالبون على أمرهم، والشرك والنفاق دائما خاسران.

وقد نزل القرآن لوعظ المسلمين وتعليمهم خطط الحرب: الثبات في القتال، تشتيت العدو، الإعداد للقوة، والاستعداد للسلم[4]. ويتطلب ذلك الثبات أمام العدو، وعدم التنازع، وعدم الرياء والتفاخر بالحرب. فالحرب ليست غاية بل وسيلة. فإن طلب

(١) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، السابق جـ١/ ٥٨٨.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، السابق جـ١/ ٥٨٩.

(٣) ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، السابق جـ١/ ٥٨٩.

(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ، وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾، السابق جـ١/ ٥٩٣. ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ، وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ، وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ، وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، السابق جـ١/ ٥٩٣.

الخصم الصلح فالصلح واجب. ولا ينخدع المسلمون بخطط الأعداء. فقد ألف الله بين قلوبهم[١]. ليس على مصلحة أو هوى بل على مبدأ وقضية. لذلك تظل الألفة قائمة لأنها لا تتغير بتغير الأهواء والمصالح. وزاد عدد المتحولين إلى الإسلام بعد غزوة بدر. فقد عرف المشركون أن الإسلام قادر سلما أم حربا على الانتشار سرا أو علنا، وعلى الانتصار عاجلا أم آجلا[٢]. فالحرب كانت وسيلة للمسلم وليست غاية في ذاتها. ومع ذلك استمرت الغزوات بعد بدر. فقد كانت بدر أول الحروب وليست آخرها. ولم تعقد معاهدة سلام بين المسلمين والمشركين[٣].

جـ- هزيمة المسلمين

وقد كان البادئ في غزوة أحد المشركون انتقاما لما حدث لهم في بدر، فقاموا بالتحريض على غزو الرسول[٤]. وقد نزل القرآن في ذلك[٥]. واجتمعت قريش للحرب. وانضم إليهم من مَن الرسول عليهم في بدر طمعا في أن يكون عتيقا إن قتل حمزة عم الرسول. فالقتل عتقا للحرية. وخرجت قريش مع نسائها دون استشارتهم بل تضامنا مع أزواجهن وقبيلتهن. وطلبت هند بنت عتبة من وحشي عبدها نفس الشيء، قتل حمزة عم الرسول ثمن حريته، وكان حبشيا يحسن رمي الرمح[٦]. واستشار الرسول

---

(١) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، السابق حـ١/ ٥٩٤.

(٢) إسلام عَمير بن دهب بعد أن حرضه صفوان على قتل الرسول بسيف قاطع مسموم بعد أن أخبره الرسول بما بيت بينه وبين صفوان، السابق حـ١/ ٥٨٢-٥٨٤.

(٣) وهو ما يقال حاليا إن حرب أكتوبر آخر الحروب بعدها عقدت معاهدة الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل.

(٤) «إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا»، ابن هشام جـ٢/ ٥٤٥، البستي جـ١/ ٢١٨-٢٣١، جـ٢/ ٢١٨-٢٣٠، ابن خلدون ص١٢٨-١٣٧.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، ابن هشام حـ٢/ ٥٤، غزوة أحد، الإشارة ص٢٣٠-٢٥٨، الفصول ص١١٣-١٣٤، بهجة المحافل ص١٦٢-١٦٨، نور اليقين ص١٠٢-١٠٨، مختصر سيرة (١) ص١٠٩-١١٣، مختصر سيرة (٢) ص٢٥٦٢٥٤.

(٦) غزوة حمراء الأسد الفصول ص١٣٤-١٣٥، بعث الرجيع ص١٣٥-١٣٨، بعث بئر معونة ص١٣٨-١٤٢، سيرة النبي ص٢٧٧-٢٨٥، السيرة الحلبية حـ٢/ ٢٩٤-٣٤٨، حياة محمد ص٢٤٠-٢٥٢، الأسوة الحسنة حـ١/ ٣٢٩-٣٨٢/ ٣٣٤-٣٨٢، سيد الأنام ص١٨٨-١٩٦، معجزة محمد حـ٢/ ٥-٥٠، سيرة

أصحابه. كان من رأيه البقاء في المدينة، وترك المشركين يأتون إليه ليقاتلهم على أرضه. وكان الرسول وبعض الصحابة يكرهون الخروج. ورأى آخرون ممن فاتهم بدر يريدون الاستشهاد، الخروج للقاء المشركين، ربما تعويضا عما نقصهم، وإثباتا لشجاعتهم. ودافع أنصار الرأي الأول بالتجارب السابقة التي أثبتت نصر المؤمنين داخل المدينة وهزيمتهم خارجها، وأن بالداخل يشارك الأطفال والنساء والشيوخ كل حسب قدراته، ويكون العدو حبيسا لا يستطيع الفرار. ولما تكاثر أنصار الرأي الثاني على الرسول دخل منزله، ولبس لامته، وخرج للناس. فخشي الناس أن يكونوا قد استكرهوا الرسول على شيء لم يرده. فاستمر على قراره بناء على رأيهم[1]. مع أن مراجعة الرأي بعد المشورة لا حرج فيها. وتراجع المنافقون مع ثلث الناس[2]. ورفض الرسول اقتراح الاستعانة بحلفائهم من اليهود. وكان أبو سفيان يحرض قريشا ضد الرسول انتقاما لما حدث لهم في بدر وكذلك هند والنسوة معها[3]. وأثناء سلوك الرسول حائط أعمى منافق ابتعادا عن طريق قريش ظل يقذفهم بالتراب لمنع الرسول من دخول حائطه. وأراد قذف الرسول في وجهه فهم أصحابه بقتله فمنعهم الرسول لأنه أعمى القلب وأعمى البصر، وضُرب فقط بالقوس فشجت رأسه[4]. وضرب أعمى لا يستطيع الدفاع عن نفسه مما لا تجيزه آداب الحرب. أما إذا شارك الأعمى في أعمال حربية كالتجسس أو القتال أو الغدر فإنه يعتبر محاربا. وقتل أحد المنافقين اثنين من المسلمين في أحد، وهرب إلى مكة، وكان الرسول قد أمر عمر بقتله ثم طلب التوبة فنزل فيه القرآن[5]. فلما رآه الرسول خارجا من حوائط المدينة أمر عثمان بقتله فضرب عنقه. وأتى القرآن مؤيدا حكم الرسول دون تخفيف له أو تشديد عليه.

الرسول ص١٣٢-١٤٥، السيرة النبوية ص٢٣١-٢٤٤، خاتم الأنبياء ص١٢٦-١٣٤، صحيح السيرة ص٢٧٤-٣١٥، خير الورى ص٢٤٢-٣١٧، الرحيق المختوم ص٢٤٨-٢٨٩، رسول الحرية ص١٩٨-٢٣٢.

(١) وقال قولته الشهيرة «ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعه حتى يقاتل»، ابن هشام حـ٢/ ٥٧.

(٢) برئاسة عبد الله بن سلول، السابق حـ٢/ ٥٧.

(٣) السابق حـ٢/ ٦٠-٦١، البستي حـ١/ ١٥٧-١٨٥.

(٤) ابن هشام حـ٢/ ٥٨.

(٥) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، السابق حـ٢/ ٧٨.

ووضع الرسول خمسين من الرماة خلف المسلمين حتى يصدوا الخيل لو جاءتهم من الخلف دون أن يتزحزحوا من أماكنهم سواء كانت النتيجة لهم أم عليهم، وكانوا جميعا أبناء الخمسة عشر ربيعا[1]. كان المشركون ثلاثة آلاف رجل ومائتي فرس[2]. وفي أحد أمر الرسول ألا يبدأ أحد بالقتال إلا بأمر منه[3]. كان النصر أولا للمسلمين. فقد صدق الوعد. وحش المسلمون المشركين بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر. وكانت الهزيمة التي لا شك فيها[4]. وهربت النساء وفي مقدمتهم هند بنت عتبة وصاحباتها. وتركوا كل شيء وراءهم. إلا أن الرماة انضموا إلى العسكر، وكشف ظهر المسلمين للخيل. فجاء المشركون من الخلف. وأذيع أن محمدا قد قتل لإحباط الروح المعنوية. فانكفأ المسلمون. وانكفأ عليهم المشركون. وقد نبه الرسول على عدم وجوب أن يعلوا المشركون المسلمين أي يكونون أعلاهم. فقاتل عمر ومعه فريق من المهاجرين حتى أحبطوهم من أعلى الجبل. ووقع الرسول. ولم يستطع النهوض، وعاونه طلحة[5]. وصلى الرسول قاعدا. ومن لم يستشهد ثخن جسده بالجراح[6].

ومثل أبو سفيان بحمزة وهو يضربه برمحه في شدقه ثم استحى من أن يفعل ذلك بسيد قريش. وأرسل إلى الرسول على لسان ركب بأنه قادم هو وأصحابه ليستأصلوه. فرد عليه الرسول «حسبنا الله ونعم الوكيل»[7]. وشمت بالمسلمين بعد أحد، وأنها انتقام لبدر. فالحرب سجال. ودعا لعظمة هبل. فطلب الرسول من عمر أن يرد عليه بأن الله أعلى وأجل، وأن قتلى المسلمين في الجنة وقتلى المشركين في النار[8]. وتوعد المسلمين وقبل الرسول الموعد[9].

---

(١) انتضح الخيل عنا بالنبل. لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فأثبت مكانك لا نؤتين من قبلك»، السابق حـ٢/ ٥٩.

(٢) كان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، السابق حـ٢/ ٥٩.

(٣) «لا يقاتلن أحدكم حتى نأمره بالقتال»، السابق حـ٢/ ٥٨-٥٩.

(٤) السابق حـ٢/ ٦٨-٦٩.

(٥) «اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا»، السابق حـ٢/ ٥٧، قال الرسول له «أوجب طلحة»، السابق حـ٢/ ٧٦.

(٦) أصيب ابن عوف وجرح عشرين جرحا، منها ما أصاب رجله فعرج، السابق حـ٢/ ٧٣.

(٧) السابق حـ٢/ ٨٩-٩٠.

(٨) السابق حـ٢/ ٨١-٨٢.

(٩) «قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد»، السابق حـ٢/ ٨٢.

وعندما توعد الرسول لحزنه على عمه حمزة أن يمثل بثلاثين رجلًا من المشركين نهاه القرآن عن ذلك. فالقصاص لا يكون بناء على عاطفة الانتقام بل على قانون موضوعي[1]. والتمثيل عدم احترام لجلال الموت أو لكرامة الجثة التي لم يعد صاحبها قادرا على الدفاع عن نفسه، وقد عزى القرآن المسلمين على شهدائهم[2]. وذكر ما أصاب المسلمين وعزاهم فيه بالرجوع إلى سنن التاريخ[3]. وهو الدرس المستفاد منه، العظة والعبرة. وإن يكن أصاب المسلمين جرح فقد أصاب المشركين جرح مثله. وهذه سنة التاريخ، وجدل النصر والهزيمة، وامتحان للناس[4]. ولا يحزن المسلمون ولا يهنون وهم الأعلى والأسمى والأرفع.

وحزن الرسول على عمه حمزة وتوعد المشركين بالمثل. وصلى عليه وعلى باقي القتلى. كما حزنت صفية أخته. وحرص الرسول على ألا ترى جثة أخيها وهي ممثلة بها. ومع ذلك أصرت فخلى الرسول سبيلها[5]. ورجع الرسول عن رأيه الأول لما رأى إصرارها مقدرا عواطف الأخوة وحزنها على أخيها. ودفن عبد الله بن جحش مع حمزة. وأمر النبي بدفن الشهداء حين صرعوا. إذ يبعث كل شهيد يوم القيامة وجرحه يدمي. اللون لون الدم، والريح ريح المسك[6]. وهي صورة فنية تدل على شهادة واقعية واستحقاق وبطاقة دخول حية إلى الجنة. وترتيب الشهداء في القبر أقرأهم للقرآن في المقدمة إماما

(١) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾، السابق حـ٢/ ٨٤.

(٢) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٤.

(٣) ﴿وَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا﴾.

(٤) ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ، إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٥.

(٥) «ألقها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها»، «خل سبيلها»، السابق حـ٢/ ٨٤-٨٥.

(٦) «أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمي جرحه. اللون لون الدم، والريح ريح مسك»، السابق حـ٢/ ٨٥.

لهم اثنان أو ثلاثة في قبر واحد. والصديقان معا في قبر واحد[1]. وهو تقدير لقيمة قراءة القرآن ليس فقط في الحياة بل أيضا في المات.

وبالرغم من هزيمة المسلمين أمر الرسول عليا بالخروج في آثار المشركين إذ كانوا عادوا إلى مكة راجعين أم إذا كانوا عادوا لمحمد في المدينة لاستئناف القتال وقبول الرسول النزال من جديد واستئناف القتال[2]. فالهزيمة في معركة لا تعني الهزيمة في الحرب. والهزيمة اليوم لا تعني الهزيمة إلى الأبد بل قد تعني النصر غدا. الهزيمة طارئة والنصر دائم[3]. وكان يسأل عن سعد بن الربيع أفي الأحياء أم في الأموات؟ وكان الرجل في الرمق الأخير. واستشهد وهو يبلغ الرسول إيمانه وتصديقه به[4]. كان أحد يوم محنة وبلاء ومصيبة وتمحيص. اختبر الله به المؤمنين وامتحن به المنافقين، من كان يظهر الإيمان بلسانه والكفر في قلبه وأكرم من أراد بالشهادة[5]. ويصف القرآن ما أصاب المسلمين، ويرجع المصائب إلى النفس[6]. فأسباب الهزيمة في الداخل قبل أن تكون في الخارج، في النفس قبل أن تكون في الوقع[7]. والنصر يبدأ في النفس أيضا قبل أن يتحقق في الواقع، بالثقة والتخطيط والعلم والقيادة خاصة لو كانت أرض المعركة معروفة وليست بها مفاجآت، وكانت خطط العدو أيضا معروفة من تاريخ الحروب العسكرية. نزلت في أحد ستون آية من آل عمران. فالرسول يعد العدة ويرتب الصفوف[8]. فالقرآن في

(١) «انظروا أكثر هؤلاء جمع للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر»، «انظروا إلى عمرو بن الجموح وعبد الله ابن عمرو بن حزام فإنهما كانا متصادقين في الدنيا فاجعلوهما في قبر واحد»، السابق حـ٢/ ٨٥.

(٢) «والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم»، ابن هشام حـ٢/ ٨٢.

(٣) وهذا ما كان يقال في هزيمة يونيو ١٩٦٧ إنها خسارة معركة وليست خسارة الحرب. وهو ما أثبته بعد ذلك نصر أكتوبر ١٩٧٣، سيد الأنام ص١٩٦-٢٠٦.

(٤) ابن هشام حـ٢/ ٨٢-٨٣.

(٥) من المنافقين عبد الله بن أبي الذي دعا إلى نصرة الرسول في المسجد والمسلمون يعلمون أنه منافق، السابق حـ٢/ ٩١.

(٦) ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق حـ٢/ ١٠١.

(٧) وهو معنى ما قاله الشاعر نزار قباني بعد هزيمة يونيو، حزيران ١٩٦٧ في «هوامش على دفتر النكسة»: «ما دخل اليهود من حدودنا، بل دخلوا من عيوبنا».

(٨) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ابن هشام حـ٢/ ٩١-٩٢.

جدل مع الواقع، وتنظير للحوادث، وتعليم للمسلمين عن طريق التجارب. فتجربة الهزيمة لدعوة حقه يقودها نبي تجربة أليمة ليس فقط للمحاربين بل لخطورتها على مستقبل الدعوة، تهبيط عزيمة المسلمين وزعزعة ثقتهم بالنفس، وتشجيع المشركين على التمسك بدين آبائهم، وإيهامهم بأنهم على حق. وبعد أحد عاد النصر حليف المسلمين، فقد أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وذهب عمرو مع آخرين إلى النجاشي. فإذا ظهر رسول المشركين عليهم ظلوا عنده. وإذ ظهروا عليه عادوا إليهم. وبعد أن رأى أحدهم عمرو الغمري رسول الله خارجا من عنده سأل النجاشي أن يعطيه إياه ليقتله. فغضب النجاشي وضربه على أنفه كيف يسلم رسولًا نبيًّا يأتيه الناموس الذي كان يأتي على موسى وسيظهر على قومه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده؟ وتبايعا على الإسلام. ثم أخبر خالد بما وقع فأسلم خالد معه. والإسلام يجب ما كان قبله، والهجرة تجب ما قبلها، ثم أسلم معهما ابن طلحة[1]. وبدأت غزوة ذي قَرَد بعدوان أحد المشركين على إبل الرسول الحوامل ذوات الألبان. فقتلوا الرجل وأسروا المرأة. وبلي ابن الأكوع، وكان يطارد القوم بالنبال. فلما سمع الرسول صراخه نادى على المسلمين بالمدينة[2]. وقد سبق محرز القوم واستشهد. وهي غزوة محدودة ليست بحجم بدر أو أحد. ويشجع القرآن فرق المؤمنين[3]. وكما نصرهم ببدر وهم قلة لن يتخلى الله عنهم[4]. فالنصر للمؤمنين سنة تاريخية بشرط الالتزام بمقتضيات الإيمان وشروط النصر. النصر هو القاعدة، والهزيمة الاستثناء، لم يشأ القرآن ترك المؤمنين في حالة من الإحباط. وذكرهم بالنصر السابق في بدر. فالحاضر لا يمحو الماضي، والواقع لا يطعن في المبدأ.

والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. ينعمون بما أتاهم الله من فضله[5]. فالهزيمة المؤقتة

---

(١) السابق حـ٢/ ٢٣٦-٢٣٨.

(٢) السابق حـ٢/ ٢٤٠-٢٤٢.

(٣) ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق حـ٢/ ٩١.

(٤) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٢.

(٥) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق حـ٢/ ١٠٢، «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في

على الأرض يعوضها النصر الدائم في السماء، والخسارة المؤقتة في الأرض يعوضها الكسب الدائم في السماء. في حين أن المشركين كسب مؤقت في الأرض وخسارة دائمة في السماء. وهذه سنة السابقين واللاحقين. وشهداء أحد أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش. ويتمنون أن ليت إخوانهم يعلمون ما صنع الله بهم لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب. فأخبرهم الله أنه سيبلغهم وأنزل (وَلَا تَحْسَبَنَّ.....)، وهو مصداق لقول الرسول. ولا يريدون إلا أن يعودوا إلى الدنيا فيقاتلون ويستشهدون في سبيل الله مرة أخرى لينالوا الخلود وينصحوا به. وقد أحيا الله أحد الشهداء وسأله عما يحب فأجابه بأن يرده إلى الدنيا فيقاتل مرة أخرى[1]. والجنة جزاء المجاهدين بعد امتحان المؤمنين. فالدنيا دار امتحان والآخرة دار جزاء[2]. والشهادة نية وإن لم تتحقق. ومن لم ينو فإنه يموت منافقا[3]. وليس الشهيد فقط من مات في ميدان القتال وإلا كان الشهداء قليلين بل من مات في سبيل الله، ومن مات في الطاعون، ومن مات في بطن أمه، ومن غرق في البحر، هو من مات بإرادته أو بغير إراداته[4].

أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويُزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»، بهجة المحافل ص١٦٩-١٧٠، في أعيان من أكرم بالشهادة يوم أحد، ص١٧٠-١٨٢.

(١) «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا»، ابن هشام حـ٢/ ١٠٢-١٠٣. وهو ما تمناه أيضا سمير قنطار بعد خروجه من السجن الإسرائيلي بعد أكثر من ربع قرن، يتمنى أن يعود للمقاومة ليسجن مرة أخرى. «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»، «والذي نفسي بيده لولا أن رجالا من أمتي لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله. والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا»، بهجة المحافل ص١٨٢-١٨٣.

(٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ، وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، ابن هشام حـ٢/ ١٩٥، في فضل شهداء بئر معونة، بهجة المحافل ص١٨٢-١٨٣.

(٣) «من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»، «من مات ولم يغز ولم يُحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق».

(٤) «من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في البطن فهو شهيد، والغريق شهيد»، «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله»، بهجة المحافل ص١٨٣.

د- النقد الذاتي

ويدعو القرآن المسلمين إلى الوحدة وعدم التنازع وابتغاء الآخرة دون الدنيا[1]. وهو داء المسلمين حتى اليوم الذي بسببه ضاع ملكهم منذ سقوط الأندلس حتى سقوط الخلافة واحتلال فلسطين. كما نزل القرآن لحث المسلمين على التواصل، وجعل المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين، وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض[2]. ويخشى من الولاية في الدين أن تكون ولاية في السياسة. وهو ما حدث بالفعل بعد وفاة الرسول، ولم يوار جسده التراب بعد، أيهما أولى بالحكم، المهاجرون الذين نصروا الرسول أولا أم الأنصار الذين نصروه ثانيا؟ مسلمو مكة أم مسلمو المدينة؟

وقد جاهد المؤمنون من قبل مع أنبيائهم وأبلوا بلاء حسنا[3]. فلا غرور أن يكون ذلك أيضا مع آخر الأنبياء، بصرف النظر عن نتائج الجهاد، نصرا أم هزيمة. ويؤنب القرآن المسلمين لفرارهم عن نبيهم، وخروجهم على السنة، وإلا ما كان الرسول نبيا، وما كانوا هم مؤمنين[4]. ويحذرهم القرآن من أن يكونوا ممن يخشون الموت في سبيل الله أو يسمعون لأقوال المنافقين الذين يجعلون سبب موتهم الانضمام إلى النبي، والموت مصير الجميع بصرف النظر عن إيمانه بالنبي أو دونه. فمن الأفضل الموت مع الإيمان

---

(١) ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، ابن هشام حـ٢/ ٢٩٨، الأحكام المستفادة من أحد، خير العباد ص١٤٦-١٧١.

(٢) ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ابن هشام حـ١/ ٥٩٥-٥٩٦.

(٣) ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٦-٩٧.

(٤) ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، السابق حـ٢/ ٩٨-٩٩.

على الموت مع الشرك[1].

والإسلام ليس مركزا على محمد. محمد مجرد رسول لتبليغ الرسالة[2]. والانقلاب على الرسالة انقلاب على النفس قبل أن يكون عليها، على الذات قبل أن يكون على الموضوع، الموت بإذن الله، ولكل أجل كتاب، وثواب الدنيا أو الآخرة اكتساب للإنسان. من يرد ثواب الدنيا فله ما يريد، ومن يريد ثواب الآخرة يناله[3].

ويمدح القرآن الذين خرجوا مع الرسول بعد أحد[4]. ولم تفت الهزيمة في عضدهم، وخشوا الناس، ولم يأخذوا ارتداد البعض مثلا. وأصروا على إيمانهم وجهادهم. فالإيمان ثبات وتواصل. ويحذر القرآن المسلمين من طاعة المشركين[5]. ومن الارتداد على الأعقاب مثلهم، ومن الانقلاب خاسرين. فالشرك أساس واه، والإيمان متين.

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ، وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٩-١٠٠.

(٢) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٥-٩٦.

(٣) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٦.

(٤) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ، الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ، إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ، مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، السابق حـ٢/ ١٠٣-١٠٤.

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ، بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ، سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ، وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق حـ٢/ ٩٧-٩٨.

ولا يقوم الأساس الصلب على الأساس الهش. وينتقد القرآن المنافقين، وتخلفهم عن القتال. فقد أصبحوا مثل المشركين، وحاولوا إقناع إخوانهم بالنكوص معهم حتى لا يقتلوا. يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويكتمون الحق وهو يعلمون[1]. وقد تخاذل المنافقون في حفر الخندق، ونشط المؤمنون. ونزل القرآن فيهم. ويعمل المؤمنون. وإذا أرادوا التغيب لأمر ما استأذنوا الرسول. أما المنافقون فإنهم يغادرون دون استئذان لأنهم لا يؤدون العمل من قلوبهم. ويتناجى المنافقون فيما بينهم وهي غير مناجاة الرسول للمؤمنين[2].

وقد طلب نفر من المسلمين أن يعلموهم. فلديهم إسلام لكن لا يفقهون فيه كثيرا. يريدون التفقه وقراءة القرآن ، وتعلم الشرائع. فبعث الرسول معهم ستة من أصحابه. وفي الطريق غدروا بهم فاستصرخوا، واستلوا السيوف ليس لقتلهم ولكن لفدائهم بشيء من أهل مكة. قتلوا واحدا بالحجارة. وبيع اثنان منهم أسيران في مكة لقتل أحدهما جزاء قتل أبيه. وصلب الثالث بعد أن صلى ركعتين ودعا على قاتليه وهو على الصليب[3]. وآخر قتل بالحربة. والأخير بقي في أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم فقتلوه. وقد نزل فيهم القرآن.

ولما أرسل الرسول الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق بعد إسلامهم أخبره قوم أنهم سيقتلونه. فعاد إلى الرسول، وهم بغزوهم. ثم علم الرسول أنهم خرجوا لإكرام وفده

---

(١) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، السابق حـ٢/ ١٠١-١٠٢.

(٢) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، السابق حـ٢/ ١٠١-١٠٢.

(٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، السابق حـ٢/ ١٤٧-١٥٠.

وليس لقتله. فنزل القرآن بضرورة التثبت من الأخبار قبل تصديقها[1]. وقد وقع حديث الإفك في غزوة بني المصطلق. فقد كان الرسول يقترع بين نسائه إذا ما خرج في غزوة. ووقعت القرعة على عائشة. وأثناء العودة سقط قرطها. وتخلفت في البحث عنه. وفاتها البعير. ومر ابن المعطل بها. وحملها على بعيره بعد أن تعرف عليها قبل أن يُضرب الحجاب. فبدأت الشائعات، وأعرض الرسول عنها وقاطعها. وكان يسأل عنها «كيف تيكم؟». وانتقلت إلى بيت أبيها. وعلمت بما قيل فيها. وفهمت سبب جفاء الرسول معها. وقد خطب الرسول يذكر إيذاء قوم له في غرضه وهو لم يعلم منهم إلا خيرا، وأن الرجل المتهم لا يعلم عنه إلا خيرا. وقد ساهم في نشر الحديث اثنان من المنافقين، وكاد النزاع يعود بين الأوس والخزرج إذا كان المتهم منهم. وأشار عليه أسامة بأنه لم يسمع عن أهله إلا كل خير. وأشار عليه علي بتطليقها، فالنساء كثيرات. ثم نزل القرآن ببراءة عائشة بعد أن ظنت أنها أقل من أن ينزل قرآن بشأنها بعد أن أخبرها الرسول بأن تتقي الله فيما يقول الناس أو تتوب إلى الله لو كان ما يقولونه صحيحا[2]. وبعد أن وضع الرسول رأسه على وسادة جاءه جبريل مبرئا عائشة: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك». وقد هم أبو بكر بعدم الإنفاق على سطيح لاشتراكه في الشائعة. ثم عدل عن ذلك بعد نزول القرآن. وقد هم ابن المعطل بقتل حسان شاعر الرسول بالسيف. وعاتب الرسول حسان على ما قال شعرا في نقد ابن المعطل. وكان ابن المعطل رجلا حصورا لا يأتي النساء. ثم قتل بعد ذلك شهيدا. وبمناسبته شرعت أحكام القذف[3]. ويقتل على

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، السابق حـ٢/ ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ، لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾، السابق حـ٢/ ٢٥٤-٢٦٣. بهجة المحافل ص٢٠٣-٢١٦، سيرة النبي ص٢٩٨-٣٠٧، حياة محمد ص٢٩٠-٢٩٥، مختصر سيرة (٢) ص٢٦٧-٢٧٩، معجز محمد حـ٢/ ٨٤-٩٠، السيرة النبوية ص٢٦٩-٢٧٤، الرحيق المختوم ص٣٣١-٣٣٣.

(٣) بهجة المحافل ص٢٠٤-٢٠٥.

التأويل من أقر بالتنزيل. والتأويل اجتهاد وقراءة لا تخطئ أو تصيب. ولا يقتل صاحبها أو يكفر[1]. صحيح أن أسباب النزول تساعد على الفهم الصحيح للآية ولكن لا يخطئ من يؤولها عن حسن نية. والتأويل هو سبب تأسيس العلوم الإسلامية كلها. وهو لأولي العلم فحسب. وهو الذي يكشف عن أعماق الشعور ودرجاته المتتالية. ويرجع النص إلى أصله الأول في التجربة الإنسانية.

٨- مشاركة المرأة

وتشارك المرأة في الحرب[2]. فلم تكن المرأة في العصر الجاهلي كما صورتها كتب الدعاية الساذجة للإسلام الذي أتى فقلب الباطل حقا، والحق باطلا. تشارك بالسلام أو بالمساندة، بالخروج أو بالشعر. شاركت أم سليم في غزوة حنين مع زوجها أبي طلحة وهي حامل بعبد الله، ومعها جمل أبي طلحة، تريد قتل من ينهزم عن الرسول مثل قتل من يقاتلونه، فلا فرق بينهما. وأخذت خنجرًا للدفاع عن نفسها إذا دنى منها أحد المشركين. والرسول يكتفي بحماية الله له[3].

ولا تحارب المرأة فقط بل تظهر قسوتها أكثر من الرجل. إذ قامت هند بالتمثيل بحمزة، وصاحبتها بالتمثيل بجثث المسلمين. يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند منها القلائد والخلخال. وأعطت قلائدها وقرطها وخلخالها إلى وحشية. وبقرت كبد حمزة ولاكته فلم تستسغه فلفظته. وأنشدت الشعر من أعلى الصخر. فردت عليها النساء المسلمات. وحرض عمر حسان على الدخول في معركة الشعر[4]. وفي نفس الوقت كانت المرأة أيضا ضحية الحروب. فقد سعت قريش إلى تطليق بنات الرسول من أزواجهن

---

(١) ابن هشام حـ٢/ ٣١٥.

(٢) السابق حـ٢/ ٦٠-٦٤. وفي أحد هند بنت عتبة، أم سعد، هند بنت أثاثة، حمنة بنت جحش حـ٢/ ٢٥٩، خروج قريش مع نسائهم حـ٢/ ٥٥-٨٧، نساء الأنصار، المرأة الدينارية، قتل صفية اليهودي الذي كان يحوم بجيش المسلمين بعود من الشجر حـ٢/ ١٦٣.

(٣) «أو يكفي الله يا أم سليم»، السابق حـ٢/ ٣٧٨، مشاركة النساء في المعركة، خير العباد ص١٣٤.

(٤) ابن هشام حـ٢/ ٧٩-٨١.

بعد بدر[١]. فرفض واحد أن يطلقها أو يستبدل بها امرأة أخرى حتى ولو كانت من كريهات قريش. كان الرسول يثني عليه خيرا[٢]. أما الثاني فقبل واشترط تزويجه البديل من أشراف قريش. وكان لم يدخل عليها بعد. وخلفه عليها عثمان بن عفان[٣]. وقد أبقى الرسول ابنته زينب بعد أن أسلمت مع أبي العاص على شركه إيثارا لرابطة الأسرة على رابطة الدين. فلما جاء زوجها أسيرا رق لها وطلب فداءه[٤]. وعادت زينب إلى المدينة. وترصدها أحد المشركين وروعها فسقطت من على الهودج وهي حامل وفقدت جنينها. ثم توفت في المدينة. وأراد الرسول الانتقام ممن روع ابنته بحرقه بالنار. ثم غير رأيه لأنه لا يحرق بالنار إلا الله. واكتفى بقتله[٥]. ثم أسلم أبو العاص بعد استيلاء المسلمين على تجارته، وإجازة زينب له، وطلب الرسول من زينب إكرام مثواه، ولا يقربها إلا بعد إسلامه. ومنهم من طُلقوا من غير فداء.

وقد قبل الرسول بصياح وعويل المرأة على زوجها وتماسكها عند سماعها باستشهاد أخيها وخاليها واستغفرت لها[٦]. فالزوج أقرب إلى المرأة من الأخ والخال. وبكت نساء الأنصار على حمزة لما رأى الرسول أن حمزة لا نائحات عليه[٧]. ثم بعد ذلك أرجعهن وهن يبكين على باب مسجده[٨]. فالنوح على الميت يأتي بالطبيعة على العزيز وليس بالنداء لأداء الوظيفة، وقد تماسكت المرأة الدينارية بعد أن علمت بإصابة أبيها وأخيها وزوجها ونجاة رسول الله[٩]. هنا يبدو الرسول أعز من الأب والأخ والزوج. وهو صراع إنساني في جدل العواطف بين القريب والنموذج، بين القرابة الدموية والقرابة

---

(١) زوجت خديجة زوجة الرسول أبا العاص ابن أختها إلى زينب ابنتها وابنة الرسول قبل البعثة، السابق حـ١/ ٥٧٤.

(٢) زوج الرسول عتبة بن أبي لهب رقية أو أم كلثوم، السابق حـ١/ ٥٧٥.

(3) السابق حـ1/ 575.

(٤) «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا»، السابق حـ١/ ٥٧٥.

(٥) السابق حـ١/ ٥٧٨-٥٨١.

(٦) «إن زوج المرأة منها لمكان»، السابق حـ٢/ ٨٥-٨٦.

(٧) «لكن حمزة لا باكي له»، السابق حـ٢/ ٨٦.

(٨) «ارجعن يرحمكن الله. فقد أسيتن بأنفسكن»، «رحم الله الأنصار فإن المواساة منهم ما عتمت لقديمة، مروهن فلينصرفن»، السابق حـ٢/ ٨٦.

(٩) السابق حـ٢/ ٨٦-٨٧.

الروحية. وبالرغم من أن المرأة كانت فيها وراء ستار، غنيمة وسلبا وفداء وموضوعا جنسيا فإنها كان لها شخصيتها المستقلة كامرأة لها حقوقها، وعليها واجباتها الجنسية. وتعتز أيضا بانتسابها القومي[1]. إلا أن المجتمع لم يكن يسمح بظهورها العلني. فكانت تظهر في دائرتها الصغيرة في المنزل مع الزوج والأولاد أو مع الأب والأم أو مع الأقارب والأصهار[2].

ودعا الرسول إحدى زوجاته فقالت «إنا قوم نؤتَى ولا نأتي» فردها إلى أهلها. مع أنه رد فعل طبيعي عند المرأة أن يأتيها الرجل ولا تأتيه، وأن يكون للرجل زمام المبادرة. والدعوة حياء من المرأة واستنفارا للرجل[3]. والرجل أيضا، خاصة إذا كان نبيا، يجب أن تأتيه المرأة، ولا خلاف بين الرأيين. فالحب متبادل بين الاثنين، الرجل والمرأة، في العواطف وفي الحركات. فالعلاقة بين الحبيبين ليست علاقة سيد بمسود ولكن علاقة طرفين متساويين، يطلب كل منهما الآخر.

واستغاثت إحداهن من الرسول. وقد كانت حديثة عهد بالكفر. فردها إلى أهلها. وهو رد فعل طبيعي عند امرأة لم تتعود على مجالسة مسلم[4]. وكانت في حاجة إلى صبر أكثر حتى تتعود عليه وتألفه وتعرف أن الخلاف في العقيدة لا يؤثر في الاتفاق في الحب. ورفضت ريحانة التي اصطفاها الرسول لنفسه من غزوة بني قريظة أن تتحجب وأن تسلم وأن تتزوج الرسول. وبقيت على يهوديتها حتى أسلمت فيما بعد[5]. فالاعتزاز بالعقيدة جزء من الاعتزاز بالنفس. وتغيير العقائد ليس بالسهولة مثل تغيير الأزواج.

وقد توفى الرسول وهو في حجر إحدى نسائه، بين سحرها ونحرها، ما بين الرقبة والصدر، أصغرهن، وأحبهن إلى قلبه حتى يفارق الدنيا مع أحب شيء له فيها،

---

(١) هذا موضوع رسالة جامعية عن «المرأة في سيرة ابن هشام»..

(٢) «أخذ الرسول في غزوة خيبر صفية بنت حيي بن أحطب سبيه وأعطى دحية ابنتي عمتها»، ابن هشام جـ٢/ ٢٨٢.

(٣) السابق جـ٢/ ٥٤٤.

(٤) السابق جـ٢/ ٥٤٤.

(٥) السابق جـ٢/ ٢٠٦-٢٠٩.

عائشة[1]. وهو ما لا يعيب المرأة ولا الرجل. ولا تعارض بين الهناء في الدنيا والسعادة في الآخرة. ولماذا تكون السعادة في الآخرة عوضا عن الشقاء في الدنيا؟ وتخرج بعض الأحاديث عن سياقها. تقال في وضع خاص ثم يعمم الحكم مثل حديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[2]. فقد قيل بمناسبة تولية الفرس أمورهم لامرأة، والقاعدة الأصولية خصوص السبب وعموم الحكم لا تنطبق على هذه الحالة لأن السياق كان نقد الآخر وليس تشريع الذات.

٩- قتال اليهود

ولليهود وضع خاص في انتشار الدعوة الإسلامية، إيجابا وسلبا. فمن اليهود من عرف الحق. وبالرغم من أنه كان في السبي إلا أنه قاتل مع الرسول واستشهد[3]. فاليهودي المؤمن برسالته كالمسلم المؤمن برسالته وبالرسالات السابقة. ومنهم من عرض على الرسول خدماته فأمره الرسول بأن يخدع قومه. فالحرب خدعة[4]. فأقنع اليهود بأن قريشا تخلت عن حربه، فتفرق الحلف بين قريش واليهود. وأرسل الرسول رجلا ليعرف ماذا حل بالمشركين فوجد أن أبا سفيان يناديهم بالرحيل. وعلم الرسول بتخاذل المشركين وانصرافهم. فساهم اليهودي في إبعاد قريش عن الحرب إيثارا للسلام. ويستعمل الرسول لفظ «يهود» نكرة يهود وليس معرفة «اليهود» إمعانا في إذلالهم بأنهم نكرة على عكس النصارى الذين يستعملهم لمعرفة «النصارى» وليس نكرة «نصارى». والنكرة لا يبقى في شبه جزيرة العرب في حين أن المعرفة يبقى. يستعمل لفظ «يهود نكرة لأنهم غرباء عن شبة الجزيرة العربية[5].

وبعد غزوة بدر دعا الرسول اليهود للإسلام حتى لا يصيبهم ما أصاب قريشا.

---

(١) السابق حـ٢/ ٥٤٥.

(٢) بهجة المحافل ص٢٥٢.

(٣) قال الرسول فيه «مخيرق خير يهود»، ابن هشام حـ٢/ ٧٧.

(٤) السابق حـ٢/ ١٩٧-٢٠٠، ابن خلدون ص١٣٧-١٤٩، حياة محمد ص٢٥٣-٢٦٢، رسول الحرية ص٢٤٢-٢٤٥.

(٥) وفاء الوفا حـ١/ ٢٨٣.

فرفضوا مدّعين أن ما قتلوا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون أساليب القتال. أما هم فإنهم هم المقاتلون بحق. فنزل القرآن ردا عليهم بأنهم سيلقون مصير قريش[1]. وأن القضية ليست فقط في فنون الحرب ووسائله بل أيضا في غاياته وأهدافه، وفرق بين غاية المسلمين في نشر الحق وغاية اليهود في نشر الباطل. وكانوا قد تفاءلوا بمنع الرسول القتال في الشهر الحرام[2]. وهي عادة عربية سابقة على الإسلام. استمرت بعده احتراما للمسجد الحرام وتأكيدا للسلام. وصرفت القبلة إلى الكعبة حتى يتمايز المسلمون عن غيرهم[3]. وكانت الكعبة والقدس على اتجاه جغرافي واحد. فلم يتغير شيء في حقيقة الأمر، من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب. ودلالة تحويل القبلة من الشام إلى شبه الجزيرة العربية هو التحول بخاتم الوحي من الشام إلى الحجاز، ومن اليهود إلى العرب[4].

ولم تُسم كيفية التعامل مع بني قينقاع غزوة بل أمرا[5]. فقد جمعهم الرسول لدعوتهم إلى الإسلام لأنهم يعلمون أنه نبي مرسل كما هو موجود عندهم في الكتاب. فرفضوا وهم مستعدون للقتال. وهم أهل خبرة أكثر من قريش. انتصر المسلمون في بدر لأن قريشا لا تعرف فنون القتال كما يعرفها اليهود. ورد عليهم القرآن[6]. وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد مع الرسول. وحاربوه بين بدر وأحد. وكان سبب الحرب أن امرأة عربية

---

(١) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ، قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، ابن هشام حـ١/ ٤٩٣.

(٢) السابق حـ١/ ٥٣٥.

(٣) السابق حـ١/ ٥٣٦.

(٤) «وددت لو حولني ربي إلى الكعبة فإنها قبلة أبي إبراهيم عليه السلام»، سيرة النبي ص٢٦٥-٢٦٩، السيرة الحلبية حـ٢/ ١٧٧-١٩٦، مختصر سيرة (٢) ص١٩٩-٢٠٠.

(٥) ابن هشام حـ٢/ ٤٤-٤٦، البستي حـ٢/ ٢٠٩-٢١١.

(٦) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ، قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، السابق حـ٢/ ٤٤، خير العباد ص١٢٥، سيرة النبي ص٢٧٧، السيرة الحلبية حـ٢/ ٢٨٤-٢٨٦، نور اليقين ص٩٧، الأسوة الحسنة حـ١/ ٣٣٠، مختصر السيرة (١) ص١٠٩، مختصر السيرة (٢) ٢٣٩-٢٤٢، سيرة الرسول ص١٢٧-١٣١، السيرة النبوية ص٢٢٧-٢٣٠، خير الورى ص٢١٨-٢٣١، الرحيق المختون ص٢٣٦-٢٣٩.

بسوق بني قينقاع تبيع ما عندها إلى صائغ يهودي فأرادوا كشف وجهها فألت فرفع الصائغ طرف ثوبها إلى رأسها فانكشفت سوءتها فضحكوا فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. وحاصرهم الرسول حتى نزلوا على حكمه. فطلب عبد الله بن أبي ابن سلول أن يحسن الرسول في معاملة مواليه. وبعد أن أعرض عنه الرسول أدخل يده في جيب درعه ولم يشأ إخراجها بعد أن طلب الرسول ذلك منه مرتين. وطلب اليهودي أن يحسن في أربعمائة رجل بلا درع وثلاثمائة بدرع. فوافق الرسول. ثم حاصرهم خمس عشرة ليلة. وتبرأ منهم حلفاؤهم من العرب. وفيهم نزل القرآن[1].

وقد طلب الرسول من المسلمين أن من ظفر بيهودي فليقتله[2]. فقد كان العداء بين المسلمين واليهود قد وصل إلى حد العداء المبدئي الجماعي وليس العقاب الفردي على عمل معين. وهو أقرب إلى روح الشريعة الإسلامية[3]. فتقدم أحد المسلمين فقتل تاجرا يهوديا فضربه أخوه المشرك مستنكرا فعلته. وربما يكون شحم بطنه من ماله. ودافع القاتل عن نفسه بأنه أمر من الرسول الذي إن كان قد أمره بقتل أخيه لفعل. فاستعجب الأخ من قدرة هذا الدين على الولاء له ضد الأخوة «والله إن دينا بلغ بك هذا لعجب» ثم أسلم. فالرابطة الدينية تجب رابطة الأخوة. وفي رواية أخرى لما ظفر الرسول ببني قريظة أخذ منهم أربعمائة رجل. وكانوا حلفاء الأوس على الخزرج. وأمر

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ، وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، ابن هشام حـ٢/ ٤٥-٤٦.

(٢) «من ظفرتم من رجال يهود فاقتلوه» السابق حـ٢/ ٥٢.

(٣) سيرة النبي ص٣١٠-٣٢٣، المغازي ص٢٦٣-٢٦٧، الرحيق المختوم ص٣١٤-٣١٨.

بضرب أعناقهم. وبدأت الخزرج في التنفيذ وهم مسرورون. فرأى الرسول وجوههم مستبشرة. ورأى وجوه الأوس عابسة. فظن أن الحلف بين الأوس وبني قريظة هو السبب. ولم يكن بقي من بني قريظة إلا اثنا عشر رجلا فدفعهم إلى الأوس، لكل رجل من الأوس رجل من بني قريظة. «ليضرب فلان وليذفف فلان». وكان منهم كعب بن يهوذا عظيم بني قريظة. فدفعه إلى اثنين من الأخوة. الأول بضربته لم تكن كافية. فأجهز عليه الثاني، وكان مشركا، فاستعجب كيف يتم هذا القتل بأمر الرسول «والله إن هذا لدين» وفي الصباح أسلم[1]. فالدين قبل الإخوة، والقبلية متداخلة مع الدين. وفي كلتا الحالتين القتل مبدئي على الهوية، دون جريمة محددة من فرد معين.

وأمر الرسول بإجلاء بني النضير في سنة أربع من الهجرة[2]. فقد خرج الرسول إليهم يستعينهم في دية قتلى بني عامر ثم الغدر به بعد أن وافقوا عندما خلا بعضهم إلى بعض. وقرروا إلقاء صخرة على الرسول من أعلى البيت وهو جالس تحته. ولما علم الرسول رجع إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. فحاصرهم الرسول لما تحصنوا منه في الحصون. وأمر بقطع النخيل والتحريق فيها. فعابوا عليه الفساد في الأرض وهو محرم في الإسلام. والغدر حتى على مستوى النية جريمة يعاقب عليها صاحبها دون قطع النخيل والتحريق فيها طبقا لوصية الرسول فيما بعد في آداب القتال، عدم قتل امرأة، ولا شيخ، ولا وليد، ولا قطع شجرة. وقد حرضهم رهط من قريش، منافقين ومشركين، على مقاتلة الرسول، ولكنهم عرضوا عليه الصلح. الجلاء عن مواقعهم في مقابل ترك أموالهم وممتلكاتهم التي تفوق حمل البعير. وانطلق بعضهم إلى الشام. والبعض الآخر إلى خيبر. وقسم الرسول أموالهم بين المهاجرين الأولين دون الأنصار باستثناء فقيرين من الأنصار. ومنهم من فضل الإسلام والاحتفاظ بأمواله. وفي رواية حرض الرسول يامين على قتل ابن جحاش. فاستأجر يامين رجلا يقتل ابن عمه وهو

---

(١) السابق حـ٢/ ٥٢-٥٤.

(٢) السابق حـ٢/ ١٦٤-١٦٦، البستي حـ٢/ ٢٣٤-٢٣٧، الفصول ص١٤٢-١٥٢، ابن خلدون ص١٢٦-١٢٨، سيرة النبي ص٢٩٠-٢٩٢، السيرة الحلبية حـ٢/ ٣٥٦-٣٦٥.

ما يتنافى مع أخلاق الرسول خاصة وأن الرواية تنتهي بعبارة فيما يزعمون[1]. والرسول لا يحرض على القتل غيلة بل يواجه علنا[2].

وقد نزلت سورة الحشر بأسرها في بني النضير تذكر ما أصابهم الله من نقمة عليهم، وما سلط عليهم رسوله، وما عمل فيهم، وما أفاء الله على رسوله منهم[3]. فقد أخرجوا من ديارهم. ولم تمنعهم حصونهم من الخوف والرعب. فهجروها وخربوا بيوتهم بأيديهم، وأصبحت أموالهم فيئا للمسلمين. كما بين القرآن كيفية تقسيم الفئ الذي غنمه الرسول من اليهود، وتوزيعه على اليتامى والفقراء والمساكين، وتقسيمه بين الناس حتى لا يبقى متراكما في أيدي الأغنياء[4]. ويكشف نفاق المسلمين الذين حالفوا اليهود ثم تبرءوا منهم[5]. وكان الدافع

---

(١) قال له «ألم تر ما لقيت من ابن عمك، وما هم به من شأني؟»، حـ٢/ ١٦٦.

(٢) بدر الموعد، الفصول ص١٥٢-١٥٣، غزوة دومة الجندل، ص١٥٣، نور اليقين ص١١١-١١٢، الأسوة الحسنة حـ١/ ٢٨٣-٢٩١، مختصر سيرة (٢) ص٢٦١-٢٦٣، سيرة الرسول ص١٥٣-١٥٤، السيرة النبوية ص٢٤٥-٢٤٨، خاتم الأنبياء ص١٣٤-١٣٦، صحيح السيرة ص٣٢٤-٣٢٨، خير الورى ص٣٢٨-٣٣٩.

(٣) ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ، وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ، وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ابن هشام حـ٢/ ١٦٦-١٦٧.

(٤) ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، السابق حـ٢/ ١٦٨.

(٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ، لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ، لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ، كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾، السابق حـ٢/ ١٦٨.

على غزوة الخندق تحريض اليهود لقريش. وقد نزل القرآن في ذلك[1]. والتحريض على القتال قتال. ويؤيدون المشركين على المؤمنين. وسبقها ثمان وعشرون سرية.

وأمر الرسول المسلمين بالقتال، وألا يصلي أحد منهم العصر إلا في بني قريظة[2]. وقدم تقدم عليّ برايته، وسمع من المشركين مقالة قبيحة. ولو رأوا الرسول ما تجرءوا على قول ذلك[3]. وتلاحق المسلمون بالرسول. وقد حاصرهم الرسول خمسًا وعشرين ليلة. وقد عُرض عليهم ثلاثة أمور إما التصديق بالرسول كما هو موجود عندهم بالتوارة، فرفضوا مفارقة حكم التوراة. وإما قتل الأبناء والنساء والخروج إلى محمد وأصحابه مسلطين السيوف. فإما النصر ويتزوجون ويتناسلون من جديد وإما الهزيمة فلا يبقى بعدهم أحد يخافون عليه، وهي قسوة على أبرياء. وإما القدوم إلى المسلمين يوم السبت حيث لا يتوقع المسلمون. وهو خروج على الشريعة. وطلب اليهود أن يبعث لهم الرسول أحد أصحابه للمشاورة. فبكت إليه النساء والأطفال. وأشار إليهم بقبول حكم محمد وإلا فالذبح، فشعر أنه خان الرسول. ودعا إلى الرسول وربط نفسه في عمود المسجد حتى يتوب الله عليه. ووعد أنه لن يأتي بني قريظة أبدا، وألا يكون في بلد خان فيه الرسول. ونزل القرآن في شأنه. فلو كان قد عاد إلى الرسول لكان قد غفر له. وما دام قد ربط نفسه فلن يطلقه حتى يتوب عليه الله. فنزلت توبته وأطلق الرسول

---

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا......... أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، السابق حـ٢/ ١٨٥، البستي حـ١/ ٢٥٤-٢٦٢، خير العباد ص١٩١-٢٠٠، الإشارة ص٢٥٩-٣٠٥، الفصول ص١٥٣-١٦٢، بهجة المحافل ص٢٠٥-٢١٦، سيرة النبي ص٣٠٧-٣١٠، السيرة الحلبية حـ٢/ ٤١٥-٤٣٩، حياة محمد ص٢٧٢-٢٨٣، نور اليقين ص١٢٠-١٢١، الأسوة الحسنة حـ١/ ٤١٢-٤٣٠، سيد الأنام ص٢٠٨-٢٠٩، المغازي ص٢٤٦-٢٦٢، مختصر سيرة (٢) ص٢٧٩-٢٨٧، معجز محمد حـ٢/ ٩١-١٠٦، سيرة الرسول ص١٥٩-١٦٧، السيرة النبوية ص٢٤٩-٢٥٨، خاتم الأنبياء ص١٣٧-١٦٥، صحيح السيرة ٣٥١-٣٦٩، رسول الحرية ص٢٥٧-٢٦٦.

(٢) ابن هشام حـ٢/ ٢٠٠-٢٠٢، البستي حـ١/ ٢٦٢-٢٦٦، المغازي ص٢٦٣-٢٦٧.

(٣) رد عليهم الرسول قائلا «يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟».

صراحة[١]. وأسلم نفر من اليهود هذه الليلة. وآخر تاب من عنده وعاد إلى وفائه[٢]. وقد نزلت بنو قريظة على حكم الرسول وتحكيم سعد. واعترض الأوس أولا ثم قبلوا بناء على رجاء الرسول. ورضي الرسول بحكم سعد. ونزلت بنو قريظة على حكمه وهو قتل الرجال، وفيء الأموال، وسبي الذراري والنساء. واعتبر الرسول هذا الحكم حكم الله من فوق سبع سموات. وهو من عادات العرب في القتال بين القبائل والتي قصتها كتب الفقه بعد ذلك، باعتباره فقها للعصر.

وقد قتل الرسول بني قريظة بعد حبسهم في إحدى دور المدينة وخندق في سوقها. وضرب في أعناقهم طائفة وراء طائفة، ما بين ستمائة وسبعمائة. وهو ما يتعارض مع رحمة الإسلام وسماحة الرسول والجزاء الفردي[٣]. وقتلت من النساء امرأة واحدة قتلت أحد المسلمين من قبل، وقبلت أن تقتل وهي تضحك عن طيب خاطر. وقتل الزبير ابن باطا بعد أن أعطاه الرسول لأحد المسلمين. وكان قد من عليه من قبل. ووهبه ماله وأهله، امرأته وولده. ثم قتله ليلحق برفاقه في جهنم. وأمر الرسول أن يُقتل كل من أنبت من بني قريظة. وعفى الرسول عن آخر كرامة لإحدى خالاته صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء. وقسم فيء بني قريظة على المسلمين. واصطفى لنفسه ريحانة التي رفضت أن تتحجب وأن تدخل الإسلام وأن يتزوجها الرسول وفضلت بقاءها على اليهودية. ثم أسلمت بعد ذلك.

وقد نزل القرآن في غزوة الخندق وبني قريظة في سورة الأحزاب يذكر ما نزل من البلاء ونعمته عليهم وكفايته إياهم حين فرج عنهم بعد مقالة أهل النفاق. فالجنود هم

---

(١) هو أبو لبابة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ابن هشام حـ٢/ ٢٠٢-٢٠٤.

(٢) هو عمرو بن سعدي حـ٢/ ٢٠٤-٢٠٥، الفصول ص١٦٢-١٧٤، سيرة النبي ص٣١٠-٣٦٢٣، السيرة الحلبية حـ٢/ ٤٤٠-٤٥٧، حياة محمد ص٢٨٠-٢٨٣، الأسوة الحسنة حـ١/ ٤٣٤-٤٤٤، سيد الأنام ص٢١٧، مختصر سيرة (٢) ص٢٨٧-٢٩١، السيرة النبوية ص٢٥٩-٢٦٨، صحيح قتل أبي رافع بن أبي الحقيق، الفصول ص١٧٤، غزوة بني لحيان ص١٧٥، غزوة ذي قرد ص١٧٦، غزوة بني المصطلق أو المريع ص١٧٨-١٨٦، السيرة ٣٧٠-٣٨٩، خير الورى ص٣٨٦-٤٠٩.

(٣) بمن فيهم يحيي بن أخطب، ابن هشام حـ٢/ ٢٠٦-٢٠٩، البستي حـ٢/ ٢٦٢-٢٦٨، نور اليقين ص١٢٣، سيد الأنام ص٢١٠، معجزة محمد حـ٢/ ١٠٧-١٢٦.

قريش وبنو قريظة وغطفان من كل الجوانب[1]. نقضوا العهود، وفروا من المعركة، وكانوا يدعون الناس إلى الفرار معهم. يخافون المسلمين أو ينتقدونهم بألسنة حداد. وكانوا يرون أن وعد الله غير صادق. ويتحججون بالعودة عن القتال لأن بيوتهم عورة. والسبب الحقيقي هو أنهم يريدون الفرار من المعركة. وكانوا مستعدين للفتنة. ويخافون من الموت، ويهربون منه، وهو ملاحقهم[2].

وبعد الرجوع من الحديبية سار الرسول إلى خيبر. وارتجز ابن الأكوع. ودعا الرسول له. واستشهد برجوع سيفه إليه. ودعا الرسول قبل دخول القرية أن يهديه الله خير القرية وكأن الدافع كما كان في بدر هو الغنائم[3]. وكان يقول هذا الدعاء لكل قرية دخلها. وهرب أهل خيبر بمجرد ما سمعوا بقدوم الرسول. فكبر الرسول[4]. وقد حاولت غطفان مساعدة أهل خيبر ولكنها خذلتهم. وخافوا من الرسول على أموالهم ونسائهم وأولادهم. وتدني الرسول الأموال، مالا مالا. ويفتح حصونها حصنا حصنا. وأصاب الرسول سبايا من كل حصن منهن صفية بنت حيي بن أخطب. فاصطفاها لنفسه. وأعطى دحية ابنتي عمتها. وأكل المسلمون من لحوم حمرها الأهلية. ثم نهى

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا، وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾، ابن هشام حـ٢/ ٢١٠، البستي حـ٢/ ٢٦٢-٢٦٧.

(٢) ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا، وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا، قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا، قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، ابن هشام حـ٢/ ٢١٠-٢١١.

(٣) قال الرسول «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها. أقدموا باسم الله»، السابق حـ٢/ ٢٨٠، الفصول ص١٩٥-١٩٩.

(٤) هو التكبير الشهير «الله أكبر، خرجت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم نساء صباح المنذرين»، حـ٢/ ٢٨٠، البستي حـ٢/ ٣٠٠-٣١٤، سيرة النبي ص٣٣٦.

الرسول عنها. فقلبوا القدور عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم، ومن سقى زرع غيره من مائه أي إتيان الحبالى من السبايا، وأن يصيب امرأة من السبايا حتى يستبرئها، وأن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا ضعفت أو هزلت، وأن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى ولو لم يكن لديه غيره[1]. والدافع هو الإيمان بالله واليوم الآخر أي استعمال العقائد وأمور الآخرة لضبط أمور الدنيا[2].

وفي خيبر كان اليهود يسكنون حصونا أي بيوتا محصنة للدفاع. وإلى ذلك أشار القرآن ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾، ظانين أنها ما نعتهم من المسلمين[3]. وأمر الرسول بتعذيب أحد اليهود الذي كان يعرف مكان كنز يهودي آخر وأنكر. وقد رُؤي يحوم حول مكان. فشك الرسول فيه وهدده بالقتل إن كان كاذبا. وطلب من الزبير ابن العوام تعذيبه حتى يعترف بما لديه. فكان الزبير يقدح بزند في صدره. ثم دفعه إلى الرسول إلى آخر فضرب عنقه[4]. وهو ما يتعارض مع آداب الحرب، ومنع التعذيب والقتل دون محاكمة وقضاء.

وصالح الرسول أهل خيبر بعد أن حاصر آخر حصنين لهم، وأيقنوا بالهلكة بناء على طلبهم، وبعد أن أخذ الرسول الأموال كلها. ولما سمع أهل فدك ذلك طلبوا الصلح في مقابل التنازل عن أموالهم، فتم ذلك. وطلب أهل خيبر أن يعاملهم الرسول بالمثل على

---

(١) «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها. ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم. ولا يحل لامرئ بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه. ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه»، ابن هشام حـ٢/ ٢٨٢.

(٢) «ابتاعوا بتر الذهب بالورق العين، وبتر الفضة بالذهب العين»، السابق حـ٢/ ٢٨٢، خير العباد ص٢٣٠-٢٤٤، الفصول ص١٩٥-١٩٩، معجزة محمد حـ٢/ ١٦٣-٢٦٠، غزوة الحديبية، الفصول ص١٨٦-١٩٤، بهجة المحافل ص٢٥٣-٢٧٨، حياة محمد ص٣١٧-٣٤٥، نور اليقين ص١٤٨-١٥٤، الأسوة الحسنة حـ١/ ٤٥٨-٤٦٣، المغازي ص٣٠١-٣١٦، مختصر سيرة (١) ص١٢٦-١٢٧، مختصر سيرة (٢) ص٣٠٦-٣١٤، سيرة الرسول ص١٩١-٢٠١، السيرة النبوية ص٣١٥-٣١٦، خاتم الأنبياء ص١٨٣-١٨٦، صحيح السيرة ص٤٣٧-٤٠٤، خير الورى ص٥٣٦-٥٥٣، الرحيق المختوم ص٣٦٤-٣٧٨

(٣) وهو ما تفعله إسرائيل الآن في المستوطنات كقرى عسكرية محصنة، «الله أكبر خربت خيبر»، بهجة المحافل ص٢٥٣.

(٤) «أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟»، «عذبه حتى تستأصل ما عنده»، ابن هشام حـ٢/ ٢٨٦.

أن يتركوا نصف أموالهم فقبل الرسول إلا إذا شاء إخراجهم. وصالحه أهل فدك على ذلك. فكانت خيبر فيئا بين المسلمين. وفدك خاصة للرسول لأنها لم يتم الحصول عليها بخيل وحرب[1]. والأحكام الفقهية المستفادة من خيبر: قتال الكفار في الأشهر الحرم، أمر متعة النكاح، جواز إجلاء أهل الذمة، جواز جعل العتق صداقا، جواز الكذب للمصلحة المشروعة[2].

ولما كانت الحرب خدعة فقد أراد أحد المسلمين استرداد ماله من مكة وهو في المدينة مع الرسول. فذهب إلى مكة وأخبر قريشا أن محمدا هزم شر هزيمة في خيبر، وقتل أصحابه. وأنه قادم إليهم أسيرا. ورجاهم بجمع ماله حتى يعود إلى خيبر، ويصيب من محمد وأصحابه قبل أن يأتي إليه التجار. ولما فعلوا أراد العباس أن يستوثق فصرح له الرجل بالحقيقة أنها «لعبة» على قريش ليسترد أمواله، وأن محمدا قد انتصر على خيبر ويُزف إلى ابنة ملكهم[3]. فالحرب لم تكن فقط بدافع عقائدي عام بل بدافع اقتصادي خاص، وفي خيبر تمت محاولة سم الرسول[4].

ثم وقعت عدة غزوات بعد خيبر، ذات الرقاع. كما وقعت عدة سرايا، حوالي عشر[5]. ثم اعتمر الرسول[6]. ووقعت غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل[7]. ولم تستطع السيرة أن تقرأ سيرة اليهود السابقة، بني قينقاع، بني قريظة، وخيبر من غدر ونفاق ومعاداة ما يحدث حاليا في فلسطين وطريقة الاستيطان التي نقدها القرآن. وبيّن أنها لن تحميهم من

---

(١) السابق جـ٢/ ٢٨٦.

(٢) خير العباد ص٢٤٨-٢٨٨، سيرة النبي ص٣٣٧-٣٤٥.

(٣) ابن هشام جـ٢/ ٢٩٣.

(٤) «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر. فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»، بهجة المحافل ص٢٥٧.

(٥) خير العباد ص٢٩٣-٢٩٩، السيرة الحلبية جـ٢/ ٣٦٦-٣٧٢، حياة محمد ص٣٣٥، نور اليقين ص١١٣-١١٤، مختصر سيرة (٢) ص٢٦٣/ ٣٣٠، معجزة محمد جـ٢/ ٦٧-٦٩، سيرة الرسول ص١٥٥-١٥٦، السيرة النبوية ص٢٤٦، الرحيق المختوم ص٣٨٠-٣٨٣/ ٣٩٢.

(٦) السابق ص٣٠٢-٣١١.

(٧) السابق ص٣١٢-٣١٩، فتح فدك، الفصول ص١٩٩، فتح وادي القرى ص١٩٩، بعث مؤتة ص٢٠١-٢٠٥.

نتائج الظلم والعدوان[1]. أما المسلمون فلهم في رسول الله أسوة حسنة. ورأوا صدق ما وعد الله به. فصدقوا الله ما وعدوه. فازدادوا إيمانا. وانتصروا على المشركين المنافقين بالرعب قبل السلاح. وتم أسرهم والاستيلاء على أموالهم وأرضهم وديارهم[2].

ولا توجد نهاية حاسمة لنهاية مرحلة الإنتشار فقد استمرت الغزوات والسرايا حتى وفاة الرسول ولكن رمزا يمكن أن تكون حديث الإفك وبراءة عائشة، وحل القضية الداخلية قبل التوجه من جديد إلى استمرار انتشار الرسالة واكتمالها خارج شبه الجزيرة العربية في الشام ضد الرومان في غزوة مؤتة[3]. فقد بدأ الانطلاق إلى الشام في غزوة مؤتة في السنة الثامنة. وبكى قائد الحملة لفراق رسول الله ومخافة النار بعد أن نزل القرآن[4]. وقد تخوف الناس من لقاء هرقل الذي قالت الشائعات إنه نزل الشام في مائة ألف من الروم. وانضمت إليه بعض القبائل العربية. وشجع القادة الناس على القتال. فالنصر ليس بالعدد والعدة بل بالدين الجديد، إما النصر وإما الشهادة. فقتل أحد القادة الثلاث، ثم الثاني، وقطع ساعد جعفر بن أبي طالب التي كان يحمل بها اللواء. فأمسكه بالثانية فقطعت. فاحتضنه. ثم ضرب وقطع نصفين وهو شهيد في الجنة، يطير بجناحين حيث يشاء. ولما استشهد الثلاثة نصبت الجند خالد بن الوليد فأخذ الراية. ثم عادوا إلى

(١) ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾، السيرة الحلبية جـ٢/ ٢٨٤-٢٨٦، نور اليقين ص٩٦-٩٧، مختصر سيرة (١) ص١٠٩، السيرة النبوية ص٢٢٧.

(٢) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا، وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا، وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾، ابن هشام جـ٢/ ٢١١-٢١٣، ابن خلدون ص١٣٤.

(٣) سيرة النبي ص٣٤٣-٣٤٥، حياة محمد ص٣٣١-٣٣٤، المغازي ص ٣٦٦-٣٧٧، مختصر سيرة (١) ص١٣٠-١٣١، مختصر سيرة (٢) ص٣٢٧-٣٣٠، سيرة الرسول ص٢٠٦-٢٠٨، السيرة النبوية ص٣٢٧-٣٣٤، خاتم الأنبياء ص١٩٢-١٩٦، خير الورى ص٥٥٧-٥٩٣، الرحيق المختوم ص٣٨٧-٣٩١.

(٤) ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، جـ٢/ ٣١٧-٢٣٣، مختصر سيرة (١) ص١٣٠-١٣١، خير الورى ص٥٥٧-٥٩٣، الرحيق المختوم ص٣٨٧-٣٩١.

المدينة. وغضب المسلمون منهم. ولقيهم الصبيان بالتقريع، والناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله. ويدافع الرسول عنهم «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى». لم يتعود العرب على مواجهة الروم عددا وعدة وأساليب القتال. ولما تعودوا عليها فتحوا مستعمرات الروم كلها في الشام وفي المغرب العربي وفي جزر البحر الأبيض المتوسط، قبرص ومالطة. وينقد بعض كتاب السيرة رواياتها ولا حرج. ويضعف أحاديثها مثل ذر الرسول التراب على رؤوس المشركين، وخبر الحمامتين والعنكبوت[1]. وقصة كتابة كتاب الموادعة مع اليهود، وروايات اتهام المشركين الرسول باستحلال الشهر الحرام، ونشوب حلقتين في وجه الرسول وإخراج أبي عبيدة لهما وقد سقطت ثناياه، وقتل الرسول لأبي بن خلف، وقصة غزوة بني لحيان ورجوع المسلمين دون قتال، وأحاديث وصايا الرسول أثناء وفاته، وكثير من أحاديث زواج الرسول، وتحول الحطب إلى سيف. وكذلك يضعف كاتب السيرة أقوالا أخرى[2]. فالوضع شامل لأقوال الرسول وغيره من أجل حبك القصة، وإحكام الخبر[3].

(١) فصول ص٧٥-٧٦/ ٨١/ ٨٨/ ١٢٣-١٢٤/ ١٢٨/ ١٧٦/ ٢٦٤-٢٦٧/ ٢٧٩/ ٣١١-٣١٦.

(٢) وكذلك أحاديث «دعوها فإنها مأمورة»، فصول ص٨٠، حديث «سيروا وأبشروا» لسعد ص٩٣، «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة»، ص٩٧، «اللهم هذه قريش قد أقبلت»، ص٩٩، «بئس عشيرة النبي كنتم»، ص١٠٤-١٠٥، «لو سمعتها قبل لم أقتله»، ص١٠٦، «أظمأك الله»، ص١٢٢، «أبشروا هذا رسول الله»، ص١٢٦-١٢٧، «الحرب خدعة»، ص١٥٩-١٦٠.

(٣) مثل قول أبي سفيان لخبيب «أيسرك أن محمدا»، فصول ص١٣٧-١٣٨، قصة ملاعب الأسنة ومطلبة أن يرسل الرسول إلى أهل نجد من يدعوهم إلى الإسلام، ص١٣٨-١٣٩.

الباب الرابع

نهاية الرسالة

الفصل الأول

اكتمال الرسالة

١ - بيعة الرضوان وصلح الحديبية

وتعني نهاية «الرسالة» تطور الرسالة بعد بدايتها. وتنقسم قسمين. اكتمال الرسالة منذ الفتح حتى وفاة الرسول، ومصير الرسالة منذ وفاة الرسول حتى عصرنا الحاضر[١].
ويعني «اكتمال الرسالة» حالها منذ الفتح حتى وفاة الرسول كما تنبأت به آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ بعد انتشارها. وقد تم التنبؤ بفتح مكة والإعلان عن ذلك بنزول القرآن قبل فتحها بالفعل ثم بعد فتحها في ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وهذا يعني أن الإسلام قد انتشر سلما في معظمه. ففي هذه المرحلة لم تقع إلا غزوتان، حنين وتبوك. حنين انهزم فيها المسلمون من العرب. وتبوك ضد الروم في الشمال[٢].

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٢٧٣، الفصول ص١٨٦-١٩٥، بهجة المحافل ص٢٣٩-٢٤٥، سيرة النبي ص٣٢٢-٣٣١، المغازي ص٢٧٠-٢٩٤.

(٢) «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين،وإن قريشا قد أضرت بهم الحرب. فإن شاءوا ما دونهم على أن يخلوا بيني وبين الناس. فإن أظهر فإن شاءوا على أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمّوا من الحرب مدة»، سيرة النبي ص٣٢٤-٣٢٥، السيرة الحلبيةجـ٣/ ١٢-٤٤، حياة محمد ص٢٩٩-٣١١، نور اليقين ص١٣٧-١٤٠، الأسوة الحسنة جـ١/ ٤٤٥-٤٥٧، سيد الأنام ص٢١٨-٢٣٨، سيرة الرسول ص١٨٦-١٩٠، السيرة النبوية ص٢٧٥-٢٨٦، خاتم النبيين ص٢٧٥-٢٨٦، خاتم الأنبياء ص١٦٦-١٨٢، صحيح السيرة ص٣٩٠-٤٠٢، خير الورى ص٤٨٢-٥٣٥، المعاهدات والمواثيق، عبقرية محمد ص١٠٨-١١١، رسول الحرية ص٢٦٧-٢٩٧.

بدأ اكتمال الرسالة بالتحول من الحرب إلى السلم كما بدأت مرحلة الانتشار من السلم إلى الحرب. وقد بدأت مرحلة السلم الجديدة بصلح الحديبية وبيعة الرضوان. وكان الصلح بين الرسول وسهيل بن عمرو[1]. فقد خرج الرسول من المدينة معتمرا لا يريد حربا. واجتمع العرب حوله من المهاجرين والأنصار. وخاف البعض الآخر. وساق معه الهدى ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له. وأقسمت قريش ألا يدخلها الرسول وخالد بن الوليد على رأس الخيل. واستعجب الرسول من قريش التي أكلتها الحرب. ماذا لو تركوه يدخل البيت الحرام مثل سائر العرب؟ فإن أصابوه كان لهم ما أرادوا. وإن أظهره الله عليهم دخلوا الإسلام. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. وأصر على القتال حتى الموت. وتجنب لقاء قريش. وذهب من طريق غير التي خرجت قريش إليها. وطلب الرسول من المسلمين الاستغفار وقول حطة أي أن يحط الله عنهم ذنوبهم كما قال بنو إسرائيل. وأقام حيث بركت ناقته وهو مستعد لأن يغفر لقريش ما فعلته به لو استغفروا عن ذنوبهم، وقد نزل حامل سهم الرسول في طلب الماء. وتدخلت الرسل والوسطاء بين الرسول وقريش. وخشي الرسول الغدر. وأرسلت قريش رسولا وصفه الرسول بأنه من قوم يتألهون. فأراه الهدي حتى يراه. ورسول آخر من قريش شد لحية الرسول عدة مرات وهو يخاطبه. وعاد وأبلغ قريش أنه رأى قوما يعظمون سيدهم مثل كسرى في ملكه وقيصر في حكمه، والنجاشي في وطنه. وحاولت قريش قتل رسول الله، وعقروا جمله. ثم أرسلت نفرا منهم للعدوان على الرسول حتى عفا عنهم. ثم أرسل الرسول عثمان إلى قريش. وقد سمحوا له بأن يطوف بالبيت فأبى إلا والرسول معه. وأشيع عن مقتل عثمان. وقرر الرسول ألا يبرح إلا بعد منازلة قريش. وبدأ الناس يبايعون الرسول على الموت، وهذه بيعة الرضوان. ثم أرسلت قريش رسولا للصلح. وعرف الرسول أن قريشا جادة هذه المرة. واعترض عمر على شروط الصلح المهينة للمسلمين. وأبى أن يكتبه. وكتبه علي أن من أتى الرسول من قريش أرجعه لهم. ومن أتى قريشا من المسلمين أبقوهم. ورفضت قريش أن تفتتح المعاهدة بالبسملة التي لا تعترف بها. وقبل الرسول باسمك اللهم. كما رفضت قريش أن يكون الصلح مع محمد رسول الله. فقبل الرسول محمد بن عبد الله. واشترطت وضع

(١) ابن هشام جـ٢/ ٢٦٣-٢٧٣، البستي جـ١/ ٢٨٠-٢٨٨، ابن خلدون ص٢٦-٣٠/ ١٥٠-١٥٢.

الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس بعضهم على بعض، وأن من أحب أن يدخل في عهد أي من الطرفين فليفعل. وجاء أبو جندل إلى المسلمين فردوه إلى قريش حسب الاتفاق وهو يستعجب، كيف يُرد إلى المشركين؟ فطلب منه الصبر والاحتساب. فله هو ومن معه من المستضعفين مخرج. ونحر الرسول وحلق. فاقتدى الناس به. ودعا الرسول المحلقين والمقصرين. وأهدى إلى أبي جهل جملا في رأسه حلقة من فضة ليغيظ بذلك المشركين.

وقد نزلت سورة الفتح بهذه المناسبة[1]. تؤيد بيعة الرضوان. وتدين المتخلفين عنها. فقد أيدها الله وباركها،ويده فوق يد المبايعين. ومن تخلف عنها فإنه يبغي الغنائم مع أنه يمكن تحقيق الهدفين معا، السلم والغنائم. ويذكر القرآن كف أيدي المشركين عن الرسول بعد أن كان ذاهبا للحج ومعه هديه مع أنه لا يجوز صد أحد عنه لا قبل الإسلام ولا بعده لأنه قبلة العرب الدائمة، ولكن المشركين أصروا على صد الرسول. وحرصا على السلم والفتح السلمي رجع الرسول هذا العام واثقا أنه سيعود العام القادم حاجا وداخلا مكة سلما[2].

---

(١) ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾، ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ، ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.، ابن هشام جـ٢/ ٢٧٣، صحيح السيرة ص٤٠٢-٤٣٦.

(٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾، ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا، لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، السابق جـ٢/ ٢٧٣-٢٧٤.

وتكون فريق من المستضعفين الذين تحولوا إلى الإسلام من المشركين ولم يقبلهم الرسول عنده وردهم إلى مكة[1]. والرسول لا ينقضَ اتفاقا، ولا يغدر بقوم. وسيجد الله لهم مخرجا. ثم قتل أحدهم صاحبه. وعاد إلى الرسول حتى لا يسلمه إلىَ قريش. وكبر عدد المستضعفين حتى صاروا سبعين رجلا يقطعون قوافل قريش إلى الشام من ناحية البحر حتى رجت قريش الرسول إيواءهم لديه. فقدموا إلى المدينة، وعلم عمر أن اعتراضه «لم نقبل الدنية في دنيتنا؟»، «ألسنا على حق وهم على باطل؟»، كان محدود الأفق، وأن الرسول كان أبعد نظرا في الصلح الذي في ظاهره غبن للمسلمين وفي باطنه نصر لهم.

وما تم للرجال تم أيضا للنساء المهاجرات بعد الهدنة. ورفض الرسول ردهن بعد أن نزل القرآن في الأمر بعدم ردهن بل وتزويجهن بصرف النظر عن طلاقهن من أزواجهن المشركين في مكة أو تطبيق قواعد العدة عليهن، وتطبيق قواعد النفقة والإنفاق فحسب وكأن الأموال أهم من الأشخاص[2]. أمسك الرسول النساء، ورد الرجال. وهي تفرقة لصالح النساء. فالواقع الاجتماعي والسياسي يفرض نفسه على قانون الأحوال الشخصية. والكل له الأولوية على الجزء[3].

وخرج الرسول معتمرا عمرة القضاء في العام السابع. وسميت عمرة القصاص لأنهم صدوا الرسول فاقتص منهم. ودخل مكة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه. وقد نزل القرآن في ذلك[4]. وخرج المسلمون معه. وقالت قريش إن محمدا في عسرة وجهد وشدة. ودخل المسجد قائلا «رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة». هرول ثلاث طواف ومشى سائرها. وتزوج الرسول بميمونة وهو محرم. زوجها العباس بمكة

---

(١) مثل أبي البصير، ابن هشام جـ٢/ ٢٧٥-٢٧٣.

(٢) مثل أم كلثوم﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾، ابن هشام جـ٢/ ٢٧٧﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، جـ٢/ ٢٧٨.

(٣) ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. جـ٢/ ٢٧٨، ابن خلدون ص١٥٣.

(٤) ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، ابن هشام جـ٢/ ٣١٤، الفصول ص٢٠٠-٢٠١، حياة محمد ص٣٢٦-٣٣٠.

وأصدقها أربعمائة درهم. وأراد الرسول الاستمرار بمكة. وأرادت قريش إخراجه. فخرج الرسول. وبني ميمونة في الطريق إلى المدينة[1]. وفي ذلك نزل القرآن[2].

وفرح الرسول بعودة جعفر بن أبي طالب من الحبشة مثل فرحه بفتح خيبر، فرحه بالسلم قدر فرحه بالحرب، باستثناء واحد تنصر وبقى بالحبشة[3]. وخلف الرسول على امرأته حتى لا تترك بمفردها، والرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

٢- فتح مكة

كانت هناك أسباب موجبة للمسير إلى مكة. وقد فتحت بالفعل في شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة. فقد حدث قتال بين قبيلتين، بكر وخزاعة. قتلت كل واحدة واحدا من الأخرى. وقد حجز الإسلام بينهما. وبعد صلح الحديبية الذي نص على أن كل قبيلة حرة في أن تدخل حلفا مع قريش أو مع الرسول دخلت خزاعة في عقد مع الرسول وعهده. وأرادت خزاعة بهذه المناسبة الثأر لقتلاها فقتلوا واحدا من بكر. ثم اشتعل القتال بينهما. وشاركت قريش مع بكر. فقدم الطرفان إلى الرسول في المدينة. وقد دفع ذلك الرسول إلى الإسراع بفتح مكة التي مازالت قريش تثير فيها القلاقل، وتبث النزاع بينها. ثم أتى نفر من خزاعة إلى الرسول يسألون مظاهرة بني بكر عليهم. فلم يبق للرسول إلا فتح مكة، والقضاء على مركز التآمر، وبث الشقاق والخلاف بين العرب[4]. أصبحت القوة الجديدة مركز ثقة وحكم بين الناس. وبدأ النظام القبلي القديم في التهاوي وتطهير مكة منه لتصبح مركزا للنظام الجديد.

---

(١) «وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه»، ابن هشام جـ٢/ ٣١٥-٣١٦.

(٢) السابق جـ٢/ ٣١٦.

(٣) السابق جـ٢/ ٣٠٤-٣٠٧.

(٤) ابن هشام جـ٢/ ٣٣٠-٣٣٩، خير العباد ص٣٢٠-٣٣٩، الإشارة ص٣٠٦-٣١٧، الفصول ص٢٠٦-٢٢٨، بهجة المحافل ص٢٨٩-٢٩٦، سيرة النبي ص٣٤٥-٣٥٣، السيرة الحلبية جـ٣/ ١٠٢-١٥٠، حياة محمد ص٣٣٦-٣٤٨، نور اليقين ص١٥٩-١٦٧، الأسوة الحسنة جـ١/ ٤٧٠-٤٩٧، سيد الأنام ص٢٤٠-٢٥٢، المغازي ص٣١٧-٣٥٨، مختصر سيرة (١) ص١٣٢-١٤٠/١٤٧، مختصر سيرة (٢) ص ٣٤٩-٣٥١، سيرة الرسول ص٢٠٩-٢٢٠، السيرة النبوية ص٣٣٥-٣٥٢، خاتم الأنبياء ص١٩٧-٢٠٦، صحيح السيرة ص٥١١-٥٨٠، خير الورى ص٥٩٤-٦٦١، عبقرية محمد السياسية، عبقرية محمد ص٨٥-٩٤، رسول الحرية ص٢٩٨-٣١٣.

وظن الرسول أن أبا سفيان أتى من مكة، ليشد العقد، ويزيد في المدة، فقد خرج أبو سفيان إلى المدينة للصلح مع الرسول ولكنه أخفق. ورفضت ابنته أن يجلس على فراش الرسول لأنه لا يجلس عليه إلا طاهر. ولم يشأ الرسول وأبو بكر أن يكلماه. وامتنع عمر أن يتشفع له عند الرسول. ولم يرد عليّ التوسط. ولم ترحب فاطمة أن يجير ابنها الحسن وهو غلام، وأن يكون من سيد العرب إلى آخر الدهر لأنه لا يجير أحد على الرسول. ونصحه علي أن يذهب إلى الناس في المسجد ويخبرهم أنه قد أجار. وعاد إلى قريش يخبر الناس بما وجد. ولم يستحسنوا ما فعل. وأخبروه أنه قد لُعب به[1].

وجهز الرسول لفتح مكة بغتة، وأن يمنع عنها العيون والأخبار. وخانه حاطب الذي كتب إلى قريش بما أزمع عليه الرسول. وأرسله مع امرأة ووضعت الكتاب في رأسها. وعلم الرسول. وأرسل في طلبها. فوجد الكتاب. وادعى حاطب المؤمن بالله ورسوله أن له لدى قريش ولدًا وأهلًا. وهو ليس صاحب أهل ولا عشيرة. وطلب عمر دق عنقه. ورفض الرسول لأنه ممن شهد بدرا[2]. ونزل القرآن مؤيدا قول عمر[3]. فالخيانة غير مقبولة، والغدر ليس من شيمة المسلمين، والمغفرة قيمة من قيم الدين الجديد.

وخرج الرسول في رمضان صائما. وصام الناس معهم. ونزلوا منطقة في الطريق، وقريش تتبع أخبارهم. وقد هجر العباس قريشا إلى المدينة. وأسلم أبو سفيان وعبد الله بن أمية. ولا حاجة للرسول بهما. فقد هتك الأول عرضه. وقال له الثاني ما قال في مكة[4]. وهو على غير عادة الرسول بفرحه بكل من دخل الإسلام بصرف النظر عن مدى صدقه. ثم رق لهما الرسول بعد ذلك. فدخلا عليه فأسلما. واعتذر أبو سليمان عما

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٣٣٥-٣٣٨.

(٢) «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شيءتم فقد عفرت لكم»، السابق جـ٢/ ٣٣٨.

(٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾، السابق جـ٢/ ٣٣٨.

(٤) «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي. وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال»، السابق جـ٢/ ٣٣٩.

بدر منه تجاه الرسول وصحبه. وسامحه الرسول[1]. فقد حمله العباس عم الرسول على بغلة الرسول ودخل به عليه والناس في عجب. وكان الرسول يعجب كيف لم يعرف أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وحتى يكرم الرسول أبا سفيان. وأمر بوضعه بمضيق الوادي حتى يرى جنود المسلمين. وعرضت الجيوش أمامه. وعاد إلى أهل مكة يحذرهم. وأعلن إسلامه وما قال له الرسول[2]. وقد استثنى البعض من العفو. وقطعت يد سارقه. وسبقتها أربع سريا[3].

وغادر النبي إلى مكة شاكرا الله. ولما دخل البيت أتى أبو بكر بأبيه يقوده. فرفض الرسول إلا أن يأتيه هو في منزله إكراما لأبي بكر[4]. ودخلت جيوش المسلمين مكة. وتخوف المهاجرون على قريش من سعد وما أمر به الرسول. فأمر الرسول أن يدخل عليّ بالراية بدلا منه. وتعرض صفوان في نفر معه للمسلمين. فقتل منهم من قتل. وكان القتل متبادلا بين الفريقين على عادة القبائل، ثأرا وانتقاما. وتحول في الإسلام إلى قتل باسم الدين والخصومة فيه. ونظرا لخطورة الأمر فإن النبي لا يقتل إلا بالإشارة بل بأمر صريح. وعهد الرسول إلى امرأته ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم باستثناء نفر سماهم. أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة[5]. والقتال للدفاع عن النفس وليس أمرا على الإطلاق بصرف النظر عن الأسباب والدوافع والظروف. وتشفع في عثمان. وكان أخاه في الرضاعة. فصمت الرسول لعل أحدا يتطوع بضرب عنقه. ولم يشر على أحد لأن النبي لا يقتل بالإشارة. والتشفع في القتلى في الدنيا أوجب من الشفاعة من النبيين في الآخرة.

وأمر الرسول بقتل قنيتين كانتا تتغنيان بهجائه وهو عكس ما أوحي به من عدم

---

(١) قال الرسول «ونالني مع الله من طردت كل مطرد»، «وضرب الرسول أبا سليمان في صدره قائلا»، «أنت طردتني كل مطرد»، السابق جـ٢/ ٣٤٠.

(٢) قال الرسول«نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، السابق جـ٢/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) الإشارة ص٣٠٦-٣١٦.

(٤) «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه»، ابن هشام جـ٢/ ٣٤٣.

(٥) منهم عبد الله بن سعد، السابق جـ٢/ ٣٤٦.

قتل النساء. وإذا كان الهجاء هو السبب فإن مدحه كان يقوم به شاعر الرسول ولم تقتله قريش. والشعر هجاء أو مدحا ليس سببا للقتل. وقتل الحويرث لأنه أوقع ابنتي الرسول على الأرض وهو ليس سببا للقتل بل لعقاب آخر لسوء معاملته النساء بوجه عام، ابنتي الرسول أو غيرهما. وقتل من قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركا. وهو تطبيق عادل للقصاص بعد استيفاء شروطه من الولي. وقتل اثنان مشركا واشتركا في دمه. ولا يجوز قتل اثنين واحدا لأنه ضد آداب القتال، والمبارزة واحدًا لواحد. وقتل أحدهما رجلا من قومه. فمازالت القبلية أحد دوافع القتال. ولم تختف تماما بظهور الدين. وقتلت إحدى قينتي ابن حنظل. واستؤمنت الأخرى ثم وقعت من على فرس فقتلت. وقتل عليّ بن أبي طالب الحويرث دون محاكمة أو قصاص. وفر رجلان بعد دخول الرسول مكة وأراد عليّ قتلهما[1]. وطلبت أم هاني الأمان لها. فأعطاها[2]. وقتل فراش الأحمر، وضع السيف في صدره ثم تمايل القاتل عليه حتى قتله. ثم قتله آخر بطعنه بالسيف في بطنه حتى سالت أحشاؤه منها حتى أمر الرسول بالتوقف عَن القتل لأنه لا نفع فيه. وفرق بين القتل والإمعان في القتل أو الإسراف في القتل أو التقتيل. فالرحمة بالمقتول أيضا واجبة حتى لو كان من المخالفين. وأول قتيل داواه الله يوم الفتح بمثابة ناقة[3]. فهذه سنة الإسلام منذ فداء إسماعيل، فداء الإنسان وليس قتله.

وطاف الرسول بالبيت. دخل الكعبة فوجد فيها حمامة رمزا للطمأنينة والأمان. ووقف على بابها. وخطب في الناس. وحد الله وحمده على صدق وعده، ونصر عبده، وهزيمة الأحزاب. وأقر الديات، وخدمة البيت، والقتيل الخطأ. وحمد الله على أنه أذهب عنهم نخوة الجاهلية، والانتساب إلى الآباء. فالكل لآدم وآدم من تراب. ثم قال قولته الشهيرة بعد سؤاله قريش «ما ترون أني فاعل بكم؟. «وردوها عليه» أخ كريم وابن أخ كريم» وقول الرسول «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[4]. وأقر الرسول ابن طلحة على السدانة.

---

(١) السابق جـ٢/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت. فلا يقتلها»، السابق جـ٢/ ٣٤٨.

(٣) «يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل. إن نفع لقد قتلتم قتيلا لا دينه»، جـ٢/ ٣٥٠-٣٥١ «إن خداشا لقتال»، السابق جـ٢/ ٣٥١-٣٥٢».

(٤) «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم

وأمر بطمس ما بالبيت من صور. وإلغاء الاستقسام بالألزام وادعاء أنها من إبراهيم، وصلى الرسول بالبيت[1].

وأعلن الرسول حرمة مكة منذ أن خلق الله السموات والأرض حتى يوم القيامة أي من بداية الزمن إلى نهايته لتقوية حرمتها بلا استثناء. فلا يُسفك فيها دم، ولا تقطع شجرة. ولا تحل لأحد قبل الرسول أو بعده. ولا تحل إلى الآن، لحظة واحدة ينقسم فيها الزمان إلى ما قبل وما بعد، غضبا على أهلها، ولكنه غضب مؤقت. وهذه رسالة للحاضر والغائب. وإذا كان الرسول قد قاتل فيها فقد انتهى ذلك العصر. ونادى على القبائل بأن توقف القتل بعد أن كثر. وهو ما لا نفع فيه. فأي قتل عليه فداء إما دم القاتل أو فدية له[2]. وقد خشي الأنصار أن يبقى الرسول بمكة فطمأنهم أنه معهم في الحياة والمات[3]. وبعد فتح مكة لا يقتل قرشي إلى يوم القيامة[4]. ومع ذلك وقعت الفتنة الكبرى.

ومن الأحكام المستفادة من الفتح جواز صلح أهل الحرب، عدم قتل رسول الكفار، تكفير الحسنة والسيئة، دخول مكة بغير إحرام، عدم دخول الأرض، الغنائم المقسمة،

أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. إلا وقتيل الخطأ يشبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة، مائة من الأبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟، قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال:اذهبوا فأنتم الطلقاء»، السابق جـ٢/ ٣٤٨-٣٥٠.

(١) ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، جـ٢/ ٣٤٩، خير العباد ص٣٣٢.

(٢) «يا أيها الناس إن الله حرم عليكم مكة يوم خلق السموات والأرض. فهي حرام من حرام إلي يوم القيامة. فلا يحل لا مرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، ولا يعضد فيها شجرا. لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضبا على أهلها. ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس. فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم. يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل. فلقد كثر القتل إن نفع. لقد قتلتم قتيلا لأدنيه. فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير الناظرين: إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله»، ابن هشام جـ٢/ ٣٥١-٣٥٢، وكان أول قتيل قتله بنو كعب فواداه الرسول بمائة ناقة، جـ٢/ ٣٥٢.

(٣) «المعاذ معاذكم، والمات مماتكم»، جـ٢/ ٣٥٢، خير العباد ص٣٦٦-٣٦٩.

(٤) «لا يقتل قرشي صبرا بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»، الجوهرة جـ١/ ١٠٥.

عدم تقسيم مكة، عدم بيعها أو تأجير دورها، تحريم سفك الدم بمكة، عدم قطع شجرها، عدم نفر صيدها[1]. وهناك أحكام أخرى ربما يجوز مراجعتها لتغيير الزمان[2].

٣- غزوة حنين

لم تنقطع الغزوات بعد الفتح بل استمرت، غزوة حنين، غزوة تبوك، وعشرات أخرى من الغزوات نسبة لقوادها أو لأماكن وقوعها[3]. بعضها لقتل شخص بعينه[4]. ومن المقتولين نساء. ففتح مكة سلما لا يعني توقف الغزوات حربا. لم تتوقف الغزوات والسرايا بل استمرت خارج المركز الجديد، مكة والمدينة، إلى الشام شمالا، واليمن جنوبا، ثم بعد ذلك في عصر الخلفاء إلى مصر غربا وإلى فارس شرقا. فقد سار خالد ابن الوليد بعد فتح مكة إلى بني جذيمة من كنانة. وسار عليّ لتلافي خطأ خالد. وقد بعث الرسول خالدا داعيا وليس مقاتلا. فأمر خالد بوضع السلاح لأن الناس قد أسلموا. ثم حاربهم خالد وأمعن فيهم القتل حتى بلغ الرسول أمره وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»[5]. وشبه الرسول ما فعله خالد وكأنه أكل لقمة من طعام

---

(١) خير العباد ص٣٤٠-٣٥٩/ ٣٦٠-٣٧٠.

(٢) مثل جواز قتل الجاسوس، قتل من سب النبي، خير العباد ص٣٤٢/ ٣٥٧، الصلاة في مكان فيه صور، تحريم متعة النساء، قتل المرأة والمرتد ص٣٧٤-٣٩٠.

(٣) مثل غزوة غالب بن عبد الله الليثي بن الملوح، غزوة زيد بن حارثة إلى جذام، غزوة زيد بن حارثة بن فزارة، غزوة عيينة بن حصن، غزوة غالب بن عبد الله، أرض بني مرة، غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل، غزوة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، غزوة أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر، غزوة عليّ بن أبي طالب إلى اليمن، ابن هشام جـ٢/ ٥١٣-٥٢٠/ ٥٢٣-٥٢٦/ ٥٣٠-٥٣٢/ ٥٣٩.

(٤) مثل غزوة عبد الله بن رواحة لقتل اليسير بن رزام، غزوة عبد الله بن أنيس لقتل خالد بن سفيان، غزوة ابن أبي حدرد وقتل عامر بن الأضبط، غزوة ابن أبي حدرد لقتل رفاعة بن قيس، غزوة عمير بن عدي لقتل عصماء بنت مروان، ابن هشام جـ٢/ ٥٢٠-٥٢٣/ ٥٢٦-٥٣٠/ ٥٣٢-٥٣٦، خير العباد ص٣٨١-٣٩١، الإشارة ص٣١٧-٣٣٣، الفصول ص٢٢٩-٢٤٢، بهجة المحافل ص٣٠١-٣١٨، سيرة النبي ص٣٥٣-٣٥٧، السيرة الحلبية جـ٣/ ١٥١-١٦٢، حياة محمد ص ٣٤٩-٣٥٨، نور اليقين ص١٦٧-١٦٩، سيد الأنام ص٢٥٢-٢٥٨، مختصر سيرة(١) ص١٤١-١٤٥، مختصر سيرة(٢) ص٣٥١-٣٥٨، معجزة محمد جـ٢/ ٢٥١-٢٥٨، سيرة الرسول ص٢٢١-٢٢٦/ ٢٢٩-٢٣٤، السيرة النبوية ص٣٥٣-٣٥٨، خاتم الأنبياء ص٢٠٧-٢١٤، خير الورى ص٦٦٢-٧٠٤، الرحيق المختوم ص٤١٣-٤١٧، رسول الحرية ص٣١٤-٣٢٦.

(٥) تعرف هذه السيرة بغزوة الغميط وهو اسم ماء لبني جذيمة، ابن هشام جـ٢/ ٣٦٣-٣٦٤.

فألتذ طعمها ثم وقفت في حلقه فأدخل عليّ يده فانتزعها. وقد اعترض عليه شابان ابن عمر، ومولى حذيفة. وخرج عليّ ليصحح ما صنع خالد[1]. فأرجع لهم عليّ أموالهم، وأدى فداءهم، ووزع عليهم ما بقى. واستحسن الرسول ما قام به. وقد عذر خالد في قتال القوم لأنهم امتنعوا عن الإسلام وقالوا «صبأنا صبأنا». ثم وقع خلاف بين خالد وعبد الرحمن. وزجر الرسول خالد. إذ اتهمه عبد الرحمن بن عوف بأنه عمل بالجاهلية وليس بالإسلام. فرد عليه خالد أنه ثأر لأبيه. فكذبه عبد الرحمن بن عوف بأنه قتل قاتل أبيه ولكنه ثأر لعمه. وبلغ الرسول حدة النقاش فأمر خالد أصحابه[2]. واستعدت جذيمة وقريش للحرب. ثم تم الصلح بينهما. ووقع القتال على المال. واتفق الطرفان على فدية الدم والمال. وأوقفوا الحرب[3]. وسار خالد بن الوليد لهدم العُزى. وعلق عليها صاحبها سيفه. وهدمها خالد[4].

واستمرت الغزوات بعد فتح مكة لتأمين ظهور المسلمين وتصفية جيوب الشرك. فوقعت غزوة حنين في السنة الثامنة بعد الفتح أي بعد أن استقرت الدعوة في قلب قريش. فقد اجتمعت هوازن بعد أن سمعت بفتح الرسول مكة. فقررت النزول إلى الرسول مع أولادهم ونسائهم وأموالهم للقتال عنهم[5]. وأرسل المسلمون عينا إلى هوازن ليعرف أخبارهم. فعرف إجماعهم على حرب الرسول. فأخبر الرسول وعمر. صدق الرسول وكذب عمر. وعاتبه الرسول لعدم تصديقه[6]. وسأل الرسول صفوان أدراعه وسلاحه فقبل. وسلمها له صفوان طواعية واختيارا وليس غصبا. وتخللت غزوة حنين تسع سرايا[7].

ولما انهزم الناس في حنين شمت أبو سفيان وغيره بالمسلمين. ومع ذلك عجز شيبة

---

(١) «يا عليّ أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»، السابق جـ٢/ ٣٦٤.

(٢) «مهلا يا خالد دع عنك أصحابي. فو الله لو كان لك أُحُد ذهبا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»، جـ٢/ ٣٦٥، الرحيق المختوم ص٤٠٩-٤١١.

(٣) ابن هشام جـ٢/ ٣٦٥.

(٤) السابق ص ٣٧٠.

(٥) السابق جـ٢/ ٣٧٠-٣٧٣.

(٦) «لقد كنت ضالا فهداك الله يا عمر». السابق جـ٢/ ٣٧٣».

(٧) السابق جـ٢/ ٣٧٦.

عن قتل الرسول بعد أن هم به. ثم عاد الناس بعد نداء العباس. وكان صوته جهوريا بعد أن لم يفلح نداء الرسول[1]. ويترك المسلم بعيره، ويلبس درعه، ويأخذ سيفه، ويؤم الصوت حتى يصل إلى الرسول. فاجتمع مائة حول الرسول بعد نداء «يا للأنصار» ثم «يا للخزرج». فحمى الوطيس. وأبلى عليّ وأنصاري في الحرب. وانقضوا على حامل الراية. وأبلى أبو سفيان بلاءً حسنا، وهو ابن عم الرسول. وتحولت الهزيمة إلى نصر، وانقلب الإحجام إلى إقدام. وقتل في المعركة «غلام نصراني غير مختن». وبينما رجل من الأنصار يسلب قتلى بن ثقيف كشف العبد يسلبه فوجده غير مختن. فصاح في العرب أن بني ثقيف غير مختنين. فدافعت ثقيف عن نفسها بأنه غلام نصراني. وكشف عن باقي القتلى لإثبات أنهم مختنون. وهو موضوع جانبي، الختان أو الموت. وهل يجوز الكشف عن عورات القتلى، مختنين أو غير مختنين؟ وهل شرف العرب في الختان، الذكورة أم الرجولة؟[2]. فالختان عادة عربية قبل الإسلام. وتأكدت بعده، مما يدل على التواصل وليس الانقطاع.

وظلت حنين تطالب الرسول برد سباياها من الإبل والغنم حتى خُطف رداء الرسول عند شجرة. فطلب رد رداءه إليه وأنه يقسم عليهم الفيء مهما عظم، وأنه ليس بخيلا ولا جبانا ولا كذابا. وأخبرهم أنه ليس له من فيئهم إلا الخمس كما نص الكتاب. وسيرده لهم. فعليهم إرجاع ردائه وإلا سيكون عليهم عارا ونارا وشنارا يوم القيامة. وهي رواية تجعل الرسول يخضع للتهديد والابتزاز عن طريق خطف ردائه. وهو قليل بالنسبة للمطلوب. فالفيء له قوانينه في الشريعة أو الاجتهاد فيه طبقا للظروف وليس طبقا لموازين القوى[3]. واعترف أحدهم أنه أخذ لفة من خيوط شعر لعمله بردعة لبعيره. فتنازل الرسول له عن نصيبه فيها. إلى هذا الحد بلغت الحساسية بالنسبة للفيء والمساواة في التقسيم إلى حد الشعرة. وسمع أحد المسلمين وسيفه ملطخ بدعاء المشركين نداء برد الغنائم. وكان قد أخذ إبرة لخيط الثياب فردها. وإلى هذا الحد بلغت الحساسية بالنسبة

---

(1) «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السحرة»، السابق جـ٢/ ٣٧٧.

(2) السابق جـ٢/ ٣٨١.

(3) خير العباد ص٣٨٨-٣٩١/ ٣٩٩.

إلى الغنائم وتقسيمها من الرسول بالتساوي بين الجميع إلى حد الإبرة. وأعطى الرسول المؤلفة قلوبهم. وكانوا من أشرف الناس[1]. كل منهم مائة بعير، والبعض الآخر دون المائة، والبعض خمسين[2]. ويختلف سهم المؤلفة قلوبهم طبقا لدرجة التأليف عكسيا، الذي قارب على الإسلام سهم صغير والذي مازال بعيدا سهم كبير. واستقل شاعر ما أخذ من الرسول. فعاتبه شعرا فأزاده الرسول كي يقطع لسانه. ويتم التعامل مع الشعراء التعامل مع الأجراء. يزاد سهمهم في المدح ويقل في الهجاء. وقل في المدح على عادة العرب. ووزعت غنائم حنين على المبايعين ولم يعط الرسول أحد الناس مع أنه من خير أهل الأرض ولكن كان راغبا في إسلامه. فالإسلام لا تعادله غنيمة ولا يعطي من الفيء والأتقياء الراغبين في الإسلام من أجل الإسلام وليس من أجل السبايا والغنائم. ويرفض مساواة الآخرة بالدنيا. . واعترض آخر في الكعبة بأن الرسول لم يعدل، وأراد عمر قتله، ورفض الرسول لأنه سيكون له شيعته يتعمقون في الدين ولكنهم يخرجون منه كما يخرج السهم من الرمية. وقد يثور واحد من المسلمين إحساسا بالغبن لأنه لم يُعط حقه في القسمة واتهام الرسول بعدم العدل ورغبة عمر في قتله جزاء الجرأة على هذا الاتهام. واسترضى الرسول بعض الأنصار. جمعهم في حظيرة وأخبرهم أنهم كانوا في ضلالة فهداهم الله، وعالة فأغناهم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبهم. أتاهم الرسول مكذبا وهم صدقوه، ومخذولا وهم نصروه، وطريدا وهم آووه، وعائلا فواسوه، ذهب الناس بالشاة والبعير، والأنصار عادوا بالرسول. فلولا الهجرة لكان الرسول واحدا منهم. ولو سلك الأنصار شعبا وسلك الناس شعبا لسلك الرسول شعبة الأنصار. وترحم على الأنصار وأبناءهم وأبناء أبنائهم. يقدم الرسول أحيانا الواقع والحقيقة وأحيانا أخرى المثال. فالأنصار هم أصحاب الدعوة وحماتها. ولا يعادل ذلك مال الدنيا ولا غنائمها.

ودلالات حنين متعددة، أن النصر ليس بالكثرة، وأن من التوكل الأخذ بالأسباب، وأن عقر مركوب العدو جائز أي تدمير وسائل قوته[3].

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٤١٧-٤٢٣، خير العباد ص٣٩٠-٣٩١.

(٢) منهم سفيان بن حرب، وابنه معاوية.

(٣) خير العباد ص٣٩٢-٣٩٨.

وخرج الرسول بجيشه إلى هوازن. وكانت قريش تعلق أسلحتها على شجرة عظيمة تسمى ذات أنواط، يذبحون عندها. وطلب المسلمون من الرسول شيئا مشابها فالعادات العربية لم تمح بعد من القلوب، وتقليد الخصوم فيما يظن، أحد وسائل الانتصار عليه. فرفض الرسول. فهو نفس المطلب الذي طلبه قوم موسى منه أن يجعل لهم إلها كآلهة فرعون تقليدا له[1]. والتقى الرسول بهوازن وثبت بعد أن نزلوا عليه نزلة رجل واحد. فتراجع المسلمون. وحملت الإبل بعضها على بعض. ونادى الرسول على الناس أنه محمد رسول الله فليأتوا إليه ولكن تفرق الناس[2]. وبقى مع الرسول نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وهل يتفرق اثنا عشر ألفا؟ وأين الجهاد والاستشهاد؟ ألم يكف المسلمين أحد؟ وهل يحدث ذلك بعد فتح مكة؟ ولما أحس الرسول بكثرة العدد اطمأن[3]. وهرب قارب كان يحمل الراية وقومه. ووضعها على شجرة. ولم يقتل منهم في الحرب إلا رجلين. ومدح الرسول أحدهما ووصفه بأنه «سيد شباب ثقيف» وكانت هداية قريش خيرا من سبيهم. فقد دعا الرسول لهوازن. ومع ذلك أخذ الرسول منها ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشياة ما لا يحتسب عدته. وأسلمت هوازن. ورحبت أنها أهل وعشيرة. يكفي ما أصابها من بلاء. وطلبوا الأمان. والسبي عمات الرسول وخالاته وحواضنه اللاتي كن يكفلنه. وهو خير من يكفلنهن. ولو كان الرجاء لغيره لفعل. وخيرهم الرسول بين أموالهم أو نسائهم. فاختاروا نساءهم وأبناءهم. فرضي الرسول برد الأموال لهم. وعليهم أن يعلنوا ذلك للمسلمين في المسجد بعد صلاة الظهر أن يستشفعوا بالرسول في أبنائهم ونسائهم. فتم ما طلب مع اعتراض بعض القبائل طمعا في المال. وقبل الرسول الاعتراض وأرضى من تمسك بحقه وله تعويض من المال عن كل سبي أصابه. وأعلن الرسول أن مالك بن عوف لو أسلم رد

---

(١) «الله أكبر، والذي نفس محمد بيده، كما قال قوم موسى لموسى، أجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون أنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم»، ابن هشام جـ٢/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) «أين أيها الناس، هلموا إلى. أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، جـ٢/ ٣٧٥.

(٣) «لم نغلب اليوم من قلة»، جـ٢/ ٣٧٦/ ٣٨١. ونزل القرآن﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، جـ٢/ ٣٨٨، نور اليقين ص١٧٢-١٧٣، مختصر سيرة (١) ص١٤٦.

إليه ماله وأهله ومائة من الإبل زيادة. واستعمله الرسول على قومه. وكان يقدر قيمة السبية بسنها وجسدها، فمها وثديها وبطنها ولبنها[1].

وبعد حنين أعادت ثقيف ترتيب صفوفها. وأغلقوا أبواب الطائف. وأعدو العدة للقتال. وتخلف بعض المسلمين عن حنين والطائف. وفي الطريق قابل الرسول رجلا من ثقيف فهدده إما أن يخرج وإما أن يخرب عليه حائطه. وأصيب نفر من المسلمين بنبال المشركين لأنهم اقتربوا من الحائط. وكانت أبوابه قد أغلقت. وخرج الرسول مع زوجتين له. وضرب لهما قبتين. ثم صلى بينهما. ثم بنى عليهما مسجدا فيها بعد. ثم حاصرهم الرسول وقاتلهم بالنبال، ورماهم بالمنجنيق. وكان الرسول أول من استعمل هذه الآلة الحديثة. ودخل نفر من الصحابة تحتها ثم زحفوا إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك حديد محماة بالنار. فخرجوا من تحتها. فرمتهم ثقيف بالنبال. فأمر الرسول بقطع أعناب ثقيف. وتقدم أبو سفيان والمغيرة إلى الطائف مناديا بتأمينهم للاتفاق على الصلح. ودعوا نساء من قريش للخروج وهم يخشون عليهن السبي فأبين. واقترحوا على الرسول مال بني الأسود بالقرب مما ينزل فيه الرسول. فإن استولى عليه الرسول لم يعمر. وإن تركه فللرحم والقرابة بينه وبين قريش. فتركه الرسول لهم. وأسلم عبيدًا كانوا محاصرين بالطائف، وأعتقهم الرسول. ورفض أن يردهم إلى الطائف «أولئك عتقاء الله»[2].

ومن دلالات الطائف جواز القتال في الأشهر الحرم، وعدم ترك مواضع الشرك عند القدرة، وصرف أموال الطواغيت لصالح المسلمين، وأهمية الصلاة في الدين[3]. والصلاة مؤشر على إنجاز الأعمال في الأوقات، والالتزام بواجبات الدين. فالصلاة من الواجبات، أول حكم من الأحكام الشرعية الخمسة. ومن الواجبات أيضا هدم جميع الطغاة[4]. والطاغية ليست فقط صنما بل هو رمز لجميع طغاة البشر.

---

(١) «اللهم أهد ثقيفا وآت بهم»، ابن هشام جـ٢/ ٤١٤-٤١٧.

(٢) السابق جـ٢/ ٤٠٥-٤١٢، سيد الأنام ص٢٥٨، مختصر سيرة(١) ص١٥٠، مختصر سيرة(٢) ص٣٦١-٣٦٧، سيرة الرسول ص٢٢٧-٢٢٨، سيرة الرسول ص٢٤٧-٢٤٩، السيرة النبوية ص٣٥٩-٣٧٥، خير الورى ص٧٠٥-٧١٣، الرحيق المختوم ص٤١٧-٤٢٣.

(٣) خير العباد ص٤١٥-٤٢٠.

(٤) السابق ص٤١١-٤١٤، سيرة النبي ص٣٥٨-٣٦٤، نور اليقين ص١٧٠-١٧٢.

لم يكن الدافع على القتال مع الرسول دائما الاستشهاد والقتال في سبيل الله. ففي غزوة الطائف مدح عيينة وهو أحد المسلمين المشركين بالامتناع عن الرسول. وقد جاء لنصرته. فأعلمه أنه ما جاء لقتال ثقيف مع المسلمين ولكنه أراد للرسول أن يفتح الطائف فيحل على جارية يطؤها لعلها تلد له رجلا[1]. ومع ذلك اعتمر الرسول. واحتفظ ببقايا الفيء في مكان خاص ثم أحضره إلى المدينة. وجعل درهما كل يوم لمن أقام بدلا عنه في مكة. واكتفي به. وقد كتب أخو كعب بن زهير إليه يخبره أن الرسول قتل شعراء بمكة كانوا يهجونه ويؤذونه، وأما باقي الشعراء فقد هربوا. ورجاه أن يطير إلى الرسول لأنه لا يقتل تائبا وإلا فالنجاة. وكان يعلق على شعره، مدى صدقه وكذبه. فالشاعر صادق في وصف المأمون وكاذب أنه لم ير أن الرسول هو المأمون، وصادق عندما اعتبر خلق الرسول مغايرا لخلق الأب والأم أي السابقين[2]. فصاغ كعب قصيدته الشهيرة في مدح الرسول «بانت سعاد»[3]. وأراد أحد الأنصار قتله فمنعه الرسول لأنه أتى تائبا. واختلف النقاد هل سعاد امرأته أو رمز للرسول. وفي كلتا الحالتين هي قصيدة في الغزل[4]. ولما مدح المهاجرين غضبت الأنصار فمدحهم أيضا وبلاءهم مع الرسول[5]. وهي رواية تجعل الرسول قاتلا للشعراء أو مهددا لهم إذا هجوه. وهو على غير عادة

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٤١١، خير العباد ص٤٠٩-٤١٤، السيرة الحلبية جـ٣/ ١٦٣-١٨٢.
(٢) ابن هشام جـ٢/ ٤٢٤-٤٣٧.
(٣)

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	نسيم أثرها لم يعد مكبول

وأنشدها في المسجد، السابق جـ٢/ ٤٢٦.
(٤)

إن الرسول لنور يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول

السابق جـ ٢/ ٤٣٥

نبئت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول

السابق جـ٢/ ٤٣٣.
(٥)

ورثوا المكارم كابرا عن كابر	إن الخيار هم بنو الأخيار
والبائعين نفوسهم لنبيهم	للموت يوم تعانق وكرار

السابق جـ٢/ ٤٣٦.

العرب الذين يقدرون الشعر والشعراء بصرف النظر عن فنون الشعر. والرسول يتذوق الشعر، وينقده نقدا جماليا. فهو أفصح العرب. وأوتي جوامع الكلم. وتجعل الشاعر خادما للقوى الاجتماعية والسياسية، تحركه عواطف الخوف.

٤- غزوة تبوك

ثم أمر الرسول للتهيؤ لغزوة تبوك والتوجه لملاقاة الروم خروجا من شبه الجزيرة العربية شمالا إلى بلاد الشام في زمن عسرة وجدب، والثمار قد طابت[١]. والناس تريد اقتطافها، وأخبر بها الرسول الناس صراحة بدلا من الكنية عنها. وتخلف الجد خشية افتتانه بنساء الشمال فنزل القرآن مدينا هذا الغدر[٢]. واعتذر آخرون بالحر. فنزل القرآن أيضا مدينا هذا الاعتذار[٣]. وأمر الرسول بتحريق بيت سويلم اليهودي الذي كان يثبط الناس عن الرسول في غزوة تبوك[٤]. وحث الرسول على النفقة للتجهيز للحرب. وأنفق عثمان الكثير في ذلك[٥]. وطلب رضاء الله عنه لأن الرسول راض عنه معطيا الأولوية للفعل الإنساني على الفعل الإلهي. ويبكى نفر من المسلمين لأنهم يودون الجهاد ولكن ليس لدى الرسول ما يحملهم عليه. ففاضت أعينهم من الدمع أنهم لا يجدون ما ينفقون. ومع ذلك لم يقبل الله عذر المتخلفين. فقد تخلف المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي. وتخلف علي بناء على أمر الرسول ليحرس الأهل. كما خلف هارون موسى بعد أن تقول المنافقون عليه ونشروا الشائعات[٦]. وعاد أبو خثيمة إلى أهله بعد أن سار مع الرسول. ووجدوا امرأتين في عريشين رشا بالماء وبه طعام. فجاءه إحساس بالذنب.

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٤٣٧ - البستي جـ١/ ٣٦٦-٣٨٤، خير العباد ص٤٣٦-٤٦٣، الفصول ص٢٤٢-٢٥١، المغازي ص٣٩٦-٤٠٣.

(٢) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، ابن هشام جـ٢/ ٤٣٨.

(٣) ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، السابق جـ٢/ ٣٤٨.

(٤) السابق جـ٢/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٥) يقال إنه أنفق لغزوة تبوك ألف دينار وقال «اللهم أرض عن عثمان فأني عنه راض»، السابق جـ٢/ ٤٣٩.

(٦) جـ٢/ ٤٣٩-٤٤٠، الإشارة ص٣٣٤-٣٤٨، بهجة المحافل ص٣٣٣-٣٣٥، سيرة النبي ٣٧١-٣٧٩، السيرة الحلبية جـ٣/ ١٨٣-٢١٢، حياة محمد ص٣٦٩-٣٧٦، نور اليقين ص١٧٧-١٨٠.

وخرج إلى الرسول من جديد فاستقبله استقبالا حسنا[1]. وقد نزل القرآن في المنافقين الذين كانوا يهبطون عزيمة المسلمين بأن قتال الغرب بعضهم بعضا غير قتال الروم. فاعتذروا للرسول وقالوا إنهم كانوا يلعبون ويخرصون[2].

وكلما علم الرسول بتخلف أحد المسلمين في الطريق إلى مؤتة أمر بتركه. فالله سيرجعه إن كان فيه خيرا وإلا فقد استراح المسلمون منه[3]. كما حدث ذلك لأبي ذر. وأثنى عليه الرسول أنه يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده. وبالفعل مات أبو ذر وهو في الطريق بمفرده، ودفن بمفرده. وفي طريق العودة من مؤته كان الرسول يسأل عمن تخلف، جماعة جماعة إما وصفا لألوانهم وأحجامهم أو أماكنهم استنكارا لهم. وإن كان أحد لا يستطيع الخروج فكان عليه على الأقل أن يحمل أحد القادرين على بعيره في سبيل الله. وعز على الرسول أن يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار وهم أهله[4]. وقد تخلف ثلاثة في غزوة تبوك مع باقي المعذرين[5]. ولم يعاقب الله أحدا ممن تخلف عن غزوة بدر، إنما عاقب الذين تعذروا بطول السفر وشدة الحر أو عدم الاستعداد بعد. وقبل الرسول الاعتذار. وانتظر قضاء الله فيهم[6]. وجاء كتاب من ملك غسان يطلب منه الحضور إليه بدلا من الجفاء والهوان. وأمره الرسول باعتزال امرأته دون طلاقها. كما طالب ذلك من الشيخ الكبير. ورفض تشفع امرأته فيه. فلما ضاقت الأرض عليهم بما رحبت سمع أحدهم صوت البشارة وأن الفرج قد أتاه وسبقه بالصوت أسرع من الفرس إلى الرسول. وبشره بالخبر بأن الله تاب عليه على أن يمسك بعض ما له دون

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٤٤١، الأسوة الحسنة جـ١/ ٤٩٨-٥١٥، سيد الأنام ص٢٥٩-٢٦٦، مختصر سيرة(١) ص١٤٩.

(٢) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، ابن هشام جـ٢/ ٤٤٥، خير العباد ص ٤١٦-٤٣٧، مختصر سيرة (٢) ص٣٩١-٤١٢، سيرة الرسول ص٢٣٧-٣٤٦، السيرة النبوية ص٣٧٦-٣٨٢، صحيح السيرة ٥٨١-٦٠٧، خير الورى ص٧١٤-٧٤٠، الرحيق المختوم ص٤٢٩-٤٣٩.

(٣) «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، ابن هشام جـ٢/ ٤٤٤، خير العباد ص٤٣٨، بهجة المحافل ص٣٣٦-٣٤٦، سيد الأنام ص٢٣٩-٢٤٠.

(٤) «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، ابن هشام جـ٢/ ٤٤٤.

(٥) السابق جـ٢/ ٤٤٨.

(٦) والمعذرون حوالي بضعة وثمانين رجلا جـ٢/ ٤٥١.

التصدق به كله. ونزل القرآن[1].

وصالح الرسول ويحنة (يوحنا) صاحب آيلة. وأعطاه الجزية، وكذلك القرى المحيطة بها. وأمّنهم على أهل الشام واليمن على سفنهم وسياراتهم في البر والبحر. ومن أحدث منهم حدثا فإن ماله لا يحول دون نفسه. ولا يحل لهم منع ماء أو طريق[2]. ثم أسر خالد اكيدر ملك كندة النصراني وقتل أخاه. وأرسل إلى الرسول عليه قباء من ديباج بخوص بالذهب استلبه خالد منه تعجب منه المسلمون، ولكن الرسول اعتبر مناديل سعد بن معاذ في الجنة أفضل منه[3]. وتصالح خالد معه على أن يدفع الجزية ويعود إلى أهله. وترك الرسول تبوك بعد عدة ليال بلا معركة. وعندما أمر ألا يشرب أحد من الوادي حتى يصله الجميع تشجيعا على الوصول عصاه بعض المنافقين وشربوا منه. وتوفى ذو البجادين في الطريق. فدفنه الرسول مع أبي بكر وعمر داعيا له بأن يرضى الله عنه بعد أن رضي الرسول عنه معطيا الأولوية للفعل الإنساني على الفعل الإلهي[4].

ونزل القرآن معيبا على المسلمين التخاذل في غزوة تبوك ونفاق البعض الآخر حين دعوا إلى الجهاد[5]. وقد رفض عمر أن يصلي الرسول على ابن أبي رأس النفاق لأن الله

---

(١) ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾، ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾، جـ٢/ ٤٥٤.

(٢) «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه آمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليمنة ابن رؤبة وأهل أرملة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس،وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر»، ابن هشام جـ٢/ ٤٤٥-٤٤٦.

(٣) «أتعجبون من هذا. فو الذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»، السابق جـ٢/ ٤٤٦.

(٤) السابق جـ٢/ ٤٤٧/ ، خير العباد ص٤٤٥، الإشارة ص٣٣٩.

(٥) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾،

خيّره بين الاستغفار أو عدم الاستغفار. وقد اختار الاستغفار، وسيزيد على سبعين مرة[1]. ومشى معه وأقام على قبره. ثم نزلت الآية مؤيدة لموقف عمر.

وكان الرسول قد رفض أن يصلي في مسجد الضرار وهو ذاهب إلى تبوك لأنه على سفر ومشغول ووعد بفعل ذلك في طريق العودة. وفي طريق العود أمر الرسول اثنين من المسلمين بهدمه وحرقه لأنه مسجد ظالم لم يقم على التقوى كما نز ل القرآن[2].

وكان يمكن تصحيح بعض أحكام القدماء بالنسبة إلى غزوة الروم. فلم تكن فتوحات الشمال غزوا للروم بل كانت تحريرا للقبائل العربية، الغساسنة من سيطرة الرومان، وتأمين لشمال شبه الجزيرة العربية من غزو الرومان[3].

ومن الدلالات الإيجابية لتبوك، جواز القتال في الشهر الحرام، ولزوم النفير للجميع إذا خرج الإمام، والجهاد بالمال، وإعلام الرعية بما ينبغي الاستعداد له، واستحباب التبشير وإعطاء البشارة، والتهنئة عند حصول النعم[4]. ومن الدلالات السلبية استخلاف الإمام عندما يتحول إلى وصية أو وراثة، وتحريق أماكن المعاصي، واعتزال النساء، واجتنابهم زمن العبادات[5]. وتضعف بعض الروايات مثل قصة الرجل المقعد الذي دعا الرسول عليه لأنه قطع صلاته مارا بينه وبين القبلة، نخلة أو حمارا[6].

٥- الغدر والنفاق

ولم تمنع هذه الغزوات ولا المعاهدات المشركين من الغدر وبعض المؤمنين من النفاق.

ابن هشام جـ٢/ ٤٦٤.

(١) «يا عمر أخر عني. أني قد خُيرت فاخترت. قد قيل لي﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾، فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفِر له زدت، ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾»، السابق جـ٢/ ٤٦٦-٤٦٧.

(٢) ابن هشام «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه»، ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، جـ٢/ ٤٤٨-٤٤٩، خير العباد ص٤٥٥-٤٥٦، الإشارة ص٣٤٠، نور اليقين ص١٨٠، سيد الأنام ص٢٦٦-٢٦٧.

(٣) الرحيق المختوم ص٤٣٥-٤٣٦.

(٤) خير العباد ص ٤٦٤/ ٤٨٦.

(٥) السابق ص٤٦٥/ ٤٧٤/ ٤٨٤-٤٨٥.

(٦) السابق ص٤٥٠.

فقد استأذن الرسول للتخلف عن القتال فريقان، القادرون نفاقا، وغير القادرين إيمانا[1]. الأول يعتبر ما ينفق غرما وخسارة. والثاني يعتبر ما ينفق قربة من الله[2].

وأسلم من ثقيف عروة بن مسعود ثم عاد إلى قومه بالرغم من تحذيره أنهم قد يقتلون. فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبال فقتلوه. وشبهه الرسول بصديق النبي[3]. ومع ذلك أصرت ثقيف على إرسال نفر للرسول. وسألوه أشياء أباها عليهم. وأصروا على كتابة ذلك. حيوه بتحية الجاهلية. وطلبوا أن يدع لهم الطاغية اللات، ولا يهدمها ثلاث سنوات ثم سنة فقط، حتى يأنس القوم الإسلام. فرفض الرسول. وأرسل اثنين من المسلمين لهدمها. ثم طلبوا إعفاءهم من الصلاة، وكسر أوثانهم بأيديهم. فرفض الإعفاء من الصلاة لأنه لا خير في دين لا صلاة فيه. وأمّر عليهم حدث السن لأنه أحرص على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن. وأوحى بعدم الإطالة في الصلاة، وقضاء الدين عن المدين من مال الوثن. وعقاب من يخرج على هذا الاتفاق الجلد أو نزع الثياب[4]. وإن زاد فليرسل المخالف إلى الرسول[5]. فالإسلام واقع يقدر مشاغل الناس، ومشاكلهم الاجتماعية مثل الدين.

وعلامة النفاق أن يقول اللسان ما ليس في القلب. والمنافقون اشتروا بآيات الله

---

(١) ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾، ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، ﴿ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، ابن هشام جـ٢/ ٤٦٧

(٢) ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾، جـ٢/ ٤٦٧، سيد الأنام ص ٢٧٠-٢٧٢.

(٣) «إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه»، ابن هشام جـ٢/ ٤٥٥.

(٤) «يا عثمان، تجاوز في الصلاة، وأقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة»، السابق جـ٢/ ٤٥٨.

(٥) السابق جـ٢/ ٤٥٨-٤٥٩.

ثمنا قليلا، وصدوا عن سبيله. لا يرقبون إلاّ ولا ذمة. يظهرون وجها ويبطنون وجها آخر[1]. وطريق الرجعة مفتوح: التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويسخطون إذا لم ينالوا من الصدقات. وقد نزل القرآن في أهل النفاق[2]. يرخص أعذارهم في عدم الخروج. ويعاقب الرسول لإعطائهم الإذن في التخلف مع أنهم لو خرجوا لبثوا الفتنة بين المسلمين[3]. ويحذر القرآن المسلمين من سماع المنافقين.

وقد رد القرآن على قريش في ادعائهم عمارة البيت دون أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وعدم خشية أحد إلا الله. فالإسلام كل لا يتجزأ في أركانه الخمسة[4].

كما نزل القرآن بجهاد المشركين ممن نقضوا العهد. فمن اعتدى منهم يُعتدى عليه. وهم الذين فرضوا الجهاد بالاعتداء على المسلمين لأنهم لا يخشون أحدا في حين أن المسلمين يخشون الله. فالله يعذب المشركين بأيدي المسلمين ويخزهم، وينصر المسلمين عليهم. الجهاد هو محك صدق الإيمان[5]. والمشركون نجس لا يقربون المسجد الحرام.

---

(١) ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٢، ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ، اِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، جـ٢/ ٤٦١.

(٢) ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٥.

(٣) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾، ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٤.

(٤) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٢-٤٦٣.

(٥) ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ

والقتال واجب ضد من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون بدين الحق من أهل الكتاب حتى يرضخوا ويعطوا الجزية[1].

ونزلت براءة لنقض ما بين الرسول والمشركين بل والتوبة عن هذا العهد المجحف. أما من أبقى على العهد من المشركين فيبقى حتى تنتهي مدته. فبعد الأشهر الحرم يحل قتال المشركين كافة ومحاصرتهم والتربص لهم إلا إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة. وأن استجار أحد منهم الرسول فليجره وليؤمنه[2]. وليس للمشركين عهد عند الله ورسوله إلا العهد الذي عقد عند المسجد الحرام المشروط باستقامة المشركين. أما إذا ظاهر على المسلمين ولم يراعوا شرط العهد فإنه يصبح منقوضا[3]. وخص الرسول عليا بتأدية براءة عنه لأنه لا يؤدي عنه إلا رجل من أهل بيته، ألا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بغد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو قائم إلى مدته.

تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٢.

(١) ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٣.

(٢) ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ، وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٠.

(٣) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، السابق جـ٢، ٤٦٠/ ٤٦٢.

وقد نزل القرآن فيمن آذى الرسول وغشه. يتهمه المشركون بأنه يسمع كلام الساعين بالوشايات وهو لا يسمع إلا الخير. ومن يؤذي الرسول له عذاب أليم. يرضون أولئك ويرضون هؤلاء والله أحق أن يرضوه. ويعتذرون بأنهم كانوا يلعبون ويخرصون وبالله ورسوله يستهزئون. ولكل طائفة عذاب أليم[1]. ويدعو القرآن النبي إلى مجاهدة الكفار والمنافقين وأن يغلظ عليهم. فمأواهم جهنم. يحلفون أنهم ما قالوا وهم قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهموا بالإيذاء دون أن يحققوا نواياهم، ونقموا على من أغناهم الله من فضله[2]. ومنهم من عاهد الله لئن آتاهم الله من فضله يتصدقون، ويكونون من الصالحين. وهم في نفس الوقت يسخرون من المتصدقين[3]. والله يقبل كل الصدقات بصرف النظر عن مقدارها. كل حسب طاقته[4]. واعتذروا بالحر عن الخروج وجهنم أشد حرا. يضحكون قليلا، ويبكون كثيرا. ولا يعجب أحد من كثرة أموالهم وأولادهم.

كما نزل القرآن في أهل الكتاب يكشف عن أعمالهم، أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، وكنز الذهب والفضة، وعدم إنفاقها في سبيل الله[5]. يحللون عاما

---

(١) ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٥-٤٦٦.

(٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾، ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٥-٤٦٦.

(٣) ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٦.

(٤) ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٦.

(٥) ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٣.

ويحرمون عاما حتى يحللوا ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله[1]. وهو نوع من النفاق، فالإيمان بلا عمل نفاق.

وأخيرا نزل القرآن في السابقين من المهاجرين والأنصار وفضلهم وما وعدوا به من حسن الثواب، والتابعين لهم بإحسان في مقابل المنافقين الذين سيعذبهم الله مرتين[2]. فريق الصدقة للتطهير، وفريق آخر متروك لله إن يشأ أن يعذبهم أو يتوب عليهم. الأول اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. والثاني مثل من بنى مسجد الضرار الذي هدمه الرسول القائم على النفاق والرياء[3].

٦- الغزوات، والسرايا، والبعوث

وبالرغم من تتابع الغزوات، واحدة تلو الأخرى، بمنهج تاريخي صرف هناك جمع لها في آخر السيرة لمعرفة بنيتها[4]. فقد غزا الرسول بنفسه سبعا وعشرين غزوة منها ما تم بقتال ومنها ما لم يتم فيه قتال. قاتل الرسول في تسع منها[5]. وتسمى الغزوات بأسماء قوادها أو من أرسلوا لها، أسماء شخصية وليست مواقع مثل بدر وأحد وحنين والطائف. وهناك غزوات أخرى أصغر على الإجمال دون التفصيل[6]. وهناك غزوة كان الرسول قد وعد عائشة بإعطائها سبيا لعتقه[7]. فأهداف الغزوات متعددة، منها

---

(١) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٣-٤٦٤.

(٢) ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ، وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٣) ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٦٨، بهجة المحافل ص٣٣٥.

(٤) ابن هشام جـ٢/ ٥١٢.

(٥) وهي: بدر، أحد، الخندق، قريظة، المصطلق، خيبر، الفتح، حنين، الطائف، السابق جـ٢/ ٥١٣. ابن خلدون ص ١٤٧-١٥٢.

(٦) ابن هشام جـ٢/ ٥٢٣.

(٧) غزوة عيينة بن حصن بني العنبر من بني تميم «هذا سبي بني العنبر يُقدم الآن فنعطيك منهم إنسانا فتعتقينه»، جـ٢/ ٥٢٣-٥٢٤، ألفية السيرة ص١٠١-١٠٥، بهجة المحافل ص٣١٨-٣٢٣، الرسائل(٤)، الرفود(٢٤)،

قطع طريق المواصلات مثل بدر. ومن ثم تحدد الغزوات بأهدافها وليس بأسماء المواقع أو القبائل.

والدافع على بعض هذه الغزوات إما الثأر والانتقام بسبب الغدر أو السلب بالإضافة إلى صد الشرك ونشر الإسلام. وكثير منها قتل فردي وقسوة مثل وضع طرف القوس في عين القتيل، والطرف الثاني في العين الأخرى حتى العظم أو تقطيع اليدين والرجلين أو إطلاق سهمين الأول في الجنب والثاني في المنكب. وقد قتل المسلمون فريقا من المشركين سلما وهو في طريقه إلى الرسول بعد أن اطمأنوا وناموا واستاقوا النعم(١). ففي كل غزوة يذكر سببها أي الدافع عليها، وتمكن المسلمين من الكفار، ومن قتل فيها وما قيل فيها من شعر. وكان الهدف من غزوة قتل أحد المشركين بعد أن بلغ الرسول أنه يجمع الناس ليغزوه «فإنه قاتله». وهو مثل الشيطان إذا رآه المسلم أصيب بقشعريرة. وحدث كما وصف الرسول(٢).

وفي غزوة عاد المسلم برسالة من الرسول إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا. وقدم آخر من عند قيصر الروم أرسله النبي في تجارة له فأغار الثاني على الأول. فقام أهله بالقتال وتمكن المسلمون من الكفار، وقتلوا الغادرين. وأعطى الرسول سيفه إلى علي لنصرة المسلمين(٣). وفي غزوة أخرى قتل المشركون، وأسر البعض الآخر، وأطلق الرسول سراح إحدى السبايا وقيل فيها الشعر(٤). وكان يهود قد عاونوا المشركين،

السرايا(٣١)،الغزوات(٢٨)،نور اليقين ص١٨٤-١٨٥/ ١٨٧-١٩٥، الأسوة الحسنة جـ٢/ ٥٨٨-٦٢٠، مختصر سيرة(٢) ص٣٨٤-٣٩١/ ٤١٣-٤٤٢، كتاب الجهاد والمغازي والسيرة، المستصفى ص٤٥٨-٥١٩، الرحيق المختوم ص٤٢٤-٤٢٨، توجيه الأمراء والولاة، عبقرية محمد ص١٠٦-١٠٧، كتاب الجهاد والمغازي والسير، سنن المصطفى ص٤٥٨-٥١٩، عدد الغزوات والسرايا، بهجة المحافل، ص٤٢٤-٤٢٥، عبقرية محمد العسكرية، عبقرية محمد ص ٣٧-٨٤.

(١) مثل غزوة غالب بن عبد الله الليثي لبني الملوح، ابن هشام جـ٢/ ٥١٣-٥١٥.

(٢) غزوة عبد الله بن أنيس لقتل خالد بن سفيان بن قبيح الهذلي،السابق جـ٢/ ٥٢٢-٥٢٣. غزوة ابن أبي حدرد لقتل رفاعة بن قيس الجشمي، جـ٢/ ٥٢٩-٥٣٠- غزوة عمير بن عدي الخطمي لقتل عصماء بنت مروان، جـ٢/ ٥٣٥-٥٣٦ .

(٣) غزوة زيد بن حارثة إلى جذام، السابق جـ٢/ ٥١٦-٥١٩.

(٤) غزوة زيد بن حارثة بني فزارة، السابق جـ٢/ ٥١٩-٥٢٠.

وقتل المشرك بقطع رجله أولا، وشج رأسه ثانيا[١]. وغُزيت خيبر من جديد لإصابة يهودي[٢].

وفي غزوة قتل قائد المسلمين مشركا. فعندما أشهر عليه السلاح قال «أشهد أن لا إله إلا الله»، ومع ذلك قتل. فحزن الرسول[٣]. ورفض عذر أنه أعلن الشهادة تخوفا من القتل. وتروى نفس الحادثة مع خالد بن الوليد وتعليق الرسول «ألا شققت على قلبه»، وتستعمل ضد الجماعات الإسلامية الحالية التي يسهل عليها تكفير الناس.

وكان على أحد الغزوات أكثر من أمير. فقد أرسل عمرو بن العاص على إحداها ثم أرسل له الإمداد برئاسة أبي عبيدة الجراح بشرط عدم الاختلاف مع الأمير الأول «لا تختلفا». وكأن الرسول على علم بما يحدث في النفس البشرية من طلب للإمارة. وقد وقع الخلاف بالفعل، أيهما الأمير؟ واتفقا على أن يكون الأمير هو الأول، والثاني مدد له. وفي نفس المعنى أرسل أبو بكر وصية بتوحيد الله، وعدم الشرك به، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والغُسل من الجنابة ، والحج إن استطاع إليه سبيلا دون تقلد الإمارة. أما الإمارة فإنها شرف عند الرسول. وآثر أبو بكر الجهاد في الدين، وإدخال الناس فيه طوعا أو كرها، والحفظ على حقوق الجار ودون إضراره في بعيره وشياه لأن الله يغضب للمساس بحقوق الجار. فلما أصبح أبو بكر خليفة سأله الرجل عن إمارته فبررها أبو بكر بأنه كان يخشى على الأمة الفرقة[٤]. وقد أرسل النبي علّيا على رأس غزوة إلى اليمن ونصبه عليها أميرا[٥].

وقد تتحول الغزوة عن مقصدها ويقتل قائدها أحد المسلمين كان بينه وبينه ثأر، أخذ بعيره وسلب أمواله حتى علم الرسول ونزلت الآية[٦]. وقد يختصم اثنان في

---

(١) غزوة عبد الله بن رواحة لقتل السير بن رزام، السابق جـ٢/ ٥٢٠-٥٢١.

(٢) خيبر غزوة ابن عتيك. السابق جـ٢/ ٥٢١

(٣) غزوة غالب بن عبد الله أرضي بني مرة ومقتل مرداس، قول الرسول «يا أسامة من لك بلا إله إلا الله»، السابق جـ٢/ ٥٢٤.

(٤) هي غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل، السابق جـ٢/ ٥٢٥-٥٢٦.

(٥) السابق جـ٢/ ٥٣٩، ابن خلدون ص١٦٣.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، ابن هشام جـ٢/ ٥٢٧.

الاختصاص من مشرك لأن بينه وبين أحدهما ثأر، وحكم الرسول بالدية لها مناصفة. وإذا ما أخطأ مسلم في قتل أحد خطأ فقد لا يغفر له[1]. فلا يجوز تأمين أحد ثم قتله. فالأمثلة عديدة على تحول المقصد الكلي للغزوة، الجهاد في سبيل الله، إلى مقاصد فرعية من بقايا الجاهلية مثل الثأر.

وقد تكون الغزوة أحد طرق زيادة الكسب والمال بعد توزيع الغنائم. فقد طلب أحد المسلمين بعض المال لزيادة صدقة عروسه، والرسول لا يملك. ثم أرسله للخلاص من رجل أراد شرا بالرسول وبالمسلمين. فانتصر المسلمون. ونال السائل من الفيء ما استعان به على الزواج. فقد وضع سهمه في فؤاد العدو ثم اجتز رأسه. وكسب إبلا عظيمة وغنما كثيرة، وجاء برأسه يحمله إلى الرسول، وإعطاء الرسول ثلاثة عشر بعيرا لصداقه[2]. وهو كسب في مقابل قتل.

وقد تكون الغزوة خالصة لله[3]. ويكون الجو العام للغزوة جوا أخلاقيا. فعندما سئل الرسول عن أي المؤمنين أفضل؟ أجاب أحسنهم خلقًا. وأي المؤمنين أكيس؟ أكثرهم ذكرا للموت، وأحسنهم استعدادا له. ثم وعظ الرسول المهاجرين. وحذرهم من خمس خصال حتى لا يقعوا فيها: ظهور الفاحشة والإعلان عن ذلك فيظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في إسلامهم، وإنقاص الكيل والميزان فيصيبهم الجدب، وشدة المؤمن وجور السلطان، ومنع الزكاة عن الأموال فيمنع عنهم القطر من السماء، ولولا البهائم ما وقع المطر، ونقض عهد الله ورسوله فيسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيأخذ بعض ما بأيديهم. وإذا لم يحكم أئمتهم بكتاب الله وتجبروا فيجعل الله بأسهم بينهم شديدًا. ووجه نصائح للقائد بعدم الغلو والغدر والتمثيل وقتل الوليد[4].

ومع أنه لا يجوز قتل امرأة إلا أن هدف إحدى الغزوات كان قتل امرأة[5]. وكانت

---

(١) «لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحرقة مثل ما أذاق نسائي، «أمته بالله ثم قتلته»، السابق جـ٢/ ٥٢٧».

(٢) غزوة ابن أبي حدرد لقتل رفاعة بن قيس الجشمي، السابق جـ٢/ ٥٢٩-٥٣٠.

(٣) غزوة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، السابق جـ٢/ ٥٣٠-٥٣١.

(٤) «أغزوا جميعا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا»، السابق جـ٢/ ٥٣١.

(٥) «ألا آخذ لي من ابنة رضوان»، غزوة عمير بن عدي الخطمي لقتل عصماء بنت مروان، السابق جـ٢/ ٥٣٥-٥٣٦.

تحت رجل من بني خطمة. وهي صورة مكانية لعلاقة الزوج بزوجه في النكاح قد تتغير من ثقافة إلى أخرى. وقد طلب ذلك الرسول. ولما تم ذلك كأن القاتل نصر الله ورسوله ولا وزر عليه، لا ثأر ولا اختلاف[١]. فالحرب هي الحرب. لها منطقها الداخلي، مهما كان هناك من أخلاق وآداب.

وبالإضافة إلى الغزوات هناك السرايا. وهي مجرد بداية غزوات واستكشاف إمكانيتها دون القيام بها بالفعل. وقد دفع ذلك بعض المشركين إلى الانضمام إلى المسلمين[٢]. كانت السرية الأولى التي أرسلها الرسول إلى عير قريش بعد أن غيرت طريقها إلى الشام من وقعة بدر إلى طريق العراق، ومعهم فضة كثيرة. ونزلوا عند ماء. فأصابتهم السرية، واستولوا على ما فيها، وأحضروها إلى الرسول[٣]. فالهدف كان المال أي الحرب الاقتصادية. وقد طلب الرسول من سرية رأس أحد المشركين وكأن الأمر معركة شخصية وكأن الحرب غاية شخصية[٤]. ومن آداب السرايا عدم تفريق السبايا وبيعهم جميعا للإبقاء على صلة الرحم[٥].

وأسرت سرية أحد المشركين ثم أسلم[٦]. وطلب الرسول بعد أسره الإحسان إليه وإرسال الطعام له مع رجاء الرسول أن يسلم. وعز عليه الإسلام وعرض الفداء أو قتل ذي دم. فطلب الرسول إطلاق سراحه ثم أسلم. وأذهب الرسول عن الناس العجب لأن الرجل أكل معه كافرا في أول النهار وأصبح مسلما في آخره. الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمسلم في معيْ واحد. وخرج إلى مكة. فأراد المشركون ضرب عنقه، وقد كان أبغض الوجوه إلى الرسول قبل الإسلام. ثم أصبح أحب الوجوه إليه بعد إسلامه.

---

(١) «نصرت الله ورسوله يا عمير»، «لا يتناطح فيها غفران»، السابق جـ٢/ ٥٣٦.

(٢) مثل سرية عبيدة بن الحارث وهي أول راية عقدها الرسول رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهم. وكان أول سهم رمى به في الإسلام، السابق جـ٢/ ٥٢٧، سرية حمزة إلى سيف البحر وكانت رايته أول راية في الإسلام، جـ١/ ٥٢٧-٥٣٠، سرية سعد بن أبي وقاص، سرية عبد الله بن جحش جـ١/ ٥٣٢-٥٣٦.

(٣) سرية زيد بن حارثة إلى اليمن ، وكان فيها أبو سفيان، السابق جـ٢/ ٤٦-٤٧.

(٤) «من لي بهذا الخبث»، سرية سالم بن عمير لقتل أبي عفك، السابق جـ٢/ ٥٣٤-٥٣٥.

(٥) سرية زيد بن حارثة إلى اليمن، السابق جـ٢/ ٥٣٣-٥٣٤، البستي جـ١/ ٢١٦-٢١٨/ ٢٦٧، ألفية السيرة ص١٠٥-١٢٢، السيرة الحلبية، جـ٣/ ٢١٣-٢٩٠(حوالي ٥٦ سرية).

(٦) هي السرية التي أسرت ثمامة بن آثال الحنفي، ابن هشام، جـ٢/ ٥٣٦-٥٣٧.

ومنع المشركين أن يحملوا إلى مكة شيئا. وشكوا إلى الرسول أنه يأمر بصلة الرحم مع أنه قطع الأرحام، وقتل الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع. فأمر الرسول بتركهم. وكان الهدف من السرية الأخذ بالثأر، وكان أميرها يحب الدعابة. فأمر أصحابه بإلقاء أنفسهم في النار. فلما استعدوا أعلن لهم أنه كان يضحك عليهم. فقال الرسول «من أمركم بمعصية منهم فلا تطيعوه»[1]. ولم يحدث فيها قتال. وأرسل النبي سرية للانتقام من البجليين والتنكيل بهم، قطع أيديهم وأرجلهم وسحل أعينهم لأنهم قتلوا غلامه يسارا راعي الغنم مع أن الرسول داواهم بشرب اللبن والأبوال من الأوجاع التي لديهم[2].

ومع الغزوات والسرايا هناك البعوث. ليست للحرب كالغزوات والسرايا بل للدعوة إلى الإسلام كما هو المعنى الحالي للبعوث الإسلامية، وكانت السرايا والبعوث ثمانية وثلاثين بين بعثة وسرية[3]. وتسمى بعثة أو بعث[4]. أرسلت بعثة لقتل أحد المشركين[5]. فضربه أحد أعضاء السرية بخنجر في صدره صاح بعدها حتى سمعه كل أهل مكة دون مطالبته بالنزال العلني للدفاع عن نفسه. وقد بُعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين في آخر البعوث[6].

٧- الوفود، والرسائل، والوداع

أ- استقبال الوفود

وقد استمر اكتمال الرسالة حتى العام التاسع، عام الوفود ونزول سورة الفتح. فبعد فتح مكة، والفراغ من تبوك، وإسلام ثقيف ومبايعتها أتته وفود العرب من كل وجه. ودخلوا في دين الله أفواجا. فنزلت الآية[7]. وقد همت الوفود على الرسول

---

(١) هي سرية علقمة بن مجزر، السابق جـ٥٣٨.

(٢) هي سرية كرز بن جابر لقتل البجليين الذين قتلوا يسارا، السابق جـ٢/ ٥٣٨.

(٣) مثل بعثة أسامة إلى أرض فلسطين، السابق جـ٢/ ٥١١/ ٥١٣.

(٤) السابق، جـ٢/ ٥٣٢-٥٣٣.

(٥) «بعث عمرو بن أمية الضمري لقتال أبي سفيان بن حرب، السابق جـ٢/ ٥٣٢-٥٣٣».

(٦) السابق جـ٢/ ٥٣٩.

(٧) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، السابق جـ٢/ ٤٧٣.

ولتعلن إسلامها. وكان رئيس الوفد يلقي خطابا أمام الرسول ليعلن ولاء قومه له. وكان الرسول يرد عليه بخطاب ترحيب أو يطلب من أحد أصحابة أن يفعل ذلك بدلا عنه[1]. وكان يُلقى الشعر في الفخر بقوم الوفد ويرد حسان، شاعر الرسول عليه بشعر آخر يبين فضل الرسول مع مراعاة الآداب العربية مثل عدم نداء الرسول من وراء الحجرات[2]. وبعض رجال الوفود أضمر الغدر للرسول، وكانت بعض الوفود تسأل عن الإسلام ويجيب الرسول بأنه رسول الله يأمر بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به، والصلاة خمس مرات، والزكاة، والصيام، والحج، وباقي الشرائع. إن صدق المؤمن دخل الجنة. ويضمن الرسول أن الدين الجديد أفضل من القديم، وأنه ليس لديه ما يحمل الناس عليه ويحذرهم من الأصنام ومن الردة[3]. فبعد الفتح تأتي الناس إلى الرسول ولا يذهب الرسول إليهم، أصبح الإسلام نقطة جذب وليس نقطة طرد[4].

وقد قدم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب. وستره الوفد لأنه كان عاريا. وعرفه الرسول وأبلغه أنه لو سأله هذا السعف من النخل ما أعطاه. وفي رواية أخرى أنه بقى في رجال القوم. فلما استدعوه أبلغهم الرسول أنه ليس بشرهم مكانا. وقد تنبأ الرسول بارتداده وتنبؤه. إذ لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالا كلهم يدعون النبوة، وقد كتب مسيلمة إلى الرسول يطالبه بالاشتراك معه في الأمر، له نصف الأرض ولقريش نصفها بالرغم من عدوان قريش. وأرسل الكتاب مع رسولين. ولولا أن الرسل لا تقتل لدق الرسول عنقيهما. وكتب الرسول إلى مسيلمة الكذاب أن الأرض يورثها الله لمن يشاء من عباده، وأحل للناس الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة. وكان

(١) «قم فأجب الرجل في خطبته»، السابق جـ٢/ ٤٧٥.
(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، السابق جـ٢/ ٤٧٩.
(٣) وهو عامر بن الطفيل في وفد بني تميم، السابق جـ٢/ ٤٧٩-٤٨٦.
(٤) ابن خلدون ص١٨٦-١٩١، خير العباد ص٤٩٧-٥٧٥(حوالي ٣٣ وفدا)، السيرة ص ١٤٨-١٥٠، بهجة المحافل ص٢٧٤-٢٧٥/ ٣٢٢-٣٣٣، سيرة النبي ص٣٦٥-٣٧٠، السيرة الحلبية جـ٣/ ٢٩٨-٣٣٦، حياة محمد ص٣٧٩-٣٩٠، المغازي ص١٥٤-١٦٤، مختصر سيرة(١) ص١٦٠-١٦٤، مختصر سيرة (٢) ص٤١٣-٤٤٣، معجز محمد جـ٢/ ٣٠٠-٣٢٠/ ٣٢١-٣٣٤، سيرة الرسول ص٢٥٠-٢٥٨، السيرة النبوية ص٣٨٣-٣٩٢، صحيح السيرة ص٦١٩-٦٥٧، خير الورى ص٧٦٧، الرحيق المختوم ص٤٤٥.

يسبح لهم مقلدا القرآن[1]. في حين حسن إسلام البعض. ومهما قيل في فضله فإنه لن يوفيه حقه. وتمنى الرسول أن ينجو من حمى المدينة[2].

وهرب البعض من الرسول لاجئا إلى نصارى الشام. وأسر الرسول ابنته ثم أطلقها. وكانت في حظيرة في باب المسجد كانت السبايا تحبس فيها. وأطلق سراحها بالرغم من أن أبيها فر من الله ورسوله. ثم أشارت على أبيها بالإسلام. وعلم الرسول أنه كان ركوسيا جامعا بين النصرانية والصابئة، وكان يأخذ الربع من قومه. فعرف أنه نبي لأنه أخبره بما لا يعلمه أحد. وربما ما يمنعه من الدخول في الإسلام الحاجة إلى المال، وأنه سيفيض على المسلمين فوق الحاجة، وربما كثرة عدوهم وقلة عددهم مع أن المرأة قد تخرج من القادسية لزيارة البيت وهي في أمان، وربما أن الملك والسلطان في غيرهم، وستفتح القصور البيض من بابل عليهم. وقدم آخر للإسلام وسأله الرسول عما إذا كان أساءه ما أصاب قومه فأنكر. ولدى الرسول أن ما أصاب قومه لم يزدهم إلا خيرا بقدومهم إلى الإسلام. فعسى أن يكرهوا شيئا وهو خير لهم[3]. والإسلام يتطلب نزع الحرير من الأعناق[4]. وكانت القرابة عاملا في الدخول إلى الدين الجديد. وبعد أن أتاه وفد من اليمن وأعلن إسلامه طلب من الرسول أن يجاهد معهم أهل الشرك في اليمن في حبرش فحاصرهم وعاد. ثم خرجوا إليه وقاتلهم وهزمهم. وعلم الرسول بما حدث فغير اسم المكان من كشر إلى شكر. وأسلم أهلها تطيرا بالأسماء[5].

وقدم رسول ملوك حمير من أرض الروم بكتابهم بإسلامهم وقتلهم المشركين. فرد عليهم الرسول بكتاب يبدأ بالبسملة والحمدلة على أن الله قد هداهم، فعليهم طاعة الله ورسوله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإعطاء خمس الغنائم لله ورسوله، وسهم الرسول وصفيه، وله ذمة الله ورسوله، ومن أسلم من يهودي أو نصراني فإنه أيضا منهم، ومن ظل على دينه عليه الجزية، دينارا واحد من قيمة المعافر (ثياب اليمن) أو عوضه ثيابا.

(١) مثل «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى»، ابن هشام جـ٢/ ٤٨٧.
(٢) مثل زيد الخيل في وفد طي، السابق جـ٢/ ٤٨٨.
(٣) السابق جـ٢/ ٤٨٨-٤٩٢.
(٤) السابق، جـ٢/ ٤٩٤.
(٥) السابق جـ٢/ ٤٩٥-٤٩٧.

ومن منع ذلك فإنه عدو لله ورسوله. ويستمر الجزء الثاني من الخطاب لملوك آخرين، يجمع الصدقة والجزية من مخالفيهم وعودة وفد المسلمين راضيا. إذا كانوا أسلموا وقتلوا المشركين فالبشرى بالخير. وعليهم عدم الخيانة أو التخاذل. والرسول ولي الغني والفقير، والصدقة لا تحل لمحمد ولا إلى آل بيته، إنما هي زكاة لفقراء المسلمين وابن السبيل. ويُلاحظ أن الشريعة نتيجة طبيعية للعقيدة، وأن المعاملات جزء من العبادات، وأن توزيع الغنائم جزء رئيسي منها. والآن لم تعد هناك جمال ولا شياه، والجزية على اليهود والنصارى، ومظاهرة المؤمنين وقتل المشركين[1]. وهو ما يتطلب قراءة جديدة نظرا لتغير ظروف العصر التي لم تعد فيها الثروة الحيوانية هي الثروة الرئيسية، ولم يعد قتل المخالفين في العقيدة مقبولا في القوانين المحلية والإقليمية والدولية[2].

وهناك دروس مستفادة من استقبال كل وفد، ففي قصة استقبال وفد ثقيف أن المشرك إذا عذر بقومه وأخذ أموالهم ثم أرسلهم لا يتعرض له الإمام ولا لما أخذه من مال قومه. والخوف أن يكون الغدر شيمة الرجل قبل الإسلام وبعده. ويجوز إنزال المشرك في المسجد، وحسن سياسة الوفد. والمستحق لإمرة القوم وإمامتهم أفضلهم وأعلمهم وأفقههم، هدم مواضع الشرك حتى لا تؤخذ بيوتا للطواغيت،وجواز تحويلها إلى مساجد. وبعضها سلبي مثل حماية من يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم[3].

ومن فوائد مقدم وفد بني حنيفة جواز مكاتبة الإمام لأهل الردة، وعدم قتل الرسول ولو كان مرتدا، وقدوم الإمام بنفسه للقاء من قدم لقاءه من الكفار، واستعانة الإمام برجل من أهل العلم ليجيب أهل الاعتراض والعناد أي المستشار، وتوكيل العالم بعض أصحابه للإجابة عنه أي مستشار للمستشار. ومنها الأوهام مثل النبي نفخ السوارين بروح الصديق فطارا. وكان الصديق هو الذي نفخ مسيلمة فأطاره[4].

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٤٩٧-٤٩٨، معجز الرسول جـ٢/ ٣٣٥-٣٤٨.

(٢) الصفي هو ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة لنفسه قبل أن تقسم الغنائم، جـ٢/ ٤٩٧، وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار، عشر ما سقت العين والسماء وعلى ما سقى الغرب. (الدلوم نصف العشر وفي الإبل الأربعين ابنة ليون، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع، وفي كل أربعين من الغنم سائمة، ومن زاد فهو خير له. ومن ظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم. وعليه ما عليهم).

(٣) خير العباد ص٥٠٢-٥٠٣.

(٤) السابق ص٥١٢-٥١٣.

ومن دروس وفد دوس وجوب الغسل من الكفر، وعدم تقليد العاقل الناس في المدح والذم القائمين على الأهواء، وإسهام المدد للجيش وإن لم يحارب لأن الأعمال بالنيات، والتأني والصبر في الدعوة. ومن الدلالات السلبية وقوع كرامات الأولياء لحاجة الدين أو لمنفعة المسلمين لإظهار الحق وكسر الباطل، تشبيه المرأة بالأرض. يخرج منها الإنسان ويعود. فكلاهما محل الوطأ[1].

ومن فوائد وفد نجران جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين وليس كما هو حادث في عصرنا باعتبارهم نجسًا إلا إذا وضعوا الخف في الأقدام، دخول الكاهن الإسلام بإقرار أن الرسول نبي وإن لم يتبعه، جواز مناظرة أهل الكتاب، تعظيم أحد فوق ما يستحق شرك وهو ما يحدث في هذا العصر من تعظيم الرؤساء بل تعظيم الرسول نفسه، جواز إهانة رسل الكفار إذا ما تعاظموا، جواز مجادلة أهل الباطل وإقامة الحجة عليهم، جواز صلح أهل الكتاب، جواز ثبوت الحلل في الذمة والدية، جواز تعويضهم، اشتراط الإمام على الكفار إيواء رسله وإكرامهم واستضافتهم عدة أيام، اشتراطه عليهم إمداد المسلمين بما يحتاجونه، عدم إقرار أهل الكتاب المعاملات الربوية، عدم أخذ ظلم أحد الكفار بآخر، اشتراط عقد العهد والذمة بالنصح والصلاح، أمانة من يبعثه الإمام إلى أهل الذمة، مناظرة أهل الكتاب عما سألوه، حمل الكلام المطلق على ظاهره[2].

ومن فوائد وفد بلي حقوق الضيف على من نزل عليه، جواز التقاط الغنم، عدم جواز التقاط البعير[3]. ومن فوائد وفد صُداء، استحباب عقد الألوية والرايات للجيش، الألوية بيضاء، والرايات سوداء، قبول خبر الواحد مع أنه ظني عند الأصوليين، جواز سفر الليل كله، جواز الأذان على الراحلة، طلب الإمام من أحد رعيته الماء للوضوء، عدم جواز التيمم حتى ينقض الماء، تولي الإقامة من يتولى الأذان، جواز تأمير الإمام لمن سأل الإمامة، جواز شكاية العمال الظلمة ورقيهم إلى الإمام والقدح فيهم بظلمهم، جواز أن

---

(١) السابق ص٥٢٣-٥٢٥.

(٢) السابق ص٥٣٣-٥٤٠.

(٣) السابق ص٥٥٠.

يكون الشخص الواحد ضيفا تأكيدا للفردية، جواز إقالة الإمام، جواز استشارة الإمام لأصحابه، جواز الوضوء بالماء المبارك، وهي أشياء قديمة وأشياء يمكن تحديثها[١].

ومن فوائد وفد بني المنتفق سؤال الرسول على ما يرد على المسلمين من أسئلة، وإثبات القياس في أدلة التوحيد والمعاد، وحكم الشيء حكم نظيره، خلو أحاديث الرسول من التعارض والتناقض[٢].

ولم تكن الوفود تأتي الرسول فقط بل كان الرسول يرسل الوفود. فقد أوصى الرسول مبعوثا إلى اليمن بالتيسير وليس بالتعسير، بالتبشير وليس بالتنفير، وإن مفتاح الجنة لأهل الكتاب هو الشهادة[٣].

ولما أتت امرأة إلى معاذ وهو في طريقه إلى اليمن تسأله ما حق زوج المرأة عليها فقال لها إن المرأة مهما فعلت لن تستطيع أن توفي زوجها حقه، فعليها أن تجهد نفسها في أداء حقه ما استطاعت. فلما طلبت مزيدا من الدقة أعطاها صورة فنية للتشبيه أنها لو وجدت منخراه يسيلان قيحا ودما ومصت ذلك حتى تذهبهما ما أديت حقه[٤].

وكان الوفد يعلن عن نيته كتابة وليس انتقالا نظرا لظروف قومه. فقد كان البعض إذا ما أسلم عذبه الروم وقتلوه. فقد كان الروم قوة احتلال للعرب وعلى دين مخالف، النصرانية، وكان الإسلام دين تحرر لهم، دين وطني، فقد أرسل أحدهم إلى الرسول يبلغه بإسلامه. وأهدى له بغلة بيضاء. وكان عاملا للروم على العرب في أرض الشام. فأخذه الروم وحبسوه وصلبوه بفلسطين بعد ضرب عنقه[٥].

وقد أسلم البعض على يد خالد بن الوليد لما بعثه الرسول إلى نجران ليدعوهم إلى

---

(١) السابق ص٥٥٧-٥٥٩.

(٢) السابق ص٥٦٧-٥٧٤.

(٣) «يسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر، وإنك تستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، ابن هشام جـ٢/ ٤٩٨.

(٤) السابق جـ٢/ ٤٩٨.

(٥) مثل ما حدث لعروة بن عمرو الجذامي، ابن هشام جـ٢/ ٤٩٩-٥٠٠، وفيها قال:

بلغ سراة المسلمين بأنني ∴ يسلم لربي أعظمي ومقامي

الإسلام قبل قتالهم. ففعل على غير عادته. فكتب الرسول إلى خالد بالرجوع ومعهم وفد منهم. فلاحظ الرسول أنهم أشبه برجال الهند، وأنهم إذا زجروا استقدموا، وأنه لولا إسلامهم وعدم قتالهم لألقيت رءوسهم تحت أقدامهم. وكانوا يغلبون من يقاتلون في الجاهلية بالجماعة وليس بالفرقة. ولا يبدأون بظلم أحد. وهذا على غير العادة، ويبدو الوفد مستسلما لا يرد. وقد كان الوفد أقرب إلى الإسلام الطبيعي مثل حلف الفضول الذي كان يتمنى الرسول لو كان أحد موقعيه. وأرسل النبي رسولا إليهم يعلمهم الدين في كتاب، ومطالبتهم بالوفاء بالعقود وتقوى الله، والأخذ بالحق وتبشير الناس بالخير، والأمر به، وتعلم القرآن والتفقه في الدين، وعدم مس القرآن إلا بعد طهور، وتعليم الناس واجباتهم وحقوقهم، والشدة عليهم في الظلم، فإن الله يكره الظلم وينهي عنه، وتبشير الناس بالجنة وإنذارهم بالنار، واستئلاف الناس وتعليمهم معالم الحج الأكبر والأصغر، وكيف يكون الثوب وقص الشعر، والنهي عن الدعاء للقبائل والعشائر بل الدعاء لله، والوضوء والصلاة والركوع والسجود والخشوع، وأخذ خمس الغنائم، واتفاق الصدقة المفروضة، ومن أسلم من النصارى أو اليهود فهو مساو للمسلمين في الحقوق والواجبات. ومن بقى على دينه فعليه الجزية، دينار على كل فرد بالغ أو ثياب. من أدى ذلك له ذمة الله ورسوله ومن منع ذلك فإنه عدو الله ورسوله والمؤمنين[1]. وهنا يظهر الانتقال من العقيدة إلى الشريعة، ومن الإيمان إلى الواقع البدوي، ومن المثال إلى الواقع، ومن النصر إلى تقسيم الغنائم. وعبر هذا الإعلام للقبائل وساداتها تظهر الرسالة في أحاديث الرسول وروايتها.

ب- الرسائل

ورسائل الرسول كثيرة، وليس فقط الرسالة الشهرة إلى المقوقس عظيم الروم[2].

---

(١) السابق جـ٢/ ٥٠٠ - ٥٠٣ وهي: عشر ما سقت العين، وما سقى الدلو نصف العشر، وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل عشرين أربع، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة، ومن زاد فمن لديه.

(٢) مثل: رسالة الرسول مع ابن جحش التي لا يفتحها إلا في الطريق «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم»، ابن هشام جـ١/ ٥٣٣، وهي رسائله إلى هرقل، وكسرى، والنجاشي، والمقوقس، والمنذر بن ساوى، وملك عمان، وصاحب اليمامة، والحارث بن

ومازالت عقلية السيرة الأولى مستمرة، عقلية كتابة رسائل للملوك لدعوتها إلى الإسلام[1]. وهي رسائل قصيرة وواضحة. تهدف إلى المقصود مباشرة. وتبين علم الرسول بتاريخ الديانات مثل الأريسيين الذين اضطهدتهم الكنسية الرومانية. وهم شيعة آريوس التي تقول بالتوحيد.

وقدم آخر إلى الرسول وأهدى إليه غلاما، في وقت كان التعامل فيه مع البشر مثل التعامل مع الأشياء، وأسلم وكتب له الرسول كتابا إلى قومه ليسلموا. ومن لم يرغب يعطيهم الأمان شهرين[2]. ثم قدم وفد همدان وأعطاهم الرسول كتابا يعطيهم عهد الله وذمة رسوله وشهادة المهاجرين والأنصار على التمتع بخيرات الأرض في مقابل إقامة الصلاة وأداء الزكاة. وقد خرج بعض الأمراء والعمال على الصدقات رافضين الربط بين العقيدة والشريعة[3].

جـ- حجة الوداع

وفد على الرسول من اليمن وفد في حجة الوداع، وطلب منه الرسول الطواف بالبيت والحل بعد أن أشركه الرسول في هديه. وقد يكون غرض الرسول من مشاركة عليّ في حجة الوداع وإشراكه معه في الهدي له دلالته. وكل عرفة موقف، والمزدلفة موقف، والموقف للجبل الذي عليه الرسول[4]. والموقف الآن شهادة للقدس المحتلة التي يجري تهويدها والمسجد الأقصى مهدد بالانهيار من جراء الحفائر تحته[5]. وقد شكا عليا جنده إلى الرسول لانتزاعه منهم حلالا من بز اليمن. فقد أسرع عليّ لملاقاة الرسول

أبي شمر، خير العباد ص٥٧٦-٥٨٨، بهجة المحافل ص٢٤٨-٢٥٢، سيرة النبي ص٣٣١-٣٣٧، السيرة الحلبية، جـ٣/ ٣٣٧-٣٥٩، السيرة النبوية ص٢٨٧-٢٥٤، صحيح السيرة ص٤٨٥-٤٩٥.

(١) وهذا ما فعله الخميني برسالته إلى جورباتشوف يدعوه فيها إلى الإسلام، الرحيق المختوم ص٣٥١، خاتم الأنبياء ص١٨٧-١٩٢.

(٢) هو رفاعة زيد الجذامي، ابن هشام جـ٢/ ٥٠٣.

(٣) السابق جـ٢/ ٥٠٤-٥٠٦.

(٤) السابق جـ٢/ ٥٠٨/ ٥١٠، السيرة الحلبية جـ٣/ ٣٦٠-٣٨٨، سيرة خاتم الأنبياء ص٢١٥-٢٢٥، صحيح السيرة ص ٦٥٧-٦٩٠، سيرة الرسول ص٢٣٥-٢٣٦، سيرة الرسول ص٢٥٩-٢٦٦، السيرة النبوية ص٣٩٣-٤٠٠.

(٥) خواطر حاج، أخبار الأدب، ٢٢ يناير ٢٠٠٦.

في مكة قبل حجة الوداع. واستخلف على المنبر أحد أصحابه. فكسى كل رجل حلة من البز. ودخل الجيش وعلى كل جندي منهم حلة. فأمر عليّ بخلعها وردها إلى الأسلاب. فشكا الجند عليا إلى الرسول. فخطب الرسول في الجند مطالبا إياهم بعدم شكوى علي لأنه خشن في الحق[1].

وأرادت عائشة الخروج مع الرسول في حجة الوداع وهي حائض. فسمح لها بأن تقضي كل ما يقضي الحاج إلا الطواف بالبيت. وذبح الرسول عن نسائه البقر[2]. مع أنه لا فرق بين مناسك الحاج في أدائها بين رجل وامرأة، بين حائض وغير حائض، بين الطواف من ناحية، والسعي والهدي ورمي الجمرات من ناحية أخرى.

وتحليل خطبة الرسول في حجة الوداع أشبه بوصية له. وهي خطبة طويلة نسبيا يصعب على الذاكرة استيعابها وعلى الرواة نقلها. وتتضمن سبع نقاط تشريعية رئيسية بصرف النظر عن أسسها العقائدية وهي:

١- حرمة دماء المسلمين وأموالهم، وتأدية الأمانات، وترك الربا مع رد رءوس الأموال دون ظلم.

٢- دماء الجاهلية موضوعة. فالإسلام يجب ما قبله، وبالتالي الثأر والفدية موضوعان. والرسول يبدأ بنفسه، ببني عبد المطلب.

٣- النسيء زيادة في الكفر وهو ما نص القرآن عليه، يحلله الكفار عاما، ويحرمونه عاما، وبالتالي يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله.

٤- مراعاة الأشهر الحرم الأربعة، منها ثلاثة متتالية.

٥- الحق المتبادل بين الرجل والمرأة، حق المرأة على الرجل ألا يطأ فرشهن أحد وألا يأتين بفاحشة وإلا فالهجر في المضاجع، والضرب غير المبرح. ولهن على الرجال الرزق والكسوة. والوصية بهن خير لأنهن في المنزل كالأسيرات لا يملكن لأنفسهن شيئا. أخذهن الرجال بأمانة الله واستحلوا فروجهن بكلماته.

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٥٠٨.
(٢) السابق جـ٢/ ٥٠٧.

٦- ترك الرسول شيئين إن اعتصم المسلمون بها لن يضلوا، كتاب الله وسنة رسوله.

٧- كل مسلم أخ للمسلم، والمسلمون إخوة، فلا يحل لأحد من أخيه إلا ما يعطيه له عن طيب خاطر[١].

وفي رواية زيادة أخرى بها نقطتان. لا وصية لوارث تأدية لكل ذي حق حقه، والولد للفراش وللعاهر الحجر. ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يُقبل منه صدق ولا عدل.

ويمكن قسمة موضوعات حجة الوداع إلى أربع مجموعات: الأولى هديه في أحكام الجهاد وآدابه[٢]. والثانية هديه بشأن الغنائم والأسرى[٣]. والثالثة هديه في عقد الذمة وأخذ الجزية[٤]. والرابعة هديه في عقود الصلح[٥].

٨- وفاة الرسول

ووفاة الرسول يمكن أن تكون نهاية فترة الانتشار أو بداية فترة المصير خاصة وأن بدايات الخلاف السياسي كانت بعد وفاة الرسول قبل أن يوارى الثرى، في سقيفة بني ساعدة. وكان من الأفضل أن تكون في نهاية فترة الانتشار لأنه كان مازال يوحي بإرسال بعثة أسامة إلى الروم. وقد تكون في المرحلتين، ووفاته في نهاية مرحلة الانتشار،

---

(١) السابق جـ٢/ ٥٠٩-٥١٠، الفصول ص٢٥٣-٢٥٨، ابن خلدون ص٢٠٠-٢٠٢، خير العباد ص٥٨٩-٦١٤، بهجة المحافل ص٣٦٣-٣٧٠، سيرة النبي ص٣٨٠-٣٨٥، حياة محمد ص٣٩١-٣٩٩، نور اليقين ص١٨٥-١٨٧، الأسوة الحسنة جـ١/ ٥١٥-٥١٨، السيرة النبوية ص٢١٩-٢٨٣، الرحيق المختوم ص٤٥٨-٤٦٢، رسول الحرية ص٣٢٧-٣٣٨، الجوهرة جـ٢/ ٩٩-١٠٥.

(٢) وتشمل: البيعة، والشورى، والوصية بتقوى الله، والأدعية عند اللقاء، والترتيبات بشأن المعركة، والوفاء بالعهد، والرسل، وعدم إقامة المسلم بين المشركين، خير العباد ص٥٩٢-٥٩٧.

(٣) وتشمل: توزيع الغنيمة والتجارة في الغنائم، واستئجار الأجراء للغزو، والاشتراك في الغنيمة، وعدم جواز إعطاء سهم لمن قدم بعد الفتح، وسهم ذوي القربى، والطعام في الغنيمة، والنهي عن النهبة والمثلة، ومن أسلم عن شيء في يده فهو له، هديه في الأرض المغنومة، هديه في الأسرى، السابق ص٥٩٨-٦٠٤.

(٤) وتشمل: أخذ الجزية، الطوائف التي تأخذ منها، الجزية غير مقدرة الجنس، الجزية من العرب، هل تؤخذ الجزية عن الصبي والمرأة، السابق ص٦٠٥-٦١٠.

(٥) وتشمل: هل يسري نقض العهد من بعض على الجميع؟ من انضم إلى عقد صلح صار له حكم الأصل، من يسري عليهم العقد، السابق ص٦١١-٦١٤. وأيضا مختصر سيرة(٢) ص٤٤٣-٤٦٢.

والخلاف في سقيفة، بني ساعدة في بداية مرحلة المصير[1].

وقد شعر بدنو أجله من سورة النصر. فأكثر الاستغفار. وعرف ذلك عمر بفراسته[2]. وبدأ الرسول يشتكي. ذهب أولا إلى أهل البقيع حيث الشهداء يوارون الثرى. وأمر بالاستغفار[3]. فذهب مع مولاه يهنئونهم بما هم فيه لأن الفتن أقبلت تتوالى، والآخرة ستر من الأولى. وقد يكون ذلك من أثر الشاة المسمومة التي قدمها له يهودي[4].

وبما أنه بشر ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فليست وفاته مصيبة الأولين والآخرين مادام قد أتم رسالته ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. وقد نُعي الرسول إلى نفسه فبكى بعد سماع آيات النهاية والنصر[5]. وقد خير بين أن يبقى في الدنيا أو أن يرحل إلى الآخرة فآثر الرحيل حتى ينعم بحوار ربه حتى لو فارق بناته مثل فاطمة وأصحابه مثل أبي بكر. وزيارة البقيع كانت للسلام على الشهداء للحاق بهم. كان يود البقاء حتى يرى الفتوح وانتصارات الأمة. أُعطي مفاتيح خزائن الأرض والسماء. وهو الأول على الحوض.

---

(1) البستي جـ٢/ ٣٩٧-٤٠٩، الإشارة ص٣٤٩-٣٦٠. يخلو زاد المعاد "من مرض النبي ووفاته"، الفصول ص٢٥٩-٢٦٧، ألفية الرسالة ص١٥٣-١٥٧، بهجة المحافل ص٣٧١-٣٩٦، سيرة النبي ص٣٨٦-٣٩٤، حياة محمد ص٤٠٠-٤٠٩، نور اليقين ص١٩٧-١٩٨، سيد الآنام ص٣٤٩-٣٦٧، المغازي ص٤٠٩-٤٢٠، مختصر سيرة(١) ص١٦٧-١٦٨، مختصر سيرة الرسول(٢) ص٤٦١-٤٦٥، السيرة النبوية ص٢٨٥-٣٢٩، سيرة الرسول ص٢٦٧-٢٧٠، السيرة النبوية ص٤٠١-٤١٤، خاتم الأنبياء ص٢٢٦-٢٣١، صحيح السيرة ص٦٩١-٧٣٤، خير الورى ص٧٧٠، الرحيق المختوم ٤٦٤-٤٧٢، محمد ص٥١-٦١، رسول الحرية ص٣٣٩-٣٥٤، شمائل النبي ص٢١١-٢١٨.

(2) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وفاة الحبيب ص٩٤-٩٩.

(3) «السلام عليكم يا أهل المقابر. ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن تقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها. الآخرة شر من الأولى»، ابن هشام جـ٢/ ٥٣٩، البستي جـ٣/ ٣٩٧-٤١٠، وفاة الحبيب ص١٠٠-١٠٧، السيرة النبوية ص٢٨٩-٢٩٤.

(4) وفاة الحبيب ص١١٨-١٢٠ «إن هذه خبرتني أنها مسمومة»، «مازالت من الأكلة التي أكلت بخير. فهذا أوان انقطاع أبهري»، «كفوا أيديكم فإن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة»، بهجة المحافل ص٣٧٣. «نعم إني أوعك كما يوعك رجل منكم»، بهجة المحافل ص٣٧٣، مدة مرضه وما وقع فيه ووفاته التي هي مصيبة الأولين والآخرين، السيرة الحلبية جـ٣/ ٤٨٤-٥١٨.

(5) «مثل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، إنه قد نعيت إلى نفسي»، السابق حـ٢/ ٥٧٠-٥٧١. «ما من نبي يقبض إلى دفن تحت مضجعه الذي مات فيه»، النبي الأعظم ص٦٥٢-٦٥٩.

ورجع من البقيع إلى منزل عائشة فوجدها ولديها وجع بالرأس. وكان هو الذي لديه وجع بالرأس. ولا يضرها أن تموت قبله فيقوم عليها ويصلي عليها ويدفنها[1]. فمزحت معه عائشة بأنه لا يضيره أن يقوم الآن ويلف على نسائه ويعرس بهن. فتبسم الرسول. وعاد إليه الوجع وهو يدور على نسائه حتى اشتد عليه وهو في بيت ميمونة. فدعا نساءه واستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة[2]. وقد رغب أبو بكر في تمريض الرسول ولكن الرسول أراد أن تمرضه أزواجه وبناته حتى لا يشتد الكرب عليهن، وأجر أبي بكر على الله[3]. ومُـرِّض الرسول في بيت عائشة. واشتد المرض عليه. وطلب صب الماء عليه، سبع قرب من آبار شتى حتى يخرج إلى الناس فيعهد إليهم. وأشار إلى أن الله خيّر عبدا من عباده بين الدنيا وما عنده فاختار ما عند الله. ففهمها أبو بكر عليه. وقد يكون الرسول نفسه لما تكرر الشاهد في سياق آخر. وطلب سد الأبواب الثلاثة في المسجد إلا باب أبي بكر. فقد كان أفضل صاحب للرسول. ولو كان متخذا خليلا لكان أبا بكر[4]. وأصر الرسول على أن يصلي أبو بكر بالناس خمس مرات دون عمر[5]. ولما رأى أبو بكر الرسول وقد استرد عافيته استأذنه في المغادرة. فهذا يوم بنت خارجه من نسائه. ورقته عائشة[6]. ودخلت فاطمة عليه فبكت ثم ضحكت. وقال الرسول لها «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة». وأراد أن يكتب كتابا لن يضل المسلمون بعده. فاكتفى عمر بالكتاب والسنة. وخشي أن يكون هذا الطلب من وجع الرسول، وخف الرسول من

---

(١) وهو إحساس عام بين الأصدقاء، وما قاله شوقي في رثاء حافظ.

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء

(٢) جـ٢/ ٥٤٠، وفاة الحبيب ص١٠٨-١١١، بهجة المحافل ص٣٧٢.

(٣) «يا أبا بكر إن لم تجعل أزواجي وبناتي علاجي ازدادت مصيبتي عليهن عظما. وقد وقع أجرك على الله»، وفاة الحبيب ص١٠٨، بهجة المحافل ص٣٧٥-٣٧٦، صحيح السيرة ص٦٩٣-٦٩٨.

(٤) «فإني لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صحبة إخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده»، ابن هشام جـ٢/ ٥٤٥/ ٥٤٩، وفاة الحبيب ص١٠٩-١١٠.

(٥) «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون»، ابن هشام جـ٢/ ٥٤٧-٥٤٨، وفاة الحبيب ص١١٥-١٢٠، «إن الله جعل قرة عيني في الصلاة»، السابق ص١٢٤.

(٦) «هلموا أكتب لكم كتابا بألا تضلوا بعده»، «إيتني بكتف أو لوح حتى أكتب لأبي بكر كتابا لا يُختلف عليه»، «أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر»، وفاة الحبيب ص١١١-١١٦.

مرضه قليلا. وقام وصلى بالناس واقتدى أبو بكر به. واستأذن أبو بكر بالخروج بعد تماثل النبي للشفاء[١].

ورفض أن يأخذ دواء وضعه عمه العباس في فمه لأنه أتت به نساء من أرض وأشار بيده إلى الحبشة. فهو داء لا يأخذ الله به كل الناس إلا عمه. فقد أخذته ميمونة وهي صائمة[٢]. فهو من الشيطان أو من عمل النساء. وقد أسر العباس لعلي وهو خارج من عند الرسول في مرض أنه قد عرف الموت في وجه الرسول. فمن الأفضل الذهاب معا إليه لسؤاله عن هذا الأمر أي الخلافة هل هي فيهم أو في غيرهم حتى يطلبوا منه توضيح ذلك للناس. فرفض عليّ. فلو منعوا عن هذا الأمر فلن يأخذه أحد بعده. وهو إحساس بتحول النبوة إلى خلافة، والدين إلى دولة[٣]. ورفض الرسول أخذ عريش يكلم الناس منه[٤]. ويضاعف البلاء للأنبياء كما يضاعف لهم الأجر. فالنبي يبتلى بالقمل ويقتله، وبالفقر فيستر نفسه بالعبادة. وفرح الأنبياء بالبلاء مثل فرحهم بالرخاء[٥].

وتصدق الرسول بالدنانير التي لديه. فالأنبياء لا يتركون وراءهم من غنم الدنيا شيئا. لا يرثون ولا يُورثون[٦]. وأمر الرسول وهو في مرضه بإنفاذ بعثة أسامة بالرغم من أنه حدث السن. وتأمّر على كبار الصحابة. فهو خليق للأمارة. والطعن فيه كما

---

(١) السابق ص١٢٢-١٢٤/ ١٢٧، بهجة المحافل ص٣٧٨، وفاة الحبيب ص١١١-١١٣، السيرة النبوية ص٢٩٤-٢٩٩.

(٢) ابن هشام جـ٢/ ٥٤٦-٥٤٧«إنها من الشيطان. ولم يكن الله ليسلطه عليّ، ولا ليرميني بها، ولكن هذا عمل النساء. لا يبقى في البيت أحد الألد إلا عمي العباس فإن يميني لا تناله»، وفاة الحبيب ص١٠٥.

(٣) السابق جـ٢/ ٥٤٩.

(٤) «لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبي وينازعونني ردائي حتى يكون الله هو الذي يخرجني منهم»، بهجة المحافل ص٣٧٢.

(٥) «إنا معشر الأنبياء يُضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر. وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله. وإن النبي من الأنبياء ليبتلى بالفقر حتى يأخذ العباءة فيجوبها. وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء»، وفاة الحبيب ص١٠٧، بهجة المحافل ص٣٧٤.

(٦) وفاة الحبيب ص١٢١«يا عائشة ابعثي بالذهب إلى عليّ»، «لا تقتسم ورثتي دينارا. ما تركت بعد نفقة نسائي ومئونة عاملي فهو صدقة»، السابق ص١٧٨.

حدث الطعن في أبيه[1]. في حين استأذن أسامة أن يبقى في المدينة[2]. وأوصى الرسول المهاجرين بالأنصار. فالناس تزيد، والأنصار لا يزيدون. وقد كانوا موضع ثقة الرسول وسره. فالإحسان إلى محسنهم والتجاوز في مسيئهم[3]. وحذر الرسول الأمة من الفتن[4]. وكل بعمله طبقا لقانون الاستحقاق. ولم يخش الرسول على المسلمين الشرك بل المنافسة في الدنيا[5]. كما عاهد الرسول أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان. فوحدة الله من وحدة الأمة[6]. ووحدة الأمة من وحدة الدين. لذلك كانت أحد عوامل تفريق الأمة تقسيمها إلى طوائف ومذاهب في لبنان والعراق والخليج والسودان والصومال ومصر والمغرب العربي، وتوحيد اليهود في أمة واحدة بالرغم من طوائفهم ومللهم ونحلهم، سفارديم وأشكنازي، واحتلال فلسطين. وقد أوحى الرسول عند موته بثلاثة أشياء. قسمة للرهاويين، وقسمة للداريين، وقسمة للسبائين وللأشعرين. وأوصى بتزويد بعثة أسامة ابن زيد، وأن لا يترك بجزيرة العرب دينان[7]. وذلك يعني أن الوصية تشمل ثلاثة موضوعات: قسمة الفيء، استمرار الفتح وبعثة البعوث، توحيد شبه جزيرة العرب من خلال الدين.

وقد سئل الرسول أيهما يختار البقاء في الدنيا أم الانتقال إلى الرفيق الأعلى والعيش في الجنة. فاختار الثانية منذ زيارته للبقيع[8]. وتكرر الأمر مرة ثانية بعد سؤال الرسول

---

(1) «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة. فلعمري لئن قلتم في إمارته فلقد قلتم في إمارة أبيه من قبله. وأنه لخليق للإمارة. وإن كان أبوه لخليقا لها»، ابن هشام جـ٢/ ٥٤٦، البستي جـ٢/ ٤٢٦-٤٢٧، ابن خلدون ص٢٠٥.

(2) وفاة الحبيب ص١٢٨، «أغد على بركة الله والنصر والعافية ثم أغر حيث أمرتك أن تغير»، بهجة المحافل ص٣٧١، حياة محمد ص٤٠٢، مختصر سيرة (1) ص١٦٦، محمد ص ٨٣-١٠٢.

(3) «يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا فإن الناس يزيدون، وأن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»، ابن هشام جـ٢/ ٥٤٦.

(4) وفاة الحبيب ص١٢٥-١٢٦، «يا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة رسول الله اعلا لما عند الله فأني لا أغن عنكما من الله شيئا»، بهجة المحافل ص٣٧٤-٣٧٥.

(5) «وأني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها»، بهجة المحافل ص٣٧٤.

(6) «لا يترك بجزيرة العرب دينان»، جـ٢/ ٥٥٨، ابن خلدون ص١٥٩.

(7) ابن هشام جـ٢/ ٢٩٩.

(8) «إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة...

قبيل الوفاة بعد أنْ رحل رجل من آل بكر به عليه. فوافق الرسول. أمضغته عائشة السواك حتى تلينه، من فم إلى فم، ومن ريق إلى ريق آخر. ثم ثقل في حجرها وقال «بل إلى الرفيق الأعلى من الجنة». فمات الرسول بين سحرها ونحرها وفي دولتها. لم تظلم أحدا، ولم تأخذ حق أحد. فمن سنها وحداثة سنها أن الرسول قُبض وهو في حجرها. ثم وضعت رأسه على وسادة. وقامت تضرب صدرها ووجهها مع النساء. فالمرأة هي المرأة. وصاحت فاطمة «واكرباه» وكان الرسول قد أخبرها أنه لا كرب عليه بعد اليوم[1]. وقد أعطي الرسول مع النبوة فضيلة الشهادة. فمازال الوجع يأتيه من الطعام المسموم يوم خيبر[2]. وقد مرض مثل باقي البشر[3]. ووقعت عند احتضاره عدة آيات[4]. ومنها تخييره بين الحياة والموت، ويتدخل الخيال في وصف ما وقع للنبي عند خروج روحه الشريفة[5]. وكلها روايات دون أقوال مباشرة. وذلك مثل إخبار أهل الكتاب بوفاته كدليل على التواصل بين الأنبياء[6]. وأيضا ما وقع في غسله من الآيات[7].

ولا يهم متى توفى ولا كم عمره، فهو مبلغ الرسالة[8]. فليست السيرة سجلا مدنيا ولا طلب شهادة ميلاد لوظيفة. ولا أحد يقيم العزاء له في يوم معلوم كما تفعل الشيعة في الحسين. والمولد النبوي بدعة، وما يحيط به من عرائس المولد فنون شعبية. وأحيانا تجمل بعض السير في النهاية شريطا عاما لحياة الرسول وأهم ما وقع فيها من حوادث منذ الولادة حتى الوفاة[9]. وأحيانا تظهر بعض المفارقات في التواريخ. فما من نبي يأتي

لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ابن هشام جـ١/ ٥٣٩/ ٥٤٩، بهجة المحافل ص٣٨٠، محمد ص ٤٤-٥٠/ ٧٠-٧٢.

(١) وفاة الحبيب ص١٣٦، بهجة المحافل ص ٣٨٠، السيرة النبوية ص٢٩٩-٣٠٢.

(٢) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٧٤-٥٧٦.

(٣) السابق حـ٢/ ٥٧٦-٥٧٩.

(٤) السابق حـ٢/ ٥٧٩-٦٨٢.

(٥) السابق حـ٢/ ٥٨٣.

(٦) السابق حـ٢/ ٥٨٤-٥٨٦.

(٧) السابق حـ٢/ ٥٨٦-٥٨٨.

(٨) السيرة النبوية ص٣١٠-٣١٣، صحيح الرسالة ص٧٣٠، محمد ص١٠٣-١٠٥، السيرة الحلبية جـ٣/ ٣٨٩-٣٩٠، شمائل النبي ص٢٠٩-٢١١.

(٩) «بيان ما وقع من الحوادث من عام ولادته إلى زمان وفاته على سبيل الإجمال وبيان زمن ولادته عاما ويوما وشهرا ومكانا»، السيرة الحلبية ص٥١٩-٥٢٥.

لاحقا إلا ويعيش نصف عمر الذي قبله، فأعمار الأنبياء تقل تدريجيا من السابقين إلى اللاحقين. فإذا كان عيسى قد عُمّر أربعين عاما فكيف يأتي بعده الرسول وقد عاش ثلاثا وستين عاما؟[1]. وقد أخبر بيوم وفاته الاثنين وهو اليوم الذي أوحي إليه فيه وخروجه مهاجرا ودخوله المدينة، وفتح مكة[2].

وتم تجهيز الرسول ودفنه. وحضر الغسل عليّ بناء على مناشدة الناس. فأسنده على صدره. والعباس والفضل يقبلونه معه. وأسامة وشقران يصبان الماء عليه. وعليّ يغسله وعليه قميصه. ولم ير عورة الرسول. غسلوه وعليه ثيابه. يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه، والقميص تحت أيديهم. وكفن في ثلاثة أثواب، أدرج فيها إدراجا. وحفروا للرسول قبرا. ولحد الرسول على طريقة أهل المدينة وليس على طريقة أهل مكة. ويتحول موت الرسول إلى مظاهرة اجتماعية في غسله ودفنه والصلاة عليه. أفرادا وجماعات، بإمام أو بغير إمام[3]. ونظرا لاستحالة الخبرة والمشاهدة في ذلك فقام الخيال بالتصور مثل غسل الملائكة غير المرئيين له. وقد طلب النبي بعد غسله وتحنيطه وتكفينه وضعه على سريره على شفير قبره والخروج من عنده ساعة حتى يصلي عليه جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود من الملائكة، ثم يصلي عليه أهل بيته. ثم يدخلون عليه بعد ذلك أفرادا وجماعات من أهله والملائكة التي ترى الناس ولا تراهم الناس، وقد تأخر دفنه أياما. ودفن في بيته حيث قبض. ووقعت عدة آيات كلها روايات دون أقوال مباشرة إلا باسترجاع ما قيل من قبل، قراءة للحاضر في الماضي. وطلب فرش قطيفة في لحده لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء[4]. واختلف المسلمون في مكان دفنه، في مسجيه أو مع أصحابه. ولما قال الرسول «ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض»

---

(١) «يعيش كل نبي نصف عمر الذي قبله، وإن عيسى مكث في قومه أربعين عاما»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٧٢، شمائل الرسول ص٣٤٤-٣٦٧.

(٢) السابق حـ٢/ ٥٧٣.

(٣) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٨٨-٥٩٠، «رجال من أهل بيتي، الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم»، ص٥٨٨-٥٨٩.

(٤) «ما مات نبي إلا دفن حيث يقبض»، «أفد شوالي قطيفتي في لحدي فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء»، السابق حـ٢/ ٥٩٠-٥٩٣/ ٥٩٥، «من كلمة روح القدس لم يؤذن للأرض أن تأكل من لحمه»، «الأنبياء لا تبليها الأرض، ولا تأكل السباع» ص٥٩٦، «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»، ص٥٩٧.

حُفر للرسول تحت فراشه، وصلى الناس عليه أفواجا، رجالا ثم نساء ثم صبيانا دون أن يؤم أحد. ودفن في جوف الليل. وتولى إنزاله إلى القبر علي والفضل بن عباس وقثم ابن عباس وشقران موالي الرسول. وطلب أوس بن خولي حظه من الرسول فسمح له عليّ بالنزول، ووضع شقران قطيفة كان يلبسها الرسول معه في القبر حتى لا يلبسها أحد بعده. وقد أسقط المغيرة بن شعبه خاتمه عمدا في القبر حتى يعود ويسترده ويكون آخر من رأى الرسول ومسه وقيل إنه قثم بن عباس. وقد ذكرتهم عائشة بقول الرسول «قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وهو المقام الذي قال فيه الرسول لعمر «عسى أن يقوم مقاما لا تذمه»[1]. وأخذ قبور الأنبياء مساجد بداية التقديس، والخلط بين عبادة الله وتعظيم الرسول، وبداية الدين الشعبي «إمتى أزورك يا نبى؟» وفي الدفن، الشق عند أهل الكتاب واللحد عند المسلمين[2].

وتمت الصلاة عليه فرادى[3]. وهناك ملك قائم على قبره يُسمع الرسول ويبلغه بمن يصلي عليه حتى تقوم الساعة وكأن الرسول غير قادر على سماع ذلك مباشرة[4]. ومنذ هذه اللحظة بدأ تفخيم الرسول وتعظيمه وجعله أعلى من البشر بتنصيب ملاك على قبره ليبلغه من يصلي عليه كما يحدث في العزاء. وفي رواية أخرى أن الرسول يسمع القريب ويبلغ بالبعيد وكأن الرسول غير قادر على سماع البعيد مثل سماع القريب[5].

ويسر الرسول من كثرة الصلاة عليه يوم الجمعة لأنه يوم مشهود من الملائكة.

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٥٥٥-٥٥٨، الإشارة ص٣٥٢-٣٥٥، وفاة الحبيب ص١٥٤-١٥٥ «لن يقبر نبي إلا حيث يموت»، في تاريخ وفاته ودفنه، بهجة المحافل ص٣٨٨-٣٨٩ «ما دفن نبي إلا حيث يموت»، ص٣٨٩، حياة محمد ص ٤١٠-٤١٨، مختصر سيرة(٢) ص٤٧٠، السيرة النبوية ص٣١٤-٣١٩، صحيح السيرة ص٧٢٣-٧٢٤، محمد ص٧٣-١١٨.

(٢) «اللحد لنا والشق لغيرنا (أهل الكتاب)»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٤٣٧-٤٣٨.

(٣) وفاة الحبيب ص١٥٠-١٥٣.

(٤) «إن الله عز وجل أعطى ملكا من الملائكة أسماع الخلائق. فهو قائم على قبري حتى تقوم الساعة. فليس لأحد من أمتي يصلي عليّ صلاة إلا قال: يا أحمد فلان بن فلان باسمه واسم أبيه صلى عليك بكذا وكذا، وضمن لي الرب أنه من صلى عليك صلاة صلى الله عليه عشرا. وإن زاده زاده الله»، السابق ص١٨٨.

(٥) «من صلى علي عند قبري سمعته. ومن صلى عليّ من بعيد أعلمته»، السابق ص١٩٠-١٩١.

فالرسول يسمع صوت أي إنسان يصلي عليه في أي مكان دون قرب أو بعد في المسافة[1]. والملائكة سياحون يبلغون عن أمته السلام وكأن الملاك لا يسمع سلام المؤمنين في أي مكان ويحتاج إلى التحرك والانتقال[2]. والرسول يرد السلام عليهم[3]. هنا يتحول الرسول من كونه بشرا إلى أن يصبح مثل الملاك قادرا على الحديث معهم ورؤيتهم.

وتصف لحظة الوفاة أحوال الصحابة بعد علمهم بالوفاة، صدمة عمر، ورزانة أبي بكر، ومبايعته، وردة العرب بعد وفاته[4]. ومن هو أحدث الناس بالرسول، ومن أنزله إلى قبره، وكيفية إدخاله ووضعه. واعتبار موت النبي من أعظم المصائب. تشخيص للرسالة في الرسول. وفاته مصيبة الأولين والآخرين. وكيف يكون موت الرسول أعظم مصائب المسلمين وبلاويهم؟ وهل هو خالد إلى الأبد معهم؟ الموت قدر ونعمة من أجل أن يعمل الإنسان ويحصل على الخلود بجهده[5]. فقد استمرت الفتوحات بعده. وانتشر الإسلام الآن في جميع أنحاء العالم. وبلغ المسلمون خمس سكان المعمورة، ما يفوق المليار. ومازال الإسلام يزحف في قلب البلاد المسيحية حتى خلق في أوربا نزعة معادية للإسلام عصبة ورسولا وبشرا وآثارا[6].

ولم يصدق عمر أن الرسول قد توفى. وقال إنه زعم المنافقين. بل غادر إلى الله كما غادر موسى أربعين ليلة ثم يعود بعد أن ظن الناس أنه مات. وسيقطع أيدي رجال وأرجل من يزعم أن الرسول قد مات. فجاء أبو بكر بعد أن دخل على الرسول وقبله وأنه ذاق الموت الذي كتبه الله على الناس جميعا. وخرج عمر يكلم الناس ولم ينصت. فكلم أبو بكر الناس فاستمعوا إليه، وتركوا عمر. وقال قولته الشهيرة «من كان يعبد محمدا

---

(١) «أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود، تشهده الملائكة. ليس من عبد يصلي عليّ إلا بلغني صوته حيث كان»، وفاة الحبيب ص١٩١.

(٢) «إن لله وملائكته سياحين، يبلغوني عن أمتي السلام»، السابق ص١٩٢.

(٣) «نعم، وأرد عليهم»، السابق ص١٩٣.

(٤) وفاة الحبيب ص١٣٨-١٤٤/ ١٥٨-١٦٠/ ١٦٣-١٦٤، عيون الأثر ص٤٤٥-٤٥٣.

(٥) «حياتي خير لكم، وموتي خير لكم»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٨٩، «إذا ذكر أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب».

(٦) مثل تشويه عقائد الإسلام في الاستشراق، وصورة الرسول في الرسول الدانمركية، والحد من هجرات المسلمين وقانون منع بناء المآذن في سويسرا.

فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». ثم تلا آية تفيد نفس المعنى. فوقع عمر على الأرض وكأنه لم يسمع هذه الآية من قبل. وعرف أن الرسول قد مات[1]. كما ذكر عمر الناس في خطبه له بالمدينة بطلب الرسول عدم إطرائه كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم[2]. وقد حمل عمر على أن يقول مقالة آية أن هذه الأمة وسط تشهد على الناس ويشهد الرسول عليها[3].

وحياة الرسول خير للأمة، ومماته خير لها كذلك[4]. فحياته خير لنزول الوحي من السماء وإخبارهم بالحلال والحرام. وموته خير لعرض أعمال الأمة عليه كل خميس. فخيرها حمد لله تشيؤها يستدعي المغفرة[5]. وهنا يأخذ الرسول مكان الله في عرض أعمال المسلمين عليه، والرسول نفسه لا يملك من أمره شيئا.

وكثرت القصائد في وفاته ورثائه مما يشير إلى بداية التقديس للشخص، ومن الرجال والنساء، شعراء وصحابة وأقرباء وهيج أذان بلال قلوب المسلمين[6]. ويبدأ تعظيم الرسول وإعطاء الأولوية للرسول على الرسالة برثائه ومدحه بعد وفاته[7]. ولم يكن يجرؤ أحد أن يفعل ذلك في حياته إلا على سبيل الجدل مع الخصوم كما كان يفعل حسان ابن ثابت شاعر الرسول، ومدح حسان للرسول ردا على هجاء المشركين له وليس بداية[8].

---

(١) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، ابن هشام جـ٢/ ٥٥٠-٥٥١، بهجة المحافل ص٣٨١-٣٨٨.

(٢) «لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم وقولوا عبد الله ورسوله»، ابن هشام جـ٢/ ٥٥٢.

(٣) ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، السابق جـ٢/ ٥٥٥.

(٤) «حياتي خير لكم، ووفاتي خير لكم»، وفاة الحبيب ص١٨٧.

(٥) «حياتي خير لكم. ينزل علي الوحي من السماء فأخبركم بما يحل لكم وما يحرم عليكم. وموتي خير لكم تُعرض علي أعمالكم كل خميس فما كان حسن حمدت الله عز وجل عليه. وما كان من ذنب استوهبتم لكم ذنوبكم»، السابق ص١٨٧.

(٦) وفاة الحبيب ص٩٢-٩٤، رثاء عمر وأبي بكر، وفاطمة وكعب بن مالك وأبي ذؤيب، وعائشة وأروى وهند وأبي سفيان وحسان وصفية، السابق ص١٩٥-٢١٢/ ١٦٥/ ١٧٢.

(٧) رثاء النبي، السيرة النبوية ص٣٢٣-٣٢٥.

(٨) سيرة النبي حـ٢/ ٢٥٤-٢٥٥.

وبدأت المعجزات والكرامات والمناقب منذ وفاته. فمن مناقب عائشة أن الرسول توفى في بيتها وفي يومها، بين سحرها ونحرها، جمع بين ريقه وريقها عندما لينت له السواك. وهذا شيء طبيعي أن يتوفى الرسول عند إحدى أزواجه، كما دعت له بالشفاء[1]. ولم تزل المعجزات والآيات تظهر حتى وفاة الرسول. فوفاته ليست مثل وفاة الآخرين. يتميز بخصائص[2]. يظن المبالغون أنه من آخرهم وفاة مع أنه من أولهم[3]. وقد تظهر وفاة الرسول وسط الشمائل. أما نزول جبريل للسلام عليه وتوديعه لأنه لم ينزل إلى الأرض بعد اليوم والحوار بينه وبين الرسول يعبر عن غم الرسول وكربه فإنه لا يتفق مع شجاعة الأنبياء وسرورهم بلقاء ربهم بعد أن أدوا الرسالة وبلغوا الأمانة. وقد نزل جبريل ثلاث مرات والرسول يكرر له نفس العبارة. وفي المرة الثالثة أحضر معه ملكا ثانيا، إسماعيل يسكن الهواء ولم يصعد السماء قط أو يهبط إلى الأرض منذ أن كانت على سبعين ألف ملك. وكل منهم على سبعين ألف ملك. واستأذن عليه ملك الموت الذي لا يستأذن على أحد فأذن له الرسول للقيام بواجبه[4]. وهي رواية بها كثير من الخيال وقليل من الواقع. وكاتب السيرة نفسه يشكك في صحة الحديث. استمرت الآيات تقع بعد وفاة النبي في غزوات الصحابة[5]. وكلها روايات دون أقوال مباشرة. وقد تقع لفرد أو تروى كقصة بين اثنين. وقد تكون دعاء بالاستسقاء، وإجابة الحاجات. وقد تكون حادثة غير مشخصة مثل انتقام الله ممن آذى عثمان، وقد تقع لرجل أو امرأة على حد سواء. وتدخل فيها الحيات حتى الكعبة وهي أحد مصادر الحظر في البيئة الصحراوية. والآيات مازالت مستمرة حتى الآن مثل آياته في حصى الجمار كما يصور الخيال الشعبي.

(١) السابق، ص١٢٨/١٣٨.

(٢) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٦٩-٥٩٩.

(٣) «تزعمون أني من آخركم وفاة ألا وأني من أولكم وفاة وتتبعون أفنادا (جماعات متفرقين)، يهلك بعضكم بعضا»، ص٥٦٩، سيرة النبي حـ٢/ ١٣٦-١٤٩.

(٤) «أجدني يا جبريل مغموما، وأخبرني يا جبريل مكروبا»، السابق ص١٣١-١٣٥.

(٥) «كرامات أصحابه مثل: العلاء بن الحضرمي، سعيد بن أبي وقاص، أبو مسلم الخولاني، خالد بن الوليد، نضلة مع سعد، جرير وأبو عبيده بن الجراح، عمرو بن العاص وعظيم من عظماء الروم، العباسي، أنس، سارية وعمر، دعوة حبيب بن مسلمة، أبو طلحة وحفظ جسده بعد موته، سعد وامرأة تزوجها، الربيع بنت معوذ وحفظ الله لها ولعمرة بنت عبد الرحمن، وابن عباس والحية التي طافت بالكعبة، عبد الله بن عمرو والحية الرقطاء»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٦٠٠-٦

وحفت الملائكة بقبره كما فعلوا في الأنبياء السابقين، سبعون ألفا من الملائكة حتى المساء ورجعوا. وهبط سبعون ألفا آخرون، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ثم يعودون في المساء. ويهبط بدلا عنهم سبعون ألفا آخرون، سبعون ألفا بالنهار، وسبعون ألفا بالليل. فإذا انشقت عنه الأرض خرج سبعون ألفا يزفون[1]. وقد عزت الملائكة فيه قياسا على ما يحدث في الأرض، كما عزى الأنبياء السابقين مثل الخضر[2]. وقد حرم الرسول الصلاة على قبره وهو ما يحدث الآن مثل اليهود والنصارى الذين اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد.

وهو يحيا بالقبر ويصلي فيه. ووُكل ملك بقبره لتبليغه السلام عليه ورد السلام وكأن الرسول الحي غير قادر على سماع ذلك بنفسه والرد عليه[3]. وينزل عيسى أيضا للصلاة والسلام على قبره. وقد يكون رد الروح إلى النبي دائما أو كل مرة يصلي عليه فيه أحد لرد السلام وإذا صليت عليه الملايين فكيف تعود الروح ملايين المرات؟»[4].

وتعزية الخضر أيضا رواية عند المؤرخين عن علي أنه سمع صوتا بتعزية الخضر[5]. • تركيب الرواية يدل على وضعها لأنها حوار مصطنع بين علي ومن معه. يبدأ علي بالسؤال ثم يبادر بالإجابة. وقد يأتي موضوع وفاته بعد شمائله، وفاته، وزيارة قبره ومسجده، وتفضيله في الآخرة[6]. وتضف فيه بعض الروايات وأخرى واهية[7]. وفي

(١) السابق ص١٨٥-١٨٦، محمد ص ١١٨-١٤٢. «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، أفلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»، شمائل الرسول ص ٢٩٠.

(٢) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٩٣-٥٩٥، «سيعزي الناس بعضهم بعضا من بعدي التعزية بي»، ص٥٩٥، «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ص٥٩٥.

(٣) «من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائيا بلغته»، ص٥٩٦، «إن لله ملكا أعطاه أسماء الخلائق قائم على قبري، فما من أحد يصلي علي صلاة إلا أبلغنيها»، «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»، «صلوا علي وسلموا حيثما كنتم فسيبلغني سلامكم وصلاتكم، ص٥٩٦.

(٤) «ما من أحد يسلم علي إلا رده الله على روحي حتى أرد عليه السلام»، السابق حـ٢/ ٥٩٧.

(٥) وفاة الحبيب ص١٣٥-١٣٧.

(٦) المنح المحمدية حـ٤/ ٥١١-٦٩٦.

(٧) السابق حـ٤/ ٥٣٢/ ٥٣٤.

وفاته تتكرر نفس الوقائع[1]. وفي زيارة قبره ومسجده، تثار نفس القضايا[2]. وفي تفضيله في الآخرة يعود محمد الكوني الذي يضم البداية والنهاية، الخلق والبعث[3]. وبه بعض الأحاديث الموضوعة. وكثير منها يعارض قانون الاستحقاق.

٩- جوهر الرسالة

وبعد هذه الحياة الحافلة يمكن إجمال جوهر الرسالة التي بلغها الرسول في عدة عناصر، تزيد أو تنقص. فالرسول وسيلة، والرسالة هي الغاية.

أ- الدين الفطري

وتظهر عناصر الدين الفطري. ويستعمل المنهج السقراطي في استخراج الحقائق من وعي السائل. فقد عرف كل حقائق الإسلام وموافقة الرسول عليها «اللهم نعم» أربع مرات[4]. وكل شعائر الإسلام على الفطرة مثل الأذان الذي اقترحه بلال تميزا عن النصارى واليهود، وشرب اللبن في الإسراء والمعراج، وليس الخمر اختيار فطري[5]. لذلك لا يأتي كل شيء بالتعليم[6]. ومن مؤشرات الدين الفطري أولوية استفتاء القلب

(١) السابق حـ٤/ ٥١١-٥٦٩، بداية الإعلان عنه بنزول سورة النصر، ووداع الأحياء والأموات، وبيان فضل أبي بكر، وابتداء مرضه في بيت عائشة، ومساررته لفاطمة، ونهيه عن إعطاء الدواء، والكتاب الذي لم يكتب، وصلاة أبي بكر بالناس، والوصية للأنصار، واختياره الرفيق الأعلى، وسكرات الموت، ونظرة وداع للناس أثناء صلاتهم.

(٢) مثل الترغيب في الزيارة، زيارة المساجد الثلاثة، حكم نذر الزيارة، وآدابها، والسلام عليه، والدعاء بعدها، السابق حـ٤/ ٥٧٠-٦١٦.

(٣) «أول من تنشق الأرض عنه، أول من يكسى يوم القيامة، نشر لواء الحمد، الحوض، الشفاعة والمقام المحمود، الوقف، الحساب والجزاء، الجواز على الصراط، أول مع أمته من يدخل الجنة، أسماء الجنة وأبوابها، تفضيله بالكوثر والوسيلة، حبة ورؤية الله في الآخرة»، السابق حـ٤/ ٦١٧-٦٩٦ .

(٤) سيرة النبي جـ٢/ ٣٣، جـ٧/ ١٣٣-١٣٤، المواهب اللدنية جـ٢/ ٦١٢.

(٥) سيرة النبي جـ٢/ ٧٤، المواهب اللدنية جـ٢/ ١٣٢ .

(٦) «قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة»، سيرة النبي جـ٤/ ٣٥٧.

على استفتاء الناس[1]. فبعض القيم نظرية في النفس مثل الحلم والأناة[2]. بل إن كل القيم الإسلامية قيم فطرية. العقائد والعبادات من النبوة أو الزهد في الدنيا أيضا من النبوة، ولكن الشكر والصبر والرضا والصدق وعدم الشماتة فطرية. واللبن ماء الصحراء، وطعام البدو أمر فطري[3].

ويظهر دين الفطرة صراحة في الآيات والأحاديث: فكل شيء في النفس، صوت الضمير. الإيمان فطري[4]. كل الفضائل فطرية مثل الحياء وأكدها القرآن[5]. وقد تكرر لفظ الفطرة في القرآن عدة مرات سواء فطرة الإنسان أم فطرة الطبيعة. وكلاهما فطرة الخلق[6]) والآداب والأذواق فطرية[7]. و«الصبغة» لفظ مرادف تعني الخلق.

الدين الفطري سابق على دين الوحي على الرغم من أن الدعاة يصورون العلاقة بين الجاهلية والإسلام علاقة أسود بأبيض، ظلام بنور، ويؤكدون على الانقطاع أكثر مما يؤكدون على التواصل، بالرغم من أن «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»[8]. وكثير من التشريعات تدل على التواصل مع التعديل والتهذيب والتخفيف. كان الزنا

---

(١) «استفت قلبك، واستفت نفسك... البر ما اطمأنت إليه النفس أولا ثم حاك في النفس، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك»، محمد رسول الله جـ٢/ ٥٩.

(٢)«إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناه... الله جبلك عليهما»، السابق جـ٢/ ٦١٣.

(٣) «الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء»، السابق جـ٢/ ٦٢٠، المواهب اللدنية جـ٣/ ٤٦-٤٧.

(٤) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، «استفت قلبك واستفت نفسك. البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس. الإثم ما حاك في القلب، وتردد في النفس وإن أفتاك الناس»، سيرة النبي جـ٦/ ٣٢-٣٣

(٥) «إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن»، «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»، «من عمل سيئة فكرهها حين يعمل، وعمل حسنة فسر فهو مؤمن»، السابق جـ٦/ ٣٥، «ستبقى أمتي على الفطرة..»، السابق جـ٦/ ٢٢٣/ ٢٢٥.

(٦) ورد اللفظ ست عشرة مرة منها ما يجمع بين الاثنين مثل ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، السابق جـ٦/ ٤٠-٤١ ورد لفظ «صبغة» مرتين ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

(٧) مثل قص الشعر والأظافر وحلق العانة، سيرة النبي جـ٦/ ٣٩٢.

(٨) الليل حالك الظلام، مجوسية الفرس، مسيحية الروم، اليهود، سيرة النبي جـ٤/ ١٥١-١٨٢.

علنا في الجاهلية فأصبح في حاجة إلى شهود في الشريعة كي يوقع الحد[1]. ومن أسس الدين الفطري مصادر دين الوحي في الطبيعة البشرية قبل الإسلام ونزو ل القرآن. فليست الجاهلية كلها جاهلية، هناك أخلاق الجاهلية، وحلف الفضول، والطبيعة العربية، تبين عناصر التواصل بين دين الطبيعة ودين الوحي[2]. فما يتم الانقطاع معه الفخر في الأحساب والأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة. وكان عمر من أصحاب هذا الدين الفطري، فقد كان يدرك الوحي بعقله وبإحساسه بالواقع وهما عنصرا الفطرة[3]. ومن علامات الدين الفطري الاعتدال، وعدم التطرف واستيفاء كل عنصر من عناصره، العقل والواقع، البداهة والمصلحة. وتلك هي الحنيفية السمحة، دين إبراهيم. ولا يعني التوسط ما يوظف حاليا ضد جماعات الرفض الإسلامية، واتهامها بالتطرف لغاية سياسية. فقد كان الرسول أحيانا يرفض التوسط بين الحق والباطل في العبارة الشهيرة أنه لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره على أن يترك هذا الأمر أو يهلك دونه ما تركه. وكذلك التوسط بين الله من ناحية واللات والعزى من ناحية أخرى في رواية الآيات الشيطانية وحادثة الغرانيق، وهو ما أكدته سورة﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...﴾[4].

لا يحتاج الدين الحق إلى آية كبرى فالبداهة العقلية والوجدانية أساس الدين الطبيعي[5]. الرسالة لها غايتها في ذاتها دون تدخل عوامل خارجية، والقرآن صريح في ذلك. وإنكار الأنبياء سنة في التاريخ مهما أوتي للشعوب من آيات، تفجير الينابيع

(١) السابق جـ٤/ ٢٣٣/ ٢٤٣.

(٢) «أربع من الجاهلية لا يتركن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، محمد رسول الله، ابن هشام جـ٢/ ١٠٠.

(٣) «ايه يا بن الخطاب. فو الله ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك»، «لقد كان قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»، «لقد كان فيمن كان قبلكم يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء. فإن يكن في أمتي أحد منهم فعمر»، سيرة النبي ص٣٢٨.

(٤) «خير الأمور أوسطها»، «بعثت بالحنيفية السمحة»، بهجة المحافل ص٥٠٣/ ٥٣٢. «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق... فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»، ص٥٤٥.

(٥) محمد، الرسالة والرسول ص٣٣-٣٧، «وأما المعجزات فلا حجية لها إلا لمن شهد شهود العيان»، السابق ص٣٣.

من الأرض أو إبراز جنات من نخيل وأعناب وشق الأنهار خلالها أو إسقاط أمطار من السماء أو حضور الله والملائكة أو تقديم بيت من زخرف أو الرقي إلى السماء أو إنزال كتاب. والرسول مجرد بشر لا يستطيع أن يفعل كل ما يطلبونه[1]. محمد رسول قد خلت من قبله الرسل. والرسالة باقية بعده وليست مرتبطة به[2]. أتم رسالته. وأكمل دينه، وحقق نعمته، وتركها في أيدي الناس[3]. وتظهر في السيرة عناصر الدين الطبيعي الذي يأتي الوحي للتأكيد والتأسيس عليه ومنها النفور من عبادة الأصنام[4]. ومن ثم لا حاجة لتدخل جبريل للإخبار بما تستطيع الفترة الوصول إليه[5]. وحرمة المزادات والحكم على التجارة فطرية وإن صدقها الوحي[6]. وقد يأتي الدعاء طبيعيا طبقا لدين الفطرة كما استحسن الرسول دعاء على حين مرض[7]. وكما يتجلى الدين الفطري في رفض الرسول قتل أصحابه لأنه أمر بديهي لا يختلف عليه العرب[8].

(١) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ. وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا. قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، السابق ص٧٨-٧٩.

(٢) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾، السابق ص٨٠.

(٣) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، السابق ص٨٢.

(٤) قال الرسول قبل أن يأتي الوحي: لا تسألني باللات والعزى شيئا فو الله ما أبغضت بغضها شيئا قط»، محمد رسول الله جـ١/ ١٣٣.

(٥) السابق جـ١/ ١٨٠.

(٦) «يا جبريل أي البلدان أشر؟... أسواقها»، «لا يبيع بعضكم على بيع أخيه»، «التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى وبر وصدق»، «إن الشيطان والإثم يحضران السوق»، «إن هذه السوق يخالطها اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة»، السابق ص٢٥٥# ٢٥٩.

(٧) قال عليّ «اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخرا فاشفني،وإن كان بلاء فصبرني»، وأعاده على مسمع النبي بناء على طلبه، السيرة الحلبية، جـ٣/ ٣٩٥.

(٨) معجز محمد جـ٢/ ٣٠٧.

ومع ذلك، هناك شواهد على الدين الطبيعي لم يتم استثمارها في السيرة التي هي تأكيد له. فالرسول لم يحلف باللات والعزى حتى قبل البعثة[1]. ولولا عهد القوم بالجاهلية لهدم الكعبة حتى لا تكون من بقايا تقديس الأحجار وتتحول إلى صنم جديد بالطوفان حوله وتقبيل أحد أحجاره التي صيغت الأساطير حول مصدره، من السماء أم من الأرض؟ والمقاربة في النبوة بين رعي الغنم وقيادة أمة. وتلك رسالة كتاب السيرة المحدثين.

ب- الإنسان

وتنتقل السيرة إلى تاريخ العقائد المقارنة حول موضوعات الله والإنسان والنبوة والمجتمع[2]. والطريق إلى الله هي شجاعة الإيمان[3]. والجهاد الأكبر وهو جهاد النفس أي المسيحية أو دون ادعاء أي الأخلاق وهو طريق الإسلام[4]. وهو طريق «لابد مما ليس منه بد». فقد انتصر الإسلام بعد بلاء. وجاء ملبيا لحاجات الإنسان كدين طبيعي، جامعا بين الدين والدنيا ونزاهة فوق المنافع الشخصية دون توريث لذرية أو عشيرة أو قبيلة دون هوى أو غواية. لذلك سُمي الرسول الصادق الأمين جمعا بين الرسول والرسالة[5]. الإسلام دين طبيعي وهو أساس دين الوحي فتقبيل الأيدي تمجه النفس ويحرمه النص[6]. وفي شجاعة الإيمان التمسك بالمبدأ[7].

والاتجاه إلى الله والاتجاه نحو العالم لا يتعارضان[8]. فالإنسان به دافعان: الأول نحو المثال، والثاني نحو الواقع. والاتجاه نحو الله ليس مستقلا بذاته كما هو الحال عند

---

(١) عيون الأثر ص١١٢/ ١١٧/ ١٢٢.

(٢) محمد، الرسالة والرسول ص٥١-٨٢.

(٣) السابق ص١٣٧-١٤٢/ ١٥٢-١٦٤.

(٤) السابق، مع الله ص١٣٧-١٤٢، شجاعة الإيمان ص١٥٢-١٦٤، الجهاد الأكبر ١٧٧-١٩٠، لا إدعاء ص٦٥-١٧٦، لابد مما ليس منه بد ص١٩١-١٩٢.

(٥) السابق، برج الخفاء، السابق ص ١٤٣-١٥١.

(٦) «أمقت تقبيل الأيادي»، السابق ص١٧.

(٧) ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾، السابق ص١٥٣، «أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالها؟»، بهجة المحافل ص٢٥٤، محمد ص٥١-٨٢.

(٨) الرسالة والرسول ص١٣٧-١٤٢.

الصوفية بل من أجل الكمال في الدنيا. فالله غني عن العالمين. ولا يحتاج إلى صلاة أو صيام[1]. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر واللغو والمراءاة. الصلاة عطاء روحي ومادي، لله وللبشر. لذلك ارتبطت الصلاة بالزكاة فكلاهما عطاء، وبالتقوى فكلاهما حفظ للنفس. الصلاة اتجاه نحو الآخر، والآخر هو الله أو الإنسان. فالمصلون هم الذين يراعون حقوق الفقراء في أموال الأغنياء. والصدقة ليست فقط عطاء ماديا بل هو عطاء روحي واحترام للآخر في ذاته دون مساس بكرامته[2]. والإيمان بالدين هو الذي يحترم اليتيم ويطعم المسكين. هذه هي العروة الوثقى التي لا انفصام لها بين الإنسان والله، وبين الإنسان والناس[3]. لذلك نقد المسيح الكهانة لأنها تناقض عبادة الضمير الخالصة بين الله والناس.

والرسول بشر مثل باقي البشر يتلقى الوحي[4]. فهو مجرد رسول أي أداة تبليغ. ما عليه إلا البلاغ[5]. وليس له على الناس سلطان. لا يدعي شيئا ليس له[6]. يذكر

---

(١) ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، السابق ص١٣٧.

(٢) ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، السابق ص ١٣٨-١٣٩.

(٣) ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، السابق ص١٤.

(٤) محمد، الرسالة والرسول ص٧٣﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾، ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾، ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾، ص٧٤.

(٥)﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، «انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة. فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته، فمن ذا الذي أدعو؟ ومن ذا يستجيب لي»، «أو مخرجي هم»، ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾، السابق ص١٦٨-١٧٢.

(٦) لا ادعاء، السابق ص١٦٥-١٧٦﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِمْ

الناس دون أن تكون له السيطرة عليهم. بل لا يملك الرسول لنفسه نفعا ولا ضررا. هو مجرد بشر يخطئ ويصيب، يظن ويفترض[1]. والوحي يتنزل بأمر الله[2]. لقد أطرت النصارى عيسى ابن مريم. وانتقلوا من التعظيم إلى التقديس إلى التأليه. وعظمت الأعاجم أكاسرتها، يقوم بعضهم لبعض[3]. بل إن الرسول يطيع المؤمنين[4]. الخيلاء والفخر ليسا من شيمة الرسالة ولا الرسول[5]. لا يأكل إلا كما يأكل فقراء الناس[6]. ولا يكتفي إلا بأقل القليل، حصير دون وسادة[7]. فهو عبد يأكل ويلبس كالعبيد[8]. لا يقبل يده أحد كما تفعل الأعاجم بملوكها. لا يريد أن يشعر أحد أمامه بالرهبة. فما هو إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد[9].

والإنسان هو الحر العاقل. يتفرد عن الله بالحرية. فمن قيم الإسلام الحرية ورفع الرأس ورفض العبودية[10]. والحرية هي حرية الاختيار والمسئولية وإلا لاستحال الاستحقاق. والوقت محل للفعل الحر في اختياره وتحديده كما بعد أن تركه الوحي

بِمُسَيْطِرٍ﴾، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، السابق ص١٦٦ .

(١) «أنما أنا بشر. إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به. وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر. أنتم أعلم بشئون دنياكم»، «إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن»، السابق ص١٧٥.

(٢) ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا، إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾، السابق ص١٧٣.

(٣) «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبد الله قولوا: عبد الله ورسوله»، «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا»، السابق ص١٧٨-١٧٩.

(٤) ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق ص١٧٩.

(٥) قريشا «قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحارب وتكذب رسولك»، السابق ص١٧٩.

(٦) «ما هذه الكسرة يا فاطمة... أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام... أما لكم سراج؟»، السابق ص١٨٤.

(٧) «أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم قد عُجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، السابق ص١٨٦.

(٨) «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد»، السابق ص١٨٨.

(٩) «هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم»، «هون عليك، لست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»، السابق ص١٨٩.

(١٠) «كان الرسول يقول فتاي وفتاتي ولا يقول عبدي وأمتي»، الرسالة والرسول ص٢٣.

كيفا[1]. وبالرغم من أن الزمان محدد بالميلاد والموت، بالبداية والنهاية إلا أن هذا التوتر هو الدافع على إتيان الفعل الحر. فالحرية تنبثق من الضرورة. وحتى تكون الحرية مسئولة يساندها العقل بقدرته على التمييز بين الحسن والقبيح. فالعقل هو الذي يخرج الحرية من الضرورة. وهو قادر على الحرص على التنزيه بتأويل النصوص المتشابهة التي قد توحي بالتجسيم أو التشبيه[2]. وأحكام النبوة صريحة ومباشرة وليست إيماءة أو إشارة حتى لا يخطئ العقل في تأويلها[3].

وإذا كان الوحي يتأسس في الفعل الحر الذي يسانده العقل فإنه أيضا في جدل مع الواقع. نزلت آيات لإبطال عادة الحمس وهي ترك الوقوف على عرفة وإلا فاضت منها تقديرا للحرم فتنزل القرآن مبطلا هذه العادة. وأعاد الإفاضة. وأحل ما حرم الناس[4]. فالإسلام لم يأخذ كل شيء مما كان موجودًا في قريش. ولم يلغ كل شيء. يقوم جدل الوحي مع الواقع على التداخل، الرفع والإبقاء، والنفي والإثبات[5]. يأتي بناء على نداء الواقع ثم يقيس نفسه على مقاسه كلما تغير الواقع بفعل التطور على ما هو معروف في «أسباب النزول» و«الناسخ والمنسوخ»[6]. لا شأن له بالغيب ولا يعلمه. بل يهتم

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، سيرة النبي جـ٥/ ١٢٢.

(٢) «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»، السابق جـ٤/ ٦٧٥.

(٣) «إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين»، الجوهرة جـ١/ ١٣١.

(٤) ابن هشام جـ١/ ١٩٦ - ٢٠٠ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، السابق جـ١/ ٢٠٠

(٥) وهو المعنى المزدوج للفعل الألماني Aufheben وللاسم Aufhebung عند هيجل.

(٦) من النص إلى الواقع جـ٢، بنية النص ص١١٨ - ١٣٨.

بمصالح الناس[1]. ولا يجيب على سؤال الروح[2]. وهو ما كثر الحديث عنه هذه الأيام من الخطباء والدعاة تعبيرا عن العجز عن الدخول في قضايا الواقع أو خوفا منه. فما أسهل الحديث الذي لا يقول شيئا، وما أصعب الحديث الموجه نحو شيء بعينه. الأول حديث فارغ بلا مضمون، والثاني حديث له مضمون.

جـ- المرأة

وفي الإنسان يتساوى آدم وحواء[3]. وعندما اعترضت امرأة على حديث القرآن على الرجال فحسب. نزلت آية أبرز القرآن المساواة بين الرجل والمرأة حتى في الأشكال اللغوية بالإشارة إلى المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات. والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات...[4]. فاللغة تذكير وتأنيث[5]. وقد دعى إلى هذه المساواة في مجتمع كان يعتبر الأنثى ليس لها حق الحياة[6]. ولا فرق بين الذكر والأنثى في الاستحقاق أي في المجازاة طبقا للعمل الصالح[7]. وبعد أن لم يكن لهن نصيب في

---

(١) ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله﴾، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، «لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء»، الرسول والرسالة ص٧٦.

(٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، السابق ص١٧٣.

(٣) السابق، ص٨٣-٩٠.

(٤) ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، محمد، الرسالة والرسول ص٨٣.

(٥) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، السابق ص٨٤.

(٦) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾، السابق ص٨٤-٨٥.

(٧) ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، السابق ص٨٥.

الميراث جعل الإسلام لهن نصيبًا فيه قل أو كثر[1]. والقوامة تعني النفقة المالية وضرورة التوجيه لما كانت الأسرة مجتمعا صغيرا. كما تعني الدرجة في الفضل العلم والتقوى والعمل الصالح[2].

وكان تحديد تعدد الزوجات واستحالة العدل فيه تطورًا لتعدد الزوجات بلا حدود[3]. وأصبح استثناء في حالات خاصة عند الضرورة. وكان عادة عند كل الشعوب القديمة. والآية شرطية أي قد تقع وقد لا تقع؟ وهو أمر مشروط بالعدل، والعدل مستحيل. فإذا استحال الشرط استحال المشروط. وليس الأمر مجرد الإمكانيات، الحرص على العدالة، بل يتعلق بالواقع الإنساني، واستحالة تقسيم العواطف الكيفية قسمة كمية. والاستثناء زيادة عدد النساء على عدد الرجال في لحظة تاريخية مثل ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية أو المرض أو العقر كما حدث لسارة. وفي التشريع الحديث في مصر موافقة الزوجة الأولى ضرورية وإلا فلها الحق في الخلع. وفي تونس ألغي تماما في القانون المدني. فالنفس لا تسكن إلا إلى نفس أخرى[4]. كلٌّ لباس للآخر[5]. أخذت على نفسها عهدا، العشرة بالمعروف أو التسريح بإحسان[6]. والوصية بالنساء لأنهن في أمانة الله. والصلح

---

(١) ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢) ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، السابق ص٨٨.

(٣) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، السابق ص٩٣

(٤) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، السابق ص٩٥.

(٥) ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، السابق ص١٠٤.

(٦) ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، «واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله»، «لا ضرر ولا ضرار»، السابق ص١٠٤-١٠٦.

قبل الفراق[1]. وأبغض الحلال عند الله الطلاق[2]. وعادة ما تكون الزوجات الأخريات من المطلقات كما هو الحال في زوجات الرسول. فلم يتزوج بكرا إلا عائشة. والبكر أفضل من الثيب تلاعب الرجل كما يلاعبها. ومع ذلك تزوج أحد المسلمين ثيبا حتى ترعى إخوته السبع بعد أن أصيب الأب في أُحد. ورضي الرسول. بل حياه بشاة تذبح ونمارق تفرش. البكر رمز الجدة. وتظل الذاكرة لأول حبيب لها. وربما مهارتها الجنسية طبيعية تلقائية. وقد يكون لجهلها الجنسي أيضا إغراؤه. وصغر السن عامل مشجع على الحب والارتباط. أما الثيب فقد يكون لها تجاربها وخبرتها ولكنها من رجل آخر سابق. تفقد براءتها الطبيعية. وتحب بعد تعلم وممارسة وليس عن طبيعة وتلقائية[3].

وأحيانا أخرى تظهر المرأة قوية فارضة نفسها على الرجل والمجتمع بل على الرسول نفسه، ترفض شفاعته. فقد نصح الرسول امرأة بالعودة إلى زوجها بعد أن حزن على فراقها. ورفضت المرأة أن يكون هذا أمرا منه أو شفاعة. وهو ضد ما يقال الآن من أن الطلاق سلطة مطلقة في أيدي الرجال، وأن المرأة لا كلمة لها قبل تشريع قانون الخلع الأخير.

وقد تزوج الرسول أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي بالحبشة، تقوية لعزيمة المهاجرين ورفعا لمعنوياتهم، واعترافا بأن ملك الحبشة ولي أمر المسلمين المهاجرين[4]. وتوددوا إليه في وقت كانت المصاهرة نسبا ووسيلة للدخول في الدين الجديد، وهو زواج بالولاية. وهو الآن متروك للمرأة كي تكون ولي نفسها دون توسط ولي آخر.

ومع ذلك، طلق الرسول إحدى زوجاته قبل أن يدخل عليها لأنه وجد بها بياضا

(١) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، السابق ص١٠٨-١٠٩.

(٢) «لعن الله كل ذواق مطلاق»، «لعن الله الذواقين والذواقات»، السابق ص١١٠ و وقفة قصيرة عن تعدد الزوجات، السيرة النبوية ص٤١٦-٤٢٠.

(٣) «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك».

(٤) معجزة محمد جـ٢/ ١٧٥-١٧٦.

أي برصا فحكم عليها من خلال جسدها[1]. ولون الجسد لا يعيب. والجسد له فضائل ومزايا أخرى غير لون الجسد الكلي أو الجزئي. ويضاف إلى الجسد شخصية المرأة وأسلوبها في التعامل مع الرجال. وهو ذوق شخصي وليس قاعدة. فالحب كما يقول المثل الشعبي أعمى. لا يعرف له منطق. والسوداء جميلة. والعوراء لها سحرها. وعيوب البدن يعوضها جمال الروح، وحلاوة الشخصية.

وبالرغم من أن المرأة العادية كانت موضوعا للنكاح قبل التعرف عليها معرفة جيدة حتى ولو كان الناكح قاتل زوجها أو أبيها أو أخيها أو ابنها إلا أن خديجة كانت تمثل المرأة المتميزة، ذات الشخصية المستقلة، صاحبة أعمال، تطلب محمدا للزواج منه بعد أن رفضت الكثير من سادة قريش. تستشير ابن عمها ورقة بن نوفل فيما حدثها به زوجها[2]. ومازالت كثير من الأحاديث، قد تكون موضوعة، تبين أن المرأة للرجل[3]. ويكون النكاح بأمر ولي الأمر. وهو الهدف أو مكافأة على فعل شيء خير. والنظر إلى المرأة قبل خطبتها محبب حتى تنشأ في القلب علاقة[4]. ويبدو أحيانا النكاح وكأنه تجارة في أحكام النكاح في أعمال البدن[5]. وأحيانا يقرر الولي نكاح المرأة دون أخذ رأيها بل بأمر الرسول أن يتزوج فلان فلانة[6].

ومع ذلك مازال تصور المرأة كما هو، موضوعا للنكاح. فبمجرد أن يراها أحد يقال «أنكحها»، «تنكحها». ومكانها تحت الرجل في وضع تقليدي تجاوزته أوضاع الجنس عند المحدثين. وتظهر في «الأنساب» المرأة موضوعا للنكاح لا أكثر ولا أقل حين التعرض لأقارب الرسول من النساء، عماته وأمه وأزواجه[7]. كانت النساء ترسل

(١) ابن هشام جـ٢/ ٥٤٣، بهجة المحافل ص٤٠١-٤٠٢.

(٢) محمد رسول الله جـ١.

(٣) «تزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء»، السابق ص٥٢، نورت مسجدنا نور الله عليك. أما والله لو كان لي ابنة لأنكحتكها»، السابق جـ١/ ٤٥٦.

(٤) «فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا... انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»، السابق جـ٢/ ٣٥٢.

(٥) السابق ص٢٨٦.

(٦) «إن رسول الله أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني فلانة»، السابق ٣٥٢.

(٧) الجوهرة جـ٢/ ٥٠-٥٢/ ٦٢-٨١، «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا إذن ثم لا إذن» جـ١/ ٤٧٨، «أنكحن أسامة بن زيد»، السابق ص١٥١.

كهدايا عند الروم كما أرسل المقوقس مارية القبطية. فهل تزوجها أم سرى بها؟ وكانت ضمن الأسلاب. وقد يختلف عليها الرجال، ويحكم بينهم الرسول. وكانت هذه عادة الشعوب القديمة، الفرس والروم والأحباش والعرب. فاتبع الإسلام نفس العادة حتى قضى الرق ذاته من تاريخ البشرية وآخرها الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر، والدولة العثمانية حتى الربع الأول من القرن العشرين.والآن تحكم القوانين الدولية العلاقة بين المنتصر والمهزوم وجرائم الحروب لأي من الطرفين وقوانين حماية الأطفال والنساء والشيوخ(١).

وكان الرسول لا يصلي في لحف نسائه فقد كان لها وظيفة أخرى(٢). وكان من عادات الحرب القديمة السبية التي يقتل زوجها وأبوها وأخوها تستسلم للقاتل دون أي انفعال أو غضب، وإتيانها دون أي احترام لحزنها.

ويعض الأحاديث تتفق مع القدماء وليس مع المحدثين مثل تفضيل الخيل والنساء. وكلاهما طبقا للصورة الذهنية للركوب عند البدوي(٣). ومع ذلك يظهر من «الموسوعة» بعض عناصر السيرة التي تدحض بعض الشبهات بالنسبة لقسوة الشريعة تجاه الرجل الزاني أو المرأة الزانية بمطالبهما بتوقيع الحد واتهام الرسول للأول بالجنون، وغفران الذنب بالصلاة، وإرجاع الثانية حتى عادت من نفسها مرتين بعد الولادة والفطام تطالب بالحد(٤). ويعني الزواج المعاشرة الجنسية في طلب المسلم الزواج من مسلمة دون أن يعرفها أو يعيش معها إلى الأبد أو يكتفي بها. فالزواج يعني الجنس أي صورة شرعية له(٥). وسجود الزوجة لزوجها بعد الله. ومع ذلك تقدير المرأة والتوصية بها عام عند الرسول، الأم والزوجة والابنة، رفقا بالقوارير. التوصية بالوالدين، والأم قبل

(١) ابن هشام جـ١/ ١٨٩.

(٢) السابق ص ٣٨٦.

(٣) السيرة الحلبية جـ١/ ٣٠. وهناك نكتة شهيرة قديمة عندما وجد الصعيدي بعض الركاب يبرز الاشتراك الشهري للمحصل فلا يأخذ منهم الأجرة، أبرز له الصعيدي قسيمة جوازه فقال له المحصل «دي تركبها في البيت».

(٤) سيرة النبي جـ٢/ ٢٥٠-٢٥١.

(٥) السابق جـ٢/ ٣٢٦. «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن»، السابق جـ٧/ ٨٢-٨٣.

الأب، فالجنة تحت أقدامهن[1]. ويصعب عدم خروجها معطرة اليوم في مجتمع تسود فيه الروائح الكريهة من القاذورات وأكوامها والنفايات ورائحتها[2]. والعرق والملابس غير النظيفة في الأسواق والتجمعات مثل المواصلات العامة.

د- الأخلاق

ويظهر الدين كأخلاق لا كعقائد ولا كشعائر. وإن كانت هناك عقائد وشعائر فإنها وسائل للأخلاق[3]. فالأخلاق جوهر الدين. والدين إتمام المكارم والأخلاق. وتفسر العبادات أحيانا تقسيما حدثيا مثل الحج باعتباره مركزية، والكعبة باعتبارها رمزا لها[4]. ويصرف النظر عن أساسها الغيبي، الكعبة عرش الرحمن، ومركز رحماته وبركاته في هذه الحياة الدنيا. تظل هي المركز الذي يجتمع فيه المسلمون في وقت معلوم ومكان معلوم مرة سنويا لدراسة أحوالهم دون أي تقديس للزمان أو المكان بل ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

ولا تحتاج الفضائل إلى تعليم. بل يكفي الاعتماد على الإحساس والشعور الذاتي في السلوك الخلقي. وهي التي عرفت بمذاهب الحاسة الخلقية أو الضمير. فالأخلاق فطرية. يدركها الإنسان بطبيعته. والقيم الخلقية مثل التواضع[5]. وهي نفس قيم المسيح عندما جلس المسيح تحت أقدام التلاميذ ليغسلها لبعضهم درسا في التواضع. لذلك كان التيه من الصفات المرذولة في أخلاق العرب[6]. وكان أكبر مانع من دخول الجنة[7]. وترسم الشخصيات بأحاديث الرسول مثل الحياء[8]. وأحيانا يجتمع الحلم مع الحياء أو

---

(١) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، السابق جـ٦/ ١١٦-١٢٢

(٢) «لا تخرج المرأة من بيتها متعطرة»، السابق جـ٦/ ٢١٣.

(٣) أبلغ الرسول اليهود أن الإسلام تسعة مبادئ هي تحريم: الشرك، الزنا، قتل النفس إلا بالحق، السرقة، السحر، المشي ببريء إلى سلطان، الربا، قذف المحصن، الفرار من الزحف، سيرة النبي جـ٣/ ٢٩٢، محمد ص١٦٥-١٧٦ .

(٤) سيرة النبي جـ٥/ ٣٥٩-٣٦٣.

(٥) ﴿لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، الرسالة والرسول ص٢١/ ٢٥.

(٦) الجوهرة جـ١/ ٤٧.

(٧) «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، السابق ص٢٨٠.

(٨) «الكل دين خُلق، وخلق الإسلام الحياء»، السابق جـ١/ ٣٨.

مع الأناة[1]. لذلك يمكن الحوار بين الأديان لأن جوهرها واحد كما قال الصوفية. وهي المحبة أو العدل كما يقول الفقهاء. لذلك يُحال إلى ابن عربي[2].

والرحمة واجبة لكل كائن حي، نباتا أو حيوانا أو إنسانا[3]. كان الرسول يشفق بالحيوان[4]. وكان الرفق بالحيوان من قواعد الإسلام، عدم حرق نملة بالصدفة أو سقي كلب عطش أو التخفيف من الشفرة حين الذبح[5]. ولا تؤذى الأحياء بسبب الأموات[6]. فالحي أولى من الميت. يتعامل مع الموتى كأحياء بالدعاء لهم وزيارة القبور ونثر النبات الأخضر عليها. وفي التقاليد الشعبية السكنى معها حتى ولو كان اضطرارا لحل أزمة المساكن.

لم تستطع السيرة الرد على بعض الشبهات حول الحزب والغنائم والسبايا وإعادة تأويل قاعدة «من قتل قتيلا فله سلبه». ولماذا يكون حكم سعد بن معاذ حكما صائبا في السماء والأرض، «قتل الرجل وسبي الذرية وقسمة الأموال» في بني قريظة[7]؟ ومن وصف بعض حوادث السيرة خاصة عصيان الرماة في غزوة أحد يظهر أحيانا أن الباعث على الغزو كان السلب وليس الجهاد في سبيل الله اعتمادا على بعض الأحاديث مثل «من قتل قتيلا فله سلبه»[8]. وقد تكون الغنائم والأسلاب دافعا على الحرب وليس فقط الشهادة. فالمقاتل يريد غنيمته. ويطالب بقسمة عادلة بين المحاربين[9]. قد يفسر ذلك بالواقعية في انتشار الإسلام، ودخول البعض في الدين الجديد حبا في العطايا والغنائم

(١) «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله... الحلم والأناة» وفي رواية أخرى «الحلم والحياء»، السابق ص٤١٣، بهجة المحافل ص٢٧٥.

(٢) «الدين الذي أنزله الله على أنبيائه واحد وهو الإسلام أي الاستسلام لله وحده وعبادته دون سواه، لكن أتباع الأديان حرفوا رسالات الله وكتبه فاختلف في جوهرها وحقائقها»، الرسالة والرسول ص٢٧.

(٣) «نعم في كل ذات كبد رطب أجرا»، الجوهرة جـ/ ١٧٥.

(٤) «إن امرأة عذبت في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض»، السابق جـ٢/ ٨٣.

(٥) «اطفئها، اطفئها حتى لا تؤذى النمل أو يحترق»، سيرة النبي جـ٦/ ١٨٢.

(٦) لذلك بعد إسلام عكرمة لا يقال ابن أبي جهل «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات»، الجوهرة جـ١/ ٩١.

(٧) «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»، الرحيق المختوم ص٣١٦.

(٨) سيرة النبي جـ٢/ ١٠٧-١٠٨.

(٩) المواهب اللدنية جـ١/ ٤٣٢.

والأسلاب[1]. ومع ذلك نصرة الحق والعدل أيضا واقعية. والدفاع عن المظلومين أيضا ضرورة يحتمها الواقع.

هـ- الشريعة

وتظهر بعض التشريعات التي تتهم بالقسوة مثل قطع اليد في إطار التشريعات القديمة المقارنة. فقد كانت أيضا عادة عند الفرس والروم. وكان القصاص أيضا عادة متبقية عند الشعوب القديمة وأبشع الطرق رمي المدان إلى أفواه الأسود[2]. الحكم حكم عام لا يعرف القرابة. فحكم السرقة قطع اليد وليس كما كان لدى بني إسرائيل إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف طبقوا عليه الحد[3]. وفي لحظات أخرى تظهر قوة الاعتراض على الرسول في تطبيق الحد. الآن السرقة ليست سرقة بل هي بيع مؤجل[4]. والآن في مجتمع يسوده الفقر والبطالة والتفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، وسرقة الأغنياء الذين يجمعون بين السلطة والثروة يصبح تطبيق الحد على الفقراء موضوعا للتساؤل. وإذا كانت الحرف في الحياة البدوية القديمة سهلة ميسورة وممكنة بيد واحدة فإنها ليست كذلك في الحرف العصرية التي تتطلب يدين. وإذا كان القدماء يقبلون تطبيق الحد بسهولة ويسر فإن المحدثين يخشون من آثارها النفسية. اليد آلة تقوم بعدة أفعال. ولا يمكن مساواتها في القيمة بفعل واحد. فالكل لا يُرد إلى الجزء.

وفي الخمر جلد الرسول أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانية. ولكل سنته في التخفيف والتشدد[5]. وهو ما سمى في الفقه «التعزيز» أي ترك درجة الشدة أو اللين في يد الحاكم طبقا للظروف. وهو ما يسمى الآن «الظروف المخففة»، أو «الردع» وقد انتشر الخمر بين الخاصة وفي الطبقات الحاكمة كمظهر من مظاهر الحياة العصرية. كما

(١) قال أحد العرب لقبيلته «يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة»، سيرة النبي جـ٤/ ٣٤٣.
(٢) السابق جـ٢/ ٣٨٢.
(٣) «ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، الجوهرة جـ١/ ١٠١.
(٤) سيرة النبي جـ٦/ ٥٧-٥٨.
(٥) الجوهرة جـ١/ ٥٥.

انتشر عند العامة في صيغة الإدمان، نسيانا لهموم الطبقة الدنيا. وتطبيق الحد مشروط بعلة السكر. وقد يدخل الآن في عموم البلوى.

وحد الرجم يقتضي شهودا أربعة، رأى فعل الزنا رؤية العين. وهو ما يصعب تحقيقه إذ يتم سرا. إنما المقصود هو الفعل الفاضح العلني. والاعتراف به ربما قسوة الزاني أو الزانية على نفسيهما بعد إرسال الرسول لهما. فالأول لا بأس به، ويتمتع بكامل عقله. وأتى بفعل تردي. والثانية حامل ولديها طفل يحتاج إلى رعاية[1].

والجهاد ضد الخارج وليس ضد الداخل. الجهاد ضد العدو الخارجي، وفي الداخل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]. فدم المسلم وماله وعرضه حرام لا يجوز سفكه أو سلبه أو هتكه. فكل ما يحدث حاليا من صراع دموي عن السلطة بين أحزاب سياسية كلها إسلامية في السودان والصومال واليمن وباكستان والجزائر إهدار لدماء المسلمين. والحفاظ على الحياة المقصد الأول من مقاصد الشريعة مثل المال والعِرض. وفي كل السير يتواتر الأمر بالقتل وضرب العنق من الرسول أو بناء على طلب الصحابة للمشركين أو المنافقين[3]. وأحيانا يسرف القواد في القتل. فهم على حق دائما. تساندهم الشريعة[4]. وعند كلا الفريقين القتل والأمر بالقتل ودق العنق للمخالف دون محاكمة أو استماع لرأي أو حق الدفاع عن النفس. وتتكرر عادة القدماء بالقتل وضرب العنق بمجرد الأمر والذي يصل أحيانا إلى حد الاغتيال[5].

والعقاب بالقتل في الدنيا لأنه لا يعذب بالنار إلا الله يوم القيامة وكأن غاية الدين

---

(١) «هل تعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا؟»، «فاذهبي حتى تلدي.. اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، بهجة المحافل ص٣٤٧.

(٢) خير العباد ص٧٦-٧٧.

(٣) محمد رسول الله جـ١/ ٣٤٥/ ٣٨٢/ ٤٠١/ ٤٠٦/ ٤٧٤/ ٤٧٧. قال الرسول «ما منعك أن تُجهز عليه؟» فقال : ناشدني الله والرحم. فقال «اقتله فقتله» ص٣٤٥. «والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول: خدعت محمدا مرتين أضرب عنقه يا زبير» فضرب عنقه فقتله ص٣٨٢ «لو أمرتهم بقتله فقتلوه»، جـ١/ ٤٠١ «إلا من استثناهم النبي وأمر بقتلهم»جـ١/ ٤٧٧ «فاتته فاقتله»، جـ٢/ ٤٨/ ٨٤-٨٥/ السيرة الحلبية جـ٣/ ٤٠٠، الفصول ص٤٩٥، خلاصة ابن كثير ص٤٠١.

(٤) «اللهم أني أبرأ إليك من صنع خالد»، الجوهرة جـ١/ ١٧٣.

(٥) خلاصة سيرة الرسول(٢) ص٣٤٠-٣٤١.

القتل والحرق[1]. وكانت سرعة الأمر بالقتل عادة يتسابق إليها المؤمنون. فمن استرق العين على الرسول وجب قتله[2]. ومن تعلق بأستار الكعبة وجب قتله بالرغم من أن من دخل المسجد فهو آمن[3]. لم تحاول السيرة إعادة تفسير الوقائع بما يجعلها أقرب إلى عادات العصر مثل ضرب العنق والاغتيال حتى ولو كان ضرب عنق الابن لأبيه أو لقريبه[4].

ولم يتم التعرض لبعض الشرائع القديمة أو الجديدة لمعرفة عنصر التواصل والانقطاع بين الجاهلية والإسلام مثل الحكم على أحد بالقتل حتى وهو متعلق بأستار الكعبة أو ضرب عنقه واغتياله ليلا في بيته بوخز السيوف في البطن للتأكد من القتل مع صراخه «يكفي يكفي»[5].

و- الاستحقاق

وبالرغم من أن الجنة والنار، والثواب والعقاب نتيجة لقانون الاستحقاق إلا أن الأحكام يصدرها الرسول وهو نفسه لا يملك لنفسه ثوابا ولا عقابا إلا إذا تغمده الله برحمته[6]. وإذا اختلف الناس فالعدل هو الحكم بينهم[7]. فالعدل قانون في الدنيا وقانون في الآخرة. وظل الصراع في علم الكلام بين فرقتين أهل العدل وهم المعتزلة وأهل الرحمة وهم الأشاعرة. وكلاهما من أهل التوحيد. وقد تغفر الشهادة باقي الأعمال، باعتبارها تضحية بالذات كلها[8]. فالعمل الكلي يجُب العمل الجزئي، والحياة تطوي أفعالها. وقد

---

(١) «إن وجدتم هبار فاحرقوه بالنار... اقتلوه فإنه لا يضرب بالنار إلا رب النار» وذلك عقابا لهبار على قتل امرأة وإجهاض جنينها، الجوهرة جـ١/ ٦١.

(٢) «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين»، «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت عن مبايعته فقتله»، غاية السؤال ص١٤٢.

(٣) «من دخل المسجد فهو آمن... اقتلوه» (ابن الأخطل)، السابق ص١٨٧.

(٤) الرحيق المختوم ص٢٢٢/ ٢٢٩/ ٢٤٢/ ٣١٧/ ٣٣٠-٣٣١/ ٤٠٠-٤٠١/ ٤٠٦/ ٤١٠/ ٤٤٦.

(٥) عيون الأثر جـ١/ ١٣٢/ ١٣٥/ ١٤٢/ ٣٩٨، جـ٢/ ١٠٩/ ١١٠/ ١٢٠/ ٢٣٧.

(٦) سيرة النبي جـ٣/ ٢٣٩/ ٢٤٨-٢٤٩ جـ٤/ ٧٠٣/ ٦٩٩/ ٦٨٢، جـ٦/ ١٥/ ٤١، بهجة المحافل ص١٧٢-١٧٤/ ١٧٩.

(٧) «إذا اختلف الناس فالعدل في مضر»، الجوهرة جـ١/ ٣٣٣.

(٨) «وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شىءتم فقد غفرت لكم»، السابق جـ١/ ١٣٠.

ظل الرسول يستغفر للمنافقين مؤولا القرآن للاستغفار لهم أكثر من سبعين مرة. كان الرسول من أهل الرحمة على خلاف رأي عمر الذي كان من أهل العدل[1].

وتكثر البشارة بالجنة لعمل واحد مثل بيعة الرضوان[2]. وكذلك بشر أهل بدر بالجنة[3]. ومنها أيضا تبشير واحد بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لأنه قام بعمل أصيل. فالحساب كلي وليس جزئيا، كيفي وليس كميا. وكان الرسول يبشر دائما بالجنة أكثر مما يحذر من النار[4]. يحكم على بعض صحابته أنه من أهل الجنة تشجيعا وتطمينا ومكافأة[5]. يبشر البعض بالجنة أو يتنبأ لآخر بالنار قبل الحساب تشجيعا أو تثبيطا[6]. يدخل الجنة سبعون ألفا بلا حساب منهم عكاشة دون آخر دون سبب إلا السبق في الدعوة أو برودتها[7]. وهي علامة على أن الرحمة تسبق العدل.

والزهد في الدنيا سنة[8]. ولبس الحرير ليس من شيم من يبتغون الآخرة[9]. والتهجد ليلا والناس نيام تفرد ووحدانية. ومع ذلك الطريق إلى الآخرة هو العمل الصالح[10]. والدنيا خضرة حلوة ضد من يصورون الإسلام على أنه ضد الحياة ومع الزهد والتقشف والبعد عن الدنيا[11].

---

(١) «إني خُيرت فاخترت. لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»، بهجة المحافل ص٣٥٥-٣٥٦.

(٢) «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»، بهجة المحافل ص٢٤٠، «بايع فإن الإسلام يجُب ما قبله، وإن الهجرة تجب ما قبلها»، ص٢٤٢ «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة» ص٢٤٥.

(٣) لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، سيرة النبي ص٢٦٩-٢٧٠.

(٤) وفاء الوفا جـ٣/ ٩٤٢-٩٤٣.

(٥) «أبو سفيان سيد فتيان أهل الجنة»، الجوهرة جـ٢/ ٤٧.

(٦) خير العباد ص١٣٥/ ١٣٧/ ١٤٣.

(٧) «يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتي على صورة القمر ليلة البدر»، الجوهرة جـ١/ ١٨١-١٨٢.

(٨) «يا أبا هاشم، لعلك تدرك أموالا يؤتاها أقوام. فإنما يكفيك من الدنيا خادم ومركب في سبيل الله»، السابق جـ١/ ٦٤.

(٩) «إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة»، السابق ص٢٦٩.

(١٠) «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»، السابق ص٣٨٧.

(١١) «الدنيا خضرة حلوة»، السابق جـ٢/ ٧٥.

وهناك تصورات عديدة للعلاقة بين الدنيا والآخرة. الأول التصور المعكوس في الثواب والعقاب. ما ضاع في الدنيا يسترد في الآخرة. والثاني التصور الشبيه بقدر ما يوجد في الدنيا يوجد في الآخرة. والثالث التصور النقيض، نداء الآخرة أبقى فإذا وجد الإنسان شيئا يعجبه تذكر الآخرة. ونسى الدنيا[1]. وقد ظهر من السيرة أن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

ز- المجتمع والتاريخ

وتظهر رابطة الوطن بين المسلمين عندما مات عبد معتوق وأعطى الرسول تركته لأحد من وطنه وليس لسيده[2]. وشبه الجزيرة العربية هي بلاد العرب[3]. فالمسلم ينتسب أيضا إلى أهله ووطنه «أهلا بأهل، وأوطانا بأوطان»[4]. ويخطئ من يظن أن حب الأوطان مقصور على الإيديولوجيات العلمانية الحديثة. فهو جوهر الرسالة. وكان أعداء العرب الذين احتلوا أراضيهم. العجم في الشرق، والروم في الشمال والغرب، والأحباش في الجنوب. وربما تغيرت موازين القوى الآن وأصبح العجم نصراء للعرب في فلسطين والعراق. ومازال الروم ووارثوهم وهي أوروبا الآن، أعداء العرب. وكذلك الأحباش الذين اعتدوا على الصومال مع أنهم كانوا من مؤسسي منظمة الوحدة الإفريقية ومازالوا مقرا لها[5]. والدين الجديد مرحلة من مراحل تغير العرب في شبه الجزيرة. توحدهم عن طريق توحيد الدين ثم سيادتهم على دول الجوار فارس في الشرق، والروم في الشمال والغرب، والأحباش في الجنوب[6]. تظهر الوطنية من خلال السيرة مثل ألا يكون في دين العرب دينان. فالإسلام دين العرب، والعرب حاملو

(١) «لبيك، إن العيش عيش الآخرة»، غاية الرسول ص١٠٦.

(٢) سيرة النبي جـ٢/ ٢٤٣.

(٣) «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، السابق جـ٢/ ٤٤٢.

(٤) السابق جـ٥/ ٢٤٠.

(٥) «هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم»، «وبي نُصروا»، الجوهرة جـ١/ ٤٢٤.

(٦) «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة»، محمد رسول الله جـ١/ ١٩٨، «اذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم إن رسول الله أرسلني إليكم أن أخرجوا من بلدي»، السابق جـ١/ ٤٨٥.

الإسلام. والتنبؤ بفتح الشام متكرر وكذلك القدس[١]. وفتح بيت المقدس من أشراط الساعة[٢]. والعرب والأتراك والإيرانيون يكونون تكتلا سياسيا جديدا في مواجهة الصهيونية والاستعمار، خمسمائة مليون أي ما يقارب نصف الأمة.

وفي النظام السياسي يرفض الطاعة لقيصر والتبعية للسلطان[٣]. وكان التمييز بين ما لقيصر وما لله رد فعل على جعل اليهود كل شيء لقيصر، ما لقيصر لقيصر وما لله، فجعل الإسلام كل شيء لله[٤]. وأمر الناس شورى بينهم. وليس للرسول من الأمر شيء بل يطيع الجماعة[٥]. والمؤمنون إخوة، يتناصحون فيما بينهم. وعلماؤهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ولا يفتون للسلطان ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦]. وقد كانت تجربة أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله[٧]. يتعاونون على البر والتقوى ولا يتعاونون على الإثم والعدوان. ودون هذا المبدأ في النقد والراجعة تنهار المجتمعات[٨]. ويكون الولاة كالناس ومن نوعهم. ظلمه ظلمهم، وعدله عدلهم[٩]. والتغيير الاجتماعي مرهون بأيدي الناس، تغيير فعلي أو قولي أو شعوري[١٠]. والتغيير

---

(١) «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم، قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك.. بيت المقدس وأكناف بيت المقدس»، «سيفتح عليكم الشام وإن بها مكانا يقال له الغوطة، يعني دمشق، من خير منازل المسلمين في الملاحم»، محمد رسول الله جـ٢/ ١٥٤.

(٢) السابق جـ٢/ ١٧٥.

(٣) السابق ص١١٣-١٢٤.

(٤) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، السابق ص١١٦-١١٧.

(٥) ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾، ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، السابق ص١١٧-١١٩.

(٦) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، السابق ص١١٧-١١٨.

(٧) ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ، اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، السابق ص١١٨.

(٨) ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، السابق ص١١٩ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾، «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، ص١١٩-١٢٠/ ١٢٣.

(٩) «كما تكونوا يول عليكم»، ﴿لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، السابق ص١٢٠/ ١٢٢.

(١٠) «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، السابق ص١٢١.

يبدأ بالنفس قبل الآخر[١]. فشكوى المستضعفين. لا معنى لها لأن الأمر بأيديهم. الإيمان بالله تحرر وثورة ضد الظلم[٢]. والبداية بالوعي. والوعي مرتبط بالحواس، الرؤية والسمع[٣]. ورقة القلب شرط إدراك الحواس. ولله المثل الأعلى. ولا يؤخذ بعين الاعتبار خطورة بعض الأحاديث على الحياة المعاصرة مثل طاعة الأمير من طاعة الرسول. فتعتمد السلطة السياسية على السلطة الدينية لتأكيد شرعيتها. وهو ما يعارض أيضا أحاديث أخرى مثل «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»، وضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة للإمام بل والخروج عليه إن ظل عاصيا ولم يمتثل لحكم قاضي القضاة. وروجت السلطة السياسية لمثل هذه الأحاديث التي تحث على طاعة السلطان. ولم تستعمل المعارضة بشكل صريح الأحاديث التي تحث على مراقبة السلطان. واتجه بعضها إلى أوجه المعارضة العلمانية التي تستبعد الدين كموروث شعبي من حسابها في حين أن الدين يمكن أن يكون أفيون الشعوب وزفرة المضطهدين بتعبير إحدى الأيديولوجيات المعاصرة[٤].

وفي موضوع الإمارة إن أعطيت أصبح الأمير مسئولا عنها إن سأل عنها، وأعين عليها لو كانت عن غير سؤال[٥]. والطاعة من جانب المحكوم، أن تكون في عنقه بيعة ولا يخرج منها كما تقول الشيعة[٦]. وكيف تكون والأئمة في قريش. ولا يتقدم أحد

(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، السابق ص١٢٢-١٢٣.

(٢) ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، السابق ص١٢٤

(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، السابق ص١٢٤/ ١٣٤ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ص١٣٣-١٣٥، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، السابق ص١٦٧.

(٤) «من أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني»، عيون الأثر جـ٢/ ٢٠٦.

(٥) «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»، الجوهرة جـ١/ ٥٩، بهجة المحافل جـ٢٦٦.

(٦) «من خلع يدا من طاعة لقي الله عز وجل يوم القيامة لا حجة له. ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، السابق ص١٠٥.

عليها؟[1]. وكيف يكون الناس تبعا لقريش في الخير والشر؟ وهو يعارض أحاديث أخرى ترى أن الإمامة عامة «أسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشي». كما روي أن الخلفاء من قريش اثنا عشر خليفة بالتمام والكمال[2]. وهو ما يكشف عن الصراع على السلطة بين قريش وغيرها من القبائل. وهو ما أظهر أيضا الفرق بين الأشاعرة من جانب والمعتزلة والخوارج من جانب آخر. ويتعارض مدح قريش ونسبها مع المساواة بين القبائل والأقوام والشعوب. فشرف الرسول لنبوته وليس لقبيلته[3]. والإمارة انتخاب وشورى وليست طلبا، انقلابا أو وراثة[4]. والراعي مسئول عن رعيته[5]. وهو الناصح لها كما أنها هي الناصح له. وهو الرحيم بهم. والملبي لحاجتهم. وهو الإمام العادل. والأمير لا يكون إلا قويا[6]. وقوته في عدله وفي كونه نموذجا للمحكومين، آخر من يأكل، وآخر من يشرب، وآخر من يسكن. إذا عثرت بغلة في العراق سئل عنها لماذا لم يسوّ لها الطريق. والإمام له وزير ناصح[7]. وقد يكون الوزير جماعة أو هيئة

---

(١) «الأئمة من قريش»، «قدموا قريشا ولا تقدموها»، «لا يقتل في شيء صبرا بعد اليوم»، السابق ص١٤٠ «الناس تبع لقريش في الخير والشر»، السابق ص١٤٥.

(٢) «يكون بعدي اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»، السابق ص٣٧٧.

(٣) السيرة الحلبية جـ١/ ٣٩.

(٤) «يا عبد الرحمن بن سمُرة. لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها. وإن أعطيتها عن مسألة وُكلت إليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها. فأت الذي هو خير وكفّر عن يمينك»، بهجة المحافل ص٢٦٦، محمد ص١١٣-١٤٢.

(٥) «ما من عبد يسترعيه الله على رعيته يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»، بهجة المحافل ص٢٦٦، «ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة»، «اللهم من ولي من أمتي شيئا فارفق بهم»، «إن شر الدعاء الحطمة»، «فإياك أن تكون منهم»، «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته. وكلكم راع ومسئول عن رعيته»، من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وقلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وفقره يوم القيامة، «سبعة يكلمهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»، بهجة المحافل ص٢٦٦-٢٦٧.

(٦) «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، فلا تأمرن على اثنين، ولا تولّين مال يتيم»، «يا أبا ذر إنك ضعيف. وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة حسرة وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها، السابق ص٢٦٩».

(٧) «إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»، «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا

مستشارين بلغة اليوم. ليس من رجال الأعمال ولا من طلاب المناصب حتى لا تجتمع السلطة والثروة في أيدي قلة على حساب مصالح الناس.

وتستعمل بعض الألفاظ الحديثة مثل «الفدائيون» للتعبير عن المجاهدين والشهداء. وهم المعارضة للحكم الظالم[1]. وطبيعة الحكم إما المعارضة بالكراهة فبالبراءة أو بالإنكار فالسلام أو بالرضا والمتابعة. ولا تجب مقاتلتهم ماداموا يصلون. فالمعارضة بالقول أولا قبل أن تكون باليد[2]. والقوى في المجتمع ثلاث. عليا ووسطى وسفلى. العليا هي اليد العليا وهي يد الله، والوسطى هي يد المعطي، والسفلى هي يد السائل. ولما كانت اليد العليا خير من اليد السفلى، فإن الطبقة السفلى عليها أن ترتفع إلى الطبقة الوسطى، والوسطى إلى العليا حتى ينشأ مجتمع بلا طبقات[3].

والإسلام دعوة إلى المساواة بين البشر. فهو دين الناس[4]. والمساواة اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية. فالمساواة الاقتصادية في مجتمع بلا طبقات حتى لا يتسلط الأغنياء على رقاب الناس[5]. وهم الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها لصالح الناس. فما ينفع الناس هو ما يمكث في الأرض[6]. ليس الإيمان هو العبادات بل هو المعاملات. وفي مقدمتها الإنفاق على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين والأسرى[7]. وبالرغم من أن المال والبنون زينة الحياة الدنيا إلا أن حق

كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتحض عليه، وبطانه تأمره بالشر وتحض عليه. والمعصوم من عصمه الله»، السابق ص٢٦٧.

(١) سيرة النبي جـ٥/ ٣٨٦-٣٨٧.

(٢) يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون. فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع، الجوهرة جـ١/ ٤١٠.

(٣) «الأيدي ثلاثة: فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى»، السابق جـ١/ ٣٧٠-٣٧١.

(٤) الرسالة والرسول ص١٢٥-١٣٦.

(٥) ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾، السابق ص١٢٢، ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ص١٢٧.

(٦) ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾، السابق ص١٢٩

(٧) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾، ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ، السابق ص١٢٩-١٣١.

الآخرين فيهما بالإنفاق والتضحية[1]. ومن يعش تجربة اليتم والفقر يعرف كيف يحسن معاملة اليتامى والفقراء والسائلين[2]. والمساواة الأخلاقية هي التساوي في الحقوق والواجبات أمام القانون طبقا للعمل الصالح وليس الإيمان أو القبيلة[3]. التفضيل في معرفة الحق مثل تفضيل الأنبياء[4]. والتفضيل في العلم[5]. وتفضيل في العمل[6]. الحياة امتحان واختبار. ويكون ذلك كله في حدود الطاقة والإمكانيات[7]. والحالات الاضطرارية لا غبار عليها[8].

وفي النظام الاقتصادي كان الربا عادة قبل الإسلام. حرمه الإسلام. فنزلت آية لتحريم ما تبقى منه[9]. والله هو المسعر أي أن التسعير يخضع لقانون السوق. والله هو الذي يرفع ويخفض طبقا لقوانين الجدل الاجتماعي[10]. وواضح تغلغل الموقف الأشعري عند كتاب السيرة. وتستعمل بعض المذاهب الحديثة مثل الاشتراكية لرؤية السيرة من خلالها. فالإسلام أتى بالاشتراكية علاجا للتفاوت الشاسع من الأغنياء

---

(١) ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، السابق ص١٢٩-١٣٠.

(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾،السابق ص١٢٥.

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، السابق ص١٢٦.

(٤) ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، السابق ص١٢٦.

(٥) ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، السابق ص١٢٧-١٢٨.

(٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، «لا ضرر ولا ضرار»، «أنتم أعلم بشئون دنياكم»، السابق ص١٣٣/ ١٣٥.

(٧) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، السابق ص١٧٢.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ابن هشام جـ١/ ٣٧٩.

(٩) «إن الله هو المسعر، القابض الباسط الرازق، وأني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم أو مال»، «بل الله يخفض ويرفع. وأني لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة»، بهجة المحافل ص٢٧٧».

(١٠) «علاج الاشتراكية، سيرة النبي جـ٥/ ٢٥٩-٢٦١﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، جـ٥/ ٢٦٠.

والفقراء واكتناز الذهب والفضة كما تفعل الرأسمالية[1].

ويمكن إيجاد عناصر للبيئة والخضرة ضد صفرة الصحراء لإطعام الإنسان والحيوان[2]. ولو كان في يد أحد فسيلة وهو في اللحظة الأخيرة فليغرسها حتى يكون آخر فعل في التنمية والنماء، والخضرة والاخضرار. ووضع نبتة خضراء على قبر الميت تخفف من عذاب القبر. وفي السلوك الشعبي أيضا رشه بالمياه. لذلك ازدهرت تجارة الزهور والورود على مداخل المقابر، وكانت شغلة حراسها رشها بالمياه لأخذ أكبر قدر من الأجر من عائلة المتوفى.

والقاضي هو الذي يقضي حوائج الناس وليس فقط هو الذي يقضي في الخصومات بينهم[3]. ويمثل السلطة القضائية التي يحتكم إليها المتخاصمون بمن فيهم السلطان أو الأمير أو الوالي الذي يمكن لكل الفقراء والعاطلين والمضطهدين اختصامه أمام القضاء. وبالرغم من أن القاضي مُعيّن من السلطان إلا أن السلطان لا يستطيع عزله. بل هو الذي يستطيع عزل السلطان إن لم يطبق أحكام القضاء.

والإسلام دين الناس جميعا الفرس والروم والأحباش. ورسالته عامة لكل الخلق. وهي صفة الرسالة أكثر منها صفة الرسول[4]. انضم إليها الحر والعبد[5]. ومع جوهر الرسالة وفضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة يظهر الإسلام إعلانا فريدًا في تاريخ الرسالات والديانات. به تتمثل قيمة الرحمة كما وكيفا. أنقذت النوع البشري من الشقاء والهلاك. وكان لها دور في الإنقاذ والإسعاد. وبشرت بعالم جديد يقوم على عقيدة التوحيد النقية الواضحة، مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة

---

(١) «ما من مسلم يزرع شجرة فيأكل منها إنسان أو حيوان أو طائر إلا ووجد ثوابها»، جـ٦/ ١١٣.

(٢) «أيما وال أو قاض أغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة أغلق الله أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته»، الجوهرة جـ١/ ٤٦٦.

(٣) «صهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة... من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحب صهيبا حب الوالدة ولدها»، الجوهرة جـ١/ ٤١٥. «الرسالة المحمدية إلى الأمم كافة»، معجز محمد، جـ١/ ٢١-٣٠.

(٤) «بعث إلى الناس كافة»، الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٣.

(٥) مثل أبي بكر وبلال، مختصرة سيرة(١) ص١٢.

البشرية. أعلنت كرامة الإنسان وسموه، وشرف الإنسانية وغلو قدرها. حاربت اليأس والتشاؤم، وبعثت الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان. جمعت بين الدين والدنيا، ووحدت الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة، وعينت الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح[1].

وفي العلاقات الدولية كان الرسول يدعو للقياصرة الذين يؤمنون به في حين أنكرته البطارقة. فرجال الدين سلطة قائمة، تبحث عن بقائها وليس عن الحقيقة[2]. العيب الرئيسي لرجال الدين أنهم فقهاء السلطان أكثر مما هم فقهاء الشعب. ولما مزق كسرى كتاب الرسول الذي يدعوه فيه إلى الإسلام دعا عليه لتمزيق ملكه[3]. فهو القوة الماضية، والإسلام هو القوة القادمة.

وأحيانا يظهر الصراع بين العرب والمجوس، بين الأدب العربي والأدب المجوسي عندما غلب حسان شاعر المسلمين شاعرَ الفرس[4]. وهي بقايا جاهلية وطغيان الأدب على السياسة، والشعوبية على الدين.

الإسلام آخر مرحلة في تطور الوحي منذ آدم حتى محمد[5]. أتى على فترات طبقا لتطور الوعي البشري ومساهمته فيه. فيه اكتمل الوحي والدين الطبيعي حيث قام الوحي على العقل والواقع كما هو الحال في فلسفة التنوير في الغرب[6]. فالشهادتان تعني التوحيد والنبوة، التوحيد الطبيعي وختم النبوة[7]. والفعل «أشهد» يشير إلى الدين الطبيعي أي قدرة الإنسان على الإدراك والوعي الذاتي. الإسلام آخر لبنة في بناء ساهم فيه كل نبي سابق بجزء حتى أكمل بآخر لبنة[8]. وحظي الرسول بخمس: النصر

---

(١) السيرة النبوية ص٤٥٧-٤٨٥.

(٢) «ثبت الله ملكه»، الجوهرة جـ١/ ٤٥٤.

(٣) «مزق الله ملكه»، السابق جـ١/ ١٠٧.

(٤) «معجز محمد» جـ٢/ ٢٧٥.

(٥) «في إثبات أن دينه ناسخ كل دين، وأنه خاتم النبيين وعموم رسالته إلى الناس أجمعين، وتفضيله على جميع النبيين والمرسلين»، سيرة النبي ص١٢٣-١٣٨.

(٦) لسنج: تربية الجنس البشري، مقدمة.

(٧) «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، سيرة النبي ص١٢٣.

(٨) «مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فيها فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضع هذه اللبنة. فأنا اللبنة. وأنا خاتم النبيين»، السابق ص١٣٢.

بردع الآخر، والغنائم، والشفاعة، وعموم الرسالة، وطهارة الأرض. فطهارة الأرض مثل عُموم الرسالة[1]. والرسول خاتم النبيين. وهذه ليست كرامة في غير النكاح بل هو تطور طبيعي للوحي في مراحله الكبرى الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام. وأمته خير الأمم وإجماعها حجة. وفي ذلك عصمتها. وليس للأفراد كما هو الحال في رؤساء الكنيسة. والشريعة مؤيدة وناسخة لجميع الشرائع، مثبتة ومنفية[2]. وكتابه معجز بخلاف كتب سائر الأنبياء. والأرض له ولأمته مسجدا طهورا طبقا للدين الطبيعي الذي لا يحتاج إلى مساجد ومعابد وكنائس ودور عبادة. وأمته شهداء على الناس إلى يوم القيامة لأنها حاملة لواء الحق والعدل. صفوفها كصفوف الملائكة. ورسالته عامة للإنس والجن. وقد أقرت جماعة الحنفاء بنبوته قبل البعثة[3].

---

(١) أعطيت خمسا لم يعطهم أحد من قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وبعثت إلى الناس كافة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، السابق ص١٣٣-١٣٤.

(٢) وهو معنى الفعل الألماني الشهير عند هيجل Aufheben.

(٣) خصائص الرسول ص٢٥٦-٢٦٣/ ٢٨٨٨/ ٣٠٢-٣٠٤، رسالة النبي عامة لجميع الخلق والأنبياء وأممهم كلهم من أمته، الخصائص الكبرى ص٢٣-٢٤.

الفصـل الثاني

مـصير الرسالة

١ - النبوة والخلافة

ويعني «مصير» الرسالة انتشار الإسلام منذ وفاة الرسول حتى عصر الخلفاء قبل الفتنة. لذلك أُلحق تاريخ الخلفاء بتاريخ الرسول. وأُلحق كلاهما بكتب التاريخ العامة حتى عصر المؤرخ. وإذا كان المؤرخ الحالي يعيش في النصف الأول من القرن الخامس عشر الهجري فإن مصير الرسالة يمتد بامتداد هذه القرون[١]. وإلحاق الخلافة بالنبوة شائع في كتب التاريخ الذي تكون فيه النبوة أحد مراحله في تاريخ طويل منذ خلق العالم حتى نهايته. ويتوقف التاريخ عند حياة المؤرخ ولكنه لا يستمر بعده استبصارا للمستقبل طبقا لتجارب الماضي خاصة وأن هناك أحاديث عن الرسول بالنسبة للمستقبل وإصدار أحكام عليه. وقد خصصت لها كتب الحديث أبوابا خاصة بعنوان «كتاب الفتن» أو «أحاديث آخر الزمان»[٢]. مصير الرسالة يشمل استئناف الرسالة في

---

(١) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، وهي أجزاء من كتاب «الثقات» في التاريخ للبستي. الإشارة ص٤٦٥-٥٦٥، مختصر سيرة (١) ص٢٨-٣٨، مختصر رسالة (١) ٢١٦٩-٢٢٥ «هذه خلافة النبوة»، «هؤلاء يكونون الخلفاء بعدي»، شمائل الرسول ص٢٢٢.

(٢) «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، البستي حـ١/ ٤١٥. «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي، وأنه سيكون خلفاء فيكثرون... فوا بيعة الأول فالأول. وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم»، «ما كان نبي إلا كان له حواريون يهدون بهديه ويستنون بسنته ثم يكون من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويعملون ما ينكرون»، «يكون بعد

التاريخ بعد وفاة الرسول عند الخلفاء، تم تقديس الخلفاء مثل تقديس الرسول، وعدم تشخيصهم في الفن، الرسم أو النحت أو السينما أو أي فن تشكيلي. فالقداسة في التاريخ تمتد من الرسول إلى الصحابة إلى التابعين إلى تابعي التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين حسب القول المشهور[1].

وإلحاق الخلافة بالنبوة عند السنة مثل إلحاق الإمامة بالنبوة عند الشيعة. فالنبوة مستمرة في التاريخ. التاريخ عند أهل السنة هو تاريخ الملوك، تاريخ ما هو كائن. والتاريخ عند الشيعة تاريخ ما ينبغي أن يكون، تاريخ الأئمة السبعة عند الإسماعيلية أو تاريخ الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية الاثنى عشرية. ويعيد كلاهما قراءة التاريخ الماضي، تاريخ الأنبياء. فالأنبياء أولي العزم ستة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، حلقات التاريخ الرئيسية[2].

والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء للبستي (٣٥٤هـ) أقرب السير إلى ابن هشام في استكمال السيرة في أخبار الخلفاء بالرغم من أنه جزء من كتابه في التاريخ «الثقات». وتعتمد عليه معظم كتب التاريخ كما يعتمد عليه الطبري في تاريخه. أما تاريخ الخلفاء فله مصادره التاريخية: الطبري ومسكويه وابن أبي الأزهر[3]. وينقسم إلى ثلاث فترات:

الأنبياء خلفاء يعملون بكتاب الله، ويصلون في عباد الله، ثم يكون من بعد الخلفاء ملوك يأخذون بالثأر، ويقتلون الرجال، ويصطفون الأموال، فمغير بيده، ومغير بلسانه، ومغير بقلبه، وليس وراء ذلك من الإيمان شيء»، «إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائنا خلافة ورحمة، وكائنا ملكا عضوضا، وكائنا عزة وجبرية وفسادا في الأمة، يستحلون الفروج والخمور والحرير، وينصرون على ذلك، ويرزقون أبدا حتى يلقوا الله»، «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا»، شمائل الرسول ص٢١٤-٢١٥.

(١) «انطلق حتى تأتي أبا بكر فتجده في داره جالسا محتبيا فقل: إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة. ثم انطلق حتى تأتي الثنية فتلقى عمر راكبا على حمار تلوح صلعته فقل: إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة، ثم انصرف حتى تأتي عثمان فتجده في السوق يبيع ويبتاع فقل: إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول: أبشر بالجنة بعد بلاء شديد»، السابق ص٢٢٣.

(٢) الإمام الحق بعد الرسول، وجوب نصب الإمام، سيرة النبي ص٣٩٧-٣٩٩، شروط الإمامة ص٣٩٩-٤٠٣.

(٣) يضاف إليهم: الفسدي، خليفة، ابن قانع، الخطيب، ابن عساكر، ابن حبان، ابن الأثير، المسعودي، ابن الجزار، الديلمي، السروجي، الإشارة ص٤٦٥-٤٦٧.

الخلفاء الراشدون، والأمويون، والعباسيون[1]. وأكبرها العباسيون[2]. وهو تاريخ موضوعي خالص دون أي حكم تقييمي، موضوعية خالصة وحياد تام كما يفعل المؤرخ الراصد. وكل الأسماء محاطة بالتبجيل والتعظيم. فالخلفاء الراشدون رضي الله عنهم مع الحسن بن علي خمسة، بل ومعاوية نفسه سبب البلاء عند الشيعة والسنة أيضا رضي الله عنه، وعبد الله بن الزبير وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما. والأمويون خمسة عشر خليفة، ثم يظهر تأييد الدين للسلطة والسياسة في أسماء الخلفاء العباسيين وهم أربعة وأربعون خليفة. أولهم أبو العباس السفاح. ستة منهم تخلو أسماؤهم من الاقتران بالله بالرغم من الدلالة الأخلاقية الدينية لخمسة منهم: المهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمأمون[3]. وسبعة وثلاثون منهم أسماؤهم مقرونة بالله؟ البعض منها متكرر[4]. والبعض يبين نفس الاشتقاق. ومنها الأسماء التي تطلب العون من الله على أعدائه وهم الخصوم السياسيون[5]. مثل: المكتفي بالله، المستضيء بأمر الله، المستعين بالله، المعتمد على الله، المستنجد بالله. ومنها أسماء تدل على مدى طاعة الخليفة لله[6]. ومنها اسم يستدعي الله القاهر لخصومه[7]. والسؤال هو: هل إضافة الخلافة بعد الرسول تقوم على توجه أيديولوجي في الصراع بين السنة والشيعة، الخلافة بعد النبوة عند السنة، والإمامة بعد النبوة عند الشيعة؟ هل الخلافة تدل على نفس الوراثة وراثة الرسول من ذريته في مقابل الشيعة التي تجعل الإمامة بالضرورة من ذرية النبي.

وقد توقف هذا القسم بعد كتب التاريخ القديمة. وأصبحت السيرة تنتهي بوفاة الرسول نظرا لارتباط الرسالة بالرسول، والقضية بالشخص. فلم يعد المؤرخ مهموما

---

(١) الخلفاء الراشدون، السابق ص٤٦٨-٤٧٨، الأمويون ص٤٧٩-٤٩٧، العباسيون ص٤٩٨-٥٦٥.

(٢) الخلفاء الراشدون (١١ص)، الأمويون (١٩)، العباسيون (٦٧).

(٣) وهم أبو جعفر المنصور، المهدي، الهادي، هارون الرشيد، الأمين، المأمون.

(٤) مثل: الواثق بالله، المستكفي بالله، المتوكل على الله، والمعتضد بالله، فضائل الخلفاء الراشدين المهديين، المستصفى ص٧٥٥-٧٦٧.

(٥) مثل: المعتصم بالله، المستعصم بالله، المنتصر بالله، المستنصر بالله، الناصر لدين الله، المسترشد بالله، الراشد بالله، المستظهر بالله، الظاهر بالله، المطيع بالله، الطائع بالله، القادر بالله، المقتدر بالله.

(٦) مثل: المهتدي بالله، الراضي بالله، المتقي لله، القائم بأمر الله، المقتدي بأمر الله، المقتفي لأمر الله.

(٧) مثل القاهر بالله.

بالرسالة قدر رغبته في مدح الرسول. والرسول لديه مستقل عن الرسالة وعن مصيرها. إذا ارتبط بماضيها فلمدح رسولها الذي حول العرب من الجاهلية إلى الإسلام. ويؤرخ للخلافة عاما وراء عام أسوة بكتب التاريخ من العام العاشر الذي توفى فيه الرسول حتى العام الأربعين الذي قتل فيه علي. ثلاثون عاما كما تنبأ الحديث «الخلافة ثلاثون سنة ثم تتحول إلى ملك عضود». ويستمر تاريخ الشعوب الإسلامية حتى العصر الذي عاش فيه المؤرخ. تُدون الرسالة بعد وفاة الرسول تاريخيا عاما وراء عام كما هو الحال في كتب السيرة أو في السيرة والخلفاء، بداية بالخلفاء الراشدين الأربعة ونهاية بإلغاء الخلافة العثمانية وبداية أنظمة قريش والجيش الحالية كما تُدون الدلالات وراء الحوادث، والتجارب الحية وراء الوقائع بصرف النظر عن التتابع الزماني. التاريخ الخالص يرجع السيرة إلى التاريخ، والدلالات الخالصة ترجع السيرة إلى فلسفة إنسانية عامة. والسؤال هل يمكن الجمع بين الاثنين، التوالي الزماني دون الوقوع في التاريخانية، والمعية الزمانية دون الوقوع في الاضطراب الزماني[1].

ويقوم التاريخ أيضا على الرواية والسند وذكر اسم الخليفة ونسبه. وفي كل خليفة من الخلفاء الأربعة يذكر نسب كل منهم حتى الوصول إلى بني هاشم أسوة بنسب الرسول الذي يصل إلى إبراهيم[2]. ويستمر المنهج التاريخي في الخلافة بعد وفاة الرسول. يرصد أسماء الشهداء من المسلمين من قريش ومن الأنصار[3]. وتستعمل أيضا أقوال الخلفاء مثل عمر كمصدر للسيرة[4]. ولا تتدخل المعجزات الآن في مسار التاريخ أو في حماية أبطاله أو الانتقام من أعدائه كما تدخلت في حياة الرسول ومراحلها المختلفة منذ قبل الميلاد حتى الوفاة ومراسم الدفن. واختلفت صورة الرسول بعد موته عند الصحابة بل عند أهله. فعند معاذ من لليتامى والضعفاء بعده، أي زعيم اشتراكي. وعند آخر الناس بعده غنم بلا راع أي قائد سياسي. وعند ابنته فاطمة انقطع اتصال السماء بالأرض

---

(١) التاريخانية Historicism، التوالي الزماني Diachronism، المعية الزمانية Synchronism، محمد ص٢٣٩-٢٦١، فضل الخلفاء الأربعة، سيرة النبي ص٤٠٧-٤١٩، أدلة فضل الخلفاء الأربعة ص٤١٢-٤٢٢

(٢) أبو بكر، البستي جـ٢/ ٤١٩، عمر جـ٢/ ٤٥٢، عثمان جـ٢/ ٤٩٩، علي جـ٢/ ٥٢١، الإشارة ص٤٦٨-٤٧٨. فضائل الخلفاء الراشدين المهديين، سنن المصطفى ص٧٥٥-٧٦٧.

(٣) البستي جـ٢/ ٤٤٠-٤٤٢.

(٤) ابن هشام جـ١/ ٢٠٥-٢٠٦.

عن طريق جبريل، وعند آخر المدينة أضيق على أهلها من الخاتم، وعند عائشة لا حياة هانئة بعده[1]. ولم تخل القرارات من الأهواء والقبلية والنوازع البشرية. فالإيمان لا يقضي عليها بل يقللها إلى حدها الأدنى[2]. وتداخلت المصاهرة والصداقة والنبوة في الربط بين الجماعة الإسلامية الأولى[3]. وكانت الغاية من الزواج الذرية[4]. ومازالت آثار النبوة باقية في أحاديث الرسول مثل دور القرآن في رفع أقوام وخفض آخرين[5]. فالنبوة مهتمة بمصيرها بل وتتنبأ به.

٢- المخاطر الداخلية والخارجية

ويتحدد مصير الخلافة بنوعين من المخاطر: المخاطر الداخلية مثل الخلاف حول السلطة السياسية وشرعيتها، والانقلابات المتتالية، وتفكك الدولة المركزية في بغداد أو في استانبول، وتحول دولة الخلافة إلى إمارات أو ولايات تقوي أو تضعف، تستقل أو ترتبط بالمركز، وتحول السلطة من البيعة إلى الوراثة. فقد استقرت دولة الأمويين على شلالات من الدم، رمزها السفاح. وجاء العباسيون بشلالات أخرى من الدم. واستمرت على مدى خمسة قرون. ثم ضعفت واستقلت أطرافها. وتحولت إلى أمصار مستقلة، الفاطميون والأيوبيون والعباسيون والطولونيون والإخشيديون والمماليك والأتراك، حتى قضى عليها التتار واحتلوا بغداد. ثم قضى عليها العلمانيون بإلغاء الخلافة في استانبول ١٩٢٤م. والآن الحكم لقريش أو الجيش، من ينتسب إلى بني هاشم أو إلى الضباط الأحرار. ولم يعد التسلسل قائما متصلا إلى بني هاشم. ولو كان صحيحا فالوراثة ليست مصدرا للسلطة وأصلا للحكم. والضباط الأحرار قاموا بثورات لتخليص البلاد من الظلم والإقطاع والفساد ثم تمسكوا بالسلطة مدى الحياة لهم ولذريتهم[6].

---

(١) البستي حـ٢/ ٤٢٨.

(٢) اختار سعد آخر الثلاثة الذين اقترحهم عمر عليه للرئاسة لأن له فيه هوى، البستي حـ٢/ ٤٧٨.

(٣) تزوج الرسول عائشة ابنة صاحبه أبي بكر ثم حفصة ابنة صاحبه عمر للمساواة بينهما، وتزوج عمر أم كلثوم بنت علي من فاطمة وهو وسط الفتوحات في العراق والشام، وتزوج عثمان ابنة الرسول، وتزوج علي فاطمة ابنة الرسول وابنة الزبير.

(٤) تزوج عمر بمكة بينت حفص بن المغيرة، ولما علم أنها عاقر طلقها قبل أن يدخل بها، البستي حـ٢٤٧٥.

(٥) «إن الله عز وجل يرفع بهذا القرآن أقواما ويضع به آخرين»، البستي حـ٢/ ٤٩٣.

(٦) البستي حـ٢/ ٤١٣-٤١٩، خير الورى [illegible].

وتفرق المسلمون بمجرد وفاة الرسول قبل تجهيزه ودفنه وهو مازال مسجيًا على فراشه[1]. فقد انحاز حي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة. واعتزل علي والزبير وطلحة في بيت فاطمة. وانحاز بقية المهاجرين ونفر آخر إلى أبي بكر. فبلغ أبا بكر وعمر الخبر. فإن كان لهم في هذا الأمر أي الخلافة حاجة فليتحركا قبل أن يتفرق الأمر. فطلب عمر من أبي بكر التوجه إلى الأنصار. وكثر القيل والقال حتى أدرك البعض أن بيعة أبي بكر فلته وقى بها المسلمون شرًّا كبيرًا. وأراد عمر في المساء يحذر الناس ممن يريد غصب أمرهم. فحذره آخر بألا يفعل لأنه في موسم الحج يجتمع الرعاع والغوغاء. فالأفضل الانتظار للعودة لمخاطبة المؤمنين. وكان أمير الحج يسمى أمير المؤمنين. فقام في المساء وحذر المسلمين من ترك آية الرجم. كما نبه إلى أن البيعة لا تتم إلا بمشورة المسلمين. وسمع ما قاله الأنصار واعتبار المهاجرين جزءا منهم، يريدون اغتصاب الأمر. وأراد عمر الكلام. ومعروف أن فيه حدة. فمنعه أبو بكر. وتكلم بما كان يريد أن يقوله عمر وبطريقة أفضل. واعترف بفضل الأنصار، وأن هذا الأمر أي الخلافة لن تخرج عن هذا الحي من قريش، عمرو أبو عبيدة بن الجراح. فشعر عمر بالحرج، كيف يُقدم على أبي بكر؟ فاقترح أنصاري أن يكون منهم أمير. ومن المهاجرين أمير، وكثر اللغط وارتفعت الأصوات. وخاف عمر من الاختلاف فطلب من أبي بكر أن يمد يده ليبايعه. ثم بايعه المهاجرون ثم الأنصار. وظن الناس أن سعد بن عبادة قد قتل، والقول بأن الله هو الذي قتله إدخال الله في أمر سياسي خالص، وإعطاء الشرعية لقرار سياسي إنساني بتدخل إلهي. وكان القرآن قد نزل من قبل[2]. وفي اليوم الثاني خطب عمر في الناس مبينا خصال أبي بكر. فبايعه الناس البيعة العامة. وخطب أبو بكر خطبته الشهيرة التي أصبحت دستورا للديمقراطية الإسلامية فيما بعد[3].

---

(١) ابن هشام جـ٢/ ٥٥١-٥٥٥، البستي جـ٢/ ٤١٩-٤٢٤.

(٢) ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾، ابن هشام جـ٢/ ٥٥٤، الإمام الحق بعد الرسول، سيرة النبي ص٤٠٣-٤٠٦.

(٣) «فإني قد وليتم عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني. وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»، ابن هشام جـ٢/ ٥٥٤-٥٥٥.

ليس بمعنى خليفته أو وليه أو وصيه بل بمعنى القرابة والقربى[1]. تزوج فاطمة سيدة نساء العالمين. فضائله ومواعظه ووصاياه محفوظة في الذاكرة على مدى التاريخ حتى ولو كانت بعض الروايات غريبة[2]. توحي بخلافته وولايته ووصيته لأنه من صلب الرسول وليس فقط لفضائله الذاتية[3].

ويغير الناس آراءهم وضمائرهم. ينصحونه البارحة، ويغشونه اليوم. صحيح أن العزلة حل يحقن الدماء، ولكن الناس تطالب بدم عثمان. وأصر علي ما يجب أن يكون. فعين الأمراء في الأمصار باعتباره أميرا للمؤمنين على العراق والشام ومصر وسلطان معاوية فارض نفسه. فافترقوا عليه. فقد قوي ولاة عثمان، وأصبح من الصعب خلعهم. وأصبح قميص عثمان ذريعة لتجميع الناس ضد علي إن لم ينتقم من قتلته. وحاولت أم كلثوم بنت علي وزوجة عمر بن الخطاب التوسط والنصح. واستمرت المكاتبات بين علي ومعاوية. كل منهم يتوعد الآخر. ستون ألف يبكون تحت قميص عثمان، ورسائل مشابهة بين رؤساء الأمصار المخلوعين من علي والمتعاطفين مع معاوية. ودخلت عائشة تطالب بدم المقتول ظلما من أجل الإصلاح بين الناس. وحدث اتفاق بين العراق والشام

---

(١) «أولكم ورودا على الحوض أولكم إسلاما علي بن أبي طالب»، الجوهرة حـ٢/ ٢٠١، «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، ص٢٠٦-٢٠٧/ ٢٤٢.

(٢) فضائل علي ومواعظه ووصاياه ص٢٤٢-٢٦٥ «لا يحب علي منافق، ولا يبغضه مؤمن» ص٢٤٢، «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير»، «إن الله أمرني بحب أربعة علي منهم»، «علي مني وأنا من علي ولا يؤدى عني إلا أنا أو علي»، «أنت أخي في الدنيا والآخرة» ص١٤٣، «أنت ولي كل مؤمن من بعدي»، «يا عم رسول الله، والله لله أشد حبا له مني. إن الله جعل فيه كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب هذا»، ص٢٤٤، «يا علي إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأعلمك ولا أجفوك»، «اللهم من أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، «من أحب عليا فقد أحبني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني، ومن آذى عليا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»، «يهلك فيه رجلان محب مطر وكذاب مفتر»، «تفترق فيك أمتي كما افترقت بنو إسرائيل في عيسى» ص٢٤٤-٢٤٥، «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ليس بفرار، يفتح الله على يديه»، ص٢٤٦-٢٤٧، «اللهم أهد قلبه وسدد لسانه»ص٢٤٨، «أنا مدينة العلم وعلي بابها. فمن أراد العلم فليأته من بابه»، «أقضاكم علي ...»، «إن تولوا أبا بكر تجدوه ضعيفا في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا عمر تجدوه قويا في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا عليا ولن تفعلوا تجدوه هاديا مهديا فيسلك بكم المطي لله وحرامه معه»، ص٢٤٨-٢٤٩، «لتسلمن أو لأبعثن رجلا مني، مثل نفسي فليضربن أعناقكم أو ليسبين ذراريكم وليأخذن أموالكم» ص٢٥٠، «علي مخشوشن في ذات الله» ص٢٥١.

(٣) تقشفه في لباسه وفي طعامه، الجوهرة حـ٢/ ٢٦٦-٢٧٩، مقتله ص٢٧٩-٢٨٩.

على نصرة القوي معاوية[1]. وكانت حفصة بنت عمر مع رأي عائشة. وخصص يوم للنحيب على عثمان من قتلته. ومازالت السلطة في المدينة اتباعا لقول الرسول[2]. وبدأ القتال والاغتيال. قتل ابن الزبير بالرغم من تحذير الرسول[3]. وقتل القاتل نفسه لأنه إذا قاتل مع علي فهو في النار وإذا قاتل ضده فهو في النار. مما اضطر عليا أن ينادي بعدم قتل مدبر ولا جريح، وأن من أغلق بابه، ومن طرح السلاح فهو آمن. ولم يقتل بعد ذلك أحدا. ومع ذلك خرج أهل الشام كلهم عليه مطالبين إياه بدم عثمان. وكتب علي إلى معاوية من جديد مذكرا إياه بموقف أبيه منه، وأنه أحق الناس بهذا الأمر، فلم يشأ علي مخافة الفرقة. ومع ذلك تهيأ معاوية للسير إلى علي. مستعملا كل وسائل السياسة. فالحرب خدعة.

ولجأ الكل للقرآن والحديث لتبرير مواقفه السياسية[4]. فالحرب ضرورية. واعتبر كل فريق الآخر عدوا، وليس مخالفا في الرأي. ولم يعد العدو هم الفرس أو الروم أو الأحباش. وخير معاوية الناس إما قتال البغاة أو المطالبة بدم عثمان أو الدفاع عن النساء والذراري. وقتل بالمبارزة نفر من الفريقين. وقتل عمار بالرغم من تحذير الرسول[5]. وخدع عمرو بن العاص فريق علي بالتحكيم لما اشتد القتال دون غالب أو مغلوب برفع المصاحف على أسنة الرماح. فالحكم لله. واكتشف علي الخديعة، أن الفريق الآخر يقول ما لا يفعل. ووجد أصحابه يوافقون على التحكيم. ورضي كل فريق أن يبعث حكما من عنده، وكان حكم معاوية عمرو بن العاص وحكم علي أبو موسى الأشعري[6]. ورفضت الخوارج التحكيم مع أنهم كانوا معه في البداية. وذكر فيهم علي الآية[7]. وكانوا حوالي خمسة آلاف. وقتل محمد بن أبي بكر الذي أراد المصريون تنصيبه واليا

---

(١) البستي حـ٢/ ٥٢٦-٥٤٠.
(٢) «إن الإسلام ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها»، السابق حـ٢/ ٥٣٣-٥٣٤.
(٣) «قاتل ابن صفية في النار»، السابق حـ٢/ ٥٣٥.
(٤) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ السابق حـ٢/ ٥٤٠-٥٤١.
(٥) السابق حـ٢/ ٥٤٠-٥٥١.
(٦) «تقتلك الفئة الباغية»، السابق حـ٢/ ٥٤٢.
(٧) ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، السابق حـ٢/ ٥٤٦.

على مصر. أدخل في جوف حمار ميت وأحرق بالنار. وسر معاوية بقتله وحزن علي. وعين الأشتر واليا على مصر. فدبر له معاوية مُؤامرة. سقته امرأة عسلا مسموما وقال عبارته المشهورة «إن لله جنودا من عسل». واستعملت شعارات بدر، «شاهت الوجوه، شاهت الوجوه»، في حرب المشركين إلى الصراع الداخلي بين المسلمين[1]. وبايع أهل المدينة معاوية بالخداع والضغط.

وقد تنبأ الرسول بفتنة علي[2]. قاتله الزبير ظلما. وقتل بها عمار بغيا. وكما اختلفت بنو إسرائيل اختلف المسلمون، واحتكم كل فريق إلى حكمين ضلا وأضلا. وانشغل علي والأمة بأكملها بالفتنة الداخلية والصراع على السلطة. وتركوا الفتح الخارجي إلا مرة واحدة خرج قسطنطين بن هرقل بالمراكب يريد المسلمين فعصفت بهم ريح أغرقتهم. ونجا قسطنطين حتى انتهى إلى صقلية. وقتله الروم في حمام عقابا له على قتل جنده[3]. وتنبأ الرسول بخروج الخوارج عليه وقتالهم وعلاماتهم بالرجل الناقص الخلق واليد. وقد اتهم أحدهم الرسول بأنه لم يعدل. ووصفهم الرسول بأنه تحقر الصلاة والصيام مع أحدهم. لا تتجاوز قراءتهم للقرآن ألسنتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فارغ النصل والقدح[4]. هم حدثاء الأسنان. سفهاء الأحلام لا يجاوز الإيمان حناجرهم. جزاؤهم القتل. يقاتلون على تأويل القرآن كما كانوا يقاتلون على تنزيله. وقد لا تنطبق هذه الأحاديث على الخوارج. وإذا انطبقت فبشكل بعدي، قراءة الحاضر في الماضي، والواقع في النص[5]. ويُدفع موقف علي إلى حده الأقصى وكأنه معاد لعثمان

---

(١) السابق حـ٢/ ٥٤٨.

(٢) شمائل الرسول ص٢٣١-٢٣٢ «لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة»، ص٢٣٢ «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين ضلا وأضلا، وإن هذه الأمة ستختلف فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين ضلا وأضلا من اتبعهما» ص٢٣٤.

(٣) البستي حـ٢/ ٥٣١.

(٤) ناقص الخلق (المخَرج)، ناقص اليد (ذو الثُّدبَة)، شمائل الرسول ص٢٣٤-٢٣٧ «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ص٢٣٥.

(٥) «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرئون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...» ص٢٣٥. «يخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في أجرهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة» ص٢٣٥-٢٣٦، «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» ص٢٣٦.

مع أنه كان يحاول دفع الفتنة وتوحيد المسلمين. ووضع حراسة على باب عثمان، ابن علي ضد الخارجين عليه لولا أنهم أتوه من الخلف بعد تسلق الحائط والصعود إلى السطح والنزول منه. والاستشهاد بأقوال علي تكاد تقارب الاستشهاد بأقوال الرسول[١]. فكلاهما معصومان من الخطأ.

وقتل عبد الرحمن بن ملجم عليا بسيف مسموم جزاء له على حب امرأة أجمل أهل زمانها والزواج منها. والثمن ثلاثة آلاف وقتل علي[٢]. وفي مسجد الكوفة ترصد ابن ملجم لعلي فضربه من خلفه من قرنه إلى جبهته. واعترف ابن ملجم بأن السيف مسموم لمدة شهر، وأنه قتل فردا وليس أمير المؤمنين. وطلب علي حبسه، وتطييب طعامه، وتليين فراشه. فإذا عاش فعفو أو قصاص وإن مات فيلحق به ليخاصمه عند رب العالمين[٣]. ودفن بالكوفة في قصر الإمارة عند مسجد الجماعة[٤]. ولم يكن له مال إلا سبعمائة درهم أراد ابتياع خادم به. وقد تنبأ الرسول بقتله، وتنبأ بمصيره بأن لحيته ستخضب بدماء رأسه،وأنه مثل عيسى ابن مريم أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه. وأحبه النصارى حتى ألهوه[٥].

وكان المقاتلون يتصورون أنهم مازالوا في عصر النبوة، النصر من السماء، ومواقيت الصلاة في الأرض[٦]. وكان من ضمن القتلى في حروب علي المخدع تعرف عليه علي ضمن القتلى. رجل ليس له ساعد، بين جنبيه ثدي فيه شعرات، إذا مدت امتدت، وإذا تركت قلصت. فتذكر علي قول الرسول «يخرج قوم فيهم رجل مخدع اليد»[٧]. وفي رأي

---

(١) النبي الأعظم ص٣٨٨-٣٩٣.

(٢) البستي حـ٢/ ٥٥١-٥٥٣، «إن الأمة ستغدر بك بعدي»، شمائل الرسول ص٢٣٧-٢٣٨.

(٣) «قطعت يديه ورجليه ولم يجزع ولم يتكلم، ثم كحلوا عينيه بمحلول محمي. ثم قطع لسانه ويحرق بالنار»، البستي حـ٢/ ٢٥٢.

(٤) كان له خمس وعشرون ولدا وبنتا، خمس من فاطمة، السابق حـ٢/ ٥٥٣.

(٥) «إن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه»، «أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزلة التي ليس بها».

(٦) البستي حـ٢/ ٤٨٧.

(٧) السابق حـ٢/ ٥٤٦-٥٤٧.

الحسن كان علي يقاتل، وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره[١]. ورأى راهب نصراني رأس الحسين مرفوعة على رمح في طريقها من كربلاء إلى دمشق. ورأى نورا ساطعا من ديره إلى السماء. فاشتراها بعشرة آلاف دينار. تحولت إلى خزف في أيدي الجند بعد وصولهم إلى دمشق[٢]. لا فرق بين الخيال والتاريخ، بين التوهم والواقع. فكلاهما حقيقة. الأولى من صنع الذات، والثانية من صنع التاريخ. والتاريخ لا يُعرف إلا من خلال الذات. وقد يضاف الحسن بن علي بالرغم من قصر مدته وانقسام المسلمين[٣]. فعلي لا ينفصل عن نبيه في اكتمال الخلافة الراشدة. ويضاف إليهم جماعة آل البيت لهم بمصر والقاهرة مزارات مشهورة ومساجد معمورة[٤]. كما يضاف ذكر مناقب الأئمة الأربعة إرضاء للشيعة والسنة على حد سواء[٥]. ويضاف إليهم الأربعة أقطاب من الصوفية. فالصوفية هم ورثة أهل البيت والشيعة والسنة[٦]. ويأتي أبو الحسن الشاذلي متمم لهم[٧].

والشهداء من الطرفين. استشهاد الحسين بجز رأسه في كربلاء، وسم أخيه الحسن عند الشيعة، واستشهاد عمار بن ياسر «تقتلك الفئة الباغية»، وحمزة سيد الشهداء[٨]. وله مع أخيه الحسين مكانة عند الرسول[٩]. هما ريحانتاه من الدنيا. وهما سيدا شباب

(١) السابق حـ٢/ ٥٥٣.

(٢) السابق حـ٢/ ٥٦٠-٥٦١.

(٣) الإشارة ص٤٧٨، مختصر سيرة (٢) ص٥٠٣-٥٠٤، مناقب الحسن والحسين وباقي الأئمة الاثنى عشر، النبي المختار ص١٢٢-١٨٩، الجوهرة حـ٢/ ٢١٠-٢٤.

(٤) النبي المختار ص١٨٩-٢٢٥.

(٥) السابق ص٢٢٥-٢٥٢.

(٦) السابق ص٢٥٢-٢٦٨ وهم: أحمد بن الرفاعي، عبد القادر الجيلي، أحمد البدوي، إبراهيم الدسوقي.

(٧) السابق ص٢٦٨-٢٧٣.

(٨) وذلك مثل سم إسرائيل بمفردها أو بالتواطؤ مع بعض الفلسطينيين ياسر عرفات. الحسن بن علي، الجوهرة حـ٢/ ٢٢٤-٢٤٢ «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا. حسين سبط من الأسباط»، «اللهم أحبه فإني أحبه» ص٢٢٥.

(٩) «حسن مني، وحسين من علي»، «وأنه ريحانتي من الدنيا»، «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما»، «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله على يده بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، «إن ابني استرجلني فكرهت أن أعجله»، «رأيت هذين يعثران في قميصهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما»، «إنه من لا يرحم لا يُرحم»، «اللهم أني أحبه، وأحب من يحبه»، السابق حـ٢/ ٢١١-٢١٤/ ٢١٦، شمائل الرسول ص٢٣٨-٢٤١/ ٢٦٤، أقرباء الرسول حـ٢/ ٥٠٧.

أهل الجنة. يصلح الحسين فئتين من المسلمين. كان يكره إنهاء السجود لأن الحسن على ظهره. ونزل من المسجد لإقالتهما بعد أن تعثرا في قميصهما. وكان يقبلهما. فمن لا يرحم لا يُرحم. يحبه ويدعو الله أن يحب من يحبه. وقد تنبأ الرسول بأن الحسن سيد يصلح الله به فئتين عظيمتين من المسلمين[١]. فإمكانية المصالحة قائمة بين فتح وحماس، بين الموالاة والممانعة، بين العرب والعجم، من أجل توحيد الأمة في مواجهة أعدائها، إسرائيل وأمريكا ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. ويذكر الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة[٢].

٧- من الخلافة إلى الملك

وخشي النبي على أمته من بعده[٣]. خشي عليها اتباع الأهواء والشهوات والغفلة، بعد المعرفة، وولاية الدين لغير أهله. وأهل البيت والكتاب طريق الخلاص. وحب آل البيت لا تجبه الصلاة بين الركن والمقام. والأثبت على الصراط أشد الناس حبا لأهل البيت وأصحاب الرسول. الرسول الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن

(١) الأنوار حـ١/ ٢١٣، الوفا حـ١/ ٣٠٩.

(٢) وهم «الزبير بن العوام، الجوهرة حـ٢٢٩٢-٣٢٢، طلحة بن عبيد الله ص٣٢٥-٣٣٣، عبد الرحمن بن عوف حـ٢/ ٣٣٧-٣٤٦، سعد بن أبي وقاص ص٣٤٩-٣٥٥، سعد بن زيد حـ٢/ ٣٥٩-٣٦١، عامر ابن عبد الله بن الجراح حـ٢/ ٣٦٥-٣٦٩، «أوجب طلحة، وكان شهيدا وهو حي» ص٣٢٥. «عبد الرحمن ابن عوف من سادات المسلمين»، «أمين في السماء أمين في الأرض» ص٣٣٨، «اللهم أجب دعوته وسدد رميته» (سعد بن أبي وقاص) ص٣٤٩. «إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، «لأبقين إليكم رجلا أمينا حق أمين»، «لأرسلن معكم القوي الأمين»، «هذا أمين هذه الأمة» ص٣٦٥-٣٦٦، «سيكون فيكم اثنا عشر خليفة: أبو بكر الصديق لا يلبث خلفي إلا قليلا، وصاحب دارة رحى العرب. يعيش حميدا ويموت شهيدا... عمر بن الخطاب... وأنت (عثمان) يسألك الناس أن تخلع قميصا كساكه الله. والذي بعثني بالحق لئن خلعته لا تدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»، شمائل الرسول ص٢٢٤.

(٣) «أخاف على أمتي من بعدي ضلالة الأهواء واتباع الشهوات، والغفلة بعد المعرفة»، النبي الأعظم ص٤٨٦، «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله»، ص٧١٣، «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»، «لو أن رجلا حصن بين الركن والمقام فصلى وصام ثم لقى الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار»، ص٧١٣-٧٢٠.

والحسين ثمرتها وشيعتنا ورقها استكمالا للصورة بمدح الشيعة. موالاة علي وموالي علي والاقتداء بأهل البيت الذين خلقوا عن طينة الرسول يحيا مثله دعوت مثله. أهل البيت مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق. ولن يعذب الله أهل البيت لأنهم يقرون بالتوحيد. يسالم الله من يسالم أهل خيمته، ويحارب من يحاربهم، ويوالي من يواليهم. ولله ملائكة في الأرض. يعاونون آل البيت.

وينقسم مصير الرسالة أي تاريخ الرسالة بعد وفاة الرسول إلى قسمين: الخلفاء، والملوك، الخير والشر، الخلافة والملك العضود طبقا لحديث الرسول[1]. وتكتفي كتب السيرة والخلافة بذكر اسم الملك وولاته على الأمصار بعد أن أصبحت السلطة هي الهم الأكبر بعد ذكر المؤسس الأول للملك معاوية.

ومازال الحديث موجها للتاريخ بالتحول من الخلافة الراشدة إلى الخلافة غير الراشدة، الراشدة تعمل بما تعمل وبما تؤمر، وغير الراشدة يعملون بما لا يعلمون وبما لا يؤمرون[2]. وهو نفس المعنى في حديث «خير القرون قرني ثم الذي يلونه» في صياغاته المتعددة[3]. فخير الناس بعد الرسول الصحابة ومع الخلفاء الراشدين العشرة المبشرون بالجنة[4]. والخلفاء الراشدون قليلون كما كثيرون كيفا. فهم الذين حملوا استمرار

(١) «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكا»، ذكر البيان بأن من ذكرناهم كانوا خلفاء ومن بعدهم كانوا ملوكا، أبو بكر سنتان وعمرا عشر، وعثمان اثنا عشر، وعلي ست، البستي حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٤، مختصر السيرة (١) حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٤، شمائل الرسول ص٢٣٩/ ٢٧٠.

«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكا»، الجوهرة ص٢١٥، «اللهم ارحم خلفائي الذين يأتون من بعدي يرددون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس»، ص٣٩، «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثون أو سبع وثلاثون. فإن يهلكوا فسبيل من قد هلك، وإن يتم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاما»، «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين»، شمائل الرسول ص٢٢٤-٢٢٥.

(٢) «يكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون، ثم يكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر عليهم فقد برئ، ولكن من رغب وتابع»، البستي حـ٢/ ٥٨٣-٥٨٤.

(٣) «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم»، السابق حـ٢/ ٥٨٣-٥٨٤، سيرة النبي ص٨٨.

(٤) الخلفاء الأربعة ثم طلحة قتله مروان بن الحكم بسهم ومات عام ٣٦هـ يوم الجمل، والزبير بن العوام قتل عام ٣٦هـ وسعد مات في قصره عام ٥٨هـ، وسعيد بن زيد عام ٥١هـ وعبد الرحمن بن عوف عام ٣١هـ وعامر بن عبد الله بن الجراح عام ١٨هـ السابق حـ٢/ ٥٨٣-٥٨٨.

الرسالة ضد الثورات المضادة في الداخل. والملوك كثيرون كما قليلون كيفا سواء في مدة الحكم أو في أثره الإيجابي على استمرار الرسالة. فقد بدأ النزاع على الحكم والصراع على السلطة بصرف النظر عن الرسالة[١]. ويكتب في الخلفاء الكثير نظرا لكثرة أعمالهم منذ بيعتهم وفتوحاتهم حتى وفاتهم. أما الملوك باستثناء معاوية وابنه يزيد فلا يكتب فيهم إلا مواليدهم ووفياتهم وعدد سنين ولايتهم[٢]. الخليفة حكم مدة طويلة في حين أن حكم الملك مدة قصيرة، انتهى بانقلاب أو قتل أو موت[٣]. وقد لا تتجاوز مدة الحكم الملك شهورا معدودة. وأكبر مدة حكم معاوية.

وقد تنبأ الرسول بخلافة معاوية[٤]. وكان شرا لابد منه. وبالرغم من شخصيته الملوكية أوصاه الرسول بأن يحسن للناس. وتتحول الخلافة بالمدينة إلى ملك في الشام. الإيمان بالحجاز، والفتن بالشام. الخلفاء بالمدينة والأبدال بالشام. وعرف ذلك الرسول في اليقظة وفي المنام. والأبدال ينصرون الإسلام. والخوف تأويلهم بالملوك[٥]. وهو اللفظ الذي استعمله الصوفية.

وبالرغم من أهمية معاوية إلا أنه كان دائم الذكر مع علي كخصم له. لذلك لم يذكر كأول الملوك باستفاضة[٦]. وكان التجهيز والتآمر كله لتولية ابنه يزيد قاتل الحسين. الأب قاتل علي، والابن قاتل الحسين. بايعت الشام يزيد، وبايع الشيعة الحسين بعد أن استقدموه إلى الكوفة. فأرسل مسلم بن عقيل من المدينة لأخذ بيعة أهل الكوفة.

---

(١) يذكر البستي ستة وثلاثون ملكا، البستي حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٨.

(٢) أبو بكر (عدد الصفحات) (٣٣)، عمر (٤٧)، عثمان (٢٢)، علي (٣٢)، معاوية (٢)، يزيد (٧)، ثم (٣٦) ملكا في (٢٧) صفحة.

(٣) أبو بكر (عدد السنوات) (٢)، عمر (١٢)، عثمان (١٠)، علي (٦).

(٤) «لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم (الدبر)، ضخم البلعم (الحلق)، يأكل ولا يشبع وهو معاوية»، «يا معاوية، إن ملكت فأحسن»، «يا معاوية إن وليت أمرا فاتق الله واعدل»، «أنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم»، شمائل الرسول ص٤٣٩.

(٥) «الخلافة بالمدينة والملك بالشام»، «بينما أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به. فاتبعته ببصري فعمد به إلى الشام، إلا وأن الإيمان حين تقع الفتن بالشام»، «الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلا. كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا. يسقي بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم الأعداء»، السابق ص٢٤٠-٢٤١.

(٦) البستي حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٥.

وبلغت البيعة ثمانية عشر ألف رجل. فأمر يزيد والي البصرة بقتل مسلم بن عقيل أو إرساله إليه. ودعاه مع ابن عروة إلى القصر. وهشم رأسه بقضيب وتركه يحتضر. ثم ركب مسلم بن عقيل مع ثلاثة آلاف رجل لمقاتلة عبيد الله بن زياد. فلما اقترب من القصر وجد أن أصحابه تخلفوا عنه ولم يبق منهم إلا عشرة. فرجع ولم يجد وراءه أحدا فلما استراح مسلم بن عقيل في دار امرأة وأخبر ابنها الوالي بوجود مسلم في الدار أرسل ستين رجل فقاتلهم حتى كل ومل وقبضوا عليه وأمّنوه وأخذوه. فصعد إلى القصر وهو يسبح ويكبر، وهو يدعو الله على من خذلوه وكذبوه. فضربت رأسه وسقطت جثته ثم رأسه. وأخرج هانئ بن عروة الذي آواه في داره إلى السوق وضربت رقبته. وأرسلت الرأسان إلى يزيد[1]. هذا هو حال الملك بعد الخلافة، والخلافة بعد النبوة.

وسيلقى أهل البيت بعد الرسول القتل والتشريد على يدي بني أمية وغيرهم[2]. وتبرز الأحاديث الموضوعة في فضائل معاوية. فالأمناء سبعة: اللوح، والقلم، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، ومحمد، ومعاوية. ولقد ائتمن الله على وحيه جبريل والرسول ومعاوية. وكاد يُبعث معاوية نبيا من كثرة علمه. ويحشر معاوية وعليه حلة من نور ظاهرها الرحمة، وباطنها الرضا. يفتخر به الجميع لكتابة الوحي. وهو رجل من أهل الجنة، يزاحم الرسول على بابها. دعا الرسول أن يملأ بطنه علما وحلما، في مقابل حديث «لا أشبع الله بطنه بدلا من الطعام». يحبه الله وكأنه على رفارف الجنة. يحبه الله ورسوله، الرسول مدينة العلم وعلى بابها ومعاوية حلقتها[3].

تكشف الأحاديث عن صراع بين فئتين[4]. أبو بكر وعمر وعثمان في ناحية وعلي

---

(١) السابق حـ٢/ ٥٥٥-٥٥٧.

(٢) «إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وأن أشد قومنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»، «إذا بلغت بنو أمية أربعين اتخذوا عباد الله خولا...»، النبي الأعظم ص٢٤٣.

(٣) السابق ص٥٥١-٥٥٦، «إذا رأيتم معاوية وعمرو بن العاص مجتمعين ففرقوا بينهما فإنهما لن يجتمعا على خير»، وفي مروان بن الحكم «هو الملعون بن الملعون». وفي معاوية «اللهم العن القائد والسائق والراكب»، «يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي»، «اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب»، «إست معاوية في النار»، «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»، النبي الأعظم ص٧٦٢-٧٦٨.

(٤) «يا معشر بني هاشم، والذي بعثني بالحق نبيا لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم»، النبي الأعظم ص٢٧١، «إن الله يتجلى يوم القيامة للخلائق عامة ويتجلى لك خاصة»، «إن لله سيفا مغمودا» في غمده ما

والحسن والحسين في ناحية أخرى. فالله يتجلى للخلائق عامة يوم القيامة ويتجلى لأبي بكر خاصة. ودليل الوضع أن الله لا يتجلى لأحد. وعثمان هو سيف الله الحي. والأمناء عند الله ثلاثة، الرسول وجبريل ومعاوية. وإذا أحب علي أبا بكر وعمر دخل الجنة. وفضل عمر كبير لن يبلغ مقدار ما جلس جبريل مع نوح. وأبو بكر تاج الإسلام وعمر حلته. وخلق الله محمدا من نوره. وخلق الله أبا بكر من نور محمد ولو لم يُبعث الرسول لبُعث عمر. وما يقال من منزلة علي من الرسول مثل منزلة هارون من موسى يقال على أبي بكر. وما قيل عن الحسن والحسين بأنهما سيدا شباب أهل الجنة يقال على أبي بكر وعمر. وقد خلق الرسول وأبو بكر من تربة واحدة وفيها يدفنان. وكلها أحاديث مرفوعة لا يعرف من أول راويها. ولو ذكرت أحاديث فيها فضل علي تذكر أيضا فضائل أبي بكر وعمر، وبنفس التشبيه علي الباب وعمر الأساس وأبو بكر الحيطان، وكل أبواب فضل معاوية ليس فيها أحاديث صحيحة مثل أحاديث مناقب الخلفاء. ولكل صحابي فضل. فمناصرة الخليفتين كانت من أوائل الصحابة. أبو بكر أرحم، وعمر أشد، وأبي أقرأ، وعثمان أصدق، ومعاذ أعلم بالحلال والحرام، وزيد بن ثابت أفرض، وأبو عبيدة الجراح أمين الأمة. الخلفاء الأربعة كلهم في الجنة، ولا يدخل الجنة مبغض لأبي بكر ولو عَمِلَ عَمَل سبعين نبيا. وقد تاب الله على آدم بحرمة الرسول وخلفائه الأربعة، لقد أمن أبو بكر الرسول على صحبته وماله. ولو كان الرسول متخذا خليلا لكان أبا بكر. ولكل نبي رفيق في الجنة ورفيق الرسول عثمان. وهو وليه في الدنيا والآخرة، أسر له الرسول كل شيء. وزوجه أم كلثوم بوحي من السماء.

دام عثمان بن عفان حيا»، «الأمناء عند الله ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية»، «إن الله ائتمن على وصيه جبريل وأنا ومعاوية وكاد أن يبعث معاوية نبيا من كثرة علمه»، «أبو بكر تاج الإسلام وعمر حلة الإسلام»، «خلقني الله من نوره، وخلق أبا بكر من نوري»، «لو لم أبعث لبعث يا عمر»، «أنا مع عمر وعمر معي حيث حللت، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني»، «أبو بكر مني بمنزلة هارون من موسى»، «يا علي لا تكتب جوازا لمن سب أبا بكر وعمر فإنهما سيدا كهول أهل الجنة بعد النبيين»، «إني وأبا بكر وعمر خُلقنا من تربة واحدة وفيها ندفن»، «أنا مدينة العلم وعلي بابها، وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها»، «أرحمكم أبو بكر، وأشدكم في الدين عمر، وأقرؤكم أبي، وأصدقكم حياء عثمان، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضكم زيد بن ثابت، وإن لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة الجراح»، ص٤٧٣-٤٨٢، «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة»، ص٤٩٤.

وقد استمرت الفتن بعد معاوية من أغيلمة بن هاشم[1]. وهم سفهاؤهم وحدثت أمور منكرة بسبب الأثرة. ويهلك حي من قريش. والأفضل العزلة[2]. وبعد ستين سنة يضيعون الصلوات، ويتبعون الشهوات. لا يتجاوز القرآن ألسنتهم بين منافق وفاجر. فالانهيار مع بني أمية[3].

ثم خرج الحسين بنفسه إلى الكوفة. وقاتل عبيد الله بن زياد بكربلاء حتى قتل عطشا بسهم في حلقه يوم عاشوراء ومعه كبار الصحابة. وضرب رأسه. وأرسلها عبيد الله بين زياد إلى الشام مع أسارى النساء والصبيان من آل البيت. وفي كل منزل يخرج الرأس من الصندوق على رمح حتى يراه الناس. فخرج راهب واشترى الرأس وغسلها وناجاها وأسلم. ثم وجد الجند الدنانير التي باعوا بها الرأس تحولت إلى خزف ومكتوب على جانبها آيتان قرآنيتان[4]. وبعث يزيد جيشا إلى المدينة فقتل أولاد المهاجرين والأنصار واستباحها ثلاثة أيام وسميت واقعة البحر. ومات يزيد وعمره ثمان وثلاثون. سكر ورقص فسقط على رأسه وتناثرت دماغه[5]. ويقُدسه آل البيت المدفونون في مصر رجالا ونساء، سنة وشيعة[6]. وقد تنبأ الرسول بمقتل الحسين عن طريق الملاك وليس

---

(١) شمائل الرسول ص٢٤٧-٢٤٩، «ستكون أثرة وأمور تنكرونها»، «هلاك أمتي على يدي غلمة من قريش»، «إن فساد أمتي على يد غلمة سفهاء من قريش».

(٢) «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»، «لو أن الناس اعتزلوهم»، السابق ص٢٤٧.

(٣) «يكون خلف من بعد الستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن، لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر. لا يزال هذا الأمر معتدلا قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية»، «إن أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية»، السابق ص٢٤٨-٢٤٩.

(٤) هما ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، البستي حـ٢/ ٥٦١

(٥) السابق حـ٢/ ٥٥٧-٥٦٢، الجوهرة حـ٢/ ٢٢٤-٢٤٢.الأمويون خمسة عشر خليفة، الإشارة ص٤٧٩-٤٩٧: معاوية، يزيد، معاوية، عبد الله بن الزبير، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد. ومعاوية، وعبد الله بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز وحدهم هم الذين يضاف إليهم «رضي الله عنهم».

(٦) فاطمة الزهراء، الحسن بن علي، الحسين بن علي، السيدة زينب، السيدة رقية، السيد سكينة، السيدة نفيسة، السيد حسن والد السيدة نفيسة، السيد محمد الأنور، السيد علي زين العابدين، السيد زيد بن علي زين العابدين، السيد إبراهيم ابن الإمام زيد، السيدة عائشة بنت جعفر الصادق، السيد الكاظم، السيد جعفر الصادق، السيد محمد العامر، الإمام الشافعي، سيرة المصطفى ص١٦١-٢٧٣.

بمجرد البصيرة[1]. وقد كان حبيب الرسول لأنه ثمرة فؤاده وليس فقط سبطه. وتقرظ أحاديث أخرى شهداء الفتنة الكبر[2].

وتمتد حياة الملوك حوالي قرنين من الزمان منذ معاوية (٦٠هـ) حتى المتقي بن المقتدر (٣٣٥هـ) أمويين وعباسيين إلى أن وصل الأمر إلى المطيع بن المقتدر «يموت أو يقتل لا محالة لأن له أسوة بمن فقدهم»[3]. وقد قتل عديد من الملوك. فالملك إما مقتول وإما قاتل. وقد أرسل المأمون من يقتل أخاه الأمين ببغداد ثم أرسلت رأسه له[4]. فلم تعد القرابة ولا الدين مانعا من القتل. واستمر القتل في سبيل السلطة. ولكل ملك يذكر تاريخ مولده وتاريخ وفاته، وسنة ولايته، ومدة ولايته بالسنة والشهر واليوم، ونسبه، وشعاره على خاتمه. ولا توجد أحداث أخرى في حياته إلا فيما ندر. وتعود السيرة إلى منشئها في علم التاريخ. ولم يعد للتاريخ دلالات ولا للموت والحياة معاني. ولم تكن النبوة أساس السيرة حاضرة ولا ظاهرة. وقد توفى معظم الولاة صغار السن إما لأنهم قتلوا أو خلُعوا أو لأنهم تقلدوا الإمارة وهم صغار[5]. وتختلف ولاية كل الملوك بين عشرات السنوات والليالي المعدودة. ومعظمهم ترك الولاية إما بالموت الطبيعي أو بالاغتيال أو بالعزل. ولا يوجد وال انتهت ولايته وعاد إلى الناس فردا عاديا. وهو ما زال مستمرا حتى الآن[6].

---

(١) «أخبرني جبريل أن هذا يقتل بأرض العراق قلت له: يا جبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها»، «وكيف لا أحبه وهو ثمرة فؤادي»، «آتاني جبريل فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا»، «هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم»، شمائل الرسول ص٢٤٩-٢٥٣.

(٢) «إن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والمقداد»، النبي الأعظم ص٣١٧، «تقتلك الفئة الباغية»، ص٣٤٤-٣٤٥.

(٣) البستي جـ٢/ ٥٨٢-٥٩٤، قتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ وصلب على جذع منكسا من الحجاج، قتل الوليد بن يزيد عام ١٢٦هـ قتل مروان بن محمد عام ١٣١هـ قتل الأمين بن الرشيد عام ١٨٩هـ المنصور قاتل أبي مسلم، قتل المتوكل عام ٢٤٧هـ، قتل المعتز بن المتوكل عام ٢٥٥، قتل المهتدي بن الواثق عام ٢٥٦، قتل المقتدر بن المعتضد عام ٣٢٠.

(٤) السابق جـ٢/ ٥٧٤.

(٥) توفى الهادي بن مهدي وعمره ٢٥عاما، ويزيد بن معاوية ٣٨ عاما، والمكتفي بن المعتضد ٣١ عاما، وعمر ابن عبد العزيز ٤١ عاما، وسليمان بن عبد الملك ٤٥ عاما، والمهدي بن المنصور ٤٣ عاما، والرشيد بن المهدي ٤٩ عاما، البستي جـ٢/ ٥٦٢-٥٧٩.

(٦) كانت إمارة معاوية بن يزيد أربعين ليلة، ولاية يزيد بن الوليد خمسة أشهر، إمارة مروان بن الحكم عشرة

وبالرغم من الوراثة أو الانقلاب أو القتل حرص كل ملك على البيعة لتبرير سلطته شرعيا كما يحدث في ملوك ورؤساء هذه الأيام[1]. وبالرغم من الطابع العام للملوك، أمويين وعباسيين إلا أن بعضهم مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز قد شذ عنهم، وحاول إعادة سيرة الخلفاء الراشدين. فجمع وكلاءه ونساءه وجواريه. فطلقهن وأعتقهن، وباع ثيابه كلها، وتصدق بأثمانها[2]. وقد بايع الناس المأمون قاتل أخيه الأمين بيعة عامة[3]. وبويع المستعين بن المعتصم. وبايع الناس بعد خلع المستعين نفسه الزبير بن جعفر. ثم قتل فلا فرق بين بيعة القاتل وبيعة المقتول[4]. وقد يخلع الوالي نفسه إذا اشتد حوله الحصار وطلب منه ذلك أو إذا رأى أنه لا مخرج له[5]. فبعد أن استتب الأمر للمقتدر بن الموفق وهدأت الأمور وصار الناس كأنهم نيام لا يحسون بفتنة عمرت والدته الحرمين. وأنفقت عليها في كل سنة أموالا خطيرة. وكذلك عمرت بيت المقدس وكانت تنفق عليها وعلى الثغور في كل سنة أموالا كثيرة. وارتفع أهل العلم في كل بلد من الدنيا. وكانت بغداد في أطيب أيامها[6]. ثم اتفق الناس على خلعه فخلعوه. وأقعدوا أخاه القاهر بعد أن خلع المقتدر نفسه. ثم خلع القاهر نفسه بعد ثلاثة أيام. وبايع الناس المقتدر ثانيا. ثم هاج الجيش عليه وركب المقتدر وعليه بردة الرسول لحماية نفسه. ثم جاءه بربري ورماه بحربة فقتله[7].

وكان لكل ملك شعار على خاتمه، فمعاوية القاتل على شعاره «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، ويزيد قاتل الحسين شعاره «آمنت بالله مخلصا»، وكلها إما الإيمان بالله

أشهر، إمارة الهادي بن مهدي أربعة عشر شهرا، إمارة الوليد بن يزيد سنة وثلاثة أشهر، ولاية القاهر بن المعتضد سنة وستة أشهر، البستي حـ٢/ ٥٦٢-٥٨١.

(١) طلب الناس من معاوية بن يزيد لما حضرته الوفاة مبايعة رجل بعده والعهد إليه، البستي حـ٢/ ٥٦٢، ولما تولى مروان بن الحكم بايعه أهل الشام، السابق حـ٢/ ٥٦٣.

(٢) السابق حـ٢/ ٥٦٦.

(٣) السابق حـ٢/ ٥٧٤.

(٤) السابق حـ٢/ ٥٧٧.

(٥) السابق حـ٢/ ٥٧٧.

(٦) السابق حـ٢/ ٥٨٠.

(٧) السابق حـ٢/ ٥٨١.

أو الاستعانة به أو الإخلاص له أو الثقة فيه أو القصد إليه أو التوكل عليه أو الاعتزاز به أو الخوف منه يوم الحساب. والبعض الآخر يخلو من الدين والاكتفاء بالاسم مثل «يا وليد» «أحمد بن محمد»، أو اللقب «أمير المؤمنين»[1]. والسؤال هو كل هذا الاستقواء بالله على من؟ على الأعداء في الخارج الفرس والروم والأحباش أم الخصوم في الداخل صراعا على السلطة؟

وكلهم أسماء هداية وإيمان باستثناء الملوك الأمويين. المهدي، الهادي، المهتدي، المنصور، الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم، الواثق، المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المعتمد، المعتضد، الموفق، المكتفي، المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، المطيع. كلها تشير إلى الإيمان والطاعة والأمانة والتقوى. ولا شيء من ذلك في الواقع يتحقق. وكان البعض بالفعل يشعر بهذه المعاني إلا أن السياسة أخذته بعيدا عنها بعد أن تغلب عليه منطق القوة[2]. وهو ما يحدث أيضا مع صفات الله وأسمائه، الصفات مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، وحال الأمة على النقيض: الجهل والعجز والموت والصم والعمى والبكم والهوى. وهو أيضا حالها مع الأسماء مثل العادل، المقسط، وحياة الأمة تقوم على الظلم والجور[3]. وكانت لبعض الملوك ألقاب مثل المخلوع، المجنون، الحمار. ومعظمها يدل على عدم الاستحقاق بالملك، قبل الاسم أو بعده. وهي أسماء مستقراه من الأرض، من واقع وحياة الناس وسلوك الملوك، وليست

---

(١) معاوية «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، يزيد بن معاوية «آمنت بالله مخلصا»، معاوية بن يزيد «بالله نستعين» معاوية، مروان بن الحكم «آمنت بالعزيز الحكيم، العزة لله»، عبد الملك بن مروان «آمنت بالله»، وليد بن عبد الملك «يا وليد»، سليمان بن عبد الملك «أؤمن بالله»، عمر بن عبد العزيز «بالله مخلصا»، يزيد ابن عبد الملك «رب قني الحساب»، السفاح أبو العباس «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المنصور أبو جعفر «الله ثقة عبد الله»، المهدي بن المنصور «أستقدر الله تعالى»، الهادي بن المنصور «الله ربي»، الرشيد بن المهدي «بالله ثقتي»، الأمين بن الرشيد «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المعتصم بن الرشيد «الحمد لله الذي ليس كمثله شيء»، المتوكل بن المعتصم «لا إله إلا الله، المتوكل على الله»، المنتصر بن المتوكل «أحمد بن محمد، بالله ينتصر المستعين بن المعتصم أحمد»، المعتز بن المتوكل «المعتز بالله»، المهتدي بن الواثق «محمد أمير المؤمنين»، المعتضد بن الموفق «المعتز بالله»، حـ٢/ ٥٥٥-٥٧٩.

(٢) رفض معاوية بن يزيد أن يبايع أحدا بعده قائلا «ما أصبت من دنياكم شينا فأتقلد مأثمها»، البستي حـ٢/ ٥٦٢.

(٣) من العقيدة إلى الثورة حـ٢ التوحيد ص٦٠٠-٦٦٤.

مستنبطة من السماء أو مقاسا عليها كما هو الحال في صفات الله وأسمائه[1].

وبالرغم من ازدهار الحضارة الإسلامية وتأسيس العلوم منذ القرن الثاني الهجري إلا أن الأمراء والولاة كانوا يضيقون بالرأي المخالف إذا تبنوا رأيا خاصا. فقد ضرب المأمون بن الرشيد أحمد بن حنبل بالسياط، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي. وبقى الناس في تلك الفتنة، خلق القرآن إلى أن مات المعتصم[2]. فالصراع على السلطة السياسية كان أيضا صراعا على السلطة الفكرية. والمتسلط في السياسة متسلط أيضا في الفكر. والدين يعطي الشرعية للسلطتين. وفي بعض السير بعض الأبواب أدخل في مصير الرسالة مثل «علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به من الغيب»[3]. منها تحول النبوة إلى ملك، والموقف من الملوك إنكارهم. ومن أنكر فقد برئ. ومن كره فقد سلم. ومن رضي وبايع فقد آثر السلامة. ولا يجوز قتالهم ما صلوا[4]. وهو يحبذ المواقف السلمية والإنكار باللسان دون القتال باليد. فالمواقف ثلاثة: الإنكار، والكراهية، والرضا والمبايعة. الإنكار باللسان، والكراهية بالقلب، والرضا والمبايعة باليد. والخير يتبعه شر، والشر يتبعه خير. والسبب قوم يهدون بغير هديه، ينكر عليهم الناس، دعاة على أبواب جهنم، يقذفون من تبعهم فيها، من بني الجلدة، ويتكلمون بنفس اللسان. والحل هو الالتزام بجماعة المسلمين وإمامتهم، والعض بأصل شجرة حتى الموت[5]. وفي سير أخرى نقد معاوية في العبادات ليس حاسما مثل نقده في المعاملات[6]. فقد كان لمعاوية تجربة مع العصر ضد الأصل، ونقد لبسه ليس نقدا حاسما موجها إلى أفعاله[7].

---

(١) إبراهيم بن الوليد المخلوع، مروان بن محمد الحمار، يزيد الناقص، السفاح أبو العباس، السابق حـ٢/ ٥٦٨-٥٧١، وكما يقال حاليا على بعض الرؤساء من الجيش «البقرة الضاحكة».

(٢) السابق حـ٢/ ٥٧٥.

(٣) الأنوار حـ١/ ٨٠-١٠٤.

(٤) «تكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، لكن من رضي وبايع». قالوا أفلا نقتلهم؟ قال «لا ما صلوا، لا ما صلوا»، السابق ص٨٢.

(٥) «...قوم يهدون بغير هدية، تعرف منهم وتنكر..دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها... هم من جلدتنا، ويتكلمون بلساننا... تلزم جماعة المسلمين وإمامهم....فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»، السابق ص١٠٠-١٠١.

(٦) النبي الأعظم ص٣٤٢-٣٦٨.

(٧) السابق ص٣٦٠.

وأحيانا يمتد الهجوم من الصحابة إلى الأمويين خاصة معاوية نموذج الشيطان وسبب البلاء والانحراف عن الطريق المستقيم والذي أدى إلى استشهاد الحسين وسم الحسن بتآمر زيد. ويُنقد عثمان الخليفة الرابع وتُبين عيوبه ونقائصه لمخالفاته للشريعة، ويُنقد الخليفة عمر وأخطاؤه في تطبيق الحدود. وهو شيء وارد في كل اجتهاد. كما اجتهد في تعليق حد السرقة عام الرمادة، وفي تعليق سهم المؤلفة قلوبهم، وفي أربعة أمور وافقه عليها الوحي وصدقه القرآن فيها. واجتهاد عمر لا يعني خطأه حتى لو كان مخطئا لأن للمخطئ أجرا وللمصيب أجرين. فالنية صحيحة وهو الوصول إلى الحق وفيما ينفع الناس. والأعمال بالنيات. وليس من المعقول أن يخطئ عمر في خمس وثمانين مسألة[1]. ويُنقد الخليفة أبو بكر في منعه فاطمة من وراثة فدك لأن الرسول قال «نحن الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

والتفاضل بين الصحابة أمر طبيعي، تشخيص للتعددية النظرية ونتيجة للفردية. فالناس مختلفون بفعل الطبيعة والخلق. وقد يكون الدافع على ذلك خلق تنافس في الخير بينهم. والصحابة ليسوا أشخاصا تاريخيين بل نماذج بشرية تتكرر عبر الزمان والمكان، فأبو بكر وعمر المثال والواقع، ما يجب أن يكون وما هو كائن، العزيمة والرخصة. ولا توجد ميزة خاصة لمن عاصر الرسول. فالمعاصر بالزمان وليس بالمكان. يستطيع كل إنسان بسلوكه أن يتمثل نموذج الرسول أو الصحابة وبينهما ألف عام[2]. ويصل حد الجدل الشيعي السني إلى حد التكفير، وتحويل الخلاف السياسي إلى خلاف عقائدي، والانتقال من الخلاف في الفروع إلى خلاف في الأصول، والتكفير من الطرفين، التكفير والتكفير المضاد[3]. ومن النافع هز سلطة المذاهب الفقهية الأربعة ورؤسائها منعا للتقليد وتأكيدا على تغير الظروف منذ ألف عام ولكن من الضار استبدال سلطة أئمة الشيعة بسلطة فقهاء السنة. وكما يمتد التقديس من النبي إلى الصحابة إلى الفقهاء الأربعة وعلى رأسهم أبو حنيفة عند السنة كذلك يمتد التقديس من الرسول إلى علي إلى ذريته إلى درجة

---

(١) السابق ص١١١-٤٥٦.

(٢) هذا هو معنى المعاصر contemporeneity عند كيركجارد.

(٣) النبي الأعظم ص٣٧٦.

ليس بمعنى خليفته أو وليه أو وصيه بل بمعنى القرابة والقربى[1]. تزوج فاطمة سيدة نساء العالمين. فضائله ومواعظه ووصاياه محفوظة في الذاكرة على مدى التاريخ حتى ولو كانت بعض الروايات غريبة[2]. توحي بخلافته وولايته ووصيته لأنه من صلب الرسول وليس فقط لفضائله الذاتية[3].

ويغير الناس آراءهم وضمائرهم. ينصحونه البارحة، ويغشونه اليوم. صحيح أن العزلة حل يحقن الدماء، ولكن الناس تطالب بدم عثمان. وأصر علي ما يجب أن يكون. فعين الأمراء في الأمصار باعتباره أميرا للمؤمنين على العراق والشام ومصر وسلطان معاوية فارض نفسه. فافترقوا عليه. فقد قوي ولاة عثمان، وأصبح من الصعب خلعهم. وأصبح قميص عثمان ذريعة لتجميع الناس ضد علي إن لم ينتقم من قتلته. وحاولت أم كلثوم بنت علي وزوجة عمر بن الخطاب التوسط والنصح. واستمرت المكاتبات بين علي ومعاوية. كل منهم يتوعد الآخر. ستون ألف يبكون تحت قميص عثمان، ورسائل مشابهة بين رؤساء الأمصار المخلوعين من علي والمتعاطفين مع معاوية. ودخلت عائشة تطالب بدم المقتول ظلما من أجل الإصلاح بين الناس. وحدث اتفاق بين العراق والشام

---

(١) «أولكم ورودا على الحوض أولكم إسلاما علي بن أبي طالب»، الجوهرة حـ٢/ ٢٠١، «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، ص٢٠٦-٢٠٧/ ٢٤٢.

(٢) فضائل علي ومواعظه ووصاياه ص٢٤٢-٢٦٥ «لا يحب علي منافق، ولا يبغضه مؤمن» ص٢٤٢، «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير»، «إن الله أمرني بحب أربعة علي منهم»، «علي مني وأنا من علي ولا يؤدى عني إلا أنا أو علي»، «أنت أخي في الدنيا والآخرة» ص١٤٣، «أنت ولي كل مؤمن من بعدي»، «يا عم رسول الله، والله لله أشد حبا له مني. إن الله جعل فيه كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب هذا»، ص٢٤٤، «يا علي إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك، وأعلمك ولا أجفوك»، «اللهم من أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، «من أحب عليا فقد أحبني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني، ومن آذى عليا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»، «يهلك فيه رجلان محب مطر وكذاب مفتر»، «تفترق فيك أمتي كما افترقت بنو إسرائيل في عيسى» ص٢٤٤-٢٤٥، «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. ليس بفرار، يفتح الله على يديه»، ص٢٤٦-٢٤٧، «اللهم أهد قلبه وسدد لسانه»ص٢٤٨، «أنا مدينة العلم وعلي بابها. فمن أراد العلم فليأته من بابه»، «أقضاكم علي ...»، «إن تولوا أبا بكر تجدوه ضعيفا في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا عمر تجدوه قويا في بدنه قويا في دينه. وإن تولوا عليا ولن تفعلوا تجدوه هاديا مهديا فيسلك بكم المطي لله وحرامه معه»، ص٢٤٨-٢٤٩، «لتسلمن أو لأبعثن رجلا مني، مثل نفسي فليضربن أعناقكم أو ليسبين ذراريكم وليأخذن أموالكم» ص٢٥٠، «علي مخشوشن في ذات الله» ص٢٥١.

(٣) تقشفه في لباسه وفي طعامه، الجوهرة حـ٢/ ٢٦٦-٢٧٩، مقتله ص٢٧٩-٢٨٩.

على نصرة القوي معاوية[1]. وكانت حفصة بنت عمر مع رأي عائشة. وخصص يوم للنحيب على عثمان من قتلته. ومازالت السلطة في المدينة اتباعا لقول الرسول[2]. وبدأ القتال والاغتيال. قتل ابن الزبير بالرغم من تحذير الرسول[3]. وقتل القاتل نفسه لأنه إذا قاتل مع علي فهو في النار وإذا قاتل ضده فهو في النار. مما اضطر عليا أن ينادي بعدم قتل مدبر ولا جريح، وأن من أغلق بابه، ومن طرح السلاح فهو آمن. ولم يقتل بعد ذلك أحدا. ومع ذلك خرج أهل الشام كلهم عليه مطالبين إياه بدم عثمان. وكتب علي إلى معاوية من جديد مذكرا إياه بموقف أبيه منه، وأنه أحق الناس بهذا الأمر، فلم يشأ علي مخافة الفرقة. ومع ذلك تهيأ معاوية للسير إلى علي. مستعملا كل وسائل السياسة. فالحرب خدعة.

ولجأ الكل للقرآن والحديث لتبرير مواقفه السياسية[4]. فالحرب ضرورية. واعتبر كل فريق الآخر عدوا، وليس مخالفا في الرأي. ولم يعد العدو هم الفرس أو الروم أو الأحباش. وخير معاوية الناس إما قتال البغاة أو المطالبة بدم عثمان أو الدفاع عن النساء والذراري. وقتل بالمبارزة نفر من الفريقين. وقتل عمار بالرغم من تحذير الرسول[5]. وخدع عمرو بن العاص فريق علي بالتحكيم لما اشتد القتال دون غالب أو مغلوب برفع المصاحف على أسنة الرماح. فالحكم لله. واكتشف علي الخديعة، أن الفريق الآخر يقول ما لا يفعل. ووجد أصحابه يوافقون على التحكيم. ورضي كل فريق أن يبعث حكما من عنده، وكان حكم معاوية عمرو بن العاص وحكم علي أبو موسى الأشعري[6]. ورفضت الخوارج التحكيم مع أنهم كانوا معه في البداية. وذكر فيهم علي الآية[7]. وكانوا حوالي خمسة آلاف. وقتل محمد بن أبي بكر الذي أراد المصريون تنصيبه واليا

---

(١) البستي حـ٢/ ٥٢٦-٥٤٠.

(٢) «إن الإسلام ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها»، السابق حـ٢/ ٥٣٣-٥٣٤.

(٣) «قاتل ابن صفية في النار»، السابق حـ٢/ ٥٣٥.

(٤) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ السابق حـ٢/ ٥٤٠-٥٤١.

(٥) السابق حـ٢/ ٥٤٠-٥٥١.

(٦) «تقتلك الفئة الباغية»، السابق حـ٢/ ٥٤٢.

(٧) ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، السابق حـ٢/ ٥٤٦.

على مصر. أدخل في جوف حمار ميت وأحرق بالنار. وسر معاوية بقتله وحزن علي. وعين الأشتر واليا على مصر. فدبر له معاوية مُؤامرة. سقته امرأة عسلا مسموما وقال عبارته المشهورة «إن لله جنودا من عسل». واستعملت شعارات بدر، «شاهت الوجوه، شاهت الوجوه»، في حرب المشركين إلى الصراع الداخلي بين المسلمين[1]. وبايع أهل المدينة معاوية بالخداع والضغط.

وقد تنبأ الرسول بفتنة علي[2]. قاتله الزبير ظلما. وقتل بها عمار بغيا. وكما اختلفت بنو إسرائيل اختلف المسلمون، واحتكم كل فريق إلى حكمين ضلا وأضلا. وانشغل علي والأمة بأكملها بالفتنة الداخلية والصراع على السلطة. وتركوا الفتح الخارجي إلا مرة واحدة خرج قسطنطين بن هرقل بالمراكب يريد المسلمين فعصفت بهم ريح أغرقتهم. ونجا قسطنطين حتى انتهى إلى صقلية. وقتله الروم في حمام عقابا له على قتل جنده[3]. وتنبأ الرسول بخروج الخوارج عليه وقتالهم وعلاماتهم بالرجل الناقص الخلق واليد. وقد اتهم أحدهم الرسول بأنه لم يعدل. ووصفهم الرسول بأنه تحقر الصلاة والصيام مع أحدهم. لا تتجاوز قراءتهم للقرآن ألسنتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فارغ النصل والقدح[4]. هم حدثاء الأسنان. سفهاء الأحلام لا يجاوز الإيمان حناجرهم. جزاؤهم القتل. يقاتلون على تأويل القرآن كما كانوا يقاتلون على تنزيله. وقد لا تنطبق هذه الأحاديث على الخوارج. وإذا انطبقت فبشكل بعدي، قراءة الحاضر في الماضي، والواقع في النص[5]. ويُدفع موقف علي إلى حده الأقصى وكأنه معاد لعثمان

---

(١) السابق حـ٢/ ٥٤٨.

(٢) شمائل الرسول ص٢٣١-٢٣٢ «لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة»، ص٢٣٢ «إن بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل اختلافهم بينهم حتى بعثوا حكمين ضلا وأضلا، وإن هذه الأمة ستختلف فلا يزال اختلافهم بينهم حتى يبعثوا حكمين ضلا وأضلا من اتبعهما» ص٢٣٤.

(٣) البستي حـ٢/ ٥٣١.

(٤) ناقص الخلق (المخَرج)، ناقص اليد (ذو الثُّديّة)، شمائل الرسول ص٢٣٤-٢٣٧ «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ص٢٣٥.

(٥) «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرئون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...» ص٢٣٥. «يخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في أجرهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة» ص٢٣٥-٢٣٦، «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله» ص٢٣٦.

مع أنه كان يحاول دفع الفتنة وتوحيد المسلمين. ووضع حراسة على باب عثمان، ابن علي ضد الخارجين عليه لولا أنهم أتوه من الخلف بعد تسلق الحائط والصعود إلى السطح والنزول منه. والاستشهاد بأقوال علي تكاد تقارب الاستشهاد بأقوال الرسول(١). فكلاهما معصومان من الخطأ.

وقتل عبد الرحمن بن ملجم عليا بسيف مسموم جزاء له على حب امرأة أجمل أهل زمانها والزواج منها. والثمن ثلاثة آلاف وقتل علي(٢). وفي مسجد الكوفة ترصد ابن ملجم لعلي فضربه من خلفه من قرنه إلى جبهته. واعترف ابن ملجم بأن السيف مسموم لمدة شهر، وأنه قتل فردا وليس أمير المؤمنين. وطلب علي حبسه، وتطييب طعامه، وتليين فراشه. فإذا عاش فعفو أو قصاص وإن مات فيلحق به ليخاصمه عند رب العالمين(٣). ودفن بالكوفة في قصر الإمارة عند مسجد الجماعة(٤). ولم يكن له مال إلا سبعمائة درهم أراد ابتياع خادم به. وقد تنبأ الرسول بقتله، وتنبأ بمصيره بأن لحيته ستخضب بدماء رأسه،وأنه مثل عيسى ابن مريم أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه. وأحبه النصارى حتى ألهوه(٥).

وكان المقاتلون يتصورون أنهم مازالوا في عصر النبوة، النصر من السماء، ومواقيت الصلاة في الأرض(٦). وكان من ضمن القتلى في حروب علي المخدع تعرف عليه علي ضمن القتلى. رجل ليس له ساعد، بين جنبيه ثدي فيه شعرات، إذا مدت امتدت، وإذا تركت قلصت. فتذكر علي قول الرسول «يخرج قوم فيهم رجل مخدع اليد»(٧). وفي رأي

(١) النبي الأعظم ص٣٨٨-٣٩٣.
(٢) البستي حـ٢/ ٥٥١-٥٥٣، «إن الأمة ستغدر بك بعدي»، شمائل الرسول ص٢٣٧-٢٣٨.
(٣) «قطعت يديه ورجليه ولم يجزع ولم يتكلم، ثم كحلوا عينيه بمحلول محمي. ثم قطع لسانه ويحرق بالنار»، البستي حـ٢/ ٢٥٢.
(٤) كان له خمس وعشرون ولدا وبنتا، خمس من فاطمة، السابق حـ٢/ ٥٥٣.
(٥) «إن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه»، «أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزلة التي ليس بها».
(٦) البستي حـ٢/ ٤٨٧.
(٧) السابق حـ٢/ ٥٤٦-٥٤٧.

الحسن كان علي يقاتل، وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره[1]. ورأى راهب نصراني رأس الحسين مرفوعة على رمح في طريقها من كربلاء إلى دمشق. ورأى نورا ساطعا من ديره إلى السماء. فاشتراها بعشرة آلاف دينار. تحولت إلى خزف في أيدي الجند بعد وصولهم إلى دمشق[2]. لا فرق بين الخيال والتاريخ، بين التوهم والواقع. فكلاهما حقيقة. الأولى من صنع الذات، والثانية من صنع التاريخ. والتاريخ لا يُعرف إلا من خلال الذات. وقد يضاف الحسن بن علي بالرغم من قصر مدته وانقسام المسلمين[3]. فعلي لا ينفصل عن نبيه في اكتمال الخلافة الراشدة. ويضاف إليهم جماعة آل البيت لهم بمصر والقاهرة مزارات مشهورة ومساجد معمورة[4]. كما يضاف ذكر مناقب الأئمة الأربعة إرضاء للشيعة والسنة على حد سواء[5]. ويضاف إليهم الأربعة أقطاب من الصوفية. فالصوفية هم ورثة أهل البيت والشيعة والسنة[6]. ويأتي أبو الحسن الشاذلي متمم لهم[7].

والشهداء من الطرفين. استشهاد الحسين بجز رأسه في كربلاء، وسم أخيه الحسن عند الشيعة، واستشهاد عمار بن ياسر «تقتلك الفئة الباغية»، وحمزة سيد الشهداء[8]. وله مع أخيه الحسين مكانة عند الرسول[9]. هما ريحانتاه من الدنيا. وهما سيدا شباب

---

(١) السابق حـ٢/ ٥٥٣.

(٢) السابق حـ٢/ ٥٦٠-٥٦١.

(٣) الإشارة ص٤٧٨، مختصر سيرة (٢) ص٥٠٣-٥٠٤، مناقب الحسن والحسين وباقي الأئمة الاثنى عشر، النبي المختار ص١٢٢-١٨٩، الجوهرة حـ٢/ ٢١٠-٢٤.

(٤) النبي المختار ص١٨٩-٢٢٥.

(٥) السابق ص٢٢٥-٢٥٢.

(٦) السابق ص٢٥٢-٢٦٨ وهم: أحمد بن الرفاعي، عبد القادر الجيلي، أحمد البدوي، إبراهيم الدسوقي.

(٧) السابق ص٢٦٨-٢٧٣.

(٨) وذلك مثل سم إسرائيل بمفردها أو بالتواطؤ مع بعض الفلسطينيين ياسر عرفات. الحسن بن علي، الجوهرة حـ٢/ ٢٢٤-٢٤٢ «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا. حسين سبط من الأسباط»، «اللهم أحبه فإني أحبه» ص٢٢٥.

(٩) «حسن مني، وحسين من علي»، «وأنه ريحانتي من الدنيا»، «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما»، «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله على يده بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، «إن ابني استرجلني فكرهت أن أعجله»، «رأيت هذين يعثران في قميصهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما»، «إنه من لا يرحم لا يُرحم»، «اللهم أني أحبه، وأحب من يحبه»، السابق حـ٢/ ٢١١-٢١٤/ ٢١٦، شمائل الرسول ص٢٣٨-٢٤١/ ٢٦٤، أقرباء الرسول حـ٢/ ٥٠٧.

أهل الجنة. يصلح الحسين فئتين من المسلمين. كان يكره إنهاء السجود لأن الحسن على ظهره. ونزل من المسجد لإقالتهما بعد أن تعثرا في قميصهما. وكان يقبلهما. فمن لا يرحم لا يُرحم. يحبه ويدعو الله أن يحب من يحبه. وقد تنبأ الرسول بأن الحسن سيد يصلح الله به فئتين عظيمتين من المسلمين[1]. فإمكانية المصالحة قائمة بين فتح وحماس، بين الموالاة والممانعة، بين العرب والعجم، من أجل توحيد الأمة في مواجهة أعدائها، إسرائيل وأمريكا ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. ويذكر السّتة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة[2].

٧- من الخلافة إلى الملك

وخشي النبي على أمته من بعده[3]. خشي عليها اتباع الأهواء والشهوات والغفلة، بعد المعرفة، وولاية الدين لغير أهله. وأهل البيت والكتاب طريق الخلاص. وحب آل البيت لا تجبه الصلاة بين الركن والمقام. والأثبت على الصراط أشد الناس حبا لأهل البيت وأصحاب الرسول. الرسول الشجرة، وفاطمة فرعها، وعلى لقاحها، والحسن

---

(١) الأنوار حـ١/ ٢١٣، الوفا حـ١/ ٣٠٩.

(٢) وهم «الزبير بن العوام، الجوهرة حـ٢٢٩٢-٣٢٢، طلحة بن عبيد الله ص٣٢٥-٣٣٣، عبد الرحمن بن عوف حـ٢/ ٣٣٧-٣٤٦، سعد بن أبي وقاص ص٣٤٩-٣٥٥، سعد بن زيد حـ٢/ ٣٥٩-٣٦١، عامر ابن عبد الله بن الجراح حـ٢/ ٣٦٥-٣٦٩، «أوجب طلحة، وكان شهيدا وهو حي» ص٣٢٥. «عبد الرحمن ابن عوف من سادات المسلمين»، «أمين في السماء أمين في الأرض» ص٣٣٨، «اللهم أجب دعوته وسدد رميته» (سعد بن أبي وقاص) ص٣٤٩. «إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، «لأبقين إليكم رجلا أمينا حق أمين»، «لأرسلن معكم القوي الأمين»، «هذا أمين هذه الأمة» ص٣٦٥-٣٦٦، «سيكون فيكم اثنا عشر خليفة: أبو بكر الصديق لا يلبث خلفي إلا قليلا، وصاحب دارة رحى العرب. يعيش حميدا ويموت شهيدا... عمر بن الخطاب... وأنت (عثمان) يسألك الناس أن تخلع قميصا كساكه الله. والذي بعثني بالحق لئن خلعته لا تدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»، شمائل الرسول ص٢٢٤.

(٣) «أخاف على أمتي من بعدي ضلالة الأهواء واتباع الشهوات، والغفلة بعد المعرفة»، النبي الأعظم ص٤٨٦، «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله»، ص٧١٣، «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»، «لو أن رجلا حصن بين الركن والمقام فصلى وصام ثم لقى الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار»، ص٧١٣-٧٢٠.

والحسين ثمرتها وشيعتنا ورقها استكمالا للصورة بمدح الشيعة. موالاة علي وموالي علي والاقتداء بأهل البيت الذين خلقوا عن طينة الرسول يحيا مثله دعوت مثله. أهل البيت مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق. ولن يعذب الله أهل البيت لأنهم يقرون بالتوحيد. يسالم الله من يسالم أهل خيمته، ويحارب من يحاربهم، ويوالي من يواليهم. ولله ملائكة في الأرض. يعاونون آل البيت.

وينقسم مصير الرسالة أي تاريخ الرسالة بعد وفاة الرسول إلى قسمين: الخلفاء، والملوك، الخير والشر، الخلافة والملك العضود طبقا لحديث الرسول[1]. وتكتفي كتب السيرة والخلافة بذكر اسم الملك وولاته على الأمصار بعد أن أصبحت السلطة هي الهم الأكبر بعد ذكر المؤسس الأول للملك معاوية.

ومازال الحديث موجها للتاريخ بالتحول من الخلافة الراشدة إلى الخلافة غير الراشدة، الراشدة تعمل بما تعمل وبما تؤمر، وغير الراشدة يعملون بما لا يعلمون وبما لا يؤمرون[2]. وهو نفس المعنى في حديث «خير القرون قرني ثم الذي يلونه» في صياغاته المتعددة[3]. فخير الناس بعد الرسول الصحابة ومع الخلفاء الراشدين العشرة المبشرون بالجنة[4]. والخلفاء الراشدون قليلون كما كثيرون كيفا. فهم الذين حملوا استمرار

(١) «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكا»، ذكر البيان بأن من ذكرناهم كانوا خلفاء ومن بعدهم كانوا ملوكا، أبو بكر سنتان وعمرا عشر، وعثمان اثنا عشر، وعلي ست، البستي حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٤، مختصر السيرة (١) حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٤، شمائل الرسول ص٢٣٩/ ٢٧٠.
«الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تعود ملكا»، الجوهرة ص٢١٥، «اللهم ارحم خلفائي الذين يأتون من بعدي يرددون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس»، ص٣٩، «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثون أو سبع وثلاثون. فإن يهلكوا فسبيل من قد هلك، وإن يتم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاما»، «ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين»، شمائل الرسول ص٢٢٤-٢٢٥.

(٢) «يكون بعدي خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون، ثم يكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر عليهم فقد برئ، ولكن من رغب وتابع»، البستي حـ٢/ ٥٨٣-٥٨٤.

(٣) «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم»، السابق حـ٢/ ٥٨٣-٥٨٤، سيرة النبي ص٨٨.

(٤) الخلفاء الأربعة ثم طلحة قتله مروان بن الحكم بسهم ومات عام ٣٦هـ يوم الجمل، والزبير بن العوام قتل عام ٣٦هـ وسعد مات في قصره عام ٥٨هـ وسعيد بن زيد عام ٥١هـ وعبد الرحمن بن عوف عام ٣١هـ وعامر بن عبد الله بن الجراح عام ١٨هـ السابق حـ٢/ ٥٨٣-٥٨٨.

الرسالة ضد الثورات المضادة في الداخل. والملوك كثيرون كما قليلون كيفا سواء في مدة الحكم أو في أثره الإيجابي على استمرار الرسالة. فقد بدأ النزاع على الحكم والصراع على السلطة بصرف النظر عن الرسالة[1]. ويكتب في الخلفاء الكثير نظرا لكثرة أعمالهم منذ بيعتهم وفتوحاتهم حتى وفاتهم. أما الملوك باستثناء معاوية وابنه يزيد فلا يكتب فيهم إلا مواليدهم ووفياتهم وعدد سنين ولايتهم[2]. الخليفة حكم مدة طويلة في حين أن حكم الملك مدة قصيرة، انتهى بانقلاب أو قتل أو موت[3]. وقد لا تتجاوز مدة الحكم الملك شهورا معدودة. وأكبر مدة حكم معاوية.

وقد تنبأ الرسول بخلافة معاوية[4]. وكان شرا لابد منه. وبالرغم من شخصيته الملوكية أوصاه الرسول بأن يحسن للناس. وتتحول الخلافة بالمدينة إلى ملك في الشام. الإيمان بالحجاز، والفتن بالشام. الخلفاء بالمدينة والأبدال بالشام. وعرف ذلك الرسول في اليقظة وفي المنام. والأبدال ينصرون الإسلام. والخوف تأويلهم بالملوك[5]. وهو اللفظ الذي استعمله الصوفية.

وبالرغم من أهمية معاوية إلا أنه كان دائم الذكر مع علي كخصم له. لذلك لم يذكر كأول الملوك باستفاضة[6]. وكان التجهيز والتآمر كله لتولية ابنه يزيد قاتل الحسين. الأب قاتل علي، والابن قاتل الحسين. بايعت الشام يزيد، وبايع الشيعة الحسين بعد أن استقدموه إلى الكوفة. فأرسل مسلم بن عقيل من المدينة لأخذ بيعة أهل الكوفة.

---

(١) يذكر البستي ستة وثلاثون ملكا، البستي حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٨.

(٢) أبو بكر (عدد الصفحات) (٣٣)، عمر (٤٧)، عثمان (٢٢)، علي (٣٢)، معاوية (٢)، يزيد (٧)، ثم (٣٦) ملكا في (٢٧) صفحة.

(٣) أبو بكر (عدد السنوات) (٢)، عمر (١٢)، عثمان (١٠)، علي (٦).

(٤) «لا تذهب الأيام والليالي حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرم (الدبر)، ضخم البلعم (الحلق)، يأكل ولا يشبع وهو معاوية»، «يا معاوية، إن ملكت فأحسن»، «يا معاوية إن وليت أمرا فاتق الله واعدل»، «أنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم»، شمائل الرسول ص٤٣٩.

(٥) «الخلافة بالمدينة والملك بالشام»، «بينما أنا نائم إذ رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي، فظننت أنه مذهوب به. فاتبعته ببصري فعمد به إلى الشام، إلا وأن الإيمان حين تقع الفتن بالشام»، «الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلا. كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا. يسقي بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم الأعداء»، السابق ص٢٤٠-٢٤١.

(٦) البستي حـ٢/ ٥٥٣-٥٥٥.

وبلغت البيعة ثمانية عشر ألف رجل. فأمر يزيد والي البصرة بقتل مسلم بن عقيل أو إرساله إليه. ودعاه مع ابن عروة إلى القصر. وهشم رأسه بقضيب وتركه يحتضر. ثم ركب مسلم بن عقيل مع ثلاثة آلاف رجل لمقاتلة عبيد الله بن زياد. فلما اقترب من القصر وجد أن أصحابه تخلفوا عنه ولم يبق منهم إلا عشرة. فرجع ولم يجد وراءه أحدا فلما استراح مسلم بن عقيل في دار امرأة وأخبر ابنها الوالي بوجود مسلم في الدار أرسل ستين رجل فقاتلهم حتى كل ومل وقبضوا عليه وأمّنوه وأخذوه. فصعد إلى القصر وهو يسبح ويكبر، وهو يدعو الله على من خذلوه وكذبوه. فضربت رأسه وسقطت جثته ثم رأسه. وأخرج هانئ بن عروة الذي آواه في داره إلى السوق وضربت رقبته. وأرسلت الرأسان إلى يزيد[1]. هذا هو حال الملك بعد الخلافة، والخلافة بعد النبوة.

وسيلقى أهل البيت بعد الرسول القتل والتشريد على يدي بني أمية وغيرهم[2]. وتبرز الأحاديث الموضوعة في فضائل معاوية. فالأمناء سبعة: اللوح، والقلم، وإسرافيل، وميكائيل، وجبريل، ومحمد، ومعاوية. ولقد ائتمن الله على وحيه جبريل والرسول ومعاوية. وكاد يُبعث معاوية نبيا من كثرة علمه. ويحشر معاوية وعليه حلة من نور ظاهرها الرحمة، وباطنها الرضا. يفتخر به الجميع لكتابة الوحي. وهو رجل من أهل الجنة، يزاحم الرسول على بابها. دعا الرسول أن يملأ بطنه علما وحلما، في مقابل حديث «لا أشبع الله بطنه بدلا من الطعام». يحبه الله وكأنه على رفارف الجنة. يحبه الله ورسوله، الرسول مدينة العلم وعلى بابها ومعاوية حلقتها[3].

تكشف الأحاديث عن صراع بين فئتين[4]. أبو بكر وعمر وعثمان في ناحية وعلي

(١) السابق حـ٢/ ٥٥٥-٥٥٧.

(٢) «إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وأن أشد قومنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»، «إذا بلغت بنو أمية أربعين اتخذوا عباد الله خولا...»، النبي الأعظم ص٢٤٣.

(٣) السابق ص٥٥١-٥٥٦، «إذا رأيتم معاوية وعمرو بن العاص مجتمعين ففرقوا بينهما فإنهما لن يجتمعا على خير»، وفي مروان بن الحكم «هو الملعون بن الملعون». وفي معاوية «اللهم العن القائد والسائق والراكب»، «يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي»، «اللهم العنه ولا تشبعه إلا بالتراب»، «إست معاوية في النار»، «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»، النبي الأعظم ص٧٦٢-٧٦٨.

(٤) «يا معشر بني هاشم، والذي بعثني بالحق نبيا لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم»، النبي الأعظم ص٢٧١، «إن الله يتجلى يوم القيامة للخلائق عامة ويتجلى لك خاصة»، «إن لله سيفا مغمودا» في غمده ما

والحسن والحسين في ناحية أخرى. فالله يتجلى للخلائق عامة يوم القيامة ويتجلى لأبي بكر خاصة. ودليل الوضع أن الله لا يتجلى لأحد. وعثمان هو سيف الله الحي. والأمناء عند الله ثلاثة، الرسول وجبريل ومعاوية. وإذا أحب علي أبا بكر وعمر دخل الجنة. وفضل عمر كبير لن يبلغ مقدار ما جلس جبريل مع نوح. وأبو بكر تاج الإسلام وعمر حلته. وخلق الله محمدا من نوره. وخلق الله أبا بكر من نور محمد ولو لم يُبعث الرسول لبُعث عمر. وما يقال من منزلة علي من الرسول مثل منزلة هارون من موسى يقال على أبي بكر. وما قيل عن الحسن والحسين بأنهما سيدا شباب أهل الجنة يقال على أبي بكر وعمر. وقد خلق الرسول وأبو بكر من تربة واحدة وفيها يدفنان. وكلها أحاديث مرفوعة لا يعرف من أول راويها. ولو ذكرت أحاديث فيها فضل علي تذكر أيضا فضائل أبي بكر وعمر، وبنفس التشبيه علي الباب وعمر الأساس وأبو بكر الحيطان، وكل أبواب فضل معاوية ليس فيها أحاديث صحيحة مثل أحاديث مناقب الخلفاء. ولكل صحابي فضل. فمناصرة الخليفتين كانت من أوائل الصحابة. أبو بكر أرحم، وعمر أشد، وأبي أقرأ، وعثمان أصدق، ومعاذ أعلم بالحلال والحرام، وزيد بن ثابت أفرض، وأبو عبيدة الجراح أمين الأمة. الخلفاء الأربعة كلهم في الجنة، ولا يدخل الجنة مبغض لأبي بكر ولو عَمِلَ عَمَل سبعين نبيا. وقد تاب الله على آدم بحرمة الرسول وخلفائه الأربعة، لقد أمن أبو بكر الرسول على صحبته وماله. ولو كان الرسول متخذا خليلا لكان أبا بكر. ولكل نبي رفيق في الجنة ورفيق الرسول عثمان. وهو وليه في الدنيا والآخرة، أسر له الرسول كل شيء. وزوجه أم كلثوم بوحي من السماء.

دام عثمان بن عفان حيا»، «الأمناء عند الله ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية»، «إن الله ائتمن على وصيه جبريل وأنا ومعاوية وكاد أن يبعث معاوية نبيا من كثرة علمه»، «أبو بكر تاج الإسلام وعمر حلة الإسلام»، «خلقني الله من نوره، وخلق أبا بكر من نوري»، «لو لم أبعث لبعث يا عمر»، «أنا مع عمر وعمر معي حيث حللت، من أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني»، «أبو بكر مني بمنزلة هارون من موسى»، «يا علي لا تكتب جوازا لمن سب أبا بكر وعمر فإنهما سيدا كهول أهل الجنة بعد النبيين»، «إني وأبا بكر وعمر خُلقنا من تربة واحدة وفيها ندفن»، «أنا مدينة العلم وعلي بابها، وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها»، «أرحمكم أبو بكر، وأشدكم في الدين عمر، وأقرؤكم أبي، وأصدقكم حياء عثمان، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضكم زيد بن ثابت، وإن لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة الجراح»، ص٤٧٣-٤٨٢، «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة»، ص٤٩٤.

وقد استمرت الفتن بعد معاوية من أغيلمة بن هاشم[1]. وهم سفهاؤهم وحدثت أمور منكرة بسبب الأثرة. ويهلك حي من قريش. والأفضل العزلة[2]. وبعد ستين سنة يضيعون الصلوات، ويتبعون الشهوات. لا يتجاوز القرآن ألسنتهم بين منافق وفاجر. فالانهيار مع بني أمية[3].

ثم خرج الحسين بنفسه إلى الكوفة. وقاتل عبيد الله بن زياد بكربلاء حتى قتل عطشا بسهم في حلقه يوم عاشوراء ومعه كبار الصحابة. وضرب رأسه. وأرسلها عبيد الله بن زياد إلى الشام مع أسارى النساء والصبيان من آل البيت. وفي كل منزل يخرج الرأس من الصندوق على رمح حتى يراه الناس. فخرج راهب واشترى الرأس وغسلها وناجاها وأسلم. ثم وجد الجند الدنانير التي باعوا بها الرأس تحولت إلى خزف ومكتوب على جانبها آيتان قرآنيتان[4]. وبعث يزيد جيشا إلى المدينة فقتل أولاد المهاجرين والأنصار واستباحها ثلاثة أيام وسميت واقعة البحر. ومات يزيد وعمره ثمان وثلاثون. سكر ورقص فسقط على رأسه وتناثرت دماغه[5]. ويقُدسه آل البيت المدفونون في مصر رجالا ونساء، سنة وشيعة[6]. وقد تنبأ الرسول بمقتل الحسين عن طريق الملاك وليس

---

(١) شمائل الرسول ص٢٤٧-٢٤٩، «ستكون أثرة وأمور تنكرونها»، «هلاك أمتي على يدي غلمة من قريش»، «إن فساد أمتي على يد غلمة سفهاء من قريش».

(٢) «تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»، «لو أن الناس اعتزلوهم»، السابق ص٢٤٧.

(٣) «يكون خلف من بعد الستين سنة أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرأون القرآن، لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر. لا يزال هذا الأمر معتدلا قائما بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية»، «إن أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية»، السابق ص٢٤٨-٢٤٩.

(٤) هما ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، البستي جـ٢/ ٥٦١

(٥) السابق جـ٢/ ٥٥٧-٥٦٢، الجوهرة جـ٢/ ٢٢٤-٢٤٢. الأمويون خمسة عشر خليفة، الإشارة ص٤٧٩-٤٩٧: معاوية، يزيد، معاوية، عبد الله بن الزبير، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد. ومعاوية، وعبد الله بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز وحدهم هم الذين يضاف إليهم «رضي الله عنهم».

(٦) فاطمة الزهراء، الحسن بن علي، الحسين بن علي، السيدة زينب، السيدة رقية، السيد سكينة، السيدة نفيسة، السيد حسن والد السيدة نفيسة، السيد محمد الأنور، السيد علي زين العابدين، السيد زيد بن علي زين العابدين، السيد إبراهيم ابن الإمام زيد، السيدة عائشة بنت جعفر الصادق، السيد الكاظم، السيد جعفر الصادق، السيد محمد العامر، الإمام الشافعي، سيرة المصطفى ص١٦١-٢٧٣.

بمجرد البصيرة[1]. وقد كان حبيب الرسول لأنه ثمرة فؤاده وليس فقط سبطه. وتقرظ أحاديث أخرى شهداء الفتنة الكبرى[2].

وتمتد حياة الملوك حوالي قرنين من الزمان منذ معاوية (٦٠هـ) حتى المتقي بن المقتدر (٣٣٥هـ) أمويين وعباسيين إلى أن وصل الأمر إلى المطيع بن المقتدر «يموت أو يقتل لا محالة لأن له أسوة بمن فقدهم»[3]. وقد قتل عديد من الملوك. فالملك إما مقتول وإما قاتل. وقد أرسل المأمون من يقتل أخاه الأمين ببغداد ثم أرسلت رأسه له[4]. فلم تعد القرابة ولا الدين مانعا من القتل. واستمر القتل في سبيل السلطة. ولكل ملك يذكر تاريخ مولده وتاريخ وفاته، وسنة ولايته، ومدة ولايته بالسنة والشهر واليوم، ونسبه، وشعاره على خاتمه. ولا توجد أحداث أخرى في حياته إلا فيما ندر. وتعود السيرة إلى منشئها في علم التاريخ. ولم يعد للتاريخ دلالات ولا للموت والحياة معاني. ولم تكن النبوة أساس السيرة حاضرة ولا ظاهرة. وقد توفى معظم الولاة صغار السن إما لأنهم قتلوا أو خلُعوا أو لأنهم تقلدوا الإمارة وهم صغار[5]. وتختلف ولاية كل الملوك بين عشرات السنوات والليالي المعدودة. ومعظمهم ترك الولاية إما بالموت الطبيعي أو بالاغتيال أو بالعزل. ولا يوجد وال انتهت ولايته وعاد إلى الناس فردا عاديا. وهو ما زال مستمرا حتى الآن[6].

---

(١) «أخبرني جبريل أن هذا يقتل بأرض العراق قلت له: يا جبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها، فهذه تربتها»، «وكيف لا أحبه وهو ثمرة فؤادي»، «آتاني جبريل فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا»، «هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل ألتقطه منذ اليوم»، شمائل الرسول ص٢٤٩-٢٥٣.

(٢) «إن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والمقداد»، النبي الأعظم ص٣١٧، «تقتلك الفئة الباغية»، ص٣٤٤-٣٤٥.

(٣) البستي حـ٢/ ٥٨٢-٥٩٤، قتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ وصلب على جذع منكسا من الحجاج، قتل الوليد بن يزيد عام ١٢٦هـ قتل مروان بن محمد عام ١٣١هـ قتل الأمين بن الرشيد عام ١٨٩هـ المنصور قاتل أبي مسلم، قتل المتوكل عام ٢٤٧هـ، قتل المعتز بن المتوكل عام ٢٥٥، قتل المهتدي بن الواثق عام ٢٥٦، قتل المقتدر بن المعتضد عام ٣٢٠.

(٤) السابق حـ٢/ ٥٧٤.

(٥) توفى الهادي بن مهدي وعمره ٢٥عاما، ويزيد بن معاوية ٣٨ عاما، والمكتفي بن المعتضد ٣١ عاما، وعمر ابن عبد العزيز ٤١ عاما، وسليمان بن عبد الملك ٤٥ عاما، والمهدي بن المنصور ٤٣ عاما، والرشيد بن المهدي ٤٩ عاما، البستي حـ٢/ ٥٦٢-٥٧٩.

(٦) كانت إمارة معاوية بن يزيد أربعين ليلة، وولاية يزيد بن الوليد خمسة أشهر، إمارة مروان بن الحكم عشرة

وبالرغم من الوراثة أو الانقلاب أو القتل حرص كل ملك على البيعة لتبرير سلطته شرعيا كما يحدث في ملوك ورؤساء هذه الأيام[1]. وبالرغم من الطابع العام للملوك، أمويين وعباسيين إلا أن بعضهم مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز قد شذ عنهم، وحاول إعادة سيرة الخلفاء الراشدين. فجمع وكلاءه ونساءه وجواريه. فطلقهن وأعتقهن، وباع ثيابه كلها، وتصدق بأثمانها[2]. وقد بايع الناس المأمون قاتل أخيه الأمين بيعة عامة[3]. وبويع المستعين بن المعتصم. وبايع الناس بعد خلع المستعين نفسه الزبير بن جعفر. ثم قتل فلا فرق بين بيعة القاتل وبيعة المقتول[4]. وقد يخلع الوالي نفسه إذا اشتد حوله الحصار وطلب منه ذلك أو إذا رأى أنه لا مخرج له[5]. فبعد أن استتب الأمر للمقتدر بن الموفق وهدأت الأمور وصار الناس كأنهم نيام لا يحسون بفتنة عمرت والدته الحرمين. وأنفقت غليها في كل سنة أموالا خطيرة. وكذلك عمرت بيت المقدس وكانت تنفق عليها وعلى الثغور في كل سنة أموالا كثيرة. وارتفع أهل العلم في كل بلد من الدنيا. وكانت بغداد في أطيب أيامها[6]. ثم اتفق الناس على خلعه فخلعوه. وأقعدوا أخاه القاهر بعد أن خلع المقتدر نفسه. ثم خلع القاهر نفسه بعد ثلاثة أيام. وبايع الناس المقتدر ثانيا. ثم هاج الجيش عليه وركب المقتدر وعليه بردة الرسول لحماية نفسه. ثم جاءه بربري ورماه بحربة فقتله[7].

وكان لكل ملك شعار على خاتمه، فمعاوية القاتل على شعاره «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، ويزيد قاتل الحسين شعاره «آمنت بالله مخلصا»، وكلها إما الإيمان بالله

أشهر، إمارة الهادي بن مهدي أربعة عشر شهرا، إمارة الوليد بن يزيد سنة وثلاثة أشهر، ولاية القاهر بن المعتضد سنة وستة أشهر، البستي حـ٢/ ٥٦٢-٥٨١.

(١) طلب الناس من معاوية بن يزيد لما حضرته الوفاة مبايعة رجل بعده والعهد إليه، البستي حـ٢/ ٥٦٢، ولما تولى مروان بن الحكم بايعه أهل الشام، السابق حـ٢/ ٥٦٣.

(٢) السابق حـ٢/ ٥٦٦.

(٣) السابق حـ٢/ ٥٧٤.

(٤) السابق حـ٢/ ٥٧٧.

(٥) السابق حـ٢/ ٥٧٧.

(٦) السابق حـ٢/ ٥٨٠.

(٧) السابق حـ٢/ ٥٨١.

أو الاستعانة به أو الإخلاص له أو الثقة فيه أو القصد إليه أو التوكل عليه أو الاعتزاز به أو الخوف منه يوم الحساب. والبعض الآخر يخلو من الدين والاكتفاء بالاسم مثل «يا وليد» «أحمد بن محمد»، أو اللقب «أمير المؤمنين»[1]. والسؤال هو كل هذا الاستقواء بالله على من؟ على الأعداء في الخارج الفرس والروم والأحباش أم الخصوم في الداخل صراعا على السلطة؟

وكلهم أسماء هداية وإيمان باستثناء الملوك الأمويين. المهدي، الهادي، المهتدي، المنصور، الرشيد، الأمين، المأمون، المعتصم، الواثق، المتوكل، المنتصر، المستعين، المعتز، المعتمد، المعتضد، الموفق، المكتفي، المقتدر، القاهر، الراضي، المتقي، المطيع. كلها تشير إلى الإيمان والطاعة والأمانة والتقوى. ولا شيء من ذلك في الواقع يتحقق. وكان البعض بالفعل يشعر بهذه المعاني إلا أن السياسة أخذته بعيدا عنها بعد أن تغلب عليه منطق القوة[2]. وهو ما يحدث أيضا مع صفات الله وأسمائه، الصفات مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، وحال الأمة على النقيض: الجهل والعجز والموت والصم والعمى والبكم والهوى. وهو أيضا حالها مع الأسماء مثل العادل، المقسط، وحياة الأمة تقوم على الظلم والجور[3]. وكانت لبعض الملوك ألقاب مثل المخلوع، المجنون، الجمار. ومعظمها يدل على عدم الاستحقاق بالملك، قبل الاسم أو بعده. وهي أسماء مستقراه من الأرض، من واقع وحياة الناس وسلوك الملوك، وليست

---

(١) معاوية «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، يزيد بن معاوية «آمنت بالله مخلصا»، معاوية بن يزيد «بالله نستعين» معاوية، مروان بن الحكم «آمنت بالعزيز الحكيم، العزة لله»، عبد الملك بن مروان «آمنت بالله»، وليد بن عبد الملك «يا وليد»، سليمان بن عبد الملك «أؤمن بالله»، عمر بن عبد العزيز «بالله مخلصا»، يزيد ابن عبد الملك «رب قني الحساب»، السفاح أبو العباس «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المنصور أبو جعفر «الله ثقة عبد الله»، المهدي بن المنصور «أستقدر الله تعالى»، الهادي بن المنصور «الله ربي»، الرشيد بن المهدي «بالله ثقتي»، الأمين بن الرشيد «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن»، المعتصم بن الرشيد «الحمد لله الذي ليس كمثله شيء»، المتوكل بن المعتصم «لا إله إلا الله، المتوكل على الله»، المنتصر بن المتوكل «أحمد بن محمد، بالله ينتصر المستعين بن المعتصم أحمد»، المعتز بن المتوكل «المعتز بالله»، المهتدي بن الواثق «محمد أمير المؤمنين»، المعتضد بن الموفق «المعتز بالله»، حـ٢/ ٥٥٥-٥٧٩.

(٢) رفض معاوية بن يزيد أن يبايع أحدا بعده قائلا «ما أصبت من دنياكم شيئا فأتقلد مأثمها»، البستي حـ٢/ ٥٦٢.

(٣) من العقيدة إلى الثورة حـ٢ التوحيد ص ٦٠٠-٦٦٤.

مستنبطة من السماء أو مقاسا عليها كما هو الحال في صفات الله وأسمائه[1].

وبالرغم من ازدهار الحضارة الإسلامية وتأسيس العلوم منذ القرن الثاني الهجري إلا أن الأمراء والولاة كانوا يضيقون بالرأي المخالف إذا تبنوا رأيا خاصا. فقد ضرب المأمون بن الرشيد أحمد بن حنبل بالسياط، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي. وبقى الناس في تلك الفتنة، خلق القرآن إلى أن مات المعتصم[2]. فالصراع على السلطة السياسية كان أيضا صراعا على السلطة الفكرية. والمتسلط في السياسة متسلط أيضا في الفكر. والدين يعطي الشرعية للسلطتين. وفي بعض السير بعض الأبواب أدخل في مصير الرسالة مثل «علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به من الغيب»[3]. منها تحول النبوة إلى ملك، والموقف من الملوك إنكارهم. ومن أنكر فقد برئ. ومن كره فقد سلم. ومن رضي وبايع فقد آثر السلامة. ولا يجوز قتالهم ما صلوا[4]. وهو يحبذ المواقف السلمية والإنكار باللسان دون القتال باليد. فالمواقف ثلاثة: الإنكار، والكراهية، والرضا والمبايعة. الإنكار باللسان، والكراهية بالقلب، والرضا والمبايعة باليد. والخير يتبعه شر، والشر يتبعه خير. والسبب قوم يهدون بغير هديه، ينكر عليهم الناس، دعاة على أبواب جهنم، يقذفون من تبعهم فيها، من بني الجلدة، ويتكلمون بنفس اللسان. والحل هو الالتزام بجماعة المسلمين وإمامتهم، والعض بأصل شجرة حتى الموت[5]. وفي سير أخرى نقد معاوية في العبادات ليس حاسما مثل نقده في المعاملات[6]. فقد كان لمعاوية تجربة مع العصر ضد الأصل، ونقد لبسه ليس نقدا حاسما موجها إلى أفعاله[7].

---

(١) إبراهيم بن الوليد المخلوع، مروان بن محمد الحمار، يزيد الناقص، السفاح أبو العباس، السابق حـ٢/ ٥٦٨-٥٧١، وكما يقال حاليا على بعض الرؤساء من الجيش «البقرة الضاحكة».

(٢) السابق حـ٢/ ٥٧٥.

(٣) الأنوار حـ١/ ٨٠-١٠٤.

(٤) «تكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، لكن من رضي وبايع». قالوا أفلا نقتلهم؟ قال «لا ما صلوا، لا ما صلوا»، السابق ص٨٢.

(٥) «...قوم يهدون بغير هدية، تعرف منهم وتنكر..دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها... هم من جلدتنا، ويتكلمون بلساننا... تلزم جماعة المسلمين وإمامهم....فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»، السابق ص١٠٠-١٠١.

(٦) النبي الأعظم ص٣٤٢-٣٦٨.

(٧) السابق ص٣٦٠.

وأحيانا يمتد الهجوم من الصحابة إلى الأمويين خاصة معاوية نموذج الشيطان وسبب البلاء والانحراف عن الطريق المستقيم والذي أدى إلى استشهاد الحسين وسم الحسن بتآمر زيد. ويُنقد عثمان الخليفة الرابع وتُبين عيوبه ونقائصه لمخالفاته للشريعة، ويُنقد الخليفة عمر وأخطاؤه في تطبيق الحدود. وهو شيء وارد في كل اجتهاد. كما اجتهد في تعليق حد السرقة عام الرمادة، وفي تعليق سهم المؤلفة قلوبهم، وفي أربعة أمور وافقه عليها الوحي وصدقه القرآن فيها. واجتهاد عمر لا يعني خطأه حتى لو كان مخطئا لأن للمخطئ أجرا وللمصيب أجرين. فالنية صحيحة وهو الوصول إلى الحق وفيما ينفع الناس. والأعمال بالنيات. وليس من المعقول أن يخطئ عمر في خمس وثمانين مسألة[1]. ويُنقد الخليفة أبو بكر في منعه فاطمة من وراثة فدك لأن الرسول قال «نحن الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

والتفاضل بين الصحابة أمر طبيعي، تشخيص للتعددية النظرية ونتيجة للفردية. فالناس مختلفون بفعل الطبيعة والخلق. وقد يكون الدافع على ذلك خلق تنافس في الخير بينهم. والصحابة ليسوا أشخاصا تاريخيين بل نماذج بشرية تتكرر عبر الزمان والمكان، فأبو بكر وعمر المثال والواقع، ما يجب أن يكون وما هو كائن، العزيمة والرخصة. ولا توجد ميزة خاصة لمن عاصر الرسول. فالمعاصر بالزمان وليس بالمكان. يستطيع كل إنسان بسلوكه أن يتمثل نموذج الرسول أو الصحابة وبينهما ألف عام[2]. ويصل حد الجدل الشيعي السني إلى حد التكفير، وتحويل الخلاف السياسي إلى خلاف عقائدي، والانتقال من الخلاف في الفروع إلى خلاف في الأصول، والتكفير من الطرفين، التكفير والتكفير المضاد[3]. ومن النافع هز سلطة المذاهب الفقهية الأربعة ورؤسائها منعا للتقليد وتأكيدا على تغير الظروف منذ ألف عام ولكن من الضار استبدال سلطة أئمة الشيعة بسلطة فقهاء السنة. وكما يمتد التقديس من النبي إلى الصحابة إلى الفقهاء الأربعة وعلى رأسهم أبو حنيفة عند السنة كذلك يمتد التقديس من الرسول إلى علي إلى ذريته إلى درجة

---

(١) السابق ص١١١-٤٥٦.

(٢) هذا هو معنى المعاصر contemporeneity عند كيركجارد.

(٣) النبي الأعظم ص٣٧٦.

التأليه عند الشيعة، مع أن أبا حنيفة كان تلميذا لجعفر الصادق[1]. والهجوم على أبي حنيفة أكثر من الهجوم على الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل مع أن مالك وأحمد يمثلان قطبي الفكر: الواقع والنص. ويستعمل الأسلوب الخطابي الذي يصل إلى حد اللعن والسباب وكأنه خطاب شفاهي أمام الجمهور العريض[2]. والسب واللعن ليس نقدا. والرفض المذهبي العقائدي ليس نقدا[3]. وتُستعمل آيات القرآن كلغة لسب الخصوم ولعنهم مثل ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[4]. وفي سيرة أخرى تنتهي الرسالة بسير الخلفاء الراشدين وسنواتهم ابتداء من حادث السقيفة وبيعة أبي بكر ثم قتال أهل الردة ورسائل أبي بكر وبعثات خالد ثم رصد الحوادث ابتداء من السنة الثانية عشرة، ومسيرة خالد إلى العراق، وحوادث الثالثة عشر، وموت أبي بكر، وحوادث الخامسة عشرة، وفتح القادسية، وحوادث الخامسة والثلاثين ووقعة الجمل، وموت الصحابة أو زوجات الرسول حتى الرابعة والستين، ثم بيعة معاوية بن يزيد في العام السادس والخمسين وموت معاوية في العام السادس والستين، وتأسيس دولة بن العباس[5]. والعباسيون أربعة وأربعون خليفة[6]. السبعة الأوائل لا يلحق بهم لقب مقرون بالله[7]. والباقي ما يفيد معنى المعتصم به أو المتوكل عليه أو المستعين به أو المهتدي به أو الطائع له[8]. فالخليفة تنقصه الشرعية من أدنى فيحتاج إلى شرعية من أعلى. وهو تاريخ

---

(١) السابق ص٥٥٧-٥٥٩.

(٢) السابق ص٤٦-٤٧/ ٧٧-٧٨ ومثل «وهلم معي إلى أم المؤمنين»، السابق ص٥٦٩. ويصفه البلاذري بالمغفل ص٢٨٥.

(٣) «اقرأ وتبصر» ص٣٦١.

(٤) السابق ص٣١٩.

(٥) خلاصة سيرة الرسول ص١٦٩-٢٢٥.

(٦) الإشارة ص٤٩٨-٥٦٦.

(٧) السابق ص٤٩٨-٥١٠.

(٨) أ- المعتصم بالله، الواثق بالله، المستعين بالله، المعتز بالله، المعتضد بالله، المكتفي بالله، القادر بالله، القائم بأمر الله، المقتدر بأمر الله، المستظهر بالله، المسترشد بالله، المستنصر بالله، الحاكم بأمر الله، المستكفي بالله، المعتضد بالله، الراشد بالله، الظاهر بـأمر الله، المستعصم بالله.

ب- المتوكل على الله، المعتمد على الله، المقتدر بالله، الظهر بالله، المستكفي بالله، الناصر لدين الله.

حـ- المهتدي بالله، المستنجد بالله، المستيقن بأمر الله، الواثق بالله.

د- الراضي بالله، المتقي بالله، المقتفي لأمر الله.

هـ- المطيع لله، الطائع لله، الإشارة ص٥١١-٥٦٦.

خالص للولاة لا دلالة فيه، ولا استرجاع للنبوة. هو مجرد تسجيل لتاريخ الولاة بعد أن تشخصت الدولة في ولاتها. وحدثت وقعة الحرة في زمن يزيد لتأديب أهل المدينة التي قررت التخلص منه[1]. وقد استشهد فيها خيار الأمة بعد الصحابة. ويُروى أنه افتض فيها ألف بكر. وقد حذر الرسول من رأس السبعين وإمارة الصبيان. وقد يمتد الملك إلى قرن من الزمان، وهي مدة حكم بني أمية[2]. ويستمر الانهيار من معاوية إلى ابنه يزيد إلى ابنه الوليد[3]. وهو غير الوليد بن عبد الملك باني الجامع السعيد. وينزوي خلفاء بني أمية من على منبر الرسول كما تنزوي القردة[4]. ووسط هذا الانهيار المستمر يظهر عمر بن عبد العزيز تاج بني أمية. فمسار التاريخ بين نهضة وسقوط، قيام وقعود. وهو خير هذه الأمة[5]. ومعه يظهر أهل العلم والحكمة، مع أهل الضلال والزيغ الذين يكذبون بالقدر[6]. وهو في رأي كاتب السيرة غيلان الدمشقي من المعتزلة الأوائل. كما يظهر

---

(١) «يقتل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي»، «تعوذوا بالله من رأس السبعين وإمارة الصبيان»، «عمر أمتي من ستين سنة إلى سبعين سنة»، «وليرعفن جبار من جبابرة بني أمية على منبري هذا»، شمائل الرسول ص٢٥٣-٢٥٥.

(٢) «أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»، «تسألون عن الساعة. وإنما علمها عند الله. فأقسم بالله ما على ظهر الأرض من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة»، «هذا الغلام يعيش قرنا»، شمائل الرسول ص٢٦١.

(٣) «قد جعلتم تسمون بأسماء فراعنتكم، أنه سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد. هو أضر على أمتي من فرعون على قومه»، «سيكون رجل اسمه الوليد يسد به ركن من أركان جهنم أو زاوية من زواياها»، «ابن الزرقاء هلاك أمتي على يديه ويدي ذريته»، «ائذنوا له حية، أو ولد حية عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين، وقليل ما هم. يشرقون في الدنيا، ويوضعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق»، «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهم دولا، وعباد الله خولا، وكتاب الله دغلا. إذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك ثمرة»، السابق ص٢٦٢-٢٦٣.

(٤) «رأيته في النوم بني الحكم ينزوون على منبر كما تنزوي القردة»، لسابق ص٢٦٣-٢٦٥.

(٥) «إنكم في النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون. يرفعها إذا شاء. ثم تكون جبرية ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة». «أما أنك ستلي أمر هذه الأمة وستعدل عليهم»، «تموت يا سرق بفلاة الأرض. ويدفنك خير أمتي»، السابق ص٢٥٨-٢٦٠.

(٦) «يكون في أمتي رجل يقال له وهب يهب الله له الحكمة. ورجل يقال له غيلان هو أضر على أمتي من إبليس»، «ينعق الشيطان بالشام نعقة. يكذب ثلثاهم بالقدر»، السابق ص٢٦٠.

مفسرو القرآن. وحفظته وهو وهب بن منبه، صاحب التفسير الشارح[1].

ثم أتت دولة بني العباس من خراسان بالرايات السود عام اثنين وثلاثين ومائة[2]. وقد تنبأ الرسول بقدومهم. وأخبر عمه العباس بذلك بأنهم يجمعون بين النبوة والملك. يظهر المهدي من بينهم. وتتفاوت الحقبة الزمنية بين ثلاثين سنة وستين وسبعين وقرن وقرنين[3]. والطبقة فترة زمانية. وقد تكون خمسا. كل طبقة أربعون عاما. وقد تكون الفترة قرنا. وينهار التاريخ قرنا وراء قرن. ثم تأتي البقرات السمان. وقد وقعت في زمانهم عدة أمور[4]. ومنها صلب خاسر، وتربية الكلاب أفضل من أن يخرج أحد من صلبه. وينتهي العلم إلا في المدينة. كذلك لا تسب قريش. فهي حاملة العلم. وتذكر فرق المعارضة الرافضة والشيعة. فعند الشيعة الأئمة اثنا عشر كلهم من قريش[5].

---

(١) «يخرج أحد الكاهنين. رجل يدرس القرآن دراسة لا يدرسها أحد يكون من بعده»، «يخرج من الكاهنين رجل أعلم الناس بكتاب التوراة»، ص٢٦٠.

(٢) «أما أنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك»، «فيكم النبوة وفيكم الملك»، «يقتل عند كنزكم هذه ثلاثة، كلهم ولد خليفة، لا يصير إلى واحد منهم، ثم تقبل الرايات السود من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم تروا مثلها. ثم يجيء خليفة الله المهدي. فإذا سمعتم فأتوه وبايعوه، ولو حبوا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»، «تجيء رايات سود من قبل المشرق، تخوض الخيل الدم إلى ثنتها، يظهرون العدل، ويطلبون العدل فلا يعطونه، فيظهرون فيطلب منهم العدل فلا يعطونه»، «يخرج عند انقطاع الزمان وظهور من الفتن رجل يُقال له السفاح فيكون إعطاؤه المال حثيا»،شمائل الرسول ص٢٦٥-٢٦٨.

(٣) «خيركم بعد المائتين خفيف الحاذ»، «الآيات بعد المائتين»، «أمتي على خمس طبقات: فأربعون سنة أهل بر وتقوى، ثم الذين يلونهم إلى عشرين ومائة سنة أهل تراحم وتواصل، ثم الذين يلونهم إلى ستين ومائة أهل تدابر وتقاطع، ثم الهرج الهرج، النجا النجا»، «أمتي على خمس طبقات. كل طبقة أربعون عاما. فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهل علم وإيمان. وأما الطبقة الثانية ما بين الأربعين إلى الثمانين فأهل بر وتقوى»، «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم يتسمنون، يحبون السمن، يعطون الشهادة قبل أن يسألوها»، «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يأتمنون وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»، السابق ص٢١٧١-٢٧٣.

(٤) «لإن يربي أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جروًا وكلبًا خير له من أن يربي ولدا لصلبه»، «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحد أعلم من عالم المدينة»، «لا تسبوا قريش فإن عالمها يملأ الأرض علما. اللهم إنك أذقت أولها وبالا فأذق آخرها نوالا»، السابق ص٢٧١-٢٧٧.

(٥) «يكون اثنا عشر خليفة... كلهم من قريش»، «يكون بعدي من الخلفاء عدة من أصحاب موسى»، «لا يزال هذا الدين قائما حتى يكون عليهم اثنا عشر خليفة -أميرا- كلهم تجتمع عليهم الأمة. كلهم من قريش.. ثم يكون الفرج»، «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان»، «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، السابق ص٢٦٨-٢٧١.

٨- الرسالة في التاريخ

أ- الرسول والرسالة

ومصير الرسالة مثل نشأة الرسالة يدل على استقلالها عن الرسول، فقد توفى الرسول واستمرت الرسالة. توفي الحامل، وبقي المحمول. وانتهى دور الرسول بانتهاء الوحي والنبوة. واستمر دور المرسل إليهم ابتداء من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. فالرسالة غاية التاريخ منذ ظهور الإنسان في العالم كظاهرة طبيعية في الخلق حتى أصبح مركز العالم في العصور الحديثة. دفعت الإنسانية إلى مزيد من التقدم والإسراع فيه والإرشاد له. تتعدد الرسل منذ آدم حتى محمد والرسالة واحدة. تفنى الرسل وتبقى الرسالة. والله يتعامل مع الرسل ويحفظهم، وتبقى الرسالة في أيدي البشر. إذ حافظوا عليها تقدمت البشرية وإذا لم يحافظوا عليها انهارت البشرية. فكل رسول يمثل دورة حضارية في مسار الحضارات. وهذا هو معنى قصص الأنبياء وأهميته لصياغة فلسفة للتاريخ في الماضي واكتشاف قانون انهياره ونهضته من أجل التنبؤ بالمستقبل ومرحلته القادمة[١].

ما يهم في مصير الرسالة ليس الرسول بل المرسل إليهم أي من الرسالة إلى المسلمين أي حملة الرسالة كما حملها الصحابة والتابعون. وهو تاريخ سياسي بالأصالة يتمثل في الصراع على السلطة الذي بدأ منذ وفاة الرسول والملوك الذين قتل بعضهم بعضا من أجل الحكم منذ قتل الخلفاء الثلاثة، عمر، وعثمان وعلي، واستشهاد الحسين حتى

---

(١) السنج: تربية الجنس البشري، دار الثقاة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧. ١- فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة، السيرة النبوية، ص٤٥٧-٤٨٥، فضل البعثة المحمدية. إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات، قيمة الرحمة كما وكيفا، إنقاذ النوع البشري من الشقاء والهلاك، مهمة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد، العصر الجاهلي وتهيؤه للانهيار والانتثار، السابق ص٤٥٩-٤٧٠، ٢- العالم الجديد في حساب البعثة المحمدية: ١- منح البعثة المحمدية السنة وأثرها في تاريخ الإنسانية. ٢- عقيدة التوحيد النقية الواضحة، مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، إعلان كرامة الإنسان وسموه وشرف الإنسانية وعلو قدرها، محاربة اليأس والتشاؤم وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان، السابق ص٤٧١-٤٨٥، الجمع بين الدين والدنيا وتوحيد الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة، السابق ص٤٨١-٤٨٤، تعيين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح ص٤٨٦-٤٨٧، ولادة عالم جديد، وإنسان جديد ص٤٨٦-٤٨٧.

الانقلابات الحالية في تاريخ العرب الحديثة منذ أكثر من نصف قرن من الزمان. أصبح تاريخ العرب الحديث يؤرخ من جديد بأسماء الملوك والولاة والحكام، بل إن دولا بأكملها تسمى بأسماء مؤسسي نظم الحكم فيها وأسماء عائلاتها. فالدولة عائلة كما كان الحال عند القدماء، الأمويون، والعباسيون، والفاطميون، والأخشيديون، والطولونيون، والساسانيون، والصفويون، والعثمانيون حتى الدولة القُطرية الحديثة. الدولة قبيلة لها أشرافها وساداتها كما كان الحال قبل ظهور الإسلام وبعده.

تضخمت شخصية الرسول بعد الوفاة في الوقت الذي ساء فيه مصير الرسالة[1]. وكلما ساء مصير الرسالة زاد البكاء على الرسول، والترحم على أيام الماضي، والحنين إليه بدلا من توجه الرسالة نحو المستقبل. وأصبح احتلال فلسطين وتهويد القدس لا يثير ثائرة المسلمين قدر إثارة الصور الدانماركية الساخرة من الرسول. وإذا كان الإسلام قادرا على تجميع الملايين فوق جبل عرفات فلماذا لا تتجمع هذه الملايين فوق جبل المكبر وتحاصر القدس وتمنع تهويدها وإبقائها عربية كما كانت عبر أربعة عشر قرنا[2]. وإذا كانت القبلة أولا نحو بيت المقدس قبل تحويلها إلى مكة، ومكة ليست في خطر بل بيت المقدس فلماذا لا تعود القبلة مرة ثانية إلى ما كانت عليه لتوجيه عيون أكثر من مليار وربع من المسلمين نحو القدس حتى تتحرر القدس ثم يعود المسلمون إلى قبلتهم الثانية، البيت الحرام في مكة؟ هكذا فعلت الصهيونية السياسية في أول عهدها في لاهوت الأرض عندما جعلت اليهودي لا يعبد الله إلا في فلسطين، أرض الميعاد، وفي القدس، المدينة المقدسة، وفي المعبد، هيكل سليمان. وبالحفريات تحته يريدون إثبات أن المسجد الأقصى أقيم على جدار هيكل سليمان، فلابد من هدمه وإعادة بناء الهيكل.

---

(١) مثل شعر حسان في مرثيته وفيها:

يكون من تبكي السموات يومه	ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلَتْ يوما رزية هالك	رزيــة يــوم مــات فيــه محمــد
وما فقد الماضون مثل محمد	ولا مثله حتى القيامــة يفقـد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى	حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

ابن هشام جـ٢/ ٥٥٨-٥٦٣.

(٢) خواطر حاج، أخبار الأدب. يناير ٢٠٠٦.

وفي مصير الرسالة كلما ضعفت الرسالة تضخم الرسول حتى أصبح إلها كما هو الحال في الحقيقة المحمدية عند الصوفية. وكلما قويت الرسالة عاد الرسول إلى حجمه الطبيعي. إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. إذا عجز المسلمون عن تحقيق الرسالة في الأرض فإنهم يشخصونها في الرسول، ويبالغون في إطرائه ومدحه. وكلما بلغ العجز مداه إلى درجة الاحتلال وصل الإطراء إلى حده الأقصى إلى درجة التأليه. إذا تخلف المسلمون حولوا تخلفهم إلى تقدم في مدح الرسول. وإذ تقدموا أصبح كل منهم صحابيا جديدا للرسول وجنديا في دعوته. فهناك قانون عكسي بين الرسالة والرسول من حيث التضخيم والتكبير والتعظيم.

وفي لحظات الحزن الشديد كالموت والعزاء والدفن يكون الرسول على الألسن. وفي لحظات الفرح الشديد يكون أيضا الرسول في الأفواه. فأصبح الرسول مشجبا تعلق عليه العواطف. وأقرب إلى المسلم من الرسالة. الرسول تسهل مناجاته أما الرسالة فتحتاج إلى فهم. الرسول في حاجة إلى قلب، والرسالة في حاجة إلى عقل. يبدو الرسول مخلصا من الأحزان، ومكافئا بالأفراح. ومجسدا للرسالة بشخصه. وطالما الرسول باق في الذهن فالرسالة باقية على الأرض. وطالما الرسول حي في الوجدان فالرسالة حية في التاريخ. وطالما الرسول تقام له الموالد، وترفع له البيارق، وتدق له الدفوف، وتقرع له الطبول، وتهز له الخواصر، فالرسالة بخير تملأ الشوارع والأزقة، وحاضرة في الزوايا والتكايا. تباركها نظم الحكم. فهناك قانون طردي بين حدة الانفعالات وتضخيم الرسول. كلما اشتدت الانفعالات وضاقت السبل. وبلغت القلوب الحناجر، ظهر الفرح في تضخيم الرسول والتشبث به طلبا للخلاص. وكلما هدأت الانفعالات رجع الرسول إلى حجمه الطبيعي، وبدأ العقل يفكر في مسار التاريخ، ويعمل على نقله من دورة حضارية إلى دورة حضارية أخرى.

ب- أسباب الانهيار

الحديث أولا والقرآن ثانيا، مصدران لسيرة الخلفاء فيما يتعلق بآيات مصير الأمة ومستقبلها ورسالتها في التاريخ، وأحاديث آخر الزمان وما يتعرض له المسلمون من فتن وتقليد وضياع. فالقرآن وضع قانونا لنهضة الشعوب وسقوطها. والحديث تنبأ

أيضا بمصير الأمة في التاريخ، انهيارها ونهضتها. ولم تتحول هذه الافتراضات بعد إلى تحليلات علمية لمسار الأمة في التاريخ لمعرفة أسباب انهيارها وشروط نهضتها. والتعرف على أسباب الانهيار أولا مقدمة لمعرفة شروط النهضة لسهولة تحول السلب إلى إيجاب، والنقص إلى كمال.

وقد يكون سبب انهيار الرسالة هو نفس سبب الهزيمة في غزوة حنين، الاعتماد على الكم دون الكيف، وعلى الكثرة العددية دون القلة النوعية. فالمسلمون اليوم قاربوا على ربع سكان المعمورة ولكنهم لا ثقل لهم في الموازين الدولية. وعدد الدول الإسلامية ثلث دول الأمم المتحدة، ولكنهم لا يؤخذون بعين الاعتبار. وإسرائيل قلة تتغلب على المسلمين كثرة، ستة ملايين في فلسطين وحوالي ثمانية ملايين خارجها يغلبون مليارا وربعا من المسلمين، يحتلون فلسطين، ويبنون المستوطنات، ويهدون القدس[1]. وقد يكون هو نفس سبب هزيمة أحد، عصيان الرسول، وترك المواقع، والجري وراء المغانم والأسلاب، والتفاف الأعداء من ورائهم، واغتيال القادة المخلصين مثل حمزة. فالتعلم من هزائم الماضي طريق النصر في المستقبل. وكما حدث في تاريخ العرب الحديث التعلم من هزيمة يونيو، حزيران ١٩٦٧ أدى إلى انتصار حرب تشرين، أكتوبر ١٩٧٣.

ومصير الرسالة يتأرجح بين الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة. فالتاريخ متعدد العوامل. ولا يتحكم في مساره عامل واحد. وهو ما حاولت تناوله معظم حركات الإصلاح الحديثة منذ قرنين من الزمان. وما تصوره القدماء على أنه مصير إلهي للأمة في التاريخ أو قدر إلهي هو في الحقيقة نتيجة للفعل الإنساني. فمصير الأمة بيدها سواء في مرحلة الانهيار أو في مرحلة النهضة. وقد تغلب عليها الغرب الحديث بتحليله للعوامل البشرية التي تؤدي إلى تخلف الشعوب وتقدمها، والسيطرة عليها وتوجيهها دون انتظار تدخل عوامل خارجية، يصعب السيطرة عليها. وامتلاك الأسباب جزء من ثقافتنا القديمة نسيناه في لحظة فقدان السيطرة عليها باسم الإيمان.

---

(١) «ستتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، أمن قلة نحن يا رسول الله؟ بل أنتم كثير كغثاء النحل بل حب الحياة وكراهية الموت».

فمن الأسباب الاقتصادية عدم سيطرة الأمة على مواردها الطبيعية خاصة النفط في منطقة الخليج، ووضع ودائعه في البنوك الأجنبية، فضاعت الاستثمارات. ولم يعد معظمها يوظف في الداخل بل في الخارج. ولم تعد الأمة مكتفية بذاتها في الغذاء والسلاح. تستورد أكثر مما تصدر. ولديها كل مقومات الاستثمار، الأراضي الزراعية في العراق والسودان ومصر، والمياه في وادي النيل وفي دجلة والفرات، والأسواق الشاسعة. فقد تجاوزت الأمة المليار والربع، خمس سكان العالم. وفي طريقها إلى أن تكون ربعه. والعقول المتميزة تهاجر خارج البلاد، وتساهم في تنمية المجتمعات الغربية. والسواعد الفتية تهاجر علنا وسرا إلى الغرب، وتضحي بحياتها في البحار من أجل الهجرة اللاشرعية. فأصبحت البلاد الإسلامية طاردة لأهلها، علمائها وعمالها. الطيور المهاجرة أو هجرة العقول وهو ما يعرفه أهل الاختصاص. فُرغت الأمة من جهد أبنائها وتعتمد على غيرها. وأصبحت تبني وتساهم في تقدم غيرها. وتقدمت المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، وإيثار العاجل على الآجل، والدنيا على الآخرة.

ومن الأسباب السياسية التبعية وفقدان الاستقلال إما لأسباب داخلية، فقدان الإرادة الوطنية، والهوية السياسية، وضياع الثقة بالذات أو لأسباب خارجية، الاستعمار، والاحتلال[1]. وقسمت الدولة العثمانية بعد فقدانها الحرب العالمية الأولى بين القوى الغربية، وبعد سقوط الخلافة في ١٩٢٤ تم احتلال نصف فلسطين من القوى الصهيونية في ١٩٤٨، والنصف الآخر في ١٩٦٧ مع هضبة الجولان في سوريا وجنوب لبنان. وما يزال المشروع الصهيوني لم يكتمل، من الفرات إلى النيل وحتى الجنوب، الطائف والمدينة وخيبر لاسترداد أملاك اليهود الضائعة. أرض المعاد لشعب الله المختار بناء على عهد أبدي مادي في اتجاه واحد بين الله وإسرائيل[2]. ومازال الاستعمار يأخذ أشكالا جديدة غير الاحتلال العسكري المباشر بالرغم من استمراره في العراق وأفغانستان وفلسطين.

---

(١) «فلتتبعن سنن من كان قبلكم، باعا بباع، وذراعا بذراع، وشبرا بشبر، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قلنا اليهود والنصارى؟ قال فمن» وهو الحديث الذي أخذناه شعارا في «مقدمة في علم الاستغراب» للاستقلال عن الغرب وتحويله بدلا من أن يكون مصدرا للعلم إلى أن يصبح موضوعا للعلم، مقدمة علم الاستغراب ص٥.

(٢) ماسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، المقدمة ص٥٣-٥٦، الرسالة ص١٧١-٢٠٤.

ومن الأسباب السياسية أيضا التسلط والقهر وغياب الشورى والبيعة واختيار الحاكم اختيارا حرا. وهو ما يسمى بلغة العصر غياب الديمقراطية، والاكتفاء بأشكالها ومظاهرها الخارجية من أحزاب يكون للحزب الحاكم فيها، حزب السلطة، أغلب المقاعد، وبرلمان لا يمثل مجموع الشعب، وصحافة تحت سيطرة الدولة، وتعليم وإعلام في يد النظام السياسي. فكل حاكم يريد البقاء في السلطة إلى الأبد، ورئيسا مدى الحياة له ولذريته من بعده إلى أن يتدخل الموت الطبيعي أو الاغتيال أو انقلاب الجيش عليه أو الثورة الشعبية ضده. أصبح الحكم غاية لا وسيلة. وهدفا لا أداة. وأصبح المواطن محاصرا بين المعركة الداخلية ضد التسلط والقهر والمعركة الخارجية ضد الغزو والاحتلال. يحارب في جبهتين، ولا يدري لأيهما الأولوية ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

ومن الأسباب الاجتماعية التخلف والتفكك والصراعات الداخلية التي كانت سببا في ضياع الأندلس غربا، وفقدان استقلال الجمهوريات الإسلامية في أواسط آسيا شرقا، ودولة الخلافة شمالا، والصراع الحدودي بين الدول الإسلامية في إفريقيا جنوبا. ومنها الفساد الأخلاقي والاجتماعي، الرشوة، والاحتيال، والسرقة، ونهب المال العام، والتهرب الضريبي، والوساطة، والمحسوبية والغش في الصناعة والتجارة والزراعة والبناء ومعظم قطاعات الإنتاج العام والخاص. فلا يوجد قانون لحماية المستهلك أو حقوق المواطن.

وأيضا غياب حقوق الإنسان نظرا لغياب مفهوم الإنسان الفرد في الثقافة العربية امتدادا للثقافة الإسلامية القديمة. إذ يمكن اعتقال المواطن شهورا بل سنين بلا محاكمة، وتعذيبه في السجون، وحشده في المركبات العامة، وإسكانه في العشوائيات، وتركه بلا حاجاته الأساسية في الغذاء والعلاج والتعليم والإسكان. وأصبحت ملفات حقوق الإنسان واختراقاها نموذجا للملفات التي تقدم إلى المنظمات الدولية لمعاقبة الدول التي تقوم بذلك، ومحاصرتها، وتوقيع العقوبات عليها[1]. يوجد إنسان واحد

---

(١) ولماذا غاب مبحث الإنسان في تراثنا القديم؟، ودراسات إسلامية، القاهرة الأنجلو المصرية ١٩٨٢ ص٣٩٣-٤١٥.

فقط هو الرئيس، الإنسان الكامل بلغة الصوفية الذي له الحق في كل شيء،وليس عليه أي واجب، وتحته الدهماء. ومنها المجتمع الأبوي «البطرياركي» الذي تقوم العلاقات الاجتماعية فيه على الرئيس والمرءوس، السيد والعبد، الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، الغني والفقير، الأب والابن. يعطي الأول الأمر، ويطيع الثاني. وترجع كلها إلى نمط العلاقة بين الله والعالم. الآمر والمأمور، الخالق والمخلوق في تصور رأسي للعالم بين الأعلى والأدنى، وليس في تصور أفقي بين الأمام والخلف، حيث تكون الأطراف متساوية فيه على نفس المستوى، لا تمييز بينهم إلا في درجة التقدم أي العمل الصالح بتعبير القدماء.

ومن الأسباب الثقافية العيش في عصر حديث بثقافة عصر قديم. ولكل عصر ثقافته. لقد أبدع القدماء ثقافتهم في ظروف عصرهم. ونحن ننقلها ونرددها وكأنها ثقافة كل العصور. وجعلناها تراثا مقدسا وعلوما إلهية مع أنها تراث تاريخي وعلوم إنسانية خالصة. فكل شيء إبداع بشري، ورؤية إنسانية حتى العلوم النقلية الخالصة، علوم القرآن والحديث والتفسير والفقه. مازلنا نتصور العالم رأسيا بين الأعلى والأدنى، فأعطينا الأساس الثقافي للتسلط السياسي والقهر الاجتماعي ولتراكم الثروة في أيدي قلة، وليس تصورا أفقيا بين الأمام والخلف، فغاب مفهوم المساواة والتقدم. لم نستطع حتى الآن على مستوى الثقافة الشعبية أن نحول محورها من الرأسي إلى الأفقي فيصبح الأعلى هو الأمام، والأدنى هو الخلف، والتحول من مفهومي الخلود والأبدية إلى مفهومي الإنسان والتقدم. مازالت القيمة العليا خارج الزمان والمكان والتاريخ في اغتراب شامل عن الأرض والناس والحياة والطبيعة والعصر.

جـ- شروط النهضة

وأول شرط للنهضة هو الإبداع الثقافي، وإعادة قراءة التراث القديم الذي مازال حيا في قلوب الناس طبقا لظروف هذا العصر حتى لا تعيش عقولهم في عصر قديم وأجسادهم في عصر آخر حديث. فينشأ صراع حضاري بين أنصار القديم وأنصار الجديد، والناس ترغب في الاثنين معا. ولا يوجد ما يملأ الفراغ بين الأصوليين والعلمانيين، ويعطي الناس ثقافة ثالثة. حاول الإصلاح ذلك، ولكنه كبا عدة مرات

حتى أصبح سلفية خالصة[1]. وحاولت الليبرالية ذلك حتى أصبحت تغريبا خالصا. والإبداع الثقافي استئناف للاجتهاد الأصولي القديم، والربط بين الأصل والفرع عن طريق العلة المشتركة. فلا اجتهاد بلا أصل وجذور، ولا اجتهاد بلا فرع وعصور. قد يتقدم الإبداع الفني الشعري والروائي والمسرحي والتشكيلي على الإبداع الفكري. ولكن ذلك لا يغني عن الإبداع الفكر كشرط للتقدم الحضاري[2].

والحريات العامة شرط الإبداع الذاتي. فلا إبداع في مجتمع يقوم على القهر والتسلط والمنع والحظر والرقابة. الإبداع نشاط حر قد ينمو في ظروف القهر سرا حتى يقضي عليه. وهو الصدق مع النفس ضد أوضاع الزيف والنفاق، وتفريغ الطاقة وصبها في حركة التاريخ. الحرية ضد جميع صنوف القهر الديني والسياسي والتي يغذي بعضها بعضا. يقوم القهر الديني على السلطان الأصغر، ويستند القهر السياسي إلى السلطان الأكبر. وهي ليست فقط الحرية السياسية أو الاجتماعية بل التحرر من الخوف من العقاب الدنيوي والأخروي، وقهر التقاليد، والخروج على المألوف، والأقلية في مقابل الأغلبية، والنخبة في مقابل الدهماء، والبرهان في مقابل الخطابة، والعقل في مقابل تملق أذواق الجماهير.

والتعددية الفكرية والسياسية نتيجة طبيعية للحرية. فالحقيقة متعددة الجوانب، وجهات نظر تتحمل الرأي والرأي الآخر دون تكفير أو استبعاد، ودون رأي صائب وآراء خاطئة طبقا لحديث الفرقة الناجية. تمنع احتكار الرأي، وفرضه بالقوة على الآراء الأخرى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. وكان الصحابة يختلفون في الرأي، والرسول يستشيرهم. يقول لأبي بكر «يا أبا بكر انزل قليلا». ويقول لعمر «يا عمر اصعد قليلا»، فكان أبو بكر أقرب إلى المثال، وعمر أقرب إلى الواقع. والإسلام يجمع بين الاثنين. كما يستحيل تكفير أحد لأن من قال لأخيه أنت كافر فقد باء بها.

---

(١) كبوة الإصلاح، دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧، ص١٧٧-١٩٠.

(٢) وهو الهدف من مشروع «التراث والتجديد». وهو ما يقوم به حزب العدالة والتنمية في تركيا على مستوى الممارسة السياسية، وفي ماليزيا على مستوى النهضة التنموية، حال المسلمين في العصر الحاضر، سيد الأنام ص٤٤٠-٤٩٠.

وليس لأحد الحق الدخول في قلوب الناس وإصدار الحكم عليها. الحكم بالإيمان والكفر ليس للإنسان على أخيه الإنسان. ولا يصدر في الدنيا بل في الآخرة. وينتج عن التعددية الفكرية الحوار بين وجهات النظر المختلفة. وهو ما يتطلب إعمال العقل كأداة للحوار. التعددية الفكرية تنتهي إلى الحوار وليس إلى الصراع، وإلى استعمال العقل وليس الاعتماد على القوة. الحوار لتبادل وجهات النظر وإثرائها وتعميقها وليس لاستبعادها لصالح رأي واحد. الرأي الواحد مثل الحزب الواحد والرئيس الأوحد مدى الحياة. والوحدانية من صفات الله. والحوار مع الخصوم قد يقضي على الخصومة، ويزيل سوء التفاهم كما حاور عليا خصومه الذين خرجوا على التحكيم بالآلاف، وحقنت الدماء. وكلما توترت العلاقات بين الدول كان الحوار بديلا عن السلاح، والتفاهم المشترك بديلا عن سفك الدماء.

والبداية بالإنسان مركز الكون كما قال إخوان الصفا من قبل وكما أعلنت الحضارة الغربية في بداية العصور الحديثة. فقد اتهمت الحضارة الإسلامية بأنها ممركزة حول الله في مقابل الحضارة الغربية التي مركزها الإنسان[1]. فالإنسان خليفة الله في الأرض ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾. وكرمه الله في البر والبحر ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، وما تصوره الصوفية على أنه «الإنسان الكامل» والمتكلمون والفلاسفة «على أنه الذات والصفات والأسماء والأفعال». فالإنسان المتعين على الأرض أفضل من الإنسان الكامل في السماء. والدفاع عن الأول خير من عبادة الثاني[2]. ولا تكفي جمعيات حقوق الإنسان على النمط الغربي في الدفاع عن المهمشين، المساكين واليتامى وأبناء السبيل والفقراء والمحرومين بل إعادة تثوير، «اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين».

والتقدم هو مسار الأمة، صعودا أو هبوطا. وقد اتهمت الحضارة الإسلامية بأنها لم تعرف مفهوم التقدم المستمر لأن الزمان والمكان فانيان. في حين أن الحضارة الغربية هي

---

(١) التمركز حول الله Theocentrism. التمركز حول الإنسان La Théologie ou Anthropologie renaissance du Monde Theocentrism Arabe، Bruxelles 1973..

(٢) من العقيدة إلى الثورة حـ٢، التوحيد ص٣٣٩-٥٣٧.

التي صاغت فلسفة التاريخ وحاولت وضع قانون للتقدم في العصور الحديثة بعد أن تم بفضل جهد الأفراد ومساهمة الشعوب. ولولا ابن خلدون لصعب الرد على هذه التهمة مع أن التقدم عند ابن خلدون دائري أو حلزوني على أقصى تقدير. تقدم مساره الانهيار في دورة تعود من جديد إلى درجة الصفر أو إلى درجة الواحد ثم الاثنين. فالتقدم داخل الدورات التاريخية وليس خارجها. وقد وضعت الحضارة الغربية الحضارات غير الغربية في بداية تقدم البشرية التي تكتمل في الغرب، انتقالا لروح الحضارة من الشرق إلى الغرب[1].

ويساعد تحليل مصير الرسالة على وضع فلسفة التاريخ في الحضارة الإسلامية ومعرفة مراحلها بالنسبة إلى مراحل الحضارات الأخرى خاصة الحضارة الغربية التي ورثت الحضارة اليونانية. فلا يتوقف التاريخ إلا في حياة المؤرخ. وإذا كان المؤرخ في بداية القرن الخامس عشر فلديه أربعة عشر قرنا مسار تاريخي طويل يمكن قسمته إلى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة النهضة الأولى على مدى سبعة قرون، منذ نشأة الحضارة الإسلامية حتى ابن خلدون الذي حاول وصفها ووضع قانون لها. والثانية فيما بعد ابن خلدون حتى محاولات النهضة الحالية، في العصر المملوكي العثماني الذي دام أيضا أقل من سبعة قرون. والآن تبدأ المرحلة الثالثة من الإصلاح الديني والنهضة الثانية الذي بدأ منذ حوالي قرنين من الزمان، الطهطاوي (١٨٧٣)، والأفغاني (١٨٧٩) على مدى أربعة أو خمسة أجيال. فمراحل حياة الرسول في السيرة من قبل الولادة إلى الولادة إلى البعثة إلى الهجرة إلى الفتح إلى الوفاة هي مراحل صغرى داخل مرحلة صغرى أخرى ظهور الرسالة. تتلوها مراحل أخرى لمصير الرسالة ابتداء من الخلفاء الأربعة حتى الملوك والأمراء والسلاطين والرؤساء الاثنى والخمسين الحاليين الذين يكونون المؤتمر الإسلامي، «ثلث الأصوات في الأمم المتحدة». ولما كانت ثلاثة أرباع المسلمين في الشرق فهم جزء من نهضة الشرق الصين، واليابان، وكوريا، وسنغافورة، وماليزيا، وإندونيسيا، وإيران، وآسيا الوسطى. إنما الخيبة في الوطن العربي الذي حمل الإسلام أول مرة ثم انتشر بغيره في آسيا وإفريقيا. فبالرغم من بناء الدولة الحديثة في مصر وتركيا، وبالرغم من العصر الليبرالي الذي مرت به مصر في العشرينيات والثلاثينيات،

(١) من النقل إلى الإبداع مج٢ الإبداع حـ٣ الحكمة العلمية، الفصل الرابع، التاريخ ص٣٦٥-٦٤٨.

وبالرغم من حركات التحرر من الاستعمار، وبالرغم من محاولة إعادة بناء الدولة الحديثة مرة ثانية بعد الثورات العربية الأخيرة إلا أن كل ذلك انتهى إلى التبعية للخارج والقهر للداخل عكس ما كانت عليه الرسالة الأولى، التحرر للداخل والفتح للخارج. وتحولت مصر رائدة التحرر والتنمية في الوطن العربي إلى تابعة للغرب يسيطر عليها رجال الأعمال وضباط الأمن والشرطة.

كان يمكن للسير الحديثة أن تتوجه إلى عيوب المسلمين الآن، كثرة القول وقلة العمل كما لاحظ العديد من المصلحين[1]. ولكنها بقت أسيرة التاريخ في مرحلته الأولى، عصر الخلفاء، وكأن التاريخ قد توقف. فخرجت السيرة خارج الزمان، وما أتى بعدها خارج التاريخ. كيف تعود السيرة الآن كي تصبح مرحلة من مراحل تاريخ العرب كما كانت أول مرة. فإما أن تعود السيرة إلى التاريخ وإما أن تظل خارجه. ليس كما فعل المؤرخون، ابن كثير وابن خلدون ولكن كما يفعل فلاسفة التاريخ، السيرة كجزء من الوعي التاريخي. وبدأ الإسلام غريبا ويعود غريبا كما بدأ مكملا دورة حضارية[2].

٩- فتن آخر الزمان

لم تستطع السيرة أن تحول بعض أحاديث آخر الزمان أو المستقبل إلى فلسفة في التاريخ خاصة وإن الوعي التاريخي عند المسلمين في حاجة إلى إعادة صياغة[3]. مثال ذلك الحديث الذي يتنبأ والرسول يضرب بمعوله في صخرة أثناء حفر الخندق عن رؤيته قصور الشام، وقصر المدائن، ومفاتيح اليمن[4]. وتكثر الروايات عن رؤية المستقبل

---

(١) الرحيق المختوم ص٣٨٢.

(٢) «إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء»، سيرة النبي ص١٧٨.

(٣) ولماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم؟ دراسات إسلامية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢، ص٤١٦-٤٥٦.

(٤) «وأعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة.... أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن... أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء مكاني»، الرحيق المختوم ص٣٠٥، كتاب الملاحم، المستصفى ص٦٠٠-٦٠٨/٨٤٦-٨٥٨، كتاب الملاحم، سنن المصطفى ص٦٠٠-٦٠٨، الفتن، سنن المصطفى ص٨٥٠-٨٥٨.

باعتبارها تنبؤات بالغيب فيها الصحيح وفيها الضعيف[1]. ويمكن تأويل صدق ما أخبر به عن الغيب كعلامة على نبوته أو بتنبؤ بمسار التاريخ ومستقبل الأمة كما هو الحال في فلسفة التاريخ[2]. مصادرها الروايات والأقوال المباشرة وإخراجها من دائرة المعجزات، فمن معجزاته ما أطلع عليه من الغيوب[3]. وهو ما يمكن أن يؤسس فلسفة التاريخ. بناء على تنبؤات المستقبل، تنبؤات الماضي في الحاضر مثل البشارة بنبوة الرسول أو تنبؤات الرسول بفتن آخر الزمان وتحقق بعضها حينما حان موعدها[4]. وهو ما سماه القدماء الإخبار بالغيب أو التنبؤ. وهو ما يعني بلغة العصر معرفة قوانين التاريخ[5]. وقد بشر الرسول المسلمين بالجنة والنصر والفتح[6]. وتتراوح التنبؤات بين شهادة بعض المسلمين مثل شهداء بدر مثل أبي صفوان وفاطمة وزينب وأم ورقة، والخلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلي، وعمار والحسين أو الأحداث القريبة مثل فتح خيبر، وفتح اليمن، وفتح الشام، وفتح العراق، وفتح مصر، وفتح بيت المقدس، ومحاربة اليهود. وهي أحداث حسنة أو الفتن بعد عمر وعثمان، ومعركة الجمل، وغريب الإسلام، وتولى يزيد العرش، وقيام الحجاج، والنار في الحجاز، والانقلابات، ووقوف كل الأمم

---

(١) «ويحسب هذا الفصل أن يكون ديوانا مفردا يشتمل على أجزاء وحده. وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرنا وأكثرها في الصحيح وعند الأئمة»، الشفا حـ١/ ٤٨٨.

(٢) الأنوار حـ١/ ٨٠-١٠٤.

(٣) الشفا حـ١/ ٤٧٠-٤٨٨، الوفا حـ١/ ٣٠٥-٣٢٠.

(٤) سيرة النبي حـ٣/ ٤٥٤/ ٤٢٢-٤٥٣.

(٥) مثل: الإخبار بالفتوحات العظيمة، القضاء على كسرى وقيصر، بشرى الأمتعة، بشرى الأمن والأمان، مقتل أبي صفوان، قتلى بدر فردا فردا، تحديد فاتح خيبر، وفاة فاطمة، وفاة الرسول، فتح اليمن، فتح الشام، فتح العراق، فتح خوزستان وكرمان ومحاربة الأتراك، فتح مصر، غزو الهند، معارك بحر الروم، فتح بيت المقدس، فتح القسطنطينية، فتح الروم، فتح العجم، الإخبار بالمرتدين، وفاة زينب، تبشير أم ورقة بالشهادة، التبشير بالخلفاء، الخلفاء الاثنى عشر، ردة الخلافة الراشدة، خلافة الشيخين، الفتن بعد عمر، قيام الفتن من المشرق، إخبار عثمان بالفتنة، استشهاد عمر وعثمان وعلي، الإخبار بمعركة الجمل، معركة علي ومعاوية، استشهاد عمار، تصالح الحسين، تخريب الإسلام على يد حكام قريش الجدد، مصيبة تولي يزيد العرش، شهادة الحسين، الإخبار بالخوارج، الإخبار بمختار والحجاج، نار في الحجاز، انقلاب بعد قرن أو عهد، انقلاب بعد أربعة عهود، المبدعون الكذبة، منكرو الحديث، كثرة التجارة ومشاركة النساء فيها، كثرة أهل أوروبا، كثرة الربا، محاربة اليهود، انقطاع الحجاز عن مصر والشام والعراق، محاربة أهل أوروبا في الشام، وقوف كل أمم العالم ضد المسلمين، السابق حـ٣/ ٤٥١-٤٨٣.

(٦) الجنة والنصر والفتح، السابق حـ٧/ ٥٢.

ضد المسلمين. وهي أحداث سيئة. وقد يتطرق التنبؤ إلى الأحداث البعيدة مثل فتح القسطنطينية. وليس المقصود منها وقوعها فعلا وتحديد زمانها ومكانها بل الأمل في المستقبل وحركة التاريخ سلبا أم إيجابا.

كان يمكن لهم المستقبل عند الرسول وأحاديث آخر الزمان أن تتحول إلى فلسفة للتاريخ عند المصلحين، ولكنها ظلت مبعث الأسى والحسرة. والبعض منها يدل على انتشار الإسلام شرقا إلى فارس، وشمالا إلى الشام، وجنوبا إلى اليمن[1]. وهذا هو الذي قد يبرر استمرار السيرة في الخلافة أو الإمامة منذ سقيفة بن ساعدة[2]. وينتشر الإسلام الآن غربا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بحيث أصبح هما عند الأوروبيين أو خوفا منه[3].

ويصعب معرفة هل التنبؤ من الحاضر إلى المستقبل البعيد في آخر الزمان، أم من الحاضر إلى المستقبل القريب مثل «الإمامة في قريش»، وأنها ستتحول إلى ملك عضود. فخير القرون قرنه، ولا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه. يؤخرون فيه الصلاة عن أوقاتها؟[4]. هل التنبؤ على الأمد الطويل أم على الأمد القصير؟. هل سيخرج دجالون وكذابون ثلاثون منهم أربع نسوة أم يظهر أويس القرني أحد التابعين؟. هل التنبؤ عن طريق علامات الساعة مثل «لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان»، أو إذا وقعت حادثة في عصر والدنيا مازالت قائمة؟، كيف يحل التناقض بين الإمامة في قريش وهلاك الأمة على أيدي أغيلمة من قريش؟[5].

(١) «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام. والله أني لأنظر قصورها الحمر الساعة.... الله أكبر أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض... الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني»، مختصر سيرة الرسول (٢) ص٢٨٣.

(٢) السابق ص٤٦٥.

(٣) الخوف من الإسلام أو العداء للإسلام Islamophobia.

(٤) ومثل «ولن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين»، «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم يكون ملكا»، «إن هذا الأمر بدا بنوة ورحمة ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون ملكا عضودا، ثم يكون عتوا وجبروتا وفسادا في الأمة»، «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. ثم يأتي بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون»، «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه»، الشفا حـ١/ ٤٧٩.

(٥) «هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش»، الشفا حـ١/ ٤٨٠.

هناك إخبارات عن الأمم التي سبقته كدليل وبرهان على صدق نبوته ورسالته[1]. وهناك إخبارات أخرى تثبيتا لأصحابه ومشاركة في رؤيتهم[2]. وهناك معجزات ثالثة عن خوارق للعادات تمت للرسول ولم يطلع عليها أحد من أصحابه فآمنوا بها تفويضا كالإسراء والمعراج. لا تروى في صيغة إخبارات باستثناء خمسة، بل في صيغة حوادث. وبها كثير من الغيبيات وفتن آخر الزمان وعلامات الساعة[3]. وتدخل الملائكة، ثم تأتي المعجزات الحسية مثل تكثير الطعام والشراب، وإبراء المرضى ببركة يده الشريفة[4]. ثم تأتي المعجزة الكبرى معجزة القرآن الكريم في بلاغته وإخباره عن الغيوب وكشف الأسرار والروعة والهيبة التي تلحق القلوب عند سماعة، وعدم الملل من ترديده، واحتوائه على علوم ومعارف، وجمعه بين الدليل والمدلول، وتيسير حفظه[5].

وقد أخبر الرسول بالكائنات المستقبلية في حياته وبعدها فوقعت طبقا لما أخبر به. وأخبر بغيوب ماضية ومستقبلة واتفقت إجابته مع ما تشهد به الكتب المقدسة الموروثة عن الأنبياء قبله[6]. واعترف اليهود بأنه رسول الله. وتحاكموا إليه. ورجعوا إلى ما حكم به ولكن بقصد مذموم منهم. مثل الرجم في التوراة[7]. وقد سُئل الرسول عن مسائل أجاب فيها بما يطابق الحق والموافق لما تشهد به الكتب المتقدمة الموروثة عن الأنبياء قبله، وهي أول أشراط الساعة، وأول طعام يأكله أهل الجنة، ومتى ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه. وقد علم سؤال يهودي قبل أن يسأله[8]. بل إنه أيضا يخبر عن الأمور السالفة، عن أخبار الأنبياء السابقين، إبراهيم وإسماعيل ويوسف وصالح ويونان وعيسى وغيرهم.

---

(١) الأسوة الحسنة ص٢٨-٤٦ (حوالي ٣٢ إخبارا).

(٢) السابق ص٤٧-١٢٩ (حوالي ٩٧ إخبارا).

(٣) السابق ص١٣٠-١٧٩ مثل الشيطان في المسجد، والعجروة في الجنة، وحال الشمس يوم القيامة، ونزول عيسى بن مريم، وقلة الرجال وكثرة النساء، وفتح ردم يأجوج ومأجوج، وحسر الفرات عن الذهب، ونزول الدجال، وتحلي الأمة بالذهب، وظهور المهدي، وقبض العلم، وتفرق الأمة.

(٤) السابق ص١٨٠-٢٦ (حوالي ٤٦ معجزة).

(٥) السابق ص٢٢٧-٢٤٠.

(٦) شمائل الرسول ص١٩٨-٢٧٧، مثل مصارع قتلى بدر.

(٧) السابق ص١٨٧-١٩٢، «يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجدون في التوراة نعتي وصفتي ومخرجي؟»، ص١٩٢.

(٨) السابق ص١٨٧-١٩٨.

فالوعي التاريخي ممتد من الماضي إلى المستقبل[1]. والحاضر كاشف لهما معا. فالزمان ممتد، والوعي التاريخي متصل.والمستقبل لا ينفصل عن الماضي بل هو استمرار لتراكم تجاربه التاريخية والاستفادة منها. فالرسول خاتم الأنبياء. ويأتي من بعده خلفاء يبايعهم الناس[2].

وقد أجاب اليهود على مسائل لا يعلمها إلا نبي بعد أن أخبره بها جبريل آنفا[3]. أول أشراط الساعة، وأول ما يأكل منه أهل الجنة، ومتى يشبه الولد أبيه وأمه. ويستطيع رؤية الأشياء من وراء ظهره، وكان يرى في الظلمة[4]. وقد يتطور الإخبار بالغيب في الدنيا إلى الإخبار بالغيب في الآخرة، من في الجنة ومن في النار. وعن مصائر البشر، مؤمنين ومشركين، طائعين وعصاه. فالزمان ممتد خارج الزمان إلى الأبدية[5]. وتنفصل صفة القيامة والنار والجنة، والعرق والنجوى والحساب والرؤيا وشهادة الجوارح، والميزان والصراط وبعث النار، ونسبة الأمة إلى سائر الأمم، والشفاعة، والنار وأصناف عذابها وأهوالها، والجنة وأوصاف نعيمها والرؤية والزيارة[6]. وتتداخل أشراط الساعة بالفتن في آخر الزمان، ظهور الكذابين الدجالين، وقتال الروم، وقتال اليهود، وقتال الترك، ويأجوج ومأجوج، واللات والعزى[7].

أ- الجهل والفقر والمرض

وتختلط فتن آخر الزمان بأشراط الساعة أو علاماتها. فمنها قلة العلم وكثرة الجهل

---

(١) نور اليقين ص٢١٩، شمائل الرسول ص٥٥-٧١.

(٢) «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبي خلفه نبي، وأنه لا نبي بعدي. وسيكون من بعدي خلفاء كثيرون. فوا ببيعة الأول، ثم أعطوهم حقهم. وأسالوا الله الذي لكم، فإن الله يسألهم عما استرعاهم»، بهجة المحافل ص٢٦٦.

(٣) الوفا حـ١/ ٣٣٩-٣٤٣، شمائل الرسول ص١٨٧-١٨٨.

(٤) السابق حـ١/ ٣٤٣-٣٤٤ «أني لأراكم من وراء ظهري». «أما أول أشراك الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه. وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه»، شمائل الرسول ص١٨٧-١٨٨.

(٥) الوفا حـ١/ ٣٠٧ «هذا من أهل النار»، «أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، «أفتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه»، الوفا حـ١/ ٣١١.

(٦) سنن المصطفى ص٨٧٥-٨٩٦.

(٧) السابق ص٨٥٧٤-٨٥٩.

كما هو الحال في الأمية الآن[1]. يقل العلماء ويكثر الخطباء[2]. لذلك كانت محاربة الجهل إحدى الدعوات الرئيسية في الحركات الإصلاحية المعاصرة في ثلاثي شهير «الفقر والجهل والمرض». وهو الثلاثي الذي طالما تحدث عنه الحكماء والشعوب باعتباره آفة الشعوب المتخلفة، ومعظمها من الشعوب الإسلامية. لذلك أخذ الغرب نموذجا للعمل. وأرسلت البعثات التعليمية منذ قرنين من الزمان إلى أوروبا وحتى الآن. وأنشأت الجامعات الخاصة الأمريكية والفرنسية والكندية والألمانية وغيرها في العواصم العربية والإسلامية باللغات الأجنبية. ومن علامات الساعة تحول المعروف منكرا والمنكر معروفا ليس فقط عن طريق الجهل بهما بل معرفتهما ومخالفتهما لصالح السلطان أو المصلحة الشخصية[3].

وتُروى أحاديث تكشف عن التلاعب بالحدود وبالكتاب والرسول مازال حيا[4]. وتروى أحاديث مضادة على فضائل قريش. مثل العلم في فارس[5]. والرافضة يهود هذه الأمة. وضد الإقامة أو الخلافة في قريش يصبح الإمام أي إنسان يطبق ما جاء في الكتاب والسنة، ولو كان عبدا حبشيا[6]. في مقابل أحاديث أخرى تطلب الطاعة للأئمة ماداموا يقولون لا إله إلا الله، ويقيمون الصلاة، ولكن أكلوا المال وضربوا الظهور وهم الخلفاء الأمويون. وتبريرا لقتالهم يروى «من قتل دون أهله فهو شهيد»[7]. ومن يتولى

---

(١) «من أشراط الساعة أن قل العلم ويظهر الجهل»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٦٤.

(٢) «إنكم في زمن علماؤه كثير، وخطباؤه قليل. من ترك فيه عُشير ما يعلم هوى (هلك). وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه، ويكثر خطباؤه. من تمسك فيه بعشير ما يعلم نجا»، السابق ص١٧٥.

(٣) «ولا تقوم الساعة حتى يكون المعروف منكر، والمنكر معروفا»، بهجة المحافل ص٥٨٠.

(٤) «يؤتى بالرجل الذي يُضرب فوق الحد فيقول: لم ضربت فوق ما أمرتك؟» النبي الأعظم ص١٦١، «يلعب بالكتاب وأن بين أظهركم»، ص١٦٣

(٥) «لو كان العلم بالثريا لتناوله ناس من أبناء فارس»، النبي الأعظم ص٧٧٤، «ليس منا من دعا إلى عصبية»، السبق ص٧٧٧.

(٦) «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد جدع، ولو لعبد حبشي، وصلوا وراء كل بر وفاجر»، «أطعمهم وإن أكلوا مالك، وضربوا ظهرك، وأطيعوا ما أقاموا الصلاة»، النبي الأعظم ص١٤٤، «ألا لا فضل لعربي على عجمي»، ص١٦٦.

(٧) السابق ص١٣٩.

إمامة المسلمين يكون أعلمهم. وتولية أقلهم على خيانة[1]. هكذا أصبحت السيرة ميدانا للسجال الطائفي منذ الفتنة الكبرى. وقد لعن الله كل من يخرج من صلب الرسول إلا المؤمنين[2]. ولما عرج بالرسول إلى السماء دعا أن يجعل الخليفة من بعده عليا. فهتفت به الملائكة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فكان أبو بكر. ولولا أبو بكر لذهب الإسلام. وكثير من المرويات تخالف العقل والعدل والطبيعة. كذبتها الصحابة وعلى رأسهم عائشة[3]. ويعترف رواتها بوضعهم مثل أبان. فالزنا أو شرب بول الحمار خير من الرواية عنه. فالدافع عن الموضع الترفق بقلوب العامة. وآفة الدين ثلاثة: فقيه فجر، وإمام جائر، ومجتهد جاهل[4].

وتنبؤ الرسول بالفتن ليس معجزة بل معرفة بقوانين التاريخ ومصائر الشعوب[5]. فسيخرج قوم يقرءون القرآن ولكنهم يخرجون من الإسلام ولا يبلغ تراقيهم. وقد عينتهم روايات أخرى بأنهم الخوارج. ويمكن إيجاد مواصفاتهم في كل عصر. وهو تيار أو اتجاه أكثر منه فرقة أو قوم. وهو الاتجاه الذي لا تطابق أعماله أقواله أو الذي يتشدد في القول والعمل. وهو أيضا اتجاه التفسير الحرفي للقرآن وعدم العلم به[6]. وهو جهل بالتراث ومناهج التأويل الكلامية والفلسفية والصوفية. فالنص ليس لفظا فقط. بل هو لفظ ومعنى وشيء يُحال إليه. اللغة مضمون وليس فقط شكلا. لذلك ظهرت الحركات الأصولية المتشددة التي حولت الإسلام إلى مجرد عبادات وحدود،

---

(١) «من تولى من أمر المسلمين شيئا فاستعمل عليهم رجلا هو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين»، السابق ص١٩١/ ٢٧٠.

(٢) «لعنة الله عليه وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم، ذوو مكر وخديعه يُعطون الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق»، السابق ص٢٤١. «يا عائشة هؤلاء الخلفاء من بعدي»، «يا بلال أذن في الناس أن الخليفة بعدي أبو بكر»، «لولا أبو بكر الصديق لذهب الإسلام»، ص٦٦٧.

(٣) مثل «إن الميت يعذب ببكاء الحي»، النبي الأعظم ص١٥٦/ ٤٥٧-٤٥٨.

(٤) السابق ص٧٧٢.

(٥) «وسيأتي قوم يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم أو لا يعدو تراقيهم. يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. لا يعودون في الإسلام حتى يعود السهم على فوقه، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه»، الجوهرة جـ١/ ١٩٧.

(٦) «فيكم كتاب الله يتعلمه الأسود والأحمر، والأبيض. تعلموه قبل أن يأتي زمان يتعلمه ناس ولا يجاوز تراقيهم، ويقوّمونهم كما يقوم السهم فيتعجلون أجره ولا يتأجّلونه»، محمد رسول الله جـ٢/ ١٧٧.

رسوم وأشكال. وكفرت الاتجاهات التي تجعله قيما ومعاملات. وقد نبه النص نفسه على أبعاده ومستويات فهمه «أنزل القرآن على سبعة أحرف». فالجهل ليس فقط الأمية بل هو الجهل المعرفي أي عدم القدرة على استعمال العقل، والوقوع في آفة الحرف.

وبالإضافة إلى الجهل هناك المرض. إذ تكثر الأمراض، الحمى في المدينة، والطاعون في الشام، وهو أخف[1]. أمراض في الجنوب وفي الشمال تحيط بشبه الجزيرة العربية. وإذا كانت الحمى تبقى في الداخل فإن الطاعون ينتقل إلى الخارج، ويصبح رحمة في الداخل ولعنة في الخارج. وهو ما يعارض مفهوم «الحجر الصحي»، ويجعل الأمة مصدر أمراض للخارج وليس مصدر علوم وحكمة وهداية. والواقع حاليا أن الأمراض تنشأ في الخارج مثل «فقدان المناعة»، «أنفلونزا الخنازير». كما أن الأمراض المستوطنة ليست في الصحراء الكبرى شمالا وجنوبا بل في حوض النيل مثل البلهارسيا.

ومن علامات الجهل النظري والعلمي، المعرفي والأخلاقي انتشار الزنا وكثرة النساء أي ضياع القيم والأخلاق. فالسياحة العربية في مصر ولبنان تقدم الخدمات لهذا الغرض. وأصبحت تجارة الجنس من أهم مصادر الثروة. وتصدر فتاوى «المسيار» و«الزواج العرفي» و«زواج المتعة» في مختلف البلدان تلبية لهذا المطلب. مع أن عدد الرجال والنساء في الوطن العربي والعالم الإسلامي يكاد يتقارب. فلا حاجة لتعدد الزوجات. إنما الذي تضاعف هي الثروة التي دفعت الأغنياء إلى الحصول على أكثر من امرأة، وعن رضا أو عن غصب، باختيار حر أو بالتهديد والقتل. كما انتشرت الأمراض الجنسية من الجنس الحر والشذوذ الجنسي. وعمت الأمراض الأخرى من عدم القدرة على جمع القاذورات والمجاري الطافحة والمياه الملوثة والطعام «المسرطن» والحبوب المستوردة الفاسدة[2].

ثم يكتمل ثالوث الفقر والجهل والمرض بالفقر الناتج عن عدم استثمار الثروات

---

(١) «أتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس على الكافرين»، السابق حـ٢/ ١٦٢-١٦٣.

(٢) «من أشراط الساعة.... ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٦٤.

الطبيعية، الكنوز التي تحت الأرض مثل النفط أو فوق الأرض وهي المياه، مياه دجلة والفرات، ومياه النيل، ومياه الهند والسند، وسيحون و جيحون[1]. وتحت الرمال كنوز أيضا مثل المعادن. وما تحت الأرض ليس ملكية خاصة بل ملكية عامة، الركاز كما سماه الفقهاء لأنه غير متحرك وغير منقول. ويشتد التفاوت الطبقي، قوم يلبسون الحرير ويستحلون المعازف ويشربون الخمر ويتحلون بالذهب، وآخرون فقراء جياع[2]. وهو ما يحدث حاليا داخل كل قطر إسلامي وداخل الأمة كلها. نجوع وقصور. إذ تتفاوت الدخول الفردية داخل القطر الواحد من واحد إلى الألوف، معدمون ومليارديرات. كما تتفاوت الدخول من قطر إسلامي إلى قطر إسلامي آخر، من واحد إلى مئات الألوف. ويترك المعدمون للهيئات الأجنبية ومنظمات الغوث والأمم المتحدة للعون. ويموت الأطفال مع البقر والغنم من الجوع والجفاف. كما تعهد له الله ألا تجوع أمته. وهي الآن من عداد الأمم الفقيرة، الجوع والجهل والمرض من مشاكلها، وأحل كثير مما تشددت فيه الشريعة اليهودية من قبل، ورفع الحرج في الدين[3].

ب- تسلط الولاة

ويكون ولاة الأمور من العصاة. يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف[4]. ولا طاعة لمن عصى الله. فالله ليس عذرا على المعصية. وهو النظام السياسي وعلى رأسه السلطان الذي يخالف الدستور، ويرعى رجال الأعمال، ويحمي فساد الحزب الحاكم، ويحكم بقوانين السلم المدني أو الأحكام العرفية. يتسلط أمراء المسلمين العصاة. ومع ذلك من أنكرهم برئ، ومن كره سلم، ومن رضي بايع. لا يقتلوا ما صلوا. فالخلاف السياسي لا

(١) «ويوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا»، السابق حـ٢/ ١٧١.

(٢) «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم يعني الفقير لحاجة فيقولون ارجع إلينا غدا...»، السابق حـ٢/ ١٧٠، «غير ذلك أخوف لي عليكم حين تُصب عليكم الدنيا صبا. فياليت أمتي لا يتحلون الذهب»، ص٧٥.

(٣) «أعطاني ربي ألا تجوع أمتي ولا تُغلب. وأعطاني النصرة والعزة، والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرا، وأحل لنا كثيرا بما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج»، بهجة المحافل ص٤٤٣.

(٤) «وسيلي أموركم من بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون، وينكرونكم ما تعرفون. فلا طاعة لمن عصى الله ولا تعتلوا بربكم»، السابق حـ٢/ ١٧٧.

يؤدي إلى قتل المخالفين[1]. فمحاربة الطغاة بالنصيحة والقول الرشيد وليس بالخروج عليهم بالسلاح وإراقة الدماء.

والتسلط إحدى علامات الساعة أي نذير بالنهاية. وهو القهر والطغيان واستعمال الحكام العصا أي أجهزة الأمن والشرطة[2]. فأصبحت العصا رمزا للحكم والسيادة «العصا لمن عصا». العصا رمز للقهر والتعذيب والضرب والاعتقال والإرهاب، إرهاب الدولة وليس إرهاب الأفراد. وأصبحت هراوة الشرطي رمزا للسلطة بعد أن كانت رمزا للتنمية مثل عصا موسى التي يضرب بها الحجر فتنفجر منه العيون أو التي يشق بها البحر ليسير فيه كالجسور أو التي تنقلب حية كبرى تلقف الحيات الصغرى أي الهيمنة والسيادة أو للهش بها على الغنم وحراستها من الذئاب. وهو حال معظم الأنظمة العربية حاليا. ومن طول حكمها أدارت الشعوب ظهورها لها. ولم تعد راغبة فيها أو عنها، لا بالتأييد ولا بالمعارضة. أصبحت في حالة من النفور السياسي، والرفض المبدئي للمشاركة إيجابا أم سلبا. وتحول الحكم الإلهي إلى حكم عسكري لا فرق بين السلطة الدينية والسلطة العسكرية. ورسخ في أذهان بعض الناس الربط بين التسلط الديني والتسلط السياسي، بين الدكتاتورية والدين، وتصور الحل هو العلمانية المرادفة للديمقراطية كما حدث في الغرب. وقد تنبأ الرسول بأن عمار ستقتله الفئة الباغية[3]. وهو رمز لطغيان الحكام البغاة واستشهاد المعارضين لهم. وهي آفة المسلمين اليوم مما جعل الغرب يوجه إليهم مشاريع الديمقراطية والشرق الأوسط الجديد، يحتمي وراءها لتقويض النظم الوطنية. وهو يعتدي على الشعوب بنظامه الديمقراطي، لا فرق بين محافظين وعمال أو بين جمهوريين وديمقراطيين في العدوان على العراق وأفغانستان وفي تأييد الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

جـ- الحروب الأهلية

ومن علامات النهاية الاقتتال الداخلي بالرغم من أن دعواهم واحدة كما هو الحال

---

(١) «يكون عليكم أمراء تعرفون وتنكرون. فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم لكن من رضي وبايع قالوا أفلا نقتلهم قال: لا ما صلوا، لا ما صاموا» الأنوار ص٨٢.

(٢) «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٦٨.

(٣) «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»، سيرة النبي ص٥٧، نور اليقين ص٢١٨.

في الاقتتال في الصومال بين أحزاب وتيارات وقوى وجماعات وتيارات وتنظيمات كلها إسلامية. تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية[1]. والجوع والجفاف والقحط حول الجميع. والدول الكبرى كل منها يدعم فريقا من المتقاتلين بالسلاح لمزيد من الدمار أو دفاعا عن مصالحها الخاصة. الكل يريد السلطة، والقتل هو الوسيلة. والكل شهداء، لم يعد القاتل والمقتول في النار بل القاتل في الجنة والمقتول في النار. وتقع الفتن في البيوت أي الحروب الداخلية كما يحدث في السودان والصومال وباكستان وأفغانستان وفلسطين[2]. فلم تعد الحياة مقصدا من مقاصد الشريعة بل الموت. ولم يستطع المسلمون الحفاظ على الدولة الوطنية أحد مكاسب حركات التحرر الوطني، وأحد نتائج سقوط الخلافة. ظلت القبلية والطائفية والمذهبية هي السائدة في الأعماق. تهدد الدولة الوطنية بالانقسام والتجزئة والتفتيت. لم تستطع أن تغرس مفهوم «المواطنة» الذي يتساوى فيه الجميع. ولم تستطع الهوية الوطنية أن تحل محل الهويات الطائفية والعرقية والمذهبية. تفتتت الأوطان بعد أن تجزأت الأمة في عالم تتوحد فيه الدول في معسكرات وأحلاف وأقطاب، وكانت العولمة آخرها بقيادة الاستعمار والصهيونية[3].

وهنا يدخل حديث الفرقة الناجية الشهير. أن مستقبل الأمة التفرق إلى ثلاث وسبعين فرقة، بعد افتراق اليهود إلى إحدى وسبعين، والنصارى إلى اثنتين وسبعين. كلها في النار إلا واحدة. يتم تعيينها أحيانا. هم أهل السنة والجماعة، والكل إلى رسول الله منتسب. وفي صياغة أخرى الأمة كلها ضالة إلا إذا غيرت نفسها وإلا فستحمل الأمانة أمة أخرى بديلة. وكما دخل الناس أفواجا في الدين يخرجون منه[4]. وفي صياغة

---

(١) «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتيان فيكون بينهم مقتلة عظيمة دعواهما واحدة»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٦٨، «لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم وتجتلدوا بأسيافكم، ويرث دنياكم شراركم»، «إنكم ستلقون بعدي فتنة واختلافا... عليكم بالأمين والصحابة»، «إذا مشت أمتي المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم، سلط الله بعضهم على بعض»، «بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم إخوان، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض»، شمائل الرسول ص٢٧٦.

(٢) «فأني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كموقع القطر»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٦٢.

(٣) انظر كتابنا «ما العولمة؟» مع صادق جلال العظم، دار فكر، دمشق، بيروت ٢٠٠٢.

(٤) «وافترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»، «إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة (الأهواء)، وكلها

ثالثة حثالة الناس الذين ينقضون عهدهم وأماناتهم. والخلاص بتقوى الله وأخذ المعروف وترك المنكر، والالتزام بالخاصة دون العامة[1]. ويضاف التحذير من الابتداع وسماع ما لم يسمع من قبل، والحديث بلسان لم يتم التحدث به من قبل[2]. وهو الأساس النظري الذي يعطي الحروب الأهلية شرعيتها. وهو ضد روح التعددية في الشرع في إدراك الصواب ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ويتنبأ بظهور الفرق الكلامية القدرية والرافضة، وسب آخر هذه الأمة أولها، وقله الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام[3]. فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة. وأخبر بشأن الخوارج وأنهم سيلقون بعدهم طغيانا. ويُرى رعاه الغنم رؤوس الناس، والعراة الحفاة يتبارون في البنيان، وأن تلد الأمة ربتها، وقد اتهم رجل الرسول بعدم العدل في القسمة. ومنع الرسول عمر ضرب عنقه لأن له أصحابًا يحقر الإنسان صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرئون القرآن. ولا يجاوز حناجرهم. ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية[4]. وبعض هذه الأحاديث قد وضعت لاستبعاد الخصوم السياسيين تكفيرا بتكفير[5]. وتحددهم بعض الصياغات مكانا من العراق أو تسمية بالخوارج. مثال ذلك حديث الفرقة الناجية[6].

في النار إلا واحدة وهي الجماعة. وأنه سيخرج في أمتي أقدام يجارى بهم تلك الأهواء كما يجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق، ولا يفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بها جاء به نبيكم لغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به»، «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٧٨.

(١) «كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس... إذا مرجت عهودهم وأماناتهم»، «اتق الله عز وجل، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصتهم، وإياك وعوامهم»، السابق ص١٧٩.

(٢) «وسيكون في آخر الزمان ناس من أمتي يحدثونكم ما لم تسمعوا به أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم»، «لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها»، السابق ص١٧٩.

(٣) الشفا حـ١/ ٤٨٠.

(٤) «دعه، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم. يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...»، الوفا حـ١/ ٣١٢.

(٥) «يخرج منه قوم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٧١.

(٦) من العقيدة إلى الثورة حـ٥ ص ٣٩٣-٥٤٧.

ومن مظاهر الفتن الداخلية، الانكباب على الثروة أو التقاتل على السلطة[1]. ويكون ذلك بعد موته وبعد عدة موتات، وكثرة القتل في الأمة زمن الفتنة، ثم غدر الأعداء فيتكاثرون على المسلمين[2]. وللفتن الداخلية شهداء مثل عمار بن ياسر[3]. وتقع الفتن بين البيوت موقع المطر[4]. ومنها قتل عثمان واستشهاد حنظله[5]، وقيد أبو ذر وسياقه كعبد أسود[6]. وفي عصر الفتنة تتخذ سيوف من خشب أي عدم الاشتراك فيها وكب الزيت على النار[7].

د- تقليد الآخرين

وبعض التنبؤات تبدو واقعة الآن ولم تقم الساعة مثل تقليد اليهود والنصارى أو فارس والروم أي الشرق والغرب[8]. تفقد الهوية وتضيع في الآخر. ويضيع الوعي الذاتي لصالح الاغتراب في الآخر. ويظهر هذا الاغتراب في الكم الهائل من الألفاظ الأجنبية المعربة التي يتم تداولها الآن، وثقافة المولات، والنزعات الاستهلاكية، وحركات الهجرة

---

(١) «... ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه. وليلقن الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبين ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول بلى. ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم»، الأنوار حـ١/ ٨٣.

(٢) «أعدد ستا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقصاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفا»، السابق حـ١/ ٩٩.

(٣) الأنوار حـ١/ ٨٩، الوفا حـ١/ ٣٠٨.

(٤) «إني لأرى الفتن يقع خلال بيوتكم كموقع المطر»، السابق ١٠٠، يُقتل عثمان وهو يقرأ المصحف، الشفا حـ١/ ٤٧٦.

(٥) «سلوا زوجته، فإني رأيت الملائكة تغسله»، الشفا حـ١/ ٤٧٧.

(٦) «عقرا بل تقاد معهم حيث قادوك وتساق معهم حيث ساقوك ولو عبد أسود»، الوفا حـ١/ ٣٠٨.

(٧) «إذا كانت الفتنة فاتخذ سيفا من خشب»، الجوهرة حـ١/ ١٧٢.

(٨) «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، فقيل يا رسول الله كفارس والروم، فقال: ومن الناس إلا أولئك»، «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضب تبعتموهم. قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: نحن»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٧٤، مختصر سيرة (١) ص١٢، وقد ذكر هذا الحديث في مقدمة «مقدمة علم الاستغراب»، كدعوة للاستقلال ضد التبعية.

الشرعية وغير الشرعية من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ومن التبعية السياسية للغرب، ومن القواعد العسكرية الغربية في الوطن العربي، ووجود عائدات النفط في البنوك الأجنبية. فالحل عند الآخر كنموذج للتحديث. وكل الاختيارات السياسية. الليبرالية والاشتراكية والقومية من الغرب، وكل اللغات الأجنبية التي يتعلمها الطلبة في المدارس من الغرب وليس من الشرق. التقليد فقدان الهوية أو مغالاة فيها، فقدانها إذا كان التقليد للآخر، وإثباتها إذا كان التقليد للقدماء. وكلاهما إنكار للاجتهاد أي القدرة على الإبداع.

ويكون التعبير بالصورة الفنية عن حصار المسلمين بنار من المشرق والمغرب، بنظامين سياسيين اشتراكي ورأسمالي، وهم لا يدرون ماذا يفعلون[1]. وقد تأتي النار من الجنوب، تزحف من الجنوب إلى الشمال تضيء قصور الروم. وستفتح مشارق الأرض ومغاربها، ولكن عما لها في النار إلا من اتقى وأدى الأمانة فليست القضية في الفتح بل في الحكم[2]. ومن ثم تكون حركة العالم الثالث أو عدم الانحياز أو التضامن الإفريقي الآسيوي أو القارات الثلاث وعد حق لإعطاء شعوبها استقلالها بين الشرق والغرب، وتضامنها فيما بينها، ليس باسم الوسطية بل باسم إعادة التوازن لمركز الثقل في العالم. إذ تمثل هذه الكتلة الجديدة أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم.

مازالت الأمة تشعر بأن دورها في النقل وليس في الإبداع. فهي التلميذ الأبدي، وغيرها المعلم الأبدي. دورها في الترجمة. لذلك تعددت مراكزها في عديد من العواصم العربية لمؤلفات خارج الزمان والمكان من أجل الحصول على ديكور ثقافي من مقومات الدولة الحديثة مع ناطحات السحاب في وسط المدينة وشركات الاستثمار والسياحة والنفط. لقد ترجم القدماء لمدة قرن، القرن الثاني الهجري ثم تحولوا إلى مبدعين ابتداء من القرن الثالث. فالترجمة وسيلة وليست غاية، والتلميذ لا يظل تلميذا إلى الأبد، وقد

---

(١) «أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»، «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٧١.

(٢) «أنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»، السابق ص١٧٨.

كان الأوروبيون تلاميذ المسلمين في بدايات عصر النهضة قبل أن يصبحوا معلمين. ونحن مازالت مناهجنا التعليمية قائمة على الحفظ والنقل والتكرار فليس في الإمكان أبدع مما كان. وما ترك السلف للخلف شيئا. بل إن الخلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات في تصور منهار للتاريخ، علامة من علامات الساعة. ومن ألقاب علمائنا «الحافظ» وليس المبدع.

هـ- الفوضى العارمة

ومن فتن آخر الزمان الفوضى العارمة. يشعر الناس أن الزمان قد انتهى. يقل العمل، ويزداد البخل، ويكثر الهرج، وهو القتل[1]. تغيب الرؤية، وينتهي التخطيط، وينشغل الناس بلقمة العيش، يوما بيوم، من اليد إلى الفم. وتنتهي الآمال الكبار. ويصبح سد الرمق أكبر ما يأمل فيه الإنسان.

تنبأ الرسول بمستقبل العرب، واقتراب الشر منهم، وتكاثر الخبث فيهم[2]. وقد يكون التنبؤ للأمة كلها مثل العرب الذي اقترب الشر منها[3]. وقد يكون تصوير الكارثة بفتح سد يأجوج ومأجوج الذي يغرق الجميع بمن فيهم الصالحون[4]. فالأغلبية تسود الأقلية. والتيار الجارف يدفع أمامه من يقف في مواجهته. لا تقوى الأمانة على الفساد، ولا الشرف على الخسة، ولا الصدق على النفاق، ولا الكرامة على الوضاعة. ومن علامات النهاية تمني الموت بدلا من الحياة، وكثرة حوادث الانتحار، وغياب الأمل[5]. فالوجود عدم، والحياة موت، والحركة سكون، والبقاء فناء، وتنتهي القبائل ولا يبقى منها أحد[6]. ينتهي البشر، ولا يعود هناك إمكانية لدعوة أو رسالة أو عمل أو تحقق.

---

(١) «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج... القتل، القتل» السابق جـ٢/ ١٧٠. «وليرتد أقوام بعد إيمانهم»، شمائل الرسول ص٢٢٥.

(٢) «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب»، الجوهرة جـ٢/ ٧٤، الشفا جـ١/ ٤٧٤، شمائل الرسول ص٢٢٦.

(٣) «ويل للعرب من شر قد اقترب»، بهجة المحافل ص٤٨٠.

(٤) «فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج... قيل: أنهلك وفينا الصالحون، قال إذا كثر الخبث»، محمد رسول الله جـ٢/ ١٧١.

(٥) «ولا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»، السابق جـ٢/ ١٧.

(٦) «ولا تقوم الساعة حتى يخسف بقبائل حتى يقال: من بقي من بني فلان»، السابق جـ٢/ ١٧٤.

يعود العالم مصمتا إلى ما قبل خلق الإنسان فيه لإعطائه معنى، وجعله ميدانا للفعل. فالإنسان في العالم. لا إنسان بلا عالم، ولا عالم بلا إنسان. ويظهر ثلاثون كذابا دجالا حتى نهاية الساعة، كلهم يزعم أنه نبي[1].

لا تقوم الساعة حتى يظهر دجالون كذابون، قريبا من ثلاثين كل منهم يزعم أنه رسول الله. ولا يخلص الناس منهم إلا عيسى ابن مريم، فالخلاص له الكلمة الأخيرة على الفتنة. كما أن البعث له الكلمة الأخيرة على الموت[2]. وأحيانا يكون دجال واحد ينزل ناحية المدينة فترجف، ويخرج إليه كل كافر ومنافق[3]. وهو أعور والله ليس بأعور إمعانا في الكراهية كما هو الحال في الأفلام وكما يبدو موسى ديان[4]. وقد يفصل العور بجلد من الأنف على العين، يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى كالمسيح، ويدعي الألوهية. يؤمن به البعض دون البعض. ثم يأتي عيسى ابن مريم من المغرب مصدقا ويقتل الدجال والمسيح ليس بقاتل بل عفو[5]. وهو حامل للتناقض، ماؤه نار، وناره ماء[6]. يأتي الدجال القرية فيجد على كل باب منها ملكا ولكن أهلها لا يريدون القتال[7]. والمسيح الدجال من أحد علامات نهاية الزمان[8].

---

(١) «إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا دجالا، كلهم يزعم أنه نبي»، شمائل الرسول ص٢٥٦-٢٥٨.

(٢) «وليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكم عدل فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقبض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»، محمد رسول الله ص١٦٨.

(٣) «يجيء الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق»، السابق ص١٧٢-١٧٣.

(٤) «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه: إنه أعور والله ليس بأعور»، السابق ص١٧٣.

(٥) «إن الدجال خارج وهو أعور عين الشمال عليها ظَفَرة غليظة، وأنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، ويقول للناس: أنا ربكم فمن قل: أنت ربي فقد فتن، ومن قال: ربي الله حتى يموت فقد عُصم من فتنة، ولا فتنة بعده عليه ولا عذاب. فيلبث في الأرض ما شاء الله. ثم يجيء عيسى ابن مريم من قبل المغرب مصدقا بمحمد وعلى ملته فيقتل الدجال»، السابق ص١٧٣-١٧٤، «لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين، كلهم يزعمون أنهم رسول الله»، بهجة المحافل ص٣٢٥.

(٦) «إن معه ماء ونار، فناره ماء بارد، وماؤه نار»، السابق ص١٧٣.

(٧) «ويل إنها من قرية يتركها أهلها كأعمر ما تكون. يأتيها الدجال فيجد على كل باب من أبوابها ملكا مصلتا فلا يدخلها»، السابق ص١٧٣.

(٨) «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين»، الجوهرة حـ١/ ٣٩٦، «وأنه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور، وأنه أعور العين اليمنى بأن عينه عنبة طافية»، سيرة النبي ص٣٨١.

وقد تجمع عدة عوامل تحدث انهيار الأمة في التاريخ: كثرة المال، وقبض العلم. وظهور الفتن، وكثرة الهرج، واقتراب الزمان أي نهاية دورة في التاريخ، وبداية الانهيار، والاقتتال بين فئتين عظيمتين مع أن دعواهم واحدة، وهو مثل الاقتتال بين المسلمين اليوم في السودان والصومال والمغرب، وظهور دجالين كل منهم يدعي أنه الرسول، واختلاف الأمة حول الأيديولوجيات والمذاهب السياسية: بسنة وشيعة، وليبرالية، وقومية، واشتراكية، ورأسمالية[1]. وقد تجمع معظم هذه العلامات في حديث واحد حتى يشتد تأثيرها. وواضح أن مثل هذه الأحاديث مركبة يمكن تفكيكها في أحاديث أصغر. لكل وحدتها اللغوية والتصورية: اقتتال فئتين دعوتهما واحدة، دجالون كثيرون، قبض العلم، ظهور الفتن والهرج، فيض المال ولا يأخذه أحد، تطاول الناس في البنيان، تمني الموت، طلوع الشمس من المغرب، نهاية البيع والاستخدام للأشياء، أي عدم نفع الوفرة، رفع الطعام والشراب أي المجاعة، سبعة منها بأداة «حتى» وأربعة منها بلام التأكيد[2].

وكثير من هذه الأحاديث قد وضعت للتخويف والإحساس بالهلع وبضرورة المنقذ أو المخلص. ولا يستطيع ذلك إلا السلطان والنظام القائم أو الجماعة السرية أو التنظيم السياسي العلني. وهو ما يعطي الحركات السرية في الإسلام أو التنظيمات الجهادية

---

(١) «ولا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض وحتى يهم رب المال من يتقبل منه صدقته.... ويقبض العلم، ويقترب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج... القتل، القتل. لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، ويكون بينهم مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة. لا تقوم الساعة حتى ينبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»، الأنوار جـ١/ ١٠٢.

(٢) «أ- ولا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعتهما واحدة. ب- وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله. جـ- وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتل. د- وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا رب لي به. هـ- وحتى يتطاول الناس في البنيان. و- وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه. ز- وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعين فذلك حين لا ينفع نفس إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانه خيرا. ح- والتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ط- والتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ولقحته فلا يطعمه. ى- والتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه. ك- والتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»، محمد رسول الله جـ٢/ ١٧٢.

مشروعيتها. وقد يكون التحذير على العموم «ويل للعرب من شر قد اقترب»[1]. يخصص العرب، ويعمم الشر. فيأخذ المسلمون حذرهم. ويستدعون لعدم الوقوع في الفتن الداخلية أو في براثن الغزو الخارجي. وضعه المخلصون من فقهاء الأمة والحريصون على مستقبلها. وهي تحذيرات في كل دين في الحركات النهضوية المستقبلية التي تقوم على «لاهوت الأمل» وهو أحد جوانب «لاهوت التحرير».

«وجاء الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ». جاء في بيئة معادية من الكفار والمشركين واليهود والنصارى[2]. واستطاع الانتشار حتى أصبح الدين الوطني الموحد لشبه الجزيرة العربية. وعاد الآن في ظرف معاد بين جهل أبنائه وتبعية حكامه. فقد أصبح مجرد شعائر وطقوس ورسوم ومظاهر خارجية عند الأبناء، وأداة لإضفاء الشرعية على النظام السياسي عند الحكام. وجاء في بيئة معادية في الخارج، الغرب والولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل نظرا لأنه حمل لواء حركات التحرر الوطني الأخيرة. ومازال هو الحافظ على هوية المسلمين وبقائهم في التاريخ. وهو ما يدفع الحركات الإسلامية النشطة للثورة ضد النظم السياسية في الداخل. والجهاد ضد القوى الاستعمارية في الخارج.

ويتنبأ الرسول بما سيقع للمسلمين من كوارث بعده ويطالبهم بالصبر[3]. فالنصر قادم. وما ضاع شيئا فشيئا لا يعود إلا شيئا فشيئا. ولا يعني الصبر مجرد الانتظار. فالتاريخ لا يحرك نفسه بنفسه. بل يتحرك بفعل الشعوب. يعني الصبر ووضع خطط على الأمد الطويل وليس على الأمد القصير كي يعود من جديد. والوعي السياسي مشروط بالوعي التاريخي. ويخشى على الأمة من الفتن فيتنافس فيه فتهلك[4]. ومن مظاهر السقوط قوم يهدون بغير هدى الرسول، من جلدة الأمة ويتكلمون بلسانها.

---

(١) السابق حـ٢/ ١٧١، الدين والثقاة والسياسة ص ١٣١-١٦٢.

(٢) «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ»، مختصر سيرة (١) ص١٢.

(٣) «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني»، المعجزات اللامعة ص٩٧.

(٤) «أبشروا وأملوا ما يسركم. فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها كما تنافسوها. فتهلكهم كما أهلكتهم»، شمائل الرسول ص٢٠٨-٢٠٩

والحل هو لزوم الجماعة وإمامها أو اعتزال الكل حتى يدركه الموت[١]. وكيف تتفق رواية أن الشر من النساء مع أنهن قد حببن إلى الرسول من دنياه؟[٢]. وقد كانت النساء فتنة بني إسرائيل. وتنبأ الرسول بمصير أحد الصحابي بتأويل حلم له[٣]. كما تنبأ باستشهاد بعض الصحابة[٤]. وقال لسعد لعله يُخلف فينتفع به أقوام ويضر به آخرون[٥]. وقال لشهيد أن عضوا يسبقه إلى الجنة[٦]. وتنبأ بمصير عبد الله بن الزبير. ويل له من الناس، وويل للناس منه[٧]. وأخبر جماعة أن آخرهم موتا في النار[٨].

و- الخلاص

ومن الأحاديث ما يدعو إلى التفاؤل والأمل وسط هذا الجو الكارثي المظلم. فلن يعدم هذا الدين من يدافع عنه، ويقاتل في سبيله حتى تقوم الساعة[٩]. فالوحي نظرية في الأمل، خطوة وراء خطوة، نبي تلو نبي، من الشرك إلى التوحيد، ومن التوحيد إلى الشرك، ومن الشرك إلى التوحيد في طبقات متتالية، تربطها الباقيات الصالحات، الأقلية المؤمنة التي يستمر فيها التوحيد في تقدم مستمر. فليس التفاؤل في القمة مستمرا، ولا

---

(١) «قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر... دعاة على أبواب جهنم. من أجابهم قذفوه فيه... هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا... تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.. فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»، السابق ص٢٠٨.

(٢) «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»، «ما تركت بعدي فتنة هي أخطر على الرجال من النساء»، السابق ص٢٠٨.

(٣) «أما الروضة فروضة الإسلام. وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى. أنت على الإسلام حتى تموت»، السابق ص٢٤٤. «يا رافع إن شئت نزعت السهم والقطبة. جميعا وإن شئت نزعت السهم وتركت القطبة وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد»، السابق ص٢٤٧.

(٤) «سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء»، «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»، السابق ص٢٤٥.

(٥) «ولعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون»، بهجة المحافل ص٤٨٠.

(٦) «يسبق عضو منه إلى الجنة»، السابق ص٤٨٠ .

(٧) «ويل لك من الناس، وويل للناس منك»، السابق ص٤٧٩ .

(٨) « آخركم موتا في النار»، السابق ص٤٧٩، شمائل الرسول ص٢٠٣/ ٢٤٦.

(٩) «ولن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»، محمد رسول الله حـ٢ ١٧٤-١٧٥، «من نجا من ثلاث فقد نجا و...موتي، ومن قتل خليفة مصطبرا بالحق يعطيه، والدجال»، شمائل الرسول ص٢١٢/ ٢٢٢.

التشاؤم في القاعدة مستمرا، بل هي حلقات متصلة بين القمة والقاعدة. المهم ألا يتفاءل الإنسان في لحظة الانهيار، ولا يتشاءم في لحظة النهضة. ولا يزال الدين قائما طالما ظلت الخلافة في قريش، فالإمامة في قريش. وهو ما يعارض أحاديث أخرى بالسمع والطاعة ولو كان الأمير عبدا حبشيا[1]. ويتم ذلك بتنظيم الصفوف كالصلاة، وتوحيد الجهود، واعتبار الأرض ميدانا واحدا طاهرا لاستقبال دماء الشهداء. فقد فضلت الأمة بثلاث، صف الصفوف أي النظام وهو ما يعارض فوضى الواقع الآن، وطهارة الأرض وهو حاصل الآن بفرش الأرض والشوارع الرئيسية والجانبية الحصر لأداء صلاة الجمعة والعيدين لعدم كفاية المساجد، وطهارة التربة وهو لا يختلف كثيرا عن طهارة الأرض. لذلك شرع التيمم[2].

وتشير بعض الأحاديث إلى عقائد الفرق مثل المهدي خاصة عند الشيعة[3]. فالمهدي هو الذي يشير إلى طريق الخلاص. لا يهم من أين يظهر، من إفريقيا أو من آسيا أم من العرب من جديد. فالمهدي ليس مكانا بل هو زمان، انفراج الوقت، ونهاية الأزمة، وتحرك التاريخ. ولا يستطيع المهدي أن يعمل وحده دون أمة، ولا القائد دون شعب، ولا الفرد دون الجماعة. ومن علامات المستقبل ارتباط الخير بنواصي الخيل. فالأمة محاربة قائمة مجاهدة مناضلة، أقرب إلى القتال منها إلى السلم[4]. وأعداء الأمة هم اليهود والنصارى، الصهيونية والاستعمار، والإسلام ليس الاستسلام بل هو هدنة مؤقتة مثل صلح الحديبية وبيعة الرضوان. وخروج القائم كمثل الساعة لا يأتي إلا بغتة[5]. وبمعنى عصري تندلع الثورة دون توقع.

---

(١) «ولا يزال هذا الدين قائما ما كان اثنا عشر خليفة كلهم من قريش، ثم يخرج كذابون بين يدي الساعة»، السابق ص٢١٠.

(٢) «فُضلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرض كلها مسجدا، وجُعلت تربتها لنا طهورا»، بهجة المحافل ص١٩٦.

(٣) «إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فائتوها فإن فيها خليفة الله المهدي»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٧٦، «المهدي وأنه من ولد فاطمة»، سيرة المصطفى ص١٤٥-١٦٠

(٤) «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، «الخيل معقود وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، «الأجر والمغنم»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٦٦.

(٥) النبي الأعظم ص٧٦٩.

وقد يوصف أعداء الأمة بأوصاف دون تسميتهم بلباسهم مثل لبس نعال الشعر أو بأجسادهم «عراض الوجوه»، بلون وجوههم «حمر الوجوه»، أو بصفر الأعين أو بشكل الأنوف[1]. والخطورة تطبيق هذه الأوصاف على أمم غير المقصودة مثل الترك وقد حملوا لواء الخلافة، حوالي خمسة قرون أو المغول وقد أتوا مهاجمين ورجعوا مسلمين. وقد تتوحد الصورتان في قوم واحد[2]. لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، وهم غير الأتراك بل حمر الوجوه، صفار العيون، صغار الأنوف، تستر وجوهم التروس[3]. وأحيانا يسمى هؤلاء القوم أهل خوز وكرمان. وهم قوم من الأعاجم، لهم نفس صفات الترك السابقة[4]. إنما الأعداء هم اليهود. فقتال اليهود في المستقبل حتى يتعرف عليهم الحجر الذي يختبئ اليهودي وراءه وينادي بقتله[5]. وهل يحتاج المسلم إلى معونة خارجية بحديث الحجر دون الاعتماد على نفسه واستخباراته؟ لا تقوم الساعة حتى يُقاتل اليهود. ولا ينفع اليهودي الاختباء وراء الحجر لأنه يتكلم ويدل عليه[6]. ومن ثم تكون الخيارات السلمية لتحرير فلسطين وهم. ولا بديل عن المقاومة. والسلام خيار استراتيجي ضعف وعجز. فالبديل هو أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. واليهود ليسوا جماعة واحدة. فهم يمين عنصري وعدواني. وفيهم يسار أكثر إنسانية

---

(١) «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما ينتعلون نعال الشعر، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوما عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة»، «ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار العيون، حمر الوجوه، ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة»، السابق حـ٢/ ١٦٧.

(٢) «إن أمتي يسوقها قوم عراض الأوجه صغار الأعين كأن وجوههم الجحف حتى يلحقوهم بجزيرة العرب. أما السابقة الأولى فينجو من هرب منهم. وأما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض. وأما الثالثة فيصطلون كلهم من بقى منهم.. هم الترك.. ليربطن خيولهم إلى سواري مساجد المسلمين» السابق ص١٧٧.

(٣) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، حمر الوجه، صغار العيون، ذلف الأنوف، كأن وجوهم المجان المطرقة»، الأنوار حـ١ ١١٠١، الشفا حـ١٣١١.

(٤) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوز وكرمان، قوما من الأعاجم حمر الوجوه فطس الأنوف، صغار الأعين كأن وجوهم المجان المطرقة»، الأنوار ص١٠٢-١٠٣.

(٥) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله»، «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله»، محمد رسول الله حـ٢/ ١٦٦-١٧٦.

(٦) «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبئ اليهودي وراء الحجر فيقول الحجر: يا عبد الله يا مسلم تعال ورائي يهودي فاقتله»، الأنوار حـ١/ ١٠١-١٠٢.

وانفتاحا على الآخرين[1].

وقد يكون الخلاص على يد ابن مريم حكما عدلا. يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويقبض المال[2]. فيأخذ الدين الجديد علامات الخلاص من الدين القديم وبمصطلحاته مثل الجزية. يقتل الدجال، وهم النصارى المحبون للحق والعدل الذين يدينون العدوان الإسرائيلي على غزة، واحتلال فلسطين، والرأسمالية العالمية[3]. ومن طرق الخلاص تجديد الدين على رأس كل مائة سنة. ويظل قائما بفئة وجماعة[4].

ز- الفتوحات

وقد طويت للرسول الأرض مشارقها ومغاربها[5]. وسيبلغ ملك أمته ما طوي له منها. لا تُغزى قريش بل هي التي تغزو[6]. فالتفاؤل ليس مجرد تمن بل هو واقع بالفعل. تحقق منه الكثير منذ مكة والمدينة حتى العالم الإسلامي من طنجة شرقا إلى بكين غربا، ومن كيب تاون جنوبا إلى أوسلو شمالا. ولا تعني الفتوحات بالضرورة الغزو بل قد يكون سلما مثل انتشار الإسلام في أوروبا بعد أن أصبح الدين الثاني هناك.

---

(١) وقد وضح ذلك في الفرق بين إيباك Aipac، جي ستريت J Street لدى يهود الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢) «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا. فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية فلا يقبل من أهلها الإسلام، ويقبض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»، «يخرج الدجال فينزل عيسى فيقتله ثم يمكث عيسى أربعين سنة إماما عادلا وحكما مقسطا»، سيرة النبي ص١٦٥-١٦٦.

(٣) وذلك مثل جولد ستون القاضي اليهودي الذي كتب التقرير الشهير عن العدوان الإسرائيلي على غزة متهما إسرائيل بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، وكذلك مثل الصحافة الأوروبية الحرة التي تدين جرائم إسرائيل في فلسطين وبيع أعضاء أجساد الشهداء الفلسطينيين.

(٤) «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك... وهم بالشام»، «يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين»، شمائل الرسول ص٢٧٦.

(٥) الشفا حـ١/ ٤٧٤ «إن الله عز وجل زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها. وإني أعطيت الكنز بين الأحمر والأبيض»، الوفا. حـ١/ ٣٠٧، بهجة المحافل ص١٤٣، سيرة النبي ص١٦٣.

(٦) الوفا حـ١/ ٤٨١ «لن تغزونا قريش بعدها أبدا، بل نغزوهم ولا يغزوننا»، سيرة النبي ص٣١٣.

وتتم الفتوحات على يد صحابة الرسول أو صحابة صحابته أو صحابة صحابة صحابته[1]. وتوالى الخلفاء مثل توالي الأنبياء[2]. وإخباره بالغيوب كثيرة وفي اتجاهات متعددة، الانتصارات والفتوح المستقبلة[3].

وترتبط مدن المسلمين بعضها بالبعض الآخر، عمران بيت المقدس، خراب يثرب أي أن تحرير القدس مشروط بما يحدث في الحجاز. وتبدأ الملحمة وخراب يثرب، بفتح القسطنطينية إلى عودتها إلى الإسلام. وبفتح لقسطنطينية يخرج الدجال[4]. فالعواصم الإسلامية عواصم حضرية تدل على تاريخ وحضارة كما تدل على شعوب وآمال. وإذا كانت يثرب موطن اليهود قديما فإن تحرير القدس مشروط بالقضاء على قوة اليهود خارجها، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، يثرب الجديدة. وفي الشام تفتح بيت المقدس[5]. وأخبر الرسول بالمرتين اللتين يتم فيهما فتح القدس[6]. فالقدس تفتح أكثر

---

(١) «وليأتين على الناس زمان يغزو فيه فئام من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من صحب رسول الله، فيقال نعم فيفتح لهم...»، شمائل الرسول ص٢١٣-٢١٤/ ٢٨٥.

(٢) «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء. كلما هلك نبي خلف نبي، وأنه لا نبي بعدي، وأنه سيكون خلفا كثيرين... فوا ببيعة الأول فالأول. وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم»، السابق ص٢١٤.

(٣) «زُويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها. وسيبلغ ملك أمتي بما زُوي لي منها»، بهجة المحافل ص٤٧٨، شمائل الرسول ص١٩٩. «إن من كان قبلكم كان أحدهم يشق باثنين ما يصرفه عن دينه والله ليتمنى هذا الأمر ولكنكم تستعجلون»، السابق ص٢٠٢، «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض فيها نخل فذب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب. ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفا فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد. ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان. فإذا هو ما جاء به من الفتح واجتماع المؤمنين. ورأيت فيها بقرا، والله خير. فإذا هم المؤمنون يوم أحد. وإذ الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا بعد يوم بدر»، السابق ص٢٠٢، «تفتح اليمن فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح الشام فيأتي يوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، «منعت الشام مديها ودينارها، ومنعت العراق درهما وقفيزها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم»، ص٢٠٩. «سيصير الأمر إلى أن تكون جنود مجندة. جند الشام، وجند باليمن، وجند بالعراق»، ص٢١١.

(٤) «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»، محمد رسول الله جـ٢/ ١٧٥.

(٥) «أعدد ستا بين يدي الساعة، موتي، ثم فتح بيت المقدس»، شمائل الرسول ص٢٢٠.

(٦) الشفا جـ١/ ٤٨١ «عليك بالشام فإنه خيرة الله من أرضه يجتبي إليه خيرته من عباده فإن أبيتم فعليكم بيمنكم وأسقوا من غدره فإن الله تكفل لي بالشام وأهله»، السابق ص٢٦١، «والذي نفسي بيده لتفتحن

من مرة. الأولى في عصر الخلفاء الراشدين، تحريرا لها من الاستعمار الروماني، والثانية في عصر صلاح الدين تحريرا لها من الاستعمار الصليبي. والثالثة قادمة في عصر المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي. والشمال والجنوب محور واحد، الشام واليمن. وتفتح فارس وبلاد الروم شرقا وغربا محور واحد.

والتنبؤ بفتح فارس والاستيلاء على إيوان كسرى وتحرير أراضي الحيرة في شبه الجزيرة العربية المتاخمة لفارس تعويضا للفاقة والحرمان وبفضل النبوة[1]. وليس فقط بالدعاء عليه. وفي لحظة انهيار يوشك أن يكثر العجم، ويستولون على ثروات العرب، ويضربون الرقاب[2]. وهو ما يتوهمه العرب الآن. والحقيقة أن العجم ظهير العرب وسندهم الأول في مواجهة اليهود والنصارى، إسرائيل وأمريكا. فتمتلئ خزائن العرب بحيث تفيض ولا تجد أحدا يستثمرها[3].

ولا يعني الفتح فقط تحرير الأرض بل أيضا تحرير الشعوب من الانقسامات الطائفية والمذهبية، بين سنة وشيعة، وبقايا الشعوبية بين عرب وعجم لتوحيد الأمة وتوجيهها ضد عدوها الأول، الاستعمار والصهيونية.

وكان يستجاب دعاؤه. وكلها روايات أكثر منها أقوالا مباشرة. فقد دعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه فلم تبق له باقية ولا بقيت لفارس رياسة في أقطار الدنيا. ودعا على رجل لم يستطع أن يأكل بيمنه فلم يستطع رفعها بعد ذلك[4]. وقد رمى

عليكم فارس والروم حتى يكثر الطعام فلا يذكر عليه اسم الله»، ص٢١٤، «إنكم ستقدمون الشام...»، ص٢٢١.

(١) «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟.... فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة (المرأة في هودجها) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدا إلا الله... ولئن طالت به حياة ليفتحن كنوزها كسرى، كسرى بن هرمز...»، الأنوار حـ١/ ٨٢-٨٣. «فرق الله ملكه»، المعجزات اللامعة ص١٥٥.

(٢) «ويوشك أن يكثر فيكم العجم، يأكلون فيئكم، ويضربون رقابكم، ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان»، الشفا حـ١/ ٤٧٩.

(٣) «وإن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى»، «وإن طالت بك حياة لترين الرحل يخرج ملء كفه ذهبا وفضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه»، الوفا حـ١/ ٣١٠.

(٤) «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده»، الشفا حـ١/ ٤٥٥-٤٦١، الوفا حـ١/ ٣٤٥-٣٤٩، شمائل الرسول ص١٩٩.

في وجوه المشركين بكف من تراب فملأ أعينهم[1]. كان يدعو فيربط المطر ويستسقي السماء[2]. وتفتح خراسان بعد فارس[3]. فقد بني ذو القرنين فيها مدينة مرو ودعا لها بالبركة.

ويستولى المسلمون أيضا على أرض قيصر وينتهي عصر القياصرة غربا. كما ينتهي عصر الكياسرة شرقا. وتنفق كنوزها في سبيل الله[4]. وقد استمرت الإمبراطورية الرومانية القديمة في الاستعمار الأوروبي الحديث. والصراع دائم حول البحر الأبيض المتوسط، بين الشمال والجنوب أو بين الشرق والغرب. والعولمة شكل جديد من أشكال الهيمنة الغربية. ويمتد الفتح إلى الجنوب إلى صنعاء، وامتلاك مفاتيح اليمن[5]. واليمن رمز لملتقى البحار والمحيطات، المدخل الجنوبي الإفريقي لشبه الجزيرة العربية. وقد دخل الإسلام إفريقيا سلما وليس حربا عن طريق الطرق الصوفية وليس عن طريق كتائب المجاهدين.

وبالإضافة إلى التنبؤ بفتح فارس في الشرق، والشام في الشمال يتم التنبؤ أيضا بفتح مصر في الغرب. يُحسن إلى أهلها فإن لهم مع العرب ذمة ورحما وصبرا. ولا يجوز التدخل في الخصومات بينهم حرصا على وحدة مصر[6]. والصورة الشعبية لمصر أنها الشقيقة

---

(١) «هم لا ينصرون. فانهزم القوم. وما رمينا بسهم ولا طعنا برمح»، «ما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينه ترابا»، الوفا حـ١/ ٣٠٤، «وليفتحن عصابة من المسلمين، كنز القيصر الأبيض، قصر كسرى»، شمائل الرسول ص٢١٠.

(٢) «اللهم جّللنا سحابا كثيفا مغدوقا تضحك فيه الأرجاء تمطرنا منه رذاذا..»، «اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته»، «اللهم أكسر عنهم البرد»، «اللهم اشف عمي». الوفا حـ١/ ٣٤٧-٣٤٩، «ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله»، شمائل الرسول ص١٩٨-١٩٩/ ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) «ستبعث بعوث فكن في بعث خراسان، ثم اسكن مدينة مرو فإنه بناها ذو القرنين، ودعا لها بالبركة وقال: لا يصيب أهلها سوء»، السابق ص٢١٤.

(٤) «ويهلك كسرى ثم لا كسرى بعده. وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده. ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله»، الأنور حـ١/ ٤، الوفا حـ١/ ٣٠٦.

(٥) «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني ولأنظر إيوان صنعاء من مكاني هذا»، الوفا حـ١/ ٣٢١.

(٦) «إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يُسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما أو صهرا. فإذا رأيتم رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها»، الأنوار حـ١/ ٩٥. «ستفتح لكم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم رحما وصهرا»، المعجزات اللامعة ص٩٩. «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»، «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق قاهرين لعدوهم حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك....بيت المقدس»، الشفا جـ١/ ٤٧٥.

الكبرى للعرب، وكعبة الإسلام لمسلمي آسيا وإفريقيا، بجامعاتها ومعاهدها وعلمها، ومنبع نهضة العرب والمسلمين الحديثة، وموطن الإصلاح الديني. لا يمكن استبعادها أو تهميشها أو إخراجها عن دورها التاريخي. وتفتح مصر ويوصي بأهلها خيرا لأن لهم ذمة ورحما دون الدخول في خصوماتهم[1]. وتفتح الحيرة[2]. ويقاتل المسلمون الترك وهم التتار والمغول الآتون من الشرق وليس الأتراك غزاة الإسلام وناصروه[3].

وليس الفتح فقط على الأرض بل أيضا في البحر ضد التخوف من أن العرب بدو لا يركبون إلا الإبل دون السفن[4]. فوعد بسكنى البصرة وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرة[5]. وتفتح أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط، مضيق جبل طارق في قوله الشهير، بعد عبور المضيق الذي يفصل إفريقيا عن أوروبا «البحر وراء والعدو أمامكم فسيروا على بركة الله»، وفتح أمريكا عبر المحيط الأطلسي قادم تغذوهم ولا يغزونا[6]. وهو فتح حضاري، والوعي الأوروبي في أزمة تجعله في حاجة إلى نموذج جديد يجده في الإسلام. وهذا ما يفسر سرعة انتشار الإسلام في الغرب بالرغم من صورة الإسلام السلبية في ذهنه منذ الحروب الصليبية حتى الاستعمار الحديث، وبالرغم من واقع المسلمين السلبي منذ سقوط الأندلس حتى احتلال فلسطين والعراق والاقتتال في السودان والصومال وأفغانستان وباكستان. وقد عبر الجيش المصري قناة السويس في أقل من ست ساعات في حرب أكتوبر لتحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلي. وفتح المسلمون قبرص أيام معاوية.

---

(١) «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما. فإذا رأيت رجلين يختصمان في موضع لبنة فاخرج منها»، «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما»، شمائل الرسول ص٢١٠.

(٢) «مثلت لي الحيرة كأنياب الكلاب، وأنكم ستفتحونها»، السابق ص٢١١.

(٣) «ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف (القصر والصغر) الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة، وتجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه»، السابق ص٢٤٣-٢٤٤.

(٤) «ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة»، الأنوار حـ١/ ٨٥. «يظهر الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل في سبيل الله»، الوفا حـ١/ ٣١٥، «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»، شمائل الرسول ص٢٤١-٢٤٢.

(٥) السابق حـ١/ ٤٨١.

(٦) «نغزوهم ولا يغزونا»، الوفا حـ١/ ٣١٤.

ويمتد الغزو إلى السند والهند أي الزحف شرقا[1]. وتصبح شبه جزيرة العرب مولد قوة عالمية جديدة تزحف شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وتزث الإمبراطوريات القديمة، وتبشر بولادة عالم جديد[2].

(١) «يكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، السابق ص٢٤٢ .

(٢) «يظهر المسلمون على جزيرة العرب، ويظهر المسلمون على فارس، ويظهر المسلمون على الروم، ويظهر المسلمون على الأعور الدجال»، الجوهرة حـ٢/ ٣٥٥.

الباب الخامس

تشخيص الرسالة

الفصل الأول

انحراف الرسالة

يعني «انحراف الرسالة» من الرسالة إلى الرسول تحول علم السيرة من محور الرسالة نشأتها وتطورها واكتمالها، بدايتها وانتشارها ونهايتها إلى محور الرسول، خصائصه وسماته وشمائله، من القضية إلى الشخص. تتضاءل الرسالة ويتضخم الشخص. تنكمش الرسالة ويتمدد الشخص حتى الوصول إلى اللحظة الراهنة التي يتم فيها تعظيم الشخص وتقديسه بل وتأليهه في الحقيقة المحمدية و«النور المحمدي» عند الصوفية. ويصبح واسطة بين العبد والرب في الدعوات والابتهالات «أغثنا يا رسول الله»، «أعنا يا رسول الله»، «حبيبي يا رسول الله»[1].

وقد بدأ التحول من الرسالة إلى الرسول منذ القرن الخامس الهجري، بدايات الغزو الصليبي، وتوقف الرسالة عن التقدم في التاريخ وكرد فعل عليه، بدلا من بيان مسار الوحي في التاريخ سواء قبل مولد الرسول في ديانات إبراهيم أو بعد مولده حتى وفاته في مراحل الوحي في آخر مرحلة أو حتى بعد وفاته في حياة الخلفاء الراشدين أو تحول الخلافة إلى ملك عضود.

وفي كتب الشمائل هناك القليل عن وجوده في التاريخ. بعثه الله على رأس أربعين سنة، في مكة ثلاثة عشر عاما، وبالمدينة عشرة. وتوفى على رأس ثلاث وستين سنة، استغرق بناء الأفراد وقتا أكثر من بناء الدول. فالأخلاق أساس السياسة. وهو ما يبرر التحول من التاريخ إلى الأخلاق، ومن بناء الدول إلى بناء الأفراد.

---

(١) انظر مقالنا: محمد، الشخص أم المبدأ، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١، جـ١، اليمين واليسار في الفكر الديني، مدبولي، القاهرة ١٩٨٨ ص١٦٣-١٦٧.

وقد تمت عدة شروح على أمهات كتب السيرة والشمائل مع أنها واضحة مفهومة، تاريخية نصية، لا تحتاج إلى شروح كما تحتاجه نصوص الفلسفية والكلامية. قد يعني الشرح هنا مزيدا من المعلومات حول شخص الرسول ومزيدا من التعظيم والتبجيل والتقديس الذي قد يصل إلى حد التأليه كما هو الحال في الأدعية المتأخرة خاصة عند الصوفية. وقد تكون الشروح تعليقات على هوامش النص من القارئ وليس تذيلا لها كما هو الحال في «الأنوار»[1]. وقد ترد بعد الشروح اللغوية لا أكثر دون التطرق إلى المضمون[2].

١ - الشمائل:

أ- «شمائل النبي» للترمذي (٢٧٩هـ)[3]

وقد كان التأليف في موضوع الشمائل مبكرا منذ القرن الثالث بعد السيرة بما يقرب من قرن. فهي فرع من السيرة تركز حول الرسول. وواضح دخول الصوفية في الموضوع مثل الترمذي. ولا توجد مقدمة نظرية أو خاتمة كتبرير الموضوع أو منهجه. ويضم ستة وخمسين بابا دون تصنيف للصفات إلى خِلقية أو الجسدية مثل الشعر والشيب أو عادات المشي والعطر والنوم أو العبادات كالوضوء أو الكلام كالضحك أو اللباس كالخف والعمامة أو الأخلاقية كالحياء والتواضع أو وفاته كالميراث ورؤيته في النوم أو أسمائه[4].

---

(١) الأنوار جـ١/ ٧٣-٧٦.

(٢) الشفا جـ١/ ٢٨٢-٢٨٣/ ٣١٢/ ٣٣٤.

(٣) الترمذي (الإمام الحاكم أبو عيسى محمد بن سعيد): شمائل النبي، حققه وخرج أحاديثه الشيخ ماهر ياسين فحل، أشرف عليه وراجعه د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس جـ١/ ٢/ ٢٠٠٨م.

(٤) أ- الصفات الخلقية: الخَلق، الخاتم.

ب- الجسدية: الشعر، الشيب، الخضاب، الكحل.

جـ- العادات: الترجل، العيش، المشية، الجلسة، التكأة، الأكل، الخبز، الادام، الشرب، التعطر، النوم، الحجامة، العيش.

د- الأشياء: اللباس، الخاتم، السيف، الدرع، العمامة، المغفر، الإزار، القناع، القدح، الفاكهة، الشراب، الفراش.

هـ- العبادات: الوضوء، صلاة الضحى، صلاة التطوع، الصوم، القراءة، البكاء.

و- الكلام: الضحك، المزاح، الشعر، السحر، القول قبل الطعام وبعده.

ز- الأخلاق: التواضع، الحياء.

وفي كثير منها هي وصف الآخرين له. فالرسول غالبا لا يتحدث عن ذاته كجسد إلا في قوته على الجماع.

والاعتماد الأكبر على الحديث ثم القرآن ثم الشعر[1]. وهي مجرد روايات. لذلك يبدأ الباب بعبارة «باب ما جاء في...» ويعتبر «العمدة» أو «النموذج» أو «الأصل» في كتب الشمائل مثل «الرسالة» للشافعي في علم أصول الفقه. و«الباعث الحثيث» لابن كثير في علم الحديث، و«الإتقان» للسيوطي في علوم القرآن وسيرة ابن هشام في علوم السيرة.

ب- «الأنوار في شمائل النبي المختار» للبغوي (٥١٦هـ)[2]

تتحول خصائص الرسالة إلى شمائل الرسول. ويصبح موضوع الرسالة ذات النبي[3]. فالسيرة شخص الرسول وأقاربه[4]. وهي موضوع لعلم أعم هو الرسول وليس الرسول موضوعا لعلم السيرة.

وتتفرع السيرة في عدة علوم حول شخص الرسول مثل: دلائل النبوة، خصائص الرسول، المعجزات، السيرة، المغازي، السير، الحقوق، الشمائل[5]. والقرآن هو المعجزة، أي التحدي الأدبي والبلاغي والشعري والتشريعي، المعنى الجديد للمعجزة وهو الإعجاز وليست أفعال الرسول الخارقة للعادة والمناقضة لقوانين الطبيعة، المعنى القديم للمعجزة. وأصبحت المغازي والسير علوما مستقلة وليس انتشار الرسالة. «الأنوار» للبغوي نص يعادل سيرة ابن هشام في الرسالة نص-أم أو نص-أولي أو نموذجي أو محوري تنبني عليه النصوص الأخرى في «الشمائل» وتدور حوله[6].

ح- الأسماء.

ط- الوفاة، السن، الميراث، الرقية.

(١) الحديث(٤١٥)،القرآن(٤)،الشعر(٢).

(٢) محيى السنة الحسين بن مسعود البغوي: الأنوار في شمائل النبي المختار(جزءان). حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه العلامة الشيخ إبراهيم اليعقوبي، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع جـ١ ٣/ دمشق ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(٣) السابق ص٢٤.

(٤) السابق ص٢٩-٣٠.

(٥) السابق ص٢٣-٣٧.

(٦) فقلت: «إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر»، السابق جـ١/ ٢٥٩.

ويظهر التحول من خصائص الرسالة إلى خصائص الرسول في الألقاب التي أعطيت للرسول مثل «المختار»، «المصطفى» دليلا على تفرده واختياره. فالاختيار لم يعد لشعب، مثل بني إسرائيل، بل لشخص وهو الرسول[1]. والعناوين إيقاع ثلاثي «شمائل النبي المختار»، «تعريف حقوق المصطفى». بعد لفظ واحد مثل «الأنوار»، «الشفا» التي يغلب عليها إما الإشراق مثل «الأنوار» أو العلاج مثل «الشفا» أو التبعية والقدوة والانتماء مثل «الوفا». وكما يُعظم الرسول يُعظم المؤلف. فالبغوي مؤلف الشمائل هو «محيي السنة». واليعقوبي الذي حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه هو «العلامة الشيخ»[2].

وفي كتب «الشمائل» الأولى ترصد كل صفة في باب حتى لو وصلت إلى مائة دون تصنيفها في أبواب أقل مثل الصفات البدنية والنفسية والأخلاقية[3]. وفي الصفات المعنوية معظم السنن قولية. وفي الصفات البدنية معظم السنن عادية، عادات شخصية للرسول.

ويمكن فهم شمائل الرسول بطريقتين. الأولى، الجانب المعجز فيها حديث مع الله والملائكة وجبريل كما هو الحال في السيرة وتضخيمها. والثاني الجانب الإنساني فيه في جسده وعاداته وأحواله النفسية والاجتماعية. وفيها تدخل الأدعية. فكان يعوذ بالله من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال[4].

ومع ذلك تبرز موضوعات في الشمائل خاصة بالرسول لها دلالة على الرسالة مثل

---

(١) السابق جـ١/ ٤-٧.

(٢) السابق جـ١/ ٣(المقدمة).

(٣) يضم «الأنوار» مائة واثنين بابا. أكبرها علامات نبوته ومعجزاته (٣٥ص) ثم تواضعه (٢٩)، علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به عن الغيب (٢٤)، مرضه ووصيته ووفاته وسنه (٢٣)، دعواته (٢٢)، صفة حجه (٢٠)، وصفه معراجه (٢٠).

(٤) «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال»، السابق ص٣٠٥.

الأخلاق كدليل على النبوة[1]. وتبدأ بالوحي والمعراج قبل رصد الشمائل[2]. تتوارى أحكام الشمائل. فإذا كانت الشمائل جزءا من السيرة في علوم السيرة فإن السيرة تصبح جزءا من الشمائل في علوم الخصائص والأنساب والشمائل.

جـ- «شمائل الرسول ودلائل نبوته» لابن كثير (٧٧٤هـ)[3]

وهي سيرة تجمع بين موضوعين: الشمائل والمعجزات. فالمعجزات هي الرابط بين السيرة والشمائل لأنها موجودة في القسمين. لذلك انقسم الكتاب إلى بابين،الأول عن الشمائل، والثاني عن المعجزات باعتبارها دلائل للنبوة. وكلها خبر أو أخبار أو قصة أو قول أو ذكر أو حديث[4].

وتنقسم الشمائل إلى أربعة أبواب: الأول، الحسن الباهر، اللون والوجه والشعر والمنكبان والساعدان والإبطان والقدمان والكعبان والقوام وختم النبوة بين الكتفين. والثاني وصفات متفرقة، والثالث الأخلاق مثل الكرم والتواضع والمزاح، والزهد ويشمل العبادة والشجاعة. والرابع، صفاته في الكتب المقدسة السابقة[5]. وصفات الجسد لا شأن لها بالنبوة لأن النبوة تتعلق بالروح. وبالكتاب مقدمة صغيرة تبين سبب تأليفه ومنهجه[6].

---

(١) الأنوار جـ١/ ٢٥-٢٦(المقدمة).

(٢) الآيات والكرامات، الوحي، دعاؤه المشركين والصبر على أذاهم، علامات النبوة، المعراج، كراماته يوم القيامة، علامات نبوته في ظهور صدق ما أخبر به عن الغيب، علامات نبوته ومعجزاته، السابق ص٧-١٣٨.

(٣) ابن كثير(أبو الفدا الحافظ الدمشقي): شمائل الرسول ودلائل نبوته، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٨م-١٤٢٨هـ.

(٤) شمائل الرسول: خبر(١٩)،قول(٩)،قصة،ذكر(٦)،حديث(١).

(٥) السابق ص٩-٧٥.

(٦) «فقد صنف الناس في هذا، قديما وحديثا، كتبا كثيرة مفردة وغير مفردة. ومن أحسن ما جمع في ذلك فأجاد وأفاد الأمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، رحمه الله. أفرد في هذا المعنى كتابه المشهور «الشمائل». ولنا به سماع متصل إليه. ونحن نورد عيون ما أورده فيه، ونزيد عليه أشياء مهمة لا يستغنى عنها المحدث والفقيه. ولنذكر أولا بيان حسنه الباهر عليه الصلاة والسلام، وجماله الجميل. ثم تشرع بعد ذلك في إيراد المجمل والتفاصيل»، السابق ص٩.

وتصنف المعجزات طبقا لمستوياتها: الجماد، والنبات، والحيوان، والإنسان. فالجماد يدل على المعجزات الحسية، الآيات السماوية والأرضية، وتسبيح الحصى[1]. والنبات تشمل انقياد الشجر، وحنين الجذع[2]. والحيوان كثيرة[3]. والإنسان يضم تكثير الطعام والشراب وإبراء المرضى، وإحياء الموتى[4]. أما التنبؤ بالمستقبل فالإخبار بالغيوب سواء الفتنة ومقتل الخلفاء أو الفتوحات[5]. وتقارن معجزات الرسول بمعجزات الأنبياء السابقين[6].

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر، والقرآن أكثر[7]. ويكثر القرآن في المعجزات. والأحاديث من الآخرين في وصفه وليس من الرسول خاصة الجسدية واصفا نفسه. وتصدر أحيانا أحكاما على الأحاديث لتقييم درجة صحتها. كما يكشف عن انتساب الرواة للمذاهب مثل التشيع[8]. فالسيرة أقرب إلى الحديث منها إلى التاريخ.

د- «وسائل الوصول إلى شمائل الرسول» للنبهاني (١٣٥٠هـ)[9]

وهي سيرة في محورها الثاني «الرسول» دون ذكر للمحور الأول «الرسالة» على الإطلاق. نموذجها «شمائل» الترمذي كما أن ابن اسحق نموذج سير المحور الأول، الرسالة[10]. سيرة واضحة ومركزة وخالية من الاستطراد والأسانيد الطوال. يشرح

---

(١) معجزات الرسول، السابق ص٨٥-١٣٥/١٤٦-١٤٨.

(٢) السابق ص١٣٦-١٤٥.

(٣) السابق ص١٤٩-١٧٠.

(٤) السابق ص١١٣-١٣٥/ ١٧١-١٨٩/ ٣١٦-٣٢٢.

(٥) السابق ص١٩٨-٢٧٧.

(٦) السابق ص٢٧٩-٣١٥.

(٧) القرآن(٢٢٦)،الحديث(١١٠)،الشعر(٣٥).

(٨) شمائل الرسول ص٩٢.

(٩) النبهاني (الشيخ العالم العلامة المحدث يوسف بن إسماعيل): وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، دار المنهاج، بيروت جـ٣/ ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

(١٠) «فجمعت هذا الكتاب من آثاره في شمائله الشريفة. وأدخلت فيه جميع الشمائل التي رواها الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي بعد حذف مكررها وأسانيدها. ولم أتقيد بترتيبه وتبويبه. بل سلكت أسلوبا غير أسلوبه. وأضفت إليها من كتب الأئمة الآتي ذكرهم أكثر منها بكثير. وألحقت بغريب الألفاظ ما تدعو إليه الحاجة من ضبط أو تفسير»، السابق ص٢٩.

الألفاظ الغامضة في كل خاصية وكأن السيرة قاموس لغوي. والتوجيه من القرآن والحديث في التركيز على الرسول «إنما أوتيت لأتمم مكارم الأخلاق». ويعتمد على مصادر ثلاث عشرة سابقة[1].

ينقسم إلى ثمانية أبواب مع مقدمة عن معنى لفظ الشمائل، والفوائد من جمعها. والخاتمة تضم خمسين حديثا من أقوال الرسول المباشرة لأدعيته والتي أصبحت كأقوال مأثورة[2]. كل الأدعية من القرآن أو من الحديث، سبعون دعاء، مجرد تسجيل دون أي دراسة أو تحليل أو تصنيف[3]. الباب الأول في نسبه، والثاني في خلقه، والثالث في لباسه، والرابع في أكله، والخامس في خلقه، والسادس في عبادته. والسابع في أذكاره. والثامن في طبه[4]. والمؤلف على علم ببنية الكتاب. ويعبر عنه في المقدمة، وكل ذلك لا يدخل لا في الرسالة ولا في الرسول، لا في النبوة ولا في النبي، بل مناسبة لألفاظ التعظيم والتفخيم مثل نسبه وأسمائه الشريفة وخِلقه وما يتضمنه من جمال صورته وبصره واكتحاله وشعره وشيبه وعرقه ورائحته وطيبه وصوته وغضبه وسروره وضحكه وبكائه وعطسه وكلامه وقوته. وهو خليط من الأوصاف الجسدية والعادات الاجتماعية. ولباسه وفراشه، وقميصه وإزاره وردائه وقلنسوته وعمامته، وفراشه وخاتمه ونعله، وسلاحه ودوابه ومتاعه خارج عن موضوع الرسالة بل ما يحتاجه كل إنسان من أدوات. وطعامه وشربه، عيشه وخبزه، أكله وأدامه، قوله قبل الطعام وبعده، فاكهته، وشرابه وقدحه ونومه كلها عادات شخصية لا شأن لها بالرسالة. وطبق عادات العصر، وسنة وفاته يحسمها التاريخ، ورؤيته في المنام في علم تفسير الرؤيا. أما ما قد يتعلق بالنبوة فهي أخلاقه، حلمه وعشرته مع نسائه وغيرهن من الأصحاب، وأمانته وصدقه، وحياؤه

---

(١) السابق ص٣٠-٣١.

(٢) وسائل الوصول، المقدمة ص٣٧-٤٤، الخاتمة ص٣٧٣-٣٩٦.

(٣) الأدعية القرآنية، السابق ص٣٧٣-٣٧٧، الحديث ص٣٧٧-٣٩٥.

(٤) أ- النسب والأسماء ص ٤٥-٥٦. ب- خلقه وأوصافه ص٥٩-١٠٤، جـ- لباسه وفراشه وسلاحه ص١٠٧-١٤٠ د- أكله وشربه ونومه، ص١٤١-١٩٢ هـ- خلقه وحلمه وعشرته مع نسائه وأمانته وصدقه وحياته ومزاحه وتواضعه وجلوسه وكرمه وشجاعته ص١٩٣-٢٥٢، و- عبادته وصلاته وصومه وقراءته ص٢٥٣-٢٧٤ ز- أحواله وأذكاره وأدعيته في أوقات مخصوصة وجوامع كلمه ص٢٧٥-٣٢٦ ح- طبه وسنته ووفاته ورؤيته في المنام ص٣٢٧-٣٧٢.

ومزاحه، وتواضعه وجلوسه، وكرمه وشجاعته. وعبادته وصومه وقراءته جزء من الشريعة له ولأمته وليست خاصة به. وأدعيته لتلبية الحاجات وقضائها طبقا لقدرات الداعي على تحقيق ما يريد بالفعل أو الاكتفاء بالتعبير عنها وطلب المساعدة الخارجية. وجوامع الكلم مأثورات شعبية تحولت بفعل الزمن إلى أمثال عامية. وتكثر الأدعية حتى يتحقق التوحيد في الحياة العملية ضد الشرك وتعدد الآلهة، وضد اليهود باعتبارهم السلطة المعارضة[1]. وهو قاموس جيد في الأخلاق العملية الخالية من الغيبيات.

ويعتمد على الحديث والقرآن والشعر[2]. تخلو الآيات من بيان أسباب النزول. وتخلو الأحاديث من نقد الروايات. والشعر قليل وكأن النص مكتف بذاته. وتدخل الملائكة، خاصة جبريل في الأحاديث لتقويتها[3]. كما تستعمل الكتب المقدسة السابقة للتنبؤ بأسمائه وأوصافه[4].

هـ- «جواهر البحار» للنبهاني (١٣٥٠هـ)[5]

وتتحول الخصائص والشمائل والمعجزات في حالة ضعف تدوينها إلى مجرد نقل عن السابقين واقتباسات منهم طبقا للأعلام. ويستعمل لفظ «الفضائل» بدلا من الشمائل و «النبي» بدلا من الرسول. ومن صفات التعظيم أنه المختار. وكل الأنبياء والرسل مختارون. تضم ثمانية وسبعين علما، بين صوفية وفقهاء ومتكلمين ومؤرخين، ولكن معظمهم صوفية مما يدل على سيطرة التصوف بسبب الحقيقة المحمدية على المحور الثاني للسيرة، الرسول في الشمائل. هي مجرد تجميع لأقوال العلماء في عظمة الرسول مرتبين ترتيبا زمانيا مع ذكر مصادر الجمع وتواريخ وفاة العلماء وألقابهم. لذلك قدم القاضي عياض علي ابن عربي[6]. تختفي السيرة كلية لحساب الرسول والتركيز على شخصه. ليس

---

(١) السابق ص٢٩٥.

(٢) الحديث(٧٨٠)،القرآن(٤٥)،الشعر(١١).

(٣) وسائل الوصول ص١٥٠/ ٣٢٩/ ٣٥٠/ ٣٥٨.

(٤) السابق ص٥٢-٥٣/ ٢١١.

(٥) النبهاني (الشيخ يوسف بن إسماعيل: غفر الله له ولوالديه): جواهر البحار في فضائل النبي المختار. نسخة منقحة مصححة، توزيع مكتبة الرشاد، بيروت(١٤١٧هـ- ١٩٩٧)(أربعة أجزاء).

(٦) «وقد ابتدأت بما نقله الإمام المحدث المحقق أبو الفضل عياض...، لكونه وحيد هذا الفن وكتابه نسيج

له هدف إلا المدح والتعظيم والتفخيم. وليس له منهج إلا التجميع والنقل والاقتباس، هو نموذج البوصيري نثرا وشعرا، جمعا ونقلا، وليس تأليفا وإبداعا، وهو ما يفعله الأستاذ الجامعي هذه الأيام في الكتب الجامعية المقررة أو حتى في الكتب العلمية المقدمة للترقية لنيل الدرجات العلمية. ليس له فكر أو موقف أو توجيه أو قراءة أو اتجاه، مثل طبيعة التأليف في هذا العصر المتأخر مثل السيوطي (٩١١هـ). اللاحق ينقل عن السابق خلطا بين المعلومات والعلم، نقل المعارف وإبداعها. لم تختف ألقاب التعظيم والتفخيم مثل سيد الخليقة[1]. الميزة هو جمع هذا المديح كله في كتاب واحد بدلا من تركه متفرقا.

والمؤلف على وعي بمنهجه النقلي عبّر عنه في المقدمة[2]. يعترف بأنه جمع مادته من أهل الحقيقة والشريعة أي من الصوفية والفقهاء. لم يضمها كثيرا من المعجزات بل أرجعها إلى مصادرها في القرآن والحديث والمشاهدات «العرفانية» أي التجارب الروحية مع حذف ما لا يدخل في موضوع السيرة نظرا لأنها أصبحت مسببا لكثير من العلوم النقلية كالقرآن والحديث والتفسير والفقه بل والعلوم النقلية العقلية كالكلام والأصول والعلوم الإنسانية كالتاريخ[3]. وتظل الشريعة مقياسا للحقيقة. لم يراجع

وحده.. وله فضل على كل من جاء من بعده. ثم رتبتهم غالبا بحسب الزمان. ولم أنظر إلى تفاوتهم في الشهرة بالعلم والعرفان، ولا إلى كثرة أو قلة ما نقلته عنهم من الفوائد الحسان، ولو نظرت إلى ذلك لقدمت الشيخ الأكبر والغوث الدباغ الأشهر على كثير من هؤلاء الأئمة والأعيان...»، السابق ص٧.

(١) السابق ص٥.

(٢) السابق ص٥-٧.

(٣) «فهذا مجموع بديع في فضائل النبي الشفيع وعلو قدره الرفيع، جمعت فيه كثيرا مما ورد في الكتاب والسنة وكلام أئمة الأمة من أهل الشريعة والحقيقة في أوصاف سيد الخليقة. ولم أكثر فيه من معجزاته مع كثرتها إلى غاية لا تُرام. وقد نقلت ما فيه من الفرائد المهمة والفوائد الجمة عن أكابر العارفين وأئمة الدين.. فكان أعظم هدية في هذا الزمان لأهل الإيمان، جمعت جواهره الحسان من بحار العلم والعرفان مما أخذوه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمشاهدات العرفانية. فكلّ ما قالوه في ذلك صحيح لاستنادهم فيه إلى القرآن أو الحديث أو الكشف الصريح. ولذلك كانوا بعد النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين، أعرف خلق الله بعلو قدر رسول الله كما أنهم أعرف خلق الله بالله وبكمالاته التي لا يجوز أن يتصف بها أحد سواه. وحذفت من عباراتهم ما لا دخل له في هذا الباب،ولا يناسب هذا الكتاب إما لكونه جاريا على مصطلحات الصوفية غير مفهوم لأمثالي بالكلية وإما لكون معانيه المقصودة دقيقة، وظاهرها يخالف الشريعة وإن كان لا مخالفة في الحقيقة»، السابق ص٥.

مكاشفاتهم ولكنه آمن بها تصديقا[1]. ومن ثم فلا حاجة إلى أدلة نقلية أو عقلية مادام الكشف ذوقيا.

والعلماء المنقول عنهم ثمانية وسبعون علما. يتفاوتون في الشهرة. من الصوفية سبعة وخمسون، ومن الفقهاء سبعة عشر، ومن المؤرخين اثنان، ومن المتكلمين واحد، ومن الفلاسفة واحد[2]. ويتكرر البعض لأخذ أكثر من نص منهم[3]. وأكبرهم من حيث الكم المنادى ثم السيوطي ثم الحلبي ثم السهروردي[4]. وتتفاوت ألقابهم، الإمام ومكوناته ثم العارف ثم العلامة ثم الشيخ ثم الحافظ ثم القطب[5]. وتتعدد المكونات للإمام في الإمام الشيخ، والإمام العلامة، والإمام المعارف بالله، والإمام العلامة السيد[6]. وكل من المعارف والعلامة والشيخ الحافظ له مكوناته. أما القطب فواحد مثل أحد أكابر الصوفية، جامع هذا الكتاب الفقير[7]. وتدل الألقاب على الصوفي مثل العارف بالله أو الفقيه مثل الإمام.

---

(١) «وهي بنية على مكاشفات ومشاهدات، شاهدها أولئك السادات حينما خلصت أرواحهم من شوائب الكدورات فأدركوا ببصائرهم من الإسراء والأنوار ما لم تدركه الأبصار. ونحن وإن لم نشاهد من ذلك ما شاهدوه فقد شاركناهم في الإيمان بما آمنوا به، واعتقدنا ما اعتقدوه من أنه أفضل خلق الله، وأعلاهم منزلة عند الله، وأنه النور الأعظم الساري في جميع الموجودات، والأصل المقدم الذي تفرغت عنه جميع الكائنات. وسيأتي في ذلك كلامهم من الأدلة العقلية والنقلية ما تطيب به النفوس، ويفوق في ظهور البدور والشموس. وكل من نقلت عنهم بدور عرفان مقتبسون من شمس كماله، وبحور إحسان، متحدون من فضله المحيط، وفيض أفضاله، فكل ما وضعوه فهو منه وإليه وليس لهم بذلك منة عليه»، السابق ص٦.

(٢) أشهر الصوفية: الترمذي، الأصبهاني، ابن عربي، ابن الفارض، الجيلي، القونوي، الشعراني، النابلسي، الميرغني، البكري، الغزالي، عبد القادر الجزائري، الدردير.

(٣) وأشهر الفقهاء: القاضي عياض، الماوردي، العز بن عبد السلام، النووي، السيوطي، السبكي، ابن الهمام، القاري، القسطلاني، ابن حجر، الحلبي، المنادي، ابن تيمية، وأشهر المتكلمين ابن الجزار. وأشهر الفلاسفة الرازي.

(٤) مثل ابن حجر، الحلبي، النابلسي، الميرغني، السيوطي، الجيلي.

(٥) الحلبي(٨)،(٩٥)،(٨٨)،(٧٣).

(٦) الإمام(٥١)،العارف(٩)،العلامة(٥)،الشيخ(٤)،الحافظ(٣)،القطب(١).

(٧) الإمام(١٣)،الإمام الشيخ(١٠)،الإمام العلامة(٥)،الإمام العارف بالله(٤)،الإمام العلامة السيد(٢)،الإمام الكبير، الإمام الحافظ، الإمام الرباني، الإمام السيد، الإمام حجة الإسلام، الإمام العارف بالله الشيخ، الإمام الأديب، الإمام الأمير، الأمير الشهاب، الإمام الكبير الشهاب، الإمام شهاب الدين، الإمام شمس الدين، الإمام العارف بالله سيدي الشيخ الإمام الشريف السيد، الإمام العلامة الشيخ(١). مكونات العارف: العارف بالله الشيخ(١٣)،العارف بالله، العارف بالله السيد(٢)،العارف بالله القطب الكبير، العارف الكبير، سلطان العارفين(١)،مكونات العلامة: العلامة الشيخ(٢)، العلامة الشريف(السيد)، مكونات الشيخ: الشيخ الإمام(١).

ومن الشواهد النقلية تختار الشواهد الصوفية أو نصوصهم التي تدل على الحقيقة المحمدية والتي تعادل محمد الكوني في بدايات السيرة. ويظهر التراث بطريقة غير مباشرة عن طريق الأعلام. وكلها حكايات تثير الإعجاب والدهشة مثل حكايات الأولياء وأصحاب الكرامات مثل الخضر. ولا يوجد نقد للروايات أو تساؤلات. والنصوص حول موضوعات أخلاقية مثل الشمائل التي تعادل التصوف الخلقي أو المقامات والأحوال الصوفية وتصنيف النصوص طبقا للأعلام وليس طبقا للموضوعات. كلها تسير في خط واحد من التكريم والمدح والتعظيم والتفخيم. وهو الأساس الذي قام على اختيار النصوص دون نقد أو حتى تساؤل حول النصوص وروايات الإسراء والمعراج، وأحاديث جبريل والملائكة والاختلافات بينها الراجعة إلى الخيال شدة أو ضعفا.

و- «عبقرية محمد» لعباس محمود العقاد (١٩٦٤)[١]

وقد استمر التأليف في الشمائل عند الكتاب الإصلاحيين بصيغة أخرى وبمصطلح آخر هو «عبقرية» في سلسلة تضم «عبقرية محمد» وعبقرية باقي الخلفاء الراشدين، يجمع بين النبوة والخلافة. وتتغير الشمائل تحت نوع جديد من الفن الأدبي هي «العبقريات». وتطبق على الرسول والصحابة. تتحول منها الوقائع في حياة الرسول إلى مواقف إنسانية. يتم التعبير عنها بلغة أدبية من أجل إثبات خاصية واحدة هي العبقرية. وتنفصل إلى عبقرية في الدعوة، وعبقرية في التبليغ. أكبرها العبقرية العسكرية. فالرسول قائد عسكري أسوة بنابليون وهتلر بصرف النظر عن مضمون الدعوة. وهي عبقرية إنسانية خالصة موضوعية وذاتية في الإنسان وحبا له[٢]. وهو النبي العربي. هو عود من الرسالة للرسول على غير ما هو معهود في التيارات الإصلاحية ومن الرسالة إلى الشخص. صغير الحجم، وكأنه كتب في ليلة واحدة، أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ أو الحديث. العبقرية قيمة في النفس، وأقرب إلى الفطرة[٣].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، الدار القومية للطباعة والنشر، (كتب ثقافية ٢٩)، القاهرة ١٩٥٩.

(٢) «تقدير لعبقرية النبي العربي محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، وبالحق الذي يبيت له الحب في قلب كل إنسان» غلاف الجزء الأول.

(٣) «وحسبنا من عبقرية محمد» أن نقيم البرهان على أن محمدا عظيم في ميزان الدين، وعظيم في ميزان القلم، وعظيم في ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون في العقائد، ولا يفهم أن يختلفوا في الطبائع الآدمية...»، السابق ص٩.

تتحول السيرة هنا إلى نوع أدبي كما هو الحال في على هامش السيرة لطه حسين. تستعمل أسلوب المتكلم المفرد، وكأنها حكاية أديب ورواية قاص. تنتقي بعض الوقائع وتحولها إلى حكايات للتعليق عليها مثل إسلام عمر، والتحول من الشرك إلى الإسلام، ومن العنف إلى الرقة. الغاية الدفاع ضد المهاجمين. والمدح طبقا للإحساس بالرسول عند المعاصرين. وتقارن حروبه بحروب التوراة. كما يقارن فتح مكة سلما بغاندي[1].

وقد كان الدافع على كتابة السيرة ذكرياته في الأحياء الوطنية أبطاله في الثلاثينيات. وهي الفترة التي كتب فيها طه حسين أيضا سيرته. وتسري هذه الروح الوطنية في كتابة السيرة.

وتعادل اللقطة الأولى «علامات مولد» وصف أحوال العرب قبل الإسلام. فالعالم متداع منهار، الفُرس شرقا، والروم غربا، وبيزنطة شمالا، وشرك عند العرب، وفرقة بين القبائل في الوسط[2]. ثم تظهر عبقرية الداعي بعروبته وقرشيته وخصائصه ووسامته وثقته بنفسه، وإيمانه وغيرته[3]. وتظهر عبقريته العسكرية في حربه الدفاعية تبرئة له من انتشار الإسلام بالسيف وبالقتال، وإثبات أن الجهاد للدفاع. يقوم على الاقتناع على عكس الحروب التوراتية. لذلك عفى عن أسرى بدر[4]. وتتجلى عبقريته السياسية في طريقة تعامله مع الخصوم وحواره معهم حتى الفتح الكبير[5]. وتكشف عبقريته الإدارية عن ملكات شخصية في حسن المعاملة وتدبير الشئون العامة[6]. وأخيرا بلغ محمد الرسالة بضرب الأمثال، وتوجيه الأفراد والولاة، وعقد المعاهدات والمواثيق والأسلوب العصري[7].

---

(١) السابق ص٨٣/ ٨٧.
(٢) السابق ص١١-٢٢.
(٣) السابق ص١٣-٣٦.
(٤) السابق ص٣٧-٨٤.
(٥) السابق ص٨٥-٩٤.
(٦) السابق ص٩٥-١٠٢.
(٧) السابق ص١٠٣-١١٩.

وتعتمد مثل باقي السير على القرآن والحديث والشعر[1]. وبدلا من المراجع تحلل المواقف تحليلا إنسانيا كما يفعل الأديب. ويذكر رأي النبي في الشعر، وكيف أوتي الرسول جوامع الكلم. وتقارن العبقرية بكبار الأعمال الأدبية الكبرى[2]. وتشارك في تحليل الأخلاق الاجتماعية والسياسية وللأبطال.

ز- «سيماء محمد» لعلي شريعتي (١٩٧٧م)[3]

وسيماء لفظ جديد يعني الشمائل والصفات والخصائص، جمع تجريد للمفرد «سمة». وهي ثلاث خصائص في محمد، الملك والفيلسوف والنبي، قيصر والحكيم والرسول، جمعا بين السلطتين الدينية والسياسية، بين ما لقصير وما لله، بين ملكوت السماء وملكوت الأرض باسم العقل والحكمة وليس باسم السلطة والتسلط. ويقوم على التحليل الطبقي للنبوة وظهورها تعبيرا عن صراع القوى الاجتماعية وظهور قوى اجتماعية جديدة تمثل الفقراء والمحرومين والعبيد والمضطهدين. ويحدث ذلك في أنبياء الشرق وأنبياء الغرب على حد سواء، لدى الأنبياء الساميين وغير الساميين. وينطبق على إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد قدر انطباقه على بوذا وزرادشت وكونفوشيوس ولاوتزي.

ويعتمد على التحليل التاريخي الخالص دون أي شواهد نصية من القرآن أو الحديث أو الشعر. كما يعتمد على تحليل الحضارات المقارنة الإسلامية والغربية والشرقية مما يتجاوز المركزية الأوروبية في التحليل الثقافي[4]. ولا يظهر إلا شاهد شعري واحد.

حـ- «من معين الشمائل» للشامي[5]

واستمر التأليف في «الشمائل»، الرسول دون الرسالة عند المحدثين. فالقصد

(١) الحديث(٢٥)،الشعر(٣)،القرآن(١).

(٢) مثل أعمال دكنز وهازليت ولي هنت وكارلايل.

(٣) علي شريعتي: سيماء محمد، ترجمة جعفر سامي الدبوني، مراجعة حسين علي شعيب، حققه وحرره للنشر محمد حسين بزي، دار الأمير، بيروت ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٤) يذكر من الحضارة الإسلامية أبا ذر الغفاري (٥)، ابن سينا(٣)، ابن رشد(٢)، الكندي، ملا صدرا، شمس التبريزي(١) ومن شخصيات التراث: علي(٣)، الزهراء، الحسين، زينب، عائشة أبو سفيان، هند، ابن أبي جهل، صفوان(١). ومن الجماعات أهل الصفة(١). ومن الأنبياء: محمد(٥)، عيسى(٤)، أو المسيح، موسى، إبراهيم، الخضر(١). ومن أنبياء التوراة: قارون، بلعم بن باكور.

(٥) صالح أحمد الشامي: من معين الشمائل، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان ١٩٩٧.

التاريخي لم ينته. فبالرغم من تركيزه ووضوحه واعتبار الرسول أسوة حسنة للناس في السلوك والأخلاق إلا أنه تقليدي. يكرر ما قاله القدماء. مجرد تأليف يبين توقف علم السيرة. يتكون من عشرة مقاصد. كل مقصد منها عدة فصول. أكبرها في الأخلاق. الأول: النسب والقرابة في دين يساوي بين الناس، الأب والزوج، العم والأخ، خدمه وحراسه. والثاني: صفته وهيبته، خلقته وصورته، سمته وهيبته. والثالث: أخلاقه وشمائله، حسن الخلق، ضوابط الأخلاق والإخلاص، والصدق والأمانة، الشجاعة والنجدة، الجود والكرم، الحياء والتواضع، الرحمة والشفقة، الحلم والعفو، الصبر والعدل، الورع والخوف من الله، الرجاء والقصد، الحب في الله والقناعة، وتمني النفس وحسن التصدق. والرابع: طهارته من آفات اللسان والغرور والحسد. والخامس: آدابه وصداقته، الشفاعة، آداب المسجد، المجالسة، الطريق وعيادة المريض، والشكر خدمة الناس. والسادس: سيرته الزهد، طعامه وشرابه، لباسه ومسكنه، هديه. والسابع: النذير العريان، التحذير من ولاية الأمور العامة ومن الرجال والنساء والتحذيرات العامة من الشيطان والدنيا والنفس والنار والدجال وأتباع الأمم السابقة. والثامن: عبادته، التفكير والجهاد والدعاء. والتاسع: مجتمعه، الأسرة والجوار، حق المسلم على المسلم، والمجتمع الإسلامي. والعاشر: حقوق النبي على المسلمين، وجوب محبته، والصلاة عليه. وكلها تقريظ ومدح. وكثير منها لا علاقة لها بالنبوة. وما لزوم عدد أحاديث كل زوجة. ومعروف أن عائشة أكثرهن رواية لصحبته لها آخر ثمان سنوات في عمره[1].

ولا جديد فيه ولا اختراق. بل يعتمد على كتابات السابقين. يقتبس منهم كما يفعل الباحثون وكاتبوا الرسائل العلمية وأساتذة الجامعات. ويقلد القدماء في استعمال الشعر للتعبير عن الفكر. والناس الآن لم يعودوا يتذوقون الشعر كما كان القدماء. كان الشعر عند القدماء ثقافتهم الشعبية. واختلف الأمر الآن لصالح أجهزة الإعلام والفنون الحديثة[2].

(١) السابق ص٤٧-٤٨.
(٢) السابق ص٥٨.

وتبدأ الألقاب كوسيلة للتعظيم والتفخيم والتقديس للأمكنة والأشخاص: المدينة المنورة، مكة المكرمة، الكعبة المشرفة، النسب الشريف، القرابة الطاهرة[1]. الرسول صلى الله عليه وسلم. أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، عثمان ذو النورين، عليّ كرم الله وجهه. كل صحابي رضي الله عنه أو عليه السلام. ومع ذلك تظهر الروح الحديثة على استحياء في الجرأة على الإقلال من التقديس المتصاعد. فآباؤه ليسوا أنبياء، ولم يولد مختنا[2].

٢- الحقوق:

أ- «الشفا بتعريف حقوق المصطفي» للقاضي عياض (٥٤٤هـ)[3]

ويظهر لفظ «حقوق» وهو اللفظ المستعمل حاليا لحقوق الإنسان. فالرسول نموذج لحقوق الإنسان. وحقوق النبي نموذج تشخيصي لحقوق الإنسان.

وهي خصال الكمال والجمال التي قلما يتجلى بها واحد في كل عصر[4]. وهي مذكورة في كتب المؤرخين دون جهلتهم وجهلة المفسرين[5]. وتقوم حقوق المصطفى على قسمة رباعية: الأول تعظيم الله له، والثاني حقوقه على الناس بدلا من حقوق الناس عليه. والثالث تطبيق أحكام العقل الثلاثة المعروفة في علم أصول الدين الوجوب والجواز والامتناع أو الوجوب والإمكان والاستحالة في حق الرسول، فيما يجب وما يجوز وما يستحيل عليه. والرابع حكم من انتقصه أو سبه. أكبرها الأول ثم الثالث وأصغرها الرابع ثم الثاني.

ويتضمن كل قسم عدة أبواب. فيشمل الأول تعظيم الله. وله أربعة أبواب، ثناء

---

(١) السابق ص١١.

(٢) السابق ص٢١.

(٣) القاضي عياض(أبو الفضل عياض بن موسى عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى)، تحقيق علي محمد البجاوي(جزءان) تحقيق، علي محمد البجاوي(جزءان) عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٧.

(٤) السابق جـ٢/ ٧٩.

(٥) «وأخبارهم في هذا كله مسطورة، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق وحسن الصور والشمائل معروفة ومشهورة. فلا نطول بها. ولا تلتفت إلى ما نجده في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا»، جـ١/ ١٩٧. «لكنا أتينا فيه بالمعروف منها أكثره في الصحيح والمشهور من المصنفات»، جـ١/ ١٩٨.

الله عليه، وتكميل الله له بالمحاسبة، والأخبار في تعظيم الله له، وما ظهر على يديه من المعجزات والكرامات. ويشمل الثاني حقوقه على البشر. وفيه أربعة أبواب أيضا: الإيمان به ووجوب طاعته، ولزوم محبته، ووجوب توقيره وبره، والصلاة والسلام عليه. ويضم الثالث أحكام العقل الثلاثة. فيه بابان فقط، عصمة الأنبياء والأمور الدينية، والعوارض البشرية في الأمور الدنيوية. ويشمل الرابع، عدم جواز سبه، ثلاثة أبواب، سبه والتعريض به، شتمه وانتقاصه، سب الله وملائكته وكتبه وبناته وأزواجه وصحبه[1]. وتستعمل الآيات القرآنية، تقل أو تكثر عن الأحاديث النبوية. كلها نصوص، آيات وأحاديث وروايات قد تختلف تأويلاتها حتى ولو صحت تاريخيا[2]. والقرآن أكثر من الحديث والحديث أكثر من الشعر[3].

وفي الشمائل يتداخل علم السيرة مع علم الحديث[4]. وهي مجرد تبويب للحديث طبقا لصفات النبي الجسدية والنفسية والأخلاقية. فكتب الشمائل هي كتب في علم الحديث حول الرسول، نموذجا للتداخل بين العلمين. ولا تستعمل إلا الأحاديث الصحاح خاصة من «البخاري» و «مسلم» وإثبات ذلك بعد كل حديث بلفظ «صحيح»، ونادرا بلفظ «ضعيف»[5]. وتذكر الروايات بأسانيدها مثل كتب السيرة. ولا يوجد أي تحليل نظري أو تأسيس عقلي. كل الموضوعات روايات وأحاديث. فالسيرة من الأحاديث، والأحاديث من السيرة. وهو دور. «الأنوار» مجموعة من الأحاديث حول الشمائل مع أن الأحاديث أقوال في الرسالة وليست شمائل للرسول. وتختلف الروايات في قصة

(١) ١- في تعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولا وعملا(٥٢٥ص)
٢- فيما يجب على الأنام من حقوقه(١٥٣ص)
٣- فيما يجب للنبي وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أو يضاف إليه(٢٣٦ص)
٤- في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه(١٩١ص)، السابق جـ١/ ٨-١٢.

(٢) السابق جـ٢/ ٦٨٣.

(٣) الحديث(٤٤٠)، القرآن (٤١١)،الشعر(٢٣).

(٤) الشفا جـ١/ ٢٢-٢٣(المقدمة).

(٥) السابق جـ٢/ ٥٨١.

الإسراء والمعراج[1]. والمعجزات كثيرة[2]. اختير منها الواضح والمقنع والمختصر والمألوف. فالغامض والمشكوك فيه والطويل والغريب قد يتدخل فيه الخيال البسيط أو المركب دون إسناد نظرا لأن صحة المتن غير مشروطة دائما بصحة السند[3]. ومعظم الأحاديث لا توضع بين قوسين بحيث تصبح جزءا من الرواية لكثرتها واستعمالها بدلا من أسلوب التأليف فلا فرق بين الأقوال المباشرة والأقوال غير المباشرة.

وتعتمد كتب الشمائل أيضا على الشعر كمصدر للسيرة مثل القرآن والحديث[4]. بل تظهر قراءات الرسول اللغوية والشعرية. فالرسول أفصح العرب. أوتي جوامع الكلم.

وقد أثرت العلوم الإسلامية واتجاهاتها، وفرقها ومدارسها في صياغة السيرة مثل الأشعرية والتصوف، الجويني وذو النون[5]. إذ تذكر بعض الفرق الكلامية مثل الكرامية الذين ينكرون ذات النبي في تطويلهم وتهويلهم وليس عليه تعويل[6]. ويذكر

---

(١) «واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدا. وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها» جـ١/ ٢١٥. «وقد خلط فيه غيره عن أنس تخليطا كثيرا... مجيء الملك له وشق بطنه وغسله بماء زمزم. وهذا إنما كان وهو صبي وقبل الوحي»، السابق ص٢٣٥. «تلك القصة مفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس فجود في القصتين وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدرة المنتهى كان قصة واحدة.. وفيها تقديم وتأخير وزيادة ونقص وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات. وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود»، السابق ص٣٣٥-٣٣٦».

(٢) «قد أتينا في هذا الباب على نكت من معجزاته واضحة، وجُمل من علامات نبوته مقنعة في واحد منها الكفاية والغنية. وتركنا للكثير سوى ما ذكرنا، واقتصرنا من الأحاديث الطوال على عين الفرض وخص المقصد ومن كثير الأحاديث وغريبها على ما صح واشتهر إلا يسرا من غريبه مما ذكره مشاهير الأئمة وحذفنا الإسناد في جمهورها طلبا للاختصار وبحسب هذا الباب لو تقصى أن يكون ديوانا جامعا يشتمل على مجلدات عدة»، الشفا جـ١/ ٥٢٣، «و الإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من قبل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرّج لهم أصوب المخارج إذ هم أهل لذلك. ولا يذكر أحد منهم بسوء ولا يغمض عليه أمر بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرتهم ويسكت عما وراء ذلك»، جـ٢/ ٦١١-٦١٢.

(٣) من النقل إلى العقل جـ٢، علوم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

(٤) الشفا جـ١/ ٢١٥-٢١٩/ ٢٨٦/ ٣٣٥/ ٣٤٥، جـ٢/ ٥٤٩/ ٥٦٩/ ٦٢١.

(٥) السابق جـ١/ ٣٣٩.

(٦) السابق ص٣٤٨.

الجويني في مذهبه الصرفة لتفسير إعجاز القرآن[1]. ويشار إلى مذهب القاضي أبي بكر في تأكيد عصمة النبي في أفعال الجوارح واللسان وإلى أبي إسحق الذي منعها بدليل العقل والإجماع[2]. وهو مذهب جماعة المتصوفة وأصحاب علم القلوب والمقامات[3]. وبعض المسائل في السيرة واردة من علم أصول الفقه وهي معيار السنة أو عصمة الأنبياء[4].

ويذكر القدرية في خلق القرآن[5]. ويذكر أبو الهذيل والجاحظ وثمامة والغزالي في كتاب «التفرقة» في عدم جواز تكفير المتأولين[6]. ويبدو الموضوع كلاميا خالصا بذكر الفرق غير الإسلامية كالدهرية والديصانية والمانوية والصابئة والنصارى والمجوس والبراهمة واليهودية والأروسية أو الإسلامية والمعطلة أو العنبرية والرافضة وغلاة المتصوفة مثل الحلاج وأصحاب الإباحة والخرمية والبزيغية والمعتزلة والمشبهة والقدرية. ومن المتكلمين الباقلاني وسحنون والأشعري[7].

ب- «غاية السول في خصائص الرسول» لابن الملقن(٨٠٤هـ)[8]

وهو كتاب في الشمائل مقسمة على أحكام أصول الفقه، أحكام التكليف: الواجب والمحرم والمباح، ثلاثة من خمسة دون المكروه والمندوب، بالإضافة إلى الفضائل والكرامات لعلها تعادل المندوب مثل القسمة الرباعية لـ «الشفا» الأقرب إلى علم أصول الدين: مدح الله له، حقوقه، أحكام العقل الثلاثة، وحكم سبه. أكبرها الفضائل والكرامات ثم المباحات ثم الواجبات وأصغرها المحرمات. فالمباح للرسول أكثر من المحرم[9]. والسؤال هو: لماذا هي اختصاصات للرسول وهي أقرب إلى الأحكام العامة

(١) السابق ص٥٣٠-٥٣١.
(٢) السابق ص٧٨٥.
(٣) السابق ص٨٠٠.
(٤) السابق ص٨٥٠-٨٥١.
(٥) السابق جـ٢/ ١٠٥٢-١٠٥٦.
(٦) السابق ص١٠٦٢-١٠٦٥.
(٧) السابق ص١٠٦٦-١٠٧١/ ١٠٧٨/ ١٠٨٤-١٠٨٦/ ١٠٩١.
(٨) الإمام أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن: غاية السول في خصائص الرسول، تحقيق وتخريج عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية، بيروت جـ١ ٢/ ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
(٩) الفضائل والكرامات(٧٦ص)،المباحات(٦٧)،الواجبات(٥٢)،المحرمات(٣١).

لكل المسلمين؟[1]. والمباحات أشبه بالمندوب، ولا يوجد مكروه. وهو نفس موقف الصوفية من استبعاد المتوسطات والإبقاء على الأطراف الثلاثة.

والواجبات ثمانية له، وستة لغيره. منها عبادات كالصلاة صلاة الضحى والوتر، ومنها معاملات، إنكار المنكر، قضاء الدين على من مات، تخيير نسائه، مصابرة العدو. ومنها مسائل شخصية مثل التهجد، والسواك، ومشاورة ذوي الأحلام[2]. والأحكام الخاصة قد تقلل من شرعية الأحكام العامة[3].

والمحرمات ثلاثة عشر[4]. منها ما هو ذوق شخصي في الطعام. ويمكن التغلب على الرائحة الكريهة بالنعناع وغسيل الفم. ويصعب تحريم الكتابة وهي أساس العقود، والشعر، والعرب أمة الشعر، وفيه ديوانها والدين ليس جريمة يعاقب عليها صاحبه. والتسري انقضى وقته.

والمباحات تسعة وعشرون[5]. ومنها ضد المساواة مثل اختيار ما يشاء من الغنائم

---

(١) «أني لست مثلكم، أني أطعم وأسقى»، غاية السول ص١٥٦.

(٢) هي: ١- صلاة الضحى ونحر الأضحى والوتر ٢- التهجد ٣- السواك ٤- مشاورة ذوي الأحلام ٥- مصابرة العدو ولو كثر عددهم ٦- إنكار المنكر وتغييره ٧- قضاء دين من مات من المسلمين معسرا ٨- إذا رأى شيئا يعجبه يقول «لبيك»، «إن العيش عيش الآخرة ٩ - أداء فرض الصلاة كاملة لا خلل فيها، ١٠- كل تطوع يبتدأ به، ١١- أمور ذكرها ابن القاص، ١٢- تخيير نسائه، غاية السؤل ص٧٥-١٢٤.

(٣) مثل الوصال في الصوم، دخول مكة بغير إحرام، القتل في الحرم، أخذ الشراب والطعام من صاحبها المحتاج، إباحة اللمس وأنه لا ينقض الوضوء، ودخول المسجد جنبا، القتل بعد الأمان، الجمع بين أكثر من أربعة، النكاح بلا ولي ولا شهود، إباحة المرأة المعتدة، الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، الخلوة بأجنبية، تزوج الصغيرة التي لم تبلغ.

(٤) مثل: ١- الزكاة عليه ٢- أكل البصل والثوم والكرات وكل ما له رائحة كريهة ٣- الأكل متكئا ٤- الخط والشعر ٥- نزع اللامة إذا لبسها حتى يلقى العدو أو يحكم الله بينه وبين أعدائه ٦- مد العين إلى ما مُتع به الناس ٧- خائنة الأعين ٨- الصلاة على من عليه دين ٩- أن يمن ليستكثر ١٠- من كرهت نكاحه ورغبت عنه ١١- نكاح الحرة الكتابية ١٢- التسري بالأمة الكتابية ١٣- نكاح الأمة المسلمة.

(٥) وهي: ١- الوصال في الصوم ٢- اصطفاء ما يختاره من الغنيمة ٣- الاستبداد بخمس من خمس الفيء والغنيمة بأربعة أخماس الفيء منفردا ٤- دخول مكة بغير إحرام ٥ - القتل في الحرم ٦- جعل تركته صدقة لا تورث عنه ٧- القضاء بعلمه ٨- قبول شهادة من يشهد له ٩- الحمى لنفسه ١٠- أخذ الطعام والشراب من مالكها المحتاج ١١- وجوب محبته على أمته أعلى درجات المحبة ١٢- الصلاة بعد النوم من غير تجديد الوضوء ١٣- اللمس لا ينقض الوضوء ١٤- دخول المسجد جنبا ١٥- اللعن للشيء من غير سبب ١٦- القتل بعد الأمان ١٧- الجمع بين أكثر من أربعة ١٨- انعقاد نكاحه بلفظ الهبة ١٩- إذعان مرغوبته لينكحها

وأخذ النسبة التي يريد، ومنها ما يضاد الرحمة مثل أخذ طعام وشراب المحتاج، ومنها بعض التساهل في العلاقات الجنسية مثل دخول المسجد جنبا، وعدم نقض اللمس للوضوء، والجمع بين أكثر من أربعة، والنكاح بالهبة وإكراها ودون ولي ولا شهود وفي الإحرام، وزواج المرأة دون وليها وبأمر الله ودون انقضاء العدة، والجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وجعل عتق المرأة صداقها، وجواز الخلوة بأجنبية، وزواج الصغيرة. فالنصف تقريبا في التسهيلات الجنسية[1].

والفضائل والكرامات خمسة وأربعون[2]. بعضها احترام له مثل ترمل زوجاته فلن تجد زوجًا أكرم منه. ومنها أنه منتصر دائما على العدو بالرعب قبل الحرب. وبعضها واقع أنه خاتم النبيين، وشريعته آخر الشرائع، وأمته أفضل الأمم وإجماعها حجة، وكتابه معجز، وعموم رسالته على الجن والإنس. وأمته شهداء على الناس يوم القيامة،

٢٠- انعقاد نكاحه بلا ولي ولا شهود ٢١- انعقاد نكاحه بحال الإحرام ٢٢- عدم وجوب القسم عليه في زوجاته إنما تطوعا ٢٣- تزوج المرأة بغير إذنها وإذن وليها ٢٤- تزويج الله ٢٥- المرأة المعتدة من غيره ٢٦- الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ٢٧- عتق المرأة وجعل عتقها صداقها ٢٨- الخلوة بأجنبية ٢٩- تزويج الجارية الصغيرة.

(١) «خصائصه في النكاح كثيرة... وقد منع ابن خيران من الكلام فيها في النكاح والإمامة كما حكاه الماوردي. وأطلق في الروضة الحكاية عن الصيمري لأنه أمر انقضى فلا معنى للكلام فيه»، غاية السول ص٦٨.

(٢) وهي: ١- تحريم أزواجه أمهات المؤمنين على غيره ٢- أفضل نساء الأمة عدا فاطمة ٣- خاتم النبيين ٤- أمته خير الأمم وإجماعها حجة ٥- شريعته مؤيدة وناسخة لجميع الشرائع ٦- كتابه معجز بخلاف كتب سائر الأنبياء ٧- الرعب على عدوه مسيرة شهر ٨- عموم رسالته على الإنس والجن ٩- له ولأمته الأرض مسجد طهور ١٠- الغنائم له ولأمته ١١- أمته شهداء على الناس يوم القيامة ١٢- تفضيل أصحابه على سائر الأمم ١٣- صفوف أمته كصفوف الملائكة ١٤- شفاعات كثيرة وأولها الشفاعة العظمى ١٥- أول شافع وأول مشفع، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول من يقرع باب الجنة ١٦- سيد ولد آدم يوم القيامة ١٧- أكثر الأنبياء اتباعا ١٨- لا ينام قلبه ١٩- تطوعه قاعدا كتطوعه قائما في نوافل الصلاة ٢٠- مخاطبة المصلي له بقول «السلام عليك أيها النبي» ٢١- لا يجوز لأحد رفع صوته ولا مناداته من وراء الحجرات ٢٢- عدم مناداته باسمه ٢٣- طهارة شعره ٢٤- من استهان به كفر ٢٥- إجابة المصلي له إذا دعاه ٢٦- نسب أولاد بناته إليه ٢٧- كراهية الجمع بين اسمه وكنيته ٢٨- إباحة الهدية ٢٩- عرض الأمم عليه ٣٠- التنفل بعد العصر ٣١- العصمة من الجنون ٣٢- من رآه فقد رآه حقا لأن الشيطان لا يتمثل به ٣٣-لا تأكل الأرض جسده ٣٤-الكذب عليه كبيرة ٣٥- عصمة اجتهاده من الخطأ ٣٦- جواز التوسل ٣٧- يرى في الظلمة كما يرى في النور ٣٨-ابتلاع الأرض لفضلاته ٣٩- ولد مختونا ولم ير أحد سوأته ٤٠- إقرار جماعة بنبوته قبل بعثته ٤١- لا يقع عليه الذباب ٤٢-لا ينطق عن الهوى٤٣- يرى في الثريا أحد عشر نجما ٤٤- بياض إبطيه ٤٥- إذا جلس كان أعلى من جميع الجلوس.

وصفوفها كصفوف الملائكة، وتفضيل أصحابه على الأمة، وعرض الأمم عليه. ومنها أنه الأول في كل شيء في الشفاعة وفي القيامة وفي دخول الجنة، وأنه سيد ولد آدم، وأكثر الأنبياء اتباعا، لا ينام قلبه. ومنها وصف لجسده مثل طهارة شعره، وعدم أكل الأرض له. والأرض له مسجد طهور، والغنائم له ولأمته. والتسعة الأخيرة من وضع الخيال زيادة في التكريم: أنه يرى في الظلمة، ابتلاع الأرض فضلاته، ولادته مختونا، عدم رؤية سوأته لأن الرؤية عيب، إقرار البعض بنبوته قبل البعثة بناء على معرفة قوانين التاريخ والدين الطبيعي. عدم وقوع الذباب عليه لأن الذباب قذارة، وعدم نطقه عن الهوى لأن الأهواء ضعف بشري، رؤيته في الثريا أحد عشر نجما، فالتأمل في النجوم من أفعال الأنبياء ومنافسة للصابئة، بياض إبطه لأن البياض أفضل من سواد الشعر، وجلوسه إلى أعلى ارتفاع لقدره. ومنها آداب عامة مثل عدم رفع الصوت عليه أو مناداته باسمه، وعدم الاستهانة به، ونسبة أولاده وبناته إليه، وكراهية الجمع بين الاسم والكنية، والعصمة من الجنون، وعصمة اجتهاده، ومخاطبة المصلي له في صلاته، وعدم تمثل الشيطان به، وعدم جواز الكذب عليه، وجواز التوسل به.

وهي ليست مقدسات لا خلاف عليها بل اختلف عليها الفقهاء. لذلك يضع المؤلف بعد الموضوع «وتحقيق القول في هذه الأمور» أو «تحقيق الأمر في ذلك»[1]. وقد يكون التعبير «وفيه بحث» أي أن الموضوع لم يستقر بعد، وبعض البحوث نفسية فيما يتعلق بالأمور النسوية[2]. وقد يكون الأمر «فيه نظر» أي في حاجة إلى إعادة تحقيق[3].

---

(١) مثل وجوب صلاة الضحى ونحر الأضحى والوتر قضاء دين من مات من المسلمين معسرا، السابق ص١٠٣، كراهية الجمع بين اسمه الشريف وكنيته، السابق ص٢٨١.

(٢) مثل وجوب مشاورة ذوي الأحلام، السابق ص١٠٠، وجوب أداء فرض الصلاة كاملة لا خلل فيها، ص١٠٧، تحريم نكاح الحرة الكتابية، ص١٤٧، تحريم نكاح الأمة المسلمة، وفيها بحوث فقهية ص١٥٠، إباحة انعقاد نكاحه بحال الإحرام، ص٢٠٤، عدم وجوب القسم في زوجاته وإنما كان متطوعا بذلك، ص٢٠٧، وفيه بحوث نفسية تتعلق بالأزواج الشريفات، من ذلك أنه لا يسألهن أحد إلا من وراء حجاب، ص٢٥٤.

(٣) مثل: بعض الأمور التي ذكرها ابن القاص، السابق ص١٠٧، تحريم الصلاة على من عليه دين، ص١٤٣، إباحة القتل بعد الأمان، ص١٧٨، إباحة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، ص٢١٤.

وقد يكون الأمر صراحة فيه خلاف[1]. وقد يكون فيه غلط مردود[2]. وقد يكون فيه الأباطيل[3]. ويتهم أحد المؤرخين بأنه كذاب[4]. وهي مسائل اختلف فيها الأصحاب. وذكرها غير مفيد لأنها لا تتعلق بحكم ناجز تمس الحاجة إليه. وهو رجم بالغيب بلا فائدة. موضوع انقضى وليس فيه من دقيق العلم. ولا وجه لتضييع الزمان بالظن مع أنه مطلب الجمهور بحجة التأسي[5]. البعض يدخل في أبواب الفقه بالرغم من أنه لا فائدة منه للتدرب ومعرفة الأدلة. وقد بلغ من إثبات الجمهور وبعض الخاصة الخصائص درجة إهداء كتاب إليها[6].

و«الخصائص» هي «الشمائل». والمقدمات هي النتائج. فهو «أشرف المخلوقين، وأفضل السابقين واللاحقين على سائر النبيين وآل وكل وسائر الصالحين»[7]. وهي لا تثبت بالعقل بل بالنص. وهي عكس النوازل التي يشرع فيها بالاجتهاد. والروايات متعددة، تزيد وتنقص، حسنة وغريبة[8]. لذلك تكثر الأحاديث والآيات والأشعار[9]. وتكثر الروايات، وتتعدد المتون. فالاختلاف في الحديث قبل الاختلاف في السيرة. ولما كانت الرؤية فقهية في تصنيف الخصائص طبقا لأحكام الشريعة فالاختلاف في السيرة راجع إلى الاختلاف في الفقه. كما تعتمد على بعض الروايات غير المباشرة للأفعال وليس الأقوال[10]. ويبدو تأثير التراث الأشعري على تدوين السيرة بكثرة الإحالة إلى الغزالي.

---

(١) مثل جواز انعقاد نكاحه بلا ولي ولا شهود، السابق ص٢٠١.

(٢) مثل إباحة المرأة المعتدة من غيره له، السابق ص٢١٤.

(٣) الأخبار التي ذكر فيها وضع النبي لحجر على بطنه كلها أباطيل، غاية السول ص١٥٧.

(٤) «والواقدي كذاب»، السابق ص٢٣٧.

(٥) «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن له ساعة من نهار»، السابق ص٧٠.

(٦) «أهدي لكل مسلم محب لسيرة رسول الله العطرة المتمثلة في جزء الخصائص والفضائل التي كونت عظمته، وجعل من خلقه العظيم مثالا حيا يحتذى من إنسانيته الرحيمة نبراسا منير الهدى، ومن ثم كان فضل الله عليه عظيما... وإني إذ أهدي هذه الخصائص لكل راغب في معرفة مزايا الرسول لتعرف من خلالها ما أكرم الله نبيه من المنح والمزايا والفضائل والكرمات تعظيما له وتكريما»، السابق ص٥.

(٧) السابق ص٦٨.

(٨) السابق ص٦٩.

(٩) الأحاديث(١٧٨)،الآيات(٥٨)،الأشعار(١).

(١٠) ظاهريات التأويل ص ١٨٦-٢١٨.

مما يكشف عن سعة حضوره في القرون التالية حتى القرن الثامن الهجري[1].

٣- الشخص:

أ- «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي (٥٩٧هـ)[2]

ويأتي في نفس تيار تضخيم الرسول، وتضاؤل الرسالة. التصنيف في أربع وثلاثين مجموعة من الأبواب، تسعة فقط في الرسالة في البداية وفي النهاية، وأربعة وعشرون في الرسول[3]. والأبواب كثيرة ولكن صغيرة بلا دلالات، مجرد نقاط إخبارية. بل إن الجزء الخاص بالرسالة يتعلق بالسيرة أكثر مما يتعلق بالرسالة. الرسالة غائبة فرحا وحزنا، نصرا وهزيمة لصالح الرسول. وتغيب الدلالات من السيرة مثل دخول المدينة[4]. بل إن التركيز على الرسول تركيز على شخصه وليس على الرسول. والمعجزات ليست متواترة. ولا توجد رؤية خاصة للسيرة مثل القاضي عياض وأركانها الأربعة بل مجرد تجميع مادة في تبويب عام كثير دون تركيزه في رؤية ذات أبعاد محددة.

وتعتمد على الآيات والأحاديث والأشعار. والآيات أكثر، والأحاديث أقل. والشعر وسط بين الآيات والأحاديث. والأحاديث روايات أكثر منها أقوال مباشرة. تستعمل الأحاديث كروايات أي كأخبار وليس كأقوال. ويعتمد على الصحيحين عامة والبخاري خاصة مع تخريج بعض الأحاديث. وأحيانا توضع الأحاديث بين قوسين

(١) غاية السول ص٢١٨.

(٢) ابن الجوزي(الإمام أبو الفرج عبد الرحمن): الوفا بأحوال المصطفى،(جزءان)، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٦م.

(٣) في الرسالة: ١- بداية نبينا ٢- نبوته ٣- هجرته إلى المدينة ٤ - غزواته ٥- سراياه ٦- مكاتبة الملوك ٧- الوفود عليه ٨- رجوعه بعد حجة الوداع ٩- مرضه ووفاته، وفي الرسول: ١- جسده ٢- صفاته المعنوية ٣- آدابه ٤- سمته ٥- زهده ٦- طهارته ٧- صلاته ٨- صومه ٩- حجه وعمرته ١٠- خوفه وتضرعه وحزنه وفكره وبكاؤه ودرعه وقصر أمله واستغفاره وتوبته ١١- دعاؤه ١٢- الآت بيته ١٣- لباسه ١٤- مراكبه ١٥- مواليه ١٦- خدمه ١٧- زينته ١٨- أكله ومأكولاته ١٩- شربه ومشروباته ٢٠- نومه ٢١ طبه ٢٢- نكاحه ٢٣- سفره ٢٤ - آلات حربه ٢٥- بعثه وحشره.

(٤) الوفا جـ١/ ٢٤٦-٢٤٧.

وأحيانا جزءا من الرواية[1]. ويُعترف بأن المعجزات ليست متواترة[2]. والاعتماد شبه كلي على علم الحديث. إذ يوظف علم الحديث حول شخصه وليس على أبواب الفقه. ويخصص ما ينفرد به أحد الصحيحين[3]. والأصح روايات الرسول عن نفسه، والأقل روايات الآخرين عنه. وتتفق بعض جوانب السيرة مع الدين الشعبي، دين القديسين والأولياء. وبعثته وحشره خارج الرسول والرسالة[4]. ويظهر أثر عقائد الأشاعرة مثل الشفاعة في تدوين السيرة. ويظل ابن هشام أفضل كتاب السيرة لنزعته التاريخية. وربما ابن إسحق أفضل منه لأنه أساسه. في الشمائل الرسالة جزء من الرسول. وفي السيرة الشمائل جزء من السيرة. ويصعب نقد علم السيرة لقدسية الرسول.

ب- «سيرة النبي المختار» للحضرمي الشافعي(٩٣٠هـ)[5]

ويدل طول العنوان على التعظيم والتبجيل. ويتكون من ثلاثة أجزاء: الأول «حدائق الأنوار ومطالع الأسرار»، و «لفظ الأنوار» معروف في كتب الشمائل، و «الأسرار» لفظ صوفي أسقط على علم السيرة الذي تحول إلى حياة الرسول المليئة بالأسرار. والثاني «النبي المختار» ويشير إلى الاصطفاء لشخصه وليس لرسالته. والثالث «آله وصحبه» أي استمرار الرسالة لدى صحابته وخلفائه أي في التاريخ. وله عنوان آخر «تبصرة الحضرة الأحمدية الشاهية لسيرة الحضرة الأحمدية النبوية» مثل عناوين الصوفية[6]. والغرض منها الحث على الجهاد. فقد كان الرسول نموذجا للمجاهدين. لذلك خصص أول فصل في القسم الثاني عن «فضل الجهاد». ويتكرر الفصل في الأقوال المقدسية[7]. لم تعد هناك مراحل للرسالة بل مراحل لحياة الرسول.

---

(١) السابق جـ١/ ٢٩١/ ٣٠٩/ ٣٦٣-٣٦٩.

(٢) السابق ص٣٣٩.

(٣) السابق جـ٢/ ٤٦٩.

(٤) السابق جـ٢/ ٨١٣-٨٢٧.

(٥) الحضرمي الشافعي: (العالم الفقيه القاضي علامة اليمن: محمد بن عمر بحرق) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار وعلى آله وصحبه المصطفين الأخيار، اعتنى به محمد غسان نصوح عزقول، دار المنهاج، جدة جـ١/ ٢/ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

(٦) السابق ص١٤٣.

(٧) السابق ص٢٤٢-٢٥٢/ ٤٩٥-٤٩٧.

ويقوم على نسق ثنائي. الأول المبادئ والسوابق، والثاني المقاصد واللواحق[1]. الأول يشبه المقدمات، والثاني النتائج. التقابل بين السوابق واللواحق ظاهر، وبين المبادئ والمقاصد أقل ظهورا. والثاني أكبر من الأول. ويضم القسم الأول ثمانية أبواب. الأول عرض مضمون الكتاب. والثاني مكة والمدينة وقومه أي المكان والبيئة الاجتماعية. والثالث من بشر به قبل ظهوره أي التنبؤ بالمستقبل وعلامات التاريخ. والرابع مولده ورضاعته. والخامس النسخ والختم أي ختم النبوة. والسادس المعجزات في حجمها الطبيعي دون تضخيم لتبليغ الرسالة كلها وتصنيفها طبقا لمستويات الطبيعة. والسابع سيرته، فالسيرة جزء من شخصه وهي أكبر الفصول، وأخيرا الثامن الإسراء والمعراج[2].

والثاني، المقاصد واللواحق أقل وضوحا في الرؤية وأكثر اضطرابا في البنية موزع بين الفصول والأبواب بلا ترتيب، ومتداخلة فيما بينها وبلا ترقيم. فصل عن الجهاد ولا يرتبط ارتباطا مباشرا بالسيرة[3]. ثم باب ما اشتهر من سيرته إلى وفاته وهو في علم السيرة وهو أكبر الأبواب[4]. وتكرار للباب السابع من السيرة من القسم الأول. وهو أكبر الأبواب. ثم يأتي تذييل به ستة فصول دون ترقيم، في وجوب نصيب الإمام، وشروط الإمامة، والإمام الحق بعد الرسول، وفضل الخلفاء الأربعة، وفضل الصحابة،

---

(1) السابق، المبادئ والسوابق ص٥٣-٢٣٤(١٨١ص) الثاني: المقاصد واللواحق ص٢٣٧-٥١٢ (٢٧٥ص).

(2) ١- سرد مضمون الكتاب ص٥٩-٨٠(٢٢ص)

٢- شرف مكة والمدينة بلدي مولده ونشأته ووفاته وهجرته وشرف قومه، ونسبه ومآثر آبائه وحسبه ص٨١-٩٦(١٦ص).

٣- من بشر به قبل ظهوره ص٩٧-١٠٤(٧ص).

٤- مولده ورضاعته ونشأته إلى حين بعثته، ص١٠٥-١٢٢(١٧ص).

٥- نسخ دينه لكل دين، وختم النبيين، وعموم رسالته وتفضيله على جميع النبيين والمرسلين ص١٢٣-١٣٨(١٥ص).

٦- معجزاته المشهورة وعلامات نبوته في حياته ص١٣٩-١٧٢(٣٤ص).

٧- سيرته من حسن بعثته إلى هجرته ص١٧٣-٢١٥(٤٣ص).

٨- عجائب حديث الإسراء وأسراره وغرائبه ص٢١٦-٢٣٤(١٩ص).

(3) فصل في الجهاد، السابق ص٢٤٢-٢٥٢(١٠ص).

(4) باب في ما اشتهر من سيرته إلى وفاته، السابق ص٢٥٣-٣٩٤(١٤٢ص).

وأدلة فضل الخلفاء الأربعة مما يدل على البيئة السنية الشيعية، الشافعية والزيدية في اليمن[1]. ثم يأتي بابان. الأول في أحواله النفسية حسن خلقته، وحسن خلقه ووفور عقله، وحسن عشرته، وسماحة وجوده، وشجاعته وزهده[2]. والثاني أقواله القدسية ويضم عشرة فصول: سوابق الصلاة، والصلاة، ولواحق الصلاة، والمرض وتوابعه، والسفر، والحج،والجهاد، والمعاش، والمعاشرة، وكفارة المجلس[3]. والثاني أكبر من الأول. فالسيرة تتأرجح من الرسالة والرسول بين القضية والشخص. ولا يوجد فصل عن الشهادة مع باقي الأركان الأربعة. والأقوال القدسية مجرد أحاديث وأدعية، نموذج للعلوم النقلية وليس العقلية. وكثرة الأدعية هي التي تحولت إلى توكل الصوفية حتى الدعاة أو الأدعياء المحدثين[4].

والأسلوب حديث مثل السير الحديثة[5]. وتلحق بها الخرائط المصورة[6]. والأسلوب أدبي واضح يخاطب القارئ الحديث، والاقتصار على الدلالات دون الرصد التاريخي المصمت. وتبرز الدلالة في «فائدة». ويتبع أحيانا أسلوب مخاطبة القراء «إخواني». ويحيله إلى العلماء، وعلماء السير، وأهل السير، والمفسرون والمحققون[7].

---

(١) في وجوب نصب الإمام، السابق ص٣٩٧-٣٩٨، شروط الإمامة ص٣٩٩-٤٠٢، الإمام الحق بعد الرسول ص٤٠٣-٤٠٦، فضل الخلفاء الأربعة ص٤٠٧-٤٠٩، فضائل الصحابة ص٤١٠-٤١١، أدلة فضل الخلفاء الأربعة ص٤١٢-٤٢٢.

(٢) أحواله النفسية، السابق ص٤٢٥-٩٣٨(٥١٤ص).

(٣) أقواله القدسية، السابق ص٤٢٩-٥١٢(٨٤ص).

(٤) مثل عمرو خالد وباقي مشايخ الفضائيات.

(٥) وهي سير طه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد والشرقاوي ونظمي لوقا وخلف الله.

(٦) «لبيان وضع شبه الجزيرة العربية، وتقسيماتها السياسية، ومنازل أهم القبائل قبل البعثة، وطريق هجرة النبي من مكة إلى المدينة، والسرايا والغزوات قبل غزوة بدر، وغزوة بدر الكبرى، وغزوة بني قينقاع، والسرايا والغزوات بين بدر وأحد،وغزوة أحد، والسرايا والغزوات بين أحد والخندق، وغزوة بني النضير، وغزوة الأحزاب أو الخندق وإجلاء بني قريظة، والسرايا والغزوات بين الخندق والحديبية، وغزوة بني المصطلق، وغزوة الحديبية، وفتح خيبر، والسرايا والغزوات ضد اليهود، وغزوة مؤتة، والسرايا بين الحديبية وفتح مكة، وسرايا تكسير الأصنام، والسرايا والغزوات بعد فتح مكة، وغزوة تبوك، وكتب الرسول إلى الملوك، وانتشار الإسلام عام الوفود، وحجة الوداع، ومناسك الحج، والمواقيت وأعلام الحرم، والطرق المؤدية لها، النبي المختار ص٥٢٩-٥٥٩.

(٧) فائدة(٤٢مرة)، فائدة أخرى، فائدة عظيمة(١) فائدتان(١)،قال العلماء(٣٧)،قال علماء السير(١٢)،قال أهل السير(٣)،قال المفسرون، قال المحققون، قال أهل السنة(١).

وللحديث الأولوية على القرآن والشعر. والقرآن له الأولوية على الشعر[1]. القرآن هو المصدر الأول. وفي الشعر قصائد طويلة[2]. وتذكر درجات صحة الحديث[3]. والصحيحان هما المصدر الرئيسي للحديث والتاريخ[4]. ويضاف إلى القرآن والحديث والشعر المصادر التاريخية مثل القرطبي أو التراثية مثل الغزالي[5]. وتتناقض عديد من الروايات في الحديث أو التاريخ مثل تناقض الروايات في إيمان الأم[6]. فالرواية تدل على الوعي الذاتي بالموضوع وليس فقط على تواصل السند أو صحة المتن[7]. وكثرة الاختلاف في الروايات تدل على أنها روايات وليست حقائق.

وتظهر بدايات النقد العقلي في الشروح والتعليقات على الروايات. وهي بدايات التفكير والتحول من العلوم النقلية إلى العلوم العقلية والتعليق بلفظ «قلت» في مقابل «قال المفسرون» أو «المحدثون» أو «العلماء». ويدل على اختلاف الآراء. ومع ذلك تظل السيرة دفاعا عن الرسول ضد منتقديه خاصة في علاقاته النسوية، زينب وعائشة([8]). كما يُحال إلى قصيدة البردة لمدح الرسول.

جـ- «النبي الأعظم» لأحمد الأميني النجفي[9]

والعنوان مازال يدل على التفخيم والتعظيم، «النبي الأعظم» مثل «النبي المختار». ويتردد مصطلح النبي الأقدس مئات المرات لوضع هالة من التقديس حول النبي. وهو جزء من كتاب «الغدير» في التاريخ من وجهة نظر الشيعة. وهو الجزء الأول من «سلسلة الغدير الموضوعية». والغدير رمز مقدس عند الشيعة، وهو المكان الذي صرح

(١) الحديث(٣٨٥)،القرآن(٣٤٩)،الشعر(١٣).
(٢) النبي المختار ص٧٩-٨٠/ ٨٦-٨٧/ ٧٩-٩٠/ ٩٢.
(٣) السابق ص٢٥٢.
(٤) السابق ص١٣٩.
(٥) القرطبي، السابق ص٢٥٩، الغزالي ص٢٥٩.
(٦) السابق ص١١٣-١١٥.
(٧) من النقل إلى العقل جـ٢، علم الحديث، من نقد السند إلى نقد المتن.
(٨) النبي المختار ص٣١٩-٣٢٠.
(٩) أحمد الأمين النجفي(العلامة الشيخ عبد الحسين): النبي الأعظم، سلسلة الغدير الموضوعية (١)، الإعداد والتحقيق محمد حسين الشافعي الشاهرودي، مؤسسة مبرات النبوة، قم، رمضان ١٤٢٧هـ.

فيه الرسول لعلي أنه وليه في حديث الغدير المشهور «أنت وليي وخليفتي من بعدي» والذي تعتمد عليه الشيعة في إثبات أحقية علي في الخلافة بعد الرسول بدلا من الخلفاء الثلاثة، أبي بكر وعمر وعثمان. ولا فرق في تشخيص في الرسول بين السنة والشيعة وربما الشيعة أكثر لأنها تشخص الرسالة في الرسول ثم في علي. وشمائل الرسول تمتد إلى شمائل الإمام وباقي الأئمة السبعة أو الاثنى عشر كما تمتد عند السنة في الصحابة والتابعين وآل البيت.

وفي كلتا الحالتين تغيب الرسالة ويحضر الرسول. ثم يغيب الرسول ويحضر عليّ وفاطمة والحسن والحسين وآل البيت بدلا من الصحابة والخلفاء الأربعة. بل يصل التعظيم والتقديس عند الشيعة إلى درجة التأليه. فالنبي الأقدس. وليس فقط تشخيص الرسالة في الرسول بل أيضا تشخيص الكون والأخرويات فيه.

ويتضمن عشرة موضوعات مرتبة أبجديا: فضله، زواجه، التسمية باسمه، الحط من مقام النبوة، الاجتهاد ضد الرسول، الكذابون الوضاعون، الموضوعات، حجة الوداع، زيارته، كلماته[1]. وكلها حول شخصه ولا شيء حول الرسالة. أكبرها الخامس، الاجتهاد ضد الرسول. وأصغرها زواجه.

ويعتمد على القرآن والحديث والشعر العربي وأقلها الفارسي[2]. وتستعمل بطريقة انتقائية، ما يفيد نقد السنة، وما ينفع في الدفاع عن الشيعة. ويصل الأمر إلى حد التجريح

---

(١) أ- فضله ص٢٥-٣٢(٨ص).
ب- زواجه ص٣٤-٣٦(٣ص).
جـ- استحباب التسمية باسم النبي الأعظم ص٣٧-٤٢(٦ص).
د- كلمات وروايات تستلزم حطا من مقام النبوة ص٤٣-١١٠(٦٨ص).
هـ- الاجتهاد في مقابل رسول الله ص١١١-٤٥٦(٣٤٦ص).
و- سلسلة الكذابين والوضاعين ص٤٥٧-٤٧٢(١٦ص).
ز- سلسلة الموضوعات على النبي الأمين ص٤٧٣-٤٧٦(٤ص).
ح- رحلته وما جرى على أهل بيته بعده ص ٥٧٧-٧٠٠(١٢٤ص).
ط- زيارته ص ٧٠١-٧١٦(١٦ص).
ى- كلماته ص٧١٧-٧٨٠(٦٤ص).

(٢) الشعر العربي(٤٥)، الفارسي(١).

والسب واللعن مما يتنافى مع قواعد النقد، ويخرج عن موضوع السيرة. فالسيرة هنا مجرد مناسبة لإظهار الخلاف بين الفريقين الكبيرين عند المسلمين. وتستعمل كل مناهج التأويل، إعادة تأويل نصوص أهل السنة التي يعتمدون عليها دفاعا عن مواقف الشيعة، وإعادة استخدام شواهدهم ضدهم. كل فريق يضّعف روايات الفريق الآخر، الشيعة تضعف روايات السنة، والسنة تضعف روايات الشيعة. لا تنقد روايات الشيعة في علي ولا حتى روايات أهل السنة. وتتوالى الروايات في مدحه بلا نقد[١]. كل رواة الشيعة ثقات، وكل رواة السنة ضعاف إلا ما كان يوافق التشيع[٢]. يُنقد ابن تيمية في نقده الرافضة. ويقتبس منه في منهاج السنة تدعيما للشيعة فلا يوجد موقف واحد من الرواية[٣]. وتتناقض الروايات في معاوية بين الذم والمدح. ولا يأخذ الشيعة إلا الذم دون المدح[٤].

يمدح ما يتفق مع هواه ويذم ما يخالفه. تنقد الأحاديث في فضل الخلفاء الأربعة ولا تنقد الأحاديث في فضل عليّ. وهو ما يفعله أهل السنة أيضا بنقد الأحاديث في فضل علي وعدم نقد الأحاديث في فضل الخلفاء الأربعة[٥]. وتكبير فضل علي عند الشيعة مثل تكبير فضل الصحابة عند السنة. وتتكرر الأحاديث الموالية للشيعة أكثر من مرة لأنها هم على القلب أو الأحاديث المضادة للأمويين حتى يسهل تخليص الساحة من الخصوم. ولا يُكتفى بالشعر بل يضاف إليهم شراح الدواوين[٦].

وتُرصد الحجج النقلية، الآيات والأحاديث تباعا، واحدا تلو الآخر خارج سياقها وأسباب نزولها وكأنها كافية بذاتها دون إعمال للعقل في التعرف على سندها ولغتها وقصدها. ولا فرق بين الشيعة والسنة في ذلك، بين الأميني وابن تيمية[٧]. وترد

(١) النبي الأعظم ص٣٨٤-٣٨٨.
(٢) السابق ص٥٣٩.
(٣) السابق ص٥٥١.
(٤) السابق ص٥٥٥.
(٥) السابق ص٧٢٠-٧٨٠.
(٦) مثل شرح ديوان أبي تمام، السابق ص٥٨٠.
(٧) السابق ص٥٨٤-٦٥٠/ ٧٠٥-٧٨٠.

الأحاديث بكل صياغتها. ويمكن أن تكون قد قيلت في مواقف مختلفة. وإذا كان موضوعها خارج نطاق الحسي مثل الإسراء والمعراج تكثر هذه الصياغات لأن أحدا لم يشاهد أو سمع وبالتالي تترك الفرصة للخيال كي يبدع صورا جديدة.

وتوضع الأحاديث من الفريقين، السنة والشيعة، السنة دفاعا عن السلطان، والشيعة دفاعا عن المعارضة، فكل فعل له رد فعل[1]. السيرة حجاجية، الشيعة ضد السنة، هجوما على الصحابة، ودفاعا عن علي، تضعيفا لروايات السنة وتقوية لروايات الشيعة. ويفعل أهل السنة نفس الشيء، تضعيف روايات الشيعة، وتقوية روايات أهل السنة. وينتقد الشيعة روايات أهل السنة، ولا ينتقدون رواياتهم الخاصة البديلة. كما ينتقد أهل السنة روايات الشيعة، ولا ينتقدون روايتهم الخاصة بهم. كل شيء يقوله عليّ صحيح، ولا تخضع رواياته للنقد. في حين يشكك من حيث المبدأ في كل روايات أهل السنة[2]. تحولت السيرة والرسول إلى ساحة للجدال العقائدي بين الفرق الكلامية، اتهام السنة للشيعة بأنهم رافضة كما فعل ابن تيمية أو إمامية، واتهام الشيعة السنة بأنهم أموية[3]. فالسيرة ليست سيرة موضوعية بل جدلا من الشيعة ضد السنة[4].

تحولت السيرة إلى تاريخ خلافي وكيفية تدوينه. وضاعت دلالة السيرة ودلالة الرسول مبلغ الرسالة وأداتها. وكل الخلاف في قراءة التاريخ أو في قراءة النص أو في فهم الواقع. وتثبت الخلافات القديمة مثل من أول من أسلم؟ أبو بكر عند السنة وعليّ عند الشيعة؟ وما دلالة هذا الخلاف الآن إلا بث الفرقة بين المسلمين وإثارة النعرات القديمة. تؤجج السيرة الفتنة، وتثير الضغائن القديمة التي تحاول كل حركات الإصلاح والتقريب تجاوزها. خرجت السيرة عن مساريها، الرسالة والرسول. ودخلت في الصراع القديم الذي نشأ بعد وفاة الرسول وانتصار السيرة وانتشارها بعد فتح مكة. تحولت السيرة إلى مناسبة لإعادة الصراع بين عليّ ومعاوية، بين السنة والشيعة، لم تستطع تجاوز الخلافات

---

(١) السابق ص٦١٥.
(٢) السابق ص٣٢٥.
(٣) السابق ص٣٩٦.
(٤) السابق ص٦٤٧.

القديمة التي عمرها عمر الرسالة ذاتها. انحرفت السيرة عن موضوعها إلى موضوع الشرعية في حياة الرسول وبعده.

تحولت السيرة إلى خلاف في التأويل وفي فهم النصوص. فلكل فريق تأويله وموقفه من النص واللغة. وغير الشيعة مناط الآية، وطبقوها على واقعهم الشعوري وليس على الواقع الأول في أسباب النزول، وإيجاد دلالتها العامة وليس حكمها الخاص الأول طبقا لقاعدة «خصوص السبب وعموم الحكم». أصبحت السيرة نموذجا للعلوم النقلية التي تعتمد على النصوص بالإضافة إلى الجدل والمحاجة ضد الخصوم. فبدلا من العقل مع النقل دخل الهوى من النقل. وبالرغم من استعمال أسلوب القدماء بالإعلان عن بداية الفقرة بقول المؤلف «قال أبو محمد»، «قال أبو علي» عند أهل السنة أو «قال الأميني» عند الشيعة. فإن ما يأتي بعد القول لا يعبر عن رأي خاص بل مجرد رصد للشواهد النقلية برواياتها الخاصة[1]. وتؤول الروايات طبقا لما يريده الشيعة وقراءتهم للوقائع. ويُركب القرآن على الحوادث كما يؤولها الشيعة. فالتأويل مزدوج. تأويل النص وتأويل الواقع. وكلاهما قراءة[2].

وتستعمل الآيات في غير أسباب نزولها، مجرد أشكال وصور يتم تركيبها على أي موضوع طبقا لهوى المفسر[3]. ويتم شرح الحديث بتحقيق مناطه أي مضمونه خارج النص وواقعه المتعين. ويتم ذلك مع كل النصوص، القرآن أو الحديث. ويبقي أهل السنة النص على عموميته ودلالته بالرغم من أسباب النزول[4]. وذلك مثل «علي في السحاب»، وتفسير المولى بالتجربة والواقع[5].

والخلاف في الاجتهاد لا يقل عن الاجتهاد في فهم النصوص. فالنقل مثل العقل يقوم على الاجتهاد وإعمال الرأي. ونقد الانتخابات واختيار الإمام لا يقل عن نقد النص في

---

(١) السابق ص٣٨/ ٧٣٢.
(٢) السابق ص٣١٥/ ٣٢٧.
(٣) السابق ص٣٤٩.
(٤) السابق ص٥٦٨/ ٦٠٨.
(٥) السابق ص٦١٧-٦١٨/ ٦٣٥.

تعيينه حول تحقيق مناطه وتخريجه. وهل المقصود شخص بعينه في الزمان والمكان أو شروط عامة تتوافر في شخص في أي زمان ومكان؟[1]. والتؤول الآيات طبقا لما تريده الشيعة وقراءتهم للوقائع. فالقراءة محكومة من قبل بالأهواء والرغبات والميول[2]. فكل الآيات التي تمدح فريقا من المؤمنين هم. ويعاد توظيف التراث القديم كله في جدل السنة والشيعة خاصة التراث العقائدي عند الأشاعرة، الغزالي، والباقلاني، والشوكاني، والتفتازاني، والإيجي، والتراث التاريخي مثل القرطبي[3]. ويتعامل معه انتقاء. يذكر ما يتفق مع آرائه أو مع من يخالفه[4].

كما يعتمد على السير الحديثة والشعر الحديث المادح وللرسول وللأئمة[5]. ويرد على سير المستشرقين والكشف عن عدواتهم وللرسول[6]. كما يتم الاعتماد على تفسير المنار إذا كان موافقا للهوى[7]. وتستعمل بعض الألفاظ الحديثة مثل «دستوري»[8]. وبالرغم من الرغبة في التحديث والاعتماد على سير وشعر المحدثين إلا أن الإطار التاريخي العام هو الإطار القديم، إطار الفتنة الأولى والخلاف على إمامة عثمان، وشرعية الخروج عليه، والخلاف بين عليّ ومعاوية.

وبالرغم من الثورة ضد الظلم والدفاع عن الحق إلا أن النص موجه ضد الاجتهاد. واعتبار الشيعة أهل النص والسنة أهل اجتهاد لا يزيد من شرعية الشيعة ولا يقلل من شرعية السنة. فالاجتهاد أصل من أصول التشريع، الجماعي في الإجماع أو الفردي في الاجتهاد مثل النص سواء في القرآن أو في الحديث. صحيح أن الاجتهاد قد يخطئ، وهو أمر طبيعي لأنه جهد إنساني ولكن الصواب متعدد. وللمخطئ أجر وللمصيب أجران.

---

(١) السابق ص١٢١-١٢٢.
(٢) السابق ص٣١٥.
(٣) الغزالي في الأحياء، السابق ص١٩٣، الباقلاني ص١٢٣، التفتازاني ص١٢٥، الإيجي ص١٢٦، الشوكاني ص٥٥/ ٧٥، القرطبي ص١٢٨.
(٤) يذكر الغزالي ص٣٥٧، الماوردي ص٣٥٨، الجويني ص٣٨٢، الجاحظ ص٢٩٨.
(٥) مثل شاعر النيل، السابق ص٦٨٥، «وظهر الإسلام» لأحمد أمين ص٦٢٦.
(٦) مثل كتاب «محمد» أي لإميل دير منجم، النبي الأعظم ص٤٣.
(٧) السابق ص٧٤٦.
(٨) السابق ص٦٨٧.

وصحيح أيضا أن الاجتهاد قد يكون لصالح السلطان ضد الصالح العام، ولكن هناك أيضا الاجتهاد لصالح الناس في مواجهة فقهاء السلطان. والخلاف في الاجتهاد جزء من الصراع السياسي. فكل اجتهاد يعبر عن قوة سياسية. المهم أن حل الخلاف يكون بالحوار، وتبادل وجهات النظر، والوصول إلى حلول مشتركة وليس الاقتتال وإسالة الدماء. وإذا كانت النية تحرير المجتمع من التسلط فإن العمائم أحد مظاهر السلطة[1]. لذلك دعت كل الحركات الإصلاحية إلى التحرر منها[2].

ونتائج السيرة هي مقدمتها وليست نتيجة للبحث التاريخي الموضوعي المحايد بالرغم من أن اسم السلسلة «سلسلة الغدير الموضوعية» وهذه خطورة السيرة العقائدية[3].

د- «الأيام والساعات الأخيرة في حياة محمد» للطرشان[4]

وأسوة بفيلم «الأيام الأخيرة ليسوع المسيح» كتبه أحد المحدثين، وفي ثقافة الشهادة والعزاء، وقد يوحي ذلك بأن التوجه شيعي بالإضافة إلى ثقافة البكاء، وطبع على أوراق بخلفية سوداء. والغلاف مجلد بلون أسود. وهي «أول موسوعة معاصرة تجمع كل ما ورد عن رسول الله من قول أو فعل أو وصية في آخر حياته «دون تبرير لماذا في آخر حياته دون أولها أو وسطها إلا لتواصلها في الخلافة عند السنة أو الإمامة عند الشيعة». وهي «دراسة توثيقية معرفية متكاملة»، وكأن القدماء خاصة المؤرخين منهم لم يوثقوا شيئا في حياة الرسول قبل البعثة وبعدها، أولها ووسطها وآخرها بل واستقرارها في الخلافة.

يصدرها وزير الثقافة[5]. والإهداء إلى دمشق الشام التي تحب محمدًا وكأن دمشق

---

(١) ترمز العمائم للسلطة الدينية عند الشيعة، السابق ص٦١٧.

(٢) قال محمد عبده: إنما هو دين أردت صلاحه ∴ أخاف أن تقضى عليه العمائم.

(٣) النبي الأعظم ص٣٣٣.

(٤) الطرشان (محمد خير): الأيام والساعات الأخيرة في حياة محمد، مركز الناشر الثقافي، دمشق٢٠٠٨م، ١٤٢٨هـ(١٤٣٩هـ؟) ومن منشورات «مركز الراية المعرفية».

(٥) هو د. رياض نعسان أغا. والطباعة فاخرة وملونة مما يدل على أنها مدعمة ماليا من السلطة السياسية، ومهداة إلى الدكتور أحمد حسون المفتي العام للجمهورية العربية السورية مما يدل على موافقة السلطات الدينية. وميزته أنه «حرك عواطف المسلمين وألهب مشاعرهم بدروسه وخطبه عن وفاة الرسول» وكأن إلهاب المشاعر يغني عن النقد العقلي والتحليل العلمي. وهناك مقدمة للناشر أيضا علاء الدين آل راشي، يعبر فيها عن نفس الروح وكأنه على سابق اتفاق، السابق ص٥-١٠، فالناشر مفكر وصاحب موقف.

أكثر من القاهرة والخرطوم وتونس وفاس إلا إذا كان الهدف سياسيا، الجمع في دمشق بين السلطتين الدينية والسياسية منذ أيام معاوية. ومن المُهدى إليهم الكتاب بجوار دمشق الشام ومفتي الجمهورية الإنسان، صاحب المثل الأهداف والرسالات مثل الرسول. وهي لا تتحقق في أواخر حياته فقط بل في أولها ووسطها أيضا[1]. الهدف هو التعظيم والمدح للرسول مثل المدائح النبوية شعرا ونثرا، في أشعار أو أدعية كما هو الحال في أجهزة الإعلام في المناسبات الدينية خاصة المولد النبوي. لذلك غلب على الأسلوب التقريظ والخطابة.

ويتم التركيز على أفعال وأقوال الرسول في الأيام التسعة الأخيرة دون استنباط دلالاتها على نطاق واسع. فزيارة أحد تكريم للشهداء الذين سقطوا ساعة العسرة وفي وقت الهزيمة. والاشتياق إلى الإخوان تعني أن الصحبة الحقيقية هي استمرار صحبة الأرض في صحبة السماء. واستئذان زوجاته تعني الحنين إلى الصحبة الخاصة بعد الصحبة العامة. والخشية على تنافس الأمة تعني هم الرسالة ومستقبلها وهو ما يتفق مع شعاري الكتاب أن الرسالة أبقى من الرسول، وأن الرسول فان، والرسالة خالدة. والتأكيد على الصلاة يعني أهمية الاتصال اليومي عدة مرات بالرسالة، وعدم نسيانها، والتحقق بأفعالها. والرفيق الأعلى يعني أنه مصير كل شيء، ونهاية كل شيء، فالله هو البداية والنهاية. وهي معانٍ تقليدية لا جديد فيها، يعرفها الوعاظ من حياة الرسول ومبادئ الرسالة. كله حول شخص الرسول، شخصيته وسلوكه والأيام الأخيرة، والساعات الأخيرة، وآثاره.

والعجيب أن شعار الكتاب المطبوع في أعلى كل صفحة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ ضد تشخيص الرسالة في الرسول، وآية أخرى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، الأولى أعلى الصفحة اليسرى، والثانية أعلى الصفحة اليمنى[2].

---

(١) «وإلى الإنسان الذي يتطلع إلى مثل ورسالة وهدف في حياته. تقدم وصادق محمدا، تصدق في حياتك».

(٢) «هون عليك فإني لست بربك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»، السابق ص١٦٣، «وإني أوعك كما يوعك رجلان منكم»، ص١٦٤ «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر. وإني قد أخذت عندك عهدا لن

والفصول ستة غير متساوية. أكبرها الخامس الرسالة والرسول. وهو الموضوع الرئيسي في محوري علم السيرة[1]. الأول شخصية الرسول مع القرآن كمعجزة الإسلام الخالدة. والقرآن رسالة مستقلة عن شخص الرسول كمبلغ لها. يوصف الجسد وليس فقط صفات النفس. وتستخرج الدلالات للمسلم المعاصر، أكثرها في العرض دون الجوهر. ويذكر الإنسان عرضا. وأهم التعاليم الجمع بين جمال الظهر والمخبر، والعقل والعضل، والتحكم في السلوك وأولوية العقائد والخلال على الملابس والفعال. والإنسان جوهر الإسلام، واللطف مع الناس، والوعي بالنفس، والثقة بالإرادة، وصلاح الذات والغير[2].

والثاني تساؤلات حول سلوك الرسول والجانب الجهادي في شخصيته. والتعاليم الخلقية للمسلم المعاصر هي أن الرسول رجل رسالة بامتياز، جدير بالحب. يبين أهمية الحكمة والاقتناع، وعدم اللجوء إلى الحرب إلا استثناء، وعدم السيطرة على الشعوب بل توحيدها تحت مبدأ واحد، وأهمية الإيمان، والثقة بالله والتوكل عليه، وحسن الظن به[3].

والثالث الأيام الأخيرة مجملة. والدروس المستفادة منها أن سكن المعرفة يطرد قلق الحيرة والجهل، وأن الرسالة روح وموقف وليست شكلا لا يعرف، وتذكر وصايا الرسول في أحلك اللحظات، وبناء التدين على الشرع، والبداية بالنفس ثم الأسرة، وتحقيق أهداف الحياة، والاعتماد على العقل، وحسن معاملة النساء، وتمثل العزة والضراعة والتواضع والعفو والتسامح، والوفاء للفكر، واختيار أصحاب الكفاءة وليس كبر السن ولا صغره، والحوار مع الزوج، وخشية يوم الحساب من عصيان الله وإيذاء البشر[4].

تخلفنيه. فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة، تقربه بها إليك يوم القيامة»، السابق ص١٦٤.

(١) الأول (عدد الصفحات) (٥)، الثاني(١١)، الثالث(١١)، الرابع(٩٢)، الخامس(١٣٤)، السادس(٣٧).

(٢) الأيام والساعات الأخيرة ص ١٣-١٧.

(٣) السابق ص٣٧-٤٧.

(٤) «لم يخلع النبي على نفسه صفات الألوهية بل هو عبد الله»، السابق ص١٦٣، «رغم علو مكانه وسمو خلقه الشريف فإنه لم يتخط خصائص البشرية»، ص١٦٤.

والرابع تفاصيل الساعات واللحظات الأخيرة في حياة الرسول: زيارة القبور، رعاية المسجد، الظهور العلني الأخير، وفاته، دفنه، إعلام الله للوفاة، مرضه، غُسله، موضع قبره، زوار قبره، كيفية الصلاة عليه وثواب الزوار[1]. وهي أمور تجسد الشخص وليس الرسالة وتمهد لزيارة القبور.

والخامس، الرسالة والرسول، المحوران الرئيسيان للسيرة. يتضمن موضوعات غيبية مثل عالم الغيب، الألوهية والربوبية والنبوات، وختم النبوة وعموم الرسالة الإسلامية، ثم القرآن كمعجزة للرسول، وتكفل الله بحفظه وأثره في تبصير الإنسان، وخلوه من التعارض، ورفض الإعجاز الرياضي، وإثبات معجزات الرسول الحسية[2].

والسادس وهو الأخطر صور وآثار الرسول[3]. وقد أدى ذلك إلى تقديس رفات

---

(١) ثم منهج الرسول في العبادة والرحمة والإيمان والنبوة، ثم فضل الصحابة ووجوب محبتهم وصفاتهم، وطاعتهم لله وتحررهم للدعوة للإسلام وفضل الهجرة، والتعاليم المشتقة هي مساعدة التوحيد على تفتح الوعي الإنساني، والتركيز على ذات الإنسان وعالمه في الأدبيات الإنسانية، إهمال لعلاقة بالخالق، والتربية الإسلامية طبقا لمنهج الأنبياء، رقي السلوك، التفكير التأملي، صفاء العقيدة، الوحي طريق لمعرفة الغيب وليس قوى الإنسان الداخلية، نسيان الرب، ضياع النفس، حرية الإنسان في التعرف على الله، المضامين الاجتماعية والسياسية في الإسلام، الألوهية والربوبية، العبادة شكر، الأدلة الكونية على وجود الله، الأدلة النفسية، وحدة الأديان، الرسول آخر الأنبياء، النبي ليس إلها، مشاورة الصحابة، شكر الله، هداية الله وشرعه، الاعتزاز بالإسلام كحضارة إنسانية، عدم اعتراف التوحيد بالطبقية أو العنصرية، رفض الإيمان للأوضاع الظالمة، طريق السنة أقصر الطرق، تصفية المشاعر، الخلوة، الانتقال من الرواية إلى الدراية، جمع القرآن وقت الخلفاء الأربعة، أفضل كتاب للبشرية، علم النفس القرآني، الصراحة والحق، التوبة، وظيفة الرسل تبصير العباد، أتباعه السلف في طرق البحث والاستنباط في الروايات. عدم وجود ألغاز في القرآن، الإعجاز في النظم والأسلوب، مراعاة المصلحة والتيسير ورفع الحرج ومنع التعسف والظلم، القرآن خالد كالرسالة، التسليم للوحي والنبوة، المعجزات الحسية وإيمان الصحابة بها، إقامة الفرائض، حب الله وعبادته وتأثر الرسول به وتوثيق الصلة بالله، القناعة، الاطمئنان، الاستغفار والاستقامة، التوبة، سمو المشاعر، العزم والرفض، الإحسان، تعلق الصحابة بالرسول وحبه، الحكمة والعلم، الذوق الرفيع، الالتزام بهدي الرسول، حسن معاملة الأزواج، حسن اختيارهن، الحذر من الإسراف، إكرام الضيف، التصدق، إبعاد الوساوس، البحث عن الدليل، غياب الكهنوت والتفويض الإلهي، التضحية، النية الصالحة.

(٢) السابق ص٢٧٩-٣١٤.

(٣) بيت السيدة خديجة، مصلى الرسول في البيت، مدخل غرفة الرسول فيه، مكان مولد فاطمة، المحراب في مكان استقبال الوفود، مكان استقبال الوفود، غار حراء، غار حراء من الداخل، باب عائشة أو باب الوفود، الواجهة الشمالية للحجرات المطلة على دكة التجهد وباب جبريل، الواجهة الغربية المطلة على الروضة الشريفة، باب فاطمة، الضبة والمفتاح، بئر غرس، بئر العهد، بئر البصة الكبرى، إناء النبي، مكحلة النبي، عمامة وبردة وعصا النبي، صندوق البردة، البردة، نعل النبي (الناسومة)، السبتية، اليمنية، راية النبي، سيف النبي (المأثور)، القضيب، قوس النبي، رسائل وختم النبي، رسالة إلى ملك البحرين، رسالة إلى

القديسين، وتقديس كل ما ترك الرسول من سيف وعمامة ونعل وجبة وشعر. ولا يوجد في الهند مسجد أو مزار إلا وفيه أثر للرسول. وهي أربعة وثلاثون أثرا ورسمان توضيحيان ومنها ما قد جُدد ولم يعد في شكله الأصلي. فقد أعيد ترميم بعضها[1].

ويعتمد الكتاب على عديد من الآيات والأحاديث والأشعار، والأحاديث أكثر[2]. والأشعار أقل مع أن الشعر أقرب إلى الوجدان الذي يود الكتاب إثارته، وجدان الحزن على فقدان الرسول. والأهم هو الدلالات التي تظهر في العناوين الرئيسية أعلى الصفحات وتحت الآيتين عن استمرار الرسالة بالرغم من وفاة الرسول. وهي مكتوبة في صيغة الأمر. موجهة إلى القارئ لتطبيقها في حياته العملية. وتبدأ بعض الفصول بالأشعار في حب الرسول مثل «بردة البوصيري» بل وتظهر في مقدمة الناشر[3]. كما يُحال إلى بعض المحدثين الذين يشخصون الرسالة في الرسول[4]. ولتجميل الطباعة الأحاديث بخط اليد وباللون الأخضر، والآيات بالحروف المطبوعة بالأبيض على الأرضية السوداء. وتضم حواشي الكتاب في آخر كل فصل[5]. وتغيب الأحاديث من بعض الموضوعات كما تغيب أحيانا التعاليم الخلقية المعاصرة[6]. وتختلف النسب بين الآيات والأحاديث والأشعار والتعاليم من فصل إلى فصل. النية تحقيقها كروايات، والانتقال من الرواية إلى الدراية[7].

الحارس الغساني، رسالة إلى مسيلمة الكذاب، والرسمان التوضيحيان، الأول لمكان تجارة خديجة، والثاني لبيوت النبي.

(١) السابق ص٢٩٠.

(٢) الأحاديث(٣١٩)،الآيات(١٩٣)، الدلالات(١٤٩)، الأشعار(٤).

(٣) الأيام والساعات الأخيرة ص٨/ ١٠/ ١١/ ٣٥/ ٤٢.

(٤) هو الشيخ محمد الغزالي.

(٥) الأيام والساعات الأخيرة ص٣١/ ١٣٧-١٣٩/ ٢٢٦-٢٧٣.

(٦) غياب الأحاديث، السابق ص١٠١-١١٥، غياب التعاليم ص٧٠-١٣٩/ ١٩٨-٢٠٤/ ٢٣٦-٢٣٩ «فمن قطعنا الصلة مع كثير من تعاليمه، وكذلك لم نقم بنشر أريج أيامه فقد اكتفينا بسرد تقليدي لسيرته أو تضخيم لجانب الغزوات على حساب دراسة جوانب أخرى مهمة في حياته المباركة. وفي الحقيقة لا يستوقفني ما يثار من قبل الآخرين حول صدق دعوة النبي، فنحن قبل أن نعمل على رد مكائد أو تخرصات الخصوم لنقف قليلا مع ذاتنا كيف خدمنا سيرة ودين الحبيب المصطفى»، ص٦.

(٧) «هل قمنا بالتمحيص للمرويات وبمراجعة الكثير من النصوص التي ألفنا تكرارها دون وعي لها؟ هل تخدم ديننا حقا؟ متى نكف عن مجرد الرواية والرواية فقط إلى الدراية الواعية»، السابق ص٦.

وبالإضافة إلى الموروث يظهر الوافد مثل تصدير الفصل الثاني بعبارة مدح لويل ديورانت[1]. وأحيانا يعتمد على الوافد فيما لا لزوم له مثل وصف واشنجطن ايرفينج مرض الرسول والساعات الأخيرة في حياته وهو ما يوجد لدى كتاب السير والتاريخ القدماء[2]. وتستعمل ألفاظ معربة مثل «الإتيكيت» بمعنى الذوق الرفيع[3]. ويستشهد الناشر بقول من كارلايل من كتابه «الأبطال والبطولة» على صدق الرسول[4].

٤- المعجزات:

أ- «معجزات النبي» لابن كثير (٧٧٤هـ)[5]

والمعجزات موضوع يربط بين السيرة والشمائل، إذ يدخل في كليهما. وأهم ما فيه هو البنية المحكمة وقسمة الشمائل إلى حسية ومعنوية، المعنوية القرآن، خلق النبي وسيرته، والحسية السماوية والأرضية[6]. ثم قسمتها إلى مستويات الطبيعة، الجماد والنبات

---

(١) «إن محمدا هو أعظم عظماء التاريخ»، السابق ص٢١.

(٢) السابق ص٦٢.

(٣) السابق ص٢٢٣.

(٤) «لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث من أبناء هذا العصر إلى ما يصغى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدا خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليه هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا. ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل التصديق والقبول. فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق»، السابق ص٦-٧

(٥) ابن كثير(الإمام الحافظ أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقي: «معجزات النبي»، تحقيق مجدي محمد الشهاوي، عالم الكتب، بيروت ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م).

(٦) السماوية مثل انشقاق القمر والاستسقاء، والأرضية مثل تكثير الماء والأطعمة، والجماد مثل تسبيح الحصى في كفه، والنبات مثل انقياد الشجر للرسول وحنين الجذع، والحيوان سجود البعير والغنم للنبي، شهادة الذئب برسالته، قصص الوحش والأسد وأحاديث الغزالة والضب والحمار والحمّرة. والإنسان الكلام بعد الموت، وكلام الرضيع في المهد، وشفاء الصبي، واستئذان الحمى، وشهادة الأنبياء السابقين، وبشارات الكتب السابقة، وشهادة اليهود والأحبار بالغيوب، وآيات الأنبياء السابقين: نوح، هود، صالح، إبراهيم، موسى، إدريس، داود، سليمان، والتنبؤ بالحوادث المستقبلة مثل الفتنة الكبرى، ومقتل الخلفاء، وغزو قبرص والهند، وقتال الروم والترك. والإخبار عن خلفاء الأمويين والعباسيين، وظهور الأئمة.

والحيوان والإنسان. وأكبرها معجزات الإنسان وهي كرامات الأولياء[1]. والمعجزات هي الدلائل النبوية مع أن صدق النبوة في ذاته، باتفاقها مع العقل والواقع والتجربة الإنسانية.

وتعتمد على القرآن والحديث والشعر، والحديث أكثرها والقرآن أقلها[2]. وكلها روايات وأخبار قصص وأحاديث وأقوال وأذكار مما يدل على الفارق بين الحدث وروايته[3]. وتذكر الروايات دون نقد.

ب- «الفرج القريب في معجزات الحبيب» للآثاري (٨٢٨هـ)[4]

وهي قصيدة لمعارضة «البردة» للبوصيري أي على نموذجها. تركز على المعجزات، مائة معجزة في مائة وعشرين بيتا. والعنوان دال على أن الإيمان بمعجزات الرسول يفرج الكروب ويشفي الأمراض كما هو الحال في الطب النبوي. فالرسالة والرسول كمحورين يتقلصان في المعجزات، وهي معجزات الحبيب. والحبيب دائما قادر على إجراء المعجزات. فالحب يصنعها، والمحب يراها.

جـ- «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٩١١هـ)[5]

وكلما تقدم التأليف في سير الخصائص والشمائل وامتد الزمان زادت المعجزات على الأفعال الإنسانية، وتضخم الجانب الإلهي على الجانب الإنساني، وطغى الجانب الأسطوري على الجانب التاريخي. فمن ستة عشر موضوعا يضمها الكتاب ثلاثة عشر

---

(١) الحسية ص٢٧-٥١، المعنوية ص١٣-٢٤، الجهاد ص٥٢-١١٢، الحيوان ص١١٣-١٤٢، الإنسان ص١٤٢-٣٣٨.

(٢) الحديث(٣٥٢)، القرآن(٢١٩)،الشعر(١٤).

(٣) خبر(٢٣)، قول(٩)، قصة(٥)، حديث(٤)، كلام، ذكر(١).

(٤) الآثاري (زين العابدين شعبان بن محمد)، خمسة نصوص إسلامية نادرة في معجزات الرسول وفضائله وفضل الصلاة والسلام عليه، حررها وقدم لها هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م ص١٥-٢٠ .

(٥) السيوطي(جلال الدين): الخصائص النبوية الكبرى المحي كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب(جزءان)، تحقيق وتعليق، دكتور حمزة النشرتي، الشيخ عبد الحفيظ فرغلي، دكتور عبد الحميد مصطفى، المكتبة القيمة، القاهرة(د.ت).

منها في المعجزات. واثنين في فضله على سائر الأنبياء، وواحد في الواجبات والمحرمات والمباحات والكرامات على طريقة ابن الملقن[1]. والموضوع ليس بابا أو فصلا بل «ذكر». وأكبرها المعجزات في خلقه أي في شخصه ثم في غزواته أي في لب سيرته ثم في إخباره بالمستقبل. وكل موضوع يتكون من عدة أبواب[2]. والكتاب على هذا النحو بلا هيكل أو بنية. وتتعدد أشكاله الأدبية بين «ذكر» و«باب» و«فائدة» و«قصة».

والعنوان يوحي بالتركيز على الرسول وليس على الرسالة، فقد ابتلع الرسول الرسالة. والرسول له خصائص كبرى. والعنوان الفرعي «كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب» يدل على لقب الرسول عند الصوفية، والطالب اللبيب هو المريد. والإهداء إلى الرسول اقتباسات من القرآن والحديث والشعر منتقاة سلفا تدل على تعظيم الرسول وتقديسه أكثر مما تدل على إنسانيته. وهي كثيرة أيضا[3]. منها الاصطفاء، ومنها

---

(١) ١- المعجزات والخصائص في خلقه الشريف(٢٨٠ص).
٢- المعجزات الواقعة في الغزوات(٢٤٠).
٣- المعجزات التي وقعت عند وفادة الوفود عليه(٥٧ص).
٤- بقية المعجزات(٣١).
٥- المعجزات في ضروب الحيوانات(٣٨).
٦- المعجزات في أنواع الجمادات(٢٢).
٧- المعجزات في رؤية المعاني بصورة الأجسام(١١).
٨- المعجزات في رؤية أصحابه الملائكة وسماع كلامهم (٧).
٩- المعجزات في رؤية أصحابه من الجن وسماع كلامهم(٨).
١٠- المعجزات فيما أخبر به من المغيبات(٢٠).
١١- المعجزات فيما أخبر به من الكوائن بعده فوقع كما أخبر(١٢٥).
١٢- المعجزات في إجابة الدعوات(٣٦).
١٣- آيات في منامه رؤيته في عهده(٧).
١٤- موازاة الأنبياء في فضائلهم بفضائل نبينا(١١).
١٥- الخصائص التي فضل بها على جميع الأنبياء ولم يعطها نبي قبله(١٠٥).
١٦- الخصائص التي اختص بها عن أمته من واجبات ومحرمات ومباحات وكرامات(١٢٥).

(٢) في مجموعها ٣٥٢ بابًا بواقع اثنين وعشرين بابا في كل موضوع.

(٣) مثل ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد بني إسماعيل بني كنانة. واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾، الخصائص الكبرى ص٣.

العلم والحكمة. ومنها أيضا المبلغ والرسول والأداة. أما الشعر فإنه مديح يكاد يقارب بين الرسول والله[1]. ومعظم الاقتباسات تصور محمد الكوني كما هو الحال في الحقيقة المحمدية عند الصوفية، محمد الإله على حساب محمد الإنسان، محمد صاحب المعجزات وليس محمدًا البشر. ويتدخل جبريل دائما في الأحاديث محاورا وفي الأفعال مشجعا مؤيدا وناصرا. وروايات الإسراء والمعراج دليل على ذلك والتي تعطي للخيال مناسبة فريدة للإبداع. ولا تكاد تذكر البعثة والرسالة[2].

الكتاب كعادة السيوطي تجميع من الكتب السابقة. كله منقولات دون منهج أو رؤية أو هدف إلا التجميع. والتعليق نادر[3]. والأسلوب إنشائي، مجرد تمجيدات وتحميدات وتقديسات مما يتجاوز حدود العقل والعلم والتاريخ. يضيف بعض الشروح اللغوية[4]. ويعتمد على المؤرخين كالواقدي وغيره[5]. ويحيل إلى عديد من المصادر التاريخية غير الحديث. كما يحيل إلى بعض مؤلفات الآخرين[6]. وتدخل عديد من الإسرائيليات كما دخلت في باقي العلوم النقلية خاصة الحديث والتفسير.

وبعد الخطب الإنشائية والأساليب البلاغية يحدد السيوطي منهجه بأنه منهج نقلي خالص من أئمة الحديث، أسانيده حول شخص الرسول ومعجزاته بعيدا عن الأخبار الموضوعة والأحاديث الضعيفة. وهو اعتراف بضعف بعض الروايات. أما الترتيب والقسمة والأبواب فهي شاملة للموضوع جامعة له لم تترك شاردة ولا واردة. والهدف هو شرح صدور القوم المؤمنين ضد الجاحدين والمفسدين، والطائفية المبتدعة والملحدين

---

(١) هو شعر حسان بن ثابت

أغـــر عليـــه للنبـــوة خاتم	من الله من نور عليه ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه	إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشـــق مـــن اســـمه ليجله	فذو العرش محمود وهذا محمد

(٢) السابق ص٦٤.
(٣) السابق جـ١/ ١٢٢.
(٤) السابق ص١٨٢-١٨٣.
(٥) السابق ص٢٥٠.
(٦) السابق ص٢٦٦.

والفلاسفة المتمردين «أي كل إعمال للنظر في الروايات ونقد عقلي أو تاريخي لها»[1].

يعتمد على الحديث والقرآن والشعر، الحديث أكثر من القرآن، والقرآن أكثر من الشعر[2]. وتشمل الأحاديث الأقوال المباشرة والروايات، السنن القولية والسنن الفعلية. وتتعدد الروايات في الحديث الواحد مما يدل على تضخمها والزيادات فيها على مدى الزمان. والأحاديث طويلة يستحيل على الذاكرة استيعابها مما يدل على الوضع. كما تدل على أنها مركبة[3]. القرآن سند للحديث. فالحديث هو الأصل. وتُعين درجة الحديث في الإسناد بين الصحيح والضعيف، الحسن والغريب[4]. ومن كثرة الأحاديث يظهر التداخل بين علم الحديث وعلم السيرة، وأن علم السيرة هو تشخيص لعلم الحديث وإعادة تبويب له طبقا لحياة الرسول.

وفي لحظات الضعف إما يتم الرجوع إلى الماضي تشبثا به وتعويضا عن مآسي الحاضر وإما قفزا إلى المستقبل. فقد رُويت أحاديث آخر الزمان لتبرير ما هو قائم وانتظار ما هو أسوأ. لذلك تكثر أحاديث أشراط الساعة وعلاماتها والتنبؤ بمصير الشهداء مثل عمار ابن ياسر والحسين. وتنسج على منواله باقي التنبؤات. وقد يتطابق حديث مع حال الأمة اليوم ويكون ضعيفا من حيث السند إلا أنه يكون قويا من حيث تطابق المتن مع التجربة الذاتية والتاريخية[5].

د- «السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة» لأطفيش[6]

وفي السير المعاصرة قد تُقلص السيرة كلها في المعجزات وكأن الرسول ليس مبلغا لرسالة، وكأن الرسالة لا تهدف إلى تغير اجتماعي وتحرك تاريخي، مثل أصحاب الخوارق في الديانات البدائية. وهذا ما يدل عليه العنوان «السيرة الجامعة من المعجزات

---

(١) السابق جـ١/ ٢٠.

(٢) الحديث(٨٢٠)،القرآن(٣٠٥)،الشعر(٢٠٤).

(٣) السابق جـ١/ ٤٦٢-٤٦٩.

(٤) السابق ص٥٦٥.

(٥) من النقل إلى العقل جـ٢ علوم الحديث: من نقد السند إلى نقد المتن.

(٦) الشيخ محمد بن يوسف أطفيش: السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

اللامعة». ولا فرق بين فرقة إسلامية وأخرى، بين أباضية وسنة وشيعة، وكأن الرسول لم يبعث إلا لإجراء المعجزات. وتضم المعجزات الكرامات وكل خوارق العادات. وتجمع كما تجمع الغزوات والشمائل والنعال. وإذا كان الجماد والثعبان والحيوان يشهد بالنبوة فكيف ينكرها الإنسان؟ وتختار المعجزات من كتب التاريخ. والإباضية تعتمد في عقائدها التوحيد والعدل على المعتزلة وعقلانيتها التي تستدعي أخذ موقف نقدي من المعجزات. وتتوالى المعجزات بلا تصنيف حتى الشائع، المعنوية والحسية، أو ترقيم. وكلها تلبية لحاجات المجتمع الصحراوي: الماء والغذاء، والحماية من الظواهر الطبيعية والجفاف، والنصر على القبائل، وعلاج المرضى. لذلك جاءت المعجزات تكثير الماء والطعام ومخاطبة الريح والاستسقاء والنصرة بعوامل خارجية وشفاء الجرحى. ويصل حجمها إلى ما يزيد على خمسمائة حديث كما هو الحال في السير الشعبية.

تخلو السيرة من البنية. فهي بلا أبواب ولا فصول بل أقل من ذلك «خبر» أو «حديث» أو «ذكر» أو «كلام» ودون ترقيم أو تصنيف[1].

والسؤال هو: هل مازال أحد يكتب السيرة بهذه العقلية، تكبير المعجزات وتكثيرها بحيث تشمل كل سيرة الرسول؟ وكيف تكون سيرا معاصرة وكلها تحاول بيان الجوانب العقلانية والإنسانية والطبيعية في الإسلام، ورسالته التي يبلغها للناس؟ ولماذا نعيب على الجماعات الإسلامية خروجها وفكرها التقليدي ومثل هذه السير تمدهم بأصولهم النظرية في ممارستها السياسية؟.

كل المعجزات حسية وبعضها كونية. فليس الرسول بأقل من عيسى وموسى[2]. ومنها الأخبار بولادته من أهل الكتاب ومعرفتهم به. وتكثر المعجزات في الغزوات تأييدًا بالنصر[3]. وتسمى خوارق أي كسر قوانين الطبيعة. وفي المعارك يصل شفاء

---

(١) خبر، أخبار(٥٦)، حديث(٢٧)، ذكر(١٨)، كلام(٢).

(٢) مثل أنه أول المخلوقات، الكلام في المهد، خروج النور الحسي منه يوم ولادته، ولادته مختونا، إرضاع الأبكار له، انتكاس الأصنام عند ولادته.

(٣) خوارق يوم الخندق، خوارق في غزوة أحباب الناس فيها بوع نبع الماء بين أصابعه، شفاء بعض المرضى، وإحياء معظم الموتى، ظلالة الغمام له، خوارق الهجرة، تسبيحه في بطن أمه.

المرضى إلى حد إحياء الموتى[1]. وفي الطبيعة تظهر كلمة الشهادة مكتوبة في أوراق الأشجار وغيرها بقلم القدرة[2]. وأشهرها تكثير الماء والطعام[3]. ومنها الإخبار بالغيب[4]. ومنها معجزات الحرب[5]. ومنها معجزات خاصة حياء للرسول[6]. ومنها الحديث مع الجن والملائكة[7]. وأحيانا تظهر القدرة على الحكم بأن بعض المعجزات بدع[8]. ويحكم على بعضها بأنها بدعة حسنة، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف[9].

وتعتمد السيرة كالعادة على القرآن والحديث والشعر وكتب التاريخ[10]. والحديث أكثر لأنه هو المملوء بالمعجزات من خلال روايات ضعيفة أو موضوعة وغير متواترة. والشعر تصديق للحديث أكثر ومبالغة مثله. والقرآن أقل لأنه لا يجعل المعجزة دليلا على صدق النبي في معظم آياته، باستثناء القرآن. وهو إعجاز وليس معجزة، تحد بلاغي وتشريعي. والمعجزات معظمها روايات وليست أقوالا مباشرة من الرسول. والأحاديث رواية وقولا وليس بين معقوفتين بل هو خطاب مرسل بلا بداية ولا نهاية. كلها تقوم على النقل من القدماء دون نقد للروايات الذي مارسه القدماء أنفسهم. ومن المؤرخين يأتي ابن إسحق أولا ثم الواقدي ثم النيسابوري وغيرهم من المحدّثين[11]. ويشار إلى

---

(١) السابق ص٢٤.

(٢) رجوع الغنم، السابق ص٢٦.

(٣) ومن تكثير الماء والطعام إرواء الجيش من مزادتين، أكل مائة وثلاثين رجلا من بطن شاة، عذوبة البئر بيصاقه، استسقاء قريش، أكل عامة الصحابة من ثلاث من بيض النعام، صدور الماء بتفله، فيضان النبع.

(٤) مثل: ذكر مصارع قريش، انهيار إمبراطوريتي فارس والروم والأحباش، الدعاء للأصدقاء وعلى الأعداء.

(٥) مثل عبور الوادي دون بلل، انهزام الكفار بحفنة من تراب، الشفاء بريقه الشريف.

(٦) مثل: ستر شجرتين له عند قضاء الحاجة، مخاطبة الجمادات، شهادة جمل بين يديه، كلام الشاة المسمومة، رده عين يوم أحد.

(٧) كلام بعض الجن بالشعر، إسلام بعض الجن.

(٨) «القيام عند بلوغ القراء لمولده إلى فكرة بدعة منكرة»، السيرة اللامعة ص٧.

(٩) الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بدعة حسنة، السابق ص٧.

(١٠) الأحاديث(١٨٥)الأشعار(١٣٢)، الآيات(٢٧).

(١١) ابن إسحق، السيرة الجامعة ص ٨٤/ ١١٩/ ١٢٠/ ١٣٠/ ١٥٨/ ١٩٠/ ١٩٨، الواقدي ص ١٠١/ ١١٤/ ١٣٢/ ١٣٤، النيسابوري ص١٩٤.

الاقتباسات بحرفي «أ هـ» اختصارا لكلمة «انتهى»[1]. وهل يجوز إعادة بناء التاريخ الماضي من روايات للرسول نقلت فيما بعد؟ هل الروايات اللاحقة مصدر للتاريخ السابق؟ ولا يتم التساؤل عن بعض الأحكام مثل الأمر بالقتل وضرب العتق[2].

٥- خاتم الأنبياء:

أ- «محمد خاتم النبيين» لأحمد رضا خان(١٣٤٠هـ)[3]

وهي خاصية واحدة للرسول وهو أنه خاتم النبيين ضد إنكار نبوته في البداية أو استمرارها في النهاية بعد وفاته. كتبت في البيئة الهندية بالأردية في بيئة يكثر فيها ادعاء النبوة لدى عدة فرق كالقاديانية والبهائية، والديوباندية والقاسمية[4]. البداية بفتوى بناء على سؤال حول احتمال استمرار النبوة بعد محمد[5]. وهو ما يقوله غلاة الشيعة أيضا بنبوة الحسن والحسين وعلي وفاطمة[6]. وهو جو التشيع السائد لدى بعض فرق الهند في جعل الإمامة استمرارا للنبوة[7]. ولو كانت النبوة مستمرة لكانت في علي أو عمر بن الخطاب[8]. وهو ما يعادل «دلائل النبوة» للبيهقي. والموضوع قريب من الشمائل لأنه يدخل في فضل الناس[9]. وترصد أسماء الصحابة والتابعين الذين يمتد

---

(١) السابق ص٨٨.

(٢) السابق ص٩٨.

(٣) أحمد رضا خان(مولانا الإمام الحنفي): محمد خاتم النبيين، ترجمة نعمان الأعظمي(منظر الإسلام)، دار البيان للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٤) السابق ص١١٣-١١٥.

(٥) السابق ص١١٥-١٢٦.

(٦) السابق ص٣٣/ ٩٢.

(٧) السابق ص١١٧-١١٨.

(٨) السابق ص٨٠.

(٩) وهو ما عبر عنه لسنج في «تربية الجنس البشري» واكتمال النبوة في دين العقل والطبيعة، التنوير، بعد دين العقاب والثواب، اليهودية، ثم دين المحبة، المسيحية، انظر ترجمتنا لأعمال لسنج اللاهوتية لسنج: تربية الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.

إليهم الفضل[1]. ومع الشيعة يقرن الفلاسفة لقولهم إن النبوة مكتسبة[2]. ويشار إلى أن في البهائم رسلا، وأنها تتكلم[3]. كما يشهد الضب على نبوته[4].

والكتاب يخلو من الأبواب والفصول[5]. يجمع بين أجزاء من السيرة خاصة الميلاد وبعض التقسيمات الداخلية مثل تصنيف الأحاديث في ختم النبوة. يحتوي على حوالي مائة وخمسة وأربعين موضوعا يمكن ضمها في عدد أقل[6]. ويعتمد على المصادر الثلاثة: الحديث والقرآن والشعر[7]. وتذكر الأحاديث مختصرة[8]. وتتعدد الروايات. ويعتمد على أدبيات الهند في النبوة بين الإثبات والإنكار[9]. ويؤخذ نموذج المسيح في طلوع كوكب ساعة المولد[10]. ومع أن هناك محاولات لاستعمال العقل والقياس إلا أن المعجزات مازالت واردة[11].

ب- «محمد رسول الله وخاتم النبيين» لمحمد الخضر حسين (١٩٥٨م)[12]

وهي سيرة دفاعية ضد التبشير والتنصير[13]. كما أن الغاية إثبات نبوته وإقامة الأدلة

---

(١) محمد خاتم النبيين ص١١١-١١٣.
(٢) السابق ص١١٤.
(٣) السابق ص١٠٥.
(٤) السابق ص٧٥-٧٧.
(٥) أنواع الأقوال في خاتم الأنبياء، السابق ص٥٩-٨٦، أربعة وجوه لفضيلة أبي بكر ص٩١-٩٢. أقوال العلماء في منكري ختم النبوة ص١١٨-١١٩، فتاوى العلماء ص١٣٥-١٤٠.
(٦) وذلك مثل: الفتوى، خاتم النبين والأنبياء السابقين، الشفاعة، شق الصدر، التصديق به قبل ولادته وبعدها، البشائر، أبو بكر، علي، الأنبياء الكذبة، الفرق التي تنكر ختم النبوة، أقوال العلماء في ختم النبوة.
(٧) الحديث(٤٣)، القرآن(١٦)، الشعر(٤).
(٨) محمد خاتم النبيين ص٤٦/ ٤٩.
(٩) السابق ص١١٨-١١٩.
(١٠) السابق ص٥٦.
(١١) السابق ص١٣١-١٣٢.
(١٢) محمد الخضر حسين: محمد رسول الله وخاتم النبيين، مطبعة المعاهد الدينية، القاهرة ١٣٥٢هـ-١٩٣٣.
(١٣) «فقد كثر ما وقع في أيدينا من صحف يضعها أولئك الذين سموا أنفسهم «المبشرين». ويتعرضون فيها لدين الإسلام بكلمات خبيثات يبتغون بها إخراج أبنائنا وبناتنا من نور الحق. وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ما أراه في تلك الصحف من زور وبهتان ثم ما أذاعته الصحف السيارة في العهد القريب من قصص محاولة تلك الطائفة لتنصير بعض الفتيان أو الفتيات قد دعاني إلى تحرير رسالة في سيرة رسول الإسلام ودلائل نبوته السنية»، السابق ص٢-٣.

عليها[1]. وتجمع السيرة بين الرسالة والرسول، المحورين الرئيسين في السيرة. لا تنقسم إلى أبواب وفصول بل تضم اثنى عشر موضوعا غير مرقم تدل على المنهج التاريخي، من البداية إلى الوسط إلى النهاية من أحوال العرب قبل الإسلام حتى أثر دعوته في إصلاح العالم[2]. يختار بعض الوقائع من السيرة ويحولها إلى دلالات عامة كي ترسم صورة الرسالة والرسول[3]. والقرآن هو الدليل على نبوة الرسول ببلاغته وإخباره بالغيب واتفاقه مع العقل والواقع[4]. بشرت به الأنبياء السابقين[5]. تقلص المعجزات إلى الحد الأدنى، المعجزات محسوسة[6]. شريعته عامة للناس ودائمة. فهو خاتم الأنبياء[7]. ثم يبدأ محور الرسول بخلقه وآدابه مثل الصبر على البلاء، والقوة على التحمل، والتواضع، والأدب مع الآخرين، والزهد، والرفق، والحلم، والعفو، والكرم، والحياء، والهيبة، واجتهاده في العبادة[8]. ثم تعود الرسالة وأثرها في إصلاح العالم، وتقدم التاريخ، ودفع الشعوب نحو العقل والعلم، وأثر ذلك على نهضة الغرب وتقدمه[9]. ومصادرها الرئيسية القرآن والحديث والشعر. والقرآن أكثرها والشعر أقلها[10]. ومع ذلك فالاعتماد أيضا على العقل البديهي الذي خلق به الإنسان، وتم تأييده بالوحي[11].

---

(1) «وإنما القصد من تأليف هذه الرسالة أن أصوغ من تلك السيرة النبوية دلائل النبوة المحمدية..»، السابق ص٣.

(2) هي: حال العرب قبل بعثته، نشأته وسيرته قبل البعثة، دلائل نبوته، القرآن الكريم، بشارات الأنبياء والرسل قبل مجيئه: سيرته، المعجزات المحسوسة، عموم بعثته، دوام شريعته وختمه للنبوة، خلقه وآدابه، اجتهاده في عبادة ربه، أثر دعوته في إصلاح العالم.

(3) السابق ص١٠-١٧.

(4) «ومن وجوه دلالة القرآن على صدق الرسول ورود معانيه كلها على الوجوه المعقولة وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة...»، السابق ص١٥.

(5) السابق ص١٨-٢١.

(6) السابق ص٢٣-٢٥.

(7) السابق ص٢٥-٣٠.

(8) السابق ص٣٠-٤٢.

(9) السابق ص٤٢.

(10) القرآن(١٩)،الحديث(٩)،الشعر(١).

(11) «خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأمتعه بنعمة العقل. وهي من أجل ما ينعم به الخالق الحكيم. أمتعه بنعمة العقل ليهتدي به إلى الحياة الطيبة»، السابق ص٣.

جـ - «محمد خاتم النبيين» لعلي شريعتي (١٩٧٧م)[1]

لم يتوقف علم السيرة، ومازال حيا في القلوب، مؤلفين وقارئين، كتابا وجمهورا، سواء عند المحافظين السلفيين لتدعيم المحافظة والسلفية أو عند التقدميين الثوريين لتدعيم التقدم والثورة. فمحمد خاتم النبيين. أعلن عن اكتمال الحقيقة بعد أن ساهم الأنبياء في تطورها نحو الكمال.

وتستعمل السيرة الجديدة المنهج التاريخي ليس بمعنى القدماء رصد الحوادث وتسجيلها ولكن بمعنى المحدثين البحث عن الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية لنشأة الرسالة. ولا يمنع ذلك من تطورها عاما وراء عام، سنة بسنة كما فعل القدماء، ولكن من أجل إثبات هدف للتطور، وغاية للرصد التاريخي. وربما يأتي التتابع شهرا بشهر نظرا لدلالة الأحداث وتسارعها في وقت قصير كما حدث في تفصيل الهجرة وعشر سنوات بعدها، وتفصيل حوادث السنة الأولى شهرا بشهر، والسنة الثانية تركيزا على الشهر السادس فيها الذي وقعت فيه غزوة بدر، ومحاولة اغتيال النبي[2]. وفي هذه السنوات العشر وقعت الغزوات أي الفتوحات الصغرى داخل شبه الجزيرة العربية. يختلط فيها العام، الغزوات، بالخاص الزواج بميمونة. وتبدأ بالهجرة التي يؤرخ بها المسلمون دون الموضوعات التقليدية عن حياة العرب قبل الإسلام، والميلاد، والرضاعة ورعى الغنم والتجارة والتحنث، ونزول الوحي وزواجه.

ويقوم المنهج التاريخي حتى يتجاوز التاريخانية التي وقع فيها القدماء على عديد من العلوم الإنسانية، الفلسفة والاجتماع والسياسة واللغة والاقتصاد وعلم النفس والتاريخ حتى يكتمل تحليل الظواهر الإنسانية ومنها ظهور الأديان وانتشارها. فأصبحت السيرة

---

(١) علي شريعتي: محمد خاتم النبيين، من الهجرة حتى الوفاة، ترجمة أبو علي الموسوي، تقديم د. إبراهيم دسوقي شتا، دار الأمير، بيروت ط/ ١ ٢٠٠٢ وتصديرات مما قيل في علي شريعتي من علي خامنئي، ومحمد حسين بهشتي، ومحمد الطالقني وفرانز فانون.

(٢) عشر سنين من الحياة المدنية: ١- الهجرة ٢- غزوة سفوان أو بدر الأولى ٣- توجيه ضربة لليهود ٤- غزوة بني النضير، بدر الثانية. ٥- دومة الجندل، الخندق أو الأحزاب ٦- بني المصطلق ٧- صلح الحديبية، خيبر، وادي القرى، رسائل إلى قادة العالم، جواب هرقل، السرايا، عمرة القضاء، الزواج بميمونة، ٨- سرية مؤتة، ذات السلاسل، فتح مكة، حنين ٩- الوفود، تبوك، السابق ص٧٥-١٤٤.

أقرب إلى فلسفة الحضارة والتاريخ. ويعقد مقدمة منهجية بعنوان «ملاحظات مع القارئ»، يبين فيها منهجه الذي يتلخص في عدة توجهات أو قواعد عامة:

أ- الاعتماد على الوثائق التاريخية والسير التاريخية لابن هشام والطبري ومن أقرب نقطة وهي الهجرة دون الدخول في أساطير النشأة.

ب- تجاوز الخلاف السني الشيعي. فعلم السيرة يتجاوز الخلاف الطائفي من أجل سيرة محايدة من منظار العلم وحده.

جـ- توخي الجديد وعدم تكرار ما قاله المؤرخون وكتاب السير القدماء[1].

وتعتمد السيرة على عديد من الشواهد النقلية بالرغم من أن المؤلف غير عربي اللسان. تجمع بين القرآن والحديث والشعر[2]. ومثل معظم السير العربية. الأسلوب أدبي مثل طه حسين والعقاد. ويذكر بعض فقهاء المسلمين مثل أبي حنيفة. ويختفي التحليل الطائفي السني الشيعي والجدل فيه.

وفي نفس الوقت يتم الاعتماد على الوافد الغربي خاصة الفلسفي فيذكر من الفلاسفة ديكارت وبرجسون، ومن علماء الاجتماع دوركهايم وهالبوكس، ومن فلاسفة العلم جاليليو ونيوتن، ومن السياسيين فرانكو، ومن المؤرخين تويني. ويحيل إلى الحروب الصليبية والاستعمار الأوروبي الحديث. وتظهر ألفاظ التحرر وعملياته قديما وحديثا[3].

وبنفس الأسلوب الأدبي الصحفي كتب خالد محمد خالد «معا على الطريق محمد والمسيح» فقط مبينا أوجه التشابه في أقوال النبيين في موضوعات الله والإنسان والحياة عن طريق سقراط الجامع بينهما[4]. ويعتمد على الحديث والقرآن والشعر. إلا مصدرين أجنبين[5]. والكتاب مُهدى إلى بطلة الجزائر جميلة بوحريد في إجلال وخشوع. والخاتمة

---

(1) خاتم النبيين ص٢٧-٢٨.
(2) القرآن(١٩)، الحديث(٤٥)، الشعر(٦).
(3) خاتم النبيين ص٨٦.
(4) خالد محمد خالد: معا، على الطريق، محمد والمسيح، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٥٨.
(5) هما ابن الإنسان لإميل لو دفيج، وقصة الحضارة لويل ديورانت.

سؤال عن الخيار بين باراباس أم المسيح أي اللص أم الشهيد؟ والثانية كلها خلقية وليست عقائدية لذلك أمكن ضم أنبياء الشرق بوذا وكونفوشيوس.

٦- الحبيب:

أ- «مسك الختام في أشعار الصلاة والسلام» للآثاري (٨٢٨هـ)[١]

وهي أبيات على البحور الستة عشر، بيتان لكل بحر. والغرض «تنويع فضائل الممدوح بالخلق المعظم»[٢]. أطولها القصيدة الأخيرة التي ذرف فيها الناظم الدمع وهو حاف مكشوف الرأس في زيارة للنبي. منها ما يبدأ بحرف الشرط «إن» وهو النبي وغيره هو المشروط[٣]. ومنها ما يبدأ بفعل الأمر للنفس حتى تتبع النبي[٤]. ومنها ما يبدأ بحرف النداء «يا»[٥]. وكلها حث على الصلاة والسلام عليه. وهو ما اختلف عليه الفقهاء، داخل الصلاة وحدها أم داخلها وخارجها. وهنا يتحول الرسول إلى مخاطب ومنادى. وتتحول العلاقة بين المرسل إليه والمرسِل إلى علاقة تراسل بين الذوات. ليس المقصود الرسالة بل العلاقة ذاتها، الوسيلة دون الغاية. ويختفي القرآن والحديث والشعر لصالح الصلاة والتسليم عليه. وتتحول السيرة إلى مديح، وصاحبها إلى مداح.

ب- «الخير الكثير في الصلاة والسلام على البشير النذير» للآثاري (٨٢٨هـ)[٦].

وهي أربعون حديثا في فضل الصلاة والتسليم على الرسول. بركتها وفضلها وسعادة

(١) خمسة نصوص ص٢٩-٣٢.

(٢) السابق ص٢٩.

(٣) إن كنت تطلب بسط الرزق صلي على ... خير الورى وشفيع العرب والعجم

السابق ص٢٩.

(٤) صلى الله على خير الورى تلتقي ... خيرا سريعا فيه نيل المرام

السابق ص٣٠

(٥) يا خفيف الميزان صل وسلم ... تنثني راجحا بخير الأنام

السابق ص٣١

(٦) خمسة نصوص ص٤٩-٦٠.

أهلها والثواب الجزيل عليها. والأربعون طبقا لفضل من حفظ أربعين حديثا. وقد تم تصنيفها في ثمانية موضوعات، في كل موضوع خمسة أحاديث ليسهل حفظها على الطلاب[1]. وتختلف الأحاديث في روايتها في متونها. بعضها حسن صحيح وبعضها الآخر حسن غريب. وبعضها يتدخل فيه الخيال والتصوير بتدخل الملاك في الحوار، جبريل أو غيره. والثواب في الآخرة والدنيا على حد سواء، معرفة الذنوب، ودخول الجنة والشفاعة. ومن لم يفعل فهو بخيل. ويختفي القرآن والحديث والشعر بعد أن تقوم الصلاة والتسليم مقامها.

جـ- «شفاء السقام في نوادر الصلاة والسلام» للآثاري (٨٢٨هـ)[2]

وهو كما يدل عليه العنوان «شفاء السقام» بيان للنوادر الناتجة عن الصلاة والسلام أي الآثار غير المتوقعة أشبه بالمعجزات التي تحدث نتيجة الصلاة والتسليم على الرسول. أربعون نادرة، خمس وثلاثون في الصلاة، وخمس في السلام[3]. وكلها حكايات وقصص وروايات. يقوم معظمها على ظهور الرسول في المنام، وإخباره بحسن العاقبة لمن صلى وسلم عليه أو سوئها لمن لم يفعل، وحسن العاقبة ودخول الجنة والمغفرة. ومنها حكايات للشافعي وليس فقط لمشايخ الصوفية. وتمتد الصلاة والسلام من الرسول إلى أصحابه. وكي يزداد الخبر تصويرا يدخل موسى في الحوار لإثبات الصلاة والسلام على النبي. ويتحول الأمر الشفاهي إلى الكتابي. فمن لم يكتب الصلاة والسلام شلت يده أو قطعت، وخرس لسانه، وعميت عينه أو عطس فمات. ويدعم ذلك آيتان[4]. ويعتمد على بعض أبيات الشعر[5]. وهنا يتحول الرسول إلى جزء من الطب الشعبي، من رسول

(١) وهي: تضعيف أجر المصلي، فضيلة الصلاة، الإكثار منها، طلب الوسيلة مع الصلاة، تبليغ الصلاة إلى الرسول، وجوبها، كيفيتها، السلام عليه، السابق ص٥٠.

(٢) خمسة نصوص ص٣٥-٤٦.

(٣) لذلك تنقسم الرسالة إلى بابين. الأول في نوادر الصلاة، السابق ص٣٥-٤٤، والثاني في نوادر السلام ص٤٥-٤٦.

(٤) هما ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، السابق ص٤٠/ ٤٤.

(٥)

إن جئت بدرا فطب وانزل بذي سلم   سلم على من سبا بدرا على علم

إلى طبيب. ويمتد شفاء أمراض النفوس إلى أمراض الأجسام.

والأحاديث تتعارض مع أحاديث أخرى ضد تعظيم الرسول وتفخيمه. صاحبها أيضا مادح للسلاطين والملوك، ملك اليمن[1]. وقد سُمي الناظم الآثاري لنسبته إلى الآثار الشريفة وخدمتها[2]. تجمع بين الدين والأدب كما هو الحال في القرآن.

د- «سلوك الكئيب بوفاة الحبيب» للقيسي الدمشقي (٨٤٢هـ)[3]

والموضوع بين الرسالة والرسول، وهو موضوع الوفاة آخر موضوع في الرسالة، وأول موضوع في الرسول. وهو تحليل نفسي كما يدل عليه العنوان، عزاء المحزون بوفاة الرسول﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وهو تكبير لقطة في رسالته وحياته، لحظة الموت. البداية سجعية للتأثير بالأسلوب ثم بقصيدة للتأثير بالشعر[4]. والمعنى شائع بين شاعرين يود أحدهما أن يكون مرثيا من الآخر وليس راثيا[5]. وهو خال من الأبواب والفصول، ولكنه يتطرق لسبعين موضوعا جزئيا يمكن جمعها في تسعة فقط[6]. ومنها

وحياتكم وحياتكم قسما وفي ... عمري بغير حياتكم لا أحلف

لو أن روحي في يدي ووهبتها ... لمبشري برضاكم لم أنصف

السابق ص٤٤.

(١) السابق ص٥-٦.

(٢)

لأنني خادم الآثار لي نسب ∴ أرجو به رحمة المخدوم للخدم

السابق ص٥

(٣) القيسي الدمشقي (الحافظ محمد بن عبد الله بن محمد القيسي المعروف بابن ناصر الدين الدمشقي): سلوة الكئيب بوفاة الحبيب. تحقيق ودراسة د. صالح يوسف معتوق، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي جـ٢/ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.

(٤) السابق ص٩٢-٩٤.

(٥) وهو ما قاله شوقي في حافظ:

لقد كنت أوثر أن تكون رثائي ∴ يا منصف الموتى من الأحياء

(٦) هي: ١- قصيدة في وفاته، سورة النصر إشارة لدنو أجله، كثرة استغفاره، فراسة عمر، مرض النبي، زيارته للبقيع، وجعه، الحمى، بلاء الأنبياء ٢- رغبة الصديق في تمريضه، تمريضه عند عائشة، ٣- الكتاب الذي أراد كتابته، استخلاف الصديق، صلاته بالناس، خبر الشاة المسمومة، تصدقه بما كان عنده، خفته من مرضه. ٤- التحذير من الفتن. ٥- استئذان الصديق بالخروج، استئذان أسامة بالبقاء ٦- اللباس الذي توفي فيه ٧- ردة العرب، أحوال الصحابة بعد علمهم بالوفاة ٨- الغسل والكفن والصلاة عليه وموضع دفنه وحفر مقبرته، القطيفة في قبره، إدخال القبر، صفة القبر، رش الماء عليه، الرثاء، سنه يوم الوفاة والدفن، خصائص القبر، زيارته، ٩- زوجاته، تركته، آثاره.

ما يبدأ بلفظ «خبر» أي رواية[1]. ومنها أخبار معجزات مثل زيارة جبريل له في مرضه، وتعزية الخضر، والملائكة تحف بالقبر[2]. يعتمد على القرآن والحديث والشعر، والحديث أكثر[3]. وهو ما قد يدخل أيضا في الرثائيات والبكائيات. والمتوفى هو الحبيب. فسلوى الكئيب لموته في حبه. وهو بداية تحول الرسول من النبي والمبلغ إلى الحبيب المعشوق كما هو الحال عند الصوفية.

هـ- «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي (٩٠٢هـ)[4]

ويتناول المؤرخون موضوع الصلاة والسلام على الرسول، الحبيب الشفيع تجعل السيرة أدخل في الشمائل أي التعظيم والتفخيم للرسول على حساب الرسالة. يتكون من خمسة أبواب. وفي آخر كل باب فصول متتالية (الأول والثاني) أو فوائد (الثالث) وهي: الصلاة عليه، ثواب الصلاة عليه، التحذير من ترك الصلاة عليه، تبليغ الإسلام ورده، والصلاة في أوقات مخصوصة[5]. والخامس أكبرها، والثالث أصغرها. والمؤلف على وعي ببنيته إذ يذكرها في المقدمة[6]. ويعبر عن الموضوع بأسلوب السجع المقارب للتفخيم والتعظيم من حيث التأثير. ولم يخل الثواب من تصويره[7]. وتعني الصلاة أكثر من القول بل التجربة، تجربة الدعاء والعبادة. وهي أيضا تجربة التعبير عن تحقيق الرغبات بالتمني، وعن الموقف بالشعائر[8].

---

(١) «خبر»(٣)، قصة(١).

(٢) سلوة الكئيب ص١٣١-١٣٧/ ١٨٥-١٨٦.

(٣) الحديث(٣٦)،القرآن(١٣)،الشعر(١١).

(٤) السخاوي(الإمام الحافظ المؤرخ محمد بن عبد الرحمن): القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، النص الكامل' قابله بأصل مصنفه وبأربعة أصول أخرى محمد عوامة، دار اليسر، دار المنهاج جدة، المدينة، بيروت جـ٢/ ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

(٥) أ- الصلاة عليه ص٩٩-٢٣٤(١٣٦ص) ب- ثواب الصلاة عليه ص٢٣٥-٣٠١(٦٦) جـ- التحذير من ترك الصلاة عليه ص ٣٠٢-٣٢٢(٢١ ص) د- تبليغ السلام ورده ص٣٢٣-٣٥٥(٣٣) هـ- الصلاة عليه في أوقات مخصوصة ص٣٥٦-٥١٢(١٥٧).

(٦) السابق ص٣٩-٤٣.

(٧) السابق ص٣٧-٣٨.

(٨) «والدخول تحت ظل العرش، ورجحان الميزان، وورود الحوض، والأمان من العطش، والعتق من النار، والجواز على الطريق، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت، وكثرة الأزواج في الجنة»، السابق ص٤٠.

وتستمر عبارات التعظيم مثل النسب الشريف[1]، الاسم الشريف[2].

ويعتمد على المصادر الثلاثة المعروفة: القرآن، والحديث، والشعر[3]. والحديث أكثر. فالحديث هو المصدر الأول. كما يعتمد على بعض المصادر السابقة يذكرها في آخر الكتاب كما يفعل المحدثون[4]. فقد كثرت المصنفات في الموضوع[5]. وهو كتاب شامل جامع في الموضوع بالرغم من عدم إطالة الإسناد مع الحكم على الرواية بدرجتها في الصحة[6]. وفي نقد الرواية يجوز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال. فصحة الرواية ليست في سندها بل في مدى اتفاق متنها مع الفضائل أي خارج النص، في الطبيعة الإنسانية[7]. وتتم الإحالة إلى المذاهب الفقهية لمعرفة حكم الصلاة عليه[8]. ويتم التعرض لأمثلة تصعب الإجابة عليها[9]. والموضوع خلافي بين الفقهاء بين الوجوب والإمكان[10]. ويتم التساؤل عن التناقض بين الروايات[11].

والخطورة في إحلال الصلاة والسلام على الرسول محل العمل لنيل الثواب. فالله يصلي عشرًا على من صلى مرة واحدة على الرسول، وكذلك تفعل الملائكة. وهي سبب النجاة من الأهوال. وترجح عشرين غزوة. وتقوم مقام الصدقة للمعسر، وهي سبب نمو المال وبركته، وقضاء الحاجات، وهما أحب الأعمال إلى الله. وتمنع الفقر وضيق

---

(١) السابق ص٤٥-٥١.

(٢) السابق ص١٨٤-٤٨٢.

(٣) الحديث (٤٦٠)، القرآن(١٥٢)، الشعر(٢٨).

(٤) القول البديع ص٥٠١-٥٠٨.

(٥) السابق ص٥-٧.

(٦) «سألني بعض الأصدقاء أن أجمع كتابا في الصلاة على خير البشر... يكون عمدة لمن رجع إليه... غير مطيل ذلك بالإسناد ليسهل تحصيله لأولي التوفيق والسداد، ومعقبا كل حديث بعزوه لمن رواه مبينا غالبا صحته أو حسنه أو ضعفه لدفع الاشتباه ذاكرا لنبذة يسيرة الفوائد المأثورة والنوادر المشهورة والحكايات المسطورة... سالكا في ذلك كله مسلك الاختصار»، السابق ص٣٨.

(٧) السابق ص٤٢-٤٦٩.

(٨) السابق ص٥٩-٦٠.

(٩) مثل «هل الملائكة الكرام مكلفون بأحكام الشريعة؟»، السابق ص٦٩.

(١٠) السابق ص٩٢-٩٨، إن الملائكة دائمة الصلاة عليه، مهر آدم لحواء كان عشرين مرة الصلاة عليه، بكاء الصبي من أربعة أشهر إلى ثمانية، السابق ص١٣٢-١٣٣.

(١١) مثل عثور موسى على الصندوق الذي به رفات يوسف مع أن الله حرم على الأرض أن تأكل كل أجساد الأنبياء، السابق ص٣٥٤.

العيش. وتنصر على الأعداء. وهي أفضل من عتق الرقاب[1]. ومن لم يصل عليه فلا دين له[2]. وكلها في الحقيقة عادات لرفع الهم والكرب[3].

و- «روضة المحبين في الصلاة والسلام على سيد المرسلين» للناصري[4]

ومنذ «البردة» وحتى نهجها توالت قصائد المديح في محمد. وأصبح أقرب إلى الحقيقة المحمدية «عند الصوفية منه إلى الرسول، كلها حول المحبة والشوق والنور والشرف والكمال كما يدل عنوان «روضة المحبين»، وكلها صلاة الله وسلامه عليه[5]. ليس للقصيدتين موضوع محدد إلا مدح الرسول بالهادي والكامل والكفيل ، والحمد، وخير الخلق، والقدر العالي، والفضل، والبشير والنذير، والحبيب، والشفيع، والنور، والنصير. ويتعدى الوصف إلى الجسد والوجه والعينين والأسنان[6]. وتمدح معجزاته دون التحقق من رواياتها[7]. ولم تظهر الرسالة إلا نادرا باعتبار الرسول إمامًا لها وليس فقط مبلغا إياها. واشتكى البعير إليه المجاعة دون الإنسان، والإنسان أولى بالشكاية من

---

(١) السابق ص٢٣٥-٢٨٩.

(٢) السابق ص٣٠٢-٣١٨.

(٣) السابق ص٤٦٥-٤٦٨.

(٤) الناصري(أحمد خضير محمود): روضة المحبين في الصلاة والسلام على سيد المرسلين، بغداد ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م ص٢-٢٢. وقد سمع المؤلف هذه القصيدة من رجل مجهول الاسم من بلاد السودان أنشدها في روضة الرسول. وكررها الناصري في مجالس الذكر في بلدته «الخالدية» بالعراق. ومن كرامتها أنه «ما تلاها محب إلا ووفق لزيارته عليه الصلاة والسلام»، السابق ص٥.

(٥) «صلاة الله سلام الله»، السابق ص٢٣-٢٨.

(٦)

أكحل العينين أدعج ∴ نوره المحبوب أبلج
أشنب الأسنان أفلج ∴ فاق رسل الله محمد
وجهه يا ناس نائر ∴ سيدي مولى البشائر
حسنه للبدر أخجل ∴ وبه غيب تنزل

(٧)

نادت الهادي غزالة ∴ تشتكي تبدي مقالة
يا إماما للرسالة ∴ كن ضميني يا محمد
السابق ص١٠-١٢.

الحيوان[1]. وجل المجاعة هي الشفاعة وليس الإطعام والقضاء على أسباب المجاعة. ومثل هذه القصائد بين علمي التصوف والسيرة.

وهي أقرب إلى العمل الفني منها إلى العمل الفكري. في «روضة المحبين» يتكرر البيت الثالث لضبط الإيقاع خمسا وستين مرة[2]. وفي «صلاة الله سلام الله» يتكرر بيت واحد تسع عشرة مرة، كل مرة مرتان، والمرة الأخيرة خمس مرات[3]. وهنا يتحول الرسول إلى أيقونه تدفع الشر، وتأتي بالخير.

٧- الدار:

أ- «نزهة الكرام في مدح طيبة والبيت الحرام» للآثاري (٨٢٨هـ)[4]

مدح في فضل المكان، طيبة والبيت الحرام. وهي تسعون بيتا. تقرب فيها صفات الرسول من صفات الله[5]. معظم الأبيات مناجاة واستجداء. تبدأ بحرف النداء «يا»[6]. تسلب الإنسان كل

---

(١)

البعير يشكو المجاعة ∴ للنبي بعد المجاعة
قال يا مولى الشفاعة ∴ كن شفيعي يا محمد
السابق ص١١.

(٢) وهو:

صلى الله على محمد ∴ صلى الله عليه وسلم

(٣)وهو:

صلى الله سلام الله ∴ على الهادي رسول الله

(٤) خمسة نصوص ص٢٣-٢٦.

(٥)

يا سيد، يا أحمد، يا محمد ∴ يا منجد، يا مسعد، وسميع
يا جامع، يا قامع، يا رافع ∴ يا نافع، يا شافع ومشفع
يا قائم، يا جازم، يا حازم ∴ يا عازم، يا هازم، يا أشجع
يا عالم، يا حاكم، ياحاتم ∴ يا هادم، يا صارم ، يا ألمع
يا جابر، يا حاشر، يا ناصر ∴ يا عاطر، يا ماطر لا يقلع
يا عامر، يا غامر، يا آمر ∴ يا ظاهر، يا طاهر، يا ارفع
يا زاهر، يا باهر، يا ماهر ∴ يا ظافر، يا ساتر، يا منجع
يا عاطف، يا عارف، يا كاشف ∴ يا منصف، يا مسعف، يا مربع
يا هاشمي، يا أبطحي، يا زمزمي ∴ يا من لكل الخلق فيه مطمع
يا خير خلق الله يا علم الهدى ∴ إن لم تكن لي شافعا ما أصنع؟

السابق ص٢٣-٢٤.

(٦) حوالي ٣٧ بيتا.

قدرة، والله كل صفة، وتعزوها للرسول. ويمتد المدح من الشخص إلى المكان حتى يبتلع الكون كله في «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية.

ب- «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي (٩١١هـ)[١]

وهو عنوان مشابه لكتاب القاضي عياض «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ولكن مع التركيز على المكان «دار» وليس على الشخص أو الشمائل. والغاية إعطاء الأخبار أي المعلومات كما هو الحال في كتب التاريخ التي تقوم على الرصد الخاص دون إيجاد الدلالة[٢]. والسيرة عرض بمناسبة المكان. المكان هو المركز، والسيرة هو الهامش. المكان الأصل، والسيرة الفرع . ليست القضية الرسالة أو الرسول بل المكان. وربما تأتي قدسية المكان من أثر الإسرائيليات، الأرض والمدينة والحصون. والمكان بكل مكوناته قدسي، الآبار والجبال والوديان والبقاع والقصور والقبور. المكان للعمران والحرب للهجرة والاستقرار. والغزوات أمكنة أكثر منها أزمنة بعد دخول المدينة أي تاريخ المدينة[٣]. والهجرة انتقال من مكان إلى مكان، من مكة إلى المدينة[٤]. والسيرة هو التتابع الزماني بعد الهجرة إلى المدينة[٥].ويمكن القول إن هذه السيرة تعتبر انحرافا من الوحي والرسالة وأقرب إلى البيئة المكانية بالمعنى الجغرافي العمراني الذي عاش فيها الرسول. ويستمر الأمر في رصد تاريخ المكان بعد عصر الرسول ووصف أشياء، مثل توسعات المسجد وتطور المدينة وشق الطرق التي لم تكن موجودة في حياة الرسول، ولم تعاصر نزول الوحي. فالمكان هو الموضوع وليس الرسالة أو الرسول. مع أنه في روايات أخرى يرفض تقديس قبر الرسول[٦].بل يتم وضع جثامين الرسول وصاحبيه في أوضاع مختلفة طولية وعرضية بالرغم من تحريم التصوير عند البعض وبالرغم من

---

(١) «نور الدين علي بن أحمد السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (أربعة أجزاء) حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محيى الدين عبد الحميد، دارالكتب العلمية، بيروت لبنان ط٤ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م».

(٢) وهي النزعة التاريخية Historicism، جـ٢/ ٧١٧-٧٤٣/ ٧٥٧-٧٧١.

(٣) وفاء الوفا جـ١/ ٢٧٤-٢٧٩.

(٤) السابق ص٢٣٥.

(٥) السابق ص٢٧٠-٣٢١.

(٦) «قاتل الله اليهود الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد»، السابق جـ٢/ ٥٤٨.

أنه موضوع لا أهمية له أن تكون بالتوازي أو بالتقاطع[1]. ورسم آخر للمسجد بجهاته الأربع وفيه فاطمة الزهراء[2]. بل وتذكر حتى الأخشاب والمسامير للنعوش. وهو موت للرسالة والرسول معا، وتحويل الحياة إلى موت، والرسالة إلى كفن، والرسول إلى نعش، وانحراف عن السيرة بمحوريها الرسالة والرسول تماما. وقد احترق المسجد النبوي في المدينة، وهدمت الكعبة عدة مرات وأعيد بناؤها. وكان لمصر وسلاطينها دور مباشر في إعادة البناء والترميم. ويؤرخ للمدينتين في عصر المؤلف في «زماننا»[3]. والآن تكتب على أبواب المسجد في المدينة أسماء الملوك والسلاطين وتسمى بأسمائهم.

ويتضمن ثمانية أبواب كلها في المكان. الأول أسماء البلدة الشريفة وهي المدينة كمكان[4]. فضائلها ويدأ شأنها وما يئول إليه أمرها، حركة المكان. سكانها ومقدم النبي إليها، مسجدها وما حوله من دور وسور ومنازل في المكان. المصلى والمساجد أبنية في المكان، الآبار حفر في المكان. الأودية والبقاع والقصور عمران في المكان. أكبرها الرابع عن المسجد وما حوله من الدور والبلاد والمنازل والسور ثم الأودية والبقاع والقصور أي مظاهر العمران ثم سكانها وحركتهم من المكان وإليه، ثم المصلى والمساجد وهي

---

(1) السابق ص٥٥٠-٥٥٥

النبي
أبو بكر
عمر

النبي
عمر
أبو بكر

النبي
أبو بكر
عمر

النبي
عمر
أبو بكر

أبو بكر
النبي
عمر

(2) السابق ص٥٦١/ ٥٦٣/ ٦٣٢.

(3) السابق جـ٢/ ٦٩٧-٧٠٦.

(4) ١- ذكر أسماء هذه البلدة الشريفة جـ١/ ٨-٢٧

٢- فضائلها ويدأ نشأتها وما يئول إليها أمرها جـ١/ ٢٨-١٥٥

٣- مكانها في سالف الزمان، ومقدم النبي إليها وما كان من أمره بها في سنين الهجرة، جـ١/ ١٥٦-٣٢٢

٤- مسجدها الأعظم والحجرات المنيفات وما كان مغطيا به من الدور والبلاط وسور المدينة ومنازل المهاجرين واتخاذ السور جـ١/ ٣٢٣-٣٨٤ جـ٢/ ٣٨٧-٧٧١

٥- مصلى النبي في الأعياد وغير ذلك من المساجد التي صلى فيها جـ٣/ ١١٠٧-٩٤١

٦- آبارها المباركات جـ٣/ ٦٤١-١٠٣٧

٧- أوديتها وبقاعها وقصورها جـ٣/ ١٠٣٧ - ١١٠٦ جـ٤/ ١١١٥-١٣٣٦

٨- زيارة النبي جـ٤/ ١٣٣٦-١٤٢٣.

مركز المدينة. وأصغرها أسماؤها ثم آبارها[1]. فالموضوع هو المدينة جمعا بين الجغرافيا الطبيعية والبشرية أي العمران بلفظ ابن خلدون الذي لا يكاد يُذكر. فهو تاريخ معماري لمعرفة تطور المدينة. والدلالة العامة لهذا التاريخ أنه لا توجد مدينة مقدسة أولى بعد أن تطورت في كل عصر. ولا يوجد مسجد نبوي أول بعد أن تطور منذ عهد الصحابة حتى العصر الحالي[2]. والآن تكاثرت المساجد في مكة والمدينة وفي باقي المدن الإسلامية ولا يمكن وصفها.

وقد تحولت هذه الأمكنة، مكة والمدينة وقبر الرسول إلى مزارات مقدسة في حد ذاتها بلغت حد الوثنية. وامتد الأمر إلى قبور الأولياء والصالحين. وقد تحول التقديس من الرسالة إلى الرسول إلى المكان ثم في الوعي العامي إلى الزمان، عصر الرسالة والخلافة الراشدة. وكما تم التحول من الزمان إلى المكان تم التحول من التاريخ إلى الفرد. وترصد القبور وكأن الهدف هو وصف المدافن ومدن الموتى والمقابر وتطورها دون دلالة على السيرة، مجرد تاريخ جغرافي أو جغرافيا تاريخية للقبور والمساجد والآبار، فغلب التاريخ على السيرة. وأصبح الرصد لمجرد الرصد، رصد المساجد، ورصد الإحماء[3]. لذلك كبر الكتاب وامتد على أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات.

وتأخذ زيارة قبر الرسول أهمية كبيرة سواء في الأحاديث التي تشرع لها المباشرة بلفظ الزيارة أو غير المباشرة بألفاظ أخرى أو في توسل الزائر وتشفعه بالرسول إلى الله واستقباله في سلامه ودعائه أو في آداب الزيارة. وهو ما يعارض أحاديث أخرى مثل «لا تجعلوا قبري وثنا». وهو ما دعا ابن تيمية قديما والوهابية حديثا إلى تحريمها بعد أن

---

(١) الأول(٢٠ص)،الثاني(١٢٨)، الثالث(١٦٦)، الرابع(٤٥٧)، الخامس(١٦٣)، السادس(٧٦)، السابع(٢٩٩)، الثامن(٨٧).

(٢) لذلك ينتهي الكتاب بالإشارة إلى تجديدات آل سعود وأسماء المهندسين المعماريين والإداريين والفنيين ورؤساء الأعمال والرسوم الهندسية وباقي المشاريع في المدينة من طرق وجسور ومشاريع كهرباء وعمال مصريين وسوريين وباكستانيين وسودانيين ويمنيين وحضرميين وسعوديين، وفاء الوفا جـ٤/ ١٤٢٤-١٤٣٢.

(٣) السابق جـ٣/ ١٠٢٢-١٠٣٧/ ١٠٨٢-١١٠٦.

تحولت في الممارسات الشعبية إلى وثنية جديدة. ويتم سرد سبعة عشر حديثا لتحليل زيارة الرسول كما هو حادث في الممارسات الشعبية[١].

ولم يُقل في القدس كما قيل في مكة والمدينة. كانت المدينتان مكان نزول الوحي، ولكن القدس أيضا نهاية الإسراء وبداية المعراج، ومكان صلاة الرسول بالأنبياء في المسجد الأقصى. وقد تم تقديس المدينتين، مكة المكرمة، والمدينة المنورة. ولا يتحول التقديس الآن إلى القدس المحتلة. ولماذا تقديس مدينتين، مكة والمدينة؟ مكة لأن بها الكعبة التي هدمت عدة مرات، والمدينة لأن بها قبر الرسول وقد حرم زيارة القبور وتقديسها وعدم اتخاذ قبور الأولياء مزارات وكما نبهت الحركة الوهابية[٢]. ويذكر جبل أحد وهو مرتبط بذكرى الهزيمة حتى يتحول من هزيمة إلى نصر، ومن كراهية إلى محبة وحتى لا يخشى الجنود أو يتشاءمون منه. بل يتشجعون ويقدمون عليه[٣].

ولو بدت بعض جوانب السيرة فإنها تبدو مظاهر للمكان. فالعقبة الصغرى والعقبة الكبرى مكانان أكثر منهما سيرة[٤]. وتحول العرب إلى الإسلام تغير في دين شبه الجزيرة العربية[٥]. وجبل أحد الذي صرح الرسول بأنه يحبه مكانًا أكثر منه دلالة[٦]. والإسلام دين قومي للعرب. يحرر شبه الجزيرة من الديانات الغريبة عنها، مجوسية فارس، ونصرانية الروم، وتوحيدها نحو مركز أصيل قديم دين الحنفاء ومكانها، والقضاء على انجذاب الأطراف نحو مراكز شرقية مثل المناذرة أو مراكز غربية مثل الغساسنة[٧].

وإذا كانت دلالة السيرة التعرف على الرسالة في التاريخ، واستمرار الرسالات السابقة ونهاية لها في التاريخ وخلافة الإنسان للرسول فإن وصف الأمكنة قد انتهى إلا من ذكريات متخيلة وليست معاشة. أصدقاؤه وزوجاته وآلاته وخدمه أصبحت بلا

---

(١) السابق جـ٤/ ١٣٣٦-١٤٢٣.
(٢) السابق جـ٢/ ٩٠٣.
(٣) «أحد جبل يحبنا ونحبه»، السابق جـ٢/ ٩٢٥-٩٤١.
(٤) السابق جـ١/ ٢٢٠-٢٣٥.
(٥) السابق ص٢٣٤.
(٦) السابق ص٢٩٥.
(٧) السابق ص٣٢١.

دلالات مهما حاول كاتب السيرة الانتقال من الزمان الأول إلى الزمان الثاني، من عصر الرسول إلى «زماننا»[1].

يعتمد على الحديث فالقرآن فالشعر[2]. وتنقد الروايات لأنها متعددة[3]. ويدل الطول في الأحاديث على تطورها ونسجها حول النواة الأولى. ويعتمد على كتب الحديث خاصة الصحيحين ككتب تاريخية[4]. وتذكر أسباب النزول لبعض الآيات في الأماكن والأسماء. ويُشرح الحديث في ألفاظه[5]. وتختلف النسب طبقا للأجزاء. فالأحاديث في الثاني أقل، والشعر في الرابع أكثر. ويقل استعمال الحديث والقرآن والشعر في الجزء المعماري التاريخي الخاص. ويكون الاعتماد على المؤرخين. وينظر إلى المسجد على أنه فرش وإيوان. كما يتم الاعتماد على المؤرخين قدر الاعتماد على المحدثين والفقهاء. وتذكر المصادر التاريخية للطبري والواقدي والمقريزي[6]. وتؤخذ منهم الاقتباسات بلفظ «انتهى» أو بعلامة «هـ»[7]. وتتحول السيرة إلى قاموس لغوي لضبط الأسماء اعتمادا على السابقين وتلخيص كلامهم مع حذف ما لا تدعو الحاجة إليه وزيادة ما هو أولى[8]. ويذكر الشعراء مثل زهير وجرير[9]. ويضاف إلى الشعر الأمثال[10]. ويستعمل الحديث والشعر كشواهد لغوية.

---

(١) السابق جـ٣/ ١٠٢٢.

(٢) الحديث(١٩٦٠)، القرآن(٥٧٢)،الأشعار(٣٠٨).

(٣) وفاء الوفا جـ١/ ٦٧/ ٧٣.

(٤) السابق جـ٣/ ٧٨٧.

(٥) السابق ص٥٨.

(٦) السابق جـ٤/ ١٣٠٢/ ١٣٢٨.

(٧) السابق ص٩٤ جـ٣/ ٧٧٩/ ٧٨٤/ ٧٨٦.

(٨) «في بقاع المدينة وأعراضها وأعمالها ومضافاتها وأنديتها وجبالها وتلالها ومشهور ما في ذلك من الآبار والمياه والأودية وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك وبالمساجد والآطام والغزوات وشرح حال ما يتعلق بجهات المدينة وأعمالها من ذلك على ترتيب حروف الهجاء الأول فالأول وربما اعتبرت في المركب المضاف إليه لشهرته. وهذا مما لا يستغنى عنه لعظم نفعه خصوصا للمشتغل بالحديث واللغة»، السابق جـ٤/ ١١١٦-١٣٣٦.

(٩) السابق جـ٤/ ١١٨٥/ ١٢٢٥.

(١٠) السابق ص١٢٠١.

ويمكن دراسة منطق الإبداع ابتداء من اختلاف صيغ الروايات الخاصة بالموضوعات الغيبية مثل الإسراء والمعراج الذي يسمح بإعمال الخيال أو زيارة قبر الرسول. وكان للأشعرية المستقرة أثر واضح في تدوين السيرة خاصة الغزالي[1].وكان «الإحياء» هو أكثر الكتب انتشارا[2]. واستمر نقد المعتزلة[3].

جـ- «في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل (١٩٥٦م)[4]

وتتحول قدسية الرسالة إلى قدسية الرسول إلى قدسية المكان كجزء من الشمائل والخصائص. يتحول تقديس الزمان إلى تقديس المكان وكلاهما خارج الرسالة. فالرسالة لكل زمان ومكان. المكان يهيج الذكريات. ولا يوجد ضمان أن هذا المكان المرئي كان هذا المكان القديم بعد تطور المدن ونمو العمران. ويتفق الحنين إلى المكان مع المنهج النفسي. فالمكان مرئي في حين أن الزمان يمضي. ولا يبقى منه إلا دورته رأس السنة الهجرية، رمضان، ليلة القدر، ليلة نزول أول سورة من القرآن. يتم الاحتفال بها كل عام في الأعياد والمواسم. والكتاب مزود بمجموعة من الصور والتخطيطات المتخيلة للمدن. تتحول قدسية الرسالة إلى قدسية الرسول إلى قدسية المكان لتزيد في قدسية المكان المتخيل[5]. وما فائدة صور أوضاع الرسول وصاحبيه في القبر بعد الدفن، طولا وعرضا؟[6].

والهدف من تقديس المكان هو إهاجة الذكريات كما يفعل الشاعر العربي القديم في أول قصيدته بالبكاء على الأطلال لفراق الحبيب. فالمكان يذكره بالحبيب وبضرورة البحث عنه والعودة إليه. ويتم ذلك نثرا وليس شعرا. وصاحب السيرة كاتب وأديب ومؤسس الرواية الحديثة. فتنشأ الحركات السلفية وشعارها العود إلى الماضي. تتحول السيرة إلى جزء من أدب الرحلات وفن الكتابة وهم التوثيق. ويحال إلى «حياة محمد»

---

(١) السابق جـ٣/ ٩٤٧ جـ٤/ ١١٣٤/ ١٢٢٤/ ١٣٥٥.

(٢) السابق جـ٤/ ١٣٩٦/ ١٤٠٢.

(٣) السابق جـ٤/ ١٣٥٥.

(٤) محمد حسين هيكل: في منزل الوحي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ٢٠٠٦-١٤٢٧هـ.

(٥) السابق ص١٥٤/ ٣١٧/ ٣٧١/ ٣٩٧.

(٦) السابق ص٤٢٦.

باعتباره السيرة وليس «في منزل الوحي»[1]. والسؤال هو: ما فائدة تهييج الذكريات؟ وهي ذكريات فردية وليست جماعية، ذكريات باشا إقطاعي وليست ذكريات عبد أسود دخل الإسلام لتحريره مثل بلال؟ هي جزء من فن الكتابة الرومانسية الوجدانية الحالمة وليست التحليل العقلي الواقعي للرسالة. ولا فرق بين التعبير عن قدسية المكان في النثر الفني أو الأدب الشعبي[2].

والخطورة من تقديس المكان هو العودة إليه ورؤيته والحنين إليه وجعل المقدس هي الأماكن الأولى التي نزل فيها الوحي والمدينتين الرئيستين «منزل الوحي» كما يدل العنوان. فيصبح أعظم عمل هو زيارة النبي، العمرة والحج والقدرة على حشد الملايين في عرفات[3]. الخطورة هو تحول الإسلام كنظام مثالي للعالم ومكارم الأخلاق إلى مكان. والمكان بشر ونظام حكم، قبيلة وتسلط وتبعية للأجنبي وقواعد عسكرية له على أراضيه. يتوقف التقدم باسم المكان. ويتحول المكان إلى زمان، والمكان والزمان نظام حكم، فيصبح مقدسا باسم قدسية المكان. يثبّت التاريخ الذي يجمع بين الزمان والمكان. ويصبح التقديس للثبات في نفس المكان ونفس الزمان. يتحول الإيمان إلى علم آثار وحفريات. وفي هذه الحالة ما لزوم الحديث عن المدينة الحديثة والتطور والعمران وتوسيع المساجد وزيادة السكان والعمران؟[4]. الخطورة التحول إلى وثنية جديدة، من وثنية الأصنام إلى وثنية المدن. والعنوان نفسه دال «في منزل الوحي» وربطه بالمكان إلا إذا كان بمعنى «أسباب النزول».

والرسول نفسه ضد قدسية المكان، زيارة قبره، بناء مسجد عليه كما فعل بنو إسرائيل ببناء المعابد على قبور الأنبياء، والنصارى أيضا بدفن أحبارهم في كنائسهم. وقد صرح الرسول بأنه لولا أن قومه حديثو عهد بالكفر لهدم الكعبة خوفا من العودة إلى الوثنية وقدسية الأماكن والأشياء أو لينفق كنزها في سبيل الله[5].

---

(١) السابق ص١٥.
(٢) مثل «إمتى أزورك يا نبي»، السابق ص٤٨٣.
(٣) خواطر حاج، أخبار الأدب ٢٢/ ١/ ٢٠٠٦.
(٤) في منزل الوحي ص٣٦٤-٤٥٩، مكة الحديثة ص٩٥-١١٢، المدينة الحديثة ص٣٦٤-٣٨٢.
(٥) «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله»، السابق ص٤٣٥.

ويضم «في منزل الوحي» ستة كتب طبقا لتسلسل الزيارة[1]. أكبرها مدينة الرسول لأنه فيها أسس الدولة الإسلامية الأولى. ليس فيها ذكر للوحي ولا لنزوله في مناسبات، «أسباب النزول»، ولا في تطور الأحكام في «الناسخ والمنسوخ». كلها أسماء أمكنة. وهو تصور يهودي، الوحي مرتبط بالشعب والأرض المقدسة والمدينة والهيكل.

ومع ذلك يظهر الإسلام في إطار تاريخ الأديان المقارن. فعريش الرسول بعد الهجرة يختلف عن عريش موسى[2]. ولا تستعمل الشواهد النقلية، القرآن والحديث والشعر كثيرا[3]. فالاعتماد الأكثر على تحليل التجارب الإنسانية. ومع ذلك القرآن أكثر من الحديث، والحديث أكثر من الشعر. فالقرآن هو المصدر اليقيني الأول. والحديث تحيط به الظنون. والنثر بديل عن الشعر. والحديث مجرد ذكريات. قيل في أماكن تهيجها. هو مناسبة لتقديس المكان، ومختار لهذا الغرض[4]. وتظهر بعض الآيات وهي تستعيد بعض الأحاديث وتعيد صياغتها[5]. وواضح الارتباط بين مصر والحجاز قبل المد القومي الحديث منذ أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات في مصر وسوريا. وكذلك الارتباط بين النظامين السياسيين الملكيين في مصر والسعودية. فقد كتب «في منزل الوحي» بناء على دعوة رسمية لزيارة الأراضي المقدسة من الملك لأحد باشوات مصر[6]. وشفعتها زيارة الأمراء[7]. وهناك أقسام من فصول حول الأسرة الملكية الحاكمة[8].

---

(١) وهي: أ- فرض الحج(٦٨) ب- البلد الحرام(٣٠) جـ اللطائف وآثارها(٧٢) د- بين الحرمين(٣٦) هـ- مدينة الرسول(١٢١) و- أوبة الرضا(٣٣).

(٢) «ابنوا لي عريشا كعريش موسى، ثمامات وخشبات، وظُلة كظلة موسى. والأمر أعجل من ذلك... كان إذا قام أصاب رأسه السقف»، في منزل الوحي ص٣٤٧.

(٣) القرآن(٦٤)، الحديث (٢٤)، الشعر (١٥).

(٤) مثل «بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»، في منزل الوحي ص٣٤٣.

(٥) مثل قول الرسول لأبي بكر وهما في الغار «لا تحزن إن الله معنا»، السابق ص١٩٩.

(٦) «وفي مساء اليوم الأول لقيت الملك ابن السعود فاستأذنته في مغادرة مكة، وشكرت له معونته ومعونة حكومته إياي في بحوثي»، السابق ص٢٩٨.

(٧) «زرت الأمير عبد العزيز بن إبراهيم غيرمرة، زرته في ديوان الحكم. وزرته في داره. وتناولت طعام الغداء على مائدته. وشاركته في طعام خفيف آخر الأمسية دعاني إليه ابنه إبراهيم... وإبراهيم ابن الأمير فتى لم يتجاوز الخامسة عشرة فيما أرى. وهو وسيم الطلعة في زيه العربي، حاد النظرة عن عينين سوداوين فيهما حور، ممشوق القوام، رقيق المظهر، ليس فيه شيء عن هذه الخشونة وهذا البأس اللذين يبدوان في نظر أبيه وفي حديثه... وتناولت طعام الغداء يوم سفري من المدينة على مائدة أحد أعيانها... »، السابق ص٣٧٨-٣٧٩.

(٨) ابن السعود بمكة، السابق ص١١٣-١٢٨.

وتبدو الثقافة الغربية في الخلفية الثقافية، كمرأة تعكس صور المكان، الشعر الفرنسي وأسماء الأدباء الغربيين ومعركة ووترلو[١]. وأحيانا يوضع اللفظ أو التعبير بلغته الأصلية[٢]. كما تظهر بعض الألفاظ المعربة بالرغم من وجود مرادفها العربي مثل «الأوتيل»[٣].

٨- النسب:

أ- «الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة» للبري (٦٨١هـ)[٤]

وهنا تدور السيرة حول النبي، نسبه وأصحابه، بين الافتراض والواقع. فالنسب إلى آدم افتراض مثل نسب المسيح في أول الإنجيل. أصحابه العشرة واقع تاريخي معروف بالتواتر. وهو ثلاثة وخمسون نسبًا، أربع وثلاثون قبيلة وبطنًا وتسعة عشر جزءًا[٥]. منهم من يسمى بلفظ «بنو» ومنهم من يسمى بلفظ «بطون». ومنها من يسمى بلفظ «قبائل»[٦]. ومنها ما يسمى باسم القبيلة. ومنها ما يسمى باسم شيخها[٧]. وقريش وحدها هي التي تذكر كقبيلة ومناقب. ومنها ما يطلق عليه لفظ إجرائي مثل «القارة». وهو نسب قبلي افتراضي كلما أوغل في القدم[٨]. لا يدور لا حول الرسالة ولا حول

---

(١) السابق ص٢٠٨/ ٩٧/ ٤٧٦.

(٢) مثل The empty quarter ، السابق ص٢٢٩.

(٣) السابق ص٤٦٣.

(٤) محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني البري: الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة(جزءان)، تحقيق وشرح الدكتور محمد التونجي، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات ١٤٢١هـ-٢٠٠١م

(٥) القبائل: بنو زهرة، بنو مخزوم، بنو غفار، بنو أسد، بنو ضبة، بنو بهدلة، بنو أنف الناقة ،بنو ثعلبة بن يربوع، بنو كليب بن يربوع ،بنو غذافة بن يربوع ،بنو رياح بن يربوع ،بنو ربيعة بن مالك ،بنو العنبر ،بنو الهجيم، بنو ملكان بن أقصى ،بنو وائل بن مغن ،بنو قزازة ،بنو بهنة بن سايم ،بنو جشيم ،بنو قشير ،بنو ربيعة بن نزار ،بنو أوس بن مناة ،بنو قيس بن ثعلبة.

(٦) مثل بطون قضاعة، قبائل بكر بني وائل.

(٧) مثل قريش، صاهلة، هذيل، مزينة، باهلة، ثقيف، الأراحم، المنكدر وربيعة.

(٨) عبد مناف بني قصي، قصي بن كلاب، عبد الدارين قصي، كلاب بن مرة، كعب بن لؤي، لؤي بن غالب، فهد بن مالك، الدئل بن بكر، غنم بن دودان، إلياس بن مضر، عبد مناة بن اد، مضر بن نزار عيسى بن بغيض، هوازن بن منصور، مازن بن منصور، نزار بن معد بن منصور، إياد بن نزار، معد بن عدنان.

الرسول بل حول عشيرته وقبيلته وأنصاره أي حول البشر، حوله في الماضي أو الحاضر طبقا للقرابة الشخصية للرسول. وهو ما يتعارض مع سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي. والتبويب طبقا لأسماء الأعلام والقبائل أو رؤسائها. وهي وحدات مستقلة عن بعضها البعض. المولد والحياة والوفاة. الرسول فقط نقطة إحالة في التاريخ. الرسول والحديث وسيلة لمعرفة الأنساب. يشع على الأنساب والأصحاب. ومن أقارب الرسول من مات في الحرب. كلهم مؤمنون فالأنساب ليست تاريخا بل أقارب مسلمين. ليست توالدا عرقيا بل كل من يتعلق بالرسول في الدين الجديد. فهي أنساب إسلامية عقائدية. فالتشخيص ليس فقط للرسول بل لكل بيئته الاجتماعية. وهو ما يعني الأنساب. وكلها بعد الإسلام وليس قبله في حين أن الأنساب تعني ما قبل ولادة الرسول. وكثيرا ما لا يتطابق اسم العلم والمادة المذكورة. مما يدل على أنه مجرد مناسبة لتجميع الأخبار. فالأنساب أقرب إلى التاريخ الخالص قد يتحول إلى تاريخ رصدي، مجرد رصد أسماء، معلومات بلا دلالة[1].

وتستمر الأنساب في الصحابة العشرة كما هو الحال في السير التي هي جزء من التاريخ العام[2]. والمصدر أقوال الرسول. ويصاب القارئ بالحزن للقتال الداخلي في الفتنة الكبرى، والتكالب على الدنيا، والصراع على السلطة.

وتعتمد الأنساب على الحديث أولا، والشعر ثانيا، والقرآن ثالثا كمصادر لها[3]. وتكثر الأحاديث وتتضخم بصرف النظر عن درجة صحتها، أكثر مما قاله المسيح حتى مع الأخذ في الاعتبار مدى حياة كل منهما ثلاثا وعشرين سنة في مقابل ثلاث سنوات. وليست للأحاديث أي دلالة موضوعية كما هو الحال في علم الحديث إلا أن القصد منها رواية أقوال الرسول. تستعمل فقط مصدرا للتاريخ، تاريخ الرسول

---

(١) «ذكر نسب رسول الله للآباء الكرام أولي المكارم والمأثورات والأمهات العقائل المحصنات، وذكر من اشترك معه النسب من القبائل، وذكر البطون منهم والأفخاذ والفصائل، وذكر من آمن به، وصحبهم من أبناء السعداء، ومن اشتهر منهم بإيمان أو منقبة في الجاهلية الجهلاء وذكر من قتله الله منهم على استهزائه وكفره في غزوات أيده الله فيها بنصره»، الجوهرة جـ١/ ٣١، السابق جـ ٢/ ٣٣٠-٣٣٣/ ٣٤٣-٣٤٤/ ٣٥٣».

(٢) وهم: أبو بكر، عمر، عثمان، علي الزبير، طلحة، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زايد، أبو عبيدة بن الجراح، السابق جـ٢/ ١٠٧-٣٧٠.

(٣) الأشعار(٥٤٥)،الأحاديث(٥٣٢)، الآيات(١١٦).

والصحابة. فالأنساب لا تعني النسب العرقي بل العلاقات بين الرسول وأصحابه وقومه. الرسول هنا مؤرخ مثل المحدث البخاري[1]. وتذكر الآيات بمناسبة أسباب النزول. فالأنساب أيضا تاريخ للقرآن. ومن الشعراء مشهورون[2]. ومنهم مقاتلون[3]. وبالإضافة إلى الشعر والحديث والقرآن هناك بعض المصادر التاريخية نظرا لارتباط علم السيرة بالتاريخ. فالسيرة جزء من التاريخ. هي التاريخ الخاص وسط التاريخ العام مثل الطبري والواقدي[4]. كما تعتمد السيرة على كتب السيرة الأولى مثل ابن إسحق وابن هشام[5].

ويحتوي الجزء الثاني على موضوع السيرة التقليدي عن شخص الرسول، جده، وأمهاته، وعمومته، وعماته وأمه وأزواجه وخدمه ومواليه وخيله وكتابه وشمائله وفضائله وحجة الوداع مع وفاته. تجمع بين الجانب الموضوعي في السيرة والجانب الذاتي. وكلاهما حول شخص الرسول وليس حول الرسالة ومراحلها كما فعل ابن إسحق وابن هشام من قبل.

ب- «استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف» للسخاوي (٩٠٢هـ)[6]

وفيه تمتد الشمائل من الرسول إلى آل البيت، وتشع الفضائل منه إلى أقربائه وأصحابه. وهو ما يجعل الفضل محصورا في أسرة أو قبيلة كما يحدث في نظم التوريث في النظم السياسية الحديثة. والعنوان طويل مفتعل يحرص على القافية أكثر مما يحرص على البساطة والموضوع. وسبب التأليف هو اختصار ما توسع فيه القدماء[7]. يضم

(١) الشعر، الجوهرة جـ١/ ٢١-٢٨.

(٢) مثل كعب بن زهير، السابق جـ١/ ٢٣٨.

(٣) السابق جـ١/ ٣٥١.

(٤) الطبري، السابق جـ١/ ٨٧، جـ٢/ ٥٧-٥٨ جـ٢/ ١٤٢/ ٢٩٦/ ٢٩٩/ ٣٠٣، الواقدي جـ٢/ ١٥٤/ ١٦/ ٥/ ١٨٦/ ٢٠٩/ ٢٧١/ ٢٧٥/ ٣٥٩، وأيضا المبرد للكامل جـ٢/ ٢٧٦، و«الحدائق» جـ٢/ ٢٠٩.

(٥) السابق جـ٢/ ١٣٥-١٣٦.

(٦) السخاوي (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن): استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف، تحقيق ودراسة خالد بن أحمد الصمي بابطين(جزءان)، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٧) السابق ص٢٢٢-٢٢٦.

أحد عشر بابا: وصية النبي، الحث على حب آل البيت، الصلاة عليهم، دعاؤه بالبركة، بشارتهم بالجنة، الأمان ببقائهم والنجاة باقتفائهم، خصوصياتهم الدالة على كرامتهم، إكرام السلف لآل البيت، مكافأة الرسول لمن أحسن إليهم، الإشارة إلى الفتنة، التحذير من بعضهم. والأخير هو أكبر الأبواب[1].

ويعتمد على الحديث والشعر والقرآن[2]. والحديث مرويات. وكثير من الموضوعات تبدأ بلفظ «أحاديث» أو «حكاية»[3]. وبعد بعض الأحاديث «فوائد» أو «تعليق» أو «لطيفة»[4]. ويتم التحقق أحيانا من القول[5]. كما يمكن نقد القدماء[6]. فالعقل ضروري للنقل حتى يكون النقل مقبولا[7]. والكتاب له قرين هو «ذخائر العقمي في مناقب ذوي القربى»[8]. كما يعتمد على كثير من القدماء[9].

جـ- «إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل آل بيته الطاهرين» للشيخ الصبان (القرن الثاني عشر)[10]

ويظهر فيه أيضا التحول من الرسالة إلى الرسول. ويمتد الرسول تاريخيا إلى آل

---

(١) «وصية النبي ص٣١٠-٣٩١(٨٢ص) ٢- الحث على حبهم ص٣٩٢-٤٤٢(٥١ص) ٣- الصلاة عليهم ص٤٤٣-٤٥٤(١٢ص) ٤- دعاؤه بالبركة لهم ص٤٥٠-٤٥٨(٩ص) ٥- بشارتهم بالجنة ص٤٥٩-٤٧٦(١٧ص) ٦- الأمان ببقائهم والنجاة باقتفائهم ص٤٧٧-٤٩٣(١٧ ص) ٧- خصوصياتهم الدالة على كرامتهم ص٤٩٤-٥٦٢(٦٩ص) ٨- إكرام السلف لأهل البيت ص٥٦٣-٥٨٥(٢٣ص) ٩- مكافأة الرسول لمن أحسن إليهم ص٥٨٦-٥٩١(٦ص) ١٠- الإشارة إلى الفتنة ص٥٩٢-٥٩٩(٨ص) ١١- التحذير من بغضهم ص٦٠٠-٧٢٦(١٢٧ ص)».

(٢) الحديث(٣٢٨)، الشعر(٤٥)، القرآن(٣٢).

(٣) أحاديث(١٩)، ارتقاء الغرف ص٣٣٦-٣٩١ «حكاية» (١٠) ص٦٧٩-٦٨٩.

(٤) فوائد الحديث ص٣٦٤-٣٦٥/ ٣٧١. فائدة ص٤٦٢/ ٤٩١-٥٥١/ ٦٢٠-٦٢١/ ٦٣١-٦٣٤/ ٦٥٨-٦٦١، لطيفة ٥٢٨-٥٤٢/ ٥٥٠-٥٥٤/ ٦٦٧.

(٥) ارتقاء الغرف السابق ص٥٦٧-٥٧٢.

(٦) السابق ص٢٢٣-٢٢٤.

(٧) السابق ص٢٢٢.

(٨) وهو من تأليف الإمام الحافظ المحدث فقيه الحرم أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري ثم المكي الشافعي(٦٩٤هـ)، السابق ص٢٢٣.

(٩) ذكر طائفة من الكتب التي ألفت فيما حصل على أهل البيت من القتل والشدة، السابق ص٥٩٢-٥٩٩.

(١٠) الصبان(الشيخ محمد بن علي): إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل آل بيته الطاهرين(تأليف ١١٨٥) هامش نور الأبصار، دار الفكر(د.ت).

البيت، الأموات والأحياء. ويضم الكتاب ثلاثة أبواب: الأول سيرة الرسول، مولده وزواجه بخديجة، وتعبده، ونزول الوحي عليه. ودعوته وهجرته، ومغازيه، وحليته، ومعجزاته، وخصائصه طبقا لأحكام التكليف الواجب والمحرم والمباح، وعباراته، وأولاده وأعمامه، وفضل أزواجه وخدمه. وهل أولاده وأزواجه وخدمه جزء من الوحي؟ والثاني فضل آل البيت ومزاياهم على العموم أو الخصوص. والثالث جماعة من أهل البيت مدفونون في مصر، وهو أكبر الفصول[1]. وينتهي «بسيدنا الإمام الشافعي» مما يدل على تقديس الشافعي كآل البيت[2].

ومن آل البيت رجال ونساء، أحد عشر رجلا وست نساء[3]. وكلهم موضع تبجيل واحترام وتقديس في الثقافة الشعبية. تحولت أسماؤهم إلى مساجد وأحياء وأماكن مباركة. وتطغى علوم التصوف على علوم السيرة. وتأتي المادة من الشعراني وابن عربي والحسن البصري والشاذلي والمناوي أكثر مما تأتي من ابن إسحق وابن هشام. لا فرق بين الرسول في علوم السيرة والحقيقة المحمدية في علوم التصوف[4]. وكرامات آل البيت مثل كرامات الصوفية.

اتحد السنة والشيعة في علوم السيرة المتأخرة. واجتمعوا على حب آل البيت. وأصبح آل البيت هم الاستمرار الطبيعي للرسول في التاريخ سواء كانوا من الصحابة أو من ذرية الرسول. وكانت مصر هي الموطن الذي اجتمع فيه الشيعة والسنة على حب آل البيت أحياء وأموات. فقد دفن معظمهم في مصر، والمصريون سنة ولكن هواهم شيعي. يتفق

---

(١) السابق، الباب الأول: سيرته ص٧-١١٢(١٠٦ص)، الباب الثاني: في فضل آل البيت ومزاياهم على العموم أو خصوص اثنين فأكثر ص١١٣-١٦٠(٤٨ص). الباب الثالث: الكلام على جماعة من أهل البيت مدفونين بمصر ص١٦١-٢٧٣(١١٣ص).

(٢) السابق ٢٥١-٢٧٣.

(٣) الرجال: المهدي من ولد فاطمة، الحسن بن علي، الحسين بن علي، السيد حسن والد السيدة نفيسة، السيد محمد الأنور، علي زين العابدين، إبراهيم بن الإمام زيد، موسى الكاظم، جعفر الصادق، محمد الباقر، الإمام الشافعي. النساء: فاطمة الزهراء، السيدة زينب، السيدة رقية، السيدة سكينة، السيدة نفيسة، عائشة بنت جعفر الصادق، الباب الثالث: في الكلام على جماعة من أهل البيت مدفونين بمصر، السابق ص١٦١-٢٧٣.

(٤) من الفناء إلى البقاء جـ٢ الوعي الموضوعي. الشعراني ص١٥٤/ ٢١٨/ ٢٢٩/ ٢٣٠/ ٢٣٣/ ٢٤٤، الحسن البصري ص٧٥. ابن عربي ص١٥٤/ ١٣٧، أبو العباس المرسي ص٢٤/ ١٩٢/ الشاذلي ص٢٣٤، المناوي ص٢٣٥/ ٢٥٠.

كلاهما على المهدي وظهوره. ومعظم آل البيت مدفنون في مصر، بلد الراحة والسلام. أقوالهم حجة مثل أحاديث الرسول. كلها أخلاق مثل كلمات الرسول. فآل البيت استمرار للرسول في التاريخ.

وكل الأحاديث المروية عن الرسول أحاديث نمطية في أشكال أدبية مصاغة سلفا مثل الصيغ الشرطية أوالأمرية أو الخبرية في توصيات أخلاقية خالية من الغيبيات. ومع ذلك هناك إمكانية لنقد الروايات لوصف بعضها بأنه «تفسير غريب»؟[1]. وتعتمد على المنقولات بين قوسين بحرفي «أ هـ» أي انتهى. لا جديد فيها إلا النقل من السابقين. تجمع وتكرر[2]. أقصى ما تعطيه هو شرح للنصوص المنقولة[3]. وتعتمد على علم التفسير[4]. كما تعتمد على الشعر ولو بصورة أقل كما يفعل القدماء[5]. وبالرغم من الطابع الموضوعي للسيرة وهدوئها إلا أن الإنسان يحزن على مصير الرسالة وضياعها في التاريخ واستشهاد الأئمة.

د- «نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار» للشبلخي (القرن الثالث عشر)[6]

وهو كتاب في الشمائل كما يبدو من العنوان، ولكن يمتد أيضا من الرسالة إلى الرسول في الصحابة وآل البيت. فالتاريخ ممتد في ذرية الرسول، لا فرق بين سنة وشيعة بعد إن جمعهم الدين الشعبي. فالرسول جزء من التاريخ، وقائد من قواده. ويشبه «إسعاف الراغبين» و«السير المتأخرة». والمؤلف مصري، هواه مع آل البيت. وتذكر فضائل مصر. أولاد النبي وذريته جزء من النبوة[7]. رأس الحسين جزء جوهري فيها بما تثيره من أشجان وأحزان[8]. انحرفت السيرة مرتين الأولى من الرسالة إلى الرسول، والثانية من الرسول إلى آل البيت.

---

(١) السابق ص١٤٧/ ١٦٩.
(٢) السابق ص٨٢-٨٨/ ١٦٥-١٨٥.
(٣) السابق ص٥٧-٦٥/ ١٩٥/ ٢١٧.
(٤) السابق ص١١٧.
(٥) السابق ص٢٩/ ٢٤٣.
(٦) الشبلخي (الشيخ مؤمن بن حسن مؤمن): نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، دار الفكر (د.ت).
(٧) السابق ص١٩٠.
(٨) السابق ص١٤٧-١٥٢.

ويتضمن «نور الأبصار» أربعة أبواب: الأول سيرة الرسول وخلفائه الأربعة. فالرسول ممتد في التاريخ. لا فرق بين النبوة والخلافة. وهو ما يقوله الشيعة بأنه لا فرق بين النبوة والإمامة. وفي سيرة الرسول يُفصّل التنبؤ به في محاورة بين عمر وعثمان، وبين أبي بكر وعلي، وحلم الشافعي. ثم يذكر نسبه وولده ورضاعته وتعبده، وتآمر قريش عليه، وإسراءه، وشق صدره، وهجرته، وبعض خصائصه، ودلائل نبوته، وأسماءه وألقابه وكناه، وشمائله ومعجزاته، ومزاحه وأحاديثه، وغزواته وسراياه، وبعوثه وسراريه، وأولاده وخدمه ومواليه، ونقباءه ونجباءه وحوارييه ونوابه، وأمراءه وكتابه، وحرسه ومؤذنيه وقضاءه وشعراءه وإخوته، وحيواناته وسيوفه ودروعه، وحرابه ومجنه وقضيبه، ومرضه، ودفنه. ومعظمها خارج مهمة الرسول ووظيفة تبليغ الرسالة[1]. وما قيمة ذلك كله في حمل الرسالة وتبليغها، الذرية والخدم، والموالي وحيواناته؟ وتدخل مناقب الخلفاء الأربعة مع الرسول، أبي بكر مع بعض كلامه، وعمر وبعض كراماته ونوادره وكلامه وأولاده، وعثمان وأولاده، وعلي ومناقبه وكلامه وشجاعته، ووقعة الجمل والتحكيم والخوارج، وأولاده ومقتله. ثم إضافة محمد بن الحنفية والحسن والحسين، وبعض الغرائب والفوائد المهمة. وهو أكبر الفصول[2]. والثاني مناقب الحسن والحسين وباقي الأئمة الاثنى عشر[3]. مناقب الحسن ومصالحة معاوية وكلامه وكرمه ومرضه مع الإفاضة في رأس الحسين ونقلها ودفنها ولعب يزيد بها لإثارة

---

(١) السابق ص٦-٥٩.

(٢) السابق ص٥٩-١٢٢.

(٣) وموت أولاده، ومناقب زيد الأبلج، الحسن المثني لدى الحسن السبط، ومناقب الحسين السبط واستشهاده ورأسه وكراماته وأولاده، ومناقب زين العابدين بن الحسين ووفاته وأولاده وكلامه، ومحمد الباقر بن علي زين العابدين وكراماته ووفاته وأولاده، ومناقب جعفر الصادق بن محمد الباقر وكراماته ووفاته وأولاده وكلامه، ومناقب موسى الكاظم بن جعفر الصادق ووفاته وأولاده، ومناقب سيدنا علي الرضا بن موسى الكاظم ومرَوياته، وولاية العهد من المأمون لعلي الرضا وكراماته ووفاته وأولاده، ومناقب محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، ووفاته وأولاده، ومناقب سيدنا علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا وكراماته، ومناقب الحسن الخالص بن علي الهادي العسكري وكراماته ووفاته وولده، ومناقب سيدنا محمد ابن الحسن الخالص بن علي الهادي، وأخبار الهدى ومروياته، السابق ص١٢٢-١٣٧، السابق ص١٣٧-١٨٩.

العواطف.وهو ليس في حاجة إلى ذلك[1]. فالشهيد شاهد، والقاتل قاتل[2]. وكل إمام هو «سيدنا»، ومن النساء «السيدة». والمهم هي عهودهم السياسية للخلفاء. والثالث ذكر جماعة من آل البيت لهم بمصر والقاهرة مزارات مشهورة ومساجد معمورة، سبع سيدات وخمسة رجال. وتتمة على قرافة مصر[3]. والرابع مناقب الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل[4]. فالسيرة تجد تحقيقها في المذاهب الفقهية الأربعة. وخاتمة الكتاب في ذكر مناقب الأقطاب الأربعة الصوفية: أحمد الرفاعي، عبد القادر الجيلي، أحمد البدوي، وإبراهيم الدسوقي. ثم يختتم بقطب آخر هو أبو الحسن الشاذلي. فكمال السيرة في التصوف. ويتحقق مناط النص في الصحابة والأئمة. فالدلالات والمعاني العامة للنصوص لا تكفي بل لابد من تلبيسها إلى أشخاص معينين هم المراد تبجيلهم وتعظيمهم[5]. وتطغى علوم التصوف على علوم السيرة كما هو الحال في «إسعاف الراغبين» فتذكر كرامات الأئمة كما يذكر الصوفية كراماتهم. ويحال إلى الشعراني وإلى البردة. ويحال إلى «إحياء علوم الدين» للغزالي[6].

وتكثر معجزات النبي وآياته بحيث لا يمكن التمييز بين ما هو متواتر منها وما هو آحاد، بين رواية صحيحة ورواية موضوعة، بين الآية والأسطورة[7]. وكثير منها منقولات خرافية من كتب التفسير. وتتوالى الخرافات والأساطير واحدة تلو الأخرى. وذلك مثل رجم الشياطين، وإيمان جن نصيبين، وتعزية الأنبياء في مقتل الحسين. وتتضخم رواية الإسراء والمعراج. ويبدع الخيال تفصيلات في شكل البراق وأجنحته وأحجاره الكريمة وألوانها وأحاديث السماء. وتتناول «الكتب الصفراء» السيرة. فهي مجال خصب لإبداع الخيال وصياغة الدين الشعبي[8].

---

(١) رأس الحسين، السابق ص١٤٧-١٥٢.
(٢) السابق ص٢٢٣-٢٢٥.
(٣) السابق ص٢٢٥-٢٥٢.
(٤) السابق ص٢٥٢-٢٧٣.
(٥) السابق ص٧.
(٦) السابق ص٩٦، الشعراني ص١٤٧/ ١٤٩/ ١٩١/ ٢٤٧/ ٢٥٠/ ٢٥٣.
(٧) السابق ص٦.
(٨) السابق ص١٥/ ١٨/ ١٤٩.

وفي الأحاديث لا يذكر السند بل يكتفي بالمتن ورواته الأواخر لأن المتن غير صحيح مشبع بالخرافات والأساطير. وتتوالى الأحاديث عندما تتحول علوم السيرة إلى علوم الحديث[1]. وهي أحاديث أقرب إلى الوضع لأنها كلها نفس الصياغة الشرطية أو الأمرية أو الخبرية. وأحيانا يتحول الحديث إلى غاية في ذاته وليس فقط مصدرًا للسيرة. فتحولت السيرة إما إلى علم الحديث أو علم التاريخ. ويحال إلى المقريزي[2]. ويكثر الاعتماد على الشواهد الشعرية للتأثير على العامة. فالشعر عاطفة وخيال[3]. وتكثر الاقتباسات التي يدل عليها الحرفان «أ هـ» اختصارا للفظ «انتهى» مثل تأليف الأساتذة الذين ليس لديهم شيء يقولونه حاليا[4].

(١) السابق ص٣٤-٤٣.

(٢) السابق ص٢٥٤.

(٣) استعمل حوالي ٢٢٥ شاهدا شعريا في «نور الأبصار».

(٤) السابق ص١٤٧.

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

الفصل الثاني

تشخيص الرسول

أولا ـ مقدمة عامة:

١ - من الرسالة إلى الرسول

وهناك مسار طبيعي في التشخيص من الإنسان العادي إلى الشخص المقدس، من الرسول إلى صاحب الرسالة ومبلغها إلى الرسول الإلهي المصطفى المختار، من الرسول والمرسَل إليهم إلى الرسول والمرسِل، من البعد الأفقي إلى البعد الرأسي، من الرسول العادي ابن المرأة التي كانت تأكل القديد، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى الرسول الذي يضارع عيسى في ميلاده، وموسى في معجزاته.

والتشخيص مسار طبيعي للفكر الديني، وفي كل دين، في المسيحية والتحول من المسيحية دين الإنسان إلى المسيح ابن الله، وفي اليهودية من عزير الكاتب إلى عزير ابن الله، وفي البوذية، من بوذا النبي إلى بوذا الإله، وفي إحدى الديانات الصينية، تحول لاوتزي من النبي إلى الإله.

ومع ذلك قاومت ديانات أخرى هذا التحول مثل الكنفوشوسية. فقد ظل كونفوشيوس معلما ولم يتحول إلى إله لأنه لا يوجد مفهوم الإله في الديانات الصينية. فهي ديانات أخلاقية طبيعية تحدد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، والإنسان والمجتمع، والإنسان والدولة، والإنسان والطبيعة. والسبب في ذلك غياب مفهوم

التعالي أو المفارقة، وإنزال كونفوشيوس «كتاب التغيرات» الذي يغلب عليه تعدد الآلهة من السماء إلى الأرض وتحويله الدين إلى أخلاق، والأساطير إلى علاقات اجتماعية.

هناك سير همها التركيز على هذا الجانب الأسطوري في حياة الرسول كما هو الحال في السير الشعبية التي تلقى في الأفراح من المنشدين، مثل سير أبي زيد الهلالي والزناتي خليفة. تجمع بين التعظيم والتقديس والبطولة والخيال الشعبي والصور الفنية. وهي سير يفتقد عصرها إلى البطل، والقائد والرمز والمخلص مثل يسوع المسيح.

تحول علم السيرة إلى المولد النبوي والهجرة كأعياد رسمية في الميلاد والأدعية للرسول، والاستغاثة والاستعانة به على قضاء الحاجات، فأصبح الرسول واسطة بين العبد والرب. وتضخم شيئا فشيئا حتى أصبح كالحقيقة المحمدية عند الصوفية. هو موضوع الابتهالات الدينية والأدعية إلى حد التأليه كما هو الحال في الدين الشعبي. ويظهر الرسول في المنام للصالحين، يرشدهم إلى الخير أو يحذرهم من الشر أو يلهمهم الصواب أو يبعدهم عن الخطأ. وفي الفن الإسلامي عند الشيعة تُرسم صوره مع صور الخلفاء والصحابة كما هو الحال في رسم صور المسيح في الفن المسيحي. ويكتب اسمه على عربات الطعام مع الله، كل اسم في ركن وبعض الخلفاء. أبو بكر أو عمر أو علي في الأركان الأخرى على الزجاج بالألوان. كما يكتب على ظهور عربات النقل والأجرة حماية لها من مخاطر الطريق. ويكتب كقطع من الباغ أو النحاس أو الفضة أو الذهب للتعليق على الأعناق لتزيين جيد النساء أو للحفاظ من العين والحسد. أصبح اسم «محمد» نوعا من «الديكور» الذي يجمع بين الجمال والإيمان، بين البصر والبصيرة، بين البركة والخوف، بين تمني الخير وتجنب الشر، بين طلب الثواب واستبعاد العقاب. لا أحد يفكر في الرسالة بل يفكر الكل في الرسول. لا أحد يفكر في القضية بل يتحول التفكير إلى حاملها ومبلغها وأداتها. ويبلغ حد التقديس إلى تصويره حيا، وإهداء الكتب إليه مع كثير من عبارات المدح والإطراء[1]. فهو حاضر بشخصه أكثر من حضوره برسالته.

---

(١) «إلى خير من طلعت عليه الشمس، وسيد من أقلته الأرض وأظلته السماء. إلى السراج المنير الذي انبثق في غياهب الجاهلية والناس يتيهون في بيداوات الجهل والتعصب والتقليد. فأنار الطريق للسائرين، وكشف الله به موضحات الأعلام. إلى البشير النذير الذي منّ الله ببعثه على الإنسانية كلها. فدعا إلى الله بإذنه، وضرب المثل الأعلى للإنسان الكامل في قوله وصمته، وفي سره وجهره، وفي فعله وتركه، وفي أحواله كلها، إلى صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، ومن آتاه الله الفضيلة والوسيلة والدرجة العالية الرفيعة، إلى الذي وسعت نفسه ما بين الأرض وسمائها، واكتملت فيه الإنسانية بمعانيها وأسمائها، وأدّبه الله. فكان تمام الآداب وحليتها وإنسان عينها، إلى رسول الله وخيرته من خلقه، إلى من خصه الله بختم الشرائع،

وكما كانت السيرة منبرا للدفاع عن الرسول وتعظيمه وإجلاله إلى درجة التقديس كانت أيضا منبرا للطعن عليه مثل زواجه من زينب بنت جحش طليقة مولاه زيد الذي كان بمثابة ابنه، وزواجه من عائشة قبل البلوغ. مكثت في بيته حتى البلوغ ثم بنى بها، وكثرة أزواجه. وقد وجد بعض المستشرقين في ذلك مجالا خصبا للتجريح والطعن وتشويه الإسلام بتشويه صورة الرسول حتى الرسوم الدانمركية الأخيرة التي أثارت العالم الإسلامي كله غضبا أكثر مما أثار احتلال مدينة القدس وتهويدها، واحتلال فلسطين والعراق وسوريا وأفغانستان، والحروب الأهلية في الصومال والسودان وتشاد، والخلافات بين المغرب والجزائر حول الصحراء، واضطهاد المسلمين في بورما وتايلاند والفلبين والصين.

وكان الرسول دائما يقول «الله ورسوله» في عطف واحد. وهو ما نقده بنفسه عندما جمع أعرابي بينهما وقال له «بئس خطيب القوم». وشتان ما بين الاثنين. فلا يقرنان. فإن القرن أحد أسباب التشخيص ثم التقديس ثم التأليه. ويكفي تسميته الرسول لأن «رسول الله» تجعله باستمرار مقرونا بالتأليه وهو مما يساعد على التشخيص. وهو ليس بمفرده رسول الله أو نبي الله بل كل الأنبياء والرسل السابقين من آدم حتى عيسى. رسول الله خطوة نحو «ابن الله» كما حدث في المسيحية. والرسول سمى نفسه محمد بن عبد الله عندما رفض المشركون في صلح الحديبية البداية بمحمد رسول الله، وعندما نادى الرسول في هوازن على المسلمين بأنه محمد بن عبد الله[1]. ويظهر الرسول كما يظهر الأبطال والزعماء والثوار. إذ تركز السيرة على شخصه وحكمته، وإبراز قراراته الفردية بالحكم والموت على الأعداء، خاصة في وقت يفتقد فيه الناس الزعامة، وفي ثقافة مازال الزعيم فيها هو العصب المحرك.

وتشخيص النبوة مثل تشخيص التوحيد، تحويل المبدأ إلى شخص. التشخيص في التوحيد تجسيم وتشبيه. والتشخيص في النبوة تحول من الرسالة إلى الرسول، ومن المحمول إلى الحامل. وهو نوع من التجسيم والتشبيه، وعود إلى الوثنية من الباب

وزيّنه بالتقوى، وجعل أكبر شعاره، والعدل حليته، والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد في الأمور كلها سيرته، والرشد سنته. أقدم هذا الكتاب لأنه بعض أحاديث الأجيال عنه والحديث عنه، نور العين وجلاء القلب»، ابن هشام، جـ١ ص٣.

(١) السابق جـ٢/ ٢٧١/ ٣٧٥.

الخلفي، بدلا من الصنم القديم الشخص الجديد. وكلاهما يقوم بنفس الوظيفة في التوسل والاستغاثة[1].

وقد جمعت أقواله في آخر السيرة المركزة كما والكثيرة الاستعمال كيفا. تتنوع بين الأخلاق والسياسة بعضها حقائق في صيغة خبرية، والأخرى أوامر ونواه. كثير منها موجه إلى الأنصار. وهي بديل عن شخصه. تحجرت أقواله في جزء خاص، وأصبحت جزءا صغيرا من السيرة بعد أن امتد الشخص وأصبح هو السيرة كلها[2].

وفي علم السيرة المتأخر يظهر أثر الفرق الكلامية ووضع الأحاديث ضد هذه الفرقة أو تلك مثل الأحاديث التي وضعت ضد المعتزلة «مجوس هذه الأمة»، أو ضد الخوارج «التي تخرج من الدين كما يخرج السهم من الرمية»[3].

وقد أجريت عدة دراسات نقدية على سير القدماء وتصنيفها في تيارين: تيار الغلو الذي يعطى الرسول أكثر مما يستحق، ويجعله فوق رتبة البشر والتي قد تصل إلى درجة الألوهية، والوجود الكوني السابق على الخلق، كما هو الحال في نظرية الحقيقة المحمدية عند الصوفية. وتيار الجفا الذي يعطي الرسول أقل مما يستحق وينكر النبوة والمعجزة. الأول عند الشيعة والصوفية، والثاني عند المستشرقين وبعض العلمانيين. ثم يأتي الدفاع عن موقف فقهي وسط بين الغلاة والجفاة. ولما كان الموقف الوسطي أقرب إلى أحد الطرفين كان الموقف الفقهي النصي أقرب إلى موقف الغلاة. وكما يمكن نقض روايات الغلاة يمكن أيضا نقد روايات الجفاه أو إعادة تأويل متونها، وحل التعارض بينها. المفاسد في العقائد المترتبة على الأحاديث الموضوعة كثيرة. ولم يقتصر الأمر على السيرة وحدها بل امتد إلى باقي العلوم النقلية العقلية مثل الفلسفة، والعلوم الذوقية مثل التصوف، والعلوم الكلامية مثل الفرق الإسلامية. وهو موضوع مطروح في الهند وباكستان خاصة بعد ظهور القاديانية، والبابية، والبهائية، التي يدعي مؤسسوها أنهم

---

(١) محمد، الشخصي أم المبدأ؟ الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١، ٧- اليمين واليسار في الفكر الديني ص١٦٣-١٦٧.

(٢) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ص٥٠٤-٥٠٦(حوالي مائة وخمسين حديثا).

(٣) «أنه سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر»، محمد رسول الله جـ٢/ ١١٣.

أنبياء تلقوا وحيا من عند الله[1].

ولم يتم تحليل أعمال المستشرقين عن «السيرة» لأنها ليست جزءا من التراث. هو موضوع مستقل في الاستشراق، رؤية الغرب لأحد موضوعات التراث الإسلامي وليس تطويرا له كما هو الحال في مشروع «التراث والتجديد». وهي نوعان: سيرة مباشرة، وسيرة كجزء من التاريخ[2]. وقد قامت دراسات مستقلة حول الموضوع لنقد الاستشراق وموقفه من السيرة[3]. وتتلخص في ثلاثة: المبالغة في الشك والافتراض والنفي الكيفي، واعتماد الضعيف الشاذ، وإسقاط الرؤية الوضعية العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة، ورد معطيات السيرة إلى أصول نصرانية أو يهودية.

كما أجريت عدة مراجعات على بعض السير الاستشراقية وبيان تحاملها وإنكارها النبوة إما لأسباب عقائدية تبين استمداده من اليهودية والنصرانية أو لأسباب منهجية وضعية تاريخية تبين استمدادها من الإسرائيليات والديانات الشائعة في شبه الجزيرة العربية. والرد على الاستشراق ليس بالعلم بل بالدين وبالقرآن كما يفعل الدعاة المحدثون حتى ولو كانوا من المفكرين والعلماء[4]. وينقد المناهج الغربية التي تقوم على الشك والافتراض والنفي الكيفي واعتماد الضعيف الشاذ مع أن الشك رد فعل على الإيمان. كما ساهم الضعيف الشاذ في تكوين العقائد الشعبية، كما تنقد إسقاط الرؤية الوضعية العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة وهو ما لا يتعارض مع البحث العلمي، وكرد فعل على التسليم بالروايات دون نقد أو تمحيص[5].

---

(١) د. الصادق بن محمد بن إبراهيم: خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء، عرض ونقد على ضوء الكتاب والسنة، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، حـ٢/ ١٤٢٦هـ.

(٢) السيرة المباشرة مثل «حياة محمد» لإميل، رمنجم، «محمد رسول الله» لاتيين دينيه «محمد في مكة ومحمد في المدينة»، لمونيجومري وات. والسيرة غير المباشرة كجزء من التاريخ العام: «الدعوة إلى الإسلام» لسير توماس أرنولد، «تاريخ الشعوب الإسلامية» لكارل بروكلمان، «تاريخ مسلمي إسبانيا» لدوذي رينهارت، «الإسلام على مفترق الطرق» للبوبولد فايس، «تاريخ الدولة العربية» ليوليوس فلهاوزن، «تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية» و«صدر الإسلام» لإسرائيل ولفسون، «التطور الأول للمحمدية» لمارجوليوت، «الخلافة نشأتها وانهيارها وسقوطها» لسير وليم موير، وكثير من مقالات دائرة المعارف الإسلامية المتعلقة بموضوع السيرة.

(٣) مثل: عماد الدين خليل: المستشرقون والسير النبوية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥م. نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤.

(٤) المستشرقون والسيرة النبوية ص٢٤-٤٥.

(٥) يضرب المثل بسيرة مونتجومري وات بجزأيها محمد في مكة ومحمد في المدينة.

٢- من الرسول إلى الرسالة

الهدف من هذه المحاولة لإعادة بناء علوم السيرة هو القضاء على عبادة الشخص من حياتنا الاجتماعية والسياسية والثقافية. فمازلنا نشخص كل شيء. الأسرة ربها «سي السيد»، والوزارة وزيرها، والجامعة مديرها، والدولة رئيسها. بل إننا نتصور الله على أنه شخص يمتلك العالم ويديره. فقضى على استقلال المؤسسات. وزاد قدر المداهنة والتملق للأشخاص، مدحهم والنيل من أعدائهم. وكثرت صورهم في حياتنا الاجتماعية. وأخذ بعضهم صفات الله: رئيسا مدى الحياة، لا يخطئ، يأمر فيطاع وإن عصى أحد يعاقب. وهو ما يحدث أيضا في الحياة السياسية فيما يسمى بعبادة الأشخاص خاصة الأيديولوجيات الشمولية[1]. كما تظهر في المجتمعات التقليدية خاصة في إفريقيا بأسماء حكامها: ملك الملوك، الإمبراطور، وكلٌ يضع على صدره من نياشين الانتصار وهو لم يدخل حربا واحدة إلا ضد خصومه السياسيين في الداخل في حروب أهلية مدمرة، تقضي على الآلاف بل الملايين من المواطنين والإلقاء بجثتهم في البحيرات أو تركهم في الصحراء الجافة مع ما نفق من ماشية.

«من الرسول إلى الرسالة» سيرة عصرية ليس حول الرسول بل حول الرسالة، تجنبا للوقوع في عبادة الأشخاص التي تصل إلى حد التقديس بل والتأليه كما هو الحال في «الحقيقة المحمدية» عند الصوفية، هي قراءة عصرية للسيرة طبقا لعيوب العصر وهو التشخيص وعبادة الأشخاص وتأليههم.

والقرآن نفسه ضد تعظيم محمد وتقديسه. لما توفى أنكر عمر وفاته وقال ببعثه فهو ليس أقل من المسيح لولا أن ذكّره أبو بكر﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، وقد عاب عليه أهل الكتاب أنه ليس في عظمة موسى وعيسى. فرد عليهم القرآن﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، والحديث أيضا ضد تعظيم صاحبه. وقد وصف محمد نفسه بأنه ما هو إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد. وطلب عدم إطرائه كما أطرت النصارى عيسى

---

(١) عبادة الأشخاص cult Personality .

ابن مريم، وأنه لا يستطيع أن يضمن لنفسه دخول الجنة إلا برحمة ربه. ووصفه القرآن على لسانه ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يُوحى إليه فقط.

والتحول من الرسالة إلى الرسول يقتضي التحول من الأفعال إلى الأقوال، ومن الأقوال غير المباشرة إلى الأقوال المباشرة، ومن وصف الراوي إلى المروي كما هو الحال في علم الحديث. لذلك اعتمدت هذه السيرة على الآيات والأحاديث أكثر مما اعتمدت على روايات المؤرخين.

والسؤال هو: هل هذه خصائص الرسول أم خصائص الرسالة؟ وهو ما وضح في إحدى السير الإصلاحية[1]. فكل خصائص الإسلام انعزلت عنه وفرغت منه وتجسدت في شخص الرسول. يبدو أن العجز عن تحقيق فضائله في الحياة العملية تحول إلى مغالاة في تعظيمها وتجسيدها في شخص الرسول كما يقال في السياسة أن الزعيم يجسد روح أمة ويمثل خصائص شعب.

٣- الأسماء والكني والألقاب

وقد تأتي الأسماء والكني قبل الأنساب في «جذور الرسالة» قبل أن تأتي في الرسول وفي الشمائل[2]. وهي حوالي ثلاثمائة أي أكثر من صفات الله التسع وتسعين. وتشابهها في القوة والإطلاق[3]. وانتهى بها بعض المتصوفة إلى ألف. ويمكن تجميع أسمائه في عدة مجموعات تدل على الاصطفاء وعلاقته بالله، وبالأنبياء السابقين، وبرسالته وبهديه، وبإخلاصه وصدقه، وبشارته ونذره، ورحمته، وعفوه. وقد سمى الرسول بنيه بتسمية

---

(١) تأسيس الدولة الإلهية، سيرة النبي جـ٢/ ٤٥-٦٩، الشيءون الدينية جـ٢/ ٧٠-٧٩، تأسيس وإتمام الشريعة جـ٢/ ٨٠-٨٢، الإيمان وأركان الإسلام الأساسية جـ٢/ ٨٨-١٠٤.

(٢) الإشارة ص٤٣-٤٦، انظر الباب الثاني، الفصل الأول.

(٣) ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة حقول دلالية أ- الاختيار مثل: المصطفى، المسلم، العبد، المتوكل، المبارك، عبد الله، الماحي، العاقب، المقفي، خاتم النبيين، الشهيد، المهاجر، العامل، المنصور. ب- الهداية مثل: النور، السراج المنير، الداعي، الإمام، الهادي، المصَّدق، الصاحب، الشفيع، المشفع، البشير، النذير، الآمر، الناهي، الذكر، المذكّر، المزمل، المدثر، طه، يس، جـ- الرحمة مثل: رءوف، رحيم، الطيب، الكريم، نبي التوبة، نبي الرحمة، المحلل، المحرم، الواضع، الرافع، المجير، قاسم، نبي الملحمة، أحمد، محمد، أذن خير. خير العباد ص٦٢٣-٦٣٠.

بني هارون لبيان التواصل مع الأنبياء السابقين[١].

ويختلف عدد الأسماء من سيرة إلى أخرى. قد تصل في إحداها إلى ثلاثمائة وخمسة وثمانين اسما مرتبة ترتيبا أبجديا مع الأدلة النصية عليها من القرآن أو السنة أو الكتب المقدسة السابقة. لذلك يمكن القول إنها اصطلاحية وليست توقيفية. وبالرغم من كثرة الأسماء فإن بعضها غير مستعمل في الحياة اليومية مثل: الأبطحي، الأبلج، الثمال، الأدعج، الأزحج، الأزهر، الأزكى، الأشنب. تفيد كلها التقديس والتعظيم والتفخيم والتبجيل تفيد معاني التفضيل مثل الأتقى والأصدق والأبر والأجود والأحسن والأخشى والأعلم والأدوم والأرجح عقلا والأرحم والأصدق والأطيب، والأكرم. ومن حيث أشكالها الأدبية البعض منها عبارات شارحة وليست لفظا والبعض الآخر ليس اسما بل صورا فنية أو وظائف أو أهدافًا مثل أفصح الناطقين بالضاد، أكثر الأنبياء تبعا، أوفى الناس ذماما، حامل لواء الحمد، راكب البراق، راكب الجمل، راكب البعير، راكب الناقة، راكب النجيب، صاحب التاج. ومعظمها أسماء مشتقة من صفاته. تدخل في تفصيلات شارحة لكل اسم. بعضها يشترك مع الله مثل «الأول» و«الآخر». وأقلها أسماء وافدة من العبرية أو اليونانية أو اللاتينية مثل مؤذ ماد، والبعض مقرون بأسماء الأنبياء السابقين مثل بشري عيسى. ولا يذكر أهم اسمين وظيفيين: النبي الذي يكثر استعماله في القرآن «النبي» و«الرسول» لأنهما موضوعان محايدان خاليان من التعظيم والتفخيم والتفضيل. وفي سيرة أخرى أسماؤه حوالي اثنين وخمسين اسما. وقد تصل إلى ثلاثمائة ومعظمها مشتق من القرآن[٢].

وأسماء الرسول هي التي سمى بها نفسه[٣]. وهي خمسة: محمد، أحمد، الماحي،

---

(١) «إني سميت بني هؤلاء بتسمية بني هارون»، أقرباء الرسول جـ٢/ ٥٠٧.

(٢) «هو: المصطفى، الماحي، الحاشر، العاقب، المقفى، الشهيد، المصدق، النور، السلم، العبد، الراعي، الإمام، الهادي، المهاجر، البشير، النذير، السراج، المنير، الأمين، الذكر، المذكر، العامل، المنصور، أذن خير، المزمل، المدثر، طه، يس، خاتم النبيين، رءوف، رحيم، الصاحب، الشفيع، المشفع، المتوكل، المبارك، الرحمة، الآمر، الناهي، الطيب، الكريم، المحلل، المحرم، الواضع، الرافع، المجير، قاسم، نبي التوبة، نبي الرحمة، نبي الملحمة، عبد الله، أحمد، محمد»، الإشارة ص٤٣-٤٦.

(٣) «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحي الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» عيون الأثر جـ٢/ ٤١٢.

الحاشر، العاقب. محمد وأحمد من نفس الاشتقاق، والحاشر مبالغة لأن الناس تحشر تحت قدميه. وقد طورها كتاب السيرة فأصبحت سبعة وخمسين. منها ستة في صورة مزدوجة بالإضافة أو بالوصف[1]. وواحد وخمسون مفردة. منها خمسة مزدوجة الاشتقاق[2]. ومنها ثلاثة مزدوجة على التعارض[3]. وهي مثل بعض أسماء الله: الرافع الخافض، القابض الباسط، الأول والآخر، الظاهر والباطن[4]. وباقي الأسماء من حيث المعنى يمكن تصنيفها في أربعة: النبوة. والعلم، والإمامة، والأمانة[5].

تدل أسماؤه على تفرده وخصوصيته[6]. فهو محمد وأحمد والماحي الذي يمحو الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي. وهو نبي الرحمة والتوبة والملاحم. وفي نفس الوقت هي أسماء مشتركة بينه وبين الناس، ولكن الكنية خاصة به[7]. وقد تفرض العقائد نفسها على الروايات فيسمح الرسول مرة واحدة لغلام أن يحكي باسمه وكنيته[8]. وكنيته اثنتان: أبو القاسم وأبو إبراهيم. ولا يجوز تسمية أحد القاسم أو أن تكون كنيته أبا القاسم[9].

---

(١) بالإضافة إلى: خاتم النبيين، ثاني اثنين، نبي التوبة، نبي الرحمة، نبي الملحمة، وبالوصف أُذن خير.

(٢) هي: الرسول والمرسل، البشير والمبشر، النذير والمنذر، الذكر والمذكر، الشفيع المشفع.

(٣) وهي: الآمر الناهي، المحلل، المحرم، الواضع الرافع.

(٤) من العقيدة إلى الثورة، جـ٢/ التوحيد ص٥٣٨-٥٩٩.

(٥) النبوة مثل: النبي، الأمي، الشهيد، الصادق، المصطفى، المزمل، المدثر، العبد، الداعي، المتوكل. والعلم مثل: المعلم، النور، السراج المنير، المبين الحكيم. والإمامة مثل: الإمام، الهادي، العامل، القاسم، العلي، المهاجر، المنصور، النقيب. والأمانة مثل المأمون، المجير، الطيب، الكريم، المبارك، الرحمة، المؤمن، الرءوف، الرحيم، الصاحب.

(٦) «إن لي أسماء: أنا أحمد، وأنا محمد، وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»، الأنوار جـ١/ ١٣٩، «أنا محمد، وأنا أحمد، أنا نبي الرحمة، ونبي التوبة، وأنا المقفى، وأنا الحاشر، ونبي الملاحم»، السابق ص١٤٠، الشفاء جـ١/ ٣١١-٣٢٢، بهجة المحافل ص٤٣٢، «اشتق الله لنا من أسمائه أسماء. فالله عز وجل محمود وأنا محمد، والله الأعلى ونفى علي»، النبي الأعظم ص٢٩.

(٧) «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي فإنما جعلت قاسما أقسم بينكم»، السابق ص١٤٠-١٤١، سيرة النبي ص٥١٠، خصائص الرسول ص٢٨١-٢٨٦ «سيولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي ولا يحل لأحد من أمتي بعده...» ص٢٨٥، «اختصاصه بفضل التسمي باسمه ووجوب توقيره وتعظيمه واحترامه»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤١٨.

(٨) هو محمد بن الحنفية عند الشيعة، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٦١.

(٩) «إنما بقيت قاسما أقسم بينكم»، «فإنما أنا أبو القاسم أقسم بينكم»، بهجة المحافل ص٤٣٢، النبي المختار ص٣١، تحريم التكني بكنيته، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤١٧-٤١٨.

ولما كان العرب أهل بلاغة فقد أعطوا الرسول عدة صور فنية مثل: الغيث الكثير، الراعي إلى المأدبة، النذير العريان، المنقذ من الضلال، اللبنة التي يختم بها بناء الدار[١]. وبعض الأسماء مشهورة على ألسنة الناس[٢]. وهذا يدل على أنها اصطلاحية وليست توقيفية طبقا لما يفرضه الواقع النفسي والاجتماعي. والبعض يُتفاءل بها[٣]. وطلب تغيير اسم حزن إلى سهل. فالرسول يعطي الأمل ولا يبعث على اليأس. ويدعي الناس يوم القيامة بأسمائهم وأسماء آبائهم. لذلك تُختار الأسماء الحسنة. وأحسن الأسماء عبد الله، وعبد الرحمن، وأسماء الأنبياء. ولا يجوز التسمي بملك الأملاك[٤].

وقد شرف الله الرسول بإطلاق بعض أسمائه عليه[٥]. كما سمى من قبل عديد من الأنبياء، إسماعيل وإسحق بعليم، وإبراهيم بحليم، ونوح بشكور، وعيسى ويحيي ببر، وموسى بكريم وقوي، ويوسف بحفيظ عليم، وأيوب بصابر، وإسماعيل بصادق الوعد. وتدل بعض الأسماء على صعوبة التفرقة بين أسماء الله وأسماء الرسول وأسماء البشر. لذلك لزم التنزيه حتى لا يتم الوقوع في التشبيه[٦]. فالتشبيه ضعف في العقل وإن كان قوة في الخيال[٧]. ومن مظاهر تأليه الرسول كتابة اسمه مع اسم الله على العرش

---

(١) الأسوة الحسنة جـ١/ ١٦١-١٦٤، النبي المختار ص٣١-٣٢.

(٢) فيما اشتهر على ألسنة الأمة من أسمائه وصفاته، بهجة المحافل ص٤٣٣.

(٣) الخصائص الكبرى جـ١/ ٤٠٩-٤١١ جـ٢/ ١٢٧.

(٤) «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»، «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»، «تسموا بأسماء الأنبياء»، سيرة النبي ص٥٠٨-٥٠٩.

(٥) من أسماء محمد: أحمد، محمود، حق، مبين، نور، شهيد، شاهد، كريم، أكرم، عظيم، جبار، خبير، خبير، فتاح، خاتم، شكور، عليم، علام، أول، آخر، قوي، متين، صادق، ولي، عفو، هادي، مؤمن، مهيمن، أمين، قدوس، عزيز، مبشر، نذير، طه، يس، الشفا جـ١/ ٣٢٣-٣٣٦.

(٦) السابق ص٣٣٧-٣٤٠.

(٧) «وأزيح الأشكال بها فيما تقدم عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، تخلصه من مهاوي التشبيه، وتزحزحه عن شبه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته، وحسنى أسمائه وعليّ صفاته لا يشبه شيئا من مخلوقاته، ولا يشبه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق، فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي. إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق. فكما أن ذاته لا تشبه الذوات كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض. وهو منزه عن ذلك بل لم يزل بصفاته وأسمائه»، السابق ص٣٣٧-٣٣٨.

وسائر ما في الملكوت[1]. وهو ما حكاه آدم لله، وما رآه الرسول في المعراج، ويتفنن الخيال في الكتابة بنور أبيض على العرش أو في كل شجرة في الجنة، وبين كتفي آدم، وفي خاتم سليمان. وهو مذكور في الأذان منذ آدم وفي الملكوت الأعلى. وكثير منها مذكور في القرآن وبعضها في الكتب المقدسة السابقة. ومنها ما سمى بها الرسول نفسه.

ومن خصائصه كثرة أسمائه الدالة على شرف المسمى[2]: أحمد، محمد، الماحي، الحاشر، العاقب، الخاتم، المقفى، نبي التوبة، نبي الملحمة، نبي الرحمة، يسن، طه، بعث بالجهاد. أحيد هو اسم التوراة، كما أن أحمد اسم الإنجيل، ومحمد اسم القرآن. وكلها يطابق الاسم المسمى. ووجد نقش اسمه على الحجارة القديمة التي وجدها إبراهيم[3]. وقد اشتق اسمه من اسم الله[4]. واشتق من اسمه البيت[5]. وسمي محمد لكي يُحمد في السماء وفي الأرض. وهناك إشكال في تسميته بأسماء الله وإلا تم الوقوع فيما يقوله الصوفية في الحقيقة المحمدية[6]. وقد سمي بأسماء الله في حوالي ثلاثين اسما[7]. وقد يُزاد حوالي أربعين آخرين[8]. ويمكن تصنيفها في عدة أنواع

---

(١) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٧-٢٩ «رأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمدا رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. صدقت يا آدم ولولا محمد لما خلقتك»، ص ٢٧ «أنا الله لا إله إلا أنا ومحمد عبدي ورسولي»، ص٣٠، في أسمائه الشريفة، شمائل الرسول ص٥٠-٥٦، السيرة الحلبية جـ١/ ١١٥-١٢٤، الأسوة الحسنة جـ١/ ٢٨-٩١، شمائل النبي ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢) السابق ص ١٨٣-١٨٤.

(٣) الخصائص الكبرى جـ١/ ٩٥-٩٧. وقد وجُد في عمورية ص٩٦.

(٤) السابق جـ١/ ١٨٦، بهجة المحافل ص٤٣٠، القول البديع ص١٧٦-١٨٥، عين الشمائل ص١٦-١٧.

(٥) وهو شعر حسان:

أغـر علـيه للنبـوة خـاتم	∴	من الله من نـور يلوح ويشهـد
وضم الإله اسم النبي الأسمد	∴	إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشـق له مـن اسـمـه ليجلـه	∴	فذو العرش محمود وهذا محمد

(٦) بهجة المحافل ص٤٣٣-٤٣٤.

(٧) هي: الأكرم، الأمين، الأول، الآخر، البشير، الجبار، الحق، الخبير، ذو القوة، الرءوف، الرحيم، الشهيد، الشكور، الصادق، العظيم، العفو، العالم، العزيز، الفاتح، الكريم، المبين، المؤمن، المهيمن، المقدس، المولى، النور، الهادي، طه، يس، السابق ص١٨٥.

(٨) وهي: الأحد، الأصدق، الأحسن، الأجود، الأعلى، الآمر، الناهي، الباطن، البر، البرهان، الحاشر،

طبقا لأصولها الاشتقاقية بحيث يمكن ترتيبها طبقا للأفضلية. ولكل منها خصائص وعجائب.

والتقديس لأسماء الرسول واحد عند السنة والشيعة وإن اختلفت الشواهد النقلية، أحاديث الرسول وأقوال الصحابة مثل عمر عند السنة، وإضافة أقوال على أمير المؤمنين عند الشيعة. وتعظم الأسماء عند الشيعة أكثر. فمن له ثلاثة أولاد وليس اسم أحدهم محمدا فقد جهل. فحسن اختيار الاسم جزء من التربية. والله يفضل بعض الأسماء على البعض الآخر. وإذا سمى أحد باسم الرسل فلا يضرب ولا يهان إكراما للرسول. والإنسان ينادى باسمه يوم القيامة. ويستحي الله أن يضع في النار من كان اسمه محمدا، وهو خروج عن قانون الاستحقاق. وبعض الأسماء مباركة بسببها تأتي البركة. وأسماء أخرى أسماء الشيطان مثل «حيات»[1]. وفي الثقافة الشعبية البحث عن اسم فريد أصيل أفضل من الاسم الشائع مثل محمد وأحمد ومحمود وحامد. بل تدخلت بعض الأسماء الأجنبية مثل: ميرفت، جوليا، كريستين، نيرفانا، منيرفا، نيفان إلا إذا كان البعض منها ذا أصول فارسية أو تركية أو رومية. وكلما كان الاسم فردا له رنة أجنبية غير عربية كان محبوبا.

ولا فرق بين تأليه الله وتأليه الرسول وتأليه عليّ. إذ تتضخم صورة علي عند الشيعة، وتأخذ حجمها الطبيعي عند السنة. وتعظم صورة الصحابة عند السنة، وتقل عند

الحافظ، الحفيظ، الحسيب، الحكيم، الحليم، الحي، الخليفة، الداعي، الرافع، الواضع، رفيع الدرجات، السلام، السيد، الشاكر، الصابر، الصاحب، الطيب، الطاهر، العدل، العلي، الغالب، الغفور، الغني، القائم، القريب، الماجد، المعطي، الناسخ، الناشر، الوفي، حم، نون، السابق ص١٨٥، في الأسماء وما تضمنه من المناسبات، بهجة المحافل، ص٤٢٩-٤٣٤، النبي المختار ص٣٠، عيون الأثر ص٤١٢.

(١) «من له ثلاثة أولاد فلم يسم أحدهم محمدا فقد جهل»، «من حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه وأن يحسن أدبه»، «إذا سميتم محمدا فلا تضربوه ولا تحرموه»، «سموا بأسماء الأنبياء»، وأحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة»، «إن الله ليوقف العبد بين يديه يوم القيامة اسمه أحمد أو محمد فيقول الله تعالى له: عبدي أما استحيتني وأنت تعصيني واسمك اسم حبيبي محمد؟ فينكس العبد رأسه حياء ويقول: اللهم إني قد فعلت. فيقول الله: يا جبريل خذ بيد عبدي وأدخله الجنة فإني أستحي أن أعذب بالنار من اسمه اسم حبيبي»، «ما من أهل بيت فيه اسم نبي إلا بعث الله ملكا يتقدمهم بالغداة والعشي»، «فإن الحيات من الشيطان»، استحباب التسمية باسم النبي الأعظم، النبي الأعظم ص٣٧-٤٢.

الشيعة. ولا شك أن لعلي فضائل ولكن لا تجعل مؤلها أو إلها. ولا يدخل عليّ في المنافسة باسمه مع أسماء الرسول مقرونا بذي القرنين فلا يحب عليّا إلا مؤمن[1]. ولكل منها بيت في الجنة.

٤- الأحاديث القدسية

وتكثر الأحاديث القدسية التي يتحدث فيها الله أو الملائكة أو جبريل مما يتفق مع تضخيم شخصية الرسول وتعظيمه[2]. وتسمى في سيرة أخرى «سماعاته» أي حديث الله له وسماعه الوحي[3]. فخصائص الرسول عند البعض ليست من وضعه ولا من تصور الناس بل هي وحي من الله عبر الملائكة وجبريل، اصطلاحية وليست توقيفية.

يتدخل الله أكثر في كتب الشمائل عنه في كتب السيرة. فقد أخبر الله الرسول بأن كل ما أعطاه لعباده فهو حلال. وقد خلقهم كلهم حنفاء، ثم اجتالتهم الشياطين عن دينهم، وحرمت لهم ما أحله الله، وأمرتهم بالشرك. نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربا وعجما إلا بعضا من أهل الكتاب. وأمر الله الرسول بحرق قريش مع استدراك الرسول بأن قريشا قد تشق رأسه، وهو ابتلاؤهم للرسول وابتلاء الرسول بهم. وأرسل له كتابا لا يغسله الماء. يُقرأ في المنام واليقظة. والحرب سجال بينهما والإنفاق متبادل بينهما. ويمده الله بخمسة أمثال جيشهم. وعليه أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه[4]. وإدخال الملائكة وعلى رأسهم جبريل، في الحوار وفي الفعل نوع من التشجيع، وإعطاء الكلام مزيدا من السلطة والأثر[5]. يتدخل جبريل في غير ساعات الوحي. وهو ما اعتبر فيما بعد أحاديث قدسية قد يخاطر بالخلط بينها وبين القرآن[6].

---

(١) «يا أيها الناس أوصيكم بحب ذي قرنيها أخي وابن عمي علي بن أبي طالب فإنه لا يحبه إلا مؤمن...»، «إن لك في الجنة بيتا وأنت لذو قرنيها»، النبي الأعظم ص٤١.

(٢) الشفا جـ١/ ١٢٦-٢٢٧.

(٣) الفصول ص٣٤٥-٣٦١.

(٤) الأنوار جـ١/ ١٤-١٥.

(٥) «لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء»، محمد رسول الله جـ١/ ٣٥٥.

(٦) السابق جـ٢/ ١٢٠.

وفي كتب الشمائل يتدخل جبريل مرارا لإضفاء نوع من القدسية بل والألوهية على شخص الرسول كوسيط بين الله والرسول، فقد خيرّ الله على لسان جبريل الرسول بأن يكون عبدا نبيا أم ملكا نبيا فاختار أن يكون عبدا نبيا بناء على نصيحة جبريل الذي يعرف حدود الأنبياء، وكأن الرسول لا يعرف كيف يختار بنفسه، ولا بد من عون ملائكي خارجي من جبريل[1]. وبعث الله جبريل إلى الرسول ليسأله ما يبكيه وكأن الله في حاجة إلى وسيلة خبرية للمعرفة، وكأن جبريل أيضا لا يعرف. فقد سأل الرسول وأخبره الله، فأرسل الله ثانية جبريل إلى محمد ليخبره بأنه سيرضيه في أمته ولن يسوءه[2].

ويستعمل الرسول أسلوب البشارة بالجنة للمؤمنين والنذير بالنار للمشركين والمنافقين. وقد يكون ذلك أقرب إلى الإرادة الإلهية من إرادة الرسول. فلا أحد يضمن مصيره ولا الرسول إلا أن يتغمده الله برحمته[3]. ويخطر الله الرسول بأنواع أهل الجنة وأنواع أهل النار. فأهل الجنة ثلاثة: إمام مقسط، ورجل رحيم رقيق القلب لكل قريب ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق أي العدل في السياسة والرحمة والعدالة في الثروة. وأهل النار خمسة: الضعيف والتابع والمخادع والطامع والسيئ الخلق بالبخل والكذب. ليس الرسول مطلعا فقط على أمور الدنيا في الحاضر بل أيضا على أمور الآخرة في المستقبل[4].

ثانيا ـ تصورات خيالية:

١- محمد الكوني

ولم تشخص الرسالة الرسول فقط بل أيضا شُخص الرسول عند السنة في الطبيعيات وفي الآخرويات مثل محمد في نظرية الحقيقة المحمدية عند الصوفية[5]. كما شخص عليّ

---

(١) الأنوار جـ١/ ١٣.

(٢) السابق ص٦٧.

(٣) «إنه من أهل الجنة»، «إنه من أهل النار»، «محمد رسول الله» جـ١/ ٣٦١/ ٣٦٨ جـ٢ ٥٢/ ٥٣/ ٨٢، ١٤٧-١٤٨/ ١٥٠-١٥١/ ١٥٣/ ١٥٨-١٥٩/ ١٦١-١٦٢/ ١٩٦/ ٢٦٤/ ٢١٦/ ٢٢٦/ ٣٥١.

(٤) الأنوار جـ١/ ١٥.

(٥) النبي الأعظم ص٧٤٨.

عند الشيعة. فعليّ يمتد إلى الكون والتاريخ. والزعيم بعد وفاته يبقى في صيغة صورة أو تمثال يراه الناس بعد أن كانوا يسمعونه. ويبقى حيا أمام الأعين وليس فقط في الذاكرة. القتال يبقى أما الذاكرة فيصيبها الضعف والنسيان. وتعود عبادة الأوثان من جديد. لذلك تنشأ حركات سلفية لتهدمها وتطهر الإيمان منها، صورا أو تماثيل أو آثارا أو قبورا[1].

ولولا محمد ما خُلقت الجنة والنار. ومكتوب على الجنة لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي أخو رسول الله قبل أن تخلق السموات والأرض بألفي عام. هنا يدخل التصور الشيعي لمحمد الكوني الذي يشارك فيه علي[2]. فخلق محمد سابق على خلق الجنة والنار. ولولاه لما كان للجنة والنار أي ضرورة.

وتحول الرسول من مبلغ الرسالة إلى النبي الكوني،أول الأنبياء في الخلق، وتقدم نبوته، وأخذ ميثاق عليه. هو أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث. وهو خاتم النبيين. آدم من طينته، وأبوه إبراهيم، وبشارة عيسى. وجبت له النبوة وآدم بين الروح والجسد. وقد يُفضل أول الخلق وخاتم الأنبياء عندما كان آدم من تراب، والتراب من الزبد، والزبد من الموج، والموج من الماء، والماء من الذّرة، والدرة من الضبابة. وهي من ظلال «سفر التكوين». فمحمد ليس أقل من موسى. يختلط التراب بالزبد بالموج بالماء بالضباب. خلق الله آدم ثم أهبط الرسول إلى الأرض في صلبه ثم في صلب نوح في السفينة ثم في صلب إبراهيم في النار. وهكذا من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أبوي الرسول الذين لم يلتقيا على سفاح[3]. كان أمر النبي مشهورا مذكورا

---

(١) الأسوة الحسنة جـ١/ ١٦٦ «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»، شمائل الرسول ص٣٩، النبي الأعظم ص٢٥-٣٣.

(٢) «لولا محمد ما خلقت الجنة والنار»، النبي الأعظم ص٢٥-٢٨.

(٣) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢١ «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»، «وآدم بين الروح والجسد»، «من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبيا» في شرف نسبه ومحتده، وما مهد الله له من الفضائل قبل وجوده وفضل بلدي وفاته ومولده، وعدد آبائه من لدن آدم، بهجة المحافل ص ٤٣/ ٤٧، «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه»، «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل من طينته وعترة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم» ص ٤٧ ، ص ٤٧ «وآدم من تراب والتراب من الزَّبد، والزبد من الموج، والموج من الماء، والماء من الذرة، والدرة من الضبابة» ص ٤٨، «لما خلق الله آدم أهبطني إلى الأرض في صلبه، وجعلني في صلب نوح في السفينة. وقذف بي في النار في صلب إبراهيم. ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني الله من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط» ص٤٨-

معلوما في الملأ الأعلى من قبل خلق آدم[1]. وفي هذا التصوير صدى لسفر التكوين في التوراة.

وقد تأتي صفات محمد الكوني في حديث يبدأ بطلب الله منه أن يسأل حتى تكون الصيغة أكثر قوة. ورد الرسول بأنه ليس لديه ما يطلب. فقد اتخذ الله إبراهيم خليلا، وكلم موسى تكليما، واصطفى نوحا، وأعطى سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. فرد الله بأنه أعطى محمدًا أكثر من ذلك. أعطاه الكوثر، وجعل اسمه مثل اسمه ينادى به في السماء، وجعلت الأرض له ولأمته طهورا، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهو ضد قانون الاستحقاق. فالرسول يمشي بين الناس مغفورا له، وجعل قلوب الأمة مصاحفها، أي التقابل بين الدين الفطري ودين الوحي، وخبأت لها الشفاعة[2].

وقد عقد الله معه ميثاق النبوة، دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأى قصور الشام حين ولادته. فهو يجمع بين الماضي والمستقبل. ذُكر في التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة مثل بيعة الخلفاء. والسؤال هو أيها الأصل وأيها الفرع، ميثاق النبوة أم البيعة؟[3]. كما وجد على الحجارة القديمة عدة نقوش، منها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله [4]».

وقد ذكر في الأذان على عهد آدم وفي الملكوت الأعلى بعد أن نزل آدم بالهند

٤٩، المغازي ص١٠١، السيرة النبوية ص١١-١٥، «أنا سيد الناس يوم القيامة»، بهجة المحافل ص٤٤٠ الجوهرة جـ٣/ ٥٤، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»، الجوهرة جـ٢/ ٩٥، معين الشمائل ص١٩-٢٠.

(١) صحيح الرسيرة ص٥٣-٥٦، الأسوة الحسنة جـ١/ ٦٥، شمائل الرسول ص٢٩٠.

(٢) «قال الله تعالى: سل يا محمد. فقلت: ما أسأل يا رب. اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، واصطفيت نوحا، وأعطيت سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. فقال الله تعالى: ما أعطيتك خيرًا من ذلك. أعطيتك الكوثر، وجعلت اسمك مع اسمي يُنادى به في جوف السماء. وجعلت الأرض طهورا لك ولأمتك. وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فأنت تمشي في الناس مغفورا لك. ولم أصنع ذلك لأحد قبلك. وجعلت قلوب أمتك مصاحفها. وخبأت لك الشفاعة ولم أخبئها لنبي غيرك»، بهجة المحافل ص٤٤٣.

(٣) «أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم، ودعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى. ورأت أمي في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام»، الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٥-٢٦

(٤) مثل الحجر الذي وجده إبراهيم، وما وجد في عمورية، السابق ص٩٥-٩٦، «كان فص خاتم سليمان بن داود سماويا ألقي إليه فوضعه في خاتمه. وكان نقشه «أنا الله لا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي»، السابق جـ١/ ٣٠.

واستوحش[1]. وهو دعاء إبراهيم، وبشارة عيسى[2]. وفي أحاديث متخيلة بين آدم وجبريل يطلب إبراهيم النزول في أرض عذبة فيرفض جبريل إلا أن تأتي مكة، حيث يخرج النبي الأمي من ذريته، خاتم الأنبياء. كما أخبرت هاجر بأن من ابنها إسماعيل يخرج النبي ساكن الحرم ومن أمته. كما أوحى الله ليعقوب بنفس الرسالة.

وفي تفضيل الأنبياء يذكر آدم وإبراهيم ويونس وموسى وعيسى دون نوح وهم أولو العزم. ويتحول تطور النبوة من حيث المضمون إلى فضائل للأنبياء كأشخاص. محمد أفضل الخلق، وبنو هاشم أفضل الأبناء[3]. ومعهم إبراهيم وعيسى. فالرسول دعوة إبراهيم ومن ذريته. وعيسى أخوه لا يتوسط بينه وبينه نبي[4]. وهو أشبه بالميثاق الكوني الذي عقده الله مع نوح في التوراة.

وطلب آدم من الله مغفرة ذنبه ببركة محمد. ولما سأله الله كيف عرفت أنه سيخلق محمد أجابه بأنه وجد اسمه موجودًا على العرش[5].

ولا فرق بين محمد وعلي في التشخيص الكوني. فقد اشتكت الملائكة حبها لعلي فخلق الله ملكا من نور عليّ على صورته كي تزوره الملائكة[6].

---

(١) «نزل آدم بالهند واستوحش فنزل جبريل فنادى بالأذان: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن محمدا رسول الله مرتين، قال آدم من محمد؟. وقال: آخر ولدك من الأنبياء»، السابق جـ١/ ٣١.

(٢) «أنا دعوة أبي أبراهيم، وبشارة عيسى»، السابق جـ١/ ٣٣.

(٣) «أتاني جبريل فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلا أفضل من محمد، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم»، بهجة المحافل ص ٤٦.

(٤) «أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة؟ إنهما في أمتي يوم القيامة. أما إبراهيم... فيقول: أنت دعوتي وذريتي فاجعلني من أمتك. وأما عيسى... فالأنبياء إخوة بنو علات. أمهاتهم شتى، وأن عيسى أخي ليس بيني وبينه نبي. وأنا أولى الناس به»،بهجة المحافل ص٤٤٢، «إن الله اصطفى قريشا من بني إسماعيل، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»، شمائل الرسول ص٣٩/ ٤٧-٤٩، نسب الرسول.

(٥) «لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب ببركة محمد ألا ما غفرت لي فقال الله: كيف عرفت محمدا ولما أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني رفعت رأسي ورأيت مكتوبا على قوائم العرش «لا إله إلا الله محمد رسول الله». فقلت إنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي. وإذا سألتني به فقد غفرت لك. ولولاه لم أخلقك»، المعجزات اللامعة ص١٧.

(٦) النبي الأعظم ص٣٠.

ومناقب الرسول تضعه بين محمد الكوني ومحمد الإنسان. فهو سيد ولد آدم. له أسماؤه ومعجزاته. ويتمتع بخلقته وحليته. ويتميز بشجاعته وسخاوته وحيائه. ويعود محمد الكوني من جديد في دوره على الحوض[١].

وتشهد كل المخلوقات بين السماء والأرض كالملائكة والجن أنه رسول الله إلا من عصى منهم[٢]. وأعلم الوحش رسالته.

أول من تنشق عنه الأرض والثاني عليّ. وأول من يفيق من الصاعقة. يُحشر في سبعين ألف ملك، على البراق، ويؤذن باسمه في الموقف. ويكسى بحلتين في الجنة، ومقامه على يمين العرش. يختص بالمقام المحمود. وبيده لواء الحمد. وآدم تحت لوائه. هو إمام النبيين وخطيبهم وقائدهم، أول شافع ومشفع، أول من ينظر إلى الله، وأول من يؤمر بالسجود، وأول من يرفع رأسه، صاحب الشفاعة العظمى[٣]. كل سبب ونسب متقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه، وهو أول من يمر على الصراط، ويقرع باب الجنة ويدخلها ثم بنته، وله في كل شعره ووجهه نور. ويأمر أهل الجمع بغض أبصارهم حتى تمر ابنته على الصراط[٤]. اختص بالكوثر والوسيلة. قوائم منبره رواتب في الجنة، ومنبره على ترعة من ترع الجنة، وما بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنة[٥].

وهو أول من يُبعث، وقائد المبعوثين. وهو الخطيب إذا أنصت الناس. وهو أكرم ولد آدم. يطوف عليه ألف خادم[٦]. وتلك هي صورة الزعيم أو السلطان أو ملك

---

(١) سنن المصطفى ص٧٤٢-٧٥٤.

(٢) بهجة المحافل ص٤٦٨.

(٣) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٥٩-٤٧٣ «يا علي أول من تنشق عنه الأرض محمد ثم أنت. وأول من يحيي محمد ثم أنت»، النبي الأعظم ص٢٩.

(٤) السابق ص٤٧٤-٤٧٥.

(٥) السابق ص٤٧٦-٤٨٢.

(٦) «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، أنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا. لواء الكرم بعدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر. ويطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»، «وأكسى حلة من حلل الجنة. ثم أقوم عن يمين العرش. ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»، «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي. وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» بهجة المحافل ص٤٤١،

الملوك أو الإمبراطور على الأرض. يلبس حلة من حلل أهل الجنة. ويقوم على يمين العرش. يؤيده أربعة وزراء اثنان في السماء، جبريل وميكائيل، واثنان في الأرض أبو بكر وعمر[1].

وهو الشفيع الأول، من يعطي الشفاعة ومن يتلقاها. وأول من يدخل الجنة مع فقراء المهاجرين والأنصار. هو أكرم الأولين والآخرين. وكلها بأسلوب «الأنا» الذي رفضته أحاديث أخرى. والشهادة مثل الشفاعة. فالرسول شهيد على كل الأنبياء وأممهم ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. فالتصورات لها صدى من القرآن وتعبير عن الأحوال النفسية.

ويظهر تشخيص الرسول حتى في السير المعاصرة من الإهداء ووصفه بسيد الكونين[2]. فالأحوال النفسية مازالت مستمرة، العجز وتعويضه في التقديس، من السالب المطلق إلى الموجب المطلق. وكلما اشتد العجز في الممارسة الفعلية لمبادئ الرسالة زاد التعظيم والتقديس لشخص الرسول.

وخصائص الرسول هي خصائص الرسالة مجسدة في شخصه طبقا لعملية التشخيص التي حدثت في التوحيد، تشبيه الله بالإنسان، كما حدثت في النبوة[3].

«أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»، «فإذا موسى بجانب العرش. فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله»، خصائص الرسول ص٢٦٦.

(١) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤١٦.

(٢) «لا أزال أشفع حتى يقول خازن النار: يا محمد ما تركت لغضب ربك في أمتك من نقمة»، «وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر. وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح لي فيدخلها معي فقراء المهاجرين ولا فخر. وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»، بهجة المحافل ص٤٤١-٤٤٢، «أنا شهيد على هؤلاء»، خصائص الأنبياء ص٢٦٥.

فقير جاء في حضرة سيد الكونين بإخلاص وعقيدة   انظر بعينك إلى رونق وبهاء اللؤلؤ.

(٣) السابق جـ٢/ ٢٩٠، بهجة المحافل ص٤٣-٦٠، حبيب الرحمن، سيد ولد آدم، أكرم الخلق على الله، أفضل المرسلين والملائكة، عرض أمته عليه حتى رآهم، وعرض عليه ما هو كائن حتى تقوم الساعة، وخص بالبسملة والفاتحة وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة والمفصل والسبع الطوال، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٠٦، التفرقة بينه وبين الأنبياء في الخطاب ص٤١٢.

٢- الأنا الأول

يتحول الأنا الكوني إلى الأنا الأول. فهو خير القسمين في خلق الكون، من أصحاب اليمين. ووجبت له النبوة وآدم بين الروح والجسد[١]. ويظهر محمد الكوني في بدء الخلق وحكمة نزول آدم، وحديثه مع الأنبياء، والإسراء والمعراج، وحرب الملائكة وإيمان الجن[٢]. والزبط بين الرسول وآدم مثل ربط الإنجيل بين آدم والمسيح. وتدخل المعجزات النمطية مثل التكلم في المهد[٣]. كل خاصية تتجسد. وكل معنى يتحول إلى حامل مادي. وهي قضية تجسيد المعاني أي التصوير الفني، فالصورة الفنية وسط بين المعنى المجرد والشيء المادي[٤].

وتبدو شخصية الرسول في أحاديث «الأنا الأول»[٥]. فهو سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع[٦]. وهو أكثر الأنبياء اتباعا يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة[٧]. وتتعدد صيغ الروايات في ذلك بحوار بدلا من

---

(١) «إن الله قسم الخلق، من خيرهم قسما... وأنا خير السابقين. ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها قبيلة... فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني من خيرها بيتا... إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة. واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم... أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر... أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر... لما خلق الله آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة. وقذف بي في النار في صلب إبراهيم. ثم لم يزل ينقلني في الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبوي. لم يلتقيا على سفاح قط»، السابق ص٢١٦-٢١٧.

(٢) المواهب اللدنية جـ١، ذكر الجن، ٢٦٩، ٤٣/ ٥٥-٨٤.

(٣) التكلم في المهد، حادثة شق الصدر، الشق وقع أكثر من مرة، السابق جـ١/ ١٥٥-١٥٩ جـ٣/ ٢٦-٢٨، معين الشمائل ص١٩، إرساله إلى الجن كالإنس جـ٢/ ٦٤٥-٦٤٧ هل أرسل إلى الملائكة؟ جـ٢/ ٦٤٨-٦٥٠ ، البشر أفضل أم الملائكة؟ جـ٣/ ١٢٩، مراتب الملائكة جـ٣/ ١٣١، الغسل بطست من ذهب جـ٣/ ٢٩.

(٤) هل تجسد المعاني؟ المواهب اللدنية جـ٣/ ٣٠.

(٥) وهو ما يسمى في مدرسة تاريخ الأشكال الأدبية Wörte-Ich انظر دراستنا، مدرسة تاريخ الأشكال الأدبية، دراسات فلسفية الأنجلو المصرية ١٩٨٧ ص٤٨٧-٥٢٢.

(٦) «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»، الأنوار جـ١/ ٦٢، الجوهرة جـ٢/ ٩٥، شمائل الرسول ص٢٩٠.

(٧) «أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة»، الأنوار جـ١/ ٦٢/ ٦٥، «أنا أفرطكم على الحوض»، شمائل الرسول ص٢١٠/ ٢٩٠.

حديث الأنا[1]. وهو أول في كل شيء في دخول الجنة وفي البعث وفي الوفود وفي الحديث وفي الشفاعة وفي البشارة. بيده المفاتيح. وهو أكرم ولد آدم. يطوف عليه ألف خادم[2]. كما أنه بعث من خير قرون بني آدم، وآدم هو أول البشر. والأنا الأول مثل الإنسان الأول. وإبراهيم خير البرية[3]. والرسول تأكيد لدينه[4]. وهو ليس خيرا من يونس بان متى. وهو أيضا لفظ الأنا سلبا، تقديرا ليونس وإبرازا لصفة التواضع، وهي من الخصائص، الفضائل الخلقية. والرسول لا يريد ملكا مثل ملك سليمان في حكاية تمثيلية ولكن يكشف عن الأولوية بالرتبة و الشرف[5].

والرسول ابن الذبيحين. دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى. وهو قرشي أفصح العرب. يجمع بين الماضي والحاضر، بين البداية والنهاية، بين بداية النبوة وخاتمها[6]. كما أنه خير الأنبياء والرسل بمعنى أنه هو الذي أكملهم كما قال المسيح في التوراة، «ما جئت لأنقص الناموس بل جئت لأكمله». فالإسلام إكمال للوحي في مراحله السابقة، إتمام لمحاسن الأخلاق. وإذا كان الأنبياء السابقون قد أوتوا آيات فإن الرسول قد أوتي وحي أي الغاية وليس الوسيلة، النهاية وليس البداية[7].

---

(1) «آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح. فيقول الخازن من أنت؟ فأقول محمد. فيقول بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»، السابق ص٦٣/ ٢٩٠.

(2) «أنا أولهم خروجا إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة، والمفاتيح يومئذ بيدي. وأنا أكرم ولد آدم، يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور»، السابق ص٦٣-٦٤.

(3) «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت منه»، الأنوار جـ١/ ٥.

(4) «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»، السابق ص٣٢٠-٣٢١.

(5) «إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي. فأمكنني الله منه. فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم. فذكرت دعوة أخي سليمان: رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، فرددته خاسئا»، السابق ص٣٢٢.

(6) «أنا ابن الذبيحين»، الجوهرة جـ٢/ ٥٢»، «نعم أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى.. أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر، أنا أفصح العرب...»، السابق ص٥٤.

(7) «مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه ترك منه موضع لبنة. فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها. فكنت أنا. سددت موضع تلك اللبنة. ختم بي البنيان، وختم بي الرسل»، الأنوار جـ١/ ٦ «إن الله بعثني بتمام محاسن الأخلاق»، جـ١/ ٧ «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»، جـ١/ ٧، الجوهرة جـ٢/ ٩٥.

والمسلمون الآخرون السابقون يوم القيامة في حين أن أهل الكتاب أوتوا الكتاب من قبلهم فاختلفوا فيه وهدى الله المسلمون. اليهود تبع للمسلمين غدا والنصارى بعد غد. انتصارا على اليهود في خيبر وغزوا للقسطنطينية[1].

ونصر بالرعب على أعدائه مسيرة شهر[2]. ويزيد الخيال شهرين، شهرا أمامه وشهرا خلفه، بتحويل الزمان إلى مكان. وتزداد الصياغة أكثر تفصيلا. فقد أعطى الرسول ما لم يعط نبي قبله. نُصر بالرعب أي قوة الحق لديه وزعزعة الباطل عند الخصم مدة من الزمن. وجعلت له الأرض مسجدا طهورا دون ما حاجة إلى مسجد مزركش مزوق مذهب للطبقة العليا. وأحلت له الغنائم. وقد مضى عهدها بقوانين الحروب والمعاهدات الدولية لحماية الأسرى والأراضي المحتلة. وبُعث إلى الناس كافة مما يدل على انتشار الإسلام في القارات الست وليس دينا خاصا يقوم على شعب أو عرق. وأعطى الشفاعة وهو ما يُعارض قانون الاستحقاق عند المعتزلة[3]. وأعطى ما شاء. وهو قادر على التمييز بين التابع والمتبوع إشارة إلى ضرورة الاستقلال. وأوتي جوامع الكلم. ووضعت في يده مفاتيح خزائن السموات والأرض. وهو آخر الأنبياء. وتزداد الصياغة تفصيلا في خمسة أشياء: لم يعطهن من قبل: نصر بالرعب مسيرة شهر، وهو ما يقال حاليا قوة الردع مما يدل على ضرورة امتلاك السلاح النووي لردع الأعداء.

---

(١) «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم. فهذا يومهم الذي فرض عليهم. فاختلفوا فيه. فهدانا الله. فهم لنا فيه تبع. فاليهود غدا، والنصارى بعد غد»، السابق ص٦٤

أنـــا النـــبـــي لا كـــــذب   أنا ابن عبد المطلب، الجوهرة جـ٢/ ٩٦

«أنا فرط أمتي لن يصابوا بمثلي»، الجوهرة جـ٢/ ١٠١.

(٢) «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، «نصرت بالرعب شهرا أمامي وشهرا خلفي»، خصائص الرسول ص٢٥٨.

(٣) «أعطيت خمسا، (ستا) لم يعطهن نبي قبلي. نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي، وبُعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة وطلب منه ما يشاء «سل تعطه»، «وعرض علي أمتي فلم يخف علي التابع من المتبوع» ، «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم، وبينما أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي»، «وختم بي النبيون»، بهجة المحافل ص٤٤٢-٤٤٣، خصائص الرسول ص٢٥٨/ ٢٦٣-٢٦٧.

وجعلت له الأرض مسجدا طهورا، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل دون ما ضرورة لبناء المساجد وزخرفتها والمباراة فيها وصرف الدولة من الخزانة العامة عليها دون المدارس والمستشفيات والنوادي والساحات الرياضية. وأحلت له الغنائم، ولم تحل لنبي قبله أي توزيع مال الآخرين على الفقراء وهو ما تنظمه المعاهدات والقوانين الدولية الآن. وبعث إلى الناس كافة، مما يدل على شمول الإسلام. وأعطي الشفاعة، فمن سأل أعطى، والشفاعة أي الرحمة والمغفرة وكسر قانون الاستحقاق وهي عقيدة الأشاعرة مما يدل على أثر العقائد المتأخرة على تدوين السيرة[1]. وله خمس أخرى: عرضت عليه أمته فعرف من التابع ومن المتبوع طبقا لمقياس الاستقلال، إلى الأحمر والأسود. وأوتي جوامع الكلم، ووضعت في يده مفاتيح خزائن الأرض أي ثروات العالم، وزوى له مشارق الأرض ومغاربها، وألا ينتصر على الأمة عدو إلا من أنفسهم، وختم به النبيون[2]. والخوف على الأمة ليس من الشرك بل من التنافس على الدنيا. والحقيقة أن العدو الخارجي قد غزا المسلمين منذ الصليبيين إلى التتار والمغول حتى الاستعمار والصهيونية الحديثة[3].

وقد يكون حديث الأنا بضمير المتكلم[4]. وهو كشف مباشر عن مضمون الأنا الأول. وهو ليس من هذا العالم وإن كان موجودا فيه. هو في الزمان وجوهره الخلود.

---

(١) «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وأن أمتي سيبلغ ملكها إلى ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض وأني سألت ربي لأمتي أن يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسيء بعضهم بعضا»، السابق جـ١/ ١٠-١٣.

(٢) السابق ص٢٢٠-٢٢١ «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي. نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا. وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة... وعُرض علي أمتي فلم يخف علي التابع من المتبوع... بعثت إلى الأحمر والأسود... وأوتيت جوامع الكلم، وبينما أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعت في يدي، وختم بي النبيون... أني فرط لكم وأنا شهيد عليكم. وأنى والله لأنظر إلى حوضي الآن،.. وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها... أنا محمد النبي الأمي، لا نبي بعدي، بُعثت بين يدي الساعة»، السابق ص٢١٩-٢٢٢.

(٣) الأنوار جـ١/ ٨-٩.

(٤) «يئست من الدنيا ويأست مني. إني بعثت أنا والساعة نستبق» الأنوار جـ١/ ٣٢٦. «مالي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»، السابق ص٣٢٦. «لا يقتسم ورثتي دينارا. ما تركت من نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»، السابق ص٣٣٣.

لا يمتلك بل يوجد، وشتان بين الملكية والوجود. وقد يكون الأنا بضمير المخاطب[1]. فالأنا موجود عند الآخرين ولهم، أنا منفتح على الآخر وليس مغلقا على الذات، لذلك يحب ويعشق ويتوحد. وقد يكون الحديث عن الأنا بالمبني للمجهول[2]. ويعادل ضمير الغائب. فالأنا بين الحضور والغياب، الأنا والآخر يتوحدان في الحاضر المطلق أو في الغائب المطلق. والأنا قد يكون فرديا أو جماعيا[3]. قد يكون وجودا للذات أو وجودا للآخرين. لذلك يمكن الحديث عن الأنا بالجمع، بالأنا الجمعي «إنّا»[4]. فالآخر يقبع في الأنا وليس خارجا عنه. وقد تكون الإشارة إلى الأنا الجمعي بضمير الغائب «آل محمد». فله هوية اجتماعية تجمع بين الزمان والخلود[5].

وقصة الإسراء والمعراج مروية أيضا بضمير الأنا المتكلم[6]. وأحاديثه كلها أحاديث الأنا، أول الناس بعثا وخطابا وتبشيرا وشفيعا، لواء الحمد بيده. وهو أكرم ولد آدم، وأعظم الأنبياء أجرا. وقد فُضل بالخلة والمحبة. لذلك يسمى في الثقافة الشعبية حبيب الله. موسى كليم الله، وعيسى كلمة الله وروحه، وآدم صفي الله. وتفضيله بالشفاعة والمقام المحمود[7]. وفُضّل في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة[8]. والوسيلة أعلى درجة في الجنة. والكوثر نهر حافتاه قباب اللؤلؤ، طينه مسك. والوسيلة منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله هو الرسول[9]. وهي منزلة في الجنة وليست لأي عبد آخر ومن سأل الوسيلة نال الشفاعة[10]. وتتميز كتب الشمائل بأقوال الأنا،

---

(١) «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاث»، الأنوار جـ١/ ٣٣١.

(٢) «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولد أوذيت في الله وما يؤذي أحد»، الأنوار جـ١/ ٣٣١.

(٣) «خير ربيعة عبد القيس ثم الحي الذي أنا منهم»، الجوهرة جـ١/ ٤٣٨.

(٤) «إنا أهل بيت اختار الله عز وجل لنا الآخرة على الدنيا»، السابق ص٣٢٥.

(٥) «لا ينبغي لمحمد ولا لآل محمد»، الأنوار جـ١/ ٣٢٤. «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»، السابق ص٣٢٣. «ما أصبح بآل محمد صاع من طعام وأنهن يومئذ تسع أهل بيوتات»، السابق ص٢٣١.

(٦) الشفا جـ١/ ٢٣١-٣٤٥.

(٧) «فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده»، السابق ص ٢٨٩-٣٠٣.

(٨) السابق ص٣٠٣-٣٠٥.

(٩) «أرجو أن أكون أنا هو»، السابق جـ١/ ٣٠٤.

(١٠) «ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله. وأنا أرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»، الأنوار جـ١/ ٦٥.

حديث الرسول عن نفسه وخصائصه، وميزته على باقي الأنبياء والرسل خاصة في المعاد.

ويستمر الأنا وينتقل من الدنيا إلى الآخرة. فهو أول من يحرك حلق الجنة فيدخلها ومعه فقراء المؤمنين، الأولين والآخرين. وهو أكرم ولد يطوف عليه ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون. كل الأنبياء تحت لوائه. وأعظمهم أجرا، إبراهيم وموسى وعيسى. حوض مسيرة شهر ما بين أيلة وصنعاء أو ما بين المدينة وصنعاء أو ما بين الكوفة والحجر الأسود مع وصف دقيق للحوض[1]. زواياه، ماؤه، ريحه، كيزانه، طوله. لا فرق بين وصف المثال والواقع، بين تصور الخيال وشهادة الحِس. والرسول هو ولي المؤمنين في الدنيا والآخرة. هو القاضي لدينهم[2].

وقد يطول الحديث بحيث يستحيل تذكره وروايته مثل حديث طلب الشفاعة من الأنبياء واحدا وراء الآخر ورفضهم حتى رست على محمد[3]. لذلك كان سيد الناس يوم القيامة حين يبلغ الغم والكرب الناس فيأتون آدم أول البشر وسجد له الملائكة. ويرفض آدم لأن الله غضب عليه لمعصيته ولأنه مشغول بنفسه. ويرفض نوح أول الرسل إلى أهل الأرض، وهو العبد الشكور. رفض لأن الله غضب عليه لدعوته على قومه ومشغول بنفسه. ويرفض إبراهيم لأنه نبي الله وخليله لأن الله غضب عليه لأنه كذب ثلاث كذبات ومشغول بنفسه. ورفض موسى صاحب الشريعة لأن الله غضب

---

(١) «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا. وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، ويطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»، «وأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش. ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»، «وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي... أحلم أن أكون أعظم الأنبياء أجرا يوم القيامة. أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة... إنها في أمتي يوم القيامة. أما إبراهيم فيقول أنت دعوتي وذريتي فاجعلني من أمتك. وأما عيسى فالأنبياء أخوة بنو علات، أمهاتهم شتى، وإن عيسى أخي ليس بيني وبينه نبي. وأنا أولى الناس به»، «حوضي مسيرة شهر»...، الشفا جـ١/ ٢٧٣-٢٧٩.

(٢) «ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة. اقرءوا إن شئتم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. «فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا. ومن ترك دنيا أو ضَياعا فليأتني فأنا مولاه»، الأنوار جـ١/ ٢١٩.

(٣) الأنوار جـ١/ ٦٧-٧١، وهو حديث يبدأ بعبارة «أنا سيد الناس يوم القيامة» جـ١/ ٦٧.

عليه لأنه قتل المصري ومشغول بإنقاذ نفسه. ورفض عيسى كلمة الله إلى مريم وروح منه لأنه مشغول بنفسه. وأخيرا قبل محمد لأن الله غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر. فذهب إلى الله وسجد تحت العرش وشفع لأمته، وقبل الله شفاعته[1]. وفي الحديث إخراج روائي. وفي نهايته تشبيه حسي بطول الجنة بمقاييس شبه الجزيرة العربية من الجنوب، بين مكة واليمن، ومن الشمال بين مكة والشام. ويطلب الناس يوم القيامة شفاعة الأنبياء واحدا تلو الآخر ولكنهم يعتذرون لأن الله غاضب من خطيئة كل منهم إلا محمدا الذي غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ويقول «أنا لها» ويكون أول من يجيز، ويقف على منبره بينما يجلس الأنبياء الآخرون[2].

وتستمر لغة الأنا وتتكرر دائما. فهو خليل الله. وأبو بكر كذلك. وتفضيله في القيامة بالكرامات استمرار لحدوثها في الدنيا[3].

ولكل نبي دعوة مستجابة. وقد احتفظ الرسول بدعوته شفاعة لأمته وهي نائلة منها، من مات ولم يشرك بالله أحدا[4]. وفي رواية أخرى عرضت عليه الأمم. ويمر

---

(١) «فانطلق فإني تحت العرش فأقعا ساجدا لربي ثم يفتح الله علي من محامد وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي. ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأقول: أمتي يارب. فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير وكما بين مكة وبصرى»، السابق ص٦٩.

(٢) «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»، الشفا جـ١/ ٢٨١، «فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول»، السابق ص٢٩٠، «خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة» ص٢٩١ «أرأيت ما تلقى أمتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم، فسألت الله أن يؤتيني شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل» ص٢٩١، «أنا أريد أن أدخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»، السابق ص٣٠٢، «أنا أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة»، الشفا جـ١/ ٣٣١، «أنا رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر وتكتالوا حتى تستوفوا»، السابق جـ١/ ٣٤٤.

(٣) «لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر»، «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا»، الشفا جـ١/ ٢٧٩-٢٨٩.

(٤) «إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإني أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا»، الأنوار جـ١/ ٦٦.

النبي مع رجل. ونبي آخر ومعه رجلان، ونبي ثالث ومعه رهط، ونبي رابع ليس معه أحد وسواد كثير رجا أن تكون أمته. فكان موسى مع قومه. ثم رأى سوادا كثيرا يسد الأفق. وكانت أمته سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. وهم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون. وكان عكاشة منهم. وطلب آخر إلا أن عكاشة سبقه دون أي مبرر لرفضه. وبصرف النظر عن الشكل الروائي نواته تحريم التطير والرقي والكي. والسبق في ذلك لأن مجرد التحريم لا يقنع[1].

وهو أول من يدخل الجنة كالأول في المسابقة[2]. وله ميزات خاصة في الجنة والحوض، والبيت والمنبر وله في الجنة الكوثر[3]. وفي رواية أخرى أن الحوض هو الذي ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء. من يشرب منه لا يظمأ أبدا[4]. وفي رواية أخرى أبعد من أيلة (العقبة) من عدن، وأشد بياضا من الثلج، وأحلى

---

(١) السابق ص٧٦.

(٢) «أول من يدخل الجنة ومعي من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب. وأعطاني ألا تجوع أمتي ولا تُغلب، وأعطاني النصر والعزة والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرا، وطيّب لي ولأمتي المغانم، وأحل لنا كثيرا مما شدد على من قبلنا. ولم يجعل علينا في الدين حرجًا»، «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»، الشفا جـ١/ ٢٢٣. «إن الله قد حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وأنها لا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار... إني عبد الله وخاتم النبيين، وأن آدم لمنجدل في طينته دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ابن مريم»، جـ١/ ٢٢٢-٢٢٤. «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى. ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بُصرى من أرض الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض... ثلاثة رجال بطست من ذهب مملوءة ثلجا وأخذاني فشقا بطني... من نحري إلى مراق بطني. ثم استخرجا منه قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه... ثم تناول أحدهما شيئا فإذا بخاتم في يده من نور يُحار الناظر دونه. فختم به قلبي. فامتلأ إيمانا وحكمة ثم أعاده مكانه. وأمر الآخر يده على مفرق صدري فالتئم... ثم ضموني إلى صدورهم وقبّلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا يا حبيب لم تُرع. إنك لا تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك... ما أكرمك على الله. إن الله معك وملائكته... فما هو إلا أن وليا عني فكأنما أرى الأمر معاينة»، السابق ص٢٢٢-٢٢٧. «إن الله تعالى فضلني عليكم تفضيلا وفضل نسائي على نسائكم تفضيلا»، السابق ص٢٣٠.

(٣) «دخلت الجنة فإذا بنهر يجري، بياضه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافتاه خيام اللؤلؤ. فضربت بيدي فإذا الثرى مسك أذخر. فقلت لجبريل: ما هذا قال: الكوثر الذي أعطاك الله»، الأنوار جـ١/ ٧٢.

(٤) «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب فلا يظمأ أبدا»، السابق جـ١/ ٧٢-٧٤.

من العسل، وآنيته أكثر من عدد النجوم. يصد الناس عنه كما يصد الرجل الإبل عن الحوض. يعرف أمته بسيماء ليست لأحد من الأمم، غرا محجلين من أثر الوضوء. ما بين البيت والمنبر روضة من رياض الجنة، ومنبره على حوضه، على ترعة من ترع الجنة. وفي كتب الشمائل توصف تركته، وقوله «أنا أفرطكم على الحوض،ووجوب محبته، ولزوم متابعته، وإحياء سنته، وفضيلة من لقيه من أصحابه أو لقى أحدا من أصحابه، وفضيلة من أحبه ونصر دينه ممن جاء بعده، وفضيلته أمته، ورؤيته في المنام. فهو مستمر بعد موته في وصيته»[1]. والشمائل مذكورة حسب رواتها أي أنها تصورات للراوي[2]. تشمل صفات الجسد وتقاطيع الوجه وأسماءه وميزاته على سائر الأنبياء في أحاديث «الأنا»[3].

ومن خصائصه ما أنزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها. هي السبع المثاني والقرآن العظيم[4].والقرآن يشفع لأصحابه، الزهراوان والبقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان يحاجان عن صاحبهما. قراءة البقرة بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها السحرة[5]. وأوتي النبي بنورين لم يؤتهما نبي قبله. خاتمة الكتاب وخواتم البقرة لن يقرأ حرفًا منها إلا أعطيته[6]. ومن خصائصه قراءة القرآن على سبعة أحرف في شكل روائي. فقد رد الرسول قراءة القرآن على حرف واحد تهوينا على أمته ثم الثانية ثم الثالثة جاءته القراءة على سبعة أحرف. وفي كل ردة سأل الرسول المغفرة لأمته. وأخر الثالث إلى يوم يرغب الخلق كلهم حتى إبراهيم. فأمة

---

(١) السابق جـ٢/ ٧٣٧-٧٨٦.

(٢) مثل مالك، مسلم، الترمذي، الجوهرة جـ٢/ ٩٣-٩٨.

(٣) «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»، «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانه فأحسنه وأجمله. فجعل الناس يطوفون به يقولون: ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة»، «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن»، الجوهرة جـ٢/ ٩٣-٩٨.

(٤) «والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت»، الأنوار جـ١/ ٧٨.

(٥) السابق ص٧٩.

(٦) «أبشر بنورين لم يؤتهما نبي قبلك: خاتمة الكتاب وخواتم سورة البقرة. لن تقرأ حرفا منها إلا أعطيته»، السابق ص٨٠.

الرسول أمة إبراهيم[1].

تتعارض أحاديث «الأنا» مع رفض قول «أنا.. أنا»[2]. فلا يجوز التفضيل بين الأنبياء[3]. وهو أكثر الأنبياء اتباعا. لا ينام قلبه وإن نامت عيناه.

٣- صاحب المعجزات

وقد وقع عند المبعث من المعجزات والخصوصيات. فقد أصبحت المعجزات جزءا من شمائل النبي. منها ظهور جبريل له حاملا الوحي[4]. وهو ما أثبتته خديجه أيضا. ومنه تسليم الأحجار والأشجار عليه[5]. وبعد البعثة نكست الأصنام واهتز عرش فارس[6]. وخافت الشياطين. وحرست السماء من استرقاق السمع. وكان جبريل يأتي مثل صلصلة الجرس أو كان يغط الرسول بشدة حتى يكاد يُغشى عليه واختص الرسول برؤية جبريل في الصورة التي خلق عليها[7]. سعت الشجرة إليه. ودرت الجذعة باللبن. وتنقل المعجزات إلى مستوى مسار التاريخ وهو انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس[8].

ومن معجزاته وكراماته وآياته حديثه مع الملائكة والجن وطاعة الجن له[9]. تختلط دلائل النبوة بالمعجزات، ومنها ما توارد عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب

---

(١) «يا أُبي أُرسل إلي القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمتي. فرد إلي الثانية اقرؤه على حرف. فرددت إليه أن هون على أمتي. فرد إلي الثانية اقرؤه على سبعة أحرف. ولك بكل ردة ردتها مسألة تسألنيها. فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي. وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام»، السابق جـ١/ ٧٧.

(٢) مثل «أنا ابن العواتك والفواطم»، «أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا»، «أنا أفصح العرب»، السيرة الحلبية جـ١/ ٦٨-٦٢.

(٣) «لا تفضلوا بين الأنبياء»، «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا»، «أني خير من يونس بن متى»، خصائص الرسول ص٢٦٨، ووصف إبراهيم بأنه خير البرية ص٢٦٩-٢٧١.

(٤) الخصائص الكبرى حـ١/ ٢١٣-٢١٩.

(٥) السابق ص٢٢٥.

(٦) السابق ص٢٤٨-٢٥٣.

(٧) السابق ص٢٦٧-٢٧٤.

(٨) السابق ص٣١٥-٣١٦.

(٩) الشفا حـ١/ ٥١١-٥١٥.

من صفته وصفة أمته واسمه وعلاماته[١]. وظهرت آياته عند مولده وما روته أمه من العجائب، شاخصا بصره إلى السماء حين وضعته، خرج النور منها عند ولادته، وتدلت النجوم في السماء، ورأى قصور الروم، وحراسة السماء بالشهب، وقطع رصد الشياطين، وإظلال الغمام في سفره، ودرور لبن حليمة وسرعة شبابه، وارتجاج ديوان كسرى وسقوط شرفاته وفيض بحيرة طبرية وخمود نار فارس بعد آلاف عام، والشبع في الأكل، وبغض الأصنام، والعفة واخضرار اليابس، وعدم وقوع الذباب عليه، واستئذان ملك الموت عليه وتعزية الخضر والملائكة أهل بيته، والتبرك بنديته[٢]. كما ظهرت عليه الآيات في سفره لخديجة مع ميسرة[٣]. بل إن زواجه من خديجة آية. ووقعت في الهجرة إلى الحبشة عدة آيات[٤]. كما وقعت في الصحيفة آيات أخرى بعدم قرض اسم الله.

ولم تقع معجزات في غزوة بدر وحدها لتقوية المسلمين ورفع معنوياتها وتعويض نقصهم الكمي بزيادتهم الكيفية[٥]. وهنا تتم التفرقة بين الآيات والمعجزات. الآية مجرد علامة أو بشارة أو نبوة لوضع حدث مثل تدخل الملائكة في الحرب، في حين أن المعجزة حدث خارق للعادة وقع بالفعل كتكثير الطعام والشراب للجنود. وكلاهما يعتمدان على ذكرهما في القرآن. وأولها ما وقع في غزوة بدر. وقد تتم بناء على دعوة الرسول. فقد تنبأ الرسول بمواقع شهداء بدر. وتدخلت الملائكة في الحرب، في القتال والأسر. وأبرأ المرضى، وداوى الجرحى. وقد دعا النبي على ثلاثة نفر من المشركين فقتلوا. ونطق الجدي المسموم. وقاتلت الملائكة مع النبي. ووقعت معجزات تقريبا في كل الغزوات والسرايا والبعوث والرسائل[٦]. وقد تقغ معجزات الأفراد داخل كل معجزة

(١) السابق حـ١/ ٥١٥-٥١٨.

(٢) السابق ص٥١٨-٥٢٢.

(٣) الخصائص الكبرى حـ١/ ٢١١-٢١٢.

(٤) السابق ص٣٢٩-٣٣٥/ ٣٩٩-٤٠٩.

(٥) ما وقع في غزوة بدر من الآيات والمعجزات، الخصائص الكبرى حـ١/ ٤٢٥-٤٥٢، «اللهم أنهم حفاة فاحملهم، اللهم أنهم عراة فاكسهم، اللهم أنهم جياع فأشبعهم» ص٤٢٨، «هذا جبريل معتمر بعمامة صفراء خذ بعنان فرسه بين السماء والأرض. فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة. ثم طلع على ثناياه النقع. يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته» ص٤٣٣، «أسرك ملك من الملائكة» ص٢٣٦، «مر بي ميكائيل وعلي جناحه أثر الغبار وهو راجع من طلب القوم فضحك إلى فتبسمت إليه» ص٤٣٧.

(٦) غزوة عطفان، الخصائص ص٤٥٣-٤٥٤، عزوة بني النضير، وهي الجلاء الذي كان مكتوبًا عليهم في التوراة ص٤٥٤-٤٥٧، غزوة أحد ص٤٥٨-٤٧٣، «خشيت أن تسبقنا الملائكة إلى غسله كما سبقتنا إلى غسل حنظلة» ص٤٦٦، حمراء الأسد ص٤٧٤. غزوة الرجيع ص٤٧٥-٤٧٩ «عليك السلام خبيب قتله

بالقتل. وقد تمت رؤية المعجزة في المنام قبل وقوعها. ومنها تغسيل الملائكة لحمزة بعد أن استشهد في أحد. وهي فرصة لظهور الطب النبوي من طبيبه الأول. وقد يكون التنبؤ بمكان الشهيد في الجنة. ومنه حديث الرسول مع الشهداء. فهو الذي يخبر عنها. وتبرأة الوحي عائشة ليس معجزة بل إخبار الوحي بحقيقة واقعة. وقد تقع المعجزات والآيات أيضا في السرايا. تعرض المسلمون للحمى. وتم شفاؤهم ببركة النبي، ومنها روايات، ومنها أقوال مباشرة. ومنها ما تدخل من الملائكة مباشرة ومنها مجرد انقلاب الأعيان. ومنها ما يتم بحديث الأنا أو بخبر من الآخرين. ومنها ما يتم مباشرة، أو بواسطة ظاهرة طبيعية كالريح، ومنها م يكون بدعوات من النبي أو قضاء الحاجة.

أ- هل المعجزة دليل على النبوة؟

وتذكر المعجزات إما في حياته كجزء من السيرة وإما بعد مماته كجزء من الشمائل[1].

قريشي» ص٤٧٦ «قصة بئر معونة» ص٤٨٠-٤٨١، غزوة ذات الرقاع ص٤٨٢-٤٨٨، غزوة الخندق ص٤٨٩-٤٩٩، غزوة بني قريظة ص٤٩٩-٥٠٦، «ليس ذلك بدحيه ولكنه جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب» ص٥٠٠ «إن في أصحابي جهدا خلوا نظرتهم أياما فقال جبريل: انهض إليهم لأدخلن فرسي هذا عليهم حصونهم ثم لأضعفنها» ص٥٠١-٥٠٦، غزوة بني المصطلق ص٥٠٨-٥١٥ «بعثت هذه الريح لموت منافق» ص٥٠٩، «ما وقع في العرنيين» ص٥١٥-٥١٦، «اللهم غم عليهم الطريق واجعلها عليهم أضيق من مسك جمل» ص٥١٦، سرية دومة الجندل ص٥١٦، عام الحديبية ص٥١٧-٥٣٨، التبشير بإسلام أهل اليمن ص٥٢٥-٥٢٦، الماء الذي تفجر ببركته ص٥٢٦-٥٢٨، «تكثير الطعام ببركته» ص٥٢٨-٥٣٤، غزوة ذي قرد ص٥٣٩-٥٤١، غزوة خيبر ص٥٤٢-٥٥٦، تفل النبي يشفي عليا من الرمد ص٥٤٣، حديث الشاة المسمومة ص٥٥٣، سرية عبد الله بن رواحة ص٥٥٦، عمرة القضاء ص٥٥٧-٥٥٨، سرية غالب الليثي ص٥٥٨-٥٥٩، سرية أبي موسى ص٥٥٩، سرية زيد بن حارثة ص٥٥٩، غزوة مؤتة ص٥٦١-٥٦٥، غزوة ذات السلاسل ص٥٦٥-٥٦٦، غزوة سيف البحر ص٥٦٦، فتح مكة ص٥٦٧-٥٧٩، غزوة حنين ص٥٨٠-٥٨٦، غزوة الطائف ص٥٨٧-٥٨٨، سرية قطبه ص٥٨٩، غزوة تبوك ص٥٩٠-٦٠٣، غزوة الأسود ص٦٠٤، حين نفاذ كتابه إلى الملوك ص٦٠٥، كتابه إلى قيصر ص٦٠٥-٦١٨، كتابه إلى كسرى ص٦١٨-٦٢٣، كتابه إلى الحارث الفساني ص٦٢٣-٦٢٤، كتابه إلى المقوقس ص٦٢٤-٦٢٦، كتابه إلى حمير ص٦٢٦-٦٢٧، عند كتابه إلى الجلندي ص٦٢٧، إلى بني حارثة ص٦٢٨، صاعقة من السماء أحرقت رأسًا من رؤوس المشركين ص٦٢٨.

(١) الفرج القريب في معجزات الحبيب ص١٥-٢٠، ٢٧٥-٢٧٧، ذكر نبذة من معجزاته، السيرة الحلبية

وهي بالإضافة للقرآن تخضع لنفس تصنيف معجزات الجماد والنبات والحيوان والإنسان[1]. وتتداخل مع الطب النبوي.

كما تذكر المعجزات في إطار دلائل النبوة[2]. فالمعجزات طريق الأنبياء السابقين. ومع ذلك الرسول أكثرهم اتباعا يوم القيامة[3]. وتستعمل الآيات كدليل على النبوة. وتنقسم إلى سماوية مثل الاستقساء حين تأخر المطر وإجابته إلى سؤاله بحيث لم ينزل من على منبره إلا والمطر يتهادر على لحيته، واستصحاؤه أي منع وقوع البلاء كما فعل يوسف. وهذا يدل على حدوث الآيات طبقا لأنماط سابقة لدى أنبياء العهد القديم[4].

أظهر الله على يديه المعجزات. وشرفه بالخصائص والكرامات[5]. وكلها روايات متعددة ومختلفة. وكلها إما صحيحة أو مشهورة. والنبوة أو الرسالة ليست معجزة بل ضرورة تاريخية ومعرفة طبيعية[6]. ولا حاجة إلى خلق المعرفة في قلبه، والعلم بذاته. النبوة من النبأ أي الخبر. والرسول من الرسالة. النبوة للاطلاع على الغيب أو التنبؤ بالمستقبل. والرسالة للإعلام بالمبدأ ونشر القضية. وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد[7]. ويعترف بعض كتاب السيرة أن بعض الأحاديث موضوعة مثل حديث الغزالة. لذلك انقسمت معجزات الرسول إلى نوعين. ما علم قطعا ونقل متواترا، وما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع سواء المشهور المنتشر مثل نبع الماء بين أصابعه وتكثير الطعام أو ما نقله الواحد والاثنان[8]. وروايات كثيرة منها مدعاة للشك[9].

جـ٣/ ٣٩٠-٤١٤، عيون الأثر ص٣٧٥-٣٧٧.

(١) السابق ص٣٩٩، دلائل النبوة والمعجزات، السيرة النبوية(٢) ص٤٣٩-٤٩٦، معجزاته. الأسوة الحسنة ص٥-٢٧، النبي المختار ص٣١/ ٣٣-٣٤، سيرة المصطفى ص٦٥-٧٣.

(٢) شمائل الرسول ودلائل نبوته ص٧٦-٨٤.

(٣) «ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه إلي. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»، شمائل الرسول ص٨٠.

(٤) شمائل الرسول ص٩٨-١٠٣.

(٥) الشفا جـ١/ ٣٤١-٥٣٣.

(٦) السابق ص٣٤٥-٣٤٩.

(٧) يقال مدد الأنبياء...، ١٢٤، والرسل ٣١٣.

(٨) فيما أيده الله به من المعجزات وخرق العادات، بهجة المحافل ص٤٤٧-٤٤٨، تسمية المعجزة وأنواعها، السابق ص٤٤٨-٤٤٩.

(٩) سيرة النبي جـ٣/ ٤٨٤-٥٢١.

وتعني المعجزة ما لم يستطع الخلق الإتيان بمثله. وتعني الكرامات البركات وانقلاب الأعيان فيما لمسه أو باشره الرسول[1]. ومن كراماته أن من يكذب عليه ليس كالكذب على غيره،وأن من كذب عليه لن تقبل روايته وإن تاب، والكذب عليه كبيرة[2]. وتستمر الكرامات بعده عند أولياء الله الصالحين في روايات دون أقوال مباشرة[3]. وقد تعني كراماته ما يقع على يديه من معجزات في حين أن الكرامة تقع على يد الوالي. وإذا بلغت المعجزات حوالي الثلاثمائة فإن الكرامات تصل إلى حوالي المائة[4].

ومعجزات النبي أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين: الأول كثرتها وفي مقدمتها القرآن. وهو في كل لفظ له معجز. وهو حوالي سبعة وسبعين ألف كلمة. وهو معجز ببلاغته ونظمه وإخباره بالغيب. والثاني في الوضوح. فقد ارتبطت معجزات الأنبياء السابقين بفنون وعلوم عصورهم، السحر زمن موسى، والطب زمن عيسى، والبلاغة زمن الرسول في الشعر والكهانة، وصدق المشاهدة زيادة في اليقين وطمأنينة في النفس. وقد انقرضت باقي المعجزات بانقضاء أنبيائها. وثبتت معجزة الرسول بعد وفاته، تتجدد باستمرار[5]. والقرآن خارج التأويل والتخييل. والصرفة افتراض غيبي في حين أن الإعجاز واقع تجريبي[6].

والعرب على جاهليتهم يعترفون بالصانع، وكانوا يعبدون الأصنام تقربا بها إلى الله زلفى. ومنهم من آمن بدليل عقله وصفاء لبه. وجاء الرسول تأكيدا لما وصلوا إليه[7].

---

(١) «في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره»، بهجة المحافل ص٤٧٥-٤٧٧.

(٢) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٣٩-٥٤٠ «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» ص٥٣٩/ ٥٤١-٥٤٢ «إن كذبا علي ليس ككذب على أي أحد»، السابق جـ٢/ ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) شمائل الرسول ص١٦٨-١٧١.

(٤) سيرة النبي جـ٢/ ١١٤-١٢٠.

(٥) الشفا جـ١/ ٥٢٣-٥٣٣، الوفا جـ١/ ٢٦٥-٢٧٢.

(٦) الشفا جـ١/ ٥٢٨، الوفا جـ١/ ٢٧٠، شمائل الرسول ص١٧٨.

(٧) «والعرب على جاهليتها أكثرها يعترف بالصانع. وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلى الله زلفى. ومنهم من آمن بالله وحده من قبل الرسول بدليل عقله وصفاء لبه. ولما جاءهم الرسول بكتاب الله فهموا حكمته وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وهلة معجزته فآمنوا به»، السابق ص٥٣٢-٥٣٣، في إعجاز القرآن، بهجة المحافل ص٤٤٩.

واستدعت معجزات الرسول معجزات الأنبياء السابقين قراءة للحاضر في الماضي. كما تمت صياغة معجزات الرسول في الحاضر بناء على نماذج لها في الماضي عند أنبياء بني إسرائيل: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وموسى، وإدريس، وداود، وسليمان، وعيسى[1]. فما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ليتبعه الناس. وللرسول الوحي. وهو أكثر الأنبياء تبعا. وقد خُص الرسول بثلاث: عدم هلاكهم بسنة، عدم استباحة أي عدو لهم، وعدم اجتماعهم على ضلالة. ولم تحبس الشمس إلا ليوشع[2].

وفي الإسراء والمعراج خصائص كثيرة أعطيت للرسول رؤية أهل الجنة دون رؤية أهله، ورؤية باقي الأنبياء تحت سدرة المنتهى: إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وداود مع الزبور، وسليمان الملك، فأخبره جبريل أنه رفع ذكر الرسول، وشهادة الأمة له، وجعل قلوبها أناجيل، وأعطي خواتيم سورة البقرة. وقد أرسل رحمة للعالمين وبشيرا ونذيرا لكافة الناس، وأنزل عليه الفرقان، فيه بيان كل شيء، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطا هم الأولون والآخرون، وشرح صدره ووضع عنه وزره، ورفع ذكره، وجعل فاتحا وخاتما[3].

وقد تجسدت المعاني في صور جسمية مثل رؤية الرحمة والسكينة ونزولها من السماء، ورؤية النور بالأيادي، والنور على باب أبي بكر، ورؤية الحمى، ورؤية الفتن، ورؤية الدنيا

---

(١) شمائل الرسول ص٢٧٨-٣٢٢، «وأجارني الله عليكم من ثلاث: أن لا يهلككم بسنة، وأن لا يستبيحكم عدو. وألا تجتمعوا على ضلالة»، السابق ص٢٩٠.

(٢) «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»، «اللهم إن كان في طاعتك وطاعة نبيك فأردد عليه الشمس»، السابق ص٣٠٣.

(٣) «يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا كرمته، جعلت إبراهيم خليلا، وموسى كليما، وسخرت لداود الجبال، ولسليمان الريح والشيطان، وحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟ قال: أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله أن لا أذكر إلا وذكرت معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرأون القرآن ظاهرا ولم أعطها أمة، وأنزلت عليك كلمة من كنوز عرشي "لا حول ولا قوة إلا بالله"»، السابق ص٣٠٤. «إني رفعت لك ذكرك تذكر معي إذا ذكرت، ولا تجوز لأمتك خطبة حتى يشهدوا أنك رسولي. وجعلت قلوب أمتك أناجيل، وأتيتك خواتيم سورة البقرة من تحت عرشي»، «الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيرا ونذيرا، وأنزل علي الفرقان فيه بيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطا، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون. وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحا وخاتما»، شمائل الرسول ص٣٠٤-٣٠٥.

وسماع كلامها، ورؤية الجمعة والساعة، وتجلي ملكوت السموات والأرض له[1]. وهو تجسيد للمعاني وليس فقط تشبيها لها كما يحدث في الذات الإلهية. فالمعجزات دلالات مجسمة، ومعان مصورة من أجل التأثير والإقناع كما هو الحال في الفن القصصي.

والمعجزة الرئيسية للأنبياء وجودهم ذاته[2]. والنبوة هو الكلام مع الله ونزول الملائكة وعالم الرؤيا[3]. ومع ذلك، لما ظهرت المعجزات على الرسل تبعه المؤمنون عملا بالدليل لا تقليدا[4]. وأنكر آخرون المعجزات واكتفوا بالدليل مثل الباطنية وبعض الملحدين كالراوندي وأبي العلاء المعري. والحكم عليهم بالإلحاد تسرع. فالمطالبة بالدليل جوهر الإسلام ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

المعجزة ليست هي الطريق الوحيد للإيمان بالنبوة. فلم يكن يطلب متبعوا الأنبياء منهم معجزة. ولم يؤمن المعاندون حتى بعد رؤيتهم للمعجزة. ولا يستفيد منها إلا القليلون[5]. والوحي ليس شيئا حسيا بل هو إلهام فطري نوعي خاص، لا يرتبط بالماديات. وقوة النبوة تجعل الحواس لا محدودة، قادرة على إدراك عالم المثال[6].

وتحاول بعض السير الإصلاحية تفسير المعجزة تفسيرا روحيا. فهناك نواميس روحية غير النواميس المادية للنبوة. وهي تعادل الآثار الفطرية. وتغلب القوانين الإنسانية[7]. المعجزة مجرد دليل مع أدلة أخرى كثيرة منها الدلائل العقلية. وقد عرض لذلك المتكلمون

---

(١) الخصائص الكبرى جـ٢/ ١٥١-١٥٥ «ما كنتم تقولون فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشاركم فيها»، «إن هؤلاء القوم كانوا يذكرون الله... فنزلت عليهم السكينة تحملها الملائكة كالقبة. فلما دنت منهم تكلم رجل منهم بباطل فرفعت عنهم»، جـ٢/ ١٥١، «ألا تدعون لي صاحبي ما شأنكم وشأنه. فو الله ما منكم رجل إلا وعلى باب بيته الظلمة إلا باب أبي بكر فإن على بابه النور»، جـ٢/ ١٥٢، «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن»، جـ٢/ ١٥٣.

(٢) سيرة النبي جـ٣/ ٨.

(٣) السابق جـ٣/ ٢٠٥-٢٥٠.

(٤) الوفا جـ١/ ٣٤٩-٣٥١.

(٥) سيرة النبي جـ٣/ ٨-٩.

(٦) السابق جـ٣/ ١٨-٣٤، جـ٤/ ٣٣-٦٨.

(٧) السابق جـ٣/ ٦-٧.

والفلاسفة[1]. ولا تنفي العلية. فهناك علل خفية كالتأثيرات الفلكية والقوى الكمالية، والقوى، والتأثيرات النفسية. فالعلل متنوعة. والعلم الإنساني لا يحيط بها كلها. وقد تكون قدرة الله أحد هذه العلل الخفية كما وصف الصوفية. وهي غير العلل التجريبية المباشرة التي تقوم على المشاهدة والرواية والتاريخ. والمعجزة غير السحر لأن السحر يقوم على الإيهام في حين أن المعجزة تقوم على أنواع غير مرئية من العلل[2]. وتتعرض السير الإصلاحية الحديثة لتيار إمكانية المعجزات في الغرب في العصور الحديثة التي تقوم على نفي العلية. والحقيقة أن هذا التيار يعطي الأولوية للتجارب والمشاهدات الحسية ليس بدافع إثبات المعجزات ولكن بدافع بيان نشأة القوانين والتصورات العقلية[3]. استبعدت المعجزات في الغرب، واستبدلت بها اختراعات العلم والتنويم المغناطيسي ومعجزات الشفاء والتجارب العامة والحدوس الفكرية والإلهام. فالقضية في كلتا الحالتين هو اليقين[4].

ب- أنواع المعجزات

والمعجزات على أنواع: الأول الإطلاع على الغيب. وذلك يمكن عن طريق الاستبصار ومعرفة قوانين التاريخ، ورؤية الملائكة. وهو ما يصعب ضبطه والتحقق من صدقه، والثاني خوارق العادة وهو المعنى التقليدي للمعجزة بمعنى قلب الأعيان[5]. والإخبار بالغيب تضخم أشياء كثيرة مثل البشارات والتنبؤ مثل، التنبؤ بانتصار الروم[6]. ومنها الإخبار بالماضي، الأنبياء السابقين وأممهم، ليس معجزة بل إحدى وظائف النبوة. كما أن التنبؤ بالمستقبل ليس معجزة بل هي إحدى عناصر المعاد، سواء المستقبل على هذه الأرض، الهزائم أو الانتصارات أو بعد الموت حين البعث ويوم الحساب والثواب

---

(١) السابق جـ٣/ ١٢.

(٢) السابق جـ٣/ ٣٥-٨٤.

(٣) هو مذهب هيوم، السابق جـ٣/ ٨٦-١٠٥.

(٤) السابق ص١٠٦-٢٠٤.

(٥) الإخبار بالغيوب مثل: الإخبار بموت النجاشي، إخباره بصفة بيت المقدس، دعوته لعمر ولكثير الصحابة أن يعز الإسلام بهم، الإخبار بمصارع للمشركين، موت عثمان وكرب الأنصار ونهاية عصر الصحابة بعد المائة، والإخبار بغزو البحر، سيرة النبي جـ٣/ ١٤-١٧/ ٥٥٤-٤٧٥.

(٦) السابق جـ٣/ ٣٤٦-٤٥٣/ ٣٤٨-٣٥١.

والعقاب[1]. وهما علمان إنسانيان، فلسفة التاريخ وقراءة أو سيناريوهات المستقبل في علم الاجتماع. ولا يعني ذلك أن الرسول عراف أو كاهن كما هو الحال في العلوم القديمة. فقتال اليهود وفتح مصر جزء من قوانين التاريخ[2].

والإخبار بالمغيبات قبل وقوعها داخل النفس أو خارجها[3]. وهو جزء من استبصار المستقبل للأفراد والجماعات، حرفيا أو رمزا، بأفعال البشر أم بمظاهر الطبيعة، بمظاهر العدل والظلم. وهناك أشياء عادية وليست معجزة مثل عدم رد السائل، مبايعة رجلين للنبي، بعثه هدية إلى عثمان واتقاء الكلام إلى النساء خشية أن ينزل فيهم القرآن.

ويتعلق كثير من الإخبار بالمغيبات بالجبهة الداخلية، الخلفاء الأربعة ومعاوية وبني أمية وبني العباس، ولبقاء السلطة في قريش حتى يسلبه الترك منهم. يأتي بنو عباس بعد بني أمية. ويستشهد عمر وعثمان وعلي، وطلحة والزبير والحسين. وأخبر بالردة كما أخبر بالكذابين وبالحجاج وبغيلان الدمشقي من المعتزلة الأوائل، وبالطاعون بالشام وفناء أمته، وبقتل عمر والفتنة[4].

والتاريخ كله يسير طبقا للمعجزات وليس بتخطيط بشري. فقد وقعت المعجزات عند وفادة الوفود على النبي[5]. فقد حُفظ النبي من أن يقتل من أحد أعضاء الوفود.

---

(١) محمد رسل الله جـ٢/ ٦٣/ ٦٦/ ٦٧.

(٢) السابق جـ٢/ ٦٣-٦٤.

(٣) مثل: موت النجاشي، ما سحر به، ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج، ما حدث رجال به أنفسهم، «ويل للعرب من شر قد اقترب»، الرجل الذي قال في نفسه شعرا، الإخبار بالمنافقين وبمن نحر نفسه، وبإسلام أبي الدرداء، وبسحابة أمطرت باليمن، بالشاة التي أخذت بغير حق، بشأن السارق، الصائمة المغتابة، لا تغيب الشمس حتى يأتيكم الله برزق... الخ، الخصائص الكبرى جـ٢/ ١٧٧-١٩٦.

(٤) ومثل كثرة الموت، انتشار الزنا، موت أبي الدرداء، وقعة الجمل وصفين والنهروان، وقتال عائشة والزبير عليا، وبعث الحكمين، أغيلمة من قريش ورأس الستين، قتل عمار بن ياسر، قتل أهل الحرة، كذابون في الحديث، شياطين يتحدثون، تغير الناس في القرن الرابع، الموتى في النار، افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة والزنادقة، نار تخرج من الحجاز، ذهاب الأمثل فالأمثل، خروج الدجال، استيلاء القرامطة على الحجر الأسود، الخصائص الكبرى جـ٢/ ١١٠/ ٢٥٠.

(٥) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٣-٥٩. وفد ثقيف جـ٢ ٣-٥. وفد بني حنيفة ص٥-٦. وفد عبد القيس جـ٢/ ٧، وفد بني عامر جـ٢/ ٩-١٠، وفد دوس جـ٢/ ١٣-١٥، وفد سليم جـ٢/ ١٥، وفد طي جـ٢/ ١٨-١٩، وفد حضرموت جـ٢/ ٢٠-٢١، وفد مزينة جـ٢/ ٢٣-٢٤، وفد بني سحيم جـ٢/ ٢٤،

وقد تكون هيبته أو عادات العرب ما منعت من ذلك. ومثل تعدد ألوان التمر وهي طبيعة التمر في شبه الجزيرة العربية بين الأحمر والأصفر والبني والأسود، والدعوة على الأعداء بالموت وإصابتهم بالمرض أو تفحم ديوان كسرى. ومن الآيات التعرف على الجن، وإخبار اليهود بأسماء أنبيائهم ومصائرهم، وإنزال المطر. وفرق بين وفد الجن ووفد الإنس، آتين من الشام، يأكلون ويشربون. يأكلون الروث. منهم المسلمون ومنهم المشركون.

وتقارن فضائل الأنبياء السابقين بفضائل آخر الأنبياء. ويذكر لكل نبي خصلة بصرف النظر عن ترتيبهم التاريخي[1]: تعليم آدم الأسماء، ورفع إدريس مكانا عليا، وإنقاذ نوح، ونصر هود بالريح، وصالح بالناقة، وإبراهيم الخليل، وإسماعيل اللسان العربي، ويعقوب الابتلاء، ويوسف الجمال، وموسى المعجزات، ويوشع القتال، وداود التسبيح، وسليمان الملك، ويحيي الحكم، وعيسى الرفع إلى السماء.

أما خصائص خاتم الأنبياء التي فُضل بها على سابقيه فإنها كثيرة[2]. كما أخبر بحوادث بعد وقوعها عن بعد. وهو ما لا يمكن عده معجزة. بل قدرة على الاتصال والمعرفة، ومعظمها وقع في مستقبل الأمة سلبا أم إيجابا، فتوحات أو هزائم، قوة أو

وفد شيبان ص٢٤-٢٥، وفد عذرة جـ٢/ ٢٥، وفد نجران جـ٢/ ٢٦-٢٨، وفد جرش جـ٢/ ٢٩، وفد فزارة جـ٢/ ٣١، وفد بني مرة جـ٢/ ٣٢، وفد الدارين جـ٢/ ٣٣، وفد بني البكاء جـ٢/ ٣٤-٣٥، وفد تجيب جـ٢/ ٣٥، وفد سلامان جـ٢/ ٣٥-٣٦، وفد محارب جـ٢/ ٣٦، وفد الجن جـ٢/ ٣٦-٣٩، «اختصم عندي الجن المسلمون والجن المشركون فسألوني أن أسكنهم» جـ٢/ ٣٨، وفد بنو تميم جـ٢/ ٥١.

(١) وهم: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، إسماعيل، يعقوب، يوسف، موسى، يوشع، داود، سليمان، يحيي، عيسى، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٣٦٦-٣٧٦.

(٢) منها: هو أول النبيين خلقا ومقدم في نبوته، كتابه معجز، ومحفوظ من التبديل والتحريف، وجامع لكل شيء، ومستغن عن غيره، ومشتمل على ما في الكتب السابقة وليس للحفظ. نزل منجما وعلى سبعة أحرف. وهي مستمرة إلى اليوم. هو خاتم النبيين وآخرهم بعثا وناسخ لجميع الشرائع قبله. أعطي كنز العرش، رسالته عامة، عورته لم تُر قط، استئذان ملك الموت عليه، تحريم نكاح أزواجه من بعده، تولى الله عنه الرد على أعدائه، جمعه بين القبلتين والهجرتين حديث الله معه في سدرة المنتهى، كلام الله له بأنواع الوحي، اختصاصه بالرعب مسيرة شهر، إتيانه جوامع الكلم ومفاتيح خزائن الأرض، علم كل شيء، تسمية أحد، هبوط إسرافيل عليه، الجمع بين النبوة والملك طي الأرض له، شرح الصدر، وضع الوزر، رفع الذكر... الخ، السابق ص٣٧٧-٤٠٦.

ضعفا، وحدة أو تفرقا. تهدد الأمة مخاطر، الفقر والنساء والفتنة، ومع ذلك يتم فتح فارس والشام وبلاد الروم ومصر[1]. وتطهر جزيرة العرب من الأصنام. ويهلك الروم مع الساعة[2]. والحسن يصلح الله به فئتين عظيمتين، شهادة النساء.

والتعبير عن الرؤيا بين تفسير الأحلام والتنبؤ بالمستقبل[3]. فالرؤيا الصالحة جزء من النبوة. والمرويات فيها ضعيفة، وبعضها صادق. وله آداب. وللناس فيها درجات. ولكل جانب تفسير[4].

ورؤيته جزء من حضوره[5]. فمن رآه في المنام فقد رآه حقا لأن الشيطان لا يتمثل به. ورؤية المؤمن جزء من أربعين جزءا من النبوة. فمن رآه في النوم فقد رآه[6]. الرؤيا من الله والحلم من الشيطان. ويصعب التفرقة بينهما. وكيف يمنع الإنسان الضرر من الشيطان عن طريق البصق ثلاثا على يساره والتعوذ بالله؟ وإذا كانت الرؤيا حسنة يخبر بها الصديق. وإذا كانت سيئة فليتحول الإنسان من جنبه إلى جنبه الآخر. والرؤية الصالحة جزء من ستة وأربعين أو سبعين جزءا من النبوة. وتظل الرؤيا معلقة برجل طائر فإذا حدث بها الإنسان عالما أو ناصحا أو لبيبا وقعت[7].

---

(١) ما يفتح على أصحابه وأمته من الدنيا، لهم أنماط ويتحاسدون ويقتتلون، فتح الحيرة، فتح اليمن والشام والعراق، فتح القدس وما حوله، فتح مصر، غزوه البحر، قتال خوز وكرمان وقوم نعالهم الشعر، غزو الهند، مصالحة الروم، فتح فارس، هلاك كسرى وقيصر وإنفاق كنوزهما وليس بعدهما أحد، مقام حسن لسهيل بن عمرو، صدق البراء بن مالك، عمر من المحدثين، أول أزواجه لحوقا به، كتابة المصاحف، أويس القرني، حال عبد الله بن سلام، شهادة رافع بن خديج، حال أبي ذر، محمد بن الحنفية، عالم المدينة،عالم قريش، المقتولون ظلما، بعذراء. شهادة الصحابة، بناء بغداد، طائفة من الأمة لا تزال على الحق، تجديد الدين على رأس كل مائة سنة، الخصائص الكبرى جـ٢/ ١٩٧-٢١٠.

(٢) السابق جـ٢/ ٢٤٠/ ٢٥٢.

(٣) المواهب اللدنية جـ٣/ ٥١٦-٥٥٣، سيرة النبي جـ٣/ ٢٢٩-٢٤٣.

(٤) مثل شرب اللبن، التعبير عن القميص بالدين، سواران من ذهب، المرأة السوء أو ثائرة الرأس، درع حصينة وبقر تنحر، الرطب، رؤيته سيفا يهزه، أنه على القليب، السابق جـ٣/ ٥١٦-٥٥٣

(٥) «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»، «ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»، في رؤيته، شمائل الرسول ص٣٦٨-٣٧٠.

(٦) «إن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل بي فمن رآني في النوم فقد رآني»، شمائل الرسول ص١٩.

(٧) «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان. فإذا حلم أحدكم حلما يكرهه فلينفث عن يساره ثلاثا، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لن تضره»، «ولا يخبر بها أحد. فإذا رأى رؤيا حسنة فليبشر، ولا يخبر إلا من يحب، ويتحول

أما المعجزات بمعنى خرق قوانين الطبيعة فهي مضادة لمعنى الإعجاز، فانشقاق القمر وحبس الشمس مضاد للشرع نفسه «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد»[1]. ونبع الماء بين أصابعه وتكثيره ببركته وانبعاثه بحسه ودعوته ما يتمناه المجتمع الصحراوي الذي يصارع الجفاف[2]. وتكثير الطعام ببركته ودعائه ما يتمناه أيضا مجتمع الندرة والجوع. فقد بصق الرسول العجين والبرمة وباركهما[3].

وامتدت المعجزات إلى خرق القوانين الطبيعية مثل انشقاق القمر[4]. صحيح أن انشقاق القمر مذكور في القرآن ولكن بالشبه إلى يوم القيامة وليس يوم الولادة أو ليلة الإسراء ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[5]. وهو حديث ضعيف جدا. وبعضها موضوع وبعضها منكر وبعضها سياقه غريب. وله روايات عديدة[6]. ولرد الشمس بعد مغيبها أيضا روايات عدة[7]. ويرقت برقة للحسن والحسين[8]. وردت الشمس بعد غروبها لعلي[9]. ومن كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره يسرع الفرس الذي يركبه، وتشفى جبته وقصعته المرضى، وفضل وضوئه يراق في بئر فلا يجف. وكان يتفل في أفواه الصبيان ضد العطش، ويثمر النخل[10].

من جنبه الذي كان عليه»، «رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»، «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءا من النبوة»، «الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها. فإذا حدّث بها وقعت. فلا تحدّث بها إلا عالما أو ناصحا أو لبيبا» سيرته في الرؤيا، الأسوة الحسنة ص٤٧٤-٤٧٥، «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي ولا بالكعبة»، خصائص الرسول ص٢٩٠-٢٩٣.

(١) الشفا جـ١/ ٣٩٦-٤٠١، الوفا جـ١/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٢) السابق ص٤٠٢-٤١٠.

(٣) السابق ص٤١٠-٤١٩.

(٤) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٨٠-٢٨٢.

(٥) السابق جـ١/ ٣٤٩-٣٥٧.

(٦) دلائل النبوة الحسية، المشاهدة بالأبصار، سماوية أرضية، شمائل الرسول ص٨٥-٩٧، انشقاق القمر ص٨٥-٨٧.

(٧) شمائل الرسول ص٨٨-٩٠، «اللهم إن كان في طاعتك وطاعة رسولك فأردد عليه الشمس»، ص٩٠-٩٧.

(٨) السابق جـ٢/ ١٤٢-١٤٤.

(٩) بهجة المحافل ص٤٥٨-٤٥٩، شمائل الرسول ص٩٠ «إنك مأمورة(الشمس)، وأنا مأمور، اللهم احبسها علي» ص٨٩، «اللهم رد علي الشمس» ص٨٨، ٩٠، سيرة النبي جـ٢/ ٣٤٤-٣٤٧، المواهب اللدنية جـ٢/ ٦٤٥.

(١٠) الشفا ص٤٦٢-٤٧٠.

وفي تقسيم ثنائي آخر الآيات نوعان: سماوية وأرضية، السماوية مثل استسقائه لأمته حين تأخر المطر والاستجابة له سريعا بحيث لم ينزل من المنبر إلا والمطر ينحدر على لحيته[1]. وتصنيف المعجزات الأرضية طبقا لمستويات الطبيعة: الجماد، والنبات، والحيوان، والإنسان، تقع المعجزات أيضا في الجمادات[2]. تسلم عليه الأشجار، ويرجف المنبر من سماع اسم الجبار. وتحرك الجبل لأعلى، وسكن بأمره. أشار إلى الأصنام فوقعت. وأُلين الصخر له، وسبح الحصى بين يديه. وتكلم الجدار بحضرته[3]. وللنبي معجزات في أنواع الجمادات[4]. مثل تسبيح الطعام. وقد أمّن أسكفة الباب وحوائط البيت درءًا لخطر الأعداء. وأمر الجبل بالسكون فما عليه إلا صديق فشهيدان، وتحرك المنبر. ولم تقبل الأرض جسد مشرك وقبله غار من الفيران[5]. وأضاء النبي العصى والسوط والأصابع. وأنار بيته ثلاث مرات. واستجيب إلى دعائه لمغفرة سائر أمته. ووضع يده على تمثال فأذهبه، وعلى شعر فلم يشب. وفي يده أثر الشفاء والبريق والطيب وبنات الشعر[6]. وقد روُي عن الرسول أنه تعرف على حجر بمكة كان يسلم عليه قبل أن يُبعث[7]. وقد سبح الحصى في كفه. وقد يكون حدث احتكاكة أو إسقاط

---

(١) شمائل الرسول ص٩٨-١١٢، «اللهم حوالينا ولا علينا»، «اللهم على الأكام والجبال والظراب والأودية ومنابت الشجر»، ص٩٨، «اللهم اسقنا. غيثا مغيثا، مرتبا، سريعا، مريعا، عذقا طبقا، عاجلا غير رائث، نافعا غير ضار، تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع، وتحيي به الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون»، ص١٠١.

(٢) الشفا جـ١/ ٤٣٠-٤٣٤، الوفا جـ١/ ٣٠٠ «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»، الوفا جـ١/ ٣٠٥، المواهب اللدنية جـ١/ ٢٠٠، شمائل الرسول ١٠٤-١١٢.

(٣) «ومنها أيضا أمطار السماء، تساقط الأصنام، تسليم الحجر عليه، تحول الحطب إلى سيف»، الوفا جـ١/ ٣٢٠-٣٢١/ ٣٢٥/ ٣٣٤.

(٤) الخصائص الكبرى جـ٢/ ١٢٩ «إن هذا الطعام يسبح» جـ٢/ ١٣٠ «اختر أن أغرسك في المكان الذي كنت فيه فتكون كما كنت، وإن شئت أن أغرسك في الجنة فتشرب من أنهارها وعيونها فيحسن نبتك وتثمر فيأكل أولياء الله من ثمرتك؟» جـ٢/ ١٣١، «لو لم احتضنه لحن إلى يوم القيامة» جـ٢/ ١٣١، «إن الأرض أبت أن تقبله فاطرحوه في غار من الفيران» جـ٢/ ١٣٥.

(٥) السابق جـ٢/ ١٤٠-١٤١.

(٦) السابق جـ٢/ ١٤٤-١٤٩.

(٧) «إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»، بهجة المحافل ص٤٦٥، سلام البشر والحجر، المواهب اللدنية جـ١/ ٢٠٠، شمائل الرسول ص١٤٦-١٤٨.

نفسي على الحجر. ونطق الجمادات تصوير لمدى العلاقة بين الوعي والعالم. فالشعور في حالة إيحاء متبادل بينه وبين الأشياء. كل شيء حي يتكلم ويخاطب ويؤثر. فقد تكلم المنبر المصنوع من خشب عندما صعد الرسول عليه. وقد يكون صوته الطبيعي «زقزقة» المنبر فرحا بصعود الرسول عليه وحزنا لمفارقته إياه. وخاطبه الرسول. وخيره بين أن يظل كما هو مردودا إلى الحائط كي تكتمل عروقه ويكتمل خلقه أو أن يغرسه في الجنة فيأكل الأولياء من ثمره[1]؟ ورد الجذع بأنه قد فعل وأخبر الرسول أنه اختار دار البقاء وهو مازال منبرا في دار الفناء. وقد أمر بغصن شجرة بالانقياد له[2]. ودعا فرعا من النخلة ليأتي إليه[3].

وهناك مجموعة من المعجزات في النبات. فقد كلمته الشجرة. وشهدت للرسول بالنبوة. واستجابت لدعوته. سلمت عليه، والتأمت لتظليله وهو بالخلاء[4]. وحن الجذع إليه[5]. وخيره النبي بأن يبقى في الأرض يُغرس في الجنة فيشرب ما يشاء فاختار الجنة. وهو إسقاط من الإنسان على النبات. وجاء الشجر إليه وانقاد له. وحن الجذع شوقا إليه وحزنا على فراقه. وهو تشخيص للطبيعة وأنسنة لها. وظلته الشجرتان حين كان يقضي حاجته حياء. فالرسول له خصوصيته[6].

وتتجلى الآيات أيضا في الحيوانات[7]. شكت البهائم له. وظهرت معجزاته في المركوب وإسراع الفرس؟ وقد كلمته الظبية كي يطلقها وترضع أولادها وتعود إليه

---

(١) «إن هذا بكى لما فقد من الذكر. والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»، «إن شئت أن أردك إلى الحائط الذي كنت فيه ينبت لك عروقك ويكمل خلقك وإن شئت أغرسك في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك»، «اختار دار الفناء على دار البقاء»، بهجة المحافل ص٤٦٤.

(٢) «انقادي علي بإذن الله»، «هذه الشجرة، تعالي يا شجرة»، بهجة المحافل ص٤٦٦.

(٣) «أرأيت إن دعوت هذا الغدق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟»، بهجة المحافل ص٤٦٧.

(٤) شهادة الشجرة بنبوته، تحرك الشجرتين بأمره، أمر النخلتين، حنين الجذع، انقياد الشجرة له، الشفا جـ١/ ٤٢٠-٤٢٧. الوفا جـ١/ ٢٩٦.

(٥) السابق ص٤٢٧-٤٣٠، ٤٢٩-٣٠٠، الوفا جـ١/ ٣٢١-٣٢٤، شمائل الرسول ص١٠٦/ ٢٩٦.

(٦) شمائل الرسول ص١٥-١٣٦-١٤٥-١٥٤.

(٧) الشفا جـ١/ ٤٣٤ «ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس» ص٤٤٠، «ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله عز وجل إنه اشتكى إلى أنك تجيعه وتدئبه» الوفا جـ١/ ٣٠١، الوفا جـ١/ ٣٠٣، شمائل الرسول ص١٥٧-١٦١.

ليقيدها[1]. وكلمه الضب الذي تعرف عليه بأنه رسول الله وبأنه يعبد الله الذي في السماء عرشه، وعلى الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. ثم أنشد الضب شعرا في مدح النبي، وشهد أنه الرسول كما طلب صاحبه بالرغم مما في الرواية من نكارة وغرابة. وربما سجود الغنم له دلالة على سجود المرأة لزوجها لو كان للسجود ضرورة[2].

وشهد له الذئب بالرسالة. واحترمه الوحش في بيته ووقره وأجله ووجد وحشا في بيت النبي يتحرك إذا خرج، ويسكن إذا دخل. وأبلغ أسد الرسول خطة الروم. وهي روايات بلا أقوال مباشرة[3]. وساعد الأسد مولى الرسول على النجاة في البحر أو الوصول إلى جيش المسلمين في حربه مع الروم. واشتكت غزالة إلى الرسول بأنها ستذبح ووليدها لم يرضع فأمر بإطلاق سراحها وعادت فاشتراها الرسول وأطلقها[4]. وتحدثت إليه الغزالة لترجوه أن يتركها صاحبها لترضع أولادها ويبيع ففعل واشتراها الرسول وأطلق سراحها. فشهدت أنه رسول الله[5]. وشهد الضب والحمار على أن الرسول هو رسول الله، وما في الراويتين من غرابة[6]. وتعرفت عليه الحيوانات مثل الضب وشهد بأنه رسول الله. واعترف بأنه يعبد الله[7]. واشتكى الجمل صاحبه للرسول بأنه كبر ونقص علفه وزاد حمله ثم ينحروه. فأمر الرسول بحسن معاملته[8]. وتحدثت ناقة

---

(١) الوفا جـ١/ ٣٣٥-٣٣٦، «يا ضب من تعبد؟ قال الذي في السماء عرشه،وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه»، السابق ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢) «إنه لا ينبغي أن يسجد أحد لأحد. ولو كان ينبغي لأحد أن سيجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، شمائل الرسول ص١٥٠/ ١٥١/ ١٥٥/ ١٥٧.

(٣) السابق ص١٦١.

(٤) ما يتعلق بالحيوانات من دلائل النبوة، شمائل الرسول ص١٤٩-١٧١.

(٥) السابق ص١٦٢-١٦٣.

(٦) السابق ص١٦٣، مثل: در الشاة الجافة، الدعوة لجمل كي يسبق، سجود البعير والغنم، تكليم الجمل والحمار، شهادة الجمل، سؤال الظبية، حديث الغزالة، شهادة الذئب والضب، ركوب الفحل، شهادة الشاة المسمومة، شكوى البعير، شكوى الطيور، أدلة محبة الحيوان والعباد له، سيد الأنام ص٣١٢-٣٢٨.

(٧) بهجة المحافل ص٤٦٧.

(٨) «أتدرون ما يقول؟ رغم أنه خدم مواليه أربعين(عشرين) حتى كبر فنقصوا من علفه، وزادوا في عمله حتى إذا كان لهم غرض أرادوا أن ينحروه غدا»، السابق ص٤٦٨، شمائل الرسول ص١٥١.

بأن صاحبها ما سرقها وطلب منه الرسول ربطها حتى لا تهرب[1]. واشتكى بعير إلى الرسول لأن صاحبه يريد نحره فيشتريه الرسول منه ويطلق سراحه[2]. وهي أحاديث غريبة. واسم الحمار يعفور وسأله الرسول عما إذا كان يشتهى النساء ولما أجاب بالنفي ركبه الرسول. ولما توفى ألقى الحمار نفسه في بئر فصار قبرا له[3]. وأمر الرسول برد طائر للعناية بفرخيه[4]. وطلب رد بيضة الحجرة وهو طائر مشهور. وتسخر الكرامات لأصحاب الرسول وأوليائه. وكلها تدل على الرفق بالحيوان من قسوة بني الإنسان.

ولا يهم صنف الحيوان بل نوعه، لا فرق بين الغنم والجمل في الشكوى. المهم دلالة الشكوى دفاعا عن حقوق الحيوان في الحياة أو واجبه في رعاية ذريته. ومعجزاته في ضروب الحيوانات من طبيعة البيئة الصحراوية: الجمل والناقة والشاة والغنم، والظبية والذئب والحمرة، والوحش والفرس والحمار والدابة والضب والأسد. الكل يشهد بنبوته. ويضاف إليها الطائر والعفريت، والنبي يستجيب لشكواها من بني الإنسان كما دوّن إخوان الصفا في إحدى رسائلهم، وهي كرامات له. كما خنق النبي الشيطان وهو يعترضه في صلاته[5].

وعلى المستوى الإنساني وتكثير الطعام ونبع الماء بين أصابعه مركب من أمر واستجابة وليس حديثا متصلا. وهو أضعف مثل الحديث الطويل. وهو تعبير عن الحاجة إليهما فالنبوة تلبية للحاجات، السمن لربة المنزل، والطعام القليل للمضيف حتى يكفي ضيوفه الكثر، وتكثير قطعة الذهب لوفاء الدين. ومعظمها قصص وروايات، وأقلها

---

(١) السابق ص٤٧٠.

(٢) شمائل الرسول ص١٥٢، «هذا بعيرهم أراد أهله نحره فهرب منهم فاستغاث بنبيكم»، «لقد استغاث فلم تغيثوه وأنا أولى بالرحمة منكم لأن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين وأسكنها في قلوب المؤمنين»، «أيها البعير انطلق فأنت حر لوجه الله»، السابق ص١٥٦.

(٣) شمائل الرسول ص١٦٥.

(٤) السابق ص١٦٦-١٦٧.

(٥) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٩١-١١٠ «ما بين لا بتيها أحد إلا ويعلم أني نبي إلا كفرة الجن والإنس»، ص٩١، «اعترض لي الشيطان في مصلاي فأخذت بحلقه حتى وجدته برد لسانه على كفي ولولا ما كان من دعوة أخي سليمان لأصبح موثوقا تنظرون إليه»، جـ٢/ ١٠٩-١١٠.

أقوال مباشرة[١]. وقد أطعم من الجفنة أربعين[٢]. ونبع الماء بين أصابعه وتكثيره ببركته. ويكون بالعصر والدعك والفرك، وقد يأتي من السماء من الجنة[٣]. يذهب الجوع والعطش والتعب والغيرة والحر والبرد وحبس الدمع[٤]. ويذهب النسيان والبذاء. ويحفظ العلم والفهم والحياء.

وبعث الرسول بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقه تحت ظل رمحه. والذلة والصغار على من خالف أمره[٥]. وأوتي القدرة على ربط الجن إلى سارية في المسجد[٦]. وأتاه إبليس في الصلاة فخنقه الرسول بيديه حتى خرج برد لعابه بين أصابعه. وإذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين. ولو شاء لجعلت له الجبال ذهبا. وأوتي مفاتيح خزائن الأرض.

ويحيي الرسول الموتى كالمسيح، ويكلم الصبيان والمراضع والموتى. ويشهد الكل له بالنبوة. وكلام أحد الموتى للشهادة للرسول ما هو إلا ذريعة لإعطاء الشرعية لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان[٧]. وقد أخبرته ذراع الشاة أنها مسمومة[٨]. وأبرأ المرضى وذوي

---

(١) بهجة المحافل ٤٥٩-٤٦٣، شمائل الرسول١٠٦-١٣٥، تكثير اللبن والماء، انقلاب الماء لبناء، سيرة النبي جـ٣/ ٤٢٩-٤٣٦.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٧٦، جـ٢/ ٦٠-٩٠.

(٣) السابق جـ٢/ ١٢٢-١٢٥.

(٤) السابق جـ٢/ ١٢٦، «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه»، جـ٢/ ١٢٦.

(٥) «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»، شمائل الرسول ص٣٠٨.

(٦) «إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة ليقطع عليّ الصلاة فأمكنني الله منه. فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليها فذكرت دعوة أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، لم أرد أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثوقا يلعب به ولدان أهل المدينة»، السابق ص٣١٠، «لو رأيتموني أنا وإبليس فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت بردها به بين إصبعي هاتين...»، «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة. وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»، «ولو شئت لأجرى الله معي جبال الأرض ذهبا، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما»، «فبينما أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فجعلت في يدي»، السابق ص٣١١.

(٧) قصة زيد بن خارجة، وكلامه بعد الموت، وشهادته بالرسالة لمحمد، وبالخلافة لأبي بكر الصديق ثم لعمر ثم لعثمان، شمائل الرسول ص١٧١-١٧٤.

(٨) الشفا جـ١/ ٤٤٤-٤٥٠ «يا فلانة أجيبي بإذن الله تعالى، إن أبويك قد أسلما. فإن أردت أن أردك إليهما»، بهجة المحافل ص٤٧١.

العاهات[1]. وقد أوتي قدرة على دفع من أراد أذاه من الإنس[2]. وقد هلك بعض من أذاه. ودفع من قصد أذاه من الشياطين. وللرسول فضل على آدم أن شيطانه كان كافرا فأعانه الله عليه فأسلم. وكانت أزواجه عونا له[3]. وقد أعاد عين بعض أصحابه بعد أن خرجت فاستقامت[4].

ووقعت عدة معجزات في عرض نفسه على القبائل[5]. وقد يكون القادمون جماعة مثل الأشعريين[6]. وقد يكونون أفرادا، واحدا واحدا[7]. يتنبأ النبي بالقادم وبتعبيرات وجهه. وقد وقعت آيات في تزويجه بعض نسائه مثل عائشة وسودة، تزويج عائشة في السماء، ورؤية زوج سودة بوفاته وزواجها من النبي[8]. وهناك معجزات في إجابة الدعوات[9]. وهي مثل دعوات الشعراء ومخاطبة الطبيعة. وتكون الدعوات للأهل والأصدقاء، للمسلمين واليهود والنصارى على حد سواء، لمؤمن أو منافق. وقد تكون الدعوات لقريش. وقد تتحول الدعوات إلى رقي من الجن بفاتحة الكتاب وحين النوم[10].

---

(١) الشفا جـ١/ ٤٥١-٤٥٥.

(٢) «لو دنا مني لاختطفته الملائكة، عضوا عضوا»، الوفا جـ١/ ٣٢٧/ ٣٢٩-٣٣١.

(٣) «فضلت على آدم بخصلتين. كان شيطاني كافرا فأعانني الله عليه فأسلم. ولكن أزواجي عونا لي. وكان شيطان آدم كافرا وكانت زوجته عونا له»، السابق جـ١/ ٣٣٢.

(٤) السابق جـ١/ ٣٣٣.

(٥) الخصائص الكبرى جـ/ ٣٩٤-٣٩٩.

(٦) السابق جـ٢/ ٥٢١.

(٧) زياد الهلالي، الخصائص الكبرى جـ٢/ ١٦، أبو سيرة جـ٢/ ١٦-١٧، جرير جـ٢/ ١٧-١٨، طارق بن عبد الله جـ٢/ ١٩-٢٠، عبد الرحمن بن أبي عقيل جـ٢/ ٢٢-٢٣، ماعز بن مالك جـ٢/ ٢٣، معاوية بن صيدة جـ٢/ ٣٠، كعب بن مرة جـ٢/ ٣١-٣٢، الحارث بن عبد كلال جـ٢/ ٣٤، فريم بن فاتك جـ٢/ ٣٩، جهجاه جـ٢/ ٤٣، راشد بن عبد ربه جـ٢/ ٤٤، أبو صفرة جـ٢/ ٤٧، عكرمة بن أبي جهل جـ٢/ ٤٨، النخع جـ٢/ ٤٩، خفاف بن نضلة جـ٢/ ٥٠، الأعرابي جـ٢/ ٥١-٥٢، الأعرابي من بني عامر بن صعصعة جـ٢/ ٥٢، الأعرابي الآخر جـ٢/ ٥٣ .

(٨) السابق جـ١/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٩) دعوات للاستسقاء، دعاء آل النبي وضيفه ولأصحابه، عمرو وعلي وسعيد ومالك ابن ربيعة والمقداد ولعمرو بن الحمق ولأولاد أبي سبرة ولضمرة بن ثعلبة، ولأبي سلمة ولأبي بن كعب ولابن العباس ولأنس بن مالك ولأبي هريرة ولعبد الرحمن بن عوف ولعروة البارقي ولعبد الله بن جعفر ولأم سليم ولعبد الله بن هشام وزهير وخالد بن أسيد...، الخ، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٣٢٢-٣٥٢.

(١٠) دعاء النجاة من الظالمين وتسيير الحوائج، ما يتلى حين يأخذ الإنسان مضجعه، وفي المنام، السابق ص٢٥٣-٣٦٥.

وتقع المعجزات في الحياة اليومية، فقد حكم بقتل من كذب عليه وعرف ابن أبيرق المنافق. وحكم على الحكم بن أبي العاص باختلاج الوجه، ووقوع البرص في ابنة الحارث. وأمر النار بعدم حرق المؤمنين كما حدث لإبراهيم[1]. ولم تحترق المناديل التي كان النبي يمسح بها وجهه، وخرج من النار مبيضا. وقد تقع المعجزات في الحوادث الكبرى مثل حجة الوداع[2]. وقد اطلع النبي على أحوال البرزخ والجنة والنار، واجتمع بالخضر وعيسى. ورأى رجلا من قوم عاد، رجلاه في المدينة ورأسه بذي الحليفة كما يتصور الخيال الشعبي. وظل الشيطان يأكل مع رجل لم يسم قبل الطعام حتى سمي[3].

واستمرت المعجزات من النبي إلى الصحابة الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامها مثله، فرؤية الملائكة متوقفة على درجة الإيمان وصفاء النفس. يرونها وإن لم يتعرفوا عليها. ولجبريل دعاء[4]. كما يروي أصحابه الجن المعجزات ويسمعون كلامهم. وله حرز عند أبي دجانة.

وإن لم تبلغ هذه المعجزات مبلغ التواتر فيبقى القرآن المنقول نقلا متواترا جيلا وراء جيل، شفاهة ثم كتابة[5]. فقد دون في نفس الوقت الذي تم إعلانه دون أن يمر بفترة شفاهية تحتمل الخطأ والنسيان. ثم تم جمعه كتابة منذ الجيل الأول من الصحابة، في عصر الخليفة الرابع عثمان. وليس الإنجيل الذي مر بفترة شفاهية تتراوح بين الأربعين والمائة عام أو التوراة التي مرت بفترة شفاهية تتراوح بين ستة أو سبعة قرون منذ موسى في القرن الثالث عشر حتى عزرا في الأسر البابلي في القرن السابع قبل الميلاد. والقرآن معجز بخلاف كتب سائر الأنبياء[6]. وإعجاز القرآن ليس معجزة بالمعنى الشائع،

---

(١) السابق ص١٢٦. «يا نار كوني بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم. تقتلك الفئة الباغية» جـ٢/ ١٣٩-١٤٠.

(٢) السابق جـ٢/ ٥٣-٥٩.

(٣) «مازال الشيطان يأكل معه حتى سمي فما بقي في بطنه شيء إلا قاءه»، السابق جـ٢/ ١٥٥-١٦١.

(٤) «ذاك ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قبلها استأذن ربه. فسلم علي ويبشرني بالحسن والحسين أنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»، «إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه»، «هذا إبليس جاء يشككم في دينكم»، السابق جـ٢/ ١٦٢-١٧٦.

(٥) الوفا جـ١/ ٣٣٩.

(٦) خصائص الرسول ص٢٥٨.

خرق قوانين الطبيعة بل بمعنى استحالة التحدي الأدبي والتشريعي[1]. فالإعجاز أولا في حسن تأليفه والتئام حكمته وخصائصه وإيجازه وبلاغته[2]. وأيضا في صورة نظمه وأسلوبه[3]. لا هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالجنون. إعجاز القرآن في بلاغته وأسلوبه وسحره للنفوس لقوم أهل بلاغة وأحباب شعر[4]. ثانيا ليس إعجازه حسيا بمعنى عدم أكل النار لصحيفة كتب عليها. بل في مضمونه الفكري وتطابقه مع التجارب الإنسانية الحية. وتوجيهه للواقع والدخول في حركته ودفعه نحو من مزيد من الكمال[5]. وليس فقط أن الرسول أمي[6]. ثالثا الإخبار بالمغيبات[7]. رابعا الإخبار عن القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة[8]. وبالإضافة إلى ذلك هناك وجوه أخرى للإعجاز مثل تعجيز الناس على فعل شيء مثل تمني اليهود الموت أو الدار الآخرة[9]. وكذلك التأثير في القلوب والمشاعر[10]. ومنها حفظه من الضياع أو التحريف في تدوينه[11]. ومنها أن القارئ لا يمله، وسامعه لا يمجه. والإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة. ولا يزال غضا طريا. وقد جمع من العلوم ما لم تألفه العرب وهو ما

(١) الشفا جـ١/ ٣٥٨-٣٦٩.

(٢) السابق ص ٣٦٩-٣٧٤.

(٣) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٥٤-٢٦٦.

(٤) السابق ص٢٥٤-٢٦٦.

(٥) «إن الله أنزل هذا القرآن أمرا وزاجرا وسنة، خاليا ومثلا مضروبا. فيه نبؤكم، وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الحق ليس بالهزل. من قال به... صدق، ومن حكم به... عدل. ومن خاصم به..فلج، ومن قسم به... أقسط، ومن عمل به.. أجر. ومن تمسك به... هُدى إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره... أضله الله، ومن حكم بغيره... قصمه الله. هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا زيغ فيستوصى، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد»، بهجة المحافل ص٤٥٦، مسيرة النبي جـ٣/ ٢٨٢-٣٣٦.

(٦) السابق جـ٣/ ٣٢٥-٣٣١.

(٧) الشفا جـ١ ص ٣٧٥-٣٧٨.

(٨) السابق حـ١/ ٣٧٩-٣٨٢.

(٩) السابق حـ١/ ٣٨٢-٣٨٤.

(١٠) السابق حـ١/ ٣٨٤-٣٨٨.

(١١) السابق حـ١/ ٣٨٨-٣٨٩.

يسمى الآن. الإعجاز العلمي للقرآن[1]: يأخذ علم الغرب وإسقاطه على القرآن وتأويل آيته واستخراجه منها. ولو غير الغرب علمه لغير أهل القرآن تفسيرهم. وإذا كان في القرآن هذا العلم فلماذا لم يكتشفه المسلمون قبل أن يكتشفه الغربيون؟ وهل الله سخر الغرب لنا لنستفيد من علمهم ولدينا الإيمان فنكون كاملين والغرب لديه علم بلا إيمان فيكون خاسرين؟ جمع بين جزالة اللفظ وجوامع الكلم، بين الدليل ومدلوله، في حيز المنظوم، بين الشعر والنثر، يسهل حفظه، مشاكلة بعض أجزائه بعضها بعضا، وحسن ائتلاف أنواعها وأقسامها، والخروج من قصة إلى الأخرى، والجمع بين عديد من الأشكال الأدبية، الأمر والنهي، والخبر والاستخبار، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. والوجوه لا تنتهي. وكان الرسول حساسا للقرآن الكريم إذا قرأه أو سمعه من غيره[2].

وكيف تتفاضل سور القرآن فيما بينها أو في أوقات قراءتها وكلها وحي من عند الله؟[3]. ولماذا سورة أفضل من سورة مثل يس للقراءة على الموتى؟ ولماذا سورة قلب القرآن وأخرى أطرافه؟ ولماذا من قرأ سورة بعينها، الواقعة، في ليلة بعينها لم تصبه فاقة، والملايين من المسلمين فقراء جوعى ذوي حاجات؟ وهذا هو سبب الطلاسم والأحجيات وكتابة بعض السور والآيات وتعليقها للحفاظ من كل شيء. وتساوي بعض السور نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه.

٤- الطب النبوي

واستمر الطب النبوي القديم حتى العصر الحالي دون التحول إلى الطب العلمي.

---

(١) السابق جـ١/ ٣٨٩-٣٩٦.

(٢) «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»، شمائل الرسول ص٦٨-٦٩.

(٣) «الأنبياء من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه. لا يقرأن في دار ثلاث ليال فيقربها الشيطان»، «من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له»، «قلب القرآن يس»، «من قرأ سورة الدخان في ليلة (ليلة الجمعة) أصبح مغفورا له»، «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقه»، «من قرأ آية الكرسي وأول حم غافر عصم ذلك اليوم من كل سوء»، «من قرأ خاتمة سورة التوبة كفاه الله ما أهمه من أمر آخرته ودنياه صادقا كان أو كاذبا»، «من قال حين يصبح ويمسي ..... أدرك ما فاته من يومه»، «تعلموا ..... فإنها المنجية من عذاب القبر»، «اقرأ المعوذتين حين تصبح وحين تمسي ثلاث مرات تكفيك من كل شيء»، بهجة المحافل، ص٥٩٦-٥٩٨.

وأقصى شيء تحوله إلى طب الأعشاب عند العشاب ذي اللحية ودخان البخور أمامه مستحضرا الرسول. ويفرد كتاب خاص في علم الحديث للطب النبوي عندما خرجت السيرة من علم الحديث. وفيه يروى عن إباحة التداوي بالحجامة والعسل والنار، والآثار الطبية للحبة السوداء والزيت والحناء والشعير والسلق والحساء. بل تذكر فضائل الرقية، والتعويذة والدعاء، والسم والسحر. فهي معجزات الأشياء والآثار السحرية لها على المرضى[1].

ومن معجزاته الباهرة ما جمع له من المعارف والعلوم، والإطلاع على مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بالشرائع، وما كان قبله من قصص الأنبياء وحفظ شرائعهم، والحوار مع كل فرقة، والمعرفة بلغات العرب وبفنون الطب[2]. والتداوي ضروري[3]. ولكل داء دواء، والتداوي بالخمر داء ليس دواء. وأفضل علاج بالحجامة[4]. ثم شربة عسل ثم لسعة نار. والتداوي لا ينافي التوكل[5].

والأدوية ثلاثة أنواع: الأدوية الإلهية، والأدوية الطبيعية، والأدوية المركبة بين الأدوية الإلهية والأدوية الطبيعية[6]. الأدوية الإلهية الاستشفاء بالقرآن وبالدعاء وبالرقي للمصاب بالعين والصداع ووجع الضرس وعسر البول والحمى، ومن كل شكوى. والاستشفاء من الفزع والأرق وجر المصيبة وداء الهم. وداء الفقر والحريق، وداء الصرع. وهناك السحر والفرق بينه وبين المعجزة وكيفية علاجه[7]. وهناك الأدوية

---

(١) سنن المصطفى ص٧٠٢-٧١٤.

(٢) «خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمشي والعود الهندي»، «أصل كل داء البردة»، «المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة»، «في العود الهندي سبعة أشفية»، «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه. فإن كان لابد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»، الشفا جـ١/ ٥٠٣-٥٠٤.

(٣) «إن لكل داء دواء. فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله»، «والخمر ليس بدواء ولكنه داء»، بهجة المحافل ص٤٩٨-٥٠٠، الطب النبوي، المواهب اللدنية جـ٣/ ٤٠١-٥١٥، شمائل الرسول ص٣٢٩-٣٤٣.

(٤) «إن أفضل ما تداويتم به الحجامة»، «إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار، وما أحب أن أكتوي»، السابق ص٤٩٨-٤٩٩، حجامة الرسول، شمائل النبي ص٢٠٠-٢٠٢.

(٥) المواهب اللدنية جـ٣/ ٣٩٩-٤١٨.

(٦) السابق حـ٣/ ٤١٩-٥١٥.

(٧) السابق حـ٣/ ٤١٩-٥٦٨.

الطبيعية[1]. أما الأدوية المركبة من الإلهية والطبيعية فهي بعض الأمراض الجسمية والنفسية[2].

وبعض الأدوية تصور مثل شفاء الحمى بالماء البارد. وهو ما يوحي به الطب الحديث بكمادات الماء البارد على جبهة المريض مرتفع الحرارة[3]. والبعض الآخر يحتاج إلى إعادة نظر مثل ضرر أكل الحلو مع الرمد إلا إذا أثبت الطب العلمي أن هناك صلة بين السكر والرمد. أما أن الضرر من التمر، كنموذج للفاكهة العالية السكر فلا يحدث إذا أكله أحد وترا. فلا صلة بين العدد الزوج أو الوتر بالمرض[4].

والطب النبوي كله يقوم على المعجزات مثل رد بصر إحدى المسلمات إليها[5]. ومثل رفع الوباء والحمى والطاعون عن المدينة،والدعاء لها بالبركة[6]. ويدخل في ذلك إحياء الموتى والحديث معهم[7]. ومنها إبراء ذوي العاهات كإبراء الأبكم والأعمى[8]. ومنها شفاء اليد المحترقة بالتفل فيها وتلاوة بعض الأدعية تحيل النبي إلى ما يشابه أدعياء الطب النبوي هذه الأيام. ومن آياته حصول القوة في الزمي. وكان يستعيذ بالجن[9]. ومن معجزات الطب النبوي مثل البردة أصل كل داء. وأفضل دواء السعوط واللدود والمشي والحجامة في يوم معلوم. وفي العود الهندي سبعة أشفية، وفي الحبة السوداء شفاه

(1) وهي لعلاج الصداع والرمد واستطلاق البطن، ويبس الطبيعة والمفؤود وذات الجنب والاستسقاء وضعف العدة، وعرق النسا، والأورام، والخراجات، والعلاج بقطع العروق والكي والسم وعلاج أمراض الطاعون والحمى وحكة القمل، المواهب اللدنية جـ٣/ ٤٦٩-٥٠٢.

(2) مثل القرحة ولدغة العقرب والنملة وحرق النار، والحمية من الماء والشمس، والكسل والبواسير وسم الذباب ورضاع الحمقى والبرد. وضرورة تغطية الإناء ليلا، السابق جـ٣/ ٥٠٣-٥١٥.

(3) «الحمى من فيح جهنم فأبردها بالماء»، بهجة المحافل ص٤٩٩.

(4) «أتأكل الحلو وأنت أرمد؟ حسبك، فإنه لا يضر من التمر ما أكل وترا»، السابق ص٥٠٠.

(5) الخصائص الكبرى جـ١/ ٣٢٨-٣٢٩.

(6) السابق جـ١/ ٤١٨-٤٢١.

(7) السابق جـ٢/ ١١١-١١٥ «باسمك اللهم، ريق بعضنا بتربة أرضنا ليشفى سقيمنا بإذن ربنا»، جـ٢/ ١١٦.

(8) السابق جـ٢/ ١١٦ «أذهب البأس رب الناس. وأشف أنت الشافي. لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما» جـ٢/ ١١٧ «بسم الله اذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك»، جـ٢/ ١١٨.

(9) جـ٢/ ١٢٧-١٢٨.

الله من كل الأسقام إلا السام، ومن تصبح بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر. والعود الهندي والعجوة أدوية، والحبة السوداء أدوية[1].

وقد أبرأ الرسول المرضى وذوي العاهات بالدواء وبالعلاج الطبيعي[2]. إذ لا يُكره المريض على الطعام والشراب. فالجسد له رغباته[3]. ويجمع الطب النبوي بين الطب العضوي والطب النفسي، ومنها عيادة المريض وفضلها. والدواء ليس عضويا فقط بل له أثر نفسي في الشفاء من الحزن. ويكون ذلك بالأدعية كما يفعل العشاب المعاصر[4]. فكثير من أحاديث الرسول أدعية للآخرين[5]. والدعاء يشفي المريض[6]. وخير الرسول بين الصبر حتى يُغفر الذنوب. وطالب الشفاعة من الرسول تشفي. والمرض يمكن شفاؤه بوضع اليد على جسد المريض والتسمية ثلاثا، والتعوذ سبعا[7]. كما يشفى بمجرد الدعاء.

---

(١) «أصل كل داء البردة»، «خير ما تداويتم به السعوط واللدود، والمشي والحجامة»، «خير الحجامة يوم سبع عشرة وتسع عشرة»، «في العود الهندي سبعة أشفية»، «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السأم»، «من تسبح بسبع تمرات عجوة، لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر»، بهجة المحافل ص٤٨٢-٤٨٣.

(٢) تفل ريقه في كثير من أعضاء الجسد المريضة، رد العين إلى مكانها،إبصار ضرير، إبراء الأبرص، إبراء الكسر والجراحة والجنون ووجع الضرس، السابق ص٤٧١-٤٧٣، سيرة النبي جـ٣/ ٣٨٨-٣٩٤ .

(٣) «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم»، سيرة النبي ص٤٧٠، شمائل الرسول ص٦٨.

(٤) «التلبينة مُجمة لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن»، بهجة المحافل ص٤٩٩.

(٥) في إجابة دعائه «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، السابق ص٤٧٣-٤٧٤.

(٦) شمائل الرسول ص١٧٤-١٨٦، قصة الصبي الذي كان يُصرع فدعا له الرسول فبرأ، شمائل الرسول ص١٧٤-١٨٦ «إن تصبري على ما أنت عليه تجيئي يوم القيامة وليس عليك ذنوب ولا حساب»، «إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك»، «إن شئتم دعوت لكم الله فكشفها عنكم وإن شئتم تركتموها فأسقطت ذنوبكم»، وإن شئتم أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك وإن شئت دعوت لك «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد، نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى وتشفعني فيه وتشفعت لي إئت الميضة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل. اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه إلى ربي فتجلى بصري، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي»،ص١٧٤-١٧٥.

(٧) «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثا وقبل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، «من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا لم يصبه ذلك البلاء»، «اللهم رب الناس أذهب البأس، اشفه أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما»، «لا شافي إلا أنت»، سيرة النبي ص٤٦٩-٤٧٠.

وقد يكون علاج الحزن على الفقيد الصبر والاحتساب[1]. فالصبر يشفي المريض احتسابا لله[2]. ويعني بلغة الطب المعاصر الانتظار حتى يظهر مفعول الدواء. والمرض كبيره وصغيره تكفير عن الخطايا وليس له سبب عضوي. وهو تحويل العلم إلى الدين. المرض في الدنيا له جزاؤه في الآخرة تعويضا. البؤس في الدنيا جزاؤه الحسنة وفي الآخرة[3]. وزيارة المريض واجبة تشفيه. وعيادته تذكّر بالآخرة. فالمرض له جانبه الاجتماعي لرفع الروح المعنوية للمريض[4].

ويلحق الموت بالمرض. فقد يكون أحد نتائجه. الرضا به يورث بيتا في الجنة، يسمى بيت الحمد. والرواية مركبة تتكرر حواراتها وكأن الله لا يعلم أفعاله ولا يقدر عليها وفي حاجة إلى الملائكة[5]. ويُذكر الموت دائما[6]. ومع ذلك لا يُتمنى الموت تجنبا لضرر وإن قُبل كما هو الحال في الموت الإرادي. فقبول الموت حسن ظن بالله على عكس بعض فلاسفة الوجود المعاصرين الذين يخافون منه وينزعجون له بالرغم من أن الإنسان

---

(١) «مُرها فلتصبر ولتحتسب، وأخبرها أن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى»، سيرة النبي ص٤٧٤.

(٢) «أيهما أحب إليك، أن أدعو لك فيكشف عنك أو تصبرين وتجب لك الجنة»، شمائل الرسول ص١٧٥.

(٣) المرض وتوابعه. ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن خطاياه، «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له مثل ما كان يعمل مقيما صالحا»، «ما لعبدي عندي جزاء إذا قبضت صفّيه من أهل الدنيا ثم أحتسبه إلا الجنة»، «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه، وجعل له خلفا يرضاه»، سيرة النبي ص٤٦٩-٤٧٥.

(٤) «من عاد مريضا لم يحضر أجله فقال عند سبع مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله من ذلك المرض»، «عودوا المرضى، واتبعوا الجنائز تذكّركم بالآخرة»: «إن الله يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لوعدته لوجدتني عنده؟» «من عزى مصابا فله مثل أجره»، «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط. ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطا مثل الجبلين العظيمين»، السابق ص٤٧٠/٤٧٤.

(٥) «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد»، السابق ص٤٧٢-٤٧٥.

(٦) «أكثروا ذكر هادم اللذات فإنه ما كان في قليل إلا أخبر له، ولا في كثير إلا قلله»، «أكثرهم للموت ذكرا، وأكثرهم له استعدادا، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»، السابق ص٤٧٢.

«وجود من أجل الموت» ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]. ويُلقن الميت آخر كلام له قبل الموت، التشهد، حتى يدخلَ الجنة. بلَ يكفي أن يشعر بقلبه رجاء الله والخوف من الذنوب حتى يعطيه الله ما يشاء[2].

والصلاة على الميت واجبة. توجب الجنة له. والدعوة له تقيه عذاب القبر وعذاب النار. والجنة جزاء المؤمن المصاب الذي قبض صفيه. وإذا كان المصلون ثلاثة صفوف، غُفر للميت المصلى عليه[3]. وتوديع الميت في الجنازة واجب. فالمودع شاهد عليه خيرا أم شرا، وداع له على قبره. يطلب له المغفرة وهو يُسأل[4]. أما من ضرب الخدود،وشق الجيوب فإنها من دعاوي الجاهلية[5]. وهو مازال سائدا حتى الآن خاصة في الطبقات الشعبية.

ثالثا ـ حقوق الرسول الإلهية:

١ - الحقوق والواجبات

الحقوق والواجبات أدخل في الفقه، في المعاملات. يكفي استعمال القرينين[6].

---

(١) «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به. فإن كان لابد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي»، «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»، السابق ص٤٧٢.

(٢) «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»، «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، «لا يجتمعان في قلب عبد(رجاء الله والخوف من الذنوب) في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف، السابق ص٤٧١/ ٤٧٣.

(٣) «ما من مسلم يموت فيصلي عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا وجبت له الجنة»، «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسّع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقّه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار»، «اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، وشاهدنا وغائبنا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده»، «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»، «يقول الله: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»، السابق ص٤٧٤-٤٧٥.

(٤) «أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»، السابق ص٤٧٣، «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»، السابق ص٤٧٣-٤٧٥.

(٥) «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»، السابق ص٤٧١.

(٦) الحقوق مثل: حقوق الوالدين، الأولاد،الزوجين، القرابة، الجار، اليتامى، الأرملة، المحتاجين، المريض، العبيد، الضيف،المسلمين فيما بينهم، الأخوة الإسلامية، الحيوان، السابق جـ٦/ ١١١-١٨٤.

ولفظ حق وكذلك صاحب الحق، مرة بالمفرد، ومرة بالجمع. وهي مثل مقامات الصوفية وأحوالهم وفضائل الفلاسفة. ويظهر التركيز على مفهوم «حقوق العباد وأهميته». ومضمونه وارد في الأحاديث النبوية وإن لم يرد بلفظه[1]. وتحت عنوان «فيما يجب على الأنام من حقوقه» وتركيز الحقوق على شخص الرسول أحد أسباب عدم تعميمها على حقوق الإنسان[2]. وهي حقوق شخصية لا تتكرر للإنسان من حيث هو إنسان، وبالتالي لا يعود الرسول قدوة ونموذجا. وهي أيضا رباعية: الأول وجوب تصديقه واتباعه وطاعته. والثاني محبته ونصائحه والثالث توقيره وبره. والرابع الصلاة والتسليم عليه، وزيارة قبره. طاعته بالنموذج وليس بالشخص، ومحبته للإنسان وليس للفرد، وتوقيره لكرامة الإنسان وليس لكائن بعينه. والصلاة والسلام عليه بداية التأليه بعد التعظيم والتقديس. وهناك تحول تدريجي من التشخيص إلى التأليه، من الطاعة إلى المحبة إلى التعظيم إلى الصلاة عليه.

٢- التعظيم والمحبة والطاعة

ثناء الله عليه الأصل الذي ترتكز عليه شمائل الرسول. فالقرآن هو مصدر التعظيم وعد المحاسن وتنويه القدر[3]. فقد جاءت كثير من الآيات بمدحه والثناء عليه وتعداد المحاسن. حياته وموته خير للمسلمين[4]. ووصفه الله بالشهادة وما يتعلق بها من الثناء والكرامة[5]. فالشاهد هو الشاهد الحق.وقد أقسم الله بعظيم قدره[6]. والقرآن لا يقسم

---

(١) «من كانت له عند أخيه مظلمة فليقبضها منه قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، وإنما الأعمال فقط. فيؤخذ من حسنات الظالم ويعطي للمظلوم فإن نفدت حسناته أخذ من سيئات المظلوم وكتب في صحيفة الظالم»، «سيكون في صحيفة الأعمال ثلاثة أنواع من الذنوب: نوع لن يلتفت الله إليه، ونوع لن يترك الله منه حرفا، ونوع لن يغفر الله منه شيئا فهو الشرك. وأما الذي لن يلتفت الله إليه فهو الظلم الذي أوقعه الإنسان على نفسه، ويكون أمره بينه وبين الله كأن لم يصم أو لم يصل. فالله تعالى يغفر له، ويعفو عنه إن شاء. أما الذي لن يترك الله منه حرفا فهو الظلم الذي يوقعه العبد بالعبد»، السابق جـ٦/ ٩.

(٢) الشفا جـ٢/ ٥٣٧-٦٨٩.

(٣) الشفا جـ١/ ١٥-٧٦، «المواهب اللدنية» جـ٣/ ١١٩-٢٦٤.

(٤) «حياتي خير لكم، وموتي خير لكم»، «إذا أراد الله رحمة بأمته قبض نبيها قبلها فجعلها له فرطا وسلفا»، الشفا حـ١/ ١٩ .

(٥) الشفا جـ١/ ٢٩-٣٦.

(٦) السابق ص٤١-٤٦، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤١٩.

إلا بالحق. وأقسم الله به مما يبين مكانته عنده[1]. وقد ورد الخطاب القرآني فيه مورد الملاطفة والمبرة مما يدل على مدى القرب منه[2]. كما بين القرآن في جهته مورد الشفقة والإكرام[3]. وقد أخبر الله في كتابه عن عظيم قدره وشريف منزلته على باقي الأنبياء وحظوته ومرتبته[4]. كما أظهر الله في كتابه من كراماته عليه ومكانته عنده[5]. وأعلم الله خلقه بصلواته عليه، وولايته له، ورفعه العذاب بسببه[6]. ومن استهان به فقد كفر مثل الزنا بحضرته، والامتناع عن الصلاة إذا دعاه[7]. وقد تضمنت سورة الفتح عديدا من كراماته[8].

وهناك عدة مظاهر من تعظيم قدره ووجوب توقيره وبره، إذ تتفاوت مراتب الرسل والنبي في أعلاها. وهنا يبرز السؤال: وماذا عن الملائكة ومراتبها، والأنبياء ومراتبهم؟ أخذ الميثاق له. وشهد الله له بالرسالة وذكره في الكتب السابقة. وأقسم الله به، بخلقه ونعمه وتصديقه وتحقيق رسالته وبحياته وعصره. ووصفه بالنور والسراج. وهناك آيات تتطلب وجوب طاعته، وضرورة الأدب معه. وقد رد الله على عدوه، وأزال الشبهات عنه[9]. وقد تعود الصحابة على إجلاله لدرجة أخذ ماء وضوئه والاقتتال على بصاقه ونخامته، يتلقونها بأكفهم يدلكون بها وجوههم وأجسادهم، ويتلقون ما يسقط من شعره، ويسارعون في تنفيذ أوامره.وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم[10]. وكانت صورته أنه مثل الملك في أصحابه مع أن الرسول قد منع

---

(١) الشفا ص٤٦-٥٥.
(٢) السابق جـ١/ ٣٦-٤١.
(٣) السابق ص٥٦-٥٨.
(٤) السابق جـ١/ ٥٩-٦٢.
(٥) السابق ص٦٧-٧٢.
(٦) السابق ص٦٣-٦٦ «أنزل الله علي أمانين لأمتي»، ص٦٤.
(٧) خصائص الرسول ص٢٧٨-٢٧٩.
(٨) السابق ص٧٢-٧٦.
(٩) المواهب اللدنية جـ٣/ ١١٩-٢٦٤.
(١٠) الشفا جـ٢/ ٥٨٧-٦٢٤.

ذلك[1]. ثم عظم النبي بعد موته[2]. وقد عظم السلف رواية حديث الرسول وسنته[3]. وهي آداب عامة تحولت إلى آداب خاصة. تم التحول والتوقير لشخصه إلى بر آله وذريته وأمهات المؤمنين وأزواجه[4]. والأزواج لأنهن رواة عنه وليس لأشخاصهن. فلا يمكن مساواة أهل بيته بالقرآن وهو ما يناقض أقوالا أخرى عن المساواة بين البشر جميعا، وقيمة الإنسان عمله وليس نسبه. ثم توقير أصحابه وبرهم[5]. والتوصية بالاقتداء بهم. وعدم سبهم. وهم كالملح في الطعام.

ومن تعظيمه وإكباره تعظيم جميع أسبابه وإكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة ومعاهده وما لمسه أو عرف به[6]. ولعن من أحدث في المدينة حدثا. ولا يرفع أحد صوته

---

(١) «يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وأني رأيت ما رأيت ملكا في قوم قط مثل مُحمد في أصحابه»، السابق ص٥٩١-٥٩٤.

(٢) السابق ص٥٩٥-٥٩٩.

(٣) السابق ص٥٩٩-٦٠٤.

(٤) السابق ص٦٠٤-٦١١ «أنشدكم الله أهل بيتي»، «إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا»، «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق» (علي) «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله. ومن آذى عمي فقد آذاني، وإنما عم الرجل صنو أبيه»، «من أهان قريشًا أهانه الله»، «قدموا قريشا ولا تقدموها».

(٥) «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»، «أصحابي كالنجوم. فبأيهم اقتديتم اهتديتم» و«مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام. لا يصلح الطعام إلا به»، «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ حد أحدهم ولا نصيفه»، «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه حرفا ولا عدلا»، «إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، فجعلهم خير أصحابي، وفي أصحابي كلهم خير»، «من أحب عمر فقد أحبني، ومن أبغض عمر فقد أبغضني»، السابق ص٦١٣-٦١٥: أيها الناس إني راض عن أبي بكر فاعرفوا ذلك. إني راض عن عمر وعن علي وعن عثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف فاعرفوا لهم ذلك»، «أيها الناس إن الله غفر لأهل بدر والحديبية. احفظوني في أصحابي وأطهاري وأختاني»، «كان يبغض عثمان فأبغضه الله»، «أعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم»، «احفظوني في أصحابي وأطهاري، فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة. ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله عنه، ومن تخلى الله عنه يوشك أن يأخذه»، «من حفظني في أصحابي كنت له حافظا يوم القيامة»، «من حفظني في أصحابي ورد على الحوض، ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرد على الحوض، ولم يرني إلا من بعيد»، السابق جـ٢/ ٦١١-٦١٨.

(٦) «من أحدث فيها (المدينة) حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا»، «من حلف على منبري كاذبا فليتبوأ مقعده من النار»، الشفا جـ٢/ ٦١٩-٦٢٤.

فوق صوت النبي ولا أن يناديه من وراء الحجرات. وكذلك من كراماته تحريم التقديم بين يديه والجهر بالقول والصياح به من بعيد. وهي آداب بديهية فطرية. ومن كراماته أن من استهان به كفر. ومن سبه أو هجاه قتل[1]. وهي عقوبات قد تبدو صارمة خاصة وأنه يمكن تأويل الخطاب الناقد عن حسن نية وأفضل وجه.

لا يسب الرسول أو ينتقص قدره، ليس لشخصه بل لحسن الأدب في التعامل مع الشخصيات العامة والقواد العظام. فالتعريض والنص لا يجوز في حق الأنبياء. ومن يفعل يستحق القتل بلا استتابة عند القدماء[2]. وهو مجرد رأي عند المحدثين يستوجب الرد عليه ويحسب على حق الاختلاف. ومن الجزءات الماضية القتل والصلب منكسا بعد الطعن بالسكين والحرق بالنار، وتحويل الخشبة عن القبلة وولوغ كلب في الدم لأنه لا يلغ الكلب في دم مسلم[3]. فلا يجب قتل من سب أو عاب احتراما لحرية الرأي. ولا يجوز تكفير أحد. وقد طلب الرسول ذلك لمن سبه، رجلا أو امرأة. وكيف تقطع يد وتنزع ثنية من غنت بسب الرسول،وقد رفض الرسول ضرب عنق الهجائين، بل إنه لا يجوز قتل المرتدين. كان ذلك في بداية الدعوة والمسلمون قلة، وليس الآن والمسلمون كثرة. ولم يقتل النبي اليهودي الذي قال له: السام عليكم. ولم يقتل من اتهمه بغير العدل «إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله». ولم يقتل المنافقين الذين كانوا يأذونه. ربما حدث تطور في الحكم بقتل المرتدين، من الإثبات إلى النفي. بانتشار الإسلام وانتقاله من القلة إلى الكثرة[4]. ولا يهم إن كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد. فالسب ليس موقفا موضوعيا من العلم. وحتى لو قصد إلى التكذيب فيما قال له الرسول أو أتى به أو نفى نبوته أو وجوده أو الكفر به أو تحول إلى دين آخر يُرد عليه ولا يقتل، وإذا أتى بمجمل أو مشكل يمكن تأويله على النبي فإنه يحمل على الوجه والقصد الحسن[5].

---

(١) خصائص الرسول ص٢٧٣-٢٧٥/ ٥٤٠-٥٤١، «لا يقتل أحد بسبب أحد إلا بسب النبي»، ص٥٤١، «أشهد أن دمها هدر»، ص٥٤١.

(٢) الشفا جـ٢/ ٩٢٦-١١١٦.

(٣) «لا يلغ الكلب في دم مسلم»، السابق ص٩٣٢-٩٤٣.

(٤) «من سب نبيا فاقتلوه، ومن سب أصحابي فاضربوه»، «بكفرك وافترائك على الرسول»، «من يكفيني عدوي»، «من غير دينه فاضربوا عنقه»، السابق ص٩٤٤-٩٥٨.

(٥) «إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا منذرين»، «يسروا ولا تعسروا، وسكّنوا ولا تنفروا»، «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»، «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»، السابق ص٩٥٨-٩٧١.

وإذا لم يقصد سبا ولا عيبا ولكن يذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله الجائزة عليه في الدنيا بضرب المثل مما ينفي التوقير وعلى سبيل الهزل والتندر فإنه أيضا لا يقتل. فالأدب يقوم على ذلك. وقد يفيد ذلك في الإقلال من التعظيم والتقديس والتأليه. ولو قال ذلك حاكيا عن غيره، فالراوي لا يتحمل وزر ما يروي إذا كان ما يروى وزرا، والقصد هو كيفية توظيف الرواية للنقل أم الانتشار. وذكر ما يجوز على النبي وما يطرأ عليه من الأمور البشرية أو ما امتحن به فهو بريء من العقاب وذلك مثل الوصف البشري للرسول. وهو مثل ما وقع في كتاب إرميا. وإذ وقع التجريح عن طريق المذاكرة والتعليم فإن التجريح ليس أسلوبا علميا[1].

وحكم الساب والمنتقص والمؤذي أن يستتاب أو لا يورث. وهو مثل القتل والصلب لأن السب ليس أسلوبا علميا. ويحسب على حساب النقد السيء. وهي أحكام اختلف فيها الفقهاء. فالنقد العلمي ليس ارتدادا. وحتى على افتراض أن النقد تبديل للدين فالعقاب ليس على التبديل بل على مفارقة الجماعة. وليس الموضوع فقهيا في الحدود والشهادة بواحد أو أكثر بل هو موقف المخالف في الرأي حتى ولو كانت أساليب التعبير تخرج عن الآداب والقواعد العلمية. ولا فرق في ذلك بين المسلم والذمي لأن العهد ليس مع السب بل مع التقدير. وبما أنه لا يقتل فسؤال غسله والصلاة عليه وميراثه غير مطروح. فالورثة لا ذنب لهم. والغسل والصلاة واجبان إنسانيان من الجماعة تجاه الفرد بصرف النظر عن مواقفه الفكرية[2].

أما من سب الله وملائكته وكتبه وأنبيائه والنبي وآله وأزواجه وصحبه فهو رفض مطلق للدين في حاجة إلى حوار وتبادل الرأي خارج قانون العقوبات. ولا يقتل بظاهر كفره لأنه لم يُشق على قلوب الناس، ولا يحكم بالظاهر. أما من أضاف إلى الله ما لا يليق عن طريق التأويل والاجتهاد والخطأ الناتج عن الهوى والابتداع من تشبيه أو نعت بجارحه أو نفي صفة كمال ففية اختلاف. فالفكر الديني كله قائم على التشبيه، وقياس

---

(١) السابق ص٩٧١-١٠١٤.

(٢) الشفا جـ٢/ ١٠١٥-١٠٤٦.

الغائب على الشاهد[1]. فلا يجوز إكفار المتأولين[2]. ولا يمكن تصنيف المقالات بين ما هو كفر وما هو ليس بكفر وما يتوقف فيه لأن المقال مقال. لا يكفر صاحبه. ولا فرق بين المسلم والذمي في المواقف الفكرية داخل الحضارة الإسلامية. والخروج بالسيف على صاحب المقالة مواجهة القلم بالسيف. ولا يصل الأمر إلى ادعاء الألوهية أو الرسالة أو النفي للخلق. أما سقط القول وسخف اللفظ وإهمال اللسان مما يقتضي الاستخفاف بعظمة الله فهو ليس علما قبل أن يكون خروجا على الدين. وفرق بين سب الأنبياء السابقين وبين علم تاريخ الأديان، بين الاستخفاف بالقرآن أو المصحف وبين دراسته كخطاب أو كنص. بين سب الرسول وسب آل بيته وأزواجه وصحبه[3]. فالرسول نبي، والباقون ليسوا أنبياء. يأتي احترامهم من احترام النبي. والخصام الاجتماعي للمخالفين في الرأي قطيعة لا تجوز بين المسلمين[4]. أما السب العلني فيخضع لطائلة القانون وهو حد الفرية.

كما تجب محبته واتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته، وعلامات المحبة الاقتداء به والرضا بما شرعه، ونصر دينه، والتسلي عن المصائب، وكثرة ذكره وتعظيمه، والشوق إلى لقائه، وحب القرآن والسنة، ثم تأتي الصلاة عليه، ومحبة آله وصحبه[5]. وتلزم محبته كما هو الحال عند الصوفية[6]. ومحبته لشخصه وليس لنموذجه[7]. ولمحبته ثواب[8].

---

(1) السابق حـ١/ ١٠٤٧-١٠٥٦، وهو رأي المخزومي ومحمد بن سلمة وابن أبي حازم.

(2) السابق حـ١/ ١٠٥٦-١٠٦٥ وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين.

(3) السابق ص١٠٦٥-١١٠٥.

(4) «لا تسبوا أصحابي. فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله عنه حرفا ولا عدلا»، «لا تسبوا أصحابي، فإنه يجيء قوم في آخر الزمان يسبوا أصحابي فلا تصلوا عليهم، ولا تصلوا معهم، ولا تناكحوهم ولا تجالسوهم وإن مرضوا فلا تعودوهم»، «من سب أصحابي فاجلدوه»، «من قذف أم أحدهم وهي كافرة حُد حد الفرية»، السابق ص١١٠٦-١١١٦.

(5) المنح المحمدية جـ٣/ ٢٦٧-٣٩٦، سيرة النبي جـ٤/ ١١ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»، «ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف به في النار»، معين الشمائل، ص٤٨٤-٤٩٧.

(6) الشفا جـ٢/ ٥٦٣-٥٨٦، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٤٢.

(7) «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده. ووالده والناس أجمعين»، «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، «ثلاث من كن فيه حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»، خصائص الرسول ص١٧٦-١٧٧/ ١٩٧.

(8) «أنت مع من أحببت»، «من أحبني كان معي في الجنة»، السابق ص٥٦٥-٥٦٦.

وقد رُوي عن الأئمة والسلف كثير في ذلك[1]. وعلامة محبته رفع الغش من القلب، وعدم لعن أحد، وحب أصحابه وأهله وأحفاده، وحب العرب أي الشخص والعشيرة والقبيلة[2]. وحب الفقر هو حب النموذج. وتعني محبة النبي اتباعه ونصرته. ودوام ذكره وإيثاره، والشوق إليه والميل له. ويعني كل ذلك اتباع النموذج والاسترشاد به[3]. وتعني محبته مناصحته واستشارته ومشاورته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4].

وطاعته واتباع سننه هو الاقتداء بالنموذج بالعقل وبالقلب[5]. وطاعته منصوص عليها في القرآن والحديث، والطاعة لذاتها بصرف النظر عن نتائجها وجزائها. ويتم تصوير ذلك بالتخويف بالنذير العريان. من اتبعه نجا ومن عصاه هلك أو بالترغيب بمأدبة في الدار. من قبل الدعوة نجا ومن رفضها هلك. فاتباعه وامتثال أوامره والاقتداء بهديه ليس إجبارا بل طبيعة[6]. وسواها بدعة وضلال. فاتباع السنة اتباع للكتاب. بل أحيانا يأتي الحديث في مقدمة القرآن إذا كان صعب الفهم لدرجة تكوين جماعة «أهل السنة والحديث». ولا توجد جماعة «أهل الكتاب والقرآن». وقد ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته[7]. ومخالفة

---

(١) «من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رأوني بأهله وماله»، السابق ص٥٦٧-٥٧٠.

(٢) «اللهم أني أحبها فأحبها»، «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فيبغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»، «إنها (فاطمة) بضعة مني، يغضبني ما أغضبها، أحبه (أسامة بن زيد) فإني أحبه»، «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغضهم»، «من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فيبغضي أبغضهم. فبالحقيقة من أحب شيئا أحب كل شيء يحبه»، «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا»، السابق ص٥٧١-٥٧٧.

(٣) السابق جـ٢/ ٥٧٨-٥٨١.

(٤) «إن الدين النصيحة... لله وكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم»، السابق ص٥٨٢-٥٨٦، وجوب محبته، سيد الأنام ص٢٩٤- ٣٠٣، أدلة المحبة من الكتاب والسنة ٣١٠-٣٢٢.

(٥) الشفا جـ٢/ ٥٣٧-٥٦٢، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤١٣-٤١٥، «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»، معين الشمائل ص٤٧٨-٤٨٣.

(٦) «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»، «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»، السابق ص٥٤٤-٥٤٦.

(٧) السابق ص٥٤٦-٥٥٤ «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور. فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكتين يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله ابتغاه»، «ما بال قوم يتنزهون عن الشيء أصنعه. فوا الله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»، «القرآن صعب مستصعب على من كرهه. وهو الحكم. فمن استمسك بحديثه وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ومن تهاون بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة. أمرت أمتي أن يأخذوا بقولي، ويطيعوا أمري، ويتبعوا سنتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، من اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني»، «إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»، «العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل:

أمره وتبديل سنته ضلال[1]. ومع ذلك هناك فرق بين الأمر والتشفع. فلا يستطيع الرسول أن يأمر امرأة بالعودة إلى زوجها ولكن يتشفع لها عنده. والفرقة الناجية هي من يتابع الرسول وأصحابه[2]. وإذا كانت طاعة الرسول طاعة لله فالتخوف أن تكون طاعة الحاكم من طاعة الرسول وطاعة الله. فيتخفى الحاكم وراء الله والرسول يستمد منها سلطانه وليس من الشعب مصدر السلطات. إذا كانت حقوق النبي على المسلمين الطاعة والمحبة والصلاة عليه فأين حقوق المسلمين على النبي؟[3].

وفي إحدى السير الإصلاحية يأخذ مفهوما الحقوق والواجبات منحنا إنسانيا خالصا، حقوق الوالدين، والأولاد، والزوجين، والقرابة والجار، واليتامى، والأرامل، والمحتاجين، والمرضى، والعبيد، والضيوف والمسلمين فيما بينهم، والأخوة الإسلامية، والحيوان[4]. ومفهوم الحق وارد في الكتاب والسنة[5]. وهي في الغالب حقوق الآخرين.

آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة»، «عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة»، «إن الله يدخل العبد الجنة بالسنة تمسكا بها»، «التمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد»، «من أحيا سنتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة»، «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا»، السابق ص ٥٥٠-٥٥٤.

(١) السابق جـ٢/ ٥٥٤-٥٥٩.

(٢) «من رغب عن سنتي فليس مني»، «من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد» «هلك المتنطعون»، السابق ص٥٥٩-٢٦٢.

(٣) معين الشمائل ص٤٧٧-٥٠٤.

(٤) سيرة النبي جـ٦/ ١١١-١٨٤.

(٥) «إن لزوجك عليك حقا ولزواجك عليك حقا»، «إن حق الزوجة على زوجها أن يطعمها وأن يكسوها وألا يضربها على وجهها»، «إن لجسدك عليك حقا، ولعينك عليك حقا»، جـ٦/ ١١٢، «لقد حرم الله عليكم معصية الأمهات ووأد البنات» جـ٦/ ١٢٩، «أتزوج النساء، فمن رغب عن أمتي فليس مني»، جـ٦/ ١٣٥، «لا يضرب أحد منكم زوجته كالجارية... بالسوط نهارا ويعاشرها ليلا» جـ٦/ ١٤١، «من وصلها فقد وصلني، ومن قطعها قطعته» جـ٦/ ١٤٣، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره»، «خيركم عند الله خيركم لأهله ولجاره» جـ٦/ ١٤٦، «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» جـ٦/ ١٥٠، «إن أفضل بيوت المسلمين هو البيت الذي يعول يتيما، وأسوأ بيوت المسلمين هو البيت الذي يساء فيه اليتيم»، جـ٦/ ١٥٣، «الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله... كالمجاهد في سبيل الله جـ٦/ ١٥٦، «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربه»، «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»، جـ٦/ ١٥٨، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل قرابته»، جـ٦/ ١٦٦ «انصر أخاك

ولها ترتيبها وأولوياتها. وفي حق الوالدين حق الأم يأتي أولا ثلاث مرات قبل حق الأب. والخالة بديل الأم. والجنة تحت أقدام الأمهات. ويدخل الابن الجنة بخدمتها. ومن حق الأولاد والرضاعة والحضانة والتعليم والتربية. وليس من المعقول أن يضرب الزوج زوجته نهارا ويعاشرها ليلا، وحق القرابة صلة الرحم. ومن حقوق الجار أمنه، وأفضل البيوت من يرعى حق اليتيم. والساعي على الأرملة كالساعي في سبيل الله. وحق المريض عدم تكليفه بما لا يطاق. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وحق المحتاج تفريج كربه، وحق العبد تحريره. وحق الضيف إكرامه. ومن حق المسلم نصرته، ومن حق الجماعة وحدتها. وقتل الحيوان بغير ضرورة ذنب عظيم. فغاية الذبح الطعام. وذبحه بطريقة حسنة دون تعذيب بعد حد الشفرة وإراحة الذبيحة. وقد عذبت امرأة في هرة ربطتها ولم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض. بل يصل الأمر إلى حد عدم إيذاء النمل. ومن أسقى كلبا عطشا من بئر بخفه يغفر الله له ذنبه.

٣- الصلاة على النبي

وتعني الصلاة لغة الدعاء والتبرك، كما تعني العبادة[1]. والدعاء نوعان دعاء عبادة، ودعاء مسألة. وتستعمل بمعانٍ كثيرة أخرى مثل الاستغفار، والبركة، والقراءة، والرحمة، والمغفرة، والثناء[2]. وحكمها أنها من المستحبات أو من الواجبات المتكررة أو المغفرة مرة واحدة في العمر أو فقط في القعود آخر الصلاة دون تحديد المحل أو

ظالم أو مظلوما... بأن تكف يده عن الظلم» جـ٦/ ١٩٦، «المسلمون مع بعضهم مثل الرجل الواحد إن تألمت عينه تألم لها سائر بدنه، وإن تألم رأسه تألم له سائر بدنه»، «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»، «المسلم أخو المسلم. لا يظلمه ولا يسلمه»، «المسلم من يسلم المسلمون من لسانه ويده»، «لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا يغتب بعضكم بعضا. ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام»، «أكبر الرياء هو التصدي على حال المسلم»، جـ٦/ ١٧٠-١٧٣، «من كفر مسلما باء بأحدهما» جـ٦/ ١٧٤، «للمسلم على أخيه المسلم خمسة حقوق: أن يرد عليه السلام، وأن يشمته إذا عطس، وأن يقبل دعوته، وأن يعوده إذا مرض، وأن يمشي في جنازته إذا مات»، «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «المسلم مرآة المسلم والمسلم أخ المسلم يدفع عنه الضرر، ويحفظه من خلفه»، «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»، «إن قتل حيوان بغير ضرورة يُعد ذنبا عظيما»، «أن تذبحه وتأكل لا أن تقطع رأسه وتلقى به وترميه»، جـ٦/ ١٧٤-١٧٦.

(١) القول البديع ص٤٥-٩٨.

(٢) السابق ص٤٥-٥٨.

المتكرر على الإطلاق أو كلما ذكر اسم الرسول أو في كل مجلس مرة أو في كل دعاء[1]. والمقصود منها التقرب إلى الله[2]. ولها عدة فوائد[3]. والبركة هي النمو والزيادة من الخير والكرامة[4]. ولا صلاة عليه خاصة به وليس لأحد غيره الصلاة عليه، ويخص من شاء بها شاء من الأحكام[5].

والنبي حبيب لله، كما أن إبراهيم خليل الله، وموسى نجي الله. ويؤثر الله حبيبه على خليله ونجيه وهو ما يتعارض مع المساواة بين الأنبياء. وتشهد الصلاة أن آدم صفوة الله وفطرته، وإبراهيم خليله، وأن موسى كليمه، وعيسى روحه، ومحمد حبيبه[6]. وتمتد الصلاة من النبي إلى كل نبي وأبي بكر وكل ولي وجبريل وكل ملك[7]. وتكون الرواية في المنام حيث تختلط المستويات بين الملائكة والأنبياء والصحابة.

والصلاة على النبي وسائر الأنبياء فيها خلاف[8]. ومع ذلك المروى هو الصلاة على النبي والخلاف في كل الأنبياء أم الرسول وحده، الأنبياء وحدهم أم غيرهم من البشر. وزيارة قبر النبي والسلام عليه، والدعاء له فيها أيضا خلاف. فمن زار قبره وجبت له شفاعته. ومن زاره بعد موته فكأنما زاره في حياته. وفي نفس الوقت، لعن الله زوارات القبور، فقبر الرسول ليس وثنا يُعبد بعده[9]. ويلزم الأدب في مسجد النبي، ويفضل

(١) السابق ص٥٨-٨٣.
(٢) السابق ص٨٣-٨٤.
(٣) السابق ص٨٥-٩٨.
(٤) السابق ص٢١١.
(٥) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٥٧-٥٦٢، المواهب اللدنية حـ٣/ ٣١٩-٣٥٧، معين الشمائل ص٤٩٨-٥٠٤.
(٦) «اتخذ الله إبراهيم خليلا، وموسى نجيا، واتخذني حبيبا. ثم قال: وعزتي وجلالي لأوثرن حبيبي على خليلي ونجيي»، القول البديع ص٣٩٩/ ٤٠٣.
(٧) «إذا كنت عندي فقل: الله صل على محمد وكل نبي، وصل على أبي بكر وكل ولي، وصل على جبريل وكل ملك»، السابق ص٤٢٤.
(٨) الشفا حـ٢/ ٦٥٩-٦٦٥، «صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني»، مشروعية الصلاة عليهم تبعا للمصطفى في الصلاة، وغيرهما مما يزيدهم فخرا وشرفا، أقرباء الرسول حـ٢/ ٤٤٣-٤٥٤.
(٩) «من زار قبري وجبت له شفاعتي»، «من زارني في المدينة محتسبا كان في جواري وكنت له شفيعا يوم القيامة»، «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي»، «لعن الله زوارات القبور»، «نهيتم عن زيارة القبور فزوروها»، «من زار قبري فقد أطلق اسم الزيارة»، «اللهم لا تجعل قبري وثنا يُعبد بعدي، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «لا تجعلوا قبري عيدا»، السابق ص٦٦٦-٦٧٨.

الصلاة فيه وفي مسجد مكة[1]. والبيت مكان يثير الذكريات وليس مقدسا في ذاته، والحجر الأسود بصرف النظر عن مصدره، من السماء أو من الأرض، مجرد حجر لا يضر ولا ينفع، من بقايا عبادة الأصنام في الثقافة الشعبية. والصلاة علاقة ذاتية بين الإنسان والله في لحظة إيمان وليست حركة في مكان. والدعاء صدق اللحظة وليس المكان.

والصلاة على النبي والسلام عليه جزء من عملية التعظيم والتفخيم التي ذمها الرسول حتى لا يخرج عن حدود البشر كما حدث في كتب الشمائل وعند الصوفية في الحقيقة المحمدية. وقد اعترض البعض على كتاب «حياة محمد» لأنه خلا من الصلاة عليه. وهو ما حدث أثناء الدولة العباسية. لذلك خلا البخاري منها. يكفي أن يذكرها الإنسان مرة واحدة في حياته. وتعني «وصلوا عليه» أثناء الصلاة وليس خارجها. والصلاة تعني الدعاء[2]. وبالرغم من أن الصلاة لله وسلامه على الرسول واجبة بالنص إلا أن العقل يتساءل كيف يصلي الله ويسلم على الرسول؟ من الذي يصلي ويسلم على نبي؟ هذه التحية الضرورية الواجبة وكتابتها بشكل جمالي وبخط خاص، وربما بلون خاص هي أحد مظاهر التقديس الزائد، وقد تعمل لا شعوريا في تصور المسلم للعالم فيما يتعلق بعلاقة الرسالة بالرسول.

وقد تبلغ الصلاة على النبي درجة الأمر والضرورة[3]. ويتهم من يرفض الصلاة

---

(١) «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»، «صلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة»، «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، «منبري على حوضي»، «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها»، «مرحبا بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك»، «ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلا استجاب الله له، وكذلك عند الميزاب»، «من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وحُشر يوم القيامة من الآمنين»، «ما دعا أحد شيء في هذا الملتزم إلا استجيب له»، السابق حـ٢/ ٦٧٨-٦٨٩.

(٢) حياة محمد ص٥٠-٥١.

(٣) «رغم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يُصل علي»، «البخيل من ذُكرت عنده فلم يصل علي»، «عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله وصل علي ثم ادعه»، مسك الختام في أشعار الصلاة والسلام ص٢٩-٣٢، شفاء السقام في نوادر الصلاة والسلام ص٣٥-٤٦، الخير الكثير في الصلاة والتسليم على البشير النذير ص٤٩-٦٠.

عليه بالبخل. وبعد الصلاة يتلو الدعاء. ويضاعف أجر المصلي لأن الصلاة عليه فضيلة، بل هي واجبة. ويكثر منها. وتبلغ إلى الرسول. ويضاف إليها طلب الوسيلة. كما يضاف السلام عليه. ومرة يكون الحديث عن الرسول مباشرة ومرة يكون بتدخل الملاك. ويتطور الحديث من نواته الأولى[1]. والصلاة على النبي هي التي ترفع الدعاء من الأرض إلى السماء[2]. وفي المجلس تدخل الجنة[3]. والإكثار من الصلاة استغفار وقربة إلى الرسول[4].

وهو أمر على اختلاف أنواعه، أمر بتحسين الصلاة، والترغيب في حضور المجالس التي يصلي عليها فيه، والكثرة منها علامة أهل السنة، ويصلي على غيره من الرسل والأنبياء. ثم يدخل الخيال الشعبي في صلاة الملائكة عليه، وإمهارها آدم لحواء، وبكاء الصغير عليه[5]. وهي الصلاة الموجودة في التشهد عقب كل صلاة مع الصلاة على إبـراهيم. وقد تضم الصلاة على أزواجه. حينئذ يسد الملائكة الأفق. ولا تكون

(١) «من صلى علي مرة واحدة صلى الله عليه عشرا»، «أتاني الملك فقال: يا محمد إن ربك يقرؤك السلام. أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرا، ولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشرا»، «ما صلى علي عبد من أمتي صلاة صادقا بها من قبل نفسه إلا صلى الله عليه عشر صلوات، وكتب له بها عشر حسنات، ورفعها بها عشر درجات، ومحا عنه عشر سيئات»، «من صلى علي صلاة. مخلصا من قلبه صلى الله عليه»، ص٥١، «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول....»، «من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة مادام يصلي»، ص٥٢.

(٢) «ما من دعاء إلا بينه وبين السماء حجاب حتى يصلي على النبي. فإذا صلى على محمد انخرق الحجاب واستجيب الدعاء. وإذا لم يصل على النبي لم يستجب الله الدعاء»، ص٥٣.

(٣) «ما جلس قوم مجلسًا لا يصلون علي فيه إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب»، «ما من مسلمين يتلاقيان فيصافح أحدهما صاحبه ويصليان على النبي إلا لم يبرحا حتى تغفر ذنوبهما، ما تقدم منها وما تأخر»، ص٥٣-٥٤.

(٤) «أكثروا من الصلاة على نبيكم في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة»، «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فمن كان أكثركم علي صلاة كان أقربكم مني منزلة»، «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»، ص٥٥.

(٥) القول البديع ص٩٩-٢٣٤، «صلوا علي فإن صلاتكم علي زكاة لكم»، ص١٠٠، «اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد»، ص١٠١، «اللهم صلي على محمد وأنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، ص١١٥، «لا تصلوا علي الصلاة البتراء»، ص١٢٢، «لا تضربوا أطفالكم على بكائهم سنة فإن أربعة أشهر منها يشهد أن لا إله إلا الله، وأربعة أشهر يصلي علي، وأربعة أشهر يدعو لوالديه»، ص١٣٣، «إذا صليتم علي فسلموا على المرسلين»، ص١٣٣، «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»، ص١٥٩.

الصلاة عليه بتراء بل تستزاد حتى تتحول إلى دعوات وابتهالات كما هو حادث الآن. وأحيانا يتدخل جبريل لتعليم المسلمين كيفية الصلاة على الرسول ومدى الثواب عليها. ويتدخل الخيال الشعبي لمنع ضرب الطفل في السنة الأولى لأنه يقرأ التشهد في الأربعة الأولى، ويصلي على الرسول في الأربعة الثانية. والأربع الثالثة يدعو لوالديه. والصلاة على الأنبياء والمرسلين جميعا وليست خاصة لمحمد. وتكون الصلاة أيضا على الصحابة وعلى من يطلب. يشارك فيها الملائكة على أرواح المؤمنين، والسلام على الأحياء والأموات.

وإذا طنت الأذن فهو تذكير بالصلاة[1]. وحين العطس التحميد لله والصلاة على النبي يخرج من المنخر الأيسر طائرا يطلب المغفرة لقائلها. ولا ينهق الحمار إلا إذا تمثل له شيطان مما يتطلب الصلاة على النبي. وهي وصية لعلي، كثرة الصلاة على النبي بالسحر والاستغفار لأصحابه بالمغرب، فالشروق والغروب شاهدان لله على خلقه[2]. ولم الاستعجال في الصلاة وإنهاؤها دون الصلاة على النبي؟ الصلاة كفارة وزكاة، تغفر الذنوب. وهي زينة المجالس. تربط بين الإخوة[3].

والصلاة على النبي في أوقات مخصوصة، حين الغسل والطهارة بوجه عام والصلاة، وفي مناسك الحج، وفي شتى المعاملات، وفي المرض وأحوال الكرب، وفي التعلم والذكر والقضاء[4]. ويوم الجمعة له ميزة خاصة. فالصلاة يوم الجمعة مائتا مرة تغفر

---

(١) «إذا طنت أذن أحدكم فليصل علي وليقل: ذكر الله بخير من ذكرني»، القول البديع ص٤٤٣، «من عطس فقال: الحمد لله على كل حال ما كان من حال، وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته أخرج الله من منخره الأيسر طائرا يقول: اللهم اغفر لقائلها»، ص٤٤٥، «لا ينهق الحمار حتى يرى شيطانا أو يتمثل له شيطان. فإذا كان ذلك فاذكروا الله وصلوا علي» ص٤٤٩.

(٢) «يا علي، احفظ عني خصلتين، أتاني بهما جبريل: أكثر الصلاة علي بالسحر، والاستغفار بالمغرب، والصلاة علي والاستغفار لأصحاب رسول الله، فإن السحر والمغرب شاهدان من شهود الرب على خلقه»، القول البديع ص٣٦٤-٣٦٥.

(٣) «إن المسافر إذا فرغ من حاجته صب في قدحه ماء. فإن كان له إليه حاجة توضأ منه أو شربه وإلا إحراقه، اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره»، القول البديع ص٤٣٨/ ٤٥٠/ ٤٧٢، «كل كلام لا يذكر الله فيه فيبدأ به وبالصلاة علي فهو أقطع ممحوق من كل بركة»، ص٤٧٧.

(٤) القول البديع ص٣٥٦-٤٩٥.

أ- الوضوء والصلاة: الفراغ من الوضوء، والتيمم والغسل من الجنابة، والحيض، والصلاة وعقبها

ذنوب مائتي عام[1]. ويبدأ العد بالمائة ثم بالثمانين، وبالأربعين ثم بالعشرين، وبالعشر للحصول على الشفاعة والمغفرة. وتنتهي بالألف. وقد يحدث ذلك يوم الخميس. وقد يزيد الخيال المصحف من فضة لتدون فيها الملائكة عدد الصلوات على النبي من أكثر صلاة على النبي وكأن ذلك لا يعرف إلا بالتدوين. لذلك قد تكون الصلاة في كتاب، وقد ينشط الخيال أكثر. فالملائكة من نور بأيديهم أقلام من ذهب ودوي من فضة وقراطيس من نور. وقد يكون الوقت الليلة الغراء واليوم الأزهر، والصلاة أيضا يومي السبت والأحد لأن اليهود والنصارى يسبون الله هذين اليومين[2]. وقد تكون الصلاة صباحا ومساء ويغفر ما بينهما[3].

وإقامتها وتأكيدها بعد الصبح والمغرب، والتشهد والقنوت، والقيام والتهجد وبعده، والمرور بالمساجد ورؤيتها، ودخولها والخروج منها، وبعد إجابة المؤذن، ويوم الجمعة وليلتها، والسبت والأحد، وليلة الإثنين والثلاثاء، وخطبة الجمعة والعيدين والاستسقاء والكسوفين، وأثناء تكبيرات العيد والجنازة، وعند إدخال الميت القبر.

ب- في رجب وشعبان ورؤية الكعبة، وفوق الصفا والمروة، وعند الفراغ من التلبية واستلام الحجر، وعشية عرفة، والملتزم، ومسجد الخيف، وزيارة قبره، وعند رؤية المدينة، ورؤية آثاره الشريفة، ومواطنه ومواقعه مثل بدر، ووداعه.

ح- عند الذبيحة، والبيع، وكتابة الوصية، والخطبة للتزويج، وفي طرفي النهار، وعند إرادة النوم، ولمن قل نومه، والسفر، وركوب الدابة، وعند الخروج إلى السوق أو الدعوة، ودخول المنزل وافتتاح الرسائل وبعد البسملة.

د- وعند الهم والكرب والشدائد، والفقر، والغرق، والطاعون، وأول الدعاء وأواسطه وآخره، وطنين الأذن، وخدر الرجل، والعطاس، والنسيان، واستحسان الشيء، وأكل الفجل، ونهيق الحمار، والتوبة من الذنب، وما يُعرض من الحوائج.

هـ- كل الأحوال، الاتهام عند البراءة، لقاء الإخوان، تفرق القوم واجتماعهم، ختم القرآن وحفظه، القيام من المجلس، اجتماع لذكر الله، افتتاح كل كلام، نشر العلم، الوعظ وقراءة الحديث، الإفتاء، القضاء،...الخ ص٣٥٦-٣٥٧

(١) «من صلى علي يوم الجمعة مائتي صلاة غفر له ذنب مائتي عام»، السابق ص٣٩٥، «إذا كان يوم الخميس بعث الله ملائكة معهم صحف من فضة، وأقلام من ذهب يكتبون يوم الخميس وليلة الجمعة أكثر الناس صلاة على النبي»، السابق ص٣٩٨.

(٢) «أكثروا من الصلاة علي في يوم السبت فإن اليهود تكثر من سبي فيه. وعليكم بمخالفة الروم في يوم الأحد... في يوم يدخلون كنائسهم ويعبدون صلبانهم ويسبوني....»، السابق ص٤٠٢-٤٠٣، «من صلى علي في كتاب»، السابق ص٤٣٣/ ٣٨٤-٣٨٥.

(٣) «من صلى علي مساء غفر له قبل أن يصبح، ومن صلى علي صباحا غُفر له قبل أن يمسي»، السابق ص٤٣١.

والصلاة على النبي بعد الطهور تفتح أبواب الجنة. فالوضوء والصلاة على النبي قرينان مثل الصلاة والمسجد لجاره[1]. والصلاة على النبي حين الأذان تجلب رضا الله وشفاعة النبي[2]. وهي حين دخول المسجد والخروج منه تغفر الذنوب وتفتح أبواب الفضل والعصمة من الشيطان[3]. والصلاة عليه هي المتلوة في التشهيد في آخر الصلاة[4]. وتُقرن الصلاة عليه بإبراهيم تأكيدا للحنفية، وإن الإسلام استمرار لها[5]. فإبراهيم أول الأنبياء وأفضلهم، أب للمؤمنين، يتبعه المسلمون في مناسك الحج، وهو الذي بنى البيت.

والصلاة على النبي مائة مرة قبل الحديث في أي شيء تقضي الحاجات حتى ولو كانت بالمئات، ثلاثون في الحال وسبعون في المآل، كل حاجة بصلاة. ويتكرر ذلك في المغرب أيضا[6]. فالصلاة حامل لسؤال، والاستجابة لها بالعطاء. والصلاة على النبي في الأسفار للحفظ من المخاطر وطلب الأمان[7]. لا فرق بين دابة وعربة وطائرة. والدابة

---

(١) إذا فرغ أحدكم من طهور فليقل: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، ثم ليصل علي، فإذا قال ذلك فتحت له أبواب الجنة»، السابق ص٣٥٧.

(٢) «من قال حين ينادي المنادي: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صلي على محمد وأرض عنه رضاء لا سخط بعده، استجاب الله دعوته»، السابق ص٣٨٥. «من قال حين يسمع المؤذن: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، صل على محمد عبدك ورسولك، وأعطه الوسيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي»، ص٣٨٥.

(٣) «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج من المسجد فليسلم على النبي ثم ليقل: «اللهم افتح لي أبواب فضلك»، السابق ص٣٨٠.

(٤) «قولوا: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، أقرباء الرسول حـ٢/ ٤٤٣، «اللهم قد جعلت صلواتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك على إبراهيم وآل إبراهيم. اللهم إنهم مني وأنا منهم فاجعل صلاتك ورحمتك ورضوانك عليّ وعليهم»، حـ٢/ ٤٤٨، «من صلى صلاة لم يصل فيها عليّ وعلى أهل بيتي لم تقبل منه»، حـ٢/ ٤٤٩.

(٥) القول البديع ص٢٠١-٢١٠/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٦) «من صلى علي مائة صلاة حين يصلي الصبح قبل أن يتكلم قضى الله له مائة حاجة، يُعجل له منها ثلاثين، ويدخر له سبعين، وفي المغرب مثل ذلك»، السابق ص٣٦٤، «سل تعطه... سل تعطه»، ص٣٦٦، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٥٣.

(٧) «من قال إذا ركب دابة باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء، سبحانه ليس له سمي، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعليه السلام،

ترد الدعاء بدعاء كما يرد المضيف في الطائرة والمسافر في الغربة. تحل العقد[1]. وتكفي الهم، وتنجي من الأهوال في الدنيا والآخرة. وعند التشهد تجلب الحاجات. إبصار الأعمى ورد البصر إليه[2]. وهي ستر من الفضائح، وصبر على البلوى، وطلب دوام العافية.

ويحذر من ترك الصلاة على النبي. ويكون ذلك بالدعاء بالإبعاد والإخبار بحصول الشقاء، ونسيان طريق الجنة، ودخول النار، والوصف بالجفاء، وبأنه أبخل الناس، والتنفير منه، واتهامه بأنه لا دين له، وأنه لن يرى وجه الرسول[3]. وقد يدخل جبريل في صياغة الحديث تأيدًا على قول الرسول. وعدم الصلاة على الرسول نوع من البخل، ومثل عقوق الوالدين، وترك سنته والدعاء الأكبر في عرفات. وتتحول السيرة إلى مجموعة من الأدعية في كل خطوة للاستجابة إلى حاجات الداعين. وقد استمر ذلك إلى الآن لدرجة الإحساس بأنه مجرد الدعاء يكفي لتحقيق المطالب دون فعل[4]. فالدعاء وراء كل صلاة مكتوبة، تجلب الشفاعة يوم القيامة، دعاء لإعطاء محمد الوسيلة، وجعله من المصطفين والمقربين وأصحاب الدرجات. والرسول لا يحتاج إلى ذلك لأن الله قادر على أن يحققه. والوسيلة منزلة في الجنة. وتتحول الصلاة على النبي إلى كهنوت. ويظهر

قالت الدابة: بارك الله عليك من مؤمن خففت من ظهري، وأطعت ربك، وأحسنت إلى نفسك، بارك الله لك في سفرك، وأنجح حاجتك»، القول البديع ص٤٣٢.

(١) «من عسر عليه شيء فليكثر من الصلاة علي فإنها تحل العقد وتكشف الكرب»، السابق ص٤٣٤، «إذا تكفي همك»، «إن أنجاكم من أهوالها ومواطنها يوم القيامة أكثركم علي صلاة في الدنيا»، ص٤٣٦.

(٢) السابق ص٤٥١-٤٥٦/ ٤٥٩، دعاء قضاء الحوائج وزوال الشدائد، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٤١٦، «من صلى علي صلاة واحدة قضيت له مائة حاجة»، حـ٢/ ٥٥٣.

(٣) القول البديع ص٣٠٢-٣٢٢، «جاءني جبريل فقال: إنه من ذُكرت عنده فلم يصل عليك دخل النار...»، ص٣٠٦، «من نسى الصلاة علي خطئ طريق الجنة»، «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي»، ص٣١٢، «لا يرى وجهي ثلاثة أنفس: العاق لوالديه، وتارك سنتي ومن لم يصل علي إذا ذكرت بين يديه»، ص٣١٨.

(٤) وذلك تحت بعض الأحاديث مثل «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم»، «من دعا بهؤلاء الدعوات في دبر كل صلاة مكتوبة حلت له الشفاعة مني يوم القيامة: اللهم أعط محمدا الوسيلة، واجعل في المصطفين محبته، وفي العالمين درجته، وفي المقربين داره»، السابق، ص٣٦٣/ ٦٨٣/ ٤٧٥/ ٤٨١/ ٤٨٨-٤٩٠، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٥٣/ ٥٥٦.

الرسول في المنام. كما يظهر الخضر راويا أقوال الرسول. والدعاء مشروط بالصلاة عليه وإلا رجع. ويتوسل به حتى ولو كان الحديث غريبا[1].

والصلاة على النبي لها ثواب كبير، في الآخرة وفي الدنيا[2]. ويتدخل جبريل أيضا في الحديث. كما يتدخل الملائكة في الصلاة مضاعفة. ويتم تفصيل الملائكة وأجنحتها، ملاك جناحه في المشرق وآخر في المغرب ورجلاه في الأرض وعنقه ملتو تحت العرش[3]. ويتدخل الخيال ليفصل في جناح الملاك، رأسه تحت العرش، له ثمانون ألف جناح، في كل جناح ثمانون ألف ريشة، وتحت كل ريشه، ثمانون ألف زغبة، وتحت كل زغبة لسان يسبح الله ويحمده ويستغفره. ومن أول رأسه إلى بطون قدميه أفواه وألسن وريش وزغب

---

(١) «قل اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة»، خصائص الرسول ص٢٩٧-٢٩٨، «وسلوا إلي الوسيلة فإن الوسيلة منزلة في الجنة ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل الله الوسيلة حلت عليه الشفاعة»، «من صلى علي أو سأل الله لي الوسيلة حقت عليه شفاعتي يوم القيامة»، الخير الكثير ص٥٦، «ما من مسلم يقول حين يسمع النداء بالصلاة فيكبر ويشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمدا رسول الله ثم يقول: اللهم أعط محمدا الوسيلة والفضيلة، واجعله في العليين درجته وفي المصطفين محبته، وفي المقربين ذكره وجبت له الشفاعة يوم القيامة»، «سلوا لي الوسيلة فإنه لا يسألها لي مسلم أو مؤمن إلا كتب الله له شهيدا أو شفيعا»، «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي»، «إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة. فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه»، «صلوا علي فإن الصلاة علي زكاة لكم، وسلوا الله لي الوسيلة»، ص٥٦-٥٧.

(٢) حوالي اثنين وخمسين ثوابا في الآخرة منها: تكفير الخطايا، تزكية الأعمال، رفع الدرجات مغفرة الذنوب، استغفار قائلها، الكيل الأوفى، كفاية أمر الدنيا والآخرة، محق الخطايا، عتق الرقاب، النجاة من الأهوال، شهادة الرسول بها، وجوب الشفاعة، رضا الله ورحمته، الأمان من سخطه، الدخول تحت ظل العرش، رجاحة الميزان، ورود الحوض، الأمن من العطش، العتق من النار، الجواز على الصراط، رؤية المقصد المقرب من الجنة قبل الموت، كثرة الأزواج في الجنة، ثوابها في الصحيفة، تقرب إلى الله، نور، عدم سؤاله يوم القيامة، وفي الدنيا: رجاحتها على أكثر من عشرين غزوة، قيامها مقام الصدقة للمعسر، زكاة وطهارة، نمو المال ببركتها، قضاء الحوائج، تزين المجالس، نفي الفقر وضيق العيش، التماس نطاق الخير بها، فاعلها أولى الناس بها، منفعة له ولولده، النصر على الأعداء، والدينية مثل: عبادة، أحب الأعمال إلى الله، إكرام النبي لصاحبها، مصافحة النبي، تطهير القلب من النفاق والصدأ، وجوب محبة الناس، رؤية النبي في المنع، تمنع من الاغتياب، أبرك الأعمال. القول البديع ص٢٣٥-٣٠١.

(٣) «من صلى علي صلاة تعظيما لحقي جعل الله من تلك الكلمة ملكا جناح له في المشرق، وجناح له في المغرب، ورجلاه في تخوم الأرض، وعنقه ملتو تحت العرش. فيقول الله عز وجل له، صلي على عبدي كما صلى على نبيي. فهو يصلى عليه إلى يوم القيامة»، حـ٢/ ٢٥٥، حـ٢/ ٥٥٤.

ليس فيه موضع شبر إلا وفيه لسان يسبح الله ويحمده، ويستغفره لمن صلى على الرسول من أمته. وقد تصبح الصلاة على الرسول مزايدة من أجل الحصول على مزيد من الأجر. تغفر الذنوب. وتكفي هم الدنيا والآخرة، توجب الشفاعة، وترضي الله عنه، وتأمن من سخطه. من صلى على النبي نال الجزاء. يكون أولى بالرسول يوم القيامة، ويجيب الله له الدعاء، وينال أرفع الدرجات في الجنة، وينال الشفاعة، وكلما زادت الصلاة زاد الأجر. بل إن الصلاة تظل محجوزة حتى تكتمل بالدعاء[1]. وقد يكون المقصود من ذلك كله الأرض وليس السماء، فمن صلى عليه يكون كمن أعتق رقبة وحرر عبدا. فالأولى تحرير العبيد من كل مظاهر العبودية حتى تكتمل الصلاة. والبخيل من ذكر عنده الرسول ولم يصل عليه[2]. وقد يكون الجزاء المغفرة أو الكفارة أو زيادة الحسنات.

ثم تتحول طاعته ومحبته وتوقيره إلى الصلاة والسلام عليه إلى درجة التأليه، كم حدث في باقي الأنبياء، بوذا كان إنسانا ثم أصبح إلها، ولاوتزي كان معلما شيخ قرية ثم أصبح إلها. والرابطة بين المرحلتين التقديس[3]. فإذا كان الله وملائكته يصلون على النبي فكيف لا تصلي عليه الناس؟ والصلاة لا تكون إلا لله فكيف تكون واجبة للنبي؟[4]. وتكون في الدعاء بين الصلاتين، وكل دعاء يظل واقفا في السماء لا يصعد إلا بها. وهي

---

(١) «إذا سمعتم المؤذن فقولوا ما يقول ثم صلوا عليّ. إنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»، بهجة المحافل ص٦٢٨، «أيها المصلي ادع تجب»، «الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد»، «ما شئت وإن زدت فهو خير لك»، «من صلى على محمد وقال اللهم أنزله المقصد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، «من سلم علي عشرا فكأنما أعتق رقبة»، «صلاتكم علي محجوزة لدعائكم، ومرضاة لكم، وزكاة لأبدانكم»، «من صلى على محمد وقال: اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، «ليردن عليّ أقوام ما أعرفهم إلا بكثرة صلاتهم عليّ»، «أنجاكم يوم القيامة من مواطنها أكثركم علي صلاة»، بهجة المحافل ص٦٢٩-٦٣١، الخير الكثير ص٥٦.

(٢) «البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي»، السابق ص٦٠، «أولى الناس مني أكثرهم علي صلاة»، أقرباء الرسول حـ١/ ٢٢٠.

(٣) الشفا حـ٢/ ٦٢٥-٦٨٢.

(٤) «الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد»، «كل دعاء محجوب دون السماء فإذا جاءت الصلاة علي صعد الدعاء»، «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي»، «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب»، السابق ص٦٢٥-٦٣٢، «من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى علي»، بهجة المحافل ص٦٢٨.

بالغصب رغم الأنف. وتستغفر الملائكة للمصلي، وتكون الصلاة عليه وعلى أزواجه وذريته أسوة بالصلاة على إبراهيم وآله فيما مضى. وهو ما قد يتنافى مع رسالة الرسول، وما قد يقع في التصور العائلي للنبوة، تصور بني إسرائيل. وتحمي الملائكة المصلين على النبي[1]. وكان بعض الصوفية مثل الحسن البصري من رواة هذه الأحاديث[2].

وتبلغ الصلاة النبي مباشرة أو عن طريق الملائكة وكأن الرسول غير قادر على سماعها مباشرة. والله قادر على كل شيء. وكتابتها في صحيفة بيضاء دليل على الشفافية. ومع ذلك لا تجوز الصلاة على القبور أو اتخاذها مساجد. فإنها تصل الرسول أينما كانت. وأفضل وقت يوم الجمعة[3]. ويبلغ النبي من يسلم عليه ويرد السلام. فلله ملائكة سياحون يبلغون الرسول السلام. يسمع الصلاة على قبره، ويُخبر بها إن كانت بعيدة، ولا تجعل البيوت قبورا، ولا قبر الرسول عيدا، وقد لعن الله اليهود لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وكل سلام إلى الرسول يرد الله إليه روحه حتى يرده. ويكون له يوم القيامة شفيعا[4]. والإكثار من الصلاة يوم الجمعة لقضاء الحوائج في الآخرة

---

(١) السابق ص٦٤٦.

(٢) «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإنكم إذ قلتوها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض»، «قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كم باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، «اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد»، «اللهم صلي على محمد عبدك ورسولك»، «اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد»، السابق ص٦٤٠-٦٤١، «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقى اسمه في هذا الكتاب»، السابق ص٦٣١.

(٣) «إن الله أعطاني ملكا من الملائكة يقوم على قبري إذ أنا مت، فلا يصلي علي أحد إلا قال فلان بن فلان باسمه واسم أبيه يصلي عليك فيصلي الله عليك مكانها عشرا»، «من صلى علي صلى الله عليه، وكان ملك موكل بها حتى يبلغنيها»، «إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا. ثم يوكل لله بذلك ملكا يدخل في قبري كما تدخل عليكم الهدايا. يخبرني بمن صلى علي باسمه ونسبه وعشيرته فأثبته عندي في صحيفة بيضاء»، «صلوا في بيوتكم، ولا تتخذوا قبورا ولا تتخذوا بيتي عيدا، صلوا علي وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم تبلغني أينما كنتم»، ص٥٨-٥٩، «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»، الخصائص جـ٢/ ٥٥٥.

(٤) القول البديع ص٣٢٣-٣٥٥، «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام»، ص٣٢٣، «من صلى عليّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليّ من بعيد أعلمته»، ص٣٢٥، «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا»، ص٣٢٥، «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ص٣٢٧» ما من أحد يسلم عليّ إلا

وحمة بالأكثر، وفي الدنيا وهي الأقل. فيوم الجمعة يوم خلق آدم، ووفاته وفيه النفخة والصعقة. وقد حرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء في حين تأكل أجساد بني آدم إلا عجب الذنب[1]. والأنبياء أحياء في قبورهم يصلون حتى ينفخ في الصور، وأكرم لله ألا يترك الرسول في قبره أكثر من ثلاثة أيام مثل رفع المسيح في اليوم الثالث طبقا للعقائد المسيحية.

والصلاة على النبي طلب منه. من صلى عليه صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا، وقد تصل إلى سبعين، وكيف يصلي الخالق على المخلوق؟ وهل إلى هذا الحد تنقلب النسبة؟ وهل أولى الناس به يوم القيامة أكثرهم عليه صلاة أم أكثرهم له اتباعا وتحقيقا لرسالته؟[2] وما أسهل أن تتحول الصلاة عليه إلى أن تصبح زيارة قبره عيدا على عكس ما أوصى به. وينشط الخيال حتى يرد الرسول السلام على من يسلم عليه بأن يحيه الله ويعيد إليه روحه وكأنه لا يقدر، بإذن الله، أن يرد عليه دون بعث. وقد يدخل الملاك في الرواية لإخباره بعدد الصلوات المقابلة من الله على صلاة الإنسان. وقد تعمم الملائكة وقد تخصص بجبريل. وقد يُضاف رفع الدرجات مع عدد الصلوات. وقد تضاف الحسنات إليهم معا. ويدخل الصوفية لينضم كم الأدعية والصلوات والابتهالات له[3].

والصلاة والتسليم على النبي والدعاء له فضيلة[4]. ولمن يفعل له منزلة في الجنة

رد الله إلي روحي حتى أرد عليه السلام»، ص٣٢٨-٣٢٩، «من فضل أيامكم يوم الجمعة. فيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة»، ص٣٣١، «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»، ص٣٥٠، «أنا أكرم على ربي من أن يتركني في قبري بعد ثلاث»، ص٣٥٠.

(١) من العقيدة إلى الثورة حـ٤، النبوة والمعاد، ص٤٠٨-٤٢٢.

(٢) «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي. فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه عشرا»، الأنوار حـ١/ ٦٥، الشفا حـ١/ ٣٠٤، فضل الصلاة عليه وحكمها ومواطنها، بهجة المحافل ص٦٢٧-٦٣٥، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٥٠-٥٦١.

(٣) الشفا حـ٢/ ٦٤٦، «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»، «لا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، «إن جبريل أتاني فقال من صلى عليك صلاة صلى الله عليك عشرا ورفعه عشر درجات»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٥١.

(٤) «سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل

وتكون له الشفاعة[1]. وكيف تكون الصلاة على التعادل، صلاة الإنسان على الرسول وصلاة الله على الإنسان، وهو ما يتنافى مع التنزيه؟ وكيف يصلي الله والملائكة على من يصلي على الرسول ويتساوى فعل الله والملائكة؟ ولا يعادل تحرير رقبة أي شيء حتى ولو كان الصلاة والسلام على الرسول. فالتحرير تغيير وضع اجتماعي والصلاة والسلام مجرد قول. وكيف يأثم من لا يصلي على النبي؟ الصلاة لا تكون إلا لله. وهي مقياس الكرم أو البخل. وطريق الجنة هو العمل طبقا لقانون الاستحقاق. والجفاء قسوة القلب على الإنسان وليس عدم الصلاة على الرسول.

ويُبلغ الرسول كل من صلى عليه. ويرد عليه السلام بعد موته. ويسمعها وهو في قبره. يبلغونه الملائكة. وإذا كانت لا تجوز الصلاة على القبور بوجه عام فكيف يجوز الصلاة على قبر النبي؟ الصلاة في الزمان وليست في المكان، في أي وقت وفي أي مكان[2].

وبالرغم من أن الصلاة على النبي تبدأ بتحميد الله والثناء عليها إلا أنها تجعل الله والنبي قرينين. والصلاة دون الحمد والدعاء بتراء. فلم العجلة؟ الصلاة عليه تجعل الإنسان في ظل العرش[3]. وما يدفع التقديس له الصلاة والسلام عليه وتكرار الشعار

لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»، «من صلى علي صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات، وكتب له عشر حسنات»، بهجة المحافل ص٦٢٨، «من قال: اللهم صل على محمد وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»، «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»، «من صلى علي صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى علي»، «من سلم علي عشرا فكأنما أعتق رقبة»، الشفا جـ٢/ ٦٤٩-٦٥٣، خصائص الرسول ص٢٧٣.

(١) الشفا جـ٢/ ٦٥٣-٦٥٦ «البخيل كل البخل الذي ذكرت عنده فلم يُصل علي»، «من نسى الصلاة علي نسى طريق الجنة»، «من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي علي»، «لا يجلس قوم مجلسا لا يصلون فيه على النبي إلا كان عليهم حسرة. وإذا دخلوا الجنة لم يرون الثواب».

(٢) الشفا جـ٢/ ٦٥٦-٢٥٩ «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»، «من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائيا بلغته»، «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»، «لا تتخذوا بيتي عيدا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورا، وصلوا علي حيث كنتم، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي»، «أكثروا من الصلاة علي في الليلة الزهراء»، واليوم الأزهر، «فإنهما يؤديان عنكم وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء. وما من مسلم يصلي علي إلا حملها ملك حتى يؤديها إلي»، الشفا جـ٢/ ٦٥٦-٦٥٩.

(٣) «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ويصلي على النبي ثم يدعو بعد بما شاء»، «القول البديع» ص٣٦٩/ ٤٣٩ «من أكثر الصلاة علي كان في ظل العرش»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٥٤.

الشائع «صلى الله عليه وسلم». فقراءتها تشفي وتهدي[1]. وفي التعبيرات الشعبية يقرن الرسول بلقب «سيدنا» في «سيدنا محمد» الوافدة من التراث القديم حتى من الدعاء في الصلاة. «اللهم صل على سيدنا محمد». وفي الدول الملكية يسمى الملك أيضا «سيدنا». فلا فرق بين اللقب الديني واللقب السياسي. وأحيانا يقرن لقب «سيدنا» بلقب «حبيبنا» وبالتالي يخرج السيد عن دائرة النقد إلى دائرة المحبة في «يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي». وأصبح «سي السيد» رمز التسلط والقدرة والخوف والإرهاب ونموذج المجتمع الأبوي. ويقول العبد لسيده «يا سيدي».

٤- العصمة

وتدخل العصمة تحت أحكام العقل الثلاثة، الوجوب والإمكان والاستحالة، من الله إلى الرسول، وكأنه ذات مثل الذات الإلهية[2]. كلاهما وعي ذاتي. وهو وعي جماعي، ما بين الذوات، بينه وبين أبي بكر[3]. وعصمة الأنبياء من الأمور الواجبة، العصمة في الإيمان «أول خصائصه في الأمور الدينية». فقد عقد قلب النبي من وقت نبوته[4]. بدأ باليقين وليس بالشك مثل إبراهيم، مع أن الشك مقدمة اليقين. والبداية باليقين قطعية. الشك خشية على النفس. قد يغان على قلبه ولكنه يستغفر الله في كل يوم مائة مرة، أما ما يخص الأمور الدنيوية فيطرأ عليهم من العوارض البشرية. وتختص بأجسامهم البشرية المقصودة بها مقاومة البشر. ومعاناة بني آدم لمشاكلة الجنس. أما بواطنهم فمنزهة معصومة متعلقة بالملأ الأعلى والملائكة[5].

---

(١) أشعار الصلاة والسلام ص٢٩-٣٢، نوادر الصلاة والسلام ص٣٥-٥٠، الصلاة والتسليم ص٥١-٦٢.

(٢) القسم الثالث: فيما يجب للنبي وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه وما ينفع أو يصبح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه جـ٢/ ٦٩٠-٩٢٥، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٤٦-٥٤٧، «لا ينبغي أن أقول غير الرضا والغضب إلا حقا»، جـ٢/ ٥٤٧.

(٣) «تنام عيناي ولا ينام قلبي»، «إني لست كهيئتكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني»، «لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن إخوة الإسلام، لكن صاحبكم خليل الرحمن»، السابق ص٦٩٢-٦٩٣، الفصول ص٤٠١-٤١٦.

(٤) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٦٩٤-٨٥٩.

(٥) الشفا جـ٢/ ٨٦٠-٩٢٥/ ٨٦٤.

والأنبياء معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والشك. وعقد النبي في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية. وقد أجمعت الأمة على عصمة النبي من الشيطان تمجيدا وتعظيما له[1]. فكل إنسان له قرين من الجن، وقرين من الملائكة. ولقد جاء إبليس بشهاب من نار في وجه الرسول وهو في الصلاة وتعوذ الرسول منه ولعنه وأوثقه وجعل غلمان المدينة يتلاعبون به. وكفى عيسى من لمسه. وعلى الإنسان أن يقاتل الشيطان. الرسول معصوم في أقواله وأفعاله. وما أوحى له الشيطان في قصة الغرانيق العلا شيء إنساني خالص يدل على رغبة الرسول في إبلاغ الرسالة لقومه حتى ولو آمنوا تدريجيا بالتوحيد. أما فيما يتصل بأمور الدنيا وأحوال نفسه فقد يخطئ فيها مثل حادثة تأبير النخل. ويختصم الناس للرسول في أمور قد يخطئ فيها ويصيب بناء على قدرة خصم في الإقناع. وقد يسهو الرسول مثل باقي البشر[2]. كما أن الأنبياء معصومون في الجوارح من الأعمال بما في ذلك القول باللسان[3].[4]. واختلف في عصمة الأنبياء قبل النبوة[5]. قتل موسى المصري قبل النبوة. هذا إذا كان العمل عن قصد وهو المعصية ويدخل تحت التكليف. أما ما يكون من غير قصد ومتعمد كالسهو والنسيان فليس بمعصية[6]. وقد ذكرت كثير من الأحاديث في السهو والنسيان[7]. ويُرد على من أجاز عليهم الصغائر. وبالتالي تتحول السيرة إلى علم الكلام في المحاجة مع الخصوم[8]. كما تدفع الشبهات[9]. وهذا لا يمنع من جريان الشيطان مجرى الدم في عروق ابن آدم[10].

---

(١) «ما أشك ولا أسأل»، السابق ص٦٩٥-٧١٩.

(٢) «إن الشيطان أتى ملاك فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبي حتى نام»، السابق ص٧٣٥-٧٤٥.

(٣) «أنني لأنسى أو أنسى لأسُن»، السابق ص٧٧٣-٧٨٤.

(٤) «يحل الله لرسوله ما يشاء، إني لأخشاكم لله واعلموا بحدوده»، السابق ص٧٨٤-٧٩٢.

(٥) الشفا جـ٤/ ٧٩٣-٧٩٦، سيرة النبي جـ٣/ ٣٣٢-٣٣٦ جـ٤/ ١٠-١١/ ٦٩-٧٤.

(٦) «إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون. فإذا نسيت فذكروني»، «لست أنسى ولكن أنسّى»، «إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله»، السابق ص٧٩٦-٨٠٠.

(٧) «رحم الله فلانا. لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطهم»، السابق ص٨٠٠-٨٠٩.

(٨) السابق ص٨٠٩-٨٤٠ «إذا هم عبدي بسيئة فلم يعلمها كتبت له حسنة» ص٨٢٩-٨٣٠، «ما من أحد إلا ألم بذنب أو كاد إلا يحيى بن زكريا»، ص٨٣٩-٨٤٠.

(٩) «لولا كلمة يوسف ما لبث في السجن ما لبثه»، «إني أخشاكم الله، أعلمكم بما أتقي»، السابق ص٨٤٠-٨٤٨.

(١٠) «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وأني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا فتهلكا»، السابق ص٨٤٨-٨٥١.

ولما كانت العصمة عقيدة أكثر منها دافعا فإنها تمتد من الأنبياء إلى الملائكة[1]. وهو موضوعي قياسي، قياسا للغائب على الشاهد. والعصمة ممتدة قبل البعثة وبعدها. فقد حفظه الله في شبابه عما كان عليه أهل الجاهلية. عندما طالبه بشد الإزار عليه حين بناء الكعبة[2]. كما حفظه الله من أن يسحر في منزل من منازل مكة بنومه حتى الضحى. ولم يأكل شيئا مما ذبح على النصب. ولم يعبد وثنا قط. وكان يظهر له فينبهم على ألا يفعل. وقد وعده الله بالعصمة من الناس مثل أبي جهل، وستره بالحجاب عن عين العوراء، وعصمته من المخزومين ومن النفر ومن الحكم.

وأحواله في الدنيا بالعقد والقول والفعل[3]. وهي أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد[4]. وأما أقواله الدنيوية من أخباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله فالخلق فيه ممتنع عن عمد أو سهو أو صحته أو مرضه أو رضا أو غضب وأنه معصوم منه وكأن صفاته ليست بشرية وكأنها عيب ونقص[5]. ولقد منع عمر أن يعطيه ورقة ودواه يكتب كتاب وهو على فراش الموت لن يضل المسلمون بعده، اكتفاء بكتاب الله وعترته[6]. وقد اعترف الرسول بأنه مثل باقي البشر يغضب ويحزن[7]. بل إنه اعتذر مقدما عن أذى أحد من المسلمين واعتبرها قربة له يوم القيامة. وقد دعا على أحد المسلمين بعدم الشبع وأفعاله الدنيوية

---

(١) السابق ص٨٥١-٨٥٩.

(٢) الخصائص الكبرى جـ١/ ٢٠٥-٢٠٩/ ٢٨٣-٢٨٩

(٣) «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، «إنما أنا بشر. فما حدثتكم عن الله فهو حق، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب»، «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، «أشرت بالرأي»، «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض فأقضي له غير ما أسمع. فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من النار»، «فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له»، السابق جـ٢/ ٨٧٠-٨٧٣.

(٤) السابق ص٧٧٤-٨٧٦.

(٥) السابق ص٨٧٦-٨٨٣.

(٦) السابق ص ٨٨٣-٨٩٠.

(٧) «اللهم إن محمدا بشر يغضب كما يغضب البشر... فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها كفارة له وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»، «فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة وصلاة ورحمة»، «تربت يمينك، ولا أشبع الله بطنك»، السابق ص٨٩١-٩٠٠.

مثل جواز السهو والغلط توقي المعاصي والمكروهات[١]. فلم يهدم الرسول الكعبة لحدثان العرب بالكفر لأنه يعلم أنها حجارة تأكيدا للتواصل بين الجاهلية والإسلام في ثقافة العرب. ومع ذلك تجوز على الأنبياء الأمراض ليس فقط امتحانا واختبارا لأنهم بشر. فالمؤمن المصاب كما هو الحال في الثقافة الشعبية.

وعصمة الله له من الناس وكفايته آذاهم من المعجزات[٢]. والشواهد قرآنية[٣]. وهناك روايات تتحدث عن العصمة والمتعة والحماية له. ومن مظاهر العصمة عدم جواز الخطأ عليه[٤]. ولا يجوز عليه الجنون. رؤياه وحي[٥]. وكل ما رآه فهو حق في اليقظة أو المنام[٦].

وتمتد العصمة من الرسول إلى عليّ إلى فاطمة إلى كل ذريتها. فالعصمة عند الشيعة ليست وقفا على الرسول بل تمتد إلى الأئمة. ولماذا فضائل فاطمة على باقي بنات النبي؟ هل لأنها زوجة علي؟ هل لأنها أم الحسن والحسين؟ هل لأنها كانت أحب بنات الرسول إلى قلبه وهو ما قد يتنافى مع حب الأب لأولاده وبناته على قدم المساواة؟ ولماذا تفضيل بناته على زوجاته؟ ألم ينشىء ذلك غيرة بين فاطمة وعائشة؟ ولماذا تفضيل إحدى زوجاته؟ ألم ينشئ ذلك غيرة بين عائشة وخديجة المتوفاة أو بين عائشة وسائر زوجاته؟ ولماذا يؤثر الرسول صاحبا له، أبو بكر ، أو صاحبيه، أبا بكر وعمر، على باقي أصحابه؟ والعصمة من الجنون. وتشاركه فيها الأنبياء، والعصمة في الاجتهاد ومن الخطأ[٧].

---

(١) «لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم»، السابق ص٩٠٠-٩١٠.

(٢) «إذا أحب الله عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه»، «إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء. إن كان النبي ليبتلى بالقمل حتى يقتله، وإن كان ليبتلى بالفقر، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء»، «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»، «إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم. فمن رضي فله الرضا. ومن سخط فله السخط»، «من يرد الله به خيرا يصب منه»، «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا يكفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها»، «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم إلا كَفر الله بها من خطاياه»، السابق ص٩١١-٩٢٥.

(٣) السابق حـ١ ١٥٠١-٥١٠.

(٤) الشفا جـ١/ ٤٨٨-٥٠٠، مثل عصمته من أبي جهل ومن الناس والمستهزئين والمشركين، الأسوة الحسنة ص٧-٢٧.

(٥) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢١/ جـ٢/ ٥٤٨.

(٦) السابق جـ٢/ ٥٤٨-٥٤٩.

(٧) النبي الأعظم ص٦٧١، خصائص الرسول ص ٢٩٠/ ٢٩٥-١٩٦، «إنما أحكم بالظاهر»، ص٢٩٦.

رابعا ـ حقوق وواجبات الرسول الشرعية:

١ - حقوق الرسول الشرعية

وهي استثناءات من الأحكام الشرعية الخاصة بعامة المسلمين[١]. وهي ثلاثة: واجبات ومحرمات ومباحات، طرفان ووسط ثم كرامات تعادل المندوبات. ولا توجد المكروهات لأن النبي لا يفعل مكروها[٢]. وهي ما يسمى أيضا «خصائص الرسول»[٣]. وهي قسمان: الأول ما اختص به عن سائر الأنبياء. والثاني ما اختص به دون أمته[٤]. وهي ما تجعله متميزا عن باقي المسلمين. يتأسى بها الصوفية والزهاد والعباد والنساك. ويجعلون الاستثناء قاعدة، والقاعدة استثناء. وهو ما يتناقض مع كون الرسول أسوة للاتباع حين جعلوا المندوبات من الواجبات، والمكروهات من المحرمات. وتسمى أيضا ما اختص به من الفضائل والإكـرام. وهناك بعض التساؤلات حول هذه الخصائص الشرعية أو الشرع الخاص. البعض منها أقرب إلى المندوب منه إلى الواجب مثل الضحى والوتر والتهجد والسواك. ولماذا من المحرمات الشعر والخط والزكاة وصدقة التطوع؟ والبعض عادات منها: الأكل متكئا، وأكل الثوم والبصل والكرات. ولماذا من المباحات اصطفاء الغنيمة قبل القسمة، وإباحة القتال في مكة، والحكم لنفسه وولده، وإباحة المكوث في المسجد مع الجنابة، وأخذ الطعام والشراب ممن يحتاج إليهما، وإباحة تسع نسوة؟ وجواز أخذ الهدية دون غيره من الولاة؟ وهناك حقائق وليست فضائل أو كرامات مثل أنه خاتم النبيين وإعجاز القرآن. وهناك أخرى يناقضها الواقع مثل أن أمته أفضل الأمم، وأنه نصر بالرعب مسيرة شهر، وأحلت له الغنائم، وأعطي

---

(١) «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له ساعة من نهار»، خصائص الرسول ص٧٠.

(٢) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٣-٤٩٢ «لا ينبغي أن أقول عند الرضا والغضب إلا حقا»، جـ٢/ ٥٤٧-٥٤٨.

(٣) الفصول ص٣٦٦-٣٦٨ «الأول ما وجب عليه دون غيره. الثاني ما حرم عليه دون غيره. الثالث ما أبيح له دون غيره. الرابع ما اختص به من الفضائل دون غيره»، السابق ص٣٦٨.

(٤) «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي. نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم لم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، الوصول ص٢٦٩، «أنا أول شفيع في الجنة»، ص٣٧٦-٣٩٩.

الشفاعة. وهناك أخرى أقرب إلى الخيال الشعبي مثل أنه يرى من وراء ظهره أو أن بوله ودمه يتبرك بهما، وأن الأرض لا تأكل لحم الأنبياء،وأن كل نسب منقطع إلا نسبه[1].

وللرسول خصائص عامة عن سائر الأنبياء، وما اختص به عن سائر الأنبياء وما اختص به عن أمته[2]. وقد يكون واجبا أو مندوبا مثل عدم أكل الصدقة، والقبلة في الصوم، والزواج من غير مهر، والحكم بالباطن كما تقول الصوفية. وهو ما يتعارض مع عموم الشريعة. وفي السير الإصلاحية تعود خصائص الرسول في العبادات والمعاملات والحلال والحرام إلى خصائص الرسالة[3]. وهي مشكلة الاستثناءات الشرعية وكأن الرسول بخصائصه المحمدية والذاتية والنبوية له شرعية خاصة، استثناءً من الشريعة العامة[4].

وأحيانا تكون القسمة ثنائية: الضروري والمكتسب[5]. الضروري ما ليس للإنسان فيه اختيار ولا اكتساب مثل أمور الجبلة والخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وخصائص اللسان وقوة الحواس والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزة القوم، وكرم الأرض، وما يرتبط بذلك من ضرورات الحياة من الغذاء والنوم والملبس والسكن والمال والجاه[6]. أما المكتسب فالأخلاق العملية والآداب

---

(١) الواجبات مثل: الضحى، الأضحية، الوتر، التهجد، السواك، المشاورة، مصابرة العدو، قضاء الدين على من مات، تخيير نسائه. المحرمات مثل: الشعر، والخط، الأكل متكئا، أكل الثوم والبصل والكرات، عدم نزع لامته حتى يلاقي العدو، إتمام التطوع، عدم حسد الناس، إمساك من كرهت نكاحه. المباحات الوصال في الصوم، اصطفاء ما أتيح من الغنيمة قبل القسمة، دخول مكة بلا إحرام، إباحة القتال فيها، القضاء بالعلم، الحكم والشهادة لنفسه ولولده، لا ينتقض وضوءه بالنوم، لمس المرأة، مكثه في المسجد، تسع نسوة، أخذ الطعام من مالكه إذا احتاج له، النكاح بالهبة، وبلا ولي ولا شهاد، تحريم خطبة من ينكحها. الفضائل مثل: تحريم تزوج أزواجه، زوجاته أفضل النساء، نصر بالرعب، أحلت له الغنائم، أعطيت الشفاعة والمقام المحمود، أصحابه خير القرون، أمته أفضل الأمم، سيد ولد آدم، أول من يقرع باب الجنة، أعطي جوامع الكلم، صفوف أمته في الصلاة مثل الملائكة، لا ينام قلبه، يرى من وراء ظهره، لا يرفع أحد صوته عليه، لا ينادى باسمه، الإشارة ص٤٤٤-٤٦١.

(٢) السيرة الحلبية جـ٣/ ٤١٥-٤٣١.

(٣) سيرة النبي جـ٢/ ٨٨-١٢٠.

(٤) السابق جـ٣/ ٥٥٤-٥٨٢.

(٥) نور اليقين ١٩٨-٢١٤.

(٦) وتدخل فيها نظافة الجسم، وطيب ريحة العرق، وعورات الجسد، السابق ص٢٠٠.

الشرعية مثل العلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة. وتدخل جميعها في حسن الخلق. هذا بالإضافة إلى فصاحة اللسان. وهو ما يدخل في الأذواق.

وعلى الرسول فروض أو واجبات. وثواب الفرض يزيد على النفل سبعين درجة. والحكم في الواجبات زيادة الدرجات زلفى[1]. وهي كثيرة: فقد كُلف الرسول بالعلم وحده مما كلفه الناس جميعا[2]. فالوحي علم، والنبوة معرفة. يقضي به ولنفسه ولولده وقبول شهادة من يشهد له ولولده وقبوله الهدية بخلاف غيره من الحكام لأنه فوق شبهة تجاوز العدل. ويباح القضاء بعلم[3]. وعليه قضاء دين من مات من المسلمين معسرا[4]. ومشاورة ذوي الأحلام في الأمور. وهو ما انعكس أيضا في القرآن وفي ضرورة أخذ رأي البكر[5]. ومن واجباته الدفع بالتي هي أحسن أي الأسلوب الحسن في التغير الاجتماعي حتى لا ينفر الناس[6]. إذ يختص بحسن خلقه في النهي عن المنكر وتغييره دون خوف بخلاف غيره من الأمة[7]. وفي حالة الإعجاب بشيء يقال «لبيك إن العيش عيش الآخرة» حتى يحدث التوازن في الشعور بين الدنيا والآخرة، ولا يغترب في الدنيا أو في الآخرة[8]. ومن واجباته الاستغفار لأنه كان يُغان على قلبه ويتوب في اليوم

---

(١) «فيما اختص به دون أمته من الواجبات والمباحات والمحرمات»، بهجة المحافل ص٤٤٤-٤٤٦، «لن يتقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه»، «إن ثواب الفرض يزيد على النفل بسبعين درجة»، السابق ص٤٤٤.

(٢) خصائص الرسول ص١٠٧-١٠٨.

(٣) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥١٤، خصائص الرسول ص١٧٢-١٧٤.

(٤) خصائص الرسول ص١٠٣-١٠٥، «من ترك مالا فلأهله الولي ومن ترك دينا أو ضياعا فعلى الوالي»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٧.

(٥) «البكر تستؤمر تطيبا لقلبها إلا أنه واجب»، خصائص الرسول ص١٠٠، «ما رأيته أحدا من الناس أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٥.

(٦) خصائص الرسول ص١٠٧.

(٧) الأسوة الحسنة ص٤١٨، خصائص الرسول ص١٠٢-١٠٣، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٧.

(٨) خصائص الرسول ص١٠٦-١٠٧، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٩١-٤٩٢.

سبعين مرة[1]. ويختص لنفسه بالحمى وعدم نقضه[2]. ويختص بقهر من شاء على طعامه وشرابه. وعلى المالك البذل وإن كان محتاجا. ويفدي بمهجته مهجة الرسول[3]. فقضاء حاجته لها الأولوية على قضاء حاجات الآخرين على الرغم مما يبدو في ذلك من أثرة، تفضيل النفس على الآخر. ومن الواجبات مصابرة العدو ولو كثر عدده[4].

وبالنسبة للمحرمات لا يجوز تحريم الصلاة على من عليه دين لأن الموت يجبه[5]. الدين عرض، والحياة جوهر. ويباح له الصلاة بعد النوم من غير تجديد الوضوء. كما أن اللمس له لا ينقض الوضوء. ويباح له دخول المسجد جنبا[6]. كما يباح له الصلاة بعد العصر، وحمل الصغير في الصلاة، والصلاة على الغائب، والصلاة بالناس وهو جالس، وإباحة الوصال. بالرغم من تحريمه على الآخرين[7]. ويُحرم مد العين إلى ما متع به الناس حسدا من النفس. كما تحرم خائنة الأعين[8]. ويحرم العطاء لأخذ أكثر منه، أي المن من أجل الاستكثار، الكرم في الظاهر، والجشع في الباطن[9].

وتنطبق أحكام الشرع الأربعة: الواجب والمحرم والمباح والمندوب على أحكام النكاح وحده، ما وجب عليه دون غيره، وما حرم عليه دون غيره، وما اختص به من الفضائل دون غيره[10]. ويحرم من كرهت نكاحه ورغبت عنه[11]. ولا يجوز نكاح الحرة

---

(١) خصائص الرسول ص١٠٧-١٠٨.

(٢) «لا حمى إلا لله ورسوله»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥١٢.

(٣) «لا يقر من أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين»، السابق جـ٢/ ٥١٨-٥١٩.

(٤) خصائص الرسول ص١٠١-١٠٢، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٧.

(٥) خصائص الرسول ص١٤٣-١٤٤، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٠٢.

(٦) خصائص الرسول ص١٧٧-١٨٣، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٠٧.

(٧) «إياكم والوصال... إني لست مثلكم. إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٠٩.

(٨) خصائص الرسول ص١٤٠-١٤٣ «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين» ص١٤٢، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٩٣-٥٠٦. وفي القرآن ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

(٩) خصائص الرسول ص١٤٥، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٠١.

(١٠) الفصول ص٤٧٦-٤٩٨.

(١١) عندما قالت إحدى زوجاته «أعوذ بالله منك» قال: لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك»، خصائص الرسول ص١٤٦-١٤٧، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٠٢-٥٠٤.

الكتابية. في حين يحل التسري بالأمة الكتابية. أما نكاح الأمة المسلمة فبين التحليل والتحريم[1]. ويُحرم نكاح المسلمة التي لم تهاجر.

ويباح له الجمع بين أكثر من أربع نسوة خالصة له من دون المؤمنين وهو استثناء من التشريع الجديد واستمرار لما كان سائدا قبل الإسلام. وانعقاد نكاحه بلفظ الهبة وهو ما يناقض الولاية، وجواز انعقاد النكاح بلا ولي ولا شهود فيه خلاف، ويباح تزوج المرأة بغير إذنها وإذن وليها وتولي الطرفين ذلك اعتزازا بشخصية المرأة المستقلة. ويباح للمرأة تزويج الله لها كما حدث لعائشة[2]. ويجوز النكاح بغير ولي وشهود مما يدل على أن الولاية والشهادة غير ضرورية، وإذعان مرغوبته لينكحها، وهو ما يناقض استئمار البكر وإذنها، وانعقاد نكاحه بحال الإحرام وفيه روايات. ولا يجوز وجوب القسم عليه في زوجاته وإنما كان الأمر تطوعا. وإباحة المرأة المعتدة، ضعف في الرواية. فالعدة لا استثناء فيها. ويباح الجمع بين المرأة أو خالتها أو عمتها وفيه اختلاف. ويجوز عتق المرأة وجعل عتقها صداقها. فالحرية أثمن من المال. ويجوز له الخلوة بأجنبية. ويباح له تزوج الجارية الصغيرة التي لم تبلغ كما حدث مع عائشة[3]. وكانت أحب نسائه. زوجها الله له في السماء وباقي زوجاته تزوجن في الأرض. ولا يسألهن أحد إلا من وراء حجاب. وزوجاته الأرامل محرمات على غيره أبدا على وجه الإكرام والتوقير والاحترام، وهن أفضل نساء الأمة[4]. والسؤال هو: هل هذه استثناءات من القاعدة استنباطا أم تشريعا لواقع استقراء؟ والمرأة تحل له بغير عقد مما يدل على أن العقد أمر صوري محصن. ويحل له النكاح بلا مهر مما يدل على أن النكاح ليس تجارة. يكفي الرضا بالعيش المشترك

---

(١) «سألت ربي أن لا أزوج أحد من أمتي ولا أتزوج إلا كان معي في الجنة فأعطاني»، خصائص الرسول ص١٤٧-١٥٣.

(٢) «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، «والبكر تستأمر»، «لا تنكح امرأة على عمتها ولا على خالتها»، خصائص الرسول ص١٨٨-٢٢٢، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥١٩-٥٢٠.

(٣) «أريتك في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك في سرقة من حرير فيقول. هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي فأقول: أن يكن من عند الله يمضه»، «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

(٤) «فاطمة بضعة مني»، «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟»، «هي أفضل بناتي أُصيبت في»، «إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم»، خصائص الرسول ص٢٢٣-٢٥٥.

القائم على المحبة. ويباح له القسم لأزواجه. ويجوز له النكاح وهو محرم. ويختص بعتق أمته، وجعل عتقها صداقها أي أن الحرية خير صداق للمرأة. ومن اختصاصه وجوب تخيير نسائه وإمساك مختاراته وتحريم طلاقها. ويباح له النظر إلى الأجنبيات والخلوة لأن النبي خارج الشبهة. ويباح له أن يزوج من شاء من النساء بمن شاء من الرجال بغير رضاهن ورضا آبائهن. يكفي ما معهن من القرآن وهو ما يتجاوز الاختيار الحر وما يعادل الخاطبة هذه الأيام. كما يختص بإنكاح الصغير تبريرا للزواج من عائشة. ويباح له في النكاح ما لا يباح لغيره. وهو استثناء يطعن في كون الرسول قدوة. كما لا ينحصر طلاقه في ثلاث، وأمته مارية لم تحرم عليه، ولا تلزمه كفارة لأنه مغفور له، وهو استثناء واضح. وقد ضحّى عن أمته في حين لا يجوز ذلك لآخر إلا بإذن. كما أن أزواجه أمهات المؤمنين وقد كثرن. ويحرم رؤية أشخاص أزواجه في الإزار وسترا لهن مشافهة. ويجوز لأزواجه من بعده الجلوس في بيوتهن وتحريم خروجهن ولو لحج أو عمرة. وخير نسائه بين الدنيا والآخرة، بين أن يبقين معه في حياته وبعد مماته أو يسرحهن سراحا جميلا[1].

وتحرم الإغارة وقت التكبير في حين أن في الإغارة تعلو الصيحات بالتكبير. كما تحرم الاستعانة بالمشركين في حين أن الشرك قد يكون مصدر معلومات وقوة للمسلمين. والحرب خدعة. وتحرم الشهادة على الجور وهذا حكم مطلق لأن الإسلام ضد الظلم[2]. ويباح القتال بمكة، والقتل بها، ودخولها بغير إحرام، والقتل بعد الأمان[3]. ويباح له ما يصطفي من الغنيمة. ويباح الاستئثار بخمس من خمس الفيء والغنيمة وبأربعة أخماس الفيء منفردا[4]. وأيضا اصطفاء ما يختاره من الغنيمة قبل القسمة من جارية وغيرها. ولا تجب عليه الزكاة، ويباح له أخذ الطعام والشراب من مالكها المحتاج إليها[5]. وهو

---

(١) خصائص الرسول ص١٠٩-١٢٤، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٨-٤٩١.

(٢) «فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٠٦.

(٣) «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس. فلا يحل لامرئ أن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها على شجرة. فإن أحدا ترخص بقتال رسول الله قولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥١٣-٥١٤.

(٤) «خصائص الرسول ص١٥٨-١٦٣»، «لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود فيكم» ص١٦٢/ ٢٦٠-٢٦١، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٠٧-٥٢٩.

(٥) «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ووالده وولده والناس أجمعين»، الخصائص الكبرى

ما يحتاج إلى مزيد من الشرعية، إباحة الحمى للنفس في إطار الشرعية، وأخذ الطعام والشراب ممن يحتاج إليه ينقصه التبرير إلا إذا كان عن إيثار وتفضيل الآخر على الذات. وأحلت له الغنائم له ولأمته. ويباح له اللعن لشيء من غير سبب يقتضيه وهو ما ينافي تعليل الأحكام[١]. وقد يصدر ذلك عن انفعال بشري. وبالرغم من أن من دخل المسجد فهو آمن إلا أنه يباح له القتل بعد الأمان[٢]. كما يجوز له أن يقتل من سبه أو هجاه[٣].

ويباح له أن يستثني في كلامه بعد زمان منفصل نظرا لأولوية تغير الزمان على ثبات القول[٤]. فأقوال الرسول تنسخ نفسها. والنسخ واقع في السنة كما هو واقع في القرآن. وهو ما يشجع المجتهد على أخذ تغير الزمن بعين الاعتبار بعد انقضاء أربعة عشر قرنا، ليس نسخا بل تأويلا واجتهادا. وليس في ذلك خروج على سنة الوحي. لذلك يجوز له الجمع في الضمير بينه وبين ربه بالرغم من رفض ذلك لغيره باعتباره إقلالا من التنزيه، وسوء أدب مع الله. فلا فرق بين القرآن والسنة، وكما يتوحد الرسول مع الله قد يتوحد المجتهد مع الرسول[٥].

٢- واجبات الرسول الشرعية

إذا كانت حقوق الرسول الشرعية تمثل الاستثناءات من الشرع فإن واجبات الرسول الشرعية تمثل كيفية أدائه أركان الإسلام الخمسة[٦]. المحافظة على الصلاة، والخشوع فيها

جـ٢/ ١٧٥-١٧٧.

(١) خصائص الرسول ص١٨٣-١٨٧ «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه. فإنما أنا بشر. فأي المؤمنين آذيته أو شتمته أو لعنته فاجعلها له زكاة وصلاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»، «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر»، السابق جـ٢/ ٥١٨.

(٢) «من دخل المسجد فهو آمن»، «اقتلوه»، السابق حـ٢/ ١٨٧.

(٣) السابق جـ٢/ ٥٢٩.

(٤) السابق جـ٢/ ٥٠٩-٥١٠.

(٥) «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، «ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه»، «وهو ممتنع على غيره مثل: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، وقول الرسول له: بئس الخطيب أنت. قل: ومن يعصي الله ورسوله»، السابق جـ٢/ ٥١٠.

(٦) مثل وضوئه وغسله، ما كان يفعل قبلها، صلاته، مكثه في المصلى بعد الصلاة، السنن والرواتب وقيامه بالليل، قراءته في صلاة الليل، وتعوذه فيها، قصده في قيام الليل وذكره، تطوعه في النهار، فعله في السهو، قراءته وسجوده، صلاته في السفر والخوف، خطبته في الجمعة، فعله في العيدين، فعله في الخسوف،

هو ما اختص به دون أمته[1]. وكلها تدخل تحت العبادة. وهي العبادات المتكررات[2]. وتدخل أحيانا ضمن أقواله القدسية[3]. والعبادة دائما مدى الحياة والصبر عليها واجب على عكس ما يقوله الصوفية في التوكل والمقامات والأحوال. ولم يتبعه بشرع قبله إلا الحنيفية أي الدين الطبيعي والعمل الصالح هو جوهر العبادات. وتنقسم إلى عبادات وأخلاق ومعاملات[4]. والمقصود منها كلها تأكيد الوحدانية وتجلياتها في السلوك الإنساني دون ما حاجة إلى أشياء خارجية أو إلى وسيط أو إلى شكل خارجي أو إلى مكان، والاكتفاء بشهادة الإنسان روحا وبدنا. وقد تجاوزت العبادات القربان البشري، وأصلحت القربان الحيواني، وحرمت القرابين المشتركة كما هو الحال في الهدى وفي الأضحية في الحج. العبادة تهذيب للنفس وتجردها وترويض لها، وفي نفس الوقت عدم تكليفها بما لا يطاق، ورفض العزلة والانقطاع عن العالم. العبادة هو العمل الاجتماعي لخدمة الناس. هي زيارة المريض، وإطعام الجائع، وإسقاء العطش فالله عند المحتاجين والتقرب إلى الله من خلالهم. هو الإنفاق على الأهل، وأداء كل واجب[5].

ومن عاداته عيادة المريض والعزاء، وسنته في لقاء الناس. وعامة أشغاله التي هي

في الاستغفار ونزول المطر، فعله بمن مرض من العيادة والدعاء، فعله بمن مات من الدعاء والصلاة عليه، صومه وفطره ووصاله، اعتكافه واجتهاده، حجه، ما كان يقوله إذا سافر، الأنوار جـ١/ ٣٦١-٤٠٤/ ٤٤٧-٤٥٦، لواحق الصلاة ص٤٥٧-٤٦٨، سيرة المصطفى ص٧٣-٨٢، عبادة الرسول، شمائل النبي ص١٥٦-١٦٧، عبادته، شمائل الرسول ص٦٧-٦٩ «حبب لي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، ص٦٧ عبادته، المنح المحمدية جـ٤/ ٨٤-٥١، جـ٢/ ٤٠٥-٥١١، سوابق الصلاة، سيرة النبي، الصلاة، ص٤٤١-٤٤٥.

(١) الفصول ص٤٠٠-٤٧٥، المنح المحمدية جـ٤/ ٧-١٤، سيرة النبي جـ٢/ ٨٨-١٠٤/ ١٦٧-١٦٩.

(٢) في شمائله في العبادات المتكررات، بهجة المحافل ص٥٣٠-٦١٢.

(٣) سيرة النبي حـ٥/ ٤٣٩-٥١٢.

(٤) السابق جـ٥/ ١٥-٢١.

(٥) «من قتل نفسه بشيء عذب به في نار جهنم»، السابق جـ٥/ ٣٦، «لا عقر في الإسلام» جـ٥/ ٣٩، «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» جـ٥/ ٤١، «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» حـ٥/ ٤٢، «يا عبد الله، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام»، جـ٥/ ٤٣/ ٢٣-٦٤ «كل معروف صدقة»، «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل»، «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة...»، «إصلاح ذات البين»، حـ٥/ ٥٧-٥٨ في صفة عبادته وصلاته وصومه وقراءته، شمائل الرسول ص٢٥٣-٢٧٤.

أقرب إلى العادات الاجتماعية، وما سماه القدماء سنة عادة[1]. ومن آداب اللقاء والزيارة إلقاء السلام[2]. وكانت له عاداته وآدابه في السفر غير الصلاةو الصوم[3].

أ- الطهـــارة

وكما هو الحال في الفقه تأتي الطهارة أولاً[4]. وأولها الوضوء[5]. ومنها الغسل[6]. وكان يستعمل السواك ويتيامن في الحركة[7]. يتهوع به ويتيامن في طهوره وترجله وتنعله. والغربي الآن يتياسر في كل شيء مثل الأولوية للسير السريع. والمسح على الخفين أحد جوانب الوضوء[8]. ووضوؤه وغسله تعليميان[9]. ومنها ما قد يكون عاديين. وكانت عائشة تغتسل هي والنبي من إناء واحد، وكلاهما جنب. وكان يأمرها بأن تأتزر فيباشرها وهي حائض. وكان يخرج رأسه إليها وهو معتكف فتغسله وهي حائض. والحكم بطهر الماء لأنه لا ينجسه شيء حتى ماء بئر بضاعة التي كان يلقي فيها الحيض ولحم الكلاب والنتن[10]. ومن هنا تأتي أهمية الوضوء والغسل[11]. ودخول الخلاء

---

(١) سيرة النبي حـ٢/ ١٧٨-١٨١.

(٢) السابق ص٤٠٨-٤١٦، «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» ص٤١٠.

(٣) سيرته في السفر وفي الرجوع منه، الأسوة الحسنة ص٤٩٢-٤٩٤، في آداب تتعلق بالسفر، ص٤٩٤-٤٩٥.

(٤) شمائله في طهارته ووضوئه وصلاته وزكاته وصيامه وحجه وأمره في سفره، الأسوة الحسنة ص٤٩٦-٥٨٧، آدابه عند قضاء الحاجة ص٤٩٨-٥٠١، إزالة النجاسة والمستقذر ص٥٠١-٥٠٢، مسحه على الخفين والجبائر ص٥٠٤-٥٠٦، التيمم وصفة غسله ص٥٠٦-٥٠٨، مع نسائه في الحوض ص٥٠٨-٥٠٩، المنح المحمدية جـ٤/ ١٧-٥٨، سيرة النبي جـ٦/ ٣٩٤-٤٠٠.

(٥) المنح المحمدية جـ٤/ ٣١-٤١، سيرة النبي جـ٢/ ٨٨-٩٠.

(٦) سيرة النبي جـ٤/ ٤٨-٥٨ «غسل يوم الجمعة واجب على كل مسلم»، جـ٥/ ١٧٦.

(٧) الأنوار جـ١/ ٢٧٦-٣٨٧، الأسوة الحسنة ص٥٠٢-٥٠٣، خصائص الرسول ص٩٥-٩٩، المنح المحمدية جـ٤/ ١٧- ٢٥ «لولا أن أشق على أمتي لأمرت بالسواك عند كل صلاة»، سيرة النبي ص١٧٥.

(٨) المنح المحمدية جـ٤/ ٣١-٤٥.

(٩) الأنوار المحمدية جـ١/ ٣٦١-٣٦٧ «هكذا أمرني ربي» جـ١/ ٣٦٤، المنح المحمدية، جـ٤/ ٤٨-٥٨.

(١٠) السابق ص٣٦٧، الفصول ص٤١٧، «لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه سينزل عليّ به قرآن أو نص» ص٤١٨-٤٣٤، «مازال جبريل يوصيني بالسواك حتى خشيت على أضراسي».، ص٤١٩

(١١) بهجة المحافل ص٥٣٠-٥٣٤.

تعليمي في بيئة بدوية تتعلم كيفية الاستنجاء والاستطابة أي تنظيف فتحة الشرج. كان الرسول لا يراه أحد. ويدعو عندما يدخل الخلاء. وإذا خرج قال «غفرانك»، يخلع خاتمه لأنه منقوش عليه «محمد رسول الله»[1]. وكانت للرسول عادات قبل الوضوء والغسل. ينام وهو جنب، ويتوضأ للصلاة[2]. ومعظم الروايات عن عائشة، والمسلم لا ينجس حتى إذا كان جنبا. وكانت عائشة تشرب وهي حائض. وتناول القدح للنبي. تتعرق العرق ويتناوله فيضع فاه على موضع فيها[3]. وقد طاف على نسائه في غسل واحد[4]. يأكل بعد أن يرجع من الغائط دون وضوء لأن الطعام غير الصلاة[5]. والتيمم في الصحراء لندرة المياه. والماء اليوم وفير إلا في حالات قليلة. والتيمم بدل الوضوء. فالأرض طهور[6]. التيمم إذا لم يوجد الماء لأنه الآن طهور[7].

ويختص بالصلاة في النعلين. فدفء القدمين واجب مثل الصلاة خاصة في البلاد الباردة في شمال آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية. وذلك أيضا مخالفة لليهود[8].

ب- أركان الصلاة

والصلاة هي الركن الأول في العبادة بعد التوحيد. هي جوهر الدين. حقيقتها التقوى. وهدفها إعلان التوحيد العملي، التطوع قبل المكتوبات وبعدها. وهي فرائض وتطوع، وهي أكبر الموضوعات في الشمائل[9].

وحبب إليه من الدنيا ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عينه في الصلاة. فالطيب

---

(١) «اللهم أني أعوذ بك من الخبث والخبائث»، الأنوار جـ١/ ٣٧٣-٣٧٥.
(٢) السابق جـ١/ ٣٦٨.
(٣) «سبحان الله أن المسلم لا ينجس»، السابق ص٣٧٠.
(٤) السابق ص٣٧١.
(٥) «لم أصل فأتوضأ»، السابق ص٣٧٢، وضوءه وصفته، الأسوة الحسنة ص٥٠٣-٥٠٤.
(٦) جعل الأرض كلها مسجدا، والتراب طهورا. وهو التيمم بالوضوء، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٥-٤٢٦.
(٧) المنح المحمدية جـ٣/ ٤٦-٤٧، بهجة المحافل ص٥٣٠-٥٣٤.
(٨) «صلوا في نعالكم، ولا تشبهوا اليهود»، «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في خفافهم ولا نعالهم»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٣٠.
(٩) الأسوة الحسنة ص٥٣٠-٥٣٣، المنح المحمدية ص٦١-٦٣.

هو الجذب نحو الآخر. والنساء التوحد معهم جسديا وروحيا. والصلاة قرة العين وإكمال رغبات البدن والنفس إلى الروح[1]. ومطالب البدن والنفس في مقابل طلبات الروح، الصلاة. الصلاة إيمان وصدق وتقوى ووجود الآخر مع الأنا والأنا مع الآخر. ومع ذلك يترك ما فيه ريب وشك للابتعاد عن الشبهة طلبا للأمن وتجنبا للمخاطر[2].

وتبدأ الصلاة بالأذان والإقامة. الأذان للإعلان، والإقامة للنداء والصلاة لها افتتاح، قراءة البسملة والفاتحة. والقراءة بعد الفاتحة في الظهر والعصر والمغرب والعشاء. والركوع والسجود والجلوس للتشهد والتسليم، والقنوت[3]. بداية ونهاية[4]. وهناك آداب دخول المسجد والمكوث فيه والخروج منه. تحيته حين الدخول وكراهية تخطي الرقاب[5]. ومن آداب المصلي عدم البصق أمامه لأن الله أمامه رمزا[6]. ويقال في الصلاة: ربنا لك الحمد والشكر اعترافا بنعمه[7]. وهو موضوع حسد اليهود لأنهم لا يحمدون ولا يشكرون مهما أعطوا من النعم. ومن كراماته أن المصلي يخاطبه بقول سلام عليك أيها النبي. ولا يخاطب سائر الناس. وتجب عليه إجابته إذا دعاه وإلا تبطل صلاته[8].

وللتكبير وقراءة الفاتحة سنن. فالملائكة تؤمن لقراءة الإمام. فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنب وكأن الأمر مصادفة لا قصدا، والأعمال بالنيات[9]. والسكته بعد التأمين ندب[10]. والقراءة عقب الفاتحة قصيرة لأن الناس فيهم الصغير

---

(١) «حبب إلي الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»، شمائل الرسول ص٦٧-٦٩.
(٢) «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، السابق ص٦٨.
(٣) المنح المحمدية جـ٤/ ٧٠-١٤٨.
(٤) الأسوة الحسنة ص٥١٠-٥١٢، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٩.
(٥) «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون. عليكم السكينة. فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»، معين الشمائل ص٣٢٥-٣٢٧.
(٦) «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى»، السيرة النبوية جـ٥/ ٨٣.
(٧) «لم تحسدنا اليهود بشيء حسدنا بثلاث: التسليم، والتأمين، واللهم ربنا لك الحمد»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٣٠.
(٨) السابق جـ٢/ ٥٣٨.
(٩) «في سنن التكبير وقراءة الفاتحة»، «إن الملائكة تؤمن لقراءة الإمام. فمن وافق قوله الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»، بهجة المحافل ص٥٤٩-٥٥٠.
(١٠) السابق ص٥٥٠.

والكبير والضعيف والمريض وذو الحاجة. أما إذا صلى الإمام وحده فليقل ما يشاء. فالصلاة باسم الجماعة[1]. في الظاهر حركات بدنية. لها أركان وترتيب[2]. بها الركوع والسجود. وهما علامتان على التواضع والطاعة[3]. والدعاء بعد الصلاة للطلب والاستجابة. ومن الأفضل أن تكون جماعية بين الإمام والمصلين حتى لا يستأثر الإمام بدعوة دونهم. الركوع إعلان للطاعة، والسجود تحقيق لها. وعند آية السجدة يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم مادا كل كلمة ما عدا الله[4]. يدعو في سجود القرآن بالليل[5]. يمكث في مصلاه. ويذكر الله بعد السلام[6]. وله دعاؤه وأذكاره بعد الصلاة[7]. وفي نفس الوقت يجوز له المكث في المسجد جنبا وبعد انتقاض وضوئه بالنوم مضجعا وباللمس في أحد الوجهين[8]. آدابه بعد السلام، الدعاء والاقتداء بالإمام[9].

والصلاة على خمسة أنواع، صلاة الفرائض، وصلاة النوافل، والصلاة في السفر،

---

(١) القراءة بعد الفاتحة وما يندب فيها، بهجة المحافل ص٥٥٠-٥٥١، «إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض وذو الحاجة. فإذا صلى وحده فليصل كيف يشاء»، السابق ص٥٥٠، المنح المحمدية جـ٤/ ٨٥-٨٩.

(٢) سيرة النبي جـ٥/ ٩٠-٩٩.

(٣) بهجة المحافل ص٥٥٤-٥٦٤ «لا يؤم عبد قوما فيخص نفسه بدعوة دونهم. فإن فعل ذلك فقد خانهم»، السابق ص٥٦٢، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٩-٤٣٠، المنح المحمدية جـ٤/ ٩٨-١٠٦.

(٤) الأنوار جـ٢/ ٤٤١-٤٤٧.

(٥) «سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته»، السابق ص٤٤٦.

(٦) كان يقول «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام». وأيضا «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، وأيضا «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون»، الأنوار جـ٢/ ٤٠٦-٤٠٨. سيرته في المسجد، الأسوة الحسنة ص٥١٢-٥١٥.

(٧) الأسوة الحسنة ص٥٢٨-٥٢٩، الدعاء بعد السلام ص٥٢٩-٥٣٠، المنح المحمدية جـ٤/ ١٤٩-١٥٤، «الدعاء مخ العبادة»، سيرة النبي جـ٥/ ٨٠، سيرته في الشدة، الأسوة الحسنة ص٥١٥-٥١٦، المنح المحمدية جـ٤/ ١٤٩-١٥٥.

(٨) «لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك (علي)»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥١٦-٥١٨.

(٩) الأسوة الحسنة ص٥٢٦-٥٢٨، المنح المحمدية جـ٤/ ١١٧-١٣٣/ ١٤٩-١٥٤.

وصلاة الخوف، وصلاة الجنازة[1]. وهناك صلاة الوتر[2]. وقد يكون أحب من الزوج لأن الله واحد. وكيف تتفاضل الصلوات الخمس فيما بينها؟ فصلاة بعد الظهر تفتح أبواب السموات ويرفع فيها العمل الصالح. وأربع قبله وأربع بعده تنجي من النار[3]. ولماذا صلاة الوتر أحب صلاة إلى الله؟ هل لأن الوتر يحب الوتر؟ وماذا عن الزوجين، آدم وحواء والنبي وصاحبه، والوالدين والوليين؟

وكان يصلي صلاة السهو[4]. وهي سجدتان بعد التسليم، ومن كراماته اختصاصه بصلاة الخوف[5]. وصلاة الاستسقاء ضرورية في الصحراء كإحدى الوسائل النفسية للحصول على الماء، والصبر على الجفاف[6]. وقد فرد الرسول ثوب أعرابي حتى يهطل فيه المطر لأنه حديث عهد بربه[7]. وفي صلاة العيادة والدعاء مساعدة نفسية للمريض بالإضافة إلى الدواء[8]. والدعاء للمريض بالشفاء، وإتمام الهجرة[9]. وكان الرسول يعوذ المريض بأقوال[10]. وهو مازال سائدا حتى اليوم. والصلاة للميت والدعاء له[11].

---

(١) المنح المحمدية جـ٤/ ٥٩-٣١٠، كيفية الصلاة ص٧٠-١٣٣، سيرة النبي جـ٢/ ٩٠-٩٦/ ١٧٣-١٧٤، جـ٥/ ٦٥-٢٠١.

(٢) المنح المحمدية جـ٤/ ٢٠٢-٢٠٩ «يا أهل القرآن أوتروا فإن الله وتر يحب الوتر»، سيرة النبي جـ٥/ ١٥٥، في صفة عبادته وصلاته. شمائل الرسول ص٢٥٥-٢٦٤، «ثلاث هن علي فرائض وهي لكم تطوع: النحر، والوتر، وركعتا الضحى»، الفصول ص٤٣٥، «ثلاثة علي فريضة وهي سنة لكم: الوتر، والسواك، وقيام الليل»، ص٤٤٧، «صلاة الفريضة»، الأسوة الحسنة ص٥٠٨-٥٠٩.

(٣) «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السموات، وأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»، «من حافظ على أربع قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار»، «من صلى اثنتى عشرة ركعة في يوم وليلة بنى له بهن بيتا في الجنة»، «إن الله تعالى وتر يحب الوتر»، بهجة المحافل ص٥٦٤-٥٦٧، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٦-٤٢٧، المنح المحمدية جـ٤/ ٢٠٢-٢٠٩.

(٤) الأنوار جـ٢/ ٤٣٩-٤٤١، المنح المحمدية جـ٤/ ١٣٤-١٤٨.

(٥) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٤٥، المنح المحمدية جـ٤/ ٢٩٣-٢٩٨.

(٦) الأنوار جـ٢/ ٤٦٢-٤٦٤، الأسوة الحسنة ص٥٤٢-٥٤٣، المنح المحمدية جـ٤/ ٢٦١-٢٧٩.

(٧) «إنه حديث عهد بربه»، السابق ص٤٦٤.

(٨) الأنوار جـ٢/ ٤٦٤-٤٧٠، الأسوة الحسنة ص٥٤٣-٥٤٤.

(٩) «اللهم رب الناس أشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما»، السابق ص٤٦٨.

(١٠) كان الرسول يعوذ الحسن والحسين بقوله «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة... هكذا كان أبي إبراهيم يعوذ لبنيه إسماعيل وإسحق»، السابق ص٤٦٩.

(١١) الأنوار جـ٢/ ٤٧٠-٤٧٣.

إذا قبض الروح تبعه البصر. ولا يدعي للميت إلا بالخير لأن الملائكة تؤمّن على ما يقال، والدعاء بالمغفرة ورفع الدرجات، والخلف في الذرية، وإفساح القبر وإنارته[1]. وصياغة أخرى الدعوة بالمغفرة والرحمة والعافية والعفو وإكرام المنزلة، وتوسيع المدخل، والغسل بالماء والثلج، والتنقية من الخطايا، وإبدال الدار غير الدار، وأهلا غير الأهل، وزوجا غير الزوج، وإدخال الجنة، والعوذ من عذاب القبر، وعذاب النار[2]. وهي كلها أماني يتمنى أي إنسان تحقيقها «حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت». وكان الرسول يدعو لشهداء البقيع كلما مر عليهم[3]. وهناك صلاة الجنازة، عدد تكبيراتها والقراءة والدعاء فيها، والصلاة على القبر والصلاة على الغائب[4]. وكان للرسول صلاته في السفر والخوف نظرا لما كان في الأسفار من مخاطر[5]. كان يقصر الصلاة. يجمع ويقصر. ويؤجل النوافل والتطوع حين السفر على الدابة. وهناك صلاة لحفظ القرآن، وصلاة التسبيح[6]. وهي الصلاة طبقا لموضوعها وغايتها.

جـ- أوقات الصلاة

وللصلاة أوقاتها من أجل الإحساس بالزمن، واستحقاق الفعل فيه[7]. ولها كيفيتها[8]. فمتى فرضت الصلاة؟ ولكل صلاة وقتها للتأكيد على تحقيق الأفعال في أوقاتها خمس مرات يوميا على الأقل ارتباطا بإيقاع النهار: طلوع الشمس والشروق،

---

(١) «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»، «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمّنون علي ما تقولون»، «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره ونور له فيه»، السابق ص٤٧٠.

(٢) «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله. ووسع مدخله، وأغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعفه من عذاب القبر أو من عذاب النار»، السابق ص٤٧٣.

(٣) «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون»، «وإنا وإن شاء الله بكم لاحقون. اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»، السابق ص٤٧٣.

(٤) المنح المحمدية جـ٤/ ٢٩٩-٣١٠.

(٥) الأنوار جـ٢/ ٤٤٧-٤٥١، الأسوة الحسنة ص٥٣٧-٥٤٠، المنح المحمدية جـ٤/ ٢٨٠-٢٩٢، سيرة النبي جـ٢/ ١٧٦.

(٦) بهجة المحافل ص٥٨٢-٥٨٤.

(٧) المنح المحمدية جـ٤/ ٦٢-٦٩، سيرة النبي جـ٥/ ١١٠-١٤١.

(٨) المنح المحمدية جـ٤/ ٧٠-١٣٣.

والضحى والظهر، والعصر، والغروب، وفي الليل، وليس أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، وأول الليل وآخره، وأحب الأعمال أدومه وإن قل[1]. وهناك نوافل مقرونة بالأزمات مثل صلاة العيدين[2]. واختص الرسول بالصلوات الخمس، ولم تجمع لأحد من قبل. وهو أول من صلى العشاء، ولم يصلها نبي قبله[3]. وأفضل الصلاة يوم الجمعة، يوم العطلة الرسمية، والليلة الزهراء واليوم الأزهر[4]. والدعاء مستمر في حياة الإنسان في البداية والوسط والنهاية وليس مرة واحدة كشارب القدح. يشرب ما فيه ثم يضعه في الركب. وكانت له خطبته في الجمعة[5]. وفي الخطبة يذكر بالساعة[6]. وكلما كانت الصلاة مبكرة كان فضلها أعظم. وفرق بين فضلها في الساعة الأولى، كالبدنة وفضلها في الساعة الأخيرة، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد[7]. واختص الرسول مع صلاة الجمعة بالتأمين، واستقبال الكعبة، والصف في الصلاة كصف الملائكة، وتحية السلام[8]. ويمكن تأخير بعض الصلوات مثل تأخير صلاة العشاء، وتعجيل العصر

---

(١) إذا صليتم الفجر فإنه وقت إلى أن يطلع الشمس الأول، ثم إذا صليتم الظهر فإنه وقت إلى أن يحضر العصر. فإذا صليتم العصر فإنه وقت إلى أن تصفر الشمس. فإذا صليتم المغرب فإنه وقت إلى أن يسقط الشفق. فإذا صليتم العشاء فإنه وقت إلى نصف الليل، سيرة النبي جـ٥/ ١٣٩-١٤٠، «ليس أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء»، جـ٥/ ١٧٩، «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»، جـ٥/ ١٨٥.

(٢) السابق جـ٤/ ٢٢٢-٢٤٨/ ٢٣٧-٢٤٨.

(٣) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٦-٤٢٧.

(٤) «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، أكثروا من الصلاة علي في الليلة الزهراء واليوم الأزهر. فإنهما يؤديان عنكم»، «لا تجعلوني كقدح الراكب فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه. فإن احتاج إلى شراب شربه أو الوضوء توضأ وإلا أهراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره»، بهجة المحافل ص٦٢٧-٦٣١، المنح المحمدية جـ٤/ ١٥٥-١٧٧.

(٥) الأنوار جـ٢/ ٤٥١-٤٥٥، الأسوة الحسنة ص٥٣٣-٥٣٧، المواهب اللدنية جـ٤/ ١٥٥-١٧٧.

(٦) «صبحتكم أو مستكم الساعة... بعثت أنا والساعة كهاتين... خير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»، الأنوار جـ٢/ ٤٥٣.

(٧) «وقت صلاة الجمعة واستحباب التكبير بها»، «ما من ثلاثة في قرية ولا بلدة لا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان. فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية من الغنم»، «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صام الليل كله»، بهجة المحافل ص٥٧٠-٥٧٢.

(٨) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٧-٤٢٨.

والمغرب[1]. ويمكن أيضا الجمع بين الصلوات في السفر، جمع تقصير أو جمع تأخير[2]. وهناك صلاة الضحى، فضلها ووقتها، وأقلها وأكثرها[3]. وهناك صلاة الظهر التي تفتح عندها أبواب السماء حتى زوال الشمس[4]. ويجوز التنفل بعد صلاة العصر[5].

وكان الرسول يتطوع بالنهار فيما لا يطيقه غيره[6]. يصلي أربعا بعد أن تزول الشمس[7]. وتطوعه قاعدا كتطوعه قائما في نوافل الصلاة. ومن كراماته النافلة أي زيادة لطلب الثواب[8]. يقرأ في صلاة الليل ويقعد فيها[9]. له دعاء عند التسليم[10]. وهو القنوت[11]. وكان يتهجد[12]. يقصد قيام الله وذكر الله[13]. وكان ذكره أقرب إلى ذكر الصوفية[14]. تختلط فيه المواجيد بالأشكال الأدبية. وإذا كان الرسول يفعل ذلك

---

(1) الأسوة الحسنة ص٥٠٩-٥١٠، المنح المحمدية جـ٤/ ٦٧-٧٩، سيرة النبي جـ٥/ ١١٠-١٣٤.

(2) سيرة النبي جـ٥/ ١٢٧-١٣٤.

(3) «ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»، بهجة المحافل ص٥٨٩-٥٨٧، إن صليت الضحى اثنتى عشرة ركعة بنى الله لك بيتا في الجنة، «أمرت بركعتي الضحى ولم تؤمروا بها»، خصائص الرسول جـ٤/ ٢١٠-٢١٩، المواهب اللدنية جـ٤/ ٢١٠-٢١٩.

(4) «إن أبواب السماء تفتح عند زوال الشمس فلا تربح حتى تصلي الظهر. فأحب أن يصعد لي في تلك الساعة خير»، «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء فأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح»، شمائل النبي ص١٦٧-١٧٠.

(5) «كنت أصليها قبل العصر فصليتها الآن»، خصائص الرسول ص٢٨٨-٢٩٠.

(6) الأنوار جـ٢/ ٤٣٣-٤٣٩،.

(7) «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء. فأحب أن يُصعد لي فيها عمل صالح»، السابق ص٤٣٤، «قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد. فلأن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة»، شمائل النبي ص١٧٠-١٧١، خصائص الرسول ص١٠٧-٢٧٢.

(8) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٣٧.

(9) الأنوار جـ٢/ ٤٢٥-٤٣٠، خصائص الرسول ص٨٧-٩٤.

(10) «سبحان الله الملك القدوس»، ثلاث مرات، الأنوار حـ٢/ ٤٣٠، المنح المحمدية جـ٤/ ١٧٨-٢٠١.

(11) بهجة المحافل ص٥٦٧.

(12) «يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة. فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة»، السابق ص٥٨٥-٥٨٧.

(13) الأنوار جـ٢/ ٤٣٠-٤٣٢.

(14) «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيّوم السموات والأرض، ولك الحمد رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، إليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»، السابق ص٤٣١.

فما بال عامة المسلمين؟ يفتتح الصلاة من الليل بذكر آخر[1]. ويدفع الشيطان إلى النوم بأن يعقد على الإنسان كي يرقد طيلة الليل. فإذا ما استيقظ انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت ثانية، فإن صلى انحلت العقد كلها. ونشط وإلا تكاسل. ويكره قيام الليل كله. والأفضل تخصيص ليلة واحدة هي ليلة الجمعة[2]. وصلاة خسوف الشمس إطالة القيام والركوع والسجود[3]. وله دعاؤه[4]. وهي ظاهرة طبيعية لا شأن لها بالخوف أو الفزع أو الأهواء البشرية. ويكره الصلاة في المحراب. فالصلاة لا مكان لها على خلاف صلاة النصارى واليهود[5]. الصلاة في الزمان وليست في المكان.

د- صلاة الروح

والصلاة ليست كهانة. الصلاة والطيب والنساء وحدة واحدة. تبدأ بالنساء ولا حرج، فالحب رمز الوحدة. والطيب جذب وعشق. ويتم ذلك كله باسمه الروح[6]. فالصلاة اسم موحد للعبادة[7]. والصلاة الباطنية أي التفكير هي العبادة، عبادة أولي

(١) «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلفت فيه من الحق بأمرك. إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»، السابق ص٤٣١-٤٣٢، صلاة الليل، بهجة المحافل ص٥٧٢-٥٧٦، «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم. وهو قربه لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»، «من صلى في ليلة بمائة آية لم يكتب من الغافلين. ومن صلى في ليلة بمائتى آية فإنه يكتب من القانتين المخلصين»، «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود. كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»، «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذ هو نام ثلاث عقد. يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد. فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة. فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت العقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلانا»، «ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه»، السابق ص٥٧٥.

(٢) «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟... فلا تفعل، صُم وأفطر وقم ونم»، «لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي. ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم»، السابق ص٥٧٧.

(٣) الأنوار جـ٢/ ٤٦٠-٤٦٢، الأسوة الحسنة ص٥٤٢-٥٤٣، المنح المحمدية جـ٤/ ٢٤٩-٢٦٠.

(٤) «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يُخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وتصدقوا»، السابق ص٤٦١.

(٥) «لا تزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى»، الخصائص الكبرى ص٤٣١-٤٣٢.

(٦) سيرة النبي جـ٥/ ١٠٤.

(٧) السابق جـ٥/ ٨٩-٩٠.

الألباب، التفكير مع الخشية، عبادة القلب[1]. الصلاة فعل روحي للتسبيح. والتكبير قراءة القرآن ليس فيها شيء من كلام الناس[2]. وهي القنوت، والخشوع، والتبتل، والتضرع، والإخلاص، والذكر، والفهم، والتدبر.

الصلاة أذان وإمام[3]. والأذان إعلان، والإمام قيادة والتخفيف على الناس. ففيهم السقيم والضعيف والكبير وإذا صلى أحد بنفسه فليطول ما يشاء[4]. الصلاة ميزان للتفاؤل وإحساس بالعدل، وفعل جماعي بالناس، مصلين وغير مصلين، كبارا وصغارا، شيوخا وضعفاء، وأطفال، وتأديتها كاملة، كفعل شرعي وفعل روحي[5].

وصلاته مثل وضوئه تعليمية[6]. تجمع بين الروايات والأقوال المباشرة. وله أقوال خاصة إذا قام إلى الصلاة أو كبر. تجمع بين القرآن والحديث[7]. وهي طويلة لا تستطيع الذاكرة استيعابها كحديث. والسؤال هو: هل هذا وحي مباشر أو غير مباشر أو من

---

(١) معين الشمائل ص٤٣٠-٤٣٩.

(٢) «إن هذه الصلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس. إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، الأنوار جـ١/ ١٩٦، المنح المحمدية جـ٤/ ٥٩-٣١٠، سيرة النبي جـ٥/ ٧٩/ ٨٨/ ١٥٧-١٧٢.

(٣) وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لهم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم، الأنوار حـ١/ ٢٠٦.

(٤) السابق حـ١/ ٢٠٧ «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٥) «الصلاة مكيال فمن أوفى به، ومن طفف فقد علمتم ما للمطففين»، سيرة النبي جـ٥/ ١٧٧، خصائص الرسول ص١٠٧.

(٦) الأنوار جـ١/ ٣٧٨-٤٠٤، شمائل النبي ص١١٥-١١٦.

(٧) حين القيام للصلاة: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»، «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت. أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي. فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق. لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك، والخير كله في يدك. أنا بك وإليك. تباركت وتعاليت. أستغفرك وأتوب إليك»، وحين الركوع «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي»، وحين الرفع « سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، ملأ السموات والأرض وما بينهما وملأ ما شئت من شيء بعد». وحين السجود «اللهم لك سجدت وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه فصوره فأحسن صورة وشق سمعه وبصره، وتبارك الله أحسن الخالقين. وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»، الأنوار جـ١/ ٣٨٦-٣٨٧.

إبداع الرسول من جوامع الكلم؟ وهي كلمات طويلة لا يقدمها أحد الآن في الصلاة، قياما وقعودا وسجودا وركوعا. وله تكبيرات أخرى حين القيام بالله[١]. وله صياغات أخرى قصيرة هي التي استمرت حتى الآن[٢]. للركوع والسجود دلالات رمزية عن التواضع. والصلاة فيها شفاء للنفس وراحة لها من الغضب وانفعالات اليوم[٣]. لذلك جعلت قرة عينيه في الصلاة أي رضاه وسكينته[٤]. وإذا كان الجائع يشبع، والعطش يروي فإن الرسول لا يشبع من حيث الصلاة. وهي حضور القلب، وليست فقط حركات البدن.

الصلاة تطهير للقلب وعود النفس إلى حالتها الطبيعية. فالعبادة هي العبادة القلبية[٥]. هي الذكر والدعاء[٦]. وفي مقدمتها التقوى. وهي هدف كل الأوامر الشرعية. إذ يفوز المتقون بكل النعم الأخروية. وهم أحباب الله، مشرفون بحديثه، يتقبل الله منهم. وهي

---

(١) «سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا غيرك»، «لا إله إلا الله "ثلاثا"»، «الله أكبر كبيرا، ثلاثا»، «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفثه ونفخه». السابق ص٣٨٧-٣٨٨، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»، بهجة المحافل ص٥٤٦.

(٢) في الركوع «سبحان ربي العظيم»، وفي السجود «سبحان ربي الأعلى» وفي الركوع والسجود «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»، السابق ص٣٩٧، وإذا رفع رأسه من الركوع «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، السابق ص٣٩٩، وفي السجود «اللهم اغفر لي ذنبي كله، وقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره»، السابق ص٤٠٠، وبين السجدتين «اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني»، السابق ص٤٠٢، والدعاء في الصلاة «اللهم أني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة المهات، اللهم أني أعوذ بك من المأثم والمغنم»، السابق ص٤٠٢.

(٣) «قم فصل، فإن في الصلاة شفاء»، «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، «الجائع يشبع، والظمآن يروى، وأنا لا أشبع من حب الصلاة»، «أقم الصلاة يا بلال وأرحنا بها»، «لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه»، بهجة المحافل ص٥٣٦.

(٤) «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ما يقول: ماذا يبقى من وزره؟... كذلك مثل الصلاة الخمس يمحو الله بها الخطايا»، سيرة النبي جـ٥/ ٨٥ «ألا وإن في الجسد مضغه»، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، جـ٥/ ٣٩٨.

(٥) السابق جـ٥/ ٣٨٩-٤٣٤.

(٦) «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الولد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»، معين الشمائل ص٤٤٥-٤٤٩.

أم الفضائل. تشمل الإخلاص، والتوكل، والصبر، والعفو،والثبات، وضبط النفس، وتحمل المشاق، وأداء الواجبات، وعدم المبالاة بالصعاب، والشكر. والصلاة تتم على الوجه الأكمل في طمأنينة واستيفاء دون تسرع واستعجال. ولا تكون مسروقة. وسرقة الصلاة سرقة. وهي لله وليست للناس[١]. تطرد الوسواس بالتعوذ منه والبصق على اليسار[٢]. وهو شيطان له اسم معين. الصلاة صلاة القلب. والتسبيح والشعور بالحضور الإلهي كما يقول الصوفية، التسبيح في الركوع والسجود[٣]. والتأكيد على سماع الله. التسبيح في الاعتدال[٤]. هي مناجاة بين الإنسان والله وليس ادعاء وطلبًا للثناء والمدح من أحد[٥].

كانت الصلاة، كما أداها السلف الصالح، دليلا على النظام واستواء الصفوف، والجماعة دون الاختلاف[٦]. وصلاة لا نفع منها مثل كنز يجمعه صاحبه دون إنفاقه[٧]. لها أخلاق تهذيبية للفرد والجماعة[٨]. ستر العورة، الطهارة، تنظيم الوقت،التبكير، خشية الله، الفطانة، علامة مميزة للمسلمين. دحض الباطل والدفاع عن الحق واجب على الإنسان إتمام مكارم الأخلاق، الألفة والمحبة، المواساة، الاجتماع، التنوع في الأعمال،تنسيق الجماعة، المساواة، الإطاعة، معيار الأفضلية، اجتماع عمومي يومي، أحدثت تحولا تاما للعرب. صلاة الجماعة إعلان عن العمل المشترك[٩].

---

(١) «إن أقبح السرقة الذي يسرق صلاته»، «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها إذا خلا فتلك استهانة استهان بها ربه»، «الصلاة ميزان فمن أوفى استوفى»، «يا فلان ألا تحسن صلاتك»؟ «ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي؟ فإنما يصلي لنفسه»، بهجة المحافل ص٥٣٩-٥٤٠.

(٢) «ذلك شيطان يقال له خنزب. فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا»، السابق ص٥٤٨، صفة صلاة الرسول، الأسوة الحسنة ص٥١٦-٥٢٥.

(٣) «ندب السكتة عقب القراءة وما يندب في الركوع». بهجة المحافل ص٥٥١-٥٥٢،

(٤) «ما يندب في الاعتدال»، السابق ص٥٥٢-٥٥٣.

(٥) «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي»، سيرة النبي جـ٥/ ١٠٤.

(٦) «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»، «عباد الله لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم»، بهجة المحافل ص٥٤٠-٥٤٨.

(٧) «علم لا يعمل به ككنز لا يُنفق منه أتعب صاحبه نفسه في جمعه ثم لم يصل إلى نفعه»، السابق ص٥٥١.

(٨) سيرة النبي جـ٥/ ١٧٢-٢٠١.

(٩) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٩-٤٣٠ «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم»، سيرة النبي جـ٥/ ١٨٠، «الصلاة جامعة» جـ٥/ ١٨٧.

ومن منهيات الصلاة التشتت والالتفات. فذلك اختلاس الشيطان من صلاة الإنسان. هذا بالإضافة إلى عدم التبرك كالبعير، والتلفت كالثعلب، والافتراش كالسبع، والوقوف كالكلب، والنقر كالغراب، ورفع الأيدي في حال السلام كأنياب الخيل[١]. ويحرم الكلام في الصلاة وليس في الصوم عكس الأمم السابقة[٢]. ومن كراماته أنه من تكلم في عهده وهو يخطب بطلت جمعته. ولا يجوز لأحد الخروج من مجلسه إلا بإذنه[٣]. الصلاة مناجاة للرب. فلا يجهر المصلي حتى لا يشوش على الآخرين[٤].

وللرسول عبادات إضافية، سننه ورواتبه وقيامه بالليل[٥]. وهي كثيرة للتأسي بها كلها. عيناه تنامان ولا ينام القلب[٦]. وكان يدعو أن يجعل الله نورا في بصره وسمعه وعلى لسانه وتحته ولديه[٧]. وكان يقول في الصلاة دعاء خاصا[٨]. ولما استكثرت عائشة قال «أولا أكون عبدا شكورا»[٩]. ومن اختصاصه وجوب صلاة الليل والوتر والفجر والضحى والأضحية[١٠].

وتكشف صلاة الضر والحاجة أن الصلاة وسيلة لقضاء الحاجات إذا ما عجز الإنسان أو تشكك في قضائها بنفسه. كما أنها وسيلة نفسية لرفع الضيق إذا لم تنقص

---

(١) «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»، «ذلك كفل الشيطان»، «لا تبركوا بروك البعير، ولا تلتفوا التفات الثعلب، ولا تفترشوا افتراش السبع، ولا تُقعوا إقعاء الكلب، ولا تنقروا نقر الغراب، ولا ترفعوا أيديكم في حال السلام كأذناب الخيل الشُمس»، بهجة المحافل ص٥٩٠-٥٩٢.

(٢) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٣٨-٤٣٩.

(٣) السابق جـ٢/ ٥٣٩.

(٤) «إن المصلي يناجي ربه. فلينظر أحدكم بما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة»، سيرة النبي جـ٥/ ٨٤.

(٥) الأنوار جـ٢/ ٤٠٩-٤٢٥، المواهب اللدنية جـ٤/ ١٧٨-٢٠١.

(٦) «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»، الأنوار حـ٢/ ص٤١٢.

(٧) «اللهم اجعل في بصري نورا، وفي سمعي نورا، وفي لساني نورا، ومن تحتي نورا. اللهم أعطني نورا»، السابق ص٤١٦.

(٨) «الله أكبر، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». وفي الركوع «سبحان ربي العظيم» وبعد الركوع «لربي الحمد»، وفي السجود «سبحان ربي الأعلى»، وبين السجدتين «رب اغفر لي»، السابق ص٤١٧، وفي الركوع وفي السجود، سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ص٤١٨ .

(٩) السابق ص٤٢٢، «أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل»، بهجة المحافل ص٥٦٧.

(١٠) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٣-٤٨٥.

الحاجات. فإما الدعاء وإما الصبر. وقد يقع توسل وشفاعة تمجد كي تقضى الحاجة[1]. فالرسول لم يعد مبلغا لرسالة بل شفيعا لقضاء الحاجات. ويكون ذلك على نحو سري، فلو عرفه السفهاء لقاموا بدعوات مضادة، وأفسدوا الدعوة الأولى. وكيف يستجاب إلى دعوة الأشرار بدلا من دعوة الأخيار؟ الصلاة دعاء لا يوجد مثله في الكتب المقدسة السابقة[2]. وصلاة الاستخارة مساعدة نفسية على اتخاذ القرارات في حالة الحيرة[3]. ويصعب الاعتماد عليها في حالة الحروب والتردد بين خطتين، تصفية الثغرة أم قبول وقف إطلاق النار كما حدث في حرب اكتوبر ١٩٧٣.

كما اختص بالحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله)، والاسترجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون) عند المصيبة وافتتاح الصلاة بالتكبير. فالصلاة رفع للروح المعنوية، ومساعدة على الثبات وتجاوز الآلام، وتحمل المصائب مما قد يمنع من الثورة والغضب ضد الأوضاع الاجتماعية والسياسية المسئولة عن كوارث المواصلات وغرق العبارات وانهيار المنازل فوق الهضاب الرملية[4].

---

(١) «من كانت له حاجة إلى الله أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله وليصل على النبي، ثم ليقل لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين»، «إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك»... «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في»، «اللهم إني أسألك بمعاقد الغز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وأسألك باسمك الأعظم، وجدك الأعلى وكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ثم سل حاجتك، ثم ارفع رأسك، وسلم عن يمينك وعن شمالك، واتق السفهاء أن يعلموها فيدعون ربهم فيستجاب لهم»، بهجة المحافل ص٥٨٧-٥٩٠.

(٢) «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»، سيرة النبي جـ٥/ ١٠٦.

(٣) «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (عاجل أمري وآجله) فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (عاجل أمره وآجله) فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم ارضني به (ويسمى حاجته)»، «يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ثم انظر إلى الذي سبق إلى قلبك فإن الخير فيه»، «من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما قضى الله عليه. ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، وسخط بما قضى الله»، بهجة المحافل ص٥٨١-٥٨٢.

(٤) «أعطيت أمتي شيئا لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٢-٤٢٣.

هـ- أركان الإسلام

وله أيضا سيرته في الزكاة وهي الركن الثالث في الإسلام الذي يكشف عن العدالة الاجتماعية، وتأسيس المجتمع اللاطبقي، وسيولة رأس المال الاجتماعي، وعدم احتكار الثروة، وتوظيف المال استخلافا وليس ملكية. ومع ذلك يذكر أنه كان يحرم على نفسه أكل الصدقة بل كان يأكل الهدية. فالصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد. ولا زكاة على الأنبياء. والزكاة لها تاريخ أي أنها مرتبطة بالزمان والمكان.

وقد فرضت بأشكال أخرى في الديانات السابقة. وتطبق تدريجيا أشبه بالضرائب التصاعدية. فإن كان من الصعب إيتاء الزكاة فالعمل باليد لنفع النفس أو بالصدقة أو بإعانة ذي الحاجة الملهوف أو الأمر بالخير أو الإمساك عن الشر، فكل ذلك صدقة. وهي علاج أمراض الأغنياء حاولت الاشتراكية شفاءهم. ولا فوائد اقتصادية وتجارية. إنها الهدف أساسا إصلاح الفقراء[1].

وتتحول العبادات مثل الزكاة أحيانا إلى فقه كمي وتقنين، مقدارها على الحيوان، الجمال والبعير والإبل والغنم والبقر والتيران والجاموس. ولم تعد الثروة الحيوانية الآن هي المدخل الرئيسي للثروة. ولم يعد الحيوان وسيلة الانتقال. فهل هناك زكاة على وسائل الانتقال الحديثة ومصادر الثروة الصناعية والتجارية؟[2].

وتذكر الصدقات والتطوع[3]. وتركته صدقة لا تورث[4]. ولا يأكل من الصدقات

---

(١) الفصول ص٤٥٧-٤٥٨ «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد» ص٤٥٧، خصائص الرسول ص٢٨٦-٢٨٧، أقرباء الرسول جـ١/ ٣٨٨ «إنما هي (الصدقة)» أوساخ الناس ص٣٩٠/ جـ٢/ ٥١٤-٥١٦ جـ٥/ ٢٦٦، المنح المحمدية جـ٤/ ٣١١-٣٢٥، سيرة النبي جـ٥/ ٢٠٣-٢٧٦ «أدعهم إلى الشهادة لا إله إلا الله وأني رسول الله. فإن هم أطاعوا فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتُرد إلى فقرائهم»، جـ٥/ ٢٠٨-٢٠٩/ ٢١٨/ ٢٤٧.

(٢) سيرة النبي جـ٥/ ٢٢٦-٢٣٠، خصائص الرسول ص١٢٥-١٢٨.

(٣) الأسوة الحسنة ص٥٧٢-٥٧٧ «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله»، سيرة النبي جـ٥/ ٢٦٩.

(٤) «ما تركناه صدقة»، «لا تورث، ما تركناه صدقة»، خصائص الرسول ص١٦٦-١٧١.

بل من الهدايا[1]. فمن كراماته أنه لا يورث، وأمن ماله بعد موته قائم على نفقته[2]. وحرمت الزكاة عليه ولا يهم مقدارها ومدتها وأنواعها كما هو الحال في الفقه بقدر ما يهم هدفها ونماؤها. فالزكاة وسيلة وليست غاية. الهدف منها تزكية النفس[3]. ويمكن التفكير في طرق جديدة لجمعها وإنفاقها. ويتم التفاضل بين المحتاجين. ليس المحتاج هو السائل والشحاذ الذي يطوف على الناس يُعطى أو يمنع بل الفقير الذي لا يعلمه أحد، ولا يسأل الناس. وللزكاة مصارف ثمانية حددها الفقه: مساعدة المساكين، والفقراء، والمعاقين، ومكافحة الرق، وإعانة المسافر، والأعمال الجماعية وللخدمات للصالح العام، والتدبير العملي للإعانة المشتركة.

وفي صومه كان الرسول يفطر ويوصل وينهى عن الوصال للآخرين ويسمح به لنفسه لأن الله يطعمه ويسقيه. والسحور واجب[4]. وقد قرر صوم اليوم التاسع حتى يتميز عن العاشر عند اليهود[5]. فإذا شق الصيام فيجوز الإفطار دون المزايدة لأن المزايدة هنا عصيان[6]. وللرسول دعاء حين الإفطار[7]. وإذا لم يجد الرسول شيئا يأكله

(١) «لولا أني أخشى أن تكّون من الصدقة لأكلتها»، شمائل الرسول ص٦٨.

(٢) «لا نورث، ما تركناه صدقة. إنما يأكل آل محمد في هذا المال»، «لا تقسم ورثتي دينارا ولا درهما. ما تركت بعد نفقة نسائي ومئونة عاملي فإنه صدقة»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٣٠.

(٣) سيرة النبي جـ٥/ ٢١٩- ٢٧٦ «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والثمرة والثمرتان...(بل هو) الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا»، جـ٥/ ٣٣٥. «من يكفل لي أن يسأل الناس شيئا وأتكفل له بالجنة» جـ٥/ ٢٧٣، «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه»، جـ٥/ ٢٧٤. الهدايا والضحايا والعقيقة، الأسوة الحسنة ص٥٦٥-٥٦٧، سيرة النبي جـ٥/ ٢٤١، «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»، جـ٥/ ٢٤٣.

(٤) سيرة النبي جـ٢/ ٩٧-٩٩، جـ٥/ ٢٧٧-٣١٤، في صفة صومه، شمائل الرسول ص٢٦٥-٢٧٠، الأنوار جـ٢/ ٤٧٤-٤٨٩، تُعرض الأعمال الإثنين والخميس فأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم، شمائل النبي ص١٧١-١٧٨، خصائص الرسول ص١٥٦-١٥٨، المنح المحمدية ص١٥٦-١٥٨، «إياكم والوصال» ثلاث مرات، السابق ص٤٨٢ «إني لست في ذلك كأحد منكم، إني أظل عند ربي يطعمني ربي ويسقيني»، «أكفلوا من الأعمال ما تطيقون»، السابق ص٤٨٢.

(٥) «فإذا كان العام المقبل صمنا يوم التاسع»، السابق ص٤٨٠.

(٦) «أولئك العصاة»، السابق ص٤٨٤.

(٧) «اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت»، «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى».

صام. فالأكل هو الذي يحدد الصيام من عدمه وليس النية[1]. يقبل وهو صائم. ويصوم إذا لم يجد شيئا يأكله دون عقد النية مسبقا. وتزداد العبادات في شهر رمضان. كما تزداد أعمال الخير وقراءة القرآن والاستعداد لاستقبال شهر الصوم كما هو الحال في الممارسات الشعبية خاصة فيما يتعلق بالمأكولات والمشروبات والملابس واللعب والزينات[2]. والصيام له وقت، رؤية الهلال بشهادة العدول[3]. وفي السفر يجوز الإفطار إذ لا يجوز تكليف ما لايطاق[4].

وعند الإفطار دعاء تحقيقا لمطالب الروح قبل حاجات البدن. وفي نفس الوقت التعجل في الفطر سنة. مخاطبة البدن بعد طول جوع وعطش لها الأولوية على صلاة المغرب[5]. وهو جانب من واقعية الإسلام. والصوم ليس فقط عن الطعام والشراب بل الكف عن جميع الرذائل. وهو موجه إلى الله وحده. وله أيضا دلالة بالنسبة للناس[6]. والإحساس بالفقراء، وبالنسبة للصائم، قوة الإرادة[7]. والوضوء بركة الطعام قبله أو بعده[8]. وما يفطر عليه قد يتغير بتغير الزمان والعادات والتقاليد، التمر واللبن في البيئة الصحراوية. أما البيئة الجبلية أو الزراعية أو الصناعية فلها عاداتها[9]. والمشتقات اليوم قمر الدين والخشاف.

---

(١) «هل عندكم شيء... فإني صائم»، «ثم أتاه طعام وقال: أرينيه فلقد أصبحت صائما... فأكل»، السابق ص٤٨٩، الفصول ص٤٥٩-٤٦٠، سيرة النبي ص٤٧٦-٤٧٧، المنح المحمدية جـ٤/ ٣٢١-٣٨٨، الأسوة الحسنة ص٥٧٨-٥٨٣، دعاؤه في رمضان ص٥٨٠-٥٨٢، صيام التطوع ص٥٨٢-٥٨٤.

(٢) المنح المحمدية ص٣٢٦-٣٣٠.

(٣) السابق ص٣٣١-٣٣٤.

(٤) السابق جـ٤/ ٣٥٤-٣٥٧.

(٥) «لا تزال أمتي بخير ما عجّلوا الفطر»، بهجة المحافل ص٥٩٢، المنح المحمدية جـ٤/ ٣٤٠-٣٤٤.

(٦) «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب. فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني صائم»، «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، السابق ص٥٩٢.

(٧) «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي. للصائم فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، السابق ص٥٩٤.

(٨) «بركة الطعام الوضوء قبله وبعده»، «الوضوء قبل الطعام حسنة وبعده حسنتان»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٣٨.

(٩) المنح المحمدية جـ٤/ ٣٤٢.

ويجوز الصوم في غير رمضان، في عاشوراء الذي كان معروفا عند اليهود وفي الجاهلية، وصيام شعبان ومحرم ورجب، والعاشر من ذي الحجة وفي أيام الأسبوع والأيام البيض[1]. وكان الرسول يعتكف ويجتهد في العشر الأواخر من رمضان. وفيها ليلة القدر. والمسجد مكان الاعتكاف بعيدا عن الأسرة وارتباطا بالأسرة الأكبر، بجموع المسلمين[2]. الهدف منه الشكر والتقوى. ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه[3]. وخشى الرسول أن تصبح الصلاة في المسجد طيلة شهر رمضان. فلم يخرج في بعض الأيام حتى لا تُفرض على الناس. وصلى في بيته[4]. وتجوز له القُبلة وهو صائم مع قوة شهوته. وهو ما حُرم على غيره[5]. ومع القُبلة الحجامة والاكتحال والسواك. فالاكتحال يزيد في شهر الزهد. والسواك لا داعي لأن رائحة خلوف فم الصائم أطيب عند الله من رائحة المسك. والحجامة ضد الصبر على العناء والألم.

وكان الصوم مفروضا على الأمم السابقة. واستمر في الإسلام مع تغيير الشكل، من ثلاثة أيام في الشهر إلى شهر في السنة[6]. وقد أعطيت الأمة في رمضان خمس خصال: رائحة فم الصائم كالمسك، استغفار الملائكة لهم حتى الإفطار، تصغر مردة الشياطين، تزيين الجنة كل يوم لقبول الصائمين. والسحور والتعجيل بالفطور فرق بين صيام المسلمين وصيام أهل الكتاب.

---

(١) السابق ص٣٥٨-٣٨٧.

(٢) الأنوار جـ٢/ ٤٨٩-٤٩٢. الأسوة الحسنة ص٥٨٤-٥٨٧، المنح المحمدية جـ٤/ ٣٨٩-٣٩٨، سيرة النبي جـ٥/ ٣٠٤-٣١٤، «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، «الصيام جُنة. فلا يرفث ولا يجهل. وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم»، سيرة النبي جـ٥/ ٣١١-٣١٢.

(٣) «من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»، صلاة التراويح وقيام رمضان، بهجة المحافل ص٥٧٨-٥٨٠.

(٤) «إني خشيت أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها»، السابق ص٥٧٨.

(٥) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥١٥، المنح المحمدية جـ٤/ ٣٣٥-٤٣٩.

(٦) «كتب عليكم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر. وكان هذا صيام الناس قبل ذلك ثم فرض الله شهر رمضان»، «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»، «لا يزال هذا الدين ظاهرا ما عجل الناس دين الفطر. إن اليهود والنصارى لا يؤخرون»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٣٦-٤٣٨، سيرة النبي جـ٥/ ٢٧٨-٢٨٣.

وحاولت بعض السير الإصلاحية الحديثة الكشف عن إصلاحات في الصوم أتى بها الإسلام بالنسبة للأمم السابقة[1]. أصبح عاما للجميع وليس خاصا بفئة من رجال الدين. وهو مرفوع عن الحامل والمرضع ومرفوع على من قاء أو احتلم. واعتبر السنة القمرية وليس السنة الشمسية. ولا يبطله النسيان. كان علامة على الحزن عند اليهود فأصبح علامة على الفرح بلقاء الله في الإسلام. وسمح الإسلام بالمعاشرة الزوجية ليلا. وقد كان محرما في الأمم السابقة. والصيام شهر كامل وقد كان عند الأمم السابقة عدة أيام أو أسابيع أو أربعين يوما وعن الحيوان فقط.

وكان للرسول مناسك حجه وعمرته[2]. كان يهلل بالتوحيد[3]. ويستقبل القبلة بالدعاء[4]. وكانت المناسك تتغير بتغير الزمان[5]. والحج يعني حرمة الدماء والأموال، ورفع دم الجاهلية، ووضع الربا. والوصية بالنساء بشرط عفتهن وإلا فالضرب غير المبرح، مع أن الضرب لا يرجع عفة. ولهن الرزق والكسوة وعلى المسلمين الاعتصام بالكتاب. وأشهد الله عليهم[6]. هنا القطيعة بين الجاهلية والإسلام في الثأر والربا وحقوق المرأة. ومعظم المناسك شعائر كان بعضها سائدا قبل الإسلام مثل السعي والطواف بما في ذلك تقبيل الحجر الأسود كتواصل بين عبادة الأصنام قبل الإسلام

---

(١) سيرة النبي جـ٥/ ٢٩٨-٣٠٣ «إن الله وضع عن الحامل والمرضع الصوم» جـ٥/ ٣٠٠.

(٢) الأنوار جـ٢/ ٤٩٢-٥١١، المنح المحمدية جـ٤/ ٣٩٩-٣٧٢، سيرة النبي جـ٢/ ١٠٠-١٠٤ جـ٥/ ٣١٥-٣٧٦، ألفية السيرة ص١٠٢.

(٣) «لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، السابق ص٤٩٥.

(٤) «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، السابق ص٤٩٥.

(٥) «لو أني استقبلت عن أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة. فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة»، السابق ص٤٩٦.

(٦) «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة.... وربا الجاهلية موضوعة... فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله... اللهم اشهد»، السابق ص٤٩٦-٤٩٧.

وتقديس الحجر بعده في الثقافة الشعبية سواء كان من قواعد إبراهيم أو هبط من السماء. وكانت سدنة البيت لقريش ولبني عبد المطلب[1].

ويباح له دخول مكة بغير إحرام. كما يباح القتل في الحرم[2]. ومعظمها مسائل فقهية عليها خلاف. وكلها أفعال رمزية لها دلالاتها. فالطواف اجتماع الأمة على هدف واحد، والسعي الجهاد في البحث عن الماء أي إشباع الحاجات الأساسية، ورمي الجمرات إلى التغلب على أهواء النفس التي يرمز لها بالشيطان، والنحر إنقاذ الإنسان من الذبح والاغتيال كما يحدث في الصومال والسودان وأفغانستان وباكستان والعراق وفلسطين الآن. ويجوز له استمرار الطيب بعد الإحرام[3].

الحج شريعة إبراهيم هذبها الإسلام. الهدف منه ذكر الله وليس فقط اتباع مناسك إبراهيم. وحرم تلطخ جدران الكعبة بدماء الأضحية. ومنع عدم التزود واعتمادا على الله في السفر إلى الحج من أماكن بعيدة. ولم يصبح لقريش أي امتيازات فيه بل كان مناسبة للمساواة المطلقة بين البشر في ملابس الإحرام. وتحولت دلالته من دينية صرفة إلى دينية اجتماعية سياسية. ومنع الإسلام الحج الصامت. ويجوز الحضور إليه ركوبا وليس فقط ترجلا. وبعد العودة يتساوى الدخول من الأبواب من الأمام أو الخلف. وحرم الإسلام تعذيب البدن للاستغفار. وأضاف العمرة إلى الحج. كما سمح بالاتجار، وشرع الطواف. وبعد إصلاح الإسلام الحج في الجاهلية جعل أركانه الإحرام، والطواف، واستلام الحجر الأسود، وهو من بقايا الجاهلية، والسعي بين الصفا والمروة وأهدافه المركزية. رزق الثمرات. القيمة الاقتصادية للأضاحي بناء على الدعاء الإبراهيمي. والروحانية بغسل الذنوب[4]. الحج يساعد على توفير الاكتفاء

---

(١) «انزعوا بني عبد المطلب. فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم»، السابق ص٤٩٨، الفصول ص٤٦١-٤٦٢ «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم» ص٤٦٢، ألفية السيرة ص١٠٢ - سيرة النبي ص٤٨٣-٤٩٤، الأسوة الحسنة ص٥٤٤-٥٤٥.

(٢) خصائص الرسول ص١٦٤-١٦٦.

(٣) (المالكية)، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥١٥.

(٤) «إن الحج والعمرة يغسلان الذنوب كما تغسل النار درن ووسخ الذهب والفضة. والمؤمن الذي يمضي يوم عرفات محرما فإن شمس عرفات تأخذ معها ذنوبه وتغرب»، سيرة النبي جـ٥/ ٣٧١/ ٣٧٥-٣٧٦.

للأسرة لأنه لا يصح إلا لمن استطاع إليه سبيلا. كما يساعد على تحقيق وحدة الأمة بلغاتها وقومياتها وطوائفها ومذاهبها المتعددة. يشعر الجميع فيه بالمساواة بين أبناء البشر جميعا. مصدره الكسب الحلال وبالتالي الامتناع عن المال الحرام[١]. والأضحية، وحلق الرأس، ورمي الجمرات، كل ذلك له آدابه ومنافعه. وفي العيدين كان الرسول يضحي بيده ويسمي على الذبيحتين[٢]. فلا فرق بين الإسلام والديانات السابقة في التضحية بالحيوانات أو في مراسم الصوم والإفطار مع تغير أشكالها من دين إلى دين. عند أهل الكتاب هو الذبح وعند المسلمين النحر. والذبح قسوة على الحيوان في حين أن النحر دلالة على قيمة الإنسان. ومن اختصاصه التضحية عن أمته، أكل لحم الفجاءة (عظم بطن الناقة)[٣].

ثم تضاف مسألة الجهاد وهو الركن السادس في الإسلام في عدة أحكام منها عدم تراجع النبي عن الحرب إذا لمس لامته، فلا يجوز للرسول نزع اللامة إذا لبسها حتى يلقى العدو أو يحكم الله بينه وبين أعدائه. والشورى، ومصابرة العدو، وليس لنبي خائنة الأعين، والحرب خدعة، وأن يصطفي من المغنم ما يشاء[٤]. من خصائصه وجوب مصابرة العدو وإن كثر عددهم. وهو على أنواع: الجهاد بالنفس، والجهاد بالعلم، والجهاد بالمال، والجهاد الدائم. الجهاد عبادة. هو رأس الإسلام، وعموده

---

(١) سيرة النبي جـ٥/ ٣٣٧، في صفة قراءته، شمائل الرسول ص٢٧١-٢٧٤.

(٢) الأنوار جـ٢/ ٤٥٥-٤٥٩، الأسوة الحسنة ص٥٤٠-٥٤٢، كما اختص بساعة الإجابة وليلة القدر، وشهر رمضان، وبالخصال الخمس المكفرة عنه، وبعيد الأضحى، وبالنحر وكان لأهل الكتاب الذبح، وباللحد وكان لأهل الكتاب الشق، وبالسحور وتعجيل الفطر، وبإباحة الأكل والشرب والجماع ليلا إلى الفجر وبيوم عرفة كما هو الحال عند القونوي والصوفية، وجعل صوم عرفة كفارة ستين، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٣٥-٤٣٨ «إن الله وهب لأمتي ليلة القدر ولم يعطها من كان قبلهم» ص٤٣٥ «أمرت بعيد الأضحى جعله الله لهذه الأمة»، ص٤٣٧.

(٣) السابق ص٥٢٩.

(٤) الفصول ص٤٩٩-٥٠٤ «لا ينبغي لنبي إذا لبس لامة الحرب أن يرجع حتى يقاتل» ص٤٩٩، «إنه لم يكن لنبي خائنة الأعين»، «الحرب خدعة» ص٥٠٢، سيرة النبي ص٤٩٥-٤٩٧، خصائص الرسول ص١٣٨، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٨٧، سيرة النبي جـ٢/ ١٧٧-١٧٨ «ألك أبوان؟ ففيهما تجاهد» جـ٥/ ٣٨٥، «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» جـ٥/ ٣٨٥، «والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيى»، جـ٥/ ٣٨٧، سيرة النبي جـ٥/ ٣٧٧-٣٨٨ «المجاهد من جاهد بنفسه» جـ٥/ ٣٨١.

الصلاة، وذروة سنامه الجهاد. ويعني أن تكون كلمة الله هي العليا. وهو مستمر إلى يوم الدين وهو قصد الحياة والدين[1]. وتعلم فنون القتال ضرورة. واختص في شريعته بإحلال الغنائم[2]. ولا يذكر شيء في التشهد «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله»، وهو الركن الأول في الإسلام. شهادة وإعلان وليس صمتا وجبنا. وفعلان شعوريان، نفي وإثبات، نفي الآلهة المزيفة، المال والسلطة والجنس والشهرة، وإثبات الإله الواحد الحق الذي لا شريك له[3].

و- المعاملات

ويدخل السفر ضمن واجبات الرسول الشرعية في مجتمع تجاري[4]. فهناك أدعية تقال حين السفر أو وداع المسافر أو حين ركوب الراحلة أو السفينة أو إذا ضلت الدابة أو إذا رأى قرية يريد دخولها أو إذا نزل منزلا أو حين يرجع من السفر. وكلها عادات بيئية خاصة. فالراحلة أو الدابة هي القطار أو الطائرة. وكيف تكون الاستخارة في السفر بعد أن تكون المواعيد قد حددت، والمشاريع قد أعدت، والعقود قد أُبرمت في التجارة الحديثة؟[5]. وهل خير ما يترك المسافر لأهله قبل السفر لا زاد ولا مال بل ركعتين؟[6].

والأدعية عند السفر كثيرة، في بداية السفر هناك أدعية. ووسيلة السفر الراحلة أو

---

(١) معين الشمائل ص٤٤٠-٤٤٤، «ولا يزال من أمتي يقاتلون على الحق» ص٤٤١ «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق» ص٢٤٢، «من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى» ص٤٤٣.

(٢) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٥.

(٣) انظر مقالنا «ماذا يعني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله»، الدين والثورة في مصر حـ٧- اليمين واليسار في الفكر الديني، مدبولي، القاهرة ١٩٨٧، ص١٤٧-١٦٢.

(٤) سيرة النبي حـ٢/ ٤٧٨-٤٨٢، جـ٢/ ١٧٦ جـ٦/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٥) «إذا هم بالأمر فليركع ركعتين ثم ليقل: اللهم أني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر آجله وعاجله خير لي في ديني ودنياي فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري آجله وعاجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»، سيرة النبي ص٤٧٨.

(٦) «ما خلف أحد عند أهله خيرا من ركعتين يركعهما عندهم حتى يريد سفرا»، السابق ص٤٧٨.

السفينة المعروفة وقتئذ[1]. وهناك أدعية أخرى لتوديع الأهل قبل السفر[2]. وبعد العودة هناك أدعية ثالثة[3]. وهناك نصائح أثناء السفر عندما تنقلب الدابة ماذا يقال[4]. يُنادي على الناس لحبسها لأن الله حاضر في الأرض يساعد في ذلك، فإذا حل المسافر قرية فإنه يدعو[5]. ويحذر من صحبة الكلب أو الجرس في السفر حتى تأتي الملائكة. الكلب للحراسة والجرس للتنبيه. وما التناقض بينهما؟[6].

ثم تضاف مسائل شرعية متفرقة[7]. منها ما يتعلق بالأحوال الشخصية في المسائل المالية[8]. ومن استهان به بحضرته، والتسمية باسمه دون الكنية[9]. ونسبة أولاد بناته إليه وعدم انقطاع نسبه هو ما يستند إليه بعض أنظمة الحكم حتى الآن في الأردن والمغرب[10]. وعدم دخول النار أحد مما ناسب أو صاهر قفز إلى النتائج وحكم قبل

---

(١) «اللهم إني إليك توجهت، وبك اعتصمت، اللهم اكفني ما أهمني، وما لم أهتم له. اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير أينما توجهت، والدعاء المشهور «اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطوعنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في المال والأهل والولد. اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد»، «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا...»، سيرة النبي ص٤٧٩-٤٨٠.

(٢) «من أراد سفرا فليقل لمن يخلف: استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»، «إن الله إذا استودع شيئا حفظه»، «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»، «زودك الله التقوى،وغفر ذنبك، ويسر لك الخير حيثما كنت»، «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»، «اللهم أطوله البعد، وهون عليه السفر»، سيرة النبي ص٤٧٩-٤٨٠.

(٣) «آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون»، السابق ص٤٨٠-٤٨٢.

(٤) «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا، فإن الله في الأرض حاضر سيحبسه»، السابق ص٤٨١.

(٥) «اللهم رب السموات السبع وما أظللن،ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، نسألك خير من هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها. ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها»، «اللهم ارزقنا حماها، وأعذنا من وباها، وحببنا إلى أهلها،وحبب صالحي أهلها إلينا»، «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.. لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»، السابق ص٤٨١-٤٨٢.

(٦) «لا تصب الملائكة رفقة فيها كلب أو جرس»، السابق ص٤٨١.

(٧) الفصول ص٥٠٥-٥٢٣.

(٨) «خذي من ماله بالمعروف يكفيك ويكفي بنيك»، السابق ص٥٠٥.

(٩) «تسموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي»، السابق ص٥٠٦، «كل بني آدم ينسبون إلى عصبتهم إلا بني فاطمة فإنهم ينسبون إليّ وأنا عصبتهم»، ص٥٢١.

(١٠) «وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبي وسببي وصهري» ص٥٠٨.

الحساب[1]. كان أشد أمته بأسا. ويروى أنه كان يرى بالظلمة كما يرى في الضوء وهي رواية ضعيفة[2].

وفي العبادات والمعاملات عندما تأتي مادة السيرة من الفقه تُذكر المذاهب الفقهية الأربعة أكثر من القرآن والحديث. والسؤال هو: ما هي أسس المعاملات، أخلاقية أم اقتصادية؟ وقد تكون عادات شائعة تم تقنينها وتهذيبها مثل شعائر الحج. قد تكون مقاصد عامة للشريعة وليست أحاما شرعية خاصة. وقد يكون نكاحه عادات أو أذواقا أو ظروفا اجتماعية خاصة أكثر منها أحكاما شرعية عامة من خصائصه. يصعب تحويلها إلى قواعد عامة لكل الناس مثل الجمع بين أكثر من أربعة أو الزواج وهو محرم أو عدم زواج أرامله بعد وفاته[3]. وقد تشمل المعاملات الميراث والوصية والوقف والنكاح والطلاق والحدود والتعزيرات[4]. ومازالت المعاملات أصغر من العبادات. والعقائد أصغرها. والنبوة الأكبر مما يدل على ضعف العمليات وقوة النظريات[5].

وتقوم المعاملات على تقسيمات القدماء[6]. وفي إحدى السير الإصلاحية هي النظم السياسية. وهنا تبدو السيرة أحد فروع الفقه. وهي إما نواهي أو أحكام. وتشمل النظم السياسية موضوع الدولة[7]. وهو ما يسمى عند القدماء «الأحكام السلطانية»[8]. وفي

---

(١) «إني سألت ربي أن لا يدخل النار أحد ممن صاهرني أو صاهرت»، السابق ص٥١٩.

(٢) السابق ص٥١٩-٥٢١.

(٣) محمد رسول الله جـ٢/ ٣٤٩-٤١٢، سيرة النبي جـ٢/ ١٠٥-١١٣.

(٤) سيرة النبي جـ٢/ ١٠٥-١١٣.

(٥) السابق جـ٥/ ٢٢٦-٢٣٠، خصائص الرسول ص١٢٥-١٢٨.

(٦) قسمها الشاطبي في الموافقات إلى أربع: العبادات، والعادات، والمعاملات، والجنايات، وقسمها ابن النجيم في «البحر الراق» إلى خمس: «المعارضات المالية، النكاح، المخاصمات، الأمانات، الميراث، العقوبات»، سيرة النبي جـ٧/ ١٨-١٩، معاملاته مع الآخرين في بيته وخارجه، الأسوة الحسنة ص٢٤١-٣٤٨، معاملاته في بيعه وشرائه وإجارته واستجارته وحسن وفائه ومشاركته ومضاربته والحوالة والوكالة والرهن والهبة والهداية والعارية، والبيوع، الأسوة الحسنة ص٢٤٣-٣٤٨.

(٧) سيرة النبي جـ٧/ ١٧-٣١. ويضم مكانة وأهمية الحكم في الإسلام حـ٧/ ٣٢-٥٨، نظام الحكم في عهد النبوة، حـ٧/ ٥٩-١٤٤، العلاقة بين الدين والدولة، حـ٧/ ١٤٥-١٧٤، بعثة الأمة الإسلامية، حـ٧/ ١٧٥-١٩٤، القوة العاملة أو القوة الآخرة، حـ٧/ ١٩٥-٢٠٢، المبدأ الأساسي الثاني للحكم الإسلامي، الحاكم الحقيقي هو الله تعالى فقط، حـ٧/ ٢٠٣-٢٢٢.

(٨) السابق جـ٧/ ١٩.

الذهن حال النظم الإسلامية الآن، خاصة النظم العلمانية مثل الجمهورية التي أغرت الأمة ضد الملكية الوراثية، بالرغم من تحويلها الآن إلى جمهورية وراثية في بعض النظم. بلا أبواب ولا فصول ولا ترقيم للموضوعات الرئيسية السبعة. والهدف هو نقد القانون المدني والدفاع عن القانون الإلهي كما هو الحال لدى الجماعات السلفية المعاصرة. وتتم المقارنة مع النظم السياسية المعاصرة، الجمهورية والفاشية والنازية والإمبريالية. القانون الإلهي ثابت والقانون المدني متغير، مع أن القانون الإلهي في جزئياته تغير بتغير الظروف. ويختلف في تأويلاته وتفسيراته بدليل المذاهب الفقهية المتعددة. والقانون المدني به بعض الثوابت وهي المبادئ الإنسانية العامة مثل حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية[1]. القانون الإلهي مقاصده وليس حدوده. ويبدو الموضوع مضافا إلى السيرة وخارجا عنها.

كما تغلب على المعاملات النظم السياسية الحديثة، الجمهورية والاشتراكية، والحاجة إلى القانون الإلهي الثابت والقائم على القانون الطبيعي[2]. كما يتطرق إلى نظام الحكم في عهد النبوة، والعلاقة بين الدين والدولة وتحليل ألفاظ الفلسفة السياسية الإسلامية مثل الرعية والسلطنة والملوكية[3]. كما يتطرق إلى موضوع بعثة الأمة الإسلامية، والقوة العاملة أو القوة الآمرة فيها وإلى مبدأ الحاكمية الذي انتشر في الفكر الإسلامي المعاصر من الهند وباكستان حتى مصر وسائر أرجاء الوطن العربي ويتنبأ بانهيار إمبراطوريتي الفرس والروم الجدد كما تنبأ الرسول بانهيار القدامى[4].

وحاكم المسلمين واحد منهم. ولا يتميز عنهم في لباس أو حق[5]. الله هو الحاكم،

---

(١) السابق جـ٧/ ٢٣-٢٧.

(٢) سيرة النبي جـ٧/ ١٧-٣١.

(٣) السابق جـ٧/ ٣٢-١٧٤.

(٤) السابق جـ٧/ ١٧٥-٢٢٢. وذلك عند المودودي وسيد قطب، انظر الدين والثورة في مصر جـ٥، الحركات الدينية المعاصرة، أثر أبي الأعلى المودودي على الجماعات الدينية المعاصرة ص١٢٣-١٦٦، أثر الإمام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة ص١٦٧-٣٠٠، «أرأيتم أعطيتم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم؟.. تقولون لا إله إلا الله، وتخلفون ما تعبدون من دونه»، جـ٧/ ٥١، «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده»، جـ٧/ ٦٥ .

(٥) «إنما يلبس هذه من الأخلاق له»، سيرة النبي جـ٧/ ٧١. «السيد الله» جـ٧/ ٧٥، «إن الشمس والقمر

والشمس والقمر ظاهرتان طبيعيتان لا يتأثران بموت أحد. الخطورة أن يستمد الأخير سلطانه من الله[1]. الحاكم خادم الناس ويقضي حاجاتهم. وما يزال في الأمة رجال قادرين على الفتح.

وتختص الأمة بالاستغفار، وغفر الذنوب، والندم والتوبة[2].وقد كتب ذلك الله قبل خلق الخلق بألفي عام أن رحمته سبقت غضبه، وعطاءه قبل سؤاله، ومغفرته قبل استغفاره. كما تختص الأمة بوضع الإسر الذي كان على الأمم السابقة عنها، وتحليل ما حرم على السابقين، ورفع الحرج في الدين، والخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وحديث النفس. من هم بسيئة تكتب حسنة، ومن هم بحسنة تكتب له حسنة. فإن تمت كتبت له بعشر. ووضع عنهم قتل النفس أي الانتحار، وغسل النجاسة، والزكاة، والتخيير في القصاص، والدية، ونكاح أربع، ونكاح الأمة، ومخالطة الحائض سوى الوطأ، وإتيان المرأة على أي شق شاء الرجل، وتحريم كشف العورة، والتصوير، وشرب المسكر[3]. وكلها اختصاصات جماعية وفردية، عامة وخاصة. وفيها ردود أفعال على

آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»، «هون عليك فإنني لست بملك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد»، سيرة النبي جـ٧/ ٧٦. «والسلطان لما على الأرض الله في إليه كل مظلوم من عباد الله» جـ٧/ ١٠٨، «سبعة يظلهم الله في ظل يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل» جـ٧/ ١٠٩.

(١) «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»، السابق جـ٧/ ١٤٦، «ما من إمام يغلق بابه من ذوي الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته» جـ٧/ ١٤٨، «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر» جـ٧/ ١٥٦ «إن الإمام جُنة يقاتل من ورائه ويتقي به فإن أمر بتقوى الله وعدل فيه فإن له بذلك أجرا وإن أمر بغيره فإن عليه وزرا» جـ٧/ ١٥٨، «تخلقوا بأخلاق الله» جـ٧/ ١٧٢، «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم. لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»، جـ٧/ ١٨٢.

(٢) «أعطيت هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطها إلا الأنبياء»، «كتاب كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بمائتي عام. ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي. أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيت منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبدي ورسولي أدخلته الجنة»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٣٣-٤٣٤.

(٣) السابق جـ٢/ ٤٤٢-٤٤٩ «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ص٤٤٤، «إن نبي إسرائيل كان إذا أصاب أحدهم البول قرض بالمقراض» ص٤٤٥، «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» ص٤٤٦، «لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» ص٤٤٧، «إنه مما وسع الله به على هذه الأمة نكاح النصرانية والأمة» ص٤٤٨.

الشريعة اليهودية. وأمته لا تهلك بجوع ولا بغرق، ولا تتعذب بعذاب عذب به من قبلها، ولا يسلط عليهم عدو غيرهم، ولا تجتمع على ضلالة، إجماعها حجة، واختلافها رحمة في حين كان اختلاف من قبلها عذابا[1]. لها الجنة، الطاعون لها رحمة وشهادة. وكان عذابا على الأمم السابقة[2]. وتأكل الأمة صدقاتها في بطونها، تثاب عليها في الدنيا والآخرة. وكلما دعت الله استجيب لها[3]. وقد نودي على الأمة في القرآن بنداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وعلى سائر الأمم «يا أيها المساكين». يحمدون الله ويكبرونه ويسبحونه. وهي أمة وسط. تقاتل معها الملائكة. فرض عليها الوضوء والغسل والجمع والجهاد والنوافل كالأنبياء. ثوابها أكثر من ثواب باقي الأمم. وأوتيت العلم والإسناد والأنساب والأعراب وتصنيف الكتب. وعلماؤهم كأنبياء إسرائيل. هم الآخرون في الدنيا، الأولون في القيامة، في وضع عال في الموقف، غُر محجلون من آثار الوضوء، أثقل الناس وزنا[4]. الأمة خير الأمم وآخرها. نقدتها ولم ينقدها أحد. ميسرة لحفظ كتباها في الصدور دون تحريفه. اسمها اسمان مشتقان من أسماء الله: المسلمون والمؤمنون. ووصف الدين باسم الإسلام والأنبياء المسلمون على غير الأمم السابقة التي لم يأخذ أنبياؤها اسم الدين[5]. ويدخل الجنة المسلمون قبل غيرهم من الأمم.

خامسا ـ تصورات حسية:

ويظهر وصف الرسول حديثا في البداية منذ القرن الرابع. وهو وصف الآخرين جسده وعقله وسلوكه مع أهله ومجلسه وسيرته مع جلسائه، وسكوته. ويطلب الرسول باتباع سنته. فاتسعت السنة. وأصبحت أسلوب حياته الشخصية وعاداته[6]. وقد انتهى هذا الوصف الكامل للجسد عند الصحابة والصوفية والنساء الشعراء إلى مدحه والتغزل فيه وفي محبته[7].

---

(١) الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٥٠-٤٥١.

(٢) السابق ص٤٥٢-٤٥٤ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله»، ص٤٥٢.

(٣) السابق جـ٢/ ٤٣٣-٤٣٤.

(٤) السابق جـ٢/ ٤٥٥-٤٥٨/ ٤٧٧-٤٨٢.

(٥) السابق جـ٢/ ٤٣٩-٤٤٠.

(٦) البستي حـ٢/ ٤١٠-٤١٦، «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»، السابق ص٤١٥.

(٧) بهجة المحافل ص٤٣٧-٤٣٨.

١ - سمات الجسد

ويوصف شكله الخارجي من بدوية بألفاظ بدوية وصور رعوية بعد أن مسح الرسول ضرع شاة لها مجهودة، وشرب من لبنها، وسقى أصحابه. فلما سئلت من هو وصفته بأنه ظاهر الوضاءة، مشرق الوجه، حسن الخلق، ليس سمينا ولا نحيلا، ورأسه لا صغيرة ولا كبيرة، وسيم حسن القسمة، سواد العينين، وعلى الجفنين شعر كثيف، وفي صوته بحة، لا قليل ولا كثير وكأنه رسم فنان لشخصية مثالية أو بطل فيلم. ويسمى في سيرة أخرى «صفته الظاهرة»[1]: الطول، واللون، ونعومة الشعر، واللحية، والوجه، والعينان، والمشي، والصوت، والخدان، والفم، والبطن، والصدر، والزندان، والمشي، والرداء[2]. وأحيانا يعم لفظ الصفة هذه السمات الجسدية. تشمل الخصائص العامة الحسية والمعنوية[3]. وهناك أيضا وصف لصفاته الجسدية، وتبدو فيها الوسطية والاتزان، ورفض الأطراف طبعا، والذوق العربي[4].

---

(١) «رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، منبلج الوجه، حسن الخلق، لم تصبه ثُجله، ولم تُزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي الشفاه وطف، وفي صوته ضحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة. إذا صحت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرازات نظم يتحدرن، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين. فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا. له رفاق يحنون به، إذا قال استمعوا لقوله. وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفور محشود، ولا عابس ولا مُفنّد»، الإشارة ص١٥٩-١٦١، شمائل الرسول ص٣٢-٣٨، خير العباد ص٦٣.

(٢) الفصول ص٣٣١-٣٣٦، ألفية السيرة ص٦٨-٨٠، في صفة خلقه الوسيم، وتناسب أعضائه واستواء أجزائه، وما جمع الله فيه من الكمالات، بهجة المحافل ص٤٣٥-٤٣٩، سيرة النبي ص٤٢٥، صفاته الظاهرة وإن شارك فيها غيره، السيرة الحلبية حـ٣/ ٤٦٦-٤٧٠، جمال الخلق، الرحيق المختوم ص٤٧٩-٤٨٣، حسنة الباهرة، السيرة النبوية (٢) ص٤٠٩-٤١٠، شمائل النبي ص٣٣-٤٢، عيون الأثر ص٤٢٤، حسنة الباهر بعد ما تقدم من حبه الطاهر، شمائل الرسول ص٩-١٤، وجه الرسول ومحاسنه من فرقه وجبينه وحاجبيه وعينيه وأنفه وفمه وثناياه، وطلعته ومحياه ص١٤-٢٠، شعره ص٢٠-٢٣، في منكبيه وساعديه وإبطيه وقدميه وكعبيه ص٢٣-٢٤، قوامه وطيب رائحته ص٢٤-٢٨، «حبب إلي من دنياكم ثلاث، النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، ص٢٨.

(٣) سيرة النبي حـ٢/ ١١٤-١٢٠.

(٤) ليس طويلا ولا قصيرا، ولا أبيض ولا أحمر ولا أسمر ولا متجعد الشعر ولا مسترسله. وتوفى وليس في رأسه ولا لحيته عشرون شعرة بيضاء. ويقال كان شعره أحمر. كان ضخم الرأس واللحية، خشن الكفين، ضخمة الكرادس (شعر الصدر). إذا مشى مال إلى الأمام. كان ضليع الفم، (حمرة وبياض)، قليل لحم العقب. كان دقيق الساقين. وأكحل العينين. أحسن من القمر، أفلج الثنيتين، مربوع المنكبين، له شعر بلغ

وصف علي للرسول بأنه لم يكون طويلا ولا قصيرا أي متوسطا مثل رسالته، ولم يكن شعره أجعد، وكان مسرح للشعر. ولم يكن ضخما أي استبعاد كل الصفات المتطرفة. وكان أبيض الوجه مما لا يتفق مع سمرة العربي بل مع رمز البياض وهو الصفاء، أسود العينين، طويل الأشعار، عظيم رءوس المفاصل وما بين الكتفين، دقيق الشعر ما بين الصدر إلى الصرة، قليل شعر الجسم، غليظ الكفين والقدمين كناية عن القوة والسعي إذا مشى لم يثبت القدمين دليلا على الخفة والارتفاع وكأنه يمشي في منحدر من الأرض. وإذا التفت التفت معا، بين كتفيه خاتم النبوة. أجود الناس كفا، وأجرأ الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة[1]. من رآه هابه، ومن خالطه أحبه. لا يوجد مثله من قبل أو من بعد[2]. وواضح الدلالات النفسية على الصفات البدنية كما هو معروف في علم الفراسة عند العرب الذي أبدع فيه الأطباء العرب كالرازي وابن سينا.

ويوصف باقي الأنبياء وبأشكال الصحابة تقريبا للفهم، فموسى كأنه من رجال قبيلة شنوءة. وعيسى أشبه بعروة بن الورد. وإبراهيم أشبه بالنبي، وجبريل أقرب إلى دحيه[3]. وهي روايات وليست أقوالا مباشرة لأن الإنسان لا يصف جسده بل يصفه الآخرون. وهي في جبلته خِلقة غير مكتسبة[4]. آدم ستون ذراعا في السماء[5].

أذنه. كان أبيض مليحا مقصدا (متوسطا)، أبيض كأنما صنع من فضته، الأنوار حـ١/ ١٤١-١٤٧.

(١) جـ١/ ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) وهو ما يسمى بالفراسة.

(٣) «عرض علي الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنما من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود. ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت شبها صاحبكم، ورأيت جبريل فإذا أقرب من رأيت من شبها دحية»، السابق ص١٤٤-١٤٥.

(٤) الشفا حـ١/ ٨١-٨٥.

(٥) «على صورة أبيهم آدم، طوله ستون ذراعا في السماء»، «رأيت موسى فإذا هو رجل ضرب رجل أقنى كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة، كثير خيلان الوجه، أحمر كأنما خرج من ديماس، مُبطن مثل السيف»، الشفا حـ١/ ١٨٩، بهجة المحافل ص٤٣٦. «وأنا أشبه ولد إبراهيم به»، «وموسى كأحسن ما أنت راء من آدم»، «ما بعث الله تعالى بعد لوط نبيا إلا في ذروة من قومه»، الشفا حـ١/ ١٨٩. «كان موسى رجلا حييا ستيرا، ما يُرى من جسده شيء استحياء...»، السابق ص١٩١، صفة جسمه ولونه، السيرة النبوية ص٤١٠-٤٦٢، شعره، شمائل الرسول ص٢٠-٢٣، طوله، الخصائص الكبرى ص١٦٣.

ويصف بعض المؤرخين وكتاب السيرة جسم الرسول، ودلاله الأوصاف الجسمية على الصفات النفسية كما هو معروف في علم الفراسة عند العرب. كان الرسول فخما مفخما يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر، عظيم الهامة رجل الشعر، أزهر اللون، واسع الجبين، كث اللحية، معتدل الخلق، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، يمشي الهوينا. وكان منطقه متواصل الأحزان، دائم الفكرة، طويل السكت، دمث لا يذم، ولا تغضبه الدنيا. قسم حياته ثلاثة أقسام، قسمة لله، وقسمة لأهله، وقسمة لنفسه. يؤثر أهل الفضل. يكرم الكريم، ويحذر الناس ويحتذر، يتفقد أصحابه، يحسن الحسن، ويقبح القبيح، لا يقصر عن الحق. كان مع جلسائه دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب. يسكت على الحلم والحذر والتقدير والتفكر[1]. وكان أكمل الناس في خُلقه أي في هيئة جسده، متوسط القامة لا قصيرا ولا طويلا، لا أسود ولا أبيض، حسن الوجه والصوت، كريم الجسد[2]. وتسمى أحيانا حليته[3].

وكان بين كتفيه خاتم النبوة الذي يوصف مع ولادته في السيرة[4]. فهو دليل حسي بدني خلقي وكأن النبوة في حاجة إلى دليل حسي وليست إعجازًا بلاغيا وعقليا وتشريعيا. خاتم النبوة على ظهره وكأن النبوة صفه جسدية في شكل خاتم مثل الخاتم الذي في إصبع الملك والذي كان للرسول أيضا منقوش عليه «محمد رسول الله». يختم به رسائله إلى الملوك. وقد ولد مختونا لم ير أحد سوأته وكأن رؤية سوأة الأنبياء عيب كما هو الحال في رؤية سوءات باقي البشر، وضرورة التغطية وعدم الكشف إلا في مواقف الألفة والمحبة بين اثنين[5]. ولم يكن له ظل وكأن الظل عيب في حين أنه نتيجة طبيعية

---

(١) علم الفراسة Physionomie عند الرازي مثلا. سمته وهويته، معين الشمائل ص١١٨-١٣١، قوامه وطيب رائحته، شمائل الرسول ص٢٤-٢٨.

(٢) الخصائص الكبرى حـ١/ ١٧١-١٨٣. «اللهم كما حسنت خلْقي فأحسن خلقي، وحرم وجهي على النار، الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله وأحسن صورتي، وزان مني ما شأن من غيري»، بهجة المحافل ص٤٩٨، «في صفة خلقه وما يناسبها في أوصافه الشريفة»، شمائل الرسول ص٥٧-١٠٤.

(٣) سيرة المصطفى ص٤٦-٦٥، في جمال صورته، شمائل الرسول ص٥٩-٧٥.

(٤) السيرة النبوية ص٤١٧-٤١٩، شمائل النبي ص٤٢-٤٦، عيون الأثر ص٤٣٢-٤٣٣، شمائل الرسول ص٢٨-٣١، سيرة النبي حـ٢/ ١٦٠.

(٥) «من كرامتي أني ولدت مختوما ولم ير أحد سوأتي»، خصائص الرسول ص٣٠١-٣٠٢، «معين الشمائل ص٢١.

لانكسار الضوء على الأجساد[1]. وكانت له آية أخرى في قدمه[2]. وكان إبطه أبيض بلا شعر وكأن السواد عيب والشعر نقص وليس نتاجا طبيعيا للنمو البدني. تحلقه الرجال والنساء حرصا على النظافة. ويُوضع مكانه الطيب[3].

وتشمل الصفات البدنية شعره وشيبه، طيب ريحه، فعله عند العطاس، مشيه، جلوسه، واتكاءه، نومه. وهي كلها صفات أو عادات بدينة لا فضل فيها لأحد لأنها خلقية، ولا فضل فيها لأحد على أحد لأن البشر مختلفون[4]. ونظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد وهي نظافة الشرع التي بنيت على الفطرة[5]. فقد بُني الدين على النظافة، وكان الرسول يكتحل بالإثمد وهو نوع من الكحل يجلو البصر، وينبت الشعر[6]. وهو ما يعيب الرجال حاليا، ولا يستحسن إلا من النساء، وشعره طاهر اتفاقا[7]. وهو ما تقوم بصباغته النساء هذه الأيام.

وكان الرسول يتطيب في رأسه ولحيته بأنواع متعددة من الطيب منها العود[8]. وكان لا يرده إذا أعطاه أحد له أو طيبه به. وكان يحب أن يلقى أصحابه متطيبا. وبالليل يخلو ويستنجي ويستاك ثم يطلب الطيب في جميع رباع نسائه. وهناك فرق بين تطيب الرجل وتطيب المرأة. طيب الرجل ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب المرأة ما ظهر لونه وما خفي ريحه. وما الفرق بين حاستي النظر والشم في معرفة المرأة أو الرجل؟[9]. والريحان

---

(١) الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٤.

(٢) السابق ص١٦٥.

(٣) السابق ص١٥٣، خصائص الرسول ص٣٠٦.

(٤) شعره وشيبه، الأنوار حـ١/ ١٤٨-١٥٣، خاتم النبوة، طيب ريحه ١٥٧-١٦٠/ ١٥٤/ ١٥٧-٣٥١/ ٣٥٨، شعره، السيرة النبوية ص٤١٤-٤١٥، طيب رائحته ص٤١٥-٤١٧.

(٥) الشفا حـ١/ ٨٥-٩١/ ٢٠٠-٢٠٢/ ٢٠٩-٢١٤، صفة عرقه، شمائل الرسول ص٨٤-٨٦، صفة طيبه، شمائل الرسول ص٨٧-٨٨، عرق وطيب رائحته، معين الشمائل ص١٢٣.

(٦) «إن خير أكحالكم الأثمد، يجلو البصر وينبت الشعر»، صفة شعره وساعديه وإبطيه، وقدمه وكعبيه، شمائل الرسول ص٢٣-٢٤، شمائل النبي ص٥٧-٥٩.

(٧) خصائص الرسول ص٢٧٦.

(٨) الأنوار حـ٢/ ٦٧٧-٦٨٠، شمائل النبي ص١٢٩-١٣٢، عيون الأثر ص٢٤٢، سيرة النبي حـ٢/ ١٦٧.

(٩) «طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه»، «إذ أُعطي أحدكم الريحان فلا يرده فإنه خرج من الجنة»، بهجة المحافل ص٤٩٧، الأسوة الحسنة ص٤٨١-٤٨٢، شمائل النبي ص١٣١، «ثلاث لا ترد: الوسائد، والدهن، واللبن»، شمائل النبي ص١٣٠.

من الجنة لا يُرد. وكان يرجل شعره ويتعهده ويدهنه[1]. فكان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. ويغسل رأسه بالسدر. وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به تأكيدا على الاستمرار بين الإسلام واليهودية والنصرانية. وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم. وكان المشركون يفرقون رؤوسهم. فسدل الرسول ناصيته ثم فرق فيها بعد. وكان يحتجم ويقص شعره وأظافره[2]. فالحجامة دواء[3]. وكانت له مواعيد للحجامة. وقد تكون في المسجد. ويجز شاربه مثل إبراهيم. وكان يقسم حلقه بين الناس بداية لتقديس الجسد. وكان مع قص الأظافر ينتف الإبط، ويحلق العانة ليس أكثر من أربعين ليلة. وحلق الرأس لا يكون إلا في حج أو عمرة. وقد اتهم الخوارج بالتحليق. فإما الحلق كله أو الترك كله. والنساء لا تطيلن شعورهن ولا تضعن الوشم حتى لا يغيرن خلق الله. والأمر كله مصلحة أو ضرر. إذ اشتكى أعرابي للنبي أن الهوام تؤذيه في شعره فأمره بالحلق[4]. مع أنه من جمالات بعض النساء في الريف والحضر إطالة الشعر حتى منتصف الظهر في مقابل جمال الحضر في لم الشعر «الشنيون» الذي يقتضيه مصفف ماهر، وشعر ناعم.

وما يعتبر من الفطرة عادات اجتماعية مثل الختان، والتيمن، وحلق الرأس، والسواك، والتطيب، وإسدال الشعر، وإرخاء اللحى من أجل مخالفة المجوس[5]. والبعض طبقا لقواعد النظافة مثل السواك والتطيب. والبعض غير معقول مثل عدم دخول الحمام أو الحديث فيه، وضعه الخيال.

وكان وجهه يشع بنور العرش[6]. وهي صفة جامعة بين الله والرسول، وتبدو

---

(١) الأنوار جـ٢/ ٦٨١-٦٨٥، الأسوة الحسنة ص٤٨٢-٤٨٣، استعماله المشط واكتحاله ونظره في المرآة ص٤٨٣.

(٢) السابق جـ٢/ ٦٩١-٦٩٧.

(٣) «إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط (بخور) لصبيانكم من العذرة (داء الحلق)، ولا تعذبوهم بالغمز (عصر الدمل)»، السابق ص٦٩١.

(٤) «أحلقوه كله أو اتركوه كله»، «لعن الله الواصلة والمستوصلة»، بهجة المحافل ص٥٠٨، الأسوة الحسنة ص٤٨٣-٤٨٥.

(٥) «قصوا الشوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس»، خير العباد ص٦٥٧-٦٨١.

(٦) «جاءني جبريل فقال إنه يقرأ عليك السلام ويقول لك حبيبي إني كسوت حسن يوسف من نور الكرسي، وكسوت حسن وجهك من نور عرشي»، السابق ص١٥٢-١٥٣.

الخصائص في عينيه[1]. وكان يسمع ما لا يسمعه الآخرون[2]. وفمه وريقه وأسنانه آيات معجزات. إذا بصق في بئر زاد، وفاح منه المسك، وكانت مياهه أعذب مياه. وكان لسانه إذا مصه أحد روي كما فعل في الحسن والحسين[3].

وكان يرى من وراء ظهره، حتى يكون أكمل البشر الذين يرون أمامهم فقط. وهذا يعني الحس والتحفظ واليقظة والانتباه. وكان يرى في الظلمة كما يرى في النور بعين البصيرة. وكان يرى في الثريا أحد عشر نجما[4]. وكان صوته يبلغ كل شخص في حين أن صوت كل شخص آخر لا يبلغه. وهو عدم مساواة في التراسل، فالعطاء مثل الأخذ، والتراسل متساوي الطرفين[5]. كان لا يرفع صوته على عكس ما تعود عليه العرب هذه الأيام. وكان يستعمل لغة الجسد والإشارة وتحريك يديه حين يتكلم أو يتعجب. وطوله كان آية، وهو ما لا دخل للإنسان فيه بل يولد به، ولم يكن يُرى له ظل. وهو تصوير مضاد للنور. ولا ينزل الذباب عليه ولا على ثيابه[6]. والذباب أمر طبيعي ونزوله على أحد ليس عيبا. وهو أمر ليس بيد أحد، وكان شعره يجمعه الناس بعد حلقه ليجلب لهم الرزق والنصر[7]. وكان الناس يتبركون بعرقه ويجمعونه في قارورة. وهو ما يستحيل عمليا لأن العرق ليس بهذه الكثرة، ولا يخرج في صنبور[8]. يشفي به المرضى ويتطيب به الناس. وكان الناس يشربون دمه حتى لا يذوق جسدهم النار[9]. وكان محفوظا من الاحتلام وكأن الاحتلام عيب ونقص، يعبر عن تمني ما لا يوجد، والمرأة موجودة

(١) «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون»، السابق ص١٥٩-١٦٠، وصفه عضوا عضوا، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٤١٥.

(٢) السابق حـ١/ ١٤٩-١٥٠ «إني أراكم من وراء ظهري»، صفة بصره، شمائل الرسول ص٧٦-٧٨.

(٣) السابق ص١٥٣، خصائص الرسول ص٣٠٦.

(٤) خصائص الرسول ص٢٧١/ ٢٩٩/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٥) الخصائص الكبرى حـ١/ ١٥٩-١٦٠، صفة صوته، شمائل الرسول ص٨٩-٩٠، في صفة كلامه وسكوته، ص١٠٠-١٠١/ ٨٩-٩٠، الأسوة الحسنة ص٤٥٣-٤٥٥.

(٦) الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٣-١٦٤.

(٧) السابق حـ١/ ١٦٤، شمائل النبي ص٤٦-٥٢، سيرة النبي حـ٢/ ١٦٠.

(٨) الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٠-١٦٣ «أتيني بقارورة واسعة الرأس وعود شجره... مر ابنتك أن تغمس هذا العود في القارورة، وتطيب به» ص١٦٢-١٦٣.

(٩) السابق ص١٦٥.

دائما[1]. وكانت الأرض تبتلع بوله وغائطه[2]. ويستشفى ببوله إذا شربه إنسان يشتكي بطنه[3]. لا يتثاءب ولا يتمطى وهي من وظائف البدن البيولوجية لا عيب فيها. وكان القمل لا يؤذيه وهو ضد متطلبات النظافة[4]. وهناك تقديس جسد الرسول وفضلاته، دمه وريقه وبوله كان يستشفي ويتبرك ببوله ودمه. وأخبر الرسول امرأة تشرب بوله بأن الوجع لن يصيب بطنها. ويضاف القيء أحيانا[5]. ومن كراماته اختصاصه بطهارة دمه وبوله وغائطه[6]. وقد بدأ تقديس أجزاء من جسد الرسول ومحيطه في حياته مثل القدم المباركة في إحدى روايات المعجزات والتعبير عن ذلك شعراء. فالخيال شعر، والشعر خيال[7]. وكثير من الأمور رجم بالغيب لا دليل عقلي عليها مثل عدم أكل الأرض أجسام الأنبياء. وهو ما يعارض الحفائر وعظام الأنبياء ورفاتهم[8]. فلا يجوز أن ينطبق عليه ما ينطبق على الآخرين بالرغم من وصفه بأنه ميت مثل الآخرين ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. فما لزوم وصف جسده، حسنة الباهر، وجسمه، ولونه، وشَعره، وطيبَ رائحته، وخاتم النبوة بين كتفيه لو أمكن تبرير أخلاقه وشمائله، كرمه، وتواضعه، ومزاحه، وزهده، وعبادته، وشجاعته؟[9].

٢- العادات الجسدية

وكان لا يتثاءب[10]. أما العطس فممكن مع وضع اليد أو المنديل على الفم. في مشيه

---

(١) «ما احتلم نبي قط وإنما الاحتلام من الشيطان»، السابق ص١٦٨.

(٢) «إنا معشر الأنبياء تنبت أجسادنا على أرواح أهل الجنة. فما خرج منها من شيء ابتلعت الأرض»، السابق ص١٦٩-١٧٠، خصائص الرسول ص٢٩٩-٣٠٠، «يا عائشة أما علمت أن الله تعالى أمر الأرض أن تبتلع ما خرج من الأنبياء»، خصائص الرسول ص٣٠٠،

(٣) السابق ص١٧٠-١٧١.

(٤) خصائص الرسول ص٣٠٣-٣٠٦، الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٤.

(٥) «من مس دمي دمه لم تمسه النار»، محمد رسول الله حـ١/ ٣٥٥، خصائص الرسول ص٢٧٦، «لا يجع بطنك» ص٢٧٨، الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٥، «المعجزة في بوله وغائطه ص١٦٩-١٧٠، الاستشفاء ببوله ص١٧٠-١٧١.

(٦) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٣٤-٥٣٧ «خالط دمي بدمه ولا تمسه النار»، ص٥٣٦.

(٧) سيرة النبي حـ٢/ ٣٧٠.

(٨) «وبعد وفاتي إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، وفاة الحبيب ص١٩١، بهجة المحافل ص٦٢٧، خصائص الرسول ص٢٩٣-٢٩٤ «وبعد الموت إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء فنبي الله حي يرزقه»، الخير الكثير ص٥٩.

(٩) خلاصة ابن كثير ص٤٠٧-٤٣٧.

(١٠) «ما تثاءب النبي قط»، الخصائص الكبرى حـ١/ ١٥٨، حفظه من التثاؤب، حـ١/ ١٥٨-١٥٩، آداب

يطأ الأرض بقدمه كله دون أن يكون له أخمص يسرع ويهرول في مشيه[1]. يسير وراء صحبه حتى يترك ظهره للملائكة، عيناه تنامان ولا ينام قلبه[2].

وكان قويا في جماعه. أُعطي قوة أربعين رجلا[3]. وفي رواية قدر فيه لحم. وفي رواية ثالثة القوة في البطش والنكاح. وهما عاطفتان نقيضتان، البطش عداوة، والنكاح محبة. وقد فضل الرسول على سائر الناس بأربع: السماحة والشجاعة وكثرة الجماع والبطش. ويقتضي العطاس وضع اليد أو الثوب على الفم حماية للجالسين من الرذاذ واحتمال انتقال العدوى[4]. وهذا هو معنى دخول الشيطان فيه، وإذا كان العطاس أفضل من التثاؤب فلأن العطاس يدل على اليقظة في حين أن التثاؤب مؤشر على الكسل والرغبة في النوم. وكلاهما حاجتان للجسد لا فضل لأحدهما على الآخر، فعلان بيولوجيان. ويتحول العطس إلى فعل اجتماعي بالتشميت، من فعل فردي إلى فعل اجتماعي. وعدم العطاس من آداب المجالس، والتناجي والتثاؤب والجشاء. ولا يقام للقادم[5]. ولا يجوز التفريق بين اثنين أو إقامة رجل من مجلسه كي يجلس فيه آخر. ولا يجوز القيام لأحد. وإذا قام أحد من مجلس وعاد فهو أحق به. ولا يتناجى اثنان دون الثالث. ولا يجوز أن يتقدم الصغير على الكبير. وعطاس الرسول فعل عضوي محض، لا إرادي، لا شأن له

المجلس.

(١) «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»، السابق ص١٦٦.

(٢) «أتاني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلا في الجماع»، السابق ص١٦٧-١٦٨، «فضلت على الناس بأربع بالسماحة والشجاعة وكثرة الجماع والبطش» ص١٦٨، في قوته، شمائل الرسول ص١٠٢-١٠٤.

(٣) خير العباد ص٦٧٥-٦٧٧ «دعوا ظهري للملائكة» ص٦٧٦ «في عاداته وسجيته في المباحات والمعتادات والضروريات»، بهجة المحافل ص٤٨٧-٥١٣. «إذا تثائب أحدكم فليمسك بيده على فمه فإن الشيطان يدخله» سيرة النبي ص٥٠٥-٥٠٦.

(٤) «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم حمد الله. كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول له يرحمك الله. وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان. فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان»، ويقال مع التشميت «يهديكم الله ويصلح بالكم»، بهجة المحافل ص٥٠٩-٥١١، سيرة النبي ص٥٠٥، صفة عطاسه، شمائل الرسول ص٩٣-٩٩.

(٥) «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»، «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»، «من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»، معين الشمائل ص٣٢٨-٣٣٥.

بخصائصه النفسية أو الخلقية أو الشرعية أو الدينية[1]. إنها علاقات اجتماعية وترابط أخوي. يقابل الآخر بالتشميت[2].

ومن الصفات ما هو أقرب إلى العادات الشخصية والاجتماعية والتي تتغير من فرد إلى فرد، وتختلف من بيئة اجتماعية إلى بيئة اجتماعية أخرى. فالبدو غير الحضر[3]. فالجلوس والاتكاء والقعود والقرفصاء عادات تتوقف على قدرات البدن ومتانة المفاصل، لا فضل فيها لأحد على أحد كما هو الحال في المساجد عندما يجلس كبار السن والمرضى على مقاعد آخر الصفوف، وكان إذا جلس كان أعلى من الجلوس[4]. والتوكؤ فعل العجائز على الشباب. وهي عادات لا بأس بها مثل قراءة الرسول القرآن ورأسه في حجر عائشة وهي حائض[5]. والمشي عادة بدنية تتوقف على قدرات الجسد، بدانة أو نحافة، قصر خطوة أو طولها، قصر بدن أو طوله. وليس في النبوة منها شيء[6]. وكلها روايات وليست أقوالا مباشرة. لا صواب فيها ولا خطأ. يمشي متكفيا، مسرعا، لا عاجزا ولا كسلانا. تمشي الملائكة وراءه. فالعادة البدنية الخالصة مناسبة للخيال. وقد يمتد المشي إلى آداب الطريق عامة، طريقة المشي، والسلام، وعدم إيذاء الناس بالحمل، وعزل الأذى عن الطريق، وآداب الجلوس فيه. والتوكؤ على عصى من أخلاق الأنبياء، ومؤشر على الكهولة وكبر السن والاحترام. وهي صورة شيخ البلد في الأدب

---

(١) الأنوار حـ١/ ٢٦١-٢٦٣.

(٢) «إن هذا حمد لله وإنك لم تحمد»، السابق ص٢٦٣.

(٣) مثل المشي، والجلوس، والاتكاء، والنوم، والأكل، والطعام، والأدام، والتمر، والفواكه، والشرب، والسقي، والشراب واستعذاب الماء، والقدح، والصحفة، والقول عند الفراغ من الأكل، والدعاء للضيف، والضيافة والوليمة، والنكاح والمعاشرة وحب النساء، والتطيب ومحبة الطيب، وترجيل الشعر وتعهده وتدهنه، والمشط والمرأة والمرءاة، والاكتحال، والحجامة، وقص الشعر والظفر، السابق حـ١/ ٣٥٤-٣٦١/ ٣٧٣-٣٧٨/ ٥١٢-٧٠٨، خير العباد ص٦٦٦-٦٦٨.

(٤) خصائص الرسول ص٣٠٦-٣٠٨.

(٥) الأنوار حـ١/ ٣٥٤-٣٥٨، خير العباد ص٣٧٧، شمائل النبي ص٩٠-٩٤، معين الشمائل ص١٢٢، «أما أنا فلا لا آكل متكئا»، بهجة المحافل ص٤٨٨، جلوسه، الأسوة الحسنة ص٤٥٧-٤٥٨، اتكاؤه ص٤٦٠-٤٦٤.

(٦) الأنوار حـ١/ ٣٥١-٣٥٤، قيامه ومشيه، الأسوة الحسنة ص٤٥٨-٤٦٠، شمائل النبي ص٨٩-٩٠، الخصائص الكبرى ص١٦٦، آداب الخروج والسير، سيرة النبي حـ٢/ ٤٢٠، معين الشمائل ص١٢٠.

الشعبي[1]. يمسك بها الزعماء طلبا للطاعة سواء استند بها على الأرض أو رفعها إلى السماء أو كلاهما[2].

والنوم أيضا عادة شخصية لا يتأسى فيها أحد بأحد. البعض يفضل النوم على الجنب الأيسر أو الأيمن أو الظهر أو البطن. وهناك نوم المريض ونوم الطفل[3]. وإذا كان الرسول يستلقى في المسجد، وإحدى رجليه على الأخرى فهذا ما لا يتم اليوم. وكان إذا عرس بليل اضطجع على شقة الأيمن. وإذا عرس قبل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه. يسمع غطيطه في النوم وهو الآن معاب. إذا نام نفخ. له عاداته في النكاح والوضوء والصلاة والترتيب بينها. لا يحب الفرش الوثير حتى ولو كان فرشا واحدا مثنيا ثلاثا أو أربعا لأن ذلك يمنعه من الصلاة، تنام عيناه ولا ينام قلبه[4]. وإذا رأى أحد رؤية يكرهها فإنه يستعيذ[5]. ينام مستقبلا القبلة داعيا الله أن يقيه عذابه، وأنه باسمه يموت ويحيا[6]. وليست عاداته الشخصية نموذجا خاصا. بل هو عبد يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد[7].

وكان الرسول يزور متقنعا حتى لا يعرفه أحد، يضع فوقه ثوبا وكأنه ثوب زيات[8]. هكذا أتى أبو بكر عندما أذن له في الخروج ولطلب صحبته. واليمين أحق بالزينة من

---

(١) «التوكؤ عليها من أخلاق الأنبياء»، بهجة المحافل ص٥٠٩.

(٢) انظر مقالنا: «العصا لمن عصا»، العربي الناصري ٣١ مايو ٢٠٠٩.

(٣) الأنوار حـ١/ ٣٥٨-٣٦١، «ردوه إلى حاله الأول فإن وطأته منعتني من الصلاة»، بهجة المحافل ص٤٩٤، شمائل النبي ص١٥٣-١٥٥، الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٦-١٦٧.

(٤) خير العباد ص٦٦٨، سيرة النبي حـ٢/ ١٧٢، حـ٦/ ٤٢٣-٤٢٦.

(٥) «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»، بهجة المحافل ص٤٩٤-٤٩٥..

(٦) «رب، قني عذابك يوم تبعث عبادك، اللهم باسمك أموت وأحيا»، «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»، بهجة المحافل ص٤٩٥. نومه وانتباهه، الأسوة الحسنة ص٤٧٠-٤٧٢، ما كان يقرؤه عند النوم ص٤٧٢، ما كان يقوله ويفعله إذا استيقظ ص٤٧٢، ما كان يقوله إذا أصبح وأمسى ص٤٧٣، في صفة نومه، شمائل الرسول ص١٨٩-١٩٢.

(٧) «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، بهجة المحافل ص٤٨٨، عاداته سيرة النبي حـ٢/ ١٧١.

(٨) الأنوار حـ٢/ ٥٣٧-٥٣٨، في صفة لباسه: الإزار، والقميص، والرداء، والعمامة، والخاتم، والنعل، «اليمن أحق بالزينة من الشمال»، بهجة المحافل ص٥٠٧.

الشمال طبقا للتوجه العام بأولوية اليمين في الدنيا والآخرة. يحب الأبيض من الثياب[1]. ويحب بعض الألوان مثل الأبيض والأصفر، ويكره البعض الآخر مثل الأحمر[2]. معظم لباسه من الصوف، رمز الخشونة والتقشف على عكس الحرير رمز لليونة والنعومة[3]. لا يبخل به على أحد إذا ما طلبه ثم يحيك لنفسه غيره. يلبس القميص والجبة، والقميص أحب إليه، والحلة الحمراء التي لا تنتسب إلى اللون الأحمر لكراهته[4]. يلبس الخميصة والسروال والخفين والخاتم والبيضة والبردة. ويلبس الإزار. ويطيله حتى العقبين[5]. له عمامة وقلنسوة[6]. العمامة سوداء، والقلنسوة بيضاء. ويختص الرسول بعذبة في العمامة واتتزار في الوسط وهمامة سيماء الملائكة[7]. ويصل الأمر إلى وصف خفه ونعله، المصنوع محليا أو المهدي من النجاشي[8]. وقد ألف فيهما تأليف مستقلة. يصلي فيهما أحيانا في حالة طهارتهما[9]. ولبس النعل بداية باليمين وخلعة بداية بالشمال لتوحيد السلوك، وتفضيل التيامن. في حين أنه من المصطلحات السياسية المعاصرة. اليمين يعني المحافظة ورأس المال، واليسار يعني التحرر وحقوق الشعوب للفقراء في أموال الأغنياء مثل «اليسار الإسلامي»[10]. وكان عندما يلبس الجديد يحمد الله عليه ويسأل الله من خيره،

(١) «البسوا البياض فإنها أظهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم»، شمائل النبي ص٥٩-٦٧/ ٩٠.

(٢) سيرة النبي حـ٢/ ١٦٥-١٦٦.

(٣) الأنوار حـ٢/ ٥٢٧-٥٣١، خير العباد ص٦٥٤-٦٥٥.

(٤) خير العباد ص٦٥٠-٦٥٤، ألفية السيرة ص٨٧-٨٩، لباسه، الأسوة الحسنة ص٤٧٥-٤٧٧، لبسه الجبة والسراويل ص٤٧٧-٤٧٩، سيرة النبي حـ٢/ ١٦١/ ١٦٥، حـ٢/ ٤٢٦-٤٣٠، في صفة لباسه من قميص وأزار ورداء وقلنسوة وعمامة،شمائل الرسول ص١٠٧-١١٩، في صفة لباس الرسول وفراشه، شمائل الرسول ص١٠٥-١٤٠.

(٥) شمائل النبي ص٨٧.

(٦) الأنوار حـ٢/ ٥٣٤-٥٣٧، خير العباد ص٦٤٩، شمائل النبي ص٨٥-٨٧.

(٧) «رأيت الملائكة معتمين»، «عليكم بالعمائم، وأرخوها خلف ظهوركم فإنها سيماء الملائكة»، اتتزروا كما رأيت الملائكة تأتزر عند ربها إلى أنصاف سوقها»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٤٤١، العباس، سيرة النبي حـ٢/ ١٦١/ ١٦٥، في أمر اللباس، معين الشمائل ص٣٦٩-٣٧٧.

(٨) الأنوار حـ٢/ ٥٤٥-٥٥٢، شمائل النبي ص٦٩-٧٣، في صفة نعله، شمائل الرسول ص١٢٨-١٣١.

(٩) «إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قذرا (أذى). إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى في نعليه قذرا أو أذى فليمسحه وليصل فيهما»، السابق ص٥٥٠، لبس النعلين، الأسوة الحسنة ص٤٧٩-٤٨٠.

(١٠) «إذا تنعل أحدكم فليبدأ باليمين. وإذا نزع فليبدأ بالشمال. فلتكن اليمن أولها تنعل وآخرهما تنزع»، شمائل النبي ص٧٣.

ويتعوذ به من شره[1]. ولم يشأ أن يلبس خاتما من ذهب فتقلده الناس. واتخذ خاتما من فضة ونقش عليه «محمد رسول الله» كل لفظ في سطر[2]. وفي رواية من ورق مما يصعب حفظه واستخدامه في ختم الرسائل، وفي رواية يختم به ولا يلبسه. وفي رواية لم يلبس خاتما على الإطلاق حتى لا يشغله عن العبادة[3].

وكلها أذواق شخصية وعادات اجتماعية تتغير بتغير الأفراد والعصور. ومن ثم فليس من الأسوة اتباع هذه الأذواق بدعوى لباس الرسول. فرضتها ظروف جغرافية وتاريخية واجتماعية. ومنها التمايز عن لبس الآخرين كما يفعل بعض الإسلاميين حاليا في التمسك باللباس العربي تميزا عن اللباس الغربي[4]. وكذلك تميزا بين لباس الرجال عن النساء[5]. والبياض كلون مفضل يتغير من عصر إلى عصر. كان لون الحداد عند المصريين القدماء، وهو الآن لون الفرح، وأصبح الأسود هو لون الحداد[6]. والطيالسة لبس اليهود والمسيح الدجال[7]. ولبس الثوب للشهرة والموضات اليوم لذلك[8]. وجر الثوب على الأرض مظهر من مظاهر الخيلاء وهو اليوم لبس العرس[9]. وكانت له عاداته الشخصية: سباق الآخرين وصراعهم، خصف نعله، ورقع ثوبه بيده، ورفع دلوه، وحلب شاته، وخدمة أهله، وحمل الطوب لبناء المسجد، وربط الحجر على بطنه من الجوع[10]. واحتجم واكتوى. فأصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، واستفراغ

---

(١) الأنوار حـ٢/ ٥٣١-٥٣٣ «اللهم لك الحمد كما كسوتني هذا أسألك من خيره وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»، السابق ص٥٣١.

(٢) الأنوار حـ٢/ ٥٣٩-٥٤٥ «لا ألبسه أبدا» ص٥٣٩، في صفة خاتمة، شمائل الرسول ص١٢٤-١٢٧.

(٣) «شغلني هذا عنكم منذ اليوم نظرة إليه وإليكم نظرة، ثم رماه»، السابق ص٥٤٥، خير العباد ص٤٥٣.

(٤) «إن هذه من لباس الكفار فلا تلبسها»، خير العباد ص٦٥١، «ليس منا من تشبه بقوم غيرنا»، السابق ص٦٥٤.

(٥) «هلا كسوتها بعض أهلك فإنه لا بأس بها للنساء»، السابق ص٦٥١.

(٦) السابق ص٦٥٣.

(٧) «يخرج معه سبعون ألفا من يهود أصبهان عليهم الطيالسة»، السابق ص٦٥٤.

(٨) «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة ثم تلهب فيه النار»، السابق ص٦٦٧.

(٩) «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»، السابق ص٦٥٧.

(١٠) خير العباد ص٦٨٩-٦٩٠.

المادة المضرة[1]. وكل ما يتعلق بالأطعمة والأشربة وأشكال اللباس هي أذواق خاصة يختلف الناس فيها. ولا يوجد ذوق نموذج لأذواق أخرى. والنوم والاستيقاظ والمشي والوقوف عادات شخصية يختلف فيها الناس كذلك. ولا يوجد طريقة مثلى لذلك. لذلك فرق القدماء بين سنة قولية وسنة فعلية، سنة عبادة وسنة عادة[2]. تتداخل الحياة الخاصة مع الحياة العامة. فإذا كانت شمائله ومجالسه وخطابته وعباداته وأخلاقه من حياته العامة فإن حياته مع أزواجه وأولاده من حياته الخاصة[3]. كل ذلك عادات[4].

٣- الأذواق الشخصية

والتسمية على الطعام تذكير بالله حتى لا ينجرف الإنسان إلى الطعام كما ينجرف الحيوان. والأكل باليمن عادة إنسانية عامة، والأشول استثناء، وفي بعض المجتمعات مرض. والأكل من حافة الطعام وليس من وسطه ذوق طبيعي في مجتمع يأكل جماعة. وبالصورة الفنية الشيطان يأكل ممن لم يُسم عليه. فإذا سمى عليه استفرغ الشيطان. والتسمية بركة. وإذا سقطت لقمة تنظف وتؤكل حتى لا يأكلها الشيطان[5]. وقد اتسم الرسول باعتدال الفطرة وسلامة الذوق[6]. وهناك دعوات في نواحي المعاش في بداية

---

(١) الأول في آية ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، والثاني في ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، والثالث في ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، خير العباد ص٦٩٠.

(٢) سيرة النبي حـ٢/ ١٥٩-١٨١.

(٣) شمائله حـ٢/ ١٥٩-١٨١، مجالسه ص١٨٨-١٩٠، خطابته ص١٩١-١٩٨، عباداته ص١٩٩-٢٤، حياته مع أزواجه ص٣١٣-٣٢٨، وأولاده ص٣٢٩-٣٤١.

(٤) السابق حـ٦/ ٤٠٩.

(٥) «اسم يا غلام وكل بيمينك، وكل مما يليك»، «البركة تنزل وسط الطعام فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه»، «إن الشيطان يستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه»...، «ومازال الشيطان يأكل معه. فلما ذكر اسم الله تعالى، استقاء ما في بطنه»، «أما أنه لو سمى الله .... لكفاكم»، «إذا سقطت لقمة أحدكم... فليميط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان»، بهجة المحافل ص٤٨٨-٤٨٩، «اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»، سيرة النبي ص٥٠٠، في صفة أكل الرسول وشربه ونومه، شمائل الرسول ص١٤١-١٩٢.

(٦) السيرة النبوية ص٤٣٧-٤٣٨، الأسوة الحسنة ص٤٦٤-٤٦٥، ما كان يعافه من الأطعمة ص٤٦٦-٤٦٨، شمائل النبي ص٦٧-٦٨/ ٩٤-١٠٠، سيرة النبي حـ٢/ ١٦٣-١٦٤/ حـ٦/ ٤٠٠-٤٠٥، سيرته في طعامه وشرابه، معين الشمائل ص٣٦٣-٣٦٨.

الطعام وفي تقديمه وفي نهايته. ويحاول الشيطان إقناع رب المنزل أنه لا يوجد طعام ليستثيره ويجعل كرمه مستحيلا[١]. وبعد الطعام يقال الحمد لله. فالحمد قد يجلب المزيد، والشحط يقل البركة[٢]. والرضا النفسي إشباع. وهو سر تكاثر الطعام ونبع الماء في معجزات عديد من الأنبياء، محمد والمسيح[٣]. وكانت له عدة أقوال حين الفراغ من الطعام ودعاؤه للمضيف[٤]. منها الحمد[٥]. ويطلب رفع الطعام لأنه صائم[٦]. يدعو لمضيفه بالبركة في الرزق[٧]. والأكل باليمين وليس باليسار، ومما يلي وليس بالبعيد[٨]. فاليمين عادة الأغلبية، والشمال استثناء. وبعد الطعام تغسل اليدان من الدسم[٩].

(١) «الله بارك لنا فيما رزقتنا، وقنا عذاب النار، باسم الله»، «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله. فإن نسى أن يذكر الله في أوله فليقل باسم الله أوله وآخره»، «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لا بيت لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت. وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»، سيرة النبي ص٤٩٨-٥٠١، «إنا ذكرنا اسم الله حين أكلنا. ثم قعد من أكل ولم يسم الله فأكل معه الشيطان»، شمائل النبي ص١١٦-١١٩/ ٢٠٣-٢٠٨، في ما كان يقول النبي قبل الطعام وبعده، شمائل الرسول ص١٧٦-١٧٨، في شتى أحوال الرسول وبعض أذكار وأدعية من جوامع كلمه، شمائل الرسول ص٢٧٥-٣٢٦، من أحواله ص٢٧٧-٢٨٦.

(٢) «الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفيء ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا»، «من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة... غُفر له ما تقدم من ذنبه»، بهجة المحافل ص٤٩٠، «أذيبوا طعامكم بذكر الله والصلاة ولا تناموا عليه فتقسوا له قلوبكم»، سيرة النبي ص٥٠١، شمائل النبي ص١١٨-١١٩، معين الشمائل ص٣٦٧.

(٣) «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»، «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»، «الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا»، «من أكل طعاما فقال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر الله له ما تقدم من ذنبه»، «من أطعم الله طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه، ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه. فإنه ليس شيء يجزئ عن الطعام والشراب غير اللبن»، سيرة النبي ص٥٠٠-٥٠١، الأنوار ص٢٦٢.

(٤) الأنوار جـ٢/ ٦٦١-٦٦٦.

(٥) «الحمد لله الذي يُطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا، وأطعمنا وأسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله الذي أطعم الطعام، وسقى من الشراب، وكسى من العرى، وهدى من الضلالة، وبصّر من العمى، الحمد لله الذي فضلني على كثير من خلقه تفضيلا، الحمد لله رب العالمين»، السابق ص٦٦٣-٦٦٤.

(٦) «أعيدوا سمنكم في سقائه، ونحركم في وعائه فإني صائم»، السابق ص٦٦٥.

(٧) «الله بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم»، السابق ص٦٦٦.

(٨) «أدن يا بني فسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»، شمائل الرسول ص١١٧.

(٩) معين الشمائل ص٣٦٨.

وأفضل غموس الخل. وأطيب طعام لحم الظهر. وأفضل ميزان التعادل بين الأطعمة الحارة والباردة[1]. يحب الزيت للطعام والدهان لأنه من شجرة مباركة[2]. طعامه وإدامه الضان المشوي خاصة الكتف الذي سمّته مرة يهودية[3]. ومن شدة حبه لذراع الشاة أراد ذراعا غير التي أخذها وكأن لها أكثر من ذراع، معجزة من معجزاته[4]. وأطيب اللحم الظهر[5]. يأكل الدجاج. وأكل رجل حمار وحشي وفخذي أرنب. يأكل الدباء، والقرع والقديد، ويحب إضافة التوابل. يأكل إذا ما وجد طعاما فإن لم يجد يصوم. يكره بعض الطعام من أجل ريحه. ويكفي الإدم (الخبز والخل)[6]. والخبز مع التمر. ويحب الحلواء والعسل دون خوف من مرض السكر. ويكره الأضب ويحب الأقط والسمن دون أن يخشى من الكولسترول بلغة العصر. والأطعمة بين الرسول الشرعي والأذواق الشخصية، يعاف بعض اللحم وبعض التوابل. يقبل الهدية. ولا يورث. ما ترك صدقة. ويحب عائشة كما يحب الثريد، وفضلها على النساء كفضل الثريد على الطعام[7]. يأكل التمر والفاكهة[8]. والنخلة مثل المؤمن في النبات. ينبذ التمر، تمر العجوة وهو القرن[9]. يأكل البطيخ بالرطب، والقثاء بالملح. يحب الأسود من التمر مثل راعي الغنم. ولا يوجد نبي إلا رعاها[10].

---

(١) «نعم الأدام الخل»، «ما أقفر بيت من أدم فيدخل»، «أطيب اللحم لحم الظهر»، «برد هذا يعدل حر هذا، وحر هذا يعدل برد هذا»، «إنا نحب اللحم»، بهجة المحافل ص٤٩٠-٤٩١، سيرة النبي ص٤٩٩، ما كان يفعله إذا أتى بالبواكير، الأسوة الحسنة ص٤٦٥-٤٦٦، شمائل النبي ص١٠٠-١١٥، صفة عيشه وخبزه، شمائل الرسول ص١٤٣-١٥٧.

(٢) «كلوا الزيت وادهنوا فإنه من شجرة مباركة»، شمائل النبي ص١٠٣، في صفة عيش الرسول وخبزه، شمائل الرسول ص١٤٣-١٥٧، في صفه أكله ص١٥٨-١٧٥.

(٣) الأنوار حـ٢/ ٦١٤-٦٣٣، شمائل النبي ص١٠٨.

(٤) «ناولني الذراع... والذي نفسي بيده، لو سكت لناولتني الذراع ما دعوت»، السابق ص٦١٨، «لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع لقبلت»، سيرة النبي ص٤٩٩.

(٥) «أطيب اللحم لحم الظهر»، السابق ص٦١٩.

(٦) «ما أقفر بيت من أدم وخل»، السابق ص٦٣٠، «نعم الإدام الخل»، السابق ص٦٣١، خير العباد ص٦٥٩-٦٦١. الفصول ص٤٦٣-٤٧٥، ألفية السيرة ص٨٦-٨٧

(٧) «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، شمائل النبي ص١١٠.

(٨) الأنوار حـ٢/ ٦٣٤-٦٤٠، شمائل النبي ص١٢٠-١٢٣، في صفه فاكهته، شمائل الرسول ص١٧٩-١٨٢.

(٩) «إني قد قرنت فاقرنوا»، السابق ص٦٣٧.

(١٠) «عليكم بالأسود منه فإنه أطيب، وبالنسبة للغنم، وهل نبي إلا رعاها» السابق ص٦٤٠.

ومن المحرمات أكل البصل والثوم والكرات وكل ما له رائحة كريهة. فالرسول يناجي الله ويقابل الناس[1]. ولا يأكل الضب لأن نفسه تعافه ولأنه لم يكن موجودا بأرض قومه[2]. ومن الشراب يستعذب الماء[3]. ويحب شرب اللبن[4]. فليس هناك شراب أمرأ منه[5]. ومع ذلك يتمضمض بعد شرب اللبن لأن به دسما، ويشرب من نفس القدح الماء والنبيذ والعسل واللبن. ويشرب النبيذ، ينبذ له صباحا، ويشرب منه مساء، أو ينبذ له مساء ويشرب منه صباحا، ولمدة ليلتين أخريين. فإن تبقى شيء شرب منه الخادم أو يراق. وكان يوضع فيه أحيانا قبضة من النبيذ يلتقط حموضته.

وفي شربه كان يتنفس ثلاثا لأنه أروى وأبرأ وأمرأ. يقطع الشراب جرعات. ويسمى في كل واحدة ويشكر. يشرب قاعدا وقائما، ومن قربة معلقة[6]. يسقي القوم وهو يشرب في النهاية[7]. ثم الأيمن فالأيمن، ثم الأسن والأشيب مع اعتراض غلام على هذا النسق الأبوي ورفضه استئذان الرسول[8]. ولا يُنفخ في الشراب حتى لإزالة القذافة بل يراق الشراب. وهي مظاهر للمروءة[9]. وفي الشراب لا يشرب مرة واحدة كشرب البعير بل متقطعا مثنى وثلاث[10]. ومن الأفضل ألا يشرب أحد وهو قائم. فإذا نسى فليستفرغ

(١) «كل فإني أناجي من لا تناجي، ولكني أكرهه من أجل ريحه، يا أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي ولكم، ولكنها شجرة أكره ريحها»، خصائص الرسول ص١٢٨-١٢٩ .

(٢) «لا ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»، سيرة النبي ص٤٩٩، ما كان يعافه من الأطعمة، الأسوة الحسنة ص٤٦٦-٤٦٨، في صفة فاكهته، شمائل الرسول ص١٧٩-١٨٢.

(٣) الأنوار حـ٢/ ٦٥٢-٦٥٤.

(٤) السابق حـ٢/ ٦٤٧-٦٥٢، شمائل النبي ص١٢٤.

(٥) «من أطعمه الله طعاما فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيرا منه، ومن سقاه لبنا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه...، ليس شيء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن»، السابق ص٦٤٨، بهجة المحافل ص٤٩٣.

(٦) الأنوار حـ٢/ ٦٤١-٦٤٦ «إنه أروى وأبرأ وأمرأ» «هو أهنأ وأبرأ وأشفي » ص٦٤١، شمائل النبي ص١٢٥-١٢٩.

(٧) «ساقي القوم آخرهم»، السابق ص٦٤٥ «الأيمن فالأيمن» ص٦٤٦.

(٨) «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء»، السابق ص٦٤٦.

(٩) بهجة المحافل ص٤٩٢، عيون الأثر ص٤٤٢-٤٤٣.

(١٠) «لا تشربوا واحدا كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى وثلاث»، بهجة المحافل ص٤٩٢، آدابه في شربه، الأسوة الحسنة ص٤٦٨-٤٧٠، شمائل النبي ص١٢٣-١٢٥، في صفة شرابه، شمائل الرسول ص١٨٣-١٨٨.

ما شرب. إلى هذا الحد بلغت ضرورة الشرب قعودا؟[1]. وشارب القوم آخرهم شربا نوع من الإيثار[2].

ولا يكون الطعام والشراب في آنية من ذهب أو فضة[3]. ونفقته وصفة عيشه يحددهما مستواه الاقتصادي[4]. والطعام والشراب عادات شخصية واجتماعية. وليس فيها أي سمة قدسية سواء في طريقة الأكل جلوسا أم اتكاء أو في المأكول الحلو أو الحار[5]. لا يأكل الرسول متكئا حتى لا ينزل الطعام على جنب وليس في المعدة كما هو الحال في التصور الشعبي[6]. والتسمية عادة شعبية وليس لطرد الشيطان حتى لا يشارك في الطعام[7]. يحب التمر والعسل. ويجول بيده في التمر ويأكل مما أمامه. يأكل بثلاثة أصابع. ويلعق يده.

سادسا ـ تصورات معنوية:

١ - الصفات النفسية

وهناك صفاته النفسية وهي صفات البشر جميعا مثل المحبة، والكراهية، والسرور، والغضب، والضحك، والبكاء والحزن، والفرح، وهذه لا وحي فيها ولا كسب بل هي طبيعة وجبلة. ومنها استحباب الفأل والدعاء[8]. ولا تشمل النفسية، الخِلقة، والخلق، والعقل، والعشرة، والسماحة، والشجاعة، والزهد[9]. يعرض عما يكرهه[10]. ويعرف

(١) «لا يشربن أحدكم قائما، فإن نسي فليستقيء»، بهجة المحافل ص٤٩٢.
(٢) «ساقي القوم آخرهم شربا»، السابق ص٤٩٣.
(٣) «الذي يأكل ويشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»، بهجة المحافل ص٤٩٤.
(٤) الأسوة الحسنة ص٤٤٤-٤٤٧.
(٥) الأنوار حـ٢/ ٦٠٧-٦١٤، خصائص الرسول ص١٣٠-١٣١.
(٦) «لا آكل متكئا»، الأنوار حـ٢/ ٦٠٧.
(٧) «إنا ذكرنا اسم الله حين أكلنا ثم قعد من أكل ولم يسم الله فأكل معه الشيطان»، السابق ص٦١٠.
(٨) مثل إعراضه عما يكره، بكائه وحزنه، غضبه وسروره، وضحكة وفرحه، الأنوار حـ١/ ٣٠-٢٦١، في صفه غضبه وسروره، شمائل الرسول ص٩١-٩٢.
(٩) الأنوار حـ١/ ١٩١-١٩٤.
(١٠) «غارت أمكم» السابق ص٢٠٣.

غيرة النساء[1]. ويميز بين الرضا والغضب[2]. وتحلل السيرة أسباب انشراح الصدر كما يفعل الصوفية[3]. ولقلبه الشريف خصائص مثل استمرار رواية شق الصدر[4]. كما يتميز بطلاقه الوجه وبشاشته أكثر من انقباضه الصدر وعبوس الوجه. يحب ويبكي، من المحبة حب الحسن والحسين[5]. وقد بكى الرسول عندما رأى ابنة زيد تبكي لإصابته، شوق الحبيب لحبيبه[6].

يبكي الرسول ويحزن مثل باقي البشر[7]. فالله يعطي، والله يأخذ، ولكل شيء أجل مسمى مثل الصبر والاحتساب[8]. وهي رحمة يضعها الله في قلوب عباده، يرحم بها الرحماء[9]. ولا يعذب الله بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب أو يرحم باللسان. ويعذب الميت ببكاء أهله عليه[10]. واختلاف الإيمان لا يفرق بين الابن وأمه. إذ لم يأذن الله للرسول بالاستغفار لأمه بل أذن له فقط بزيارة قبرها لأنها تذكرة للآخرة[11]. مع أن أم الرسول لم تبلغها الرسالة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، والموت والجنس لا يجتمعان، والحزن والفرح بالرغم مما قاله الشعراء في وحدة اللحظتين[12].

---

(1) «إني أعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت على غضبى... إذا كنت عني راضيه فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت لا ورب إبراهيم»، السابق ص٢٠٥، رضاه وسخطه، الأسوة الحسنة ص٤٥٢-٤٥٣.

(2) خير العباد ص٦٨٢-٦٨٦. أحواله النفسية، سيرة النبي ص٤٢٣-٤٣٨، صفاته الباطنة وإن شارك فيها غيره، السيرة الحلبية حـ٣/ ٤٧١-٤٨٣.

(3) الأسوة الحسنة ص٥٧٧-٥٧٨، طلاقه الوجه، معين الشمائل ص١٢٨.

(4) الخصائص الكبرى حـ١/ ١٥٤.

(5) «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه»، الأنوار حـ١/ ٢١١/ ٢١٣ «اللهم أحبها فإني أحبها» ص٢١٢.

(6) «هذا شوق الحبيب إلى حبيبه»، السابق حـ١/ ٢٢٤.

(7) بكاؤه وحزنه، السابق حـ١/ ٢١٩-٢٣٠.

(8) «إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى فلتصبر ولتحتسب»، ص٢١٩.

(9) «هذه الرحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»، ص٢٢٠.

(10) «ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا اللسان أو يرحم. وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»، السابق ص٢٢١.

(11) «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي. واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكرة للآخرة»، السابق ص٢٢٢.

(12) مثل انتحار روميو وجوليت عند شكسبير «هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة... فأنزل في قبرها»، السابق حـ١/ ٢٢٢.

والرسول إنسان. يحزن لمقتل عمه والتمثيل به ولا يمنع أخته صفية من البكاء والعويل عليه[1]. يعاود المريض ويشهد الجنازة[2]. والشهادة تبعث على الحزن والفرح في آن واحد[3]. والخوف على هلاك هذه الفئة المؤمنة في غزوة بدر فلا يعبد في الأرض بعدها[4]. فهو خوف مشوب بالحزن، وقد بكى الرسول عندما سمع آية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[5]. كما بكى عندما رأى كسوف الشمس. وصلى وسجد ورفع رأسه وسجد خوفا من أن يكون ذلك عذابا من الله. ثم انجلت الشمس بعد ركعتين. فإذا حدث الكسوف فالفزع إلى ذكر الله[6]. والكسوف ظاهرة طبيعية يعشقها عشاق الطبيعة وترصد لها آلات التصوير، ويستعد لها منذ وقت طويل. وهو معنى حديث «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد» عندما ربط الناس بين الكسوف وموت إبراهيم. ويبكي الرسول على أسرى بدر عندما أفتى أبو بكر بأخذ الفداء لأنهم الأهل والعشيرة، وأفتى عمر بضرب الأعناق[7]. ونزل القرآن تأييدا لرأي عمر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾، يتأثر الرسول بالقرآن. فقد شيبته سورة هود ومثيلتها الانفطار والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون[8].

ويغضب الرسول، ويظهر الغضب في وجهه إذا ما تطرف أحد في العبادة بما لا

(١) «ما وقفت موقفا أغيظ عليّ من هذا، لن أصاب بمثلك أبدا»، «لولا أن تحزن صفية لتركته حتى يُحشر من حواصل الطير وبطون السباع»، الجوهرة حـ٢/ ١١.

(٢) خير العباد ص٦٨٩.

(٣) «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحه فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»، الأنوار حـ١/ ٢٢٣، آداب الفرح والسرور، سيرة النبي حـ٦/ ٤٣٠-٤٣٦، آداب الغم والأحزان، حـ٦/ ٤٣٦، بكاؤه وحزنه، معين الشمائل ص١٢٩-١٣١.

(٤) «اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آتني ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، الأنوار حـ١/ ٢٢٧.

(٥) السابق ص٢٢٥.

(٦) «رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم؟ رب ألم تعدني أن لا تعذبهم ونحن نستغفرك... إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله. فإذا انكسفتا فافزعوا إلى ذكر الله عز وجل»، السابق ص٢٢٦-٢٢٧.

(٧) «أبكي للذي عُرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عَرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»، السابق ص٢٢٩.

(٨) «شيبتني هود وأخواتها»، السابق ص٢٣٠، خوفه وبكاؤه، الأسوة الحسنة ص٤٤٠-٤٤٣.

يطاق أو إذا اختلف المسلمون في الكتاب أو بكثرة السؤال[1]. ويغضب إذا بصق أحد في القبلة لأن الصلاة مناجاة لله، بل البصق على اليسار أو تحت القدم. والآن البصاق في المنديل الورق أو القماش[2]. يغضب بالحديث بالصوت العالي في المسجد، فالمسجد غير البيت[3]. ويغضب على الأعداء ويدعو عليهم بالهزيمة[4]. ولا يخاف عليه من الغضب لأنه لا يخضع للهوى[5].

يشعر بالخير والشر لدرجة رؤية الجنة والنار وكأنهما وراء الحائط[6]. يمزح ويضحك ويسر مثل باقي البشر[7]. يمزح ولا يقول إلا حقا. فقد فرح الرسول ببراءة عائشة[8]. يعرف ذلك من وجهه. يبتسم في وجه أصحابه ويدعو لهم بالهداية[9]. وضحك يوم اتخذت أم سليم خنجرا تبقر به بطن من لمسها من المشركين[10]. وضحك عندما طلب أحد المسلين المغفرة من الله وهو يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو[11]. وكان حنوا مضحكا تبدو نواجذه. ويضحك من حوار بين آخر من يخرج من النار زحفا ولا يجد

---

(١) «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»، الأنوار حـ١/ ٢٣١، «لا تسألون عن شيء إلا بينته لكم»، ص٢٣١، «إن منكم منفرين فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذو الحاجة»، ص٢٣٢.

(٢) «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن بينه وبين القبلة فلا يبزقن أحدكم في قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدمه»، السابق ص٢٣٤.

(٣) «أيها الناس مازال بكم صنيعكم حتى ظننت أنه يكتب عليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة»، السابق ص٢٣٥.

(٤) «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم أهزم الأحزاب، أهزمهم وزلزلهم»، الأنوار حـ١/ ٢٣٩.

(٥) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥١٤.

(٦) «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوت لي الجنة والنار حتى رأيتهما وراء الحائط»، السابق ص٢٣٢.

(٧) الأنوار حـ١/ ٢٤٢-٢٦١ «لا يمزح ولا يقول إلا حقا» ص٢٥٤، بهجة المحافل ص٥١١، شمائل الرسول ص١٣٣-١٤١، عيون الأثر ص٤٣٨-٤٣٩.

(٨) «يا عائشة أما إن الله قد برأك... أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك»، الأنوارحـ١/ ٢٤٣-٢٤٤، شمائل الرسول ص٥٢-٥٤.، كلامه وتبسمه، سيرة النبي حـ٢/ ١٦١، في صفة ضحكة وبكائه، ص٩٣-٩٤.

(٩) «اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا»، السابق ص٢٤٧.

(١٠) «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»، السابق ص٢٤٨.

(١١) «إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي يعلم أن الذنوب لا يغفرها أحد غيري»، السابق ص٢٥٠.

له مكانا في الجنة ليسأل الله متى عاش ويتمنى فيعطيه الله عشرة أضعاف. ويعجب الإنسان كيف سخر الله منه وهو الملك[1]. وضحك الرسول ممن استأذن الله في الجنة في الزرع. فبذر وحصد وكان الزرع كالجبال فابن آدم لا يشبعه شيء. وعلق أعرابي بأنه قرشي أو أنصاري فهما أصحاب الزرع[2]. وخرج مع عجوز بأنه لا يدخل الجنة عجوز. فلما حزنت أول قوله بأنها تعود بكرا، يتبسم ويضحك. بكاؤه مثل ضحكه منخفض الصوت، يمازح[3]. يفرح ولا يقول إلا حقا[4]. وله حسنه إذا ضحك. وجهه مثل الشمس والقمر. كفه ناعم، ورائحته طيبة[5]. ويلهو اللهو المباح[6]. و يحب الفأل ويكره الطيرة. فالفتال يقوم على أساس نفسي، الطبيعة البشرية والإحساس بالمستقبل بناء على تجارب الماضي وإمكانيات الحاضر. أما الطيرة فهو أقرب إلى العجز والتوقف عن الحركة أو بالمعنى الأشعري، اليأس من رحمة الله. وفي كلتا الحالتين الحمد لله. وكان في كل موقف يحمد الله في صيغ متعددة[7].

---

(١) السابق ص٢٥٢.

(٢) السابق ص٢٥٣، «أنا الضحوك القتال»، الفصول ص٣٣٧، في صفه ضحك الرسول، بهجة المحافل ص٥٠٥-٥٠٦، في مزاحه ص٥١١-٥١٣، «لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعدا فتخلفه»، ص٥١١، مزاحه، السيرة النبوية (٢) ص٤٢٩-٤٣٠.

(٣) خير العباد ص٦٨٣ «تدمع العين، ويحزن القلب. وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»، ص٦٨٤/ ٦٨٩، مزاجه ومداعبته، الأسوة الحسنة ص٤٤٨-٤٥٠، النبي المختار ص٣٢-٣٣.

(٤) «إنني لا أقول إلا حقا»، شمائل النبي ص١٤٠. «إني لست أبكي إنما هي رحمة. إن المؤمن بكل خير على كل حال إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله»، بكاء الرسول، شمائل النبي ص١٤٠.

(٥) بهجة المحافل ص٤٣٦-٤٣٨، في صفة ضحكه وبكائه وعلامة رضاه وسخطه، السابق ص٥٠٥-٥٠٦، ضحكه وتبسمه، الأسوة الحسنة ص٤٥٠-٤٥٢، ضحكه وسروره، معين الشمائل ص١٢٦-١٢٧.

(٦) بهجة المحافل ص٥١٣.

(٧) «ما منا إلا من يجد في نفسه، ولكن الله يُذهبه بالتوكل»، «الحمد لله رب العالمين» في حالة وقوع ما يحب «الحمد لله على كل حال» في حالة وقوع ما يكره. «سبحان الله العظيم» إذا أهمه الأمر، «يا حي يا قيوم» إذا اجتهد في الدعاء، «اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا» أو «ما يمنع أحدكم إذا عسر عليه أمر معيشته أن يقول إذا خرج من بيته «باسم الله على نفسي ومالي وديني. اللهم ارضيني بقضائك وبارك في فيما قدرت لي حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت»، إذا صعب الأمر «اللهم بارك فيه ولا تضره»، «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ومال وولد فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى آفة دون الموت»، «إذا رأى أحدكم ما يعجبه في نفسه أو في ماله فليبرّك عليه فإن العين حق»، إذا خاف أن يصيب شيئا بعينه.

٢- الفضائل الخلقية

وفي الصفات والأخلاق تأتي صفات الجسد قبل الصفات النفس[1]. جمال الوجه مع تفصيل العينين والفم والأسنان والأذنين والشعر والعنق واللحية. أما كمال النفس ومكارم الأخلاق فيتجليان في الحلم والاحتمال، والجود والكرم، والشجاعة والنجدة والبأس، والحياء والعدل، والتواضع والوفاء، وغيرها من الخصال الحميدة. والخصائص ثلاثة أنواع: محمدية وذاتية ونبوية[2]. المحمدية هي الخصائص التي أعطيت لمحمد دون غيره. والذاتية هي التي خُص بها مثل أمور النكاح، بعض الصلوات مثل الليل، والفجر والأضحية وبعد العصر ووصال الصوم وحرمه أكل الصدقة والزكاة. والنبوية مثل الرعب والنصرة والمسجد العام وكثرة المتبعين وعمومية الدعوة وجوامع الكلم وتكميل الدين والمعجزة الدائمة وختم النبوة والشفاعة.

وقد كمل الله له المحاسن خَلْقا وخُلقا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا[3]. وهو ما يسمى بالشمائل. فالشمائل جزء من حقوق المصطفى وليست هي كل المصطفى. وهي نوعان: ضروري دنيوي تقتضيه الجبلة والحياة الدنيا، ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويُقرب إلى الله زلفى. وقد يتداخل البعض فيهما معا. الضروري المحصن ليس للمرء فيه اختيار ولا كسب، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقه وصورته، وقوه عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه، وأعضائه، واعتدال حركته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه. وما تدعو الحاجة إليه مثل غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه، وماله، وجاهه.

وقد تلحق بها الخصال الأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونه البدن على سلوك طريقها وكانت على حدود الضرورة الشرعية.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العالية والآداب الشرعية مثل الدين،

---

(١) الرحيق المختوم ص٤٧٩-٤٨٨.

(٢) سيرة النبي جـ٣/ ٥٥٤-٥٨٢.

(٣) الشفا جـ١/ ٧٧-٧٩.

والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وهي التي تدخل في حسن الخلق، ومنها ما يكون غريزيا عند بعض الناس في أصل الجبلة، ومنها ما يكون مكتسبا عند البعض الآخر.

وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة، ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة وإن اختلفوا في وجوه حسنها[1]. وتضم الحقوق والفضائل دون تصنيف واحد وعشرين[2]. بعضها مزدوج بالعطف أو بالإضافة أو بالوصف[3]. والرذائل أكبر، تسع وعشرون مفردة أو بالإضافة أو بالعطف أو بالوصف[4].

والأخلاق العامة ليست شمائل للرسول فحسب بل هي أيضا أخلاق الإسلام قبل أن تتجسد في شخصه. وتنقسم إلى ثلاث مجموعات: حقوق وواجبات، فضائل ورذائل، وآداب عامة[5]. وتسبقها مقدمة نظرية عامة عن تمييز النبي عن معلمي الأخلاق، وفلسفة الأخلاق في الإسلام، واكتمال التعاليم الأخلاقية وأسلوب وطريق تعليم الأخلاق ثم أقسام التعاليم الأخلاقية. والرذائل وحدها هي التي يجمعها تعليق

---

(١) السابق جـ١/ ٧٧-٢١٤.

(٢) هي: الصدق، السخاء، الأمانة، الحياء، الرحمة، الإحسان، التواضع، الإيثار، الاستقامة، الاستغناء.

(٣) بالعطف: العفة والطهارة، العدل والإنصاف، العفو والتسامح، الحلم والمغفرة، الرفق واللطف، الاعتدال والوسطية، الشجاعة والإقدام. بالإضافة: الوفاء بالعهد. بالوصف: الوفاء بالعهد.

(٤) المفرد: الكذب، البهتان، النميمة، البخل، السرقة، الغلول، الرشوة، الظلم، الرياء، التبذير، الحسد. بالعطف: الخيانة وعدم الأمانة، الغدر والخداع، الغيبة ومفحش القول، النفاق والمداهنة، الحرص والطمع، الغيظ والغضب، البغض والحقد، الفجر والغرور، العجب وحب الذات. بالإضافة: ذو الوجهين، سوء الظن، عدم الضمير، أكل الربا، شرب الخمر، فحش القول. بالجر: التطفيف في الميزان. بالوصف: الحلف كذبا.

(٥) الحقوق والواجبات، سيرة النبي جـ٦/ ١١١-١٨٤، الفضائل والرذائل ص١٨٥-٣٩٠، الآداب العامة ص٣٩١-٤٤٤، «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، بهجة المحافل ص٥١٦، شمائل النبي ص١٩١-١٩٨، عيون الأثر ص٤٣٤، شمائل الرسول ص٤٠ «إن من خياركم أحسنكم أخلاقا» ص٤١.

شامل[1]. وأيضا حكمة الآداب وفلسفتها في نهاية الآداب العامة[2]. وهي أقرب إلى الأذواق الشخصية والعادات الاجتماعية والسلوك الفطري[3]. وتسميها سيرة «الأخلاق الطاهرة»[4]. وهي أخلاق فطرية، ترصد الفضائل كما ينبغي أن تكون وكما تمثلت في شخص الرسول.

وتداخل الفضائل الخلقية أيضا تحت بند الأخلاق. وهي القسم الثالث من التعاليم النبوية بعد العقائد والعبادات[5]. والإسلام هي مكارم الأخلاق[6]. وتعني الشمائل هنا الطبائع والأخلاق، والأوصاف والسمات[7]. ليس المقصود من جمعها مجرد التاريخ بل القدوة والاقتداء بها، تلذذا بها، وقربة إلى الله، ومكافأة الرسول لنا ومحبته[8].

والأركان الخمسة للإسلام تقوم على أسس خلقية. فالصلاة تواضع وخشوع ورقة وحياء. والصلاة في الحج تولد في القلب الخشوع، وتنهى عن الفحشاء والمنكر. والصوم

---

(١) سيرة النبي حـ٦/ ٣٦١.

(٢) السابق حـ٦/ ٤٤٢.

(٣) مثل: آداب الطعام والشراب، آداب المجلس، آداب اللقاء والزيارة، آداب الحديث، آداب الخروج والسير، آداب السفر، آداب النوم، آداب المجلس، آداب الفرح والسرور، آداب الغم والأحزان، السابق ص ٤٠٠-٤٤٠، كرم أخلاقه أمر جبلي، بهجة المحافل ص٤٨٥. الإشارة ص٤١٤-٤٢٣، ألفية السيرة ص٨٢-٨٦، في الأخلاق المعنويات، بهجة المحافل ص٥١٤-٥٢٩، في أنه كان محمولا على الأخلاق الحميدة، بهجة المحافل ص٥١٤-٥١٥، في اجتماع هذه الخصال في النبي، ص٥٢٨-٥٢٩/ ٤٢٧-٤٢٩، القبس الوضاء ص٢٤٢-٢٤٧، الأخلاق والشمائل، السيرة النبوية ص٤٢٣-٤٥٦، بالصفات والأخلاق، الرحيق المختوم ص٤٧٩-٤٨٨، كمال النفس ومكارم الأخلاق ص٤٨٤-٤٨٨، أخلاقه وشمائله الطاهرة، السيرة النبوية (٢) ص٤١٩-٤٢٤، شمائل سيد الأنام ص٢٧٩/ ٣٩٣، شمائله، الأسوة الحسنة ص٤١٣-٥٨٧، عيون الأثر ص٤٣٤-٤٤٤، الجوهرة حـ٢/ ٩٣-٩٨، أخلاقه وشمائله الطاهرة، شمائل الرسول ص٣٩-٤٧، أخلاق النبي، سيرة النبي حـ٢/ ٢٢٥-٣١٢، فضائل الأخلاق، سيرة النبي حـ٦/ ١٨٥-٩٠، في صفة خلق الرسول وحلمه وعشرته مع نسائه وأمانته وصدقه وحياته ومزاحه وتواضعه وجلوسه وكرمه وشجاعته، شمائل الرسول ص١٩٣-٢٥٢، صفة النبي وهيئته، معين الشمائل ص١١١-١٤٢، أخلاق النبي وشمائله، معين الشمائل ص١٤٣-٢٩٠.

(٤) الفصول ص٣٢٦-٣٣٨.

(٥) في صفة در خلقه وحلمه، شمائل الرسول ص١٩٥-٢٢١.

(٦) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، سيرة النبي حـ٦/ ٥-١١١، معين الشمائل ص١٤٣-١٤٧.

(٧) شمائل الرسول ص٣٩-٤٠.

(٨) السابق ص٤١-٤٣.

مانع للكذب والخداع(١). والأخلاق الحسنة جوهر الإيمان والتقوى، ولأهل الإيمان صفات خلقية، تدل على شرف العبودية لله. والإسلام ليس إلا الأخلاق الحسنة(٢). والإيمان حياء، وإماطة الأذى عن الطريق، والصدق، والتصدق، وحب الآخرين، وعفة اللسان واليد، وإحكام الجائع، وإفشاء السلام، والمروءة، والألفة، وعدم اللعن والسب، وفحش القول، والعدل والأمانة والكرم. فالأخلاق هي أساس العبادات والمعاملات بل والاعتقادات.

والأخلاق الحسنة ظل الصفات الإلهية. والصفات الإلهية فضائل وقيم خلقية إنسانية. وقد تميز النبي بين معلمي الأخلاق. جمع بين القول والعمل في حياة واضحة كاملة مكملة(٣). وتتنوع التعاليم الأخلاقية طبقا للظروف الاجتماعية. والتنزيه الإلهي أساس التنزه من الأغراض والمصالح. والنية شرط العمل الصالح. وتؤيد مذاهب غربية كثيرة هذا الموقف(٤). والإيمان شرط الأخلاق حتى لا تقع في النسبية مع أن خطورة الإيمان هو استبدال التعصب بالنسبية. والأخلاق مرهونة بغاياتها. تقوم على صوت الضمير(٥). ولا تعارض الأخلاق المسرة والانبساط. فالحسنة تسر، والسيئة تسيء. وعلى هذا النحو يتحقق الرضا الإلهي. وقد يختلف كل دين في مبادئه الأخلاقية الأساسية، طاعة القانون في اليهودية، ومحبة الجار في المسيحية، والعدل في الإسلام.

---

(١) سيرة النبي حـ٦/ ١٠-١١ «إن الصلاة تواضع وخشوع ورقه وحياء»، «أنا لا أقبل كل صلاة، إنما أقبل صلاة من تواضع بها خلقي، ولم يتكبر بها على خلقي، ويطعم المحتاج لأجلي»، «فرضت الصلاة، وجعلت أركان الحج لكي يذكر الله. فإن لم تتولد هذه الكيفية في القلب فلا قيمة للذكر الإلهي»، «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فإن مثل هذه الصلاة تبعده عن الله»، «من لم يترك الكذب والخداع وهو صائم فليس لله حاجة في أن يترك طعامه وشرابه»، السابق حـ٦/ ١٠-١١.

(٢) «أكمل المؤمنين أحسنهم أخلاقا»، «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار»، «خياركم أحاسنكم أخلاقا»، «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق»، «خير ما أعطى الناس حسن الخلق»، «أحب عباد الله إلى الله أحسنهم أخلاقا»، «إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة مجلسا أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقا»، السابق حـ٦/ ١٤-١٥.

(٣) سيرة النبي حـ٦/ ١٧ «إنما الأعمال بالنيات»، حـ٦/ ٢٩.

(٤) مثل: ماكنتزي، كينت، السابق حـ٦/ ٢٩-٣٠.

(٥) «استفت قلبك، استفت نفسك، البر ما أطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب، وتردد في النفس وإن أفتاك الناس»، السابق حـ٦/ ٣٣ «رفع القلم عن الطفل حتى يعقل» السابق حـ٦/ ٤١.

وبالرغم من أن أخلاق الإسلام تقوم على العقل فإنها أيضا تستند إلى العاطفة، مثل الخوف والرجاء كما قال الصوفية دون الوقوع في الرهبانية. والمسئولية جزء من الحياة الخلقية[1]. وهي مسئولية من الآخرين، نظرية وعملية، ومن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منع التجسس والغيبة، والتوسط والاعتدال بين العدل والإحسان، والقانون والأخلاق، والعفو والانتقام. ومع ذلك أخلاق الإسلام أقرب إلى العفو والصفح.

وقد اكتملت التعاليم الخلقية في الإسلام حتى تبدو وكأنها معجزة[2]. إذ تجمع بين التفصيل والشمولية. وهي غير شخصية في شخص النبي. وتفصل أنواع الخمر والرشوة. وينقد الفلاسفة الغربيون ضعف الأخلاق المسيحية في مقابل اعتدال الأخلاق الإسلامية[3]. وبالرغم من شموله الأخلاق إلا أنها تتكيف مع اختلاف الاستعداد بين النفوس. وتصلح كل شخص حسب الحاجة.، يرفع الإسلام السلم إلى درجة السمو الخلقي[4]. المحبة والكراهية في الله. ولا تقوم الأخلاق الإسلامية على الهوى أو المصلحة[5]. بل تقوم على العطاء والأثرة. والغيبة حتى ولو كانت حقيقة إثما.

والتعاليم الخلقية تنقسم إلى حقوق، وفضائل، ورذائل وآداب[6]. الحقوق تجاه الإنسان

(١) «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، «إن المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على آذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم»، «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، «إذا رأى الناس ظلما ولم يمنعوه فربما يصيبهم العذاب جميعا»، السابق حـ٦/ ٤٥-٤٧.

(٢) سيرة النبي حـ٦/ ٦٢-٧٤ «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا عبد الله ورسوله»، السابق حـ٦/ ٦٤.

(٣) مثل «نيشته، ليكي»، السابق حـ٦/ ٧٥/ ٧٨-٧٩.

(٤) «إن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفا سفها»، «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» السابق حـ٦/ ٧٩، «إن أحب العمل الصالح إلى الله أن يكون الحب في الله والبغض في الله»، السابق حـ٦/ ٩٤.

(٥) «إنما هلك من قبلكم. كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، «إن من يعطي شخصا شيئا ما ثم يأخذه كمن يتقيأ شيئا ثم يلعقه مرة أخرى»، «إن ما قلته في حق أخيك سوء من أكل هذه الخبثة» حـ٦/ ١٠٠-١٠٣ «حتى لو كانت فيه حقيقة فهي غيبه وإثم عظيم»، السابق حـ٦/ ١١٠.

(٦) السابق حـ٦/ ١١١.

والحيوان وباقي الكائنات. والفضائل هي محاسن السلوك. والرذائل والآداب هي طرق الآداب أو ما يسمى بالآداب العامة. والصفات الخلقية مكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة باتفاق جميع العقلاء وثناء الشرع عليها، وبأنها مظاهر للنبوة. وتسمى حُسن الخلق[1]. وجوهرها الاعتدال في قوى النفس. وأوصافها التوسط فيها دون الميل والانحراف إلى الأطراف[2]. وهي خلق الرسول[3]. وهي صفات جميع الأنبياء[4]. وهم جميعا على خلق واحد[5]. وله صفاته في الكتب المأثورة عن الأنبياء السابقين[6]. فقد خفف على داود القرآن. ومن ضمن الأخلاق آداب الحياة[7]. وهي فطرية أو مكتسبة، طبيعية أو عادة. وإبراز الأخلاق لبيان أثرها في رقي الأمم[8]. فقد امتاز الرسول برقة الشعور الإنساني ونبل العاطفة[9]. وكان إذا أخذ موعد لقاء حدد الطرف الآخر مكانه. وهو أعقل الخلق على الإطلاق[10]. يتفق قوله مع العقل. ولا ينطق عن الهوى[11]. ومن أخلاقه مداومة العمل، بل والعمل بيده. يساعد الآخرين في أعمالهم[12]. ويكره

---

(١) الشفا حـ١/ ١٢٥-١٣٢.

(٢) «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، «كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب».

(٣) السابق حـ١/ ١٣٣-١٣٥.

(٤) الشفا حـ١/ ١٨٨-١٩٧.

(٥) «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر.. على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم»، السابق حـ١/ ١٨٨.

(٦) شمائل الرسول ص٧١-٧٥ «خفف على داود القرآن. فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن مقدار ما يفرغ»، ص٧٢.

(٧) سيرة النبي حـ٦/ ٣٩١-٤٤٤.

(٨) السابق حـ٦/ ١، معين الشمائل ص١٤٨-١٥٤.

(٩) السيرة النبوية ص٤٤١-٤٤٣ «لا يبلغني أحد عن أحد شيئا. إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»، «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا...»، شمائل الرسول ص٤٣، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، سيرة النبي حـ٢/ ٢٢٥-٢٢٦.

(١٠) الأسوة الحسنة ص٤١٥-٤٩٥، الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٠، من النقل إلى العقل حـ٢ علوم الحديث، الباب الثاني، نقد المتن، الفصل الثاني: نقد المضمون العقلي ص٤٣١-٥١٤.

(١١) خصائص الرسول ص٣٠٤-٣٠٥.

(١٢) «إن أحب العلم إلى الله أدومه»، سيرة النبي حـ٢/ ٢٨-٢٢٩/ ٢٢٦-٢٦٨، معين الشمائل ص١٥٥-١٥٩.

الرهبانية والروحانية الفارغة[1]. تقوم الأخلاق إذن على العقل والعمل، على البداهة والفعل، على الفطرة والسلوك، أسر الرسول قومه بأخلاقه وسلوكه وفضله وأمانته ولكن ذلك لا يدعو إلى جعله تشخيصا لرسالته. والأسوة الحسنة[2]. كان بسيطا يكره التكلف[3]. يدعو إلى الاعتدال والوسطية[4]. وتصنف أخلاقه إلى مجموعات في أنساق أو إلى فضائل متمايزة[5]. كما يتم إحصاء الرذائل بعد الفضائل كمضادات لها[6]. إذا يختص بطهارته من سوء الأخلاق، اللسان وآفاته، والغيبة والنميمة، وفضول الكلام، وازدواج الوجهين، واللعن، والغرور، والحسد[7].

---

(١) سيرة النبي حـ٢/ ٢٥٢-٢٥٤..

(٢) في عدله وأمانته وصدق لهجته، بهجة المحافل ص٥٢٤-٥٢٥ «أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة»، السابق ص٥٢٥، أسوة كاملة وقدوة عامة، السيرة النبوية ص٤٥٤-٤٥٦.

(٣) الأسوة الحسنة ص٤١٥-٤٩٥.

(٤) سيرة النبي حـ٢/ ٢٥٥.

(٥) السابق حـ٦/ ٢٦٢-٢٦٤.

(٦) السابق حـ٦/ ٢٩١-٣٩٠، الكذب، الحلف كذبا ضد الصدق، خلف الوعد ضد الوفاء بالوعد، الخيانة وعدم الأمانة ضد الأمانة، الغدر والخداع ضد قول الحق، النميمة، والغيبة وفحش القول، ذو الوجهين ضد الاستقامة، سوء الظن، النفاق والمداهنة، البخل ضد الإحسان، الحرص والطمع، عدم الضمير، السرقة، التطفيف في الميزان، الغلول، الرشوة، أكل الربا، شرب الخمر، الغيظ والغضب، البغض والحقد، الظلم ضد العدل والإنصاف، الفخر والغرور ضد التواضع، الرياء والعجب وحب الذات، التبذير، الحسد.

(٧) «إن كل كذب ليكتب مهما كان صغيرا»، «خيانة كبيرة أن تكذب على أخيك وهو يظن أنك صادق»، السابق حـ٦/ ٣٠٠-٣٠١، «إن الحلف يوجب الذنب إذا لم ينفذ أو يوجب الندم والخجل» حـ٦/ ٣٠٧، «لا تغتابوا المسلمين ولا تبحثوا عن عيوبهم لأن من يتبع عيوب الناس تتبع الله عيوبه، ومن تتبع الله عيبه فضحه في عقر داره»، حـ٦/ ٣٢٠، «تجنبوا سوء الظن لأن سوء الظن أكبر من الكذب، ولا يتجسس أحدكم على الآخر، ولا يتعدى أحدكم على الآخر أو يطمع فيه، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا» حـ٦/ ٤٢٤، «من رفع السلاح علينا أو غشنا فليس منا» حـ٦/ ٣٣٦، «إنما هلك من كان قبلكم إذا سرق فيهم الضعيف عاقبوه، وإذا سرق فيهم الأقوياء تركوه والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»، حـ٦/ ٣٤١، «ما بال العالم نرسله فيأتي ليقول: هذا لكم وهذا لي. فليجلس في بيت أبيه وأمه ولينظر هل يهديه أحد شيئا أم لا؟» حـ٦/ ٣٤٨ «أيها الناس لا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» حـ٦/ ٣٥٨، «يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وعليكم فلا تظلموا»، «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، «تجنب دعوة المظلوم

ومن صفاته الخلقية، حسن خلقه، وحلمه وعفوه[1]. ومعها رفعته في الأمور وكرمه واعتذاره، حياؤه وصفة كلامه وصحته، وجوده، وتواضعه[2]. وهو ما يؤكده القرآن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وهي صفات مجملة مع جلسائه. والعدل يمنع من التطرف الذي ألصق فيما بعد بالخوارج[3]. ويضم إليه الإنصاف، وهو عدل في إقامة الحدود، والعدل بين الأولاد، والعدل في القسمة ضد ظلم الإنسان لنفسه ولغيره وظلم القضاة وظلم الحكام والولاة والرفق بالحيوان[4]. ومنها المغفرة للإنسان[5].

وفي الرسول ست عشرة فضيلة: الكمال، الحلم، العفو، السخاء، وسع الصدر، المزاح، البدء بالسلام والمصافحة، البشاشة، صلة الرحم، التواضع، الأمانة، التطيب، المروءة[6]. ولكل منها شواهد إما من القرآن أو من السنة.

فليس بينها وبين الله حجاب»، حـ٦/ ٣٦١-٣٦٢. «التكبر هو أن لا تقبل الحق وتحتقر الناس»، «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر»، حـ٦/ ٣٦٤-٣٦٥، «لا تقفوا تعظيما لي مثلما يفعل العجم» حـ٦/ ٣٦٦، معين الشمائل ص٢٩١-٣١٢.

(١) حسن خلقه، الأنوار حـ١/ ١٩٤-٢١٩/ ٢٦٣-٢٦٨/ ٢٧٩-٣٢٢، الشفا حـ١/ ٢٠٦-٢٠٨، عيون الأثر ص٤٤٠-٤٤٢، كمال خلقته وجمال صورته، معين الشمائل ص١١١-١١٧، حلمه وعفوه ص١٧٢-١٩١، سيرة النبي حـ٢/ ٢٢٩-٢٣٦.

(٢) «رحم الله موسى قد أوذي بما هو أشد من هذا فصبر»، الأنوار حـ١/ ١٧٥ «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم»، السابق ص١٧٦ «هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت» السابق ص١٧٦، «ويلك فمن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، السابق ص١٧٧، في صفه حياته، شمائل الرسول ص٢٢٩-٢٣٣.

(٣) «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجوز تراقيهم. يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية... ويخرجون على حين فرقة من الناس»، السابق ص١٧٧، سيرة النبي حـ٦/ ٢٣٢-٢٣٥.

(٤) «مهلا يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف أو الفحش» الأنوار حـ١/ ١٨٤، «إن امرأة عذبت في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض»، الجوهرة حـ٢/ ٨٣، سيرة النبي حـ٦/ ٢٥٢-٢٥٦.

(٥) «لو أعلم أني إن زدت على السبعين فغفر له لزدت عليها»، السابق ص١٨٥، في علمه وحلمه واحتماله وعفوه وصبره، بهجة المحافل ص٥١٥-٥١٦، «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ص٥١٦، السيرة النبوية ص٤٥١-٤٥٤، حسن خلقته، الأسوة الحسنة ص٤١٦-٤١٧.

(٦) عيون الأثر حـ٢/ ٤٣٤-٤٤٤، ميعن الشمائل ص١٦٠-١٨٥.

ومن الصفات الخلقية الرحمة والشفقة[1]. الرحمة والشفقة لجميع الخلق خاصة بالأطفال وبالعبيد، فالرسول لم يبعث لعانا بل رحمة[2]. ومن لا يرحم لا يُرحم. فالرحمة هي التي جعلت عين الرسول تدمع. والقلب يحزن لموت إبراهيم[3]. ولا يحب أن يُبلغ عن أصحابه شيئا لأنه يريد أن يخرج إليهم سليم الصدر. والأطفال ريحان الله[4]. وكان أوصل الناس للرحم، والرحمة للعالمين[5]. الرحمة للناس الصغار والكبار والضعفاء والبنات والأرقاء والحيوان. وتعني التيسير والستر وتفريج الكرب.

الصفات الخلقية الرفق والكرم والاعتذار[6]. فلمن وقع على امرأته في رمضان عتق رقبة أو صيام شهرين أو إطعام ستين مسكينا أو التصدق بهذه التمرات ولا يوجد أفقر من عياله[7]. ومن صفاته الخلقية الشجاعة[8]. يشجع المسلمين على القتال، ويعجب بشجاعة المقاتلين. والشجاعة والنجدة متقاربان. الشجاعة فضيلة، قوة الغضب وانقيادها للعقل. والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت[9]. والمروءة صنو الشجاعة، والعزم والثبات قرينان للشجاعة[10].

---

(١) في رحمته وشفقته، الأنوار حـ١/ ٢٠٦-٢١٩، الشفا حـ١/ ١٥٩-١٦٤، سيرة النبي حـ٢/ ٢٩٦-٣٠١، حـ٦/ ٢٢٨-٢٣٢. عيون الأثر ص٤٤٠، معين الشمائل ص٢١٩-٢٢٨.

(٢) «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»، الأنوار حـ١/ ٢٠٨ «من لا يرحم لا يرحم» ص٢٠٩، النبي الأعظم ص٧٨.

(٣) «يا ابن عوف إنها رحمة... إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، الأنوار حـ١/ ٢١٠، بهجة الحافل ص٥٢٠-٥٢١.

(٤) أتى الرسول بصبي فقبله وقال «أما إنهم مبخلة مجبنة، وإنهم لمن ريحان الله عز وجل»، ص٢١٦، الأسوة الحسنة ص٤٢٤-٤٢٥.

(٥) سيرة النبي حـ٢/ ٣٠٥-٣٠٧، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، سيرة النبي حـ٦/ ٢٣١.

(٦) الأنوار حـ١/ ١٩٤-٢٠٥ «في جوده وكرمه وسماحته، بهجة المحافل ص٥١٦، شمائل الرسول ص٤٥-٤٨، «يقول الله تعالى: ابن آدم أنفق أنفق عليك» ص٤٩.

(٧) الأنوار حـ١/ ١٩٨-١٩٩، كرمه وحلمه، السيرة النبوية (١) ص٤٤٣-٤٤٦، السيرة النبوية (٢) ص٤٢٥-٤٢٧.

(٨) الأنوار حـ١/ ٢٧٩-٢٨٢، في شجاعته ونجدته، بهجة المحافل ص٥١٧، عيون الأثر ص٤٣٥، سيرة النبي حـ٢/ ٢٧٠-٧١، حـ٦/ ٢٧١-٢٨١، معين الشمائل ص١٩٤-١٩٩.

(٩) الشفا حـ١/ ١٤٧-١٥٢، في صفة كرمه وشجاعته، شمائل الرسول ص٤٦-٢٥٢، «فضلت على الناس بأربع: بالسماحة، والشجاعة، وكثرة الجماع، وشدة البطش»، الإشارة ص٤١٤، سيرة النبي ص٤٣٤-٤٣٥، السيرة النبوية (١) ص٤٥٠-٤٥١، شجاعته، السيرة النبوية (٢) ص٤٣٦-٤٣٧، الأسوة الحسنة ص٤٢٩-٤٣١، عيون الأثر ص٤٤٢-٤٤٣، شمائل الرسول ص٧٠.

(١٠) سيرة النبي حـ٢/ ٢٦٨-٢٧٠، حـ٦/ ٢٧١-٢٨١.

يكره الاستجداء والسؤال. وهو موقف الشحاذ من الناس ومن الله[١]. ويبغض الصدقة لأنها أوساخ الناس، يقبل الهدايا. ولا يقبل الإحسان[٢]. ومن صفاته الجود[٣]. فبعد أن خطف رداؤه طلب برده، فلم يكن بخيلا ولا جبانا ولا كذابا[٤]. ينفق ما لديه حتى ولو كان مثل جبل أحد ذهبا[٥]. والجود والكرم والسخا والسماحة معان متقاربة. الكرم الإنفاق بطيب النفس. والسماحة التجافي عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس. والسخاء سهولة الإنفاق، وهو الجود ضد التقتير[٦]. ومن صفاته الإيثار[٧]. يعطي الجود من نفسه تحقيقا للعدل[٨]. وليس أفضل من الاستعفاف والاستغفار والتصبر[٩].

ومن أخلاقه التواضع[١٠]. يجلس مع البسطاء[١١]. ويقبل الدعوات. كان الرسول أشد الناس تواضعا وأقلهم كبرا[١٢]. يرفض أن يقوم له الناس كما تقوم الأعاجم، يعظم

---

(١) السابق حـ٢/ ٢٤٦-٢٤٨.

(٢) «إن الصدقة حرام على محمد وعلى أهل محمد»، السابق حـ٢/ ٢٤٨-٢٥٢. «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد. إنما هي أوساخ الناس» السابق ص٢٩٠.

(٣) الأنوار حـ١/ ٢٨٢-٢٩٢، عيون الأثر ص٤٣٥، إكرام الضيف، سيرة النبي حـ٢/ ٢٤٤-٢٤٦، في صفة كرمه وشجاعته، شمائل الرسول ص٢٤٦-٢٥٢، معين الشمائل ص٢٠٠-٢٠٥.

(٤) «ردوا عليّ ردائي. أتخشون عليّ البخل؟ فو الله لو كان لي عدد هذا العضاة نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا»، السابق ص٢٨٤.

(٥) «والذي نفسي بيده لو أن عندي أحدا ذهبا لأحببت أن لا يأتي علي ثلاث ليال وعندي منه دينار أجد من يتقبله مني ليس شيء أرصده في دين علي»، السابق ص٢٩١.

(٦) الشفا حـ١/ ١٤٤-١٤٧، الإشارة ص٤١٥، الأسوة الحسنة ص٤٣١-٤٣٣، شمائل الرسول ص٤٨-٤٩.

(٧) سيرة النبي حـ٢/ ٢٤٣-٢٤٤.

(٨) الأسوة الحسنة ص٤٤٠-٤٤٣، عيون الأثر ص٤٣٥، سيرة النبي حـ٢/ ٢٤٠-٢٤٣، حـ٦/ ٢٠٥، «لا تقتروا وإلا قتر الله عليكم»، «يا بن آدم الإنفاق خير لك وجمع المال وتركه شر لك».

(٩) «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم. ومن يستعفف يعفه الله. ومن يستغن يغنه الله. ومن يتصبر يصّبره الله. وما أعطى أحد عطاء هو خير واسع من الصبر»، السابق ٢٩٢.

(١٠) الأنوار حـ١/ ٢٩٣-٣٢٢، الشفا حـ١/ ١٦٨-١٧٢، شمائل النبي ص١٨٥-١٩١، عيون الأثر ص٤٤٠-٤٤٢ «إن الله خلقني عبدا كريما ولم يجعلني جبارا عنيدا»، «لا أحب أن تنزلوني منزلة أكثر من التي أنزلنيها الله»، سيرة النبي حـ٢/ ٢٦٢-٢٦٤، حـ٦/ ٢٥٦-٢٥٨.

(١١) «يا أم فلان، اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك»، السابق ص٢٩٣، الشفا حـ١/ ١٦٩، «لم عنيت الشيخ؟ ألا تركته حتى أكون أن آتيه في منزله»، بهجة المحافل ص٥٢٣.

(١٢) «لو دعيت إلى كراع لأحببت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت»، السابق ص٢٩٨، «لا يدخل الجنة متكبر ولا

بعضهم بعضا. وقد أطرت النصارى عيسى ابن مريم وهو ليس مثله ولا المسلمون مثلهم. هو ليس بأفضل من يونس بن متى، وليس بأفضل من الأنبياء. ولا يخير على موسى، وهو أحق بالشك من إبراهيم، ولم يلبث كما لبث يوسف في السجن، وإبراهيم هو خير البرية. ولا تقبل اليد كما تفعل الأعاجم بملوكها. ويحمل الشيء لأن صاحب الشيء أحق بحمله[1].

ويتميز بأمانته وصدق لهجته[2]. ومن خصائصه عدله وعفته[3]. فهو أمين في السماء أمين في الأرض[4]. وهو أعدل الناس[5]. وسيرته في إيمانه وعقوده وركوبه، وفي البيع

زان ولا منان بعمله»، الجوهرة حـ٢/ ٨٩.

(١) «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضها بعضا. إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، الشفا حـ١/ ١٦٨، «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله»، السابق ص١٦٩، «لا تفضلوني على يونس بني متى. ولا تفضلوا بين الأنبياء، ولا تخيروني على موسى، ونحن أحق بالشك من إبراهيم. ولو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأحببت الداعي»، الشفا حـ١/ ١٧٠، «هونّ عليك فإني لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»، الشفا حـ١/ ١٧١، «وضد تقبيل اليد «هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها. ولست بملك، إنما أنا رجل منكم»، «صاحب الشيء أحق بحمله»، الشفا حـ١/ ١٧٢، بهجة المحافل ص٥٢٢-٥٢٤، السيرة النبوية (١) ص٤٤٨-٤٥٠، السيرة النبوية (٢) ص٤٢٧-٤٢٩، الأسوة الحسنة ص٤٢٥-٤٢٩، شمائل الرسول ص٤٩-٥٢، «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله»، السابق ص٤٩، «من تواضع لله رفعه»، «إن الله أمرنا بالتواضع حتى لا نظلم أحدا وألا يتكبر أحد على أحد»، سيرة النبي حـ٦/ ٢٥٨، «الغرور أن تنكر الحق وتحقر الناس»، السابق حـ٦/ ٢٦٧، في حقه وتواضعه، شمائل الرسول ص٢٣٤-٢٤٥، معين الشمائل ص٢١٠-٢١٨.

(٢) «إن الرجل إذا غرم حدث وكذب، ووعد فأخلف» الأنوار حـ١/ ٤٠٤، الأسوة الحسنة ص٤٣٣-٤٣٤، عيون الأثر ص٤٤٢، سيرة النبي حـ٢/ ٢٧١-٢٧٢، حـ٦/ ٢١٨-٢٢٣ «لا يكتمل إيمان أحدكم حتى يترك كل أشكال الكذب وحتى يكون مزاحه وشجاره صادقا»، «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإن صلى وإن صام وادعى أنه مسلم»، «الصدق يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. ولا يزال الرجل يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»، حـ٦/ ١٩٢-١٩٣، في صفة أمانته وصدقه، شمائل الرسول ص٢٢٧، معين الشمائل ص١٨٦-١٩٣.

(٣) الشفا حـ١/ ١٧٢-١٧٦، العدل والإنصاف، سيرة النبي حـ٢/ ٢٣٦-٢٤٠، معين الشمائل ص١٧١-١٧٦/ ٢٤٦-٢٥٧.

(٤) «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض»، الشفاحـ١/ ١٧٣.

(٥) «ويحك، فمن يعدل إن لم أعدل، أخبت وخسرت إن لم أعدل»، السابق ص١٧٤.

والشراء وفي بقية العقود وفي السلف والقرض وفي الركوب واتخاذ الغنم والرقيق[1].

والرسول هو الأتقى والأعلم بالله[2]. يتصف بالحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره، فضائل متشابهة. الحلم توقر وثبات عند الأسباب والمحركات. والاحتمال حبس النفس عند الآلام والمؤذيات. ومثله الصبر. والعفو ترك المؤاخذة[3]. ولا فرق بين الرسول وسائر المسلمين[4]. ونموذج العفو عند المقدرة، العفو من قريش عام الفتح[5]. كان أحلم الناس[6]. العفو عن الأعداء والدعاء لهم سنته. والحياء والإغضاء متقاربان[7]. الحياء رقة في وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته أو يكون تركه خيرا من فعله. والإغضاء التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته. مثال ذلك ما رأى الرسول فرج زوجاته ولا رأين فرجه قط. وكان خلقه الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم[8]. واتسم وقاره بالصمت والتؤدة والمروءة وحسن الهداية[9]. وكله يتحقق بعزة

---

(١) «بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء»، «لا تقل إلا خيرا فأنا خير من تسلف»، «لا أشتري بعد هذا شيئا إلا وعندي ثمنه»، «صه يا عمر، كنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء وكان أحوج إليه أن تأمره بالصبر»، «أيما امرئ أعتق امرءا مسلما كان فكاكه من النار... وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكاكه من النار....، «ستبقى أمتي على الفطرة طالما لم تعتبر الأمانة غنيمة»،سيرة النبي حـ٦/ ٢٢٣.

(٢) «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»، الأنوار حـ١/ ٢٣٠.

(٣) الشفا حـ١/ ١٣٥-١٤٣، عيون الأثر ص٤٣٤، سيرة النبي حـ٢/ ٧٧-٢٨٥، حـ٦/ ٢٤٩-٢٥٢، معين الشمائل ص٢٣٢-٢٤٠.

(٤) «أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج يا عمر. تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي»، الشفا حـ١/ ١٤١.

(٥) «ما تقولون إني فاعل بكن.... أقول .... اذهبوا فأنتم الطلقاء»، السابق ص١٤٢.

(٦) «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا»، الإشارة ص٤١٥، حلمه وعفوه مع القدرة عليه، الأسوة الحسنة ص٤١٩-٤٢٠، حلمه على المنافقين، حلمه على المشركين واليهود ص٤٢٠-٤٢٢، «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، سيرة النبي حـ٢/ ٢٩٣-٢٩٦

(٧) الشفا حـ١/ ١٥٢-١٥٤، الإشارة ص٤١٦، في حياته، بهجة المحافل ص٥١٧-٥١٨، الأسوة الحسنة ص٤٢٢-٤٢٣، شمائل النبي ص١٩٩، عيون الأثر ص٤٣٦، سيرة النبي حـ٦/ ٢٢٣-٢٢٨، «لا تغضب عليه فالحياء من الإيمان»، «الحياء لا يأتي إلا بخير»، حـ٦/ ٢٢٦-٢٢٧، معين الشمائل ص٢٠٦-٢٠٩.

(٨) الشفا حـ١/ ١٦٤-١٦٧، «إن حسن العهد من الإيمان»، «يا فتى لقد شققت عليّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك»، بهجة المحافل ص٥٢١-٥٢٢، عيون الأثر ص٤٤٠ـ سيرة النبي حـ٢/ ٢٧٢-٢٧٤، حـ٦/ ٢٣٥-٢٣٩، سيرة النبي حـ٦/ ٢٣٩، معين الشمائل ص١٧٧-١٨٥.

(٩) الشفا حـ١/ ١٧٦-١٧٩، بهجة المحافل ص٥٢٥، هيبته ووقاره، الأسوة الحسنة ص٤٤٧-٤٤٨، «إذا

النفس. والاستغناء هو غنى النفس[1]. والاستقامة هو التوحيد المباشر[2]. وتتصف مداراته وصبره على ما يكره[3]. كان أوسع الناس صدرا. يكره الإمارة لأن السلطة مفسدة. تدفع إلى الغرور[4]. وينأى عن رموزها وشاراتها. وأفضل جهاد كلمة عدل عند سلطان جائر. يكره الذم والمدح على عكس ما هو جار هذه الأيام. وينهى عن التعظيم والمدح المفرط[5].

ويتميز بحسن العشرة والأدب وبسط الخلق[6]. وهو ما يقتضي حسن استقبال الأخوة والتهيؤ لهم، ومبادرتهم بالسؤال إذا لم يحسنوا استقباله. لا يدع أحدا يسير خلفه، مكان الملائكة. والمقصود التواضع والمساواة إلا إذا اقتضت ضرورة الزحام. يساهم في العمل الجماعي حتى ولو كان حمل الحطب حتى لا يتميز على أحد. وهو إحساس طبيعي والاعتماد على النفس خير من الاعتماد على الآخرين. يحسن الرسول معاملة النساء[7]. يعود المرضى ويواسيهم[8]. يحب الفقراء، ويشفق عليهم[9]. سلوكه

سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم بالسكينة والوقار، ولا تسرعوا»، سيرة النبي حـ٦/ ٢٦٨.

(١) سيرة النبي حـ٦/ ٢٦٤-٢٧١، «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»، حـ٦/ ٢٨٩.

(٢) «قل لا إله إلا الله ثم استقم»، السابق حـ٦/ ٢٨٢.

(٣) الأسوة الحسنة ص٤٢٣-٤٢٤، عيون الأثر ص٤٣٧-٤٣٨، معين الشمائل ص٢٤١-٢٤٥.

(٤) سيرة النبي حـ٢/ ٢٥٥-٢٦٢، «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، حـ٦/ ٢٨٦، «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، حـ٦/ ٢٨٧.

(٥) السابق حـ٢/ ٢٥٤-٢٥٥/ ٢٦٤، «المسلم ليس بطعان ولا لعان، ولا يقول إلا الطيب من القول»، حـ٦/ ٢٥٩.

(٦) الشفا حـ١/ ١٥٤-١٥٩ «أركب أمامي، فصاحب الدابة أولى بمقدمتها»، ص١٥٦ «في حسن عشرته لأصحابه وحسن أدبه معهم»، «إن الله يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيأ لهم ويتجمل»، «لعل فلانا وجد علينا في شيء أو رأى منا تقصيرا»، «خلوا ظهري للملائكة»، «وعلي جمع الحطب»، «قد علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم»، «لأن يستغنى أحدكم من الناس ولو في قضمة من سواك»، بهجة المحافل ص٥١٨-٥٢٠، في صفة عشرته مع نسائه، شمائل الرسول ص٢٢٢-٢٧٦، حسن التصرف، معين الشمائل ص٢٨٤-٢٩٠.

(٧) سيرة النبي حـ٢/ ٣٠١-٣٠٣.

(٨) السابق حـ٢/ ٣٠٧-٣١٢.

(٩) «تأخذ من أمرائهم وترد على فقرائهم»، السابق حـ٢/ ٢٩٠-٢٩٢.

مع الكفار والمشركين سلوك كريما[1]. تميز بحسن خلقه مع اليهود والنصارى[2]. كما تميز بحسن خلقه مع الأعراب[3]. يرفق بالحيوان[4].لا توجد فضيلة إلا فيه. فهو بحق الإنسان الكامل كما وصفه الصوفية. لا فرق فيه بين صفات الله وشمائل الرسول.

٣- الخصائص الدينية

وتصعب التفرقة بين الفضائل الخلقية والخصائص الدينية. فكثير من الفضائل الخلقية خصائص دينية مثل التقوى، والرحمة، والحلم، والشفقة، والجود،والعدل. وكثير من الخصائص الدينية قيم أخلاقية مثل الزهد، والإيمان، والإخلاص. ومع ذلك هناك بعض القيم أقرب إلى الفضائل الأخلاقية الخالصة مثل الشجاعة، والبعض الآخر أقرب إلى القيم الدينية الخالصة مثل الزهد، والإعراض من الدنيا، والخوف من الله، وما أُعطي الرسول من شفاعة، والاستغفار والتوبة[5]. فمن صفاته الدينية زهده، وخوفه من الله، وهي الصفات التي كبرها وضخمها وأبرزها الصوفية وأعطوها الأولوية على الصفات الأخرى، واعتبروها أحوالا ومقامات[6]. وهي سنة الأنبياء السابقين[7]. فضل

---

(١) السابق جـ٢/ ٢٨٥-٢٨٨.

(٢) الأسوة الحسنة ص٤١٨-٤١٩، سيرة النبي جـ٢/ ٢٨٨-٢٩٠.

(٣) الأسوة الحسنة ص٤١٨-٤١٩.

(٤) سيرة النبي جـ٢/ ٣٠٣-٣٠٥، معين الشمائل ص٢٢٦-٢٢٧.

(٥) «أبشروا معاشر الصعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل الاختبار بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام»، ص٦٦.

(٦) من الفناء إلى البقاء، جـ٢/ الوعي الذاتي، الباب الثاني، الفصل الثاني: المقامات، الفصل الثالث: الأحوال.

(٧) «يا عائشة، مالي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، لأجدني أستحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم. وما من شيء هو أحب إلي من اللحوق بأخواني وأخلائي»، الشفا جـ١/ ١٨٤، «إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي»، الشفا جـ١/ ١٩٥، ألفية السيرة ص٩٧-١٠٢، سيرة النبي ص٤٣٦-٤٣٨، السيرة النبوية ص٤٣١-٤٣٣، الحفاظ على أصالة الدين والغيرة على روحه وتعاليمه، السيرة النبوية ص٤٤٦-٤٤٨، السيرة النبوية ص٥٥-٦٦، «يا عمر ألا ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»، ص٥٦، «لو أن لي ثقل أحد ذهبا ما سرني أن تأتي على ثلاث ليال وعنده في شيء إلا شيء أرصده لديني»، ص٥٧، «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة»، ص٥٧، «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام»، ص٥٩، «رديه يا عائشة، والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»، ص٦١.

الرسول أن يكون عبدا نبيا. وآثر الآخرة على الدنيا، ومع الزهد تأتي القناعة. ويوضع الزهد في سيرته بشأن تلبية الحاجات الضرورية[1]. فالزهد سلوك إيجابي، يفترق عن الفقر[2].

ويتضمن زهده إعراضه عن الدنيا[3]. عدم الاقتداء بالفرس والروم الذين انكبوا عليها[4]. أما رزق آل محمد فهو القوت[5]. وقد عُرض على الرسول أن تجعل له بطحاء مكة ذهبا فرفض. وآثر أن يشبع يوما ويجوع يوما. فإذا جاع تضرع إلى الله وذكره. وإذا شبع حمده وشكره[6]. ولا تنبغي الدنيا لمحمد ولا لآله. يكفي أولو العزم الصبر على مكروها، والصبر على محبوبها[7]. ورفض النوم على فراش من صوف أهدى إليه بدلا من الحصير[8]. فقد اختار الرسول وآل بيته الآخرة على الدنيا[9]. يئس الرسول من الدنيا ويئست الدنيا منه. بُعث هو والساعة يستبقان[10]. الرسول في هذه الدنيا مجرد راكب استظل تحت شجرة ليستريح ثم تركها[11].

---

(١) معين الشمائل ص٣٥٥-٣٩٨.
(٢) السابق ص٣٥٥-٣٦٢.
(٣) الأنوار حـ١/ ٢٢٢-٢٣٤.
(٤) «أولئك قوم عُجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»، السابق ص٣٢٣.
(٥) «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»، السابق ص٣٢٣، الشفا حـ١/ ٨٠.
(٦) عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا. فقال لا، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما... فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك. وإذا شبعت حمدتك، وشكرتك»، السابق ص٣٢٤.
(٧) «إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهها، والصبر على محبوبها، لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم... والله لأصبرن كما صبروا وأجهدن»، السابق ص٣٢٤-٣٢٥، «ما لي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»، شمائل الرسول ص٥٧.
(٨) «رديه يا عائشة فو الله لو شئت لأجرى الله عليّ جبال الذهب والفضة»، السباق ص٣٢٥، «ردوه بحاله فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي»، الشفا حـ١/ ١٨٣، بهجة المحافل ص٥٢٦-٥٢٧.
(٩) «إنا أهل بيت اختار الله عز وجل لنا الآخرة على الدنيا»، الأنوار حـ١/ ٣٢٥.
(١٠) «يئست من الدنيا، ويئست مني، أني بعثت أنا والساعة فنستبق»، السابق ص٣٢٦.
(١١) «مالي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»، السابق ص٢٢٦، «إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له»، الشفا حـ١/ ١٨١-١٨٢، شمائل الرسول ص٥٦-٥٧.

ويجوع الرسول هو وأهله في بيوته التسع[1]. وقد لا يدخل طعام فيه ثلاثة أيام[2]. وقد يظل هو وبلال ثلاثين يوما وليلة لا يأكلان طعاما إلا ما يواريه إبط بلال أي كسرات خبز وشرب حليب. وطعام شاة تعين يُسأل عنه الصحابيان بعد أن خرجا إلى الطريق ولقيا الرسول من الجوع[3]. ولا يترك الرسول وراءه ميراثا إلا نفقة عياله ومؤنة عامله بل صدقة للناس[4]. وقصر الأمل نقيض التخطيط على المدى الطويل كما فعل يوسف فأنقذ مصر من المجاعة[5]. وفي رواية أخرى ادخاره قوت سنة وعدم ادخاره للغد، والرجاء القصير في العمل[6]. وهو قلة الطموح، وعدم الاهتمام بالغد والأفضل رزق يوم بيوم، من اليد إلى الفم. وهو ما يضاد معاني الاستثمار والإعداد وتوقع الكوارث والمجاعات والحروب.

ولا أحد يزايد على الرسول في الخوف من الله[7]. يفعل الرسول شيئا ويمتنع عنه البعض مزايدة عليه[8]. ولو علموا ما علم لبكوا كثيرا وضحكوا كثيرا[9]. يخشى العذاب من الله[10]. وقد استيقظ ليلة خائفا مما أنزل من الخزائن ومن الفتن وأيقظ زوجاته فرب

---

(١) «ما أصبح بآل محمد صاع من طعام، وأنهن يومئذ تسع أهل بيوتات»، الأنوار حـ١/ ٣٣١.

(٢) «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاث»، السابق حـ١/ ٣٣١، «ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم، ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال»، ص٣٣٢.

(٣) «والذي نفسي بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»، السابق حـ١/ ٣٣٤.

(٤) «لا يقسم ورثتي دينارا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»، السابق حـ١/ ٣٣٣.

(٥) الأسوة الحسنة ص٤٣٩٨-٤٤٠، «ألم أنهك أن تدع طعام يوم لغد»، «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا»، «ألم أنهك أن ترفعي شيئا لغد، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد»، حـ١/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٦) معين الشمائل ص٢٦٧-٢٧١.

(٧) الأنوار، حـ١/ ٣٣٤-٣٣٨، الشفا حـ١/ ١٨٤-١٨٨، معين الشمائل ص٢٦٢-٢٦٦.

(٨) «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه. فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»، الأنوار حـ١/ ٣٣٥.

(٩) «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا»، السابق ص٣٣٦.

(١٠) «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب. قد عُذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا ﴿عَارِضٌ مُمطِرُنَا﴾، السابق ص٣٣٧.

كاسية في الدنيا عارية في الآخرة[1]. يستغفر الله في اليوم مائة مرة[2]. والورع وترك الشبهات هو الخوف الزائد[3].

والأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم[4]. وفي حياة داود، صيامه وصلاته ولباسه وفرشه وطعامه وسلوكه النموذج[5]. والرسول أكرم من أن يشغل نفسه بحمار[6]. وكان أكرم على الأنبياء الابتلاء بالفقر والقمل أحب إليهم من عطاء الدنيا[7].وكان دائم التفكير فيما هو أكثر دواما، وفيما هو آت.

ومن الخصائص أنواع: الشفاعة التي أعطيت للرسول[8]. وهي: المقام المحمود للخلق جميعا، الشفاعة في عدم دخول النار، والشفاعة من تزيد سيئاته على حسناته، والشفاعة لأهل الكبائر باستثناء نهي الخوارج والمعتزلة لها، والشفاعة للمؤمنين بعد تجاوز الصراط[9]. والشفاعة في رفع درجات بعض المؤمنين. الشفاعة تعبير عن الأمل في المستقبل، وتخفيفا لقانون الاستحقاق، وإكمالا للعدل بالرحمة، وبالاعتماد على الذات بالأمل في الآخر.

---

(١) «سبحان الله ماذا أُنزل الليلة من الخزائن، وماذا أُنزل من الفتن، من يوقظ صواحب الحجرات لكي يصلين. رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»، السابق ص٣٣٨.

(٢) «إني لأستغفر في اليوم مائة مرة»، «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني الصلاة»، «وثمرة فؤادي في ذكره، وغمي لأهل أمتي وشوقي إلى ربي»، بهجة المحافل ص٥٢٧-٥٢٨.

(٣) معين الشمائل ص٢٥٨-٢٦١.

(٤) «وكذلك الأنبياء، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»، الشفا حـ١/ ١٩٥.

(٥) «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود. كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما. وكان يلبس الصوف، ويفترش الشعر، ويأكل خبز الشعير بالملح، والرماد، ويخرج شرابه بالدموع. ولم يُر ضاحكا بعد الخطيئة، ولا شاخصا ببصره إلى السماء حياء من ربه، ولم يزل باكيا على حياته كلها»، السابق حـ١/ ١٩٦.

(٦) «أنا أكرم على الله من أن يشغلني بحمار»، السابق حـ١/ ١٩٦.

(٧) «لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر والقمل، وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم»، السابق حـ١/ ١٩٧.

(٨) الفصول ص٥٢٤-٥٣٠، معين الشمائل ص٣١٩-٣٢٤.

(٩) «أنا أول شفيع في الجنة»، الفصول ص٥٢٩.

استغفاره وتوبته من الخصائص الدينية. يستغفر دائما حتى لو غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ويتوب أكثر من مرة في اليوم الواحد تطهيرا للقلب وتصفية للنية، والحب والبغض في الله[1]. فالمحبة متبادلة بين الرسول وقومه، وبين الرسول والله، أفقية ورأسية في آن واحد[2].

ووصف الرسول نفسه بأنه النذير العريان[3]. فقد حذر من الشيطان والدنيا والنفس والنار والدجال واتباع الأمم السابقة، في العقيدة والصلاة والأسرة[4]. وحذر من ولاية الأمور العامة. حذر الأئمة والقضاة والعلماء والمسئولين عن مال الأمة[5]. لذلك لا تُسأل الإمارة فإن السؤال عنها ندامة، والكل راع، والكل مسئول عن رعيته، وحذر القضاة وصنفهم في ثلاث: من قضى بالحق فهو ناج، ومن عرف الحق ولم يقض به، ومن مهل الحق فقضى به، وكلاهما هالك[6]. والقضاء سيف على الرقبة بغير حد. وحذر

(١) الأسوة الحسنة ص٣٣٧-٣٣٩، «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»، «والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بما أتقي»، «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، شمائل الرسول ص٦٨.

(٢) معين الشمائل ص٢٧٢-٢٧٩.

(٣) «إنما أنا ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء. فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»، «ما من بني آدم مولود إلاّ يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان من غير مريم وابنها»، «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، «إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدري كم صلى. فإذا وجد ذلك فليسجد سجدتين وهو جالس»، معين الشمائل ص٤٠٦، «فأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح بابا مغلقا، فأغلقوا قربكم، واذكروا اسم الله، وخمروا آنيتكم واذكروا اسم الله»، ص٣٩٩-٤٢٨، «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، ص٤١١، «أنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة»، ص٤١٣، «ما من وال يلي على رغبة من المسلمين فيموت وهو غش لهم إلا حرم الله عليه الجنة»، ص٤١٤.

(٤) «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، السابق ص٤٠٧، «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، ص٤٠١-٤١٢.

(٥) السابق ص٤١٣-٤١٨.

(٦) القضاة ثلاث: «واحد في الجنة واثنان في النار. فأما الذي في الجنة، فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»، «من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين»، السابق ص٤١٥.

العلماء، فالعلم طريق النجاة[1]. والعلم لوجه الله وليس لعرض في الدنيا، مجاراة العلماء أو مماراة السفهاء أو لجذب الانتباه إليه، وحذر المتخوضين في المال بغير حق[2].

وحذر الرجال من النساء[3]. وحذر النساء[4]. فالمرأة للرجل فتنة، خاصة إذا كانت ثيبا. وهم أكثر أهل النار كما أن الفقراء أكثر أهل الجنة، هن ناقصات عقل ودين، ناقصات عقل لأن شهادتها نصف شهادة الرجل، وناقصات دين لأنهن لا يصلين إذا حضن. يكثرن الشكاة، ويكفرون بالعشيرة، ويكثرن اللعن، ويكفرن باللسان. ويؤمرون بالصدقة والاستغفار.

٤- البيـان

ومع خصائصه من وفور عقله، وذكاء لبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله أنه كان أعقل الناس وأذكاهم[5]. كان قلبه طاهرا شريفا[6]. حادثة شق الصدر الشهيرة وما بها من خيالات وتصويرات، عقله يزن عقول الخلق جميعا[7]. كان أفصح الخلق، وأعذبهم كلاما، وأسرعهم أداء وأحلاهم منطقا، يأخذ عجبا مع القلوب. لا يسرع ولا يبطئ. ويفصل الكلام دون ملل. يعيد الكلام أحيانا ثلاثا ليعقله السامع، ويسكت ولا يتدخل فيما لا يعنيه. يتكلم بجوامع الكلم دون

---

(١) «من يسلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم»، «وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا أو درهما-وورثوا العلم»، «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليجاري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»، السابق ص٤١٥-٤١٦.

(٢) «إن رجالا لا يتخوضون كما قال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة»، السابق ص٤١٧.

(٣) «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»، السابق ص٤١٩-٤٢٨.

(٤) «واتقوا النساء فإن أول فتنة في بني إسرائيل كانت في النساء»، ص٤١٩، «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل المزمن من إحداكن»، «ألا لا يبتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحا أو ذا محرم»، «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء. واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»، السابق ص٤٢١-٤٢٥.

(٥) الشفا حـ١/ ٩١-٩٥، شمائل النبي ص١٣٢-١٣٣/ ١٤١/ ١٥٢.

(٦) شمائل النبي ص١٥٤-١٥٨ «أتيت وأنا في أعلى فانطلق بي إلى زمزم فشرح صدري ثم غسل بماء زمزم ثم أتيت بطست من ذهب ممتلئا إيمانا وحكمة فحشى بها صدري»، ص١٥٨.

(٧) السابق ص١٦٠.

فضول أو تقصير[1]. خطبه مميزة، كان مميزا في خطابته. له طريقته وأسلوبه في البيان. لها نوعية خاصة وتأثير قوي في السامعين[2]. له أدعية وأذكار تقال في أوقات مخصوصة[3]. يتسم بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وسلامة الطبع، وبراعة المنزع. والأمثلة على ذلك كثيرة قولا وكتابة، وهي مركزة، وقليلة اللفظ، عميقة المعنى. تطابق التجربة البشرية. يسهل تكرارها، ومن جوامع الكلم، وهو فن من فنون البلاغة العربية[4]. أصله القرآن أيضا في بعض الآيات، ولسان القرآن ولسان الرسول لسان عربي مبين، وكلغة إسماعيل مهددة بالاندثار. تعلم العرب لدى بني سعد، فمن أين يأتي اللحن؟[5]. يتحدث بلسان العرب وفي نفس الوقت بلغات أخرى مثل الحبشية والرومية والفارسية والقبطية أو على الأقل بألفاظ منها دخلت العربية من قبل.

---

(١) خير العباد ص٦٨٢-٦٨٣/ ٣٨٥، في صفة نطقه وخصائصه وسكوته، بهجة المحافل ص٥٠٤-٥٠٥، محمد البليغ، عبقرية محمد ص١٠٣-١١٩، نبذة من جوامع عباراته ورقائق براعاته، سيرة المصطفى ص٨٢-٨٨ «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافه، وختم بي النبيون»، الجوهرة حـ٢/ ٩٤، شمائل الرسول ص٤٦-٤٧، خصائص الرسول ص٢٨٧-٢٨٨، الآية في لسانه الشريف، الخصائص الكبرى حـ١/ ١٥٣-١٥٤، آداب الحديث حـ٦/ ٤١٦-٤٢٠، صفة كلام النبي، معين الشمائل ص١٣٢-١٤٢.

(٢) سيرة النبي حـ٢/ ١٩١-١٩٨، أسلوبه في الخطبة حـ٢/ ١٧٤-١٧٦، جوامع الكلم، شمائل الرسول ص٢٩٦-٣٢٦.

(٣) شمائل الرسول ص٢٨٧-٢٩٥، خمسون حديثا، أكثرها صحاح وحسان من أدعيته ص٣٧٣-٣٩٦.

(٤) مثل «فإن اليد العليا هي المنطية، واليد السفلى هي المنطاة»، «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»، «الناس كأسنان المشط»، «المرء مع من أحب»، «ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له»، «الناس معادن»، «ما هلك امرؤ عرف قدره»، «المستشار مؤتمن»، «هو بالخيار ما لم يتكلم»، «رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم»، «اسلم تسلم»، «أسلم يؤتيك الله أجرك مرتين»، «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحسانكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويُؤلفون»، «لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا يُغنيه»، «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها»، «النهي عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع دمعات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات»، «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»، «خير الأمور أوساطها»، «أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما»، «الظلم ظلمات يوم القيامة»، «حمي الوطيس»، «مات حتف أنفه»، «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، «السعيد من وُعظ بغيره»، الشفا حـ١/ ٩٥-١٠٧.

(٥) «أنا أعرب العرب، ولدت في قريش، ونشأت في بني سعد، فأني يأتيني اللحن»، الخصائص الكبرى ص١٥٤، «وما يمنعني. وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، بين أني من قريش، ونشأت في بني سعد»، السابق حـ١/ ١٠٦.

والرسول بشر مثل باقي البشر. يتأثر بالشعر. وقد يغير أحكامه طابقا لمدى لأثره فيه. ويتحول من القتل إلى العفو[١]. الرسول عربي، والشعر حياة العربي، ثقافته وقيمه وتجاربه وتاريخه. وكانت حليمة ترقصه على الشعر وهو طفل صغير[٢]. وكان يستمع إلى الشعر بالرغم من موقف القرآن من الشعر والشعراء. يسأل عن شعر أمية ابن أبي الصلت[٣]. يرتجز يوم الخندق، يرى أن أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد[٤]. وفي نفس الوقت كان يفخر بأنه من أمة أمية. لا تكتب ولا تحسب تعد بأصابعها وبيديها، وتستعمل لغة الجسد، يحرم عليه الخط والشعر لإثبات أميته، وتفرد القرآن بالبلاغة الأدبية[٥]. ومع ذلك استشهد الرسول بشعر لبيد على التوحيد. وكان الرسول يقدر سجع الكهان[٦].

وكلام الله استرجاع لكلام البشر. وهو سر بلاغته، كلام البشر بعد أن يتدخل في الوحي يصبح معجزا[٧]. وكثير من أقوال الرسول أو الصحابة كانت أساسا للآيات

---

(١) سمع الرسول شعر قُتيله ورثاء لأخيها الذي حكم الرسول «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه» «يا أبا بكر لو سمعت شعرها ما قتلت أباها»، الجوهرة حـ١/ ٧٧.

(٢)

يـــارب إذ أعـطـيتــه فأبقــه ∴ وأعلــه إلى العــلا وأرقـــه

وأدحض أباطيل العدو بحقه

الخصائص الكبرى حـ١/ ١٩٤.

(٣) السابق ص٢٦٨-٢٧٠.

(٤) السابق ص٢٧٠-٢٧٨، قال يوم الخندق.

والله لولا الله مـــا اهتديـنـــا ∴ ولا تصـدقنــا ولا صلـينـــا

فأنـزلـن سكـينـة علـيـنـا ∴ وثبـت الأقـدام إن لاقينــا

إن الأولـي قــد بغــوا علينـــا ∴ إذ أرادو فتـنـــة أبـينـــا

وأجاب الأنصار يوم الخندق

لا عيـش إلا عيـش الآخـــرة ∴ فــأكــرم الأنـصـار والمهاجـرة

قال لبيد: ألا إن كل شيء ما خلا الله باطل

السابق ص٢٧٢-٢٧٨.

(٥) خصائص الرسول ص١٣٢-١٣٨.

(٦) «إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع»، الجوهرة حـ١/ ٢٢٠.

(٧) عبد الله بن أمية هو الذي قال «لن تؤمن حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا... أو يكون لك بيت من زخرف»، السابق حـ٢/ ٦٨.

القرآنية، لا فرق بين كلام البشر وكلام الله[1]. ولا يجهر القراء على بعضهم على بعض بالقرآن لأنه تشويش[2]. ومع ذلك يقرأ في جماعة بصوت واحد، يقرأ القرآن ويقطعه ببعض عبارات الحمد. ويحب أن يسمعه من الآخرين، ويتغنى به، ويخشع حين قراءته[3].

ومن أوجه البيان عند الرسول إعطاء معاني جديدة لألفاظ قديمة مثل: الغنى، الإفلاس، القوة، مال الوارث، انصر أخاك[4]. وذلك طبقا لمنهج التواصل لا الانقطاع. وهي أيضا عبارة للمسيح، خمر جديد في أوعية قديمة. ومع ذلك كان أحيانا يستعمل ألفاظا عربية قديمة لم تعد متداولة الآن. فالألفاظ لها حياة، تحيا وتبعث من جديد[5]. وهو ما يفعله بعض المعاصرين في «التراث والتجديد»، إعطاء ألفاظ قديمة معاني جديدة[6]. وسمى النبي «ذا الوجه الأحمر أبا الورد»[7]. كما سخر النبي ممن يشتري العبد ويقصد أنه عند الله ليس كاسدا بل غال[8]. وقد أخبر الرسول عجوز أن الجنة لا يدخلها عجوز. فلما حزنت قرأ لها ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾. وكان يفهم أيضا التورية عندما وصفت امرأة لا يشبعها زوجها بأنها معه كهدمة الثوب، وعندما دعا الرسول على يتيمة أم سليم بأن سنها لا يكبر وحزنت بأنه اشترط على الله أن أي دعوة لا تروق لأهلها أن تكون لهم طهورا وزكاة وقربة[9].

(١) مثل قول أبي بكر دفاعا عن الرسول «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»، السابق حـ١/ ٥١.

(٢) «لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن»، السابق حـ١/ ١٢٦.

(٣) شمائل النبي ص١٧٨-١٨١، «زينوا القرآن بأصواتكم»، «من لم يتغن بالقرآن فليس منا»، «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يغني بالقرآن يجهر به»، بهجة المحافل ص٥٩٥-٥٩٨.

(٤) «ليس الغنى كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»، «إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، وضرب هذا...»، «الصرعة من يملك نفسه عند الغضب»، «انصر أخاك ظالما أو مظلوما.. تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»، معين الشمائل ص٣٤٧-٣٥٤.

(٥) الشفا حـ١/ ٩٨-٩٩.

(٦) التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم ص ١٠٩-١٣٢.

(٧) الأنوار حـ١/ ٢٥٧.

(٨) «لكن عند الله لست بكاسد، ولكن عند الله أنت غال»، السابق ص٢٥٧.

(٩) السابق ص٢٥٨-٢٦٠.

والكلام والصمت فعلان خلقيان[1]. فكان قليل الحديث كثير الصمت. وإذ تكلم كان أشد حياء من العذراء. يوضح ويعيد ويبتسم.

سابعا ـ تصورات اجتماعية:

١ - الدين الشعبي

وأحيانا تتحول الشمائل إلى دين شعبي كما هو الحال في «العمل»[2]. وهو ما كان سائدا في الجاهلية، فسخر الرسول من معجزاته ومن كرامات الصحابة، كما هو الحال في حادثة لبيد بن الأعصم بعد أن سحر الرسول وفك سحره في عمل مدفون في بئر. وكان يستحب الفأل[3]. والفأل غير الطيرة. الفأل استبشار بعلامة، والطيرة عكسه[4]. والطير يجري بقدر[5]. وأحيانا يتحول الأمر إلى حدود الخرافة عندما تصبح الناقة مأمورةً[6]. الفأل بحسن الوجه والاسم[7]. وقد يدخل الفأل في تفسير الأحلام[8]. الرسول يتطير بالأسماء. فبدلا من اسم سهل الذي يطلق على الحمار حزن الذي يطلق على الإنسان[9]. وكان يخرج في السفر في يوم معلوم ويعود في يوم معلوم[10]. وكانت له أقوال حين السفر أو العودة[11]. وهي دعوات مازالت قائمة حتى اليوم في الطائرات ووسائل النقل

---

(١) الأنوار حـ١/ ٢٦٣-٢٦٨.

(٢) خيل إلى الرسول أنه طُب، أنه صنع شيئا وما صنعه. إذ جاءه رجلان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله. وسأل الأول عن الموجع وأجاب الثاني مطبوب من لبيد بن الأعصم، مشط مشاطه وجف طلعة ذكر في ذروان، بئر بني زريق، كأن مائه فقاعة الحناء، ونخلها رؤوس الشياطين، محمد رسول الله حـ١/ ٢٧٥.

(٣) الأنوار حـ٢/ ٧٠٨-٧١٥.

(٤) «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل، الكلمة الطيبة، الكلمة الحسنة»، السابق ص٧٠٨-٧٠٩.

(٥) «الطير يجري بقدر»، السابق ص٧١١.

(٦)"إن ناقتي هذه مأمورة»، السابق ص٧١٠.

(٧) «إذا بعثتم إليّ رسولا فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم»، السابق ص٧١٢.

(٨) «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا في دار عقبة بن رافع. فأتينا برطب من رطب ابن طاب فأولته الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة وأن ديننا قد طاب»، السابق ص٧١٤.

(٩) الجوهرة حـ١/ ٩٥.

(١٠) الأنوار حـ٢/ ٦٩٨-٧٠٢.

(١١) السابق ص٧٠٣-٧٠٨.

الحديثة[1]. وكان يدعو أيضا للآخرين في أسفارهم[2]. إذا سافر وأقبل الليل دعا أيضا دعاء خاصا[3]. وتتعدد الروايات والروح واحدة[4].

والتعوذ يحفظ من الشر[5]. وكان للرسول عدة أذكار روتها كتب السيرة في أوقات ومناسبات مختلفة. هناك أذكار في الصباح والمساء، تجعل الله مركز كل شيء، وهناك أذكار أخرى كان يقولها في أمور عارضة، عند الكرب لتفريجه، وإذا راعه شيء لطمأنته، ولإخراج أحد من ورطة، وإذا لقى العدو، وعند توقع البلاء، وغلبة الأمور، وإذا خرج من بيته، وإذا وجد في نفسه الوسواس، وعندما يرقى اللديغ والمعتوه، وعند عيادة المرضى، ويضع يده على المريض، وعندما يبرئ عن الصالقة والحالقة والشاقة والنائمة والمستمعة، وعند زيارة القبور، وإذا عصفت الريح. وكانت له أذكار عدة في السفر في مجتمع تجاري يقوم على الأسفار. وله أذكار أخرى متفرقة عند سماع نهاق الحمير، وصياح الديكة، ونباح الكلاب. ولا حريق لأن التكبير يطفئه. وله أدعية دخول السوق وعندما تطن الأذن، وعند من تؤذيه لحيته، وإذا أتى بباكورة، وإذا أراد أن يصيب شيئا بعينه، وإذا أتى الإنسان مولود، وعند من يرى رؤية، ولمن لبس ثوبا جديدا[6]. والعياذ بالله في كل شيء، من الكسل والهرم وسوء الكبر وفتنه الدنيا وعذاب القبر. ما في يد الإنسان ومقدورها مثل الكسل وما هو خارج عنه مثل الهرم، والعياذ بالله من الهم والحزن

---

(١) «اللهم إنا نسألك من سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا وأطو لنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل... آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»، السابق ص٧٠٤.

(٢) «جعل الله التقوى زادك، وغفر ذنبك، ووجهك للخير حيث ما تكون»، «أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»، «اللهم أزوله الأرض، وهون عليه السفر»، السابق ص٧٠٥.

(٣) «يا أرض ربي وربك أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يجب عليك، وأعوذ من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، من والد وما ولد»، السابق ص٧٠٧.

(٤) «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، السابق ص٧٠٧-٧٠٨.

(٥) أما لو قلت حين أمسيت «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك»، الجوهرة حـ١/١١٦.

(٦) بهجة المحافل ص٥٩٨-٦٠٩.

والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال[1]. وقد تطول العياذات إلى فتنة المحيا والممات، وشر فتنة الغنى، وشر فتنة القبر، وشر فتنة المسيح الدجال، ومن علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها، ومن قول لا يسمع[2]. العياذ به من كل ما في مقدور الإنسان عمله مثل العجز والجبن والبخل والغرم والمأثم، وما هو خارج مقدور الإنسان مع أنها نتائج الفعل في الدنيا طبقا لقانون الاستحقاق[3]. والعياذ من شر العلم وشر ما لم يُعمل يعني عدم الثقة بالفعل[4]. والمطلوب الخشية من الله حتى تحول من المعاصي، والطاعة التي تبلغ الجنة، واليقين الذي يهون مصائب الدنيا، والتمتع بالسمع والبصر، والثأر على من ظلم، والنصرة على من عادى. ولا تقع المصيبة في الدين، ولا تكون الدنيا أكبرهم ولا مبلغ علم، ولا يسلط على الأمة من لا يرحمها[5]. والدعاء الأخير أن يجعل الله للمسلمين في الدنيا حسنة

---

(١) «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال»، السابق ص٧٢٧، «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»، ص٧٣١.

(٢) «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت تكشف العزم والمأثم، اللهم لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك اللهم وبحمدك»، السابق ص٧٢٤-٧٢٥، «رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر. رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر... أصبحنا وأصبح الملك لله»، السابق ص٧٢٥-٧٢٦.

(٣) «اللهم أني أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم والمأثم. اللهم أني أعوذ بك من عذاب النار، وفتنة النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشر فتنة الغنى، وشر فتنة الفقر، ومن شر فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»، السابق حـ٢/ ٧٢٨.، «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهم وعذاب القبر. اللهم آت نفسي تقواها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها»، السابق ص٧٢٩.

(٤) «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت وشر ما لم أعمل»، الأنوار ص٧٣٢.

(٥) «اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»، حـ٢/ ٤٣٦.

وفي الآخرة حسنة وأن يقيهم عذاب النار[1]. والتسليم لله والإيمان به والتوكل عليه والإنابة إليه، والخصام به، والعياذ بعزته. فلا إله إلا هو أن يضل، فهو الحي الذي لا يموت[2]. والملك له والحمد له، لا إله إلا هو وحده لا شريك له[3]. ومنها الخوف من زوال النعمة، وتحول العافية، ومن نزول النقمة، ومن طول السخط والغضب، والدعاء باليمن والإيمان والسلامة والإسلام[4]، والدعوة بالمنفعة بما علم وتعليم ما ينفع وزيادة العلم[5]، وبصلاح الدين والدنيا[6]، وبسؤال الهدى والتقى والعفة والغنى[7]، وبالعون والنصر والهداية، والشكر والذكر والطاعة والهداية والسداد[8].

وكان الرسول كثير الدعاء[9]. يدعو لهم بالتوبة[10]. ويطالبهم بالاستغفار[11]. ويقولون سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه. فالتسبيح والحمد له والشهادة والتكبير أفضل ما طلعت الشمس. التسبيح والحمدلة تزن الخلق كله وترضي الله وتزن

---

(١) «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»، السابق ص٧٣٧.

(٢) «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»، السابق حـ٢/ ٧٣٢.

(٣) «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»، السابق حـ٢/ ٧٢٦.

(٤) «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك وغضبك»، السابق حـ٢/ ٧٣٢، «اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله»، حـ٢/ ٧٢٧.

(٥) «اللهم انفعني بما علمتني ما ينفعني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما، الحمد لله على كل حال، رب أعوذ بك من حال النار أو حال أهل النار»، السابق ص٧٣٤.

(٦) «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»، السابق ص٧٣٤.

(٧) «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى»، السابق ص٧٣٥.

(٨) «رب أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وأمكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شاكرا لك، ذاكرا لك، رهابا لك، مطوعا لك، مجتبا لك، أواها منيبا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وأسلل سخيمة قلبي»، السابق حـ٢/ ٧٣٥.

(٩) الأنوار حـ٢/ ٧١٥-٧٣٧.

(١٠) «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى ربي كل يوم مائة مرة»، السابق ص٧١٥.

(١١) «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»، «إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة»، السابق حـ٢/ ٧١٦، «رب اغفر لي وتب علي، أنك أنت التواب الغفور»، ص٧١٧.

عرشه ومداد كلماته. دعاؤه في الصباح وفي المساء تسليم له[1]. الحياة والموت والنشور من الله[2]. وفي كل لحظة دعاء في اليقظة والنوم[3]. الاستسلام له في كل شيء[4]. والدعاء بغفران الخطيئة، والجهل والإسراف في الأمر، ومغفرة الجد والهزل والخطايا العمد، مغفرة ما قدم وما أخر، وما أسر وما أعلن[5]. يستغفر الرسول كل يوم مائة مرة وفي رواية سبعين. ويبدو الدعاء مخلصا مثل المسيح[6]. له أذكاره وأدعيته[7]. ولفضيلة الدعاء إيماءاته مثل رفع اليدين ومسح الوجه وهو الذي يسميه إقبال فلسفة السؤال، أي الشحاذة بدلا من العمل[8]. ويقرأ القرآن وقد تحولت هذه الأدعية الفردية إلى أدعية جماعية في حلقات ذكر ذاعت وانتشرت واستمرت في حلقات الصوفية، تتدخل فيها الملائكة[9].

---

(١) «خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»، السابق ص٧١٧.

(٢) «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير»، «اللهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت، وإليك المصير»، السابق ص٧٢٠.

(٣) «اللهم باسمك أموت وأحيا»، «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»، السابق جـ٢/ ٧٢٢.

(٤) «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، وكم من لا كاف له ولا مأوى»، السابق ص٧٢٢، «الحمد لله الذي كفاني وآواني، وأطعمني وسقاني، ومنّ عليّ فأفضل وأعطاني فأجزل، الحمد لله على كل حال، اللهم رب كل شيء ومالك كل شيء، وإله كل شيء، ولك كل شيء، أعوذ بك من النار» ، السابق جـ٢/ ٧٢٣.

(٥) «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. من قالهن ثم مات تحت ليلته مات على الفطرة»، السابق جـ٢/ ٧٢٣، «اللهم اغفر لي وأخسأ شيطاني، وفك رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في الندى الأعلى»، السابق جـ٢/ ٧٢٤، «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم أني أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها وأعوذ بك من شر ها وشر ما فيها، اللهم أني أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر»، السابق جـ٢/ ٧٢٥.

(٦) «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمات وما أخرت، وأما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»، السابق جـ٢/ ٧٣٣.

(٧) المنح المحمدية جـ٢/ ٤٧٣-٥١٠.

(٨) محمد إقبال: فيلسوف الذاتية.

(٩) «فيما ورد عنه من فضل حلق الذكر وما لملازميها من عظيم الثواب والغفران، وما لمجانبيها من الوبال والحرمان»، بهجة المحافل ص٦٠٩-٦١٢.

أصبحت السيرة حبلى بالمعجزات. وتضخمت بها وتشبعت في كل الميادين. ودخلت في الطب النبوي. وتحول الرسول إلى شاف مثل قدماء السحرة. يشفي بالدعاء[1]. وينافس معجزات عيسى في تكثير الماء والطعام. وأصبحت صورته كالشيخ المداوي في الأفلام[2]. ويدعو الشائب أن يتحول شعره من البياض إلى السواد، مسلما كان أو يهوديا، بمسح يده على رأسه[3]. وسهل الابتداع في الطب الشعبي وهو مازال قائما حتى الآن عند العشاب. وفيه الرسول وهو يمارس الطب الشعبي، الذي كان سائدا في شبه الجزيرة العربية، أو مجددا له. فالبصاق بصاق حتى ولو كان من نبي. لا يشفي بمجرد تدليك العضو المتألم به. ولا يزيد ماء بئر، ولا يرد عينا مقتلعه. والريق ريق لا يروي ظمأ عطش، والعرق عرق لا يجمع في قوارير للاستشفاء. وانتشر الطب النبوي والشفاء المعجز. فالعود الهندي به سبعة أشفية[4]. ولا يوجد داء إلا وله دواء[5].

والاحتفال بالمولد النبوي ليس بدعة حسنة. فالبدعة بدعة لا حسنة فيها ولا سيئة[6]. والقيام عند بلوغ القراء مولده بدعة منكرة.

٢- العادات الزوجية

ويظهر محيط الرسول قبل أخلاقه. وتظهر أزواجه أول حلقه في محيطه، ورصدهن اسما اسما تحت عنوان «البيت النبوي»[7]. ويحال إلى الآيات التي تتعرض لزواجه بزينب طليقة زيد، وتخيير أزواجه بين الطلاق واستمرار حياتهن بعد الرسول أو البقاء طليقات الرسول حفاظا على ذكراه. وقد يوضعن تحت باب «من ينسب إليه من أهله، وخاصته

---

(١) «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»، محمد رسول الله حـ٢/ ٢٢٦.

(٢) «باسم الله، أذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك باسم الله»، «اللهم استجب له إذا دعاك»، «اللهم اشفه»، «اللهم عافه»، السابق ص٢١٨-٢١٩.

(٣) «بارك الله فيك»، «اللهم جمّله»، «اللهم جمله وأدم جماله»، السابق ص٢٢٣.

(٤) «على ما تدخرون أولادكم بهذا العلاق؟ عليكم بهذا العود الهندي يعين به الكُست فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب»، الجوهرة حـ١/ ١٨٤.

(٥) «ما أنزل الله من داء إلا أنزل معه دواء، عِلمه من علمه، وجهله من جهله»، السابق ص٢٥٤.

(٦) المعجزات اللامعة ص٦.

(٧) الرحيق المختوم ص٤٧٣-٤٧٨، زوجاته، معين الشمائل ص٤٠-٦١.

وما يتبع ذلك». بدأ بذكر أولاده قبل أزواجه[1]. وقد يوضع تحت باب «سيرته في نكاحه»[2]. والحجب بين الرجل والمرأة ليس تحت سطوة الرجل مثل النفقة والقسمة[3]. وخير الرجال خيرهم لأهله[4]. والعدل في القسمة بين النساء[5]. وكان يأتي أهله أول الليل وآخره بغسل أو دون غسل. وكان يطوف على نسائه بغسل واحد وربما اغتسل[6]. ومن خصائصه أنه وحده هو الذي جمع بين أكثر من أربع نسوة[7]. وأزواجه كن ساعة وفاته تسعا. وكان جميع من تزوجهن ثلاثة عشرة أولهن خديجة[8]. وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم. ولم يتزوج على خديجة أحدا. والبكر الوحيدة عائشة بعد خديجة[9]. ولكل منها صداق وولي[10]. وقد يكون الصداق دراهم أو عفش منزل بدوي بسيط[11]. وقد يكون الولي الأب أو الأخ أو القريب. وتزوج ابنتي صاحبيه أبي بكر وعمر حتى لا

---

(١) خير العباد ص٦٣١-٦٣٨.

(٢) اعتمادا على حديث «حبب إليّ من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، السابق ص٦٦٢-٦٦٥.

(٣) «اللهم هذا قسمة فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»، السابق ص٦٦٢.

(٤) «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، السابق ص٦٦٣.

(٥) «إليك عني يا عائشة، فإنه ليس يومك»، السابق ص٦٦٤.

(٦) الإشارة ص٤٠٥-٤١٣، الفصول ص٣٠٢-٣١٨، حياة محمد ص٢٦٣-٢٧١/ ٣٥٩-٣٦٨، محمد ص٨٣-١١٢، ذكر أزواجه، بهجة المحافل ص٣٩٨-٤٠١، القبس الوضاء ص٢٣١-٢٤١، أزواجه أمهات المؤمنين وأولاده وأسباطه، السيرة النبوية ص٤١٥-٤٢٠، زوجاته السيرة النبوية (٢) ص٣٣١-٣٣٣، أزواج النبي، سيد الأنام ص٣٢٨-٣٤٨، سيرة المصطفى ص٩٨-١٠٦، عيون الأثر ص٣٩٣-٤١٦، الجوهرة حـ٢/ ٦٢-٨١، الآية في جماعه، الخصائص الكبرى حـ١/ ١٦٧، القوة والنشاط، معين الشمائل ص١٢٣-١٢٥.

(٧) الأنوار حـ٢/ وهن: خديجة، سوده، عائشة، حفصة، زينب، أم سلمة، زينب بنت جحش، جويرية بنت الحارث، أم حبيبة بنت أبي سفيان، صفية بنت حيي، ميمونة بنت الحارث، زوجاته، معين الشمائل ص٣٢-٦١.

(٨) الأولى خديجة مطلقة متزوجة مرتين ولها ولد وبنت من الأول، وولد وجارية من الثاني، ابن هشام حـ٢/ ٥٤٠.

(٩) والثانية عائشة وهي بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع أو عشر سنين، ونزل فيها القرآن ليبرأها من حديث الإفك، السابق حـ٢/ ٥٤١.

(١٠) والثالثة سوده والرابعة زينب بنت جحش مطلقة الابن المتبني زيد ونزل فيها القرآن ﴿لَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، السابق حـ٢/ ٥٤١.

(١١) والخامسة أم سلمة وكان صداقها فراشا حشوه ليف وقدحا وصحفه ورحى، وكان لها أربعة من زوجها، السابق، حـ٢/ ٥٤١.

يشعر أحدهما بميزة على الآخر[1]. وقد يكون الولي خارج البلاد مثل النجاشي في الحبشة الذي أصدقها نيابة عن الرسول[2]. وقد تكون من الأحرار أو من السبايا[3]. ونزل فيها القرآن مثل عائشة[4]. وتأخذ إحداهن لقب أم المساكين لرحمتها إياهم[5]. وتزوج اثنين ولم يدخل بهما. الأولى كان بها بياضا فردها إلى أهلها وليس زهدا فيها. والثانية كانت حديثة عهد بكفر فاستعاذت من الرسول أو من دخلت عليه. ودعاها الرسول فقالت: «إنا قوم نؤتي ولا نتأتى»، اعتزازا بنفسها وحرصا على دور الرجل في طلب المرأة، ومغازلتها من طرفه. فردها الرسول إلى أهلها[6]. فهن القرشيات غير عرب. وهل منهن غير عربيات؟ وهل اليهودية غير عربية؟ وأين مارية القبطية؟ هدية المقوقس حاكم مصر له؟ هل تزوجت أم سرى بها[7].

وكان الرسول محبا للنساء[8]. وفي رواية أخرى الطيب والنساء وقرة عينه الصلاة. كانت عائشة تغار من خديجة مع أنها توفت قبل زواجها بثلاث سنوات. فقد كان الرسول يولم لها شاة في ذكراها. وبشره الله لها ببيت من قصب في الجنة. وتزوج الرسول عائشة وهي بنت ست سنين وبنى بها وهي بنت تسع سنوات، وكي يرفع معنوياتها على غيرها من النساء أخبرها بأنه تزوجها في السماء في سرقة من حرير[9]. وقبض الرسول وتحته تسع نسوة. وكان يقسم لثمان لأن سودة تبرعت بيومها لعائشة. وكان يقرع بين

(١) والسادسة حفصة بنت عمر بن الخطاب، والسابعة أم حبيبة التي قام النجاشي بالولاية عنها، السابق حـ٢/ ٥٤٢.

(٢) والثامنة جويرية من السبايا بعد أن كاتبها أحد المسلمين على نفسها عرض الرسول عليها نفسه، واكتشف أن والدها الذي أتى بفدائها استبقى بعيرين فطالبه بها فأسلم الأب وزوجه ابنته، السابق حـ٢/ ٥٤٢.

(٣) والتاسعة صفية من سبايا خيبر ووليمتها لا شحم فيها ولا لحم، السابق حـ٢/ ٥٤٢.

(٤) والعاشرة ميمونة، وهي التي وهبت نفسها للنبي.

(٥) والحادية عشرة زينب بنت خزيمة وهي التي أخذت هذا اللقب، السابق حـ٢/ ٥٤٣.

(٦) الأولى هي بنت النعمان الكنية، والثانية عمرة بنت يزيد الكلابية، السابق حـ٢/ ٥٤٤.

(٧) وذكر السميلي أزواجا أربعة أخريات: شراف بنت خليفة، العالية بنت ظبيان، وسنى بنت الصلت، وأسماء بنت النعمان، السابق حـ٢/ ٥٤٤.

(٨) الأنوار حـ٢/ ٣٧٠-٣٧٧، «ما أعطيت من دنياكم هذه إلا النساء»، «حبب إليّ من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»، حـ٢/ ٦٧٦، بهجة المحافل ص٤٩٥.

(٩) «أريتك في المنام يجيء بك الملك في سرقة من حرير، فقال لي: هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب، فإذا أنت هي فقلت: إن يكن هذا من عند الله فليمضه»، حـ٢/ ٦٧١.

نسائه حين الخروج، يعدل بين نسائه[1]. يدور عليهن نسائه في الساعة الواحدة، من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة، فقد أعطي قوة ثلاثين. يطوف عليهن بغسل واحد، وقد أعطي الكفيت أي الجماع، ورأى امرأة فأتى امرأته زينب، وهي تدبغ الجلد فأتاها وفرغ فيها حاجته. فالنساء كلهن شبيهات[2]. يأتي نساءه مقنعا ساترا وجهه، ولكل منهن صدقة بلغت لإحداهن نصف أوقية.

عائشة هي المفضلة، فضلها كفضل الثريد على سائر الطعام[3]. هي الطبق الرئيسي بلغة العصر، تزوجها الرسول في السماء، ونزل فيها جبريل في حديث الإفك، شكلها مثل الحور العين، روت الكثير من الرسول بالرغم من أنها بقت معه فقط ثمانة سنوات، وهي الوحيدة التي رآها الرسول في المنام مرتين يحملها الملك في سرقة من حرير ليقدمها له ويقبلها الرسول لأنها من عند الله. وكانت عائشة تفخر بذلك وتتمنى على زوجاته بأن الله هو الذي زوجها في السماء في حين أنهن تزوجن على الأرض[4]. ولم يأت جبريل في لحاف امرأة إلا في لحاف عائشة[5]. ويعترف الرسول بغيرة المرأة بناء على غيرة عائشة عليه من نسائه الأخريات[6].

وكان لديه إحساس بالفرق بن البكر والثيب، البكر تلاعَب وتلاعِب، وتستأمر تطييبا لقلبها لا أنه واجب[7]. وتناظرت عائشة وفاطمة بأن الرسول تزوجها بكرا في حين أنه تزوج أم فاطمة ثيبا، ودافع عن فاطمة بأنه أخذ عائشة بكرا كما أخذت

---

(1) قال لأم سلمه «ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت عندك وسبعت عندهن، وإن شئت ثلثت عندك ودرت فقالت: ثلث»، حـ٢/ ٦٧٣.

(2) «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يروى ما في نفسه»، حـ٢/ ٦٧٥.

(3) «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، الجوهرة حـ٢/ ٦٥.

(4) «أريتك في المنام مرتين، رأيت الملك يحملك في سرقة من حرير فقال: هذه زوجتك فاكشف فإذا هي أنت فقلت: إن يكن هذا من عند الله يُمضه»، سيرة النبي ص٢٠٣، «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وابنة مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، الجوهرة حـ٢/ ٦٣.

(5) «ما أتاني جبريل وأنا في لحاف امرأة منكن غير عائشة»، خير العباد ص٦٦٦.

(6) «غارت أمكم»، بهجة المحافل ص٤٩٦.

(7) البكر تستأمر تطييبا لقلبها لا أنه واجب»، غاية الرسول ص١٠٠، «لا تبادريني بالجواب حتى تستأمري أبويك»، السابق ص١١٧.

خديجة الرسول بكرا[1]. وقد تزوجت عائشة في السماء في حين تزوجت باقي زوجات الرسول على الأرض[2]. وزينب بنت جحش أواهة وتعني لغويا الخاشع المتفرغ قياسا على إبراهيم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ وقد تعني صوتيا ما يصدر أصواتا في حالة النشوة[3].

والرسول يقدر جمال النساء. كلما وصف له جمال صفية بنت حيي بن أخطب اليهود يبعد أن قتل زوجها. كانت عروسا اصطفاها لنفسه وأولم لها، يحوي رداءه له بعباءة ويجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[4]. اختارها من السبايا من يهود بني قريظة بعد قتل أبيها وعمها وبعد أن تنازل له عنها أحد المسلمين لأنها سيدة قومها، والرسول أحق بها، وأعرس بها الرسول في خيبر أو في الطريق. وقد غارت عائشة وحفصة منها فواساهما الرسول بأن أبيها هارون، وعمها موسى، وزوجها محمد، مستعملا الدين لتبرير الاختيار. وقد يمتد حب النساء إلى حب الطبيعة كما قال على جبل أحد «هذا جبل يحبنا ونحبه» بالرغم مما أصاب المسلمين فيه من بلاء[5]. فجمال المرأة وجمال الطبيعة من نفس النبع. وكان لجويرية حلاوة وملاحة لا يراها أحد إلا وقعت في نفسه فأتت الرسول لتستعينه على فك أسرها، فكرهتها عائشة بمجرد رؤيتها تطرق الباب. وعرفت مستقبلها معها. وعرضت قضيتها عليه فعرض عليها الرسول أن يفك إسارها من هو خير من سيدها الأول فقبلت. وأطلق المسلمون سراح أهلها إكراما للرسول. فكانت لها بركة على قومها. ثم أسلمت وتزوجها الرسول وغير اسمها من بره إلى جويرية[6].

وحفصة تزوجها الرسول إرضاء لها ورفعا لمعنوياتها بعد أن رفضها عثمان، وتزوج

---

(1) «قولي لها إن كان قد أخذك بكرا فقد أخذت هي رسول الله بكرا»، غاية السؤل ص٢٣٠.

(2) «أريتك في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي فأقول: إن يكن من عند الله يمضه»، السابق ص٢٣١.

(3) الجوهرة حـ٢/ ٧٣.

(4) الأنوار حـ١/ ٣٠٦.

(5) السابق ص٣٠٦.

(6) الجوهرة حـ٢/ ٧٤-٧٥.

عثمان ابنة النبي[1]. وتزوج الرسول ميمونة وكان اسمها بره وهو محرم في عمرة القضاء وابتنى بها فيما بعد[2]. وتزوج بمن لم يدخل بهن منها أسماء بنت النعمان بعد أن استعاذت منه وأرجعها إلى أهلها، فما يهم هو دلالات ظروف الزواج، وليس رصد أسماء الزوجات وخصائصهن، فقد عرض أحدهم على الرسول ابنته وميزتها أنها لم تمرض قط لأنه لا خير في بدن لا يسقم. وهناك زوجات لم يدخل بهن، خمسا وثلاثين، مما يدل على أن الغاية من الزواج ليس الجنس بل لظروف اجتماعية وسياسية في بيئة المصاهرة فيها حلف، وأزواجه وسراريه، أزواجه اثنتا عشر دخل بهن[3]. وسراريه اللاتي كان يتسرى بهن مثل مارية التي كانت سبب طلاقه من حفصة، وظل التسري بالنساء حتى الطهطاوي في «المرشد الأمين»[4].

ولد إبراهيم من مارية سرية الرسول التي أهداها له المقوقس مرضعته في الجنة[5]. ولو عاش لكان صديقا نبيا وكأن النبوة وراثة، ولأعتق كل قبطي مما يدل على إنسانية التشريعات[6]. وحيا أهل الذمة أي المصريين الفلاحين أصحاب الأرض والطين، السمر الشداد، وكانت له ريحانه بنت شمعون، نصرانية ويهودية، تقع الغيرة بينهن كما تقع بين الحرائر. وإماؤه سبعة، والخطورة أن يأخذ بعض المتشددين الرسول أسوة في إمائه وسراريه أو في الحرب بين القبائل المسلمة في إفريقيا[7].

وقد عمم التشخيص أيضا زوجاته عن طريق الألقاب، فعائشة أم المؤمنين، وزينب

---

(1) «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة»، السابق حـ٢/ ٦٦-٦٧.

(2) السابق حـ٢/ ٧٦-٧٩، القول البديع ص١٨٧-١٩١.

(3) ألفية السيرة ص١٣٢-١٣٣، السيرة الحلبية ص٢٣٩-٤٥٤، سراريه، السيرة النبوية (٢) ص٣٥٢-٣٥٣.

(4) وهن: مارية أم ولده إبراهيم، وريحانة، وجارية أخرى جميلة أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش، خير العباد ص٦٣٩، الإشارة ص٣٨١٠، السيرة الحلبية ص٤٣٩-٤٥٤، النبي المختار ص٤٩.

(5) «إن له مرضعته في الجنة، ولو بقى لكان صديقا نبيا، ولو بقى لأعتقت كل قبطي»، الجوهرة حـ٢/ ٧٩ «الله الله في أهل الذمة، أهل المدرة السوداء، السحم الجعاد فإن لهم نسبا وصهرا»، السابق ص٥٨٠.

(6) معين الشمائل ص٥٦، «غارت أمكم» ص٥٧، «وسقته حفصة شربة عسل فاح ريحها من فمه وهو عند سودة»، ص٥٩.

(7) الإشارة ص٣٨٠-٣٨١، السيرة النبوية (٢)، ص٣٦٨-٣٧٢.

أم المساكين ربما تعويضا لعائشة على أنها لم تنجب كما تسمى العاقر أم عبد الله، وقد يطلق لفظ أمهات المؤمنين عليهن جميعا، ولقب أم المساكين كان معروفا في الجاهلية[1]. ولا حرج من الحديث عن خصائصه في النكاح[2]. فقد فضل على الناس بأربع: السخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش، وهي عادات عربية بدوية[3]. وهي ما تدعو ضرورة الحياة إليه[4]. وهي على ثلاثة أنواع: الأول الفضل في قلته، والثاني الفضل في كثرته، والثالث مختلف فيه. الأول مثل الغذاء والنوم. والثاني ما يتفق المدح بكثرته والفخر بوفرته كالتاج والجاه[5]. وعدم القدرة على النكاح نقص. لذلك أبيح للرسول من الحرائر ما لم يبح لغيره. وكان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة. أعطي قوة أربعين رجلا في الجماع. تختلف الحالات فيه والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله مثل كثرة المال. والتباهي بجودة السكن، وسعة المنزل، وكثرة آلاته وخدمه ومركوباته وملك الأرض وجبى ما فيها.

وقبل الجماع دعوة للحصول على الخير وتجنب الشر من المرأة. ولا توجد دعوة مماثلة للمرأة بالنسبة للرجل[6]. ودعوة أخرى لتجنب الشيطان في الأولاد. وأحيانا تتمنع المرأة دلالا حتى ولو كان خشنا غير مقبول. فعندما اقترب الرسول من إحدى زوجاته

---

(١) سيرة النبي حـ٢/ ٣٢٢، الجوهرة حـ٢/ ٦٧-٦٨.

(٢) السيرة الحلبية حـ٣/ ٤١٩ «القبلة في الصوم مع وجود الشهوة، فقد كان يقبل عائشة وهو صائم ويمص لسانها، ولعله لم يكن يبلع ريقه المختلط بريقها، والخلوة بالأجنبية، وأنه إذا رغب في امرأة خلية كان له أن يدخل بها من غير لفظ نكاح أو هبة ومن غير ولي ولا شهود كما وقع له في زينب بنت جحش ومن غير رضاها، وأنه إذا رغب في أمة وجب على سيدها أن يهبها له، وله أن يتزوج المرأة لمن يشاء بغير رضاها، وله أن يتزوج في حال إحرامه، ومن ذلك نكاح ميمونة، وأن يصطفي من الغنيمة ما شاء قبل القسمة من جارية أو غيرها»، السابق حـ٣/ ٤١٩.

(٣) «فضلت على الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش»، بهجة المحافل ص٤٩٥.

(٤) الشفا حـ١/ ١٠٩-١٢١.

(٥) «أفضل هذه الأمة أكثرها نساء»، «تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»، «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»، السابق ص١٢١.

(٦) «اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه»، «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضي بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبدا»، بهجة المحافل ص٤٩٦.

ليدخل بها تعوذت بالله منه فألحقها بأهلها[1]. وقد يكون الإسناد ضعيفا، والمرأة ليست مسئولة عن لون جلدها، فيه بياضا أو سمارا، فلما رأى فيه بياضا أرسلها إلى أهلها[2]. وفي قوة المعاشرة ليس أنبياء التوراة، داود، وسليمان مقياسا. فقد كان لسليمان ألف حرة ومملوكة، وكان لداود تسع وتسعون زوجة[3]. وفي نفس الوقت في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم[4].

وفي النكاح تلقى أدعية وخطب[5]. الرسول هو الزوج الكريم، فخير الناس خيرهم لأهله. يعدل بين زوجاته ويحبهن، ويحسن معاشرتهن، ويشارك في بيوتهن، ويصبر عليهن[6]. والرسول مضيف معد للولائم[7]. فلم يولم على أحد من نسائه قدر ما أولم لزينب بنت جحش، بشاة. كما أعتق صفية بتيس، وعلى بعض نسائه بمدين من شعير. وفي العلامات تظهر أحكام النكاح والطلاق وأدبه[8]. منذ الخطبة والنظر إلى المرأة والأولياء والشهود، وآداب النكاح وأحكام الطلاق. وفي مسائل متفرقة تظهر الأحكام الشرعية الخاصة بزوجات الرسول. فهن أفضل نساء الأمة، وكل مجاهدة هي مثلها. ويحرم نكاحهن بعد وفاته احتراما له وبناء على اختيارهن. وقتل من قذف عائشة ومن سب الرسول ليس مباشرة بل بعد تدقيق، تطبيقا لأحكام الشريعة في حق القذف. وفي

---

(١) «لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك»، غاية السول ص١٤٦.

(٢) وامرأة من غفار رأى بكشمها رضحا. فقال «ضمي إليك ثيابك والحقي بأهلك»، السابق ص٢٤٦.

(٣) السابق ص١٨٨-١٨٩.

(٤) إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم، السابق ص٢٥٢

(٥) سيرة النبي ص٥٠٦-٥٠٨، «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله»، «بارك الله لك وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»، «لو أن أحدكم إذا جامع أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضى بينهما بولد لم يضره»، «لا نكاح إلا بولي»، «السلطان ولي من لا ولي له»، «إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم لأهله»، «من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى لم تضره أم الصبيان»، «كل غلام رهن بعقيقته، تذبح عند يوم سابعة، ويحلق ويسمي»، السابق ص٥٠٦-٥٠٨.

(٦) الأنوار حـ٢/ ٦٢-٨٤.

(٧) السابق حـ٢/ ٦٦٦-٦٧٠.

(٨) الأسوة الحسنة ص٣٤٩-٤١٢.

مقابل ذلك لا يقوم الرسول بإيذاء أحد[1].

وفي أزواجه أحكام، خديجة يقرؤها جبريل السلام. ومن خير نساء العالمين. وتظل في ذكرى الرسول حتى بعد زواجه من أخريات، هي الأم والحامي والراعي، ومنها أيضا تحريم رؤية أشخاص أزواجه في الأزر وسؤالهن مشافهة، وجلوس أزواجه من بعده في بيوتهن وتحريمهن خروجهن ولو لحج أو عمرة[2]. وهو رضا بذكريات الرسول. وماضيهن معه أفضل من الحاضر ومتطلباته[3]. وزوجاته اللاتي توفى عنهن يدخلن في أزواجه وعلاقاته الاجتماعية، الأقرباء والصحبة، وليس لهن أي دلالة خاصة لا بالاسم ولا بالوصف[4].

٣- القرابة والصحبة

أ- القرابة

ويتضخم موضوع الشمائل عندما يتحول محور السيرة من الرسالة إلى الرسول[5]. وقد بدأ التشخيص في ذكر أولاده وأعمامه وعماته وأزواجه وخدمه ومواليه وأسمائه وكتابه وحراسه وأصحابه وحوارييه وأهل الصفة وسلاحه وخيله ودوابه ونعمه[6].

---

(١) الفصول ص٤٩١-٤٩٨، «اللهم إني اتخذت عندك عهدا لن تخلفه. إنما أنا بشر. فأي المؤمنين آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»، ص٤٩٧.

(٢) خديجة «يا خديجة هذا جبريل يقرؤك من ربك السلام»، «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وابنة مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»، «لا والله ما أبدلني خيرا منها: آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد النساء»، الجوهرة حـ٢/ ٦٢-٦٣، سيرة النبي ص١١٨، تفضيل بناته وزوجاته على سائر نساء العالمين، وأن ثواب زوجاته وعقابهن مضاعف، الخصائص الكبرى حـ١/ ٤٢١-٤٢٣.

(٣) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٣١-٥٣٣، حياته مع أزواجه أمهات المؤمنين، سيرة النبي حـ٢/ ٣١٣-٣٢٨، النبي الأعظم ص٣٤-٣٦.

(٤) هن تسعة: أم سلمه، عائشة، أم حبيبة بنت أبي سفيان، زينب، حفصة، صفية بنت حيي، جويرية بنت الحارث، ميمونة التي وهبت نفسها للنبي، وسوده، وفاة الحبيب ص١٧٧.

(٥) عيون الآثر حـ٢/ صفته ص٤٢٤-٤٣٣. أخلاقه ص٤٣٤-٤٤٤، محبة آله وصحبه، المواهب اللدنية حـ٣/ ٣٥٨-٣٩٦.

(٦) عيون الأثر ص٣٧٨-٤٢٣.

وذكر أولاده ردا على اتهامه بأنه أبتر[1]. وأعمامه وأخواله هم الذين ساندوه في أول البعثة. وأزواجه وسراريه وقفوا بجانبه في حياته الخاصة والعامة، وخدمه جزء من أهل البيت[2]. ومواليه جزء من جماعته طبقا للعقلية البدوية، وكتابه الأمناء على رسائله[3]. وحراسه هم الذين كانوا يضربون الأعناق بين يديه[4]. وخيله التي كان يمتطيها في الحرب، تجمع بين المحيط الاجتماعي والأدوات للاستعمال. فما لزوم ذلك كله للنبوة، زوجاته، وسرايره، وأولاده، ومواليه، وإماؤه، وخدامه، وكتابه، وآثاره من خاتم وثياب وسلاح ومراكب؟[5]. أصبح التركيز على ما يحيط بالرسول من بشر جزءا رئيسيا من السيرة، إبراز دور بنيه وبناته وأعمامه وعماته ومرضعاته وإخواته من الرضاع وأخواته ومواليه وخدمه وحرسه، ورسله إلى الملوك وكتابه ورفقائه العشرة النجباء، وأصحابه النقباء، وأهل الفتوى في حياته[6].

ولا يهم في القرابة الأشخاص بل صلة القرابة ونتائجها وفوائدها الشرعية في الخلافة والكفاءة[7]. وهي موصولة لا تنقطع إلى يوم القيامة[8]. وكل نسب منقطع إلا

---

(١) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، السابق ص٣٧٨.

(٢) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، السابق ص٤٠٧.

(٣) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، السابق ص٤١٣.

(٤) ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ السابق ص٤١٤. فضائل أهل البيت، فاطمة، الحسن، الحسين، العباس، جعفر، الأزواج، عائشة، سنن المصطفى ص٧٦٨-٧٧٥. في فضل بيت الرسول وصحابته، ومن يُعظم لأجله، وفضل حديثه ومحدثه، وختامه فضل الصلاة عليه، بهجة الحافل ص٦١٣-٦٣٦، فضل أهل بيت الرسول ص٦١٣-٦١٧، في منزله ومع أهله وعياله، السيرة النبوية ص٤٣٨-٤٣٩، البيت النبوي، الرحيق المختوم ص٤٧٣-٤٧٨.

(٥) خلاصة ابن كثير ص٣٣١-٤٠٦، وفي أطراف القاهرة بمصر حي بأكمله اسمه «أثر النبي».

(٦) بهجة المحافل ص٣٩٧-٤١٧، «ما شرف به أولاده وأزواجه وآل بيته وأصحابه وقبيلته من أهله»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٦٣-٥٦٨، الأولاد، سيرة النبي حـ٢/ ٣٢٩-٣٤١.

(٧) «فيمن حضرني من أقرباء رسول الله المنسوبين إلى جده الأقرب عبد المطلب»، أقرباء الرسول حـ١/ ٢٧-٢٩٦، «أخبره عنهم، أنقب لهم في مثالبهم» ص٢٩٨، «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»، أقرباء الرسول حـ١/ ٣٠٠، «تعلموا أنسابكم ثم صلوا أرحامكم، والله إنه ليكون بين الرجل وأخيه الشيء ولو يعلم الذي بينه وبينه من داخل الرحم لأوزعه ذلك عن انتهاكه»، «علم النسب علم لا ينفع، وجهالة لا تضر»، ص٣٠٢-٣٠٣، المواهب اللدنية حـ٣/ ٣٥٨-٣٥٧.

(٨) «ما بال أقوام يزعمون أن قرابتي لا تنفع. كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي، فإنها موصولة

نسب الرسول، وتنقطع الأنساب والأسباب يوم القيامة إلا ما كان من سببه ونسبه، وقد تتعارض مع قانون الاستحقاق. فإن الرسول نفسه لا يضمن الجنة إلا برحمة من الله[1]. وتستوجب الحرمة، حرمة الدم والمال. ويستوجب ذلك الوصية بالنساء، والجار، والعبيد، والعدل والإحسان. لذلك لا يُؤذى الرسول في بيته. هناك ثلاث حرمات، حرمة الإسلام، وحرمة الرسول، وحرمة رحمه[2]. وهذا يستوجب حرمة قريش، القبيلة والنسب والمصاهرة، ثم تحولت إلى سلطة سياسية تستند إلى شرعية القرابة وهو ما يتعارض مع مصادر السلطة في الدين الجديد، الشورى وروح الجماعة[3].

في الدنيا والآخرة»، أقرباء الرسول جـ١/ ٤٠٥، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٤٤، «ما بال أقوام يزعمون أن رحمي لا تنفع، بلى حتى تبلغ ماء وحكم. إني لا أشفع فأشفع حتى إن من أشفع له ليشفع فيشفع حتى أن إبليس ليتطاول طمعا في الشفاعة»، جـ١/ ٤٠٩، «اللهم كما أولجت الليل في النهار، والنهار في الليل، أولج علي وعلى أهل بيتي الرحمة ولا تقطعها عني ولا عنهم أبدا» جـ٢/ ٤٥٤، «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي. وكل ولد أم فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم»، جـ٢/ ٤٩٤-٥٠٦/ ٥١١-٥١٤.

(١) «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها»، أقرباء الرسول ص٤١٣، «يا عائشة بنت أبي بكر، يا حفصة بنت عمر، ويا أم سلمة، ويا أم الزبير عمة رسول الله، اشتروا أنفسكم من النار»، جـ١/ ٤١٤، «لا أغني شيئا... إلا أن أذن الله لي في الشفاعة»، جـ١/ ٤١، «الزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يزدنا دخل الجنة بشفاعتنا. والذي نفسي بيده لا ينفع عبدا عمله إلا بمعرفه حقنا»، جـ١/ ٤١٧.

(٢) «ألا إن دماءكم وأموالكم حرام كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا. أوصيكم بالنساء، أوصيكم بالجار، أوصيكم بالمماليك، أوصيكم بالعدل والإحسان»، جـ١/ ٣٤٩، «ما بال رجال يؤذوني في أهل بيتي، والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد بي حتى يحبني، ولا يحبني حتى يحب ذوي»، جـ١/ ٤٠٠، «أيها الناس، مالي أوذي في أهلي؟ فو الله إن شفاعتي لتنال قرابتي حتى إن صداء وحكما وسلهبا لتنالها يوم القيامة»، ص٤٠١، «ما بال أقوام يؤذونني في نسبي وذوي رحمي، ألا ومن آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»، ص٤٠٢، «إن لله ثلاث حرمات، فمن حفظهن حفظ الله دينه ودنياه، ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله دنياه ولا آخرته: حرمة الإسلام، وحرمتي، وحرمة رحمي» جـ١/ ٤٣٥، «من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهدا»، «من لم يعرف حق عترتي والأنصار والعرب فهو لإحدى ثلاث: إما منافق وإما لزانية، وإما أمرؤ حملت به أمه في غير طهر»، جـ١/ ٤٣٦.

(٣) «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تابع لمسلمهم، وكافرهم تابع لكافرهم. فالناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، السابق جـ١/ ٣٦٩، «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، جـ١/ ٣٦٩، «الناس تبع لقريش في الخير والشر»، ص٣٧٠،

وتتمثل الدائرة الأولى للقرابة في علي وفاطمة، وما تم في محمد عند السنة من التشخيص تم في علي عند الشيعة، وضعا للخاص في العام. فلا يجوز سب علي لأنه مقارن بذاته الله ولأن سب المسلم فسوق. وقد اشتق الله أسماء الأنبياء من أسمائه، محمد لأنه محمود، وعلي لأنه مرفوع، وقد تم زواج فاطمة بعلي بوحي من السماء، والأرض صداقها. وحرام أن يمشي عليها من يبغضهما. وهو ابن عم الرسول وزوج ابنته وجد أحفاده. وهو وجيه. أول الناس ورودا على الحوض، وأولهم إسلاما. هو خير الأمة وأعلمهم وأفضلهم. أول من آمن بالرسول وأول من يصافحه يوم القيامة، ورفض الرسول خطبة أبي بكر وعمر لفاطمة لأنه لم يؤمر بذلك. طلب الرسول أن يجعل عليا وزيرا من أهله كما طالب موسى هارون[1]. الرسول دار الحكمة وعلي بابها. والرسول ميزان العلم وعلي كفتاه. والرسول ميزان الحكمة وعلي لسانه. علي أخوه والرسول منه. فهو باب علمه ووصيته. وهو الذي يكتب جواز كل مؤمن على الصراط. طالبه الرسول إن يصاحبه في الطعام دائما. هو خير أمته، أعلمهم وأحلمهم. هو الذي أعطاه الله الراية ليفتح به. وقد اختار الله من فوق السماء لفاطمة اثنين، أبيها وزوجها. لآدم علم، ولنوح همة، ولإبراهيم خلق، ولموسى مناجاة، ولعيسى سنة، ولمحمد هديه وعلمه. وحق علي

«الأمراء في قريش ثلاثا، ما حكموا فعدلوا، واسترحموا فرحموا، وعاهدوا فوفوا»، حـ١/ ٣٧٠، «الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الجنة، والهجرة في المسلمين، والمهاجرين بعد» حـ١/ ٣٧١، «أمان لأهل الأرض من الغرق القوس، وأمان لأهله الأرض من الاختلاف الموالاة لقريش، قريش أهل الله. فإذا خالفتها قبيلة من العرب صاروا حزب إبليس»، حـ١/ ٣٧٢، «أحبوا قريشا فإن من أحبهم أحبه الله»، حـ١/ ٣٧٢، «قدموا قريشا»، حـ٢/ ٣٧٤-٦٦٥.

(١) «لا تسبوا عليا فإنه ممسوس بذات الله، «سباب المسلم فسوق»، النبي الأعظم ص٣٥٨، «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، ص٤٧٠، «علي يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين»، ص٥٣٢، «من كنت مولاه فعلي مولاه»، ص٥٨٠، «الولاية لعلي من بعدي»، ص٥٨٠، «وسلموا على علي بأمرة المؤمنين»، ص٦١١، «يوم غدير خم أفضلُ أعياد أمتي»، ص٦١٣، «إن عليا في السحاب»، ص٦١٨، «الله أكبر على إكمال الدين... والولاية لعلي»، ص٦٤٠، «إنه وليكم من بعدي»، ص٦٤١، «هذا مولاي ومولى كل مؤمن، ومن لم يكن مولاه فليس بمؤمن»، ص٦٤٧، «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار»، ص٦٦١، «الضربة علي خير من عبادة الثقلين»، ص٧٢٠-٧٥٥: «علي أخي ومني، وأنا من علي. فهو باب علمي ووصيتي»، «علي مع الحق، والحق معه يدور حيث دار. ولن يفترقا حتى يرد على الحوض»، «علي مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي»، «لحمك لحمي، ودمك دمي، والحق معك»، «أشبهت خلقي وخُلقي وأنت من شجرتي التي أنا منها»، ص٧٢٠-٧٥٥.

على الأمة كحق الوالد على ولده. هو أحب الرجال إلى الرسول، وأكرمهم عليه. هو منه بمنزله الرأس من البدن. هو منه، وولي كل مؤمن بعده. لحمهما واحد، ودمهما واحد. والحق معه. علي هو الوحيد الذي يجرأ على الحديث مع الرسول إذا غضب. وهو أشبه الخلق بالرسول من شجرته. وسيجاهد قوم عليا بعد الرسول. فليقاوم معه الناس باليد أو باللسان أو بالقلب.

ومدح علي مثل مدح محمد. فهو أشبه الخلق بمحمد. هو من شجرته. وهو أول من آمن بالرسول. وأول من يصافحه يوم القيامة. وأول الناس ورودا على الحوض[1]. وهو أحب الخلق إلى الله، وأحب الرجال إلى الرسول، وأكرمهم. وهو خير من يتركه بعده. هو خير البشر فمن أبى فقد كفر. وهو الذي أعطاه النبي الراية، لرجل يحبه الله ورسوله وهو يحب الله ورسوله. وهو من الرسول بمنزلة الرأس من البدن كما تقول الكنيسة بالنسبة لرئيسها. هو من الرسول، والرسول منه، وليه وولي كل مؤمن بعده. وهو الذي بلغ سورة براءة. لحمه لحمه، ودمه دمه. والحق معه دائما. هو نظير النبي. اختار الله محمدا نبيا ثم اختار عليا زوجا لابنته ووصيا له. وقد اختار الله رجلين: محمدا وعليا. من أحب عليا فقد أحب الرسول ومن أبغضه فقد أبغض الرسول. علي وشيعته على الحوض، وأعداؤهم ظمأى الرسول. علي من قرابته وصحبه. يعظمه البعض أكثر مما هو عليه، مثل عيسى ابن مريم[2]. ويقلل من شأنه البعض الآخر، أقل مما هو عليه، وأي رفعه لمعاوية بسبب علمه فإنه حط من شأن النبي وعلي، لأجل أموي ساقط[3].

وتُذكر أولاده أحيانا في البداية مع بداية النبوة أو في النهاية مع الشمائل[4]. وتنسب

---

(١) «ما من نبي إلا وله نظير في أمته وعلي نظيري»، «من أحب عليا فقد أحبني، ومن أبغض عليا فقد أبغضني»، «أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب»، النبي الأعظم ص٥٣-٥٧/١٠٩.

(٢) «يا علي إنك فيك مثلا من ابن مريم، أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه. وأحبه النصارى حتى أنزلوه المنزلة التي ليس بها»، بهجة المحافل ص٣٦١.

(٣) النبي الأعظم ص٦٢-٦٤.

(٤) وهم: القاسم، زينب، رقية، فاطمة، أم كلثوم، عبد الله، إبراهيم، الإشارة ص٩٤-٤٠٥، أولاده، السيرة النبوية (٢)، ص٣٥٣-٣٥٦، النبي المختار ص٥٠، سيرة المصطفى ص٨٨-٩٤، عيون الأثر ص٣٧٨-٣٨٢، «هؤلاء أهل بيتي»، أقرباء الرسول ص٢٥٢، في ذكر أولاده، معين الشمائل ص٢٢-٣١ (القاسم، عبد الله: زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة، إبراهيم).

أولاد بناته إليه، ومن كراماته أن أولاد بناته ينسبون إليه وأولاد بنات غيره لا ينسبون إليه في الكفارة ولا في غيرها[1]. ومن كراماته أن بناته لا يتزوج عليهن[2]. وهو الأب الكريم لا فرق عنده بين ذكر وأنثى. يختار الزوج المناسب للبنت. ويرعاها بعد الزواج[3].

وفاطمة خير بناته. فهي بضعه منه[4]. سيدة نساء المؤمنين، سيدة نساء هذه الأمة، ولكل منها مناقب، تزويجها بعلي. وسميت فاطمة لأن الله فطمها من النار وحجزها عنها. وأول من يدخل الجنة الرسول ثم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم الأزواج عن اليمين والشمال، ثم الذرية من الخلق[5]. حتى لو كان السند ضعيفا[6]. ولا يُعذب أولادها وهي الذرية. فاطمة بضع من الرسول، من أغضبها أغضبه[7]. وقد اختار الله الرسول نبيا، وعليا وصيا وبعلا لابنته، والأرض كلها صداق فاطمة. وحب فاطمة من

---

(١) «كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وصهري»، الجوهرة ص١٦٣، خصائص الرسول ص٢٧٩-٢٨١، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٤٣.

(٢) «فاطمة بضعة مني يغضبني ما يغضبها، ويبسطني ما يبسطها»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٤٣-٥٤٤.

(٣) معين الشمائل ص٣٢-٣٩.

(٤) «إن فاطمة بضعة مني»، «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين»، أو «سيدة نساء هذه الأمة»، «هي أفضل بناتي، أصيبت في »، غاية السول ص٢٣٣، النبي المختار ص٥١-٥٣، «خير نساء العالمين مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة»، أقرباء الرسول حـ١/ ٢٥٠-٢٥١، «إنما سميت ابنتي فاطمة لأن الله فطمها وحجبها عن النار»، حـ١/٤١٦/٤١٨، «أنا شجرة وفاطمة حملها، وعلي لقاحها، والحسين والحسن ثمرها، والمحبون أهل بيتي ورقها، هم في الجنة حقا حقا»، حـ١/ ٤٢٨. دعاؤه بالبركة في هذا النسل المكرم حـ٢/ ٤٥٥-٤٥٨، «اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما»، «اللهم بارك لهما في شملهما»، «إن الله غير معذبك ولا ولدك»، حـ٢/ ٤٦٧، «يا علي، أنت وشيعتك تردون على الحوض»، جـ٢/ ٤٦٩، «يا علي إن الله قد غفر لك ولذريتك ولولدك، ولأهلك ولشيعتك ولمحبي شيعتك فأبشر»، حـ٢/ ٤٦٨.

(٥) «أنت وشيعتك تردون على الحوض رواه مرويين مبيضة وجوهكم، وإن عدوك يردون على ظمأ مقبحين»، ص٤١٩، «إن الله قد غفر لشيعتك ولمحبي شيعتك»، ص٤٢٠، «يا علي، إن أهل شيعتنا يخرجون من قبورهم يوم القيامة على ما بهم من الذنوب والعيوب وجوههم كالقمر ليلة البدر»، ص٤٣٠، القول البديع ص١٩٢-١٩٣.

(٦) «أما ترضى أن تكون (علي) رابع أربعة» أول من يدخل الجنة أنا، وأنت، والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا»، أقرباء الرسول حـ٢/ ٤٦٣.

(٧) «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني»، النبي الأعظم ٧٥٦-٧٦١.

محمد الأب[1]. وحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار[2]. والمهدي من ثمرتها[3]. ويوصف المهدي جسديا أشبه بجسد الرسول. تساعده ثلاثة من الملائكة، ويبعث ما بين الثلاثين والأربعين[4]. يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا. يختم الدين كما ختمه الرسول. يولد بالمدينة. اسمه اسم نبي، ويهاجر إلى بيت المقدس. في كتفه علامة النبي، كث اللحية كحل العينين براق الوجه مثل الرسول. أجلى الجبهة، أقنى الأنف. يملك سبع سنين أو أكثر. يحبه أهل السماء والأرض. تمطر السماء، وتنبت الأرض. لونه عربي، وجسمه اسرائيلي. يرضى بخلافته أهل السماء والأرض. والطير في الجو. وفي رواية، يملك عشرين سنة. الرسول خير الأنبياء، وحمزة خير الشهداء. وجعفر له جناحان يطير بهما في الجنة. وسبطا هذه الأمة الحسن والحسين ابنا الرسول، والمهدي. والعباس أبو الخلفاء أجود قريش. من ولده السفاح والمنصور والمهدي. بدأ الرسول الرسالة واختتمها رجل من ولد عم الرسول[5]. وفي رواية لا مهدي إلا عيسى ابن مريم[6]. ومدح فاطمة لأنها بنت الرسول، وزوجة علي، وأم الشهيدين الحسن والحسين. ومعجزاتها وهي في

---

(١) «إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر بي منها. إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها ليهون عليها»، الجوهرة جـ٢/ ٤٠-٤١.

(٢) «إن فاطمة حصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار»، أقرباء الرسول جـ٢/ ٤٦٠.

(٣) «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»، السابق جـ٢/ ٥١٨، «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت جورا»، جـ٢/ ٥٢٢، «المهدي منا أهل البيت يصلي الله في ليلة»، «المهدي منا يختم الدنيا بنا كما فتح بنا» جـ٢/ ٥٢٤-٥٢٥.

(٤) «المهدي مولده بالمدينة، من أهل بيت النبي، اسمه اسم نبي، ومهاجره بيت المقدس، كث اللحية، كحل العينين، براق الثنايا، في وجهه ظال، أقنى أجلى، في كتفه علامة النبي، يخرج براية النبي.... يمده بثلاثة من الملائكة يضربون وجوه من خالفه وأدبارهم. يُبعث وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين»، جـ٢/ ٥٢٦-٥٢٧، «المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما، يملك سبع سنين»، جـ٢/ ٥٢٩، «ينزل بأمتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم، لم يسمع ببلاء أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ فيبعث الله رجلا من عترتي أهل بيتي فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يحبه ساكن السماء وساكن الأرض، وترسل السماء مطرها، وتخرج الأرض نباتها، لا تمسك منه شيئا، يعيش فيهم سبع سنين أو ثمان أو تسع. يتمنى الأحياء الأموات مما صنع الله بأهل الأرض من خيره»، السابق جـ٢/ ٥٣٠-٥٣٥.

(٥) أقرباء الرسول جـ٢/ ٥٤٢.

(٦) «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارا، ولا الناس إلا شحا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولا مهدي إلا عيسى ابن مريم»، السابق جـ٢/ ٥٤٤.

بطن أمها مثل مريم في بطن أمها أليصابات[1]. وقد تتدخل الملائكة لمزيد من التأكيد على خصوصية فاطمة. وتمر في الجنة وينادي على الآخرين بغض أبصارهن حتى تمر فاطمة. يغضب الله لغضبها ويرضى لرضائها، هي سيدة نساء العالمين وسيدة نساء هذه الأمة، وأحيانا تنافسها مريم بنت عمران[2]. وتدخل معها خديجة وآسية بنت مزاحم[3]. علي وفاطمة هما لب آل البيت[4]. أنجبا الحسن والحسين، وعندما رأى الرسول حفيديه وهو على المنبر يتعثران نزل وساعدهما على الوقوف كسلوك طبيعي تجاه الأطفال[5]. وكان يعوّذ الحسن والحسين[6]. يشبهان الجد[7].

ويمكن أن يوضع الثلاثة علي والحسن والحسين في مصير الأمة، قبل التحول من الخلافة إلى الملك، ويكون في عائلة الرسول في القرابة. وقد أخبر جبريل الرسول بأن ابنه الحسين سيقتل، وأنه سيد شباب أهل الجنة، وكما قتل بدم يحيي سبعون ألفا في التوراة يقتل بدم الحسين أيضا سبعون ألفا قياسا على الواقعة الأولى. يحبهما الرسول، ويحب من يحبهما. ومن صلب الحسين يخرج زيد يتخطى هو وأصحابه رقاب الناس، ويدخلون الجنة بغير حساب[8].

---

(١) «فاطمة حوراء إنسية كلما اشتقت إلى الجنة قبلتها»، «فاطمة هي الزهرة»، «كانت فاطمة تحدث في بطن أمها. ولما ولدت وقعت حين وقعت على الأرض ساجدة رافعة أصبعها»، «إن الله يغضب لغضبك، ويرضى لرضاك»، «هي قلبي وروحي الذي بين جنبي. فمن آذاها فقد آذاني»، النبي الأعظم ٥٠-٥١/ ٥٣-٥٤.

(٢) «نزل ملك من السماء فاستأذن الله أن يسلم عليّ فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٦٣.

(٣) «فاطمة. سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران»، السابق ص٥٦٣، «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم»، ص٥٦٥.

(٤) «يرحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيرا»، النبي الأعظم ص٥٨.

(٥) «صدق الله تعالى ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لم أملك نفسي حين رأيت هذين الولدين يتعثران ويقومان حتى فعلته بهما الذي رأيتم»، بهجة المحافل ص٥٠٣.

(٦) «أعذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، «إن أباكما (إبراهيم)، كان يعوّذ بها إسماعيل وإسحق»، بهجة المحافل ص٥١٠. «اللهم إني أحبهما فأحبهما»، «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»، السابق ص٦١٥.

(٧) أشبهت خَلقي وخُلقي»، حـ٢/ ٥٥٢.

(٨) النبي الأعظم ص١١٤/ ٧٧١.

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[1]. وهما نموذجان للشهداء، الأول بالمواجهة بالسيف، والثاني بالاغتيال بالسم، والمهدي من ولد الرسول. وجهه كالكوب الدري. واسمه كاسم الرسول[2]. والمهدية عند السنة والشيعة على حد سواء، عند السنة كأمل في الخلاص، وعند الشيعة كثورة فعلية قادمة إذا ما واتت الظروف، ورفعت التقية، وانتهى الانتظار. وإبراهيم صديق شهيد. له مرضع في الجنة، لو عاش لكان صديقا نبيا، ولأعتق الرسول أخواله القبط، ورفع الجزية عن كل قبطي[3]. فالقرابة كالتشريع، والمصاهرة كالعقيدة.

وقد ترك الرسول في الأمة شيئين، كتاب الله وأهل بيته، وأوصى بهم. مما يعطي الشيعة بعض السند في التوريث من النبوة إلى الإمامة[4]. والبداية بعلي. فمن كان الرسول مولاه

(١) «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٤٦٥-٥٦٤.

(٢) النبي الأعظم حـ٢/ ١١٤-١١٥.

(٣) «ولو عاش لكان صديقا نبيا، ولأعتقت أخواله القبطي، وما استرق قبطي»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٦٤.

(٤) «ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»، «معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»، «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»، «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق»، بهجة المحافل ص٦١٣-٦١٥، أولاده، السيرة الحلبية حـ٣/ ٤٣٢-٤٣٨، وصية النبي وخليفة بأهل بيت المشرّف كل منهم بانتمائه إليه ونسبته، أقرباء الرسول حـ١/ ٣١٠-٣٩١، «ألا أن عيبتي التي آوى إليها أهل بيتي، وإن كرشي الأنصار، فأعفوا عن مسيئهم، واقبلوا من محسنهم»، حـ١/ ٣١٠، «كرشي باطني، وعيبتي ظاهري وجمالي»، «أقيلوا ذوى عثراتهم إلا حدود»، حـ١/ ٣١٢، «لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني في نفس لقرابتي منكم وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم»، «يا قوم إذ أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم»، حـ١/ ٣١٨-٣١٩، «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي»، حـ١/ ٣٢٥، «ألا إن لكل نبي تركة وضيعة، وإن تركتي وضيعتي الأنصار فاحفظوني فيهم»، حـ١/ ٣٢٩، «إن الله جعل أجري عليكم المودة في أهل بيتي، وإني سائلكم غدا عنهم»، حـ١/ ٣٣٣، «لا أسألكم على ما آتيكم به من الكتاب والهدى أجرا إلا أن توادوا الله وتقربوا إليه بطاعته»، حـ١/ ٣٣٥، «صالح المؤمنين علي»، حـ٢/ ٦٦٩، «يا علي يدخل النار فيك رجلان: محب مفرط، ومبغض مفرط، كلاهما في النار»، حـ٢/ ٧٠، «يا علي سيكون في أمتي قوم ينتحلون حبنا أهل البيت، لهم نبز، يسمون بالرافضة، فاقتلوهم فإنهم مشركون»، حـ٢/ ٧٠٥.

فعلي مولاه. وعلي صالح المؤمنين. ويهلك فيه اثنان محب مفرط ومبغض مفرط. ويتنبأ الرسول بخروج الرافضة. ويدعو إلى قتلهم. وهي حديث سياسي وضع بعد خروج الرافضة عليه لتشريع حرب الأمويين ضدهم. كتاب الله وعترة نبيه نص وجماعة. ومساواتها معا تجعل الجماعة أمينة على النص أو متسلطة عليه ومحتكرة لتفسيره[1]. فلا يوجد نص خارج سلطة الناقل أو المفسر، وقد يكون التركيز على أهل البيت وحدهم استمرارا للحامل[2]. حبهم من حب الرسول، وحب الرسول من حب الله[3]. وتكثر الأحاديث في مدح آل البيت أي في تبرير السلطة.

---

(١) «أني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، السابق حـ١/ ٣٣٦، «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول الله ربي فأجيب، وأني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»، حـ١/ ٣٣٩.

(٢) «استوصوا بأهل بيتي خيرا فإني أخاصمكم غدا، ومن أكن خصمه أخصمه، ومن أخصمه دخل النار»، «احفظوه فيهم فلا تؤذوهم، ولا تسيئوا إليهم»، السابق حـ١/ ٣٩٠-٣٩١، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٦٥، معين الشمائل ص٨٩-٩٩.

(٣) «الحث على حبهم والقيام بواجب حقهم»، أقرباء الرسول حـ١/ ٣٩٢-٤٤٢، «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»، حـ١/ ٣٩٢، «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتي أحب إليه من عترته، ويكون أهلي أحب إليه من أهله، وتكون ذاتي أحب إليه من ذاته»، حـ١/ ٣٩٣، «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله»، حـ١/ ٣٩٤، «لا يحبنا أهل البيت إلا مؤمن تقي، ولا يبغضنا إلا منافق شقي»، حـ١/ ٤٢٤، «من أحب الله أحب القرآن، ومن أحب القرآن أحبني، ومن أحبني أحب أصحابي وقرابتي»، حـ١/ ٤٢٤، «حب آل محمد يوما خير من عبادة سنة»، حـ١/ ٤٢٦، «حبي وحب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن أهوالهن عظيمة» حـ١/ ٤٢٧، «معرفة آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب»، حـ١/ ٤٢٧، «يرد الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمتي كهاتين السبابتين»، حـ١/ ٤٢٧، «خمس من أوتيهم لم يقدر على ترك عمل الآخرة... حب آل محمد»، حـ١/ ٤٢٧، «من أحبنا نفعه الله بحبنا ولو أنه بالديلم»، حـ١/ ٤٢٨، «من مات على حب آل محمد مات شهيدا، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا»، حـ١/ ٤٣١، «مات مؤمنا مستكمل الإيمان»، «بشره ملك الموت بالجنة، ومنكر ونكير»، «يُزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها»، «فتح له في قبره بابان إلى الجنة»، «مات على السنة والجماعة»، «من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه، آيس من رحمة الله»، حـ١/ ٤٣١، «من أحبنا بقلبه وأعاننا بيده ولسانه كتب أنا وهو في عليين، ومن أحبنا بقلبه وأعاننا بلسانه وكف يده فهو في الدرجة التي تليها. ومن أحبنا بقلبه وكف عنا لسانه ويده فهو في الدرجة التي تليها»، حـ١/ ٤٣٢، «خيركم خيركم لأهلي من بعدي»، حـ١/ ٤٣٣.

وقد يخصص آل البيت في بيتين، بني هاشم وبني عبد المطلب[1]. تبدأ الجنة ببني هاشم[2]. ولا يقوم بنو هاشم لأحد[3]. وهم مثل غيرهم: لا يأتون الرسول بالأنساب وغيرهم يأتون بالأعمال. وكذلك بنو عبد المطلب عليهم إنقاذ أنفسهم من النار. وقد يخصص أهل البيت في علي أو سلمان أو أسامة[4]. كما قد يخصص بحمزة سيد الشهداء[5]. والرسول يستحي من عثمان كما تستحي منه الملائكة[6].

ويكرم السلف أهل البيت من الصحابة والمقتفين طريقهم في الإصابة[7]. ويكافئ الرسول من أحسن إليهم في يوم القيامة[8]. ويشفع يوم القيامة لأربعة: المكرم لذريته، والقاضي حوائجهم، والساعي في أمورهم، والمحب لهم[9]. وقد يكون السند ضعيفا إلا أنه يعبر عن حالة نفسيه اجتماعية عند المسلمين الأوائل. واللائق بمحاسن أهل البيت

(١) «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطل شيء واحد»، السابق حـ١/ ٣٨٨؛ «لا تبلغوا الخير حتى يحبوكم لله ولقرابتي، أترجو سلهب شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب»، حـ١/ ٣٩٨، «يا بني هاشم، إني قد سألت الله عز وجل لكم أن يجعلكم بخياء رحماء، وسألت أن يهدي ضالكم، ويؤمن خائفكم، ويشبع جائعكم»، حـ١/ ٣٩٩، «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحبكم بحبي، أيرجون أن يدخلوا الجنة بشفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب؟»، حـ١/ ٣٩٩، «يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار»، حـ٢/ ٦٦٤.

(٢) «يا معشر بني هاشم، والذي بعثني بالحق نبيا لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم»، السابق حـ٢/ ٤٦٩.

(٣) «يقوم الرجل لأخيه عن مقعده إلا بني هاشم، فإنهم لا يقومون لأحد»، السابق حـ٢/ ٥٥٩، «يا بني هاشم لا يجتبيني الناس بالأعمال وتجتبوني بالأنساب»، حـ٢/ ٦٦٤، آل البيت أو أهل البيت، القول البديع حـ٢/ ١٩٤-٢٠٠.

(٤) «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق»، حـ١/ ٣٧٦، «أنت (علي) من أهلي»، «سلمان منا أهل البيت، وهو ناصح فاتخذه لك»، حـ١/ ٣٧٨، «أسامة منا أهل البيت ظهر البطن»، حـ١/ ٣٨١، «أحبوا أهلي، وأحبوا عليا. من أبغض أحدا من أهل بيتي فقد حرم شفاعتي»، حـ١/ ٤٢٥.

(٥) «سيد الشهداء حمزة»، «سيد فتيان أهل الجنة أبو سفيان ابن الحارث»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٦٦.

(٦) «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»، النبي الأعظم ص٧٩-٨٠.

(٧) أقرباء الرسول حـ٢/ ٥٦٣-٥٨٥.

(٨) السابق حـ٢/ ٥٨٦-٥٩١، «من اصطنع إلى أحد من أهل بيتي يدا كافأته عنها يوم القيامة»، «وحرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي»، حـ٢/ ٥٨٧.

(٩) «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه»، السابق حـ٢/ ٥٩٠.

اقتفاء آثارهم، والمشي على سنتهم، في سكونهم وتصرفهم[1]. وأكرمهم عند الله أتقاهم، مثال يوسف. وخيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا أي إذا استمر الدين الطبيعي. الله واحد، والجنس البشري أصله واحد، والمعيار الأخلاقي واحد، الناس لآدم وآدم من تراب. والافتخار بآباء قد يكونون في جهنم. والله لا ينظر إلى الصور والأموال بل إلى القلوب والأعمال. فالأنساب ليست معيارا للحكم على الناس، بل الأخلاق. والناس سواسية يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح. وخير الناس آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم أي فعل في الخارج واتصال في الداخل. وكرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه. فضل الإنسان في عقله، ومروءته في خلقته، وحسبه في ماله، وتقواه في دينه. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه. أولياء الرسول المتقون، أصحاب الأعمال، الصالحون المؤمنون. آل محمد كل تقي. ومن أقر بالتوحيد من أهل البيت لا يعذبون لاستحقاقهم بالتوحيد وليس لقرابتهم للرسول[2]. من أطاع الله نال الاستحقاق، وأهل البيت في الجنة. وهم ليسوا القرابة الدموية بل أيضا

(1) «أكرمهم عند الله أتقاهم»، «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»، «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها. فالناس رجلان، رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله»، «والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب»، «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، «إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم... ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى. فكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشا»، «الناس لآدم وحواء... إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة إلا عن أعمالكم...»، «الناس كلهم كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية...»، «خير الناس أكرمهم وأتقاهم لله، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم»، «كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»، «إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك دين فلك تُقى»، «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، «إن أوليائي منكم المتقون... لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالأثقال»، «لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم»، «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما ولي الله وصالح والمؤمنون»، «آل محمد كل تقي»، السابق حـ٢/ ٦٣٦-٦٩٤.

(2) «وعدني ربي في أهل البيت من أقر منهم بالتوحيد، ولي بالبلاغ أن لا يعذبهم»، أقارب الرسول حـ٢/ ٤٦٦، «من أطاع الله من ولدي واتبع كتاب الله وجبت طاعته»، حـ٢/ ٤٨٤، «إنما شيعتنا من أطاع الله وعمل مثل أعمالنا»، حـ٢/ ٤٨٥، «أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة، وأغصانها في الدنيا، فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلا»، «في كل خلق من أمتي عُدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا بمن توفدون»، حـ٢/ ٤٨٥.

القرابة الأخوية مثل المهاجرين[1].

وأحيانا تتحول السيرة إلى علاقات اجتماعية دينية. القرابة للرسول، أجداده وأعمامه وأخواله وعماته في تصور عشائري قبلي بالرغم من عمومية الرسالة، والتأكيد على أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، والطاعة حتى ولو أُمّر عبد حبشي[2]. وقد تذكر تحت باب «أعمامه وعماته» وإخوته من الرضاعة[3]. وقد يسبق أولاده زوجاته، بعد أعمامه وعماته، ذكورا وإناثا، ما قبل النبوة وما بعدها[4]. والحكمة في توفي الذكر، لمنع قضية الخلافة في مجتمع ذكوري، كما يذكر جده مع عمه وأمهاتهم[5]. وتذكر أمه[6]. وكان الرسول إنسانا يحب الشخص كما يحب القضية. فقد سر بقدوم جعفر من الحبشة وبفتح خيبر[7]. وأحيانا تتغلب القرابة على الرسالة. فالرسول يسهر الأنين العباس وهو أسير بدر. فقد خرج مكرها على الحرب. وطلب بإرخاء وثائق

---

(١) بشارتهم بالجنة ورفع منزلتهم بالوقوف عندما أوجبه الشارع وسنه»، السابق حـ٢/ ٤٥٩-٤٧٦، «سألت ربي أن لا يدخل النار أحدا من أهل بيتي فأعطاني ذلك»، حـ٢/ ٤٦٨، «أول من يرد على حوضي أهل بيتي، ومن أحبني من أمتي» حـ٢/ ٤٧٠، «أول الناس يرد على الحوض فقراء المهاجرين، الشعث رؤوسا»، حـ٢/ ٤٧١.

(٢) وفاء الوفا حـ٣/ ١٠٧٩.

(٣) خير العباد ص٦٣٨، ألفية السيرة ص١٣١، الأعمام والعمات، بهجة المحافل ص٤٠٢-٤٠٤، تقديم الأقربين في المخاوف والمغارم وتأخيرهم في الرخاء والمغانم، السيرة النبوية ص٤٣٩-٤٤١، سيرة المصطفى ص٩٤-٩٨، معين الشمائل ص٨٥-٩٩.

(٤) الفصول ص٢٩٨-٣٠١، ألفية السيرة ص١٣٠، «إنها رحمة جعلها الله في قلوب عباده... إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، سيرة النبي ص٣٦٤، ذكر أولاده، بهجة المحافل ص٣٩٧-٣٩٨، «ابن عمي وحبي»، الجوهرة حـ٢/ ١٣٨، «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله»، «من آذى عمي فقد آذاني، وإنما عم الرجل صنو أبيه»، السابق ص٦١٥، السيرة الحلبية حـ٣/ ٤٣٩-٤٣٨، عيون الأثر ص٣٨٣-٣٩٢، الجوهرة حـ١/ ٥٠-٥١/ ١٤/ ١٧

(٥) الجوهرة حـ٢/ ٧-٤٩.

(٦) «جاءني جبريل وأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله»، الجوهرة حـ٢/ ١١/ ٥٠-٦٢، «اللهم اغفر للعباس وولده ولمن أحبهم»، أقرباء الرسول ص٤٢١، «اللهم اغفر للعباس ولولده مغفرة ظاهرة وباطنه لا تغادر ذنبا. اللهم اخلفه في ولده»، ص٤٣.

(٧) «ما أدري بأي الأمرين أنا أسر، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر»، الجوهرة حـ٢/ ٤٣.

الأسرى كلهم بمن فيهم العباس. فالعم صنو الأب وأجود قريش كفا وأوصلها[1]. ويصف الزبير بأنه ابن عمه وحبه[2]. وكان يحب أيضا عقيل بن أبي طالب[3].

والشفاعة لأهل البيت، ثم الأقرب فالأقرب من قريش، ثم الأنصار، ثم من أنس به واتبعه من اليمن، ثم من سائر العرب، ثم الأعاجم[4]. ومن حيث سكان المدن أول من يشفع لهم أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف. قريش أهل أمانة. فمن بغى عليهم كبه الله لمنخريه مرتين. ومن يرد هوان قريش أهانه الله. ولعل شفاعته تنفع عمه أبا طالب[5]. وبنو عبد المطلب سادات أهل الجنة[6]. سأل الرسول لهم ثلاثا: تثبيت قائمهم، وهدايته ضالهم، وتعليم جاهلهم. وسأل الله أن يجعلهم كرماء رحماء نجباء. فلو أن أحدِا منهم صلى وصام ثم لقى الله وهو مبغض لآل البيت دخل النار، والله غير معذب العباس ولا ولده[7]. ومن توفى ولد له في الإسلام دخل الجنة. فالأبوة خير

---

(١) «من لقى منكم العباس فلا يقتله فإن قريشا إنها أجبرته في قتال بدر كرها»، «أسهر لأنين العباس»، «هذا عمي وصنو أبي. هذا عمي وصنو أبي»، «هذا عمي العباس أجود قريش كفا وأوصلها»، «ردوا عليّ أبي، أما والله لئن فعلت به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود لأضرمنها عليهم نارا»، الجوهرة حـ٢/ ١٤، «يا أيها الناس من آذى عمي فقد آذاني»، السابق ص١٧.

(٢) «ابن عمي وحبي»، السابق ص٣٨.

(٣) «يا أبا يزيد، إني أحبك حبين، حبا لقرابتك مني، وحبا لما كنت أعلم من حب عمي إياك»، السابق ص٤٢.

(٤) «أول من أشفع له من أمتي أهل بيتي ثم الأقرب فالأقرب من قريش، ثم الأنصار ثم من آمن بي واتبعني من اليمن، ثم من سائر العرب، ثم الأعاجم. وأول من أشفع له أفضل»، أقرباء الرسول حـ٢/ ٤٧٢، «إن أول من أشفع له من أمتي أهل المدينة ثم أهل مكة ثم أهل الطائف»، حـ٢/ ٤٧٤، «يا أيها الناس إن قريشا أهل أمانة. فمن بغاهم العوائر (العثرات) كبه الله لمنخريه مرتين»، ص٦١٣، «من يرد هوان قريش أهانه الله»، ص٦١٤، معين الشمائل ص٨٩-٩٩.

(٥) «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة»، الجوهرة حـ٢/ ٥٧، «إن لبني أبي طالب عندي رحما سأبلها ببلابلها»، أقرباء الرسول حـ٢/ ٦٦٨.

(٦) «نحن بنو عبد المطلب سادات أهل الجنة: أنا، وحمزة، وعلي، وجعفر بن أبي طالب، والحسن، والحسين، والمهدي»، أقرباء الرسول حـ٢/ ٤٦٥، «يا بني عبد المطلب إني سألت الله لكم ثلاثا: أن يثبت قائمكم، وأن يهدي ضالكم، وأن يعلم جاهلكم، وسألت الله أن يجعلكم جودا نجباء رحماء. فلو أن رجلا صفن بين الركن والمقام فصلى وصام ثم لقى الله وهو مبغض لأهل بيت محمد دخل النار»، حـ٢/ ٦١٠.

(٧) «يا عباس، إن الله غير معذبك، ولا أحد من ولدك»، السابق حـ٢/ ٤٦٧، «يا عم سترك الله وذريتك من النار»، حـ٢/ ٤٦٨.

شفيع[1]. وكانت الشفاعة أيضا عادة عربية بين القبائل. استمرت في الإسلام لصالح الدعوة الجديدة[2].

وقد أقام النبي ثلاثة مجتمعات «الأسرة، والجوار، وحق المسلم على المسلم أينما كان[3]. فخير الناس خيرهم لأهله، وقد وصفت خديجة الرسول عندما جاء لخطبتها بأنه يصل الرحم، ويحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق. وأوصى بالنساء خيرا بالرغم من وصفهن بأنهن خلقن من ضلع أعوج يمكن كسره إذا ما حاول أحدا استقامته أو تركه معوجا.

فلا يجوز الانتساب إلى الرسول إلا بالحق كما تدعي نظم الحكم الهاشمية[4]. وهو مثل ادعاء الرجل غير أبيه أو شهادة الزور. ومن فعل ذلك فإنه في النار، تحرم عليه الجنة، ويلعنه الله والملائكة والناس أجمعين،ويتساوى في ذلك النساء والرجال في ادعاء نسبتهم لقوم ليسوا منهم. والشاعر الذي يهجو قبيلة بأكمله افتراء، وكذلك الرجل الذي ينكر ولده، ومن آثار الجاهلية الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة.

---

(١) «يا عمه، من توفى له ولد في الإسلام فصبر بنى الله له بيتا في الجنة»، أقرباء الرسول ص٤٠٤.

(٢) الجوهرة حـ١/ ٤١.

(٣) معين الشمائل ص٤٥٣-٤٧٤، «خيركم خيركم لأهله»، «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»، «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته. وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»، ص٤٥٨، «لا يكون لأحدكم ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة»، ص٤٦٠، «لا يدخل الجنة قاطع رحم»، ص٢٦٢، «تعلم من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مشراة في المال، منسأة في الأثر»، ص٤٦٢، «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم بالنهار»، ص٤٦٣.

(٤) «إن من أعظم الفرى أن يُدعى الرجل إلى غير أبيه أو يُرى عينه ما لم تر أو يقول على الرسول ما لم يقل»، «ليس من رجل أدعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر. وإن أدعى قوما ليس لهم فيه نسب فليتبوأ مقعده من النار»، «من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، «أيما امرأة ألحقت بقوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها جنته. وأيما رجل أنكر ولده وقد عرفه احتجب الله منه يوم القيامة وخصمه على رءوس الإشهاد»، «إن أعظم الناس فريا إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها، ورجل ينفي من ولده»، «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن» الفخر في الاحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، أقرباء الرسول حـ٢/ ٦٢١-٦٣٥.

واللائق بمحبتهم أن ينزلهم منزلتهم. فمن كان منهم موصوفا بالعلم قدمه على غيره. فالعلم بعد التقوى والعمل الصالح. العلم للخاصة، والتقوى والعمل الصالح للعامة[1]. والعلم والحكمة سيان. تزيد الشريف شرفا، وترفع العبد الملوك إلى مصاف الملوك، لا فرق بين الجاهلية والإسلام. فخيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. ويحذر من بغضهم وعداوتهم والتنفير عن سبهم ومساءتهم[2]. ومن بغض أهل البيت يحرم من الشفاعة، آيس من رحمة الله. وهو منافق شقي، مصيره إلى النار. قد يهبه الله المال فيطول حسابه. والعيال لتكثر شياطينه. يُحشر يوم القيامة يهوديا حتى ولو شهد أن لا إله إلا الله. ولا ينتسب إلى الرسول من يبغض عليا وينصب أهل بيته ومن اعتبر أن الإيمان مجرد كلام. والرسول مع من يحبهم وهم معه في الحرب والسلام. وسب آل البيت هو سب لله وللإسلام. ومن آذى الرسول في عترته عليه لعنة الله. وقد حرم الله الجنة على من ظلم آل البيت أو قاتلهم أو أعان عليهم أو سبهم، لا خلاق لهم في الآخرة. ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، والمستحل من عترة الرسول ما حرم الله واحدا من خمسة يلعنهم النبي. والمسيئون يوهبون للمحسنين[3]. والعفو عند المقدرة. وقد تجلى ذلك في عفو الرسول عن قريش بعد فتح مكة[4]. الأمان

---

(١) «إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد الملوك حتى تجلسه مجالس الملوك»، «الناس معادن في الخير والشر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، السابق حـ٢/ ٦٩٥-٧١١.

(٢) «من أبغضن أحدا من أهل بيتي فقد حُرم شفاعتي»، «لا يبغضنا إلا منافق شقي»، «من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله»، «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار»، «اللهم ارزق من أبغضني وأهل بيتي كثرة المال والعيال، كفاهم بذلك أن يكثر ما لهم فيطول حسابهم، وأن تكثر عيالهم فيكثر شياطينهم»، «من أبغضنا أهل البيت حشره الله يوم القيامة يهوديا وإن شهد أن لا إله إلا الله»، «ثلاث من كن فيه فليس مني ولا أنا منه: بغض علي، ونصب أهل بيتي، ومن قال الإيمان كلام»، «أنا حرب لمن حاربتهم، وسلم لمن سالمتهم»، «من سب أهل بيتي فإنما يريد الله والإسلام»، «من آذاني في عترتي فعليه لعنة الله»، «إن الله حرم الجنة على من ظلم أهل بيتي أو قاتلهم أو أعان عليهم أو سبهم»، «أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم»، «خمسة لعنتهم وكل نبي مجاب»، «الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمستحل محارم الله، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والتارك السنة»، السابق ص ٦٠٠-٦٢٠.

(٣) «اللهم إنهم عترة رسولك، فهب مسيئهم لمحسنهم، وهبهم لي ففعل وهو فاعل... فعله ربكم بكم، ويفعله بمن بعدكم»، أقرباء الرسول حـ٢/ ٤٦٨.

(٤) «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم.... اذهبوا فأنتم الطلقاء». «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب

بيقائهم، والنجاة في اقتفائهم[1]. وهم مثل النجوم في السماء أمان لأهل الأرض من الغرق والاختلاف. هم مثل سفينة نوح من ركبها نجا. وفي نفس الوقت يشير النبي إلى ما حصل بعده عليهم من القتل والشدة أيام الفتنة الكبرى[2]. وهم أول الناس فناء في صراع بين البقاء والفناء، بين الأمل واليأس، بين النهضة والسقوط، بين فتن آخر الزمان والمهدي المنتظر.

وكما ركزت بعض السير على أجزاء من السيرة، المغازي، والسير أو الوفاة فقد ركز البعض الآخر حول محيطه النسائي، أمه، وأزواجه، وبناته في تاريخ مثالي لا عيب فيه ولا نقص بالرغم من بشرية الرسول[3]. والتاريخ لا عيوب فيه ولا نقص. هو أقرب إلى التاريخ المقدس. الأسلوب أدبي رومانسي ساذج لتعليم التلاميذ كمقرر مدرسي. وتقارن أم النبي بأمهات باقي الأنبياء. تعتمد على المصادر القديمة مثل السهيلي والحديثة مثل هيكل. وشهادة بعض المستشرقين مثل بودلي. وتعتمد على كثير من الشعر ثم القرآن والحديث أقل[4]. وكما كتبت «أم النبي» كتبت أيضا «بنات النبي بنفس المنهج»، اتبعت سيرتها من البداية إلى النهاية[5].

عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»، سيرة النبي ص٣٥٢-٣٥٣..

(١) أقرباء الرسول حـ٢/ ٤٧٧-٤٩٣ «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي» حـ٢/ ٤٧٧، «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا إبليس»، حـ٢/ ٤٧٨، «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح في قومه من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق ومثل حطة لبني إسرائيل»، حـ٢/ ٤٧٩.

(٢) أقرباء الرسول حـ٢/ ٥٩٢-٥٩٩، «إن أهل بيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلا وتشريدا، وإن أشد قوما لنا بغضا بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم»، حـ٢/ ٥٩٢-٥٩٣، «أنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير ولا يعطونه. فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يرفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطا»، «كما ملئوها جورا فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج»، حـ٢/ ٥٩٤، «إن أول الناس فناء قريش أو نحو هذا من أهل بيتي»، حـ٢/ ٥٩٥، «أول الناس هلاكا قريش، وأول قريش هلاكا أهل بيتي»، حـ٢/ ٥٩٦.

(٣) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): أم النبي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٨.

(٤) الشعر (٤٢)، القرآن (١١١٨)، الحديث (١٤).

(٥) وذلك في سبعة كتب: سيدة الأمهات، بيته ووراثة، زهرة قريش، العروس الأرملة، أم اليتيم، الرحيل، الخالدة.

وعم تسليط الضوء على «نساء النبي» نظرا لأهميتهن في حياة الرسول. وكتب بنفس الأسلوب الرومانسي الساذج الذي يؤثر في العامة، ويمكن تربية التلاميذ عليه في دروس الدين بالمدارس. والرسول في بيته غير الرسول في نبوته. الأول حياته الخاصة، والثاني حياته العامة. والمؤلفة امرأة تكتب عن النساء، الأم والبنات والنساء. ويبلغن درجة التقديس بالرغم من غيرتهن. وتدل ألقابهن على ذلك: «أم المؤمنين»، «أم المساكين»، ومحمد الصادق الأمين، ومكة أم القرى، وخديجة الطاهرة[1]. يقوم على تبرير كل شيء: تعدد الزوجات، الزواج بالمرأة الناضجة التي تلعب دور الأم، وبالفتاة الصغرى التي ترضي الشيخ، وبالمرأة الأنثى التي ترضي الرجل[2]. وتعتمد على الحديث، والقرآن، والشعر، والحديث أكثر[3]. مع أنه منهجيا لا يُدرس الشخص من أقواله بل من مصدر آخر. كما تعتمد على بعض المستشرقين إما للهجوم أو للدفاع[4]. ويشار أيضا إلى محاولات المحدثين خاصة هيكل. وتغيب كل الأسئلة النقدية حول تعدد الزوجات، والزواج من الصغيرات، وتسريح المستعيذة بالله، وعدد الزوجات والسرايا، واشتراك عائشة في الحروب ضد علي، والاستعجال على الزواج من أم حبيبه وهي بالحبشة مع النجاشي ولياليها، واللغة التي كان يتكلم بها مع مارية القبطية، ونزول القرآن في حياته الخاصة، وحرب النصوص.

ب- الصحابة

والصحابة مثل القرابة[5]. هم مثل الملح في الطعام لا يصلح إلا به[6]. هم كالنجوم

---

(١) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): نساء النبي، دار المعارف، القاهرة حـ١/ ٦، ١٤٢٨هـ ١٩٩٨.

(٢) الأولى خديجة، والثانية عائشة، والثالثة زينب بنت جحش.

(٣) الحديث (٩٨)، القرآن (٤٣)، الشعر (٢).

(٤) مثل بردلي، مرجوليوت، درمنجهم، موير .

(٥) «لا تسبوا أحدا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مُد أحدهم ولا نصفيه»، «لا يُبلغني أحد عن أصحابي شيئا فأني أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر»، «لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»، بهجة المحافل ص٢٧٠-٢٧١، الخصائص الكبرى ص٥٦٦-٥٦٧، سيرة النبي ص٣٠٧، «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، السابق ص٣٤٩، «إني لأعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم. أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبوا برسول الله إلى رحالكم»، سيرة النبي ص٣٦٢، «فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم»، السابق ص٣٦٣، فضائل الصحابة، سنن المصطفى ص٧٧٦-٧٩٤، «رفاقه العشرة النجباء الذين في الجنة»، بهجة المحافل ص٤١٦ـ أنصاره الاثنى عشر النقباء، فضل أصحاب الرسول، السابق ص٤١٦.

(٦) «مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام، لا يصلح إلا به»، «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم»، «الله الله

يهتدي الناس بهم. ثم تحول الصحابة في الثقافة الشعبية إلى شخصيات مقدسة، عليها هالة من التكريم، لا تخطئ، كاملة، في حين أن الشيعة يضعونهم موضع النقد السياسي، ولا يصوبون قراراتهم دائما. وتوحي بعض الأحاديث بدرجة عالية من التوحد بين الرسول وصحابته، في المحبة والكراهية. ثم التوحيد بين الرسول والصحابة من ناحية والله من ناحية أخرى. ومن ثم أصبح لا يجوز التعرض للصحابة بالنقد أو التصوير مع أنهم بشر. والرسول بشر أيضا. وإذا كان فضلهم في نقل الحديث وروايته فإنه فضل التبليغ. كما أن فضل الرسول هو التبليغ. ولا يوجد صحابي إلا ومدحه الرسول وبين فضله وإعطاء لقبه. فأبو عبيدة بن الجراح مثلا أمين هذه الأمة[1].

وقد تمتد الصحبة عبر قرن من الزمان[2]. بل تمتد إلى نهايته بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معهم، وبفضل الصحابة على سائر الأمة[3]. وكل نبي له نظير في أمته. أبو بكر مثل إبراهيم، وعمر مثل موسى، وعثمان مثل هارون، وعلي مثل النبي، وأبو ذر مثل عيسى. وكل صحابي هو إمام أي بلدة يحل فيها وقائدها. وقد أعطيت قريش ما لم يعطه الناس وأصحابه عدول[4].

في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي. فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فيبغضي أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»، «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»، «أيها الناس إن الله تعالى غفر لأهل بدر والحديبية. أيها الناس احفظوني في أصحابي وأصهاري واختاني، لا يطالبنكم أحد منهم بمظلمة فأنها مظلمة لا توهب في القيامة غدا»، بهجة المحافل ص٦١٨-٦٢٠، تعظيم أصحاب الرسول لما أعظمه ومحبتهم لما أحبه، السابق ص٣٢١-٣٢٢، فضل حديث الرسول ومحدثيه وما نقل عن السلف من تعظيمهم لذلك، السابق ص٦٢٣، أدلة فضل الصحابة، سيرة النبي ص٤١٧-٤٢٢، «لو أن لرجل مثل أحد ذهبا فأنفقه في سبيل الله وفي الأرامل والمساكين والأيتام ليدرك فضل رجل من أصحابي ساعة من النهار ما أدركه أبدا»، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٥٦٦، المواهب اللدنية جـ٣/ ٣٧٥-٣٩٦، قربة من أصحابه، معين الشمائل ص٣١٣-٣١٨.

(١) «لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين»، «هذا أمين هذه الأمة»، سيرة النبي ص٧٦.

(٢) «خيركم قرني»، بهجة المحافل ص٢٧١، «لا يزال من أمتي أمه قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، السابق ص٦٢٤.

(٣) خصائص الرسول ص٢٦٢، تفضيل الصحابة على جميع العالمين سوى النبيين، الخصائص الكبرى جـ٢/ ٤٢٣-٤٢٤.

(٤) «اللهم ارحم خلفائي... الذين يأتون من بعدي ويروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس»، السابق ص٥٦٨.

وللصحابة كل منهم شخصيته المستقلة عن الأخرى. وهو ما سُمي في الفكر الإسلامي المعاصر «المفتاح». فأبو ذر يعيش وحيدا ويموت وحيدا. وهو على زهد عيسى ابن مريم[1]. وعمار شهيد تقتله الفئة الباغية، وأبو عبيدة أمين الأمة. وعلي ولي الأمة ووصيها. ومن آذى عليا فقد آذى الرسول[2]. وتتناغم كل هذه السمات في شخصيات الصحابة طبقا للمشورة. فالكل على صواب، وهم رمز التعددية في الرأي والاتفاق في الاختلاف[3].

والعشرة المبشرون بالجنة أقرب الصحابة إليه[4]. ويذكر معهم الحواريون من أهل الصفة. فلكل نبي حواري. والمبشرون بالجنة قد لا يتفق مع قانون الاستحقاق الذي يخضع له الرسول نفسه الذي لا يضمن لنفسه الجنة إلا إذا تغمده الله برحمته. فالحواريون أقرب دائرة إليه مثل الخلفاء الأربعة على نموذج حواريي المسيح[5].

وكان الرسول يتبع عادات الجاهلية في الإجارة[6]. وتقوم الإجارة على احترام القبلة. ويجير الرسول من تجيره إحدى زوجاته[7]. والإجارة هي الدائرة الأوسع من القرابة والصحبة، وتحولت الإجارة إلى شفاعة، وكان يؤاخي من شاء ويثبت بينهم التوارث دون غيره[8]. وكانت له طرقه الخاصة في الهدى والإرشاد. يلقى الناس بالبشائر. وتؤثر صحبته فيمن صحبه[9].

---

(١) «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»، «أبو ذر في أمتي على زهد عيسى ابن مريم»، الجوهرة حـ١/ ١٧٠.

(٢) «من آذى عليا فقد آذاني»، السابق ص١٨٧.

(٣) «مثل أصحابي في أمتي مثل النجوم يُهتدى بها وإذا غابت تحيروا»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٦٦-٥٦٧.

(٤) السيرة الحلبية ص٤٦٠، عيون الأثر ص٤١٥-٤١٨.

(٥) السيرة الحلبية حـ٣/ ٤٦٠، النبي المختار ص٥٥.

(٦) «هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالات ربي»، الجوهرة حـ١/ ٤٠-٤١.

(٧) «قد أجرنا ما أجرت يا أم هانئ»، السابق حـ٢/ ٤٥.

(٨) الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٦٢.

(٩) سيرة النبي حـ٢/ ١٨٦-١٩٠.

وحث النبي على حسن الجـوار[1]. ومازال جبريل يوصيه بالجار حتى ظن أنه سيورثه. وخير الأصحاب خيرهم لجاره. وعلى الجار أن يعطي جاره من طعامه. فلا يشبع مؤمن وجاره جائع أو يغلق بابه دونه. ولا يؤمن من لا يأمن جاره غوائله، ولا يؤذي جاره، وفي المجتمع الأكبر، للمسلم حق على المسلم[2]. لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. لا يظلمه، ويسعى في حاجته، ويفرج كربه، ويستر عورته. حقه عليه رد السلام وعيادته إذا مرض، ويسير في جنازته وإجابة دعوته، وتشميته إذا عطس، وإسداء النصح له. لا يبيع ولا يخطب عليه، ولا يسلبه حقه ويبتسم في وجهه، ولا يحقره، ولا يهجره[3]. وهذه بنية المجتمع الإسلامي. بنية واحدة.

وتضيق الحلقات الاجتماعية للصحبة حول الرسول وتتسع، والرسول في مركزها كلها، فتذكر مرضعاته وإخوته في الرضاعة[4]. كان للرسول موالي[5]. منهم سلمان الذي

---

(١) مقصد الشمائل ص٤٦٤-٤٦٧، «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»، «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»، ص٤٦٥.

(٢) «لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فرج عن مسلم كربه فرج الله عنه كربه من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»، «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، وإتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»، مقصد الشمائل ص٤٦٨-٤٧٠.

(٣) «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»، «المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى يمينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»، ص٤٧٢، «من نفس عن مؤمن كربه من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربه من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه»، معين الشمائل ص٤٧١-٤٧٤.

(٤) بهجة المحافل ص٤٠٥.

(٥) وهم أربع وعشرون «زيد بن حارثة، ثوبان، شُقران من أصل حبشي، أبو رافع، أبو بكرة، أبو الحمراء، سلمان الفارسي، هشام، راقد، أبو صفية، سفينة، أبو كبشة سليم، آنسة، رباح الأسود، أبو سلام الهاشمي، أبو عبيد، إياد، يسار، أبو ضميرة، ضميرة، مدعم، فضالة، أبو مويهبة، النبيه، أبو عسيب، أبو سلمى»، الجوهرة حـ٢/ ٨٣-٩١. خير العباد ص٦٣٩-٦٤٠، الإشارة ص٣٦٧-٣٨٠، الفصول ص٣١٩-٣٢٠، ألفية السيرة ص١٣٧-١٣٩، مواليه من الرجال والنساء، بهجة المحافل ص٤٠٦-٤٠٨، السيرة الحلبية ص٤٥٦-٤٥٧، السيرة النبوية (٢) ص٣٥٦-٣٦٧، النبي المختار ص٥٤-٥٥، سيرة المصطفى ص١٠٧-١١٢، عيون الأثر ص٤١٠-٤١١، الجوهرة حـ٢/ ٨٣-٩١، «حليف القوم منهم، وابن أخت القوم منهم، وموالي القوم منهم»، السابق ص٩١.

وصفه الرسول بأنه من آل البيت، وأنه لو كان العلم في الثريا لناله. وفي رواية أخرى الدين، حوالي واحد وستين. ولا يكفي رصد أسمائهم بل الكشف عن دلالاتهم، وهل الموالي جزء من الوحي وأدواته؟ وكان للرسول كتابه للوحي وللرسائل[1].

ومؤذنوه أربعة، لكل منهم طريقته في الأفراد والتثنية. وكان الرسول يؤم ولا يؤذن[2]. وكان له قضاته[3]. وأمراؤه حوالي ثلاثة عشر. منهم من أسلم من ملوك العجم، ومنهم ولاة الصدقات والحج. وتختلف الفرق فيهم بين أبي بكر وعلي. وأمناؤه من كان يستشيرهم، أشبه بوزراء اليوم[4]. ومن ولي السوق في زمانه هو ما سمي فيما بعد المحتسب. ويختص بالمسائل المالية والاقتصادية، أشبه بوزير التموين اليوم[5]. ورسله إلى الملوك والآفاق أشبه بالسفراء[6]. وحراسه في غزواته أشبه بوزارة الدفاع[7]. وسيافه من كان يضرب الأعناق بين يديه بالرغم مما في ذلك من قسوة لا دخل لها في النبوة من

---

(١) الجوهرة حـ٢/ ٩٢، بينهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وعمرو بن العاص، وأبي بن كعب، وعبد الله بن الأرقم، والمغيرة بن شعبه، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت وكان أخصهم، وخالد بن سعيد بن العاصي وقيل إنه أول من كتب، خير العباد ص٦٤٠، الإشارة ص٤٠٢-٤٠٤، الفصول ص٣٢١-٣٢٥، ألفية السيرة ص١٢٣-١٢٥، بهجة المحافل ص٤١٥، السيرة الحلبية ص٤٥٧-٤٥٨، السيرة النبوية (٢)، ص٣٨١٠-٣٩٦، النبي المختار ص٥٥، عيون الأثر ص٤١٣-٤١٤، معين الشمائل ص١٠٥.

(٢) وهم أربعة: اثنان بالمدينة، بلال وعمرو بن كلثوم، وبقباء سعد القرط، وبمكة أبو محذورة، خير العباد ص٦٤٠-٦٤١، الفصول ص٢٢٥، السيرة الحلبية ص٤٦٠، النبي المختار ص٥٥، معين الشمائل ص١٠٥.

(٣) النبي المختار ص٥٦.

(٤) وكانت الولاية على اليمن وصنعاء وحضر موت وعدن والساحل ونجران وعمان وغيرها من الأقاليم، خير العباد ص٦٤١-٦٤٢، ألفية السيرة ص١٥١-١٥٢، نقباؤه ونجباؤه وحواريوه ونوابه وأمراؤه وكتابه، ومن جمع القرآن حفظا على عهده، النبي المختار ص٥٥-٥٦.

(٥) السيرة الدنية ص٤٥٩.

(٦) الفصول ص٣٢٦-٣٢٨، ألفية السيرة ص١٢٦-١٢٩، بهجة المحافل ص٤١٢-٤١٥.

(٧) ومنهم سعد بن معاذ حرسه يوم بدر حين نام في العريش، ومحمد بن مسلمة حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام حرسه يوم الخندق، وعباد بن بشر قائد الحرس، ثم صرفهم الرسول بعد نزول آية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، بهجة المحافل ص٤١١، السيرة الحلبية ص٤٥٨-٤٥٩، النبي المختار ص٥٦، عيون الأثر ص٤١٤، معين الشمائل ص١٠٢.

خير العباد. وكان أحدهم بمنزلة صاحب الشرطة من الأخير أي وزير الداخلية[١].

وشعراؤه وخطباؤه يبينون دور الشعر والخطابة في المعركة. بعضهم كان أشد من بعض على الكفار. وكان أحدهم يعيرهم بالكفر والشرك[٢]. وله حداته في السفر. فالفن عامة والغناء خاصة، في حياة الرسول كان له دور في نشر الدعوة والدفاع عنها على عكس من يحرمون الفن هذه الأيام. وكانوا مختلفين في حسن الصوت الذي كان يؤثر جماله في النساء[٣]. ومن كان يضحكه أشبه بالسامر فقد كان الرسول يضحك ويمزح مع أصحابه[٤]. وخدامه كانوا يقضون حاجته، حوالي ثمانية وثلاثون[٥]. وكانوا من الأحرار والعبيد على حد سواء. ومعظمهم من النساء، ومن غير مواليه. بعضهم من رواة أحاديثه. ومع ذلك هل خدم الرسول من الوحي أو أداته؟ وكان له صاحب النفقة والخاتم والسواك والنعل ومن كان يأذن عليه أي الحاجب[٦].

وقد تعني الصحبة المعاشرة[٧]. وتتضمن السلام واللقاء وتشميت العاطس، والدعاء للمتزوج وللمولود، وتسمية المولود، وإكرام الضيف. ولا تشمل الصحبة

---

(١) خير العباد ص٦٤٣، السيرة الحلبية ص٤٦٠، النبي المختار ص٥٦.

(٢) من الشعراء كعب بن مالك، عبد الله بن رواحه، حسان بن ثابت، خير العباد ص٦٤٣، السيرة الحلبية ص٤٥٩، النبي المختار ص٥٦، معين الشمائل ص١٠٦.

(٣) وقال الرسول لأحدهم وكان حسن الصوت: «أنجشة رويدا لا تكسر القوارير»، خير العباد ص٦٤٣-٦٤٤، معين للشمائل ص١٠٧.

(٤) السيرة الحلبية ص٤٥٩.

(٥) ومنهم: أنس بن مالك وكان يقضي حوائجه، وعبد الله بن مسعود صاحب نعله وسواكه، وعقبة بن عامر الجهني، صاحب بغلته، وأسلع بن شريك صاحب راحلته، وأيمن بن عبيد على مطهرته وحاجته، خير العباد ص٦٤٠، معين الشمائل ص١٠٠-١١٠، الإشارة ص٣٦١-٣٦٧، الفصول ص٣٢٠-٣٢١، ألفية السيرة ص١٣٤-١٣٦، خدمه من الأحرار، بهجة المحافل ص٤٠٩-٤١٠، السيرة الحلبية جـ٣/ ٤٥٥، السيرة النبوية (٢) ص٣٧٢-٣٨١، حسن خلقه مع الخدم، الأسوة الحسنة ص٤١٧-٤١٨، النبي المختار ص٥٤، سيرة المصطفى ص١٠٧-١١٢، عيون الأثر ص٤٠٧-٤٠٩، وكانوا عشرة من النساء: أميمة، بركة بنت ثعلبه، خولة، رزينه، ميمونة، بنت أبي عتبة، ميمونة بنت سعد، مارية جدة المثنى، مارية أم رباب، سلمى، الجوهرة جـ٢/ ٨١-٨٣.

(٦) كان بلال على نفقته، وآخر على خاتمه، وابن مسعود على سواكه ونعله، خير العباد ص٦٤٣.

(٧) «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فأنصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»، «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»، «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»، سيرة النبي ص٥٠١-٥١١.

جماعة اللقط والثرثرة وما سماه المعاصرون الرغي الذي يبعث على القيء، ويبث روح العدم في النفس[1]. وبداية المجلس بالسلام، وسلام الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير[2]. والاستئذان واجب[3]. والمصافحة ضرورية[4]. وتجب عيادة المريض، وشكر المعروف ومكافأته، وخدمة كل إنسان نفسه وغيره[5]. وكان عدد المسلمين حين وفاة الرسول ستين ألفا، ثلاثون ألفا في المدينة، وثلاثون ألفا في غيرها. وفي رواية مائة ألف، منهم أربعة آلاف صحابي[6].

ثامنًا ـ أدوات المحيط:

١- أشياء للاستعمال

وأول ما يحتاجه الرسول هو المسكن[7]. وهو مسكن متواضع في بنائه وأساسه لا زهر فيه. يستأذن داخله. فللبيوت حرمتها. أثاثه بسيط. لا يفرق عن بيوت الصحابة. فشر ما يذهب فيه المال هو البنيان الضخم كما يحدث في مدن الخليج تأسيا بمانهاتن،

(١) «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال له قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر ما كان في مجلسه ذلك»، السابق ص٥١١.

(٢) «إن أولى الناس بالله من بدؤهم بالسلام»، «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير»، «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم. فإذا أراد أن يقوم فليسلم. فليست الأولى بأحق من الآخرة»، عيون الأثر ص١٣٨.

(٣) «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع»، «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، «ارجع فقل السلام عليكم أأدخل؟»، سيرة النبي ص٥٠٤، أدبه في الاستئذان على الناس، الأسوة الحسنة ص٤٥٥-٤٥٧، «لو علمت أنك تنظر لطعنت بها في عينيك»، «إنما جعل الإذن قبل الإبصار»، معين الشمائل ص٣٧٨-٣٩٨.

(٤) «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يتفرقا»، «تصافحوا يذهب الغل من قلوبكم، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء»، «إذا التقا المسلمان فتصافحا وحمد الله واستغفرا غفر الله تعالى لهما»، سيرة النبي ص٥٠٤-٥٠٥.

(٥) «من عادى مريضا نادى مناد من السماء طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا»، «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، «من صُنع إليه معروف فليجزه فإن لم يجد ما يجزه فليثن عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره»، معين الشمائل ص٣٤٠-٣٤٦.

(٦) الفصول ص٣٦٤.

(٧) «إن شر ما ذهب فيه مال المسلمين البنيان»، «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير»، «نظفوا فنيتكم، ولا تشبهوا اليهود»، «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين»، معين الشمائل ص٣٧٨-٣٩٨.

وإنفاقا لأموال النفط. وتعويضا عن نقص الصحراء المنبسطة الممتدة في الأفق. فالسماء خير من الأرض. والمغالاة في الإنفاق في الواجهات معارض للبناء بالحجارة والطين. ولا توضع تصاوير في المساكن خشية من العودة إلى عبادة الأوثان أو الوقوع في التجسيم والتشبيه كما يفعل اليهود والنصارى.

وكان فراشه ووساده ولحافه وقطيفته من جلد حشوه ليف[1]. ينام عليه راقا واحدا دون ثنيه حتى لا يشعر به وثيرا. له ملحف يدور بين نسائه. وجعلت في قبره قطيفة حمراء. وله خمرة وحصير للصلاة عليه[2]. تناوله إياه عائشة وهي حائض. فالحيض ليس في اليد. وطلب من الناس أخذ ما يطيقون من الأعمال[3]. وكان الحصير يعلّم في جنب الرسول وعمر يبكي[4].

وكان قدح الرسول من خشب غليظ مضبب بحديد. يشرب ويتوضأ فيه. شرب فيه الماء واللبن والنبيذ والعسل والسويق. وبعد أن انكسر لم يتم استبداله بآخر من فضة حتى ولو كان هدية من حاكم الإسكندرية. وكان أحيانا ينبذ له في حلبه شاة بعد دبغه. وكان هو وعائشة يغتسلان من إناء واحد، قدح يقال له الغرق. ويستعملان معا المركن. له قصدة يحملها أربعة رجال يقال لها الغراء. وله جفنه لها أربع حَلق[5].

ومن أدوات تزينه المشط والمرآة والسواك والمقص والمكحلة[6]. ينظر في المرآة وهو محرم ويحمد الله على حسن خلقه[7]. ويسأل تحسين الخُلق بعد تحسين الخَلْق مما يدل على

---

(١) الأنوار حـ٢/ ٥٥٣-٥٦٠، خير العباد ص٦٥٦، في صفة فراشة وما يناسبه، شمائل الرسول ص١٢٠-١٢٣.

(٢) الأنوار حـ٢/ ٥٦٠-٥٦٥.

(٣) «يأيها الناس، خذو من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»، السابق ص٥٦٣ - ٥٦٤.

(٤) «ما يبكيك يا ابن الخطاب...، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا»، السابق ص٥٦٤-٥٦٥.

(٥) الأنوار حـ٢/ ٦٥٤-٦٦١، ألفية السيرة ص١٤٧، بهجة المحافل ص٤٢٤، شمائل النبي ص١٢٠، «إن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا، ولا يكشف إناء»، «ولا تشربوا في آنية من الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»، معين الشمائل ص٣٧٨-٣٩٨.

(٦) الأنوار حـ٢/ ٦٨٥-٦٨٨.

(٧) «الحمد لله الذي حَسن خلقي وخلقي وزان مني ما شأن من غيري»، «الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله،

العلاقة بين الخلق والأخلاق. يكره أن يتلصص عليه أحد من الباب ليراه ومن يفعل ذلك يستحق الطعن في عينيه. فالأذن قبل البصر[1]. وللرسول مكحلة يكتحل منه[2]. فالاكتحال يجلو البصر وينبت الشعر[3]. ثلاث مرات في كل عين قبل النوم. وفي رواية ثلاثا في اليمين واثنين في اليسرى.

وكان للرسول خفافه وجبابه[4]. الخفاف أربعة أزواج من نوع، وخفان من نوع آخر، وأقداح متنوعة، وركوة، وقصعة، وسرير، وعمامة، ورداء، وفراش حشوه ليف، وصاع وكساء وقصب، وله ملبوساته[5]. والبياض أفضل لون، ومع ذلك في الحفلات المسائية الآن السواد أفضل لون على الجسد الأبيض، وعليه اللؤلؤ الساطع في الأذنين والجيد والمعصمين وتحت الأنوار الخاطفة أو العاكسة أو الخافتة.

وللرسول قبة تركية من جلد على بابها حصير لتحميه من المطر[6]. تحتها يقسم بين الناس. وقد شعر الأنصار بالغبن[7]. فالرسول يُعطى حديثي العهد بالكفر، أما الأنصار فلهم الله ورسوله. موعدهم معه على الحوض، نصف أهل الجنة. وليس ثلثها أو نصفها[8]. والمنبر والكرسي والسرير تتعلق أيضا بالرسول. وهو كل ميراثه. تم التعامل معها وكأنها مقدسة تستحق التقبيل واللمس وأخذ البركة. وتذكر رواية شفقة

وكرم صدرة وجهي وحَسنها وجعلني من المسلمين»، السابق ص٦٨٧، «اللهم حسّنت خلقي فحسن خُلقي»، السابق ص٦٨٨ .

(١) «لو أعلم أنك تنظر في لطعنت به في عينك...إنما جعل الأذن من قبل البصر»، السابق ص٦٨٨.

(٢) السابق ص٦٨٩-٦٩٠.

(٣) «اكتحلوا بالاثمد فإنه يجلوا البصر وينبت الشعر»، السابق ص٦٨٩، ألفية السيرة ص٩١-٩٢.

(٤) الإشارة ص٣٩٥-٣٠١.

(٥) «ألبسوا البياض فإنها أكبر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم»، بهجة المحافل ص٤٢٣، «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج»، معين الشمائل ص٣٧٨-٣٩٨.

(٦) الأنوار جـ٢/ ٥٦٩-٥٧٢.

(٧) «ما كان من حديث بلغني عنكم...إني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رجالكم برسول الله؟. فو الله ما تنقلبون به خير ما ينقلبون به... إنكم سترون بعدي أثره شديدة.. فاصبرو حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض»، السابق ص٥٧١.

(٨) «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة... ثلث أهل الجنة... والذي نفس محمد بيده إني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»، السابق ص٥٧٢، ألفية السيرة ص٩٠-٩١.

عمر بالرسول من أثر الحصير في جنبه ورد الرسول عليه بالرضا بالآخرة وللآخرين الدنيا[1].

وله رمحه وسيفه وقوسه ونبله جزءًا من شخصيته. وقد تناقلتها الأجيال باعتبارها بركات من الرسول. ويوجد في كل مسجد في الهند وباكستان نماذج منها. يحيط بها المصلون وكأنهم في متحف. وسيف الرسول من فضة. والرسول يرفض التعامل مع الفضة والذهب. وهل السيف من فضة في مثل قوة السيف من الصلب أو الفولاذ[2]؟ وهل كان في نبله التي رميت في أحد قوة خاصة؟[3]. وله تسعة أسياف، ولكل اسم يدل على وظيفته مثل البتار. منها ما ورثه عن أبيه. ومنها ما كان تصنيعه من فضة. ومنها ما رأى فيه رؤية. ودخل مكة متقلدا سيفا ذهبا وفضة وهو يدل أيضا على طريقة تقلده. وله ست قس لكل منها اسم، وله جعبة، ومنطقة وترس وخمسة أرماح، ومغفر من حديد، وثلاث جباب يلبسها للحرب، وراية سوداء، وألوية بيضاء. وله فسطاط، وقدح وقصعة[4]. ومن آلاته الدفاعية المغفر (الخوذة)، والدرع والترس[5]. فدخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر مثل القواد القدامى. وأمر بقتل من تعلق بأستار الكعبة. ويأخذ المقاتلون من هذه الآلات الدفاعية للدفاع عنه بها إذا ما حمي الوطيس واقترب القتال منه لأن بها قوة زائدة. ويذهب الخيال الشعبي إلى أن درع الرسول كانت به حلقتان من فضة حتى تتميز عن باقي الدروع. وكانت له راية ولواء مثل باقي القواد، الراية سوداء واللواء أبيض. وعليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وهو مازال الشعار في بعض

(١) الأنوار حـ٢/ ٥٦٥-٥٦٨، بهجة المحافل ص٤٢٤، أثاثه، الأسوة الحسنة ص٤٨٥، سيرته في سائر البيوت ص٤٨٦، فراش الرسول، شمائل النبي ص١٨٤-١٨٥، الخصائص الكبرى حـ٢/ ١٥٠.

(٢) الأنوار حـ٢/ ٥٨١-٥٨٦، في صفة سلاحه، شمائل الرسول ص١٣٢-١٣٥، تسمية سلاحه ودوابه ومتاعه، ص١٣٦-١٤٠.

(٣) «ارم فداك أبي وأمي»، السابق ص٨٥.

(٤) خير العباد ص٦٤٤-٦٤٧، «آلاته الحربية، الرماح، القس، الأسياف، الأدراع»، الإشارة ص٣٩٠-٣٩٤، ألفية السيرة ص١٤٤-١٤٦، سلاحه، بهجة المحافل ص٤٢١، سلاحه، السيرة الحلبية حـ٣/ ٤٦١-٤٦٢، آثاره من خاتم وثياب وسلاح ومراكب، السيرة النبوية (٢) ص٣٩٧-٤٠٦، النبي المختار ص٥٦-٥٧، سيرة المصطفى ص١٠٧-١١٢، شمائل النبي ص٨٠-٨٣.

(٥) الأنوار حـ٢/ ٥٨٦-٥٨٩، خير العباد ص٦٤٤، شمائل النبي ص٨٣-٨٤، سيرة النبي حـ٢/ ١٦٣.

الأعلام للدول المعاصرة[1]. وخاتمه كان يختم به رسائل القياصرة والملوك. ويوصف نوعه ونقشه والأصبع الذي فيه[2]. النقش بنقش خاتمه[3].

وله أيضا خيله وسرجه[4]. والخيل ليست خاصة به بل الخيل في الحرب[5]. وأحب شيء للرسول بعد النساء الخيل خاصة الأشقر الأغر الأدهم المحجل في الشق الأيمن. وكره الشكال (ثلاث قوائم) اللحيف. واسم فرسه المرتجز. وبغلته البيضاء دلدل، وحماره عفير. ودرعه ذات الفضول. وهل خيل الرسول جزء من الوحي؟ ألم يكن له من البقر شيئا؟[6]. بل له بغلة وحمار[7]. وقد رمي الكفار بحصيات وهو على بغلته وقال «انهزموا ورب محمد»، وكان يبلغ رسالته وهو على حمار كما فعل المسيح داخل القدس[8]. وحمار الرسول أطيب ريحا عند أحد الأنصار دفاعا عنه. وللرسول ناقة وهي العَضباء[9]. وهي لا تسبق. ولما سبقها أعرابي أخذها الرسول مناسبة للإعلان عن قانون النهضة والسقوط[10]. وله مائة شاة كلما ولدت شاة ذبح مكانها شاة حتى

---

(١) الأنوار حـ٢/ ٥٨٩-٥٩٢، خير العباد ص٦٤٥.

(٢) ألفية السيرة ص٨٩-٩٠، بهجة المحافل ص٤٢٣، الأسوة الحسنة ص٤٨٠-٤٨١، شمائل النبي ص٧٤-٨٠، الخصائص الكبرى حـ٢/ ١٤٩-١٥٠، في صفة خاتمة، شمائل الرسول ص١٢٤-١٢٧.

(٣) «إنا قد اصطنعنا خاتما، ونقشنا فيه نقشا فلا ينقش عليه أحد»، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٥٤٥.

(٤) الأنوار حـ٢/ ٥٩٤-٥٩٩، خير العباد ص٦٤٧-٦٤٨، الجوهرة حـ٢/ ٩١-٩٢.

(٥) «الخيل معقود في نواصيها الخير»، السابق ص٥٩٤، الجوهرة حـ٢/ ٩١-٩٢، خير العباد ص٦٤٧-٦٤٨، الفصول ص٣٢٨-٣٢٩، دوابه وما كان له من الخيل والإبل والغنم، الإشارة ص٣٨٣-٣٨٥، ألفية السيرة ص١٤٠، في ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير، بهجة المحافل ص٤١٨.

(٦) في ذكر نعمه، بهجة المحافل ص٤٢٠-٤٢١، خيله وبغاله وحميره، السيرة الحلبية حـ٣/ ٤٦٣-٤٦٥، الأسوة الحسنة ص٤٨٧-٤٩٠، سباق الخيل ص٤٩٠-٤٩١، حيواناته، سيرة المصطفى ص١٠٧-١١٢، عيون الأثر ص٤٢٠-٤٢٣، سيرة النبي حـ٢/ ١٦٩-١٧٠.

(٧) الأنوار حـ٢/ ٥٩٩-٦٠٣، خير العباد ص٦٤٧.

(٨) «يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟... فإن من حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا»، فقلت أفلا أبشر الناس فقال «لا تبشرهم فيتكلوا»، السابق ص٦٠١، الإشارة ص٣٨٥-٣٨٨، الفصول ص٣٢٩، ألفية السيرة ص١٤١.

(٩) الأنوار حـ٢/ ٦٠٣-٦٠٧، خير العباد ص٣٤٨، الإشارة ص٣٨٩، الفصول ص٣٢٨-٣٣١.

(١٠) «إنه حق على الله عز وجل أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»، الأنوار ص٦٠٤، الفصول ص٣٢١، ألفية السيرة ص١٤٢، بهجة المحافل ص٤٢٠، الغنم، الأسوة الحسنة ص٤٩٢.

لا يزيد عددهن ولا ينقص. وله عنزة وربما سبع، وحربة وعصا وقضيب[1]. ينكت بالعنزة الأرض. ويتحدث على ضرورة العمل دون الاتكال[2]. يوصي بالسكينة دون إثارة الإبل للإسراع[3]. حك نخامة عرجون. ونبه على عدم البزق في القبلة لأنها وجه الله[4]. وفي يده قطفة جريد عندما طالبه مسيلمة بنصف ملكه فأجابه الرسول أنه لن يعطيه حتى هذه القطعة من الجريد[5]. وفي يده عود وهو يبشر بعض أصحابه بالجنة مثل أبي بكر، وعثمان، مع بلوى تصيبه[6]. وله دوابه من الخيل والبغال والحمير ونعمه، وغنمه. وله ديك ومنائح[7].

وقد بدأ تقديس الأشياء في حياة الرسول عندما أخذ أحد المسلمين عصا أعطاها إياه وتبرك بها وطلب أن تدفن معه لأن الرسول أخبره أن يتخصر بها في الجنة[8]. وقد يفرد قسم خاص لتركته بعد وفاته: الأرض، والدواب، والأسلحة، والآثار المباركة، ومسكنه الشريف، والحاضنة، والخدم. وتظهر الأدوات للاستعمال أيضا في الشمائل: الحلي، وخاتم النبوة، واللباس، والخاتم، والمغفر، والدرع، والخيل[9]. وظهرت عناصر التبرك بالأشياء في حياة الرسول عندما أهدت امرأة إلى النبي رداء فأعجب به أحد الجالسين فأعطاه الرسول له. ولما عاب الناس سلوكا أفصح لهم أنه أخذه تبركا ليدفن

---

(١) الأنوار حـ٢/ ٥٧٢-٥٨١.

(٢) «ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتب شقية أو سعيدة»، فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال «لا، ولكن اعملوا فكل ميسر، أما أهل الشقاء فيسيرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فيسيرون لعمل أهل السعادة»، السابق ص٥٧٤.

(٣) «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع»، السابق ص٥٧٦.

(٤) «أيكم يحب أن يُعرض الله عنه؟ إن أحدكم إذا قام يصلي فإن الله قبل وجهه فلا يبصق قبل جهة، ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره تحت رجله اليسرى، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هكذا»، السابق ص٥٧٦، بهجة المحافل ص٤١٨-٤٢٠، حيواناته، النبي المختار ص٥٦.

(٥) «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها. ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله»، السابق ص٥٧٨.

(٦) «افتح ويشره بالجنة»، «افتح ويشره بالجنة على بلوى تصيبه أو تكون»، السابق ص٥٧٩.

(٧) ألفية السيرة ص١٤٣.

(٨) محمد رسول الله حـ٢/ ٤٩.

(٩) سيرة النبي حـ٢/ ١٥٠-١٨١.

فيه[1]. آثاره مباركة، وشعره مبارك[2]. ويبدأ تقديس أشيائه التي تركها في موضوع ميراثه[3]. وأصبحت أدواته التي يستعملها جزءا من شخصه. تتحول بعدها في الدين الشعبي إلى مقدسات، يتبرك بها كما هو الحال مع رفات القديسين، ولباسه، وقميصه، وجبته، وإزاره ورداؤه، وبردته، وحبرته. وهي عادات عربية مازالت مستمرة حتى الآن ومميزة للباس العربي وللشخصية العربية. تظهر في الفن الشعبي كجزء من خصائص الشعوب، وكلها روايات. وليس من مصادرها أقوال مباشرة. منها ما هو مصنوع في شبه الجزيرة العربية، ومنها ما هو هدايا من الشام أو من اليمن. منها ما هو بسيط ومنها ما هو مكفوف بالديباج. ليس منها الحرير[4]. منها ما هو لون واحد ومنها ما هو مزركش بأعلام[5]. منها ما هو خفيف ومنها ما هو ثقيل بالرغم من حرارة الطقس[6]. بدأ التبرك بالحديث عن لباسه الذي مات فيه وكفنه وموضع دفنه وحفر قبره، والقطيفة التي وُضع فيها، وصفة القبر[7] ورش الماء عليه كما هو جار حاليا في زيارة المقابر من «التربّية» لكسب المال من أهال المتوفي[8].

وتركة النبي هي الأشياء التي تركها وراءه لاستعماله الخاص. بدأ التبرك بها وكأن لها دلاله أو قيمة خاصة. وتنوعها من الشام واليمن وعُمان تدل على وحدة اللباس العربي. وهي التي تتناثر في كل مسجد خاصة بالهند وأواسط آسيا، بما في ذلك شعر الرسول.

---

(١) السابق حـ٢/ ٢٤٤، حـ٦/ ٢٦١.

(٢) السابق حـ٢/ ١٥٤/ ١٦٠.

(٣) «ميراثه، السيرة النبوية ص٣٢٥-٣٢٩، «كل مال نبي صدقة إلا ما أطعمه، إنا لا يورث»، «لا يقسم ورثتي دينارا ولا درهما، ما تركت بعد نفقته نسائي ومؤونة عاملي فهو صدقة»، شمائل النبي ص٢١٨-٢٢١.

(٤) الأنوار حـ٢/ ٥١٢/ ٥٢٧.

(٥) «لا ينبغي هذا للمتقين»، السابق ص٥٢٠.

(٦) «اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانية أبي جهم فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي»، السابق ص٥٢٠.

(٧) «إذا وزنت فأرجح»، السابق ص٥٢٢، ومن الأدوات اللباس والقميص والجبة والإزار، والرداء والبردة، ولبس الصوف، ولبس الجديد، والعمامة، والقلنسوة، والخاتم، والخف، والنعل، والفراش، والوسادة، واللحاف، والقطيفة، والخمير، والحصيرة، والمنبر والكرسي والسرير، والقبة، والعنزة، والحربة والعصا، والقضيب، والرمح والسيف والقوس والنبل، والمغفر والدرع والترس، والراية واللواء، والشعار في الحرب، والنخيل والسرج، والبغلة، والحمار، والناقة، والقدح.....الخ، خير العباد ص٦٤٩-٦٥٨.

(٨) وفاة الحبيب، ص١٣٧-١٣٨/ ١٤٨/ ١٥٤-١٦٢.

في كل مسجد شعرة دون سؤال كيف خرج شعره من الكفن وتناثر في كل مكان، مع سيف علي «البتار»[1]. وفي بيت عمر بن عبد العزيز آثار أخرى[2]. ولا يراعى وصف الأشياء ولا الرسول في القطيفة التي بها وسخ شعر الرسول. والرسول على ما هو معروف يراعي النظافة. وكلها صدقة وليست للتبرك كأوثان جديدة، وكلها روايات قد تصح وقد تخطئ، ويحكم على بعض الأحاديث بأنها غريب، وبعضها أحاديث غريبة ومشكلة[3].

٢- تقديس الأمكنة

ومع تقديس الأزمنة وتناقلها، البداية بالهجرة ثم خير القرون قرنه حتى تقع الفتن آخر الزمان، هناك أيضا قدسية الأماكن تبدأ من الحديث[4]. وهي الرحلات النبوية. قدم الشام مرتين. وهاجر من مكة إلى المدينة. فمكة المكرمة، والمدينة المنورة[5]. وتتفاضل الأمكنة مثل مكة كما تتفاضل الأزمنة. فمكة خير أرض الله وأحبها إليه. ولولا أن أُخرج منها الرسول ما خرج. حرمها الله. وأول بقعة وضعت في الأرض، موضع البيت. وأول جبل أبو قبيس[6].

---

(١) السابق ص١٧٨-١٨٢، هي: بغلته البيضاء، سلاحه، أرض جعلها صدقة لابن السبيل، عمامة، ثلاث قلانس صغار دون طيه وربما أربع، أحدهما بيضاء مضربة شامية، وثوبي حيرة، والقطيفة التي وضعت في القبر، وبردة يمنية صحراء، وإزار من نسج عمان، شبر، البردة يوم الجمعة والعيدين، ثوبان صحراويان، وقميص صحاري، والقميص الذي غسل فيه، وجبة خسراونية، وخميصة يمانية، وكساء أبيض، وملحقة مورسة، وخاتمه، وسريره، وبردتان، وجبة صوف، ودرع من حديد مرهونة عند يهودي، نعلاه، قدح غليظ، وقضيب من شمحط.

(٢) سرير مرمول بشريط، قعب لشرب الماء، جرة مكسورة من الرأس، وسادة من أدم محشوة بليف، قطيفة غراء فيها من وسخ شعر الرسول، وفاة الحبيب ص١٨٣-١٨٤، «ما تركته فهو صدقة».

(٣) قص شاربه وظفره وأخذ من لحيته الشريفة إذا صح الخبر وحلق رأسه، الأسوة الحسنة ص٤٨٣-٤٨٥، شمائل النبي ص١٣٤، عيون الأثر ص٤٢٧-٤٣١، ذكر الأسانيد التي وقعت من المصدقين التي أخرجتُ من كتبهم في هذا المجموع ما أخرجته، عيون الأثر ص٤٥٥-٤٦٠.

(٤) «بعثت من خير قرن بني آدم، قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه»، السيرة النبوية ص٢٠٣-٢٠٥ في شمائل الرسول ص٣٩، النبي الأعظم ص٢٥-٣٣.

(٥) «لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد»، الجوهرة حـ١/ ١٧٢، الفصول ص٣٣٨-٣٤٥، «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول، والمسجد الأقصى»، سيرة النبي ص٢٥٧.

(٦) «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجت»، «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة»،

والمدينة مثل مكة[1]. فالمدينة تأكل كل القرى أي تفوقها. تنفي الخبث من الناس. هي خير المدن. غبارها يشفي من الجزام. افتتحت سلما في حين افتتحت باقي المدن حربا. والموت بها لمن استطاع فضل عظيم. من مات فيها معتمرا أو حاجا دخل الجنة بلا حساب أو عقاب، ويشفع له الرسول، وهو من الآمنين يوم القيامة[2]. لا يكبد فيها أحد. تحرسها الملائكة حتى لا يدخلها الطاعون أو الدجال، المدينة فيها البركة، كأثر لها. ووقعت آيات أخرى عند بناء المسجد فيها مثل رفع الكعبة للرسول كنموذج له[3]. وصرف القبلة ووضع الأذان آيتان. إن شرف مكة والمدينة أنهما مهبط الوحي والتنزيل. في مكة ولد المصطفى، وفي المدينة وفاته[4].

وقد يكون المكان مسجدا بعينه مثل المسجد النبوي أو الحرم أو المسجد الأقصى[5]. ولا فرق بين مسجده وبيته، وقد تكون مجالس الوعظ والإرشاد، آدابها وأوقاتها، والمجالس

«أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مُدت من الأرض، وأن أول جبل وضعه الله عز وجل على وجه الأرض، أبو قبيس ثم مدت منه الجبال»، محمد رسول الله حـ١/ ٩٢-٩٣، مدح طيبة ص٢٣-٢٦، بهجة المحافل ص٥٠، «إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس»، ص٢٥١، ص٢٩٠، سيرة النبي ص٨٢-٩٥، «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض. فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة لا يُعضد شوكة ولا يُنفر صيده»، السابق ص٨٣، سيرة النبي ص٣٥٣-٣٥٧، نزهة الكرام في مدح طيبة والبيت الحرام، ص٢٣-٢٦، تفضيل بلديه على سائر البلاد وأن الدجال والطاعون لا يدخلها، ويفضل مسجده على سائر المساجد، وبأن البقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة والعرش، الخصائص الكبرى حـ٢/ ٤٢٤-٤٢٥.

(١) «أمرت بقرية تأكل القرى يقولون: يثرب، وهي المدينة تنفي الناس كما تنفي الكير خبث الحديد»، «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، «غبار المدينة شفاء من الجزام»، «كل البلاد افتتحت بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن»، «ما على الأرض بقعة أحب إليّ من أن يكون قبر بها منها»، «من مات في أحد الحرمين حاجا أو معتمرا بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب»، «بعث من الآمنين يوم القيامة»، بهجة المحافل ص٥٢-٥٤.

(٢) «إن الإيمان ليأزر كما تأزر الحية إلى حجرها»، «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون أو الدجال»، سيرة النبي ص٨٣-٨٥، فضل المدينة المنورة، السيرة النبوية ص٢٠٢-٢٠٣، خصائص الرسول ص٢٦٥.

(٣) «إن إبراهيم حرم مكة وأني حرمت المدينة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعى إبراهيم لمكة»، ص٤٢٠، «ما وضعت قبلة مسجدي هذا حتى رُفعت لي الكعبة فوضعتها أمها»، الخصائص الكبرى حـ١/ ٤٢٠-٤٢٤.

(٤) في شرف مكة، والمدينة لد مولده ونشأته ووفاته وهجرته، سيرة النبي ص٨١-٩٥.

(٥) بهجة المحافل ص٩٧، سيرة النبي ص٨٥، بهجة المحافل ص٤٢٢.

الخاصة بالنساء، وطريقة هديه وإرشاده ولقاؤه الناس بالبشاشة والبشر وتأثير صحبته على من يصحبه[1]. وقد يكون جبلا حتى ولو أثار في الذاكرة آلاما وأحزانا مثل جبل أحد. قد يكون الدافع تحويل التجربة من الحزن إلى الفرح، ومن الألم إلى السعادة ومن الكراهية إلى المحبة، ومن الهزيمة إلى النصر[2].

وهل صفة القبر من عناصر النبوة[3]؟ وهل زيارته توجب الشفاعة؟[4]. وكيف يتم التوفيق بين ذلك وعذاب القبر؟[5]. وكيف أن من زار قبر الرسول بعد وفاته فكأنما زاره في حياته، وأن ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة[6]؟ ألم يحرم الرسول اتخاذ قبور الأنبياء مساجد؟[7]. وهنا تظهر أهمية الوهابية التي حرمت زيارة قبور الأنبياء والأولياء بعد أن تحولت إلى أوثان قديمة وإلى أصنام جديدة. وتناقض كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية توجهات السيرة مثل النهي عن جعل القبور مساجد وفي نفس الوقت زيارة قبر النبي وتفصيل من دفن فيه وأوضاعهم[8]. فلا يتميز الرسول عن غيره من المسلمين. يحفر الخندق ويجمع الحطب مثلهم[9]. وقد يتحول تقديس المكان إلى زيارته، كحاج أو سائح أو بحب الاستطلاع. وتتحول إلى رحلة مسجلة كما هو الحال في

---

(١) سيرة النبي حـ٢/ ١٨٢-١٩٠.

(٢) «إن أحدا جبل يحبنا ونحبه»، محمد رسول الله حـ١/ ٣٣٤.

(٣) نموذج (١) قبر النبي
قبر الصديق قبر عمر
نموذج (٢) قبر النبي
قبر الصديق
قبر عمر
السيرة النبوية ص٣١٩-٣٢٢.

(٤) «من زار قبري، وجبت له شفاعتي»، وفاة الحبيب ص١٩٣، فيما ورد من الفضائل والبركات لقبره، بهجة المحافل ص٣٩١.

(٥) «عندما ماتت فاطمة أم علي قال الرسول بعد أن قام بدفنها: اضطجعت في قبرها لأخفف عنها من ضغطة القبر، وألبستها لتلبس من ثياب الجنة»، السابق ص١٨٧.

(٦) «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»، وفاة الحبيب ص٩٤، «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»، «ما بين حجرتي إلى منبري روضة من رياض الجنة، وإن منبري على ترعة من ترع الجنة»، «قوائم منبري رواتب في الجنة»، بهجة المحافل ص٢٧٨-٢٧٩.

(٧) «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، السابق ص٣٧٩.

(٨) «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، «لا تتخذوا قبري وثنا يُعبد»، الرحيق المختوم ص٤٦٥، سيرة النبي حـ٢/ ١٤٣.

(٩) «قد علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه»، السابق ص٤٨٦.

أدب الرحلات. وتقارن المدن القديمة بالمدن الحديثة، وتشهد بفضل آل سعود، تجمع بين قبر حمزة والمدينة الحديثة، وتسجل آثار مكة، غار حراء، وغار ثور، وطريق الطائف، وتستخرج دلالة، ضرورة الجمع بين الحياة المادية والحياة الروحية[1].

٣- الرسول بشر

وفي نفس الوقت تظهر بشرية النبي[2]. فهو بشر يبلغ رسالة[3]. لا يقوم بمعجزات يطلبها المشركون، تفجير ينبوع من الأرض أو تفجير أنهار في أرض بها جنة من نخيل وعنب أو إسقاط كسف من السماء، أو إحضار الله والملائكة تباعا أو وجود بيت من زخرف أو الرقي إلى السماء أو إنزال كتاب مقروء[4]. ورفض الرسول أن يُطلق عليه لقب السيد. فلا سيد إلا الله[5]. ورفض أن يسجد له كما يسجد للأعاجم فلا ملك إلا الله. والشمس والقمر آيتان من آيات الله. لا يخسفان لموت أحد. والرسول ليس ملكا بل ابن امرأة كانت تأكل القديد[6]. ولا يجوز السجود لقبره[7]. ويؤكد الرسول بشريته، ويرفض إطراءه كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم[8]. وكان الرسول يذكر

---

(١) وهو ما حدث في «منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل، ص١١٣-١٢٨/ ٣٦٤-٤٢٢/ ١٦٠-٣٠٠/ ٤٨٩-٤٩٨..

(٢) ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾، ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، دائرة معارف جـ٤/ ٨٣-٨٤.

(٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾، السابق جـ٤/ ٨٦-٨٧

(٤) ﴿وَقَالُوا لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾.

(٥) وأنا في السنة الرابعة بقسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة القاهرة، أكتب طلبا للعميد عام ١٩٥٦ لأعترض على إعطائي امتحان اللغة الألمانية من قسم الآثار وليس من قسم الفلسفة رفضت أن أكتب «السيد العميد» بل كتبت «الأخ الفاضل»، وأنا في ذروة انتسابي إلى الإخوان واضطهادهم منذ ١٩٥٤ بعد حل الجماعة. فحولت إلى مجلس تأديب تحت القبة من خمسة أساتذة. وصدر حكمي بالبراءة.

(٦) «السيد الله»، «الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»، سيرة النبي جـ٧/ ٧٥-٧٦.

(٧) «أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟»، السابق ص٨٢.

(٨) «لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم. فإنما أنا عبده. فقولوا عبد الله ورسوله»، السابق جـ٦/ ٦٤/ ٨٢-٨٩، بهجة المحافل ص٣٥٠-٣٥٤.

أصحابه دائما بأنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد حتى لا يخافوا منه ويعتبرونه ملكا مثل قيصر الروم أو كسرى فارس[1]. وقد خير الرسول بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا، فاختار أن يكون نبيا عبدا، دون ما حاجة إلى استشارة من جبريل[2]. وفضل أن يأكل كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد[3]. ولا يريد الرسول تجربة عيسى ابن مريم في إطرائه ثم عبادته ثم تأليهه[4]. ويرخص أن يجلس الملوك والناس وقوفا في الصلاة، وقوفا بوقوف الإمام، وقعودا بقعوده[5]. ورزق آل محمد مجرد قوت[6]. وهو خاتم الأنبياء وإن كان أقل من يونس بن متى[7].

الرسول مجرد شاهد ومبلغ ونذير وداع إلى الحق[8]. هو بشر مثل باقي البشر، يغضب ويؤذي. وقد يشتم ويلعن ويسب[9]. الرسول بشر يموت كما يموت سائر البشر وليس كما أراد أحد الصحابة تخليده أو بعثه كما بُعث عيسى ابن مريم أو لوراثة الإمام له[10].

وفي النهاية علم السيرة في التاريخ من الرسالة إلى الرسول من المولد والنشأة والجذور والإعلان والانتشار، والاكتمال والمصير، من النهاية إلى البداية حتى تشخيص الرسالة

(١) «هوّن عليك فلست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»، الأنوار حـ١/ ٣١٦.

(٢) «إن شئت نبيا عبدا وإن شيءت نبيا ملكا... قلت نبيا عبدا»، السابق ص٣١٧.

(٣) «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، السابق ص٣١٨.

(٤) «لا تطروني كم أطرت النصارى عيسى ابن مريم. إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، السابق ص٣٢٠.

(٥) «إن كدتم آنفا تفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا. ائتموا بأئمتكم، إن صلى قائما فصلوا قياما، وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا»، السابق ص٣٢١.

(٦) «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»، السابق ص٢٢٣.

(٧) «لاتخيروني على موسى»، «ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى»، «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»، «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى»، الشفا حـ١/ ٣٠٦-٣٠٧.

(٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ﴾.

(٩) «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فأجعلها له صلاة وزكاة، وقربة تقربه لها إليك يوم القيامة، وأجعل ذلك كفارة له إلى يوم القيامة»، «اللهم أني اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه. فإنما أنا بشر. فأيما المؤمنين آذيته أو شتمته أو لعنته فأجعلها له زكاة....»، غاية الرسول ص١٨٣-١٨٤.

(١٠) وذلك طبقا لقول أبي بكر الشهير «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، تذكيرا بآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

في شخص الرسول[1]. ويكون التحدي الآن في علم السيرة هو العودة من الرسول إلى الرسالة، ومن الشخص إلى المبدأ، ومن القاضي إلى القضية. وقد تكون أيضا محاولة للقضاء على عبادة الأشخاص من حياتنا الاجتماعية والسياسية.

٤- خاتمـــة:

النقد الذاتي جرت العادة البداية بالنقد الذاتي للجزء الأول الذي صدر على التو «علوم السيرة» وعنوانه الفرعي «من الرسول إلى الرسالة» من أجل العودة إلى الرسالة ضد تشخيصها في الرسول من أجل القضاء على «عبادة الأشخاص» في حياتنا، والالتزام بالمبادئ، «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». ولا يستطيع الباحث أن يدرك حدود عمله إلا بعد أن يتم مهما حاول طلب الكمال في البداية. فالكمال النظري قبل التحقق شيء والتحقق الفعلي بعد التصور النظري شيء آخر. وتتصور الأم أن وليدها في رحمها أكمل الأبناء جمالا وصحة. وبعد أن يولد تتضح عيوبه. وتم ذلك في نقد «من العقيدة إلى الثورة» في مقدمة «من النص إلى الواقع»، و«نقد النقل إلى الإبداع» في مقدمة «من النص إلى الواقع»، ونقد «من النص إلى الواقع» في مقدمة «من الفناء إلى البقاء»، ونقد «من الفناء إلى البقاء»، في مقدمة «من النقل إلى العقل»، الجزء الأول «علوم القرآن» من المحمول إلى الحامل، ونقد الجزء الأول «علوم القرآن» في مقدمة الجزء الثاني «علوم الحديث»[2]. ومع ذلك جرت العادة أيضا ولو على نحو أقل نقد العمل في نهايته كما حدث في «مقدمة علوم الاستغراب»[3]. وفي هذا الجزء الثالث «من النقل إلى العقل» عن علوم السيرة، «من الرسول إلى الرسالة»

---

(١) ويتضح ذلك من عدد صفحات الفصول، الأول: جذور الرسالة (؟؟)، الثاني: نشأة الرسالة (؟؟)، الثالث: إعلان الرسالة (؟؟)، الرابع: انتشار الرسالة (؟؟)، الخامس: اكتمال الرسالة (؟؟)، السادس: مصير الرسالة (؟؟)، السابع تشخيص الرسالة (؟؟).

(٢) من النقل إلى الإبداع جـ١، حـ١ التدوين ص٧-١٩، من النص إلى الواقع حـ١» من النقل إلى الإبداع» إلى «النص والواقع»، ص٥-١٧، من «الفناء إلى البقاء حـ١»، «من النص إلى الواقع» إلى «من الفناء والبقاء من النقل إلى العقل حـ١، علوم القرآن من المحمول إلى الحامل»، «من الفناء إلى البقاء إلى النقل والعقل»، ص٩-١٧. من النقل إلى العقل حـ٢ علوم الحديث «من نقد السند إلى نقد المتن»، من علوم القرآن إلى علوم الحديث ص٧-١٦.

(٣) مقدمة في علم الاستغراب، «النقد الذاتي وحدود العمر»، ص٧٧٨-٧٩١.

يأتي النقد الذاتي في نهايته أسوة بمقدمة في «علم الاستغراب» لصعوبة وجود خاتمة له لا تكرر ما قيل في المقدمة. ويمكن إيجاز حدود «علم السيرة» في الآتي:

١ – مازال القديم فيه طاغيا على الجديد كما هو الحال في الجزأين الأولين من «النقل إلى العقل»، «علوم القرآن»، «علوم الحديث». إذ يبدو أنه لا يمكن التخلص من سيطرة القديم. فالمشروع هو «التراث والتجديد»، أي كيف يخرج الجديد من القديم، والجنين من رحم الأم، والعصير من الفاكهة؟ فالقديم هو موضوع التحليل والحفر والاستقصاء. فلا نفط بلا حفر، ولا بئر في صحراء. ليست مهمة التراث والتجديد استخراج الجديد من لا شيء. فهذا أقرب إلى المقال الإعلامي لإثارة الانتباه، أو البحث العلمي، لإجراء النقاش بين متخصصين وغير متخصصين. الغاية منه وقتية وليست تاريخية، وربما أيضا إعلامية وليست علمية. إنما الغاية هو نفض الغبار عن القديم، وإجلاء صدئه عن معدنه البراق، وجمع حديده في النار حتى يُعاد طرقه طبقا لحاجات العصر حتى لا يترك وحده ويأتي بريق من الخارج فوق القديم لا يحركه ويقشع تحت ظله. «التراث والتجديد» هو الجمع بين الاثنين إضاءة المصباح المنطفئ الذي تركه القدماء إصلاحه أو تعديله أو إضافة الزيت إليه. الانشغال بالقديم بالتحليل والاستقصاء مجرد وسيلة لا غاية حتى يسهل إعادة التركيب على أسس عصرية جديدة. وربما يظل هذا العيب ملازما جميع أجزاء «التراث والتجديد»، يصغر أو يكبر. يصغر كما هو الحال في «من العقيدة إلى الثورة» حيث لم يأخذ إلا فصلا واحدا عن «تاريخ العلم» أو يكبر كما هو الحال في «من الفناء إلى البقاء» حيث شمل الجزء الأول كله عن «الوعي الموضوعي» و«من النص إلى الواقع» حيث ضم أيضا الجزء الأول كله «تكوين النص» في مقابل «بنية النص». كما استمر منهج مراجعة تراث القدماء في «من النقل إلى العقل»، الجزء الأول «علوم القرآن»، «من المحمول إلى الحامل» والثاني «علوم الحديث»، «من نقد السند إلى نقد المتن»، وعلوم السيرة «من الرسول إلى الرسالة» مرتين الأولى مراجعة أدبيات علم السيرة، والثانية مراجعة أدبيات علم الشمائل. كلها مصنفة في أنواع أدبية وليست في أعمال فلسفية للكشف عن جوانب الإبداع في التراث[1]. أليس من الأجدر دراسة العلم

---

(١) «من العقيدة إلى الثورة» حـ١، فصـ٢، «بناء العلم»، ص١٤١–٢٢٧.

بدلا من كتابة رسالة فيه مستمرة مع رسائل القدماء ومتجاوزة لها؟[1].[2].[3]. أليس من الأفضل تجاوز عرض الأدبيات السابقة ومراجعة القدماء والإحالة إليهم أثناء الدراسة الجديدة بدلا من عقد فصل خاص لهم يطول أو يقصر، يكمل أو ينقص، يفيد أو يضر؟ لماذا لا يتم التركيز على الجديد مباشرة، وتدوين كل ما يخطر بالذهن من ملاحظات على كتابات القدماء دون التعرض لها مباشرة وعرضها عرضا نقديا كمادة في ذاتها؟ حينئذ يقل حجم الدراسة. ويتحرر الجديد من سطوة القديم، ولا يتوه القراء ويتأرجحون بين القديم والجديد. يهتمون بالثمرة وليس بتطورها من البذرة حتى نضجها.

٢- آليات التخفي زائدة تمنع من رؤية الجديد بعد أن أثقله القديم، فالقارئ الحديث لم يعد لديه الوقت الكافي للقراءة الفاحصة، المتأنية الصابرة على رؤية التأويلات والتحديات والتفسيرات والقراءات الجديدة للقديم. يحتاج النص إلى القارئ الفاحص المتأني القادر على قراءة ما بين السطور بعيدا عن الفرقعات الإعلامية والشهرة الزائفة في وقت تُهود فيه القدس، ويُعتدى فيه على غزة، وتبنى فيه المستوطنات بحيث تبتلع أرض فلسطين كلها. فالثقافة العامة غير مستعدة بعد لتقبل الجديد نظرا لطغيان القديم عليها وتجزره فيها وإعطاء بنيته لها فأصبحت طاردة لكل جديد، ونافرة من كل بديل. والحقيقة أنه مهما كانت آليات التخفي زائدة، لا يظهر الجديد إلا بصعوبة فإن ذلك يؤدي إلى تفكيك القديم أكثر فأكثر حتى تعظم نسبة ظهور الجديد. وكلما زاد فك قيود الطير أمكن طيره بخفة أكثر وبسرعة أكثر. يكفي طرح السؤال، واستنفاد الإمكانية حتى ولو لم تكن هناك إجابة واضحة أو موقف جهوري صريح. فقد يحتاج إعادة بناء العلوم النقلية عدة أجيال. لا يكفي فيها صراخ إعلامي واحد بضرورة القبض على المتهم فتضيع القضية. ويُعزل صاحبها في الداخل أو في الخارج. وقد كان ديكارت متخفيا بأخلاقه المؤقتة ورسالته إلى علماء أصول الدين في بداية «التأملات» حتى

(١) «من الفناء إلى البقاء»، حـ١ «الوعي الموضوعي».

(٢) «من النص إلى الواقع»، حـ١ «تكوين النص»، ص٤١-٣٤٦.

(٣) «من النقل إلى العقل»، حـ١ «علوم القرآن» ص٣٧-٦٢، حـ٢ «علوم الحديث» ص١٦-١٣٢، حـ٣ «علوم السيرة»، الباب الأول: علم السيرة، الفصل الثاني: تدوين السيرة، الباب الخامس: تشخيص الرسالة، الفصل الأول: انحراف الرسالة.

أزاح اسبينوزا القناع وأسقط الأخلاق المؤقتة. فلا فرق بين اليقين في الرياضيات وفي الطبيعيات أي اليقين العلمي من ناحية واليقين في الحياة العملية، في الموضوعات التي تركها ديكارت خارج دائرة الشك، الدين والسياسة، الإيمان ونظم الحكم[1]. أليس من الأفضل الحديث بشجاعة أكبر وبوضوح أكثر خاصة وأن الكتابات غير المباشرة على مدى نصف قرن لم تنتج الكثير. إيقاعها بطيء. وسبقتها دراسات أكثر جرأة ووضوحا فتثير الأذهان خارج الجامعات وبالتالي يتحول العلم إلى نهضة، والبحث إلى تقدم، وتنتقل هموم الخاصة إلى هموم العامة[2].

٣- بالرغم من أن الهدف من إعادة بناء علوم السيرة هو التحول من الرسول إلى الرسالة إلا أن الرسالة ظهرت كما هو الحال عند القدماء من خلال حياة الرسول. هكذا كان الحال في نموذج ابن إسحق وابن هشام، الرسالة من خلال حياة الرسول بداية ووسطا ونهاية، من أحوال العرب قبل الإسلام والميلاد ثم البعثة ومكة ثم الهجرة إلى المدينة والغزوات ثم العودة إلى مكة والوفاة. حياة الرسول ليست مقصودة بذاتها بل مجرد حامل للرسالة وكاشف عنها. الرسول وسيلة والرسالة غاية وليس العكس كما هو الحال في الشمائل، الرسالة وسيلة والرسول غاية. أعلن عن الرسالة وانتشرت من خلال حياة الرسول. ونزل الوحي على الرسول. والهجرة من مكة إلى المدينة قام بها الرسول. والغزوات قادها الرسول . والفتح أتمه الرسول. إنما السؤال على أي محور يتم التركيز الرسالة أم الرسول؟ في الشمائل انقلب المحور كلية من الرسالة إلى الرسول. وأصبح جماله، ووجهه، وشعره، وجبينه، وباقي أجزاء جسده جزءا من الرسالة. كما أصبح طعامه، وشرابه، وآنيته، وقدحه، ونومه، واتكاؤه جزء من الرسالة. بل إن لباسه عمامته، وجبته، ونعله، وركبه من فرس، وبغال، وحمير جزءا من الرسالة. وأصبحت أزواجه ومواليه وخدمه أجزاء من الرسالة. فتضخم الرسول حتى شمل الرسالة واحتواها كما هو حادث حتى اليوم في أدعيته وذكره والاستغاثة به. ألا يوجد خوف من خروج القديم والجديد معا من هيجل لدى تلاميذه الهيجليين، ومن هوسرل عند

(١) اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ص٨-١٢.

(٢) وهذا ما فعله نصر حامد أبو زيد، خليل عبد الكريم، سيد القمني.

تلاميذه الوجوديين، ومن إقبال عند تلاميذه الرجعيين والتقدميين؟ ألا يحتاج الجديد إلى قطيعة مع القديم أكثر مما يحتاج إلى تواصل؟ الرهبة من القديم لسطوته، والخوف من الجديد لرهبته؟ وهل تؤدي الحلول الوسطية إلى نفس الدرجة من التقدم والنهضة كما تؤديها الحلول الجذرية. لم تنجح وسطية الأشاعرة في إحداث نهضة في حين نجحت جذرية ابن رشد في إحداث تقدم. فإلى أي حد يمكن الآن تجاوز تخطيط القدماء إلى تخطيط جديد حتى ولو كان الثمن هو الانقطاع والتضحية بالتواصل؟ ألا يوجد منطق طبيعي للأحداث وبناء عقلي للعلوم؟

٤- عدم الدقة في رصد الوقائع التاريخية والتعرف على الشخصيات ودقة الحوار بينها كما هو حادث في كتب التاريخ أو في تسجيل الأحاديث كما هو واقع في كتب الحديث. فهذه السيرة ليست فرعا أو جزءا من علم التاريخ. وليست صحيحا أو مسندا من كتب الأحاديث. هي تبدأ من التاريخ ولا تتوقف عنده. كما تعتمد على الحديث ولا تكتفي به. فالصدق ليس في المطابقة بين الرواية والوقائع التي ترويها بل في المطابقة بين متنها والتجربة المعاشة التي هي مصداق لها. فالوقائع حاملة لدلالات وليست الدلالات نفسها. فلا يهم اسم الشخص، ولا زمانه، ولا مكانه، أو اسم الواقعة، زمانها أو مكانها أو ترتيبها بل الدلالة المحمولة عليها. فالمنهج يتجاوز المنهج التاريخي الذي يرصد الوقائع، ويسجل أسماء الأشخاص، الأخبار والأموات، بل هو المنهج الشعوري الذي يعيش الواقعة كي يقتنص معناها. وقد خلطت السير القديمة إلا فيما ندر التي حاولت البحث عن المعاني والفوائد والدروس المستفادة بين المستويين. وتحولت السيرة إلى فرع من علم التاريخ الذي صدقه في مطابقة الرواية مع الواقع أو مع علم الحديث الذي صدق متنه في صحة سنده. ما هي العلاقة بين التاريخ والبنية، بين الواقع والدلالة؟ هل يمكن الإقلال من التاريخ إلى الحد الأقصى فالعلم في النهاية هو نسق نظري مكتف بذاته، له بنيته الداخلية؟

٥- عدم اقتناص الدلالات بما فيه الكفاية واستحالة تجنب الوقوع في بعض جوانب النزعة التاريخية. فالسيرة في النهاية تاريخ حتى وإن كان تاريخا حيا لأشخاص عظام كالأنبياء. والدلالات بلا تاريخ فلسفة نظرية خالصة ومذهب فكري خارج

الزمان والمكان. ومهما حاول كاتب السيرة الحديث تجاوز السير التاريخية عند القدماء والذهاب إلى دلالاتها تظل تفرض نفسها. فلا نهاية بلا بداية، ولا تجاوز بلا شيء يتم تجاوزه. ويصعب الأمر إذا كانت الوقائع الدالة معروفة إلى أقصى حد منذ نعومة الأظفار، من المدارس والمساجد والبرامج التليفزيونية والصحف والمجلات الدينية، مثل نزول الوحي أول مرة، وإسلام عمر، واستشهاد حمزة، والهجرة، والغزوات، والفتح. فقد أصبحت السيرة معروفة عند الجميع، القاصي والداني، الصغير والكبير، المتعلم والأمي. ومع ذلك يكفي الروح، والمنهج والغاية. تكفي النية والقصد، وهو التحول من الرسول إلى الرسالة من أجل القضاء على عبادة الأشخاص في حياتنا اليومية، الاجتماعية والسياسية. يكفي الكل حتى ولو غابت بعض الأجزاء أو طغى البعض الآخر. فالحفاظ على النسبة المتعادلة بين الوقائع والدلالات صعب للغاية. وربما لا وجود لمثل هذه النسبة. فالشعور يتردد بينهما، مرة في عالم الوقائع ومرة في عالم الدلالات. والآن ألا يمكن استنباط دلالات أخرى ودفعها إلى حدها الأقصى حتى ولو أدى ذلك إلى إصدار أحكام؟

٦- ربما كان يستحق «مصير الرسالة» مساحة أكبر. فكيف تغطي الرسالة خمسة فصول: جذور الرسالة، نشأة الرسالة، إعلان الرسالة، انتشار الرسالة، اكتمال الرسالة، على مدى نصف قرن أو يزيد هي حياة الرسول، ويغطي مصير الرسالة أربعة عشر قرنا منذ وفاة الرسول حتى الآن؟ والحقيقة أنه لو تم تشعيب مصير الرسالة لضم تاريخ الإسلام كله أو تاريخ الشعوب الإسلامية كما هو حادث في بعض كتب التاريخ العام حيث تبدو السيرة أحد فصولها الأولى[1]. يهدف مصير الرسالة فقط إلى بث روح الحزن عليها وعلى مآلها مقارنة بدايتها بنهايتها كما يفعل المصلحون، من الوحدة إلى التجزئة، ومن الشورى إلى الطغيان، ومن الخلافة إلى الملك، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الفتح إلى الاحتلال، ومن تحرير القدس إلى تهويدها، ومن الثراء إلى الفقر، ومن إبداع العلم

---

(١) وذلك مثل ابن الأثير: «الكامل في التاريخ»، البلاذري: «أنساب الأشراف»، ابن سعد: «كتاب الطبقات الكبير»، الطبري: «تاريخ الرسل والملوك»، علي جواد: «تاريخ العرب في الإسلام»، صالح أحمد العلي: «محاضرات في تاريخ الإسلام» ...إلخ.

إلى نقله، ومن الاعتماد على الذات إلى الاعتماد على الغير. فالهدف ليس هو التاريخ بل مقارنة مرحلتين، الماضي والحاضر، القدماء والمحدثين، السلف والخلف، أما إذا كانت الغاية البنية فإن التاريخ يبدو مكررا إذا ما تم كشفها، فالمعية الزمانية المحدودة قادرة على احتواء التوالي الزماني اللامحدود.

٧- الاعتماد على نموذج ابن إسحق، وابن هشام أكثر من اللازم. فما هو إلا نموذج ضمن نماذج كثيرة، بل ويمكن القول إن هذه السيرة ما هي إلا قراءة وتعليق وشرح لسيرة ابن هشام مع إضافات في الهوامش وإحالات إلى مصادر أخرى. والحقيقة أنه أقدم النماذج وأكثرها ثباتا على مسار التاريخ حتى ولو تجددت النماذج إلى نماذج أخرى. فتطور حياة الرسول، البداية والوسط والنهاية، تطور طبيعي يتفق مع أي سيرة. وهي سيرة موضوعية تتجنب وجهات النظر العقائدية، سنية أو شيعية. هي سيرة كلية شاملة تعتمد على الروايات والأحاديث. دخلت في معظم السير اللاحقة: ويحال إليها من جميع أصحاب السيرة، قدماء ومحدثين، مثل «أسباب النزول» للواحدي، و«الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي في علوم القرآن، و«الرسالة» للشافعي في علم أصول الفقه، و«إحياء علوم الدين» للغزالي في التصوف، و«الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي في علم الكلام، و«الشفاء» لابن سينا في الفلسفة. هو النص- العمدة، النص- النموذج، النص- الأصل الذي تعتمد عليه جميع السير الأخرى. ولا تعيب السيرة الجديدة أن تكون قراءة لابن هشام. فقد قدم ابن هشام الوقائع. وقرأت هذه السيرة الدلالات. والوقائع ليست لأحد، لا لابن هشام ولا لغيره. يرويها الرواة، كل بطريقته، اختصارا أم تطويلا، موضوعيا أم ذاتيا. أقدمها هو الأقرب لها قبل تدخل الأهواء والميول الشخصية. السؤال الآن. هل يمكن الخروج على بنية المؤسسين الأوائل لعلوم «الرسالة» للشافعي في علم أصول الفقه، و«الإبانة» أو «اللمع» للأشعري في علم أصول الدين، و«الشفاء» لابن سينا في علوم الحكمة، و«إحياء علوم الدين» للغزالي في التصوف، و«الإتقان» في علوم القرآن للسيوطي، و«الباعث الحثيث» في علم الحديث لابن كثير، و«سيرة» ابن هشام في علم السيرة؟ هل هناك نص مؤسس عمدة للعلم أم هناك عدة نصوص؟

٨- قلت تغطية السير المعاصرة إلى حد كبير على تنوعها قطريا ولغويا والتزاما بكتابة سير جديدة مخالفة لما كتب القدماء، والحقيقة أنه لا يمكن استيعاب كل السير المعاصرة منذ الحركة الإصلاحية الحديثة. فهذا ما ينوء به الحمل ذاتيا. وما يستحيل إحصاؤه موضوعيا. ومع ذلك تتكرر الدلالات مثل الرغبة في تحديث المناهج، وكثرة استعمال منهج التحليل النفسي لتحليل الشخصيات وعلاقات الصداقة والعداوة بينها. كما يكثر استعمال المنهج الأدبي. فالسيرة وسيلة للتعبير الأدبي بعد الانفعال بوقائعها، وبطبيعة شخصياتها، والرغبة في التأثير على القارئ، عن طريق الأسلوب. فكُتّاب السيرة أدباء ومنهم الشعراء. ومنها المنهج الاجتماعي، وضع السيرة في بيئتها الاجتماعية، والشخصيات في بيئتهم القبلية حتى يمكن فهم تحولاتهم العقائدية. وفي أحوال العرب قبل الإسلام يستعمل المنهج التاريخي لمعرفة وضع الحجاز قبل البعثة. وكيف أنها كانت ملتقى طريق القبائل، وكيف ظهرت الدعوة في قريش لما لها من سيادة وشرف على باقي القبائل، ومنها سندة الكعبة، رعايتها وحمايتها. كانت كتابة السيرة إحدى وسائل الجهاد للإعلان عنه من خلال الرسول. فينضم إليه الناس، ويخشى منه الاستعمار. ومع ذلك فما تم تحليله من نماذج قد يكفي في بيان أهداف الإصلاح وطرق التعبير عنه. والعينة المختارة تدل على الكل الإحصائي وتغني عنه. والسؤال الآن: هل يمكن إعطاء عناية أكثر لاجتهادات المعاصرين وبحوثهم التي حاولت القيام بنفس الجهد لتحقيق نفس الهدف؟ أليس من الأفضل مراجعة الأدبيات الحديثة التي يعرفها القلة مراجعة نقدية من مراجعة الأدبيات القديمة التي يعرفها الجميع حتى لو انتهت إلى رؤى جديدة تمهد لإعادة البناء؟

٩- ومع ذلك يظل السؤال قائما: هل تنفع هذه السيرة الجديدة في تحقيق أهدافها؟ هل تكفي إعادة كتابة السيرة للقضاء على عبادة الأشخاص في حياتنا العامة، والتحول من الشخص إلى المبدأ؟ ألا تثير غضبا عند الناس لأنهم قد تعودوا على تحويل الرسالة إلى الرسول، وأصبح الرسول مركز حياتهم، يعطي ويغيث ويشفع، ويشفي ويصل الأرحام، بكمية الأدعية التي تقال له؟ أليس أسهل على الناس تقديس الأشخاص وتعظيمهم وتبجيلهم بل وتأليههم من تمثل مبادئهم، واستئناف دعواتهم، والاستمرار في تحقيق رسالاتهم؟ لقد مات ماركس ولم تمت الماركسية، ومات هيجل ولم تمت

الهيجلية. لقد توفى مؤسسو المذاهب الكبرى وبقيت مذاهبهم حية على مر التاريخ. وهو معنى القول المشهور «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». الشخص يجسد المبدأ ولا يتجسد المبدأ في الشخص. ومع ذلك يحتاج الأمر إلى وقت طويل وعدة أجيال حتى يُعاد بناء الثقافة الشعبية من الشخص إلى المبدأ. ويتعود الناس على أن الأشخاص زائلون، والمبادئ باقية. يحتاج الأمر إلى جهد منذ التعليم في أوائل الصبا وعدم تقبيل الأيادي حتى لو كان للآباء أو للأمهات، وعدم القيام لأحد حتى لو كان للمدرسين والنظار، «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم لملوكهم»، والدعوات صغيرة في البداية، كبيرة في النهاية.

١٠- بالرغم من تسارع الإيقاع في إخراج أجزاء مشروع «التراث والتجديد»، من عشرات السنوات في الجزء الواحد إلى سنة واحدة إلا أن العمر أيضا يضيق ولم يعد فيه الكثير. وما فات أكثر مما هو آت. وما انقضى أقل بكثير مما قد يهل. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ومازالت باقي أجزاء العلوم النقلية لم يتم بناؤها بعد، علوم التفسير، وعلوم الفقه. ومازالت الجبهة الثانية «الموقف من الغرب» أو علم الاستغراب لم يتم تفصيلها بعد[1]. فالعقد قائم ولكن أحجاره الكريمة مازالت ناقصة[2]. والجبهة الثالثة لم تتم صياغتها بعد. «الموقف من الواقع» أو «نظرية التفسير». فلربما التركيز على الدلالات وحدها دون الوقائع، والجديد فقط دون القديم، والنفط فقط دون آليات الحفر وركامه ومخلفاته. ربما يضيع الملل من عرض القدماء بالاكتفاء بدلالات المحدثين فيتم الاستفادة بأكبر قدر ممكن في أصغر زمان متبق في هذه المرحلة من العمر، المرحلة الماسية[3].

(١) استغرق «من العقيدة إلى الثورة» سبعة عشر عاما، و«من النقل إلى الإبداع» اثنى عشر عاما، و«من النص إلى الواقع» أربعة أعوام، و«من الفناء إلى البقاء» عامين، و«من النقل إلى العقل» الجزء الأول «علوم القرآن» عاما واحد، والثاني «علوم الحديث» عاما آخر، والثالث «علوم السيرة» عاما واحدا.

(٢) وُضعت في العقد عدة أحجار مثل هوسرل، في «تأويل الظاهريات»، و«برجسون فيلسوف الحياة»، و«فشته فيلسوف المقاومة»، ومازالت باقي الأحجار الكريمة من «هيجل والهيجليين» وبعض فلاسفة الوجود الظاهراتيين حتى يكتمل العقد، وتتضح الصورة.

(٣) ١٩٣٥-٢٠١٠.

المصادر والمراجع

١. ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن إسحاق الحميري)(٢١٨هـ):سيرة النبي، حقق أصلها وضبط غرائبها وعلق عليها محمد محيي الدين عبد الحميد، في جزأين، مكتبة صبيح، مصر، (د. ت).

٢. ابن سعد (الحافظ محمد بن سعد بن منيع)، (٢٣٠هـ): سيرة النبي وأيامه، استخرجها، ورتبها وترجمها وضبط متنها أبو عبد الله، عبد السلام بن محمد بن عمر علوش، في جزأين، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٥م.

٣. ابن أبي شيبه (أبو بكر عبد الله بن محمد) (٢٣٥هـ): كتاب المغازي، درسه وحققه وخرج آثاره عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيليا، الطبعة الثانية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٤. البخاري (ابن عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن الأحنف الجعفي مولاهم) (٢٥٦هـ): المنتقى، روايه أبي عبد الله محمد بن يوسف. عنه رواية إلى محمد عبد الله بن أحمد حمويه الحموي السرطي. عنه روايه الإمام أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودي. عنه رواية أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب الهروي. عنه انتقاء ابن العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام ابن تيمية الحمراني الحنبلي، تحقيق عبد العزيز فيصل الراجحي، أضواء السلف، طبعة أولى، المملكة العربية السعودية ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٥. الترمذي (الإمام الحافظ ابن عيسى محمد بن عيسى) (٢٧٩هـ): شمائل النبي. حققه وخرج أحاديثه ماهر ياسين فحل، أشرف عليه وراجعه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس ٢٠٠٨م.

٦. الباقر والصادق والرضا والعسكري (٣٢٩هـ):تاريخ أهل البيت. تحقيق السيد محمد رضا الحسيني، الطبعة الأولى، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٧. البستي (ابن حاتم محمد بن أحمد التميمي) (٣٥٤هـ): السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، مؤسسة الكتب الثقافية، دار الفكر، في جزأين، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٨. ابن عبد البر النمري (الإمام الحافظ يوسف بن عبد الله) (٤٦٣هـ): سيرة الرسول المسمى الدرر في اختصار المغازي والسير، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٩. البغوي (الحسين بن مسعود البغوي) (٥١٦هـ): الأنوار في شمائل النبي المختار، حققه إبراهيم اليعقوبي، قدمه له محمد اليعقوبي، في جزأين، دار المكتبي، الطبعة الثالثة، سوريا ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٠. ابن عياض (القاضي عياض أبي الفضل بن موسى اليحصبي)(٥٤٤هـ):الشفا بتعريف حقوق المصطفى. تحقيق علي محمد البجاوي، في جزأين، مطبعة الحلبي، مصر، (د.ت).

١١. المقريظي (محمد بن سعيد بن معن اللحجي) (٥٧٦هـ): المستصفى في سنن المصطفى. عني به عبد اللطيف أحمد عبد اللطيف، قاسم محمد سعيد الحلبية، دار المنهاج، جدة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

١٢. ابن الجوزي(الإمام أبي الفرج عبد الرحمن)(٥٩٧هـ):الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى، في جزأين، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٣٨٦هـ،١٩٦٦م.

١٣. البرّي(محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني) (٦٨١هـ):الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، تحقيق وشرح محمد التونجي، الطبعة الأولى، في جزأين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١٤. اليعمري (ابن الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس) (٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغاري والشمائل والسير. حققه نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستر، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، جزآن، مكتبة دار التراث، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

١٥. ابن القيم الجوزية (٧٥١هـ): سيرة خير العباد، إعداد صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، طبعة أولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

١٦. ابن قليج (الحافظ مغلطاي) (٧٦٢هـ): الإشارة إلى سيرة المصطفى، حقق نصوصها وخرجها وعلق عليها محمد نظام الدين الضنيج، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، طبعة أولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

١٧. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): صحيح السيرة النبوية، بقلم محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧.

١٨. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): الفصول في سيرة الرسول، حققه وضبط أصوله، خرج أحاديثه وآثاره وعلق عليه أبو أسامه سليم بن عبد الهلالي السليقي، الطبعة العلمية الكاملة المحققه على ثلاث نسخ خطية، إحداها منقوله عن نسخه المصنف رحمة الله، جزأين في مجلد واحد، دار غراس، الكويت، طبعة ثانية ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م.

١٩. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): معجزات النبي، تحقيق مجدي محمد الشهاوي، عالم الكتب، طبعة أولى، بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٠. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي) (٧٧٤هـ): شمائل الرسول، المكتبة العصرية ٢٠٠٩م.

٢١. ابن الملقن (ابن حفص عمر بن علي الأنصاري) (٨٠٤هـ): غاية السول في خصائص الرسول، تحقيق وتخريج عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية، طبعة ثانية، بيروت ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٢٢. العراقي (زيد الدين عبد الرحيم بن الحسين) (٨٠٦هـ): ألفية السيرة النبوية، تحقيق وتعليق السيد محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار المنهاج، طبعة أولى، جدة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٢٣. ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحيم الحضرمي الأشبيلي المالكي) (٨٠٨هـ): السيرة النبوية، صححه وخرج أحاديثه أحمد البزرة، مكتبة المعارف، رياض، طبعة أولى، ١٩٩٨م.

٢٤. الآثاري (زين الدين شعبان بن محمد)(٨٢٨هـ): خمسة نصوص إسلامية نادرة في معجزات الرسول وفضائله وفضل الصلاة عليه، حررها وقدم لها هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، طبعة أولى، بيروت ١٩٩٠م.

٢٥. الدمشقي (ابن ناصر الدين) (محمد بن عبد الله بن محمد القيسي) (٨٤٢هـ): سلوة الكئيب بوفاه الحبيب، تحقيق ودراسه صالح يوسف معتوق، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي ٢٠٠٢م.

٢٦. العامري (يحيي بن أبي بكر بن محمد بن يحيي الحضري اليماني الشافعي) (٨٩٣هـ): بهجة المحافل وبغية الأماثل، عني به أبو حمزة أنور بن أبي بكر الشيخي، طبعة أولى، دار المنهاج، بيروت ٢٠٠٩م.

٢٧. السخاوي (محمد عبد الرحمن) (٩٠٢هـ): القول البديع. النص الكامل، قابله بأصل مصنفه وبأربعة أصول أخرى محمد عوان، دار اليسر، دار المنهاج، جدة ٢٠٠٧م.

٢٨. السخاوي (محمد عبد الرحمن) (٩٠٢هـ): استجلاب ارتقاء الغرف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف. دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠٠٩م.

٢٩. السهمودي (نور الدين علي بن أحمد) (٩١١هـ): وفاء الوفا. حققه ومفصله وعلق على حواش محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٥٥م.

٣٠. السيوطي (جلال الدين) (٩١١هـ): الخصائص النبوية الكبرى. تحقيق وتعليق حمزة النشرتي، الشيخ عبد الحفيظ فرغلي، عبد الحميد مصطفى. المكتبة القيمة، القاهرة ١٩٩٦م.

٣١. القسطلاني (أحمد بن محمد) (٩٢٣هـ): المواهب اللدنية، تحقيق صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ثانية، مزيده ومنقحة، أربع أجزاء، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٣٢. الحضري (محمد بن عر بحرق الشافعي) (٩٣٠هـ): سيرة النبي المختار، اعتنى بها، محمد غسان نصوح عزقول، دار المنهاج، طبعة ثانية، جدة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٣٣. الحلبي (أبو الفرج نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد الشافعي) (١٠٤٤هـ): السيرة الحلبية، ضبطه وصححه عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، أربعة أجزاء، بيروت ٢٠٠٨م.

٣٤. الصبان (الشيخ) (القرن الثاني عشر): إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل آل بيته الطاهرين (هامش نور الأبصار). دار الفكر، القاهرة ١١٨٥هـ.

٣٥. ابن عبد الوهاب (شيخ الإسلام محمد) (١٢٠٦هـ): مختصر سيرة الرسول. الفيصلية. (د.ت)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، حـ١/ ١٣٧٥هـ- ١٩٥٦م.

٣٦. الشنقيطي (أحمد البدوي الجلسي) (١٢٢٠هـ): إنارة الدجى في مغازي خير الورى. شرح القاضي حسن بن محمد المشاط، قدم له بدراسة عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، دار المنهاج، جدة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

٣٧. ابن عبد الوهاب (عبد الله الشيخ) (١٢٤٢هـ): خلاصة سيرة الرسول. الفيصلية (د.ت)، المطبعة السلفية ومكتبتها، الروضة بمصر ١٣٧٩هـ.

٣٨. الشبلجي (مؤمن بن حسن مؤن) (١٢٩٠هـ): نور الأبصار. دار الفكر، القاهرة ١١٨٥هـ..

٣٩. الطهطاوي (رفاعة رافع) (١٢٩٠هـ- ١٨٧٣م): نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز. حـ١، مطبعة المدارس الملكية، القاهرة ١٢٩١هـ.

٤٠. شبلي النعماني (١٣٣٣هـ- ١٩١٤م): دائرة المعارف في سيرة النبي. أكمله سيد سليمان الندوي، قدم له علي جمعة، ترجمة وكتب حواشيه يوسف عامر، طبع على نفقة حسن عباس زكي، في سبعة أجزاء ٢٠٠٥.

٤١. خان (مولانا الإمام الحنفي أحمد رضا) (١٣٤٠هـ- ١٩٢١م): محمد خاتم النبيين. ترجمة نعمان الأعظمي (منظر الإسلام)، دار البيان للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٢م.

٤٢. الحنفي (أحمد بطاطان) (١٣٤٠هـ): محمد خاتم النبيين. ترجمة منظر الإسلام نعمان الأعظمي، دار البيان ٢٠٠٢م.

٤٣. الخضري (محمد) (١٣٤٥هـ): نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. تحقيق وشرح نواف الجراح، دار صادر، بيروت٢٠٠٥م.

٤٤. النجار (محمد الطيب) (١٣٤٥هـ-١٩٢٦م): القبس الوضاء من سيرة خاتم الأنبياء. معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٤٥. أحمد تيمور باشا (العلامة المحقق المغفور له) (١٣٤٨هـ-١٩٢٩م): محمد رسول الله. قدم له العلامة المهندس أحمد عبده الشرباصي. عضو مجمع

اللغة العربية. راجعه وأعده للنشر عبد الصبور مرزوق، مدير إدارة التراث بدار الكتاب العربي، لجنة المؤلفات التيمورية، القاهرة حـ١/ ٣، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

٤٦. النبهاني (يوسف بن إسماعيل) (١٣٥٠هـ-١٩٣١م): وسائل الوصول إلى شمائل الرسول. عني به محمد نور عبد الرحمن كنجو، محمد غسان نصوح عزقول الحيني، دار المنهاج، جدة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٤٧. جبران خليل جبران (١٣٥٠هـــ-١٩٣١م): النبي. ترجمة موازية للنصين الإنجليزي والعربي، ثروت عكاشة، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٨م.

٤٨. محمد حسين هيكل (١٣٧٦هـ- ١٩٥٦م): في منزل الوحي، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦.

٤٩. محمد حسين هيكل (١٣٧٦هـ -١٩٥٦م): حياة محمد. المكتبة العصرية، بيروت١٤٣٥هـ، ٢٠٠٩.

٥٠. حسين (محمد الخضر) (١٣٧٨هـــ- ١٩٥٨م): محمد رسول الله وخاتم النبيين.

٥١. العقاد (عباس محمود) (١٣٨٤هـــ-١٩٦٤م): عبقرية محمد. كتب ثقافية، الدار القومية، القاهرة ١٩٥٩م.

٥٢. الأميني النجفي (عبد الحسين أحمد) (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م): النبي الأعظم، الإعداد والتحقيق محمد حسن الشفيعي الشاهرودي، مؤسسة ميراث النبوة.

٥٣. طه حسين (١٣٩٣هـــ-١٩٧٣): على هامش السيرة. دار المعارف، ثلاثة أجزاء، القاهرة ٢٠٠٤م.

٥٤. علي شريعتي (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م): سيماء محمد. دار الأمير، بيروت.

٥٥. علي شريعتي (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م): محمد خاتم النبيين، دار الأمير، بيروت.

٥٦. الندوي (أبو الحسن علي الحسني)(١٤٢٠هـ): السيرة النبوية، تقديم يوسف القرضاوي، دار القلم، دمشق ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٥٧. الشرقاوي (عبد الرحمن) (١٣٩٩هـ-١٩٧٨م): محمد رسول الحرية. دار الهلال، القاهرة ١٩٦٩.

٥٨. الألباني (١٤٢٠هـ): صحيح السيرة النبوية. ما صح من سيرة رسول الله وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه للحافظ بن كثير، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد، الرياض حـ١/ ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٥٩. الصاغرجي (أسعد محمد سعيد): الأسوة الحسنة، دار الكلم الطيب، دمشق، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦٠. الثعالبي (عبد العزيز) (١٣٦٤هـ-١٩٤٤م): معجز محمد رسول الله. تقديم ومراجعة محمد اليعلاوي، في جزأين ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦١. لوقا(نظمي) (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م):محمد الرسالة والرسول. الطبعة الأولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع ٢٠٠٦م.

٦٢. فتحي رضوان (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م): محمد الثائر الأعظم. كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩٤م.

٦٣. محمد أحمد خلف الله (١٤١٩هـ-١٩٩٩م): محمد والقوى المضادة، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٧٣.

٦٤. محمد السعيد: محمد رسول الله صفات الكمال البشري، نحو تأصيل الخطاب الديني، الكتاب الثاني، الدار الهندسية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦٥. خليل عبد الكريم (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م): فترة التكوين في حياة الصادق الأمين. ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة ٢٠٠١م.

٦٦. خليل عبد الكريم (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م): قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية. الانتشار العربي، بيروت حـ١/ ٢/ ١٩٩٧م.

٦٧. خليل عبد الكريم (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م): دولة يثرب، بصائر في علم الوفود. سينا للنشر، القاهرة، الانتشار العربي، بيروت ١٩٩٩م.

٦٨. الناصري(أحمد خضير محمود):روضة المحبين في الصلاة على سيد المرسلين، دار الحرية، بغداد، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

٦٩. خالد محمد خالد: معا على الطريق محمد والمسيح. دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٥٨م.

٧٠. الشامي (صالح أحمد): من معين الشمائل. المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٧١. عائشة عبد الرحمن: نساء النبي. دار المعارف، القاهرة ١٩٩٨م.

٧٢. عائشة عبد الرحمن: أم النبي. الشركة العربية، القاهرة ١٩٥٨م.

٧٣. العلي (إبراهيم): صحيح السيرة النبوية. تقديم عمر سليمان الأشقر، مراجعة همام سعيد، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧.

٧٤. النمري (يوسف بن عبد الله بن عبد البر): سيرة الرسول. تحقيق رضى فرج الهمامي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٧٥. الشنقيطي (عبد الله محمد بابا): محور رسالة الإسلام في سيرة سيد الأنام. دار عبد الله الشنقيطي، بيروت ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٧٦. أطفيش(الشيخ محمد بن يوسف):السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، المطابع العالمية، عمان ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٧٧. كنعان (محمد بن أحمد): السيرة النبوية والمعجزات. خلاصة تاريخ ابن كثير، مؤسسة المعارف، بيروت ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٧٨. كفوري (صفي الرحمن): الرحيق المختوم. دار المؤيد، جدة، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.

٧٩. الطرشان (محمد خير): الأيام والساعات الأخيرة في حياة الرسول محمد.، كتاب دمشق عاصمة الثقافة العربية، دراسة توثيقية معرفية متكاملة، مركز الناقد الثقافي، دمشق، ١٤٣٩هـ- ٢٠٠٨م.

٨٠. سيد القمني: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية. مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٦٦م.

٨١. سيد القمني: حروب دولة الرسول. (جزءان)، مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٦م.

٨٢. الصادق بن محمد بن إبراهيم: خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء، مكتبة دار المنهاج، جدة، ١٤٢٦هـ (دراسة).

٨٣. ٨٣. عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥، (دراسة).

صدر المؤلف

أولا ـ تحقيق وتقديم وتعليق:

١. أبو الحسين البصرى: المعتمد فى أصول الفقه، جـزءان: المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.

٢. الحكومة الإسلامية للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩.

٣. جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠.

ثانيا ـ إعداد وإشراف ونشر:

١. اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثا ـ ترجمة وتقديم وتعليق:

١. نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين، الإيمان باحثًا عن العقل لانسليم، الوجود والماهية لتوما الاكوينى)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢. اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

٣. لسنج: تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٤. جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

رابعا ـ مؤلفات بالعربية:

١. قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٧.

٢. قضايا معاصرة، الجزء الثانى، فى الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٨.

٣. التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧، مجد، بيروت ٢٠٠٠، ٢٠٠٢.

٤. دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

٥. من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات)، الطبعة الأولى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الثانية، المركز الثقافى العربى، بيروت ١٩٨٨.

٦. دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨، دار التنوير (قرطبة)، بيروت ١٩٩٠.

٧. الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢-١٩٨١)، (ثمانية أجزاء)، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩.

٨. حوار المشرق والمغرب، توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٠ (بالاشتراك مع محمد عابد الجابرى)، مدبولى، القاهرة ١٩٩١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥.

٩. مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١، مجد، بيروت ١٩٩٤، ٢٠٠٠، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٩.

١٠. هموم الفكر والوطن (جزءان)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، جـ١ التراث والعصر والحداثة، جـ٢ الفكر العربى المعاصر.

١١. الدين والثقافة والسياسة فى الوطن العربى، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

١٢. جمال الدين الأفغانى، المائوية الأولى (١٨٩٧-١٩٩٧)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.

١٣. حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

١٤. من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء)، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠-٢٠٠٢.

١٥. ما العولمة؟ دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٢.

١٦. النظر والعمل والمآزق الحضارى العربى والإسلامى الراهن، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٣.

١٧. فشته، فيلسوف المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة ٢٠٠٣.

١٨. من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، جـ١ تكوين النص، جـ٢ بنية النص، دار المدار الإسلامى، بيروت ٢٠٠٥.

١٩. حصـار الزمـن، الحاضـر (إشكـالات)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤.

٢٠. حصـار الزمـن، الحاضـر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤.

٢١. من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٤.

٢٢. جذور التسلط وآفاق الحرية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥.

٢٣. حصـــار الزمـــن، الماضى والمستقبل (علوم)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٥.

٢٤. برجسون، فيلسوف الحياة، المركز المصرى للمطبوعات، القاهرة ٢٠٠٨.

٢٥. نظريـــة الدوائـــر الثـــلاث، قراءة معاصرة بعد نصف قرن (جزءان)، دار العين للنشر ٢٠٠٨.

٢٦. عرب هذا الزمان، وطن بلا صاحب، دار الناقد الثقافى، دمشق ٢٠٠٨.

٢٧. الوحى والواقع، دار الناقد الثقافى، دمشق ٢٠٠٩.

٢٨. من الفناء إلى البقاء، محاولة لإعادة بناء علوم التصوف، جـ١ الوعى الموضوعى، جـ٢ الوعى الذاتى، دار المدار الإسلامى، بيروت ٢٠٠٩.

٢٩. محمد إقبال، فيلسوف الذاتية، دار المدار الإسلامى، بيروت ٢٠٠٩.

٣٠. من النقل إلى العقل، جـ١ علوم القرآن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

٣١. من النقل إلى العقل، جـ٢ علوم الحديث، دار الأمير، بيروت ٢٠١٠.

خامسا ـ مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

1. L’es Méthodes d>Exégèse، essai sur La science des Fondements de la Compréhension، ‘ilm usul al-Fiqh، le Caire، 1965.

2. LExégèse de la Phénoménologie، l’état actuel de la méthode phénoménologique، et son application au phénomène religieux (Paris، 1965). Le Caire، 1980. (Arabic Translation، Dar Al

Amer‹ Lebanon‹ 2010).

3. La Phénoménologie de L‹Exégèse‹ essai d‹une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament‹ (Paris‹ 1966). Le Caire‹ 1988. (Arabic Translation‹ Dar Al Amer‹ Lebanon‹ 2010).

4. Religious Dialogue and Revolution‹ essays on Judaism‹ Christianty and Islam‹ Anglo-Egyptian Bookshop‹ Cairo 1977.

5. Islam in the Modern World‹ 2 vols‹ I- Religion‹ Ideology and Development‹ II- Tradition‹ Revolution and Culture‹ Anglo-Egyptian Bookshop‹ Cairo 1995‹ Dar Keba'‹ Cairo 2000.

6. Cultures and Civilizations‹ conflict or Dialogue? 2 vols‹ I- The Meridian Thought‹ II- Cultural Creativity & Religious Dialogue Cairo‹ Book Center for Publishing‹ 2006.

د. حسن حنفى ــ الأعمال الكاملة

من النقل إلى العقل

الجزء الثالث ـ علوم السيرة

البـــاب الثاني ـ تأسيس الرسالة

الفصل الأول ـ جذور الرسالة

الفصل الثاني ـ نشأة الرسالة

الباب الثالث ـ بداية الرسالة

الفصل الأول ـ إعلان الرسالة

الفصل الثاني ـ انتشار الرسالة

الباب الرابع ـ نهاية الرسالة

الفصل الأول ـ اكتمال الرسالة

الفصل الثاني ـ مصير الرسالة

البـــاب الخامس ـ تشخيص الرسالة

الفصل الأول ـ انحراف الرسالة

الفصل الثاني - تشخيص الرسول